دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف
الرباط   المغرب الأقصى



العدد الرابع - السنة السادسة
شعبان 1382 - يناير 1963
ثمن العدد 1,50 درهم

ذاتية الإسلام أمام المذاهب والعقائد

للأستاذ: محمد المبارك

الاسلام فى العصر الحديث

مر الاسلام فى هذا العصر فى مراحل كان اولها ما يمكن ان نعنونه بعنوان (الاسلام فى قفص الاتهام) فقد وقف دعاة الاسلام فى القرن الماضي يدافعون عن الاسلام على أنه متهم فى قفص . فالاسلام كما يقولون ليس منافيا للرقي ولا مانعا من التقدم ولا معارضا للعلم والعمل . فكان الاسلام مجرم يراد أن يدافع عنه وهذا ما يلاحظ في المؤلفات الاسلامية التى الفها دعاة الاسلام منذ قرن فى كتابات محمد عبده وفريد وجدي واقرانهما . ثم جاء عهد آخر خرج الاسلام فيه من قفص الاتهام ولكنه اصبح يقاس بمقاييس غيره أو يقوم بقيم غير قيمه . فالاسلام صالح لانه مبني على (الديمقراطية) والاسلام يستحق البقاء والخلود لانه (متطور) والاسلام حسن لان فيه كذا وكذا من الافكار . وهذه الافكار والمباديء والقيم والمقاييس انما استعيرت من مذاهب أخرى فكان الاصل اننا نؤمن بمذاهب معينة هي فى خارج اطار الاسلام ثم نحاول بعد ذلك أن نقوم الاسلام بهذه القيم التي نستعيرها من تلك المذاهب على أنها قيم مسلم بها وعلى أنها منبثقة عن مذاهب نؤمن بها . هذا طور ثان مر به الاسلام ، ولا يزال الاسلام فى هذا العصر – اللهم الا فى بعض طلائع الوعي فى بعض البلاد الاسلامية – فى هذا الطور الذي يقاس فيه بمقاييس غيره . والمرحلة الثالثة وهي المرحلة التي بدات طلائعها فى رايي هي مرحلة الذاتية بالنسبة الى الاسلام . فللاسلام مقاييسه الخاصة ومعاييره الذاتية فهو ليس صالحا لانه موافق للديمقراطية او للاشتراكية او للراسمالية او لان فيه حرية فردية او لان فيه مصلحة الجماعة او لان فيه كذا وكذا الى غير ذلك من المفاهيم المنبثقة عن مذاهب اخرى . ان للاسلام مقاييسه فى الخير والشر والحق والباطل ولا نعني ان هذه المقاييس ليست لها جذور عقلية ترتد اليها ولكنها جذور ممتدة من دوحتها وفروع مشتقة من اصل شجرتها . تلك هي المرحلة التي بدات فى العصر الحاضر او بدات طلائعها فى عدد من المؤلفات القليلة وفى عدد من الرؤوس المفكرة في العالم الاسلامي . وهي المرحلة التي نتنبأ بأنها ستكون مرحلة الاسلام فى المستقبل القريب . ولابد لنا ان نعود القهقرى قليلا لنعرف السبب او العوامل التي اثرت فى تقويم الاسلام بهذه القيم وفى التباس مفاهيمه بمفاهيم غيره لاسيما ونحن فى اعقاب عصور ضعفنا فيها ثم التقينا بحضارة كانت فى اوج قوتها وعز نشاطها تلك هي الحضارة الاوربية الغربية الحديثة التي انبثقت هي نفسها من الوجهة المادية الى حد كبير من الحضارة الاسلامية فى جانبها المادى .

اوربا التي التقينا بها

ان اوربا التي التقينا بها هي اوربا القرن الثامن عشر والتاسع عشر واوربا فى هذين القرنين كانت في ظروف فكرية واجتماعية خاصة . وقد كانت تتميز بنواح ثلاث متلازمة اولها : **الثورة على الدين** فقد آل الامر بالمسيحية فى أوربا أن اصبحت غير منسجمة مع التطور الفكري والتفكير العلمي الذي انبثق اثر عصور النهضة فكان فى اوربا صراع ، صراع بين العلم والدين ، بين العقل والدين وكان هذا الصراع شديدا لاهبا . **والظاهرة الثانية** وهي لا تقل قيمة وخطورة عن الظاهرة الاولى فان الصناعة الكبرى اثر اختراع الآلة أدت الى نشوء طبقات جديدة وادت الى انفصال رأس المال عن العمل وكان من ذلك أن نشأت طبقة العمال ونشأت الحركة الاشتراكية لازالة ما كان يلحق تلك

العدد الرابع
السنة السادسة
شعبان 1382
يناير 1963
ثمن العدد 1,50

مجلة تصدرها
وزارة
عموم الأوقاف

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف . الرباط - المغرب

صورة الغلاف



قصبة الأودايه بمدينة الرباط ، ويبدو بجانبها مصب نهر ابو رقراق

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالـي :

مجلة ((**دعوة الحق**)) - قسم التحرير - وزارة عموم الاوقاف - الرباط - المغـرب .

الاشتراك العادي عـن سنـة 15 درهما ، والشرفي 30 درهمـا فـأكثـر .

السنه عشره اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

يدفع قيمه الاشتراك فى حسـاب :

مجله ((**دعوة الحق**)) رقم الحساب البريدي 55 - 485 - الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او يبعث رأسا فى حوالة بالعنوان التالي :

مجلة ((**دعوة الحق**)) - قسم التوزيع - وزارة عموم الاوقاف - الرباط - المغـرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافيه والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجله مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
فى كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :

((**دعوة الحق**)) - قسم التوزيع - وزارة عموم الاوقاف - الرباط
تليفـون 308.10 - 327.03 - الرباط

الاسلامي نوعان مزدوجان من التعليم : تعليم اسلامي ولكنه قديم بطريقته ووسائله ومستواه يعود الى القرون التي تلت العصور العباسية ، وتعليم مصدره اوربا وافكار اوربا والحضارة الاوربية الحديثة . وقد ادى ذلك في بعض الاحيان بسبب هذا الازدواج والتناقض وبسبب الازمة الفكرية النفسية التي حدثت في بعض الناس الى ظواهر غريبة او الى ظواهر من نوع معين كظاهرة تأويل كثير من احكام الاسلام تأويلا فيه كثير من المواربة والتعسف من اجل المطابقة بين الاسلام والمذاهب الاخرى ولكن على حساب الاسلام كما يقولون فكأنه يراد ان يشذب الاسلام ويقطع حتى يدخل في قارورة فمها ضيق ولو ادى ذلك الى ان تقطع منه يداه او رجلاه او جهاز من اجهزته العضوية الاساسية. ولا بأس ان اضرب على ذلك امثلة وهذه الامثلة اسمحوا لي أن اقول انها رأي شخصي لي ، وقد يكون غيرها اولى منها بالاستشهاد في هذا الموضع . فمن هذه الامثلة مسألة التماثيل . فان كثيرا من المتدينين يحاول ان يسوغها ويحللها ويروج لها في مجتمعنا الاسلامي الحديث ذلك لان اقامة التماثيل اصبح امرا شائعا بين الامم على اعتبار ان اقامة هذه التماثيل كان محرما لعلل وقد بطلت هذه العلل وزالت . ان هذا التفكير في رأيي باطل من أساسه لان الفكرة هي اعمق مما يظنه هؤلاء السطحيون ممن يريدون بهذه الطريقة الدفاع عن الاسلام . فاقامة التمثال له مغزى فلسفي عميق . ذلك ان الامة التي تقيم التمثال لبطل من أبطالها انما تجسد البطولة في شكل مادي ولو رجعنا الى العصور الاسلامية لوجدنا ان اعطاء الشخص في جسمه وفي ذاته قيمة عليا فكرة مردودة . فأعظم شخصية في الاسلام هي شخصية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذي يعتبر بشرا ولكنه فوق جميع البشر بصفاته وكماله . ومما لا شك فيه انه لم تخلد شخصية في التاريخ وفي خلال العصور في نفوس الناس وفي اذهانهم وفي الكتب والدراسات كما خلدت شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . فما هي الطريقة التي اختارها المسلمون لتخليده . لاشك اننا جميعا نعرف ان تخليد شخصية الرسول (ص) كان تخليدا معنويا خالصا وكان تخليدا أعظم واقوى من اي تخليد لاي شخصية كانت . ولا يزال يرن في اذني صوت لعجوز هندية في الباكستان في حديقة كراتشي في امسية من تلك الامسيات التي كنت فيها هناك أزور تلك الحديقة فسمعت هذه العجوز الجالسة على الارض تسأل الناس وتقول اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد ، فقلت عجبا لهذه المراة الهندية حفيدة المجوس وعباد الاوثان عجبا لهذه المراة التي لا تعرف العربية والتي يفصلها عن محمد عليه الصلاة والسلام آلاف الاميال في المكان ومئات السنين في الزمان كيف تنطق بلفظ عربي مبين باسم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتشيد بشخصيته .

وقد اقمت سنين في اوربا ، وكنت اشاهد في شوارع باريس وحدائقها كثيرا من التماثيل وأؤكد لكم أن كثيرا من الفرنسيين الذين كانوا يزاملونني في الدراسة كانوا مثلي لا يعرفون كثيرا من هذه التماثيل ولا معانيها ولا نواحي البطولة التي يمثلها اصحابها . ولو استعرضنا الامم لوجدنا ان تلك التي تقدس المادة وتتجه اتجاها ماديا هي التي تجسد البطولة في شكل مادي وهي التي تخلد الابطال في شكل تماثيل ، بل هي الامم التي كانت في الحقيقة قديما وثنية في اعتقادها وديانتها كاليونان والهنود وقد اخذت هذه الوثنية شكلا آخر من الاشكال الحديثة المدنية . فاليونان كانت اساطيرها تعج بالابطال والبطل لايتصور ان يكون بشرا في نظرهم لانهم اعجز من ان يتصوروا الانسان بطلا ، فاذا ما اصبح بطلا نقلوه من صف البشر الى صف الآلهة . واما المسلمون فانهم كانوا على خلاف ذلك فلو ذهبت اليوم الى اقصى حدود المغرب والى اقصى حدود الهند والصين ونطقت باسم علي او ابي بكر او باسم عمر او خالد لوجدت رنينا لهذه الالفاظ لا تجده ابدا لتمثال مقام في موسكو او في برلين او في باريس . فالقضية اذن ليست قضية تحليل التماثيل فالتماثيل محرمة في الاسلام لفلسفة عميقة هي اعمق بكثير مما يظن هؤلاء السطحيون من الذين يحسبون انهم يدافعون عن الاسلام .

ومن امثلة ذلك اليانصيب التي اعتبرها ظاهرة مغزاها العميق ان معين الاخلاق المنبثق عن الايمان قد نضب من القلوب وان الناس اصبحوا ماديين لا يهتمون الا بالمادة والربح والاغراء بالربح ولابد من اغرائهم بالربح حتى تأخذ منهم المال لعمل خيري . فاليانصيب مبني اذن على فكرة نضوب معين الاخلاق من القلب لا على اساس محاولة انبثاق الاخلاق من القلب والعاطفة والنفس في شكل تضحية حقيقية بل بشكل اغراء خسيس بالكسب . وهكذا كثير من هذه المشاكل التي اكتفى بضرب هذه الامثلة عليها مع انني اميز بين هذا النوع او هذه الظاهرة التي اسميها التعسف في التأويل وبين تكييف الحوادث والنوازل الجديدة التي

الطبقات من المظالم الاجتماعية ونشأت عن ذلك مفاهيم للحرية والديمقراطية والاشتراكية هي وليدة تلك الظروف التاريخية المحلية . **والظاهرة الثالثة** التنافس القومي فى اوربا فان التنافس بين شعوب اوربا وقومياتها ادى الى ردود فعل خاصة جعلت من القومية اساسا تدور الحياة حولها وعقيدة تبنى عليها الحياة السياسية والفكرية وتلك العقيدة انما نشأت فى ظروف معينة هي التي املتها ولم يملها منطق العقل او منطق الحقيقة . تلك هي أبرز الظواهر التي ظهرت فى أوربا حين التقينا بها . ونشأ بنتيجة ذلك فى ميادين الفكر والاقتصاد والسياسة أفكار متنوعة متعددة تأثرنا نحن بها . وعلى سبيل التمثيل اليكم بعض الامثلة لبعض الافكار التى اعتبرها وليدة هذه الظروف الخاصة فمن ذلك مثلا أفكار كثيرة تتعلق بالدين هي بنت تلك الظروف وتلك الحقبة من التاريخ وكثير من التعابير التي نستعملها اليوم ونستعيرها هي نتيجة تأثرنا من الحضارة التي انتقلت الينا فى تلك المرحلة وذلك كمشكلة **الصراع بين الدين والعلم** او بين الدين والعقل وهي وان كانت مشكلة قديمة لكنها لم تأخذ هذا الشكل العنيف الحاد ، وكذلك الازدواج فى التعليم بين ديني ومدني وتعبير رجال الدين . ولو نظرنا فى كتبنا القديمة فى العصر العباسي وما بعده وما قبله لما وجدنا مثل هذا التعبير الذي لم نعرفه العربية ولم يعرفه الاسلام من قبل . ومن ذلك فصل الحياة الى جزئين منفصلين، لا يكاد يحدث بينهما اتصال ، الدين والدنيا ، وفصل الدين بنتيجة ذلك عن المجتمع وعن الدولة بجعل الدين امرا شخصيا لا علاقة له بالحياة العامة وهذا ايضا من المفاهيم التي انتقلت الينا وادت الى مفهوم آخر هو مفهوم العلمانية ومعناه حياد الدولة وعدم تدخلها في شؤون الدين ، واللادينية ومعناها محاربة النزعة الدينية . ومن تلك المفاهيم ايضا **نسبية الاخلاق** وهي وليده ازمات خاصة بها اصطدمت فيها الاخلاق الدينية بالاخلاق الواقعية والاوضاع الاجتماعية والسياسية القديمة باوضاع ثورية جديدة ، بعد ان ثبتت تلك الاخلاق والاوضاع مدة طويلة . وهي ولا شك فكرة خاطئة بدليل ان كثيرا من الحقائق او الاحكام والقيم الخلقية لا تزال ثابتة منذ آلاف السنين كاستنكار الغصب والاضرار بالغير والزنى الذي لا تزال القوانين تحرمه فى اكثر بلاد العالم ولا يعبأ ببعض احوال المجتمعات التي تكون على خلاف ذلك لانها احوال مرضية شاذة واستحسان بعض المجتمعات فى بعض العصور الاستبداد والظلم لا تجعل منها امرا مستحسنا ولا تغير الحكم بكونهما شرا يجب مكافحته .

ومن هذه الافكار الخاطئة التي انتقلت الينا من المجتمع الاوربي بعد ان راجت فيه ظروف اجتماعية وفكرية خاصة اعتبار التطور قانونا اخلاقيا اي اعتبار كل طور جديد افضل من الطور الذي سبقه على الاطلاق مع ان التطور قانون اجتماعي واقعي ولا يقتضي مطلقا تفضيل الطور الاخير على الاطوار السابقة له . ان فكرة التطور الاجتماعي اخذت من فكرة التطور الحيوي (البيولوجي) والتطور فى الحياة يكون تحسنا وارتقاء وقد يكون ترديا وانتكاسا بل انقراضا .

فان اكثر المذاهب الفلسفية والاجتماعية فى اوربا تقول ان الاخلاق ليس لها مقاييس ثابتة ولا احكام ثابتة فلكل قوم اخلاقهم فقوم يرون ان شرب الخمر رذيلة وشر ، وغيرهم يرى فيها غير ذلك ، وبعضهم يرى ان الزنى شر ورذيلة ، وبعضهم يرى فيه اكراما للضيف فالفضيلة قضية نسبية وليس هنالك قواعد اخلاقية مطلقة وليس هنالك حقيقة اخلاقية مطلقة وانما الفضيلة نسبية ، فاختر اذن ما بدا لك وكلما تطور المجتمع نحو فكرة خلقية جديدة فهي الاخلاق التي يجب ان نتمسك بها . هذه الفكرة ايضا من الافكار التي اعتقد انها نتيجة من نتائج الظروف التي مرت بها اوربا .

ان هذا الغزو الفكري الذي غزينا به بنتيجة الالتقاء بين المجتمع الاسلامي والمجتمع الاوربي كان له تأثير عميق فى الفكر الاسلامي الحديث . حتى ان جمهرة الشعوب الاسلامية والطبقة المثقفة منهم خاصة بل غير المثقفة تأثرت بهذه الافكار سواء اولئك الذين يتنكرون للقيم الاسلامية واولئك الذين يقبلون الاسلام ويدينون به .

ازدواج الشخصية

فمن المسلمين — وهذه ظاهرة تلفت النظر — من هو مسلم فى شعائره ولكنه غير مسلم فى تفكيره بمعنى انه يتألف من شخصيتين مزدوجتين . فهو قد عاش فى بيئة اعتادت التدين فهو متدين ولكنه نشأ فى بيئة ليس لها من المفاهيم الفكرية الاسلامية ما يتناسب مع مستوى تفكيره فهو يفكر تفكيرا غير اسلامي اذا فكر فى شؤون الحياة سواء فى شؤون الحياة العامة الفكرية او الاجتماعية او الخلقية او السياسية او غير ذلك وهو فى حياته الخاصة يعتبر مسلما . هذا نوع من المخلوقات الفكرية او النفسية الجديدة فى عالمنا . وكان فى العالم

والانسان الذي يؤمن هذا الايمان ويعمل فى الحياة في هذا الطريق ليس هو الانسان الفرد بل هو الانسان الموجود فى اطار اجتماعي الذي يعيش فى مجتمع يحدد الاسلام اتجاهاته وصفاته وعلاقات افراده بعضهم ببعض ، ويعني به كذلك باعتباره مجتمعا او جماعة ، ويقيم له تشريعا تنسجم فيه مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة . فيقيم له نظاما اجتماعيا يكفل له هذا الرقي الانساني المادي والروحي ويشتمل هذا النظام الاجتماعي على نظام للحكم أساسه الشورى والمساواة والعدالة والمسؤولية، وعلى نظام اقتصادي مبني على العدالة من جهة وعلى التكافل الاجتماعي من جهة اخرى كما يشتمل على نظام للاسرة الخلية الطبيعة الاولى والبيئة التربوية لكل مجتمع سليم .

هذا المجتمع الذي ينظم الاسلام جوانب حياته السياسية والاقتصادية والاسرية فى سبيل سعادة الانسان وارتقائه يقوم على أسس اعتقادية خلقية تكون جذور نظامه واسس بنائه . فالتشريع الاسلامي بالاضافه الى موضوعيته وتنظيمه على اسس ظاهرة وضوابط موضوعة له جذور خلقية فى النفس واصول اعتقادية تغذيه وتمده وتدعم بناءه . فالتشريع غير منقطع الصلة بالاخلاق وان كان لكل منهما قواعد لا تلتبس بالاخرى ، وهذه الاخلاق ترتكز على نظرة الى الوجود او فلسفة شاملة او عقيدة كاملة .

وبذلك يتصل فى نظام الاسلام عقيدته او فلسفته واخلاقه وتشريعه الاجتماعي وتؤلف كلها وحدة متكاملة تقابل وحدة الحياة وهذه مزية هامة من مزايا الاسلام تميزه عن غيره من الانظمة الاخرى التي تعالج جانبا واحدا من جوانب الحياة او تعالجها منفصلة دون ان تنظر اليها على انها وحدة كاملة . ان الوحدة والتوازن والانسجام والشمول خصائص تميز نظام الاسلام من الانظمة الاخرى المادية منها والروحية الوضعية والدينية .

ضبط النسب فى نظام الاسلام

والى جانب خاصة الوحدة فى نظام الاسلام خاصة اخرى لا تقل عنها شأنا وهي ضبط النسب بين جوانب الحياة وقيمتها فالمال واللذة والعمل والعقل والمعرفة والقوة والعادة والقرابة والقومية والانسانية قيم من قيم الحياة ، والاسلام جعل لكل منها موضوعا فى نظام الحياة ونسبة محدودة لا تتجاوزها حتى لا تطغى قيمة على قيمة . وان من التشويه للاسلام تبديل هذه النسب بحيث تزاد عن حدها او تنقص بالنسبة الى غيرها كما حدث فعلا فى بعض العصور الاخيرة فان تغيير النسب فى نظام الحياة كتغير النسب فى التصوير الهزلي الذي يعطي من الانسان المعالم والمتشابه ولكن على وجه هزلي ساخر وكتغيير النسب فى أجزاء الدواء فقد يؤدي الى افساده وتغيير صفاته وخصائصه وربما انقلب الى مادة ضارة او سامة . فلو جعلنا الحياة مئة جزء لوجدنا أن الاسلام خص العبادة منها باجزاء وكذلك الانفاق والكسب والجهاد والتمتع باللذات المشروعة لكل منها نصيب محدود ولو غيرنا هذه النسب فقللنا قيمة الجهاد وزدنا فى نصيب العبادة وانتقصنا من حظ المال كسبا او انفاقا وغالينا فى الملذات او الغيناها لخرجنا من ذلك بنظام يخالف فى حقيقته وفى روحه نظام الاسلام واخللنا بالتوازن الذي اقامه بين قيم الحياة وجوانبها ، فالمسلم الكامل فى بعض العصور الاخيرة هو المنصرف الى العبادة بمعناها الضيق لا يشتغل بسواها ، المعتكف فى محرابه لا يبارحه ، الملتزم لاذكاره واوراده . ان هذه الصورة لا تشبه مطلقا الصورة التي كان عليها الرسول الكريم صلوات الله عليه واصحابه المقتدون به فلئن كانت العبادة جزءا أساسيا في حياتهم فان الجهاد كان مالئا لصفحاتهم ، الجهاد فى سبيل تحرير المجتمع من العقائد الفاسدة وترشيح العقائد الصحيحة وتحريره من ظلم الظالمين واستبداد المستبدين لحماية المستضعفين واقامة العدل بين الناس . وكذلك تكون حياة المسلم المنشغل بالجهاد والاصلاح الاجتماعي ناقصة مشوهة بالقياس الى الصورة الاسلامية الكاملة اذا كانت خالية من العبادة ضعيفة الصلة بالله .

وقد انتبه فقهاؤنا المتقدمون الى هذه الفكرة فكرة النسب فجعلوا ما يطلب من المسلم من الفرائض وغيرها متفاوتة فى قوة طلبها كما جعلوا الممنوعات والمحرمات مختلفة كذلك فى درجة منعها او حرمتها . فليس سواء فى الاثم ترك المجاهد المرابط فى صف الجهاد مكانه وفسحه المجال لدخول العدو وشرب الخمر او اكل لحم الخنزير مع ان كلا الامرين حرام . وتشير آيات واحاديث كثيرة الى هذه الفكرة كقوله تعالى : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا

ينبغي استنباط احكامها من الشريعة الاسلامية مما سأذكره بعد قليل .

تشويه المفاهيم الاسلامية

ان هذه الظاهرة ظاهرة تشويه المفاهيم الاسلامية بسبب الالتقاء بالحضارات الاخرى ليست جديدة في تاريخنا ففي تاريخنا القديم مثل ذلك . فقد التقينا بالفكر اليوناني وكان نتيجة الالتقاء ظواهر كثيرة كمسائل علم الكلام فلم تكن العقيدة الاسلامية وعلى الاصح الايمان الاسلامي — لان لفظ العقيدة كذلك حادث — في عهد الرسول (ص) والصحابة آخذا هذا الشكل الجدلي الفلسفي الذي اخذه في العصر العباسي

فقد كان الايمان — وهي الكلمة القرآنية — محتويا على معنى عقلي وعلى معنى نفسي عاطفي ملتبسين متداخلين كل التداخل في العهد الاول عهد ظهور الاسلام . واذا بنا نرى ان الاسلام يتشعب الى شعب ثلاث : شعبة تأخذ بمظاهر الاحكام والشعائر في العبادات والمعاملات . وفرع آخر يأخذ من الاسلام نواحي الاعتقاد العقلي وهو الكلام او العقيدة او علم التوحيد . وفرع آخر للاسلام يأخذ من نواحيه القلبية والخلقية وهو الاخلاق او الزهد او ما سمي بعد الصدر الاول بالتصوف . فاذا بالاسلام يتألف من شعب ثلاث ينفصل بعضها عن بعض : الفقه والكلام والاخلاق . ولا أقصد من هذا ان الفقهاء كلهم لم يكونوا ملمين بشيء من الكلام وان المتكلمين جميعهم لم يكونوا على شيء من الفقه وان الزهاد والوعاظ لم يكونوا يعنون بالفقه والعقائد ، ولكن كان يغلب على الرجل ان يكون متكلما او متفقها او زاهدا متصوفا وان كان بعضهم قد جمع هذه الجوانب كلها . واصبحت هذه الجوانب منفصلة بعضها عن بعض بعد ان كان الاسلام وحدة شاملة . وهذا يعطي عن الاسلام صورة جانبية ، فهنالك اسلام علم الكلام وهناك اسلام الاخلاق وهناك اسلام الفقه ، والاسلام هو الاسلام ليس الاسلام اسلام الكلام او الفقه او التصوف . والصورة الجانبية لا يمكن ان تعتبر صورة كاملة تامة في رأيي ولذلك فان في تشعب هذه النواحي وان كان فيه تسهيل من الناحية العلمية والدراسية تجزئة لحياة موحدة لا يحصل في اجزائها ما يحصل في تركيبها جملة واحدة . والاسلام الاول اسلام الصدر الاول من الصحابة الذين كانوا ملتفين حول الرسول (ص) يجمع هذه العناصر الثلاثة جمعا منسجما متوازنا حيويا . وعلى هذا فلا بد لنا اذن من ان نفصل الاسلام في ذاته عن فهم المسلمين للاسلام خلال العصور . فهنالك الاسلام في اصله وينبوعه في الكتاب والسنة في مصادره الاصلية ، وهنالك فهم المسلمين في كل عصر فقد يخطيء بعض المسلمين في فهم الاسلام في بعض العصور فذلك امر لا يعيب الاسلام في ذاته وفي مصادره الاصلية ولا في صورته الحقيقية . ولا شك ان الفهم الذي يمكن ان نعتبره اقرب التصوير الحقيقي للاسلام والذي نستأنس به نحن في فهم الاسلام هو فهم الصدر الاول اي فهم الصحابة والتابعين . ولست في هذه العبارة أعني أي غض من مفهوم المسلمين للاسلام في سائر العصور التالية فقد ظهر في كل عصر من كبار العلماء والباحثين والمدركين لحقيقة الاسلام كثير ممن لم تنقطع حلقاتهم وسلسلتهم حتى عصرنا هذا . فللاسلام في الحقيقة اذن اذا كشفنا عنه غواشيه سواء في هذا العصر او في العصور السالفة ذاتيه وحقيقته والاسلام في الحقيقة نظام كامل ، فهو من جهة فهم للحياة وتصور شامل للوجود وايمان بهذا الفهم ونظام عملي ينبثق من هذا التصور والايمان .

وتتلخص التصور او المفهوم الاسلامي العام في ان هذه الطبيعة التي تحيط بالانسان والكون الذي يعيش فيه مهما يتسع افقه ومسافاته ، ان هذا الكون كون مخلوق من ورائه وجود مطلق وقوة خارقة حية مدركة هي قوة الخالق والانسان في هذا الكون وبهذه الارض بالذات مستخلف من الله الخالق ليعيش فيها وليتمتع بما فيها من نعم وطيبات وارزاق بل ملذات محلله مشروعة على ان يعلم انه في استخلافه هذا وفي تمتعه وسعيه وعمله محاسب ومسؤول امام هذه القوة الخالقه المدركة المحاسبة . وينبثق عن هذا الفهم وعن هذا الايمان عمل وعبادة متصلان ايما اتصال من حراثة وزراعة للارض وتأمل لهذه القوة التي خلقته وانعمت عليه وهذا العمل والعبادة هما من نوع واحد فهو يطيع الله في ان يشق الارض بالمحراث او يحرك الآلة في يده وهو في ذلك مطيع لله عابد له وكذلك هو مطيع متعبد حينما يخلو في سويعات من يومه ليفكر في خالقه وليتأمل فيما وراء هذه الحياة من مسؤولية وحساب . وينبثق عن هذه الفكرة او العقيدة او الايمان على الاصح تعاليم اخلاقية وهي تعاليم تأخذ من ناحية بشيء من الواقعية في الحياة وتعمل من ناحية اخرى لترقية الروح فتفسح المجال للغرائز وتصريفها في حدود معينة وتضبطها وتعمل على انسجامها مع الرقي الخلقي والروحي . ولست الآن لالخص في اكثر مما قلت المذهب الاخلاقي في الاسلام .

موقف الغزالي من تحديد النسل

بقلم : الدكتور عبد الكريم اليافي

توزعت عصر الغزالي مشكلات سياسية واجتماعية وفكرية مشتبكة كثيرة نجد أصداءها في كتبه يعالجها متجمعة أو متفرقة كما تتجمع أو تنتشر الازاهير بالوانها المختلفة في الحقول الواسعة .

وغاية بحثنا هذا أن نبين موقفه تجاه مشكلة ديمغرافية خاصة هي قضية النسل واباحة ضبطه في بعض الاحوال رغبة في علاج جانب من مسالة أصبحت في العصر الحاضر من مسائل علم السكان الكبيرة مقتبسين تفهم هذا العلاج من تاريخ ثقافتنا العربية التليدة الواسعة .

ولاجل هذا نشير في البداية بخطوط سريعة الى جوانب من الحركة الديمغرافية للشعب العربي في صدر الاسلام ثم نظهر آراء الغزالي في الذرية مجيئها او تحاميها معتمدين خاصة على ما جاء في كتابه المشهور « احياء علوم الدين » .

لقد مر العرب في بداية حضارتهم الاسلامية بمرحلة كانوا فيها كثيري النسل والاولاد . وفي تاريخ الادب العربي اشارات متعددة الى ذلك اوردناها في كتابنا « في علم السكان » (*) .

وقد انتبه القدماء الى أهمية النسل من الوجهة القومية وكافأ الحكام كثرة الاولاد . ولعل من أطرف الروايات التي تشف عن ذلك ما جاء في كتاب الاغاني في اخبار الشاعر الراجز أبي النجم . قيل : « كان عند عبد الملك بن مروان ، ويقال عند سليمان بن عبد الملك يوما وعنده جماعة من الشعراء وكان ابو النجم فيهم والفرزدق وجارية واقفة على راس عبد الملك او سليمان تذب عنه ، فقال : من صبحني بقصيدة يفتخر بها وصدق في فخره فله هذه الجارية . فقاموا على ذلك ، ثم قالوا : ان ابا النجم يغلبنا بمقطعاته يعنون الرجز . قال : فاني لا اقول الا قصيدة فقال من ليلته قصيدته التي فخر فيها وهي :

علق الهوى بحبائل الشعثاء ...

ثم اصبح ودخل عليه ومعه الشعراء فأنشده حتى بلغ الى قوله :

منا الذي ربع الجيوش لظهره
عشرون وهو يعد في الاحياء

فقال عبد الملك : قف ان كنت صادقا في هذا البيت فلا نريد ما وراءه ،

فقال الفرزدق : وانا اعرف منه ستة عشر ومن ولد ولده اربعة كلهم قد ربع . فقال عبد الملك او سليمان ولد ولده هم ولده ، ادفع اليه الجارية ياغلام فغلبهم يومئذ (*) » .

---

*) طبعة 1959 من صفحة 32 الى 38 ومن 37 الى 51 .

*) مطبعة التقدم ج 9 ص 75 .

يستوون عند الله » (*) . وكقول الرسول صلى الله عليه وسلم جين سئل ما يعدل الجهاد في سبيل الله ؟ واعادوا عليه مرتين او ثلاثا وهو يقول لا تستطيعونه ثم قال مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد (*) وفي الصحاح قيل يا رسول الله اي الناس افضل قال مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله قيل ثم من قال رجل في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره (*) وروى الامام احمد بسند صحيح قول الرسول صلى الله عليه وسلم درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم اشد من ستة وثلاثين زنية . فالربا وهو من انواع الظلم المالي اشد حرمة من الزنى. ولو حاولنا ان نجمع امثال هذه الاحاديث التي تقدر القيم بعضها بالنسبة الى بعض لخرجنا منها بنسب رياضية بين قيم الحياة . كقوله عليه الصلاة والسلام يوم من امام عادل افضل من عبادة ستين سنة (*) وقوله : فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم (*) وقوله : ففيه واحد اشد على الشيطان من الف عابد(*)

ومن هنا يتبين خطأ من يصرفون هممهم الى امر قد يكون في ذاته مطلوبا او ممنوعا في الاسلام ولكن في مقابله امر اخطر منه بكثير ، فالبلاد الاسلامية مبتلاة في هذا العصر بخطرين عظيمين هما الاستعمار والالحاد اي الاستيلاء على الارض والاستيلاء على العقيدة اي اتلاف ثرواتها المادية والمعنوية وسلبها ولو تم الاستيلاء على البلاد وتهديم العقيدة واستمر لما أمكن اقامة شعائر الدين ولا القيام بأوامره وتطبيق أحكامه ولذلك فان صرف اذهان الناس الى قضايا اخرى وجعلها محور النضال الاسلامي الهاء عن أهم القضايا الاساسية التي هي الاستيلاء على البلاد الاسلامية او السيطرة عليها بطريقة مباشرة او غير مباشرة وتهديم العقيدة الاسلامية بشتى الاساليب ونشر الافكار والمذاهب الالحادية على اختلاف صورها . فهل يجوز في مثل هذه الحال تقسيم المسلمين الى من يقولون بأن التراويح ثمانية ومن يقولون بأنها عشرون والى القائلين بتكرار الجماعة او عدمها او احتدام معركة السنة والبدعة في امور لا تمس العقيدة . أنا لا أقول ان لا نبحث هذه الامور بحثا علميا بل اقول انه يجب التنبيه حينما يكون الامر ماسا بالعقيدة ويحسن التنبيه الى الطريقة الصحيحة في العبادات لان العبادات توقيفية فلا زيادة ولا نقصان فيها عما امر به النبي صلوات الله عليه او فعله ومع ذلك فاذا كان ذلك يحدث فتنة او يحدث خصومة وعداوة بين فئتين من المسلمين وجب ترك ذلك لما يترتب عليه من منكر اعظم ولما ينشأ عنه من تقسيم المسلمين الى فئات متعددة في ظروف واحوال لا يجوز فيها تفتيت القوى ولا الاشتغال الا بالقضايا الاساسية الكبرى .

(ينبع) ـ دمشق ـ **محمد المبارك**

(*) سورة التوبة 19 .

(*) اخرجه الستة الا ابا داود .

(*) اخرجه الستة الا مالكا .

(*) وفي رواية عدل ساعة افضل من عبادة ستين سنة بقيام ليلها وصيام نهارها ، وجور ساعة في حكم اشد وأعظم عند الله من معاصي ستين سنة (الطبراني في المعجم الكبير والاوسط) .

(*) اخرجه الترميذي وصححه .

(*) اخرجه الترمذي وقال هذا غريب لا نعرفه الا عن الوليد بن مسلم .

مؤلف « الاحياء » من الذين اذا نظروا في قضية من القضايا انتبهوا الى جوانبها المتقابلة وحدودها المتناقضة فعرضوا تلك الجوانب واوضحوا تلك الحدود ليطلع القارىء على جهة السلب وجهة الايجاب في كل راي ونظر وليحيط علما بتلك التقابلات والتناقضات فيكون على بينة من موقفه الذي يحذره وفي جلية من حكمه الذي يصدره ولكيلا يفوته امر من تلك الامور التي تدخل في نطاق القضية التي يعالجها ويبحث فيها.

وربما كان هذا هو السبب الذي من اجله اتصف الغزالي انه قد يعرض من حجج الذين يريد الرد عليهم ما لم يخطر لهم ببال . وليس ذلك ماخذا بل تلك ميزة في ميدان الفكر الذي ينشط بالاستناد الى الحدود المتغايرة وينمو ويتقدم باصطراع العناصر المتضادة .

ان مثل هذا الاتجاه طبيعي في شخصية الغزالي واصيل لديه . وقد ظهر في سلوكه بشكل ازمة حادة عندما قرر وهو في أوج شهرته ومجده العلمي ببغداد ان يترك المدرسة النظامية ويعتزل التدريس ويسلك طريق الصوفية ويجرب تجربتهم . فكانت تتلامح امام فكرته جوانب السلب والايجاب والنفي والاثبات متحدية متعارضة كاقوى ما يكون التعارض مصطرعة كاعنف ما يكون الاصطراع ملحة كاطول ما يكون الالحاح اذ قد استمرت تلك الازمة نحوا من ستة شهور حتى افضى ذلك به الى المرض ولم ينقذه منه الا عزمه على اختيار التجربة الصوفية ومعاناتها .

فشخصية الغزالي بهذا الاعتبار تبدو الفكر الجدلي من اعمق خصائصها ويتصل بهذا الفكر ما يتصل من ذكاء متوقد يثيره المتناقضات ومن تشوف يستند الى التوفيق بين تلك الحدود المتغايرة ومن تفهم عميق وتقص للامور ومن رفق يتناسب مع هذا التفهم ومن اخلاص عميق يتوطد عند اختيار الموقف الذي يتقيه يضاف الى ذلك عاطفة مشبوبة بالتقوى المتبصرة والايمان المتيقظ مخضلة بصدق الانفعال مشربة بحب الخير يتجلى في اسلوبه الحي المتموج النابض القوي .

وربما كان ذلك كله سببا في نجاحه الكبير الذي صادفه في التدريس اذ كان بهذا الاتجاه المتشعب ينقع غلة مريديه وطلابه ويسع ميولهم الفكرية المختلفة وطبائعهم المتفاوتة . فقد « اعجب الخلق حسن كلامه وكمال فضله وفصاحة لسانه ونكته الدقيقة واشاراته اللطيفة واحبوه (*) »

على انه في ذلك كله كان كانما يمتاح من معين ينبجس في قلبه او كانما يقتبس من شرار ينقدح في نفسه على حد استعماله المتكرر للفظ الانقداح . وانما كان ذلك مصدر حدس فطر عليه واشتهر به منذ ان كان طالبا فقد كان استاذه الجويني امام الحرمين يقول فيه : « الحدسيات للغزالي (*) » ويقول فيه أيضا : « بحر مغدق » (*) ولهذا كله تتصعب علينا هنا في هذا البحث الموجز ان نفصل جميع الآراء التي يعرضها حجة الاسلام في بحث الزواج والنسل وانما نقتصر منها على ما يمس الرغبة في مجيء الاولاد او تحاميهم .

* * *

يشيد المؤلف بمكانة الاولاد في بحث فوائد الزواج التي يلخصها ويحصيها اولا ثم يشرحها ، فيجدها خمسا وهي : « الولد ثم تأتي كسر الشهوة وتدبير المنزل وكثرة العشيرة ومجاهدة النفس بالقيام عليهن » فهو يضع الذرية في ذروة هذه الفوائد .

فالولد هو الاصل ، وله وضع الزواج . «والمقصود ابقاء النسل والا يخلو العالم من جنس الانس » فالميل باعث مستحث « كالتلطف بالطير في بث الحب الذي يشتهيه ليساق الى الشبكه » ، اذ اقتضت الحكمة الالهيه ترتيب المسببات على الاسباب في هذا الشكل مع امكان الاستغناء عنها . وعند التامل نجد في السلالة « قربة من اربعة اوجه : الاول موافقة محبة الله بالسعي في تحصيل الولد لابقاء جنس الانسان والثاني طلب محبة رسول الله (ص) في تكثير من يه مباهاته والثالث طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده والرابع طلب الشفاعة بموت الولد الصغير اذا مات قبله » .

ويشرح المؤلف الاوجه الاربعة ولا شك ان الوجه الاول اهمها وادقها وأقواها . وذلك ان امتناع النسل بعدم الزواج تعطيل للحكمة الازلية المدرجة في الكون وافساد للفطرة المقصوده . « ولذلك عظم الشرع الامر في القتل للاولاد وفي الوأد لانه منع لتمام الوجود . واليه أشار من قال : العزل أحد الوأدين » .

---

*) طبقات الشافية ج 4 ص 104 .

*) المرجع نفسه ص 106 .

*) المرجع نفسه ص 103 .

ولكن حياة المسلمين قد تبدلت تبدلا كبيرا بعد اذ أصبحوا سادة الارض والمشرفين على خيراتها ومواردها فتعقدت شؤونهم واستسلم بعضهم للترف واكثر من اللهو والمجون وانصرف بعضهم عن الزواج واكتفى بالاماء واختلطوا بالشعوب الاخرى اختلاطا شديدا

نستدل على ذلك بما راج في كتب الادب من الاقوال التي تشيد بقيمة الاماء وتنوه بفضلهن على الحرائر : « من اراد قلة المؤونة ، وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة فعليه بالاماء دون الحرائر »، وكذلك « عجبت لمن استمتع بالسراري كيف يتزوج بالحرائر » . ويروى عن مسلمة بن عبد الملك انه قال : « اني لاعجب من ثلاثة : من رجل قصر شعره ثم عاد فأطاله او شمر ثوبه ثم عاد فأسبله او تمتع بالسراري ثم عاد الى المهيرات » .

وازداد الامر تفاقما في دولة بني العباس . ولقد غالى هارون الرشيد في ايثار الجواري وتقريبهن ، وكان معظم اولاده ابناء اماء واكثر الخلفاء العباسيين أمهاتهم امهات ولد .

وانتشار الاماء والسراري وتعقد الحياة الاجتماعية والاقتصادية رافقهما عزوف عن النسل ، ونشأت دعوات متشائمة تحذر من النسل وترغب عنه .

يقول الشاعر المولى ابو العتاهية :

لدوا للموت وابنوا للخراب
فكلكم يصير الى ذهاب

وينوه الشاعر الفيلسوف ابو العلاء المعري بتحاميه الزواج وبسلامته من عدواه :

تواصل حبل النسل من عهد آدم
الي فلم توصل بلامي باء

ويذهب الى ابعد من ذلك فيعد النسل جناية يجنيها الوالد على الولد في بيته المشهور :

هذا جناه أبي علي
وما جنيت على احد (*)

وينصح للذين لايطيقون تحامي الزواج أن يؤثروا العقيمات من النساء :

اذا شئت يوما وصلة بقرينة
فخير نساء العالمين عقيمها

الى غير ذلك من اشعار أخرى كثيرة .

ولا شك ان تلك الدعوات المتشائمة صدى من اصداء تعقد الحياة الاجتماعية وصعوبة الكسب ومشكلات التربية .

ويشف عن ذلك ايضا قول ابن الجوزي الذي ولد في القرن السادس الهجري بعد وفاة الغزالي بثلاث سنين وذلك في كتابه « صيد الخاطر » : « وان تزوج جاء الاولاد فمنعوه اللذة وانكسر في نفسه وافتقر الى الكسب عليهم (*) . وكذلك قوله : «والابن ان مرض ذاب الفؤاد وان خرج عن حد الصلاح زاد الاسف وان كان عدوا فمراده هلاك الاب ثم ان تم المراد فذكر فراقه يذيب القلوب (*) » .

ويلوح ان ضبط النسل قد بدأ في بغداد قبل البلاد العربية الاخرى يدل على ذلك هذه النادرة التي نجدها في (يتيمة الدهر) بين اخبار أبي بكر الموسوس المعروف بسيبويه وذلك في القرن الرابع الهجري . فقد قال يوما للمصريين : « يا أهل مصر ! اصحابنا البغداديون احزم منكم لا يقولون باتخاذ الولد حتى يقتنوا له العقد والعدد فهم ابدا يعزبون ولا يقولون باتخاذ العقار خوفا من ان يملكهم شر الجار فهم ابدا يكنزون ولا يقولون باظهار الغنى في موضع عرفوا فيه بالفقر فهم ابدا يسافرون » .

فلا غرو اذا أصبح تحامي النسل قضية ينتبه لها المفكرون ويعالجونها ويبينون شرائط جوازها .

ولقد كان الباحثون يمسون ذلك بوجه عام او يشيرون الى فوائد الزواج وآفاته ويوضحون الاسباب التي تحمل على ايثار العزبة . فأبو طالب المكي مثلا في كتابه المشهور « قوت القلوب » وهو الكتاب الذي كثيرا ما يعتمد عليه ابو حامد الغزالي في كتابه « الاحياء » وينقل اخبارا واحاديث وفقرات منه يظهر مزايا الزواج ومزايا العزبة دون ان يتناول قضية ضبط النسل .

هذا وربما غدت حاجة ضبط النسل ماسة في عصر الغزالي وغدا بحثها شائعا ولا سيما من جهة تكاليف تربية الاولاد ونفقات العيال وتعذر طرق الكسب . وفي كتب الغزالي اشارات متفرقة الى قضايا الكسب وشؤون التربية .

---

*) الرواية المشهورة جناه وكلتاهما صحيح .
*) طبع الخانجي ص 177 .
*) ص 397 .

ولقد كان الفقهاء في تعليمهم ومؤلفاتهم لا يتحرجون من معالجة ما نسميه في العصر الحاضر بالتربية الجنسية التي راجت عند بعض المجتمعات الغربية المتقدمة . والذي يطالع كتب الفقهاء والمفكرين يدرك الى أي مدى كانوا ينبهون الى مختلف تلك الامور تعبدا من جهة ورغبة في توفير اسباب السعادة للازواج جمعا لان الدين انما اتى لصالح الناس ولاسعادهم في الدارين وكانوا ينتهون في ذلك الى ادق التوجيهات .

وتبدو تلك الكتب الفقهية الخصبة ينابيع غزيرة لضروب متنوعة من البحث والتفكير فهي الى جانب صفتها الفقهية والدينية تضم الوانا ابعد من التفكير الاخلاقي وحقولا راهنة من التفكير النفسي وانماطا واسعة من التفكير الاجتماعي . ولا تتخلى زيادة على ذلك كله عن الاتجاهات الفيزيولوجية والديمغرافية . فانه لا حياء في معالجة أمور الدين . ولقد تبع الفقيه الاسلامي المرء في جميع اموره الدنيوية وحاجاته ومآربه ومصالحه يرسم له احتمالات من السلوك وخططا عامة تعينه في تصرفه فضلا عن اموره الاخروية . ولا غرو فان الدنيا سبيل الآخرة . وميدان العمل الذي يؤدي الى الخلاص والنجاة « وتلك الجنة التي اورثتموها بما كنتم تعملون » .

ولا عجب بعد ذلك كله ان نجد الفقهاء قد تعرضوا لقضية ضبط النسل في صدد بحوثهم فيما دعوناه « التربية الجنسية » . ويذكر الغزالي في كلامه على آداب الزواج « الا العزل » . ولا شك ان البحوث الفيزيولوجية وغيرها تشير الى طرق شتى في ضبط النسل بعضها طبيعي يتصل بزمن عقم المرأة في غضون دورة الطمث نبه اليها العالم الياباني اوجينو وبعضها كيموي او آلي متعدد الاشكال . واذا بحث الغزالي او امثاله هذه القضية فذكروا العزل فاننا نستطيع ان نطبق جوانب الاباحة او الكراهة على جميع تلك الطرق اذ كانت اخف وطأة منه وأول ابداء ولاسيما طريقة اوجينو . نعمد شيئا من هذا التفصيل لان موقف الكنيسة الكاثوليكية في العصر الحاضر اصبحت تفرق بين تلك الطرق وتبيح اتباع طريقة اوجينو بعد اذ كانت تمنع ذلك القصد مطلقا ولقد تطور موقف المذهب البروتستانتي فاصبح اكثر تسمحا وتساهلا في ذلك كلــه .

وعند ما يتناول الغزالي هذا البحث يشير الى اختلاف العلماء في الاباحة والكراهة « على اربعة مذاهب فمن مبيح مطلقا بكل حال ومن محرم بكل حال ومن قائل يحل برضاها ولا يحل برضاها وكأن هذا القائل يحرم الايذاء دون العزل ومن قائل يباح في المملوكة دون الحــرة » .

والصحيح في رأي الغزالي الذي هو اكثر تسمحا في هذا الشأن من غيره ان ذلك مباح . واذا حصلت الكراهة في بعض الاحيان فانها « كما يقال بكره للقاعد في المسجد ان يقعد فارغا لا يشتغل بذكر او صلاة ويكره الحاضر في مكة مقيما بها الا يحج كل سنة والمراد هذه الكراهة ترك الاولى والفضيلة فقط ، وهذا ثابت لما بيناه من الفضيلة في الولد » .

وهكذا يفرق الغزالي بين درجات الكراهية : كراهية التحريم وكراهة التنزيه وكراهية ترك الاولى والفضيلة مثل جمهور كبير من الفقهاء .

ثم يتناول المؤلف الفقيه النية الباعثة عليه . وهنا لابد من ان نشير الى ان الحكم المتعلق بالسراري والاماء قد زالت فائدته بزوال موضوعه . ولقد كان اتجاه الاسلام متشوقا نحو تحرير الرق عامة فالاحكام المتعلقة به اصبحت لها الصفة التاريخية فحسب . اما الحكم المتعلق في هذا الشأن بالزوجات فانه يدل على تلهفه الحضارة اذ ذاك من جهة وعلى التفكير في استبقاء جمال الزوجة اذ يذكر صاحب الاحياء من النيات الداعية على ضبط النسل : «استبقاء جمال المرأة وسمنها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفا من خطر الطلق وهذا ايضا ليس منهيا عنه » .

وكذلك من جملة النيات « ان تمتنع المرأة لتعززها ومبالغتها في النظافة والتحرر من الطلق والنفاس والرضاع ... فيكون القصد هو الفاسد دون منع الولادة » .

وايضا من جملة النيات « الخوف من الاولاد الاناث لما يعتقد في تزويجهن من المعرة كما كان من عادة العرب في قتلهم الاناث فهذه نية فاسدة » . يأثم المرء لو ترك بسببها الزواج وكذلك الامر في تحامي مجيء الاولاد .

ثم ان ضبط النسل في ذلك الوقت يدل على تصعب اسباب الرزق في تلك الحياة المتشابكة الوجوه المعقدة المداخل بحيث لا يضمن المرء دائما الكسب الحلال وذلك كما يحصل في العصر الحاضر في المدن الكبيرة اذ يغدو الولد عبئا اقتصاديا على الاهل .

ولا عجب اذا رأينا الغزالي في كثير من كتبه يشير الى قضايا الكسب وينبه على آداب المعاش ويشير الى

وقد يرد انه اذا كان بقاء النسل والنفس محبوبا فان فناءهما مكروه ، وقد قدر تعالى الموت والحياة « فكلاهما بمشيئة الله وهو غني عن العالمين فمن أين يتميز عنده موتهم عن حياتهم او بقاؤهم عن فنائهم ؟ » فالجواب عندئذ ان « المحبة والكراهة يتضادان وكلاهما لا يضادان الارادة فرب مراد مكروه ورب مراد محبوب فالمعاصي مكروهة وهي مع الكراهة مرادة والطاعات مرادة وهي مع كونها مرادة محبوبة ومرضية . اما الكفر والشر فلا نقول : انه مرضي ومحبوب بل هو مراد » .

اما الوجوه الباقية فيوضحها المؤلف معتمدا على ما ورد في ذلك من أحاديث متفاوتة في درجات اسنادها. ومن المناسب هنا ان نبين موقف الفقهاء ومنهم الغزالي من وفيات الاطفال . فهم يرون ان الولد اذا مات وهو صغير كان شفيعا لابويه فهو ذخر يقدم وفرط يفترط على حد التعبيرات المتداولة عندهم . ولا شك ان في ذلك تسلية وعزاء للآباء والامهات اذ كانت وفيات اطفالهم تحز في نفوسهم . وقد ادرك المفكرون كثرة هذه الوفيات بالنسبة الى بقية مراحل العمر وعجبوا لهذا التلف الذاهب سدى بسبب هؤلاء المواليد الذين انما ولدوا لاجل الحياة والتعمير . قال ابو العلاء المعري مشيرا الى ذلك :

واعمار الذين قضوا صغارا
كأثواب بلين وما لبسنه

ولم يكن علم السكان متقدما لبيان ان القسم الاكبر من هذه الوفيات انما يأتي من اسباب اجتماعيه خارجية وان نصيبا ضئيلا منها انما يرجع الى اسباب داخلية تكوينية . وانما مثل هذا التفصيل ادى اليه تقدم الاحصاء الذي خول قياس كل نوع من نوعي الوفيات وضبطه في السنوات الاخيرة من العصر الحاضر .

ويعود الغزالي الى شرح بقية فوائد الزواج فيذكر « التحصن عن الشيطان وكسر التوقان » . وهنا « ليس يجوز ان يقال المقصود اللذة والولد لازم منها كما يلزم مثلا قضاء الحاجة من الاكل وليس مقصودا في ذاته بل الولد هو المقصود بالفطرة والحكمة، والشهوة باعثة عليه » .

على ان لذة الدنيا يصح ان تعتبر دالة على لذة الآخرة ، « منبهة على اللذات الموعودة في الجنان اذ الترغيب في لذة لم يجد لها ذواقا لا ينفع ... واحدى فوائد لذات الدنيا الرغبة في دوامها في الجنة لتكون باعثا على عبادة الله » .

ثم يذكر « ترويح النفس وايناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة اراحة القلب وتقوية له على العبادة » ثم يورد « تفريغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الاواني وتهيئة أسباب المعيشة » ثم يأتي « مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الاهل والصبر على اخلاقهن واحتمال الاذى منهن والسعي في اصلاحهن وارشادهن الى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لاجلهن والقيام بتربيته لاولاده . فكل هذه الاعمال عظيمة الفضل فانها رعاية وولاية والاهل والولد رعية وفضل الرعاية عظيم » .

ونرى انه اغفل في الايضاح كثرة العشيرة وقد ذكرها عند ما اجمل في البداية فوائد الزواج فذكر بدلا منها ترويح النفس وايناسها بالمجالسة والنظر ولم يشر هو ولا شارحه الزبيدي الى هذا الاغفال .

ثم هو يذكر جريا مع اتجاه تكثير الولادة في جملة « الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة لتدوم العقد وتتوفر مقاصده » أي « ان تكون المرأة ولودا فان عرفت بالعقر فليمتنع عن تزوجها ، قال عليه السلام « عليكم بالولود الودود » فان لم يكن لها زوج ولم يعرف حالها فيراعى صحتها وشبابها فانها تكون ولودا في الغالب مع هذين الوصفين » (*)

ما قدمناه يؤلف العناصر الايجابية الدافعة الى الرغبة في الذرية . ومن المعلوم ان الاسلام في طليعة الاديان التي تحث على الزواج والانسال . هذا وعندنا ان اباحة تعدد الزوجات في بعض الشروط تدخل في العناصر الايجابية لتكثير النسل . ونتفهم هذا بسهولة اذا انتبهنا الى ارباء عدد النساء على الرجال في صدر الاسلام بسبب شهداء المجاهدين ، الذين فتحوا جوانب الارض ، وكذلك ورث المسلمون الاوائل ما خلفته جاهليتهم من آثار التقاتل والتفاني بين القبائل اذ كانت الحروب والغارات سجالا بينهم ولا شك ان آثارها كانت مشؤومة على الذكور ولا يمكن ان يعدلها وأد البنات الذي كان محدودا وانما عرف عند قليل من القبائل فحسب .

(*) حديث معقل بن يسار : تزوجوا الودود الولود

الزواج فريضة على القادر . وكذلك يمنع ضبط النسل مطلقا . . وكأنه بحكم حياته في الاندلس كان يريد ان تكثر اولاد العرب بأي وجه تلقاء قوم آخرين كانوا اشد ازديادا . وقد يكون من الطريف انشاء دراسات دقيقة في المستقبل حول الاطار الاجتماعي لتلك المذاهب الفقهية الفكرية التي لم ترد فيها نصوص قاطعة وحول تلك المواقف الاجتهادية للائمة على نسق ما نجد في العصر الحاضر من دراسات متشعبة حول الصفة الاجتماعية للثقافة .

واذا اردنا ان نترجم الآن مذاهب الفقهاء والمفكرين المسلمين في مصطلحات العصر الحاضر فاننا نرى أن الفقه الاسلامي بوجه عام ينظر من الوجهة الاجتماعية والاقتصادية الى النظرية المالتوسية على انها باطلة تخالف روح الاسلام واتجاهه العام ولا سيما قوله تعالى : « وما من دابة في الارض الا على الله رزقها » وكذلك فحوى قوله تعالى : « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم » ، « ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم » وهي تخالف ما ورد في الحديث عن معنى تحديد النسل : « ذلك الوأد الخفي » والاسلام يتفق في هذا الموقف مع النظرة الاشتراكية الحديثة التي تسعى الى تنظيم الاقتصاد بحسب السكان لا الى تنظيم السكان حسب الاقتصاد.

ثم اننا في ميادين المذاهب الفقهية الاسلامية نجد بعض المفكرين متسمحين امثال الغزالي فهو يعتبر القضية من الوجهة الشخصية فقط فيبيح تحديد النسل عند رغبة الابوين فيه لاسباب متعددة ولكن اباحته تبقى مقيدة بالكراهية التي هي ترك الاولى وترك فضيلة لا كراهية التحريم ، كما نجد بعض المفكرين متشددين حين يقتصرون على النظر الى الناحية الاجتماعية الصرف امثال ابن حزم .

* * *

اسمحوا لي في الختام وقد اطلت عليكم ان استطرد فاذكر جانبا من تنكيت الغزالي واشاراته اللطيفة وهي ربما كانت سببا من الاسباب الكثيرة التي ادت الى نجاحه في تدريسه وفي تآليفه كما ذكر ذلك السبكي في كلمته المتقدمة في مستهل هذا الحديث ويبدو في نكاته واشاراته هذه ثقافته العربية الواسعة . فهو في بحث آداب الزواج يورد من عادات النساء العربيات انهن كن « يعلمن بناتهن اختبار الازواج وكانت المرأة تقول لابنتها اختبري زوجك قبل الاقدام عليه والجرأة عليه انزعي زج رمحه فان سكت فقطعي اللحم على ترسه فان سكت فكسري العظام بسيفه فان سكت فاجعلي الاكاف على ظهره وامتطيه فانه حمارك » .

ولكنه يورد ايضا وصية اسماء بن خارجة الفزاري لابنته عند التزوج وهي مشهورة متداولة تحسن ان تكون دستورا لكل زوجة : « انك خرجت من العش الذي فيه درجت فصرت الى فراش لم تعرفيه وقرين لم تألفيه . فكوني له ارضا يكن لك سماء وكوني له مهادا يكن لك عمادا وكوني له امة يكن لك عبدا لا تلحفي به فيقلاك ، ولا تباعدي عنه فينساك ، ان دنا فاقربي منه وان نأى فابعدي عنه واحفظي انفه وسمعه وعينه فلا يشم منك الا طيبا ولا يسمع الا حسنا ولا ينظر الا جميلا » .

دمشق : عبد الكريم اليافي

اختلال توزيع الثروة في بعض الاحيان . وقد نشأت في ظلال الدولة العباسية حركات سياسية متعددة كانت تثور او تعلن في جملة مطالبها السعي الى تحسين الامور الاقتصادية وعدالة توزيعها . يذكر الغزالي في كتابه « فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية » صفحة من هذا الاضطراب عند بيان صحة امامة المستظهر والتنويه بمزاياه وكفايته فيقول : « ولما استأثر الله بروح الامام المقتدى وامتع كافة الخلق بالامامة الزاهرة المستظهرية وقد وافق وفاته احداق العساكر بمدينة السلام وازدحام اصناف الجند على حافاتها والزمان زمان الفترة والدنيا طافحة بالمحن منموجة بالفتن والسيوف مسلولة في أقطار الارض والاضطراب عام في سائر البلاد لا يسكن فيها اوار الحرب ولا تنفك عن الطعن والضرب وامتدت اطماع الجند الى الذخائر ففغروا افواههم وكان يتداعى الى تغيير الضمائر وثور الاحقاد والضغائن . . » (*)

ويعمد الغزالي بعد قليل في الكتاب عينه الى بيان اصناف الاموال المنصبة في خزائن الخلافة وجهات صرفها وما يذكره في هذا السبيل يمكن ان يعتبر من الوثائق التاريخية التي تسجل الحياة الاقتصادية في ذلك العهد (*) .

وكذلك يتناول المؤلف غب الفراغ من فصول آداب الزواج في « احيائه » تحت آداب الكسب والمعاش وهو يشف عن بعض صور الاخذ والعطاء والبيوع والتجارة في ذلك الوقت بالاضافة الى ما يذكر غيره .

ويلوح ان الحياة الاقتصادية قد تعقدت في ذلك العصر بحيث اصبح فريق من الناس تتعذر عليهم اعالة انفسهم او اهليهم . ونجد المؤلف الورع يعمد في مواضيع متفرقة من كتاب « الاحياء » فيشير الى ذلك

ولا عجب هنا في مجال الكلام على ضبط النسل ان يذكر ايضا في جملة النيات الباعثة عليه اذ كانت الاولاد تقتضي نفقات لا بأس بها فيورد « الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الاولاد والاحتراز من الحاجة الى التعب ودخول مداخل السوء . وهذا ايضا غير منهي عنه فان قلة الحرج معين على الدين » . ولكنه لا يلبث ان يضيف : « نعم الكمال والفضل في التوكل والثقة بضمان الله حيث قال (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها) . ولا جرم فيه سقوط عن ذروة الكمال وترك الافضل ولكن النظر الى العواقب وحفظ المال وادخاره مع كونه مناقضا للتوكل لا نقول انه منهي عنه » (*) .

والخلاصة ان الغزالي في بحثه للزواج وآدابه انما سلك مسلك اغلبية فقهاء الشافعية مضيفا الى ذلك اعتبارات فكرية لطيفة تظهر جهات السلب والايجاب وتوضح تعابير الحدود وتفاوت النظر . ومن المعلوم ان الزواج عند الشافعية من الشهوات لا من القربات . فالتخلي للعبادة لغير التائق للزواج عندهم افضل من الزواج . وهو بهذا الاعتبار ليس عبادة على حين اشتهر عن الحنفية انه عبادة .

اما اهمية النسل فتبدو في كونه الغاية الاولى من الزواج وهو مقصد الفطرة وتحقيق حكمة التكوين . ومع ذلك فان قضية تحديده وضبطه استند فيها تشتت الآراء . واكثر تلك الآراء تجعل اباحته معلقة باذن الزوجة في بعض الاحوال . وتحرم بعض فقهاء الشافعية امثال العز بن عبد السلام على المرأة استعمال دواء مانع للحمل .

هذا ومن المناسب ههنا ان نشير الى موقف الامام ابن حزم الظاهري . فهو في كتابه « المحلي » (*) يعتبر

(*) ص 71 ، 72 .

(*) 73 ، 74 ، 75 . وكانت اموال الخليفة تشمل المستغلات وهي أموال موروثة له وأموال الجزية وأموال التركات لا وارث لها كانت تنصب في بيت المال واموال الخراج المأخوذة من ارض العراق وهي من عبادان الى الموصل طولا ومن القادسية الى حلوان عرضا وهي التي وقفها عمر بن الخطاب على المسلمين ليكون خراجها منصبا الى بيت المال ومصالح المسلمين .

اما مصاريف تلك الاموال فيجمعها الغزالي في اربع جهات 1 ـ المرتزقة من جند الاسلام 2 ـ علماء الدين وفقهاء المسلمين 3 ـ محاويج الخلق الذين قصرت بهم ضرورة الحال وطوارق الزمان عن اكتساب قدر الكفاية 4 ـ المصالح العامة من عمارة الرباطات والقناطر والمساجد والمدارس .

(*) يذكر ابن قدامة الحنبلي في تسويغ ضبط النسل « ان يكون لحاجة مثل ان يكون في دار الحرب» المغني ج 7 ص 23 .

(*) ج 10 ص 70 .

للكفـــاح . ويرمقها الرسول بنظرة حانية قائـلا لها : « ومن يطيق ما تطيقين يا ام عمـارة » ؟

ثم لمـا نهـد المسلمون في عهد الخلفاء الراشدين لافتتاح الامصار فيما وراء جزيرة العـرب مبتدئيـن بالشام كان بعض نسائهم برافقنهم في تلك الفتوحات . اما الشجاعة التي أبدتهـا المسلمات في تلك الحـروب فنترك للمؤرخ ادوار جيبون الحديث عنها . فقد نـوه بهـا في كتابه « تاريخ الامبراطورية الشرقية » وهـو الكتاب الذي يتكلم عن الامبراطوريه البيزنطية وقـال:

« ان الشجاعة التي اعربت عنها المراة المسلمة في موقعة اليرموك ، وفي غضون حصار دمشق لاعظم مما يتناولـه التاريـخ . »

واذا كان لابد من ايراد ذكر واحـدة من بطـلات هذه المعارك التي كانت بقيادة سيف من سيوف الاسلام المسلولة خالد بن الوليد فحسبنا النوية بخولـة بنت الازور . وقد تحدث عنها الواقدي في كتابه فتوح الشام حديثا لا عهد للتاريخ بمثـال لـه .

واما في حرب العراق فكانت خزامة بنت خالـد بن الوليد بن جعفر بن قرط . في جيش سعـد بن ابي وقـاص . كانت الازور في جيش ابن الوليـد . فقـد حضرت . فيما حضرت . فتح الحيرة ، وأبرزت فيهـا من الشجاعة ما لا يوصف .

وما كانت ام الحرام الرميصاء بنت ملحان ، أقل منهما شجاعة في جيش الامير معاوية بن ابي سفيان ، فقد ركبت البحر معه ، يوم كان ركوبه كدود على عود: ومضت لفتح قبرص حتى كان البـر لم يعد متسعـا لجهـادهـا ، واستشهدت في عهد هذا الفتح ، ودفنت في مدينتنـا بيـروت .

ثم لما عصفت اعاصير الخـلاف بيـن المسلمين الاوائل من وراء النزعات القبلية القديمة لم تحد المراة عنها ، بل خاضت الصراع مثل الرجل ، وقاتلت دفاعا عن رأيها ، فكان فريق من النساء حزبا للامـام علي ، وفريق آخر مناوئا له ، وعلى رأسه عائشة ام المؤمنين. والسيدة عائشة لم تكن في عداد الذين عارضوا خلافـة علي بن ابي طالب فحسب ، بل قادت جيشا بنفسهـا لقتالـه . وان التاريخ ليذكر مواقفها الباسلة في وقعة الجمل وهي لاتفتأ تثير الحماس في نفـوس اجنادها ، وتحضهم على الثبات رغم اصابة الجمل الذي كان يقل هودجهـــا .

وما السيدة عائشة الا واحدة من النساء الكثيرات اللواتي اشتركن في ذلك الصراع الداخلي : فئة منهـن كانت من انصار الخليفة علي بن ابي طالب ، وفئة أخرى كانت من انصار السيدة عائشة الهاشمية والامويين . والفئتـان لم تتنافسا على صعيـد الراي والاجتهـاد فحسب ، بل ساهمتا في الحروب التي نشبت حـول تأييد هذا الراي ، او ذاك الاجتهاد .

وهناك فريـدة في الشجاعـة ظهرت في صـدر العصر الاموي يجدر بي أن لا أنساها في معرض التنويه بشجاعة مسلمات ذلك العهد الذي كان نـارا ونـورا ، واعني بها غزالة الحرورية زوج شبيب بن يزيد قائـد الخوارج . فقـد كانت وبعلهـا يتعاقبـان على قيادة الجيش بشجاعة لا مثيل لها .

من منا لا يسمع بالحجاج الثقفي الـذي خاطب العراقيين الثائرين بقولـه :

انـا ابـن جـــلا وطـــلاع الثنـايـا
متـى اضـع العمـامـة تعرفـونـي ؟

لقد هزمت غزالة هذا الجبار المشهور ببطشه . وما هزمته لكثرة عصابتها بالنسبة لاجنـاد الدولـة ، وانما بالشجاعة التي ابدتها في تلك المعركة حيث شكته بسنانها بين كتفيه فهلع قلبه ، وولى الادبار . وقـد عيره بذلك عمران بن حطان اذ لج الحجاج في طلبه وقال:

أسـد علي وفـي الحـروب نعـامـه
فتخـاء تنفـر مـن صفيـر الصافـر
هـلا بـرزت الـى غزالـة في الضحـى
بـل كـان قلبك في جنـاحـي طـائـر
صدعـت غـزالـة قلبـه بعسـاكـر
تركـت كتـائبـه كـأمـس الدابــر

الشجـاعـة الادبيـــة

في العصر الذهبي تبرز الفضائل عند الامم بكثرة حتى يزاحم بعضها بعضا . ومن هنا لـم يكن نســاء العرب في صدر الاسلام شجاعات فحسب ، بل الـى جانب شجاعتهـن . واعتمادهـن على انفسهن ، كـن

شجاعة المرأة في الإسلام وجرأتها الأدبية

للأستاذ محمد جميل بيهم

تجري الامم على دستور طبيعي وضعه الباري لجميع ما خلق . وبمقتضى هذا الدستور تمر الجماعات ، كما تمر الافراد ، في ادوار الطفولة والشباب والشيخوخة ، وتزور المقابر او ما هو بمعناها . ثم اذا بعثت حية بعد الانحلال فانما تبعث بروح جديدة لتمر في هذه الادوار كرة اخرى .

وقد كان العرب في الازمان الغابرة امة ذات حضارة وشأن أدركت ، بعد عظمتها ، الشيخوخة في الجاهلية ، واشرفت على الهلاك فاذا بالاسلام يبعثها حية ، واذا به يجمع شتاتها ، ويقوم اخلاقها ، ويجعلها جديرة بأن تخفق اعلامها ، مدة اجيال ، في ربوع العالم ، وتأتيه بحضارة هي من خير الحضارات كانت في سلسلة الحضارة الانسانية حلقة اتصال ربطت بين ما سلف من مدنيات وما خلف .

ومن سنن الدستور الطبيعي ايضا أن الامة التي تحلق في سماء التقدم والرقي ترتفع في الجملة وكأنها طائرة اذا حلقت في الفضاء لا تتخلف شيء من جهازها في الارض . وعلى هذه القاعدة فان الاسلام ما أن كان حافزا للعرب للوثوب وبعثهم الاولى حتى خلق فيهم روحا جديدة بدت آثارها ظاهرة في اوساط رجالهم ونسائهم على السواء .

فالاسلام اذ جعل النساء شقائق الرجال اكسب المرأة صفات لا عهد لها بها في العصر الجاهلي ، صفات كانت حافزة لها للمساهمة في تحمل اعباء ذلك الانقلاب الاجتماعي الكبير الذي أضطلع به العرب من أجل اعلاء كلمة الله .

وحين عجزت الحجة ، وعجزت الدعوة بالحسنى طوال ثلاث عشرة سنة قضاها محمد (ص) في يثرب يستمعن بهما لهدى المشركين ، واصر هؤلاء على المكابرة كان لابد للرسول أن يخاطبهم ، منذ استقر في المدينة ، باللسان الذي لا يفهمون سواه فانتضى السيف . ولكن السيف لا ينفع اذا لم ترافقه الشجاعة والايمان ، فاذا بهاتين الحلتين الطيبتين تبرزان الى جانب السيف وتتحلى بهما النساء مثل الرجال . واذا بالمرأة تبرز الى الميدان ، وتبدي في عهد الرسول وخلفائه ، من الشجاعة والبسالة والتضحية مالا عهد لامة به في التاريخ .

لقد لقى السيد المسيح نصيرات عطفن عليه . والتففن حوله ، أما سيدنا محمد فالى ذلك وجد من النساء الشجاعات اللواتي خضن المعارك معه ا واشتركن في الفتوحات من بعده ، واللواتي كان لهن رأيهن المستقل حينما اختلف المسلمون على الخلافة .

ففي عهد النبي (ص) نذكر أم عطية ، وام عمارة وذلك على سبيل المثال لا على سبيل الحصر . فأم عطية شهدت مع الرسول سبع غزوات ، وابلت فيها بلاء حسنا . واما أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية فاشتركت في غزوة أحد ، وبيعة الرضوان ، ويوم اليمامة . وكانت تقاتل في تلك المعركة مع ابنها عبد الله حتى قطعت يدها ، وجرحت اثنا عشر جرحا . أما موقفها الباسل في غزوة أحد فكان اكليل غار توجت به رؤوس بنات جنسها . فلما تناولت سيوف المشركين اصحاب النبي فولوا الادبار كانت بين العشرة الذين وقفوا يدافعون عنه ، فانتضت سيفها ، وذهبت تصول وتجول بين يدي الرسول حتى كانت من اظهر القوم اثرا ، واعظمهم في نجاته .

وقد رآها الرسول يومئذ تعصب جرحا ينزف دما في ذراع ابنها عمارة ، فما انتهت منه حتى دفعته

فأجابته ، وهي تريد انكار ذلك على عشيقهـا ، والتنويه بشغفه بها ، « لست اروي هـذا ، ولكنني اروى قـولـه :

« كـانـي انـادي او اكلـم صخـرة
من الصم لو تمشي بها العصم زلـت »

ثم انحرف عبد الملك الى بثينـة وقـال : « انت بثينـة جميل ؟ » قالت « نعم يا أمير المؤمنين » قـال: « ما الذي راى فيك جميل حتى لهج بذكرك بين نساء العالمين ؟ » قالت : « الذى راى الناس فيك فجعلوك خليفتهم . »

فضحك عبد الملك حتى بدا له ضرس أسـود ، ولم ير قبل ذلك ، وفضلها على عزة بالجائزة . ولكـن لكل بداية نهايـة . فهذه الشمائل ، التي حملها العرب معهم من شبه جزيرتهم الى انحاء العالم ، لم نلبث أن اصطدمت بالاخلاق الاخرى الاعجمية ، وانتهى التفاعل بينها وبينهن الى غلبة الكثرة على القلة . ثم تبخـرت بعـد ان دالت دولـة العرب ، وامسوا وقتئـذ رعيـة للاعاجـم . « وتلك الايام نداولها بين الناس . » .

بيـروت : محمد جميـل بيهـم



متحليات بخلال اخرى حميدة ، وعلى راسها الشجاعة الادبيـــة .

ان موقف تلك المراة فى المسجد حينما أراد عمـر بن الخطاب تحديد مهور النساء كان مثالا حيا على هذه الشجاعة الادبية . عمر بن الخطاب امير المؤمنين المهاب لا يتورع امرأة عن معارضته والقول لـه :

« بماذا يحل لك هذا والله يقـول : « وآتيتـم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » على ان الروعه كانت ابلغ حينما انصت لها الخليفة ، ثم قـال :

« امراة اصابت ، ورجـل أخطـأ . »

وهذا الحوار الذى جرى بين عمر بن الخطـاب وبين تلك المراة العجوز لم يدل على شدة الجراة الادبية فحسب ، بل كان ، فى نفس الوقت ، يـدل على اثر الاسلام فى تهذيب الاخلاق . فعمر رضي الله عنه كان، قبل الخلافة، ، على شدة فى الاخلاق نرهبهـا النـاس ، فاذا به ، بعد اسلامه فتوليه الخلافة ، يشتهر بالتواضع والتقشف والرحمه بالمؤمنيـن .

هذا وكان من المعروض ان تسد النوافد امـــام الجراة الادبية بعد ان صارت الخلافـة ملكـا عضودا ، ولكن اصالة البداوة فى الامويين بالاضافـة الى حلـم معاوية بن أبي سفيان أمد فى اجلها . وفى الجزء الاول من العقد الفريد لابن عبد ربه وغيره امثلة كثيرة عليها . وحسبنـا أن نقـرأ فيـه أخبـار الوافـــدات بـاعـا على معاوية من نصيرات الامام علي ، كأروى بنت عبد المطلب ، وسودة بنت عمارة ، وأم سنان بنت جسمة ، ودارمية الحجونية لنرى الدليل اثر الدليل على توفـر تلك الجراة بين نساء ذلك العصـر .

على ان حلم معاوية وسع ايضا اللواتـي حملـن السيوف فى صف علي ، وقاتلنه كالزرقاء بنت عـدي ، وام الخـير بنت حريش . فلمـا استتب لـه الامـر استقدمهما اليه ، وحاورهما فكان حواره معهما مثالا حيا على الجراه السـائبه ، وعلى الوفــاء .

استقدم ، معاوية الزرقاء عزيزة مكرمة . فرحب بهـا ، وهش لها ، وقـال :

« كيف حالك يا خالدة ، وكيف رايت مسيرك ؟ » قالت « خير مسير كاني كنت ربيبـة بيت ، أو طفـلا ممهدا » قال : « بذلك أمرتهم . فهل تعلمين لم بعثت اليك ؟ » قالت « سبحان الله أنى لي بعلم ما لم أعلم ؟ » قـال « بعثت اليك لاسالك . الست راكبـة الجمـل الاحمر بصفين بين الصفين توقدين الحرب ، وتحثين على القتال ؟ فما حملك على ذلك ؟ » قالت يا أميــر المؤمنين « انه مات الراس ، وبتر الذنب ، والدهر ذو غير ، ومن تذكر أبصر . والامر يحدث بعده الامر . » قال لها « صدقت فهل تحفظين كلامك يوم صفين ؟ » قالت « ما احفظه » قال « ولكني والله احفظه. لله ابوك لقد سمعتك تقولين (وذكر مقالتها) ، ثم قال « والله يا زرقاء لقد شركت عليا فى كـل دم سفكه . » فقالت « احسن الله بشارتـك ، يا اميـر المؤمنيـن ، وأدام سلامتك . مثلك من بشر بالخير وسر جليسه . » قال: « وقد سرك ذلك ؟ » قالت « نعم لقـد سرني قولك ، فانى بتصديق الفعل ؟ » قال « والله لوفاؤكم له بعـــد موته أحب الي من حبكم لــه فى حياتـه ؟ اذكري مـا حاجتك ؟ » قالت « يا أمير المؤمنين اني قد آليت على نفسي الا اسأل أميرا اعنت عليه شيئا أبدا ، ومثلـك أعطى من غير مسألة ، وجاد من غير طلب . » فـال : « صدقتك » واقطعها ضيعة علتها فى اول سنة عشرة آلاف درهم ، وردها والذين معها مكرمين . وقد مات معاوية بعد ذلك ، ولكن الجراة الادبية لم تمت بموته ، ولا سيما فى شبه جزيرة العـرب . ذلك بان شمائلهـا راسخة رسوخ الرمال ، ولا يقضي عليهـا الا مر كرور الزمان . وعلى رغم ما استفاض من انبـاء شدة عبد الملك بـن مروان القائل فى احدى خطبه :

« والله لا يأمرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقــه . »

وعلى رغم محاولته اخفات صوت الجراة الادبيه فان محاورته مع عزه كثير ، وبثينة جميل تشير الـى عجزه عن اخماد صوت الحرية فى جزيره العرب .

روى ابن حجـة الحمـوي فى كتابـه « ثمـرات الاوراق » هذا الحـوار فقـال :

« دخلت عليه بثينة وعزه فانحرف الى عزه وقال: « انت عزة كثير ؟ » فقالت « لست لكثير بعزة ، ولكني ام بكـر » . قال ، وقد اراد التلميح بسلو محبها لها ، « او تروين قول كثير ؟ »

وقـد زعمت انـي تغيـرت بعـدهـا
ومـن ذا الـذى يا عـز لا يتغيـر ؟

الفكري والعقائدي يستفحل ويتعمق بمرور الزمن ، الا ان هذا الفراغ لا يمكن ان يظل خاليا من فكرة او معتقد ولهذا يسارع الاستعمار الى محاولة ملء هذا الفراغ بكل ما لديه من وسائل وسيطرة ظاهرة وباطنة حتى يستعمر الافكار والقلوب ليملك الارض ومن عليهـا ...

والخطر الذي يداهم امتنا اليوم من جراء انعدام القيادة الايدلوجية الاسلاميه هو هذا الذي يزحف رحفا ساملا على عقول ونفوس اطفالنا وشبابنا من الجيل الصاعد الذى سيكون عما قريب عنوان الامة وقائدها ، ولقد اصبح هذا الجيل ينمو فى اجواء خاصة مكيفة تكييفا آسنا خطيرا على الفكر والعقيدة والحضاره الاسلامية ، انه يعد اعدادا مدروسا لكي يصبح « مسلما » من طراز عصري يحمل اسما اسلاميا عربيا ولكنه غريب القلب عن الاسلام وغريب اللسان عن العروبة .

وان الاهمية العظمى التي يولها اعداء الاسلام المغرب من احل جعله قنطرة تعبر عليها المؤامرات التبشيريه والدسائس الفكريه لتدل على مدى شعور الكفار الجاحدين للقيم الانسانية بخطر هذه الامة العظيمه . ذلك الخطر الذى يكمن فى عقيدة المغرب المسلم . وان اعداء الاسلام لم ينسوا الهزائم المنكرة التى منوا بها فى ميدان التبشير . تلك الهزائم التى كانت اشد خطرا عليهم من هزائمهم فى ميدان السلاح ، وقد كان ابطال تلك المعارك جماعة من البسطاء لا يحملون سوى عقيدة بسيطة وسوى رغبة فى نشرها عبر القارة الافريقية . ولقد كان المبشر اول من يتساءم عند ما يسمع بان فى منطقته مسلما من ذلك النوع الذى حذره منه اسلافه الذين فشلوا في ميدان التبشير . وانه ليصيب فى تشاؤمه اذ لا يلبث هذا الصوفي البسيط ان ينقض فى لحظة كل ما بناه المبشر فى اعوام .

ومن المعلوم ان افلات الافراد والجماعات من سيطرة المبشر معناه فى الحقيقة تحريرهم من قبضة الاستعمار ، غير ان من طبيعة الاستعمار عدم الياس ومواجهة الظروف بالخطط المناسبة . فهو يصارع التطور ويحاول ان يسابقه وان يبادره بما قد يخدم اهدافه ويجعل الحاضر والمستقبل لصالحه وطوع يمينه ، ولذلك لا نستغرب من الاستعمار عندما يتكرم على بعض الشعوب بالاستقلال لان هذا النوع من الاستقلال اصبح ضمن خطة استعمارية بعيدة النظر ، وفى الوقت الذي تحتفل فيه الشعوب الضعيفة بعيد استقلالها بما لديها من ابواق واجواق وفولكلور وخطب رنانة . فى هذا الوقت بالذات يشرع الاستعمار في تنفيذ الخطة الجديدة لتخريب الامة من داخلها ، ولذلك ما تزال تلفت انظار ارباب الحضارة الاسلامية فى هذا البلد ، الا اننا الآن يجب ان نحدد طبيعة المعركة بيننا وبين الاستعمار ونقدرها قدرها ، كما يجب ان نحدد ميادينها ووسائلها بدقة حتى لانظل حيارى تتيه في متاهات الارتجال والاعتباطية ، وان من اهم الميادين المستهدفه للاستعمار الجديد هي هذه الاعداد الكثيرة من اطفالنا وشبابنا الذين يحاول بهم افساد نظرتهم للحياة وتوجيه افكارهم وجهة لاترضي الله ، وفى القريب العاجل سيصبح هؤلاء الاطفال والشباب الجيل الكبير وسيتلوهم جيل صغير يتجرع نفس السم الذى تجرعه آباؤهم ، وهكذا ستتحد الجميع فى صفة واحدة الا وهى الفراغ من العقيدة ، ولهذا يجب ان نبادر نحن الى افساد خطة الاستعمار الجديد بخطة جديدة مؤمنة واعية قبل فوات الاوان ، وان المومنين مدعوون بكل الحاح الى تدارس الامر من جميع وجوهه، وبكل حماس ، وكفانا ثرثرة وجعجعة لا تغني ولا تسمن، وان محاولة الفرار من مواجهة المسئولية الجسيمة ببعض التعويضات التافهة وباتخاذ بعض الاساليب السلبية لنصرة الاسلام لهي حجة ضد اولئك الذين يظنون انهم يحسنون صنعا وهم فى الواقع لا يزيدون الا انكسارا امام السيول الجارفة من خطط اعداء الاسلام ، واذا لم يكن للاسلام انصار فى الوقت الحاضر يجندون انفسهم بالايمان والصراحة والتضحية والصمود فمنى سيكون له ذلك اذن ؟ ان الحاضر لينذر بخطر المستقبل هذا المستقبل الذي ان اخضعناه لعملية حسابية فان حاصل نتيجته سيكون الاجهار على الاسلام والعياذ بالله .

تطوان : عبد السلام الهراس

قبل فوات الأوان

للأستاذ: عبد السّلام الهـرّاس

ان من طبيعة الجماهير ان تنقاد وان تبحث عن قيادة تسير وراءها، ولم تخل امة من الامم من قيادة حتى الامم المنحطة البدائية، تلك سنة الله فى خلقه، وقيمة الامة فى قيادتها الفكرية، ولقد كانت القيادة فى العصور القديمة بسيطة لبساطة الحياة، كما كانت تعتمد اكثر على القوة الجسمية لان الصراع كان اقوى فى ميدان السنان والحروب، غير ان التطورات الانسانية اصبحت تفرض على القادة فى العصر الحاضر ان تتسلح بسلاح الفكرة، ذلك السلاح الذى اصبحت تعتمده الدول العظمى لغزو الشعوب الضعيفة، مستغلة فراغها الفكرى وبلبلتها الروحية، مستهدفة من وراء ذلك تكوين مستعمرين جدد يؤمنون بعبودية جديدة للاستعمار وبشرعية استغلاله وباهمية قيادته وبسرمدية تفوقه، وتكون لهم ـ اي للمستعمرين بفتح الميم ـ قدرة وسائط على العمل لارضاء السادة كما تجهز لهم ثقافة مختارة محددة لا تسمح لهم بالشعور بكرامة امتهم ولا تحملهم على الحنين لامجاد ماضيهم، بل انها تقطع الصلة بينهم وبين تاريخهم وبين اسلافهم الا من ثقافة محلية زورها الاستعمار وشحنها بالاكاذيب، وزيف حقائقها وقلب وقائعها وصور للوطنيين تاريخهم على نحو يحملهم على التنكر له والاشمئزاز منه والفرار من عاره وهكذا يستسلمون لاحضان ثقافة سيدهم التي هي نسيج من الاضاليل وتزييف الحقائق حيث تجعل من الرذائل صورا رائعة من الفضائل، وتسطو على كل مفخرة من مفاخر الانسانية وتنسبها لنفسها، غير ان المهم من هذا، هو تكوين قيادة مزيفة، ولكن مؤمنة باهداف الاستعمار الثقافي، وهكذا تبتلى الامم الضعيفة بطراز سخيف وخطير من القيادات يجهل مبادىء الاجتماع وحقائق التاريخ، ويحاول ان يجعل من امته امة ان لم تكن شبيهة بتلك التي لقنته ثقافتها المجهزة، فعلى الاقل ان يحاول التظاهر ببعض مظاهرها، وبما ان شرط الابداع والحضارة منعدم فى امة تكون قيادتها على هذا الشكل فان المسخ هو الذى يسود حياتها بشكل مضحك ومؤلم معا.

ولا يهم الاستعمار ان تظل الامة عاجزة عن السير ببلاده بل بالعكس يهمه اكثر ان تظل الامة الواقعة تحت سيطرة كهان ثقافته حائرة تدور فى الفراغ، قلقة الخطى سطحية التصاميم، لان فى ذلك فرصة له فى الاستمرار والقيادة، ولهذا نلاحظ ان الامم التي ما تزال تتعثر فى سيرها، هي تلك التي ما تزال قيادتها تتبنى وتؤمن بتلك الثقافة المسمومة التي تشل الارادة وتقيد الفكر وتجعل بعض قادة هذا النوع يتهمون امتهم بالبلادة وبانخفاض الوعي وبعدم القدرة على التجاوب مع الافكار التي يظنون انها سامية، ولهذا كان من شرط نجاح القادة ان تتعمق فى فهم النفسية للامة فهما مستقلا عن كل تأثير اجنبي او توجيه استعماري، وبذلك تستطيع القيادة أن تقف على حقيقة آمال الامة واهدافها ومكامن القوة والضعف فيها وطبيعة تكوينها ومزاجها وعلاقاتها التاريخية والعقائدية والفكرية، فان استطاعت ان تصل الى ذلك الفهم وان تؤمن بمبادىء الامة ايمانا عميقا خلاقا فانه يسهل على القيادة تعبئة الامة روحيا وفكريا وجسميا، والاهابة بها الى البناء والتشييد، وسترى المعجزة الجبارة التي ستستطيع الامة ان تظهرها فى لحظة وجيزة من الزمن.

ولهذا لا نستغرب ان وجدنا الفشل يحالف دائما وابدا القيادة الغريبة عن الامة، مما يجعل الفراغ

رواية مسلم من عظمة الرجل ، وما نصت عليه رواية ابى داود من انه كان عبدا ، غير أن هذا الظاهر من الناقض يذهب متى علمنا ان الرسول «ص» قال: « اخوانكم خولكم » فى كل من رواية مسلم وأبى داود وغيرهما . فقد بين أن العبيد اخوان السادة ، اذ لافضل لعربي على عجمي الا بالتقوى « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وقد نبه الله الى ذلك بقوله : « انما المؤمنون اخوة » . ولم يفرق بين سيد وخادم فى ذلك ..

قوله : « ساببت رجلا » معناه : وقعت بيني وبينه مسابة اي شاتمته . والمسابة مأخوذه من السب، والمسابه فيها مقاطعة بين المتسابين او قطع للمسبوب عن اللحاق بمن سبه ، ولفظ الحديث يدل على ان السب قد حصل من الجانبين اخذا من المفاعلة ، وقد صرحت رواية مسلم بما يفيد هذا ؛ اذ جاء فيها .. « قال اعيرته بامه ؟ » فقلت : من سب الرجال سبوا اباه وامه » .

قوله : « أعيرته بامه ؟ ، اى نسبته الى العار بسبب امه . وذلك لانه قال له : « يا ابن السوداء » ، كما يدل على ذلك قوله فى رواية اخرى : « قلت له : يا ابن السوداء » ، او لانه قال له : « يا ابن الاعجمية » كما يدل عليه ما جاء فى رواية ابى داود « وكانت امه أعجمية . فعيرته بامه » والفاء فى قوله « فعيرته » تفسيريه . ومعنى ذلك ان السب من أبى ذر كان التعيير بالام ، وقد يؤيد هذا الاخير ما جاء فى رواية مسلم ، قال : أعيرته بامه ؟ فقلت : « من سب الرجال سبوا أباه وأمه » فقوله « وامه » يشعر بانه زاد بتعييره بأمه ؛ ا لو كان التعيير غير زائد على السب لقال : « من سب الرجال سبوه » .

قوله : « أعيرته بامه ؟ » قول للرسول عليه السلام ، وظاهر انه استفهامانكاري ، ولهذا قال الرسول عليه السلام ، عقب هذا الانكار : « انك امرؤ فيك جاهلية » ، ولم يتبين من حديثنا ما اذا كان الرسول كان سامعا لهذا السب فتكلم بناء على ذلك مع أبى ذر ، أم بلغه فقال ما قال ، ولكن رواية ابى داود تبين وجه المسألة ؛ اذ جاء فيها فعيرته بأمه فشكاني الى رسول الله «ص» فقال : يا ابا ذر ... الخ .

قوله : « فيك جاهلية » اصل الجاهلية ، الفترة قبل الاسلام ، ولكن المراد هنا فيك خصلة من خصال الجاهلية ، فالرسول يزيد على توبيخه فى الجملة السابقة بالافصاح فى هذه الجملة عن ان التعيير بالامهات من الخصال التي تتنافر مع خصال الاسلام ، فيكون من قوله « أعيرته بامه » وقوله : « انك امرؤ فيك جاهلية » كمال الاتصال ، نظرا الى ان الثانية جاءت فى مركز التأكيد المعنوي للاولى من حيث انها جاءت مقررة للمراد منها وان خالفتها فى اللفظ ، ومن هنا فصلت عنها ولم تعطف عليها . ونحن اذا استعرضنا خصال الجاهلية التي هي معاصي وجدناها الشرك أ وما هو دون الشرك مما عده الاسلام من كبائر الذنوب أو صغائرها ، ولا جائز ان المراد هنا الشرك ونحوه كالكفر ؛ لان منزلة أبى ذر رضي الله عنه من الايمان كانت فى الذروة ، وليس من المعاصي غير الشرك ما يجعل صاحبه كافرا ، اللهم الا عند الخوارج فانهم يكفرون ببعض الذنوب ولكن النص القرآني يرد هذا الزعم بقوله : « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » فقد اعتبر المعاصي قسمين : أولا : قسم لايغفره الله وهو الشرك ، وثانيا : قسم يغفره ان شاء ، وهو ما دون الشرك ، ولسنا نريد بالشرك الذى لايغفر ما لايعم الكفر ، بل المراد منه ما يعمه ، ضرورة ان من آمن بالوحدانية وكفر بمحمد «ص» يكون ممن لايغفر لهم ؛ لقوله التالي فى آية اخرى: « ان الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها ، اولئك هم شر البرية » .

والظاهر ان هذا التعيير الذى حدث من ابى ذر كان قبل أن يعرف أن هذا محرم ، فكانت هذه لاتزال باقية عنده ، ويشير الى هذا ما جاء فى رواية البخاري لهذا الحديث فى كتاب الادب : « قلت على ساعتي هذه من كبر السن ؟ قال .. نعم » ، فان هذا يشعر بانه يعجب من خفاء هذا الحكم عليه مع كبر سنه .

قوله : « اخوانكم خولكم » الاخوة هنا مجاز عن مطلق القرابة ، لان الكل اولاد آدم ، او مجاز عن أخوة الاسلام . وعلى الاخير يكون المماليك الكفرة تابعين للمماليك المؤمنين فى هذا الحكم ، قياسا عليهم ، اي انهم يكونون كالمماليك المؤمنين فى مستلزمات الاخوة الاسلامية كحسن المعاملة ، واعانتهم فيما يثقل عليهم ، « والخول » جمع خابل وهو الراعي ، او الخادم ، وكل هؤلاء يقومون بالخدمة ،فهميتخولون شؤون مخدوميهم اي يصلحونها ، اخذا من قولهم : خال المال يخوله اذا أصلحه واحسن القيام عليه ؛ والظاهر من سياق الحديث انه يريد ان يخبر عن الخول بأنهم اخوان لمخدومهيم فكان مقتضى هذا الظاهر ان يقول : « خولكم

اشتراكية الإسلام

للأستاذ محمد كمال شبانة

روى البخاري عن المعرور قال : « لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة . فسألته عن ذلك . فقال : اني ساببت رجلا فعيرته بأمه ، فقال لي النبي «ص» : يا أبا ذر ، أعيرته بأمه ؟ انك امرؤ فيك جاهلية . اخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت ايديكم ، فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم . فان كلفتموهم فأعينوهم » رواه البخاري في كتاب « الايمان »

روى هذا الحديث ايضا مسلم عن المعرور وغيره من طرق متعددة ، وكذا رواه ابو داود والترمذي واختلفت الروايات في بعض عبارات الحديث . وسنعرض لها في حينها .

قوله : « لقيت ابا ذر بالربذة » الربذة موضع بين المدينة والبادية ، بينه وبين المدينة ثلاث مراحل .

قوله : « وعليه حلة وعلى غلامه حلة » الحلة في الاصل ثوبان من جنس واحد ، وظاهر حديثنا يدل على ان كلا منهما كان يلبس ثوبا واحدا ، اذ جاء فيها « رأيت عليه بردا وعلى غلامه بردا » . فقال « لو أخذت هذا فلبسته كانت حلة » ومثل هذا ما جاء في رواية مسلم « فقلنا يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حلة » وكذلك جاء في رواية أبي داود : « فقال القوم : يا أبا ذر لو أخذت الذي عند غلامك فجعلته مع الذي عليك لكانت حلة » وحينئذ يجب التوفيق بين هذه الروايات والرواية الاولى للبخاري ، وذلك يتأتى بأنه أطلق في حديثنا الحلة على الثوب الواحد من باب اطلاق الكل على الجزء تجوزا ، كاطلاق الاصابع على الانامل ، « يجعلون اصابعهم في آذانهم » فالحديث بظاهره يدل على أن ما كان يلبسه الغلام من جنس ما يلبسه ابو ذر ، الحال التي كان عليها ابو ذر وغلامه استلفت نظر القوم ، لانها كانت غير مألوفة لهم ، فأجابهم ابو ذر بما يدل على أنه اتبع في ذلك نص الحديث وفيه : « وليلبسه مما يلبس » أي من جنسه .

وقوله : « فسألته عن ذلك » يراد منه انه سأله عن سبب الباسه الغلام من جنس ما يلبس ، لا عن شيء آخر كنوع الملبوس او وصفه ، وباقي الحديث يدل على أن هذا هو المراد ، وانما سأله عن هذا السبب ، لان ذلك كان غير المألوف من عادات الناس في ذلك الحين اذ كان من عادتهم أن تكون ثياب المملوك دون ثياب سيده .

قوله : « اني ساببت رجلا ... الخ » ليس في هذه العبارة ما يدل على كنه الرجل الذي سابه أبو ذر ، أعظيم هو أم حقير ؟ سيد أم عبد ؟ او خادم ليس بعبد ؟ ولكن آخر الحديث ظاهر في انه كان من الخدم ، والخدم أكثر ما كانوا من العبيد ، وذلك قوله « اخوانكم خولكم » ورواية ابي داود تدل على ان هذا الخادم كان عبدا ، اذ جاء فيها « فشكاني الى الرسول «ص» ، فقال يا أبا ذر انك امرؤ فيك جاهلية » قال « انهم اخوانكم فضلكم الله عليهم ، فمن لم يلائمكم فبيعوه ، ولا تعذبوا خلق الله » ، فقوله « فبيعوه » يدل على انه كان عبدا ، وقد قال صاحب (منهج الراغبين) : « الذي نعرفه انه بلال » وقد زاد مسلم في رواية فقال : « ساببت رجلا من اخواني » اي اخوان ابي ذر ، وهذا يشعر بأن الرجل كان عظيما ، وليس بخادم ، وعلى هذا تكون رواية البخاري جاءت مطلقة ، ورواية مسلم قيدت الرجل بأنه من اخوانه ، او تكون رواية مسلم في ظاهرها متعارضة مع رواية ابي دواد ؛ لما اشعرت به

أبحاث ومقالات

أفق الكلمة والمفهوم

للدكتور: محمد عزيز الحبابي

لا يتعدى هذا الحديث ان يكون تعبيرا عن تجارب شخصية لرجل يحترف التعليم ، ويستهلك الحروف والكلمات والجمل ، قراءة وكتابة .

انني احيا تلك التجربة منذ سنين ، وسأحاول أن اجعلكم تحيونها معي هذه الليلة . انها تجربة صراع بين ذاتية وموضوعية . اما الذاتية فهي انا الذي احس واسعر ، فادرك واعي ، ثم احاول ان اجعل من ذلك حصيلة لتفكيري ولتأملي . واما الموضوعية ، فيجب ان تفهم في معنى خاص : يكون الشيء موضوعا اذا وقع عليه البحث او التجربة . وبالنسبة لما نحاوله الآن ، فان وسائل التعبير هي ذاك الشيء الذي نموضعه ، أي نجعله اداة وموضوعا للادراك والتفكير والتأمل .

الكلمة والمعنى :

الانسان حيوان يتواصل ، بالطبع ، مع الاخرين والكائنات والعالم . انه حيوان مدفوع بالفطرة والتكوين العضوي الى التعبير ، فالجسم البشري يرسم تعابير في حركات تصدر عن مختلف اعضائنا ، مثلا : انفعاج الشدق ، يعني (لا ابالي بتهديداتك) ، او (انك فنان)، ولمس السبابة بالابهام حركة يقصد منها (الدراهم) ، وهز الراس من الخلف الى الامام يدل على القبول (نعم)، والكلمات هي الاخرى تتصل مباشرة بالجسد ، ان الالفاظ ليست اصواتا ، بل اشياء تخرج من حلقومنا وفمنا ، وتشارك في ايجادها الاسنان والشفتان واللسان .

هناك تعابير مستقلة عن الجسم البشري ، مثل الظاهرات الطبيعية من برق ورعد وضباب وتغريد الطيور ونباح .. فكل ذلك لغة نفهمها ونستجيب لها .

ونتفاهم بلغات اصطناعية ، كما في الفنون مثل التشابيه ، كقولنا : (الوادي المذهب) ، والصور الشعرية كما جاء في هذا البيت لمامون الشناوي :
انـي سمعتكمـا ، انـي رايتكمـا

عيناك في عينيه، في شفتيه، في كفيه، في قدميه
ولنا لغة اخرى ، ولكنها اصطلاحية ، هي لغة العلوم ، انها تستعمل الصفر والابجدية في الكيمياء والاجرومية الرياضية (*) .

* * *

ان المجموعات التعبيرية تكون اما فردية او جماعية ، واما تعابير تتألف من الصنفين السابقين معا . يرمي التعبير الى احداث صورة ما وادخالها في مجموعة منظمة من الصور ، فقد يحصل تعبير بالصورة منفصلة ، او بالصورة في مجموعة من الصور ، كما يحصل معنى ثالث من التصاق الصور ، ويمتاز عن المعنيين السابقين . ففي البيت السابق نجد ان الصورتين الاوليتين (عيناك في عينيه) و (عيناك في شفتيه) من الصور الفقيرة المبتذلة ، اذا ما اعتبرنا كل واحدة منهما على حدة ، لكنهما يكتسبان خصوبة وجدة بالتحامهما ، فيتجاوزان معنييهما الى معنى ثالث ليس في ايهما منفردة ، فاذا اضفنا اليهما الصورة الثالثة (عيناك في كفيه) والاخيرة (عيناك في

(*) L'algorithme ، علم يرجع الفضل فيه الى الخوارزمي .

اخوانكم » ولكن عدل عن هذا بتقديم الخبر على المبتدا للاهتمام بالاخوة التي يريد ان يسبغها على هؤلاء الخادمين . وليكون في ذلك افادة قصر الخول على كونهم اخوانا ، اي ليسو الا اخوانا ، وهذا مما يستوجب الاحسان اليهم ، وترشيح هذا وصاية بهم بقوله في آخر الحديث : « فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ... الخ . وكذا قوله : المؤمن اخو المؤمن ، سبابه فسوق ، وقتاله كفر » فلم يفرق بين الخدم وغيرهم ، ولكن كثيرا منا تأخذه العزة بالاثم ، فيظن الخدم جنسا دون جنسه ، فمثل هؤلاء مخالفون لاصول الدين ، التي لو راعيناها لحمتنا من المبادىء الهدامة .

قوله : « جعلهم الله تحت ايديكم » اي ان أيديكم مبسوطة عليهم ، وهذا مجاز عن قدرة السادة او تملكهم لعبيدهم . قوله : « فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس » الاصل في الامر ان يكون لايجاد المطلوب ، لكنهم قالوا .. ان الامر هنا خرج عن اصله الى الاستحباب ، وسندهم في هذا ما حكوه من الاجماع على ذلك ، فيكون المعنى : يستحب ان يطعمه من جنس ما يأكله ويلبسه الخ .. » ولو أطعمه ما يقوته ولو لم يكن من جنس ما يأكل لكان قد ادى الواجب ، وكذا لو ألبسه مما يقيه الحر والبرد وان لم يكن من جنس ما يلبس . فيكون أبو ذر في عمله متورعا ، يأتي بأوسع مما يستلزمه الامر ..

قوله : « لا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم » التكليف الامر بما فيه كلفة ومشقة ، وليست مطلق المشقة في العمل مما يجعله داخلا تحت النهي الذي هنا ، بل الذي يجعله داخلا هو المشقة التي يصعب معها العمل ، ولذا قال : ما يغلبهم ، اي لا تأمروهم ان يقوموا بما يغلبهم وتعجز قدرهم عن القيام به ، ثم استدرك على هذا فقال : « فان كلفتموهم » اي ما يغلبهم فأعينوهم ، اي ساعدوهم على عمله ، فمفعول كلفتموهم محذوف ، لدلالة ما قبله عليه .

« ما يستنبط من هذا الحديث »

1 — الكف عن سب الخدم أحرارا كانوا أم عبيدا وكذا من يماثلهم في الخدمة من الاجراء الذين قد يحتاج اليهم لاداء عمل ما ، فلا يجوز لاحد تعييرهم بشيء من مكروه يعرفه في خاصة انفسهم او آبائهم .

2 — عدم الترفع على المسلم ولو كان عبدا او خادما او نحوهم من الضعفاء ، فقد تضافرت الادلة على التلطف بهم وعدم احتقارهم ، ولقد امر الرسول (ص) نفسه — وهو من هو في علو الخلق — بخفض الجناح للمؤمنين في قوله تعالى : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » .. فان في ذلك تقوية للوحدة ، وتوثيقا للتعاون ، ولا صلاح لامة الا بذلك .

3 — العمل على اطعام الخدم مما يطعم مخدوموهم ، والباسهم مما يلبسون بحيث يرضي نفوسهم ، ولا يتولد الحقد في قلوبهم على اسيادهم .

4 — عدم تكليفهم ما لا يطيقون من الاعمال ، سواء اكانت عدم الطاقة ناشئة من استدامة العمل او عدم القدرة عليه من الاصل ، فان كلفناهم بذلك وجب علينا اعانتهم ، وعلى هذا يكون ارباب الاعمال الذين يستخدمون الاجراء ، ويضطرونهم الى العمل المتواصل ساعات طويلة من الليل ، فلا يتركون لاجرائهم من الوقت ما يقضون فيه حوائجهم مخالفين لمقتضى هذا الامر العظيم ..

طنجة — محمد كمال شبانه

في بيئة بشرية ، حيث تخبر ، وتغير ، وتدفع الى التفاعل . والكلمات نقطة انطلاق الاعمال الفردية والجماعية ، انها منبع الحياة ومنبع الوجود ، بالنسبة للصور والافكار .

* * *

دور الفعل :

أهم اصناف الكلمات هي الافعال اذ عليها تأسس الجمل : الفعل يحدد الزمن ، ونوع الحركة او الحالة . لقد اتهم بعضهم اللغة العربية بالعقم ، لان وضعية الفعل فيها وضعية فقر ، اذ اشكال الفعل العربي قليلة جدا اذا قورنت بعدد اشكال الفعل في اللغات الهندية ـ الاوربية . فالفعل في لغتنا العربية لا يتعدى شكلين اساسيين ، الماضي والمضارع (أما الامر فهو صورة من المضارع تدل على معنى خاص) .

هذا هو الاعتراض الاول وهو اعتراض وجيه ، ومما يجدر بالذكر ان فقهاء اللغة العربية قد لاحظوا ذلك قديما ، وأغلبهم نحاة الكوفة ، كابن الانباري ، (*) لكن الذي قد غاب على المعترض هو اهتمام اللغويين العرب في عصور الازدهار ، بالافعال ، وكيف كانوا يجدون يؤرثون الى حد انهم اشتقوا الافعال من اصول جامدة ، فمثلا : لفظة «اسم» كلمة قديمة توجد في اللغات السامية الاخرى ، اخذها العرب واشتقوا منها « سمى ، يسمى » ومثل هذا بالنسبة الى «رأس» الذي اعطى « يرأس » و « وبنى » من « ابن » . فنحن اليوم لا نحدث بدعا عندما نشتق سيس ، وكيف ، وحس ، ورمس ، وأطر من شيء وكيف وحس ورمسان واطار . فعلام صيحة الجامدين ؟ . وقد تغافل ايضا الناقدون ان لغتنا تجعل الفعل في مكان الصدارة من الجملة ، اقول: « الصدارة » لا البداية ، لان الجملة الاسمية وان بدات بالاسم تؤول ونركز على اعتبار ان الفعل هو الاساس (*) فاذا قلنا ، مثلا « ان الليلة باردة » انعدمت كل فائدة من هذه الجملة اذا لم تفهم البرودة في علاقتها بذات تقول : « اشعر بالبرد ، هذه الليلة » او خذ معطفك ، ان الليلة باردة » .

ثم ان الاسماء هي ايضا « فاعل » واما «مفعول» فالفعل ، هو المحدد لحركة الاسم ، يرفعه او ينصبه سواء تقدم ام تأخر وسواء كان مذكورا ام مقدرا . ونزيد على ذلك ان الاقدمين قد عدوا (ليس) من بين الافعال وهي اداة نفي . اما الاعتراض الثاني فيتعدى قلة اشكال الفعل في العربية الى اتهام هذه اللغة بالخلط بين انماط الزمن . يضرب المنتقدون على ذلك مثلا بتداخل الفترات الزمانية في الآية القرآنية (البقرة 2 ـ 91) : (قل : فلم تقتلون انبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين ؟) . فالقتل قد وقع (من قبل) في حين ان الآية تعبر عنه بالمضارع الذي يدل على الحال او المستقبل .

نعم . هذا صحيح ، ولكن من حيث الصيغة فحسب، ان جميع القصصيين اليوم يستعملون هذه الطريقة لجعل القارىء او السامع يتصور الاحداث الماضية وكأنها تمر حاليا امامه ، كأنه يشارك فيما يقص عليه (*) لقد فطن قدماء النحويين ورجال البلاغة والتفسير الى تداخل انماط الزمن في الجملة الواحدة ذات المعنى التام المستقل ، فالزمخشري في **الكشاف** ، عندما وصل الى الآية (فريق كذبوا وفريق يقتلون) علق عليها بما يأتي : « فان قيل : لم جيء باحد الفعلين ماضيا والآخر مضارعا ؟ قلت : جيء يقتلون على حكاية الحال الماضية استفظاعا للقتل واستحضارا لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها » (*) .

(*) في كتاب « الانصاف » المسألة 72 .

(*) انظر ابراهيم السامرائي (دراسات في اللغة) بغداد 1961 ص 42 الى 50 .

(*) تعرف هذه الطريقة عند الفرنسيين بـ Le présent de narration وهو لون حي من الوان البيان يسمى في العربية (حكاية الحال) .

(*) ج 1 ص 270 الطبعة العامة الشرقية سنة 1307 . وفي تفسيره للآية (والله الذي ارسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت) يعطينا الشرح الآتي : (فان قلت : لم جاء فتثير على المضارع دون ما قبله وما بعده ؟ قلت : ليحكي الحال التي تقع فيها اثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب او تهم المخاطب ، او غير ذلك) ج 2 ص 239 .

قدمبه) هزنا شعور عنيف ، فتنفتح اعيننا على لوحة من اروع وأحبى اللوحات الفنية .

ان التعبير عن شيء بمثابة خلق جديد لذلك الشيء ، لانه تعيين، وتحديد، وتحقيق لهويته.

* * *

اذا تأملت في شيء فاني ، في الواقع ، أقوم بتعيينه ، ما دامت العملية التي تميز بها الاشياء تحمل ضمنيا ، معنى أو معاني ، **والمعنى هو الرابطة التي تجمع بين حياتي الفكرية وبين العالم** . فاذا عدت لا اسمي ما في العالم ، اي لا ارى الاشياء تجسم ما في ذهني من معاني ، وفي شعوري من احساسات ، ولا نوحي الي بمعاني واحساسات أخرى ، أصبحت اجنبيا في العالم واجنبيا بالنسبة لذاتي ، فلا تتم وحدة (الانا) الا في عالم المسميات . فاذا اضمحلت فوني على التعبير ، انفجرت وحدتي الذاتية (امراض الشخصية) .

للوجدان الفردي قوة تخوله التأليف بين ما في العالم من متناقضات وعناصر متباينة ، وفي نفس الوقت توحد بين مختلف العمليات الفكرية المنوعة ؛ فالوجدان هو مقر المعاني ومصنعها : تصدر عنه ولصالحه ، لانه نحيا بها ولها .

ان واقعية الشعور لا تتجلى الا في المعاني التي نجدها في العالم ، فنطلقها على الاشياء والكائنات والمعاني التي نريد ان نعطيها للعالم ولمعالم العالم .

فالمعنى شيء مجرد ينتج عن عمليات ذهنية مختلفة تكاملية : بتخيل الفكر الاشكال (والعالم كله اشكال) وبدخل التخيل على الاشكال رمزية فتتكون لدينا صور ، اما الذاكرة فتحتفظ بشيء يبعد عن الشكل بقدر ما يقترب من الصورة ، ويبتعد عن الصورة لانه في صميمه شكل : هذا هو المعنى ، نعني شيئا بين الشكل والصورة ، اما عملية التذكر فجهاز تجاذبي حيث لكل معنى ميل طبيعي للتداعي مع معاني اخرى ، فلا حقيقة للمعنى المنفصل .

يتم التنسيق بين كل هذه الفعاليات داخل الوجدان ، ففيه تقع عملية التولد الاخيرة للمعاني ، اي للاشارات ، وهل الاشارات ، في الواقع ، الا حركة مع دلالة ؟ واكبر ما تمتاز به الاشارات انه لا غاية لها في ذاتها ربما كانت الاشارة محسوسة (لوحة زيتية ـ لحن موسيقي ـ لافتة . .) لكن لها دائما غاية تتعالى فوق واقعيتها المادية . والالفاظ ، كذلك ان هي الا اشارات في افق نهيمن عليه مدلولات ، فما الجمال مثلا ؟ انه حقيقة نعترف بوجودها وتأثيرها في واقعنا ، ولكن ليس من بيننا من يستطيع ان يحدد (معنى الجمال) في تعريف ما :

اعباراتنا **شتى** وحسنك **واحد**
وكل الى ذلك الجمال يشير)

اذن ، الاشارة وسيلة ، وبما ان كل المفردات انما هي اشارات كما قدمنا نستخلص ان اللغة آلة تحل محل شيء آخر هو المعاني .

والمعنى لا يتولد عن حروف مقطعة ، بل عن كلمة ، او على الاصح **، عن كلمات نظمت على نسق خاص** . ففي داخل هذا النسق تأخذ كل كلمة كمائنها وبعالتها ، قد تقع ولادة المعنى دفعة واحدة كالبرق ، ولكن غالبا ما يحصل المعنى بشيء من التدريج مثله في ذلك مثل زيت أو مداد فوق الورق النشاف : تنتشر حولها بسرعة وتدريجيا في آن واحد . فاللغة، على هذا ، تستهدف خلق افق يتعدى نطاق الكلمات في الكلمات ، وب ـ الكلمات ، ولكنه **فوق** ـ الكلمات وابعد من الكلمات . نسمي هذا الافق ب ـ المطالقة (*)

* * *

ان اللغة صور محسوسة ظاهرة يكشف فيها الوجدان الفردي ليفهم ذاته ، وليعبر عن مكنوناته، وليتصل بشعور الآخرين . فحتى في المنام يفعل الحالم حركات ، او يتحدث جهرا ؛ وذلك الحاح من الذات الى تركيز حيويتها عن طريق الحواس .

فليس لاية قدرة من القدرات العقلية (تفكير ارادة ، تخيل . .) من سبيل الى القيام بمهامها دون الصور الجسمية او الكلامية . **فكل فكرة لا تصدر الا عن طريق الاشارة** . والروابط التي توجد بين الاشياء لن تستطيع ، ابدا ، ان تظهر لنا لولا وساطة **الكلمات،** اي الاشارات الفكرية التي تستعملها للتقدير، والترتيب والفهم ، وغالبا ما تصاحب الكلمة حركات (ابتسامة، او دمعة ، او تهديد بضم الاصابع في الكف مع مد اليد) . فالكلمات بوصفها اشارات لابد لها ان تتشيأ

---

*) كما نقول (الميطافيزيقا) أي ما وراء وفوق الطبيعة الفيزيائية .

هكذا تصدر عن العلامة ، وعن الاشارة ، وعن الرمز اعمال جسمية يتدخل فيها العقل : ان رد الفعل حكم يؤمر بتنفيذه (اللون الاحمر يشير الى الخطر اذن ، فيجب ان أوقف السيارة) فالعلامة والاشارة والرمز تخبرنا ، وتأمرنا (ومن هنا فهي تقرير للواقع واحكام ، ثم انها ، احيانا تفرض علينا أن نقوم بردود فعل ، ومن هنا تصدر احكاما تقويمية) .

ان السيكولوجيا المرضية والتحليل النفساني يعتمدان كثيرا على الرموز والاشارات والعلامات ، لدراسة الشخصيات غير السوية :

فالرمز : شيء مادي محسوس له قوة تمثيلية تجعلنا نتجاوز ماديته الى دلالة معنوية .

والاشارة : نتيجة صادرة عن عمل انساني يرمي الى غاية ، اي ان الاشارة موجهة ، الغرض منها ابراز واقع خارجي وابلاغه للاخرين .

والعلامة : اما شيء طبيعي يصدر بكيفية مستقلة عن كل قصد (او سلوك موجه)مثلا سعال المريض ، او سقوط الاوراق في الخريف . .) واما شيء اصطلاحي يكسبه مادته معنى خاصا ، موقتا او قارا .

فالرمز ، والاشارة ، والعلامة ، اذن ، ادوات تعبيرية ، لان التعبير نتيجة سلوك انساني (او جزء من هذا السلوك) يستهدف ترجمة حالة من الاحوال الشخصية ، او على الاقل ، يترجم عما في هذه الحالة قابل للابلاغ ، قابل لان يكون اداة تواصل .

* * *

هذه هي انواع الاشارات ، وقد عرضناها منفصلة الواحدة عن الاخرى ، فلننظر اليها الآن متكاملة متداخلة مجسمة في الظاهرات الاساسية لسلوكنا ، مثلا :

اللغة : هي الواقع المباشر الذي يتحقق فيه التفكير والوعي ، ان اللغة انعكاس وانعكاس العالم المادي في فكرنا ووعينا ، انها المادة الطبيعية التي تختمر فيها التفكير وينمخض عنها التواصل بين الناس . نعم ، اللغة ، اما مجموعة أصوات واما علامات مكتوبة ، فالمفهوم لا يأتي من هذه الاصوات والعلامات ، ولكن من التصاقها بشعور من صدرت عنه ، وحلولها بشعور سامعها او الناظر اليها . فاللغة ، اذن ، تعابير تتعدى المظهر المادي المحسوس : انها مجموعة روابط تنشأ بين شعوري كمتكلم او ككاتب ، وشعور مخاطبي وقرائي ، حاضرا واستقبالا (عن طريق تسجيل الصوت او المخطوطات او المطبوعات) .

والدين : يعني بالمصير الانساني يدفع المومنين الى التعالي ، متجاوزا عالم المحسوسات ، بيد ان الدين في نفس الوقت مجموعة طقوس يعبر بها عن عواطف متافيزيقية مقدسة وعن معتقدات تتعلق بعالم الغيب ، وبصدى وانفعال تلك المعتقدات في وجدان المومن وسلوكه .

والفن : يخلق اشكالا تعبر عن ميل للتناسق وتحقيق معايير جمالية مشتركة . فليست مختلف الحقول الفنية الا اساليب تعبيرية مختلفة ، الفن مجموعه من اشكال الوعي المجتمعي من ميادين المعرفة.

والعلم : منظومة مجموع ما وصلت اليه التجارب الانسانية من معلومات عن الطبيعة وعن الكائن البشري وعن البيئات الانسانية ، عبر التاريخ . مهمة العلم ان يترجم ، بعلامات واشارات ورموز ، الظاهرات الكونية والبشرية ، وان يعبر عن الحتمية التي تنسق العلاقات بين القوانين التي تنظم السير العام في الكون .

والدستور : يحدد كيف يجب ان يكون السلوك الفردي والسلوك الجماعي ، ويخطط نطاق الاعمال المشتركة (التجارة ، والامن الداخلي والخارجي ، والسياسة الاقتصادية . .) فالدستور لغة من حيث شكله (لانه مكتوب) ولغة من حيث محتواه (لانه مجموعة تعابير عن ارادة المشرع) .

* * *

هكذا نرى **أن اللغة تتركز في جسمنا ، وهي محور حياتنا الفكرية ، والوجدانية ، والمجتمعية ، انها لا تنفصل عن مجموع الفعاليات الانسانية** . لذلك لا يجوز أن ندرس مشكلة التعريب ، وبصفة اعم مشكلة التعبير ، منعزلة عن سير التاريخ الحضاري الانساني ، وعن الدور الذي لعبه العرب في الماضي، وعن الدور الذي يجب ان يلعبوه اليوم بالنسبة للحضارة الانسانية المشتركة . فاللغة اي لغة ، لا تحيا الا حين تنشر الثقافة ، الا حيث يسود الفكر الخلاق . فكلما شجع المثقفون على القيام بمهامهم تقوت اللغة وكان رد الفعل لهذا التشجيع ان اللغة بدورها تنمي انتشار الثقافة والمساهمة في رقي الحضارة ، ان اسس الحضارة هي المعتقدات والفنون والعلم والدساتير . . وما اللغات الا منظومات من الوسائل للتعبير عن تلك الاسس ولتوعيبها في الافراد والبيئات ، فليست الثقافات الوطنية ولا الحضارة الانسانية الا تفاعلا مستمرا بين المعاني والتعبير عنها .

ـ يتبع ـ

الرباط ـ محمد عزيز الحبابي
عميد كلية الآداب

اصنـاف الاشـارة :

لقد قلنا ان الكلمات اشارات ، لكن ، يجدر بنـا ان نفرق بين الاشارة والرمز ، فالرمز اشارة مصورة، لها شكل يحتوى على صلة معقولة تربطه بالشيء ، او بالفكرة ، او بالحركة ، عن هـذه الصلة نخاطب العقل فيفهمها . هذا معنى اول للرمز ، اما المعنى الثاني فيجعل من الرمز اصطلاحا مجردا ، **((شيئا))** اعتباطيا، اى اشارة خاصة تتكيف لتصير جهازا تعبيريا مركبا، وفى وقت واحد اداة استعمال هذا الجهاز. فلابد للرمز من ان يتوفر على مجموعة من صفات تحدد العمليات التي يتضمنها والتي تقصد من وجوده ، امثال الرموز الرياضية). على ان المعنيين المتقدمين لا يتناقضان بل على العكس ، يتحلان : ففي كليهما دلالة واختصاص. فالرمز المصور ليس اقرب الى الطبيعة من الرمز الاصطلاحي ، فلناخذ تمثالا من مرمر ولنتأمله فـاذا اعجبنا بقدرة الفنان الذى صنعه ، وبهرنا بالدقة التي نحتت بها العينان ، وبالمهارة التي صورت بها الملابس الى غير ذلك ، حصل بيننا (كذوات) ، وبين التمثال (كموضوع) تواصل وشبه حوار صامت . ان هـذا التمثال ، او بتعبير اصح ، هذا الرمز يعبر عن شيئين اولا عن انتصار الانسان على المادة التى صنع منهـا التمثال ، ويرمز ثانيا الى المعنى الذي نسبغه عليـه (انتصار ، او موت ، او ثورة ..) فللرمز ، اذن وظيفة مزدوجة : انه تعبير فى حد ذاتـه (فى المعنـى الاول) وهو محرض على التعبير (فى المعنـى الثاني) ، ثم ان الرمز يعكس اشارة ، ويتجلى كحركة انسانية ، كعمل صادر عن قصد : فتمثال ((الليـل)) لـ (ليونـار دى فانسي) يدل على بؤس ايطاليا وعلى الشقاء عنـد الانسانية عامة ، والتمثال التذكاري ببورسعيد ، يعود بنا الى العدوان الثلاثي على قناة السويس وذكرياتـه الاليمة . وتمثال محمد الخامس بالمتحف الشعبي بحى الليمـون فى الرباط ، تمجـد بـه الفنـان احمـد الادريسي انتصار القوات التحررية على الاستعمار ، كل ذلك صفحات تاريخية غير مكتوبـة ، ولكنهـا فصيحـة .

* * *

يجب أن نضيف الى الاشارة والرمز ، عنصـرا تعبيريا ثالثا ، هو **العلامة** ، فالاشارة تعتمـد علـى علامات مثلا : الالوان المنظمة لسير السيارات بالمدن:

الاحمـر : خطـر = قف !

الاخضـر : سلـم = تحرك !

فموقفنا من هذين اللونيـن يختلف من الايجاب الى السلب . هناك لون آخر ، هو الاصفر ، الـذي يدل على الحياد = تهيأ ، انه يستلزم موقفا ثالثا ، قد يكون ايجابيا او سلبيا للسير او الوقوف . ان الاشارات تهدف الى تكييف سلوكنا من بعض الوجوه : فالهندام ، والاناقة ، وتناسب اللبس ، تعابير حضارية ، ونفس الشيء يقال عن طرق الاكل واللباس .

يحكى فى المغرب ، عن شاعر من شعراء الملحـون السيد عبد الرحمن المجذوب دفين مكناس ، انه ذهب يوما لوليمة كبرى وقد لبس جلبابا وسخا وسلهاما باليا ، فلما دخل الى دار الحفلة، قيد الى جانب السوقة والطفيليين ، فاغتاظ من ذلك ، وقصد توا منزله فلبس ثيابا نظيفة ملائمة ، ثم رجع الى الوليمة فاستقبـل باحترام وترحيب يلائم مكانته، وانزل فى جهة الضيوف، وعند الطعام ، اخذ يغمس كمـه فى الطاجين ويقول : (كل يا كمي .. انك المستدعي ، لا انـا ..)

ماذا نستخلصه من هذه الحكايـة ؟ ان المظهـر الخارجي من العناصر الاساسية التي تكون شخصيتنا المجتمعية ، ذلك ان الـ ((انا)) لا ينحصر فى الكينونة . بل انه الكائن والعندية او التملك (l'être et l'avoir) فالسيد عبد الرحمن المجـذوب لم يكـن على صواب عندما غضب لما حصل له ، ذلك ان المجتمع لا يستطيع ان يتعرف على اى شخص الا من خلال افق مزدوج : ما هو هذا الشخص وما لـه .

فالعندية مجموعة اشـارات ضرورية للتعـرف تتجلى فى المظاهر الخارجيـة ، مـن ثياب ، واناقـة والهندسة المعمارية ، والزخرفة ، وكـل ذلك اشارات حضاريـة مميـزة .

للعلامات الخارجية قيمة مجتمعية هامة ، خصوصا العلامة القصدية، انها تهدف الى ردود افعال مستعجلة مثلا : السعال يشير الى وجود زكام او اصابة صدرية، اما السعال المصطنع فيدل على التهكم لان له معنـى خاصا يتعدى به مستوى العلامة الى مستـوى الاشارة ، ولكنه يبقى دون الرمز ، ما دامت لا تدخل فيه الصورة ، فالعلامة ، ولو نتجت احيانـا عـن عمـل انساني ، ليست الا جزءا من شيء ، وهذه الصفـة وسيلة للمعرفة (السعـال يحـدد موقـف الطبيب ونتائج الفحص الطبي، ويحدد سلوك المريض ومن حول المريض ، كالوقاية من العدوى ومراعاة ما يسهل معالجة المريـض) .

وناهيكم بها سعة نروعنا ، نحن الناطقين بالضاد، ونملأ اذهاننا وقلوبنا وارواحنا اعجابا وفتنة وسحرا ، بيد ان الامة العربية بالبداهة ليست وحيده في هـــذا الكون . وهناك الى جانبها امم اخرى ذات شأن لا نشعر بأي مركب نقص تجاهنا رغم اننا نطويها جميعا تحت لفظ « الاعاجم » ؛ بل ان من هـــده الامـــم مجموعـــة لا يستهان بها تمضي الى ابعد من ذلك فتنفي علينا ملكة الافصاح وحسن التعبير . ومنها من يجادل في قابليـــه لساننا الصريح لاداء الفكر الذي يرقى عن اعراض الحياة الدنيا الى سماء التجريد زاعما ان العلم يدلل على ذلك، واذا كانت الفلسفة ارقى اشكال التفكير المجرد كما هو معلوم . (اذكروا كيف كان ارستوفان يمثل سقراط في محفه معلقه بين السماء والارض) . واذا صـــح قـــول جان سكوت اريجين ان مـــا من احـــد يلـــج ملكـــوت السموات الا من باب الفلسفة . فمعنى ما تقدم انــــنا عاجزون عن الرقي الى اجواء التفكير الجدي والنظـــر العقلي . واننا في تلك الميادين الرفيعة مقضي علينـــا ان نظل كالطيور زغب الحواصل قاصرين مقصرين .

وحسبكم من تأكيد كهذا يرسل باسم العلـــم ان ماله الى سمة دائمة على وجه الدهر تلحق بأمة تعتبـــر نفسها خير امه اخرجت للناس . ولو لم يكن من خطر هذه الوصمة الا انها تشكك المرء بقيمة ذاته فضلا عن تشكيك الآخرين بمثل تلك القيمة لكفى بذلك حافزا الى تحليلها وتمحيصها ورجع البصر فيها كرتين . واذن . فنحن نحب في هذه المحاضرة ان نعالج هذه المشكلـــة متدبرين وجوه القول فيها . عارضين عليكـــم حجـــج اصحابها بصورة موضوعية . ثم معترضيـــن على ما تكون فيها من مواطن الضعف لا مسوقين بفكرة سابقـــه ولا صادرين عن غرور واهم او عصبيه عمياء ، وانما نمارس في هذا عمليه النقد بالمعنى المنزه عن الغرض الـــذي كان البدوي الاول اسرع الى استعماله يوم قال في ناقته :

تنفي يداهـــا الحصـــا في كـــل هاجـــرة

نفـــي الدراهـــم تنقـــاد الصيـــاريف

الا ان هذه العموميـــات ممعنـــة في التبسيـــط ، والمشكله اعقد مما نظن ، فهي محتاجة الى جهد تحليلي قد يؤول الى عكس ما يتبادر الى الذهن ـ بادىء الراي ـ من ان اللغة مرآة الفكر فلننـــر مصباحـــا قليـــلا قـــبل الدخول في جوف الموضوع ، ولنضع الصورة في اطارها العـــــام .

ولنبتدىء فنقرر انه لم يعد يجادل احد اليوم في معضلة طالما شغلت الباحثين ، وهي التســـاؤل عـــن اللغة اهي وحي نزل كاملا على قلوب طائفة من بني آدم ولا يد لهم في تبديل خلقه ، ام هي مجرد اصطلاح اتفق عليه البشر اتفاقا بصورة من الصور ، وقديمـــا خاض الامام السيوطي صاحب المزهر في هذه المسألة بالتطويل وعرض لاراء من يقولون انها « توقيف » متخذين دليلا من قوله تعالى (وعلم آدم الاسماء كلها) ، ثم بين حجج من جزموا بانها (وضع) و (تواطؤ) ، كما ان مفكري العصور الحديثة لم يفتهم الجدل حول هـــذا الشأن ، ومن اواخر اصحاب النظرة الاولى التي تجعل اللغـــات ضروبا من السجايا الغريزية موهوبة من تلقاء الفطـــرة البيولوجية جوزيف دوميستر و دوبونالد . ومن الذين جعلوها غريزة عقلية رونان وبين ، الا ان اتجاه العلـــم البسيكولوجي والسوسيولوجي الحاضـــر قائـــم على التسليم بانها وضع اجتماعي لا مجال للشك فيه . وعلى الرغم من ان تقرير هذا الامر ينفي كون اللغة ظاهـــــرة (حيويه) تتفاوت بتفاوت العروق وتستلزم تبعا لهذا ان تطورها راجع الى قوانين خارجة عن جبلة البشـــر الطبيعيه . وحتى عن اراداتهم الاعتباطيـــه ، فان ممـــا لا جدال فيه ايضا ان اللغة لا تقوم الا في الاذهان وان ذلك التطور لا معنى له الا اذا تم في افهام تتفاعل ديناميكيا مع ما تحمل اليها . فمن هنا ، كان للمعضلة جانب نفسي يجب ان يؤخذ في الاعتبار ، ولابد من ادخال عوامـــل تصوريه ابنة الى جانب عوامل التطور الخارجيـــــه الموضوعيه . وهذه المسلمة هي ما اعتمده رجل مثـــل السيد فاندريس عميد كلية آداب باريز السابق ، وهو من ائمة علم الاشتقاق في كتابه الشهير : اللغه

ذهابا من هذه النقطة خاض العلماء في طبيعـــة اللغه وصلتها بالتفكير ، ولاحظوا ان اللغة انما هـــي تعبير رمزي عن التأثيرات الداخلية للكائـــن الحـــي ، فالانفعالات المختلفة التي تعتلج في صـــدور الاحيـــاء لا تلبث في مبدا امرها ان تلبس سحنة ظاهرة تتجلـــى بالملامح لكي تفصح عن ذاتها للآخرين . وما ائتـــلاق الحدق . وانتفاخ الاوداج وتحريق الأرم ، ولجلجـــة الصوت الا آيات عفويه اولية بها يتميـــز الحيـــوان من الفيظ . لكنه مذ يتم للكائن الذكي مستوى عقلي مرتفع من شانه القدرة على التحكم الارادي بالصوت جاعـــلا اياه اشارة على غرض من الاغراض الباطنة ، اي عند ما تتوفر للفرد ملكة الربط بين اللفظ والمعنى يصطنـــع النطق المفيد او لغة الخطاب سبيـــلا للابانـــة عـــن ذات نفســـه . نعم ان هناك احوالا من التفكير اشار العلـــم

الفكر الفلسفي واللغة العربية

للدكتور حكمة هاشم

الدكتور حكمة هاشم من الاساتذه المبرزين في جامعة دمشق والذين يرتبط اسمهم بالنهضة التعليمية في سورية ، يحمل اجازة في الحقوق واخرى في الاداب ودكتوراة الدولة في الفلسفة من جامعة باريز ، مارس التعليم مدة طويلة ، اذ عين عميدا للمعهد العالي للمعلمين ثم استاذا بكلية الاداب في الجامعة ، وانتخب عضوا عاملا في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وقد مثل بلاده في مؤتمرات علمية كثيرة في اقطار متعددة من اوربا وامريكا واسيا ، وفي سنة 1958 عين مديرا لجامعة دمشق . وفي المدة الاخيرة استدعته جامعة محمد الخامس بالرباط ليقوم بتدريس مادة الفلسفة .

من مؤلفاته : نقد الغزالي لمذهب المشائين ، والافلاطونية المحدثة ، ميزان العمل بالفرنسية ، المدخل الى علم النفس الجماعي ، المجتمع العربي ، ابحاث في التربية .

ودعوة الحق التي تعتز بصداقة الدكتور حكمة هاشم تتمنى له مقاما سعيدا ، وترجو ان تظل علاقته بقرائها متينة ومتصلة .

« دعـــوة الحـــق »



* ان الموضوع الذى طلبت الي المحاضره فيه هو « الفكر الفلسفي واللغة العربية » وهو جزء من موضوع اكبر يدور حول علاقة الفكر باللغة . وليس من شاننا هنا ان نأخذ في دراسة هذه المشكلة الواسعة . ولا ان نتناول بالتفصيل المذاهب المتعددة المتصلة بحلولها . فقد كفانا الباحثون الاختصاصيون من علماء النفس وعلماء الاشتقاق مؤونة ذلك ، وانتهوا الى تقرير صلات عضوية ملتحمة بين التفكير الذى هو طريقة تصورنا للوجود في جملته ـ بما في ذلك تصور الذات ـ وبين اللسان على اعتباره اداة لنقل ذلك التصور وابلاغه للآخرين . ولهذا جاز من حيث المبدأ ، ان ندور بحث عن طبيعة العلاقة بين فكر ما ، كالفكر الفلسفي ولغة كاللغة العربية . ولذلك اثار بعضهم مشكلة من النوع التالي . هل اللغة العربية اداة ميسورة مطواعة للتفكير الفلسفي ؟ والى اى حد يمكن اعتبار هذه الاداة كاملة بالقياس الى اللغات الاخرى ؟ وابادر فاعترف لكم ايها السادة . انه قد يبدو لبعضكم ان من باب المفارقة العجيبة اطلاق لفظ « مشكلة » على مثل هذا التساؤل . وانتم على حق في هذا العجب لانكم تعلمون مبلغ ايمان العرب اجمعين باتساع هذه اللغة الشريفة التي شاء لها شاعر النيل حافظ ابراهيم ان ينشد :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آي به وعظات

*) القيت هذه المحاضرة على مدرج كلية الاداب بجامعة محمد الخامس ، وتدخل في اطار الموسم الثقافي الذى تقوم به الكلية ويشرف عليه عميدها الدكتور محمد عزيز الحبابي .

ان لهذه الملاحظة فى نظرنا لاهمية ممتازة بصدد ما نحن آخذون فيه ، ذلك انه لو صح بمعنى الكلمة الحر فى ان اللغة مرآة التفكير لعكست آجرومبات لغات الممدنين صورة منطقهم السليم . والحال ان اهل تلك اللغات الراقية يشاركون غيرهم من اهل اللغات الموهوم بها التقهقر « لا منطقية » نحوهم على الاقل ، واذن فقد بطل الزعم بان الالسنة مرايا الافكار ، فيها ينعكس ظلها وشكلها وهيئتها الاولية . ويترتب على هذا — وهنا بيت القصيد — القيمة النسبية فقط التي يجب ان نوليها لضرب من الابحاث ناجم عن تلك النظرات المبسطة : ذلك هو امر بسيكولوجيا الشعوب المستندة فيما يستند الى اللغات المقارنة . ان بعض علماء اللغات المغرمين بالكشوف الطريفة قالوا بامكان قيام سيكولوجيا « فرقية » لشعب من الشعوب بالاعتماد على طرائق تعبيره اللغوية والتعبيرات اللاحقة بمدلولات العاطفة . ونقطة الانطلاق فى هذا النهج انما هو الافتراض بان اللغة من صنع العقل الجماعي فلابد ان تكون مستودعا يسفر فيه كل ما ينشا عن هذا العقل من آثار . ومن امثلة ذلك انصرافهم الى تفحص اللغات عنى وفقرا من حيث التراث اللفظي الذي يدل على نمط بدوي او حضري . والنهوض به دليلا على عقلية عريزية معينة . فاذا اتفق للانكليزية ان كانت غنية بالالفاظ الاقتصادية ، زعم الزاعمون ان اهلها « مفطورون » على التجارة ، او اتفق لليونانية رصيد موفور من الالفاظ المجردة . وللعبرانية حصيلة لا بأس بها من الالفاظ الدينية قال القائلون : لامر ما كانت الفلسفة فى يونان ، والنبوءات فى بني اسرائيل . لا جرم ان النقاد احاروا مسايرة مثل هذا البحث الى حد ما من حيث ان هنالك لونات خاصة نفسية واجتماعية يفصح عنها دراسة خصائص لغة قوم من الاقوام ، ولكنهم ابوا ان يقروا (وهذا هو موقف فاندريس) بان تكون معيارا يعايرون به العقلية القومية لعرق من العروق . ولئن طاب لنا مثلا ان ننسف من وراء اطلاق اسماء الحيوانات على الاشخاص عند الالمان او الفرنسيين ميلا نفسيا عند هؤلاء واولئك فنتخذ منه شاهدا بحسب الاحوال على عقليتهم المغرمة بالتهكم او المداعبة او الاحتقار او التنمية ، فانه مما لا يجوز بحال من الاحوال ان نتخذه سبيلا نسفيا الى بسيكولوجيا « عرقية » كتلك التي باشرها ارنست رونان بحق الساميين — والعرب جزء منهم — والتي سنتناولها بشيء من التفصيل . ولكن قبل ان نمضي لشأننا نحب ان نفتح معترضة تاريخية فنشير الى ان القضية ليست جديدة علينا نحن العرب ، وان تاريخنا الادبي قد سجل منذ القديم آثار المقارنة بين العرب وغيرهم من الاقوام من زاوية اللون المميز او الهيئة التي تبدو بها على الالسنة ثمار القرائح . ومن امتع ما فى هذا الباب كلام للشهرستاني من رجال القرن السادس الهجري (الثاني عشر م) فقد قال فى الملل والنحل : (من الناس من قسم اهل العالم بحسب الاقاليم السبعة . واعطى اهل كل اقليم حظه من اختلاف الطبائع والانفس **التي تدل عليها الالوان والالسن** . ومنهم من قسمهم بحسب الاقطار الاربعة التي هي الشرق والغرب والجنوب والشمال ، ووفر على كل قطر حقه من اختلاف الطبائع وتباين الشرائع، ومنهم من قسمهم بحسب الامم فقال : كبار الامم اربعة : العرب ، والعجم ، والروم ، والهند . ثم زاوج بين امة وامة فذكر ان العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد . **واكثر ميلهم الى تقرير خواص الاشياء ، والحكم باحكام الماهيات والحقائق ، واستعمال الامور الروحانية** . والروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد واكثر ميلهم الى تقرير طبائع الاشياء والحكم باحكام الكيفيات واستعمال الامور الجسمانية) وسواء احمل هذا النص — كما فعل احمد امين فى فجر الاسلام ص 49 — على محمل التسليم بالراي الذى قرره بعض المستشرقين من ان « طبيعة العقل العربي لا تنظر الى الاشياء نظرة عامة شاملة » ام لوحظ فيه — بمثل براعة مصطفى عبد الرزاق — استعداد العرب وميلهم الى « الاحكام الكلية والامور العقلية والمجردات » ونزوعهم الى « الروحانيات » فان فيه التفاتا الى قيام رابطة من شانها ان تتميز بالدقة والاحكام بين تفكير العرب ومظهر هذا التفكير ، وقد سبق لصاعد الاندلسي (المتوفى قبل الشهرستاني بزهاء بضعة عقود من السنوات) ان تحدث بهذا المعنى فى طبقات الامم (*) فقال عن العرب : « واما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله عز شيئا منه ، ولا هيأ **طباعهم** للعناية به ، ولا اعلم احدا من صميم العرب شهر به الا ابا يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي ، وابا محمد الحسن الهمداني » . هذا ، ولا ننسى ان ننبه فى هذا المقام على موقف ابن خلدون حول المقارنة التي نحن بصددها ، ذلك الموقف الذى ربما رمي بالشعوبية من اجله — ولكن ظلما

(*) ص 45 ، طبعة بيروت)

البسكولوجي الى استحالة تلبسها بثوب البيان الكلامي وهذا ما اشار اليه المتنبي منذ الف سنة في بيته الخالد :

رب مالا يعبر اللفظ عنه
والذي يضمر الفؤاد اعتقاده

ولكن الحال السوية والعامة انما هي اتخاذ القول وسيلة للافادة عن المشاعر ، وان نكن من الواجب التحفظ على هذا الاطلاق بالصيغة التي اجملت في بيت الحطيئة على نحو عبقري :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا

كيف ما كان الامر فان الالسنة تظل الادوات الوحيدة لابلاغ المقاصد ، وان شئتم فقولوا انها ضروب من التكتيك ، نستعين بها على الخروج من ذواتنا والنفاذ الى الآخرين . وهي ، ككل ضروب التكتيك ، فمهمتها متوقفة على درجة سلاحها للوصول الى الفرص الذي اتخذت من اجله . وعلى مقدار حظها من التطور (الذي هو مرتبط بمبلغ مرونتها وقابليتها للتكييف) تكون نفعها وجداؤها ومردودها . فاللسان المتطور انما هو ذلك الذي قدم للفكر من بين جميع المخططات الصوتية الممكنة خيرها للترجمة عن الدقائق الخفية التي تدور في خلده ، هو ذلك الذي وفر لصاحبه بما وسعه في يده من آلات التحليل قدرة على تمييز مفاصل الفكر تمييزا واضحا مبينا ، هو ذلك الذي وفق لاختراع قوالب في التعبير تنصب فيها المعاني بيسر وسلامة . ولكن دون ان يورثها القالب من جراء صلادته تحجرا لا سبيل معه الى نمو حي ، وبعبارة ابسط هو ذلك الذي يجاوب مع التفكير في حركته الموارة فلم يعوق مجرى تلك الحركة، بل اعانها على التقدم المطرد .

ولعل هذه الخصلة التي اتينا على بيانها هي التي دعت الى قيام علم اللغات المقارن لتتضح الخصائص المميزة لكل لغة من اللغات فتتجلى بذلك خصائص فكر اصحابها ، وعندها يحصل التساؤل بصورة طبيعية : اي الالسنة أدى دوره خير اداء ؟ وايها احق ان تصطنع لكونه ادنى الى المثل الاعلى واشدها تكاملا ان لم يبلغ مرحلة الكمال ؟ .

والواقع انه قد اجريت بالفعل ابحاث مستفيضة في فقه الالسنة (في مظهريها السيمانتيكي والمورفولوجي) واستندت هذه الابحاث على دراسة المعاجم من جهة ، وعلى دراسة الاجروميات من جهة اخرى ، وانتهى فيها الى حقائق ثمينة بالنسبة الى اكثر اللغات . ولست بحاجة الى ان اشير الى الجهد المنقطع النظير الذي بذله علماء العربية الاقدمون في هذا الميدان ، وان كتبا كخصائص ابن جني ، ومجمل ابن فارس ، و مزهر السيوطي هي من الكنوز النادرة التي لا تقل في شأنها بالنسبة لعنتنا عن شأن كتاب ككتاب برونو الشهير « الفكر واللغة » بالنسبة للسان الفرنسي ، الا ان هذه الدراسات على جلالة قدرها اشبه بان تكون « مونوغرافيات » او تحاليل مستقلة للغة بعينها ، وليس يقوم علم اللغات المقارن الا اذا كانت هذه التحاليل استنفادية ستغرق لغات الارض بحذافيرها فلا تدع منها صغيرة ولا كبيرة الا احصتها واستوفتها دون تفريط في جانب من الجوانب ليمكن بعد ذلك قيام « تركيب » سليم بالمعنى العلمي الصحيح . وعلى الرغم من ان تركيبا علميا كهذا لما يتوصل اليه ، فان المحاولات الجديدة التي باشرها اصحاب فقه اللغات المقارن اسفرت عن بعض الحقائق الخطيرة . ومن هذه الحقائق حقيقة احب ان اشير اليها بصورة خاصة نظرا لاهميتها بالنسبة للموضوع الذي نعالجه وهي عدم التوازي بين المنطق والاجرومية . اي ان نظام الفكر وقواعد العبارة غير متلازمين ولا متساويين . ولذلك استوى من حيث الفهم تقديم الفعل على الفاعل في بعض اللغات وتأخيره عنه في بعضها الآخر ، على الرغم من قيام ترتيب منطقي بينهما من حيث الاصل وبتعبير آخر . ان مقولات المنطق (وهي العلاقات الصورية المختلفة التي تيسرها الفلاسفة سائدة التفكير : كالكيف والكم والجوهر والعرض . الخ . .) لا تطابق « مقولات » النحو وهي اجناسه الكبرى ان صح التعبير (كالاسم والفعل والحرف والتذكير والتأنيث والبناء والصرف والافراد والتعديد والتثنية وهلم جرا . .) فهنالك من جهة لغات تتفاوت في عدد الصور النحوية زيادة ونقصا ، والتثنية التي عندنا بالعربية لا وجود لها بالفرنسية ، كما انه في بعض اللغات مدلولات لا جنس لها (شأنها كشأن الملائكة) اي ان ارباب تلك اللغات يريدون على ما عندنا (مثلا ، حادثا) لا ندخله نحن في تأنيث ولا في تذكير . ومن جهة ثانية . ليس لبعض انحاء التفكير صورة نحوية الا في بعض اللغات فقط ، ولئن كانت اكثر اللغات متسعة للمقولات التقليدية (كالعشر الشهيرة عند ارسطو) فما ابعد مقولات ذهن كذهن كانط ان نجد لها كفاء في سواد اللغات المتطورة العريقة في المعرفة بله الابتدائية .

للمسامحة – وهو ما اقتضى تصور طلاء يمحو الذنوب – و « فرض » لتقرير أمر من الامور – وهو ما يلحظ فيه » وحز « قطع » قطعا ماديا ، وينتهي بعد ذلك الى تقرير ان « ما يميز اسرة اللغات السامية هو انها لاتزال تحتفظ احتفاظا دائما بالاتحاد المبدئي بين الاحساس والفكرة .. وبالاختصار لم تتم فى تلك اللغات عملية التجريد المثالي Idéalisation على نحو كامل ، الامر الذي تشتم منه كما يرى رائحة (طفولة التفكير البشري) .

وكتاب رونان مشحون بالاحكام العامة التي هي من هذا القبيل ، فهو يؤكد مثلا ان اللغات الآرية لغات « تركيبية » ، حين ان السامية « تحليلية » وان العربية على رغم غناها من حيث المادة وان فيها على ما احصاه دوهامر خمسة الاف وسبعمائة واربعة واربعين اسما للجمل ، لاتقاس فى جانب اللغات الهندية الاوروبية من حيث الضبط والدقة ، وان اساليب البيان العربى على سعة جوانبها تتصف بالجفوة الرتيبة وبالتنطع ، وان المرء اذ يتأمل كتاب العرب فى مادتهم وطريقتهم من الهند وخراسان الى اسبانيا ومراكش ليداخله الشعور انه امام ثقافة متجانسة « صنعية وعلمية » (ولكن بالمعنى الرديء) .

هكذا تجدون ، ان الامر آل برونان الى ايصاد باب التفكير الفلسفي فى وجه اهل هذه اللغة ، لا من جهة ان هذا التفكير غير مستساغ بالنسبة لاذهان طائفة منهم ولا من جهة انه لم يتهيأ لهم فى عهد من العهود لاسباب خارجة عن ارادتهم بفعل العقائد الدينيه مثلا او السلطة الزمنية ، بل من تلقاء علة ازلية سرمدية ضربت علينا فى اصل ذكائنا وما ركب عليه عقلنا من فطرة نرتبت عليها طريقتنا فى رؤية الامور ، وهذه العلة لا يرجى منها شفاء (كالخطيئة الاصلية لزمنا وزرها الى يوم القيامة مع جميع الساميين) !

ونحن لاندعي اننا اوتينا المعرفة العميقة التي تميز بها هذا المستشرق النحرير ولا سعة احاطته : فقد كان علامة فهامة من الطراز الاول ، استوعب فنون الاشتقاق فى عصره ، وابعد النظر فى دراسات الفيلولوجيا المقارنة التى باشرها فطاحل الالمان امثال ابوالد ، ولاسين ، وشايفل وغيرهم ، ووقف على لغات مختلفة شرقية وغربية وقوفا واعيا بصيرا ، ولكننا مع ذلك نأذن لانفسنا ان نبدي بعض التساؤلات والاعتراضات بصدد مقالاته لا سيما وان الرجل – الى جانب الحاده الذي لا يعنينا نحن ان ننكره عليه – متهم بعرق من العصبية الشعوبية على كل ماهو غير اوروبي، فلعله تحت تاثير منطق عواطفه الخاص ، انزلق الى نظريات تتجاور حد الحيطة العلمية ، وقد يكشف « التحليل النفسي » ذات يوم عن بواعثها الدفينة .

واول ما نريد بيانه هو وهن الموضوعة الاساسية التي اعتمدها رونان فى دراسة البسيكولوجيا السامية. لاشك ان من عناصر هذه البسيكولوجيا دراسة الظاهرات اللغوية ، على اعتبار ان اللغة تكشف عن خصائص العقول ، وهذا صحيح بشرط واحد هو الا نربط الخصائص بالتكوين البيولوجي الحيوي والا نجعلها ناشئة عن صورة ذهنية فطرية لصقت بها كالطين اللازب ، بل ان ناخذ بعين الاعتبار الظروف الاجتماعية كالسكنى وطراز العيش وتمازج الثقافات والشعوب . يقول فاندريس : « كما انه من التحكم ان نستنبط اللغة من الذهن ، فكذلك من الاعتباط ايضا ان نستخرج العقلية من اللسان ، ان كلا الامرين من فعل الظروف ، انهما من الوقائع الحضارية » ، والحال ان رونان ربط تلك الخصائص التي اكتشفها بالتكوين العرقي عند الساميين ، فاذا لم يجد عندهم ملاحم فذلك عن انهم سذج لا خيال لهم ، وبديهي ان ما فعل صادر عن نزعة عرقية باطلة لم تعد ترضي العلم الحديث فى قليل ولا كثير .

ثانيا : ان طريقته الاستقرائية غير مستوفاه ، فالمعلوم ان الاستقراءات التي تصلح لان تستخرج منها القوانين العلمية انما هي الاستقراءات الكاملة لا الناقصة لان مأتى السفسطة الاول من التعداد الناقص، فلنعرض على محك النظر دعواه فى ان « اللغات السامية لغات الواقعية والحس بالقياس الى اللغات الآرية التي هى لغات التجريد والميتافيزيقاء » .

لقد بنيت هذه الدعوى على الزعم باننا لو استعرضنا سلسلة الجذور السامية لصعب علينا ان نجد فيها ما يخلو من الابتداء بمعنى مادي ، ولكن هذا يستدعي قبل كل شيء ان تتوفر « مونوغرافيات » مفصلة اتم تفصيل للعبرية ، والكنعانية ، والفينيقية ، والسريانية،والاشورية ، والبابلية ، والنبطية والعربية فضلا عن جميع اللغات الاخرى السامي منها والآري ، وان نصاحب هذه الدراسات المفردة احصاءات مضبوطة للالفاظ الحسية والالفاظ المجردة فى كل لغة مع نسبتها المئوية ، فماذا فعل رونان هنا ؟ انه اكتفى

وبهنانا ـ فالمعروف ان الرجل خاض في انصراف العرب عن الفلسفة والعلوم العقلية ولكن التحليل الدقيق الذي تجلت به نظرية مفكرنا العبقري الفذ انما تستند الى الشرائط الاجتماعية التي احاطت بالعرب من جراء « احوال السذاجة والبداوة » ثم مشاغل الرياسة « والقيام بالملك » و « الانفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع » (*) اكثر مما يعتمد على اعتبارات عرقية راجعة الى الجبلة الاصلية .. ولعل في وسعنا ان نصل بين كل دعوى من هذا القبيل وما كان جرى على قلم الجاحظ في البيان والتبيين (ج 3 ص 12\13) فقد قرر ابو عثمان صادرا ولا شك عن اسلم قلب واطيب نية « ان كل كلام للفرس، وكل معنى للعجم فانما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكير ودراسة الكتب . وحكاية الثاني علم الاول ، وزيادة الثالث في علم الثاني ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم . وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام ... »

بعد هذا الاستطراد التاريخي الذي لجأنا اليه ، نرتد الى صلب الموضوع لنستعرض رأيا خطرا لايزال يتمتع بالاهمية حتى يومنا هذا ، بل لعل اهميته اليوم اشد خطرا مما كانت عليه اي يوم .

منذ قرن من الزمان كتب المستشرق الفرنسي الكبير ارنست رونان كتابا اسمه (مترجما للعربية) : « تاريخ عام ونظم مقارن للغات السامية » ، ولقد طارت شهرة هذا الكتاب واصبحت مادته زادا يطعمه كل من تناول امتنا ولسانها برأيه ولسانه . ومحصل ما انتهى اليه من مذهب في امرنا يقوم على اكتشاف دعوى واحدة كانت له بمثابة المفتاح يفتح به ابواب التعليل جميعا الا وهي دعوى (الوحدانية) التي هي آية السذاجة والبساطة في العقل السامي . الساميون موحدون بالطبيعة . والتوحيد من شأنه البساطة والسذاجة فعلى ذلك نخرج كل الاستنباطات التي ولدها بنبوغه وطول باعه في الفيلولوجيا . ومن ذلك ان الساميين لايمكن تعريفهم الا بالسلب : ليس لهم ـ والعرب اصفى عناصرهم ـ لا علم ولا فلسفة ، ولا شعور باللونيات ، ولا خيال خلاق ، ولا فنون تشكيلية، ولا آداب ملاحم ، ولا اساطير تبنى على التصور ، ولا سياسة معقدة ، ولا تنظيم مدني ولا عسكري ، ولا اخلاق موضوعية ، شعرهم رتيب وذاتي ، وفكرهم ينقصه التطلع ، والمناقضات لاتفعل فيه : ترى العربي امام الروايات العجيبة والمشاهد المذهلة خلوا من كل تفكير مكتفيا ان يقول لك : ان الله على كل شيء قدير ، كما انه في حالات الشك بين المذاهب المتناقضة ، يفر من حيرته بقوله : والله اعلم .. ومن غير الوارد ان تحتج للعرب بما لديهم من فلسفة ، انما هي ملفقات منتزعة من الاغريق كتبت بالعربية ، وليس لها اصل ولا « جذر » في تربة جزيرة العرب ، لان العرب غير قادرين على شيء من التعقيب والتركيب . فبدلا من اعتبارها انتاجا طبيعيا لعقل سامي . اولى بالمرء ان يعتبرها بمثابة ارتكاس على الاسلام واجهته به عبقرية الفرس الهندواوربية (*) .

ولقد مضى رونان الى اللغات يستمد منها تأييد هذه الدعوى فلاحظ ان اللغات الآرية هي لغات التجريد والميتافيزياء ، على حين ان اللغات السامية لغات الواقعية والحس . وهذا نموذج من كلامه : « ان اللغات الارية تنزع قبل كل شيء الى المثالية (...) وذلك بمرونتها الرائعة ، ووجوه اعرابها المختلف وادوات ربطها الدقيقة . وكلماتها المركبة ؛ وعلى الاخص . لسرها العجيب فيما يعرف عند اللغويين بـ « القلب » Inversion تلك الطريقة التي تتيح الاحتفاظ بنظام الافكار الطبيعي دون اضرار بالعلاقات النحوية . اما اذا تأملنا اللغات السامية ، فسرعان ما يسوغ لنا الظن بان الاحساس وحده ساد اوائل التفكير البشري ، وان اللسان ما كان ـ بادي الرأي ـ الا انعكاسا للعالم الخارجي . ولو استعرضنا سلسلة الجذور السامية ، لصعب علينا ان نجد فيها ما يخلو من الابتداء بمعنى مادي ينتقل منه فيما بعد الى الامور العقلية بوسائط تتفاوت في درجتها المباشرة زيادة ونقصا (*) » ثم يسرد بضعة امثلة عربية يؤخذ منها انه للابانة عن غرض نفسي لابد من اللجوء الى مدلولات تتسم بسيماء الحوادث الفيزيولوجية ؛ فالغضب يلحظ فيه النفس الحار والغليان ، واليأس انحلال القلب ، والهلع انخلاع الكلي ، والكبرياء ارتفاع الرأس، ونجد مثل هذا في العربية فياتي بمثالين : « غمر »

(*) 540 (طبعة بولاق)

(*) راجع الفصل الاول من كتابه

(*) ص 22 من المصدر نفسه

لاستيعاب حكمة فارس ورياضيات الهند وفلسفة يونان، فباي لغة با ترى وصلتنا اثار افلاطون ، وارسطو ، والاسكندر الافروديسي ، وسقراط ، وجالينوس ، واقليدس ، وارخميدس ، وذيوفانت ، وبالينـاس ، وبطليموس ؟ وهل عجز آل بختيشوع وآل الكرخي وبنو موسى بن شاكر وثابت بن قرة والحجاج بن مطر، ويوحنا البطريق وابن ناعمة الحمصي وابو عثمان الدمشقي ومتي بن يونس القنائي ويحيى بن عدي ، والبلاذري احمد بن يحيى ، واسحق بن يزيد وعلى بن زياد والتميمي والحسن بن سهل وعشرات غيرهم عن اداء المعاني المجردة العويصة بالعربية وبالسريانية وحتى بالعبرية ؟ بل كيف فهم عنا تراجمة العصر الوسيط اللاتيني حكمة اليونان الرفيعة التي نقلناها اولا ، فحملوها الى اوروبا عن طريق لساننا ليغني بها التفكير الغربي ؟

ليس هذا كل ما في الامر ، لقد كان لنا فلسفة خاصة يوم لم يكن للفرنجة ولا للقوط ولا للهون ولا للسلت ولا للكرولنجيين ولا للمروفنجيين فلسفة . افيكفي في الحط من شان هذه الفلسفة ان يقال انها دخيلة علينا ؟ او لم يعترف لنا رونان باصالة علم الكلام وهو حقل رفيع نبت في جو اسلامي صافي العروبة ، وهب ان من صنعوا الفلسفة بمعناها الاضيق كانوا من اصل فارسي او اعجمي ، فليت شعري باي لسان فكروا ؟ ولم اختار الفارابي لغة العرب لبيان نظرية العقول والنسخ الرئيس ابن سينا لغة العرب لكتابة الشفاء والنجاة ؟ ولم تناول الغزالي «مقاصد الفلاسفة» ثم بين «تهافتهم» بلسان غير الفارسي ؟ وكيف صلحت مؤلفات ابن رشد ان تكون كما تقول جلسن مصدرا « له ابعد الاثر واقواه في الاسكولائية المسيحية » وينبوعا رويت منه فلسفة اللاهوتيين امثال غيليوم الاوفيروني وروجه باكون وحنا بيكام ؟ .

لم يكن العرب ، امة غالبة دائما حتى نقول ان لسانهم انما انتشر بقوة السيف . نعم لقد امتد ملكهم ذات يوم من جبال البرانس واعمدة هرقل الى الهند والصين ، ولقد كانوا على راس العالم المتمدن في عهود زاهرة كحقبة بغداد في القرن الثامن المسيحي ايام الرشيد والمامون ويوم اشعت مملكة الاغالبة على سردينية وصقلية ونابولي ، وكعهد قرطبة في القرن العاشر في ظل الحكم الثاني والحاجب المنصور محمد بن ابي عامر ، ثم في حقبة القاهرة الفاطمية وفي المغرب الاسلامي على عهد المرابطين والموحدين . ولكنهم واجهوا نكبات ومصائب كان من حقها منطقيا ان تمحو لغتهم محوا كأداة حضارية . ومع ذلك لا هولاكو البوذي الذي ذبح اهل بغداد ذبحا وجعل مياه دجلة سوداء من مداد ثقافتنا ، ولا الحروب الصليبية التي عاثت في ارضنا قرنين كاملين ، ولا الفتح المغولي ، ولا الغزو الطوراني ، ولا غلبة الاعاجم علينا من كل ملة ونحلة ، ولا الاستعمار الغربي نالت من عنفوان العربية . لماذا ؟ لان هذه اللغة اثبت حيويتها امام الكوارث لانها وقد القحتها الثقافات الفارسية واليونانية والبيزنطية والهندية ، عرفت كيف تستصفي عصارة تلك الثقافات فيتمثلها نسغها اليعربي الاصيل . ان سر حياتها القوية العنيفة قائم في مرونتها وقابليتها للتكيف ، وهذه هي النهضة العربية اليوم تاتي شاهدا مصدقا لما نقول ، ففي اقل من قرن من الزمان استطاع اهل هذه اللغة ان يتناولوا بلسانهم ما شئت من علم وفن وفلسفة وتكنيك ، وكثير من جامعات العالم العربي ومن مراكز البحوث تتولى معالجة العلوم الايجابية المضبوطة بفكر اداته هذه اللغة المضرية لغة معد وعدنان .

ايها السادة ، اذا بدت هكذا مفائل نظرية رونان ، فما احرانا ان نردد مع صديقنا لويس غاردية ان الخميرة العربية العاملة في جوف كل الشعوب التي استهواها الاسلام انما هي (والتعابير هاهنا للمستشرق المرحوم ماسينيون) هذا اللسان الرائع ذو الازمنة « الثيوسانطرية » اي المركزة حول الذات الالهية ، هذا الضبط في الصورة تتلبس بها (مادة) موارة مضطربة مرجحنة ، هذا المزاج الرقراق من مجردات (عربت عن كل زيادة) وافادات اتصفت بتمام الجدوى ، هذا القران المدهش بين آثار عليها مسحة الخشونة وبينات تتميز برونق منقطع النظير .

ان امجد مظهر لعبقرية العرب لسانهم العظيم وان ابا الريحان البيروني — نضر الله جنة خلده بالروح والريحان — كان على حق يوم ان قال : لأن اهجأ بالعربية خير من ان امدح بالفارسية ؟ .

الرباط : الدكتور حكمة هاشم
أستاذ الفلسفة بجامعة محمد الخامس

فى اغلب الاحيان بايراد امثلة تنحصر فى بضع كلمات من العبرية ، واحيانا من العربية ، ورتب عليها مثل هذه التعميمات الضخمة . ثم ، باقتراض ان مثل ذلك قد جرى الى حد ما (وما ابعد مثل هذا الواقع عن ضرورات البحث العلمي) ، فعلام تشهد كثرة الالفاظ الحسية على الالفاظ المعنوية فى لسان ما ؟ ربما كان فيه دليل على ان ذلك اللسان احتفظ بصورة التطور اكثر من غيره (وقد أورد هذا الاعتراض على رونان كما صرح بذلك هو نفسه) ونحن نضيف : لماذا نتخذ من نقل الالفاظ عن معانيها الاصلية دليلا على اتصاف الفكر بطابع ثابت ، مع ان مجرد النقل يدل على حركة فكرية ؟ ان من المعلوم ان الكلمات تتغير معانيها على انحاء ثلاثة :

1) **التخصيص** : (وهو نقل المعنى من الجنس الى النوع : كالصلاة التي اختص لفظها بضرب من الدعاء) .

2) **التعميم** : (اي التوسع فى اطلاق الجزء على الكل ، نحو « الهجين » وهو فى الاصل للعجماوات غير ذات النسب الصريح ثم استعمل لكل خلاسي من البشر) .

3) **النقل** : من مجال الى مجال بسبب المجاورة (ونلفت النظر الى اننا هنا نسوي بين المجاورة المادية والذهنية لكي نطوى تحتها ما يعرفه لغوينا بـ « الاشراب » الذي يكون مثلا باستعمال الالفاظ الحسية لمعاني مجردة كقولك « الجزم » ـ وهو القطع المادي ـ تريد به « التوكيد » وكقولك « الاعتماد » ـ وهو اصلا التوكؤ ـ فى مقام « الوضع موضع الثقة ») وقس على ذلك ضروب الاستعارات والمجازات .

ونحن نظن ان مجرد لجوء العرب الى اشراب الالفاظ الحسية معانى مجردة دليل على عكس نظرية رونان لانه يفرض بالضرورة قيام المعاني المجردة في الذهن ، والا لما حصل الانتقال من الحسي الى غيره ، واذا كانت اللغات على ما يعتقده رونان فى اعقاب هوردمان « الحصيلة المباشرة للشعور البشري » فان الاشراب يعكس على افضل وجه تلك الفاعلية الديناميكية الاصيلة فى الذهن العربي القائمة على تصور المجرد وربطه بالمحسوس ، وذلك للاقتران بين ضربي الانطباعات التي تركها فى شعورهم كل من النطاقين (نطاق المجرد ونطاق المحسوس) .

ثالثا : ان اكبر ما ناخذه على رونان تعسفه فى التعميمات التي تتجاوز حدود المقدمات . والحقيقة انه اجترأ على تراكيب فضفاضة ، فوقع فى مثل ما رمى به اولئك الذين يستهويهم وضع النظريات الكبرى بعد نظرهم نظرا غير مستوى فى كتب اللغة وفى النصوص ، ولئن انحى باللائمة على هؤلاء صارفا اليهم قوله : « ان الفضاضة التي تلحق بالمرء من ان يكون خياليا اكبر من الفضاضة اللاحقة به من التقصير » فغالب الظن ان رونان وقع فى العيب الذي انكره على غيره يوم رمانا مع الساميين جميعا باننا لا فلسفة لنا اصيلة ، ولا خيال خلاق ، وان فكرنا يرضي بالمتناقضات . ونظن ان رونان ادرك ما يمكن ان يوصم به من جراء تعميماته فاعتذر عن ذلك فى المقدمة بان لولاه لبقي التاريخ محصورا فى نطاق الواقعات المادية دون اقدام على استخراج مغزى تلك الواقعات ، ولكن اذا كان استخراج المغزى يؤدى الى مثل هذا التكلف والافتئات، فكم كان اجدر به وهو فى منزلته وبسطة علمه ، «كراكب الاسد يهابه الناس » ان يكون « لمركبه اهيب » كما يقول كاتبنا العظيم عبد الله بن المقفع !

وبعد ، تعالوا ايها السادة ننظر نظرة اخرى فى تاريخ فكرنا من الناحية السوسيولوجية . لقد كانت لنا حياة فكرية قبل الاسلام صورها الشعر الجاهلي فهل كان هذا الشعر غير مفصح عن خوالج النفس الدقيقة ؟ نعم انه لم يكن شعر ملاحم طويلة النفس (كالالياذة) ، ولكن ما بالنا لا نقيم وزنا لخيال الا اذا جاء على طريقة الاغريق ؟ ان ملكة التصور الخلاق تتخذ اشكالا مختلفة ، والشكل الاسطورى واحد من عديدها ولئن كانت الوثنية طورا من اطوار التاريخ وجاءت الاسطورة معبرة عن خياله ، فاننا لا نطالب شعراء عصرنا الحاضر مثلا ان يظل خيالهم دائرا على الاساطير . هذا هو الشعر الفرنسي فى الازمنة القريبة منا من رونسار الى سان جون بيرس ، اهو منحط فى مرتبة خياله لانه لايدور على خلق اساطير ؟ وهل نتخذ شاهدا من ذلك على ضعف ملكة التخييل عند اكبر من تمثل تراث الاغريق اعني الامة الفرنسية ؟

ثم لقد كان لنا لسان صلح لان يكون محملا لدين جليل مع ما انبعث عن هذا الدين من عقيدة ، وشرع ، وفقه ، ونحو ، وصرف ، وكلام ، وجدل ، ومنطق ، وعلوم عقلية . فكيف استطاع لسان يعتبر رونان ان آجروميته تمثل طفولة الفكر الانساني ان يقوى على النهوض بكل ذلك ؟ بل لقد اتسع لساننا بالذات

النهاية انها كانت عامل اخصاب وتنويع وتوسيع للانتاج الثقافي بصفة عامة .

وفي العهود التالية ، حيث دب الضعف الى الدولة العربية الاسلامية ، وانقسمت الى دويلات متعادية ، وانتشرت الفوضى واستحكمت الاقطاعية ، فقد المسلمون روحهم الثورية الوثابة ، وحل الجمود محل الحركة ، والخوف محل الثقة ، وغدا المجتمع الاسلامي محافظا اشد ما تكون المحافظة ، يخشى كل فكرة جديدة وكل روح نقدية ، وفي سبيل الابقاء على اوضاعه لم يكن بيده الا وسيلة واحدة ، هي نكران القيم الفكرية ، فما دامت الافكار تتصرف وتروج بحرية ، يمكن الامل في الاصلاح وتقويم الاعوجاج في المجتمع ، ولكن حينما يحكم على الافكار بالجمود ، يغلق ابواب الامل كلها .

وقد ظهر اثر هذا الجمود في الكتابة بصورة خاصة . فالنثر العربي لم يعد يعبر عن اية فكرة جديدة بل عن اية فكرة بالمرة ، وانما هو تنميق الفاظ ووصل جمل مسجوعة ، واصبح الكتاب يخفون فقرهم العقلي وراء تركيبات لفظية معقدة ، والواقع ان الكتاب كانوا يخافون من التفكير ، فالتفكير اصبح في عهد الانحطاط وصمة يجب على « العاقل » ان يجتنبها ، ومحنة ابن رشد وابن تيمية والتقولات التي حامت حول ابن خلدون ان هي الا امثلة مشهورة .

مميزات الثقافة المغربية :

واذا رجعنا الى المغرب بكيفية خاصة ، نجد ان المجتمع المغربي كان صورة مصغرة للمجتمع العربي الاسلامي في مظهره العام ، فقد عرف هو ايضا عهد الوثوب العقلي والثقة بالنفس ، كما عرف فيما بعد عهد الانحطاط والتراجع . الا ان المجتمع المغربي له وسط هاته المظاهر العامة مميزاته التي تجعل لثقافته طابعها الخاص .

وهاته المميزات هي وليدة المزاج المغربي والعادات المغربية ونوع الحياة التي يعيشها المغاربة في بلادهم ، ووضعهم التاريخي والجغرافي ، ونحن لو اخذنا على انفسنا استكشاف تلك المميزات بجزئياتها وتفاصيلها لتطلب ذلك منا بحثا طويلا ، ويكفي في هذا المقام ان نبرز ظاهرتين اساسيتين رافقتا تلك الثقافة في مختلف عصورها وكان لهما اثر عميق في تكوين شخصيتها :

أولا — ان الثقافة المغربية يغلب عليها الاتجاه العملي اكثر من غيره ، وهذا راجع الى طبيعة الشعب وميوله الفطرية ، ثم ان المغرب بلاد فلاحة وتجارة ومعاملات على اختلاف الانواع ، وهذا النشاط الاقتصادي يخلق بالضرورة لونا من الثقافة يطابقه ويتجاوب معه ، فلا جرم اذا رأينا الفقه يزدهر بصورة خاصة ويحتل المقام الاول من بين العلوم التي تدرس في المعاهد والمساجد ، والنوازل الفقهية ، كما لا يخفى لا يقع تكاثرها الا حيث يأخذ النشاط الانساني مظهره الاقوى .

ثانيا : ان الثقافة المغربية ارتبطت ارتباطا وثيقا بالدين ، ولم تستطع ان تخرج عن الدائرة الدينية ، فتستقل فروعها الادبية ، مثلا ، وتنمو وتتسع كما حدث في الشرق وفي الاندلس ، فليس لدينا كتاب من نوع الجاحظ وابي الفرج الاصبهاني وابن عبد ربه ، والواقع ان التأثير الديني متغلغل في الانتاج الادبي والفني والثقافي ، بصورة عامة ، وتلك ظاهرة يفسرها وضع المغرب من الوجهة الجغرافية والتاريخية، فالمغرب يقع في آخر العالم الاسلامي وفي جوار الدول المسيحية التي كانت في عراك صليبي طويل مسترسل مع بلاد الاسلام .

والحق ان المغرب كان احد ثغور الاسلام النشيطة المتحركة ، ومنذ ان ضعفت الدولة العربية باسبانيا ، وهو في حروب متواصلة مع اسبانيا الكاثوليكية ، يضاف الى ذلك ما كان له من حروب ومناوشات مع دول اوربية اخرى منذ خروج العرب من الاندلس . كان من نتائج العداء الصليبي ان اذكى روح الجهاد لدى المغرب المسلم ، وهكذا تأسست رباطات المجاهدين في مختلف انحاء البلاد ، واصبح شعار المغاربة بعد ضياع الاندلس وتكالب الدول المسيحية على الشواطىء المغربية هو نصرة الاسلام والدفاع عنه .

وظهرت الصوفية المغربية تحت فعل هذه الاحداث التاريخية في مظهر طريف يجعلها جديرة بان تكون محل درس عميق ، وسيكون من المفيد حقا ان تدرس الزوايا المغربية دراسة عميقة سواء من الوجهة التاريخية البحتة او من الوجهة الوصفية والمذهبية ، لانها تمثل مرحلة مهمة في تاريخ تطورنا الفكري والثقافي .

ومهما يكن ، فان هذا الجو المفعم بالحروب الدينية والذي كان ياخذ احيانا شكل عراك حياة او

نحو تحديد محتوى

ثقافتنا القومية

ثورة وجمود

للأستاذ محمد زنيبر

- 2 -

اذا نظرنا الآن الى الموضوع من زاوية التاريخ ، يتبين لنا ان هنالك حادثا مهما في تاريخنا الحديث لازال الباحثون عندنا لم يولوه مايجب من الدرس والتحليل، الا وهو الثورة الفكرية التي حدثت في المغرب منذ اواخر القرن الماضي .

وهذه الثورة تكاد تقارب في ابعادها التاريخية الثورة التي حققها دخول الاسلام الى المغرب منذ ثلاثة عشر قرنا .

الثقافة العربية الاسلامية بين الثورة والجمود :

فلا ننس ان الاسلام ، عند تسربه لهاته البلاد ، وجد مجتمعا ومعتقدات وتقاليد منها ما هو مغربي صميم ، ومنها ما هو مقتبس عن الرومان والونـدال وغيرهم . ومع ذلك فقد استطاع ان يقلب الاوضاع كلها راسا على عقب ، ويطوي صفحة الماضي ليبدأ صفحات جديدة ، بحيث دخل الفكر المغربي في قالب جديد ، قالب الاسلام ، ونفسر سلم القيم الروحية والاخلاقية والعقلية .

ونشأت الثقافة العربية الاسلامية في هاته الديار ، وكانت في الحقيقة أول صورة للثقافة المغربية منذ بداية التاريخ ، ونمت هذه الثقافة وتنوعت وانتشرت بين مختلف العواصم المغربية والمراكز العلمية في الحاضرة والبادية ، وانتقلت في مراحل مختلفة ونبغ فيها رجال وقادة ، وتأثرت بمؤثرات خارجية اتت من الشرق ومن الغرب على السواء ، وقصارى القول : انها نشطت وتحركت على قدر ما كانت تسمح به الظروف والمستوى الفكري العام .

الا انها منذ نشأتها الى اواخر القرن الماضي ظلت تسير على سنن تطوري بطيء ، ان لم نقل انها وقفت بالمرة ، فلم نشاهد اى تحول او اي انقلاب ، بل انها بالغت في الوفاء لنفسها وتجاوزت كل حد في الانطواء على جذورها ، بحيث كان عهدها الاول عهد الانطلاق وتفتح وحرية فكرية واجتهاد عقلي ، وتدرج فيما بعد الى عهد ساده الجمود ونضبت فيه ينابيع الخلق والابتكار واصبح الاجتهاد مدعاة للانتقام والاضطهاد .

وبعبارة اوضح ، ان الثقافة العربية الاسلامية في المغرب ــ ويمكننا ان نقول في عموم بلاد الاسلام ــ عاشت ازيد من اثنى عشر قرنا على انطلاقتها الاولى، التي استمدتها من الروح الثورية التي برز بها الاسلام في دياجير القرون الوسطى ، ولكنها عجزت طوال هذه الحقبة ان تحتفظ الى النهاية بطابعها الثوري .

ذلك أنها مرتبطة بالحالة التي كان عليها المجتمع الاسلامي في مختلف عصوره تعبر عن نفسيته وتتأثر بالقوى السائدة فيه ، ففي العهود الاولى ، حيث كان يشعر العرب والمسلمون انهم حملة رسالة انسانية وان عليهم ان يقاوموا مظاهر الظلم والطغيان في عالم ذلك الوقت ويطبقوا مذهبا جديدا شاملا في الاصلاح ، كانت تلك الثقافة تبرهن عن فكر متفتح وعن ايمان بالعقل ، وبلغ من ثقتها بنفسها انها لم تكن تخشى الاتصال بالثقافات الاخرى ، بل انها رغبت في ذلك الاتصال وقامت به على نطاق واسع ، وهكذا عربت كتب عديدة من اليونانية واللاتينية والهندية والفارسية والسريانية ، واقبل عليها القراء المسلمون واقتبس منها العلماء والادباء والفلاسفة العرب ، وتبين في

بل انه موزع على الاقاليم وعلى اطراف البلاد ، الشيء الذي ساعد باستمرار على بقاء الروح الفردية وتكون النزعات الاقليمية والمحلية والقبلية ، ثم ان هنالك حادثا تاريخيا كان له الاثر البالغ في المجتمع المغربي خلال القرون الوسطى ، وهو الهجرة الجماعية لعرب بني هلال وبني سليم الى المغرب ، الشيء الذي اخل عدة اجيال بالتوازن القبلي الذي كان يعيش عليه المغرب .

والحقيقة ان النظام القبلي الذي كان مستحكما في البوادي المغربية وما نجم عنه من انواع الصراع الداخلي خلق نوعا من عدم الاستقرار المزمن في المجتمع المغربي ، وحالة عدم الاستقرار هاته تقل وتتلاشى احيانا اذا كانت السلطة المركزية قوية ولكنها لا تلبث ان تعود الى الظهور وتتفاحش عند فتور تلك السلطة وضعفها .

اضف الى هذا ان المغرب لم يكن يعيش لنفسه ، بل كان يشعر بانه مكلف برسالة تاريخية تتجاوز حدوده الجغرافية ، فقد كان يشعر قبل كل شيء انه مسؤول عن الدفاع عن الاسلام وتمكينه في المنطقة التي وجد بها سواء في ناحية الشمال تجاه اسبانيا واوروبا او في ناحية الجنوب تجاه الصحراء وافريقيا السوداء . وكان عليه بالخصوص ان يدافع عن الدولة العربية في اسبانيا وقد دامت هاته المهمة قرونا عديدة وكلفته مجهودات وتضحيات ، ومن جهة اخرى كان المغرب يشعر خلال تلك الحقبة بان عليه تقع تبعية توحيد الشمال الافريقي او كما نسميه الان المغرب العربي ، وقد صرف همته لتحقيق هاته الفكرة واستطاع ان ينجح في ذلك في بعض العصور، وكل هذا لم يكن ليخفف عنه العبء ويسهل عليه الحياة الصعبة التي انغمر فيها .

وطبيعي ان تؤثر هاته الاوضاع التاريخية على المجتمع وتكيفه تكييفا جديا وان تكون للمزايا الحربية المقام الاول في التقدير الرسمي والاجتماعي، ولذلك فلم يكن من الممكن ان تبرز حياة ثقافية وانتاج ثقافي متنوع في مشاربه واتجاهاته ، بل ان الادب كان في الغالب ادب رجال لهم صلة بالدولة عن طريق الخدمة او القرب ، لان المجتمع لم تكن تتوفر فيه الظروف لظهور نشاط فكري تلقائي ومستقل ، فنحن عندما نستعرض كتابنا وشعراءنا المغاربة ، نجد أن طائفة كبيرة منهم كانوا اما وزراء واما موظفين سامين واما من المقربين الى الدولة بصفة من الصفات .

ثم ان المغرب وهو دولة حرب وجهاد كان يشعر بأن مهمة الادب والفن والثقافة ، بصفة عامة ملقاة على عاتق الاندلس التي زخر فيها بحر العلم والادب منذ اوائل الامويين ، وكانت الامور تجري كما لو كان هنالك توزيع ادوار بينه وبين الاندلس ، فعليه ان يحكم ويسوس ويحارب ويدبر ، وعلى الاندلس ان ترفع لواء العلم والادب والفنون الجميلة وتسهم في بناء الحضارة المغربية .

يتضح مما سبق ان دخول الاسلام الى المغرب احدث ثورة فكرية عامة في البلاد واوجد من العدم ثقافة عربية اسلامية انطبعت بطابع البلاد وظروفها وكانت لها مميزاتها التي تبرز شخصيتها ، وبعد ان عاشت تلك الثقافة طورا من الوثوب والتفتح الذهني، عرفت طورا آخر من الجمود دام الى اواخر القرن الماضي اي الى حدوث الثورة الفكرية التي نجمت عن اتصالنا باوروبا ، وقد حان الوقت لنتكلم عن تلك الثورة التي المعنا اليها .

— يتبع —

سلا — محمد زنيبر

ممات ، جعل للدين تأثيره العميق على كل مظاهر النشاط في المجتمع وفي مقدمتها النشاط الثقافي ، ولذلك فلم يكن من الميسور ان تستقل الفروع الادبية وتعرف النمو والاتساع اللذين نشاهدهما في الشرق وفي الاندلس .

نعم ، كان هنالك شعر ونثر ونبغ كتاب وشعراء وتكونت مجالس واندية ادبية في الحواضر الكبرى وفي قصور الكبراء ، ولكن النشاط الادبي في هاته البلاد لم يبلغ الشأو الذي كان له في المشرق او في الاندلس ورغم المجهودات المشكورة التي يبذلها اليوم بعض المؤرخين المغاربة لاستكشاف نبغائنا في الادب خلال القرون المنصرمة ، فلست اشك لحظة في انهم لن يعثروا مطلقا على كاتب او شاعر مجهول يضاهي الجاحظ ، او ابا حيان ، أو المتنبي ، أو ابا فراس ، وكل ما سيعثرون عليه في الواقع هو محاولة بعض الفقهاء والمدرسين وبعض كتبة الدولة وخدامها الذين كانوا يتعاطون في الغالب للادب من باب التلهي وتزجية الفراغ ، ويجب القول كذلك انه لم يكن بالمغرب بلاط يشبه بلاط العباسيين في بغداد او الامويين في قرطبة حيث كانت حرفة الادب تجد سوقا لنفاقها وحيث كان الادباء يستطيعون ان يعيشوا من انتاجهم دون التعاطي لاي مهنة اخرى .

وعلى اي فان النشاط الثقافي الذي كان له رواج بالمغرب هو ذلك الذي يتصل بالحياة الواقعية للمغاربة ، تلك الحياة التي تتمثل في نظامهم الاجتماعي والاقتصادي ، من جهة ، والتي يعبر عنها ، من جهة اخرى ، وضعهم الجغرافي والتاريخي الذي حملهم طيلة القرون الوسطى وحتى بداية القرن العشرين مسؤولية الوقوف في الخط الاول للدفاع عن البلاد الاسلامية ضد الحملات الصليبية والاعتداءات الاستعمارية .

الثقافة العربية الاسلامية في مصر وفي المغرب :

تلك بعض الميزات التي تبرز الطابع المغربي في نسجه الفريد وطرافته ، ولكي نزيد افكارنا وضوحا في هذا الباب ، سيكون من المفيد ان نقوم بمقارنة تاريخية ، فندرس مثلا المصير الذي عرفته الثقافة العربية الاسلامية في بلدين كالمغرب ومصر ، فكلا القطرين استعربا بعد الاسلام ، وكلاهما تلقيا الثقافة الاسلامية واللغة العربية مع الدين الجديد ، ولكن ، عندما ننظر الى التطور الذي عاشته تلك الثقافة هنا وهناك ، سرعان ما يبدو لنا ان الفروق تتسع مع تقدم الزمان ، ولسنا هنا بصدد اصدار حكم بالقيمة ، ولكن قولنا يقتصر على تقرير الواقع لا اقل ولا اكثر.

ففي وادي النيل ، امكن للثقافة ان تستفيد من عدة عوامل فتكسب خصبا وتنوعا وتلج كل الابواب وتسير في اتجاهات مختلفة ، ولا غرو ، فالبلاد ذات حضارة قديمة امتزجت بحضارات اخرى من فارسية وفينيقية ويونانية ورومانية ، الشيء الذي أهلها لان تهضم بسرعة الدين الجديد والثقافة العربية الاسلامية ، ثم ان المجتمع المصري يعيش متكاثفا ، وان شئت فقل مزدحما ، حول وادي النيل ، وهذا التكاثف او الازدحام يخلق حياة ا جتماعية قوية ، وهذه بدورها تهيىء الظروف المادية والمعنوية لنشوء الوان من الثقافة .

اضف الى هذا مركز مصر الجغرافي الذي يضعها وسط الدول الاسلامية من شرقية وغربية تستفيد من الجهتين وتلتقي فيها كل التيارات والمذاهب ، ثم أن تاريخ مصر الاسلامية هيأ لها كل اسباب التنوع الفكري والثقافي ، فمصر وان لم تحظ بالاستقلال السياسي الذي استمتع به المغرب ، فانها عرفت دولا مختلفة ومذاهب واساليب متنوعة في الحكم والادارة ، منها العربي والتركي والعباسي والايوبي والفاطمي والطولوني الخ.. بحيث تنوعت ذهنية الحاكمين والمحكومين على السواء ، واستطاع البلاط المصري في بعض الاوقات ان يضاهي البلاط العباسي من حيث ازدحام الشعراء ، والادباء على ابوابه .

ثم لاننس ان مصر كانت تعيش لنفسها وتستهلك ادبها ولم يكن لها ما يشغلها عن ذلك ويصرف جهودها الى غايات اخرى ، ومن الطبيعي في ظروف كهاته ان يقع طلب للأدب واقبال عليه ، ناهيك بما للمزاج المصري المنطوي على المرح والدعابة والتفاؤل من دور في تنشيط الحياة الادبية وشحذ خيال القصاصين والشعراء والمؤلفين .

اما في المغرب ، فقد عرفت الثقافة العربية الاسلامية مصيرا آخر ووجها آخر ، فالمجتمع المغربي غير مزدحم كما هو الشان في وادي النيل ،

الجمعة » والاعياد وسائر المناسبات الدينية كـــان لسانهـا عربيـا مبينـا .

والتعليم كانت له مراكز هامة تستمد اشعاعاتها من جامعة «القرويين» فى كل مـن مراكـش وتطـوان وموريطانيا وجبال الاطلس ، ثم اتخـذت حركـة الاستمرار العربية هذه شكلا آخر فى مؤسسات التعليم الخاص او التعليم الاسلامي الحر التي انشئت علـى غرار مؤسسة « مدارس محمد الخامس » فى الربـاط وفى غيرها من المدن والقرى المغربيـة .

ان هذا التشكـل من الاستمـرار فى الادارة وفى التعليـم لم تكـن تشجعه ادارة الحماية الاجنبية بـل كانت تحاربه بكل ما اوتيت من قوى وتضع فى سبيلـه العراقيل المختلفة لتحاول ان تقطـع هذا الاستمـرار الـذي لم يكن من الممكن ان ينقطع بحال من الاحوال ، ان العربية تدافع عن نفسها فى وطنهـا ، ودفاعها وان كان فى صور سلبية فهو دفاع المستميت الذي يأبـى الا ان يستخرج من الضعف القوة ومن عوامل الفنـاء بواعث النهضة والبقاء ، ولقد سعت الحماية جهدهـا لتقضي على العربية فى « مهدها » فافلحت الى حـد ولكنها لم تستطع ان تؤدي بخط الاستمرار التاريخـي للعربيـة الى الانقطاع .

ولقد قاومت العربية بجميع الوسائل الايجابيـة او السلبية الممكنة ، واذكر منها هـا هنا للبيـــان والتوضيح فقط أن بعض الآباء — حبا للعربية وخدمة لها ودفاعا عنها — كانوا يعلمون ابناءهم القرءان الكريم. ويتعهدونهم فى حفظه وتجويده واتقانه داخل بيوتهم الخاصه ، فهل كان الاستعمار يستطيـع ان يمنـع هؤلاء الآباء من مثل هذا العمل داخل البيوت وهو لا يعلم به ؟ ان هذا ما يفسر لنا كيف ان طائفة هامة من المغاربة الذيـن درسـوا فى المعاهـد الاجنبيـة كانت تستطيـع أن تقرأ العربية « اللغة الام » وتفهمها وتعبر فيها تعبيرا متكسرا بعض الشيء رغم انها لم تتعلـم هذه اللغة فى المدارس ، بل ان من هؤلاء مـن قـــد استقامت له الكتابـة السليمة فيها ، والارتجـــال القوي المبيـن ، وما ذلك كله الا مظهرا من مظاهر دفاع العربية عن كيانهـا ووجودهـا فى هذا الوطن المغربي الحبيـب .

أما اليوم فاننا نرى الابواب مفتوحة امام العربية واستمرارها فى جميـع الميادين العامة والخاصة منها على السواء ، اذ ان مختلف الادارات المغربية — الا ما قل منها — تقبل المراسلات العربية وترد عليهابالعربية، وتعتمد بعض الوثائق بها دونما حاجة الى ترجمـة أو تعجيـم .

والتعليـم قد زكت ساعات العربية فيه بالنسبة الى ايـام الحمايـة .

والاهم من هذا كله انـه قامت فى البلاد كلهـا مظاهرات عامة وخاصة من قبل الهيئـات الشعبيـة والرسمية منادية بالعربيـة والتعريب ، وما ذلك الا لتنبه الوعي العربي فى البـلاد وسعي العربية الحثيث للدفـاع عن نفسهـا .

ان المستقبل فى هذه البلاد للعربيةولاهل العربية، فما على الذين لا يحسنونها الا ان ياخذوا لانفسهـم الحيطة منذ الآن قبل ان يصدمهـم الواقع الناهـض للغة العرب فى هذه البلاد ، اننا على ابواب انبعـاث جديد ، وكل ما ينبغـي ان يقال بهـذه المناسبـة ان التاريخ لم يشهد البتة انقطاعا فى خط استمرار العربية فى هذه البلاد فى اسوا ظروفها ، فكيف يمكن ان يحدث مثل هذا الانقطاع فى وقت تنبهت فيه العربية وجـاء أوان عزهـا ومجدها ، ان العربية التي كافحت عاديات الزمن وفرضت نفسها فى كثير من بقاع العالم يمكـن لها اليوم أن تستعيـد مكانتها رغم ان الواقع لا يزال يحمل لها بين طياته ضعفا ووهنا مـن آثار عصـور التخلف السحيقة التي مرت بها فى هذا القطر الحبيب وفى غيره من اقطار العروبـة .

من هذا العرض الوجيز لبعض مظاهـر استمرار العربية بالمغرب يمكننا استكناه سر هذا الاستمـرار الذي يبرز اول ما يبرز فى كون المغرب وطنا عربيـا ومعقلا من معاقل العروبة الحصين ، فكـان طبيعيـا ان تلتجيء اليه اللغة فى ايام محنتها زمان عصـــور الانحطاط واستيلاء العناصر الغريبة على مقـدرات بلادنا ولغتنا ، فاعتصمت العربية وامتنعت على الزمن بعزلة المغرب لتحافظ على نقاوة تراكيبها وصفـاء أسلوبها وعربية مفرداتها ، والمغرب اليوم يقع علـى عاتقه دين اعادة هذه اللغة الصافية الى حظيرة الوطن العربي كله نقية الاسلوب خالصة المفردات والتراكيب.

ومن اسرار استمرار العربية بالمغرب قدرة هذه اللغة النادرة على معالجة الافكار الادبية والآراء المعنوية بأسلوب حقيقي أو مجازي ، بطريقة حسية او معنوية ، والمتتبعون لتطور العربية منذ نشوئها متفقونجميعا على

استمرار العربية بالمغرب

للأستاذ عبد الله الكامل الكتاني

اللغات مؤسسات اجتماعية كالكائن الانساني له اسم يميزه عن بقية الاسماء ، وجنسية يعرف بها بين الاوطان ، واوصاف يختص بها دون سواه .

من هنا كان اسم اللغة التي يتحدث بها اهل المغرب « العربية » ولهذه العربية جنسية هي جنسية « الوطن العربي » بحدوده الجغرافية المعروفة ، ومن اوصافها التي اختصت بها دون سواها ظاهرة البقاء والاستمرار .

وتبدي الملاحظة البسيطة اتصالا ونبقا بين هذه الاوصاف الثلاثة : « العربية » و « الوطنية او الجنسية » و « الاستمرار » فكلما اتخذت بلدة « العربية » و « استمرت » في اتخاذها كذلك ، كان هذا دليلا على دخول هذه البلدة في الحظيرة الجغرافية للوطن العربي ، وكلما انعدمت ظاهرة الاستمرار هذه قام ذلك دليلا على أن البلدة التي استعربت خلال زمان — طويل او قصير — ولم تستمر فيها العربية ، ليست من الوطن العربي : ذلك ما حصل في فارس التي استعربت دينا ولغة بعد الفتح الاسلامي وكان فيها أدباء وشعراء وعلماء ، ثم استعجمت بعد استعراب رغم أنها بقيت على الاسلام ، ومثل هذا حصل في الاندلس التي استعربت هي الاخرى لغة ودينا ، ثم ما لبثت العربية ودينها أن خرجا من ذلك القطر بعد أن استوطناه زهاء ثمانية قرون وهي مدة ليست باليسيرة في حساب التاريخ وحياة اللغة .

ومثل ذلك حصل ايضا في جزيرة مالطة بعد خروج العرب المسلمين منها واستيلاء النصارى عليها ، ظلت العربية لسان القوم في معاملاتهم ومحاسباتهم وفي دواوينهم ومؤسساتهم المختلفة ، وظل ملوكها ورؤساؤها زمانا طويلا نطرب للقصائد العربيات حين تمدح بها ، غير ان واحدة من هذه البلدان الثلاثة لم تستمر فيها لغة العرب لانها لم تكن يوما ما وطنا عربيا فخرجت منها العربية مثلما دخلتها تاركة بعض آثار لسانها ولهجاتها في لغات القوم .

.. ودخلت العربية المغرب مع الفتح الاسلامي ، فوجدت لها فيه وطنا ومهدا .. ومن ثم كان « استمرار العربية بالمغرب » الى يومنا هذا والى يوم الدين .

ورغم ان واقع العربية بالمغرب لبس بذلك الواقع المزدهر الغني ، فان ظاهرة الاستمرار تتأكد فيه وتزداد رسوخا من يوم الى آخر بهذا الشكل او ذاك .

فالادارة المغربية في كل عهودها ، وحتى في عهد الحماية البغيض لم تكن في يوم ما فرنسية خالصة — مائة في المائة كما يقال — بل كان استمرار العربية يفرض نفسه في كل مرفق من مرافق الحياة الادارية بالقدر الذي تسمح به الظروف ، ولست هنا لاحاول استقصاء مظاهر هذا الاستمرار الاداري في مختلف صوره واشكاله ، وانما اكتفي بالاشارة الى ان «الجريدة الرسمية» التي اصدرتها الحماية الفرنسية قد نصت على ان هذه الجريدة ستصدر بالعربية والفرنسية معا ، وان كان هذا لم يطبق بالفعل الا ضمن حدود ضيقة جدا ، كما ان معاملات الناس وبيوعاتهم وعقودهم ومواثيقهم وهباتهم فيما بينهم وسائر متعلقات « احوالهم الشخصية » المختلفة ظلت محاكم القضاة الشرعية تحررها باللغة العربية ، كما أن « خطب العرش » في كل سنة كانت العامة والخاصة من الناس تستمع اليها باللغة العربية ، و« خطب

أزمة اللغة العربية

للأستاذ : محمد عبد المالك الكتاني

ان التجارب التي عشناها قبل الاستقلال وبعد الاستقلال ، والتي مرت بها شعوب اخرى مثلنا علمتنا ان كبريات المشاكل هي تلك التي تنبثق من ممارسة الانسان للمسؤولية اذ غالبا ما يتلاشى حماس المرء احرنه في غمرة القضايا التي تخلقها الحرية نفسها .

والحقيقة التي نجابهها اليوم هي اننا متخلفون في ميادين كثيرة ولكن مناقشة هذا التخلف على الصعيد السياسي وحده يخلق فينا نوعا من العمى « اللوني » نتيجة لسيادة المنطق السياسي ، بسحب المحترفين السياسيين .

ان مناقشة التخلف القومي او الوطني لايمكن ان يستوعب جميع مظاهر نقصنا وتنفذ الى قلب الحقيقة الا من خلال تحليل الفكر العربي المعاصر لانه وحده يعكس واقع المجتمع العربي وعلاقاته المتخلفة وقضاياه الجوهرية ، وبالتالي مناقشة الثقافة العربية لانها تعكس حياة الفكر وما يعانيه من ازمات ، وما يتخذه من مواقف ازاء الواقع .

وقصدنا من ذلك ان نضع المشكلة اللغوية التي تأتمر لها اليوم في مكانها من الكيان الثقافي والجهاز الحضاري فننظر الى هذه اللغة على اساس اتصالها بنا كامة ، واتصالها بالحياة في نطاق الحضارة الانسانية ، ومن معطيات هذه النظرة انها تجنبنا الوقوع في اتهام اللغة احيانا بما يجب ان نتهم به ثقافتنا او حضارتنا . كما انها تجنبنا الوقوع في الارتجال .

ان اللغة هي الاداة الاولى لنقل الثقافة ، ولذلك تعتبر اعظم مؤسسة اجتماعية بالنسبة لكل امة ، اذ هي مستودع تراثها وعماد حضارتها . يقول احد الكتاب « ان الحيوان لعجزه عن اختراع اللغة لايختزن تفكيره ، ولا ينتفع لهذا السبب بتفكير آبائه واجداده ، ولكن اللغة عندنا جعلت الزمن تاريخيا والفضاء جغرافيا . ولولا الكلمات التي جعلت الزمن تاريخيا والفضاء جغرافيا لما استطعنا ان نفكر او نختزن اختباراتنا فضلا عن اختبار معاصرينا واسلافنا وليس بعيدا ان يكون التفكير كلمات غير منطوقة ، واعتقادي اننا ننسى اختباراتنا في السنتين الاوليين من اعمارنا لاننا لم نربط هذه الاختبارات بكلمات تجعل التفكير فيها ممكنا لانها لم تنقش في الذاكرة بكلمات » .

ان كل حالة ثقافية اذن لابد ان تكون حالة من الخصب العقلي والنفسي يقتضي التعبير عنه بدقة وامانة ان تكون هناك وسيلة تضمن الاتصال بين الافراد والجماعات والاجيال ، وهذه الوسيلة هي اللغة فهي ضرورة اجتماعية وفردية معا ونظرا لقيام اللغة باعباء الفكر والوجدان فانها تعتبر جزءا منهما ، اي جزءا مهما من الكيان الثقافي لكل امة . لانها تجسد حضارتها ونسجل تطورها .

ودراسة اللغة بمعزل عن واقع الثقافة اذا كان يفيد في بعض فروع « الفيلولوجيا » او فقه اللغة فانه ليس كذلك دائما لانه يجرد اللغة من واقعها الاجتماعي والحضاري وما يربطهما بهما من مقومات حيوية .

لذلك اريد عرض واقعنا الثقافي قبل الدخول في مشكلة ازمة اللغة العربية لنعرف هل هناك من نقص او خلل ثقافيين ينعكسان على لغتنا بآثارهما .

ان الفكر العربي الاول ، الذي تمثله قصائد الجاهليين والمعلقات منها على وجه الخصوص ، فكر مادي سطحي يتتبع المحسوس ويغرق فى هذا التتبع ، ويخترع لكل حالة محسوسة اسما جديدا حتى لتجد عندهم للمسمى الواحد اسماء متعددة .. ولما جاء الاسلام وقامت دعوته الروحية على الاخلاق والمثل ونبذ الاغراق فى المادة تلقحت العربية بهذا اللقاح الحضاري الذكي وانبتت قدرتها على سعة المعاني الجديدة ، عن طريق الاستعارة والمجاز والاشتقاق والوضع .

ان العربية مادية التفكير والتعبير فى الاصل وليس بصعب ولا شاق على العربي اليوم أن يشتق او يضع لاسماء المخترعات الحديثة فى مختلف العلوم والفنون اسماء مادية جديدة لانذلك من طبيعة تفكيره، اما الفاظ الحضارة فالعربية من اغنى لغات العالم بها ، وما جد منها فى العصر الحديث يمكن أن تسعه كما وسعت الفاظ الحضارة الاسلامية فى القديم .

ان العربية بالمغرب لا تعجزها المصطلحات العلمية المادية ان تجد لمسمياتها اسماء ادالة عليها ، ذلك ان احفاد الذين كانوا يضعون لكل حالة من حالات السيف او الرمح اسما خاصا قادرون على وضع اسماء مناسبة للمسميات العلمية الحديثة ، ولقد حفظت لنا معاجم العربية كنوزا غنية من هذا القبيل ، وبذلك ادت العربية ما عليها وبقي على أهل العربية ان يؤدوا واجب العربية الذي فى اعناقهم .

ومن اسرار استمرار العربية بالمغرب ايضا ما لهذه اللغة من ماضي مجيد فى ارضنا ، فلقد مضى على العربية فى بلادنا عهد كانت فيه مدارس للنحو ومذاهب فى العربية ، كما كان للمشارقة ، فقد كان يشار الى المذهب المغربي او الاندلسي فى النحو كما كان يشار الى مذاهب البصرة والكوفة فيه والى مذاهب أهل الشام والعراق ومصر ، ولقد كانت لنا الى جانب هذا كله فى علوم اللغة وفقهها او « آلتها » — كما يقولون — مؤلفات وآثار .

ان العربية اليوم تقف على اقدامها سليمة بعد الكفاح الطويل المستميت الذي خاضته خلال العصور ، وما على اهل المغرب الا ان يأخذوا بيدها لنثبت لهم طواعيتها ومساعدتها لهم فى سائر الميادين .

لقد قابلت العربية « التحدي » بصبر وثبات ، وقاومت عوامل الضعف والفناء ، وهي لا زالت على استعداد لمقاومة كل تحد بتحد مثله او اكبر منه ، لتثبت عبقريتها وخلودها واستمرارهاعلى مر العصور.

وصدق الله العظيم « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » ولغة « الذكر » هي العربية لغة المغرب ولغة العرب اجمعين .

سلا — عبد الله الكامل الكتاني



الى النتيجة الحتمية : ان الانسان يساوي التعبير عن نفسه . هذه التسوية ليست جديدة بل هي كامنة فى القول المنزل « خلق الانسان علمه البيان » وانها لحقيقة عظيمة تساوي فى بداهتها أن « الشمس والقمر بحسبان » .

علينا منذ الآن وقد فرغنا من هذه المقدمة الطويلة أن نواجه أزمة اللغة من خلال الازمة العامة . أزمة الثقافة وأزمة الحضارة . وان ننفذ الى صميم الموضوع على وضح من المنطق الشمولي الذي اتخذناه منطلقا لنا .

ما أزمتنا اللغوية ؟ ولماذا كانت هناك ازمة لغوية ؟ وبأي مظهر تتزيى هذه الازمة ؟

اما عن الازمة اللغوية . فهي القصور عن التعبير فى ميادين علمية كثيرة . وتقهقر اللغة العربية امام زحف اللغات الحية فى الوطن العربي . وسيادة هذه اللغات الحية أحيانا فى بعض مرافقنا الحضارية ، وبعض الصعوبات الكامنة فى النحو والكتابة والالفاظ العامة . ونزاع الفصحى مع العامية .

يقول الشيخ ابراهيم اليازجي : « ليت شعري ما يصنع احدنا لو دخل المخابر الطبيعية والصناعية ورأى ما هناك من المسميات العضوية وغير العضوية من أنواع الحيوان وضروب النبات وصنوف المعادن ، وعاين ما هناك من الآلات والاجزاء وأراد التعبير عن شيء من هذه المذكورات فما هو فاعل ؟ هل يغنيه فى مثل هذا الموقف ما عنده من ثمانين ومئتي اسم للطير ، وخمسمائة اسم للاسد، والف للسيف ، ومثلها للبعير ؟ تلك هي اللغة التي وصفها الواصفون بانها اغزر الالسنة وأوسعها تعبيرا وأطوعها للمعاني تصويرا » الى أن يقول : « يعود الكاتب امام تلك الاشياء كالابكم ، يرى الامور ويميزها ولا يستطيع أن يعبر عنها الا بالاشارة ولا يصفها الا بالايماء » وهذا القول صادر من احد ائمة اللغة فى العصر الحديث . ولا يمكن الاستخفاف به أو دحضه .

ويرجع هذا القصور والفقر الى سببين مهمين :

1) يعود السبب الاول الى اللغة نفسها . وهو كون العربية قائمة فى صياغتها للالفاظ على عدد محدود من الموازين الاشتقاقية ورغم ما فى هذه الصيغ من مزايا وأبعاد مختلفة فانها لاتستوعب المعاني المزدوجة تلك التي نجدها فى الالفاظ المركبة فى اللغات الافرنجية.

وكون اللغة العربية لا تملك صيغا تؤدي معنى السوابق واللواحق مثلما يوجد فى اللغات الحية ، هذه السوابق واللواحق التي يتجاوز عددها الستين فى اللغات الاوربية يقول « الخوري مارون غصن » فلو فرضنا انهم صاغوا بكل أداة نحوا من ثلاثمائة كلمة لحصل عندهم ثماني عشرة الف كلمة وهذا غير موجود فى اللغة العربية .

2) ويعود السبب الثاني الى تاريخ العرب ، وتاريخ الحضارة العربية ، فلقد تختلف اللغة العربية عن مواكبة التطور العلمي والحضاري بتخلف أهلها لعدة قرون أي منذ زحف التتار على حضارة الشرق العربي وكادوا يقضون على معالمها ، وانتقل الحكم الى يد المغول فالى يد العثمانيين . وانعزل المجتمع العربي عن العالم راسفا فى قيود الاستغلال ، وعانى الوانا من البؤس والظلم والانحطاط استأصلت منه كل بذور النهضة والنمو والازدهار .

وانعكس هذا الواقع الجهم الجامد على اللغة نفسها فسرى اليها التأخر والجمود وغدت اللغة التركية هي لغة السادة بينما ظلت اللغة العربية قاصرة على بعض الميادين الادبية الخالصة واستمر عهد الظلام الى العصر الحديث حيث جاء الاستعمار الغربي فكان امتدادا لعصر الظلام .

تلك هي اسباب أزمة اللغة العربية ، بعضها من ذاتها وبعضها من ظروف خارجة عن نطاقها . أما المظهر الذى تتزيى به هذه الازمة فهو الضعف والقصور هذا فى اللغة . اما فى نفوس ابنائها فهي الشك فى قيمتها او الشك فى استمرار صلاحها واهليتها للتعبير عن حضارة حديثة باهرة . ومن المفيد هنا أن أشير الى اننا عند اتصالنا بالغرب عن طريق الاستعمار واحتكاكنا بحضارته ولغته كان اتصالنا اتصال مغلوب بغالبه . وليس المغلوب مولعا بتقليد الغالب فقط كما يقول العلامة ابن خلدون ، وانما هو فوق ذلك غر بهذه الغلبة لانه يؤمن أن سرها كامن فى هذه المظاهر التي يتزيى بها . ومعنى ذلك بالنسبة الينا أننا بتنا نعتقد أن سر تفوق الغرب علينا هو فى هذه المظاهر التي يظهر بها . وهذه المؤسسات التي ينشئها بل فى هذه اللغة التي يتكلمها .

هذه حقيقة نفسية تلابس اذهاننا ، والثانية هي التي يقول عنها مالك بن نبي المفكر الجزائري « ان

اننا مختلفون جدا فى مفهوم الثقافة لاسباب كثيرة ولذلك لا آمن على حديثي من سوء الفهم عندما اتحدث عن الحياة الثقافية . فالثقافة من حيث المدلول اللغوي أمر بسيط ولكنها كمفهوم حضاري مفهوم معقد له مساس بالفلسفة والحياة الاقتصادية والاجتماعية التي يعيش الفرد فى نطاقها .

« الثقافة معرفة منظمة تكسب صاحبها علاقة واعية بالكون والحياة وسلوك منسجم مع معطيات الفكر يتحول الى خلق ثابت . وتجهيز حضاري قائم على تلك المعرفة ، وهذا السلوك يحقق الانسان المثقف به مختلف حاجاته المادية والروحية . »

هذا المفهوم غير موجود عندنا . وانما الذي نروجه من مفاهيم الثقافة فى أوساطنا انها معرفة واطلاع أو تعلم ينتهي عادة ببعض الشهادات . ولما كان هذا المفهوم لا يختلف فى شيء عن معنى « دارجي » بروجه العامة والخاصة فان الثقافة ليست حافزا فى حياتنا ، وليست ذات طابع عميق يكتسب المرء من خلالها القيم الاخلاقية والاجتماعية اللازمة .

ضاف الى ذلك أن واقعنا ليس قائما على شروط ثقافة ، اي على معطيات العلم والنظام والديمقراطية بقدر ما نقوم على عناصر من الوصولية والانتهازية والفوضى والمنافسة والصراع المادي الذي تتلاشى فيه جميع قيم الانسان بما فيها حريته وكرامته .

ولكن تخلفنا هذا لا يتراءى لنا كفراغ ثقافي وانعدام معطيات ثقافية . لاننا نملك عوضا عنهما تكديسا فى المعارف والافكار من كل صنف ولون . وتكديسا فى اجهزة الحضارة من كل دولة وأمة ، واتجاهات سياسية وعقلية من كل جهات الدنيا الاربع، يجعل منا مستهلكين لا منتخبين ، نجتر ولا نهضم ، نردد ولا نبتكر أو نحكم . وهذا هو سر التنافر والفوضى بين مختلف مظاهر حياتنا ، ان فى الافكار أو فى الاشياء .

واننا متخلفون ثقافيا وحضاريا أي متخلفون فى فهم الاشياء على حقيقتها وفى امتلاك افكار سليمة تقودنا الى النظام والتنسيق والابتكار والايجابية .

ان قادتنا وساستنا عندما يضعون مشكلة التخلف اذن على الصعيد السياسي أو الاقتصادي انما يتجاهلون الاسباب الجوهرية لهذا التخلف ، ومن رواسب هذا المنطق ان يعتقد البعض اننا لمجرد ضعف فى القوى العسكرية او المادية نقف فى مؤخرة الدول الناهضة .

صحيح اننا متخلفون فى شتى الميادين ، السياسي منها والاقتصادى ، ولكن ذلك لا يعكس سوى تخلفنا فى ايجاد تصميم وتخطيط يحول طاقتنا البشرية الى فعل ، الى ابتكار الى تجهيز الى تعبئة الى فاعلية وبالتالي لا يعكس هذا التخلف سوى انعدام افكار سليمة قادرة على ايجاد القوة والتطور والاندفاع فى حياتنا .

ان هذه الافكار السليمة هذا المنطق الجذري هو الذى أوحى للصين ان تقضي على الذباب مثلا خلال اسبوع وفق تصميم وتخطيط ، وعدمها هو الذي يجعلنا نعالج الفضية فرادى داخل منازلنا ننشه ونطرده فى منتهى اللامبالاة .

ان ازمتنا اذن تتلخص فى كوننا لا نتبنى المفهوم السائد للثقافة فى مضمونه الحضاري ، اي أننا نعيش فى فوضى فكرية تنعكس على واقعنا فى مظاهر واضحة للعيان ؛ تردد فى مجابهة المشاكل ، سلبية فى الافكار ، ارتجال فى الحلول ، تعفن فى الادارة ، تكدس فى الاجهزة، تناقض بين الواقع والنظريات .

وواضح أن اللغة هي أيضا لا تنجو من آثار هذا التخلف الثقافي بل انها تعانى رواسب الازمة بوجه عام ، لانها أول مؤسسة وطنية تعكس هذه الفوضى والبلبلة فى كل مجتمع من المجتمعات .

وقد قلت سلفا وأؤكد الآن أن اللغة ليست كما كنا نعتقد قديما وسيلة للتعبير عن الفكر ، لان نتائج البحث النفساني (السيكلوجي) اظهرت الا واسطة أو غاية فى اللغة ، لان اللغة هي وجدان الانسان ولهذا سمي الوجدان وجدانا ، لان الانسان يجد نفسه فيه . فهو خط بين نقطتين ، واجد وموجود . ولهذا كانت الكلمة على صيغة المثنى فى العربية .

والوجدان وعي ، والوعي مدركات تختزنها اللغة . وسرعان ما تأخذ اللغة هوية المدركات فتصبح هي نفسها . فاذا امعنا النظر فى هذه المقدمات وصلنا

نظرات في البيان والتبيين

للأستاذ : إبراهيم السلمي

تمهيـــــــد :

لاريب فى ان التراث العربي قد غنى بالمؤلفات الهامة المنوعة ذات الروح العاكسة للشرق الملتقى بالغرب منذ حملة نابليون على مصر ان لم نقل منذ الحملة الصليبية الاولى ، وقد جرت غزاوة هذه المؤلفات انسان عصر النهضة اليها ، وهذا الميل نحو التاليف المعاصر كثيرا ما وصم العقول بالنقص فى معرفة حقيقة الحضارة العربية وجلالها ، لانها صدت بنيها عن تمعن مظان هذه الحضارة والتماسها من ينابيعها الاولى .

لكن الانجراف خلف المؤلفات الحديثة ليس وحده المسؤول عن قلة الالتفات الى كتبنا العربية الاولى ، بل ان تاليفها اللامنهجي وتداخل مواضعها وغزارتها يجعل القاريء مضطرب الذهن مشتته لانه لا يخلص الى التزود من بغيته الا بعد معاناة وقراءات مستطردة تطلعه على اشياء واشياء قد تروقه ولكنها لاتجيب على سؤاله ولا موضوعه الذي يود البحث فيه .

وسنعرض فى هذا البحث المتواضع الى الجزء الاول من كتاب البيان والتبيين للجاحظ محاولين تسديد النظر فى موضوعه واسلوبه ، ومحاولين تحديد خطة للاستفادة والانتفاع ، لكننا قبل اجلاء هذه الخطة سنعرض فى ايجاز لهذا المصدر الهام من مصادر ادب العرب ونبسطه كما وضعه مؤلفه الفذ ابو عمرو عثمان الجاحظ .

البيـــان والتبييـــن ج 1

عـــرض الكتـــاب :

بدا الكتاب بالدعاء للمهدى اليه – وهو احمد بن ابي داود الوزير – فيعود به من الحصر والعي الذي ذمته العرب ، ويورد لتثبيت رأيه طائفة من الشواهد النثرية والشعرية والقرآن ، ثم يستطرد فيذكر « واصل بن عطاء » الالثغ الذي تحايل على حرف الراء فاسقطه من جميع احاديثه وخطبه لانه كان لايجيد نطقه ، فكان اذا اراد كلمة البر قال القمح ثم يستطرد من الحديث عن كلمتي القمح والبر الى الكلام عن المفردات التي غلبت على سكان المدينة ، ولكنه ما يلبث ان يعود الى واصل وسبب تسميته بالغزال

ثم يخرج الى القول المفصل عن اللثغة وانواعها مثل السين المنطوقة طاء واللام المنطوقة ياء ، ويذكر بعض من كانوا مصابين بهذه العاهة كما يورد طائفة من الشعر فى ذم الخطباء المصابين بها ومدح الخطباء الفصحاء مثل قس الايادي والبعيث المجاشعي والطرماح والكميت ، وكانوا خطباء حكماء شعراء ، وبعد ان يعود الى آفات اللسان يقفز دون تمهيد الى الكلام عن تجانس الالفاظ وتوافقها ثم يرجع الكرة الى آفات اللسان ذاكرا بعض من اشتهروا بها مثل زياد بن الاعجم وسحيم وعبيد الله ابن زياد .

بـــاب البيـــان :

بعد ان يعرف الجاحظ معنى البيان عند العرب والعجم ويحدد معناه يعتذر عن عدم ايراد هذا الباب فى اول الكلام ، ثم ينطلق الى الحديث عن دلالات المعاني

مركب النقص الذي يعتري الفرد المسلم عندما يواجه المصاعب التي تحيط بحياتــه الاجتماعية اليوم يدفعه غالبا الى أن يعزو هذه الصعوبات الى طبيعة المشكلات عوضا عن ان يعزوها أولا الى نفسه من الناحية العقلية فى ادراكه هذه المشكلات ، ومن الناحية الاخلاقية فــي سلوكهــا ازاءهــــا .

هذا المركب النفسي وتلك الفرة جعلتنا ننظر الى اللغة هذه النظرة الفريبة التي نجدها عند بعض شبابنا. يضاف اليهما عامل الجهل باللغة . وعامــل المصاعب الطبيعية التي لا تخلو العربية منهــا . مما يشكل بلبلة فكرية خطيرة تجــاه لغتنا العربية . يجعل المسؤولين وغير المسؤولين مترددين فى الاقدام على علاجهــا .

ولنستعــرض بعض خصائــص المباحث التــي تناولت قضية اللغة العربية فى هذا الجيل الاخيــر أي فى النصف الاول من القرن العشرين حتى ندرك ما هي النتائج التي اسفرت عنها ونوعية المنظرة التي نظر بها الى أزمة اللغة العربية .

من هذه المباحث ما تناول قضية التخلف اللغوي بصفة عامة واقترح لها وسائل العلاج كمباحث سلامة موسى، واسماعيل مظهر ، والخوري مارون غصن والدكتــور بشر فارس وأحمد حسن الزيات وعبد القادر المغربي ومحمود تيمور وعبد العزيز الاهواني ومنها ما عالــج قضايا تيسير اللغة العربية نحوا أو كتابــة او طباعــة كمباحث الاب انستاس الكرملــي واحمــد الاخضــر والدكتور انيس فريحة وأبي خلدون ساطــع الحصري والدكتــور طه حسيــن . ومنهــا ما عالــج قضيــة الازدواج اللغوي أى مشكلة العامية والفصحى كمباحث ابراهيم المازني ، والعقاد ، ومحمد رضا الشبيبي . ان النفع الذي حققته هذه المباحث لا ينكــر . غير اننــا نسجل عليها الملاحظات التاليــة :

1) ان الذين اعتبروا اللغة العربية غير قادرة على مماشاة التقدم العصري ظنوا خطا أن عجزها يرجــع الى خصائصها الذاتية وانه بمجرد تسهيل قواعدهــــا ووضع المصطلحات العلمية أو تعريبهــا يمكنهــا مــن التقدم . هؤلاء وقعوا فى خطا النظرة التجزيئية للظاهرة اللغوية ، لقد عزلوا اللغة عن واقع المريض ، ونسبــوا اليها كل اسباب المرض . وانتظروا لها العلاج بمجــرد تنفيــذ وصفــة الطبيب .

ووقعوا فى حبــال مركب النقص الــذي ينسب الصعوبة الى المشكلة لا الى طبيعــة فهمنــا للمشكــل وموقفنــــا منــــه .

واما الذين قارنوا بين لغتنــا الفصحــى واللغة اللاتينية ، وتوقعوا للعربية مصير اللغة اللاتينية مــن سيادة اللهجات العاميــة عليهــا ، وصيــرورة هــذه العاميات لغات حية بفضل الرواج والاستعمال واليسر الذي عليه ، فهؤلاء وقعوا فى خطا التعقيم البعيد الذي يلغي الفروق الفردية بين اللغات والشروط الحضارية التي تنمو فيها كل لغة بالذات .

والذين تحدثوا عن مصاعب العربية ومشاكلهــا الذاتية أي من حيث طباعتها واملاؤها ونحوها المعقــد المفلسف لم يخل حديثهم او حديث بعضهم مــن غلــو وتهويل ، فلكل لغة قواعدها ونحوها وصعوباتها التــي لا تقبل التغيير ، على أن ذلك لا ينفي وجوب تيسيــر العربية بتصنيف نحوها من جديد وفق نظرة فلسفية أو علمية جديدة ، وتوحيد شكل الحرف العربي جهــد الامكان رغم اختلاف موقعه من بنية الكلمــة ، والغاء بعض القواعد اساسا مما لا ضرر معــه فى الالغاء ولا فضل معه فى البقاء من الناحيــة الجوهرية .

يقول سلامة موسى :

ليست اللغة سوى وسيلة للفهم والدرس ، فاذا كانت نحتاج الى السنوات الطويلة لدراستها فان هذه السنوات محسوبة علينا مقتطعة من الوقت الذي يمكن أن نرصده لدراسة الجغرافية والتاريخ والجيولوجيــا والفيزياء والطبيعيات مثلا . وذلك المسكيــن الــذى يقضى عمره فى دراسة اللغة دون غيرها انما هو بمثابة ذلك الذي يكد طول عمره لشراء آلة النسيج حتى اذا اشتراها لم ينسج شيئــا . لان اللغة آلة ، ولا يمكــن أن نفــرح باقتنــاء الآلة ما لــم نستخدمهــا .

يتبــــــع

محمد عبد المالك الكتانــي

2) البلغـــاء :

مدح العرب في البليغ ذلاقة اللسان وعابوا عليه اللكنه واللثغة والتقعير ، والحصر والعي .. كما اشترطوا فيه موازنة اللفظ بالمعنى « فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعاني ويقسم اقدار المقامات واقدار المستمعين على اقدار تلك الحالات (*) » واستحبوا فيه ان يكون جهير الصوت ، مشادقا « لذلك مدحوا سعة الفم وذموا صغره (*) » قال عمرو بن سعيد :

شادق حتى مال بالقول شدقه
وكل خطيب لا ابالك اشدق (*)

كما ذموا في البليغ الاطناب دون مبرر ، والغوص في غرابة المعاني والصور . والنزوع الى الوحشي من الكلمات بعلة الستر من الوصم بالقصور والعجز ، ومدحوا فيه الالمام بالموضوع ووضع الكلمات المناسبة لكل حال . فقد تخير علماء الكلام مثلا الالفاظ الملائمة للمعاني المقصودة « واشتقوا لها من كلام العرب اسماء، واصطلحوا على تسميه ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف وقدوة لكل تابع (*)».
وحبذوا في الخطيب البليغ حين يخطب ان يعتمد على القوس او القضيب والتلويح به اثناء الخطبة اندماجا منه في الخطبة ومغالاة في الاقناع .

3) الاستطـــرادات :

ا ـ استطرادات في الموضوع : الاستطراد سمة من سمات اسلوب الجاحظ (وسنعرض لذلك فيما بعد) لذلك نجده يتحدث في مواضع كثيرة عن واصل بن عطاء لآفات لسانه من جهة ولفطنته كمفكر وخطيب ، ونجده في جزء آخر يسهب في ذكر الشواهد عن حسن التخلص من الخصوم بحسن التفكير وجيد القول لانه يعطي صورة للكلام الموجز المقنع ...

ب ـ استطرادات زائدة : وهي شوائب لا تخدم الموضوع مثل حديثه عن بقايا ثمود ، وعن الحمر ، واصناف المأكولات والالقاب ... الخ

ـ يتبع ـ

القنيطرة : ابراهيم السولامي

(*) (*) (*) (*) (*) (*) البيان والتبيين ص : 168و307و166و146و147و166 .



وهي خمسة : اللفظ والاشارة والايماءة والعقد (أي الحساب) والخط ، ويذكر شواهد لكل دلالة ، ومن هذا الحديث يقفز الى معنى البلاغة عند العرب والفرس والهند والروم . وكعادة ابي عمرو فى الاستطراد يذكر اسماء البلغاء ثم تعريفانهم واستحسانهم لاوصاف معينة فى البليغ كالجهورة والتشادق وترصيع الكلام بالآيات والابيات الشعرية ولكن الجاحظ يطفر بفتة الى بقايا ثمود ، ثم يفرد للصمت وفوائده صفحات من كتابه ، ولكنه يتركه الى الكتابة عن النساك ، والزهاد وعلماء النسب ، وخلال حديثه عن البلاغة وما يتصل بها كان يجنح الفينة بعد الفينة لذكر الاستشهاد أي للخروج عن الموضوع بذكر الوان الطعام مثلا .

ومن هذا المزيج العجيب فى الموضوعات وتداخلها ينتقل الجاحظ الى الالقاب وغلبة بعضها على الاسماء الحقيقية لاصحابها ، ثم يتحمس فى الرد على الشعوبية التي عابت على العرب اتخاذهم للعصى والقناة انناء الخطبة ، ثم يختم كتابه بما قيل عن فصحاء العرب وحزمهم وشدتهم مثل زياد بن ابيه والحجاج الثقفي .

محاولة منهجية لحصر مواضع الكتاب :

نستطيع من هذا العرض الموجز للجزء الاول من البيان والتبيين الذي تنيف صفحاته على 420 ان نتبين الصعوبات التى تعتري الباحث فى تصنيفه فهو اشتات لابواب مضطربة متداخلة ، وسنحاول حصرها تحت ثلاثة عناوين رئيسية هي :

1) الكلام البليغ . 2) البلغاء .
3) الاستطرادات وهي نوعان :

ا) ــ استطرادات تتصل بالموضوع العام .
ب) ــ استطرادات لا تتصل بالموضوع العام .

ملخص لهذه الاقسام

1) الكلام البليغ :

قيل لليوناني : ما البلاغة ؟ قال تصحيح الاقسام واختيار الكلام . وقيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل والوصل . وقيل للرومي : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة والفزارة يوم الاطالة . وقيل للهندي : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة (*) . ويقول الامام ابراهيم بن محمد : « يكفي من حظ البلاغة الا يوتى السامع من سوء افهام الناطق ولا يؤتى الناطق من سوء افهام السامع (*) » ويقول الجاحظ معلقا على قول الامام ابراهيم : اما انا فاستحسن هذا القول جدا .

وقد اتفقت اكثر اقوال البلغاء بان البلاغة الايجاز، وان اختلفوا فى تحديد مفهوم هذا الايجاز فقد سأل معاوية صحار بن عياش العبدي : ما الايجاز ؟ فأجاب ان تجيب فلا تبطيء وتقول فلا تخطيء ، وقيل للمفضل الضبي : ما الايجاز ؟ فاجاب : هو حذف الفضول وتقريب البعيد ، وقد مدح العرب الكلام الجزل الصافي الخالي من التكلف . وعن الجاحظ « ان الاستعانة بالحوشي من الالفاظ عجز وتقصير » وكان العرب يودون ان توافق الالفاظ معانيها فتحمل او تسف فى المحل المناسب لكل منهما ، يقول الجاحظ : ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الاعراب فاياك وان تحكيها الا مع اعرابها او مخارج الفاظها فانك ان غيرتها واخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير ، وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام فاياك وان تستعمل فيها الاعراب او ان تتخير فيها لفظا حسنا فان ذلك يفسد الامتاع (*) » .

وارتأى العرب ان يعتني البليغ بالاسلوب فى غير صنعة او تكلف فانه « ليس للبليغ ان يهذب اسلوبه وينقحه ويصفيه ويروقه حتى لاينطق بلب اللب . . فانه ان فعل ذلك لم يفهم عنه الا بانه يحدد لهم افهاما مرارا وتكرارا لان الناس كلهم تعودوا المبسوط من الكلام وصارت افهامهم لاتزيد على عادتهم » وعابوا السجع فى الكلام لانه مدعاة للافتعال « ولان كهان العرب الذين كان اكثر اهل الجاهلية يتحاكمون اليهم . . كانوا يتحاكمون ويتكهنون بالاسجاع (*) » واستحسنوا ان يتضمن الكلام البليغ استشهادات من المنظوم والمنثور ان كان قرآنا او حديثا ، وعابوا فيه وحشية اللفظ وغرابة المعنى .

---

*) البيان والتبيين ص 111 . *) نفس المصدر ص 120 . *) ايضا ص 172 .

في القـــرن الثانـي :

حل القرن الثاني وحل معه التدوين في العلـــوم الشرعية والادبية وظهرت طبقة من الرواة واللغويين والنحاة . واخرى من الشعـراء والكتـاب وتزاحمت مجالس البصرة ، ومحافل الكوفة ثم بغداد بكثير مـن الذين ضربوا بسهم في الفنون الادبية من لغـة ونحـو وشعـر . والى جانبهم آخرون نصبوا انفسهم للنقـد والاخبـار ..

ولا ننسى ان القرن الثاني كان عصر انقلاب ادبي في النثر والشعر .. وتجديد وتطور في الفكـر وقـد طوت في اوائله صفحة الدولة الاموية واتجاهها في الحكم والسياسة .. كما نشرت صفحة الدولـة العباسية بنظامها الجديد الذي مكن كثيرا من العناصر من الاسهام في الحياة الفكرية بالاضافة الى الاسهام في الحياة السياسية ..

فبعد ترسل عبد الحميد الذي فتح الطريق امام ابن المقفع ، نجد هذا الاخير يقول وقد سئل عن البلاغة فقال محددا لها : « البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة . فمنها ما يكون في السكوت . ومنها ما يكون في الاستماع . ومنها ما يكون في الاشارة، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون في الحديث ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا . ومنها ما يكون شعرا . ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل . فعامة ما يكون في هذه الابواب الوحي فيها والاشارة الى المعنى . والايجاز هو البلاغة، فاما الخطب بين السماطين وفي اصلاح ذات البين . فالاكثار في غير خطل والاطالة في غير املال . ولكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما ان خير ابيات الشعر البيت الذي اذا سمعت صدره عرفت قافيته ... »

فهذا كلام في النقد له قيمته ، بالاضافة الى هذا الاسلوب (المستغرب) يعطينا صورة عن اتجاه النقاد في ذلك العصر الانتقالي . وقد كتب الجاحظ في البيان والتبيين عن فهم الفارسي . واليوناني . والرومي . والهندي ، للبلاغة وقد ـ زعم ـ انهم سئلوا . ما البلاغة ؟ فاجابوا :

ـ الفارسي : معرفة الفصل والوصل

ـ اليوناني . تصحيح الاقسام ، واختيار الكلام

ـ الرومي : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الاطالة ..

ـ الهندي : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة .

اما فهم العرب للبلاغة فقد ـ شاء ـ الجاحظ ان يجعله محاورة بين معاوية بن ابي سفيان .. وصحار العبدي الخطيب العربي الشهير الذي كان من شيعة عثمان وحضر صفين مع معاوية :

معاويه : ما البلاغة فيكم ؟

صحار : الايجاز ...

معاوية : ما الايجاز ؟

صحار : ان تجيب فلا تبطيء . وان تقول فلا تخطيء .

وشعراء القرن الثاني وهم كثيرون : ابو نواس ، وبشار . وابو العتاهية ، وغيرهم لا يسلم واحد منهم ـ في عصره ـ من تتبع النقاد الذين ينتقدون لغته ، ونحوه ، ووزنه . وسرقته . واقتباسه بالاضافة الى دينه . وسلوكه ، واخلاقه . ولكن هذا النقد على العموم لا يتعدى الجزئيات والشكليات مما يجعلنا نتأكد ان الفروق بين نقاد هذا القرن وسابقيهم ليست جوهرية في الموضوع .. لان الانقلاب العباسي اعطى ثمارا فجة في القرن الثاني ظهرت في تعدد الاتجاهات ووفرة الشعراء ، وكثرة الكتاب والنقاد . ولم تظهر الثمار الناضجة الا في القرن الثالث .

في القـــرن الثالث :

كان مفتتح هذا القرن مزدانا بخلافة المأمون في السياسة . وفي الجاحظ في الكتابة ، واسلوب المعتزلة في الدين والثقافة . وظهر ابو تمام والبحتري في البداية ، وابن الرومي وابن المعتز في النهاية .

وقد نضجت سائر العلوم والفنون ومنها النقد الادبي فارتأى الجاحظ ان يؤلف كتابه (البيان والتبيين) ليبني النقد الادبي على اساس من الذوق السليم ، واننا اذ ندرس هذا الكتاب نجد الجاحظ يستعمل الفاظا اصطلاحية مثل : المجاز ، والتشبيه ، والازدواج . والاستعارة ، والكناية ، والاطناب ، والايجاز ، والبديع ...

كيف تكون النقد والبلاغة

للاستاذ : عبد القادر زمامة

كثيرا ما نجد في تاريخ التفكير البشري ان مسميات العلوم والفنون وسائر ضروب المعرفة تسبق ــ اسماءها ــ بحقبة من الزمن قد تطول وقد تقصر .. فالنقد والبلاغة كانا موجودين قبل ان نسميهما بهذين الاسمين ، وثروة الادب العربي في العصر الذي يسمى بالعصر الجاهلي كانت لا تخلو من نقدات عابرة ، يرسلها الجاهليون في محفل او موسم يرفعون بها من شان شاعر او يضعون من اجل قصيدة او قطعة او بيت ... فهو اشعر اهل المدر .. او اشعر اهل الوبر .. بل هو اشعر من نطق بالضاد . احيانا ..

وقصة التحكيم في عكاظ بين الشعراء واحكام هؤلاء (المحكمين) تركت لنا في : طبقات الشعراء لابن سلام ، والكامل للمبرد ، والامالي ، والاغاني . نقدا أدبيا لكثير من القصائد والمقطعات والابيات .. فيه الغث والسمين .. والرخيص والثمين .. وهو في جملته نقد فطري عابر .. ينقد المعاني تارة ، واللغة اخرى .. ويرسل الاحكام جزافا من غير مكيال ولا ميزان .. حتى اننا لنبتسم حينما نجدهم يقولون : (اشعر الجاهليين امرؤ القيس اذا ركب .. وزهير اذا رغب .. والنابغة اذا رهب .. والاعشى اذا طرب)

في القرن الاول :

واشرقت شمس الاسلام على العرب فكانت معجزته الكبرى في القرآن الذى نفذ ببلاغته الى اعماق النفوس فآمنت ايمانا فطريا ، وكان الاعجاز عندها قضية وجدانية مسلمة ..

اما الشعر فكان استمرارا للشعر الجاهلي .. خبت ناره في عهد الفتوح الاولى .. ثم استانف حياته بعد ما ظهرت فيه عدة اتجاهات فيها البدوي الموحش، والحضري المتانق ، والعفيف المتصون ، والماجن المتهتك ..

وكان النقد في هذه الحقبة الاولى شبيها بسلفه في العصر الجاهلي ، يحوم حول الشعراء ولا يتعمق ، ويطفو فوق الانتاج ولا يغوص ، والامثلة عندنا كثيرة لهذا النقد في معركة جرير والفرزدق والاخطل وما قام حولها ، وفي مجالس خلفاء بني امية في دمشق حيث كان حديث السمر لا يخلو من انشاد الشعر ونقده والتعليق عليه ، مما يرفع الشاعر لينال الجائزة او مما يضعه ليكون من المحرومين ..

ومن الطريف ان نجد المراة العربية تسهم في ميدان النقد الادبي بين الشعراء ، فهناك مجالس سكينة بنت الحسين التي كانت تنقد شعراء عصرها ، وعائشة بنت طلحة ، وعزة ، وغيرهن ، وقد كان الشعراء يهابون سهام الناقدات كما يهابون سهام الناقدين ..

واخبار الاحوص ، والعرجي ، وكثير ، وجميل ، وعمر بن ابي ربيعة مليئة بكلام النقاد ــ رجالا ونساء ــ

وقد احتفظ لنا ابو الفرج الاصبهاني في الاغاني بكثير من هذا النقد الذي لم يكن في جوهره الا محاولات تهدف الى تقويم المعوج من لغة الشاعر .. او اصلاح خطا وقع فيه من ناحية المعنى ، او اظهار اقتباس او سرقة شعرية ، والشيء الجديد في هذا العصر هو انه اصبح للمغنين والمغنيات راي مسموع في نقد الشعر والشعراء ..

الفولكلور

المغربي

للأستاذ : عباس الجراري

- 2 -

تحدثنا في العدد السابق عن مفهوم الفولكلور ونشأته وأسباب ازدهاره ومظاهر الاهتمام به في مختلف البلاد ، وقلنا اننا سنترك الحديث عن الآثار الشعبية المغربية والعناية بها الى بحث خاص . فعسى ان نوفق في هذا المقال الى تناول هذا الموضوع الواسع الذي لن نلم بجميع جوانبه غير دراسةمستفيضة نرجو ان يتاح لنا او لغيرنا فرصة الخوض فيها بتعمق وتفصيل .

ولعل اول ما يدعو الى التفاؤل في هذا المضمار ان الحكومة انشأت بوزارة الصناعة التقليدية والفنون الجميلة والسياحة قسما خاصا بالفلكلور يهدف الى البحث عن الآثار الشعبية وتنظيمها ، والى تدريب نخبة من الشبان بقصد تكوين فرقة وطنية للفلكلور تتوفر فيها الكفاءة الفنية والادبية . وبالرغم من أن الفترة القصيرة التي مرت على تأسيس هذا المكتب لم تسمح بظهور ثمار نشاطه ونتاج جهوده، فاننا نسمح لانفسنا بتذكير المسؤولين بأن أشياء كثيرة تنتظر من هذا القسم لاسيما فيما يتعلق بجمع الآثار الشعبية وتنسيقها . وقد كنت أظن ان للوزارة عناية سابقة بهذا الفن خاصة وان الشائع في وسط الجمهور أنها « وزارة الفولكلور » ، ولكن الواقع ان اهتمامها به سطحي الى ابعد الحدود لا يتعدى العناية بحفلات الرقص والفروسية وما اليها . وليس معنى هذا اننا ننكر عليها مثل هذا الاهتمام فنحن نطالب بتشجيعه ومضاعفته ، ولكن الذي ننكر عليها في شدة وصراحة أن تقصره على هذه المظاهر غير محاولة القيام بأي عمل ايجابي من شأنه ان يجعلها تحصر مختلف الوان الفنون الشعبية وتنظمها في سجلات وخزائن ومتاحف وتدرسها او تكلف من يدرسها على أساس علمي كتراث يعكس الشخصية المغربية في اجلى مظاهرها وصورها . والامل كبير في ان يسد المكتب الجديد هذا الفراغ او بعضه وان يشجع المسؤولون ما قد ينتج الكتاب من دراسات في الموضوع .

وهنا اود الاشادة بجهود بعض ادبائنا الذين اسهموا في هذا الميدان بابحاث تستحق كل اعجاب وتقدير . فقد الف الاستاذ عبد الهادي التازي كتيبا عن « اعراس فاس » ، تحدث فيه عن عادات الزواج بالمغرب وخاصة مدينة فاس معتمدا في جانب كبير مما كتب على وثائق حية لا زلنا نلمسها في الواقع الذي نعيشه ليس في فاس فحسب وانما في اغلب المدن المغربية التي احتفظت عبر الزمن بعادات منها ما هو محلي محض . ومنها ما ورد عليها من المشرق او الاندلس ولكنه لم يلبث ان انصهر في التقاليد الوطنية وان ظل محتفظا ببعض المميزات .

وكتب والدنا حفظه الله بطلب من الاذاعة الوطنية سلسلة احاديث بعنوان « رمضان في عوائده »، تناول فيها بالبحث والتحليل كثيرا من التقاليد الجارية في شهر الصوم .

وقبل هؤلاء جمع المرحوم احمد بن محمد الصبيحي «أمثال العجائز» وطبعها مع ترجمة فرنسية قام بها المرحوم ابن شهبدة ، كما الف كتيبا « في بعض العادات المغربية» تحدث فيه باختصار عن تقاليدالمعلمين والخطباء والائمة والقضاة والتجار والصناع وما اليهم بالاضافة الى العوائد المتصلة بالاسر والافراد كالولائم والمواسم والافراح . واخبرني السيد الوالد

ومن الواضح ان الجاحظ لا يستعمل هذه المصطلحات فيما تستعمل فيه عند المتأخرين . ولكنه يستعملها استعمالا آخر يقرب من استعمال المتأخرين حينا ويبعد احيانا ..

فنظرية الجاحظ في النقد والبلاغة تنبني قبل كل شيء على الذوق ، فهو الحكم في جودة الكلام أو ضعفه . ولكن الجاحظ الى جانب هذه النظرية نجده مطلعا على آراء الهنود واليونان والفرس في البلاغة . ويظهر ذلك من نقله في كتابه عن (صاحب المنطق) وعن غيره من اليونانيين آراء عديدة في المنطق والبيان . وبذلك يكون الجاحظ وقف عند حده ولم يفلسف النقد الادبي ، ولم يتأثر كثيرا بما ترجم في عصره من آراء في البلاغة والبيان .

ونجد في نهاية القرن عبد الله بن المعتز يؤلف كتابا يسميه ــ البديع ــ جمع فيه سبعة عشر نوعا من فنون الكلام واساليب التعبير ، وواضح انه لا يقصد البديع الاصطلاحي ، وانما يقصد البلاغة والنقد فنجد من انواع البديع عنده التشبيه والاستعارة وهما في الاصطلاح من مباحث علم البيان ..

في القرن الرابع :

اطل القرن الرابع والنقد الادبي يرفع راسه بين الفنون الادبية متكاملا ناضجا يحتل بين الكتاب والشعراء والمؤلفين مكانا مرموقا ، فالكل يعلم ان ثمار هذا الفن ظهرت يانعة عند ابن هلال العسكري في كتابه (الصناعتين) ، وعند الجرجاني في كتابه (الوساطة) بين المتنبي وخصومه ، وعند الآمدي في كتابه (الموازنة بين البحتري وابي تمام)

ولكن طريقة هؤلاء كانت تعتمد قبل كل شيء على وزن الانتاج الادبي بالميزان الذي يرتضيه الذوق العربي والتفكير والتعبير ، وكل واحد من هؤلاء المؤلفين النقاد كان يرمي الى هدف واحد وهو ان يكون الشاعر او الكاتب ذا حاسة فنية تجعله يراعي الذوق السليم في تركيب الجمل والوصف والتشبيه والاستعارة وغيرها .

والى جانب هؤلاء ظهرت طريقة اخرى وهي طريقة قدامة بن جعفر المتأثر بالثقافة اليونانية والتفكير اليوناني في البلاغة والنقد .. فقد الف هذا الناقد كتابين هما : (نقد الشعر) و (نقد النثر) والبون شاسع بين هذين الكتابين وبين كتب العسكري والامدي والجرجاني ...

فطريقة قدامة اقرب الى العقل بينما طريقة سابقيه اقرب الى الذوق .. فبينما نجد قدامة يستعمل منطق ارسطو . نجد سابقيه يستعملون الذوق الفني والميزان الوجداني ..

ومن الانصاف ان نقول ان اصحاب المنطق أفسدوا الذوق الادبي عند كثير من الشعراء والكتاب فجردوا الشعر من الجمال بينما لامعنى للشعر بدون جمال .. ولعلنا سنتمكن من الحديث عن جوانب من هذا الموضوع في المستقبل بحول الله .

فاس : عبد القادر زمامة

وتشمل تفسير الاحلام وتأويل بعض الظواهر والتصرفات . وهذه التفسيرات والتأويلات ، وبطفى عليها روح التشاؤم والطيرة ترجع فى اصلها اما الى طقوس ومعتقدات قد لا تعتمد على غير الخرافات والاساطير واما الى احداث شاع خبرها في الناس فظلت فى اخلادهم . ومن هذا القبيل ما يقال عن بعض الاشياء بانها « ماشي مليح » كلبس الاسود من الثياب فانه يتشاءم منه فى بعض الاوساط . واذكر ان سيدة فقدت ولدا لها فى عز الشباب فعزت موته الى استعماله حذاء اسود . وقريب من هذا ما عللت به جدتي رحمة الله عليها آلاما كانت نزلت بي من الزائدة الدودية . فقد قالت ان السبب فيها دراجه « سولكس » سوداء كان اشتراها لي والدى لانتقالي من الفصل الرابع الى فصل الشهادة الثانوية .

ومن هذا القبيل كذلك ما يقال عندنا بانه لا يسلف الخميرة بعد غروب الشمس ، واذا ما اضطر احد الى اعطائها فليعط معها قليلا من الملح حتى لا يصيبه اذى . وهى عادة لاحظنها فى ريف مصر بل عثرت على تعليل لها فى بعض الكتب ، ملخصة ان امراة ارادت ان تعجن الخبز فلم تجد لديها لا ملحا ولا خميرة فطلبت من جارتها ان تعيرها بعض الخميرة فاعطتها اياها . ولكن المراة لم تلبث ان عادت الى الجارة وقالت لها : « اعطني ملحا حتى لا تضيع بركة هذه الخميرة » .

على ان من هذه التاويلات ما تطفى روح التفاؤل عليه كتفسيرهم الموت فى الحلم بالحياة المديدة وطول البقاء . بل ان منها ما يقصد به الى التربية والتهذيب كقول الامهات للاطفال ان من اكل طعاما لا زال على نار نزل به ظلم او يكذب عليه .

ومن الطف العادات التي يتفاءل بها فى بعض العائلات ان يوضع فى حجر الطفل يوم تربعه على « عرشه الصغير » قلم وكتاب املا فى ان يصبح طالب علم يفقه دينه ويجله الناس . وهذا بخلاف بعض البوادي التي لا تنظر لطالب العلم بعين الاعتبار اذ شاع ان ادنى ما تتمناه المراة لولدها هو ان يصبح فقيها ، اما ان يكون « غياطا » فشيء اعظم من ان تتمناه لطفلها واكبر .

ويتصل بهذه المعتقدات تقاليد الاكل واللبس والفراش وعادات المآتم والافراح واغلب الظن أن الكثير من هذه التقاليد ورد علينا من الاندلس ، وخاصة ما يتعلق بالوان الاكل كالبصطيلة والاسفنج والحريرة او ما يتعلق بالملابس كالجابذور وكسوةالمحصور واتخاذ البياض لباس حزن . ويخطىء الذين يعتقدون بان الجلباب والبرنوس اندلسيان ، اذ الراجح انهما من مخلفات عهد الرومان ..

هذا عن التقاليد ، واما الفنون فالحديث عنها يقتضي منا وضع هذه الاسئلة :

— ما هي الفنون الشعبية ؟
— اين توجد ؟
— من هم اصحابها ؟
— ما صلتها بالتراث القديم ؟

وبالرغم من اني لست متخصصا فى تاريخ الفن المغربي حتى اجيب على هذه الاسئلة فى دقة وعمق ، فسوف احاول الاشارة الى بعض نقاط الموضوع . وعندي ان الفنون الشعبية هي تلك التي لا تستعمل الالفاظ وان استعملتها ففي نطاق محدود . وتشمل الآثار الشعبية التي تعتمد على الحركة والاشارة والايقاع والعمل اليدوي الدقيق . وهي :

— الرقص
— الموسيقى
— الرسم
— الصناعة

ولكل من هذه الفنون الوان تختلف باختلاف المناطق والجهات .

فالرقص البربري الجماعي او ما يسمى « احيدوس » هو غير رقص الحواضر الذي يكاد ان يكون شرقيا فى طابعه . بل ان هناك لونا آخر يختلف عن هذا او ذاك نجده فى المدن والبوادي على حد سواء وهو : « التحيار » اي الرقص الذي يقوم به « الفقراء » فى حلقات الذكر او ما يسمى بـ « الحضرة » وللنساء لون من هذه الحضرات يخصهن .

ان الصبيحي كان طلب منه ان يساعده في بحث عن اصول الالفاظ المغربية ، ولكنه لا يدري الآن مصير هذه المحاولة .

وقد علمت هذه الايام أن الاستاذ عبد العزيز ابن عبد الله بدرس نفس الموضوع مركزا بحثه حول لهجة الرباط وناحيته وخاصة قبيلة زعبر .

وقريب من هذا ما نشره الاستاذ محمد الفاسي في العدد الاول من مجلة «البينة» حول «أصول الاعلام الجغرافية المغربية » وقد قال انه حقق كثيرا من هذه الاعلام مبينا اشتقاقها وأصلها وانه سيضمها الى قاموس جغرافي اشتقاقي يعمل فيه منذ زمن طويل يتناول فيه اللغة البربرية والامثال . كما انه نشر بالعدد الرابع من نفس المجلة « نظرة عن الادب السعبي » اشار فيها الى الامثال والخرافات والشعر الشعبي ، وقال انه عكف على دراسة هذا الموضوع منذ سنين طويلة وانه اضطر الى نشر ابحاثه باللغة الفرنسية بسبب اعراض جمهور المثقفين عن هذا الميدان . فعسى ان تتسنى للاستاذ الفاسي بعد ان اصبح الحال غير الحال ان يقدم لنا ثمار الجهود التي بذلها منذ زمن بعيد .

ولا نريد ونحن نشيد باهتمام ادبائنا بالآثار الشعبية ان نغفل عناية المستعربين بها وهي عناية تجدر الاشارة اليها بالرغم عما كان يقصده بعض هؤلاء ممن عرفوا بافكار استعمارية لا تهدف الى غير التشويه والتزييف . فقد كتب ادوار وسترمارك «حفلات الزواج بالمغرب » (*) وكتبت الدكتورة ليجي « محاولة في الفولكلور المغربي » (*) وكتب جينودو « فاس من خلال مطبخها » (*) وكتب آدم اندرى « البيت والقرية في بعض قبائل الاطلس الصغير » (*) .

وكتب برينو لويز « مدخل للهجة المغربية » (*) وجمع لاوست «حكايات بربرية من المغرب» (*) ونشر اندريه بارنس « نماذج للهندسة البربرية » (*) ونشر بيلا « نصوص بربرية بلهجة ايت سغروشن ملوية » (*) ونشر ارسين روكس « نصوص عن الحياة البربرية » (*) والف سيكارد « قاموس فرنسي عربي (مغربي) » (*) ورب ملاحظ يرى جانبا من هذا الاهتمام مركزا حول اللغة فيقول : وما علاقة اللغة بالفولكلور ؟ ويرد على هذه الملاحظة بأن اللغة لا تدخل في نطاق هذا الفن فحسب ، وانما تعتبر من صميمه اذ تصور فترة ثقافية وحضارية لدى الجماعة الناطقة بها . فالكلمات التي يستعملها الشعب المصري مثلا ك : انا مالي ، انا ايه ، معلهش ، اشمعنى ، تدل لا شك على مرحلة مر بها هذا الشعب كان فيها فاقدا ارادته واستقلال الرأي مبتعدا كل البعد عن تحمل المسؤوليات . ويرد على هذه الملاحظة كذلك بانه كان ينظر الى الفولكلور في بداية الامر من خلال اللغة والادب فقد الف يعقوب جريم كتاب « النحو الالماني » و « تاريخ اللغة الالمانية » باعتبار اللغة مظهرا من مظاهر التطور الفكري والحضاري عند الامم والشعوب بل انه على اساس هذه الفكرة درس « التراث القديم للقانون الالماني » بحثا عن لغة العرف وما يتصل بها من حكم وامثال .

ولعله من اللازم بعد ان تحدثنا عن اهتمام الدولة والمثقفين بالفولكلور ان ننظر في هذا الفولكلور ذاته وان نحاول تحديد انواعه وما يندرج فيه من الوان فنية وادبية . وهنا افرق بين ثلاثة انواع ارى ان اقسم اليها مادة الفولكلور وهي :

- الادب الشعبي .
- الفنون الشعبية
- التقاليد والمعتقدات الشعبية .

وسوف لا اتناول في بقية هذا الحديث الا الفنون والتقاليد وسأترك الادب الشعبي الى بحث خاص .

أما التقاليد فهي هذه العادات التي تخالط حياتنا افرادا وجماعات وتتحكم في سلوكنا الى حد بعيد .

(*) Edward Westermark: Les cérémonies de mariage du Maroc.
(*) Legey: Essai de folklore marocain 1926.
(*) Guinaudeau: Fès vu par sa cuisine.
(*) Adam André: La maison et le village dans quelques tribus de l'Anti-Atlas, 1951.
(*) Brunot Louis: Introduction à l'arabe marocain, 1950.
(*) E. Laoust: Contes berbères du Maroc, 1949.
(*) André Paris: Documents d'architecture berbère.
(*) Ch. Pellat: Textes berbères dans le parler des Ait-Segrouchen de la Moulouya, 1955.
(*) Roux Arsène: La vie berbère par les textes, 1955.
(*) J. Sicard: Vocabulaire français-arabe (dialecte marocain).

إسرائيل والتقدم العربي

للأستاذ : رشيد نجار

.. (ومهما يكن من امر ، فان العالم العربي ، كما قلنا سابقا ، يمكن ان يستفيق من سباته ، اذا كانت سياسته مزودة بروح من الانسانية والافق الواسع ، وغير موجهة من طرف الاقطاعيين الذين قلما يشعرون بسعادة مواطنيهم . وبدلا من الكراهية التي يكنها العرب لبعض الشعوب ، وعلى الخصوص اسرائيل ، التي يجمعهم واياها الجنس والعرق المنحدر من ابيهم ابراهيم ، فلقد كان من الواجب على العرب أن يمدوا يدهم لاسرائيل ، ذلك العنصر الحيوي الفعال ، الديموقراطي في اساسه . الذي يمكن ان يساعد على تحقيق الخير لهم ، ويعمل على تطورهم نحو التقدم المحتمل ان يلد من جديد في الشرق ، المهد القديم للحضارة) .

بهذه العبارات الخلابة المزرية في نفس الوقت ، انهى احد الباحثين كتيبا وضعه حول الفكر العربي ذلك هو الكاتب هنري سيرويا ، الذي اختار هذه القاعدة الهامة لقيام مجد العرب من جديد ، الا وهي التعاون المثمر ومد اليد للمصالحة والاخوة لاسرائيل، باعتبارها العامل الرئيسي لعودة التقدم والنهوض للشرق العربي الحديث .

لقد عالج الكاتب تطور الفكر العربي من الناحية الدينية ، والفلسفية ، والتصوفية ، فلم يستطع حقا انكار اصالة الروح العربي في الحضارة الاسلامية ، بل ندد باولئك الذين انكروا على العرب مشاركتهم في التراث الهائل الذي صهرته الحضارة الاسلامية ، ومن المعروف أن بعض الباحثين الغربيين ينكرون على الجنس العربي عمق التفكير وهضم العلوم التي ورثوها عن الامم السابقة ، مع ان الفيلسوف الاول في التفكير الاسلامي كان عربيا صميما ومن قبيلة كندة ، ذلكم هو الكندي .

والامر الهام الذي اريد ان اعلق عليه في هذه المحاولة ، هو تلك الخلاصة التي توصل اليها هذا الكاتب في خاتمة كتابه : ذلك ان اسرائيل لم تكن في حساب العالم العربي عندما نهض العرب ، وانطلقوا من صحرائهم ليغزوا العالم القديم يحملون اليه نور العقيدة الصافية من التقاليد والخرافة المجافية للمنطق الامر الذي بث اركان حضارة انسانية خالدة ، بل ان اليهود قد وقفوا موقفا عدائيا من الاسلام منذ اول يوم، فأظهروا العداوة الصريحة في حياة الرسول مما ادى الى معاقبتهم بعقاب الخيانة العظمى بعد واقعة الاحزاب التي انضموا فيها الى الاعداء ، فحق عليهم الحكم القاسي الذي نفذ فيهم آنذاك : وهو قتل الرجال وسبي النسوة والصبيان .

نعم عجز اليهود عن فهم فحوى العقيدة الاسلامية ، وامكانيات نجاحها ، فواصلوا حملاتهم ضد الاسلام والمسلمين ، حتى لقد اصبح العلماء المسلمون والمدافعون عن العقيدة يعزون الى اليهود كل فكرة هدامة ظهرت في العالم الاسلامي .

ان الكاتب قد عالج موضوعا تاريخيا بما فيه المعطيات الاجتماعية والفكرية ، والاقتصادية والسياسية ، ومن الحق القول بان العالم العربي لا يزال يعاني من الاقطاع والتخلف في عدة نواحي من حياته ، وهذا ان كان عيبا ، فليس للعرب مسؤولية فيه اكبر من مسؤولية المستعمرين الفرنسيين والانجليز ، اولئك الذين اتوا بمشكلة اليهود ايضا ووضعوها في قلب العالم

وفي الموسيقى شيء قريب من هذا اذ نجد الى جانب الفرق الشعبية التي تختص بالطرب الاندلسي والبربري والملحون والطقطوقات والعيطات والتي يدخل العنصر النسوي في بعضها ، اجواقا نسوية خالصة منتشرة في البوادي تعرف بـ « اجواق الشيخات » . بل كانت هناك كذلك اجواق نسوية في المدن كان يطلق عليها اسم « المسامع » لم تكن تعمل الا في الافراح والاعياد حيث تعزف في بيوت الكبراء والاعيان . واذكر انهن كن يحضرن الى بيتنا صباح ثاني يوم كل عيد حيث يقضين اليوم كله في العزف والانشاد . واذا كانت هذه الفرق قد انمحى اليوم اثرها ، فقد عوضت باجواق عصرية نظامية تكونها عناصر هاوية او محترفة الطرب الاندلسي .

اما في ميدان الرسم فامامنا نماذج حية تكشف في وضوح عن ذوق المغاربة وما كانوا يمارسون حتى عهد قريب وما يزالون من شتى فنون التصوير .

فرقم الثياب وحفر جبس القباب والجدران وتزويق الاخشاب وطلاء الزجاج ووشم بعض اطراف الجسم والرسوم التي يزوق بها مدررو الكتاتيب القرءانية الواح تلاميذهم اثر انتهائهم من حزب او مجموعة احزاب من القرءان الكريم كل هذه اشياء لاشك انها من بقايا فن كان يمارسه الشعب في القديم ولعله الرسم .

ومثل الرسم الصناعة الوطنية الدقيقة التي لم تساير تطور العصر فتجمدت في قوالب اخذ التصنيع يقضي على كثير منها . ومن يدري فعسى ان تكون لوزارة الفنون الجميلة والسياحة وقد اضيفت اليها الصناعة التقليدية اثر في النهوض بها وتطورها مع المحافظة على كل ما يضفي عليها صبغة وطنية .

ـ يتبع ـ

عباس عبد الله الجراري



بادماج اليهودي فى الفرنسي وتحقيق فكرة «انطباق» الذاتية على العنصرية معا ، او فكرة الشبه المطلق بينهما .

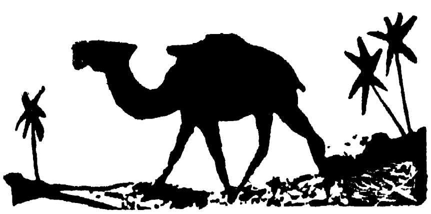
لكن الذي حققه الاوربيون هو فكرة الفصل المطلق للجنس اليهودي عن الكيان الاوربي باسره ، وباعتبار الاسلام هو العدو الاكبر للمسيحية ، وان العالم العربي هو هدف الفرب الاولى فى الخطط الاستعمارية الكبرى ، فقد اجمعت العبقريات الاروبية فى العالم القديم والجديد معا ، على تطبيق فكرة الوطن الاصلي لليهود ، واسكانهم فى اعز قطعة من بلاد العرب .

ان هذه العبقرية الاستعمارية ، هي نفسها التي دعت كتابا عديدين ، وعلى راسهم السيد « سروبا » ان يرشدوا العرب الى اسرائيل ، الى ذلك العنصر الحيوي الفعال الذي يجب عليهم ان يمدوا له اليد ،لانه سيحقق لهم الخير ويعيد معهم سابق مجدهم الفابر فى الشرق .

انه منطق ساخر بلا شك .

وهذه السخرية لم يتوصل اليها هذا الكاتب باعتباره فردا عاديا ، بل كناطق باسم عالم باسره ، ناطق يحكي تلك الاصوات المنبعثة من « البيوت » العظمى التي تسيطر على السياسة الدولية فيما بين الشاطىء الغربي والشاطىء الشمالي الشرقي للمحيط الاطلسي او كما يسميه العرب بحر «الظلمات» .

الرباط ــ رشيد نجار



العربي كعرقلة كبرى لتقدم العرب : فبدلا من ان يتوجهوا الى معارك البناء والعلم ومتابعة سير التقدم والحضارة ، جعلتهم هذه المشكلة الكبرى ينهكون قواهم الفكرية والاقتصادية ، والزمنية ، فى وضع الخطط والاستعداد لمقاومتها .

الاقطاع اذا من مخلفات الاستعمار الغربي بلاشك، لا فى العالم العربي فقط ، بل فى العالم المتخلف كله .

والمشكلة الاسرائيلية الصهيونية من اعظم مخلفات هذا الاستعمار نفسه فى العالم العربي والاسلامي فى نفس الوقت .

واذا كان مشكل التخلف الاقتصادي ، ومظهر سيطرة الاقطاع فى بعض الاقطار العربية معهوما ، وعلاجه واضحا ومعروفا ، فان مشكلة اسرائيل وضعها الغربيون انفسهم ، ومنهم هذا الكاتب العبقري ، تحتاج الى التحليل والنظر : ذلك ان المشكل الاسرائيلي بالنسبة للعرب ليس مشكل كراهية اولا ، او مشكل عنصرية من العرب ضد اليهود ، بل انه مشكل استعمار وخطط استعمارية موضوعة منذ اكثر من نصف قرن ، ويجب ان تزال ، انها مجرد مؤامرات مفضوحة تؤيدها قوة كبيرة ، ولابد من القضاء عليها بشكل او بآخر ، أما كيف ومتى ؟ فان ذلك ما ستحدده حوادث التاريخ وتطورات السياسة الدولية فى مستقبل الايام .

الا يمكن ان تعد الكراهية نفسها سلاحا يستعمل ضد العدو الغاصب ؟ وبعبارة اخرى هل يصح أن نواجه اعداءنا بالابتسام والمصالحة على حساب الارض المغصوبة ، وفى سبيل التقدم المزعوم الذي تحمله اسرائيل الى العالم العربي ؟ ثم اي تقدم هذا الذي يحمله عدوك عندما يغصبك الحياة ؟ .

لقد ثبت منذ امد بعيد ، وابتت الاحداث التاريخية الكبرى ، ان الشعوب لا تنهض الا لتمسكها بعقيدة . وايمانها المصمم بتفوق عقيدتها على المذاهب الاخرى ، وبذلك نهض الاسلام ، واسس حضارة كبرى ، وعندما نادى السيد جمال الدين الافغاني المسلمين فى جميع اقطار الارض الى النهوض وطرح الخمول والخنوع ، دعاهم الى التعصب للعقيدة ، وشرح هذا التعصب بفلسفة واقعية لا غبار فى منطقيتها ، فقال : ان الحضارة لها اركان وأسس لا تقوم الا بها ، واهمها ان يكون هناك شعب يتمسك بعقيدة ذات مبادىء انسانية واخلاقية — ويؤمن بانها اصح العقائد واسلمها . انها فلسفة القوة ، القوة فى الاعتقاد ، وفى الثقة بالنفس ، وفى الاحساس بالمسؤولية . ولكن هذا الاعتزاز ليس معناه قهر العقائد الاخرى ، او الكيد لاصحابها ، فلقد مرت حقا عهود الغزو والحروب الدينية بقصد فرض عقيدة على العالمين ، ولكن بقي ايضا مبدأ الدفاع عن النفس والمعتقد كأهم المبادىء الدينية والقانونية والاجتماعية لدى جميع الشعوب . فلا مجال اذا للشك فى ان العقيدة الاسلامية نفسها لا تكيد ولا تحمل كراهية للشعب الاسرائيلي ، ولا للشعوب الاجنبية الاخرى ، نعم انها تستنكر عبادة الاوثان والالحاد كنقائص بشرية ، ولكنها لا تحمل فى طياتها اية كراهية لاهل الديانات السماوية على الخصوص .

وهكذا نرى ان التعصب للعقيدة عندنا ليس معناه كراهية اليهود او اي جنس آخر ، لكن هذا لا يمنع أن على المسلمين حق الدفاع عن هذه العقيدة نفسها اذا ما مست فى احد مقدساتها، أي شيء أهم من الارض والوطن اذا طردت منها العقيدة ؟ .

ان العرب عندما يكرهون اليهود فى الواقع لا ينظرون اليهم كبشر يحملون عقيدة دينية معينة ، فلقد حدث ان عاش اليهود ولا يزالون بدينهم وتقاليدهم فى جميع الاصقاع العربية والاسلامية، وعلى مر التاريخ دون ان يمسوا فى عقيدتهم أو فى ابسط حقوقهم ، على العكس مما وقع لهم فى اوربا ، ولقد لوحظ حتى فى اشد فترات الصراع بين الصهيونية والعرب ، ان بعض البلاد العربية استقلت والحت بالخصوص على التصريح العلني بحفظ حقوق اليهود كمواطنين ، بينما نجد ان العناصر المسيطرة فى اسرائيل انما هي عناصر اوربية ، قدمت الى الشرق العربي تحت عناوين مختلفة واشكال متباينة اهمها تلك الوسائل الماحقة التي استعملت فى اضطهادهم وكراهيتهم من طرف شعوب اوربا المتحضرة .

ان هناك كتابا غربيين آخرين من دعاة الافكار الانسانيه ، من عالجوا بدقة اسس ونتائج كراهية شعوب اوربا للعنصر السامي فى ذات اليهود الذين يعيشون بينهم ، وعندما حاول الكاتب الفرنسي جان بول سارتر ان يضع حلا لفكرة معاداة السامية (antisémitisme) بفرنسا وجد ان ليس هناك فى الواقع اي مشكل يهودي ، انما هناك فقط مشكل فرنسي يتعلق بكراهية اليهود ، ولم يجد هنا حلا الا

قف طائر الشعر ؟ اين الجو تسلكه — ؟ واين تبلغ فى الدنيا قوافينا
من ذا يسجل في التاريخ سيرته — ؟ ومن سينظمها شدوا افانينا
سلطاننا « لفرنسا » قال قولته — من يخضعون لكم ليسوا سلاطينا
اني على ثقة بالله معتصم — بحبله كيفما كانت مئاسينا
لله وقفته فى البيت معتمرا — امام خالقه يبكي ويبكينا
ويسأل الله للاسلام نصرته — « يارب انت ولي الامر تهدينا
يارب ان شعوب العرب فرقها — داء الخلاف الذي ما انفك يصمينا
يارب وحد قلوب المسلمين على — دين بعث به خير النبيئينا
يارب صن « حسنا » وكن له سندا — واحفظه وانصر به الاوطان والدينا »

* * *

يا من ستذكره الاجيال مقبلة — ومن تتيه به فخرا او الينا
ذكراك ما دامت الدنيا ستنشرها — بين الورى ابدا وردا ونسرينا
نم فى رضا ربك الاعلى بجنته — ونل بقربك ما اعطى المحبينا
نم مطمئنا على شعب تركت به — من زاده بعرى الاخلاص تمتينا
واشهد لدى الملأ الاعلى بان لنا — خليفة عنك ترضاه ويرضينا
هاذا ابنك «الحسن الثاني» يسبرعلى — ما قد وعى منك ارشادا وتلقينا
ما هو الا الذي قد كنته خلقا — وقد بلغت به ما شئت تكوينا
اشرف بروحك وانظر امة سعدت — بمن تركت لنا فيه امانينا
صان الخلافة بالتقوى وزينها — بعلمه وذكاء فيه نزبينا
وسار يحمل عبء الشعب في ثقة — وفيه من حبنا والله ما فينا
العرش والشعب فى ايامه امتزجا — وانت من جنة الفردوس ساقينا

* * *

يا امة « الحسن الثاني » اهيب بكم — ان نعمل اليوم اخوانا مجدينا
روح ابن يوسف تحت العرش ترقبنا — ؟ فهل نسيء لها نحن المحبينا
اليوم تجمعنا الذكرى على حدث — قد جاء فى وقته بالخير مقرونا
نرى الوفاء لهذا الشعب من ملك — نوليه ما يبتغي منا ويولينا
فلنتحد ولنكن خير الشعوب غدا — نبني ونعمر ما شئنا بايدينا
لا يبلغ المجد اقوام صدورهم — مراجل بلهيب الحقد يغلينا
ولن ينال المنى شعب نفرقه — حينا وتجمعه اهواءه حينا
الله في شمل هذا الشعب مفترقا — ومن عداوة اهلينا لاهلينا
سلوا الشيوخ كبار السن عن زمن — عاشوه مضطربا بالشر مشحونا
؟ وكيف صرتم عبيدا في مواطنكم — ؟ وكيف صارت «فرنسا» بعد تحمينا
تالله لا داء بعد الخلف يقتلنا — وعن مطامحنا في الارض يقصينا

ذكرى محمد الخامس قدس الله روحه

للشاعر: عبد الرحمن الدكالي

ذكرى سيل لها حقا مئاقينا ... ونستعيد بها حزنا وتأبينا
عامان ما غبت فيها قط عن نظر ... كلا ولا كنت الايام تسلينا
لم يخل منك زمان انت صانعه ... ولا مكان به قد كنت تحيينا
محمد فى قلوب الشعب مضجعه ... وان بدا لكم فى القبر مدفونا
سلو الليالي والايام عن بطل ... لوى عنان زمان كاد يردينا
وقال للدهر لا لن نستبد بنا ... انا حماة ؟ فمن ذا جاء يحمينا
اغفاءة الاسد فى الآجام يعقبها ... زئيرها واشتياق العز يزجينا
سلو « فرنسا » وما عانته من ملك ... ما كان بالملك والتيجان مفتونا
بل كان خير ملوك الارض فى زمن ... قد لونته صروف الدهر تلوينا
مرت به سنوات الملك مثقلة ... « فكان يوسعها صبرا وتهوينا »
اذا الخطوب توالت قال مبتسما ... ماذا تريدين قولي ؟ ما تكونينا
ان لم احرر بلادي لست مرتضيا ... ملكا اعيش به بين المرائينا
والله لو وضعوا الشمس المضيئة فى ... كفى ولو ملكوني الحور والعينا
ما كنت الا الذي يبنى لامته ... ما تستحق به عزا وتمكينا
سنستقل نبنى مجدنا وغدا ... ستستجيب لنا الاقدار ترضينا
انا ابن يوسف مسؤول ومؤتمن ... على رعيته والله راعينا

إلى روح جلالة محمد الخامس

لشاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء

على م الرنا ؟ فيم البكا والتنهد ؟
انين ولا بلوى ، ودمع ولا أسى
ويا لبلة المعراج ، عاد محمد
وقد صدقت رؤياك ياشعب ، انه
فلا تحسبوا هذا ضريحا ... الم بكن
اذا قلتم : اباك نبكي — سمعتم
انا الشاعر العملاق ... لا اعرف البكا
نركت الألى لم يدركوا عمق سره
وصدفته فى وعد عيسى — كلاهما
الم أك اسنوحي ، فيلهمني الذي
وفى المنور المعمور كم فمت صادحا
وفى بهجة الاعياد كم صنعت آية
وما كان مدح المالكين سجيتي
ولكن لصناع البطولات انحني
ومجتمع من نبع يعرب برتوي
ومالك أمر الشعب — للشعب امره
ومن سنهن بالشعب بوما ويفترر

وفى الحسن الثاني ، يعيش محمد
ابندب يقظان ... ويرثى مخلد ؟
كما راح ، — لا تثريب — والعود أحمد
مدى الدهر — فى افلاكه يتجدد
له مسجد فى كل فج ومعبد ؟
نداه يهز الكون : اياك نعبد
وما زلت فى سمع الزمان اغرد
ومن لم يزل فى سره يتردد
له عند عرش الله مرمى ومقصد
اماتوا فأحيا ... وابتنى يوم بددوا
فتصغى لى الاجيال ايان انشد
فوقعها زرياب لحنا ومعبد
فهل انا الا الثائر المتمرد
وما غير صناع البطولات يحمد
وبعتز بالاسلام ايان يصمد
وما غير حكم الشعب فى الشعب يخلد
بسلطانه ... لن يستقيم له غد

* * *

أمانا امير المؤمنين ... فلا بكا
ولكن تسابيح ، وصدق ابتهالة
سلاما أمير المؤمنين من التي
وعونا أمير المؤمنين ... فربما
ويا شعب بايعت ابن يوسف فى يد
هما الفرقدان النيران تحالفا
ففي شعبه قد عاش شبل محمد

ولا زفرات للرنا تتصعد
وشعلة حب فى الحشا تتوقد
ابادبك فى استقلالها ليس يجحد
كأوطاننا اقطابنا تتوحد
فبايع شهما لا تطاوله يد
اذا ما تولى فرقد ... لاح فرقد
وفى الحسن الثاني يعيش محمد

مفدي زكرياء

تالله ما ضاع شعب عاش متحـدا … ولن يضيع به من كان مسكينـا
لنا مراحل فى الدنيا سنقطعها … مشيا اليها وان كانت ستدمينا
نريد للمغرب الحر الكبير اذا … عشنا به اخوة غرا ميامينا
ان لا يرى بعد جمع الشمل تفرقة … وان تجرع زقوما وغسلينا
اذا الشعوب صفت يوما سرائرها … اضحى الاخاء بها فى الدهر عربونا

* * *

مولاي يا ملك الدستور ان لنا … فى العرش حصنا من الاحداث يحمينا
فليشهد الله ان الشعب ليس له … سواك من ينصر الاخلاق والدينا
وليشهد الحق ان الحق منتصر … اذ قد وضعت له حقا قوانينا
وليشهد العدل ان العدل محتكم … اذ قد نصبت له فينا موازينا
شاورت فى الامر والشورى جعلت لها … نواب شعبك حكاما معزينا
دستورنا بنواب الشعب قيمته … وانت حارسه دوما ستهدينا
منصة الحكم بالاكفاء قائمة … لا تجلسوا فوقها يا قوم مافونا
فالشعب ان كان ذا وعي وذا ثقة … بنفسه اكسب الدستور تمتينا
وما النيابة عن شعب بثابتة … لمن غدى بتولي الحكم مفتونا
فليتق الله من صارت نيابته … عن البلاد له عزا وتحصينا
الاختيار دليل عن تبصرنا … واننا امة لم ننس ماضينا

* * *

يا شعب ما مات من ابقى لنا «حسنا» … ما مات من ترك الدنيا تحيينا
ما مات من خلد الاعمال تذكره … بين الورى وبه ابيضت ليالينا

الرباط : عبدالرحمان الدكالي
المرشد العام للقوات المسلحة الملكية

« انا البحر فى احشائه الدر كامن » لماض من الدنيــا وما سوف ياتــي
حفظت بحفظ اللــه ســر كتــابــه كلؤلــؤة بــل مجمـــع اللــؤلــؤات

« فهل سألوا الفواص عن صدفاتي »

« فيا ويحكم ابلى وتبلى محاسني » باعــراضكــم عنــي لعجــم لفــات
وتفضيلكم تلك اللفــات على التــي يفــوق سناهــا حســن كــل مهــاة

« ومنكم وان عــز الدواء اساتــي »

« فــلا تكلونــي للزمـــان فاننــي » بكــم احتمي منه لــدى الفمــرات
واذخركم حصني وعزمي ، ولم ازل بفيــر حماكم : سادني وسراتــي :

« اخاف عليكــم ان نحين وفاتــي »

« ارى لرجال الفرب عزا ومنعــة » وغــزو صواريــخ عــلا النيـــرات
وسعيــا حنيثــا للكمــال معـــززا بمــا اخترعــوا من عــزة الذريــات

« وكــم عــر اقــوام بعــز لفــات »

« انــوا اهلهم بالمعجــزات نفننــا » له بعميــق العلــم حسن صـــلات
وصالوا بالآت لــدى البحــر ســارة وفى الجــو احيانا جلت مــوغــلات

« فباليتكــم تــاتــون بالكلمــات »

« ابطربكم من جانب الفرب ناعب » ليخــرس نطق العــرب بالعجمــات
ويجهــد مجنونــا بفــرض لســانــه ليصبــح استـــاذا وراس ابـــاة

« ينادى بوادي فى ربيــع حياتــي »

« ولو تزجرون الطير يوما علمتــم » وانتــم لجمــع العلــم خيــر رواة
وقارنتــم حتــى وعبتــم حقــائقــا مبلـــورة فى حكمـــة وثبـــات

« بمــا نحته من عثــرة وشتــات »

« سقى الله فى بطن الجزيرة اعظما » تأبــت عظامــا فى عظيـــم حيـــاة
فمن نطقهــا جــاءت روافد جدتــي فجــادت على الدنيــا بكــل مواتــي

« يعــز عليهــا ان تليــن قنــاتــي »

« حفظن ودادي فى البلى وحفظته » بعيـــدا بــه عن هاجــم النكبـــات
والــف حبــا بيننـــا فتــوثقـــت عــراه على رغــم ابتعـــاد فـــلاة

« لهــن بقلب دائـــم الحســرات »

على لسان اللغة العربية

للشاعر النيل حافظ ابراهيم

تخميس : الحاج أحمد بن شقرون

مهداة الى الاستاذ السيد عبد العزيز بن عبد الله مدير المكتب الدائم للتعريب بالرباط بمناسبة اسبوع التعريب (3 دجنبر الى 9 منه 1963)

« رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي » وسرت رويدا في دجى الحسرات
وامعنت في وضع بشد ، وواقع تباطأ في رعبي وضم شتاتي
« ونادبت قومي فاحتسبت حياتي »

« رموني بعقم في الشباب وليتني » بكثرة انجابي غزوت رماتي
الم ينظروا نسلي عقمت بجيشه عن العقم لما قلت بين لداتي
« عقمت فلم اجزع لقول عداتي »

« ولدت ولما لم اجد لعرائسي » مهادا ، وحصنا صين الجنبات
ومهرا يوازي قدرها ونعشقا يحبب فيها رغم كل اذاة :
« رجالا واكفاء : وأدت بناتي »

« وسعت كتاب الله لفظا وغاية » واحكام اعجاز كأم لغات
ووصفا بليغ الوقع جد مرصف يلذ لتال مشرق الكلمات
« وما ضقت عن اي به وعظات »

« فكيف اضيق اليوم بوصف آلة » ومصطلحات في جديد حياة
ورصد كليمات وتعريب عجمة وتعريب تعليم بوضع اداة
« وتنسيق اسماء لمخترعات »

أصحيح مات حبي ؟

للشاعر: الهدري أحمد به مسعود.

صديقي الاستاذ عباس الجراري .. لقد بعثت في نفسي كلماتك الساحرة احلام ماض جميل ما زلت أنمثله رغم طول المدى وبعد المزار .. وان انس فلن أنسى ، برفقتك ، ليالي الصقالة ، وعشا ياسيدي كاوكي ، (القدميري الحاجي) .. وما الى ذلك من العناوين الشعرية الحلوة التي طالما رددناها وعلقها الفؤاد ، وكلف بحبها حبا مكينا لن يموت .. !!

فاليك ، صديقي ، تحية كريمة ، من حليف شوق في الصويرة ، الى حليف هوى عنيف في القاهرة

ه . ١ . م . –

يا رفيقي اصحيح   مات حبي يا رفيق . ؟
اصحبح ما روته الصحـ   ـف عن صب مشوق . ؟
فمضى نضوى شجون   سادرا عبر الطريق
. . آه منها كلمات   واثبات في خفوق . . ! !
بعثت في النفس نزوا   ت شجت قلبي الفريق
جددت لي ذكريات   ضحكات كم تشوق . !
وعشابا رائفات   من سناها : في شروق . . .
ومناجاه لدى (الصقـ   ـالة) النمـا تروق
وهدير الموج في أحـ   ـلام شعر . . ! ما يفيق . ! !
اترى تذكر من ذا   فضل حلم يا رفيق . ؟

* * *

. . كل ما حولي من معـ   ـسول ماضينا السحيق
يبعث الذكرى ويدني   وجه ماضي العريق
غير اني نضو سؤل   سادر عبر الطريق :
اصحبح ما روته الصحـ   ـف عن صب مشوق .؟
يا رفيقي اصحيح   : مات حبي يا رفيق . .؟!

وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق   فحق فخاري راسخ اللبنات
وعز على من رام نيل مطامح   تخاذله فى صون ام لغات

« حياء بتلك الاعظم النخرات »

« ارى كل يوم بالجرائد مزلقا »   يهلهل اسلوبي ويضعف ذاتي
فنزلق الاقلام فيه وبعضها   على الرغم مني واخضرار نباتي

« من القبر يدنيني بغير اناة »

« واسمع للكتاب فى مصر ضجة »   لبحث فنوني واكتساح وشاتي
ولكنني اخشى علي تطاولا   ووهي نسيجي واعتساف دعاتي

« فاعلم ان الصائحين نعاتي »

«ايهجرني قومي ـ عفا الله عنهم ـ»   وافنان دوحي غصة التمرات
يلهون عني معرضين وربما   تمادوا ـ عنادا ـ رغم انف رعاتي

« الى لغة لم تتصل برواة »

«سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى»   هواء وباء مندر بوفاة
فخالطها صاب جرى بحياضها   كما قد جرى : سكبا بغير اناة

« لعاب الافاعي فى مسيل فرات »

« فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة »   وضم اليها بعدها رقعات
اذا هم ذو نطفي بتنسيق جملة   غزتك خلطا من عديد لغات

« مشكلة الالوان مختلفات »

« الى معشر الكتاب والجمع حافل »   بهم وباقطابي وصيد هواتي
وعشاق اعلاقي ورواد عزتي   وطلاب امدادي وجل سراتي

« بسطت رجائي بعد بسط شكاتي »

« فاما حياة تبعث الميت فى البلى »   وتنشره مستمتعا بحياة
وتغدق اندائي عليه فتنجلي   مفاتنه وردية القسمات

« وتنبت فى تلك الرموس رفاتي »

« واما ممات لا قيامة بعده »   بعمق ملحودي ويقبر ذاتي
وتبني على ـ كوني ـ سدودا رصينة   مماتي بها موت بغير حياة

« ممات لعمري لم يقس بممات »

فاس : الحاج احمد بن شقرون

قصة العدد

وردة على قبر اميلي

لفقيد الأدب العالمي وليم فولكنر

ترجمة : حنفي بنعيسى

عندما توفيت الآنسة اميلي جريرسن ، اشتركت مدينتنا كلها في تشييع الجنازة : اما الرجال فكأنهم شعروا في ذلك اليوم بشيء من العطف الممزوج بالاحترام نحو اثر من الآثار المفقودة ، واما النساء فقد دفعهن الى ذلك بصورة خاصة ، فضولهن ورغبتهن في مشاهدة ما يوجد داخل دارها التي لم يشاهدها احد منذ عشر سنوات ، باستثناء خادم عجوز تقوم باعمال الطبخ والبستنة في نفس الوقت .

انها دار كبيرة مربعة الشكل ، مصنوعة من الخشب . ولعلها كانت في السابق بيضاء اللون . وهي مزينة بقباب واقواس وبلكونات بديعة الصنع . وهندسة بنائها مسرفة في التكلف . كالتي كانت موجودة في السنوات السبعين الاخيرة . وترتفع هذه الدار في الحي الذي كان يعد فيما مضى أفخم شارع عندنا . ولكن مستودعات السيارات والآلات الغازلة للقطن كانت قد بدأت تتسع رقعتها ، فقضت على كل ما عداها . بل حتى على اسماء الشوارع اللامعة الموجودة في ذلك الحي ، ولم يبق من ذلك كله سوى دار الآنسة اميلي . تلك الدار التي ترفع في السماء هيكلها العنيد، الجميل ، فوق عربات القطن ومستودعات البنزين وفي المدة الاخيرة لم تعد هذه الدار هي وحدها التي تلفت النظر . وها هي الآنسة اميلي قد فارقتها لتلتحق بممثلي تلك الاسماء اللامعة في المقبرة الهادئة تحت الاشجار حيث ينامون في القبور المصطفة التي لا يعرف أصحابها على وجه التحديد ، تلك القبور التي تضم رفات جنود الاتحاد والفيدرالية ، الذين سقطوا في ساحة المعركة ، معركة جيفرسن .

حينما كانت الآنسة اميلي على قيد الحياة ، كانت قدوة لغيرها في المحافظة على التقاليد والقيام بالواجب والشعور بالمسؤولية . لقد كانت بالنسبة للمدينة مثل الحمل الثقيل الموروث منذ عام 1894 ، حينما اعفاها العقيدسارتورس — والعقيدسارتوريس هو رئيس البلدية وواضع القرار الذي يمنع الزنجيات من الخروج الى الشوارع من غير مئزر الطبخ — أعفاها من دفع الضرائب ، وهذا الاعفاء يرجع عهده الى يوم وفاة والدها ويمتد الى اللانهاية . وليس معنى هذا ان الآنسة اميلي قبلت في يوم من الايام مساعدة من احد ، ولهذا اضطر العقيد سارتوريس الى أن يخترع قصة معقدة ، خلاصتها ان والد الآنسة اميلي كان قد قدم الى المدينة قرضا وان المدينة — لاسباب اقتصادية — قد اضطرت الى ان تعيد القرض بهذه الطريقة . ولم يكن من الممكن لاي واحد من ذلك الجيل ان يتخيل مثل هذه القصة ، باستثناء العقيد سارتورس ، ولم يكن يوجد سوى امرأة واحدة لكي تصدق ذلك .

وحينما جاء الجيل اللاحق بأفكاره العصرية وانسحب رؤساء البلدية واعضاء مجلسها ، فان هذا الاعفاء أثار بعض السخط . وفي اليوم الاول من شهر كانون الثاني بعثوا اليها بورقة الضرائب . وحل شهر شباط من غير ان ترسل اليهم جوابا . وبعثوا اليها رسالة رسمية وطلبوا منها ان تحضر الى مكتب المسؤول عن الامن متى شاءت . وفي الاسبوع اللاحق تدخل رئيس البلدية بنفسه ، وعرض عليها ان يأتي عندها أو ان يبعث شخصا ليحضرها الى منزله بواسطة السيارة . وكان جواب ذلك ان تلقى ورقة ذات شكل غريب وخط لا يكاد يفهم واخبرته فيها

ذات يوم .. ذات لحظة — نشر الأنس شراعه

راح يزجي لصحاب — في دنا الحب متاعه

غنموا صفو ليال — زادها الطهر مناعه

وصفا الدهر لهم حيـ — ـنا ، ووفاهم بضاعه ..

وتملوا .. لم يبالوا — ان طوى الانس شراعه

ثم ولى .. ليته طا — ل وروى .. بعض ساعه

اتراه شلو حب — لم يعمر غير ساعه . !؟

.. كان يوم .. ثم ولى — زاويا عنا شعاعه ..

ومضى يزجي خطاه — .. اجمل الله وداعه ... !!

.. واراني نصو سؤل — سادر عبر الطريق :

اصحيح ما رونه الصحـ — ـف ، عن صب مشوق ؟.

يا رفيقي .. اصحيح : — مات حبي يا رفيق .. ؟؟!

* * *

اترى : ما مر حلم .؟ — او خيال عاش قربي ؟.

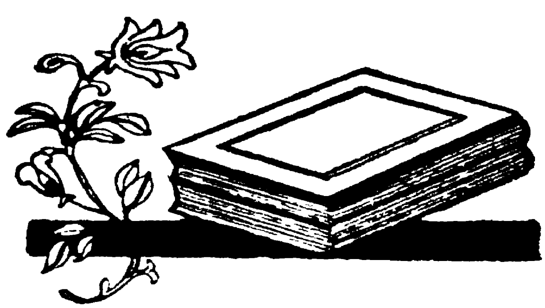
ام نراه : وثبات — للمنى تغمر دربي ..؟

نتهادى صوب عبنـ — ـي ... وتشدو لحن حبي ...

وننادي : اصحيح : — ما روى صب مشوق ..؟

يا فتى الطهر : احق — مات حبي يا رفيق .. ؟؟

الصويرة ــ الهدري أحمد بن مسعود



ومن اجل هذا فان الناس لم يندهشوا حينما انتشرت الرائحة الكريهة . ومن ذلك الوقت اصبح الناس يعتقدون بأن الفساد والانحلال قد اصابا اسرة جريرسن القوية المتمتعة بنفوذ كبير .

وذهبت احدى الجارات لكي تشتكي الى رئيس البلدية ، القاضي ستيفنس ، الذي كان يبلغ عمره حينذاك ثمانين سنة . فقال لها :

— ماذا تريدين مني يا سيدتي ان افعل ؟

فقالت المراة :

— ابعث اليها كلمة حتى تضع حدا لهذا الامر — الا يوجد هناك قانون ؟

فقال القاضي ستيفنس :

— اني متاكد ان ذلك لن يكون ضروريا ، ومما لا شك فيه أن مصدر هذه الرائحة اما ان يكون افعى ميتة او جرذا قتله الزنجي في ساحة الدار . سأبعث اليهما كلمة حول ذلك .

وفي اليوم التالي ، تلقى شكايتين احداهما جاءته من رجل تقدم نحوه خجولا متوسلا :

— يا سيدي القاضي ، يجب عليك ان تقوم بعمل ما . وانا ، وان كنت لا أنوي أن ازعج الانسة اميلي الا انه يجب ان نقوم بعمل ما .

ذلك المساء ، اجتمع المجلس البلدي . ويتركب هذا المجلس من ثلاثة شيوخ وشاب ينتمي الى الجيل الجديد . فقال هذا الاخير :

— ان الامر بسيط . ما عليكم الا أن ترسلوا اليها من يخبرها بضرورة تنظيف منزلها . اعطوها مهلة كي تقوم بذلك . واذا لم . .

فقال القاضي ستيفنس :

— يا سيدي ، هل من اللياقة في شيء ان تقابل سيدة وتقول لها بان رائحتها كريهة ؟

وفي الليلة التالية ، بعد منتصف الليل بقليل ، اجتاز اربعة رجال حديقة الآنسة اميلي، وظلوا يطوفون حول المنزل مثل اللصوص ، وهم يشمون الروائح التي تنبعث من قاعدة المنزل ومن القبو ، وظل احدهم طوال تلك المدة ، يقوم بنفس الحركة التي يقوم بها من يبذر الحب . وحطموا باب القبو ونثروا فيه وفي ملحقاته الكلس . وحينما عادوا ادراجهم عبر الحديقة، شاهدوا نورا في النافذة التي كانت حتى ذلك الحين مظلمة . لقد كانت الآنسة اميلي جالسة وقد ادارت ظهرها للنور ، وكانت ساكنة في جلستها مثل التمثال. واجتازوا الحديقة بهدوء ، وتسللوا داخل اشجار الاكاسيا التي تصطف على جانبي الطريق . وبعد مرور خمسة عشر يوما تقريبا ، انقطعت الرائحة .

وعند ذلك بدأ الناس يشعرون نحوها بالشفقة. ان سكان المدينة الذين لا يزالون يذكرون عمتها التي فقدت عقلها تماما ، اصبحوا يعتقدون بان اسرة جريرسن متكبرة ، من غير أن يكون في ماضي هذه الاسرة ما يبرر هذا الكبرياء . ان هذه الاسرة تعتقد بأنه لا يوجد في المدينة شاب جدير بالآنسة اميلي . وكنا في بعض الاحيان نتخيل هذه الاسرة مثل الشخصيات التي نشاهدها في اللوحات الفنية : ففي خلفية اللوحة تبدو الآنسة اميلي رفيعة القامة في لباسها الابيض . وفي الامام يبدو والدها وقد ادار لها ظهره وفرع رجليه وامسك بيده سوطا . وكلاهما واقف ضمن الاطار الذي يرسمه الباب المفتوح على مصراعيه . ومن اجل هذا ، فحينما بلغت الآنسة اميلي الثلاثين من دون ان تتزوج ، شعرنا بأننا قد اخذنا منها ثأرنا ، وان كنت لا اعني ان ذلك قد ادخل في انفسنا السرور . ولا شك انها لم تكن لترفض سائر عروض الزواج التي من المحتمل ان تكون قد قدمت اليها رغم اصابة هذه الاسرة بالجنون .

حينما توفي والدها شاع الخبر بان الدار هو كل ما بقي لها من متاع . وشعر الناس بشيء من السرور لهذا الامر ، انهم يستطيعون الآن أن يضمروا للانسة اميلي شيئا من العطف . ان الوحدة والشقاء قد جعلا منها بشرا سويا . انها الآن ستعرف مثل غيرها من البشر هذه الفرحة وهذا اليأس الذي عرفه البشر منذ القديم ، حينما يكسب قرشا او يضيع منه ذلك القرش .

بعد مرور يوم على وفاة والدها ، استعدت سائر السيدات لزيارتها من اجل عرض مساعدتهن وتقديم عزائهن ، كما جرت العادة بذلك . واستقبلتهن الآنسة اميلي على العتبة . ولم تغير ثيابها كما أنه لم يبد اي أثر للالم على وجهها . وقالت لهن بأن والدها لم يمت . واستمرت تكرر ذلك مدة ثلاثة ايام ، في الوقت الذي كان فيه رجال الدين والاطباء

بانها لن تخرج من دارها ابدا . وارفقت جوابها بورقة الضرائب من غير تعليق .

وعقد المجلس البلدي جلسة غير عادية ، وذهب وفد منه الى منزلها وقرع الباب التي لم تفتح امام اي زائر منذ ان انقطعت عن اعطاء دروس الرسم على البرسلين ، اي منذ ثماني او عشر سنوات . وادخل الزنجي العجوز الوفد الى غرفة مظلمة يوجد فيها سلم يختفي تماما فى زاوية اكثر ظلمة من الغرفة . وكانت رائحة الغبار والاشياء المهملة تسود فى ارجاء الغرفة : انها رائحة الرطوبة والاشياء التي لم تعرف النور منذ زمن بعيد . وقادهم الزنجي الى غرفة الاستقبال : كان اثاثها ثقيلا على النظر ، وكانت مقاعدها مكسوة بالجلد . وحينما ازاح الزنجي ستائر احدى النوافذ شاهدوا بان الجلد به خدوش . وحينما جلسوا ارتفعت سحابة صغيرة من الغبار حول افخاذهم وظهرت ذرات الغبار بأشكال متماوجة فى شعاع الشمس الوحيد الذي نفذ من خلال النافذة . وكان يوجد بالقرب من الموقد صورة والد الآنسة اميلي مرسومة بقلم الرصاص ، وقد وضعت على مسند خشبي باهت اللون.

ونهضوا من مجالسهم حينما دخلت . كانت صغيرة الجسم ، ضخمة الهيئة ، وكانت ترتدي لباسا أسود اللون بالاضافة الى سلسلة من الذهب تتدلى الى ان تصل الى خصرها ثم تختفي فى حزامها . وكانت تتكىء على عصا ذات مقبض ذهبي زال عنه اللمعان . وكانت عظامها ناعمة وضعيفة ، ولعل هذا هو السبب فى ان مظهرها يوحي بالتضخم ، بينما ذلك قد يوحي بالصحة عند غيرها من النساء . كانت تبدو منتفخة مثل الجثة التي بقيت مدة طويلة من الزمن فى المياه الراكدة . ثم ان لون وجهها أصفر. وحينما كانت تستمع الى زائريها وهم يشرحون لها دعواهم ، كانت تجيل عيونها من وجه الى آخر تلك العيون التي تشبه قطعتين صغيرتين من الفحم ، محشوتين فى كرة من العجين ، وتكاد تختفي فى تجاعيد وجهها .

ولم تدع احدا منهم الى الجلوس بل اكتفت بالوقوف امام العتبة ، وهي تنتظر بكل هدوء انتهاء خطاب الناطق باسم الوفد الذي كان يتلعثم فى كلامه وحينذاك سمعوا اصوات الساعة المخفية المربوطة الى السلسلة الذهبية .

كانت لهجتها جافة وباردة :

— لن ادفع الضرائب فى مدينة جيفرسن . لقد شرح لي ذلك العقيد سارتوريس . ولعل احدكم يستطيع ان يراجع سجلات المدينة لكي تتأكدوا من ذلك .

— ولكننا فعلنا ذلك . ونحن نمثل السلطة فى المدينة يا آنسة اميلي . الم يصلك اخطار من المسؤول عن الامن يحمل توقيعه ؟

فقالت الآنسة اميلي :

— نعم لقد وصلتني منه ورقة . وكأني به يعتقد بانه هو المسؤول عن الامن . لن ادفع الضرائب فى مدينة جيفرسن .

— ولكن لا يوجد فى السجلات اي شيء يبرر ذلك. يجب ان . .

— عليكم بمقابلة العقيد سارتوريس . لن ادفع الضرائب فى مدينة جيفرسن .

— يا آنسة اميلي ، ولكن . .

— عليكم بمقابلة العقيد سارتوريس (لقد مات العقيد منذ عشر سنوات تقريبا) لن ادفع الضرائب فى مدينة جيفرسن . يا طوب .

وحضر الزنجي .

— رافق هؤلاء السادة الى الباب .

وبهذه الطريقة انهزموا امامها مثلما انهزم آباؤهم منذ ثلاثين سنة فى قضية الرائحة الكريهة . لقد حدث ذلك بعد وفاة والدها بسنتين ، وقبل ان يهجرها عاشقها الذي كنا نعتقد بأنه سيتزوجها . وبعد وفاة والدها لم تكن تخرج من المنزل الا قليلا ، اما بعد هجران عاشقها فلم يشاهدها اي انسان على الاطلاق. وقد تسلحت بعض السيدات بالشجاعة ، فذهبن لزيارتها ، ولكنها رفضت ان تستقبلهن ، ولم يشاهدن اي انسان فى الدار باستثناء الزنجي الذي كان فى ذلك الوقت لا يزال شابا ، وكان يدخل ويخرج من المنزل حاملا سلة لقضاء الاغراض من السوق . وكانت السيدات يرددن :

— أليس غريبا ان يقوم هذا الرجل بشؤون الطبخ ؟

ـ ان كل هذه الانواع التي ذكرتها تستطيع ان تقتل فيلا ، ولكنك يا سيدتي تريدين ..

ـ سم الزرنيخ . هل هو قوي المفعول ؟

ـ هل تريدين الزرنيخ ؟.. حاضر يا سيدتي .. ولكن طلبك ..

ـ اني أريد الزرنيخ .

ونظر اليها الصيدلي . وتطلعت اليه بنظرة جامدة . فقال الصيدلي :

ـ طبعا يا سيدتي ، ساحضره اذا كان ذلك حقا هو ما تريدين . ولكن القانون يفرض عليك ان تذكري وجه الاستعمال ..

واكتفت الآنسة اميلي بأن حدقت فيه وقد امالت رأسها الى الوراء حتى تستطيع ان تركز عينيها في عينيه . وطال بها الامر على هذه الحالة حتى اضطر في الاخير ان يحول عنها نظره وان يذهب لكي يحضر لها الزرنيخ الذي وضعه في ورقة . وحمل الزنجي اليها هذه البضاعة ولكن الصيدلي لم يرجع . وحينما وصلت الى الدار وفتحت الرزمه ، شاهدت انه قد كتب على الصندوق ، تحت الجمجمة والعظام المتصالبه : من اجل الجرذان .

ولهذا فان سائر الناس اصبحوا يقولون في اليوم التالي : انها ستنتحر . وكنا نعتقد ان ذلك هو افضل ما يمكن ان تقوم به . لقد تعودنا ان نقول في بداية علاقتها مع هومر بارون : انها ستتزوجه . ولكننا فيما بعد اصبحنا نقول انها ستجعله يقدم على الزواج بها في آخر الامر . والسبب في ذلك ان هومر نفسه كان قد ادرك انه ليس ممن يتزوجون ، فقد كان يحب صحبة الرجال ، وكان من المعروف انه يتعاطى شرب الخمر مع أصغر اعضاء نادي « الك » . ثم صرنا نقول : مسكينة ، اميلي . نقول ذلك من وراء النوافذ ، حينما تمران في وقت الظهر من يوم الاحد ، فوق العربة اللامعة . اما هي فراسها مرفوع في السماء ، وأما هو فقبعته مائلة على اذنه والسيجارة بين اسنانه ، والاعنة والسوط في قفاز اصفر اللون .

وحينئذ صارت بعض سيدات المدينة يقلن ان هذا عار للمدينة وأنه يعد مثلا سيئا للشباب . ولم يجرؤ الرجال على التدخل في القضية ، ولكن السيدات ارغمن في آخر الامر الخوري على ان يذهب الى بيتها ، لان اسرة اميلي تنتمي الى الكنيسة الانكليكانية . ولم يشأ الخوري ان يكشف عما دار في هذه المقابلة ، ولكنه رفض ان يعود مرة اخرى . وفي يوم الاحد التالي خرجا كعادتهما على العربة وبعد ذلك بيوم واحد كتبت زوجة الخوري رسالة الى اقارب اميلي في مقاطعة الاباما .

ونتيجة لذلك ، فقد اضطرت الآنسة اميلي ان تستقبل في دارها بعض الاقارب . واستعد سائر الناس لتتبع الحوادث ، غير انه في البداية لم تحدث اي شيء ثم تيقنا انهما سيتزوجان ، فقد علمنا ان الآنسة اميلي ذهبت الى صائغ المجوهرات ، كما انها امرت بتحضير بعض اللوازم للرجال ، على أن توضع الاحرف الاولى: هـ.ب. على كل قطعة منها . وبعد مرور يومين اشترت جهازا كاملا من ملابس الرجال ، بما فيها ثوب للنوم ، وقلنا في انفسنا : انهما ولا شك متزوجان . وكنا مسرورين من ذلك . ومما زاد سرورنا ان بنتي عمها كانتا تسرفان اسرة جريرسن اكثر مما فعلت الآنسة اميلي .

ولهذا فاننا لم نندهش حينما غادر هومر بارون المدينة بعد ان تم تبليط شوارع المدينة بمدة قليلة . لقد شعرنا بخيبة الامل بعض الشيء بسبب عدم اقامة أية حفلة ولكن كنا نعتقد بانه قد غادر المدينة لكي يهيىء بيتا يستقبل فيه الآنسة اميلي او انه كان ينوي أن يساعدها على التخلص من بنتي عمها . (لقد كان رأينا موحدا حول هذه المسأله ، وكنا جميعا حلفاء للآنسة اميلي حتى نطرد بنتي عمها) . ولكن من المؤكد انهما غادرتا المدينة بعد مرور أسبوع . ولم تكد تمر ثلاثة أيام حتى رجع هومر بارون ، حسبما توقعنا . وقد رآه احد الجيران ذات امسية في وقت المغيب ، حينما ادخله الزنجي الى الدار من خلال باب المطبخ .

ومنذ ذلك الحين ، لم نعد نرى هومر بارون كما اننا انقطعنا مدة من الزمن عن رؤية الآنسة اميلي . وكنا نشاهد الزنجي داخلا الى الدار وخارجا منها ، وهو يحمل سلة لقضاء الاغراض من السوق . ولكن باب الدخول ظل مسدودا . وكنا نشاهدها بين الحين والآخر في النافذة ، حيث تقضي بعض الوقت ، مثلما حدث في الليلة التي ذهب فيها الرجال لكي ينشروا الكلس في دارها ، ولكنها انقطعت عن الظهور في الشوارع مدة ستة اشهر . وادركنا ان ذلك كان من

يأتون لزيارتها ، على امل انهم سيقنعونها بأن تسمح لهم بأخذ الجثة . وحينما هموا بالالتجاء الى القوة والقانون ، استسلمت . وعلى اثر ذلك دفنوا والدها بمنتهى العجلة .

وحينئذ لم يقل احد بأنها مجنونة : لقد كنا نعتقد بأن ما فعلت هو ما كان يجب ان يفعل فى مثل هذه المناسبة ، لاننا نعلم بأنه من الطبيعي ، بعد ما فقدت كل شيء ، ان تتشبث بوالدها ، كما يفعل سائر الناس.

ولزمها المرض مدة طويلة . وحينما رايناها من جديد ، كان شعرها قصيرا ، مما كان يجعل مظهرها يشبه فتاة او ملاكا من الملائكة المرسومة على زجاج الكنائس : انه شيء يمتزج فيه الهدوء بالمأساة .

لقد أبرمت المدينة منذ عهد قريب ، تعاقدا من اجل تبليط الارصفة . وفى الصيف الذي تلا وفاة والد الآنسة اميلي ابتدأ العمل . وجاءت شركة الانشاءات مع الزنوج والبغال والالات ، ومع متعهد أعمال اسمههو مرباروں ، وهو امريكي من الشمال ، كبير الجثة ، أسمر اللون ، صارم فى رايه ، غليظ الصوت ، وعيناه اكثر صفاء من لون بشرته . وكان الاطفال يترسمون خطاه لكي يسمعوه حينما يسب الزنوج ، اولئك الزنوج الذين لا ينقطعون عن ترديد الاغانى وهم يرفعون الفؤوس ويهوون بها الى الارض . وسرعان ما تعرف على سائر الناس فى المدينة . وكلما سمع الناس ضحكات عالية تتعالى فى ساحة المدينة ، الا وكانوا متأكدين ان هو مر بارون موجود فى وسط المجموعة . وبعد مرور ايام قلائل ، اصبح الناس يشاهدونه فى أوقات الظهر من يوم الاحد مع الآنسة اميلي ، على عربة مكرية ذات دوالب صفر ، يجرها فرسان .

وفى البداية شعرنا بالغبطة حينما شاهدنا الآنسة اميلي قد اصبحت تعير اهتماما للحياة . أما السيدات فقد اصبحن يقلن :

— من الطبيعي أن المراة التي تنتمي الى اسرة جريرسن لا يمكن ان تكون جادة فى علاقتها مع رجل من الشمال يشتغل باليومية .

ولكن كان هناك ءاخرون اكبر سنا يقولون بأن المصائب لا ينبغي أن تنسي سيدة جديرة بالاحترام بأن نبل الاصل يفرض على الانسان واجبات . هذا مع العلم بانهم لم يكونوا يعترفون لها بنبل الاصل . وكانوا يكتفون بالقول :

— مسكينة .. الآنسة اميلي .. يجب على اقاربها أن يساعدوها .

لقد كان لها اقارب فى مقاطعة الاباما ، ولكن والدها كان فيما مضى قد تخاصم معهم بسبب وراثة السيدة العجوزة وايت المجنونة . وانقطعت الاسرتان منذ ذلك الوقت عن تبادل الزيارات . وفى اليوم الذي شيعت فيه الجنازة لم يحضر منهم احد .

وبمجرد أن بدأ الناس يقولون : مسكينة .. الآنسة اميلي .. منذ ذلك الوقت بداوا يتناقلون حديثا مكتما فيما بينهم :

— ماذا .. هل انت متأكد ان ..

— طبعا ، طبعا . والا فما هو السبب فى ان ..

ويضع الناس راحة اليد امام الفم تكتما . وفى اوقات الظهر من ايام الاحد المشمسة تتطلع السيدات من وراء النوافذ المغلقة بفساتينهن المصنوعة من الحرير والساتين ، لمشاهدة العربة التي يجرها فرسان والتي تمر سريعة ومدوية . مسكينة ، الآنسة اميلي ..

كانت دائما ترفع راسها عاليا ، بل حتى فى الاوقات التي كنا نعتقد انها قد بلغت الحضيض . وكان يخيل الينا انها تطالبنا بأن نعترف لآخر عضو من أعضاء اسرة جريرسن بالكرامة .

ان هذا الضعف الانساني فى طبيعتها كان يجعلها بالنسبة الينا اكثر غموضا . ومثال ذلك حينما ذهبت لتشتري السم الذي يقتل الجرذان اي الزرنيخ . لقد حدث ذلك بعد مرور عامين على اليوم الذي بدا فيه الناس يقولون : مسكينة الآنسة اميلي .. وحينما كانت بنتا عمها تسكنان معها فى الدار . فقالت للصيدلي :

— اريد شيئا من السم .

— طيب يا آنسة اميلي. اي نوع من السم تريدين؟ هل تريدين سما من اجل قتل الجرذان أو اي شيء آخر من هذا القبيل ؟ اني انصحك باستعمال ..

— اني اريد أحسن نوع يوجد عندك . ولا يهمني شيء آخر .

وشرع الصيدلي فى عد بعض هذه الانواع .

وخيل الينا ان مدخنة ذات رائحة قوية مخرشة قد افرغ ما فيها ونشر على كل ما يوجد فى هذه الغرفة التى زينت وانثت وكانها قد اعدت لليلة العرس : على الستائر الدمشقية ذات اللون الوردي الباهت ، وعلى مصابيح الاباجورات الوردية ، وعلى طاولة الزينة وعلى الادوات الناعمة المصنوعة من البلور وعلى العلبة التي نوجد فيها ادوات الحلاقة بفطائها الفضي الباهت ، بل ان لون الغطاء باهت الى درجة ان الاحرف التي رسمت عليه لا تكاد تظهر . وكانت توجد ايضا داخل هذه العلبة قبة قميص وربطة عنق ، وكانت موضوعة بشكل يجعل الانسان يعتقد بأن صاحبها قد خلعها منذ وقت قريب . وحينما رفعناها من مكانها ، تركت فى الغبار اثرا اصفر اللون . اما الثوب فقد طوى بعناية ووضع فوق الكرسي . وكانت الجوارب والاحذية مرمية تحت الكرسي ، وكانت بكماء لا تحبر كلاما .

وأما الرجل بالدات ، فقد كان نائما على السرير .

وبقينا مدة طويلة جامدين ، ونحن ننظر الى ضحكته الساخرة العميقة التي ارتسمت على الفم الخالي من اللحم . ومما لاحظناه ان جسمه كان لابد انه اتخذ بعض الوقت وضعية العناق ، ولكن النوم الاخير الذي يبقى بعد الحب ، النوم الذي استطاع ان ينتصر على ضحكة الحب ، هذا النوم اخذه على حين غفلة . وما بقي من ذلك الجسد الذي نفسخ تحت بقايا قميص النوم ، اصبح يشكل وحدة واتصالا مع النخت الذي نام عليه . ونشكلت فوقه وفوق الوسادة بالقرب منه ، طبقة متساوية السمك من الغبار العنيد .

ولاحظنا حينذاك ان اثر راس قد شكل حفرة فى الوساده الاخرى . وامسك احدنا فوق الوسادة شيئا ما ، وحينما انحنينا وبدأ الغبار الناعم المتمنع عن اللمس يملا خياشيمنا برائحته الجافة المخرشة ، لاحظنا بأن ذلك الشيء هو شعرة ، شعرة طويلة لونها رمادى كلون الحديد .

الجزائر — حنفي بنعيسي



الطبيعـي ان يحدث ، فوالدها كان يمنعها من ان تتمتع بالحيـاة كسائـر النسـاء ، ولكن انوثتها كانت أقـوى واعنف من ان تمـوت .

وحينما اتيح لنا ان نرى الانسة اميلي من جديد ، لاحظنا بأنها تضخمت وان شعرها قد خطه الشيب . وعلى مر السنين ازداد شعرها بياضا الى أن اتخذ لونا رماديـا تمتزج فيه الوان الحديـد والبهـار والملح . وعندئذ لم يعد لونه يتغيـر . واحتفظ شعرها بلون الحديد الرمادي ، الى ان وافتها المنية بعـد ما بلغت الرابعة والسبعين من العمر ، كما احتفـظ سعرهـا بقوته ، مثل سعر رجل في عنفوان شبابه .

وابتـداء من تلك الفترة مـن حياتها ظل بـاب دارها مغلقا ، باستثناء مدة مـن الزمن تتـراوح بيـن الست والسبع سنـوات كانت خلالها تعطي دروسا في الرسم على البورسليـن ، حينما كان عمرهـا يبلـغ الاربعين تقريبا . وكانت قد اقامت في احدى غـرف الطابـق الارضي مرسما تتردد اليه بنات وحفيدات معاصري العقيد سارتوريس ، ويواظبن على ذلك مثلما يواظبن على الذهاب الى الكنيسة يوم الاحد ، وفي يد كل واحدة منهن خمسة فلوس تسلم بعد نهاية كـل درس . ولكنها كانت معفية مـن الضرائب .

ثم اصبح الجيل الجديد عماد المدينة وروحهـا وكبرت تلميذات دروس الرسم وتعرفت بهن السبـل ولم تعد بناتهن يترددن على المرسم بعلب الالـوان والريشات المزعجة والصور المقتطفة مـن مجـلات السيدات . وانغلق الباب بعد تخرج آخر تلميذة وظل كذلك نهائيـا . وحينمـا حصلت المدينة على حـق توزيـع البريد مجانا كانت الآنسة اميلي هي الوحدة التي رفضت ان يسجـل رقم فـوق باب دارها وان يثبت فوقه صندوق للرسائـل . وفشلت سائـر المحاولات لاقناعهـا .

وكنا ، في كل يوم و في كل شهـر وفي كل سنة ، نشاهد الزنجي حينما يدخل الى الدار ويخرج منهـا حاملا سلة لقضاء الاغراض من السوق ، وشعره خلال تلـك المـدة كلهـا يـزداد بياضـا ، وظهـره يزداد تقوسا . وفي شهر كانون الاول كنا دائما نرسل اليها ورقة الضرائب ، ولكن ادارة البريد كانت تعيدها الينا مع هذه الملاحظة : لم يأت لاستلامها احد . وكنـا نشاهدها بين الحيـن والآخر في احـدى نوافذ الطابق الارضي ـ كانت طبعـا قـد اغلقت الطابق الاول ـ وكانت تبدو لنا مثل القسم العلوي من صنم منحوت موضوع في مشكاة ولم نكن ندري فيما اذا كانت تنظـر الينا ام لا . وهكذا بقيت على مر الاجيال ، عزيـزة الجانب ، غامضة ، محافظة علـى هدوئهـا وغرابـة اطوارهـا .

ثم ماتت . لقد اصيبت بالمرض في الدار التـي امتلات بالظلال والغبار ولم يكن ليساعدها سـوى الزنجي الذي نفذت قواه . ولم نسمع حتى بمرضهـا فقد انقطعنـا منذ زمـن بعيد عن تلقي اخبارها مـن الزنجي الذي لم يعد يكلم احدا ، وربما لم يعد يكلمها هي ايضا لانه قد بح صوته وجش من قلة الاستعمال .

وجاء الزنجي الى الباب ليستقبل اولى السيدات وادخلهن ـ بأصواتهن المنخفضة ونظراتهن السريعة الخاطفة ـ ثم اختفى عن الانظار : لقد اجتاز الدار كلها واخرج من الجانب الخلفي ، ولم نعد نراه ابدا .

ووصلت بنتا العم في الحيـن ، فقامتا بتنظيـم مراسـم الدفن في اليوم الثاني . وجاء سكان المدينة باسرهم ، لمشاهدة الآنسة اميلي التي كانت مسجـاة تحت كومة من الازهار . وكانت صورة والدها تبـدو فوق النعش وكانها مستغرقـة في الاحلام . وامـا السيدات فقد كن يتبادلن الاحاديث عن الموت بصوت منخفض ، واما الرجال المسنون فقـد ملاوا البهـو والحديقة وكان البعض منهم قد ارتـدى بـدلات الكونفدراليـة الانيقة ، وكانوا يتحدثون عن الآنسة اميلي كما لو انها كانت معاصرة لهم وهم يتخيلون انهم راقصوها في صباها او ربما غازلوها . وهم انما يفعلون ذلك لانهم فقدوا الشعور بفكرة الزمـن وبتقدمـه المستمـر ، كما يفعل سائر الشيوخ الذين يعتقـدون بأن الماضي لا يشبه طريقا يتناقـص في الطـول . بـل هو على العكس من ذلك عبارة عن مرج واسع لا يصـل اليه فصل الشتـاء . ولكن السنوات العشر الاخيرة من حياتهم كانت قد فصلتهم عن هذا المرج . وكم تشبه تلك السنـوات العشر الاخيرة عنق القنينة الضيق !

كنـا نعلم بانه توجد في الطابـق الاول غرفـة لم تفتح منذ اربعيـن سنة ، وانه يجب علينا ان نحطـم بابهـا . وانتظرنـا قبل فتحها ان يتم دفـن الآنسـة اميلي بالشكـل اللائـق .

وحينما حطمنا البـاب بدفعة عنيفة وجدنا أن الغرفة مملوءة بغبار اخذ بخناقنـا من كـل جانب .

تؤاخذه على مدى ترابط القصيدة العضوي كما يقول النقد الحديث ، او وحدة القصيد كما يقول النقد الكلاسيكي ..

فهل هناك وحدة ؟ هل هناك ترابط عضوي بين ابيات القصيدة ، هل تم ائتلاف وانسجام بين مقاطعها ، هل تخلق في قارئها جوا نفسيا معينا .. هل كان الشاعر موفقا في ملء الثغرات عبرها ؟ او ابسط تعبير ، هل عاش الشاعر تجربته وعاناها بالصبر والاناة اللازمين ؟ لنعبر القصيدة اذن لنرى ماذا فيها من عناصر جمالية شكلا ومضمونا :

* * *

يبدو لي ان الشاعر يرمز بالبحر الى « المجال » اي الى « الانا » في احتكاكها بالانوات الاخرى ، وبالاشياء والاحداث ، مؤثرة ومتأثرة ، في دينامية مستمرة .

كما يرمز بالنهر الى الانا ، اي الى الشاعر نفسه ، لان الشاعر ينصهر في « المجال » بالمفهوم الذي اشير اليه ، ومنه ينطلق ، واليه يؤوب ، كما ينطلق النهر من البحر ويؤوب اليه .

وليس ضروريا ان يكون الشاعر رمى ، واعيا ، الى الحلولية العميقة الايحاء ، التي تنبع في الرمز المشار اليه ، ولا يعنينا هل قصد الى اتخاذ هذا الرمز كخط رفيع يربط بين سطح القصيدة وخلاياها الخفية ... ام لا ..

لا يعنينا اكان الشاعر واعيا أم لم يكن ، فمن حقنا ، ان لم يكن من واجبنا ، ان نؤول اثرا ادبيا ما،على النحو الذي نرتئيه ، مادام هذا التأويل لا يتجنى على الاثر .

بل ان مطلع القصيدة يوفر لنا بعض الدلائل التي توجب علينا الاخذ بهذا الرمز .. ويكاد تؤكد ان تاويلنا للاثر على هذا النحو لم يكن اعتباطا ...

.. وشكا النهر للمحيط فاصغى في سكون ويقظة واناة

فهذه الواو والمسبوقة بنقط ، والتي تاخذ بقفا المطلع ، تدل بعمق على استمرار الحياة ، اي ان النهر (الشاعر) ، الذي يتحدث ، لم يات الا بعد قطع اشواط بعده مما يتحدث عنه ، ويشير بالواو والنقطتين الى انه لا يستطيع ان يتحدث او يعبر عنها ، ويترك للمتذوق ان يتخيلها عملاقا يمتد من النقطة الاولى الى الوراء ...

وكلمة المحيط ، التي استعملها الشاعر «النهر» في المطلع بدل البحر ؟ اليست مرادفة للبيئة التي يقرب مفهومها من مفهوم المجال ، حتى عند علماء النفس ، وعلماء المجال ، الذين يحرصون على تحديد مدلول الالفاظ .

واخيرا ، هذا الاصغاء الساكن اليقظ المتأني الذي يصف به البحر «المجال» هل الشاعر مخبول حتى يسوق مثل هذه الاوصاف لبحر حقيقي ، وهو يعلم ان نسبة كبيرة من صائدي الاسماك ، ينتهي بهم الامر لفقد السمع ، لصخب البحر ، او يبتلعهم شبابا لعدم اناته .. واستحالة سكونه ..

نحن ، اذا ، ازاء بيت من الشعر قد يستهان به ، ويعتبر من اسف انواع الشعر ، لو اغفلنا هذه الرمزية القوية الايحاء التي تسربله ..

فلنتمسك بها ، رمى الشاعر ام لم يرم اليها ، ولنحاسبه فقط عن مدى احتفاظه بهذا المستوى العالي في قصيدته ، عن مدى وفائه او تنكره للرمزية في مقاطعها ، عن مدى ارتجاله ؟ واناته وهو يعانيها .

يبدأ « النهر » شكاته مباشرة بعد هذا المطلع الجيد ، فانظر الى شكواه كيف بداها ، وهل هي منسجمة مع المطلع :

قال :

يا اصل مالنا نغرف الكون دواما بمغريات الحياة ؟

انه لازال ذا صلة بالرمزية التي تلهب المطلع ، لولا هذه « الدواما » التي تلوح ، من بعيد ، انها احتلت مقعدا لم تهيأ لها الا اضطرارا حتى ليخيل الي ان مكانها شاغر ..

ويستمر الشاعر في شكواه ، ثم تتدفق عليه ، وتكتسحه ، تماما كما يكتسح الطوفان النهر ، فتمتد مياهه المشوبة بالغش ، والشوك ، والجثث ، وتصبح جسما ملتحما مع النجد والصفصاف .

ان الشكوى اجفلت بالشاعر فلم يستطع ان يكبح جماحها ، فالى اية هاوية ساقته ؟ ان جماح شكواه ادى به الى التنكر الى نفسه ، فكررها ، وناقضها ، وانحط بها الى الارض ، بعد ان انطلقت من اجواء عالية ..

مناقشات

مع قصيدتي التواتي والحلوي

بقلم : الأستاذ ابنهر دفعه محمد

مجرد راي ، هذا الحديث المقتضب عن قصائد العدد الثاني ، انه مجرد خواطر .. وليس نقدا ، بالمعنى المالوف لكلمة نقد ، انه ، وبالحاح ، مجرد رأي .. راي رجل عادى يستهلك الادب ، ويتذوقه ..

وقد حفزني الى كتابة بواعث عدة ، منها أن القصائد المنسوره بهذا العدد ، خرجت على العموم ، عن الكليشيه الدائم الذى يكاد ادباؤنا ، ولا سيما الكبار منهم ، يكرسون له كل نشاطهم الادبي ، واعني به ادب المناسبة ، ايه كانت هده المناسبة ..

ان ثلاث قصائد من الاربع المنشورة ، لاتتصل ، بسبب ما ، بايه حركة او زمن ، بل هي تجارب تعالج قضايا يمكن معالجتها فى اى زمان او مكان .. او هي تجارب تعالج قضية ما ..

* * *

العدد اذن ، يضم بين دفتيه اربع قصائد ، وقد وعد العنوان ان نتناولها كلها بالحديث ، الا اننا فى الحقيقة ، لن نتحدث الا عن قصيدتين من اربع ..

وهما « سر الحياة » للشاعر التواتي و « عدراء» الشاعر الحلوي . (*)

* * *

لعل تقديم الاستاذ التواتي لقصيدته يعد بان تكون القصيدة رمزية ، ثرية الصور ، كثيفة عميقة ... فهل يوجد شيء من الرمزية والتصوير الشعري فى هذه القصيدة ؟

اهي كثيفة المضمون ، عميقته ، كثافة وعمق التقدم ؟ انضم بين تضاعيفها شيئا عن هذا التقابل الجميل بين الخلايا البانية ، والخلايا المحطمة ؟ بين الانماط البشريه المنتجة ، والانماط الاخرى المستهلكه

ان الفكرة الرئيسية التي تستند اليها القصيده ، وتاخذها كمنطلق الى التجربة ، فكرة تمس المشكله الاخلاقية فى الوتر الحساس ، والقصيدة ، تستند ، وتساند بوضوح ، نظريه الخير المطلق ، الخير لنفسه ، بقطع النظر عن الجزاءات .

فالشاعر ، فى قصيدته ، ملتزم ، اذن ، وهو يعتنق فيها ، وعى ام لم يع ، مذهب الفن للاخلاق ..

ورغم ان فكريه هذه عظيمة ، الى حد انها ربما كانت ابرز اساس لظهور الفن الملتزم الهادف ، او كما سمبه النقاد الفن للحياة ، رغم عظمة هذه الفكرة فنحن لن نقيم القصيدة تبعا لها ، لان الفن العظيم ، ولا سيما فى ميدان الشعر ، ليس بذى ارتباط بالفكرة او الموضوع الذي يعالجه ، بل بالعناصر الجمالية التي تكمن فيه ، ولو كان يتناول انفه الموضوعات ..

كما اننا لن نؤاخذ المنتج على ان الفكرة تناولها الفن ، فى شتى ميادينه ، منذ شيوع مذاهب الالتزام ، بل وحتى قبل شيوعها ، لن نؤاخذ الادب على ذلك ابدا ، لان هذه المؤاخذة ليست من حقنا ، فالموضوع ، عادة مادة خام مشاعة للجميع ..

انما الذي نؤاخذه عليه ، هو مدى اصالة تجربته ، ومدى تكافئها مع الموضوع الضخم الذي اراده .. نؤاخذه على مدى جودة العناصر الجمالية والاجواء النفسية التي بسطها لنا على مائدته الشاسعة ..

---

*) راجع القصيدتين فى العدد الثاني من هذه السنة

في قواميس اللغة كسافنات بدلا من سوافن ، وعزمات بدلا من عزائم اضطرارا لوزن او قافية ابيات هي نفسها ، بمدلولها وشكلها مما شوه القصيدة : ولما اتى بمثل هذه العبارة العامية : « ومضت ساعة واخرى تلها » ، ولعله لو عاد الى تجربته ، متأنيا كاصفاء بحره، ومنخلبا — ولو موقتا — عن « نرجسيته » ومتهيئا نفسانيا ، لهده العودة ، كما يتهيأ المرء لقراءة غيره ، اقول لو عاد اليها وحاول جادا ان يشذ بها مما اكتنفها من اعلاق ، لجعلها اسلم مما هي عليه .. لان شاعريته لو اراد تسمح له بذلك .

* * *

ونكتفي بهذا القدر من الحديث عن قصيدة الشاعر التواتي ، وننتقل الى الحديث عن الشاعر الحلوي .

والشاعر الحلوي لا يحتاج الى تقديم ، ومكانته في الادب المغربي المعاصر تعلن عن نفسها ، فقد عاش فترات قاسية ، وظروفا شاذة مظلمة ، ايام الاحتلال . وعبر عنها ، وعاش ظروفا اخرى متناقضا بعد الاستقلال وعبر عنها ، وهو في شعره الحماسي يصول ويجول ..

وقصيدته « عذراء » التي نشرها في العدد الثاني ، رغم انها ابتعدت عن الميدان الذي يملك فيه الناصية ، الا انها اتسمت بنفس الفم الذي يتوفر في شعره ، من قوة في التعبير ، ووضوح في المدلول ، مع تحري اللفظة المناسبة ، ومحافظة على مستوى الاثر من الناحية الشكلية على الاقل ..

اما من حيث المضمون فافضل ان اناقش مع الاستاذ الحلوي بقدر الامكان ..

* * *

منذ قراءتي الاولى لقصيدة الشاعر الحلوي « طالعتني » ثغرة فادحة في مطلعها ، لدرجة انني تمنيت لو استغنى الشاعر عن هذا المطلع ، سيما واننا لن نخسر شيئا ، فالعنوان ينوب عنه بما فيه الكفاية . يقول الشاعر :

تلفتت ظبية (كدت اكتب مطلع شوقي) :
تلفت لفتة الظبي الذي ذعرا
عذراء تنفر ممن مس ..

الى حد هنا لا زالت الامة بخير ، فالثغرة المشار اليها تكمن في قفل البيت : .. او نظرا .

اذ ان العذراء ، والانثى عموما ، لا تنفر ابدا ممن نظر اليها ، بل هي تقضي الساعات الطوال في التزين والتحلي قبل ان تخرج .. وهي تعلم انها لا تفعل ذلك الا لتجلب الانظار اليها ..

ولعل الاستاذ الحلوي اعلم منا بامراة جميلة ، عاشت في صدر الاسلام ، حفظ التاريخ انها كانت « تتبرج » عمدا ، ليراها الناس ، وتعتذر لمن يلومها بانها حباها الله مسحة من جمال ومن الكفر بنعمته ان تخفيها عن الناس .

فكيف بالعذراء في عصر السفور والتبرج ، اضف الى ذلك ان النظر اليها بفرض غاية نعمة ، لانها عذراء، وكل عذراء تنتظر خطيبا ، وخطاب اليوم لم يعودوا عميانا .

فحبذا لو حذف هذا البيت ، لانه ، حتى لو لم تخترمه هذه الثغرة ، لا يليق ان يجاور ما بعده :

تلفتت فرأت صبا يلاحقها
بطرفه زجرت مرتاعة فجرى

ان التصوير الشعري الجميل ، الذي يشيع في هذا البيت ، يكاد يجسم المنظر امام القارىء كانه يراه ... ثم انظر معي الى البيت الذي بعده ، وما فيه من خطابية وتقرير ، فضلا عن انتقال الشاعر من التحدث عن العذراء بضمير الغائبة الى مخاطبة ملاحقها

ثم انظر اليه كيف انتقل ، مباشرة ، الى اتمام اوصاف العذراء . ثم امعن معي النظر في هذين البيتين:

مرت امامك في تيه وفي خفر
واطمعتك فلم تلحق لها اثرا
وطفاء وارفة الاهداب ترمق كالـ
ـوسنى لتحجب عن عشاقها الحورا

فبعد ان وصف الشاعر العذراء بانها تنفر ممن نظر اليها ، عاد فاتهمها ، وبكل وضوح ، بانها اطمعت صاحبها ، وبانها تعرف ان لها عشاقا كثيرين تتصنع وضعا معينا لعينيها لكي تخفي عنهم حورها .. اتكون الفتاة لا ترتاح الى من ينظر اليها ، وتنفر منه ، ثم في نفس الوقت ، تغرر بفتى ، وتطمعه ، ثم تهرب وتعرف ان لها عشاقا يرمقونها وتمر بينهم كانها نائمة .

ان هذا التناقض ليس بينه ، عند الاستاذ الحلوي الا ثلاثة ابيات من الشعر .. ثم هذا البيت :

حوراء ضاقت برضوان وجنته
والحور والحسن منظوما ومنثرا

لعل الشاعر يربط برضوان وجنته ، ابا الفتاة وبينها ، ولكن كيف نحلل اللغز الذي يكمن وراء عجز هذا البيت هل اضطره اتمام البيت الى حشد شطر كامل ، ليس له مدلول .

سطر الشاعر بضعة ابيات يمكن اعتبارها ، على نحو ما ، منسجمة مع اجواء التجربة كما انطلق بها :

ونحيل الحياة غراء تسبي بسناها ضمائر الكائنات؟
والبرايا لولا حمانا هباء والوجود الجميل لحن شكاة؟

ربما اغرانا بالوثوق من ان الشاعر لا زال ينشد التكامل لرمزية قصيدته ، ما في « نحيل الحياة غراء » من اشارة الى تضافر ، الجمال ، والشاعر ، في خلق الفن الجميل ، الذي يسبي ويسحر ضمائر الكائنات .. وما في « البرايا ، لولا حمانا هباء » فالانسان الذي لايتوفر على العاطفة الاستاطيقية ، انسان غير متكامل ، والشاعر ، ومحيطه ، او بالتعميم الفنان ومحيطه ، هما اللذان ينميان هذه العاطفة ويرعيانها ..

ولكنه لايمضي الا قليلا حتى يتنكر الى تجربته ، والى نفسه ، كما سبق ، فيضطر الى تسجيل ابيات في القصيدة لا مبرر لها .

ثم لننظر الى البيتين التاليين ، انهما معنى واحد في قالبين ، مع استعمال اسم الفاعل من صاع يضوع وهو غير مستعمل .. ثم انظر الى هذا البيت :

اترى الارض يا ابي والبرايا عرفوا سرنا وسر الحياة؟

انني اكاد اجزم انني لم اكن موفقا في تاويل مطلع القصيدة ، لان في البيت تنكرا بينا .. لان الشاعر لو رمى ولو نصف واع ، الى الرمز بالبحر والنهر الى ما اشرنا اليه ، اكان يدرك في قرارة نفسه ، تلقائيا ، ان البرايا هي اهم عناصر « الجمال » وهي التي تلهمه ، ثم تستهلكه ، ولما تساءل هل هي تعرف سر الحياة ، لانها هي نفسها وهو ضمنها ، سر الحياة .

ان هذا البيت قطع صلة ما بعده بما قبله ، بل وخلق موضوعا جديدا ، يصلح لقصيدة اخرى .. وليست هذه هي المرة الوحيدة التي يتملص فيها الشاعر من موضوعه ، وينخرط في موضوع آخر ، بل ان ذلك يتكرر بكيفية توحي بان الشاعر يعمد الى ذلك باصرار ، وكأني به يريد أن تكون قصيدته طويلة ، حتى ولو على حساب اعصابنا .

ايريد الشاعر ان يثبت لنا انه متوفر على ما كان يسمى في النقد الكلاسيكي بطول النفس .. اذا كان الشاعر يريد ان يثبت لنا ذلك فليتاكد من ان طول النفس لم يعد يفيده الااذا كان من هواة صيد الاسماك بالخربة ، اما في الشعر ، فلم تعد الآثار الشعرية تقيم بالكم ، بل بالكيف ، لان الزمن الذي كان فيه الشاعر يرتجل قصيدته على اناس بسطاء ، ساذجي الثقافة الفنية ، قد مضى ، مضى الزمن الذي لم يكن يتاح للمستمع فرصة امعان الفكر في بيت ، حتى يفاجأ بآخر .. فلا يكاد يفطن الى ان الشاعر انتقل من موضوعه ، او ناقض نفسه .. مضى الزمن الذي كان الناقد يجعل رجلا اشعر الناس من اجل بيت .. واي زمن انتشرت فيه الطباعة وعمت فيه الثقافة ، ونمت العاطفة الجمالية بين كافة الطبقات ، وارتبط العلم والفن والثقافة بالخبز .... فما معنى انتقال الشاعر بقرائه في قصيدة واحدة من موضوع الى آخر، في هذا العصر ، الا احدى حالتين : اما ان يكون الشاعر يحتقر مستهلكيه ، او انه ليس عنده ما يقول : والا فما معنى ان يأتي الشاعر التواتي بعدة موضوعات في اثر واحد ، هل نحن لازلنا في عصر طرفة والنابغة ؟ وما معنى ان يكرر المعنى الواحد في عدة صيغ :

وارانا — ابي — نواصل، لاادري لماذا ، طريقنا في صمات
نحن مازلنا — في جنون — نحث السير لاننثني عن الخطوات
نصل الليل بالنهار دؤوبين على السير في خطى ثابتات

هل هناك اي فرق بين مدلول اي بيت وآخر من الابيات الثلاثة السابقة ، ولعلها كانت المرة الوحيدة التي يرتكب فيها هذا ، عبر قصيدته ، انها تتكرر بفظاعة .

فما الذي دعا الشاعر الى تكرير معانيه هل يتصور اننا لن نفهم ما يقول لو صاغه في قالب واحد .. فلنثق اننا ، كمتذوقين ، حتى ازاء الشعر الغامض نلتذ بالاحتراف في سبيل فهم ما يرمي اليه الشاعر ونعتز بالشاعر الذي يرمز الى المعنى ، ويترك لنا المجال لمتابعته ، اقول نعتز بهذا الشاعر لاننا نشعر انه يشركنا في اجوائه ، ويعتبر قدرتنا على الفهم .

ام ان الشاعر التواتي يريد فقط ان يثبت لنا انه متوفر على ملكة لغوية واسعة تساعده على ان يصوغ المعنى الواحد في عدة اشكال ..

اذا كان هذا ما يرمي اليه ، فليتاكد من اننا مقتنعون به ، ونزيد في تقديرنا للملكة اللغوية لو قال لنا بدقة ، ما يجمل ان يقال ، ولم يملأ علينا جسم قصائده بكل ما يخطر له .

وليتأكد الاخ التواتي انه لو اكتفى بموضوعه وقصد الى التكامل والتكافؤ بين تجربته ، والجو الذي بدأها به ، لأتانا بتجربة ناجحة ، ولما أوقعه ارتجاله في هذه الهفوات التي شوهتها كانتحاله جموعا غير موجود

اصداء الثقافة والفكر

للأستاذ : محمد برادة

الحصاد الرائع

اتحفتنا صفحة الادب لجريدة الاهرام بتقرير ضاف عن منجزات الآداب والفنون والثقافة فى الجمهورية العربية المتحدة خلال سنة 1962 ، وكل من قرأ هذا التقرير لا يملك الا ان يصفق اعجابا وتقديرا للاعمال الجبارة التى حققها الادباء والفنانون بالتعاون مع وزارة الثقافة . والتقرير يكشف عن ظاهرتين هامتين :

1) حيوية المثقفين والادباء بالجمهورية العربية المتحدة : يشهد على ذلك المعركة التى دارت حول فن نجيب محفوظ بمناسبة صدور روايته « اللص والكلاب » . فقد ناقش النقاد من خلالها الاسلوب الفني لنجيب محفوظ والمدرسة التي ينتسب اليها ..

والمعركة الثانية كان محورها الادب القومى والادب الانساني ، وهل يتحتم عقد اتصال منظم بمختلف المذاهب والمدارس الفكرية فى العالم ، أم يكتفى باستيحاء الشخصية العربية وتنميتها ؟ .

ومن خلال المناقشات اجمع معظم المفكرين على ان متابعة تطورات الفكر الانساني ضرورة حتمية لكل نمو سليم .

ونشبت معركة اخرى عن ازمة النقد فى الادب العربى ، اثارها فريق ممن يلاحظون انعدام الاخلاص عند النقاد ، وانحرافهم عن جادة الصواب .. وكانت هناك مبارزات بين انصار الشعر التقليدي والشعر الحديث .. وكل هذه المعارك المثمرة تشهد على حيوية الفكر العربى فى الجمهورية ، وتحفزه لتعمق الابعاد ، وتاصيل التجربة .

2) جدوى التخطيطات الثقافية :

رغم ان الثقافة تتميز بكونها تعبيرا حرا عن نشاطات الافراد فى المجتمع ، وتصويرا لاحساساتهم وردود فعلهم ازاء مختلف المظاهر الحضارية ، فان وضع التخطيطات من أجل ازدهارها ــ وبخاصة في الشعوب الناميه ــ يعد لبنة اساسية تمهد الطريق لتحقيق وثبات راسخة البنيان . الا ان التخطيط الثقافى يجب الا يستهدف خدمة اغراض سياسية عاجلة ، بل يجب ان يتوخى بلورة الشخصية القومية . وفتح آفاق النمو السليم امامها ..

ومن خلال عرض بعض مشروعات وزارة الثقافة بالجمهورية العربية ، يتبين لنا مدى فعالية هذه المساعده ، فقد تقرر وضع « دائرة معارف الفكر الانسانى » تشمل الفكرالديني ، والفلسفي ، والقانوني، والاقتصادي ، والسياسي ، والاجتماعى ، والعلمى ، والادبى ، والفنى ، وتشكلت لجن من المختصين لتنفيذ المشروع ، كما انها اصدرت سلاسل ثقافية ناجحة مثل سلسلة روائع المسرح العالمي ، واعلام العرب ، وسلسله الكتب الثقافية ...

والى جانب ما تقدم هناك مجلس الفنون والاداب، وهناك المهرجانات الثقافية والمؤتمرات ، والنهضة المسرحية ، والبرنامج الثاني للاذاعة الذي اسهم بنصيب وافر فى تقديم روائع المسرح العالمي ، والموسيقى الكلاسيكية ..

ثم انتظر ، انني اكاد اصعق ، انظر الى هذا البيت :

تبسمت فاضاء الليل مبسمها :

العل الفتاة التي تنفر من النظر قد استغفلت ابويها ، وخرجت من البيت ، وبالليل ، لتسابق الشبان في الازقة المظلمة .

ام ان الشاعر انحل الليل ، فقط ، ليهول علينا بهذه المبالغة التي جعلت ابتسامتها تضيء الليل كله . ولنكمل البيت :

سبحان الله ، نحول اشعاع العذراء فجاة وبدون مناسبة ، وشع لي من الصب الملاحق ، الى الشاعر الهادىء ، وباليته وقف عند هذا الحد ، بل انه جعل الشاعر مدنفا مرنضا : بها ، اي بحبها :

— وانا المضني بها — قمرا

يخيل الي ان الشاعر انتقل بنا من تجربة الى اخرى ... فلنمض :

كبرت لما رأيت الفجر قد سطعت
آيانه ، ولمحت البشر قد غمرا

كنت اوشك ان انتهي من الحديث ، حين انتقل الشاعر ، بدون مناسبة ، من تجربته .. ولكن الشاعر كبر ، فلا اقل من ان ننتظر الصلاة معه .. فلننظر اليه كيف شبه اسنان العذراء بالىلات :

فم تفتح عن ماس كما انفتحت
براعم الزهر عن بتلانها دررا

انني خلال كل انطباعاتي عن الزهور وبتلانها لم اعرف من الزهر الا الذي بتلاته داكنة سمراء كاسنان الحشاشين .

وينهي الشاعر اوصافه التي زفها الى العذراء ، او ينتهي به الاوصاف التي يمكن ان تعال في مثل هذا المقام الى هذه الصورة الشعرية المتكاملة .

ربيبة الشمس لا تلقاك كاسفة
ولا ترد اليك الطرف منحسرا

فهنا نجد شاعرنا الحلوي قد وقف الى خلق تشبه بنبض بالحياة والعمق ، فالفتاة الجميلة سافرة لا يستر وجهها النقاب ، ولكنها لا ترد الطرف منحسرا .

وفي البيت ما يناقض المطلع ، ولعل الشاعر رجع الى الواقع فعبر عنه ، ثم يستمر الشاعر في قصيدته يتحدث عن اشواقه ، وعن حبه المثالي ، وعن عذابه في هذا الحب العذري الى ان يصل الى هذا البيت الذي يفضح التكلف الذي تتسم به القصيدة كلها :

حملت صدري منها ما يضيق به
صدر الولوع ، وما يهذي به الشعرا

انه حمل قلبه فوق طاقته ، في حبها الى درجة انه احبها حب الشعراء ، وهو يعلم ان وفاء الشعراء في الحب العذري نادر جدا ، ولم يعرف منه تاريخ البشرية الا حالات معدودة ...

ثم يستمر الشاعر ينسج على هذه النغمة الى نهاية القصيدة .. ونحن لو اعدنا قراءة القصيدة وامعنا فيها النظر ، رغم انها تنفر من النظر اليها ، سنتأكد من ان الشاعر كتب لنا قصيدتين كل منهما لم يلق حظه من اهتمام الشاعر ، ولعل السبب في ذلك ، ان الشاعر لا يجد صعوبة ما في نظم قصائده ، فيكتبها وبمجرد انتهائه من تسويدها يدفعها للنشر ، وذلك لطول ممارسته للنظم ، والقارىء المتذوق يستطيع ان يستشف من انتاج الاستاذ الحلوي انه لا يعاني مشقة ما في قرض الشعر .

فليعلم الاستاذ الحلوي ان السهولة علامة سيئة في عرف علماء الجمال ، اذ هي دليل قطعي على ان الشاعر لا يتجاوب بمسانيا مع ما ينتج ، ثم انني اتساءل هل يكلف شاعرنا نفسه مشقة اعادة اثره بعد انتهاء فترة الابداع ، محاولا ان يكون متذوقا عاديا يحاول ان يكيف ما وقع قبله ، في اللاوعي ، من تناقض او تسوس في صلب تجربته المحققة ، ام يكتفي بسهولة انثيال الشعر عليه .

وارجو ان يطالعنا الاستاذان بتجارب عانياها بعناية اكبر .

القنيطرة — ابن دفعة محمد

الجزائر المأساة « فى عفوية فنية لا تترك مجالا لطرح مثلة النقدية التقليدية : هل يتحتم على الاديب ان ...؟ ام تعطى له حرية الاختيار ؟ الخ .. فقد وجد ط المعركة ، ومن معينها استقى اطاره وافكاره حملا كل المسؤوليات المنوطة بالفنان من حيث توفير كل وامكانيات التعبير .. ويحدد « كاتب ياسين » كلة الشاعر قائلا :

« ان مأساة الشاعر تكمن فى ان يوجد مرتبطا خدمة معركة ثورية ، وهو الذي لا يستطيع ولا يجب ، ان ينتج من وحي مظاهر يوم واحد .. ان الشاعر هو الثورة فى وضعها العاري ، وهو الحركة ذاتها للحياة في انفجار مستمر .. »

ولكن هذا التعارض بين ذاتية الفنان وروح الجماعة ، يمكن التغلب عليه اذا ما عرف الاديب كيف يصنع من فنه مزمارا يعزف « الحان المجموع » فى عاطفة لا تخلو من ذاتية متميزة ..

والواقع ان « كاتب ياسين » حقق هذا الهدف فى مسرحيته الاخيرة « المرأة المتوحشة » ؛ فموضوعها مستقى من ملحمة الثورة الجزائرية ، بما فيها من تضحية ودماء ومآسي وشكلها شعري ، ملفع بالايحاءات والتورات الخصبة .. ربما لاتعثر في المسرحية على قصة مليئة بالحوادث ، وانما هي صورة مسطحة تجمع لحظات مكثفة مشحونة بالانفجارات .. انفجارات رصاص وقنابل الثوار ، وانفجارات المشاعر العنيفة فى قلوب المشاهدين .. حقا كم كان الثمن باهظا ذلك الذي بذله ابناء الجزائر لاسترجاع كرامتهم ! .

لنستمع الى احد ابطال « المراة المتوحشة » يردد فى مرارة وصدق :

— « .. لكن الآن تغير كل شيء .. لم يبق لنا الا ان نتحمل العبء . لعل هذا عدل ، لاننا كنا نريد ان نقتص بدمالابرياء .. ان قنابلنا تمزقنا .. ولعل هذا عدل .. لكن ليس لنا ان نختار الوسائل ، لان الواحد منا بقاتل ألفا .. »

ان « كاتب ياسين » لا يهتم بان يجذب القاريء او المشاهد ، عن طريق احداث مترابطة .. بل يكتفي بان بعرض شخصيات متمايزة لكل منها ابعادها وردود فعلها ..

هناك المجاهدون ، ونجمة المراة التي تبحث عن كرامتها المداسة عبر المعركة الثورية .. و « مارك » صاحب البار .. ومرغريت التي تتعاون مع الثوار لانها آمنت بعدالة قضيتهم .. هذا هو الاطار .. ومن خلال الحوار ، وتدخلات الجوقة ، نشرف على اغوار هذه الشخصيات التي تعكس لنا فترة حاسمة من حياة شعب الجزائر ..

ولا جدال فى ان البناء المسرحي « للمراة المتوحشة » يستحق دراسة نقدية مفصلة لاظهار خصائص هذا الاسلوب الشعري الغنائي ، وامتزاجه بالحدث المختار ، للتعبير عن « افكار خطيرة » . ذلك ان « الافكار الخطيرة » كثيرا ما تحول العمل الفني الى منبر للخطابة والدعاية الوقتية اذا لم تتح لها رؤية فنية عميقة .. وقد استطاع « كاتب ياسين » ان يحقق لمسرحيته كلعناصرالنجاح ... وهوبستعد بعدتمثيلها فى باريس ، ان بعرضها فى نفس المكان الذي جرت فيه حوادث المسرحية بالجزائر .. فهل يمكن ان يحظى المغرب بمشاهده هذه الرائعة المسرحية ؟

ذلك ما نأمل ان يتنبه اليه المسؤولون عن المسرح فى بلادنا ..

الرباط : محمد برادة

ان هذا السيل من المشروعات والمنجزات ، والعدد الضخم من الكتب والمجلات التي أصدرتها القاهرة خلال السنة الفارطة ، يقيم الدليل الواضح على المكانة الرفيعة التي اصبحت الثقافة تحتلها في المجتمع العربي . ولا شك ان هذه المرحلة بما تتوخاه من تنظيم وتخطيط ومسايرة للمذهب الاشتراكي العربي ، هي افضل بكثير من مرحلة ترك الحبل على الغارب ، واهمال الادباء والمفكرين .. فالثقافة بمفهومها الواسع صرح عظيم لايكفي المجهود الشخصي لبنائه ، وبخاصة في عصر سريع التطور ، مرتفع الوعي ...

وقد لاحظ التقرير بحق ، ان اشتمال « الميثاق » على اسس الثقافة والعلوم والفنون والادب في المجتمع ، رفع من معنوية المثقفين ، واشعرهم بخطورة الدور الملقى على عاتقهم .. وهو دور ايجابي ، يتحتم ان يحتفظ ، دائما باستقلاله وتلقائيته ، كما جاء في الميثاق:

« حرية الكلمة هي التعبير عن حرية الفكر في أي صورة من صوره ، كذلك فان حرية الصحافة هي ابرز مظاهر حرية الكلمة ويجب ان تتوافر لها كل الضمانات .. »

واريد ان اسجل ملاحظة اوحت لي بها قراءة التقرير ، وهي ان عناصر الادباء الشباب المتوفرين على ثقافة متحررة متطورة ، لم يتبوأوا بعد المكانة التي يجب ان تفسح لهم للمشاركة في بناء صرح الثقافة الجديدة .. وما تزال هناك عناصر من محترفي الادب، تظاهرت بالتطور والاستعداد لتقبل المفاهيم الحديثة ، مع ان رواسب ثقافتها وتكوينها يعوقانها عن السير بالسرعة اللازمة .. ولعل الامر يتوقف على عنصر الزمن ، حتى تستطيع العناصر المثقفة الشابة ان تضاعف من زحفها، لاستلام زمام القيادة ، وترجمة افكار الجيل العربي الصاعد ...

... وحصادنا

وحصادنا صفر على اليسار كما يقولون .. عدد الكتب التي صدرت هذه السنة يعد على الاصابع .. موضوعاتها ليست من الاهمية في شيء .. وعدد المسرحيات قليل ، ومستواها لايرتفع الى المستوى الفني والفكري المطلوب .. والموسيقى طغت عليها المناسبات ، والفنون التشكيلية منعدمة ، والرسم يسير ببطء .. صورة قاتمة ولكنها واقعية .. وكل خطوطها تؤكد ان الثقافة لم تحتل بعد المكانة اللائقة من قلوبنا وعقولنا .. ولم تفرض رسالتها في التوجيه والخلق .. ومن تم هذا التخلخل في الكيان القومي ، والقلق والغموض في المشاعر الفردية .. فنحن شعب يعيش عالة على الانتاج الثقافي للدول الاخرى .. للاوربيين والروسيين والامريكيين ، ولاخواننا العرب، ولكننا لانعثر على ادب يعكس صورة مجتمعنا . ويساعدنا على فهم ذواتنا .. هناك نشاط ثقافي اذا تجاوزنا في استعمال اللفظة ، ولكنه نشاط متهافت ، سريع ، قلما يخلف اثرا عميقا .. وكلنا شاعرون بالازمة ، واكثرنا من التحدث عن اسبابها وظروفها .. ولكننا لم نقم بعد بأي عمل منظم لاذابة الجليد .. فلا غرابة ان يكون حصادنا الثقافي لهذه السنة هزيلا .. واخشى أن نظل كذلك الى ما شاء الله ...

مسرحية المرأة المتوحشة أو مخاض شعب

تعرض حاليا بباريس مسرحية «المرأة المتوحشة» للاديب الجزائري « كاتب ياسين » .. والحديث عن هذه المسرحية يستلزم وقفة طويلة عند هذا الكاتب الفني .. فهو ينتسب الى « جيل المأساة » من ابناء الجزائر .. لم يلتحق بالمدرسة الا في سن متأخرة ، ولم يتلق دراسة منظمة ، بل اضطر الى الانغمار في عباب المجتمع لكسب قوته ، ثم هاجر الى فرنسا حيث تفاعل مع الحركة التقدمية ، واختمرت في نفسه « المأساة » فأخذ يبحث عن شكل ادبي يسجل من خلاله مشاهدته وتجاوبه مع المعركة ..

وفي البداية نظم « كاتب ياسين » الشعر ، ولكنه سرعان ما تخلى عنه مؤقتا ليكتب رواية بعنوان « نجمة » . وهذه الرواية اثارت انتباه النقاد الى موهبته ، ونزوعه الابتكاري . فكتبوا عنها مقالات تحليلية ضافية ، واجمعوا على ان « نجمة » لا تخضع للنمط الروائي المعروف ، بل هي بحث عن تكنيك قصصي جديد يجمع بين الشعر والنثر ، وبين الواقعية والرمز ..

ولكن الطاقة الشعرية لكاتب ياسين لا تلبث ان تلح عليه ، فيعود ليفسح لها المجال في شكل جديد هو القالب المسرحي .. فقد كتب مسرحية « الجثة المحاصرة » **«Le cadavre encerclé»** مثلت على بعض المسارح في بلجيكا وفرنسا .. والظاهرة اللافتة في انتاج هذا الاديب هو ان موضوعاته جميعها تنبع من

المغرب وبقدم آراء وحلولا يجعل التعليم مماشيا لتطور الانساني العام وممثلا لقيمنا الفكرية الاجتماعية .

* سافر الاستاذ عبد الله كنون الى مصر لحضور مؤتمر المجمع اللغوي العربي ولالقاء سلسلة من المحاضرات عن الادب المغربي فى معهد الدراسات العربيه العالية التابع للجامعة العربية .

* سيقوم المجمع العلمي العراقي باعادة طبع خريطة الادريسي التي سبق للمجمع ان قام بتحقيقها منذ بضع سنوات .

* تأسست فى الجزائر جمعية وطنية للنساء العربيات ترمي الى السهر على تكوين وتطوير النساء الجزائريات وقد انتخبت البطلة الجزائرية جميلة بوحريد رئيسة شرفية لهذه الجمعية ، بينما انتخبت السيدة خديجه خيضر فى منصب خليفة لها ، وقد اجرى هذا الانتخاب اثناء الدورة النهائية للمجلس الوطني التأسيسي .

* يقوم الاستاذ خالد الحلبي باعداد دراسة ادبية موسعة عن « الجزائر فى الشعر العراقى » .

* قدم الكاتب التونسي محمد الحلوى للطبع مجموعة احاديث عن الادب التونسي بالاضافة الى رسائل ابي القاسم الشابي .

* يعتزم الاستاذ ابو القاسم كرو اصدار مجلة ثقافيه ترعاها جامعة بتونس باسم « الثقافة » .

* « فاس ، جنة الدنيا » عنوان كتاب جديد لمؤلفه محمد المرزوقي أصدرته مكتبة الخانجي بمصر ، ومكتبه المثنى ببغداد ، والكتاب يبحث فى تاريخ فاس .

* سيعقد فى شهر ابريل القادم بتونس مؤتمر وكالات الانباء يحضره مندوبون من حوالي ثلاثين بلدا افريقيا تحت اشراف منظمة اليونيسكو للبحث فى تطوير وكالات الانباء فى افريقيا وغيرها من الاقطار .

* زار تونس الاستاذ عادل الغضبان المستشار الثقافي لدار المعارف بمصر والقى هناك عدة محاضرات بمختلف النوادي الثقافية التونسية .

* صدرت فى تونس مجلة « الالهام » وهي خاصة بالقصة .

* « موسى الكليم » لمؤلفها الهادي نعمان ، مسرحية صدرت أخيرا فى تونس .

* أصدر الاديب الليبي محمد عبد السلام رواية « الايدي الخشنة » .

* يشتغل الاستاذ محمد فريد ابو حديد فى وضع تخطيط شامل للتعليم بليبيا .

فى القاهرة حوار متواصل حول كتاب « فلسفة تاريخ محمد » للاستاذ محمد جميل بيهم يدور بين السادة العلماء والاساتذة . برز هذا الحوار مذ صدر مقال الاستاذ محمود الشرقاوي فى عدد اكتوبر 1962 بمجلة الازهر ، وهو قد قرظ هذا الكتاب ونقده . وعلق عليه فى نفس العدد الشيخ عبد الرحيم فودة.

وفى العدد التالي للمجلة دار نقاش بين الاستاذ الشرقاوي والشيخ فوده ورافقه تعقيب للشيخ محمد سعاد جلال ، ورد للاستاذ محمد عبد القوي تناول فيه الشيخ ابراهيم فوده .

وقد شاء الاستاذ عبد الرحيم القناوي ان يكون له كلمة فى هذا الحوار فنشر فى عدد ديسمبر 1962 بمجلة الازهر تعقيبا واقتراحا . ولا ندري من بعد اذا كان هذا الحوار قد انتهى ام سيستمر باشتراك آخرين فيه ، ولكن الذى لا ريب فيه أن كتاب الاستاذ بيهم جدير بهذا الاهتمام .

* لاول مرة ادخلت اللغة الفرنسية للتدريس بها فى جامعة الخرطوم ، ويتوقع ادخال اللغتين الالمانية والروسية فى نفس الجامعة .

* قامت دار المعارف بالقاهرة باعادة طبع كتاب « جمهرة النسب » لابن حزم الاندلسي بتحقيق الاستاذ هارون .

* يقوم الاستاذ محمد عبد الله عنان بتكملة موسوعته الكبرى فى تاريخ الاندلس ، وسيصدر له قريبا الجزء الاخير الذي يبحث فى الموحدين والمرابطين .

أنباء ثقافية

* عين صاحب الجلالة الملك الاستاذ عبد الوهاب بن منصور في منصب مؤرخ الدولة وسيواصل الاستاذ ابن منصور القيام باشغاله العادية بالديوان الملكي الى جانب منصبه الجديد .

* علم ان جلالة الملك تبرع بمبلغ عشره ملايين فرنك لاعادة تحويل جامع الباي بقسطنطينة الى صبغته الاسلامية، وقد كان هذا المسجد وهو من افخم مساجد القطر الشقيق قد حوله الفرنسيون خلال حكمهم الى كندرائية . وسيخصص قسم من التبرع الملكي لشراء مصاحف قرآنية وكتب دينية ، تحبس على المسجد المذكور باسم جلالة الملك المرحوم محمد الخامس .

* تراس جلالة الملك المعظم دروسا في التفسير والحديث خلال شهر رمضان المعظم . وقد شارك فيها علماء من المشرق الى جانب علماء المغرب .

* احيت الامة المغربية يوم الثلاثاء 10 رمضان الذكرى الثانية لوفاة المغفور له جلالة الملك محمد الخامس ، والقيت بهذه المناسبة أمام جلالة الملك قصائد شعرية واحاديث وأمداح دينيه .

* صدر عن مطبعه القصر الملكي كتاب (نظم السلوك ، في ذكر الانبياء والخلفاء والملوك) نظم الشاعر المريني عبد العزيز الملزوزي وتحقيق الاستاذ عبد الوهاب بن منصور

* نطبع (دار الكتاب اللبناني) ببيروت كتاب « الحسن الثاني ملك المغرب » تأليف الكاتب الانجليزي روم لاندو ، تعريب الدكتور عمر فروخ .

* صدر عن المجمع العلمي العربي بدمشق كتاب «النفس» لابن باجة

* تبرع جلالة الملك الحسن الثاني بالف مجلد على مكتبة جامعة الجزائر ، ويعاد الى الذاكرة ان الفرنسيين احرقوا 600 الف مجلد من كتبها في العام الماضي

* صدر ظهير شريف بانشاء جامعة القرويين واسندت عمادة هذه الجامعة الى السيد عبد السلام الفاسى رئيس مكتب الابحاث والارشادات بالقصر الملكي .

* حضر مشروع ظهير شريف بانشاء مجمع علمي مغربي تطلق عليه اسم (مجمع محمد الخامس).

* شرعت المطبعة الملكية في طبع الجزء السابع من كتاب (انبعاث امة) .

* الاستاذ محمد الامين محمد عضو البعثه الثقافيه العربية ، واحد كتاب مجلتنا ، عاد اخيرا من اسبانيا بعد ان حصل على درجة الدكتوراة في الادب العربي من جامعة مدريد بامتياز ، وكان موضوع رسالته : « ابن السيد البطليوسي — حياته ومؤلفاته » .

واسره المجلة تهنىء الاخ محمد الامين وتتمنى اه اطراد التوفيق والنجاح .

* قدم للطبع الاستاذ محمد العربي الخطابي، كتابا عن التعليم يتناول مشكلة التربية والتعليم

* صدرت فى القاهرة مجموعة قصص « الغرباء » للاستاذ حافظ رجب ، قدم لها الدكتور عبد القادر القط .

* عين الدكتور محمود قاسم الاستاذ بكلية دار العلوم عميدا للكلية المذكورة .

* خلال هذا العام يفتتح بالقاهرة المعهد العالي للتكنولوجيا بحلوان قرب القاهرة .

* انتهى ابو الوفاء المراغي مدير مكتبة الازهر من اعداد كتاب عنوانه « المعجم الاصفر فى تراجم مؤلفات علماء الازهر » .

* « مديحة » مجموعة قصص صدرت أخيرا بالقاهرة لعباس خضر .

* صدر للمستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس العضو المراسل لمجمع اللغة العربية بالقاهرة كتاب : « مختارات من الادب العربي » منذ العصر الجاهلي الى العصر الحاضر .

* قررت لجنة الترجمة فى مجلس الفنون بالقاهرة اصدار كتاب « قضايا الانسان فى المسرح المعاصر » للدكتور عز الدين اسماعيل .

* بدأت « مؤسسة التأليف والنشر » بالقاهرة فى تنفيذ مشروعها الخاص باصدار طبعات شعبية من الموسوعات العربية ، وكتابها الاول الذي ستصدره هو : « عيون الاخبار » لابن قتيبة .

* يعد المجلس الاعلى للفنون والآداب بالقاهرة كتابا عن الفائزين بجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية فى الفنون والآداب لهذا العام ، والكتاب سيتضمن سردا لحياتهم واعمالهم الادبية والفنية وتأثيرهم فى حياتهم الثقافية .

* تصدر فى الشهر القادم بالقاهرة مجموعة قصص قصيرة لجمال ربيع بعنوان «الليلة الاخيرة»

* الدكتور محمد غنيمي هلال تقدم بكتابه « المدخل الى النقد الادبي الحديث » لنيل جائزة الدولة التشجيعية فى النقد الادبي .

* « ياطالع الشجرة » آخر مسرحية الفها توفيق الحكيم ، وقد اجمع نقاد العرب باستثناء الدكتور القط على أن هذه المسرحية فتح جديد فى ادب المؤلف وفى الادب العربي .

* آخر كتاب صدر للاستاذ العقاد : « التفكير فريضة اسلامية » .

* تستعد الجمهورية العربية للاحتفال بالعيد الالفي لمدينة القاهرة .

* صدر الجزء الاول من دراسة « الخنساء فى مرآة عصرها » للاستاذ اسماعيل القاضي .

* أصدرت دار الكرنك فى القاهرة ديوانا جديدا للشاعر علي الحلبي اسمه « طعام المقصلة » بتقديم الاستاذ هلال ناجي .

* نال بعض اعلام الصحافة والفن والادب بالجمهورية العربية المتحدة تقدير الدولة ، فمنحهم الرئيس جمال عبد الناصر وسام الاستحقاق من الدرجة الاولى وهم السادة والسيدات : احسان عبد القدوس ، احمد بهاء الدين ، امينة السعيد ، الدكتور حسين فوزي ، حلمي سلام ، محمود تيمور، نجيب محفوظ ، يوسف السباعي .

* احرز الدكتور محمد مندورعلى جائزة الدولة التشجيعية عن كتاب « المسرح النثري » .

* تعاقدت الكاتبة السورية كوليت الخوري مع احدى دور النشر ببيروت على اعادة طبع روايتيها « ايام معه » و « ليلة واحدة » .

* انتهى الشيخ عبد العزيز العلايلي من اعداد الجزء الثالث من معجمه وسيطبع هذا المعجم على غرار معجم المنجد .

* اعادت المكتبة الاهلية بلبنان طبع كتاب « دراسات فى فقه اللغة » تأليف الدكتور صبحي الصالح .

* صدر فى الايام الاخيرة الجزء الرابع من دائرة المعارف اللبنانية التي يشرف عليها الدكتور فؤاد افرام البستاني .

* دعا المجلس الاعلى للعلوم بالقاهرة ستة علماء بارزين فى بريطانيا وتشيكوسلوفاكيا والمانيا الغربية للحضور الى القاهرة للمساهمة مع العلماء العرب فى تنفيذ بحوث الخطة العلمية للجمهوريةالعربية المتحدة .

* سافر عميد كلية الفلسفة والآثار فى جامعة مدريد الدكتور سلفادرو كوميس الى القاهرة لدراسة وثائق ومخطوطات المسلمين الذين حكموا اسبانيا فى العصور الوسطى .

* اعد الاستاذ محمود تيمور كتابا جديدا للطبع هو « افانين » يضم طائفة من البحوث فى الادب واللغة»

* ستقوم وزارة الثقافة بالقاهرة باصدار كتاب « المعجم الكبير للالفاظ العالمية » للعلامة احمد تيمور الذي قام بتحقيقه الدكتور عبد الحميد يونس .

* قصة « ابراهيم الكاتب » للمازني ، ترجمها الى الانجليزية الدكتور مجدي وهبة ، وراجعها جونز .

* وافقت لجنة الفنون الشعبية برآسة الدكتور عبد العزيز الاهواني على طبع كتاب خيال الظل وتمثيليات بن دانيال ، لابراهيم حمادة .

* شيخ الازهر محمود شلتوت بقرأ فى هذه الايام سيناريو ووثائق ومستندات فيلم يتناول انتاجه حياة النبى محمد (ص) . طلب مؤلفه الايراني زين الدين راهناما الذي يقيم فى لندن ، من شيخ الازهر ان يراجعه ويحقق وقائعه التاريخية ويصحح ما يحتاج منها الى تصحيح قبل عرضه .

* مجلس الآداب والفنون يقوم بمشروع لتعبئة روائع الشعر العربي فى اسطوانات باللغات الاجنبية ، بدأ المشروع بتعبئة قصيدتي «النيل» و «مجنون ليلى» لشوقي باللغة الايطالية .

* ترانيم الليل » عنوان الديوان الثالث الذي صدر للشاعر على الجندي .

* بمناسبة اقامة مهرجان الشاعر احمد محرم بمحافظة البحيرة قرر المحافظ طبع « الالياذة الاسلامية » الذي كتبها احمد محرم .

* « الادب القبطي » القديم والحديث كتاب جديد اصدره محمد السيد كيلاني يضم دراسة وترجمة لمشاهير شعراء الاقباط .

* « المساء الاخير » مجموعة من النثر الفنائي و « لغة الحوار العالمية والفصحى » ودراسات فى الادب العربي المعاصر » ثلاث كتب تصدر قريبا ليوسف الشاروني .

* قامت احدى مكاتب القاهرة باعادة طبع كتاب « الام » للامام الشافعي عن نسخة بولاق .

* الدكتور محمد صبري السربوني انتهى من كتابة بحث تأريخي جديد عن « عرب الكونفو » تشرف على تاليفه جامعة ليبزيج .

* أقامت رابطة الاخوة بين تونس والجمهورية العربية المتحدة بمدينة الاسكندرية مهرجانا شعريا بمناسبة الذكرى الثامنة لثورة الجزائر ، اشترك فيه عشرون شاعرا وحضرها نخبة من رواد الادب فى العالم العربي .

* يعكف الاستاذ محمود تيمور على كتابة مسرحية جديدة بعنوان « طارق بن زياد » .

* سيقام للدكتور علي ابراهيم تمثال فى حديقة كلية الطب بالقاهرة .

* احرز الدكتور عاطف السيد الخبير فى معهد التخطيط القومي بالقاهرة على جائزة حكومة فرنسا عن احسن رسالة دكتوراة دولة يتقدم بها اجنبي عام 1961 ، وقد سافر الدكتور المذكور الى باريس لتسلم الجائزة فى احتفال رسمي ، والرسالة التي كان يقوم بها موضوعها « دراسة الضريبة المصرية كعامل من عوامل النمو الاقتصادي والاصلاحات اللازمة » ، وقد نالها بتقدير ممتاز .

* انهت الدكتورة نوال السعداوي من الترجمة العربية لرواية « الشجرة تنمو فى بروكلن » للكاتبة الامريكية ، بتيني سميث ، وستصدر قريبا فى القاهرة .

* مسرحية الليلة الثانية عشرة لشيكسبير ، انتهى عباس يونس من ترجمتها وقدمها الى مجلس الاداب والفنون بالقاهرة .

« نخبة الدهـر فى عجائب البر والبحـر » من تأليف الشيخ شمس الدين أبي طالب الانصاري المعـروف شيـخ الربوة الدمشقي عن النسخة المطبوعـة فى لينينغراد سنـة 1923 باعتنـاء المستشرق الروسي مهريـن .

* صدر عن منشورات دار البصري ببغـداد كتـاب « عنوان المجد فى بيان احوال بغداد والبصرة ونجد » لمؤلفه العلامة ابراهيم فصيح بن السيد صبغة الله بن الحيدري البغدادي الذي كتبه سنة 1286 هـ.

* يصدر فى كربلاء الجزء الاول من كتـاب « الوصول الى كفاية الاصول » للعلامة السيد محمـد الشيرازي وهو شرح لكتاب « كفاية الاصول » لآية الله العظمى الشيخ محمد كاظم الخرساني .

* « الكندي خالـد بفلسفتـه » عنـوان كتـاب لمؤلفه الفيلسوف الزنجانـي .

* انتهت دار العلم للملاييـن من طبـع كتابيـن جديدين بمناسبة مهرجـان بغداد والكندي ، أولهمـا للدكتور صلاح الدين المنجد عن « تاريخ الحركـات التقدمية فى بغداد والعراق » وثانيهما للدكتور عمـر فروخ بعنـوان : « حياة الكندي وفلسفتـه » .

* الدكتور أكرم فاضل انتهى من ترجمة كتـاب المستشرق الفرنسي الراحل لويـس ماسينيـون « تعليمات على لهجة بغداد الدارجـة » .

* « الكندي فيلسوف العرب » عنوان الكتـاب الذي قام بتأليفه الاستاذ محمد كاظم الطريحي .

* قام يوسف عبد المسيـح ثروت بترجمـة مسرحيـة « الحلقة المفرغة » لبول سارتر الى اللغة العربيـة .

* سيصدر فى بغداد الجزء الاول من معجم اللغة العامية البغدادية فى الاسبوع المقبل لمؤلفـه الشيـخ جـلال الحنفـي .

* مجلة « الافق الجديد » التي تصدر فى القدس اصدرت عددا خاصا ممتازا عن « القصة » .

* « ما اقل الثمن » مجموعة قصص صـدرت حديثا للكاتب الاردنـي محمود سيف الدين الايراني.

* « النغم الاول » عنوان الديوان الذي اعـده للطبع الشاعر السعودي علي مهدي الشنواح .

* الشيخ ابراهيم العبد المحسن آل عبيـر اعـد مؤلفا تاريخيا هاما يقع فى خمسة اجزاء كل جزء يشتمل على 360 صفحة وسيباشر طبعـه فى جدة فى الايـام القريبـة .

* تقرر انشاء كلية للطباعة بجامعة الملك سعـود بالريـاض .

* « نظرات أدبية » كتاب اعده للطبـع الاستـاذ علي مهدي الشنواح سكرتير تحرير مجلة « قريش »

* ستعد جامعة لينينغراد لعقد مؤتمر للدراسات العربية – على غـرار مؤتمر الدراسات الايرانية – فى العام الماضي تحضـره وفود البلدان من العلماء .

* يقوم الاستاذ توفيق فقيس عضو المعهـد الشرقـي بسرايفو بيوغوسلافيـا بوضع القامـوس العربـي اليوغوسلافي .

* توفى فى الايام الاخيرة فى موسكو العالـم السوفييتي الكسندر توشيف نائب رئيس اكاديميـة العلوم السوفييتية عن 55 سنـة .

* صدر أخيرا فى موسكو كتاب «الناس والحياة» لصاحبها ايليا هرنبورغ مشتملا على مذكراته عـن موقفه من العالم والمصيـر الانسانـي .

* بدأ العمل فى موسكو لانشاء مكتبـة ضخمـة للانتاج الادبـي فى الدول الاجنبية ، وستضم 4 ملايين من الكتب بأكثر من مائة لغـة .

* احتفلت الاوساط الادبية الفرنسية بمـرور 10 سنـوات على وفاة الشاعر الكبير بول ايوار .

* صـدر حديثـا كتـاب « حكـم الاسـلام فى الاشتراكيـة » من تاليف الاستاذ عبد العزيز البدري وتقديـم الشيـخ امجـد الزهـاوي .

* يصدر قريبا لساطع الحصري كتاب بعنوان « آراء واحاديث فى التربية » .

* سيصدر قريبا لمطاع صفدي كتاب « الايديولوجيات الثورية » يتحدث فيه عن الماركسية ، والوجودية والثورية العربية .

* اصدرت وزارة الثقافة بدمشق الترجمة العربية لكتاب «الراي العام » لمؤلفه الفريد سوفي.

* قدمت وزارة الثقافة بدمشق كتاب « الصبي الاسود » لمؤلفه ريتشارد درايث والذي قام بترجمته الى العربية سهيل ايوب .

* « مقالات » كتاب جديد صدر للدكتور علي جواد الطاهر يتضمن مجموعة من المقالات والخواطر والنقد .

* صدر ديوان « شرر اللهيب » للشاعر زهير غازي زاهد بتقديم صفاء خلوصي .

* اصدر الشاعر صفاء الحيدري ديوانا بعنوان « قنوط » .

* انتخب الاستاذ الدكتور ناجي الاصيل رئيسا للمجمع العلمي العراقي .

* « فهمي المدرس رائد الفكر العربي » عنوان الكتاب الذي صدر مؤخرا للدكتور ناجي الاصيل .

* « الانتظار والمطر » مجموعة قصص صدرت فى بغداد من تأليف موفق خضر .

* أعد الاستاذ اسماعيل القاضي للطبع كتابا فى عدة اجزاء عنوانه « الخنساء » يشتمل على دراسة وافية للمرأة العربية .

* « آمال خائبة » كتاب صدر فى بغداد لعبد الوهاب الكيلاني .

* صدرت فى بغداد قصة للاستاذ طارق عيسى حسن تحت عنوان « ايام فى القرية » .

* قدم للطبع الدكتور مصطفى جواد مجموعة احاديث عنوانها « قل ولا تقل » .

* « عجلة لا ترحم » مجموعة قصص صدرت فى بغداد من تأليف محمد جودي محمد .

* سيفتح فى جامعة بغداد معهد للصحافة يكون تابعا لكلية الآداب .

* « الغلو فى الاسلام » عنوان الكتاب الذي صدر فى بغداد للدكتور علي الوردي .

* « نداء الفجر العربي » مسرحية صدرت فى بغداد لمؤلفها عبد الباقي السعدي .

* اعلن فى بغداد ان منظمة اليونيسكو قبلت الاقتراح الذي تقدم به العراق لاقامة مهرجان للموسيقى العربية فى بغداد سيستغرق ثلاثة اشهر ابتداء من شهر فبراير من العام القادم . ويهدف المهرجان الذي سيستدعى اليه اعلام الموسيقى الغربية والشرقية الى تسجيل تطور الموسيقى العربية من اقدم العصور حتى اليوم والتعرف الى العوامل التي اثرت فيها .

* « الكندي الرائد الاول للفلسفة الاسلامية » عنوان الكتاب الذي سيصدره فى هذه الايام الاستاذ محمد بحر العلوم .

* صدر عن مكتبة المثنى ببغداد كتاب « فهرست ابن خير الاشبيلي » من تأليف العلامة محمد بن خير ابن عمر بن خليفة المتوفى سنة 575 هجرية ، وقد تم طبع هذا الكتاب عن الاصل الذي نشره المستشرق الاسباني كوديرا بسرقسطة .

* انجزت مطبعة المجمع العلمي العراقي المجلد الثاني من كتاب « تاريخ الادب العربي فى العراق » لمؤلفه الاستاذ عباس العزاوي .

* تباشر مكتبة « المثنى » ببغداد طبع كتابين هما « الانساب المتفقة فى الخط المتماثلة فى النقط والضبط » من تاليف الشيخ الامام ابن الفضل طاهر بن المقدس المعروف بابن القبسراني باعتناء المستشرق الهولندي دبونك المطبوع فى ليدن سنة 1765 وكتاب

1963

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

دها وزارة عموم الأوقاف
رباط المغرب الأقصى



العدد السادس - السنة السادسة
شوال 1382 - مارس 1963
ثمن العدد .. 1,50 درهم

فهرس العدد الرابع ـ السنة السادسة

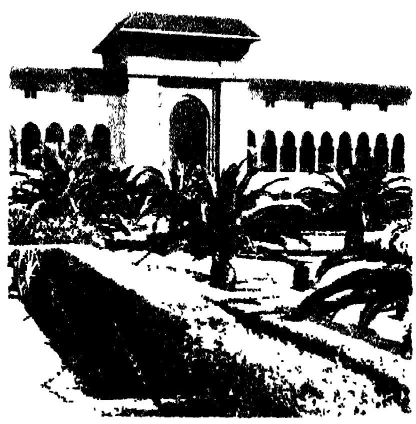
العدد السادس
السنة السادسة
شوال 1382
مارس 1963
ثمن العدد 50، درهم

دعوة الحق

مجلة تصدرها
وزارة
عموم الأوقاف

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف . الرباط - المغرب

صورة الغلاف



قصر العدالة بمدينة الدار البيضاء

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :

مجلة « دعوة الحق » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الأوقاف ـ الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 15 درهما ، والشرفي 30 درهما فأكثر .

السنة عشرة أعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :

مجلة « دعوة الحق » رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :

مجلة « دعوة الحق » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الأوقاف ـ الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة . والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية . وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :

« دعوة الحق » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الأوقاف ـ الرباط
تليفون 308.10 ـ 327.03 ـ الرباط

دراسات إسلامية

رأي في تحديد النسل والعدوى

للدكتور: تقي الدين الهلالي

(*) طالما هممت ان اكتب مقالا وافيا في هذه المسألة ، وقد سئلت عنها كثيرا في العراق وفي المغرب وفي المانيا قبل ذلك ، فلم تزل كثرة الاشغال المتراكمة تدافعني حتى جاءني السؤال المتقدم ذكره من تلميذي العزيز المذكور . فها أنا ذا اكتب هذه الفتوى بعد الاطلاع على احوال العصر واهله في اوربا وآسيا وافريقيا وارجو أن يوفقني الله الى اصابة شاكلة الصواب . وسأبدأ اولا بنقل كلام المتقدمين ، ثم أعود عليه بالنخل والتحليل والتصفية حتى يظهر الحق من بين اخلافهم عسلا صافيا خالصا من الشمع ولبنا سائغا للشاربين . وما ذلك بعزيز على من لايخيب السائلين .

قال الامام الشوكاني في نيل الاوطار ، ممزوجا مع متنه من كتاب المنتقى (باب ما جاء في العزل ص 208 ج 6)

1) عن جابر قال : كنا نعزل على عهد رسول الله (ص) والقرآن ينزل) متفق عليه . ولمسلم (كنا نعزل على عهد رسول الله (ص) فبلغه ذلك فلم ينهنا)

2) وعن جابر : (ان رجلا اتى النبي (ص) فقال · أن لي جارية هي خادمتنا وسانيتنا في النخل وانا أطوف عليها واكره أن تحمل ، فقال : (اعزل عنها ان شئت فانه سيأتيها ما قدر لها) رواه احمد وابو داود ومسلم .

3) وعن ابي سعيد قال ، خرجنا مع رسول الله (ص) في غزوة بني المصطلق فأصبنا سبيا من العرب ، فاشتهينا النساء واشتدت علينا العزبة واحببنا العزل ، فسألنا عن ذلك رسول الله (ص) فقال : (ما عليكم أن لا تفعلوا فان الله عزوجل لو أراد ان يخلق شيئا لم يستطع احد ان يصرفه) رواه احمد وابو داود .

4) وعن ابي سعيد قال : قال رسول الله (ص) : (في العزل أنت تخلقه ، أنت ترزقه ، ؟ أقره قراره فانما ذلك القدر) رواه احمد .

5) وعن اسامة ابن زيد ، ان رجلا جاء الى النبي (ص) فقال : اني اعزل عن امرأتي ، فقال له النبي (ص): (لم تفعل ذلك ؟ فقال الرجل : اشفق على ولدها ، او على اولادها ، فقال رسول الله (ص) لو كان ضارا ضر فارس والروم) رواه احمد ومسلم

6) وعن جذامة بنت وهب الاسدية قالت : حضرت رسول الله (ص) في اناس وهو يقول : (لقد هممت ان انهى عن الغيلة ، فنظرت في الروم وفارس فاذا هم يغيلون اولادهم ، فلا يضر اولادهم شيئا ، ثم سألوه عن العزل ، فقال رسول الله (ص) : ذلك الوأد الخفي — واذا الموؤدة سئلت) رواه احمد ومسلم

(*) جاءني السؤال التالي من تلميذي حازم طه الموصلي الطالب في كلية اللغة العربية في الازهر ، وهذا نصه : استاذي العزيز ، اني اعلم كل العلم ان وقتك ضيق واشغالك كثيرة ، ولكني اجد نفسي مضطرا لأسألك واطلب ابداء رايك في موضوع حصل له ضجة كبيرة هذه الايام ، وكتب الصحفيون عنه كثيرا من غير فقه وهدى من الكتاب والسنة ، وهو تحديد النسل، فهل يجوز ام لا . وان كان جائزا فما هي الاسباب التي تجوزه . فارجو ان تطنب باجابتك على نمط مقالك العظيم الذي نشرته في مجلة الهدي النبوي بعنوان : الجهاد روح الدين .

المملكة المغربية

وزارة التربية الوطنية
والشبيبة والرياضة

الخزانة العامة
للكتب والمستندات بالرباط

رقم التسجيل 794 خ. ع.
الموضوع : ارسال مجلة
دعوة الحق

الحمد لله وحده

الرباط في 22 يونيو سنة 1963

من محافظ الخزانة العامة للكتب والمستندات بالرباط

الى السيد رئيس المجلس الهندي للروابط الثقافية
بدلهي الجديدة

ورقة الارسال

الرقم الترتيبي	نوع المراسلات وتلخيص موضوعها	عدد المرفقات	ملاحظات
1)	مجلة دعوة الحق العدد 6 مارس 1963	1	

المرجو منكم ارجاع هذه الورقة بعد التوقيع عليها

الامضاء : ....

.... في 19

...ه بعضا فانه يعمل بـه وهـو هنـا كذلك والجمع ...كن . ورجح ابن حزم العمـل بحديث جذامـة بأن ...حاديث غيرها موافقة لاصل الاباحة ، وحديثها يـدل ...ى المنع . قال ، فمن ادعى انه ابيح بعد أن منع فعليه ...بيان . وتعقب بأن حديثها ليس بصريح فى المنع ، اذ ... يلزم من تسميته وأدا خفيا على طريـق التشبيه أن ...كون حراما . وجمع ابن القيم فقال ، الذي كذب فيـه ...صلى الله عليه وسلم اليهود هـو زعمهـم أن العـزل ... يتصور معه الحمل اصلا وجعلوه بمنزلة قطع النسل ...بالوأد فاكذبهم ، واخبر انه لا يمنع الحمل اذا شاء اللـه ...خلقه ، واذا لم يرد خلقه لم يكن وأدا حقيقة . وانمـا ...سماه وأدا خفيا فى حديث جذامة ، لان الرجل انمـا ...يعزل هربا من الحمل فأجـرى قصده لذلك مجـرى الوأد . لكن الفرق بينهمـا أن الوأد ظاهـر بالمباشـرة ...اجتمع فيه القصد والفعل . والعزل يتعلـق بالقصـد ...فقط . فلذلك وصفه بكونه خفيا ، وهذا الجمع قوي . ...وقد ضعف أيضا حديث جذامة ، اعني الزياده التي فى آخره بانه تفرد بها سعيد بن ابي ايوب عن ابي الاسود. ...ورواه مالك ويحيى بـن ايـوب عن ابي الاسـود فلـم ...يذكراها . وبمعارضتها لجميع احاديث الباب . وقـد ...حذف هذه الزيادة اهل السنن الاربع . وقد احتـج ...بحديث جذامة هذا من قال بالمنع من العزل كابن حبان. ...قوله اشفق على ولدها) هذا احد الامور التي تحمـل ...على العزل . ومنها الفرار من كثرة العيال والفرار من ...حصولهم من الاصل . ومنها خشية علوق الزوجة الامة ...لئلا يصير الولد رقيقا . وكل ذلك لايغني شيئا لاحتمال ...ان يقع الحمل بغير الاختيار . (قوله ان أنهى عن الغيلة ...بكسر الغين المعجمة بعدها تحتية ساكنة ، ويقـال لها ...الغيل بفتح الغين والياء . والغيال بكسر الغين المعجمة، ...والمراد بها ان يجامع امرأته وهي مرضع . وقـال ابن ...السكيت . هي ان ترضع المرأة وهي حامل ، وذلك لمـا ...يحصل على الرضيع من الضرر بالحمل حال ارضاعه ، ...فكان ذلك سبب نهيه صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لما راى النبي (ص) ان الغيلة لا تضر فارس والروم ترك النهي عنهـــا .

بحث فيما تقـدم وفيـه مسائـل

الاولى ، تعارضت الاحاديث فى النهي عن العزل ، وهو منع المني عند الجماع ان يصل الى رحـم المـرأة خوفا من ان تحمل ، فترتب على ذلك اختلاف الصحابة فمن بعدهم . الثانية ، انقسم الناس فى هذه القضيـة ثلاثة أقسام ، قسم منعوه مطلقا ، ومن هذا القسم مـن قيد المنـع بالحرائـر واباحه فى الامـاء السـريات ، اي الموطوءات بملك اليمين . وقسم اباحوه . وقسم قالوا بكراهة التنزيه ، يعنون ان من تركه اثيب على تركـه ، ومن فعله لم يأثـم . واهل هذا القسم ارادوا الجمـع بين الاحاديث ، فحملوا النهي على كراهة التنزيه ، وما ورد فى الاباحة اثبتوا به حكمها . ومن المانعين من ادعى نسخ احاديث الاباحة . ومن المبيحين من عكس فادعى نسخ ما ورد فى النهي . الحديث الاول عن جابر ، (كنا نعزل على عهد رسول الله والقرآن ينزل) متفق عليه . ولمسلم ، (كنا نعزل على عهد رسول الله فبلغـه ذلك فلم ينهنا) . لا حجة فى هذا الحديث للقائلين بالاباحة لثبوت النهي عن النبي (ص) من وجـه صحيـح كمـا سياتي . ومن سمع حجة على من لم يـسمع متى بلغـه ذلك .

الثاني عن جابر ايضا ، أن رجلا اتى النبي (ص) فقال ، ان لى جارية هي خادمتنا وسانيتنا فى النحل وانا اطوف عليها واكره أن تحمل ، فقال ، (اعـزل عنها ان شئت فانه سيأتيها ما قدر لها) هذا الحديـث ايضـا لا حجة فيه للقائلين بالاباحة المطلقة ، لان السائل أخبر النبي (ص) بأن تلك الجارية كانت خادمة لهم فى البيت وفى النخل ، لانها كانت تسقيه لهم بـدل البعيـر ، لان السانية هي الناقة التي يسقى عليها النخل والارض . فهذا الحديث انما يبيح العزل لسبب وحاجة يلحـق الرجل ضرر كبير اذا فقدها ، فهذه المرأة كانت تخدمهم فى بيتهم وتسقي لهم جنتهم مـن النخيـل فمعيشتهم متوقفة عليها ، ولو حملت لتعطلت عن العمل وتتعطـل بذلك معيشتهم . اضف الى ذلك انهم فقراء ، فربمـا احتاجوا الى بيعها ، ولو حملت لامتنـع بيعها فتكـون الخسارة اعظـم .

الحديث الثالث ، عن ابي سعيد قال ، خرجنا مع رسول الله (ص) فى غزوة بني المصطلق ، فأصبنا سبيـا من العرب ، فاشتهينا النسـاء واشتدت علينا العزبـة وأحببنا العزل ، فسألنا عن ذلك رسول الله (ص) فقال، (ما عليكم ان لاتفعلوا فان الله عز وجل قد كتب ما هو خالق الى يوم القيامة) هذا من احاديث النهي ، الا انه ورد بصيغة مخففة ، زاده بيانا قول النبي (ص) فـان الله قد كتب ما هو خالق الى يوم القيامة ، اي لاتفعلوا فان فعلكم لايرد مشيئة الله . وهذا كقولـه صلى الله عليه وسلم لابي هريرة حيـن استأذنـه فى الاختصاء ، جف القلم بما أنت لاق ، فاختص على ذلك او فذر . . وقريب منه قوله تعالـى : (وما عليك ان لا يزكى) اي

7) وعن عمر بن الخطاب قال : (نهى رسول الله (ص) ان يعزل عن الحرة الا باذنها) رواه احمد وابن ماجه وليس اسناده بذلك .

حديث ابي سعيد الثاني ، اخرجه ايضا الترمذي والنسائي . قال الحافظ ، ورجاله ثقات . وقال في مجمع الزوائد ، رواه البزار وفيه موسى بن وردان وهو ثقة وقد ضعف ، وبقية رجاله ثقات . واخرج نحوه النسائي من حديث جابر وأبي هريرة . وجزم الطحاوي بكونه منسوخا وعكسه ابن حزم . وحديث عمر بن الخطاب في اسناده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف ، ويشهد له ما أخرجه عبد الرزاق والبيهقي عن ابن عباس قال : (نهى عن عزل الحرة الا باذنها) وروى عنه ابن أبي شيبة أنه كان يعزل عن أمته . وروى البيهقي عن ابن عمر مثله . ومن احاديث هذا الباب عن انس عن البزار وابن حبان وصححه ، أن رجلا سأل عن العزل ، فقال النبي (ص) لو ان الماء الذي يكون منه الولد أهرقته على صخرة لاخرج الله منها ولدا ، وله شاهدان في الكبير للطبراني عن ابن عباس ، وفي الاوسط له عن ابن مسعود (قوله كنا نعزل) ، العزل : النزع بعد الايلاج لينزل خارج الفرج . قوله (والقرآن ينزل) :فيه جواز الاستدلال بالتقرير من الله ورسوله على حكم من الاحكام ، لانه لو كان ذلك الشيء حراما لم يقررا عليه ولكن بشرط أن يعلمه النبي (ص) . وقد ذهب الاكثر من اهل الاصول على ما حكاه في الفتح الى أن الصحابي اذا أضاف الحكم الى زمن النبي (ص) كان له حكم الرفع ، قال ، لان الظاهر ان النبى (ص) اطلع على ذلك واقره لتوفر دواعيهم على سؤالهم اياه عن الاحكام ، قال ، وقد وردت عدة طرق تصرح باطلاعه على ذلك .
واخرج مسلم من حديث جابر قال (كنا نعزل على عهد رسول الله (ص) ، فبلغ ذلك نبي الله فلم ينهنا) ووقع في حديث الباب المذكور الاذن له بالعزل ، فقال ، (اعزل عنها ان شئت) قوله ما عليكم ان لا تفعلوا ، وقع في رواية في البخاري وغيره (لا عليكم ان لا تفعلوا) قال ابن سيرين ، هذا اقرب الى النهي . وحكى ابن عون عن الحسن انه قال : والله لكأن هذا زجرا . قال القرطبي ، كأن هؤلاء فهموا من لا ، النهي عما سألوا عنه . فكأنه قال ، لاتعزلوا وعليكم ان لا تفعلوا ويكون قوله (وعليكم) الى آخره تأكيدا للنهي . وتعقب بأن الاصل عدم هذا التقرير وانما معناه ليس عليكم ان تتركوا وهو الذي يساوي ان لا تفعلوا ، وقال غيره ، معنى لا عليكم ان لا تفعلوا ، اي لا حرج عليكم ان لاتفعلوا ، ففيه نفي الحرج عن عدم الفعل . فافهم ثبوت الحرج في فعل العزل . ولو كان المراد نفي الحرج عن الفعل لقال ، لا عليكم ان تفعلوا ، الا أن يدعى ان لا زائده ، فيقال ، الاصل عدم ذلك .

وقد اختلف السلف في حكم العزل . فحكى في الفتح عن ابن عبد البر انه قال ، لاخلاف بين العلماء انه لا يعزل عن الزوجة الحرة الا باذنها ، لان الجماع من حقها ولها المطالبة به ، وليس الجماع المعروف الا ما لا يلحقه عزل . قال الحافظ ، ووافقه في نقل هذا الاجماع ابن هبيرة . قال ، وتعقب بأن المعروف عند الشافعية انه لا حق للمراة في الجماع ، وهو ايضا مذهب الهادوية فيجوز عندهم العزل عن الحرة بغير اذنها على مقتضى قولهم ، انه لا حق لها في الوطء ، ولكنه وقع التصريح في كتب الهادوية بانه لايجوز العزل عن الحرة الا برضاها ، ويدل على اعتبار الاذن من الحرة حديث عمر المذكور ، لكن فيه ما سلف . واما الامة فان كانت زوجة فحكمها حكم الحرة . واختلفوا هل يعتبر الاذن منها أو من سيدها ، وان كانت سرية فقال في الفتح ، يجوز بلا خلاف عندهم ، الا في وجه حكاه الروياني في المنع مطلقا كمذهب ابن حزم ، وان كانت السرية مستولدة فالراجح الجواز فيها مطلقا ، لانها ليست راسخة في الفراش . وقيل حكمها حكم الامة المزوجة . (قوله كذبت يهود) فيه دليل على جواز العزل ، ومثله ما اخرجه الترمذي وصححه عن جابر قال (كانت لنا جوار وكنا نعزل ، فقالت اليهود ، ان تلك المؤودة الصغرى ، فسئل النبي (ص) عن ذلك فقال: (كذبت اليهود لو اراد الله خلقه لم يستطع احد رده) واخرج نحوه النسائي من حديث ابي هريرة ، ولكنه يعارض ذلك ما في حديث جدامة المذكور من تصريحه صلى الله عليه وسلم بأن ذلك الوأد الخفي . فمن العلماء من جمع بين هذا الحديث وما قبله فحمل هذا على التنزيه ، وهذه طريقة البيهقي ومنهم من ضعف حديث جدامة هذا لمعارضته لما هو أكثر منه طرقا . قال الحافظ ، وهذا دفع للاحاديث الصحيحة بالتوهم . والحديث صحيح لاريب والجمع ممكن . ومنهم من ادعى أنه منسوخ ، ورد بعدم معرفة التاريخ . وقال الطحاوي ، يحتمل أن يكون حديث جدامة على وفق ما كان عليه الامر اولا من موافقة اهل الكتاب فيما لم ينزل عليه ، ثم اعلمه الله بالحكم . فكذب اليهود فيما كانوا يقولونه . وتعقبه ابن رشد وابن العربي بأن النبي (ص) لا يحرم شيئا تبعا لليهود ثم يصرح بتكذيبهم فيه . ومنهم من رجح حديث جدامة بثبوته في الصحيح وضعف مقابله بالاختلاف في اسناده والاضطراب . قال الحافظ ، ورد بأنه نقدح في حديث ، لا فيما يقوي

وقال ابن قدامة فى المغني ، ج 7 ص 23 ، فصل (والعزل مكروه) ومعناه ان ينزع اذا قرب الانزال فينزل خارجا من الفرج ، رويت كراهته عن عمر وعلي وابن عمر وابن مسعود ، وروي ذلك عن ابي بكر الصديق ايضا ، لان فيه تقليل النسل وقطع اللذة عن الموطوءة . وقد حث النبي (ص) على تعاطي اسباب الولد ، فقال : تناكحوا تناسلوا تكثروا – وقال: سوداء ولود خير من حسناء عقيم . الا ان يكون لحاجة مثل ان يكون فى دار الحرب فتدعو حاجته الى الوطء فيطأ ويعزل . ذكر الخرقي هذه الصورة ، او تكون زوجته امة فيخشى الرق على ولده . او تكون له امة فيحتاج الى وطئها والى بيعها . وقد روي عن علي انه كان يعزل عن امائه ، فان عزل من غير حاجة كره ولم يحرم ، ورويت الرخصة فيه عن علي وسعد بن ابي وقاص وابي ايوب وزيد بن ثابت وجابر وابن عباس والحسن بن علي وخباب بن الارت وسعيد بن المسيب وطاووس وعطاء والنخعي ومالك والشافعي واصحاب الراي .

قوله ، ولا يحرم فيه نظر ، فان الكراهة فى اصطلاح السلف ، هي فى الغالب للتحريم وخصوصا اذا كانت مبنية على نهي جاء فى كتاب الله او سنة رسول الله ، واخص من ذلك اذا كان ذلك النهي مصحوبا بالوعيد ، فلا يجوز ابدا أن تحمل كراهة من ذكر من الصحابة على التنزيه . وقال الامام ابن القيم فى زاد المعاد ج 4 / ص 16 / ثبت فى الصحيحين عن ابي سعيد قال ، اصبنا سبيا فكنا نعزل . فسألنا رسول الله (ص) فقال ، وانكم لتفعلون ، قالها ثلاثا ، ما من نسمة كائنة الى يوم القيامة الا وهي كائنة .

هذا الحديث ، يعزز احاديث النهي ويزيدها قوة ووضوحا ، لان قوله صلى الله عليه وسلم ، وانكم لتفعلون ثلاث مرات استفهام انكاري ، والتكرار فيه مبالغة فى الانكار ، وما بعده يزيده وضوحا . ثم قال ، وفى مسند احمد وسنن ابن ماجه من حديث عمر ابن الخطاب قال ، نهى رسول الله (ص) ان يعزل عن الحرة الا باذنها . ثم ذكر مثله من رواية ابن داود عن ابي هريرة عن النبي (ص) . قال تقي الدين الهلالي حديث عمر قد تقدم ولم اتم التعليق عليه ، والآن اتمه ، فاقول: فى هذا الحديث تقييد النهي عن العزل عن الحرة ، فهو منع مقيد بشرط ، فمتى اذنت الحرة جاز العزل ، ومتى لم تاذن حرم . ومن نظر فى قواعد الاسلام واصوله وفيما جاء عن النبي (ص) وعن اصحابه فى هذه المسألة لاجد بدا من القول بتحريم العزل الا لسبب . وهذا السبب قد يكون مبيحا للعزل ، وقد يكون موجبا له ، فان علم الرجل والمراة ان الحمل تترتب عليه مفسدة وضرر لاحد الزوجين او لهما جميعا ، او لاولادهما ، وجب عليهما العزل . وان علما انه لا ضرر فى الحمل الا ان فيه مشقة كبيرة لايستطيعان تحملها جاز لهما العزل . ويجدر بي هنا ان اذكر بعض الاسباب التي تبيح العزل او توجبه .

فمما يوجبه ، ان يكون الوطء محرما او شبهة ، ففي هذه الحال يجب العزل ، لان الحمل يغلظ الجريمة ويكون سببا فى ولادة ابن زنى . ولا يخفى ما فى ذلك من الجناية على ذلك المولود والفضيحة لوالديه ولاقاربهما، وقد يقتلانه بعد الولادة او يقتله احدهما ، فتضاف الى جريمة الزنى جريمة هي اعظم منها ، وهي قتل النفس التي حرم الله . ومن ذلك مرض خطير معد يكون الرجل مصابا به او المراة ، كداء السل ، فمما لاشك فيه ان الغالب متى كان احدهما مسلولا انتقل المرض الى الآخر فيسبب له الموت الزؤام بعد مقاساة أعظم الآلام ، فمتى جامع وهو مسلول عالم بالعدوى فقد ارتكب كبيرة من الكبائر ، وان كان جماعه فى الشرع حلالا لما يترتب على ذلك من الكارثة التي تحل بالشخص الآخر . وان كانا مصابين بمرض واحد معد كالسل والجذام وما اشبههما وجب عليهما العزل عند الجماع لئلا يجرا شرا على المولود الذي يرث ذلك المرض من والديه . ومن الامراض ما يوجب العزل ، كداء الربو الشديد اذا اصيبت به المراة فان الحمل يزيدها ضيقا فى التنفس . واما ولادتها فيكون فيها خطر الاختناق لشدة ضعفها وضعف قلبها ورئتها عن تحمل آلام الطلق . فان قيل لا نسلم ان كل انسان يخالط شخصا آخر مسلولا يصاب بالسل ، فقد شاهدنا من تزوج بمسلولة وبقي معها مدة طويلة حتى ماتت ولم يصب هو باذى . فالجواب ان ذلك نادر والنادر لاحكم له . قال ابن الخطيب السلماني فى رسالته مقنعة السائل عن المرض الهائل بعد ما وصف المعركة التي تقع بين جراثيم المرض المعدي وبين قوات الدفاع التي اودعها الله جسم الانسان وغيره من الحيوان ، قال ابن الخطيب ، ان قيل ما معنى الاستعداد الذي يكرر لفظه فى هذا الفرض ووقف عليه كثير من مفهوم العدوى . قلنا ، الاستعداد تهيء شيء لقبول شيء بمناسبته ومشاكلته له حتى يلبس صورته على مسامحة فى هذا التعريف . فاذا اتفق أن يكون المزاج الشخصي قريبا فى عرضه من مزاج الوارد سمي مستعدا لقبوله قبله ومال اليه من غير مدافعة ولا ممانعة كما يثب الزئبق على الذهب لشبهه بنسخه ومناسبته اياه فيغوص فيه ويتحد به ويسري في

ليس عليك زكاته ، اي طهارته من الشرك اذا عدمت فلا حرج عليك فيها فقد ابلغته وبرئت ذمتك ، فدعه واقبل على الاعمى الذي جاءك راغبا مسترشدا . ولا يمكن ان يفهم من هذه العبارة الجواز ابـدا .

الحديث الرابـع ، عن ابي سعيـد قـال ، قالت اليهود ، العزل المؤودة الصغـرى ، فقال النبـي (ص) « كذبت يهود ، ان الله عز وجل لو اراد ان يخلق شيئـا لم يستطع احد ان يصرفه .
يجب تأويل هذا الحديث جمعا بينه وبيـن ما ياتـي ، فأقول وبالله التوفيق : يحمل تكذيب النبي (ص) لليهود على انه لم يكن يعلم في ذلك الوقت ان العزل واد خفي ، ثم اعلمه الله بذلك ، أو على ان تكذيبه لهم لزعمهـم ان العزل يمنع ما اراده الله وقدره من الولد . ويدل علـى ذلك قوله : ان الله عز وجل لو اراد ان يخلقه لم يستطع احد ان يصرفه . فلا حجة فيه على اباحة السعي فـي منع الحمل بلا سبب مبيح لذلك .

الحديث الخامس ، وعن ابي سعيـد قال ، قال رسول الله (ص) في العزل انت تخلقه ؟ انـت ترزقـه ؟ اقره قراره ، فانما ذلك القدر) من الاحاديث الدالة على المنع من العزل ، ولا سيما اذا كان العازل يقصد منـع الحمل خوفا من الفقر وعدم القدرة على النفقـة ، لان المتكفل بالرزق هو الله تعالى ، لا الاب ولا الام ولا ولاة الامور . وقوله عليه السلام ، اقره قراره ، اى دع المني يستقر في قراره الذي جعله الله له ، لان الله هو الخالق الرازق فلا تتدخل فيما لايعنيك ايها الانسان واعـرف قدرك وعجزك عن رزق نفسك فكيف برزق غيرك ؟

الحديث السادس ، عن اسامة بن زيد ان رجـلا جاء الى النبي (ص) فقال ، اني أعزل عن امرأتي ، فقال له صلى الله عليه وسلم ، لم تفعل ذلك ، فقال له الرجل ، اشفق على ولدها او على اولادها ، فقـال رسـول الله (ص) ، لو كان ضارا ضر فارس والروم) . هذا الحديث ايضا من أحاديث المنـع من العـزل مـع ان الرجـل السائل فعل ذلك لسبب وجيه في نظره ، وهو الغيل ، خاف ان تحمل امرأته وهي ترضع فيضر ذلك ولدهـا الرضيع . وفيه فائدة زائدة ، وهي أن النبي (ص) كان يرد الامور التي لم ينزل عليه فيها وحي الى اهل العلم بالاختصاص . وفارس والروم في ذلك الزمان كان لهم علم بالطب واصول حفظ الصحة ، ولم يكن مثل ذلـك للعرب فتعين رد كل شيء الى اهل العلم به . ولا ينافي ذلك كمال النبي (ص) . يفسر ذلك ما ورد في صحيـح مسلم ان النبي (ص) قدم المدينة ، فراى أهلها يلقحون النخل ، فقال ما هذا ؟ قالوا ، شيء نأخذه من ذكـر النخل ونجعله في اناثها يصلح عليه التمر ، فقال ما اراه ينفع . فتركوا التلقيح ، ففسد التمر وصار شيصـا ، فأخبروا النبي (ص) بذلك فقال ، اذا حدثتكـم عن الله فخذوا به ، فاني لا أكذب على الله ، وانتم اعلـم بامر دنياكـــــم .

الحديث السابع ، عن جذامة بنت وهب الاسدية قالت . حضرت رسول الله (ص) في اناس وهو يقول . لقد هممت ان انهي عن الغيلـة ، فنظـرت في الـروم وفارس ، فاذا هم يغيلون اولادهم ، فلا يضر اولادهـم شيئا ، ثم سألوه عن العزل ، فقال رسـول الله (ص) ، ذلك الواد الخفي — واذا المؤودة سئلت .

هذا الحديث هو اقوى ادلة المنع واصرحهـا . والواد ان تدفن الطفلة وهي حية . وكانت العـرب في جاهليتها تفعل ذلك كما حكاه الله عنهم في سورة النحل رقم 58 \ 59 . (واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون ام يدسه في التراب الا ساء مـا يحكمون) اخبر سبحانه أن العـرب في جاهليتهـم اذا اخبر أحدهم بأن امرأته وضعت انثى يحزن لذلك ويغتم اغتماما تظهر على وجهه بسببه غمامة سوداء من الكآبة ويبقى منحصرا لا يدرى ما يصنع ، أيمسك تلك الطفلـة ويبقى بسببها كئيبا حزينا مهينا ، أم يدفنها في التراب ويستريح من همه وغمه . فما أقبـح حكمهم على تلك المولودة البريئـة التي هـي أحـق بالرحمـة والعطف والاكرام . وقد شبه النبي (ص) العازل بلا سبب وجيه بدافن الطفلة وهي حية . وما أحسن ما قاله ابن القيم في شرحه لهذا الحديث ، وانما سماه وادا خفيا فـي حديث جذامة ، لان الرجل انما يعزل هربا من الحمـل فاجرى قصده لذلك مجرى الواد ، لكن الفرق بينهمـا ان الواد ظاهر بالمباشرة اجتمع فيه القصد والفعـل ، والعزل يتعلق بالقصد فقط ، فلذلك وصفه بكونه خفيا

الحديث الثامن ، عن عمر بن الخطاب قال : نهى رسول الله (ص) ، أن يعزل عن الحرة الا باذنها .

هذا الحديث ، دليل قوي على المنع من العـزل عن الزوجة الحرة الا باذنها ، فهو منع مقيد . ونحن في هذا الزمان لا يهمنا امر الجارية الموطوءة بملك اليمين . او بالتزوج ، لان الرق لا وجود له في هذا الزمان ، وانما نتكلم في حكم العزل عن الزوجـة .

نربط الجرباء حول صحيحة
حذارا على تلك الصحيحة نجرب

قوله ، على مسامحة في هذا التعريف . من المعلوم ان ابن الخطيب نابغة في الطب والادب والفلسفة، فهو يحافظ على ما يضعه من التعريفات والحدود محافظة دقيقة ، فلذلك نبه على أن هذا التعريف ، انما هو تقريبي لتسهيل الفهم على القاريء . قوله ، فاذا اتفق أن يكون المزاج الشخصي الخ . يعني ان طبيعة الشخص السليم اذا كانت قريبة من طبيعة الوارد السمي ، وهو مكروب المرض بعبارة العصر الحاضر ، كان الجسم يقبل مكروب المرض الهاجم عليه من غير مقاومة ولا مدافعة ، لعدم وجود التضاد بين قوات المرض المغيرة وقوات الجسم الضعيف المغار عليه . ثم شبه ابن الخطيب قبول الجسم الضعيف لمكاريب المرض الهاجم بالزئبق مع الذهب اذا قرب الزئبق الى الذهب انجذب اليه ، لان اصليهما متشابهان . قوله ، فيغوص فيه ويتحد به الخ . يعني ان المرض ينتقل من المريض الى جسم الصحيح ويتحد معه . قوله ، ويسري في الامشاج الخ . يعني أن القوى السمية على حد تعبير ابن الخطيب ، او الجراثيم المرضية على حد تعبير هذا العصر ، تسري في الاخلاط والرطوبات بسريان الروح ، أي الهواء كما تسري السموم في الاجسام فتفسدها .

قوله ، وان اتفق ان يكون بعيدا منه في عرض مزاجه الخ . هذا مثال للجسم السليم الذي لاتزال قواه الدفاعية قادرة على المقاومة مضادة للقوى الهاجمة غير خاضعة لها ؛ فحينئذ تنبري لقوة العدو وتهجم عليها هجوما مضادا دفاعيا كما يدافع الرجال المخلصون عن اوطانهم اذا اغار عليه عدوهم . ولا يفكرون في التسليم ابدا ما بقي فيهم رمق . فعلى قدر ما بين الجيشين المغير والمدافع من التضاد والتباعد ، هذا يريد افناء الجسم وهذا يريد سلامته ، يشتد القتال او يضعف ، والنصر بيد الله . قوله ، وقد يكون هذا البعد خلقة للمزاج الخ . يعني ان بعض الناس قد رزقهم الله اجساما صحيحة قوية قادرة على مقاومة الامراض المعدية من تلقاء نفسها ، وبعض الاجسام ليست من القوة والمنعة بذلك المكان ، فهذه تحتاج الى الاستعانة بالعلاج بالادوية والهواء الطيب والماء والشمس ، فيعوض عليها ذلك ما فقدته من القوة في خلقتها . قوله ، يخرج عن سبيل الاستعداد الخ . لنا في هذا الزمان امثلة توضح ذلك ، وهي معروفة عند الخاص والعام ، فمنها ، المصول الواقية من السل ووباء الكولرا والجدري وغيرها ، فذلك التدبير الآني من علاج الاطباء يخرج الاجسام الملقحة بالمصل المضاد من الاستعداد لقبول المرض . ومن هذا القبيل ، الدواء الذي يشربه من تعتريه نوبات الصرع فلا يصرع ما دام يشرب ذلك الدواء ، الا ان هذا ليس فيه قوات مهاجمة وقوات مدافعة ، وانما هو مرض عصبي غير معد . قوله ، وهو جواب من رد العدوى الخ . يعني ان ما تقدم جواب لمن رد العدوى وزعم انه لا يوجد مرض معد اعتمادا على ان بعض المباشرين للمرضى المصابين بمرض معد ، لايصابون بذلك المرض . ولم يعلم هؤلاء ان الاصابة تكون على حسب الاستعداد ، فمن كان كثير الاستعداد أصيب لادنى مباشرة للمريض . ومن كان متوسط الاستعداد اصيب بعد طول المباشره ، ومن كانت عنده مناعة ، وليس عنده شيء من الاستعداد طالت سلامته مع المباشرة ، فقد تستمر حتى يفترق مع المريض بموت المريض او غيره ، وقد يصاب بطول الزمان ، الا ان هذا الشخص الذي ليس عنده استعداد لقبول المرض يجب عليه ايضا أن لايخالط ذوي الامراض المعدية ، لان الامر كما يقال ، ليس في كل مرة تسلم الجرة . ومن اكل السم مرة فلم يضره لا ينبغي له ان يخاطر بنفسه وياكله مرة اخرى . ومن صاول الاسد فتمكن من قتله لا ينبغي له أن يصاول الاسد مرة اخرى . ثم ضرب ابن الخطيب مثلا لذلك اجاد فيه كل الاجادة . وذلك انه شبه المخالطين المرضى بالطاعون بالفتائل وجعلها على ثلاثة اقسام ، قسم قريب العهد بالاشتعال انطفأ منذ لحظة ولا تزال حرارة النار ودخانها في رؤسه ، فهذا القسم يشتعل بادنى ملامسة للنار . وهو مثال لكثير الاستعداد . والقسم الثاني من الفتائل يابس ليس فيه بلل ، ولكنه ليس قريب عهد بالاشتعال ولا فيه حرارة ولا دخان ، فهذا القسم يبطيء اشتعاله شيئا ما ، ولكنه لا يلبث ان يشتعل . وهذا مثال للمخالطين للمرضى الذين عندهم شيء من المقاومة واستعدادهم لقبول المرض قليل . والقسم الثالث ، الفتائل المبتلة ، فهذا القسم يبطيء في الاشتعال ويستعصي عليه ، ولكن بطول المعالجة وادناء النار منه يسمع له نشيش ، وهو صوت الفتيلة المبلولة اذا قربتها من النار ، ومع ذلك اذا طال اقترابها من النار يذهب بللها ثم تشتعل بعد حين ، وهذا مثال للمخالطين للمرضى العديمي الاستعداد الذين عندهم صحة قوية ومنعة وكثرة مقاومة ، الا انه لا يؤمن عليهم اذا طالت مخالطتهم للمرضى ان تضعف مقاومة اجسامهم فيصابون . وكم من مريض اعتمد على الادوية المقاومة المطهرة المبيدة للمكروب فتغلب المكروب على أدويته وسقط صريعا بمرض السل أو غيره .

الامشاج والرطوبات بسريان الروح فيفسدها افساد السموم ، وان اتفق ان يكون بعيدا منه فى عرض مزاجه قاومه مقاومة الضدبة ومانعه وتعاصى عليه قبوله . فعلى بعد ما بينهما فى عرض المضادة نكون الممانعة والموافقة . وقد يكون هذا البعد خلقة للمزاج أو يحصل بالعلاج ، ولذلك ما حرص الاطباء عند تعرفهم بالحدس طبيعة هذا المرض على الميل بالتدبير الى طرف من مضادته يخرج عن سبيل الاستعداد ، وهو جواب دعوى من رد العدوى والانتقال بكون كثير من المباشرين للمرضى سلموا من مضرته مع الملازمة والقرب من العدد الكثير منهم وهلاك آخرين ممن لم يباشروا أو باشروا مباشرة يسيرة ، اذ لم يعلم الجمهور أن علة السلامة أو العطب بقدرة الله ، انما هي الاستعداد أو عدمه . وان الناس فى الاقتراب من نار تلك السمية بمنزلة الفتل التي تقرب من النار المشتعلة فى السراج ، وان ما كان قريب عهد بالابقاد والحراره والدخانية اسرع به تعلق النار لحينه .

هذا مثال المستعد الوافر الاستعداد ، وما كان جافا غير قريب العهد بالنار قبل الايقاد بعد انفعال فى زمن أطول من الاول ، وهو مثال الشارع فى الاستعداد . وما كان من الفتل بللا مشربا مائية اشتعل بعد طول مصابرة ونشيش ومعاصاة ، وبعد زمان تجف فيه مائيته ، فاما ان يتم اشتعاله بطول الزمان ، أو ربما غلب الفاعل لضعفه عنه أو خمد الفاعل قبل مصابرته . وهذا مثال البعيد عن الاستعداد ، ومحله من المخاطرة ما علمت . والجهل بهذا المعنى غلط الناس وعدد مصارعهم . ولله در القائل :

ما يبلغ الاعداء من جاهل
ما يبلغ الجاهل من نفسه

فان قيل كيف نسلم دعوى العدوى ، وقد ورد الشرع بنفي ذلك ؟ . قلنا ، وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والاخبار المتواترة . وهذه مواد البرهان . وغير خفي عمن نظر فى هذا الامر او ادركه هلاك من يباشر هذا المرض غالبا وسلامة من لايباشره . كذلك وقوع المرض فى الدار والمحلة لثوب أو آنية حتى أن القرط (وهي الحلقة التي تتحلى بها المرأة فى اذنها) أتلف من علق باذنه وأباد البيت بأسره . ووقوعه فى المدينة فى الدار الواحدة ثم اشتعاله منها فى أفذاذ المباشرين ثم جيرانهم وأقاربهم وزوارهم خاصة ، حتى يتسع الخرق ، وفى مدن السواحل المستصحبة حال السلامة الى أن يحل بها فى البحر من عدوى أخرى قد شاع عنها خبر الوباء رجل موف ، فيكون تاريخ ظهور المرض مقارنا لحلوله . وسلامة الكثير ممن أغيا فى التوحش ، كالزاهد بن أبي مدين بمدينة سلا ، وكان من القائلين بالعدوى . وقد تزود لمدة ، وبنى باب منزله على أهله وهم كثيرون . وفنيت المدينة . ولم يرزأ نسمة واحدة لطول تلك المدة ، وتواترت الاخبار بسلامة أماكن لاتطأها الطرق . وهي منقطعة عن الناس . ولا اعجب لهذا من سجن الاسرى من المسلمين ، انقذهم الله بدار صنعة اشبيلية . وهم الوف ولم يصبهم الطاعون . وقد كاد يستاصل المدينة . وصح النقل بسلامة أهل العمود والرحالين فى الغرب بافريقية وغيرها ، لعدم انحصار الهواء وقلة تمكن الفساد منه . والعناد فى هذا الباب وارتكاب اللجاج فيه ألحم فى الناس سيف الطاعون . وسلط الله عليهم من بعض المفتين من اعترضوا بالفتيا اعتراض الازارقة من الخوارج للناس بالسيوف ، فسالت عن شبا اقلامهم من النفوس والمهج ما لا يعلمه الا من كتب عليهم الفناء بسببه . وان كان بريء القصد من المضرة وقوفا مع ظاهر لفظ الحديث . ومن الاصول التي لا نجهل ان الدليل السمعي اذا عارضه الحس والمشاهده لزم تاويله . والحق فى هذا تأويله بما ذهب اليه طائفة ممن اثبت القول بالعدوى . وفى الشرع مؤنسات عديدة ، كقوله (يعني النبى (ص) لا يورد ممرض على مصح . وقول الصاحب (وهو عمر بن الخطاب (رض) أفر من قدر الله الى قدره . وليس هذا موضع الاطناب فى هذا الغرض . والكلام فى القول بالعدوى او بعدمها شرعا ليس من وظائف هذا الفن ، انما جرى مجرى الجمل المعترضة والمثل ، وله تحقيق فى محله . وبالجملة فالتصام عن مثل هذا الاستدلال زعارة وتصاقر على الله (أي جرأة عليه واستخفاف بارواح خلقه) واسترخاص لنفوس المسلمين ، وقد وقف قوم من اهل الورع بالعدوى الى الناس مستقيلين مشهدين على انفسهم بالرجوع عن الفتوى بذلك تحرجا من تسويغ الالقاء باليد الى التهلكة . عصمنا الله من الخطل ، ووفقنا فى القول والعمل . انتهى كلام ابن الخطيب . واظن أن كثيرا من القراء يجد غموضا فى بعض كلام ابن الخطيب . ولذلك رأيت من المناسب أن أشرح العبارات التي يعسر فهمها على بعض القراء ، فأقول وبالله التوفيق :

قوله ، الاستعداد ، تهيء شيء لقبول شيء الخ . معناه ، أن الجسم الضعيف المقاومة المستعد لقبول العدوى ينتقل اليه المرض بمخالطة المريض ، ولله در الشاعر اذ يقول :

ـسهد اربعين يوما . وبعد تمام الاربعين جاء السيد
ـال لوالدي الآن تريان البرهان . خاب وخسر من لا
ـصدق بكرامات آل محمد . وحل الرباط عن عيني
ـال لي (تشوف) فأخذني الخوف ، وقلت ، نعم ،
ـبر وصاح صيحة عظيمة وقال ، انا ابن فاطمة ؟ قال،
ـحملوني ورجعنا الى بيتنا ، فلما ذهب السيد يحمل
ـهدية التي اعطاه والدي سألتني والدتي ، كيف تجد
ـصرك يا بني ؟ فقلت اعمى تماما لا اميز بين الليل
ـالنهار ، فقالت ، ولم قلت فى المشهد انك تبصر ،فقلت
ـوفا من السيد . فأخذني والداي الى الدكتور الهاشمي
ـلما فحص عيني قال ، آه ، جئتم متأخرين . اما قلت
ـكما بادرا بالاتيان به الى المستشفى ؟ . والآن احسن
الله عزاءكما فى بصره . ليس له علاج . فيا اسفي على
ـهذا الشاب المسكين ، درس فى الجامعة سنتين مبصرا

وسنتين كفيفا . ولا يزال كفيفا معلما فى ثانوية بمدينة كركوك فى شمال العراق .

قوله ، فسألت عن شبا اقلامهم من النفوس الخ . هو جمع شباه ، وهي راس السنان ، اي الرمح الذي يطعن به . قال الفرزدق فى قصته مع الذئب :

ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى
رماك بسهم او شباه سنان

معناه ايها الذئب جئتني زائرا فى الليل عند ما رايت ناري فقاسمتك عشائي واطعمتك لحما ، حملني على ذلك الكرم العربي . ولو نبهت غيري تطلب منه الضيافة لرماك بسهم من قوسه او براس رمحه فقتلك .

(يتبع)

مكناس : تقي الدين الهلالي

قوله ، حتى ان القرط الخ . يعني ان القرط ، وهو ما يعلق فى شحمة الاذن للزينة من حلقة وغيرها نزع من امراة ماتت بالطاعون وعلق فى اذن امراة سليمة فماتت هذه ايضا واعدت اهل بيتها فماتوا جميعا . قوله ، الى ان يحل بها فى البحر من عدوى أخرى الخ . يعني انه كثيرا ما يكون اهل مدينة على شاطيء البحر سالمين من الوباء حتى يحل بتلك المدينة مسافر جاء فى سفينة من بلد قد انتشر فيه الوباء ، فيعدي ذلك المسافر اهل تلك المدينة وينتشر فيهم الوباء انتشار النار فى الهشيم . قوله ، ممن اغيا فى التوحش كالزاهد بن ابي مدين الخ . معنى أغيا بلغ الغاية فى التوحش أي الاستيحاش ، وهو البعد من الناس . وقد افادنا ابن الخطيب بذكر هذه الحكاية فوائد متعددة ، احداها صحية ، والثانية شرعية ، والثالثة تاريخية . فأما الصحية ، فهي أن هذا الرجل المغربي الذي كان يسمى الزاهد بن ابي مدين كان من العلماء ، وقد اختلف علماء المغاربة فى العدوى فى ذلك الزمان ، وهو اواسط القرن الثامن الهجري حين وقع الطاعون الذي افنى سبعة اعشار سكان الارض كما قال ابن الخطيب ، وكان الزاهد من العلماء الذين يفتون بالعدوى . وهو من سكان مدينة سلا ، مرسى على شاطيء البحر المحيط الاطلنطيقي بقرب الرباط . فلما خالفه بعض المفتين وأفتوا الناس بعدم العدوى أحضر من الطعام والمؤونة ما يكفيه مع أهل بيته وكان عددهم كثيرا ، لزمان طويل، ثم بنى باب بيته وسد منافذه حتى لا يخالطه احد من سكان المدينة ، وبقي كذلك فى سجنه الاختياري حتى أيقن أن الوباء قد ذهب . فلما فتح باب بيته وجد أهل المدينة قد افناهم الطاعون . اما هو واهل بيته فقد سلموا جميعا . واما الفائدة الشرعية والتاريخية فادراكهما من الحكاية سهل . قوله ، ولا اعجب لهذا من سجن الاسرى الخ . أشار الى ما جاء فى التاريخ ان أربعة آلاف من الاسرى المغاربة كانوا فى يد الاسبانيين فى اشبيلية بعد ما استردوها من ايدي المسلمين ، وكان المغاربة فى ذلك الزمان اهل علم بالصناعات ، والاسبانيون جهالا لا يعلمون منها شيئا (انظر كتاب مدنية العرب فى الاندلس لجوزف ما كيب وترجمته بالعربية لكاتب هذا المقال) ، فاستغل الاسبانيون الاسرى المغاربة وجعلوا سجنهم معملا صناعيا . ولا ولا يزال اسم مصنع الاسلحة باللغة الاسبانية والفرنسية والانكليزية (ارسنل) وهو تحريف لدار الصنعة . ومثال ذلك فى هذا الزمان ، ان كوبا أسرت عددا كبيرا من الغزاة الذين تهم الولايات المتحدة حمايتهم فشرطت على الولايات المتحدة ان تدفع فداء لهم ما يساوي ملايين من نقد الدولار من الادوية والمصنوعات الامريكية التي تعجز كوبا عن صنعها . أخبر ابن الخطيب ، ان الاسرى المسلمين الذين كانوا مسجونين فى دار الصنعة باشبيلية لا يخالطون الناس فلم يصبهم الطاعون ، مع أن اكثر سكان اشبيلية ماتوا به . قوله ، أهل العمود والرحالين فى الغرب بافريقية الخ . اهل العمود ، هم البدو ، سكان الخيام ، والرحالون أعم منهم ، لان منهم من يبني اخصاصا من القصب فى كل مكان يرحل اليه . والمراد بالغرب ، المغرب ، وافريقية ، هي تونس وما جاورها بشرقي الجزائر . قوله ، اعتراض الازارقة من الخوارج الخ . الازارقة ، فرقة من الخوارج يعتقدون ، ان كل من خالف عقيدتهم يجب قتله . شبه ابن الخطيب العلماء الدينيين الذين يفتون بعدم العدوى بالازارقة الذين يعملون سيوفهم فيمن يخالفهم . وهؤلاء الفقهاء يفتون الناس بعدم العدوى فلا يتحرزون من الامراض المعدية فيموتون ، فصارت فتاوي الفقهاء كسيوف الازارقة . واقبح من هؤلاء واكبر جرما من يشير على الناس بنقل المرضى الى الاضرحة التي يسمى المقبورون فيها بالاولياء ، فيتخذون مدافن الاموات مستشفيات ويطلبون الحياة من الموتى ، وكفى بذلك جهلا وكفرا وعمى بصائر . كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . ولقد أخبرني أحد تلامذتي فى كلية الآداب ببغداد . ولا يزال حيا يرزق ، وهو من انجب تلامذتي ، اخبرني انه أصيب برمد فأخذه والداه الى الدكتور الهاشمي ، وهو من اشهر اطباء العيون في بغداد . فلما فحص عينيه ، قال لوالديه يجب أن تأتي به فورا الى المستشفى والا ذهب بصره . قال فرجع بي الى البيت ، فزارنا سيد ، والسيد فى العراق هو المنتسب الى آل البيت ، فان كان شيعيا يلبس عمامة سوداء ، وان كان سنيا يلبس عمامة خضراء . وكثير من آل البيت فى هذا الزمان لا يهتمون بذلك الزي ، لكن الذين يتعيشون بالانتساب الى آل النبي يلتزمونه ويتخذونه حبالة لابتزاز اموال الناس ، فيسيئون الى أنفسهم والى آل البيت الذين رفع الله قدرهم عن تلك المهنة الخسيسة . قال الطالب ، فذكر والداي للسيد ما حل بي من الرمد وانهما يريدان ان يدخلاني مستشفى الدكتور الهاشمي ، فقال لهم السيد ، لا حاجة الى ذلك نأخذه الى مشهد الرضا ، وهو ضريح احد آل البيت من الاضرحة المقصودة . قال فأخذني والداي وصحبهما السيد الى المشهد المذكور ، وشد السيد عيني بخرقة ربط طرفيها فى قفاي ربطا محكما ، وبقيت كذلك في

...زمور وآسفي واغمات ومراكش والقصر الكبير ...لمسان وعاصمة الجزائر (المسند الصحيح الحسن ...ن مرزوق س 35 مجلة هسبريس عام 1925) .

ولم تكن اية مدينة من المدن لتخلو من عائلات ...صت قسطا من املاكها للاسعاف الاجتماعي وهي ...وقاف المعينة على الخبز مثلا الذي كان يوزع ...بوعيا او يوميا حسب اهمية الارباع هذا علاوة على ...لاوقاف الخاصة بالمساجد والمرستانات ومعاهد التعليم ...لتى كان يتعيش منها عدد كبير من المستخدمين زيادة ...لى رواتب العلماء والطلبة .

واذا اعتبرنا ان كل مدينة مغربية كانت تتوفر في كل حي من احيائها على عدة مساجد باوقافها لمسنا ضخامة الثورة الحبسية في المغرب ويكفي ان نعلم ان في فاس وحدها احصى في زمن المنصور ومحمد الناصر الموحديين (*) 785 مسجد او 42 دار للوضوء و80 سقاية عمومية و 43 حماما » (زهرة الآس ص 33) وكلها حبسية .

وكانت في المغرب اوقاف من نوع خاص (*) كالتي تصرف على الزوجين الفقيرين بايوائهما مجانا في منزل مؤثث ابان الزفاف وكالتي تنفق في تجهيز العروس المعوزة واوقاف الاواني المكسرة وتعهد وتعديه الحيوانات والطيور (كدية البراطيل بفاس) وذلك بالاضافة الى تأسيس الاسوار والقناطر والقنوات والسهر عليها والنسبة هنا ملحوظ بين المغرب والشام حيث توجد نفس الانواع من الاوقاف (*)

ويمتاز المغرب ومصر بصندوق حبسي للقرض بدون فائدة وكان موجودا بفاس

واهم ما يسترعى نظرنا في هذا الهيكل المحكم ، هو ان الوقف لم يتخلف تقريبا في اقليم من الاقاليم التي غزاها الاسلام ، بمبادئه السامية ، وتشريعاته المثالية ، فحتى في أقصى بخارى والتركستان تفرعت الهيئات الحبسية ، وتضخمت مواردها طوال قرون الى ان انهزم التتر فاغتصب الروس هذه الاموال واستمرت الحال على هذا المنوال الى أن قرر الحزب الشيوعي عام 1921 تأميم الاوقاف ـ باستثناء ما يمس المساجد ـ وتسليم الاراضي الحبسية الى الفلاح المسلم وغير المسلم ، وتحظير كل وقف جديد

وفي الافغان أمم الامير عبد الرحمن الذي توفي أوائل القرن الميلادي الحالي قسطا كبيرا من الاوقاف وأدرجها في ميزانية الدولة ، واصبح الائمة والمؤذنون يحتسبون اعمالهم لله بدون مقابل ، الا اكتتابات المصلين ، وتساهم الحكومة والبلديات في تعهد المساجد

اما في اندونيسيا فانها تمتاز بظاهرتين اثنتين : أولا : قلة الاوقاف العقارية نظرا لانعدام الملكية الفردية في معظم النواحي ، وشيوع ملكية الجماعة او القرية ، بحيث لا يملك الافراد حق التوقيف . ثانيا : لا توجد ادارة مركزية للاوقاف .

---

* وذكر ابو القاضي في الجذوة ان مساجد فاس كانت قبل اليوم 785 واما اليوم (عصر المنصور السعدي) فلا يحصى كثرة وعدد حماماتها قبل اليوم 93 واما اليوم فلا عدد لها (ص 28)

* وكانت هنالك أحباس من نوع خاص في كل من المغرب والاندلس فقد ذكر صاحب نشر المثاني ان من احباس جامع الاندلس قراءة التفسير بالفخر الرازي (ج 1 ص 20) وان كراس العلم في التفسير وقراءة صحيح مسلم وابن الحاجب وصغرى السنوسي والرسالة ونظم ابن زكري لها أحباس (ج 1 ص 38) ومن احباس فاس استيفاء ابن حجر على الصحيح في التدريس (نيل الابتهاج ص 169) وكان بعض العلماء لا ياكلون من مال الاحباس مثل سيدي عبد القادر الفاسي (السلوة ج 1 ص 310)

* ذكر صاحب جذوة الاقتباس أن كثيرا من أوقاف المساجد ادخلها أهل فاس في منافعهم وحسبوها من أموالهم أيام ابن تاشفين فرفعت القضية الى القاضي عبد الحق بن معيشة الغرناطي فتوجه الطلب على النظراء والوكلاء في ذلك ومحاسبتهم فابرزت المحاسبة 80 000 دينار (ص 42) وورد ان الاحباس احتفظت بادارتها المستقلة الى عهد مولاي عبد الرحمن الذي قرر ضمها الى دوائر المخزن والغى النظار الخصوصيين للمساجد والاضرحة وعوضهم في كل مدينة بناظرين يعينهما السلطان ، وقد حاز مولاي حفيظ عند ما بويع بمراكش خمسين الف فرنك من أحباس هذه المدينة .

الأوقاف في العالم الإسلامي

للأستاذ : عبد العزيز بن عبد الله

تتسم الاوقاف فى المغرب بأهمية كبرى نظرا للدور الاجتماعي الخطير الذي ينتظر منها القيـام به علاوة على مهمتها الدينيـة .

وقد عرفت الاوقاف فى العالم الاسلامي ازدهارا خاصـا ، ولعبت فى مختلف العصور دورا اجتماعيـا واقتصاديا وثقافيـا كان له اثره فى تكييف الاجهزة المسؤولـة فى الدولة ، وتخفيف الوطأة الى حد بعيـد على الميزانيـة العموميـة .

ولن اتحـدث فى هذه العجالة عن ماهية الوقف وتعريفاته القانونيـة واطاره الشرعـي وما أثيـر حول ذلك من خلافات تنـد احيانا عـن روح الموضوع واهـداف المشروع التي هي اهـداف انسانيـة فى ذرائعهـا وغاياتهـا . وانما أريد أن أرسم لوحة مصغـرة عن المظاهر التي اتسمت بها هذه المؤسسـة فى مختلف الاعصـار والامصار الاسلاميـة .

لقد تذرع المغاربة منذ انبثاق فجر الاسلام بهذه البلاد ـ بشتى الوسائل لتركيـز الفكـرة الاسلاميـة وتحقيق ازدهار للمسلمين فى آن واحد بواسطة «رباع» توقف على المؤسسـات الدينية والاجتماعية وقد ساهم الملوك والشعب فى هذه الحملة الدينية الاسعافية التي كانت تتخذ مختلف المظاهـر لتحقيـق غاياتهـا ، واذا راجعنا دفاتر الاحصاء الحبسية لاحظنا ان الاوقـاف كانت تتوفر فى جميع انحاء القطر على احسن الاراضي والعقارات وحتى على السوائم الحية فى الجبل عـلاوة على الفراسات الثرية وقد وقع تفويت جانب كبير من الاراضي الخصبة الشاسعة والاملاك المختلفة فى ابـان الحماية ولا تـزال صكوك تحبيسها موجودة الى الآن

وقد تبلور الاتجاه الحبسي على الخصوص منـذ عهد المرينيين حيث اقام ابو يوسـف المارستانـات للغرباء والمجانين واجرى عليها النفقات وخصص لها الاطباء وبنى المدارس ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والعلم واجرى لهم المرتبات فى كل شهر وبنى الزوايا فى الفلوات واوقف لها الاوقاف الكثيرة لاطعام عابـري سبيل وذوي الحاجات « الذخيرة السنية ص 100 » ، وسار الملوك بعد ذلك على منوال حثيث فى هذه الطريق الجديدة حتى انشأ ابو الحسن فى كـل بلـد من بلـد المغرب الاقصى وبلاد المغرب الاوسـط (الجزائـر) مدرسة فقامت مؤسسـاته الاجتماعية فى تازا ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وأنفا (الدار البيضاء الحاليـة)

الاحتلال . وقد اعيد نظام وزارة الاوقاف عـــام
1 كما اصبح المجلس الاعلى للاوقاف ــ متركبا من
الاوقاف كرئيس وشيخ جامع الازهر ووزيـــر
ـال العمومية ووزير الصحة ووزير المالية ورئيس
النزاعات التابعة للدولة ونائب كاتب الدولة فـي
ة الاوقاف ومفتي مصر . وهذا المجلس هو الذي
ـ بتحضير الميزانية وتقرير الاعتمادات والمصادقة
اعمال الترميم والبناء والتجديد والاقتناء والبيـع
ـود التي تزيد قيمتها على 500 1 جنيــه وللوزارة
ـجنان : فى مكة والمدينة لمراقبة احباس الحرمين
بلغت مداخيل الاحبـاس المصريـة 180 163 4
ـاريفها 420 192 3 جنيه عام 1950 ــ فى حين ان
ـيل الميزانية العامة ومصاريفها تبلغ 000 800 157
ـه و 000 500 187 ــ وتتعهـد الوزارة بعـض
ـشفات وملاجيء العجزة والايتـام حيث كـانت
ـ فى القاهرة وحدها 600 يتيم كما تخـول منحـا
ـ الازهر ومنذ عام 1943 اصبحت تفـرض ذوي
ـحاب بدون فائدة .

وفى سوريا تشرف على الوقف ثلاث هيئات ، هي
ـرة العامة للاوقاف ومجالس منتخبـة خاصـة فى
ـفظات والنواحي والمجلس الاسلامى الاعلى الـذي
ـ مركزه فى العاصمة . اما مجالس المحافظات فانها
ـب من ستة اعضاء فيهم عالم وتاجر وملاك ومتمول
ـدس وخبير فني ومحـام وكلهم منتخبون وقـد
ـ ميزانية عام 1949 ، 000 100 2 جنيــه سوري
منحت الدولة للاوقاف فى نفس السنة 000 544
ـــه .

وفى لبنان يوجد وضع خاص نظرا لتشعب الملـل
ـحل هناك . ولكـن حكومة لبنان اقتبست عـــام
1 من النظام المصرى .

وفى الاردن تأسست عــام 1946 ادارة مركزيـة
ـاف مستقلة عن الهيئة المركزية للشؤون الدينية ،
ـ تابعة لرياسة الوزارة ، وتتركب من مجلس اعلى ،
ـر عام ومراقب عام للحسابات وامين وموظفيــن
ـــن محليــة .

وفى العـــراق كذلك تشرف على الاوقاف هيئـة
ـها مدير عام ويعينه مفتش عام مكلـف بالشؤون
ـة والادارية ، الا ان لجـان هــذه الادارة العامـة
ـمة للاوقاف ، تتركب من مديرين محلييـن فى 14
ة ومأمورين للاوقاف . وللاوقاف ميزانية خاصـة
دق عليها البرلمان مثل الميزانية العامة .

وقد بلغت ميزانية الاوقاف 000 472 دينار عام 1951 بينما بلغت الميزانية العامة 25 مليون دينار .

وفى ايران توجد بوزارة المعارف ، ادارة عامـة للاوقاف ، وفى الاقاليم والولايات مديـرون وتنـدرج ميزانية الاوقـاف فى ميزانيـة المعـارف العموميـة ، ويراقبها المفتشون العامون التابعون لهذه الوزارة

اما فى المغرب العربي ، فان الانظمـة تتسم كذلك بطوابع خاصة ، ففي طرابلس توجد ادارتان جهويتـان للاوقاف ، وفى كلا الاقليمين مجلس يتركب من رئيس وثلاثة مستشاريـن ، ومديـر ، تعينهـم السلطـات الحكومية بعـد استشارة القاضـي وتتصرف هـذه المجالس فى شؤون الاحباس تحت مراقبـة المحاكـم الشرعية ، ولكل مجلس ميزانيـة مستقلـة ، تصادق عليها الحكومة وتراقب تنفيذها مصالح المالية الحكومية

وفى الجزائـر (الشماليـة على الاخص) ادمجت الاملاك الحبسيـة ضمن امـلاك الدولـة بعـد الاحتلال واصبحت الدولة الفرنسية تعتبر نفسها المحط النهائي الذي ترجع اليه الاوقاف المعينة بعد انـدراس المعقب عليهم . ورغم ما تقرر عام 1947 من فصـل الشؤون الدينية عن شؤون الدولة ، فانه لم تحدث أي جديـد فى الموضوع

وتولى الحكومة بعد الاستقـلال عنايـة خاصـة بالاوقاف حيث أسست وزارة للاهتمام بشؤونها .

وفى تونس ادمجت الاوقاف فى ميزانية الدولـة بعد اعلان الاستقلال وكانت ادارة الاحباس تتركب من مجلـس اداري وادارة مركـزيـة ، وادارة محليـــة ومتصرفين فى الاوقاف . والكل يخضع لمراقبة المجلس الاعلى للاحباس

وكان يشرف على الادارة الحبسية منـذ 1944 رئيس المجلس الاداري ، الذي يعينه نائبان ، احدهمـا سير المصالح الادارية والآخر المصالح الماليـة وينقسم الجميع الى عدة مكاتب مثل المكتب العقاري ، ومكتب النزاعـات ، ومكتب التسييـر ، ومكتب الزياتيـن ، ومكتب الاحباس المعينة ، ومكاتب الحسابات والميزانية، والاحصاء والتوزيع والاصلاحات والترميمات

وكانت الادارة المحلية تحتوى على 14 مفتشا أو نائبا يمسكون سجلات الاملاك الحبسية .

ومن هذه العجالة ، تتضح الاهميـة القصـوى ، التي تتسم بها الاوقـاف فى مختلف مناحـي العالـم الاسـلامـي .

الرباط : عبد العزيز بنعبد الله

وفى الباكستان تكثر الاوقاف خاصة فى القسم الشرقي الذي هو البنغال ، حيث يشرف رجال الافتاء على الاوقاف باعانة لجنة يشارك فيها مندوب عن الحكومة اذا كان الوقف مهما . ورجال الدين مستقلون عن السلطات العمومية ولا توجد اية هيئة مركزية تنسق المسائل الدينية والواقع ان دولة الباكستان الفتية ما زالت فى طور الاختمار والاصلاح فقد اصدر المجلس التشريعي فى البنجاب ، اوائل 1952 قانونا ينص على صرف ريع الاوقاف (لصالح التقدم والصحة وضمان انفاق موارد الاحباس فيما وضعت لاجله) .

وفى اليمن يرجع امر الوقف لبيت المال الذي يتحمل نفقات المؤسسات الدينية ، اما الاوقاف المعينة للاضرحة ، فان عليها نظارا خصوصيين يعينهم الامام ويسمون « نظار التراب »

وفى يوغوسلافيا كانت الاوقاف خاضعة منذ الاحتلال النمسوي اى عام 1884 الى اداره تتركب من مسيرين عن الحكومة ، ولجان استشارية ، وكانت الموارد تنفق بالاخص على المعاهد الدينية . على ان انقلابات شتى طرات فى العقود الاخيرة الى ان صدر فى 5 نوفمبر 1936 — دستور الجامعة الاسلامية — بيوغوسلافيا الذي ضمن الجالية المسلمة فى البلاد استقلالا دينيا يكاد يكون تاما داخل البلاد وخارجها ، فاصبحت هذه الجامعة منذ ذاك تتصرف فى الاوقاف لها ميزانيتها المستقلة وادارتها الخاصة .

والى الاحتلال الالماني عام 1941 كان هنالك مجلسان اقليميان يتركبان من ممثلين جهويين ، ينتخبون لاربع سنوات من طرف جميع المسلمين الذكور البالغين ، ويجتمع هذان المجلسان مرتين فى السنة للمصادقة على الميزانية ، وعلى القرارات الخاصة بالاوقاف ، وينتخب كل مجلس لجنته التنفيذية والادارية وفى كل اقليم وكل قرية تسير شؤون الوقف مجالس ينتخب اعضاؤها لاربع سنوات . وريع الاوقاف هام فى يوغوسلافيا ، لان معظم المدارس الاسلامية تتعيش منه . وفى عهد تيتو صارت لجان شعبية خاصة تتعهد المساجد . ولجنة العاصمة هي التي قامت بترميم مسجد بلغراد الذي تضرر من الغارات الالمانية

وفى المملكة العربية السعودية لا توجد ادارة للوقف الا فى الحجاز حيث تشرف ادارة عامة على شؤون الوقف ، وتصرف ريعه على المساجد ، وعلى الائمة والمؤذنين الذين تعينهم الادارة المذكورة باقتراح من قاضي القضاة . وهذه الادارة التي لها فروع فى جدة والمدينة والطائف يوجد مركزها بمكة وتتمتع باستقلال مالي ويمنحها الملك اعانة خاصة عند الاحتياج . وهنالك نظار للاوقاف المعينة كما فى المغرب . كما تتشابه فى البلدين مسطرة كراء الاملاك الحبسية حيث يوجب القانون المزاد العلني ويحصر المدة فى ثلاث سنوات على الاكثر — يمكن تجديد هذه المدة فى المغرب لست ثم تسع — .

وفى تركيا الغت الجمهورية الوقف المعين وفرضت مراقبة دقيقة على الوقف العمومي الذي ارتبط مصيره بالشؤون الدينية وفى عام 1924 صدر قانون انشئت بموجبه وزارة للشؤون الثقافية تابعة لرئاسة الحكومة تشرف المسؤول فيها على المساجد والمعاهد الدينية كما الغى نفس القانون وزارة الاوقاف واحدث ادارة عامة مهمتها تنظيم الاوقاف بصورة تتلاءم مع المصلحة الحقيقية للامة .

وفى مصر (*) كانت نظارات الاوقاف مبعثرة الى ان وحدها محمد علي تحت اشراف ادارة عامة ولكن الاصلاح لم ينجح الى ان اعاد الكرة الخديوى عباس الاول الذى قصر اختصاصات الادارة المذكورة على مراقبة سير النظار واستعزال القاضي لكل من ثبت عليه اهمال او رشوة منهم . وقد أسس الخديوي اسماعيل وزارة الاوقاف وعوضها الخديوي توفيق بادارة عامة تخضع للسلطان مباشرة وذلك مخافة تدخل انجليزي فى شؤون الوقف اذ ظل تابعا للحكومة

(*) كانت ثلاثة أرباع الاراضي الزراعية فى تركيا العثمانية كلها فى ملك الاوقاف وتدل الاحصائيات المصرية لعام 1935 على ان سبع الفدادين المزروعة فى ملك الاحباس وبلغت المحبسات الجديدة ما بين سنتي 1930 و 1935 نحو الخمسمائة و 8 000 هكتار من الارض وكان عدد المتمتعين بأرباع الاوقاف 70 000 نسمة وقد بلغت ميزانية الاوقاف عام 1934 و 1935 (وهي فترة الازمة الاقتصادية) 1 570 000 جنيه ووصلت مداخيل وقف الاسرة المالكةالى مليون جنيه وقد الغي الوقف المعين او الخاص فى سوريا عام 1949 وفى مصر عام 1952 فى حين ضوعفت مراقبة الاوقاف العمومية نظرا لرسالتها الاجتماعية .

رة في يد اعداء الاسلام لانها لم تجد من يدافع عنها ويذود عن حياضها او بعبارة صريحة لم يجد هؤلاء الشباب من يعلمهم الاسلام ، فتلقفته يد الكفر وشحنت عقولهم بالسموم وبذلك تمكن من قلبهم عداء للاسلام ، واصبح هذا العداء يكون من ثقافتهم وسلوكهم جانبا مهما ، ومنذ ايام التقيت بشاب ممن شعر بالخطر يحدق به وباخوانه في الداخل والخارج ، فما ان سألته عن موقف وسطه الذي يعيش فيه من عقيدة الاسلام ، حتى انفجر في وجهي قائلا : أؤكد لك ، ان جماعات كبيرة اتصلت بها في الداخل والخارج فوجدتها قد قررت مصيرها بالنسبة لعقيدة الاسلام وهذا القرار حاسم ، وهو : التحلل من الدين بل اكثر من ذلك ، الهجوم عليه والاستهزاء به ، وزاد قائلا في حدة وغضب: ان هؤلاء الشباب سيخاصمون ادعياء الاسلام يوم القيامة لانهم اهملوهم ولم يكلفوا انفسهم تربيتهم او تهيء الاجواء الصالحة لهم ، مما جعلهم غرباء عن الاسلام .

وهذا الحصن او هذا الشاب لم يسقط في ايدي الاعداء بفضل تربية تلقاها عن ابويه البسيطين وهو فقير ، وهناك حصون اخرى لم تسقط بعد وان كانت تكاد تستنفد مقاومتها ، وهي بذلك في طريق الاذعان والاستسلام ، اعرف بعض هؤلاء ممن يدرسون في الخارج ، أما في الداخل فان نظرة نلقيها على الجو المحيط بشبابنا المتعلم ترتد اليك منقلبة بالتشاؤم من المستقبل لان الاسلام كتربية وثقافة وسلوك يكاد يفقد سلطانه بجيلنا الصاعد مما يجرده من كل حصانة ويتركه نهبا للاحتلال الفكري والثقافي ، مع ان كثيرا من شبابنا — ان لم اقل كلهم — فيه استعداد للخير وللفهم ولكن يحتاج لمن يأخذ بيده لان التربية ونقل التراث عملية سلوكية تحتاج الى اتصال وقدوة ودرس وتأكيد وتلقين .

وبالصدفة — ان كانت في الحياة صدفة — قمت بالامس بتجربة بسيطة وارتجالية حيث مكنت اخا ذا ثقافة اجنبية محض ومن أم أجنبية واب مسلم — مكنته كتاب الاخلاق في القرآن للمرحوم العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز ، والكتاب رسالة نال بها صاحبها درجة الدكتورة من السربون ومكتوبة باللغة الفرنسية طبعا ، ولم ادرك انني قمت بعمل جليل حتى التقيت بهذا الشاب — ذي وظيفة محترمة — بعد ايام حيث اقبل علي بحماس ، والح علي ان اهدي له الكتاب ، لانه اخذ بمجامع قلبه ، وعلمه من الاسلام ما لم يعلم كما انه روج الكتاب بين بعض اخوانه .

عجيب .. كتاب كان عندي في زاوية مهملة اقدمه لشاب تربى تربية غربية يحدث في نفسه هذا الاثر كله، ماذا كان يحدث في اوساط هؤلاء الشباب لو كانت قيادة اسلامية واعية مؤمنة تتصدى للدعوه الى الله دون وجل ولا نفاق ، ودون طمع ولا التواء ، مخلصة الدين كله لله ، أرأيت لو كان لنا ذلك ؟ أي مصير عظيم كان سيكون لهذه الامة ؟ واي مجد كنا نستطيع بناءه بهم ؟ .

واذا كان الذين يتربون في اجواء اجنبية في خطر ويعتبرون قلاعا محتلة فما ذا بقي لنا من شبابنا فلنول اذن وجهنا شطر المعاهد الاسلامية نلتمس عندها املنا فهل حقا وصراحة يوجد هناك املنا ؟ وهل ستنطلق منها تلك الجموع الحاملة لمشعل الحضارة الاسلامية والداعية لرسالة الاسلام ؟ .

ان الحق يفرض علينا ان نكون اكثر صراحة وجرأة ويجعلنا نصرح بأن اغلب اولئك الشباب بعيدون عن الفكرة الاسلامية السليمة وعن التفكير الاسلامي الحي ، وبالتالي عن الرسالة الاسلامية بل اني ازعم اكثر من ذلك — وانا اتكلم عن خبرة عشتها —

ان الذين ناصبوا الاسلام العداء وجاهروا بالقذف في معالمه جلهم ممن تربوا في احضان تلك المعاهد ، وخصوصا اولئك المرضى بحب الظهور الذين يتخذون (المخالفة) وسيلة لذلك ، فتراهم يحرفون الكلم عن مواضعه ويتأولون في الدين ليفسدوه، فالذين قالوا ان الاسلام ليس دين حكم والفوا في ذلك واستدلوا بنصوص حرفوها هم من تلك المعاهد ، بل ان مواقف بعض المؤسسات في العالم الاسلامي لم يكن موقفها من الدعوة الاسلامية الحقة مشرفا ، فلو ان هذه المعاهد المنبثة في ارجاء العالم الاسلامي كانت سليمة المنهج والعمل لاخرجت قيادات حضارية تمدن العالم بهذا الدين (*) ، ولقد نبه الازهر الشريف لهذا

(*) لا ننكر ان هذه المؤسسات اخرجت لنا علماء وافاضل نعتز بهم الا ان كلامنا ينصب على الاحوال الراهنة ويمس بعض الماضي القريب .

سلاحنا في المعركة

للأستاذ عبد السلام الهراس

اننا نعيش معركة خطيرة احببنا ام كرهنا وان العصر الذى كان يمكن للامم ان تنعزل بنفسها وان تقرر غلق حدودها عليها دون الخارج قد انقضى ، فالحضارة الجديدة التي قربت المسافات الناسعة وجعلت الكرة الارضية متقاربة الاجزاء متصلة الافكار والعقول والاذواق والعادات والاخلاق قضت على كل محاولة للانفصال عن الجيران والاباعد ، ومعنى ذلك اننا نعيش فى عالم جديد ، ولهذا العالم الجديد اتجاهات متباينة ، وقوى متضاربة ، كل واحدة تريد السيطرة ، وهذه السيطرة لم تعد ممكنة عن طريق السلاح ، فلقد اثبتت تجربة السويس وكوبا فشل هذا الطريق وبقي طريق آخر هو الوسيلة الناجعة للسيطرة : الفكرة . لذلك نجد الدول العظمى ترصد ميزانيات ضخمة للتسلل الثقافي وللغزو الفكري ، فعند ما نسمع بأن روسيا او امريكا مثلا قد اقامت مدرسة او جامعة او مكتبة فى بلد ما ، فاننا نفهم من ذلك انها اقامت قاعدة عدوانية من طراز العصر ، ولهذه الدول الكبيرة الوسائل المادية والادبية للغزو الثقافي وللغارة الفكرية، وبهذه الوسيلة استطاع الاستعمار ان يحقق اهدافا عظيمة فى البلاد الاسلامية .

والذي يهمنا اولا وبالذات ان نشعر باننا نعيش فى قلب هذه المعركة ، او بعبارة اصح يجب ان نؤمن بان هذه المعركة هي ضدنا ومن اجل السيطرة علينا فنحن طرف فيها ، وما دمنا كذلك ، ينبغي ان ندرك حقيقتها ونحدد طبيعتها ، لان الشعور بذلك يبعث على الاستعداد المناسب للدفاع والهجوم ، فالدنيا صراع وانما توخذ الدنيا غلابا ، وسلاح أي امة فى هذه المعركة التي نخوضها هو : الافكار والرجال .

فما سلاحنا نحن فى هذه المعركة وماذا جندنا لها من رجال وأفكار ؟

يجب ان نعترف باديء ذي بدء اننا معتدى علينا، فلسنا فى دور الهجوم ، بل فى دور الدفاع ، فهل نقوم نحن بهذا الدور ؟ الواقع ، اننا دافعنا دفاع الابطال عن كياننا السياسي ، فلما كف الله ايدي الاعداء عنا توهمنا ان المعركة انتهت ، وهي فى الواقع ، لا تزداد الا حدة واشتدادا ونتيجة لذلك التوهم استسلمنا للدعة والتمتع ، وتركنا حصوننا التي كنا نعتمد عليها فى المعركة تتساقط فى ايدي الاعداء : اي تركنا اجيالا من شبابنا يضيعون فى غبار المعركة فيصطادهم العدو واحدا واحدا ، ليحولهم فيالق ضد امنهم ، وهكذا . نجد شبابا بل رجالا يجهلون عن دينهم كل شيء ويعرفون عن غير دينهم كثيرا من الاشياء ، وان كانوا قد لقنوا نظريات ومطاعن عديدة تقدح فى دينهم وتشوه نظرتهم اليه وتمسخ حقائقه فى ادمغتهم وتبشع صورته فى عيونهم فينشئون على معاداته ، وينمون على التنصل منه وتتركب فى انفسهم عقدة النقص : يخجلون ان يحملوا اسم مسلم حتى اذا وسم احدهم بهذا العار فى بلد اجنبي صب جام حقده على الاسلام مع الحاقدين وفى الحين تراه يعلن استنكاره لتعدد الزوجات فى الاسلام واستبشاعه للطلاق واستهزاءه من نظام الزكاة، واستخفافه بالصلاة واستقباحه لقطع اليد فى السرقة، وعن همجية رجم الزاني ، وحد شارب الخمر ، وهكذا، بالنسبة لتعاليم الاسلام الاخرى فان اتصل به من يفهم الاسلام وسرح له حقائقه واطلعه على حكمة قوانينه وفلسفة تشريعاته وعباداته اذهله الامر ، وظن انك تخترع له دينا جديدا ما سمعه قط من كهان ثقافته واساتذته ، وقد يرد عليك بعضهم بابتسامة صفراء يختلط فيها الخبث والجهل بالاستهزاء .. والشباب من هذا النوع كثير ، تزداد كثرته مع مرور الايام كما يزداد جهله بالاسلام باطراد نموه ، وهكذا تسقط حصون

التوجيه الديني في التعليم المغربي

بقلم : الأستاذ الحسن السائح

تعود المتكلمون عن التعليم الاسلامي والديني فى المغرب ، ان يستهلوا هذا الموضوع بمقدمة طويلة عن تاريخ الاسلام فى المغرب ، وتاريخ هذا النوع من التعليم به ، وانا مع تقديري لمثل هذه المقدمات ارى انها تشغل المستمع او القارىء بالتاريخ وتبعده عن الواقع ، كما تشحن ذهنه بايحاءات ربما لا تتناسب وممكنات عصرنا وواقع وطننا .

ولهذا فلست أريد من هذا البحث ان يكون تاريخيا بقدر ما اردت ان يكون وصفا لواقع التعليم الديني فى المغرب ، واذا كانت الحاجة تدعو فى بعض الاحيان ان يكون هذا الموضوع فى حاجة الى مقدمة لتبرر ضرورة وجود التعليم الديني ، ونوضح ان القضية ليست تقليدا وانما هي استجابة لمتطلب شعبي يرتكز على اصول نفسية عميقة . ولذلك فقد شغل هذا التعليم المهتمين بالمغرب في كل وقت وحين .. اهتموا به فى العصور المتأخرة سواء قبل الاستقلال يوم طالب لتقويته الجميع لبث الحمية الوطنية ، وتقوية المناعة الذاتية لمقاومة الاستعمار ، او بعد الاستقلال يوم دافع عنه كثير من المومنين بالتعليم بحماس منقطع النظير .

والواقع أن عهد الاستقلال عرف احتداما ونقاشا فى هذا الموضوع : وهو دليل على ان المهتمين بالتعليم فى المغرب اخذوا ينظرون الى التعليم نظرة جدية لا تعرف العاطفة ، وانهم يريدون ان يعرفوا ضرورة كل شيء عن اقتناع .. لا عن اتباع ..

ولهذا كان من اللازم ان يتحدث المهتمون بالتعليم الديني عن التطورات التي دخلت لهذا القطاع من التعليم ، والاهداف التي يرغبون فى تحقيقها ، فهم ليسوا بجامدين ولكنهم مؤمنون ، ومؤمنون باصالة التعليم الاسلامي ، وهذا بحث متواضع من الابحاث التي تقدم فى هذا الموضوع .

ان التربية عملية ذهنية وجسمية ونفسية تجعل المواطن ، قادرا على كسب العيش الشريف فى هيئة اجتماعية هادفة الى الخير والجمال ، فهي اذا راجعة لذات الفرد ومصلحته وذات الجماعة ومصلحتها ، ولا يمكن الحصول على جماعة متقدمة دون تربية ، وكما يقول جيفرسون لا يمكن الحصول على جماعة متطورة وعلى ديمقراطية دون توفر شعب واع . والتربية المنظمة ضرورية لكل امة متمدنة ، لانها وسيلة لتنظيم الحياة فيها ، ولذلك يجب ان تكون مجسمة ومتفقة مع رغبات الامة ومناسبة لعصرها ولسائر الانظمة التربوية العامة فى كل البلاد المتمدنة ، وقد كان الاستعمار يحاول دائما ان يهون فى قيمة التربية والتعليم وان ينحرف اذا ربى واذا علم .

ولهذا فان الاستقلال كان هو الوسيلة الوحيدة للنهوض بالمستوى الثقافي الكامل للامة المغربية عن طريق تعليمها ، فاذا كان الاستعمار يحاول الغض من التعلم والثقافة المحلية ويوجهها توجيها منحرفا لصالحه ، ومكونا لخليط من المدارس المختلفة التي ادت الى تكوين طبقات متصارعة ، فان الاستقلال اعطى فرصة لتفتح التعلم المحلي المساير لمصلحة البلاد ...

وبقطع النظر عن التربية الاولية العائلية التي تسهر عليها الاسرة المؤمنة ، فان توجيه التعلم اصبح اليوم فى كل البلاد المتدينة مركزا فى وزارة خاصة

الخلل وهو الآن يحـاول اصلاحه لكي يخـرج للامـة الاسلامية رجالها المحتاجة اليهـم .

ان المؤسسـات الدينية فى العالم الغربـي تخـرج كثيرا من الفدائيين الذين يجوبون اقطار افريقيا وآسيا وغيرهما من اجل الدعوة الى دينهم ، وبهذا استطاعوا ان يؤسسوا جمهوريات مسيحيـة بجانـب البـلاد الاسلامية بافريقيا .

وان مما يؤسف له ان لدينـا خامـات عظيمـة وطاقات شديدة ولكن كل ذلك يضيـع اذا لم نحـاول استغلالها وتوجيهها .

مما تقدم نستطيع ان نقدر هذا النوع من سلاحنا اي الشباب ، فنقول : نكاد نكون عزلا من هذا السلاح ، ولا يعني هذا اننا نعدمه وانمايعني « اننا » لا نبحـث عنه وانما نسلمه لاعدائنا ليستخدموه فى تخريبنا ، او على الاقل نجعله عديم الجدوى بالنسبة الينا ، ومـا حظ أمة من النجاح ان لم يكن لها شباب يتوقد غيـرة وحماسة ونشاطا فى سبيل بنائها ؟

وبعد فان سلاحنا فى المعركة ـ كما قلنا ـ يتمثل فى ناحيتين : الرجال والافكار وقد تكلمنا عن عنصـر هام من رجالنا وقومناه بعض التقويم وفى مقـال تـال سنتحدث عن سلاحنا الثاني :

الافكار فالى اللقاء على صفحات هذه المجلـة في المقال المذكـور .

تطوان : عبد السلام الهراس



قرار بلدي فرنسي . ومنذ ذلك والتعليم الديني الفرنسي محدود الى عصر دكول حيث اصبح يتقاضى الاعانات فالحملة على التعليم الديني كانت ضد النظام الكنيسي المتحالف مع البرجوازيةضد حريات الشعوب، فاتخذ التعليم طريقة الحياد المدرسي ، اما فى المغرب والعالم الاسلامي فان الدين الاسلامي يعتبر موجها اجتماعيا خطيرا فلذلك يجب ان يدرس ليفهم ويكون عونا على التربية الصحيحة والفاضلة فتعليم الايديولوجيات اصبح ضروريا فى عصر الاشتراكيات لرعاية النموذج النفسي للمواطن ، غير اننا نتساءل دائما عما يراد بالتعليم الديني . والذي اعتقده ان التربية الدينية والتعليم الديني يجب ان يخضع لمقتضيات التطور الداخلي للامة والتطور العصري الحديث ، ولذلك يجب تحوير برامج التعليم تحويرا عميقا لتصبح شديدة الفعالية ، وليتاتى ذلك يمكن ان نقسم المواد الى ثانوية واولية اساسية ، ونعتبر كل مادة واثرها فى التكوين العقلي والخلقي ، ثم الاكثار من المواد الاساسية والتخفيض فى المواد الثانوية ومراجعة المواد الملقنة حتى تعرض عرضا جديدا ملائما وهذه العملية ستساعد على اتمام عملية التربية بصفة رياضية معقولة كما تساعد من جهة اخرى على الاقتصاد فى مدة التعليم حتى لا يظل البرنامج مرهقا بمواد مكررة ويمكن اختزالها وبذلك يتحقق مبدا آخر من مبادىء التعليم وهو انتشاره واعطاء الفرص للجميع ، ولا شك ان الصفة العلمية ، والتربية الصادقة والتوجيه الفني يجب ان تكون فى المرتبة الاولى لنساير عصر الالة والذرة .

وقد اصبح من اللازم التخلص من الاسلوب التعليمي المبني على الافاق الضيقة ، فبهذا يجب الاتصال بمختلف الحضارات والثقافات عن طريق دراسة اللغات الحية والآداب الاجنبية والتاريخ والجغرافية العامين . سعيا لتحقيق التضامن البشري وفهم الاحداث المعاصرة .

ويجب ان نفهم دائما ان دراستنا يجب الا تنفصم عن ثقافتنا العربية وحضارتنا الاصلية الاسلامية فان تراثنا الحضاري وثقافتنا العربية الاسلامية يجب العمل على احيائها واعطائها محتوى جديدا عصريا وهي فى اصالتها لا تؤمن الا بالحرية الانسانية، وقد استطاعت ثقافتنا الاسلامية ان تخلق وتنمي فى الانسان ضميرا اجتماعيا حرا الف بين الناس مهما اختلفت الوانهم وعقائدهم دون ان يفسد اراداتهم الحرة لهذا فسيكون

[د]ينا عاما تثقيفيا متسعا ، وعندما نقول بتوجيه [الت]عليم نعني جعله هادفا الى تكوين مواطن مؤمن [بق]وميته وصالحا ونشيطا ومسهما فى بناء كيان الوطن [و]لاجل ذلك لابد ان يكشف عن المعطيات ، والا يكون [مس]توردا من الخارج ، ولن يكون التوجيه الا على [اس]اس تخطيط (يدرس الحاجات واجدرها بالسبق) [ويد]رس الامكانيات الداخلية والخارجية ، ومتطلبات [الب]لاد العاجلة والآجلة ومسايرة التطور الثقافي العلمي العام والعمل على الاضطلاع بمسؤولية الثقافة [و]بالاخص الثقافة الاسلامية العربية التي ستكون [م]يدانا خصبا للتعرف على الفكر المغربي واداء رسالته العلمية والحضارية والانسانية . واذا فالضرورة [أ]كيدة لتعلم اللغات الاجنبية بعد تعلم اللغة العربية التي هي اللغة الاصلية المكونة للتفكير المحلي والتي لا تقوم الشخصية بدونها ، وكما يقول نيتشة .

اللغة تلازم الفرد فى حياته وتمتد الى أعماق كيانه وتبلغ اخفى رغباته وخطواته وهي الرباط الحقيقي الوحيد بين عالم الاجسام وعالم الاذهان .

ويقول مالينوفكي ايضا : اللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم او للتوصيل ، بل وظيفة اللغة هي انها حلقة فى سلسلة النشاط الانساني المنظم ، انها جزء من السلوك الانساني ذاته . انها ضرب من العمل وليست أداة عاكسة للفكر .

ذلك لان اللغة ترتبط بالفكر ، ومن يفقد لسانه او يترجم بلغة اجنبية فهو يترجم غير أفكاره الدينية . لان الثقافة الدينية الاسلامية هي مصدر حرارة وقوة ، لتنظيم مجتمعنا وصهر كل الافكار الصالحة فيه ولان الثقافة هي التربية الدينية الصالحة الضرورية لتنمية العقل والجسم والذوق فى كل مراحل العمر الانساني . ونحن متفقون على ضرورة التوجيه الديني وانما نختلف فى الاسلوب والمنهاج .

وقد ظل التعليم فى المغرب فى عهد الاستقلال محتفظا بالتعليم الديني لان المسرفين عليه متفقون [ع]لى وجوب احتفاظ التعليم بصبغته الروحية الدينية [و]لانهم يتفقون أن مبدأ العلمانية يضر ببناء التعليم [و]بالمجتمع المغربي لان علمانية المدرسة الغربية كانت [نت]يجة حتمية لعدة عوامل اهمها انها فى معظم هذه الدول رد فعل ضد الكنيسة منذ سنة 1882 فى عهد [ج]ول فري الذي نادى بلائكية التعليم ومجانيته واجباريته ، وقد سبق عمله ببادرة سنة 1833 حسب

(تسمي وزارة التعليم) او غيرها من الاسماء تسهر على تنمية عقلية الطفل ونفسيته بعد المرحله الاولى من التربية العائلية ، اذ من الضروري ان تترك العناية الاولى بالطفل لعائلته لان التربية المثالية لا يمكن أن يقوم بها غير الابوين ، ولا تمدنا المساعدة المدرسية الا بالقدر الادنى من تربيته الشخصية ، ومن المعلوم ان بناء الشخصية يبدأ في ظروف مبكرة قد تصل الى (الحمل) وتلعب المشاهدة دورها الاسمى في تكوين شخصية الفرد ، فالنموذج الاول هو الذي يظل مسيطرا على عقلية الطفل وتكوينه .

فمهمة الاباء في التربية الاولى عظيمة وذات مسؤولية كبرى ، واما شخصيا اومن ان الاسرة هي المربية ، وان التربية التي تصل الى الروح عن طريق الاذن والمشاهد اهم وارسخ من التي تصل عن طريق المعلم والكتاب ، لان (الاولى) تكون مهضومة وطبيعية ، و (الثانية) تكون عارضه ، والانطباعات التربوية التي يفطر عليها الطفل لا تمحيها امواج الايام، وما يحدث بعد تربية العائلة انما هو التطور في التربية، وذلك لابد من التعلم ، لان مبدا العائلة في التربية لا يمكن ان يعتمد عليه الى أبعد حد ، لانها تربي ولا تعلم في الغالب ، ولانها تختلف في بعض العائلات عن بعضها مما يؤدى الى تكوين طبقات مختلفة التربية ، ولانها لم تعد معتمدا عليها في بعض مناطق اخرى من العالم ، لذلك فقد وكل امر التربية حتى في الجزء الاول من حياة الطفل الى المؤسسات التعليمية التي بقيت في العالم الديمقراطي تتساند مع التربية العائلية في تكوين الفرد . .

وكان الاستعمار الذى احتل بلادنا من اكبر عوامل نفتت التربية الاسروية والخلق الوطني الذاتي والتشكك في الفضائل الاخلافية التى اكتسبها المغاربة على مر القرون .

وفعلا كافح المغاربه الاستعمار السياسى ، وهم يكافحون ضد الاستعمار الاقتصادى ، غير ان الاستعمار الفكري والخلقي سوف لا نتخلص منه الا باعداد جيل جديد ، واذا سوف لا نعتمد على التربية العائلية بقدر ما نعتمد على تربية المدرسة ، فما هو التعليم المنشود الذي نتوخاه من المدرسة المغربية ، ان الهدف الاسمى الذي كافح من اجله المغاربة هو تحقيق الحرية الاجتماعية التي ينتج عنها حرية التعليم ، ومعنى حرية التعليم كما يفهم من المنطق السليم الاجبارية والمساواة بين افراد الشعب في الأخذ بنصيب منه ، وواقعيته وملاءمته ، لان الامة (لتكون امة) يجب أن يكون جميع افرادها تلقوا تعليما مشتركا موحدا ، ليتعايشوا موحدين لهذا لابد من اجبارية التعليم ليعيش المواطنون في بلادهم احرارا يعرفون القانون الاجتماعي ويدافعون عن حقوقهم المشروعة ، وطبيعي ان الجميع متفق على تحديد حرية التعليم التي ليس معناها حرية المناهج والبرامج وفتح المدارس بغير خضوع لنظام مشروع . وانما يعني الحرية بالنسبة للفرد الذي يجب الا ينقص من حقه كما يجب ان يأخذ بتعليم لا ينزعه من وسطه .

فنجب اجباريه التعليم الابتدائي ثم الثانوى اذا توفرت الامكانيات ، وبالنسبة للمواطن الذي يريد أن يتابع دراسته ويتخصص في أي فرع من فروع المعرفه التي يريدها ، كما يجب ملاءمه البرامج لواقع الحياه ، اذ نحن نعني بالحرية الاجتماعية الحرية التي يجب ان تحد من الفرقه والاختلاف الشكلي نتيجة الجهل بالمبادىء الاساسية للمعرفة ، لذلك لابد من توحيد البرامج والمناهج وتشجيع التعليم الحر اذا لم يستطع الدوله في نطاق الوحدةوالانسجام في الاساس الجذرى الصحيح المساعد للبلاد فتية على تكوين اطرها وتوحيد تفكير اجيالها الصاعده ليكون جيلها متحدا في عقله وروحه ، قويا في تفكيره وجسمه ، ذا قومية وطنيه عميقة صادقة ، ولذلك لابد من مراعاة عناصر ضرورية في تكوين المغرب الجديد أولها ان ينشأ جيل مسلم متفهم للاسلام ، عربي اللسان مغربي القوميه ، متصل بتاريخه المجيد ، وواع لمشاكل عصره، وهادف الى رفع مستواه الاجتماعي والاقتصادي واداء رسالة انسانية كبرى وبالاخص في افريقيا المتوثبة ، والعالم الجديد المتعطش للسلام والتقدم . ولذلك لابد من الاعتماد على اللغة العربية والدين الاسلامي لتركيز اصالة التربيه مع السعي الى توحيد صفوف الامة عن طريق وحدة التعليم ومجانيته واجباريته في مرحلته الاولى وفعاليته حتى لا يكون مواطنين نظريين لا يساهمون في بناء البلاد فنيا ومهنيا وتقنيا فنظل عالة على الدول في تكوين الاطر ، ولهذا يجب ان يساير تعليمنا المقتضيات الاقتصادية حتى يتكامل معها في تكوين الاطر وسد الثغرات ، بل يكون موجها للحياة الاقتصادية وعاملا على رفع المستوى الاجتماعي والاقتصادى للامة كما يكون تعليما مكونا للمواطن

3 — ادخال المادة الحديثة على منوال المعاهد عصرية معربة ، واعتبار اللغة الاجنبية مبدئيا لغة افة لا لغة تلقين واصبحت حصص المادتين الاسلامية الحديثة تتوفر على الضروري من الساعات مع تبار كل من المادة الاسلامية والمادة الحديثة كمجموعة ام جزئت عناصرها حسب المستويات من الابتدائي ى الثانوي الاول ، ففي كليهما اعتبر الجزء ضروري للتكوين الابتدائي ، تم اعتبر في الثانوي ع من التكوين العام في كل من الثقافة الاسلامية ، ينما خصص السلك التوجيهي في كلتا المادتين للاعداد لعالي ، وهذا التقسيم يقصد منه تمكين التلميذ ن جميع الاسلاك من التكوين العام المنسق بحيث اذا نفصل بعد الحصول على الشهادة الابتدائية او الكفاءة يكون قد الم بما يمكنه من مواجهة الحياة حسب مستواه ، ويكون بذلك قد اخذ الحظ الواجب من جميع فروع الثقافة الانسانية كما هو معمول به ى الدول السكسونية ، ويهدف فحوى البرنامج والمنهاج الى :

1 — صون التراث العربي الاسلامي .

2 — وضمان تدريس المادة العلمية الحديثة معربة .

وقد قسم البرنامج الجديد مراحل التعلم الى اسلاك ثلاثة) .

السلك الابتدائي :

يتضمن هذا السلك خمس سنوات بالنسبة لتلميذ البالغ عمره سبع سنوات ، وهذا السلك يحتوي على مرحلتين : (الاولى) الكتاب الذي هو عبارة عن فصول تحضيرية وابتدائية اولية ، (الثانية) الطور الحقيقي الموازي لما يوجد الآن في المعاهد الاسلامية ، والمادة الحديثة في هذا الطور تنوبها اثنى شرة ساعة ، والباقي للمادتين العربية والاسلامية.

اما الثانوي فالسلك الاول منه تدرس فيه واد الاسلامية والعربية على أن ترتكز تركيزا ناسب مع مستوى التلميذ كما تعتمد المادة حديثة على ما يستلزمه التكوين العام .

فالمادتان العربية والاسلامية ينوبهما نصف الحصة ، في حين ان المادة الحديثة باضافة التاريخ تنوبها نصف الحصة كذلك ، ويلاحظ في خصوص اللغة الاجنبية ان التلميذ يكون درس في الابتدائي ساعات اسبوعية خلال السنوات الثلاثة في السلك الاول من الثانوي بحيث لا يكاد يصل الى مستوى الكفاءة العربية حتى يكون قد حصل على معلومات وافية في اللغة الاجنبية ، وفائدة هذا السلك انه يضمن فيه التوازن بين مختلف المواد ، وهو علاوة على ضمان التكوين العام الضروري يعتبر مرحلة علمية تتعين فيها الاتجاهات وتتمحص فيها الميول استعدادا للشعب الشرعية او العلمية او الادبية .

اما الثانوي الثاني فيستمر في تقوية التكوين العام سواء في الثقافة الاسلامية او في العلوم الحديثة أو في اللغة الاجنبية ، والملاحظ في الشعبة الشرعية أن الرياضيات والعلوم خصصت لهما سبع ساعات ، كما خصصت خمس ساعات في اللغة الاجنبية ولكن توجه العناية باستمرار لتقوية التكوين العام في التوجيه خاصة نحو المادة العربية واصول الثقافة الاسلامية الضرورية في التخصص في شعبة الشريعة ، وفي شعبة الاداب وشعبة العلوم حيث تركز في الاولى الدراسة الادبية وفي الثانية الدراسة العلمية ، ووجهت عناية خاصة لشعبة العلوم وان كان يواصل فيها التكوين العام الاسلامي العربي بنسبة تعدو ثلث الحصص ، الا انه خصصت نفس العناية للغة الاجنبية التي هي اداة ضرورية كالعربية للتضلع في العلوم ، وافرد للرياضيات والعلوم وحدهما اكثر من ثلث الحصة ، وفرضت في السنوات الاولى للمرحلة الانتقالية على التلاميذ سنة توجيهية بين الثانوي والعالي واستمر العمل بنظام العالمية (الحرة) كما كان معمولا بذلك من قبل .

وفائدة الاحتفاظ بالعالمية انها كانت تكلل الجهود الفردية التي يبذلها طوال عدة سنوات فريق من الطلبة الذين فاتهم الركب لتقدمهم في السن ، نعم لقد حور نظام التعليم الابتدائي والثانوي ، أما العالي فقد ركز في جامعة القرويين . اذ أن التعليم العالي في القرويين كان يشمل فرعين للتخصص (أحدهما ادبي) والثاني شرعي ، (كان الاول) تستمر فيه الدراسة الادبية واللغوية والتاريخية ثلاث سنوات ، يمنح الطالب في السنة الاخيرة منها بعد اجتياز الامتحان شهادة العالمية (القسم الادبي) التي تخول له حق التعليم الثانوي أو العالي بعد تدريبه

مذهبنا التعليمي ملائما بين الذاتية وبين التطور ، لان المبدأ الاساسي الحر سيظل مخيما على علاقة الفرد المثقف بالمجتمع الحر الانساني المتدين ، ويرى (كونيي) وهو علم من اعلام التاريخ المعاصر ان الدين هو عماد المجتمعات التي عليها وفيها تقوم الحضارات ، بل سيطر على تفكيره التاريخي ضرورة وجود الروح الدينية مهما كانت مسيحية او اسلامية بوذيةهندوسية لبناء الحضارة ، واذا فالمذهب هو في المحافظة على الاصول الاولى للثقافة المغربية والعمل على تكوين برنامج يطابق المتطلبات الاقليمية والواقع المغربي مع العناية بدراسة اللغات الاجنبية التي تفتح لنا باب التعارف وتبادل الثقافات ، وبذلك نسعى الى اعداد جيل مغربي متحد في عقله مهذبا في روحه ، مسلما في اسلامه ودينه عارفا بعصره .

والواقع ان التربية الروحية ضرورة لتكوين الشخصية شأنها شأن التربية الجسدية والعقلية ، وتهذيب الروح حسب التجارب التربوية قائم بذاته ، فيمكن تطوير الروح وتربيتها على حدة ، وتربية الروح انما تكون عن طريق معرفة الله والايمان بالشخصية الانسانية ، ولا شك ان كل تعليم يخلو من عنصر التربية الروحية فهو تعليم لا يفيد الانسانية والفرد ايضا ان لم يكن مؤذيا لهم .

وان كلمة التربية الروحية متنوعة ماذا يراد بهذه التربية ؟ انها تربية المحبة والخير والجمال والعزم والثقة في الروح الانسانية تربية مشاعة ، وهذا انما يتأتى بطريقة تلاوة النصوص الدينية وفهمها فهما صحيحا خاليا من الحرفية ، مع تدريب على ممارسة الطقوس الدينية التي هي الرياضة الروحية ، وكما ان العقل انما ينمو بالرياضيات بالمفهوم العلمي ، والجسد ينمو بالرياضة الجسدية والتمارين العضوية فكذلك التربية الروحية لابد لها من تدريبات وممارسة طقوس ، وهذا يتوقف على المعلم الصالح الذي يكون نموذجا صادقا ، وصدق المعلم وتغلبه على نفسه

وكبحه لشهواته هو التربية السرمدية التي تكون روح التلميذ ، ويركز التعلم الديني المغربي في (التعليم الاصلي) على انه يوجد بصفة عامة في كل انواع التعليم الاخرى كما سأذكر (وللعناية بالتعليم الاصلي) او ما كان يسمى بالتعليم التقليدي او الديني انشئت له مصلحة خاصة في وزارة التعليم في أول عهد الاستقلال وهذا دليل على مدى احتفاء المغاربة بهذا النوع من التعليم ، وسعت هذه المصلحة في تحقيق عدة اصلاحات في هذا القطاع من التعليم كاخراج الاقسام الثانوية والعالية من المساجد ، واطراد نمو التلاميذ والطلبة وتحديد السن تحديدا منطقيا بالنسبة لها ، واصبحت لها ادارات كما اصبح لاساتذتها اطار رسمي واحدثت منح في شكل اعانات لتلاميذ الاطوار الاولى والثانوية ومنح لطلبة العالي وانتهى نظام الخبزة الذي كان معمولا به في المعاهد الدينية ثم عوض بالمنحة واصبحت مصاريفه من ميزانية وزارة التربية الوطنية بعد ان كانت بوزارة الاحباس ؛ والى جانب هذا انشئت معاهد اخرى في كل من سوس ووجدة والجديدة زيادة على المعاهد الكبرى في فاس ومراكش ومكناس وتطوان ، ومعاهد ثانوية كمعهد الشاون والحسيمة والناضور والقصر وطنجة .

اما البرامج فقد ادخلت عليها تغييرات جعلتها تشتمل على المواد الحديثة بما فيها اللغة الاجنبية الى جانب المواد الاسلامية ، واقتضى ذلك بالطبع احداث اماكن دراسية او استغلال معسكرات وثكنات ، كما اقتضى الحال ايضا استقدام طائفة من الاساتذة الشرقيين . وانشيء معهد للفتيات في كلية ابن يوسف بمراكش ، ومعهد للفتيات بالقرويين قبل أن تدخل الفتاة الى التعليم الازهري في مصر كما انشئت مدرسة المقرئين بفاس رغبة في تخريج معلمين قادرين على تجويد القرءان .

ثم وثب التعليم التقليدي وثبة اخرى سنة 1959 وحقق اصلاحات جديدة حيث ارتفعت حصص دراسة المادة الحديثة ونظمت داخليته واصبح يحمل اسم التعليم الاصلي بدلا من التعليم التقليدي ، ويشمل الاصلاح الجديد تغييرا جوهريا ادخل على هذا التعليم في مراحله كلها فشمل الاسلاك الثلاثة الابتدائي والثانوي ، والغاية الجوهرية التي يهدف اليها الاصلاح هي :

1 — الاحتفاظ للثقافة الاسلامية بقوتها ومتانتها وشمولها مع توزيع حصصها توزيعا منطقيا

2 — تحقيق فكرة التعريب في هذا النوع من التعليم .

عقيدة القضاء والقدر

بقلم : الاستاذ عبد الله الجراري

ان للعقائد سلطانا على الاعمال البدنية — فما يكون في الاعمال من صلاح او فساد — فمرجعه فساد العقيدة وصلاحها — ورب عقيدة واحدة تاخذ باطراف الافكار فيتبعها عقائد ومدركات اخرى ، ثم تظهر على البدن باعمال تلائم اثرها في النفس ، ورب اصل من اصول الخير ، وقاعدة من قواعد الكمال اذا عرضت على الانفس في تعليم او تبليغ مبدء يقع فيها الاشتباه على فهم السامع فيلتبس عليه بما لبس من قبلها وتصادف عنده بعض الصفات الرديئة والاعتقادات الباطلة فتعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه ، وفي كلا الحالين يتغير وجهها وتختلف اثرها ، وربما تتبعها مقالات فاسدة مبنية على الخطا في الفهم ، او على سوء الاستعداد فينشا عنها اعمال غير صالحة ، والمغرور بالظواهر يظن ان تلك الاعمال انما نشات عن الاعتقاد بذلك الاصل ، ومن مثل هذا الانحراف في الفهم يقع التحريف والتبديل في بعض اصول الاديان غالبا بل هو علة البدع في كل دين ، وكثيرا ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشا لفساد الطباع ، وقبائح الاعمال حتى افضى ممن ابتلاهم الله به الى الهلاك وبئس المصير .

وهذا يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن في دين من الاديان ، او عقيدة من العقائد الحق — استنادا الى اعمال بعض السذج المنتسبين الى الدين او العقيدة .

فتلك عقيدة القضاء والقدر التي تعد من اصول العقائد في الديانة الاسلامية قد كثر فيها لغط المغفلين من الاجانب — كالافرنج — وظنوا بها الظنون ، وزعموا انها ما تمكنت من نفوس قوم الا وسلبتهم الهمة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف والضعة ، ورموا المسلمين بصفات حاصرين علتها في الاعتقاد بالقدر — فقالوا ان المسلمين في فقر وفاقة ، وتاخر في القوى الحربية والسياسية عن سائر الامم ، وقد نشأ فيهم فساد الاخلاق — كالكذب والخيانة والتحاقد والتباغض وتفرق كلمتهم . وجهلوا احوالهم الحاضرة والمستقبلة ، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم وقنعوا بحياة ياكلون فيها ويشربون وينامون وكانهم من حظيرة عجماوات الحيوان يكدون في جهد ، ولا ينافسون غيرهم في فضيلة — ولكن رضوا بكل عارض واستعدوا لقبول كل حادث ، وركنوا الى السكون في زوايا بيوتهم ، يسرحون في مرعاهم ، ثم يعودون الى ماواهم — امراؤهم في المجموع يقطعون اوقاتهم في اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات — وعليهم حقوق وواجبات يستغرق في ادائها اعصارهم ، ولا يؤدون شيئا منها يصرفون اموالهم سرفا وتبذيرا حتى لا يدخل في حسابها شيء يعود على ملتهم بجدوى ومنفعة .

يتجادلون ويتنافرون ويتبطون المصالح العمومية بمصالحهم الخاصة — فشملهم الخوف ، وعمهم الجبن والخور — وقعدوا عن الحركة وكل ما يلحق باممهم عزة ومضاء شوكة ؛ مخالفين تعاليم الدين الحنيف بل الدين تحت سلطتهم يتقدمون ويباهونهم بما يكسبون واذا اصاب قوما من اخوانهم مصيبة ، او عدت عليهم عادية لا تراهم يسعون في تخفيف مصابهم ، ولا ينبعثون لمناصرتهم وليست لهم جمعيات ملية لا جهرية ولا سرية تكون من مقاصدها احياء الغيرة ، وتنبيه الحمية ومساعدة الضعفاء وحفظ الحق من بغي الاقوياء وتسليط الاجانب ، هكذا نسبوا الى المسلمين هذه الصفات وزعموا ان لا منشا لها الا

وممارسته للتعليم الثانوي ، وكان الثاني تستمر فيه الدراسات الدينية والشرعية والقضائية ثلاث سنوات أيضا يمنح الطالب في السنة الاخيرة منها بعد اجتياز الامتحان شهادة العالمية (القسم الشرعي) التي تخول له حق ولاية القضاء والتعليم الديني ايضا.

ومنذ اعلان الاستقلال والمحاولات تتجدد لتنظيم التعليم الاسلامي العالي وفي سنة 1960 انبثقت فكرة احداث كلية الشريعة بفاس ، لتعوض الفرع الشرعي للنهائي القديم حيث تندرج فيها المواد الدراسية التي تتلخص في مقومات الدراسة الاسلامية من اصول وخلاف عال ودراسة القرءان والحديث وروح التشريع والفلسفة الاسلامية وتاريخ الاديان وبعض المواد القانونية الدستورية والاقتصادية والسياسة والقانون المدني لاستكمال التكوين الدراسي العالي ، بحيث يكون المتخرج منها مسلحا بما لدى زميله المتخرج من كلية الحقوق .

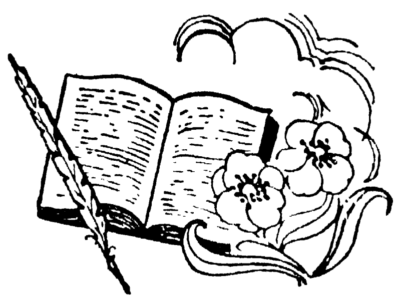
وطبعا كانت كلية الشريعة تعوض النهائي الشرعي القديم ، اما الادبي فقد ظل منتظرا الفرصة المناسبة لتحقيق فكرة تكوين كلية تعوض النهائي الادبي تتخصص في دراسة علوم اللغة العربية وادابها اذ يجدر ببلد عربي كالمغرب ان تزدوج به كلية الاداب واللغة العربية .

واما كلية اصول الدين فقد دلت تجربة برنامج كلية الشريعة انه كثيف من حيث مواده ، لانه يشمل دراسة دينية وشرعية، لذلك كان من الواجب ان تؤسس كلية لدراسة اصول الدين ، تعتني بالفلسفة الاسلامية والجدل والمنطق والاخلاق وعلم النفس وتاريخ الاديان وبذلك يتأتى لهذه الكلية ان تتخصص في الدراسة الاسلامولوجية بينما تتكفل كلية الشريعة بالدراسة القضائية .

ولهذا فجامعة القرويين اشتملت على ثلاث كليات :

1 – كلية الشريعة .
2 – كلية اصول الدين
3 – كلية اللغة العربية .

الرباط : الحسن السائح



الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفات الجراة والاقدام ، وخلق الشجاعه والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التي ترجف لها قلوب الاسود ، وتنشق منها مرائر النمور هذا الاعتقاد يطبع الانفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الاهوال ، ويحليها بحلي الجود والسماح ويدعوها الى الخروج من كل ما يعز عليها بل يحملها على بذل الارواح والتخلي عن نصرة المادة كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة ، الذي يعتقد ان الاجل محدود ، والرزق مكفول والاشياء بيد الله يصرفها كما يشاء كيف يرهب الحوادث في الدفاع عن حقه ، واعلاء كلمة امته او ملته ، والقيام بما فرض الله عليه ذلك . وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الاوامر الالهية واصول الاجتماعات البشرية لقد امتدح الله جلت قدرته المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق :

« الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله . والله ذو فضل عظيم »

اندفع المسلمون في اوائل نشأتهم الى الممالك والاقطار يفتحونها — فادهشوا العقول وحيروا الالباب بما دوخوا من دول وقهروا من امم ، وامتدت سلطتهم من بلاد (بيرينه) وجبالها الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا الى تخوم الصين مع قلة العدد والعدة وعدم اعتيادهم على الاهوية المختلفة .

ارغموا الملوك ، واذلوا القياصرة والاكاسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة ، ان هذا الشيء يعد بطبعه من خوارق العادات . دمروا بلادا ودكوا اطوادا ورفعوا فوق الارض ارصادا بعضها من القسطل وطبقة اخرى من النقع . وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم ، واقاموا مكانها جبالا وتلالا من رؤوس النابذين لسلطانهم وازعجوا كل قلب ، وارعدوا كل فريصة ، وما كان قائدهم وسائقهم الى كل هذا سوى الاعتقاد بالقضاء والقدر .

هذا الاعتقاد هو الذي تثبت به اقدام بعض الاعداد القليلة منهم امام جيوش يغص بها الفضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء ، فكشفوا عن مواقعهم وردوهم على اعقابهم .

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق ، وانقضت شهبها على الجبابرة في ميادين الحروب من اهل المغرب ، وهو الذي حملهم على بذل اموالهم وجميع ما يملكون في سبيل اعلاء كلمتهم لا يخشون فقرا ولا يخافون فاقة ، هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل اولادهم ونسائهم ، ومن يكون في حجورهم الى ساحات القتال في اقصى بلاد العالم كانما يسيرون الى الحدائق والرياض ، وكانهم اخذوا لانفسهم بالتوكل على الله امانا من كل غادرة ، واحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة ، وكان نساؤهم واولادهم يتولون سقاية الجيوش وخدمتها فيما تحتاج اليه لا يفرق النساء والاولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح ، ولا تأخذ النساء رهبة وتغشى الاولاد مهابة . هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم الى حد كان اسمهم اثناءه يذيب القلوب ، ويبدد افلاذ الاكباد حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب اعدائهم فينهزمون تحبس من الرهبة قبل ان يتبينوا بروق سيوفهم ولمعان اسنتهم وقبل ان تصل تخومهم اطراف جحافلهم .

فمن بداية تاريخ الاجتماع البشري الى اليوم ما وجد فاتح عظيم ولا محارب شهير نبت في اواسط الطبقات ثم رقى بهمته في اعلى الاوج فذللت له الصعاب ، وخضعت له الرقاب وبلغ من بسطة الملك ما يدعو الى العجب ، ويبعث الفكر على طلب السبب الا وكان معتقدا بالقضاء والقدر .

فالانسان حريص على حياته ، شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة ، ولكن لا يهون عليه اقتحام المخاطر ، وخوض المهالك ، ومصارعة المنايا الا الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وركون نفسه الى ان المقدر كائن وليس هناك اثر لهول المظاهر ، اثبت لنا التاريخ الامين — ان كورش الفارسي (كيخسرو) الذي عد اول فاتح عرفه تاريخ الاقدمين — ما تسنى له الظفر في انتصاراته الا لانه كان مؤمنا في اعتقاد قاطع بالقضاء والقدر فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هول ولا يوهن عزيمته شدة ، وان اسكندر الاكبر اليوناني كان ممن رسخت في نفسه هذه العقيدة — عقيدة القضاء والقدر .

وهذا جنكيز خان التتري صاحب الفتوحات الشهيرة كان هو نفسه من رجال هذا الاعتقاد بل كان نابليون الاول — بونابرت الفرنسي — من اشد الناس تمسكا بعقيدة القضاء ، وهي التي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكبيرة فتهيأ له الظفر ونال بغيته من النصر .

اعتقادهم بالقضاء والقدر وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الالهية ، وحكموا بان المسلمين لو داموا على هذه العقيدة — لن تقوم لهم قائمة ، ولن يعتزوا ولن يعيدوا مجدا وينالوا حقا وبالطبع يعجزون عن دفع الضيم والظلم ، ولا يزال بهم الضعف فاعلا افاعيله في نفوسهم راكسا من طباعهم حتى يفضي بهم في النهاية الى الفناء .

ويعتقد اولئك انه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية — القائلين بان الانسان مجبور في جميع افعاله ماياتي منها وما يذر ، وتوهموا ان المسلمين بعقيدة القدر يرون انفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح ، كيف شاءت . ومتى رسخ في نفوس قوم انه لا اختيار لهم في قول ولا عمل ، ولا حركة ولا سكون ، وانما جميع ذلك بقوة جابرة ، وقدرة قاسرة — فلا ريب تتعطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى ، وتمحى من خواطرهم داعية السعي والكسب وما كان أجدرهم بعدها ان يحالوا من عالم الوجود الى عالم العدم .

هكذا ظنت طائفة من النصرانية وانتحل مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول — انه لظن كاذب وخطا واهم وافتراء على الله والمسلمين — فقد لايوجد اليوم مسلم يدين بالحنفية السمحة سنيا كان أو شيعيا أو زيديا أو وهابيا أو خارجيا يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءا اختياريا في اعمالهم يدعى الكسب وهو مناط الثواب والعقاب عند الجميع ، وانهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ومطالبون بامتثال الاوامر ، واجتناب جميع النواهي ، وان هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعي وبه تتم الحكمة والعدل .

ومعلوم انه كان بين المسلمين طائفة تسمى الجبرية — ذهبت الى ان الانسان مضطر في جميع افعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار ، وزعمت ان لا فرق بين ان تحرك الشخص فكه للاكل والمضغ وبين ان يتحرك برعده البرد ورمهرير قره ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة ، نعم انقرض اصحاب هذا المذهب اواخر القرن الرابع الهجري ولم يبق لهم اثر .

وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد كما ظنه الواهمون من ضعفاء الفكر .

ان الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع بل ترشد اليه الفطرة ، ويسهل على كل من له فكر سليم ان يلتفت الى ان كل حادث له سبب يقارنه في الزمان وانه لا يرى من سلسلة الاسباب الا ما هو حاضر لديه ، ولا يعلم ماضيها الا مبدع نظامها ، وان لكان منها مدخلا ظاهرا فيما بعده بتقدير العزيز العليم ، وارادة الانسان انما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة ، وليست الارادة الا اثرا من آثار الادراك ، والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس وشعورها بما اودع في الفطرة من الحاجات فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والارادة ما لا ينكره ابله فضلا عن عاقل ، وان مبدأ هذه الاسباب التي نرى في الظاهر مؤثرة انما هي بيد مدبر الكون الاعظم الذى ابدع الاشياء على وفق حكمته وجعل كل حادث تابعا لسببه كانه جزء له خصوصا في العالم الانساني .

ولو فرض ان هناك جاهلا ضل عن الاعتراف بوجود اله صانع العالم فليس في امكانه ان يتملص من الاعتراف بتاثير الفواعل الطبيعية ، والتاثيرات الدهرية في الارادات البشرية فهل يستطيع انسان ان يخرج بنفسه عن هذه السنة التي سنها الله في خلقه ؟

هذه حقيقة يعرف بها طلاب الحقائق فضلا عن الواصلين من ابناء الثقافة ، وان بعضا من حكماء الاجانب وعلماء الساعة منهم التجأوا الى الخضوع لسلطة القضاء ، وأطالوا البيان في اثباتها .

ولا نذهب بعيدا ما دام التاريخ علم عني بالبحث فيه العلماء من كل امة باحثين عن سير الامم في صعودها وهبوطها وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها وما ينشا عنها من التغيير والتبديل في العادات والاخلاق بل في خصائص الاحساس الباطن والوجدان وما نبع ذلك كله من نشأة الامم وتكون الدول أو فناء بعضها واندراس اثره ، هذا فن التاريخ الذي عد من اجل الفنون الادبية واكبرها فائدة بني البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر والاذعان بان قوى البشر في قبضة مدبر للكائنات ومصرف للحادثات ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ولا ضعف قوي . ولا انهدم مجد ، ولا تقوض سلطان .

مقامة العيد

لأبي محمد عبدالله الأزدي

صورة من صور الحياة الاجتماعية في غرناطة

للدكتور أحمد مختار العبّادي

المقامة فن معروف في الادب العربي ، نشأت بالمشرق في شكلها الفني الخاص على يد بديع الزمان الهمذاني (ت 398 هـ 1007 م) ثم ابي محمد القاسم الحريري البصري (ت 516 هـ 1122 م) ومنذ ذلك الوقت ، فنح باب فن المقامات واسعا ، فولجه كثيرون من ادباء العالم الاسلامي حتى عصرنا الحديث .

وكان طبيعيا ان ينتقل هذا الفن الى اسبانيا منذ ظهوره بالمشرق ، فكثير من الاندلسيين الذين رحلوا الى المشرق في ذلك الوقت طلبا للعلم ، درسوا هذا اللون من الادب ، ثم عادوا الى بلادهم محدثين به ، ناشرين اياه بين مواطنيهم .

فمقامات البديع الهمذاني ورسائله ، انتشرت بوجه خاص ايام ملوك الطوائف بالاندلس حيث قام بعض ادباء ذلك العصر بمعارضتها وتقليدها ، فيروي ابن بسام انه في ايام المعتضد بن عباد باشبيلية (461/434 هـ — 1068/1042 م) وضع الاديب ابو عبدالله محمد بن شرف القيرواني ، مقامات « عارض بها البديع في بابه، وصب فيها على قالبه (*) » ويروى كذلك عن الشاعر ابا المغيرة عبد الوهاب بن حزم المتوفى حوالي سنة 420 هـ 1029 م ، عارض رسالة لبديع الزمان في وصف غلام (*) ، وفي موضع آخر اورد ابن بسام اجزاء من مقامتين احداهما لابي حفص عمر الشهيد (*) ، والاخرى لابي محمد بن مالك القرطبي (*) ، وكلا الاديبين عاش في عهد المعتصم بن صمادح بالمرية (484/443 هـ — 1091/1051 م) .

وفي اوائل عهد المرابطين بالاندلس ، ظهرت مقامات الحريري بالمشرق ، ثم لم تلبث ان انتشرت بالمغرب انتشارا كبيرا ، وعني بها علماء الاندلس في حياة مؤلفها نفسه ، فيروي ابن الابار ان كثيرا من الاندلسيين سمعوا من الحريري مقاماته الخمسين ببستانه ببغداد ، ثم عادوا الى بلادهم حيث حدثوا بها عنه ، ونذكر من هؤلاء الحسن بن علي البطليوسي (*) (ت 566 هـ 1169 م) وابا الحجاج يوسف القضاعي وكرمه وقد نشرها جوزيف مولي Onda من كور بلنسية) الذي توفى سنة 542 هـ 1147 م .

وبعو موت الحريري ، استمرت مقاماته تدرس على يد تلاميذه الذين اجازهم بالرواية عنه ، ونخص بالذكر منهم ابنه ابا محمد (*) ، والادباء ابا الطاهر

---

* اورد ابن بسام على سبيل المثال مقامتين للاديب المذكور في كتابه الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق 1 ج 1 ص 167/154 ، وقد نشر احداهما ايضا الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، وهي ضمن رسائل البلغاء التي جمعها محمد كرد علي (طبع مصر 1913) كذلك نشرها الخانجي (مصر 1926) .
* راجع نص الرسالة في الذخيرة لابن بسام ق 1 ج 1 ص 117 .
* الذخيرة ق 1 ج 2 ص 195/184 .
* نفس المصدر ص 257/246 .
* ابن الابار : كتاب التكملة لكتاب الصلة ج 1 رقم 35 ص 16 .
* نفس المصدر ج 2 ص 732 رقم 2076 ، الضبي: بغية الملتمس رقم 1446 ص 477 .
* ابن الابار : كتاب التكملة ص 637 رقم 1779 .

فأنعم به من اعتقاد يطهر النفوس الانسانيـة من رذيلة الجبن ، وهو عائق للمتدنس به عن بلوغ الكمـال فى طبقته ايا كانت .

ولسنا ننكر ان هذه العقيدة قد خالطها فى نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبـر ، وربما كان هذا سببا فى رزيئتهم ببعض المصائب التـي اخذتهم بها فى الاعصر الاخيرة ، ورجاؤنا فى الراسخين من علماء العصر ان يسعوا جهدهم فى تخليص هـذه العقيدة مما طرأ عليها من لواحق البدع مذكرين العامة بسنن السلف الصالح ، وما كانوا يعملون فى هذا السبيل من اعمال صادقة طهرت النفوس من رجس الخرافات والتضليل امثال أبي حامد الغزالي ممن كانوا يقومـون باداء رسالتهم الاسلامية حق الاداء مؤمنين بان التوكل والركون الى القضاء انما طلبه الشرع منا فى العمل لا فى البطالة والكسل ، (اعقلها وتوكـل) وما امرنـا الله ان نهمل فروضنا وننبذ ما اوجب علينا بحجة التوكل عليه، فتلك حجة المارقين عن الديـن ، ولا برتاب احد مـن أهل الدين الاسلامي الحنيف فى ان الدفاع عن الملة في هذه الاوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف ، وليس بين المسلمين وبين الالتفات الى عقائدهم الحق التي تجمع كلمتهم وترد اليهم عزيمتهـم وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الاول الا دعوة خير من علمائهم، وان جميع ذلك موكول الى ذمتهم .

اما ما زعموه فى المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيـدة (ولا سواهـا من باقـي العقائد الاسلامية) نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهـم نشوة من الظفر ، وثمل من العز والغلب ، وفاجـاهـم وهم على تلك الحال ــ صدمتان قويتان : 1) صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتر من جيليزخان واحفاده،2) صدمة من جهة الغرب ــ وهي زحف الامم الاروبيـة باسرها على ديارهم ، وان الصدمة فى حـال النشـوة تذهب بالراي وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة ووسد الامر فيهم الى غير اهله ممن لا يحسن سياسـة وكـان الحكـام والامراء منغمسين فى جرائم الفساد وميعة الاخـلاق وانحلالها ، فكان ذلك بالطبع مجلبة للشقـاء والبـلاء ، وذلك ما فتح الطريق لتمكين الضعـف من نفوسهـم ، وقصرت انظار الكثير منهم على ملاحظات الجزئيـات واخذ كل بناصية الاخر يطلب له الضرر ، ويلتمس له السوء من كل باب لا لعلـة صحيحـة ولا داع قـوي ، وجعلوا ذلك كله ثمرة الحيـاة ــ فآل الامـر بهـم الى الضعف والانحلال مؤذنا بطبيعة الحال الى ما اصبحوا عليـــــه .

والحق ان هذه الملة لن تموت ما دامـت هـذه العقائد ، اخذت مأخذها من قلوبهم ، ورسومها تلوح فى اذهانهم ، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم على الاخص ، وكلما عرض عليها من الامراض النفسية والاعتلال العقلي ، فلا بد ان تدفعه قوة العقائد الحق ، ويعود الامر كما بدا وينشطوا من عقالهـم ، ويذهبـوا مذاهب الحكمة والتبصر فى انقاذ بلادهم ، وارهـاب الامم الطامعة فيهم وايقافها عند حدهـا ، ومـا ذلـك ببعيـــــــد .

والتاريخ وحوادثه المسجلة شرقا وغربا تؤيـد هذه الحقيقة على طول الخـط ــ فهـؤلاء العثمانيـون الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية (حروب التتر، والحروب الصليبية) وساقوا الجيوش الى ارجاء العالم، واتسعت لهم ميادين الفتوحات ، ودوخـوا البـلاد ، وارغموا انوف الملـوك ، ودانـت لسلطانهـم الـدول الافرنجية حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول بالسلطان الاكبر .

وهؤلاء المرابطون الكمـاة بعـد ما استغاث بهـم اخوانهم ابناء الفردوس المفقود عند ما تكالب عليهـم العدو واحاط بهم من كل جانب ــ لبوا النداء . وفلوا شوكة المناوئين ، وأعادوا للاسلام قوته وجدته بتلـك الديار ، وعلى هذا النموذج البطولي المشبـع بتلـك العقيدة الفطرية التي تجلى ايمانها الصـادق فى نفوس رجال الموحدين ، كان الانتصار فى غزوة الارك الحاسمة بنفس الاندلس . كما كان مثلهـا على عهـد الاشراف السعديين بوقعة « وادى المخازن » .

انها لعقيدة راسخة دعامتها ــ ما اصابك لم يكن ليخطئك ، وما اخطأك لم يكن ليصيبك ، جفت الاقـلام وطويت الصحف .

نعم ما دامت الامم الاسلامية تنظر الى امثـال هؤلاء الامجاد المسلمين بعين ملؤها العزة والكرامـة وتجعل نصب اعينها صبح مساء ما كانوا عليـه طوال حقب مضت كلها شرفا وانتصارا الا وهي صلة وصل لذلك المجد الشامخ والتراث الخالد ــ تراث الشهامة والاقدام والفوز فى كل ميدان خلده التاريخ الذهبي لابناء الاسلام الاول الذيـن ملأت نفوسهم عقيـدة القضـاء والقـــــــدر .

الرباط ــ عبد الله الجراري

واستمر الاندلسيون في مزاولة كتابة هذا الفن من الادب حتى اواخر عهدهم بالاندلس ، اقصد بذلك ايام بني الاحمر أو بني نصر في غرناطة ، ومثال ذلك الوزير لسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ 1374 م) في مقاماته العديدة : معيار الاختبار في احوال المعاهد والديار (*) ، خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف(*) ومقامة السياسة (*) . ومن امثلة ذلك ايضا القاضي أبو الحسن النباهي المالقي (ت في اواخر القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي) في مقاماته النخلية (*) التي اوردها في كتابه المعروف باسم « نزهة البصائر والابصار (*) »، ثم هناك الاديب الفقيه عمر الزجال في مقاماته السياسية : « تسريح النصال الى مقاتل الفصال » ويقول المقري انها كانت عند العامة محفوظة . وعند الخاصة مرفوضة (*) .

واخيرا نجد الشاعر الاديب الغرناطي ، ابا محمد عبد الله بن ابراهيم بن عبد الله الازدي . المعروف بابن المرابع . وهو من أهالي مدينة بلش Vélez Malaga المجاورة لمدينة مالقة . ولقد كان الازدي صديقا للوزير ابن الخطيب الذي افرد له في احاطته ترجمة طويلة ذكر فيها الرسائل الادبية والقصائد الشعرية التي تبودلت بينهما (*) ، كما اورد له ايضا مقامة سياسية كتبها الى حاكم مالقة ، الرئيس ابي سعيد فرج بن نصر، يستجديه اضحية بمناسبة العيد (*) ، وهذه المقامة يجدها القارىء في آخر هذا الكلام . وتوفي الازدي في الطاعون العام ببلده بلش اواخر عام 750 هـ 1350 م .

على ان موضع الاهمية هنا هو ان فن المقامات لم يؤثر في الادب الاندلسي العربي فحسب ، بل اثر أيضا في الادب الاسباني العبري وربما المسيحي ايضا.

فمن المعروف ان كتاب اليهود الاسبان في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، ترجموا الى العبرية مقامات الحريري كما عارضوها بمقامات شبيهة بها تماما تتخللها ابيات من الشعر ذات طابع ديني او اخلاقي احيانا .

ولقد ازدهر هذا اللون من الادب العبري في اسبانيا ولا سيما في مقاطعة قطالونيا ، ونذكر من كتاب اليهود الاسبان الذين برزوا في هذا الميدان ، يوسف بن مائير بن سابرا . الذي الف بمدينة برشلونة قبيل سنة 591 هـ 1194 م كتابه المشهور باسم : « صفر سا اسوايم » اي كتاب التعاليم المفرحة . وهو عبارة عن مقامات تشف عن مقدرة صاحبها وقوة محصوله

(*) عبارة عن وصف رحلة تفقدية قام بها السلطان الغرناطي أبو الحجاج يوسف الاول (1333 /1354 م 733 / 755 هـ) في انحاء مملكة غرناطة مصطحبا معه وزيره ابن الخطيب ، وقد نشرت هذه الرحلة في كتاب مشاهدات ابن الخطيب السالف الذكر .

(*) اوردها المقري في كتابه نفح الطيب ج 9 ص 134/149 .

(*) المقامات النخلية عبارة عن مفاخرة بين نخلة وكرمة وقد نشرها جوزيف مولر J. Muller في كتابه Beitrage zur der Westhohen IP 136-160

(*) مخطوط بمكتبة الاسكوريال تحت رقم 1653 وهو يحتوي فضلا عن المقامة النخلية على تاريخ للملوك بني نصر . نشره جوزيف مولر في كتابه المتقدم (ص 102 / 138) .

(*) انظر (المقري نفح الطيب ج 6 ص 345 وما بعدها ، أزهار الرياض ج 1 ص 116 وما بعدها) .

(*) نذكر من بينها قصيدة الازدي التي رثا بها والد ابن الخطيب وأخاه اللذين استشهدا في وقعة طريف سنة 741 هـ 1340 م وقد رد عليه ابن الخطيب شاكرا بقصيدة من نفس القافية والوزن (المقري نفح الطيب ج 6 ص 315/316 وهناك قصيدة أخرى للازدي يهنيء فيها ابن الخطيب على توليه خطة الانشاء عام 749 هـ 1348 م نفح الطيب ج 8 ص 209 / 210 .

(*) راجع (لسان الدين بن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة نسخة الاسكوريال . من لوحة 227 الى لوحة 230 . ولم ترد هذه المقامة في الترجمة التي اوردها المقري عن الازدي في نفحه نقلا عن الاحاطة . راجع نفح الطيب ج 8 ص 209 / 213) . اما عن الامير الرئيس ابي سعيد فرج بن نصر حاكم مالقة الذي وجهت اليه هذه المقامة ، فهو والد سلطان غرناطة أبي الوليد اسماعيل الاول الذي حكم 713/725 = 1314/1325 م (وذلك بعد أن ثار على السلطان أبي الجيوش نصر وعزله وولى ابنه أبا الوليد مكانه .

الخشوعي (*) بدمشق ، وابا القاسم عيسى بن جهور (*) بقرطبة ، وابا الحجاج الفضاعي (*) ، السابق الذكر ، بالمرية وغيرهم . فعلى هؤلاء ومن روى عنهم ، درس الاندلسيون ايام المرابطين والموحدين، مقامات الحريري ، وحسبنا ان نحيل القارىء على بعض المراجع بالمكتبة الاندلسية ، ليقف على اسماء بعض هؤلاء الطلبة الاندلسيين الذين يضيق المقام عن ذكرهم لكثرة عددهم (*) . على ان المهم هنا ، هو ان الاندلسيين لم يكتفوا بدرس مقامات الحريري وروايتها فحسب ، بل تناولوها بالشرح والمعارضة بطريقة اثبتت مقدرتهم في هذا اللون من الادب .

فهناك مثلا شروح المقامات الحريرية لابي العباس احمد الشريشي (ت 619 هـ 1222 م) وكانت تقع في ثلاث نسخ كما يقول ابن الابار : كبراها الادبية ، ووسطاها اللغوية ، وصغراها المختصرة (*) ، ويضيف ابن الابار قائلا عن ابي العباس الشريشي المذكور « ولقيته بدار ابي الحسن بن حريق من بلنسية قبل توجهي الى اشبيلية في سنة ست عشر وستمائة ، وهو اذ ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات ، فسمعت عليه بعضه ، واجاز لي سائره مع رواياته وتواليفه ، واخذ عنه اصحابنا (*) » .

والى جانب شرح الشريشي ، نذكر « كتاب الخمسين مقامة اللزومية (*) » وهي المعروفة بالمقامات السرقسطية تأليف الاديب ابي الطاهر محمد التميمي السرقسطي الاشتركوبي (اشتركوي من اعمال تطليلة) الذي توفي بقرطبة سنة 538 هـ 1143 م ، وقد عارض بها مقامات الحريري الخمسين ، ولزم في نثرها ما لا يلزم ، ولعله تأثر بالمعري في لزومياته (*) .

هذا ويروي ابن خير (ت 575 هـ 1179 م) في فهرسته ، انه درس على الوزير ابي الحسن سلام الباهلي ، مقاماته السبع ، بمنزله بمدينة شلب (*)

ويشير ابن الابار الى ان الاديب محارب بن محمد الوادي اسي عاش 553 هـ 1108 م ، وضع مقامة في مدح القاضي عياض بن موسى السبتي (*) (ت 544 هـ 1149 م) ، وان الاديب ابا عبد الله محمد القرطبي اللبلي ، وضع مقامة اخرى في نفس الغرض سماها المقامة العياضية الغزلية (*) ، كذلك يروي المقري ان الفقيه عبد الرحمن بن القصير (ت 576 هـ 1180 م) كان له مؤلفات كثيرة منها خطب ورسائل ومقامات (*) .

---

* نفس المصدر ص 501 رقم 1423
/ نفس المصدر ص 214/213 رقم 727 ، ابن خير : فهرست ج 1 ص 451/387 .
* راجع على سبيل المثال (ابن الابار : كتاب التكملة تحت الارقام التالية : 727 – 756 – 764 – 849 – 877 – 931 – 937 – 958 – 1423 – 1658 – 1779 – 1894 . راجع كذلك (ابن خير فهرست ج 1 ص 451/387 ، المقري : نفح الطيب ج 2 ص 421 (القاهرة 1949) .
* المقري : نفح الطيب ج 2 ص 316 وقد نشرت المطبعة الخيرية ، الشرح الكبير من شروحه الثلاثة في جزئين (مصر 1306)
*) المقري : نفح الطيب ج 2 ص 317/316
* مخطوط بالفاتيكان رقم 372 وايضا باستانبول برقمي 1928 / 1933 .
* ابن الابار : المعجم (رقم 124) ص 140 / 141 حيث ذكر بعض شعره فيها .
راجع كذلك (نفس المرجع ص 284 رقم 266) ، ابن الابار : التكملة ص 618 (رقم 1722) ابن خير فهرست ج 1 ص 387 المقري : نفح الطيب ج 1 ص 272 انظر كذلك :
Encyclopédie de l'Islam (Maqama)
* ابن خير : فهرست ج 1 ص 386 / 450 وتقع مدينة شلب في جنوب البرتغال .
* ابن الابار : التكملة ص 407 (رقم 1173) انظر كذلك (المقري : ازهار الرياض ج 1 ص 23 / 30)
* ابن الابار : التكملة ص 233 (رقم 762))
* المقري : ازهار الرياض ج 3 ص 15 .
* عبارة عن وصف لاهم مدن المغرب الاقصى ومدن مملكة غرناطة راجع (احمد مختار العبادي : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس مطبوعات جامعة الاسكندرية 1957 .

مقامة كتبت في اواخر العصور الاسلامية بالاندلس هي كما ذكرت آنفا مقامة الشاعر عبد الله الازدي التي خاطب بها الامير ابا سعيد بن نصر يستجديه ضحية بمناسبة عيد الاضحى .

ومقامة الازدي كغيرها من المقامات ، قصة قصيرة بطلها رجل متسول من بني ساسان ، احكم الحيل وقصر همه على تحصيل كبش من الامير ، وهي بمجملها حيل تفسر حياة مكد وما يقابله فيها من طرق ومصاعب ، كل ذلك في اسلوب مسجع مليء بالنكات المستملحة .

والمقامة فضلا عن طرافتها كقطعة ادبية ، لها قيمتها التاريخية من حيث كونها صورة جزئية للمجتمع الغرناطي الذي كتبت فيه ، والذي لا نعرف عنه الا الشيء القليل لندرة المراجع التي تناولت الكلام عنه .

ففي هذه المقامة نجد اشكالا من الناس بمميزاتهم واشكالهم واخلاقهم النفسية والاجتماعية : الزوجة وكثرة مطالبها ، والعجوز وتطفلها ، والبائع وضاعته ، والجزار وزيه التقليدي ، والموثق الذي يسجل في دكانه عقود البيع والشراء بالتقسيط ، والمحتسب الذي يشرف من قبل الحكومة على الاسواق ، والامين الذي هو اشبه بنقيب يمثل اصحاب المهن التجارية والصناعية في السوق ، ويسأل امام المحتسب عن مشاكلهم ، والشرطي الذي يحافظ على الامن والنظام فيطرد ويجرد الباعة المذنبين وذلك بامر من المحتسب او الامين ، هذا عدا الاشارة الى صناعة الفخار ، وهو الفخار المالقي الذي طبقت شهرته الافاق ، فالمقامة ـ بعبارة اخرى ـ تعطينا صورة من صور الحياة الشعبية الغرناطية التي ما زلنا نتلمس بعض مظاهرها في حياتنا العادية في الوقت الحاضر .

نص مقامة ابن المرابع الازدي كما وردت في كتاب الاحاطة (*)

يقول شاكر الايادي ، وذاكر فخر كل نادي ، وناثر غرر الفرر للعاكف والبادي ، والرائح والفادي : اسمعوا مني حديثا تلذه الاسماع ، ويستطرفه الاستماع ، ويشهد بحسنه الاجماع ، وهو من الاحاديث التي لم تتفق الا لمثلي ولا ذكرت عن احد قبلي ، وذلك يا معشر الالفاء والخلصاء والاحباء ، اني دخلت في هذه الايام داري ، في بعض ادواري ، لاقضي من اخذ الفذا اوطاري على حسب اطواري ، فقالت لي ربة البيت ، لم جئت ولم اتيت ؟ قلت جئت لكذا وكذا ، فما الفذا ؟ قالت لا غذا لك عندي اليوم ، ولو ادى بك الصوم ، حتى تسل الاستخارة ، وتفعل كما فعل زوج الجارة ، طيب الله نجاره ، وملأ بالارزاق وجاره . قلت وما فعل ؟ خبريني ، واريني من العلامة ما احببت تريني ؟ قالت انه فكر في العيد ، ونظر في اسباب التعييد ، وفعل في ذلك ما يستحسنه القريب والبعيد ، وانت قد نسيت ذكره ، ومحوته من بالك ، ولم تنظر اليه نظرة بعين اهتبالك ، وعيد الاضحى في اليد ، والنظر في شراء الاضحية اوفق من الفد . قلت صدقت وبالحق نطقت، بارك الله فيك ، وشكر جميل تحفيك ، ولقد نبهت بعلك لاقامة السنة ، ورفعت عنه الففلة هنه ، والآن اسير لابحث عما ذكرت ، وانظر في احضار ما اليه اشرت ، ويتأتى ذلك ان شاء الله بسعدك ، وتنالين فيه من بلوغ الامل غاية قصدك ، والجد ليس في الهزل ، والاضحية للمراة وللرجل الفزل ، قالت دعني من الخرافات ، واخبار الزرافات ، فانك حلو اللسان ، قليل الاحسان ، اتخذت الفربة صحبتك آل ساسان(*) فتهاونت بالنساء ، وأسأت فيمن اساء ، وعودت اكل

---

* راجع (ابن الخطيب : الاحاطة في اخبار غرناطة ، نسخة الاسكوريال رقم 1673 ورقة 227 / 230) ولقد سبق لي ان نشرت هذه المقامة في صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد (المجلد الثاني ، العدد 1 / 2 ، 1954) وقام بترجمتها الى اللغة الاسبانية صديقي الدكتور فرناند وفي لاجرانخا 1962 بمناسبة ذكرى وفاة المستشرف الفرنسي ليفي بروفنسال .
ولما كان العدد الذي نشرت فيه هذه المقامة قد نفد طبعه ، فقد آثرت اعادة نشرها بمناسبة حلول عيد الاضحى المبارك .

* جماعة من المتسولين واهل الكدية ويعرفون ايضا بالساسانية نسبة الى رجل اسمه ساسان كان حاذقا في الاستعطاء دقيق الحيلة في الاستجداء . وقد ورد ذكر بني ساسان في مقامات بديع الزمان الهمذاني ، كما ذكرهم الحريري في مقامته المسماة « بالمقامة الساسانية » التي اوضح فيها كثيرا من البواعث الدامفة على التسول راجع : Ency of Islam art. Banu Sâsân by Kramers

الادبي والعلمي ، وقد عاصر يوسف هذا : اديب آخر اسمه يهود ابن سليمان الحريزي ، كان يتقن اللغتين العربية والعبرية ، واستطاع سنة 602 هـ 1205 م ان يترجم مقامات الحريري تحت عنوان « مخبروت اتييل» وقد سافر يهودا الحريزي بعد ذلك الى المشرق حيث طاف بارجائه ثم عاد اخيرا الى اسبانيا ليؤلف كتابه المشهور « تحكموني » أي الشخص العاقـل ؟ عارض به مقامات الحريري وسار على منهجه فيه مقسما اياه الى خمسين مقامة ايضا .

وقلد الحريري ايضا سليمان بن صقبيل فى قصته الهجائية المعروفة باسم : « آشر بن يهودا » والتي ابتداها ببعض ابيات شعرية تحض على التمسك بأهداب الدين ، وهناك ايضا ابراهيم بن صمويل حالبي بن حسداي (ت 638 هـ 1240 م من اهالي برشلونة ، وقد استغل الترجمة العربية للقصة الفلسفية المشهورة: « برلام ويوسافات » او اسطورة بودا فى كتابة قصته العبرية المسماه : « ابن حاملك دوي حانازير » أي ابن الملك والدرويش ، كتبها على شكل مقامات تتخللها اشعار وعظات اخلاقية .

وهناك يهود آخرون عديدون كتبوا فى هذا اللون من الادب مثل يعقوب بن العزار (اوائل القرن السابع الهجري) الذي فضلا عن مقاماته العبرية العديدة ، ترجم ايضا الى اللغة العبرية كتاب كليلة ودمنة عن العربية ، ومثل الادبب طوب بن يوسف بن فالاقيرا الذي امتاز برقة احساسه ، وقوة ملكته الشعرية ولا سيما فى مقامته المسماة « صفرحا مبقيش » اي الكتاب الذي يبحث عن الحقيقة .

وهكذا نجد فى كل ما نقدم برهانا صادقا على مدى انتشار فن المقامات فى الادب الاسباني العبري

اما من جهة تأثير مقامات الحريري فى الادب الاسباني المسيحي ، فهذا امر لا يزال فى حاجة الى دراسة وبحث ، وان كان بعض العلماء الاسبان امثال منندث بلايو (*) Menendez Pelayo وجونثالث بالينثيا (*) Gonzalez Palencia يرجحون وجود هذا التأثير فى القصة الاسبانية المعروفة باسم القصة البيكارسكية (*) La novela Picaresca ويسميها البعض بقصيدة الجوع (*) Epopeya del hambre التي انتشرت القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي اي فى العصر الذهبي الاسباني ، ففيها نجد ذلك النوع من القصص الذي تربط حوادثه شخصية رجل ذكي خفيف الظل ، من طبقة اجتماعية وضيعة (خادم ، شحاذ ، لص ، متسول . . . الخ) وهو المعبر عنه باسم «بيكرو» Picaro والذي يجور ان ينطبق عليه الاصطلاح العربي القائل « من اهل الشطارة والبطالة (*) » فهو يروي مغامراته وتنقلاته التي يشتم منها روح السخرية والتهكم على الناس وعلى فساد المجتمع وعدم الايمان بصلاح البشر ، كل ذلك فى اسلوب هزلي لاذع حيث النكتة الطريفة والعظة الاخلاقية ، وهذا ما نجده ايضا فى المقامات العربية .

وما اظن انه مجرد توارد خواطر ذلك التشابه العجيب بين اسفار ابي زيد السروجي بطل المقامات الحريرية ، وبين مغامرات لاثريلودي تورمس (*) Lazarillo de Tormes وقزمان الفراتشي (*) Guzman Alfarach فى هذا النوع من القصص الاسباني (*) .

ونستطيع ان نقول على اي حال ، ان تاثير فن المقامات فى الادب الاسباني سواء أكان عربيا أم عبريا أم مسيحيا ، امر لا شك فيه ، وان كان لا يزال فى حاجه الى دراسة مقارنة تحليلية مستفيضة ، وما قصدت بهذه المقدمة الا التمهيد من حيث التسلسل التاريخي.

---

* انظر Menendez Pelayo : Origenes de la novela I P.P. 67-68
* راجع Gonzalez Palencia Del Lazarillo Quivedo, p. 3-9 - Madrid, 1946
* آثرنا كتابة الكلمة كما هي لعدم وجود معنى محدود لاصلها الاسباني ، ولهذا نكتفي بالاشارة الى الوصف الذي ذكرناه فى المتن عن نوع تلك القصة ، اقرا على سبيل المثال Angel Valbuena Prat - La novela Picaresca espanola - Madrid, 1946
* انظر Tarri la la literatura espanola, p. 146
* حول معنى اهل البطالة والشطارة راجع : Dozu : Supplément aux dictionnaires arabes - Vol. I, p. 46-758
* مولف حياة تلك الشخصية الوهمية ، مجهول . ويقال ان القصة طبعت لاول مرة سنة 1554 م
* مؤلف هذه القصة اديب من مدينة اشبيلية في القرن السادس عشر اسمه ماتيو المان Mateo Aleman
* راجع Menendez Pelayo : Origenes de la novela, I, p. 162.

فـ وقد ، وكان العمل فيه مطبوخا ونيا ، فلم يترك منه شيئا ، ومنه كانت معيشتي ، وبه استقامت عيشتي ، وانت ضامن مالي ، فارتفع معي للوالي ، والعنز مع هذا بين وسط الجمهور ، ويكر كرة العفريت المزجور ، ويأتي بالكسر على ما بقي في الدهليز من الطواجن والقدور ، والخلق قد انحشدوا للضجيج ، وكثر العياط والعجيج ، وانت تعرف عضرطة الباعة ، وما يحوون من الشناعة ، وانا احاول من اخذه ما استطيع ، وادوم لاباعته من غير مطيع ، والباعة قد اكسبته من الحماقة ما لم يكن لي به طاقة ، ورجل يقول المحتسب ، واعرف ما يكتسب ، والى من تنتسب ، فقد كثر عنده بك الشكي ، وصاحب الدهليز قبالته يبكي ، وقد وجد عليك وجد الشكوى ، وايقن انك كسرت الدعوى ، وامر باحضارك ، وهو في انتظارك ، فشد وسطك ، واحفظ بطنك ، وانك تقدم على من فتح باعه للحكم على الباعة، ونصب لارباب البراهين على ارباب الشواهين ، ورفع على طبقه لملأ طبقه ، ثم امسكني باليمين حتى اوصلني للامين ، وقال لي ارسلت التيس للفساد ، كانك في نعم الله من الحساد ، قلت انه شرد ، لم ادر حيث ورد ، قال قد أمنت ان ضمنت ، وعليك الثقاف ، حتى يقع طرده ، واطرح يدك فيه وجرره ، قلت انجردني الساعة واسب من الباعة ؟ قال لابد من ذلك ، او تضمن ما افسده هنالك ، قلت الضمان ، الضمان ، والامان الامان، قال قد امنت ان ضمنت ، وعليك الثقاف حتى يقع الانصاف ، او ضامن كاف ، فابتدر احد اخواني ، وبعض جيراني فادى عني ما ظهر بالتقدير ، وآلت الحال للتكدير .

ثم اردت الانصراف بالتيس لا كان كيانه ، ولا كون مكانه ، واذا بالشرطي قد دار حولي ، وقال لي كاف فعلي ، باداء جعلي ، فقد عطلت من اجلك شغلي ، فلم يك عندي ما نكسر سورته ، ولا بما نطفيء جمرته، فاسترهن منسوريتي (*) في بيته ، ليأخذ ما بته .

وتوجهت لداري ، وقد تقدمت اخباري ، وقدمت بغباري ، وتعير صفاري وكباري ، والتيس على كاهل الحمال يرغو كالبعير ، ويزار كالاسد اذا فصلت العير، فقلت للحمال انزله على مهل ، التعييد قد استهل فحين طرحه في الاسطوان ، كر الى العدوان ، وصرخ كالشيطان وهم ان يقفز الحيطان ، وعلا فوق الجدار ، واقام الرهجة في الدار ، ولم تبق في الزقاق عجوز الا وصلت لتراه ، وتسل عما اعتراه ، وتقول بكم اشتراه ؟ والاولاد قد ارهقهم لهفه ، ودخل قلوبهم خوفه ، فابتدرت ربة البيت ، وقالت كيت وكيت ، لا خل ولا زيت ، ولا حي ولا ميت ، ولا موسم ولا عيد ، ولا قريب ولا بعيد ، سقت العفريت الى المنزل ، وجعت بمعزل ، ومن قال لك اشره ما لم تره ؟ ومن قال لك سقه حتى توثقه ؟ ومتى تفرح زوجتك والعنز اضحيتك ؟ ومتى تطبخ القدور ، وولدك منه مفدور ؟ وبأي قلب تأكل الشوبة ولم تخلص لك فيه النية ؟ واقلة سعدها واخلف وعدها والله لو كان العنز يخرج الكنز ، ما عمر لي دارا ، ولا قرب لي جوارا ، اخرج عني بالكع ، فعل الله بك وصنع وما حسبك عن الكباش السمان ، والضأن الرفيعة الاثمان ، يا قليل التحصيل ، يا من لايعرف الخياطة ولا التفصيل ، ادلك على كبش سمين ، واسع الصدر والجبين ، اكحل عجيب ، اقرن مثل كبش الخطيب ، يعبق من اوداكه كل طيب ، يغلب شحمه على لحمه ، ويسيل الودك من عظمه ، قد علف بالشعير ، ودبر عليه احسن تدبير ، لا بالصغير ولا بالكبير ، تصلح منه الالوان ، ويستطرف شواه في كل اوان ، ويستحسن ثريده ، وقديده في سائر الاحيان ؟ قلت بيني لي قولك، لم لا نعرف فعلك ، واين توجد هذه الصفة يا قليلة المعرفة ؟ قالت عند مولانا وكهفنا ومأوانا الرئيس الاعلى ، الشهاب الاجلى ، القمر الزاهر ، الملك الظاهر، الذي اعز المسلمين بنعمته ، واذل المشركين بنقمته . .

واسترسل في المدح فاطال وفيما ثبت كفاية .

الرباط : الدكتور احمد مختار العبادي
استاذ التاريخ بجامعة محمد الخامس

---

* في الاصل ميسورتي ولعلها تحريف على كلمة منسوريتي او منصوريتي وهو رداء يلبس فوق القفطان ـ انظر : Dozy R. : Dictionnaire détaillé des vêtements chez les Arabes, p. 418 (Amsterdam, 1845)

خبزك في عقر منديل ، وايقاد الفتيل دون قنديل ، وسكنى الخان ، وعدم ارتفاع الدخان ، فما تقيم موسما ولا نعرف له مبسما ، واخذت معي في ذلك بطويل وعريض . وكلانا في طرفي نقيض . الى ان قلت لها : ازارك وردائي . فقد تفاقم بك امر دائي ، وما اظنك الا بعض اعدائي . قالت : مالك والازار ، شط بك المزار . لعلك تريد ارهانه في الاضحية والابزار ؟ اخرج عني بامقيت ، لا عمرت معك ولا بقيت ، او عدمت الدين . واخذ الورر بالعين ، يلزمني صوم سنة . لا اغتبت معك سنة . الا ان رجعت بمثل ما رجع به روح جارتي ، وادى لك الربح في تجارتي . فقمت عنها وقد لوت رأسها وولولت ، وابتدرت وهرولت ، وجالت في العتاب وصولت ، وضمت بنتها وولدها ، واقامت باللجج والانتصار بالحجج اودها ، فلم يسعني الا ان عدوت أطوف السكك والشوارع ، وابادر لما غدوت بسبيله واسارع ، واجوب الافاق ، وأسأل الرفاق ، واحترف الاسواق ، واقتحم زريبة بعد زريبة ، واحتسر منها البعيده والقريبة ، فما استرخصته استغليته ، وما استقللته استعلته ، وما وافق غرضي ، اعترضني دونه عدم عرضي ، حتى انقضا ثلثا يومي ، وقد عييت بدوراني وصومي ، وانا لم نحصل من الابتياع على فائده ، ولا عادت علي فيه من قضاء الارب عائده ، فاومأت للاياب وانا اجد من خوفها ما يجد صغار الغنم من الذئاب ، الى ان مررت بقصاب في مجزره ، قد شد في وسطه مجزرة مبررة ، وقصر اثوابه حتى كشف عن ساقيه ، وشمر عن ساعديه ، حتى ابدى مرفقيه ، وبين يديه ، عنز قد شد يديه في رقبه ، وهو يجذبه فيبرك ، ويجره فما يتحرك ، ويروم سيره فيرجع القهقرى ، ويعود الى وراه والقصاب يشد على ازاره ، خشية من فراره ، وهو يقول : آه له من جان باغ ! وشيطان طاغ ! ما أسده ! وما الده ! وما اصده ! وما احده ! وما أكثره بشحم ! وما أطيبه بلحم ! الطلاق يلزمه ان كان عاين بشا مثله ، او اضحية تشبهه قبله ، اضحية جعبلة ، ومنحة جليلة ، هنا الله من رزقها ، واخلف عليه رزقها .

فاقتحمت المزدحم انظر مع من نظر ، واختبر فيمن اختبر ، وانا والله لا اعرف في التقليب والتخمين ، ولا افرق بين العجيف والسمين ، غير اني رأيت صوره دون البغل وفوق الحمار ، وشكلا يخبرك عن صورة العمار (*) .

فقلت للقصاب ، كم طلبك فيه ، على ان تمهل الثمن حتى اوفيه ؟ فقال ابغني فيه اجيرا ، وكن لي الآن من الذبح مجيرا ، وخذه بما يرضى لاولي التقضي . قلت استمع الصوت ، ولا تخف الفوت ، قال ابتعه مني نسيئة ، وخذه هدية ، قلت نعم فسق لي الضمير ، وما ماكسني فيه بالنقير والقطمير . قال تضمن بي فيه عشرين كبارا ، اقبضها منك لانقضاء الحول دينارا دينارا . قلت ان هذا لكثير ، فاسمح منه باحاطة اليسير . قال والذي خلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لا انقصك من هذا وما قلت سمسمه ، اللهم ان شئت السعة في الاجل ، فاقضي لك ذلك دون اجل ، فجلبني للابتياع منه الاسداء في الامد ، وغلبني بذلك فلم افتقر معه لرأي والد ولا ولد ، ولا احوجت نفسي في ذلك لمشورة احد . وقلت قم اشتريه منك فضع البركة ، ابصح النجح في الحركة ، فقال فقبه ، بارك الله فيه ، وقد بعته لك . فاقبض متاعك ، وشد ابتياعك ، وها هو في قبضك ، فاشدد وثاقه ، وهلم لنعقد عليك الوثيقة ، فانحدرت معه لدكان التوثيق وابتدرت من السعة الى الضيق . واوثقني بالشهادة تحت عقد وثيق وحملني من ركوب الدين ولحاق السين في اوعر طريق ، ثم قال لي هذا شئك فشأنك واياه ، وما اظنك الا تنهاه . وأت بحمالين اربعة ، فانك لا تقدر ان ترفعه ، ولا يتأتى لك ان تسعك ولا ان تتبعه ، ولم يبق لك من الكلفه الا ان تحصل في محلك . فيكمل سرور اهلك . وانطلقت للحمال وقلت هلم الي ، وقم الان بين يدي ، حتى انتهينا الى مجزره القصاب ، والعنز يطلب فلا يصاب . فقلت ابن التيس يا ابا اويس ؟ قال انه قد فر ، ولا اعلم حيث استقر . قلت اتضيع علي مالي لتحسب آمالي ؟ والله لانحرنك بالعصي ، كمن عصى ، ولارفعنك الى الحكام ، تجري عليك منهم الاحكام ، قال مالي علم به ، ولا بمنقلبه . لعله فر لامه وابيه ، وصاحبته وبنيه ، فعليك بالبريح .

فانحدرت انادي بالاسواق ، وجيران الرفاق ، من يقف لي نشا فله البشارة ، بعد ما آتي بالامارة ، واذا برجل قد خرج من دهليز ، وله هدير وهزيز ، وهو يقول ، من صاحب العنز المشوم لا عدم به النوم ، ان وقفت عليه عني ، يرتفع الكلام بينه وبيني ، قلت انا صاحبه ، فما الذي دهاك مني ، او بلغك عني ؟ قال ان عنزك حين شرد ، خرج مثل الاسد ، واوقع الرهج في البلد ، واضر بكل احد ، ودخل في دهليز الفخارة فقام

(*) العمار : سكان البيوت من الجن .

العمل على تحسين صناعتهم وتهذيب ذوقهم و... السنتهم على التعبير الصحيح مثل قول ... أعر :

غير ما قلنا ويكتب غيرها
يعيه ويقرا غير ما هو كاتب

وقول الآخر :

...اتب اقلامه معودات بالغلط
...ط ما يكتبه ثم يعيد ما كشط

وقول الآخر :

...عس الزمان فقد اتى بعجاب
ومحا فنون الفضل والاداب
واسى بكتاب لو انبسطت يدي
فيهم رددتهم الى الكتاب

قال القلقشندي : « وانما تقاصرت الهمم عن الوغل في صناعة الكتابة والاخذ منها بالحظ الاوفى لاستيلاء الاعاجم على الامر ، وتوسد الامر لمن لا يعرف ... البليغ والانوك لعدم المامه بالعربية والمعرفة بمقاصدها حتى صار الفصيح لديهم اعجم والبليغ في مخاطبتهم ابكم ولم يسع الاخذ من هذه الصناعة بحظه الا ان يقول :

وصناعتي عربية وكأنني
القي باكثر ما اقول الروما
فلمن اقول ؟ وما اقول ؟ واين لي
فاسير لا بل ابن لي فاقيما ؟

وان هاته الملاحظة لتمثل الجانب الايجابي في الطريقة المنهجية التي سار عليها القلقشندي في كتابه فهو لا يكتفي بنقل النصوص والاستدلالات ولكنه يعلل النتائج ويظهر الاسباب غير آبه بما قد توقعه فيه ملاحظاته من مهالك ولا محتفل بما يفرضه عليه النفاق الاجتماعي ازاء الحاكمين .

اما الباب الثاني فتحدث فيه اولا عن مدلول الكتابة لغة واصطلاحا ، فذكر ان الكتابة في اللغة لها معنيان : المعنى الاول الجمع ومنه قيل لجماعة الخيل كتيبة ، وللخط كتابة لجمع الحروف بعضها الى بعض ، والمعنى الثاني العلم ومنه قوله تعالى : (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) ، أي يعلمون .

وأما في الاصطلاح فقد ذكر انها وان كثرت اقسامها وتعددت انواعها فانها لا تخرج عن اصلين هما كتابة الانشاء ، وكتابة الاموال ، قال : الا ان العرف فيما تقدم قد خص لفظ الكتابة بصناعة الانشاء ثم غلب في زمانه بالديار المصرية اسم الكاتب على كاتب المال ، وصار لصناعة الانشاء اسمان : خاص يستعمله اهل الديوان ويتلفظون به وهو كتابة الانشاء ، وعام يتلفظ به عامة الناس وهو التوقيع ، ثم قال وقد يعبر عنها بصناعة الترسل تسمية للشيء باعم اجزائه ، وعلى ذلك بنى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله تسمية كتابه : (حسن التوسل الى صناعة الترسل)

وبعد ان ذكر اختصاصات كل من الكتابتين قال: (ولاشك ان لكل من النوعين قدرا عظيما وخطرا جسيما ، الا ان أهل التحقيق من علماء الادب ما برحوا يرجحون كتابة الانشاء ويفضلونها ويميزونها على سائر الكتابات ويقدمونها) ، ونقل جزءا من المقامة الفراتية للحريري التي يقول فيها (اعلموا ان صناعة الانشاء ارفع ، وصناعة الحساب انفع ، وقلم المكاتبة خاطب ، وقلم المحاسبة حاطب .. الخ) .

ولما كانت كتابة الانشاء تحتاج الى النثر أكثر من الشعر قدم فصلا في هذا الباب لتفضيل النثر وقال: (ان النثر ارفع درجة من الشعر واعلى رتبة ، واشرف مقاما واحسن نظاما) ، وعلل ذلك بقوله : (اذ الشعر محصور في وزن وقافية ، يحتاج الشعر معها الى زيادة الالفاظ والتقديم فيها والتأخير ، وقصر الممدود وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها ، وغير ذلك مما تلجيء اليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لالفاظه ، والكلام المنثور لا يحتاج فيه الى شيء من ذلك فتكون الفاظه تابعة لمعانيه ، ثم استدل بقول صاحب (مواد البيان): (وقد احست العرب بانحطاط رتبة الشعر عن الكلام المنثور كما حكي أن امرأ القيس ابن حجر هم أبوه بقتله حين سمعه يترنم في مجلس شرابه بقوله :

اسقيا حجرا على علاته
من كميت لونها لون العلق

نظرات حول كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

للأستاذ : محمد بن عبد العزيز الدباغ

- 2 -

حينما قدمت بحثا عاما حول كتاب صبح الاعشى وعدت القراء بأن أقدم اليهم صورة مصغره عنه تستمد عناصرها من الكتاب ذاته فتقرب به اليهم وتدلهم على فحواه حتى اذا كانوا في حاجة الى البحث عن موضوع خاص وقد تحدث عنه الكاتب رجعوا الى الاصل واستمدوا منه ما هم في حاجة اليه .

وان مثل هذا التقديم اصبح ضروريا لمثل هاته الكتب الكبرى فهو يستميل القراء الى المطالعة ويرشدهم الى المصادر التي يحتاجون اليها سواء كانوا يرغبون في الثقافة العامه او كانوا يهمون بالدراسة الخاصة لموضوع ما .

وقد بينت من قبل أن كتاب صبح الاعشى يشتمل على مقدمه وعشر مقالات وخاتمه وساخصص حديثي الان حول المقدمة فقط (*) .

قسم المؤلف مقدمه الكتاب الى خمسة ابواب : تحدث في الباب الاول عن فضل الكتابه ومدح بعض الكتاب وذم آخرين .

اما الكتابة فقد نقل ادلة نقليه دينية وادبية تظهر فضلها وتبين عن جلالها فقال : « أعظم شاهد لجليل قدرها واقوى دليل على رفعة شانها ان الله تعالى نسب تعليمها الى نفسه واعتده من وافر كرمه وأفضاله فقال عز اسمه (اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) ، مع ما يروى ان هذه الاية والتي قبلها مفتتح الوحي .. ثم بين شرفها بأن وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته فقال : (وان عليكم لحافظين كراما كاتبين) .. ثم أقسم بالقلم الذي هو آلة الكتابة فقال (والقلم وما يسطرون ما انت بنعمه ربك بمجنون)

ثم ذكر المؤلف ان النبي (ص) قال : (قيدوا العلم بالكتاب) . وذكر قول ذي الرمة لعيسى بن عمر : (اكتب شعري فالكتاب اعجب الي من الحفظ ، ان الاعرابي لينسى الكلمة قد سهرت في طلبها ليلة فيضع موضعها كلمة في وزنها لا تساويها ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاما بكلام) .

وأما الكتاب فقد مدح فضلاءهم وذم الناقصين منهم وهو في مدحه يعتبر المقياس الصالح الموازنة يعتمد على الكفاية والذكاء والقدرة على التعبير الفني الجذاب قال : (احسن ما مدح به كاتب قول ابن المعتز :

اذا اخذ القرطاس خط بيمينه
فتح نورا او تنظم جوهرا

وغير خاف أن استحسانه راجع الى تذوقه للجمال واعجابه بالاسلوب الفني الرائع ، واعتداده بالفصاحة والبيان مع جمال الخط ووضوحه .

واما ذمه للناقصين من الكتاب فقد كان لاذعا ؛ وقد وفق في اختيار ابيات شعرية تعتبر مثالا للشعر الهجائي الساخر الذي يدفع ضعاف الكتاب

(*) الجزء الاول من صفحة 35 الى 140 .

وحينما تحدث المؤلف عن آداب الكتاب خص بابا لحسن سيرتهم وشرف مذهبهم بحيث يعتمدون الله في الاسرار والاعلان ، وان يكونوا صالحي النيات قاصدين باعمالهم النفع العام ، عاملين على اغاثة الملهوف ، والاخذ بيد الضعيف ، ملتزمين بحدود الدين ، مقتصدين في طلب اللذات ، ومقتصرين من ذلك على ما يقيم المروءة من افضل الاخلاق واشرفها ، ثم تحدث عن حسن عشرتهم لكل من يحيطون به ملكا كان او كاتبا او من الدهماء ، وهذا القسم من الباب يعتبر درسا خلقيا يحدد للكاتب طريق صلاحه ويهديه الى حسن المعاملة ويمكنه من اكتساب الفضائل العامة التي لا يستغنى عنها اذا ما اراد النجاح

وانتقل بعد ذلك الى الباب الرابع ، وقد تحدث فيه عن التعريف بديوان الانشاء وعن أصل وضعه في الاسلام ، فذكر ان الديوان اسم للموضع الذي يجلس فيه الكتاب ، واصله دوان ثم ابدلت احدى الواوين ياء ، ولذلك يجمع على دواوين ، وعليه فهو عربي ، قال النحاس : « والمعروف في لغة العرب ان الديوان الاصل الذي يرجع اليه ويعمل بما فيه ، ومنه قول ابن عباس « اذا سألتموني عن شيء من غريب القرءان فالتمسوه في الشعر ، فان الشعر ديوان العرب » ، ويقال دونته انبته ، واليه يميل كلام سيبويه ، وذهب آخرون الى ان اصله فارسي معرب ، قال بذلك الاصمعي ، واقتصر عليه الجوهري في صحاحه » .

ثم ذكر المؤلف ان ديوان الانشاء هو اول ديوان وضع في الاسلام ، وان النبي (ص) كان يكاتب امراءه واصحاب سراياه من الصحابة ويكاتبونه ، وكتب الى من قرب اليه من الملوك يدعوهم الى الاسلام وكتب كتاب القضية بعقد الهدنة بينه وبين قريش عام الحديبية ، وكتب الامانات وهذه الكتب كلها تتعلق بديوان الانشاء ، اما ديوان الجيش فقد كان عمر أول من ابته ونظمه ، اما ديوان الخراج فقد نقل المؤلف من كتاب « عيون المعارف وفنون اخبار الخلائق » (*) للقضاعي ان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت كانا يكتبان للنبي (ص) اموال الصدقات وان حذيفة ابن اليمان كان يكتب له خرص النخل وان المغيرة ابن شعبة والحصين بن نمير كانا يكتبان المداينات والمعاملات ، قال القلقشندي : « فان صح ذلك فتكون هذه الدواوين ايضا قد وضعت في زمنه (ص) الا انها لبست في الشهرة . . كما تقدم من متعلقات كتابة الانشاء

ثم ذكر بعد ذلك اسماء بعض الكتاب في صدر الاسلام وفي أيام الخلفاء الراشدين وفي عهد الامويين الى أن بلغ الامر الى العباسيين فابدل السفاح اسم الكاتب باسم الوزير ، ولقب ابا سلمة الخلال بذلك فكان أول من لقب بالوزرة في الاسلام ، واصبح ديوان الانشاء مضافا الى الوزارة فيكون الوزير هو الذي ينفذ اموره بقلمه ، وتارة كان يفرد بكاتب ينظر في أمره ويكون الوزير هو الذي ينفذ اموره بكلامه وبصرفها بتوقيعه على القصص ونحوها ثم ذكر اشهر الوزراء والكتاب ايام العباسيين ثم بعد انقراض دولتهم ببغداد .

ثم تحدث عن المغرب والاندلس وذكر ان الكتابة لم تستقر بهما الا بعد ان انقضى عهد الولاة وتأسست دول مستقلة كانت سببا في ازدهار الحضارة ، وعلل ذلك بأن الكتابة صناعة لا يقوم لها اساس الا على الرقي الحضاري فقال : «فأوائل الدول القريبون عهدا بالبادية لا عناية لهم بكتابة الانشاء ، واذا استحضرت الدولة صرفت اهتمامها الى ديوان الانشاء وترتيبه » (**) .

ثم ذكر من اشتهر بالبلاغة من كتاب المغاربة ، فذكر منهم ابا الوليد بن زيدون ، والوزير ابا حفص ابن برد الاصغر الاندلسي ، وذا الوزارتين ابا المغيرة ابن حزم ، والوزير ابا القاسم محمد بن الحد ، وعبد المهيمن كاتب السلطان ابي الحسن المريني ، ولسان الدين ابن الخطيب وزير ابن الاحمر صاحب غرناطة من الاندلس .

---

* ذكر القلقشندي هذا المصدر في تحليله للمقالة الاولى وسماه عيون المعارف في ذكر اخبار الخلائف وكثيرا ما يغير المؤلف اسماء بعض الكتب أواسماء بعض المؤلفين وسأنبه على ذلك في بحث خاص حول المصادر التي اعتمد عليها القلقشندي في كتابه (صبح الاعشى) ج 1 ص 91 وصفحة 307 .

** صبح الاعشى ج 1 ص 94

وما يروى ان النابغة الجعدي كان سيدا فى قومه ، لا يقطعون امرا دونه ، وان قول الشعر نقصه وحط رتبته .. ولا عبرة بما ذهب اليه بعضهم من تفضيل الشعر على النثر اتباعا لهواه بدون دليل واضح) .

وانا ارى ان المؤلف فى دفاعه عن النثر لم يكن واقعيا ، فان العلل التي جعل بها الشعر سخيفا انما كانت فى المفاضلة بين الضعيف من الشعر والمتين من النثر ، مع ان الشعراء المجيدين والمطبوعين ياتون بشعرهم وليس فيه من المعاضلة والتعقيد ما يجعله فى الدرجة التي صوره بها القلقشندي كما ان من الكتاب من يصوغ نثره معقدا غامضا لا جمال فيه ولا ابداع .

ولتأكيد هذه الملاحظة نشير الى قول زكي مبارك فى كتابه النثر الفني (*) : (وتفسير القلقشندي لرايه غير كاف ولا سديد ، فان الشعر الذي نوازن بينه وبين النثر ليس هو الشعر الذي تكون معانيه تابعة لالفاظه وانما هو الشعر المحكم الذي تكون فيه الالفاظ دائما تبعا لمعانيه ، والنظم الجيد يفرض ذلك فى الشعر والنثر على السواء) .

ثم انتقل المؤلف الى الباب الثالث وتحدث فيه عن صفات الكتاب وآدابهم وجزأ الصفات الى ضربين : صفات واجبة لا يسع اهمالها وصفات عرفية فقط .

اما الصفات التي تجب فى الكاتب فقد حددها بعشر صفات :

الاولى : الاسلام ليؤمن فيما يكتبه ويمليه ، ويوثق به فيما يذره ويأتيه قال تعالى :) يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، والمراد بالبطانة فى الآية من يطلع على حال المسلمين كالاطلاع على مقدار خزائنهم من المال واعداد جيشهم من الخيل والرجال .

الثانية : الذكورة قال : « ان اصحابه الشافعين يشترطون فى كاتب القاضي ان يكون ذكرا وهذا الشرط فى كاتب السلطان اولى » .

الثالثة : الحرية .

الرابعة : التكليف .

الخامسة : العدالة قال : « لانه لو زاد ادنى كلمة ، او حذف ايسر حرف ، او كتم شيئا قد علمه ، او تأول لفظا بغير معناه ، او حرفه عن جهته ، ادى ذلك الى ضرر من لا يستوجب الضرر ونفع من يجب الاضرار به » ، ولله در القائل :

واضربة من كاتب ببنانه
امضى واقطع من رفيق حسام
قوم اذا عزموا عداوة حاسد
سفكوا الدما بأسنة الاقدام

السادسة : البلاغة .

السابعة : وفور العقل وجزالة الراى .

الثامنة : العلم بمواد الاحكام الشرعية والفنون الادبيه وغيرها .

التاسعة : قوة العزم ، وعلو الهمة ، وشرف النفس .

العاشرة : الكفاية لما يتولاه ، لان العاجز يدخل الضرر على المملكة ويوجب الوهن فى امر المسلمين .

واما الصفات العرفية فقد كان اكثرها يرجع الى وصف حالته وما يجب ان يتحلى به ظاهريا وباطنيا ، ومما نقل فى ذلك قول المهذب بن مماتي فى كتابة قوانين الدواوين : « ينبغي ان يكون الكاتب اديبا ، حاد الذهن ، قوي النفس ، حاضر الحس ، جيد الحدس ، حلو اللسان ، له جراءة ينبت بها الامور على حكم البديهة ، وفيه تؤدة يقف بها فيما لا يظهر له على حد الروية شريف الانفة ، عظيم النزاهة ، كريم الاخلاق مامون الغائلة مؤدب الخدام » .

(*) النثر الفني لزكي مبارك الطبعة الاولى الجزء الاول صفحة 28 .

الاخلاص والتفاني ، قال : « وعليه أن يحترز عن
ف جواسيسه بعضهم بعضا لاسيما عند التوجه
مات ، وان استطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطة
ل » ، ولقد اعتنى المؤلف بتحليل هذا الامر نظرا
مميته في تسيير الدولة ، وانا أهيب بالقراء ان
جعوا الى الاصل ليطلعوا على الوجهة التفكيرية التي
ي يمتاز بها الفكر العربي الجبار (*) .

الامـر العاشر : نظره في امور القصاد الذين
سافرون بالملطفات من الكتب وهؤلاء تكون لهم القدرة
على المشي والسرعة فيرسلون ببعض الرسائل
الهامة ويطالبون بارجاع الاجوبة عنها وهم اقدر على
الاختفاء واعرف بمسالك الطرق ، ويرسل الملك منهم
اثنين كل واحد منهما مستقل بوجهته حتى اذا
اعترض العدو احدهما بلغ الاخر الى مقصده .

الحادي عشر : نظره في امر المناور والمحرقات،
اما المناور فامكنة خاصة مرتبة برؤوس الجبال العالية
كان يقوم بها اقوام لهم رزق على السلطان ، واذا
شعروا بتحرك التتار وكان الوقت ليلا اشعلوا النيران
اشعارا بالخطر ، واما المحرقات فقوم كانت وظيفتهم
ارهابية ضد التتار ، (كانوا يتحيلون على احراق
زروعهم بأن يمسك الثعالب ونحوها وربط الخرق
المغموسة في الزيت باذناب تلك الثعالب وتوقد النار
وترسل في زروعهم اذا يبست فيأخذها الذعر من تلك
النار المربوطة بأذنابها فتذهب في الزروع آخذة يمينا
وشمالا . فما مرت بشيء منه الا احرقته ، وتواصلت
النار من بعضها الى بعض فتحرق المزرعة عن
آخرها) قال القلقشندي وهذان الامران قد بطل
حكمهما من حين وقوع الصلح بين ملوك مصر وملوك
التتار .

الثاني عشر : نظره في الامور العامة مما يعود
نفعه على السلطان والمملكة عليه ان يسرع في اخبار
السلطان بكل ما يصل اليه وان ارتاب في خبر المخبر
احضره معه الى السلطان ليشافهه فيه حتى يكون
بريئا عن تبعته .

وانتقل بعد ذلك الى الحديث عن وظائف ديوان
الانشاء وانواع الكتاب على اختلاف درجاتهم وعن
وظائف تتعلق بهذا الديوان وليست من الكتابة ،
فذكر منها وظيفتين هامتين الاولى وظيفة الخازن
المحافظ على جميع الكتب السلطانية والمراسم العامة
ويجب أن يكون امينا لان زمام جميع الديوان بيده ،
فمتى كان قليل الامانة ربما امالته الرشوة الى اخراج
شيء من المكاتبات من الديوان وافشاء سر من الاسرار
فيضر بالدولة ضررا كبيرا » ، والثانية وظيفة الحاجب
ومهمته ان يقف حاجزا دون دخول اي شخص على كاتب
الديوان الا بعد استئذانه وفي ذلك حفظ لاسرار الدولة

ولقد تحدث المؤلف عن الحال الذي استقر عليها
كتاب الديوان في عصره وأنهم طبقتان ، كتاب الدست
وكتاب الدرج وبذلك انهى مقدمة كتابه .

فالى اللقاء مع المؤلف في المقالة الاولى .

فاس ــ محمد بن عبد العزيز الدباغ

---

* صبح الاعشى ج 1 ص 123 – 124 – 125 – 126 .

ثم تحدث بعد ذلك عن ديوان الانشاء بمصر منذ تأسيسه الى عهده وقسمه الى خمس حالات ينبغي لمن يهتم بهاته النقطة من طلاب التاريخ والحضارة ان يرجعوا فى تحليلها الى الكتاب (*) .

وانتقل بعد ذلك الى الباب الخامس فتحدث فيه عن قوانين ديوان الانشاء وترتيب احواله وآداب اهله وذكر فى هذا الباب رفعة قدرصاحب هذا الديوان، وشرف محله ونقل عن ابن الطوير من كتاب « ترتيب الدولة الفاطمية » انهم كانوا يلقبون هذا الكاتب بالديار المصرية كاتب الدست ، قال القلقشندي : « وانتهى الامر الى اوائل الدولة التركية والحال فى ذلك مختلف فتارة بلي الديوان كاتب واحد يعبر عنه بكاتب الدست ، وربما عبر عنه بكاتب الدرج ، وتارة يليه جماعة يعبر عنهم بكتاب الدست .. وبقي الامر على ذلك الى ان ولي الديوان القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر فى ايام المنصور قلاوون .. فلقب بكاتب السر ، ونقل كاتب الدست الى طبقة دونه من كتاب الديوان .. ثم قال والعامة يبدلون الباء من كاتب السر بميم فيقولون كاتم السر وهو صحيح » .

وانتقل بعد ذلك الى الحديث عما يتصرف فيه صاحب هذا الديوان بتدبيره ويصرفه بقلمه وجعل ذلك يتعلق باثنى عشر امرا .

الامر الاول : التوقيع والتعيين ، والمراد به الكتابة على الرقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من امر الولايات والمكاتبات فى الامور المتعلقة بالمملكة والتحدث فى المظالم .

الامر الثاني : نظره فى الكتب الواردة عليه .

الامر الثالث : نظره فيما يتعلق برد الاجوبة.

الامر الرابع : نظره فيما تتفاوت به المراتب فى المكاتبات ، والولايات من الافتتاح ، والدعاء ، والالقاب ، وقطع الورق ونحو ذلك .

الامر الخامس : نظره فيما يكتب من ديوانه وتصفحه قبل اخراجه من الديوان ، فان تعذر عليه ذلك اقام له نائبا حسن الفطنة ، كامل الصنعة موثوقا به .

الامر السادس : نظره فى امر البريد ومتعلقاته وهنا تحدث عن النظم الدقيقة التي كانت متبعة في سير البريد .

الامر السابع : نظره فى ابراج الحمام ومتعلقاته وقد كان الحمام البريدي يقوم مقام البرق فى العصر الحاضر .

الامر الثامن : نظره فى أمور الفداوية وهم طائفة مكلفة باغتيال أعداء الملك ينسبون الى الطائفة الاسماعيلية الشيعية ويعرفون بالفداوية لانهم يفادون بالمال على من يقتلونه .

قال فى مسالك الابصار (*) : « وهم يعتقدون ان كل من ملك مصر كان مظهرا لهم ولذلك ينولونه ويرون اتلاف نفوسهم فى طاعته لما ينتقل اليهم من النعيم الاكبر بزعمهم » قال « ولصاحب مصر بمشايعتهم مربة يخافه بها عدوه لانه يرسل منهم من يقتله ولا يبالى ان يقتل بعده ، ومن يبعثه الى عدوه فجبن عن قتله قتله اذا عاد اليهم ، وان هرب تبعوه وقتلوه » .

الامر التاسع : نظره فى أمر العيون والجواسيس وذكر القلقشندي ما يجب على الكاتب ازاء هذا الامر من الاحتياط ونبه الى الشروط التي تجب في الجاسوس ، فذكر منها ان يكون ممن يوثق بنصيحته وصدقه ، وان يكون ذا حدس صائب وفراسة تامة ، وان يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة وان يكون له دربة بالاسفار ومعرفة بالبلاد التي يتوجه اليها ، وان يكون عارفا بلسان اهل البلاد التي يتوجه اليها ، وان يكون صبورا على ما لعله يصير اليه من عقوبة ان ظفر به العدو ، ثم ذكر المؤلف توجيهات خاصة للكاتب فى هذا الشأن ، منها : ان يعين اسرة الجاسوس وأن يضفى عليها من الخيرات ما يدفع ذلك الجاسوس

---

* نفس المصدر من صفحة 95 الى 100 .
* لم يذكر القلقشندي اسم مؤلف هذا الكتاب وهو غالبا ما يستغني عن ذكر المؤلفين اعتمادا على شهرتهم وشيوع مؤلفاتهم ، وهو لابن فضل اللهالعمري صاحب كتاب التعريف الذي تحدثنا عنه فى المقال السابق طبع فى مصر بعناية دار الكتب المصرية ج 1 ص 122 .

الخطوة المنتجة التي تخلى عنها المغرب

ومع ذلك ، فقد كان سير التاريخ يفرض هذه سرة . فإذا كانت العاطفة والهوى والعادة توحي بالركود والهدوء ، فإن ارادة الحياة تتطلب كة والتطور والسير دائما الى الامام . وكم شعب اليوم عن وجه التاريخ لانه اراد ن يحيا خارج سان !

ولو اهتدى اجدادنا الى التفكير القويم وتدبروا واقع بحصافة وبعد نظر لفهموا ان انقاذ المغرب هو في استفادة من حضارة اروبا وعلمها وتجاربها لا في الجمود والتعصب . وقد كان اليابان مثل المغرب نفس منطويا على نفسه وتقاليده . ثم بدأ هو ايضا يستيقظ في أواسط القرن الماضي . الا انه لم يتردد في تدارك ضعفه ومعالجة ادوائه . فتتلمذ على اروبا مدة قصيرة . وما هي الا سنوات حتى اصبح دولة قوية لها وزنها في العالم ومقامها بين الدول وشخصيتها وحضارتها وميزاتها .

وقد كان في مستطاع المغرب ان يتقدم بنفس الخطوات ويتخذ لذلك العدة الضرورية فيصبح هو ايضا في اواخر القرن المنصرم دولة ذات مناعة وقوة يعتز بحاضرها كما يعتز بماضيها ويفرض على الطامعين في احتلالها واستعمارها ما يجب من الاحترام والمهابة . ولكن الجمود والتعصب حجبا الحقائق النافعة عن اعين الطبقة المسيرة والمعلمة وكانا سببا في النكبات التي عاشها المغرب من بعد . وهكذا يوضح لنا التاريخ أن الغلو في المحافظة والانكباب على الماضي قد يضيع معهما كل شيء وأن شيئا من الاقدام والجرأة قد تكون هي الوسيلة لصيانة كيان الامة وحفظ امجادها التاريخية وضمان مستقبلها . وما هذا الا مثال حي عن الجدلية التاريخية التي طالما تحدث عنها الفيلسوف « هيجل » في كتبه .

على أن اجدادنا لم يكونوا يدافعون عن جمودهم ومحافظتهم لحجج عاطفية فقط . بل كانوا يفسرون مواقفهم بعلل سياسية واجتماعية وثقافية . فنحن ندرك المؤرخ الذي تقتضي مهمته ان يرسم صورا كاملة عن الماضي ان يحيط بكل تلك العلل . وسنكتفي نحن ، في نطاقنا المحدود ، بأن نبين الاخطاء الفكرية التي كان اجدادنا يعتبرونها من المسلمات والتي كانت عود حطاهم في مختلف اوجه نشاطهم . والواقع انها كانت تضع امامهم سدودا وحواجز اكثر مما تفتح لهم الطرق وتنير لهم السبل .

حجة الدين

واهم حجة كان يرتكز عليها اجدادنا للدفاع عن جمودهم وتعصبهم هو الدين . وكانوا يعتقدون أنهم في سائر تصرفاتهم ، اوفياء للقرآن والحديث وتعاليم الائمة الكبار .

ولكننا عندما ننظر الى الاسلام في نصوصه الصحيحة الثابتة وندرسها بتحر وموضوعية ، لا نجد مطلقا انه يؤيد الجامدين في جمودهم أو يمنع عن المسلمين الاستفادة من غير المسلمين والتعلم عليهم ولا يقف حجر عثرة في طريق التطور والتجديد . بل ان فيه مبادىء ثورية لم تطبق الا في فترات قصيرة . فمبدأ المساواة مثلا لو فهمه اجدادنا فهما صحيحا وعملوا به وطبقوه في حياتهم العمومية والخصوصية لكان عاملا من عوامل ازدهار المجتمع وتقدمه وتماسكه ولكانت انظمتنا السياسية والاجتماعية تتسم في كل العهود بطابع الديموقراطية . ووضعية المرأة كما حددها الاسلام تختلف في كثير عن الوضعية التي كانت توجد عليها في مجتمعنا . لقد ادخل الاسلام المرأة في المجتمع كعضو عامل له حقوق وعليه واجبات يتعلم ويدبر ويبدي رايه في كل الشؤون . ولكن مجتمعنا المتأخر الجامد فرض عليه الجهل وعلمه الخضوع والخنوع وجرده من شخصيته . ومن تعاليم الاسلام ايضا أن المسلم لا معبود له الا الله وان عبادة الاصنام والاشخاص أمر محرم . ولكن مجتمعنا اوجد الى جانب عبادة التوحيد نوعا آخر من العبادات تتجه الى الاولياء واصحاب المزارات والقباب . ومن تعاليم الاسلام الاتكال على النفس والعمل الشخصي بعد الاتكال على الله ، لكن التقاليد الاجتماعية أدى بها التراجع والانحطاط الى أن تجاهلت السبب والمسبب ونشرت نوعا من الاستسلام للقدر والتخلي عن المجهود والكد .

بحيث ان الاسلام كان يتمثل للملاحظ الموضوعي في صورتين : صورة واقعية تطبيقية ترتبط بحياة المجتمع اليومية وبتصرف الناس وسلوكهم ؛ وصورة نظرية مجردة نجدها في النصوص المقدسة وفي كتب بعض العلماء الذين حاولوا ان يفهموا فلسفة الاسلام العميقة . وقد اصبحت هاتان الصورتان في عهود الانحطاط متباعدتين عن بعضهما تباعدا واسعا . وسيطول بنا الكلام لو حاولنا أن نعرف بالتدقيق مسافة الخلاف بين الاسلام النظري والاسلام المطبق ، وخاصة في العهود المتأخرة . فهذا موضوع قد تعرض له بكثير من التفصيل والخبرة رجال الاصلاح ودعاته

نحو تجديد محتوى

ثقافتنا القومية

ثمن الأخطاء

بقلم: الأستاذ محمد زنيبر

- 4 -

عالم الاجداد

ظل اجدادنا ، امام تزايد النفوذ الاروبي ، مترددين فى القيام بالاصلاحات الثورية التي كان يتطلبها الوضع والتي بدونها لم يكن للمغرب سبيل لانقاذ نفسه من الاخطار المحدقة به . والذي جعلهم يؤسرون السكون والركود أنهم كانوا يعتقدون ، عن حسن نية فى الغالب ، ان معارضتهم لكل ما هو آت من اروبا هي الوسيلة الوحيدة لانقاذ البلاد ماديا وروحيا ولصيانة كيانها واستقلالها . وقلة معرفتهم باروبا وبسياستها وأساليبها الاستعمارية جعلتهم لا يتصورون الاستعمار فى شكله الحقيقى فيتكهنوا بالاحداث المقبلة ويستعدوا لها ويروا الاجنبي يغير على أرضهم ويكتسحها شبرا بعد شبر .

بل ان الذي كانوا يخافون منه ، حسب ما تبديه قرائن عديدة ، هو الغزو الفكري الاروبي . فتلك بداية لمغامرة عقلية الله اعلم بنهايتها . واقل ما يترتب عنها زعزعة العقائد الراسخة والعادات والتقاليد الثابتة . فاذا افترضنا أن الباب سيفتح قليلا ليدخل الهواء الجديد ، فهل يمكن اغلاقه من بعد .

والحق ان اجدادنا كانوا يلحظون المغرب بعين ملؤها الرضا والارتياح : بلاد تؤدى فيها العبادات لله ، وتعمر فيها المساجد ويقبل اهلها على الحياة بقناعة راضين بقسمة الله وتدر عليهم أرضها الخصيبة نعما وخيرات . فماذا يطلب الانسان بعد هذا ؟ وما شأن المغرب وشأن اقوام كفروا بالله وراحوا يقلدون الصانع المبدع ، فيغيروا ويبدلوا فى الاشياء ويتكالبوا على زخرف الدنيا ومتاعها ؟

تلك هي حكمتهم البسيطة التي كانوا ينظرون بها الى الاشياء والتي كانت تسهل عليهم الحياة وتقلل لهم من مشاكلها وتصرفهم عن جوانبها المعقدة المتشعبة . وطبيعي أن يخشوا عليها من الافكار المتنطعة التي ترد من اروبا والتي من شأنها ان تخرجهم من احلامهم المألوفة الى واقع أقل بشاشة وبشرا . واقع ينتزع الانسان من مستراحه ويخلق له المشاغل من كل نوع . لقد كانوا يعيشون فى عالم خاص يختلف كل اختلاف عما يحيط به من عوالم ، عالم كيفه التاريخ والتقاليد وكيفته أنظمة سياسية واجتماعية من نوع فريد . وزاده طرافة خيال الانسان الذي يعيش بعاطفته منقادا لها راضيا بما عنده غير متشوف لما عند الغير . فهو عالم لا يوجد له نظير الا فى عهود التاريخ القديم . وهو لبعده عن العصر وعن الواقع لا يكاد يرى الا فى الاحلام العميقة او النشوات الطويلة. وليس ببدع ان يولع الفنانون والشعراء والكتاب الوجدانيون ، من امثال « بيير لوتي » وغيره ، بالمغرب فيتهافتوا عليه معجبين بجوه الطريف ويرسموا مشاهداتهم فى كتب أو صفحات تذهب بالقاريء بعيدا عن محيطه المألوف .

وان الافكار الجديدة التي بدات تتوارد من اروبا سالكة كل الطرق كانت نذيرة بنهاية عالم . ونهاية عالم هي دائما مأساة يصعب الحضور عليها ومشاهدتها . وقد كان من العسير على اجدادنا أن يروا عالمهم الذى الفوه وعاشوا فيه دهرا ينهار من حواليهم ليدخلوا في مغامرة لم يكونوا متأهبين لها .

... منذ قرون عديدة وكيف أنها لم ترد ان تساير ... والاحداث وكيف انها تجمدت في الاخير وطبت ... اصبحت عرقلة دون كل اصلاح . فكيف يتأتى ... الثقافة الاجنبية بواسطتها ؟ فالثورة الفكرية ... رفضنا ان نقوم بها نحن في الوقت المناسب ، ... حت مفروضة علينا ، فيما بعد ، ولكن من الخارج ... حسب مناهج وطرق لم يكن لنا فيها اختيار . وهذا ... كثيرا من المشاكل التي نعانيها اليوم في تطورنا السياسي . فلو اخذنا الامور بيدنا من أول مرة وسرنا ... سيرا واضحا معقولا لما اعترضتنا كل العقبات التي نشاهدها . ولكن ، بما أننا تركنا الاحداث تطغى ... ، فلم يكن لنا بد مما نراه اليوم .

والآن وقد مر نصف قرن واجتزنا تجربة الاستعمار ، هل نستطيع ان نقول ان محتوى ثقافتنا الموسة تجدد ؟ سنجيب على هذا السؤال في مقال مقبل بما يتطلبه الموضوع من التفصيل ويكفي ان نقول الآن ان المشكلة لا زالت مطروحة امامنا كما كانت امام الجيل السابق . فنحن نريد أن تكون لنا ثقافة قومية تعبر عن شخصيتنا ونفسيتنا ونتساءل ما العمل لادراك هاته الغاية ؟

وقد تبين منذ الاول ان الشرط الاساسي للخروج من الجمود الذى نعانيه هو في تجديد محتوى ثقافتنا . وهذا التجديد لا يتم الا بالخروج من قيود الماضي وعقلية الماضي . فقد بلغت ثقافتنا في القرن المنصرم نهاية مرحلة . ولئن سطع نجمها طوال القرون الوسطى ، فقد تبين فشلها وتدهورها فيما بعد . وغير خاف ان الثقافة ليست هي العلوم والآداب المدرجة في بطون الكتب والاوراق ، ولكنها قوة معنوية بها تحس الشعوب وتعتز ، واليها ترجع لتستنير وسط الخطوب المدلهمة ، ومن ينابيعها الفائضة تستقي الافكار الحية الجديدة لتواصل سيرها التاريخي . فالثقافة كائن حي يغمر المجتمع من جميع جوانبه ويلابسه في سائر احواله وتقلباته . انها زبدة الفكر الانساني في سائر تفاعلاته مع الواقع ونتاج الصراع البشري مع قوات الكون وترجمان صادق يعبر عن مطامح كل شعب ومثله العليا .

ولئن وجد المغرب نفسه عاجزا أمام الاستعمار ، فلانه ، قبل كل شيء ، كان فاقدا لتلك القوة المعنوية فلم تعد ثقافته الهرمة قادرة على القيام بدورها الطبيعي في الوطن والمجتمع .

دعـــوة غريبـــة

تلك دروس تلقيناها من التاريخ . لقد كلفتنا ثمنا باهظا . ولكن اذا عرفنا كيف نستخلص عبرتها ، فسنجتنب كثيرا من الاخطاء في بناء المستقبل وسنسير في طريقنا اكثر جرأة واقداما . ومن حقنا أن نبدي تعجبنا واسفنا من كون بعض المفكرين وحملة الاقلام عندنا لا زالوا لم يستوعبوا تجربة الماضي ويميزوا جانبها السلبي من الايجابي . فلا زالت بعض صحفنا ومجلاتنا تطلع علينا احيانا بدعوات للرجوع الى ذلك الماضي ونبذ كل فكرة اتتنا من الخارج ورفض الاحتكاك بالثقافات الاجنبية .

ولنسق على سبيل المثال المقال الذي كتبه الاستاذ عبد السلام الهراس في أحد الاعداد الماضية من « دعوة الحق » بعنوان « قبل فوات الاوان » . واختيارنا لهذا المقال ولهذا الكاتب ليس له معنى خاص . فهناك اشباه ونظائر كثيرة لهذا المثال .

المحور الذي يدور عليه المقال المذكور هو ان الكاتب يخشى على الاجيال الصاعدة من تاثير الثقافة الاجنبية . ذلك ان الدول العظمى اصبحت تعتمد على سلاح الفكر « لغزو الشعوب الضعيفة ، مستغلة فراغها الفكري وبلبلتها الروحية » . وهكذا « تجهز لهم ثقافة مختارة محدودة لا تسمح لهم بالشعور بكرامة أمتهم ولا تحملهم على الحنين لامجاد ماضيهم » . ويتغلغل الاستعمار الثقافي بهذه الصورة في الامم الضعيفة ويخلق فيها قيادة مزيفة تكتفي باقتباس بعض المظاهر من الامة التي نقلت عنها ثقافتها . « وبما ان شرط الابداع والحضارة منعدم في امة تكون قيادتها على هذا الشكل ، فان المسخ هو الذي يسود حياتها بشكل مضحك ومؤلم معا » .

فما هي العواقب الخطيرة التي تترتب عن هذا الوضـــــع ؟

يجيب الكاتب : الخطر الذي يهدد أمتنا « هو هذا الذي يزحف زحفا شاملا على عقول ونفوس أطفالنا وشبابنا من الجيل الصاعد الذي سيكون عما قريب عنوان الامة وقائدها . فلقد اصبح هذا الجيل ينمو في أجواء خاصة ، مكيفة تكييفا آسنا خطيرا على الفكر والعقيدة والحضارة الاسلامية . انه يعد اعدادا مدروسا لكي يصبح « مسلما » من طراز عصري يحمل اسما أسلاميا عربيا ولكنه غريب القلب عن الاسلام وغريب اللسان عن العروبة »

وما الوسيلة لاتقاء هذا الخطر ؟

ووضعوا في شانه كتبا ومؤلفات . ومن المفيد الرجوع في هذا الصدد الى ما كتبه امثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده .

ونكتفي بأن نضيف هنا أن الاسلام عرف سلسلة من الانحرافات تبعا للاوضاع السياسية والاجتماعيه التي تقلبت فيها الدول الاسلامية . ومن الخطأ الاعتقاد بأن تلك الاوضاع كانت تخضع دائما لتعاليم الشريعة الاسلامية . بل كان يقع في أحيان كثيرة أن يخضع لها الدين اخضاعا ويؤول تأويلا يوافقها وينسجم معها . بحيث ان الدين بدل أن يحتفظ بصفاء جوهره واستقلاله فيظل قوة حية منزهة عن المؤثرات الدنيوية اصبح في الواقع صورة للمجتمع بما فيه من خير وشر .

وهذا هو السر في اتساع شقة الخلاف مع امتداد الزمان بين المفاهيم القرآنية الحقيقية وبين اسلوك الديني الذي أصبح مفروضا على المجتمع الاسلامي في عهود الانحطاط . وهذا السلوك هو الذي كان اجدادنا يغارون عليه ويتعصبون له ، ظنا منهم انه هو الاسلام الصحيح ، مع انه كان يسد في وجوههم أبواب التحرر والمعرفة والرقي ويجردهم من كل قوة امام اعدائهم .

ولو قيض للمغرب أن يقوم فيه زعماء للاصلاح امثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده في الشرق لأمكن التغلب ولو جزئيا على عقلية الجمود . ولكن شاء سوء الحظ أن يفقد المغرب حتى هذا النوع من الرجال الذين يكون لهم دور فعال في ظروف الازمات

الثقافة الاجنبية تحتل الفراغ

ومهما يكن فقد اظهرت الاحداث التي توالت فيما بعد أن اجدادنا وجدوا انفسهم مجردين لا من السلاح الحربي فحسب ، ولكن من السلاح الفكري ايضا ، وذلك حينما غزاهم الاستعمار واستولى على البلاد . فقد بلغ الانهيار الى حد ابعد مما يتصور الباحث لاول وهلة ، ولم تنحصر عواقب التخلف الثقافي والجمود الفكري في احتلال البلاد وضياع الاستقلال ، بل ظهر اثرها بصورة اقطع في ميدان الفكر . فامام الفراغ العقلي الذي كان يعانيه المغرب منذ ازمان بعيدة ، استطاعت الثقافة الاجنبية الدخيلة ان تجد لنفسها مكانا واسعا رحبا وسرعان ما اجتذبت اليها المثقفين والشباب . اما ثقافتنا العتيقة فقد ادركت أنها لم تعد قوية على البروز الى ميادين المباراة فانطوت على نفسها وتخلت عن دورها كثقافة وطنية وغدت في الواقع اثرا من الآثار التاريخية .

نعم ، بقيت بعض المعاهد الدينية تحافظ بشيء من الشجاعة ومغالبة الزمان على الدروس التقليدية ، ولكن الثقافة الحية ، الثقافة التي تصادف اقبالا ورواجا اضحت هي الثقافة التي أتى بها الاجانب واسسوا لها المدارس والمعاهد . واصبح علماء المعاهد التقليدية انفسهم يوجهون ابناءهم للمدارس الجديدة وهم شاعرون بأن دروسهم لم تعد تضمن المستقبل لابناء الجيل الجديد .

وقد كان من الممكن لثقافتنا القومية أن تتلافى هذا الوضع المزري لو استطاع رجال التعليم والساهرون عليه في مستهل هذا القرن أن ينتفضوا من خمولهم ويتغلبوا على جمودهم . ففي هذا الوقت بالذات كان التعليم قطع اشواطا في مصر والشرق العربي وبعض الدول الاسلاميه . ولو احتذت بلادنا مثالها لوجد الاستعمار الاجنبي عند غزوه لنا نفسه امام مدرسة مغربية متطورة تلقن للجيل النامي مبادىء العلوم الحديثة وفي نفس الوقت ترفع لواء الثقافة العربية .

ولكن الجمود الذي دفع بالساهرين على التعليم الى المواقف السلبية ، أفسح المجال للمدرسة الاجنبية ، لانها بحكم الضرورة والتجربة هي المدرسة التي تستطيع أن تساير روح العصر وتهيىء الجيل الناشىء لمهمات المستقبل . فاذا نتج بعد ذلك ان هذا الجيل اصبح ذا ثقافة وتكوين اجنبيين ، وقليل المعرفة بثقافته القومية ، فالمسؤولية تعود على الاجيال السابقة التي لم تعتن بهذا الامر ولم تبذل اي مجهود في خلق المدرسة الوطنية المسايرة لمقتضيات العصر .

حقا ان الاستعمار عمل فيما بعد على خنق ثقافتنا القومية ونشر ثقافته المجلوبة . ولكن هذا تصرف طبيعي ومنتظر من كل دولة أجنبية حاكمة . وليس من الحكمة ان ننتظر من الاجانب المحافظة على ثقافتنا القومية . وخير سلاح كان يمكن لثقافتنا ان تدافع به عن نفسها وتصمد للغزو الاجنبي هو اثبات وجودها بالمدرسة وبالكتاب وبالصحافة وبالندوات والمحاضرات .

لما ذا عجزت ثقافتنا عن المقاومة ؟

ولكن ، هل كان في مستطاع ثقافتنا في مستهل القرن الحالي ان تبرهن عن كل هذه الحيوية وتقوم بمثل هذا النشاط ؟ وهل كان في مستطاع المتعلمين والمثقفين في ذلك العهد أن يحملوا لواء العلم والفكر عاليا ؟

ان المسألة كلها ترجع الى محتوى الثقافة . وقد رأينا من خلال هذا البحث كيف ان ثقافتنا رفضت

الحضارة المغربية بين الاصالة والاقتباس

للأستاذ : محمد الحمداوي

1) اصالة الحضارة في الطبيعة البشرية :

هناك خاصتان ثابتان للانسان منذ ان خلق الانسان ، اولى هاتين الخاصتين هي قدرة الانسان الفطرية على التعقل والتفكير واعمال النظر ، وترتيب العمليات الفكرية ثم الاستنتاج ثم الاستفادة في الحياة العملية من هذا الاستنتاج العقلي الناشيء عن المقارنات الذهنيـــــة .

وتأصل هذه الخاصة ، خاصة التفكير ، في الانسان هو الذي يجعلها تستيقظ وتنمو في حقلها الاجتماعي بمجرد استعمالها بعد ان حيل بينها وبين هذا الاستعمال لاسباب قسرية ، كما ثبت ذلك في الحالات التي اثبتها المجربون الاجتماعيون على اطفال الانسان الذين قدر لهم ان يعيشوا زمنا ما بين الذئاب واطفال الذئاب ، وكما ثبت ذلك في حالات الشعوب التي اصبحت متطورة خلاقة منشئة مخترعة ، معطية وآخذة طامحة طامعة بعد ان زال عنها التحدي الانساني الداخلي والخارجي الذي عطل فيها طاقات التفكير والعمل المتأصلين فيها . وتأصل خاصة التعقل والتفكير في الانسان كذلك هو الذي جعل اولئك الذين يسيئون استعمال عقولهم عن عمد بعد تهيء الوسائل لاستعمالها النافع يعيرون في الاسلوب القرآني بانهم سفهوا حقيقتهم الانسانية ورضوا لها الانحراف عن طبيعتها المكرمة واصبحوا احط منزلة من الحيوانات التي لم تمنحها هذه الهبة العقلية بالطبيعة (ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيـــــلا) .

وثاني هاتين الخاصتين في بني الانسان هي خاصة التعلم والتعليم والتقليد والاقتباس والافادة والاستفادة ولعل تأصل خاصة التعلم والنقل في الطبيعة البشرية هو حكمة الله في ان اخرج اطفال الانسان وهم لا يعلمون ما تعلمه صغار الحيوانات من جلب المنافع ودفع المضار، ارادة لان يتحقق نمو الحياة الانسانية واطرادها بالتعلم والاقتداء لا بالفطرة والطبع ، ومن ثم كانت العائلـــة الانسانية المكونة من الوالدين تشكل في نوعنا البشري – كما يقول كوردون تشايلد – اجتماعا اكثر دوامـا منه في الانواع التي يصل صغارها الى درجة النضـوج بسرعة اكثر .

وبهاتين الخاصتين خاصة التفكير وخاصة التعلم اختص الانسان ان يكون الحيوان الاجتماعي كما عبر عنه بذلك فيلسوف الاغريق ارسطو ، واذا كان الانسان اجتماعيا بالطبع كان مدنيا بالطبع ، يقول جلبرت هايت في كتابه (العقل غير المغلوب) « وانت تسمع بعض الناس يقولون في هذه الايام ان نشوب الحرب التاليـة خليق بان يقضي على الحضاره ، وقد يعني هذا نهايـة عصر من عصور الحضارة ، وقد نصير نحن او مـن يبقى حيا منا او ذريتنا من بعدنا متوحشين مرة اخرى، زمنا ما ولكن ما دامت كرة الارض تصلح دارا للاحيـاء وما دام مخ الانسان الذي لا يزيد وزنه على 1417 غراما هو هو ، الاداة العجيبة للاكتشاف والاختراع والملاءمة فانا سنبقى قادرين على ان نعيد بناء الحضارة بـل سنلقى انفسنا مسوقين الى اعادة بنائها » ويقول :« ولن تجد بين الاحياء جماعة سوى جماعة البشر ، يستطيع افرادها حقا ان يتعلموا ويذكروا ويفكروا تفكيرا مبدعا متخطين حدود الجماعة الواحدة ومتعلمين » وما عبر عنه جلبرت هايت بعباراته هذه من تأصل التحضر في الطبيعة البشرية ما دام من خصائصها التعقل والتعلم هو الثابت ثبوت الحقائق في علم التاريخ الطبيعي ، وعلم السلالات البشرية ، فكما اثبت التاريخ الطبيعـي ان

يجب على القيادة « ان تتعمق في فهم النفسية للامة فهما مستقلا عن كل تأثير اجنبي او توجيه استعماري . وبذلك تستطيع القيادة ان تقف على حقيقة آمال الامة واهدافها ومكامن القوه والضعف فيها وطبيعة تكوينها ومزاجها وعلاقاتها التاريخية والعقائدية والفكرية . فان استطاعت ان تصل الى ذلك الفهم وان تؤمن بمبادىء الامة ايمانا عميقا خلاقا ، فانه يسهل على القيادة تعبئة الامة روحيا وفكريا والاهابة بها الى التشييد » .

هذا نوع من الفكر يكتسي ثوبا جديدا من حيث الصياغة والتعبير ، ولكنه لا يختلف في جوهره عن تفكير اجدادنا في اواخر القرن الماضي . ولندع جانبا بريق الالفاظ ومزايا الاسلوب لننظر الى فكرة الكاتب بالنقد المجرد .

اذا سايرنا الكاتب في منطقه وسلمنا بالمقدمات التي وضعها ، فما ذا تكون النتيجة ؟

يجب ان نغلق الابواب امام كل تاثير فكري يتسرب الينا من الخارج لنصحح عقائد ناشئتنا ونصونها من كل انحراف . ومعنى هذا ان سلامة العقائد في بلادنا لا يمكن ان تنبني الا على الجهل بما عند الغير .

وأي قيمة تبقى للعقائد اذا بنيت على هذا الاساس ؟ ان هذه النظرية تفرض ضمنيا ان افكار الغير قد تكون أقوى من الافكار التي تركز عليها عقائدنا اذن . فالافضل ان نرفض من اول مره الاحتكاك والمناقشة . ولا نحتاج الى الملاحظة هنا بأن العقائد والافكار لا تصح الا بالمناقشة .

نضيف الى ذلك ان مبادىء الاسلام ، على ما نعلم ، لا تتفق مع هذا الرأي . ففي الاثر : « اطلبوا العلم ولو في الصين » . و « الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها اين وجدها » . وهذه الدولة العربية الاسلامية في أوج نهضتها لم تستنكف عن الاقتباس من الغير . وكتب المرحوم احمد أمين « ضحى الاسلام » تبين الى أي حد بعيد تأثرت ثقافتنا العربية بالثقافات الاخرى من فارسية وهندية ويونانية ورومانية . وما حدثنا التاريخ ان علماء الاسلام كانوا لا يرون في ذلك اي خروج عن حدود الدين . بل كانوا اول المشاركين في حركة الاقتباس والمتطلعين الى معرفة ما عند الغير .

ثم ان نظرية الكاتب ، من جانب آخر ، تنطوي على نوع من التحكم الاستبدادي في قيمة عقول ابناء الجيل . فما الذي ، يا ترى ، يخول له ان يستصغر تلك العقول حتى يراها مغلوبة من اول ساعة وبدون مقاومة امام الغزو الفكري الاجنبي ؟ ولما ذا لا يقبل ولو على سبيل الفرض ان لتلك العقول ، كما لعقله ولا شك ، ما يسمى بملكة النقد والتمحيص ؟ ان اشفاقه المشكور على عقولنا لا يعني الا انه اكتشف بطريقته الخاصة انها دون المستوى العادي مما يجعل منا مخلوقات طيعة في يد الاستعمار الثقافي يوجهنا كيف شاء .

ثم ما ذا يقصد الكاتب بالثقافة « المختارة المحدودة » التي تجهزها لنا الدول العظمى ؟ أهي كتب تفرض علينا دون أخرى ؟ أم هي اقفاص تضعها فيها لتصب لنا في الكوز قطرات شحيحة من ثقافتها ؟ ان الصورة طريفة في بابها ، ولكنها من قبيل الخيال .

ثم هل فكر الكاتب بجد في الوسائل العملية لتحقيق برنامجه ؟ ذلك أن الفكرة التي يدعو اليها لا يمكن خدمتها الا باحدى طريقتين : طريقة الاقناع العقلي بالمنافسة والتوضيح والمقارنة ، وسيكون عليه آنذاك ان يحترم حرية الغير وأن يقبل اعتراضاتهم وملاحظاتهم ويجيبهم عليها ؛ وطريقة الاكراه والفرض بالقوة . وهذا ستوجب احداث نوع من محاكم التفتيش التي كانت باوربا في القرون الوسطى والتي كانت مهمتها البحث في عقائد الناس واضطهاد كل من يحمل فكرة لا توافق مذهب الكنيسة .

ولست اعتقد أن محاكم التفتيش من هذا النوع مما تتفق وروح الاسلام ومبادئه . فهل هذا الذي يريد ان يوصلنا اليه الكاتب ؟ وهل يرضى لاخوانه المسلمين أن يعيشوا في عهد من تحجير العقول وتقييد الحرية الفكرية ؟

ولسنا في حاجة ، بعد هذا ، الى تبسيط هذه الحقيقة البديهية المسلمة لدى الجميع وهي أن تبادل الافكار والعلوم والثقافات نعمة عظمى ستفيد منها الانسانية وبفضلها نضيف كل يوم لبنة جديدة في بناء الحضارة .

لقد كان لاجدادنا بعض العذر ان كانوا يحملون مثل هذه الافكار ويدعون لها لانها كانت مطابقة لحياتهم وبيئتهم الاجتماعية ولانهم لم يكونوا يدركون فوائد التطور والاخذ بالثقافة العصرية وكانت تغيب عليهم اشياء كثيرة . أما ان يقوم اليوم دعاة يتناسون التجارب القاسية التي مررنا منها ويتجاهلون الاشواط التي قطعنا في تطورنا والمكاسب الفكرية التي حصلنا عليها ليطلبوا منا ان نعود الى عهد تجسم فيه انحطاطنا وتدهورنا ، فهذا مما يدعو الى العجب ويترك اللب شاردا .

(يتبع)

سلا : محمد زنيبر

...رات القرطاجنية والفينيقية) وبحكم القانون ...ريخي الذي يدعوه البعض (استطارة الحضارة) ...عوه آخرون « هجرة الافكار » بحكم هذا القانون ...ي يبني عليه اليوث رايه في نشوء ما على الارض من ...ضارات والذي يعترف المؤرخ الانجليزي توينبي ...بيره العام ولو انه ينكره بتاريخه الخاص الذي ...ده له اليوث حين يزعم ان الحضارة استطارت الى العالم من مكان خاص هو ارض مصر القديمة ...تطيع ان نثبت انه مما لا شك فيه ان قوما معاصرين ...ده الحضارة البربرية المتاصلة قد طارت اليهم ، وقد ...ون من بعض هؤلاء الاقوام المصريون القدماء الذين ...يد اليوت سميث ان يجعل حضارتهم مصدر كل ...ضارات العالم ولعل هذا ما يعنيه خوليو حين يقول ...ي محاضرته التي القاها في مدينة تطوان سنة 1947 : الشمال الافريقي ثقافات حامية شديدة القربى مع ...ثقافات غيرها مما نبقى من مقاطعة هيسبريا) واذا ...كانت النقوش والكتابات المصرية قد احتوت — كما ...يقول الاستاذ عثمان في كتيبه اللطيف عن البربر — على ذكر البربر ، وان هذا الذكر لم يقتصر على ذكر اسماء القبائل وعاداتهم . بل تعدى ذلك الى دراسة الخصائص البشرية والعادات والاخلاق ، وما تتعلق بحضارة البربر بوجه عام) فان هذا يعني انه كانت للبربر حضارة استحقت من جيرانهم ومعاصريهم المصريين ان يدونوها بما تيسر لهم من وسائل التدوين .

واذا كان الدكتور كوستاف لوبون يقول في كتابه الحضارة المصرية عن نزوح المصريين الاولين الى وادي النيل : « انه لا شبهة في ان اول الوافدين وجدوا على ضفاف النيل آثارا ضعيفة نادرة لما ترك أهل افريقيا السوداء الذين كانوا لا يصلون الى البحر الا بطريق النيل) فلم لا يجوز — بناء على نظرية تولد الحضارات — ان تكون الحضارة المصرية اذن متولدة عن هذه الآثار الضعيفة النادرة وناشئة عنها ، ويكون المصريون حينئذ انما اتموا فقط ما عجزت عنه القبائل السودانية التي يعترف الدكتور نفسه بانها تركت على ارض مصر آثار العصر الحجري التي لا تزال توجد احيانا تحت طبقات الرمال ، على ان ضرورة الاحتياج القسرية التي يرا اليها الدكتور كوستاف لوبون اختصاص الحضارة المصرية بكونها الحضارة الوحيدة التي نشأت فجأة من غير سابق اخذ ، هي نفسها الصفة الانسانية العامة التي يعبر عنها بالقول المأثور (الحاجة ام الاختراع) لذلك لا يمكن ان تكون هذه الصفة العامة سببا في نشأة الحضارة المصرية نشأة مستقلة دون غيرها من الحضارات ، خصوصا وهذه الضرورة هي نفسها الحجة التي يستند اليها اولئك الذين يريدون ان يثبتوا ما للابداع الاصلي من اثر ثابت في انشاء الحضارات الانسانية في مختلف الازمنة والامكنة ، ويرفضون عن حق الراي القائل بان جميع الحضارات البشرية قديمها وحديثها ، ماضيها وآتيها كلها متاصلة من حضارة واحدة هي حضارة قدماء المصريين او الحضارة الغربية الحديثة . يقول ارنولد توينبي في كتابه « دراسة التاريخ » : « اننا نسلم الآن بان استطارة الحضارة هي بلا ريب وسيلة انتقلت بفضلها كثير من الاساليب والمؤهلات والنظم والاراء من مجتمع الى آخر .. ولكن .. مع اعطاء الاستطارة حقها ، فمن الضروري ابراز الدور الذي قام به الابداع الاصلي في التاريخ البشري ، وينقل لنا توينبي للتدليل على صحة هذا الرأي عن فريمان من كتابه : « النظم السياسية المقارنة » قوله في الموضوع : «ليس من شك في ان كثيرا من اهم المخترعات الاساسية للحياة المتمدنة قد اخترع مرة واخرى في عصر وفي بلاد بعيدة عن بعضها ، وذلك لان أمما مختلفة كانت قد وصلت الى مراحل خاصة من التقدم الاجتماعي التي تدعو الحاجة فيها لاول مرة الى هذه المخترعات » .

بناء على هذه الحقائق العلمية يكون من حقنا حينئذ ان ننتظر ما عسى ان تحققه الدراسات الاثرية في المستقبل عما اذا كان رسم الكبش البربري الذي وجد منحوتا في بعض الجهات من الجزائر ، والذي يشابه وجهه تمثال الاله المصري القديم عمون رع — مقتبسا من رسم هذا الاله ، او اصلا له ، بطريق استطارة صنع احدهما الى الاخر ، او ان كليهما رسم . رسما ابداعيا بعيدا عن كون احدهما اصلا للآخر . كل ذلك ممكن في الحقائق التاريخية ، وكل ذلك ممكن في الطبيعة البشرية . ولعل تقدم الاكتشافات الاثرية الدائرة التي تكشف في كثير من الاحيان وفي كثير من الاماكن عكس ما كان يظنه التاريخ المكتوب بالامس حقائق فاذا هو اوهام وأباطيل — كما كشفت عن باطل ما زعمه الاحباش من قبل من انهم اول من نقل المدنية الى ارض وادي النيل — لعل هذه الاكتشافات اخذت تلقي بعض الضوء على مكان الحضارة المغربية من التاصل او الاقتباس ، فالاستاذ عثمان الكعاك بعد ان يقول لنا في كتابه الجامع عن البربر : « ان الامر يحتاج الى زيادة تنقيب لنعلم بالضبط ما اذا كانت حضارة البربر في تلك العصور » يعود فيستتني ويقول: «على ان الحفريات الاولى التي اجريت على حدود برقة

تمضي الجسم بتطور وينمو ويزداد تكاملا بدافع الفرض الذي تفرضه الاحوال الخارجية ، وما تستلزمه طبيعة الحياة من دقة واتقان في قيام الجسم بوظائفه الملائمة لهذه الاحوال واستغلالها ، كذلك أثبتت الأنثروبولوجيا الاجتماعية للجماعات البشرية انها بطبيعة جهادها في سبيل البقاء والمحافظة على النفس من طبيعتها ان تخترع وتستنبط وتنقل عن غيرها بالمحاكاة والتقليد والتعلم من الوسائل والادوات ما يجعلها قادرة على الملاءمة بين حياتها والقوى المحيطة بها ، وان استطراد هذه الملاءمات وتكاثرها ونموها وتنوعها بحسب ما تدعو اليه حاجة الزمان والمكان هي ما يعني بالتطور والتحضر ، والترقي والتمدن ، ولقد كانت القصة التي كتبها فيلسوفنا المغربي ابن طفيل شرحا علميا واعيا لمعنى التحضر الطبيعي في بني الانسان ، ولقد كان العنوان الذي وضعه لهذه القصة (حي ابن يقظان) تعبيرا علميا دقيقا عن معنى الحياة واليقظة في بني الانسان ، على ان الآية الكريمة التي نادت بني البشر قائلة : (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) ، تعني كل ما قال القائلون من قبل ومن بعد عن تأصل الحضارة في بني الانسان ، فتعارف الانسان لا يعنى شيئا ان لم يعن تعارفه بالنفع والانتفاع ، والتعاون والتساند والافادة والاستفادة فيما انشأته وتنشئه قبائله وشعوبه من وسائل الرقي والتحضر ، وذلك ما عناه بالفعل في مختلف أطوار حياته التاريخية ، ومن هنا كان المحققون من اهل العلم بالمدنيات وتاريخ المدنيات صادقين كل الصدق عند ما اصبحوا يرون ان كلمة « همجي » او متوحش اصبحت غير ذات موضوع في الحديث عن الانسان ، يقول العلامة ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) : « الهمجي هو أيضا متمدن بمعنى هام من معنى المدنية لانه يعني بنقل تراث القبيلة الى ابنائه ، وما تراث القبيلة الا مجموعات الانظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية التي هذبتها أثناء جهادها في سبيل الاحتفاظ بحياتها على هذه الارض والاستمتاع بتلك الحياة ، ومن المستحيل في هذا الصدد ان نلتزم حدود العلم ، لاننا حين نطلق على غيرنا من الناس اسم الهمج او المتوحشين فقد لا نعبر بهذه الالفاظ عن حقيقة موضوعية قائمة .

التحضر اذن متأصل في الطبيعة البشرية والحضارة اذن ليست وليدة عصر دون عصر ، ولا تركة شعب دون شعب ، بل هي تركة موروثة ساهم فيها كل ابناء البشر بالابداع والاقتباس منذ عهود انسان ما قبل التاريخ حتى آخر عهد من عهود الانسان من بعد التاريخ .

2) اصالة الحضارة المغربية :

والمغرب كشعب انساني له من الاستعدادات الفكرية ما لسائر الشعوب التي يقتسم معها الحياة على وجه هذه الارض ، من الطبيعي ان يتثقف وان يتحضر وان يترقى ، وان يبتدع من وسائل الترقي والتحضر ما تدعو اليه طبيعته الانسانية الحية المتطورة ، وهو من جهة اخرى كشعب اجتماعي له من غريزة الاجتماع ما لغيره من شعوب الارض ، ومن الطبيعي ان يتفاعل ويتعاون مع غيره من باقي هذه الشعوب الانسانية ، من الطبيعي ان يأخذ وان يعطي ، وان يقتبس ما سبقه اليه غيره من المخترعات والمنشئات التي تساعده على حياة التطور والرقي ، وهو تاريخنا كشعب افريقي سكن هذه القارة الافريقية التي تفاعلت مع غيرها من القارات الاخرى في غابر الازمان ، ولا تزال تتفاعل معها في حاضر الازمان ، من الطبيعي ان يتفاعل مع سكان هذه القارة ، ومع غير سكان هذه القارة ، فيما انتج وما اخترعت ، وما أعطت وما اخذت ، وما علمت وما تعلمت ، من وسائل الحياة ورقي الحياة هو تاريخنا قد ابدع حضارة قبل ان يقتبس من حضارة ، واعطى من حضارته قبل ان ينقل من حضارة الغير ، فالساحل المغربي على شاطيء البحر الابيض المتوسط الذي اثبت التاريخ انه كان طريقا للمدنيات القديمة – كما لا يزال طريقا للمدنيات الحديثة – هو ذلك الساحل المغربي الذي نقل لنا العلامة الانجليزي ولز في كتابه مختصر التاريخ عن المؤرخ الاسباني الاثري ابرمار انه كان الطريق الوحيد الذي نقل منه انسان افريقيا القديم الثقافة القابسية الى جنوب اسبانيا القديمة ، ولئن كان الجواب لا يزال بعيدا عن التحقيق فيما يتعلق بالمهد الاول للحضارات القديمة كما يقول ديورانت . ولئن كان الشك لا يزال لم يرتفع في كون الحضارة المصرية اصل للحضارة البربرية او فرع عنها او معاصرة لها متفاعلة معها ، فان مما لا شك فيه ان المدنية البربرية كانت محققة الوجود على الارض المغربية قبل ان ياتي هذه الارض الفينيقيون بما لهم من حضارة ومدنية ، يقول تيراس في كتابه (تاريخ المغرب) (انه بالرغم من كل التخريب والبلاء الذي تعرض له البرابرة وبالرغم من جميع امدادات السكان الاجانب التي استلمتها افريقيا الشمالية في أزمنة التاريخ فان الانسان يجد مدنية اصلية مؤسسة سابقة على

...سهب الاوراسي » . هكذا اثبت هذا المؤرخ العربي فضل الحضارة الاسلامية التي عدها بثاقب فكره فـي عداد الحضارات الحية ، على حين عدها الجاهلون بهـا من ابنائها في عـداد الحضـارات الميتـه ، وارادوا ان يلبسوا شعوبهم المنتسبة لها لباس الحضارة الغربية التي قال عنها وعن مبلغ تاثيرها في الحضارات المعاصره انها هذا المؤرخ نفسه وهو احد ابنائها العارفين بهـا وباسرارها ما يلي : « ان الحضارات ـ رغما عن الاراء الفاسدة للمادية الحديثة ـ لم تستند بمثل هذه الاحجار ولا تدخل في بنائها ماكينات الحياكة والنبع والبنادق بل ولا حتى الحروف الهجائية والاعداد . فان ابسـر شيء في عالم التبادل التجاري تصدير أسلوب فنـي غربي جديد وانه لا صعب صعوبة لا نهائية على الشاعر او المدرس العربي ان ينشغل في نفس غير غربية النشعلة الروحية المنفذة في نفسه هو » .

4) تأثر الحضارة الاسلامية بالمؤثرات الحضرية الاخرى :

ولئن كان من المعـروض بالنسبـة لما تحتويـه حقائق الديانة الاسلامية وقوانين اصولها العقديـه ان نرد ذلك الزعم الذي زعمه فون كريمر من تأثر اصـول الاسلام العقديه وطقوسه الدينيه بالمؤثرات المازدكية واليهودية والنصرانية فان من غير المقبول تاريخيا ان ننكر تأثر الحضاره الاسلامية باصول الفكـر والعلـم والفلسفه والحكمه التي كانت تحتويها حضارة الامـم التي ورثتها الامة الاسلامية ، لاننا نعرف ان ذلـك من سنة التطور التي هي سنة الله غير المبدلة . ولاننـا نعرف ان العلم بكلي نوعيه الروحي والعقلي الذي كان اساس البناء في الحضارة الاسلاميه كمـا كان اسـاس البناء في كل حضارة لاحقه او سابقه ليس ملكا لامـه دون أخرى ، ولا لعصر دون عصر ، وانما هو عطاء الله المشاع لانسان هذه الارض ، منذ ان علمه بالعلم ما لم يعلم ، ورشحه ان يكون خليفته في هذه الارض . ومن ثم جاء الحديث عن رسول الله للتعبير عن هذه الشوعيه حين قال : « الحكمة الحكيمة ضالة المومن حيـث وجدها فهو احق بها » . ولقد نقل المسلمون الاولون فلسفة يونان وحكمة الفرس ، ودرسوها وفهموهـا وهضموها ، وميزوا صحيحها من فاسدها ، بناء على ما تقتضيه قواعد الاسلام واصول الفكر فيه . فضمت هذه العلوم العقلية الى علوم الاسلام النقلية ، وتكون من ذلك اسس الحضارة الاسلامية التي اصبحت قانـون الحياة الاجتماعية في كل بقعة حلها الاسلام في الشرق وفي الغـــرب .

5) والاصل تتبعـــه الفــــروع :

وكما كانت فلسفة ارسطو ، وطب ابوقـراط وهندسة اقليدس تتناول بالنقـل والنقـد والشـرح والتعليق والتفهم والتفهيم في كل من بغداد ودمشـق والقاهره وسمرقند ، على يـد الكنـدي وابن سينـا والفارابي والغزالي ومـن على شاكلتهـم من فلاسفـة المشرق الاسلامي كذلك كانت هذه العلوم العقليـة المقتبسة تتناول بالنقل والشرح والتعليق والدرس ، والاختصار في كل من قرطبة وغرناطة والقيروان وفاس ومراكش على يد ابن رشد وابن طفيل وابن زهـر ومن على شاكلتهم من فلاسفة المغرب الاسلامي ، وكما كان خلفاء الاسلام في المشرق يعتنون باهل العلم والفلسفة والطب والنجوم يجلونهم اكبر الاجلال ويكرمونهم اعظم التكريم ويعقدون معهم مجالـس العلـم للمباحثـة والمناظره وهم بذلك العلم عالمون وفيه مشاركـون كذلك كان خلفاء الاسـلام في المغـرب ، وقـد كـان الخليفتان المغربيان في الدولة الموحدية يوسف بن عبد المومن وابنه يعقوب المنصور مضرب الامثال في الاعتناء بالعلم واجلال اهله ، وقد تحقق الاول منهما بنفسـه بكثير من اصول العلم النقلي والعقلي ، واقاما الاثنـان معا سوقا رائجة للفلسفة والفلاسفه والطب والاطبـاء واحاطا رجال هذه العلوم كغيرهم بالعناية والاجـلال والعطاء الواسع . ويكفي في هـذا المقـام ان ننصـت المراكشي متحدثا في كتابه المعجب عن مقام الفيلسوف ابن طفيل لدى ابي يعقوب قائلا : « ولم يزل ابو بكر هذا يجلب اليه العلماء وينبهه عليهم ويحضه على اكرامهـم والتنويه بهم » .

حقا ان المغرب كان ولا يزال وسيبقى وحـدة حضرية اسلامية . وقد راعى في مختلف اطوار تاريخه حق الرعاية حقوق هذه الحضارة ، رعاها في فتوحاته الاسلاميه ، ورعاها في منشئاته وتنظيماته الاداريـة والعمرانية . ورعاها في علاقاته مع الدول الاسلاميـة وغير الاسلاميه،ورعاها في العناية بمنقولاتها ومقتبساتها كما رعاها في حفظ اصولها وعقائدها والاصل تتبعـه الفـــروع .

6) المغرب رسول الحضارة الاسلامية الى الغرب :

وعند ما حل الاسلام باصوله وعقائده ونظمـه وقوانينه الحضرية على شواطىء الاطلسي والمتوسط ببلادنا هذه كان اعتناقنا له وتمكنه من نفوسنا بالمثابة التي اصبحنا معها غيورين عليه كما اصبحنا حريصين

في التخوم الليبية تدل على ان الحضارة الاولى مصدرها البربر وانتشرت منهم الى من داناهم من المصريين »، ومهما يكن من الامر فالحقيقة الثابتة هي انه ليس كل ما وجد ويوجد على الارض من حضارات بشرية مبتدعا ابتداعيا أصليا اقتباسا فرعيا ، وانما في الحضارات جميعها اشياء مبتدعة ، وفي الحضارات جميعها اشياء مقتبسة ، وقد افصح عن هذه الحقيقة المستشرق الالماني جورج يعقوب في كتابه « أثر الشرق في الغرب» حين قال : « قد تكون هذه الثقافات متشابهة بالرغم من قيامها مستقلة ، وهي في كل اقليم بعيدة عن التأثر بغيرها ، قال : وليس معنى هذا ان شعبا لم يأخذ عن غيره شيئا من ثقافته او مخترعاته » وكذلك الحضارة المغربية كانت وهي الآن وستكون حضاره اصلية فيها المبتدع وفيها المقتبس .

3) المغرب وحدة حضرية اسلامية :

يقتضينا سلسل البحث في الحضارة المغربية واسسها الاصلية ان نواجه الآن التساؤلات التالية : ما هو النوع الحضري الذى تنتسب اليه الحضارة المغربية اليوم ؟ وما هي التفاعلات التي تعرضت لها هذه الحضارة في مختلف أطوارها تأثيرا وتأثرا ؟ وما هي التيارات الدخيلة التي تتعرض لها اليوم في هذه الحقبة من مجرى التاريخ البشري ؟ وهل من طبيعتنا أن نقبل هذه المؤثرات المادية والمعنوية منها على علاتها ؟ او ان نرفضها جميعها ؟ وان نقبل منها دون البعـــض ؟

وللخوض في موضوع ما يقتضيه الجواب عن هذه التساؤلات يوجب علينا واقع التاريخ الذي عاشته الامة المغربية اكثر من ثلاثة عشر قرنا ، ان نتخطى الفترات التاريخية التي قدر فيها لانسان هذه الارض أن يستقبل وفادة الفينيقيين والقرطاجنيين والونداليين والرومان ، من الامم التي احتلت هذه الارض ، وتفاعلت مع سكانها الاصليين ، وأنشأت ما انشأت من انواع التحضر المادي على مجموع القسم الشمالي من القارة الافريقية مما لا تزال بعض آثاره المادية تكشف تحت رمال وجبال واودية هذه الارض، ذلك لانه مهما يكن من وجوب الاقرار ببعض الآثار والمجهودات الحضرية التي بذلها هؤلاء الاقوام اثناء تداولهم حكم هذه البلاد ، فان مما لا شك فيه ان هذه المجهودات الحضرية لم تستطع ولم يقدر لها من الوراثة الروحية التي هي أسس الحضارات وسر بقائها ما يضمن لها البقاء والخلود ، ويجعلها من الحضارات الحية الخالدة ذوات الاعقاب والمواليد ،

لنتخط اذن رقاب هذه الفترات التاريخية لنقول ان الحضارة الحية التي ينتسب اليها المغرب اليوم هي الحضارة الاسلامية التي صنعت تاريخه ، واثبتت وجوده كشعب ، مثل سائر الشعوب الاسلامية التي دانت للاسلام وانطوت تحت عقيدته ونظمه وقوانينه

وقد يكون من المرغوب فيه الآن بالنسبة للموضوع هو تأثير التيارات وردود الافعال عن التيارات ان نقبل التعبير الذي عبر به توينبي عن نشأة الحضارة الاسلامية التي ينتسب اليها المغرب في منشئها الاول من الجزيرة العربية حيث قال : « انها رد فعل شبه الجزيرة العربية على هيأة تولد طاقة مضادة تصد تلك التأثيرات الثقافية الدخيلة على بلاد العرب » . لاننا نعرف ان رد الفعل هذا هو سنة الله في خلقه عند ما يريد ان يبدل أمة بأخرى في خلافة الارض ، او ينسخ حضارة ويأتي بخير منها حينما تصبح أشباح المبتدات واخلاط الطفيليات لها الغلبة على الاخلاق المرضية والعناصر المخصبة في الامة الذاهبة ، والحضارة المنسوخة ، ولاننا نعرف ان هذه التأثيرات الثقافية التي كانت البعثة المحمدية رد فعل لها ـ على تعبير المؤرخ توينبي ـ لم تكن ابان هذه البعثة سوى ذلك الانحطاط الروحي والترف المادي الذى انغمس فيه انسان ذلك العصر في الامبراطوريتين الرومانية والفارسية واصبح معه غير مقبول البقاء في القوامة على أرض الله في نظام العدالة الالاهية ، وقد عبر النبي(ص) عن رفض الله لانسان ذلك العصر حين قال : « ان الله نظر الى أهل الارض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من اهل الكتاب » واذا كان مقام الاستشهاد اثمن واعقد في موطن التدليل على سمو حضارة واثبات الفضل لقيمها الخالدة فلندع توينبي يعبر عن خلق الحضارة الاسلامية لمظهر التوحيد في الفكرة الدينية ومظهر النظام والقانون في الجزيرة العربية وغير الجزيرة العربية ، ليعلم الجاحدون لفضل هذه الحضارة من ابنائها الى أي نوع من انواع الحضارة تنتسب شعوبهم في لسان احد افذاذ العلم ، وعباقرة التاريخ في العالم الغربي حين يقول : « ولقد كرس محمد حياته لتحقيق رسالته في كفالة هذين المظهرين في البيئة الاجتماعية العربية ، وتم ذلك فعلا بفضل نظام الاسلام الشامل الذى ضم بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذية معا في صورة عربية ففذت للاسلام بفضل ذلك قوة دافعة جبارة لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب ونقلهم من أمة جاهلة الى أمة متحضرة بل تدفق الاسلام من حدود شبه الجزيرة واستولى على العالم السوري باسره من سواحل الاطلس الى شواطىء

تكون على كيفه ، وعلى حسب ما تقتضيه اغراضه وطبيعته الغالبة .

ونحن الآن تجاه هذه الافكار جميعها وبعد ان حلت ديارنا هذه المدنية التي اتت بها ، وفضى الاقوام الذين اتوا بها بين ظهرانينا كسادة حاكمين ، وساسة مسيطرين ، ما شاء الله ان يقضوا بهذه الصفة من سنوات . ولا يزالون الآن يعيشون بين ظهرانينا مدرسين ومعلمين نتلقى عنهم ويلقنهم ما قضت ظروف الاحتلال والحاجة ان نتلقى . نحن بهذه الصفة ـ سواء من حيث تأصل طبيعة الاخذ والمحاكاة والتقليد في الطبيعة البشرية او من حيث نفوذ الواقع الذي تقتضيه تطور مجريات الاحوال عند مثل هذا المدخل . وهذا التلاحم بين جماعات او افراد او شعوب من ذوى حضارات مختلفة ـ اقول من حيث هذه الاعتبارات كلها لم يبق لنا اي اختيار في رفض مبدا الاخذ والاقتباس من بعض هذه العادات والتيارات الفكرية . غير ان هناك حقيقة اثبتتها السنن الاجتماعية للهيئة البشرية اثبات حقيقة الابداع والاقتباس فيها هذه الحقيقة الاجتماعية الثابتة ، هي ان من طبيعة التقاليد الموروثة ان تستعصي عن التحلل والتغير حتى تثبت التجربة ان التقاليد التي نريد ان ننسخها قد افقدت تحفظ الهيئة الاجتماعية . وتطور الحضارات برمتها . ولقد اشار العلامة الانجليزي كارل بيرسون الى ثبوت هذه الصفة للجماعات البشرية حين قال : « ان من اقوى المؤثرات التي تحفظ الثبات الاجتماعي وتحول دون تحلله تلك الصفة التي نقصها . صفة الجمود على القديم . لا بل نقول بان العداء الصارخ الذي تقابل به الجماعات الانسانية كل الفكرات الجديدة لمن احصن تلك المؤثرات . وان هذه الصفات هي بمثابة الكور الملتهبة نيرانه والذي بدونه لا نستطيع ان نفصل بين المعدن الصحيح والفضلات الرائفة . وهي التي تحمي الجسم الاجتماعي من ان تترك معرضا لتغيرات تجريبية فجائية قد تكون غير مفيدة آنا او بالغة اقصى الضرر آنا آخر » . ورسوخ هذه الصفة في الكيان الاجتماعي الانساني هي التي حملت احد رجال الدين والعلم في بريطانيا هو الدكتور كاربنتر على ان يضع التقاليد المسيحية في مكانتها الراسخة بين التيارات المذهبية التي اتت المذاهب الجديدة في الغرب المسيحي حين يقول : « انني اذا ما كنت اشتراكيا بدافع من اعتبارات مسيحية فكم اكون غبيا حين اقول ان المسيحية هي الاشتراكية ، هذا الى ان الاشتراكية شيء اصغر من المسيحية اولا ، ثم ان الفكر يتحرك على مر الازمان فلا عجب ان ينبثق منه في الغد شيء افضل من الاشتراكية ، وهنا اعاني من ارتباطي بمذهب سياسي امسى عتيقا باليا » .

وبالرغم من ان دعاة الثورة في روسيا قد جعلوا المذهب الماركسي اساس انقلابهم فان هذه الحقيقة الثابتة حقيقة احتفاظ الشعوب بتقاليدها الموروثة هي التي جعلت لينين نبي الاشتراكية في روسيا يقف مخاطبا مستمعيه قائلا : « واعتقد ان واجب الاشتراكيين الروس ان يقوموا بدراسة النظرية الماركسية دراسة مستقلة ، لانها نظرية عامة يمكن ان تطبق في انجلترا مثلا بطريقة تختلف عنها في فرنسا ، وفي فرنسا عنها في المانيا ، ومختلفة عنها في روسيا » . ومن هنا نكون صحيحا ما لاحظه الاستاذ مالك بن نبي عن منبت الاسس الاولى للفكرة الشيوعية حين قال « ان مؤلفات ماركس وانجلز تخفي في الواقع التكوين الحقيقي الظاهرة الشيوعية ، وهذه لا يمكن ان تفسر اذا ما ضربنا صفحا عن الحضارة المسيحية تلك التي تكون عند تحللها سطح التربة الخصيب حيث استمدت الفكرة الماركسية حيويتها » .

نستطيع ان نقول اذن ازاء هذه الاقوال المؤسسة على احكام مجربة في الحقول الاجتماعية . ان التقاليد المغربية الاسلامية الاصيلة العريقة في مأمن من ضرر اولئك الذين يحاولون ان ينسخوها جملة وهم باصول النسخ جاهلون . وانها بطبيعتها غير قابلة للنسخ الا على اساس سنة الله القائلة : « ما ننسخ من آية او ننسها نات بخير منها او مثلها » لذلك فعلى الذين يريدون ان يحددوا لهذه الامة حضارتها ان يعلموا ان في الحضارات قديمها وحديثها اعراضا . وفي الحضارات قديمها وحديثها جواهر . وطبيعة الاقتباس كطبيعة الابداع في الامم والجماعات سنة اجتماعية لا مفر منها ، غير ان الذين يريدون ان يقتبسوا الجوهر دون العرض او غير العرض ، هم اولئك الذين ادركوا المعنى الصحيح للسنة الاجتماعية ، واصبحوا يقدرون المسؤولية التطورية لمجتمعهم حق قدرها ، انهم في هذه الحالة يفكرون بالعقل الناضج ، ويدللون على نضج فكرة البناء في نفوسهم ويريدون ان يرفعوا لحضارتهم صرحا اعز واطول ، اما الذين يريدون ان يقتبسوا الاعراض دون الجواهر ويطمعون (الافانين) دون المتانات . فذلك دليل على انهم لم يبلغوا بعد سن الرشد في عهد التطور الصاعد ، اننا في الوقت الذي يجب ان نربا بانفسنا ان ننشد مع القطامي قوله :

ومن تكن الحضارة اعجبته
فاي رجال بادية ترانا

الدار البيضاء : محمد الحمداوي

على ان نتولى نقله الى غيرنا من بني البشر المستقرين على غير هذه الارض ، فكما كان المغرب رسول الحضارة القابسية الى اوربا الغربية في عصور ما قبل التاريخ فكذلك كان المغرب رسول الحضارة الاسلامية الى الغرب يوم ان عبر طارق بحر الزقاق ناقلا بذرة هذه الحضارة من الاراضي المغربية الاسلامية الى الاراضي الاسبانية من جنوب اوربا وفي هذه الارض من جنوب اوربا عمرت هذه الحضارة ثمانية قرون كاملة ، ومن هذه الارض من جنوب اوربا انتقلت هذه الحضارة الى كل اصقاع اوربا حيث كانت هجرتها من اكبر العوامل المنشئة للمدنية الغربية الحالية ، ولقد كان من انصاف الدكتور كوستاف لوبون للانسانية والحضارة الاسلامية انه تمنى ان لو عم الاسلام الذي نقله المغاربة الى اسبانيا اذ ذاك كل اقطار اوربا وانقذها كما انقذ اسبانيا من ظلمات القرون الوسطى كما قال . ولقد عقد هذا العلامة المنصف من كتابه « حضارة العرب » فصلا طويلا تحدث فيه عن مبلغ الفضل الذي تدين به الحضارة الغربية الحاضرة للحضارة الاندلسية في جميع ميادين مختلف العلوم والفنون التي نقلها العربيون عن لغة العرب يوم ذاك . ثم ختم كلامه متحدثا عن المغاربة الذين كانوا واسطة لنقل هذه الحضارة الى اسبانيا قائلا : « ان العرب مدنوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان ، وانهم فتحوا لاوربا باب المعارف العلمية والادبية والفلسفية التي كانت تجهلها » .

7) المغرب والحضارة الغربية :

وكما ان الحضارة الغربية الحالية اعتمدت اثناء نهضتها في القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلادين على عاملي الاحياء والاقتباس . احياء تراثها الهيليني الروماني القديم والاقتباس من حضارة اخرى كان لها تاثيرها الفعال في استمرار الحركة الانسانية الدائبة في سيرها التحضري . هي الحضارة الاسلامية . فكذلك وحذو القذة بالقذة . اعتمدت الحضارة الاسلامية في بعثها الجديد في القرن التاسع عشر الميلادي على احياء تراثها الاسلامي الاصيل . وعلى الاقتباس من حضارة جديدة اكتملت نموها ، واصبح لها من الحلول والقوة على شعوب الارض القاصرة ما جعلها محل اعتبار للاقتباس والتقليد من الناهضين القاصرين المستيقظين من غفواتهم السابقة ، هذه الحضارة الجديدة هي الحضارة الغربية التي غزت بجيوشها واساطيلها وفنونها اراضي المسلمين وغير المسلمين ، واصبح لها بحكم الغلبة والسيطرة والعشرة والتداخل من التاثير على حيوياتهم الفردية والجماعية المادية والروحية ما هز اركان مجتمعاتهم هزا في الجوهر وفي العرض .

ولقد حاول المغرب ـ كما حاولت كثير من الشعوب الاسلامية ـ ان يقتبس من علوم الغرب وفنونه ما يتقي به شر سيطرته قبل ان يجلب عليه بخيله ورجله . فكما ارسلت مصر وغير مصر من شعوب آسيا والشرق بعثاتها الطلابية الى كثير من مختلف العواصم الاوربية لتلقي الفنون والعلوم الجديدة كذلك ارسل المغرب في عهد السلطان الحسن الاول كثيرا من البعثات الطلابية الى كل من فرنسا وايطاليا والمانيا وبريطانيا واسبانيا لتلقي علوم الغرب وفنونه ، غير ان امر الله كان قدرا مقدورا فلقد شاءت سنة الله التي ليس لها تبديل ، ان نذيقنا من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلنا نرجع ، ولقد كانت الجملة القدرية التي انهى بها السلطان الحسن الاول في احدى رسائله الى الحكومة الايطالية في موضوع الامتناع عن شراء بعض السفن الحربية قائلا « ليس للعبد اختيار مع مولاه » كانت هذه الجملة من احسن تعبير عن كون الاحوال في المغرب اذ ذاك لا تساعد هذا الملك على ما اراده لبلاده من نهضة وتهوين نقمة شر الاطماع الاستعمارية التي فغرت فاها لابتلاعه يوم ذاك . فلقد كان وعدا مفعولا ان تجوس جيوش فرنسا خلال هذه الديار . ولقد كان من الطبيعي ان تحل المدنية بحلول فرنسا هذه الديار . كما كان من الطبيعي ان تحلت هذه المدنية معها اكثر من مذهب . واكثر من تيار فكري . واكثر من عادة غريبة عن تقاليدنا واخلاقنا . ولقد كان من الطبيعي كذلك ان تكون في بعض الافكار وبعض هذه العادات وبعض هذه التقاليد الجديدة ما هو عنصر اساسي لاقامة كل حضارة من الحضارات الانسانية المشادة على هذه الارض في مختلف الازمان ومختلف الامكان . وبعضها الآخر طفيليات تلازم الحضارات كما تلازم الميكروبات الاجسام الحية ، بعض هذه العادات وبعض هذه التيارات الفكرية قد اتت به هذه المدنية الى هذه الديار بطريقة العفو والتلقائية على اساس انه طبيع من طبائعها . وتقليد من تقاليدها يرحل معها حيث رحلت ، ويحل معها حيث حلت ، وبعضها الآخر قد حضر تحضيرا . واعد اعدادا قصديا من قبل ساسة هذه الحضارة وحكامها ومفكريها على اساس ان يكون « افيونا » تقضي الحكمة الاستعمارية ان تطعم به عملية انسان هذه الديار المغلوب على امره ، ليصبح ذلك الانسان الذي يريده انسان هذه الحضارة ان

الشعبي حتى ولو كان متوفرا على كل الشروط ، اد ليس سببا ان كورساكوف مثلا استلهم الاغاني والالحان الشعبية الروسية أو ان شكسبير استغل الاساطير ومظاهر السحر السكتلندية ليعتبر انتاجهما شعبيا . فالبون هائل بين التراث الشعبي واستغلال هذا التراث ، وقد سبق ان اوضحنا في الجزء الاول من هذا البحث ان الرغبة في الابداع الفني واستنفاذ الطاقات القديمة وما نتج عنهما من تحول نظر الادباء والفنانين الى حياة الشعب وآثاره عسى ان يجدوا فيها ما يستوحون منه مادة انتاجهم . كانت عاملا من عوامل احياء الفولكلور وازدهار دراسته .

والادب الشعبي بعد هذا غني بما يحوي من الوان وفنون حاولنا حصرها في هذه الانواع الخمسة :

الامثـــال
الاحاجـــي
القصـــص
الاشعـــار
المـــرددات

فالامثـــال ـ المثول او المثلات ـ هي تلك العبارات الموجزة المركزة المستخلصة من تجارب اجيال عرفت الحياة طويلا فاستطاعت ان تقتبس من اسرارها حكما هي نتيجة بحث حسب عن معرفة حقيقة الانسان والحياة . ومن النماذج لهذه الامثـــال :

اللـي فاتك بليله فاتك بحيلـة
القرد النارف ما يتعلمس الشطيح
الجمل ما يسوفس حدبته يسوف غير حدبة الناس

ولعل أهم ما نلاحظ على الامثال ان معانيها وما تحوي من حكم نكاد ان نتفق ونتشابه عند سائر الامم والشعوب . والسبب في هذا انها نتيجة تجارب انسانية ، والانسان في تجربته للحياة يكاد أن يكون واحدا . كذلك نلاحظ أن بعض أمثالنا ان لم نقل اغلبها تقترب في الفاظها من الامثال العربية الفصيحة . وقد نعزي هذا الى انها اعتمدت في نشأتها على الامثال الفصيحة ، ربما تكون لهذا التعليل بعض الصواب ، ولكن دون ان ننسى حقيقة ثابتة وهي ان لكل شعب امثالا تنبع من بيئته نتيجة تجارب محلية . فقولنا مثلا:

كلامكم قولوه وعاودوه يا البرابر
من عهد بني مرين وبني وطاس ما بقوا ناس

دليل مؤكد لهذه الحقيقة . ومن هذا القبيل امثال لا نشك في انها تعبير صادق عما آلت اليه البلاد اثر وقوع الاحتلال وعما كان يحسه الناس كقولنا :

جـا من مورنا وشرا دار
الدار دار بونا وعبيد با يطردونا

اما الاحاجـي ـ المحاجيات او الحجايـات ـ او الفوازير كما يسمونها في الشرق ، فهي تلك الالغاز التي تملأ ذهن الامهات والجدات والتي تقصد بها الى تسلية الصغار وشحذ اذهانهم وتدريب ذكائهم منذ النشأة الاولى على التفكير وامعان النظر في المشكلات ، وهي في اغلبها صور جميلة وتشبيهات دقيقة ربما تعجز الكبار عن حل رموزها . ومن احاجي والدتي حفظها الله :

ـ فتنا خضرا مبنية بالقدرة سكانها عبيد ومفاتيحها من حديد ؟
(وهي الدلاحة اي البطيخ الاحمر)

ـ حاجيتك على اللي تيبتو متعانقين ويصبحوا متفارقين ؟
(وهما دفتا ابواب الغرف (البيوت) في الدور القديمة)

ـ حاجيتك على طبقنا نقي ما ياكل فيه لا سلطان ولا فقيه ؟
(وهو شهر رمضان المعظم)

واما القصـص ـ الحكايـات ، الخرافـات . الخرايف ـ وهو في معظمه عربي اسلامي ، فتصوير لحياة العرب واحداثهم وللاسلام وفتوحاته وممهداته بل تصوير للتاريخ كما كان يفهمه الشعب او كما كان يلقنه له الحكام . ولا بدع فقد كان هذا القصص وسيلة لتثقيف الجماهير والهاب حماسها . ومن منا لم يسمع قصة سيدنا علي وعنترة بن شداد وسيف بن ذي يزن وبني هلال ولم يلهب شعوره لما نسجله من معارك خلدت بطولات عربية اسلامية وما ترده من اصداء جاهلية سيف الاسلام ولكنها مع ذلك تنبيء به وتدعو له . فعنترة وسيف وهما مضرب المثل في الشجاعة بطلان جاهليان يبشران بالاسلام ويكافحان من اجل انتشاره . واذا كان سيف يسعى وراء مهر شامة الذي هو جوهرة سليمان التي لا توجد الا في مملكة الجان

الفولكلور

للأستاذ : عباس الجراري

- 3 -

في الحلقة الماضية ، واثناء حديثنا عن انواع الفولكلور وما يضم من الوان ، فرقنا بين ثلاثة انواع قسمنا اليها مادته ، وهي :

الفنون الشعبية

التقاليد والمعتقدات الشعبية

الادب الشعبي

وتحدثنا عن النوعين الاولين وقلنا اننا سنتناول النوع الثالث في مقال خاص يكون خاتمة لهذا البحث العجالي الذي لم نقصد منه غير وضع خطوط عريضة لعل غيرنا من الباحثين ان يستعين بها في دراسات مفصلة . وقبل ان نبدا الحديث عن هذا اللون من الفولكلور نشير الى ما سبق ان لاحظنا من ان العلماء في فرنسا وايطاليا كانوا يطلقون « الادب الشعبي » على « الفولكلور » وان بعض ادباء البلاد العربية يرفضون استعمال اللفظ الدخيل ويفضلون اصطلاح « الادب الشعبي » دلالة عليه . وانتهينا الى ان المقصود من الادب الشعبي ليس الفولكلور كله وانما فرع منه نعني به مجموعة الفنون الشعبية التي تتخذ اللفظ وسيلة للتعبير . ومع ذلك فحول هذا المصطلح من الغموض والخلاف ما يجعلنا غير مقتنعين بتفسيره على هذا النحو ، وما يدفعنا الى التساؤل والبحث عن ماهيته . محاولة للوصول الى تعريفه على نحو اشد وضوحا واكثر اقناعا .

فما المقصود بالادب الشعبي ؟

تقول طائفة من العلماء انه ذلك اللون من الادب الذي لا يعرف مؤلفه والذي تتوارثه الاجيال عن طريق الرواية الشفوية على ان تكون لغة عامية غير فصيحة . وهذا هو الرأي السائد .

وترى جماعة اخرى انه الادب الصادر عن الشعب المعبر عن مشاعره لا فرق بين ان تكون لغته عامية او فصيحة . ويرفع لواء هذا الراي بعض علماء الفولكلور الروس الذين يعتبرون كتابات مكسيم جوركي من صميم هذا اللون بالرغم من انها لم تكتب بلهجة دارجة .

وتذهب طائفة ثالثة الى انه الادب العامي سواء كان قديما او حديثا ، مكتوبا او مرويا ، مجهول القائل او معلومه . وتذهب هذه الطائفة كذلك الى انه لا ينبغي انكار دور الافراد في انشاء الادب الشعبي وان هذا الدور لا ينفي عنه الصفة الجماعية .

اما غير هؤلاء من الباحثين فيرون انه ادب القرية ويضعونه مقابلة ادب المدينة الذي قد لا يخلو من بعض الالوان الشعبية .

هذه هي زبدة الآراء التي انتهى العلماء اليها في تحديد مفهوم الادب الشعبي ، فباي شيء نخرج منها وماذا عسانا نختار ؟

في اعتقادنا انها متكاملة يتمم بعضها بعضا ، وانه لا فرق في الادب الشعبي ان يكون قديما او حديثا ، مسجلا في الصحف او مرويا بالشفاه ، صادرا عن فرد او منقولا عن جماعة ، كل ما يشترط فيه ان يكون معبرا عن ذوق الشعب ومشاعره مصورا لعقليته ومستوى حياته مميزا لشخصيته وعبقريته . وظننا اننا نشك كثيرا في اعتبار الادب الفصيح من اللون

سبحان مالك خواطر الامرا
ونواصيها فى كل حين ورمان

ان طعناه عطفهم لنا قسرا
وان عصيناه عاقب بكل هوان

وممن برعوا فى هذا اللون من الشعر غير المعرب ابن خبازة والحسن السبتي وغيرهما من الاسماء التي ظلت مجهولة لا ندري عنها شيئا .

كل هذا سبق ان ذكرناه وقلنا ان الملحون الذى لا زال يعيش بيننا حتى الآن ليس غير استمرار لعروض البلد ومرحلة من مراحل تطوره سواء فى الشكل او المضمون . والاسف شديد ان دخيرة هذا العلم الموهوب لم تسجل بعد بحتفظ بها الاشياخ (*) فى صدورهم باسرار يضنون بها حتى على الدارس والباحث . ومع ذلك فقد حفظت لنا اسماء بعض الشعراء الاعلام كعبد العزيز المغراوى والهامي المدغرى والمصمودي وادريس الحسن وقدور العلمي . كما حفظت لنا قصائد (*) لا زال الناس يرددون بعضها كالحرار والعرصة والحلة والموسل والخادم مع الحره وغيرها من القصائد التى اصبحت نموذجا ينسج المنسؤون عليه .

وبالرغم من شعبية الملحون فانه لم يكن يعيش في طبقة العامة من الناس فحسب . وانما كان يعيش كذلك في بيئات خاصة كبيئة الصوفية الذين كانوا ينشدون قصائده فى حلقات الذكر . ومن الامثلة على ذلك قصيدة الحراق يقول فى اولها :

جاد علي برضاه
الحب اللي حبيت زارني وهم لي بالوصال
حين شرق نور بهاه
شفى حالى من الفتن حاط بي وقهرني بالفصال
كلي فى الحق فناه

وأما الاغنية ــ ونقصد بها الاغنية الشعبية او ما يطلق عليه الفنانة ــ فتكاد تكون من الملحون لولا ان شكلها اضعف بناء والفاظها اقل تهذيبا . والظاهر ان لها فى كل بيئة ما يميزها . فخصائص الاغنية فى مدينة أو قرية معينة هي غير خصائصها فيمدينة او قرية اخرى بل قد تختلف التسميات وتتشعب الانواع من مكان الى آخر ، ومن طبقة الى أخرى من الناس . ولسنا ندرى اذا كانت هذه الاغنية التي تسمعنا الاذاعة اياها ممثلة بحق لألوان هذا الفن الشعبي كما يعيش في مختلف المناطق وعند كل الجماعات .

وكالاغنية نجد العروبي او المزوكي يتخذ اشكالا تختلف باختلاف البيئات المحلية . واهم ما نعرف منه ذلك اللون الذي تنشده نساء المدن حين تطبيقن . وللطبيق موسم خاص هو ايام عيد الاضحى حيث تعلق المطيشة ــ او المرجيحة كما يسمونها في الشرق ــ وتركبها البنات كل بدورها وتتصدى الام او الجدة لتطبيقهن مغنية على كل واحدة . فهي تستهل مثلا بهذه المقدمة :

انا نا نا نا والمحبوب اللي هويت
يبقى دمـا قدامـي

وتجد فى ذكر اوصاف الطائشة ومحاسنها ثم تختم بذكر اسمها كان تقول مثلا :

هادك هي « فلانة »
المصونة على فلي وعيانـي

وتجد الجميع اثر ذلك فى الولاويل والزغاريد الى ان تركب طائشة ثانية فتستانف المغنية الانشاد .

واما الموال فمن الفنون التي لا يختص بها بلد دون اخر من بلدان الامة العربية . وهو فى كل منها يتميز بخصائص تحدد شكله وطابعه وانشاده . فالموال فى الشرق عامة يستهل بـ « ياليل ياعين » فى حين انه فى المغرب كالعروبي يفتح بـ « انا نا نا نا . . » والموال المغربى بعد هذا واحد او يكاد ان يكون . فهو فى الغالب بضعة اسطر من الشعر العامي يحكي فى ايجاز حاله او قصة لا يلبث المغني ان ينتقل منها الى انشاد قصيدته . وظننا ان الموال لم يكن فى اول الامر مقدمة للاغنيات وانما كان فنا مستقلا بذاته ينشد

---

* هذا هو الاسم الذى يطلق على اصحاب الملحون منشئين ومنشدين
* القصائد هو الاسم الذي تعرف بـه مقطوعـات الملحـون

فان عنتره يسعى وراء مهر عبلة الذي هو الف من النوق العصافير التي لا توجد الا في العـراق . وكما يدخـل سيف مملكة الجان وتحل بـه مآزق وازمات يدخـل عنترة العراق ليثير حربا مـع النعمـان بن المنـذر . ويؤسر عنترة بعـد ذلك فينتقل القتـال الى الدولـة البيزنطية حيث النزاع بين العرب والفرس ، ومنها الى الحروب الصليبية حيث القتال بين الاسلام والنصرانية او بين الحرية والاستعمار . وبعكس سيرة سيف التي تمثـل الخلاف بين الساميين والحاميين فان سيـرة عنترة تمثل الصفاء بين الجنسين ، فهي عرض شيـق للقبائل العربية وعاداتها ونزاعاتها وما كانت تسعى اليه لمحو الفوارق الجنسية . اما الهلالية وتدور حوادثها الرئيسية في شمـال افريقيـا ، فتصور الصراع بيـن العرب والاسلام من جهة والبربـر والوثنية من جهـة اخرى . فبعد التحدث عن نسب الهلاليين ودرئتهـم وظهورهم في الجزيرة العربيـة تحدثنـا القصـة عـن خروجهم الى شمال افريقيا . وتسمى هذه الحلقـة بالتغريبة . لتصور لنا حملة تعريب البلاد ونشر الاسلام فيها . وبالرغم من ان قصة الهلاليين اكثـر القصص التصاقا بالمغـرب فهي على ما نعـرف اقلها شيوعـا وانتشارا . ولا شك ان هناك اسبابا عملت على هـذه الظاهرة نرجو ان تكشف لنا عنها ابحاث اخرى تكـون اكثر عمقا وتفصيـلا .

واما مجموعة الـف ليلـة وليلـة فاشهر من ان يتحدث عنها . فهي قصة الشعوب الاسلامية بكافـة طبقاتها ومختلف الوان حياتها . بالاضافة الى ما تصوره من علاقات المسلمين بغيرهم من الاجناس واصحـاب الديانات الاخرى . وقد ساعت خرافاتها لدى الكبـار والصغار واصبحت مـدار السمـر في البيـوت حيث تتصدى الام او الجدة لحكايتها في كثير من الاغـراء والتشويـق .

وقد كدنا ننسى نوادر جحا وما تصور من مآزق وازمات تعرض لها في اقامته وتنقلاته ولكنه خرج منها بسلوك ذكي واقوال ساحرة حكيمة هي عصارة تجارب في مختلف البيئات التي حل بها . فهو في هذا البلد او ذاك وهو في السوق والبيت وهو مع ولـده وزوجتـه وهو مع الناس وحماره ، مع كل هؤلاء وفي اي مكان . يبدو جحا شخصية عربية شعبية مثالا للرجل الـذي خالط الناس والحياة في كل زمان ومكان . وقد يبـدو في بعض حكاياته وكانـه مغفل يلعب بـه ويسخر منه . ولكنـه في الواقع نوع من السلـوك يلجـأ اليه سرعان ما تكشف عن خطة حكيمـة .

ثم نصل الى **الاشعـــار** وهي من اغزر انـواع التراث الشعبي ان لم تكن اغزره بالفعل ، فنجد انفسنا امام خضم مختلفة اشكاله والوانه ، يحار الباحـث في تبويبه ورده لاصوله . ومحاولـة منا في هذا المضمـار قسمت الاشعار الى الفنون الآتيـة :

الملحـون
الاغنيـة
العروبـي
المـوال

فالملحون ـ وهو من اللحن سواء بمعناه الغنائـي او اللغوي ـ اهم هذه الانـواع واقدمها . ولعله كمـا سبق ان اشرنا اليه (*) اثر من آثـار الموشحـات والازجـال او هو استمـرار لظهورهـا في المغـرب .

فابن خلـدون في مقدمتـه يذهب الى ان اهـل الامصار بالمغرب قد استحدثوا فنا آخر من الشعر في اعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية وسموه « عروض البلد » وكان اول من استحدثه فيهم رجل من اهل الاندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير . وقد نظم قطعة على طريقة الموشح لم يخرج فيها عن مذاهب الاعراب الا قليـلا . فاستحسنه اهـل فـاس وولعوا بـه ونظموا على طريقته وتركوا الاعراب الـذي ليس من شأنهم وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه اصنافا الى المزدوج والكـاري والملعبـة والغزل . واختلفت اسماؤهـم باختـلاف ازدواجهـا وملاحظتهـم فيهـا .

يقول ابن عمير في مطلع قصيدته :

ابكاني بشاطـيء النهـر نـوح الحمـام
على الغصن في البساتين قريب الصباح

ومن ملعبة الكفيف المكناسي الزرهونـي يصـف فيها هزيمة ابي الحسن المريني في القيروان .

---

* القسم الثاني من بحث الموشحات ـ مجلة دعـوة الحق ـ السنة الخامسـة ـ العدد الثالث .

التعريب مشكلة حضارية

للأستاذ رشيد نجار

لقد مرت على هذه الدول المتخلفه والتي كتب عليها ان ترى الظلمات تكاثف فى سمائها بفصل اولئك الاروبيين الذين كانوا لا يزالون يحملون النور ، نور الحضاره والعلم ، مر على هذه البلاد المتاخرة عدة تجارب ومحن جعلتها هدفا للمشاكل والمعضلات التي يعسر حلها الا بمرور الزمن وتوافر العزائم والروح البناءة .

والعالم العربي ينتمي للعالم الثالث او البلاد المتخلفه . ذلك انه اصاب حظا وافرا من ظلمات العرب ، واستعمار الاجنبي لمقدرات أرضه وسيطرته على امكاناته المادية والروحية لمدة عقود من السنين. هذا واقع لا مراء فيه .

وهو واقع قد جر الى نتائج معروفة ، وهي الآن محل ابحاث وكتابات عديدة ظهرت مؤخرا فى لغات عديده ، وعرفت بابحاث « حول العالم المتخلف » او « العالم الثالث » — ، لكن هذه الابحاث فى الثالث تبدو ذات طابع اقتصادي اكثر منها اجتماعي او ثقافي .

ولكن الواقع هو ان الاساس الاول لمشاكلنا يكمن فى الثقافة قبل كل شيء ، ولا سيما فى العالم العربي ، ذلك أن هذا العالم الاخير ، قد شملته موجة التأخر بعد ان كان مركز حضارة انسانية شامخة ، والحضارة ليست فى أساسها الا اجتماع وملتقى لمختلف الثقافات تنطبع بطابع ذلك الشعب التي امتزجت بروحه وانصهرت فى لغته وتقاليده ، فالحضارة الاسلامية كانت حضارة عربية قد سيطرت فيها لغة الضاد على جميع المظاهر الاجتماعية لحياة المسلمين الذين دخلوا هذا الدين من جميع الاجناس فى العالم القديم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .

واذا ما اردنا اليوم ان نبحث فى مشكل التعريب ، وافضل ان اسميه مشكل انشاء تمدن او حضارة عربية حديثة . فعلينا اولا ان نستعرض التجربة الاولى التي واجهها المسلمون الاولون ، فى العصر الاموي ، ثم مقارنة امكانياتنا بامكانياتهم ، واخيرا يجب استعراض العراقيل التي تقف امامنا ، ونختم بتلمس الحل الصحيح والواقعي للمشكل ، مشكل التعريب فى بلاد العرب .

ولكن قبل ذلك ، يجب ان نتساءل عما اذا كان يصح أن نقارن حالنا بحال العرب الاول فى هذا الباب؟ وهل تصح المقارنة بالتالي لحالنا بحالهم مع فوارق الزمن الطويل ، واختلاف نوع المشاكل ، ونوع التقدم واختلاف وسيكولوجية الكائن الحي نفسه ؟ .

الواقع ان هذه الفوارق موجودة بالفعل : ولعل فى هذه الفوارق يكمن الجزء الهام من الجواب على مدى امكانية نجاح حملات التعريب : ذلك ان الفرق الجوهري هو المتعلق بنفسية الجماعات :

فالعرب الاولون كانت بهم حاجة ملحة اكيده للتعريب : تعريب الادارة اولا ، وتعريب العلوم والاقتصاد ثانيا ، وتعريب الفلسفات ، واخيرا تعريب الاجناس الاخرى التي انهالت ، هي الاخرى ، على الثقافة العربية والثقافة الاسلامية المعربة تغرف منها ما شاءت ، وتعمل على نشرها وتوسيع آفاقها ما استطاعت وهكذا كان التعريب بالنسبة للعرب الاولين ، ولا سيما فى العهد الاموي ابتداء من عهد عبد الملك بن مروان ثم من بعده من الخلفاء البناة كالوليد بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، ثم هشام ، كان التعريب بالنسبة لهم حاجة اجتماعية ، وكانت لهم الرغبة الصادقة فى ذلك ، لان المشكلة تتعلق بالكرامة قبل كل شيء : فقد اصبحت الدولة لها كيان عالمي ، ولها صبغتها الرسمية ، واستقرارها الكافي للتفكير فى مثل هذه الشؤون الخطيرة .

وحده ويكتفي بسماعه . وللموال بعد هذا قصة تحكي ميلاده ونشأته . ففي كتب الادب والتاريخ ان الرشيد حين حذر الشعراء من رثاء البرامكة اثر النكبة التي انزل بهم . لجأ الناس الى الشعر العامي يعبرون به عما يكنون نحوهم . وفي هذه الكتب كذلك ان جارية جعفر البرمكي رثته بقصيدة كانت تردد اثر كل بيت منها « واموالياه » وان هذا كان سبب تسمية هذا الفن بالموال وربما بداية ظهوره .

ونصل أخيرا الى **المرددات** وهي تلك المقطوعات القصيرة التي قد لا تتعدى الشطرين والثلاثة والتي تؤلفها الجماهير وترددها في مختلف المناسبات . وقد كنا نود الحاقها بالاشعار لولا انها لم ترق بعد الى مرتبتها شكلا ومضمونا . والمناسبات اكثر من ان نحصى عددا ، ومع ذلك فمن الممكن حصر اهمها كالافراح والمآتم والوطنيات .

ففي الافراح تدخل المواسم والاعياد والاعراس وغيرها من المناسبات الخاصة . ولكل منها لون او الوان من المرددات تتغنى بها الجماعة طربا وحبورا .

وهذه مطالع بعض المرددات الخاصة بالافراح :

موسم شعبانة : السلا منا سه

اجي تكوني بنتي

وندرو شعبانه

بالحوح والرمانه

والساقية سقيني

شهر رمضان المعظم : عوده اكلت رمضان

بالحوح والرمان

الاعراس : اداها وداها والله ما خلاها

اداها وداها سيد الرجال

وفي المآتم وخاصة لدى البوادي تجلس النادبات يبكين الفقيد ويعددن محاسنه وما ستصبح عليه الاسرة بدونه . وقد نمثل هذا اللون في الاغنية الحزينة التي انبعثت اثر موت المغفور له محمد الخامس والتي اولها :

ما شاء الله اسيدي ابن يوسف الحبيب

اما الوطنيات فتتمثل في تلك العبارات والاهازيج التي كان يرددها الناس في ايام الكفاح وعند اعلان الاستقلال والتي كانت صدى لمعركة التحرير كقولهم تمجيدا للدار البيضاء التي كانت مركز الفداء :

تساريت كل البلدان

بحال كازا ما كان

تم أولاد الوطن

بحضر ويجود الله

أو كقولهم تهكما على العميل ابن عرفة :

السلا هنية

جانا الملك بلا نوبة

ما بين الصبح والعشية

وكقولهم فرحا ببزوغ فجر الاستقلال وحثا على العمل لبناء هذا الاستقلال والمحافظة عليه :

ايها الرجال

هذا وقت العمل

استعدوا للنضال

بحيا الاستقلال

كذلك لا نريد ونحن نتحدث في هذا المضمار ان نغفل عن بعض المرددات الخاصة كالانشودات التي تغنيها الامهات وهن يرقصن اطفالهن او يداعبنهم . وكالاهازيج التي يرددها العمال للتنشيط والترفيه عن انفسهم اثناء العمل ، وكالادعية التي يتسول بها الفقراء وغير هذه من المرددات التي لن نطيل بذكرها .

وبعد فهذه لقطات من ادبنا الشعبي الذي يندب حظه في زوايا الاهمال والنسيان ، والامل كبير في ان تعيره الدولة اهتمامها وتعمل على تكوين باحثين متخصصين يتصلون بالشعب في المدن والقرى والبيوت والاسواق والمجالس العامة والخاصة يسجلون أفكاره وقصصه وامثاله وأغانيه وعاداته وعواطفه وطاقاته ومختلف الوان حياته ، ويدرسون في موضوعية ومناهج هذا التراث الذي لا زال حيا على لسان الشعب وفي قلبه وتقاليده ومعتقداته وفنونه معبرا اصدق تعبير عن شخصيته وعبقريته . على اننا لا نريد فقط ان نجمع تراثنا الشعبي لنحميه من الضياع ونحفظ له صفته الفولكلورية لنرى فيه ماضينا المجيد. وانما نريد ان يكون هذا التراث اساسا يطوره الادباء والفنانون ويخلقون منه شيئا جديدا يعنى بالفنية وقيمها .

كذلك نريد ان نهتم بالفنان الشعبي لينهض بفنه ويأخذ مكانه في ميدان الادب . وما من شك في ان هذا النهوض مرتبط بوجود النقاد الشعبيين الذين يدرسون تراث الشعب مزودين بثقافة شعبية هائلة الى جانب ثقافة فنية وتجربة نقدية . حقا انه مضى وقت لم يكن نهتم فيه بالفنان الشعبي وانما كان نهتم بالنص على انه نتاج مشترك بين عامة الشعب ، ولكننا اليوم لا نريد ان ندرس الآثار الشعبية على اساس انها حصيلة القيم الحضارية والفنية القديمة فقط ، وانما كذلك على اساس فنيتها اي بدراسة النص وصاحبه .

القاهرة : عباس عبد الله الجراري

السياسة الدولية بين سنتي 1901 و1907

ترجمة الأستاذ عبد الحق بنيس

نعتبر هذه الفترة مرحلة حاسمة في تاريخ العالم المعاصر ، واستجابة ((لدعوة الحق)) وخدمة للثقافة القومية في هذا البلد الامين ، أقدم الى قراء المجلة الافاضل هذا المقال المترجم من كتاب للعلامة بيير رونفن أستاذ التاريخ بجامعة السوربون . والكتاب المتحدث عنه يشكل الجزء السادس من سلسلة ((تاريخ العلاقات الدولية)) ، ويختص بمعالجة هذه العلاقات من سنة 1870 الى غاية 1914 . وقد أعطانا المؤلف موافقته ـ ونحن له بالشكر مدينون ـ على نقل هذا الجزء الى اللغة العربية . ويسرني بهذه المناسبة ان ازف الى قراء لغة الضاد ان الكتاب المترجم هو الآن قيد الطبع وان الجهود ستواصل ان شاء الله ، لتزويد المكتبة بباقي اجزاء هذه السلسلة التاريخية الهامة .

عبد الحق بنيس

تميزت العلاقات بين الدول العظمى في الفترة الواقعة بين 1901 و 1907 بخصائص جديدة : فمن جهة أدى التوسع خارج اوروبا الى قيام حرب بين روسيا واليابان ثم الى التهديد بالحرب بين فرنسا والمانيا ؛ ومن جهة اخرى تحول جهاز الاتفاقات والاختلافات بين الدول الاوروبية الى الاتفاق الفرنسي ـ الايطالي سنة 1902 والاتفاق الفرنسي ـ الانجليزي سنة 1904 . والاتفاق الانجليزي ـ الروسي سنة 1907 . فما هي العلاقة يا ترى بين هذين المظهرين اللذين ميزا الحالة الدولية آنذاك ؟ .

اولا : تضارب المصالح الاستعمارية بعضها مع بعض .

لقد امتدت جهود التوسع ، وما تبع ذلك من مشاحنات بين الدول الاوروبية الى مناطق جديدة من العالم . كان ذلك في الوقت الذي اخذت فيه كل من الولايات المتحدة واليابان في توسيع رقعتهما الارضية او مناطق نفوذهما على حساب الاوروبيين .

وقد تضاربت مصالح الدول العظمى الاوروبية في كل من بلاد فارس وآسيا الصغرى وابثيوبيا وفي بلاد المغرب الاقصى بوجه خاص .

كانت طهران محط صراع بين بريطانيا العظمى وروسيا منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر ، اما في هذه الفترة فقد ازداد هذا التطاحن حدة وخطورة: ذلك أن الحكومتين كانتا تستغلان فراغ خزينة الحكومة الفارسية للحصول على امتيازات التنقيب عن المعادن أو مد السكك الحديدية مقابل تقديم القروض . وكانت تكمن وراء هذه المعاملات الاقتصادية والمالية مصالح دفاعية ، لان الحكومة الروسية كانت تحلم بمد سكة حديدية تصل حتى الخليج (الفارسي) (*) ، الامر الذي من شأنه ان يهدد سلامة الهند . وفي سنة 1906

(*) نأبى نحن العرب الا ان نسميه بالخليج العربي . اما المؤلف فقد سماه بالفارسي ولذا وضعت القوسين (المترجم) .

فهل نحن الآن نتوفر على هذه الروح الثورية القوية في معالجة شؤوننا القومية الخطيرة كمشكل التعريب ؟ اننا عرب ومسلمون ، ولكننا من مسلمي وعرب القرن الرابع عشر الهجري . والفرق الزمني له دخله الكبير في هذا الموضوع . فالمشكل الحقيقي الآن هو مشكل بناء الدولة الحديثة : فنحن نهدف الى دولة قوية بالعلم والمعرفة ، ولم نعد نهتم بروح العقيدة أو الاساس القومي الذي تقوم عليه . فالحركات السياسية عندنا تهدف الى تحقيق ما يكفل فقط تقليد حضارة الغرب . وفي نفس الوقت نتجاهل امرا هاما في قضية التطور بالنسبة للغات . ذلك أننا نطالب اللغة ان تكون دائما في موقف الغازي ، او القوي الذي يتقبل كل شيء بسرعة . لكن الواقع هو ان اللغة ، تعبير أهم مظهر اجتماعي لدى الشعب الذي يتكلمها . ولذلك فهي تخضع للتطورات الحضارية التي تعتري ذلك الشعب . وعندما واجهت اللغة العربية قديما ، في عهد الامويين ، مشكلة التعريب لم يشعر العرب أبدا بان هذه اللغة ستعجز عن تقبل الجديد ، بل كانت هناك حاجة اجتماعية لتوسيع دائرة هذه اللغة بتلقيحها بالفكر الاجنبي . واللغات الانسانية كلها مر عليها هذا الطور من التلقيح ، واذا كان بعض هذه اللغات المتحضرة قديما قد عجزت عن مواصلة السير ، كاللاتينية مثلا ، فان المشكل بالنسبة لها مشكل انقسامات بسرية تحت ظروف متعددة ادى الى تفتيت فروع منها وتباعدها تباعدا كبيرا ، اما العربية فقد استطاعت ان تقهر جميع محاولات التجزئة او الانفصال على الرغم من تعدد هاته المحاولات في القرن الماضي وفي بداية القرن الحالي ايضا ، عندما ظهرت فكرة الاكتفاء بالعاميات في البلاد العربية ، أو فكرة الاخذ بالاحرف اللاتينية نهائيا لان بها حركات عديدة مكتوبة ومحددة للحركات الصوتية ، أو غير ذلك من الدعوات التي ظهرت في العالم العربي على لسان المرددين لافكار الغرب من الممسوخين الذين شعروا بالياس والعجز عن التطور .

ان التطور لا يتوقف ، وليس هناك شعب في الارض لا يتوفر على امكانيات حصة لمواصلة تطوره في طريق مستقيم ، ولكن قصيري النظر من ابناء الشعوب الناهضة كثيرا ما يعرضون حلولا منحرفة او غير ناضجة .

اذا ، فالخلاصة الاولية من هذا الحديث هي أن هناك فوارق بيننا وبين عرب العهد الاموي ، وليست هذه الفوارق في صفاء العرق العربي او عدم صفائه ، فالحضارات الحديثة او القديمة لا تقوم على صفاء العروق وحياة اللغة لا تطول ايضا بصفاء العرق بل انها فقط تخضع في حياتها وتطورها للعوامل الجغرافية وحركات الغزو من الخارج ، انما هذه الفوارق تكمن فيما يلي :

1) اختلاف نفسية العربي ، نفسية الكائن الحي؛ فنحن الاشخاص المتحركون تلقى علينا مشكلة ومسؤولية انجاز المشاريع الحيوية مثل التعريب . وقد كانت نفسية العرب الاولين قاهرة شديدة الايمان

2) والذي يعوزنا اليوم هو الايمان الصحيح بجدوى وقوة العربية كلغة ، يجب أن نؤمن بامكانية قيامها في وجه اللغات الاخرى وادائها لواجب التحضر: اي تقبل الفكر الاجنبي وهضمه وانتاج ما يعادله . ولكن كيف تكون ذلك ؟

مما لا شك فيه ان العربية دخلت عهدا جديدا منذ منتصف القرن الماضي . ولكن قليلين من مثقفينا هم الذين يعرفون ذلك ، ولا سيما في المغرب العربي. أولائك الذين يطلعون على المكتبة العربية . ولا اريد ان اقول ان هناك اختراعات وافكارا جديدة في الحضارة وجدت في العربية . وانشأها عرب ، ولكني أقصد ان العربية الآن في طور التلقي من الخارج ، في عهد الترجمة، ومحاولة هضم الحضارة الحديثة . وهذا الهضم نفسه لا يمكن الا اذا وجد القراء بعد الكتاب والمترجمين . والمكتبة العربية الآن غنية اذا ما قورنت بغيرها . لامراء في ذلك .

ومن وجهة سيكولوجية نجد ان الشخص المتخلف او المسود يتطلع دائما الى ما يقوله السيد . خطأ أو صوابا . ويحتقر كل ما يقوله اخوه . هذه فكرة بسيطة طبعا نلاحظها في كل ميدان . ولكنها تبدو بوضوح في هذا الميدان الثقافي اكثر من غيره .

ولذلك فنحن في حاجة الى الايمان بالنفس في كل ميدان . الايمان الثوري الذي يعرف الشخص فيه انه ضعيف . ولغته ضعيفة ، وامكانياته غير كاملة . ومع ذلك يجب عليه ان ينهض ، يجب ان يقدم لولده ما عنده ويرشده الى مواضع الضعف ليكسب ذلك الشيء قوة .

والامر الذي ينطبق على الناحية الثقافية بمعناها الواسع ينطبق ايضا على الادارة مثلا ، والمدرسة ، والنادي ، وغيرها من مظاهر حياتنا الاجتماعية ، واني هنا أكتفي بالناحية الادارية من مشكلة التعريب . ثم اعالج اسبابها العامة بايجاز ، والحل الممكن كما يتطلبه الواقع العملي .

الرباط : رشيد نجار

المغربية كانت تشق عصا الطاعة . وقد اصطدمت هذه السياسة ببريطانيا العظمى التي لم يغب عنها ما ستجنيه حاضرا ومستقبلا من فوائد تجارية فى الدولة المغربية ، سيما وانها كانت تتهم على الخصوص بالمحافظة على الطرق البحرية ؛ وهددت هذه السياسة كذلك مصالح اسبانيا ، فهذه تملك منذ القرن السادس عشر ما سميه (بالحصون) على الضفة الشمالية المغربية ؛ واثارت هذه السياسة كذلك حنق المانيا التي ارادت ، وقد اتتت متأخرة جدا فى تقسيم العالم ؛ ان لا بسوى خارجا عنها مصير « بلاد بكر » لا زالت بعد محتفظة باستقلالها . وقد حصل ديلكاسيه (*) بواسطه اتفاقات 8 ابريل 1904 على تخلي انكلترا عن كل عمل فى المغرب مقابل تخلي فرنسا عن كل ادعاء في مصر ؛ تم تخلى لاسبانيا فى اكتوبر 1904 عن جرء بسيط من المغرب ، الا انه كان عازما على اقصاء المانيا من الميدان . وقد صرح بذلك تصريحا لا غبار عليه ، منذ بداية المفاوضات مع انجلرا واسبانيا ؛ قال : حيث ان الامبراطورية الالمانية لا مصالح لها فى المغرب الاقصى « فان الحكومة الفرنسية ترغب فى اقصائها ».

ولم يبرز السياسه الالمانيـة فى الميدان الا فى مارس 1905 . ذلك ان الزيارة التى قام بها غليوم الثاني لطنجة حيث نصب نفسه حاميا لاستقلال المغرب الاقصى ، فسحت المجال لحدوث ازمة دولية طلت اربد من سنه مستمرة الاوار . كانت الحكومه الالمانيه تتحدث فى البدء عن المطالبة بحظها من المغرب ، وما لبث ان تخلت عن هذا الحل ؛ تم انها بعدت كذلك كل الاحتمال للتخلي مقابل عوض . ان البرنامج الذى اخدت به المانيا هو « تدويل » القضية المغربية . قال بولوف Bülow الوزير الاول الالماني: « انني ارى ان لا مندوحة من عقد مؤتمر دولي ، فهذا المؤتمر سوف يمنع فرنسا من ان تنفرد ببسط سيطرتها على المغرب الاقصى » . وعلى الرغم من نظرية رئيس اركان الحرب ، فان الحكومة الالمانية لم تكن عازمة على الذهاب الى اعلان الحرب ؛ بيد ان الديبلوماسية الالمانية قد لجات الى وسائل التهديد والوعيد ، وقصدها من ذلك انما هو ارغام الحكومة الفرنسية على قبول عقد المؤتمر : فقد ضغطت على الراي العام الفرنسي « وزرعت الرعب فى قلبه » ، مستغلة الخلافات التي وقعت بين رئيس مجلس الوزراء روفييه Rouvier وبين وزير الشؤون الخارجية ولم يصادف هذا الضغط نجاحا فى الراي العام والبرلمان فحسب وانما تعداه الى كبار الموظفين فى وزارة الشؤون الخارجية . ففي 6 يونيه 1905 قدم ديلكاسه استقالته بضغط مباشر من المانيا ، فما كان من روفييه الا ان اذعن لفكرة المؤتمر .

الا ان هذا التدويل الذي اصاب القضية لمغربية كان بعيدا من ان يحقق للسياسة الالمانية ما كانت تصبو اليه من مطامح . فعند ما التأم عقد المؤتمر الدولي فى الجزيرة (*) من يناير الى ابريل 1906 كانت وجهة النظر الفرنسية مدعمة من جانب بريطانيا العظمى وروسيا وايطاليا وحتى من قبل الولايات المتحدة . واذا كان عقد الجزيرة قد اعلن ان المغرب الاقصى دولة مستقلة ، الا انه خول لفرنسا الاداة التي ستمكنها من القيام بعملها السياسي ، اي السماح لها ولاسبانيا كذلك بحق تنظيم الشرطة فى الموانيء المغربية، غير ان اسبانيا فى هذه الآونة ـ وهذا ما لاحظه بولوف نفسه ـ كانت تحتل بالطبع مكانة « التابع » . ومع هذا فقد احتفظت السياسة الالمانية برهينة سوف تتمكن بواسطتها من التأثير على السياسة الفرنسية كلما كان هنالك خرق للميثاق .

وهكذا ففي الوقت الذي سويت فيه النزاعات بين ايطاليا وفرنسا ، وبين بريطانيا العظمى وفرنسا ، وفى الوقت الذى اتاحت فيه هذه التسوية ، بالنسبة العلاقات بين الدول وبالنسبة لاوروبا ذاتها ، فرصا جديدة للتفاهم ، فى هذا الوقت اتت الامبراطورية الالمانية واكدت بنهجها لهذه السياسة فى آسيا الصغرى والمغرب الاقصى ، ارادتها فى الحصول بخصوص تقسيم العالم على مكانة تتناسب وطاقتها الاقتصادية وقوتها الحربية .

(يتبع)

مكناس : عبد الحق بنيس

* وزير الشؤون الخارجية الفرنسية آنذاك (المترجم) .
* تعرف بالجزيرة الخضراء فى المؤلفات العربية . وتقع فى جنوب اسبانيا (المترجم) .

حدثت أزمة داخليه فى فارس (ايران) ـ قامت حركة ثورية بتحريض من اصحاب الافكار « الغربية » للتنديد بالاساليب التعسفية التي تنهجها الحكومة كان من شانها ان ارهقت مالية الدولة ، وبالتالي منحت فرصا جديدة للمساعي المتضاربة التي تبذلها الدولتان الاوروبيتان . الا ان هذا التطاحن قد سوى فى غشت 1907 بحل وسط الا وهو تقسيم فارس الى منطقتي نفوذ اقتصادي ، منطقة روسية فى الشمال واخرى انجليزية فى الجنوب الشرقي . اما ما بينهما فمنطقة « محايدة » .

وفى آسيا الصغرى اخذت الهيئات المالية الانجليزية والالمانية والفرنسية تسعى منذ سنة 1890 فى الحصول على امتيازات مد السكك الحديدية . والحقيقة ان المانيا هي التي حازت قصب السبق فى هذا الميدان : فقد حصل المصرف Deutsche Bank بمساندة من حكومة برلين ، على امتياز هام من الحكومة العثمانية وكان ذلك سنة 1903 . وهذا الامتياز عبارة عن شبكة واسعة من السكك الحديدية فى الجزء الاكبر من الاناضول وبلاد الرافدين (دجلة والفرات) . وكان شريانها هو الخط الحديدى الرابط بين البوسفور وبغداد ، ومن هذه الى الخليج (الفارسي) . فلقد فسح هذا العقد مجالات واسعة من الناحية الاقتصادية امام المانيا ، وكذا الشأن فيما يرجع للناحية السياسية فهو ينطوي على تهديد للمصالح المالية الفرنسية ـ حيث ان القسط الاوفر من اسناد الدين العثماني كان فى اياد فرنسية ـ بل وادهى من ذلك مصالح كل من بريطانيا العظمى وروسيا : كانت بريطانيا العظمى تخشى ان تفقد ذلك الموقف المهيمن الذى كان لها من الوجهة الاقتصاديةفىبلاد الرافدين منذ قرنين من الزمان اذ كانت ترى بوجه خاص ان الخط الحديدي سيعرض سلامة الهند للخطر ان هو امتد حتى الخليج (الفارسي) اما روسيا فكانت ترى فى هذه الشبكة الحديدية وسيلة من وسائل تعزيز الدولة العثمانية ، اعني ان الشبكة سوف تسهل على هذه الدولة نقل قواتها المسلحة الى جميع اطراف الامبراطورية . الا ان « مسألة خط حديد بغداد » لم تؤد في اي وقت من الاوقات الى نزاع حاد بين الدول العظمى . ولم تبرز مقاومة المشروع الا فى الحقل المالي : فقد اقفلت كل من فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا اسواقها المالية فى وجه القروض التي ارادت ان تجريها الشركة الالمانية ؛ وقد نجحوا حينا من الدهر فى تأخير انشاء السكة الحديدية لكنهم لم يتوصلوا قط الى احباط المشروع من اساسه .

وفى افريقيا الشرقية ظلت أثيوبيا (الحبشة) التي حافظت على استقلالها فى سنة 1896 عند ما حاولت ايطاليا غزوها ، ظلت خاضعة لضغط المصالح الاجنبية . فقد حصلت فرنسا على امتياز مد سكة حديدية من دجيبوتي الى اديس ابابا ثم اخذت تسعى فى احتلال مكانة بارزة فى الحياة الاقتصادية . وكانت بريطانيا العظمى تراقب هذا العمل وتعاكسه اذ كانت لا تريد على الاقل ان يقع الجزء الشرقي من البلاد ـ منطقة بحيرة تانا والنيل الازرق ـ فى قبضة دولة عظمى اخرى ؛ وقد وقفت نفس الموقف ازاء ايطاليا التي ارادت ان تستأنف جهودها فى التوسع دون اللجوء الى استعمال وسائل العنف . وفى سنة 1906 توصلت الدول الثلاث الى حل وسط وهو تقسيم ايثيوبيا الى مناطق نفوذ اقتصادي .

والمسألة المغربية دون سواها هي التي كادت ان تعرض السلام العالمي للخطر فكيف كان ذلك ؟ لقد كانت مشاريع الاستغلال الاقتصادي من الاهمية بمكان. ولم تظهر هذه الاهمية لكون المغرب الاقصى فحسب يملك موارد معدنية خصوصا فى منطقة الريف وانما لكون « تجديد » البلاد سيتيح فرصا امام مشاريع انشاء السكك الحديدية او تجهيز الموانيء . ولم يكن للنواغل الدفاعية ـ رقابة الطرق البحرية الكبرى ـ اهمية اقل ما دام للمغرب واجهتان ، احداهما على البحر الابيض المتوسط وثانيهما على المحيط الاطلسي : فالمسألة اذن تتعلق بحرية المرور فى مضيق جبل طارق وبحرية الاتجار على طول الطريق البحرية الرابطة بين اوروبا وبين رأس الرجاء الصالح . يضاف الى هذه العوامل شاغل خاص بفرنسا وهو تأمين سلامة الجزائر باحتلال مجموع اقطار المغرب ، فان لم تفعل فقد تأتي دولة عظمى اخرى وتقوم بنفس العمل .

اما وان فرنسا قد اخذت ، فى التسرب الى المغرب الاقصى ، زمام المبادرة فهذا مالا يدعو الى الاستغراب . حقا ان جول فيري فى سنة 1884 كان قد رغب عن اقحام السياسة الفرنسية فى مسألة قد تكون اهميتها الدولية من الخطورة بمكان . الا ان الحزب الاستعماري فى سنة 1902 اصبح يدعو الى القيام بهذا العمل . ونادى بذلك من على منصة «مجلس النواب » زعيمه اوجين اتيين Eugène Etienne كانت الاساليب التي اتبعت للتغلغل فى المغرب الاقصى اساليب اتباعية (كلاسيكية) : كتقديم الموارد المالية التي يحتاجها السلطان لتنظيم ادارة دولته وارسال مدربين عسكريين لجيشه ، حيث ان بعض القبائل

في سبعة من قرون الدهر عزتهم ... تزهو ارتقاء ولا تدري لها حجب

سموا بدين وعلم في هدى خلق ... وبالمكارم شادوا كل ما يجب

بهم تحضرت الاقطار اجمعها ... فاض الثراء وعم السوقة الذهب

ساد العلائق انصاف ومكرمة ... وارغد العيش علق الكسب والنشب

تزينهم لغة تربو محاسنها ... عن الجمال الذي تبعثه الشهب

حسن انسجام الى وجازة جمعت ... في رقة كل ما يزهى به الادب

كفى بها لغة القرآن مفخرة ... لها الدوام بحفظ الله مكتسب

كما توحد بالاسلام شملكم ... رصدوا بها قوة تكمل بها الطلب

تجمعوا امة تبني لعزتها ... قصور مجد وخير سمتها العرب

تبني بدستوره بنود محمدة ... تنيرها شمس عدل مآلها وقب

اس اعتدالا امور الناس بينهم ... شورى لذاك كتاب الله ينتدب

لا تعجبوا ان تروا منه المفاخر تتـ ... ـرى او تتيه بفضله النخب

فمن ابيه ابي التحرير من زهرت ... وادركت نعمة استقلالها الرحب

محمد الخامس الباني بهمته ... عزا تقاصر عنه الجحفل اللجب

تهيي جزائر ابن المصطفى وفد ... ضيفا كريما وعم حينا الطرب

احيا القلوب وشمل العرب ملتئم ... في ظله اذ امير المومنين اب

اني تشاهد ما عانيت من محن ... تلبية من عدو كله عطب

طوال قرن وثلث بعتدي شرسا ... لمحو دين عنت لعزه الحقب

محاربا لغة القرآن منتهرا ... كل الوسائل فيها المكر والغضب

وناشرا ظلمه جهلا ومسغبة ... لم تجده مكره نفعا ولا السغب

حتى ارتأت الجهاد في مصابرة ... فيها قتال امانة ومضطرب

محققا بعد سبع من سني ثوره ... الله ينصر والايام تنقلب

بشارة النصر والفتح المبين تجلـ ... ـلى نيرا عهده يدنو ويقترب

زيارة الحسن الثاني تؤرخها ... الله اكبر تم النصر والرحب (*)

الرباط : محمد معمري الزواوي

---

* يشير الشاعر بهذا الشطر الى التاريخ الهجري للزيارة الملكية الى الجزائر ونفصلها كما يلي الله : 66 ، اكبر : 233 ، تم : 480 ، النصر : 371 ، و : 6 ، الرجب : 236 ، ومعلوم ان مجموع هذه الارقام يوافق 1382 هـ .

ديوان دعوة الحق

الله أكبر تم النصر

لمعالي الفقيه العلامة وزير القصور الملكية
محمد معمري الزواوي

القيت هذه القصيدة بين يدي صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني
عند زيارته للقطر الجزائري الشقيق

« الله اكبر نم النصر والرجب   الله اكبر لا هم ولا نصب »
رال النفرق بين الفوم سم لهم   جمع السلامة لا كسر ولا رهب
سعبب مولاى بالحسنى لمجمعنا   رجمعا خبر ما نصى به الكرب
ابن الجزائر وابن بونس وفدا   صافحان احا فاس ولا عجب
صوت الاخوة من لسا بسرنا   عم الونام والاستعمار بنتحب
اخوة الدين والدنيا تحث لكي   ننظموا مفربا نحبا به العرب
كل احل بركن العر من وطن   وهل بموطنه الانسان نفترب
ان فرق جمعهم عناصر اختلف   جنسا ومدت لشر نزعة طنب
فى عهد جهل فرى التفريق جمعهم   واذعنوا لعدا بالفكر بنسرب
جاء انبثاق هدى الاسلام يجمعهم   خير اتحاد بدين الله يكتسب
اضحى به مغرب الاسلام موطن عـ   ـر للعلا نسبة نعلو بها الرتب
وانما المومنون اخوة نزلت   من السماء هدى دينهم النسب
وزاد وحدتهم عزا جهادهم   صفا قويا لنصر الله يحتسب
ففتحوا لهدى الاسلام اندلسا   اضحت بهم جنة تمت بها الرتب

لم تنس من كانوا اساة جراحها   والمخلصين لها بكل مكان
والمسعدين جهادها بسلاحهم   لا بالصلاة و (سورة الرحمن)
ان العواطف لا ترد قواصفا   لم تعترف بالمدمع الهتان
ليس الحديث مع الحديد بنافع   فصل الخطاب : مقالة النيران

يا اخوة فى بؤسنا ورخائنا   وسواعد الميدان والبنيان
رحم توحدنا ، وتربط بيننا   ذمم ، وتجمعنا يد الحدثان
فتفيئوا ظل الجزائر واشهدوا   شعبا أبيا لم يلن لهوان
من كل طفل هدهدته قنابل   رضع الحليب بفوهة البركان
ونكفل الدمع الحبيب فطامه   ونعهدنه مذابح القربان
شعب تحداه الزمان فسخر الـ   ـفلك العنود الدائم الدوران
وحباه طول كفاحه واناته   علما فصار معلم الانسان
انا شاعر : وبوحيه وبيانه   اعجاز آياتي ، وسحر بياني
وقعت الحاني على وثباته   وعزفت بين ضلوعه اوزاني
ان قصدت لغة الكلام ففيضها   غمد الفؤاد وضاق عنه لساني
فتقبلوها من لدنه تحية   نهفو بصدق جنانه وجناني

الجزائر : معدي زكرياء

ياهابطاً أرض الجزائر مرحباً

لشاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء

القيت هذه القصيدة بين يدي صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني عند زيارته للقطر الجزئري الشقيق

خطرا معا ، فتراقص البلدان — وتعانقا ، فتعانق العلمان
وترافقا ، يحدو الجلال خطاهما — ويقودها فى رقة وحنان
وتناجيا : فاخضل من نجواهما — غالي المنى ، وتوحد الهدفان
وتعاهدا : أن لا حدود بمغرب — يسمو بنيل عقيدة ولسان
حسن وأحمد : جل من زكاهما — وتبارك الرجلان والاسمان
والمغربان ... جزائر ومراكش — شرفا حمى ، وتبارك القدسان
والشعب حول رئيسه وشقيقه — متواجد كالعاشق الولهان
والموكب المسحور يزحف هادرا — يزجيه حب صادق وأماني
فكأن هذا الركب فيه رسالة — وكأنما هذا الهتاف معاني

ياهابطا ارض الجزائر ... مرحبا — ارض الجزائر مهبط الشجعان
الدار دارك ، نحن مثلك صلبنا — فى العرب من مضر ومن عدنان
فانزل عزيزا فى بلادك مكرما — لك فى الجزائر حرمة وتهاني
لك فى الجزائر ، وهي قلب نابض — قلب بحبك دائب الخفقان
فاقبل هتافات الوفود تحية — وكرامة لشبابك الريان
واسمع لروح محمد صلواتها — ومحمد من اخلص الاعوان
قد كان اول من اجاب نداءها — وابيت الا أن تكون (الثاني)
ان الجزائر فى الوفاء نبيلة — لم تنس ناصرها على الطغيان

وكأن الحياة حلم جميل ... فى قصور مسحورة الغرفات
سال فيه النضار والعطر والخمـ ... ـر وابدى مفاتن الشهوات
فمصابيح كالنجوم لطاف ... وملاح الحسان كالظبيات
والمثاني كأنهن قيان ... صادحات بأعذب النبرات
وكؤوس من العقيق رقاق ... لاح منها اللهيب فى ومضات
ودخان من المباخر يعلو ... كضباب معنبر النفحات
اسكر الحاضرين منه عبير ... فتمادوا فى مضحك الحركات
وغصون الرياض اثقلها لؤ ... لؤ طل مبعثر الحصيات
وسواق تسلل البدر فيها ... وسباها بأسحر الهمسات
فاستنامت الى مناجاته الحلـ ... ـوة فى غمره من القبلات
والشجيرات ساكنات نشاوى ... كصبايا تعبن من نزوات
يترقبن فجر يوم وضيء ... عاطر الجو ضاحك القسمات

فاقترب يا أخا الهوى وتمتع ... بربيع الزمان قبل الفوات
واهجر البيت فالحياة طروب ... واملا القلب من شذى الربوات
وانظر الغيد كالمها رائعات ... فى مروج الغرام والصبوات
يترنحن خفة وشبابا ... كزهور الحدائق العطرات
فترى العين ما تشاء من الحسـ ... ـن وما ترتضي من البسمات
انها متعة الحياة فبادر ... لا تضيع نفائس الطرفات
فصباح الربيع ذو رقصات ... واصيل الربيع ذو غمزات
وجمال الحسان شعر ولحن ... انه الفن فى بديع الصفات

يا ربيع الزمان ليتك تبقى ... بك والله استطيب حياتي
انت فى دورة الزمان عروس ... تتجلى لأقصر اللحظات

الرباط : المدني الحمراوي

الربيع

للشاعر المدني الحمراوي

يا ربيع الزمان اقبلت نختا ... ل ونغرى قلوبنا بالحياة
وتجليت في مواكبك الفـ ... ـر بديع الحلى جميل السمات
ضاحكا تملأ الحياة سرورا ... وجمالا وتبدع الامنيات
هذه الارض فى ظلالك سكرى ... تتغنى برائع الاغنيات
خلعت بدلة الكآبة عنها ... وبدت في غلائل النيرات
وتلقتك بالمباهج فيها ... من جميل الفنون جمع الشتات
روعة الرسم فى سبج بديع ... وغناء الطيور فى نغمات
وخرير المياه لحن شجي ... وزهور تميل فى رقصات
ونسيم بداعب الجو رفقا ... وضياء يبدد الكربات
وترانيل للطبيعة تدعو ... خالق الكون اصدق الدعوات
منظر يملأ القلوب شعورا ... بمعان نبيلة مشرقات
فتهيم القلوب فى كل جو ... باهر السحر رائق الجنبات
افق لا ترى به الروح الا ... بهجة فى روائع اللمحات
انه موسم الطبيعة والسعـ ... ـر وعيد الجمال والفرحات
يغمر الكون نشوة ويوافي ... أمل العاشقين بالمنعشات
فترى الارض كالبساط الموشى ... وترى العاشقين فى وثبات
داعبتهم من الهوى خلجات ... فاستعادوا لذائذ الذكريات
فنهار يفيض شوقا وليل ... نقضي فى مراتع السهرات
واهازيج فى الفضاء تحيي ... فرحة الكون بالمنى المطربات
فكأن الزمان كله يوم ... وجميع الانام فى نزهات
وكأن البقاع ترفل فى نو ... ر وتختال فى حلى مذهبات

ترف فوق رؤوس الشواذ
لانهم لم يكرهوا شيئا ،
كلون ريشها ،
لانه النهار

. . فكان لا مناص من . . .
من خمسة صفار
اذ عجرت تفاهة الشذوذ . .
عن صد الكبار
كطفلة ،
يمنت لو اتاحت امهالها . . .
ان ترضع الرضيع
وعند يأسها من حلمها الفظيع
من حلمها الوضيع
تجردت من السرير
وجردت جنونها من الازار
وشاع في احشائها هستيريا نار
فكان لا بد لها من دفين الرضيع
من خمسة صفار . . .

واشرق النهار
وزفه للضياء بشرى خالد جديد
مسحبا بركة من دم
على تراب موطن الشهيد
سبحا مشعلا ،
تضيء ، بين الف الف مشعل ،
تضيء سبع مركبات نار
سيبقى لطخة من عار
في وجه جلاد ،
بالف حبل مستعار ،
لم يستطع شنق النهار

ابن دفعة محمد

وأشرق النهار

مهداة الى الأديب الجزائري الشهيد مولود فرعون

للشاعرابنة فخر محمد

مولود لم يزل معي . .
اهزوجة لمطلع النصر الكبير ،
اغرودة بيضاء بين اضلعي
لا تكذبوا علي : مات . . لا ،
مولود كف « سكابغولا »
شكا اللهب صبرها الخطير
مضت . . لم تمض ـ بل . .
. . تحولت عبير . . .
يضوع فى روابي « سكابغولا » الكبير

مولود لم يمت
بنصري ، لم يمت مسيح المعركة
بل طار من ايفيان نسر ،
خماسي الاجنحة
وطارت فى ركابه اميرة الحمام
تزف للسلام بشرى نصر
وتنذر الخفاش بالنهار

. . ونار فى صدر التمساح . . حقد نار
لم يستسغ طعم النهار
فكان لا مناص من . .
من خمسة صفار
لفدية النسر الخماسي الاجنحة
ليهدأ الغليل فى صدر الشذوذ
لتفزع الحمامة التي . .

الضليل

الشاعر : محمد حسن الطريبق

فاق طوق المنى رجائي ... ولكن — ظل ناظري خيالا بعيدا !
فكأني أرى بفكري ... ولكن — انا كالميت قد بقيت وحيدا
كل شيء راه فكري قريبا — كان كالظل حاضرا مفقودا !
كم جديد رسمت ظل جديدا — ولكم كنت مبدعا ومجيدا !
خاطري يستعيد ذكرى شبابي — والاذى السرمدي ان ستعيدا !
اهو العقم قد اصابه حتى — عاد لا يبدع الفداة جديدا ؟
ان يكن فى الاوهام بسبح فكرى — فمدى الوهم لن يظل مديدا
كنت احيا بالامس كالام سمحا — ولقد عدت كالعصي عنيدا
وبح نفسي ! .. فما وجودي ؟ ابقى — اليوم فى الحب — دون أجر — شهيدا؟
انا فيه الضليل ، والمل السا — هي ... ومن كالضليل ينسى الحدودا؟
كنت طفلا ألهو بطوفي ، واني — اليوم ألهو ولم أعد أملودا !
لست أدرى ، وكيف أدرى وقلبي — عاد من شدة النوى جلمودا !

ابتهال

لم بعد غير الهوى فى شعره — لم يدغدع وترا فى غيره
كنشيد همهم اليوم به — غرد لا ينتحي عن وكره
او عيون قد اذاب عاشقا — وازاحت غمة عن صدره
واطل السحر من اهدابها — وتملت نفسه من سره
والتقى القلب مع الله كما — يلتقي ذوب الندى فى زهره !

القصر الكبير : محمد حسن الطريبق

الجدار الأسود

للشاعر: أحمد عبد السلام البقالي

سئمت اعيني جدارا من الظلمة قد حال بين قومي وبيني
ظلمة لا تضيئها شمس بليوز فى الجهل ، والطوى ، والتمني ،
وتلاشي شعورهم بالمصير

اعين فى الفراغ يملاها الحرمان ، والجوع والضنا ، والعذاب ،
وقلوب تقبع فى جوفها الذعر ، ويعلي دقاتها الارهاب ،
تتلظى كالجمر وسط السعير

والصغار الحفاة كالحيوانات سرت ، لا آباء ، لا امهات
عالم حواليهم مضيء .. وهم فيه قطيع حي من الظلمات
نحن شعب، اذن، بدون ضمير

اتمنى لو كنت شمسا وكانوا انجما فيهمو اشع بنوري
او أكن مزنة من العلم ، والعدل ، فأروي ديارهم بغزيري
والتمني سلوى الفؤاد الاسير

ليتني كنت موجة من سناء الله تملا عقولهم بالضياء
فتفيق الانسان فيهم ، وتحييهم ، وتعلي رؤوسهم للسماء
وتغذي بالخير كل شعور ..

واشنطون : احمد عبد السلام البقالي

كانت صبيحة يوم من طليعة شهر اكتوبر ، وكنت قد عزمت على زيارة منابع نهر الدويرة الذي يشق شبه الجزيرة حتى تنتهي امواهه غربا الى المحيط ، فانتظمت في سلك المسافرين بالعربة التي تقطع الطريق من سرية الى برغش متوجها الى قرية بدوسس في منتصف الطريق بين البلدين ، واتخذت مقعدي قريبا من السائق بين رفيقين أحدهما مهاجر عائد من المكسيك الى قريته الصغيرة التي تكاد تحجبها اشجار الصنوبر ، والآخر مزارع كهل كان عائدا من برشلونة بعد أن ودع ابنين له كانا قد استقلا المركب الى الارجنتين ، والواقع ان الراحل عبر هذه السهوب المترامية في اعالي قشتالة لا يكاد يمضي في طريقه حتى يلتقي بمن يحدثه قليلا أو كثيرا عن بلاد المهجر فيما وراء البحار .

ومضت العربة بنا في طريق برغش الواسع تاركين الى يسارنا الطريق الموصل الى اوسما (وخشيمنا) ، وقد حفت بجانبيه اشجار الحور الاسود التي بدات اوراقها تضرب الى الصفرة المذهبة تحت اشعة شمس الخريف . وخلفنا وراء ظهورنا سرية بين روابيها الرمادية وصخورها الصلعاء ، سرية المتصوفة المعالية التي ظلت قرونا طويلة محرسا من محارس قشتالة ، وكانا ينطلق منه الجيوش النصرانية اعيال ممالك الاسلام في الاندلس ، ومعبرا يعد عنه السيد (الكمبيطور) الى بلاد المسلمين حينما توجه الى منفاه .. وتقدمنا حتى صعدنا الى النهر ، نهر الدويرة الذي يحيط سرية كأنه قوس احكم الرامي تصويبه .

وكان المهاجر العائد من المكسيك يحدثني عن بلدته غواكروث ، غير أن سمعي كان يتبع حديث المزارع الكهل مع سائق العربة ، وكان يدور حول جريمة لم يمض على وقوعها الا القليل . جريمة ذهبت ضحيتها فتاة راعية عثروا على جثتها يوما بين شجر الصنوبر ممزقة بطعنات خنجر ، وكان قاتلها لم يكتف بما ارتكب حتى انتهك حرمة الجسد الميت ، وكان المزارع في حديثه يردد الاتهام الموجه الى تاجر غني من تجار الماشية في قرية مجاورة كانت الشرطة قد قبضت عليه واودعته سجن سرية متهما بارتكاب تلك الجريمة البشعة ، غير أن المزارع الكهل كان يبدي شكوكه في قدرة العدالة على الاقتصاص منه اذ ان الضحية لم تكن الا فتاة فقيرة ، افادت انسمع ذلك الحوار الدائر بين الرجلين ، والناس في العادة لا حديث لهم في المدن الصغيرة الا عن العاب التسلية والسياسة ، اما في المدن الكبيرة فان حديثهم لا يتجاوز الكلام عن الفن والادب المكشوف ، واما في القرى والبوادي فالناس لا يهمهم الا اعمالهم اليومية او الكلام عن الجرائم .. اليومية أيضا .. واتصل الحديث بيني وبين رفيقي المزارع الكهل :

— اسعيد أنت في سفرك ؟

— الى كوفاليدا يا سيدي ، وانت ؟

— هذا هو طريقي ايضا ، فانا اريد الصعود الى اوربيون ، ثم اسير محاذيا وادي الدويرة ، اما في طريق العودة فانني ساهبط الى مفترق الطرق في سانتاانيس ، ومنها الى بنويسا .

— اعانك الله على رحلتك حين تصعد الى اوربيون ، فالجو في هذه الجبال ينذر الآن بعاصفة .

ووصلنا اخيرا الى بدونس ، فهبط المزارع من العربة وهبطت معه ، وودعنا المهاجر القادم من المكسيك ، وكان عازما على مواصلة السفر بالعربة الى سان ليوناردو ، اما نحن فقد اتخذنا طريق بنويسا على ظهري حوادين .

وانا اذكر انه لم يسمح لي فرصة الحديث مع المزارعين الا توجيه تفكيري الى مدى ما تحيط به حكمة هؤلاء الرجال وعلمهم مما نجهله نحن ، ثم في قلة اهتمامهم بما نعلمه نحن مما يجهلون .

وكان الكهل يتقدمني في السير واجما صامتا ، فاهل هذه البقاع يمرون بالجد والصرامة ، لا يتحدث الرجل منهم الا مجيبا على سؤال ، فاذا فعل فان اجابته تتسم بالاجمال والاقتضاب ، واذا لم يرقه السؤال فانه لا يكاد يولي محدثه شرف الرد عليه ، وهو لا يفيض الا اذا سئل عما يحسن معرفته أو اذا تحدث عن الارض وفلاحتها وما تتطلبه من اعمال .

وعدت أرجع بصري في القرية التي مررنا عليها وخلفناها من ورائنا ، وكان ابرز ما فيها صومعة كنيستها العالية التي اتخذت طيور الحجل من قمتها مستقرا لاعشاشها ، وهي منتصبة تطل على عدة بيوت مبنية من الطين ، وعلى الطريق الرئيسي الذي يشق القرية بيت ريفي حديث بناه احد المهاجرين العائدين من بلاد المهجر ، وعليه مسحة من الترف والنعمة تبدو في السور الحديدي الذي يحيط به والحديقة الصغيرة التي تحف جنباته ، فاذا خرجت من القرية بدت لك سلسلة من الصخور الجرداء الرمادية اللون تتخللها شقوق كبيرة تضرب الى الحمرة .

قصة العدد

أرض البرجونثالت

بقلم : الشاعر الإسباني انطونيو ماتشادو
ترجمة : الدكتور محمود علي مكي

تمهيـــــــد :

انطونيو ماتشادو Antonio Machado واخـوه مانويل Manuel يعتبـران مـن اعظـم شعـراء اسبـانيـا في العصر الحديث ، وقد ولد انطونيو في اشبيلية في سنة 1875 ، ولكنه سرعان ما انتقل مع ابويه الى مدريد حيث قضـى الشطـر الاعظم من شبابه

وقد كان ادباء عصره يتجهون بابصارهم الـى فرنسا وثقافتها وادبها ، وهكذا نرى ماتشادو يرحل الى باريـس في سنة 1899 لاول مرة ، وهناك يتصل بالاوساط الادبية الفرنسية والاجنبية فيتعرف على اناتول فرانس وعلى القصصي الانجليزي الكبيـر اوسكار وايلد ، وفي رحلة أخرى له الى باريس يتعـرف على الاديب الامريكـي روبين داريو Ruben Dario شاعر نيكاراجوا بل شاعر العالم الاسباني كله في اوائل القرن العشرين (1867 ــ 1816) ولعله ابرز شعراء الاسبانية ممن ينتمون الى ذلك الجيل المعروف باسم جيل 1898 والذي كان ثمرة لما اصاب اسبانيا في تلك السنة من كوارث سياسية واجتماعية كان لها اثـر بالغ في خلق اتجـاه ادبـي ثوري هو المعروف باسم ((الاتجاه التجديدي)) .

وفي سنة 1907 يستقـر ماتشادو في مدينة سريـة Soria في (منطقة قشتالة) حيث يتولى منصب استاذ للغة الفرنسية ببعض معاهدها ، وبها يتزوج ويخلد الـى حياة عائلية نحوا مـن خمس سنـوات وقد تعلق انطونيو ما تشادوا بمنطقـة قشتالـة هـذه وكرس لها جانبا كبيرا من انتاجه ، واعتبرها وطنـه الاول كما يقول في بعض قصائده ، وكثيرا ما كان يجوب انحاء هذا الاقليم الجبلي الوعر ويطالع قراه التـي تكاد تخفيها اشجار الحور والصنوبر) على حد قـوله ، ويكثر التطواف في منطقة منابع نهر الدويـره El Duero التي كانت فيما مضى من الزمان ميـدان ذلك الصراع العنيف بين الاسلام والمسيحية على عهد عبد الرحمن الناصر والمنصوريـن ابي عامر ، والتي ولدت على صخورها الجرداء الصلبة امارة قشتالـة مهـد الدولـة الاسبانيـة المسيحيـة .

وقد كان لطبيعة قشتالة وبيئتها وعادات اهلها اعظم الاثر على انتاج انطونيو ماتشادو الادبـي ، بـل اننا نجده يخصص لها ديوانا مفردا هو ((ريف قشتالة)) الذي نشره سنـة 1912 واودعه تجاربه النفسية ومشاهداته في هذا الاقليـم الـذي يمكن ان يعتبر اما لاسبانيا ومهدا للغتها وثقافتها .

وقد امتدت حياة ماتشادو حتى ادرك الحرب الاهلية الاسبانية (1936 ــ 1939) وتوفي في نهايتها بعد ان رأى بعينيه كيف تتحول اسبانيـا كلها الى ((ارض البرجونثالت)) : يقتل الابن فيها ابـاه والاخ اخاه ، كما يصور لنا في هذه القصة التي صاغها شعرا ونثرا ، والتي نقدم في الصفحات التالية ترجمة عربية لها لاول مـرة .

امه اللاتين ، فما لبث في يوم من الايام ان خلع عنه مسوح الرهبنة، وقد صح عزمه على الا يعود اليها بعد، وانطلق من الدير عائدا الى دار ابويه معلنا اليهما انه راغب في ركوب البحر الى بلاد المجر . اذ انه كان دائما يحلم بجوب الارضين وخوض البحار والتملي بمطالعة آفاق جديدة غريبة .

وما اكثر ما بكت امه . اما ابوه — وقد عجز عن ان يثنيه عن عزمه — فانه باع قطعة حرثه من جملة ارضه . واعطاه من المال ما قدر ان يكون نصيبه من تركته لو حلت به المنيه . وقال له وهو يودعه :

— خذ هذا المال يا بني فهو حقك . واذهب الى حيث تريد . كان الله معك اينما توجهت . واعلم ان لك على اية حال نصيبا في كسرة خبز وسقف يؤويك في هذه الدار طالما كان ابوك حيا . اما اذا مت فان كل هذا سيصبح من نصيب اخوتك .

الشيب قد وخط سوالف البرجونالت واشتعل لها لون الفضة . والزمن كتب على جبينه سطور التجاعيد ولو ان اكتافه ظلت قوية مفتولة . ورأسه ما زال منتصبا شامخا .

وفي صباح يوم من ايام الخريف خرج البرجونالت من داره وحيدا . لم يصطحب معه كلاب صيده . ولم يعلق على ظهره بندقيته . ولم يتزود بما اعتاد الصيادون ان يتزودوا به حينما يخرجون الى مثل ذلك من امرهم . مضى البرجونالت في طريقه حتى بلغ ظلال اشجار الحور المصفرة التي تحف بشاطىء النهر . وادركه التعب بعد ان بلغ عينا تسيح بالماء في وسط خميلة كثيفة . وتوقف الكهل هناك ليجفف العرق المتصبب من جبينه ويبلل حنجرته برشفات من ماء العين . ثم توسد ذراعه واستلقى على العشب الاخضر ..

ونظر البرجونالت الى السماء العريضة في وحدته وكأنه يخاطب الله قائلا :

« حمدا لك يا رب ، لقد باركت في هذه الارض التي سقفها وتربها يداي ، فلم تخل منها بفضلك خبز على مائدتي . ولا امرأة طيبة في فراشي ، ولا بنون اقوياء انحدروا من صلبي ، بنعمتك يا رب اصبحت ارضي تعج ببيض النسياه ، وامتلأت مناحلي بطيب السهد . فاللهم اوزعني ان اشكر نعمتك . فانا اعرف مدى ما غمرتني به من فضلك ، وحمدا لك قبل ان تمضي ارادتك بان تزيل عني النعمة ، وترفع الرحمه » .

واقفل الرجل على صلواته وابتهاله حتى اخذته سنة من النوم . فقد كانت ظلال الاغصان المتماوجة وخرير الماء المنبعث من جوف الصخر كأنما تهيب به : « نم أيها الرجل الطيب .. ثم واخلد الى السكون » .

واستغرق البرجونالت في النوم . ولكن نومه لم يكن على ما كان يتهنى من سكينة ودعة . فقد تتابعت على ذهنه صور متلاحقة مما يرى النائمون في احلامهم .

ورأى البرجونالت كأن صوتا بعيدا عميقا يخاطبه، ولمحت عيناه مرقاة من نور نازلة من السماء الى حيث اضطجع حياله . وكأنها تلك التي تراءت ليعقوب عليه السلام في نومه . ولعل الامر لم يكن يخرج عن بعض اشعة شمس الاصيل ، وهي تتخلل أوراق الخميلة التي كانت تظلله .

وليس من السهل على أحد ان يؤول ما يراه النائمون من تلك الرؤى التي تقتحم مخادع افكارنا ومشاعرنا . فتعرش بين مجموعها وتدس بينها ذكريات مندثرة ومخاوف واوهاما مستقبلة . هناك كثيرون ممن يزعمون لانفسهم القدرة على تأويل الاحلام ، ولكنهم كثيرا ما يخطئون وقليلا ما يصيبون ، ولا سيما اذا تعلق الامر بهذه الاحلام المزعجة التي تجثم على فؤاد النائم وتقض مضجعه . اذ ان الغالب عليها هو انها صور منعكسة من ذكريات ماضية نتناولها بالمستقبل والساعة بل حرفاء مرتعشة .. بل تلك الشخصية التي لا نراها وان كانت تربض في اعماق نفوسنا جميعا : الخوف .

وكان البرجونالت يحس كما لو أنه عاد الى ايام طفولته . وكأنه بالموقد الذي تنبعث منه السنة اللهب والسعادة . وحول النار انتظم ابواه واخوته . ويد ابيه المغضنة تداعب الحطب المتوهج الاشقر بينما امسكت امه على ذقنها وبين اصابعها مسبحة سوداء . وعلى الحائط الذي سوده الدخان قد اتخذت مكانها تلك الفأس المتألقة التي كان العجوز يستخدمها في تكسير اعقاب الشجر .

ومضينا في السير نحو ساعتين ، حتى وصلنا الى قرية موبدرا التي تقع في منتصف الطريق بين تيدونس وبنوسا ، ولم نغادر القرية بخطوات حتى اجتزنا قنطرة خشبية صغيرة تعترض مجرى الدويره.

واشار رفيقي المزارع الى اليمين وقال :

— هذا الطريق الجانبي يوصل الى ارض البرجونثالث : حقول فسيحة كانت فيما مضى احوذ ما في هذه البقعة واخصبها ، اما الآن فقد حلت عليها اللعنة ..

فتساءلت في فضول :

— البرجونثالث هو اسم صاحب هذه الارض ، أليس كذلك ؟

— البرجونثالث كان من اغنى زراع هذه الناحية، أما الآن فلم يعد هنا احد من عشيرته يحمل هذا الاسم ، لم يبق ما يذكر بالبرجونثالث ، الا اسمه يطلق على القرية التي كان يقيم فيها وعلى الحقول المحيطة بها . ولو انك اخترقت مروج هذه القرية لوصلت الى بنوسا قبل ان تفعل فيما لو اتبعت الطريق الآهل المسلوك . غير أنها في المساء غير مأمونة . وذلك ان البرد والجوع يحملان الذئاب على الخروج من الغابات المجاورة باحثة عن صيد لها في هذه النواحي . وما اكثر ما يسمع عواؤها المسعور اذا ما اقتربت من حقول البرجونثالث التي كانت فيما مضى كثيرة الزرع واصبحت اليوم قفرا خرابا .. وأما حديث البرجونثالث فقد قصه علي منذ صغري أحد الرعاة هنا . وانا اعرف ان بعضهم قد سطره على الورق ، وان الشعراء العميان كثيرا ما يتغنون به في أرض برلانجا .

ورجوت المزارع الكهل أن يقص علي ذلك الحديث. فلبى الرجل رغبتي ومضى يقول :

— 2 —

حينما توفي والد البرجونثالث كان لا يزال صبيا بعد ، ولكنه ورث عنه أرضا طيبة ومالا ليس بالقليل . فقد كانت له دار كبيرة تحف بها مزرعة وبروج نحل ، ومرجان واسعان جيدا المرعى ، وحقول للقمح والذرة ، وعدد وافر من اشجار البلوط غير بعيد عن القرية ، وعدة بغال للحرث ، ومائة شاة ، وعدد من الكلاب الاصلية التي تستخدم في الصيد او حراسة الماشية .

وتعلق الفتى بصبية جميلة من قرية غير بعيدة من ارض برلانجا ، ولم يمض عام واحد حتى اتخذها زوجا له . وكانت بولونيا — وهذا هو اسم الصبية — واحدة من اخوات ثلاث ، بنات مزارع من عائلة يدعونها « بدري ابانيث » وكانت كبرى اخواتها واجملهن . اما اسرتها فقد كانت واسعة الثروة فيما مضى ، ولكنها في ذلك الوقت كانت متوسطة الحال ، لا الى فقر ولا الى ثراء .

وما زال الناس هنا حتى الآن يتحدثون عن الفخامة التي احتفل بها في زفاف البرجونثالث في قرية عروسه اولا ثم في القرية التي كانت تحمل اسمه . كان هناك عازفون على القيثارة وضاربون للاعواد وهازجون بالناسات وقارعون للطبول وراقصة على طريقة اهل ارغون ومطلقون الصواريخ على ما جرت به عادة اهل هذه البقاع الممتدة من اورنسون حيث يولد نهر الدويرة حتى يختفي مجراه هناك على مقربة من برتس . ما زالوا يذكرون الولائم المقامة بمناسبة زواج البرجونثالث . وما زالوا يشيدون بروعتها وبهائها . فالشعب هنا لا ينسى ابدا ما يرى له بريق وما يسمع له دوي مهما تطاول به الزمن .

وعاش البرجونثالث سعيدا بين زوجة محبة مخلصة وبسطة من المال عليه مغدقة . وانجبت له امرأته ثلاثة ابناء . فوكل الى اكبرهم العناية بالمزارع وبابراج النحل . وعهد للاوسط بامر الماشية . واما الاصغر فانه وجه به اوسما وخصصه لكي ينكب على العلم . وذلك انه كان قد نذر لخدمة الكنيسة .

ما أكثر ما يجري في عروق المزارعين من دم قابيل قاتل اخيه . وما اسرع ما تشتعل جذوة الحسد بين الاخوة بعضهم والبعض على عرض من اعراض الدنيا الزائلة . ولم تكن دار البرجونثالث في ذلك بدعا . فقد تسللت اليها افاعي الحسد منذ ان تزوج ولداه من امرأتين حملتا معهما الى دار الرجل الطيب نوازع الشر والشقاق . لا ما كان يؤمله من امتلاء الدار وكثرة الولد . لم تكن للخبيثتين هم الا الارث الذي سيقدر لهما بعد موت البرجونثالث ، وكانتا لأشرهما وبطرهما لا تكادان تحسان بما هما فيه من نعمة ويسار ، بل نغص الطمع عليهما لذة الحياة وحرمهما من كل شعور بالمتعة والطمأنينة .

واما اصغر الاخوة فان المصير الذي كان يريده له ابوه بين جدران الدير لم يكن يروق له ، فقد كان يؤثر العيون النجل على ترديد الصلوات ومعاناة

ويمضي البرجونثالث في حلمه الطويل المتناقل، وهو مضطجع بين يدي العين التي ينبجس منها الماء ، وكانت الشمس قد غابت وطواها الافق ، وبدا المرج وقد حفته زرقة قاتمة . ولكن الظلام المتراكب لا يلبث ان تنفذ فيه اشعة هادئة ، ويطل من اقصى الافق قمر هائل ناصع البياض .

البرجونالت ما زال مخلدا الى غفوته ، وماء العين ينحدر من الصخر الاصم ، وله خرير رتيب متتابع كانه يعيد على المسامع قصة حزينة قديمة : قصة الجريمة في الحقل .. جريمة كل يوم .

— 5 —

وولدا البرجونالت يتحدان طرفهما الى حيث كان ابوهما راقدا بجوار العين التي ينفجر منها الماء وهما يسيران في صمت . وظلهما يسبقهما في ضوء القمر الباهت مستطيلا ممتدا على المرج كانه شبح اسود . وعلى جبين البرجونالت سحابة مظلمة تضطرب بين حاجبيه كأنها اثر خلفه فاس ما تنفك اعملها ضاربها في جذع شجرة .

ويحس الرجل وهو ماض في حلمه الطويل كان اسنة تتقدمان لقتله . ويفيق من نومه في تناقض ليرى كيف تتحول الحلم الى حقيقة ..

فيه سعة تلك التي اوقعها ابنا السوء بابيهما الكهل وهو الى جوار العين التي تعول منها الماء . فيه سعة كفتها لهما ضربة فاس مرقت بين الرجل واربع طعنات بالسكين في صدره ، الفاس التي اورثها البرجونالت ولديه والتي طالما كسر بها حطب موقده واستعان بها على بث الدفء في بيته هي عينها التي احتز بها ابناه عنقه العليظ الممتلئ، والسكين التي طالما اعملها الاب البر في قسمه الخبز على بنيه والمجتمعين على مائدته هي ذاتها التي غاصت في ذلك القلب النبيل . لقد كان البرجونالت ابا عطوفا على بنيه وجارا كريما يعم بالبر كل من نزل به او اعطى معروفه ، وحق له ان يبكيه كل من الم به من طارف وابن سبيل .

ويلبث ولدا البرجونالت قليلا لا يعرفان ما يفعلان بجسد ابيهما الميت ، واخيرا يجرانه الى مستنقع هناك ، ثم يمضيان به الى واد مظلم تحف به الحشائش المتكاثفة واشجار الصنوبر المتراكبة ، ثم يحملانه الى البحيرة السوداء .. بحيرة ليس لها قاع تحيط بها سور عال من الصخور الرمادية الضاربة الى الخضرة ، وعلى قمم تلك الصخور مرابض للصقور والعقبان ، ولم يكن احد من اهل هذه الجهات ليجرؤ على الاقتراب من تلك البحيرة المظلمة الموحشة حتى في اشد ايام العام اشراقا وصفاء ..

ويربط فتيا السوء الى قدمي ابيهما حجرا ثقيلا ثم يرسلان به ينحدر على جنبات الصخور الى قاع البحيرة .. البحيرة التي ليس لها قاع ..

ويعود ابنا البرجونالت عبر الوادي المظلم الى حيث المستنقع آخذين سبيلهما بين الحشائش المتكاثفة، واشجار الصنوبر المتراكبة . وكان لماء المستنقع هدير واصطخاب . ولكنهما يمضيان في صمت ، وفي آذانهما وقر من هدير الماء واصطخابه .

ويحس بهما في الغابة ذئبان جائعان كانا يبحثان عن صيد . فلا يكاد الذئبان يطلعان عليهما حتى يمتلئا منهما رعبا وبولنا فرارا .. ويمضي الفتيان في طريقهما ويهمان بعبور النهر . فاذا بمجرى النهر ينحسر عنه الماء ويتخذ له مسربا آخر . ويخترقان الغابة ، فاذا بالشجر والحشائش والصخور تنحاز عن طريقهما وتفسح لهما كانما تتجنب ان تحتك بهما تأنك القاتلين الراهبين .. قاتلي ابيهما .

ودنا الفتيان من العين التي كان ابوهما مضطجعا الى جوارها ، وكان الماء المنبثق منها ما زال يرجع تلك القصة الحزينة القديمة . ولكنهما لم تكد تسمع وطء اقدامهما حتى كف الماء عن الخرير ، وانقطع الحديث الحزين . وما زالت العين صامتة ساكنة حتى ابتعد عنها الفتيان وطواهما الظلام ، وهنالك عاد الماء الى الخرير . ووصل ما كان قطعه من الحديث الحزين المعاد .

— 6 —

وهكذا ورث ولدا السوء عن ابيهما ما خلف من ثروة ومال في ذلك اليوم من ايام الخريف ، وربا الكهل الصريع الذي خرج في صباح ذلك اليوم ولم يعد .

وفي اليوم التالي عثر بعض اهل القرية على آثار البرجونالت الى جوار العين ، وعلى خيط من الدماء متوجه الى المستنقع ، غير انه لم يجرؤ احد

ومضى البرجونثالث يطوي على صهوة احلامه طريق الزمن : ها هوذا الآن في غضاره الشباب في اصيل يوم من ايام الصيف ، والمرج الاخضر يمتد بين عينيه ، واشعه الشمس المنحدرة الى المغيب تصبغ بلونها البرتقالي قمم اشجار الفسطل ، والبرجونثالث في ظل الشجر يرفع قنينه الجلدية الى فيه . فينصب منها النبيذ الاحمر الى حنجرته اليابسة ، ومن حوله اسرة بسري ايبانيث : الابوان والفتيات الثلاث . وحفيف الريح بين الاغصان وعلى العشب الضارب الى الصفرة يعزف لحنا في صفرة الذهب وصفاء البلور . كما لو ان النجوم وهي ما زالت في اكنانها الخفية افلت تهدي الارض اغنيه سماوية قبل ان تطلع من مسارقها على المروج الخضر .

– 4 –

وفجاه سادت الظلال صورة الحلم . كما لو ان الساحرات اللاتي يغزلن خيوط الاحلام قد وقعت اليهن لفافه من الخيوط السود . فاذا بالبرجونثالث يرى الفراغ وقد ساده الظلام . وان كان بصيص من النور الشاحب ما زال هناك في قاع الصورة . ويبدو البيت مهجورا . والموقد مطفأ خامد الجمرات ، ولكن الفاس اللامعه المتوهجه ما زالت في مكانها على الحائط .

ثم تلونت الصورة مرة اخرى في بطء وتثاقل . فالنور يتسلل مرة اخرى فيملأ الفراغ المظلم . وها هو ذا يرى ثلاثه اطفال يلعبون على باب الدار . وامهم تراقبهم عن كثب وفي يدها ثوب تخيطه ، وعلى فمها ابتسامة تشرق بين حين واخر ، واصغر الاطفال يبتعد قليلا ، بينما ظل اخواه منصرفين لبعض شانهما ، ثم لا يلبث ان يحط بينهما غراب اسود لامع الريش نافذ النظرات .

وتسائلهم امهم :

– ماذا تفعلون يا بني ؟

وينظر الاطفال بعضهم الى بعض ولا يحيرون جوابا وتعود الام للكلام :

– اصعدوا الى الجبل ، وائتوني بحزمة من الحطب .

وينطلق الاطفال . ولكن اصغرهم يظل في مكانه ثم يلتفت بوجهه الى امه ، وهي تناديه فيعود الى حيث كانت جالسه ، بينما ينطلق اخواه الى الجبل .

ومره اخرى يبدو البيت .. البيت المهجور . والموقد الخامد الجمرات ، وعلى الحائط ما زالت الفاس اللامعة المتوهجة .

ويعود الصبيان من الجبل ، وعلى ظهرهما حزم الحطب والتبن . والبرجونثالث يحد النظر اليهما فيهما ابنيه الكبيرين ، وها هو ذا يرى الام تشعل القنديل ، والولد الاكبر يلقي في الموقد بالحطب واخشاب الجذوع . وينفخ في النار . وتسمع للخشب صريرا . ولكن النار لا تكاد تشتعل حتى تخمد وتنطفيء . ويظل دار البرجونثالث بارده لا تسري اليها الدفء . وفي ضوء القنديل الخافت تلمع صفحه الفاس المتوهجه وهي معلقه على الحائط . ولكنها تبدو الان كما لو كانت تقطر دما .

– اماه . ان النار لا تشتعل في الموقد . فالحطب ما زال مبللا بالماء .

ويأتي الابن الاوسط . وينفخ في الحطب محاولا اشعال النار بدوره . ولكن الموقد يظل باردا خامد الجمرات .

ثم يتقدم الاصغر . فيلقي على النار بحفنه من التبن ، ولا ينفخ فيها حتى تنطلق السنه اللهب الاحمر تشيع الدفء في المكان . وتبتسم الام في غبطة . وياخذ الاب ابنه بين ذراعيه . ويجلسه على ركبته الى جنب الموقد :

– بارك الله فيك يا بني . فقد اول ولدي وادناهم الى قلبي وان كنت اخرهم ميلادا واصغرهم عمرا . لتكونن والله خير من انحدر من صلب ابيك ؛ فقد ساق الله الدفء الى هذه الدار على يديك .

واكفهر وجه الاخوين ، وعلتهما وجمة وشحوب كشحوب الموت ، وراهما البرجونثالث في حلمه وهما ينزويان الى ركن من اركان البيت ، والفاس في يد اكبرهما تشع لمعانا هائلا رهيبا ..

ـ افتحوا . أنا اخوكم ..

وهتف الجميع فى صوت واحـد :

ـ انه ميجيـل ، لنفتـح له .

وما فتحوا الباب حتى بدا لهم شخص ميجيـل اصغر ابناء البرجونالث وقـد التف فى عباءة ثقيلـة قد غطتـه طبقة سميكـة من ذرات الثلج البيضاء .

وعانق ميجيل اخوتـه ثم جلس امام الموقد ، وسادت فترة صمت طويلة . وكانت الدموع تترقـرق فى عينى ميجيل ، واخوه يتجنبان التقاء نظره بنظرهما منذ غادر ميجيل هذه الدار وهـو ما زال صبيا بعد ، وهو يعود الان اليها من بلاد المهجر بعد ان اصـاب ثروة واسعـه ، وكان قد بلغه خبر موت ابيه وامه ، الا انه ما كان ليتطرق اليه الشك فى اخوتـه .

وعلى الضوء الهزيل الخافت الذى كان ينبعث من جمرات الموقد الميتة بدت صـورة ميجيل ومعالـم وجهه .. كانت بشرتـه السمراء قد ازدادت سمـرة مما لوحتها شمس امريكا المحرقة . وقسمات وجهـه الحجريـة الصلبة قد ابلتها العمل المواصل : سمـة تطبعها ارض المهجر دائما على وجوه من يسافرون فيها بما بذلن من الجهد ما يكسبون به مالا وثروة ، ولكـن عينيه الخضراوين كان يلمع فيهما بريق الشباب . وقـد بهدل على جبينه العريض المشـدود خصل رفيعـة من شعره الفسطلى . كان ميجيل اجمل اخوته مظهـرا واكثرهم وسامة . فقد كان يعيب وجه الاكبر حاجبان غليظان يرسمان خطا كثيفا من الشعر يخترق جبينـه فوق عينيـه . واما الاوسط فقد زادته ذمامة عينـاه الصغيرتان اللتان تلمعان ببريق قلق ينم عن الجبن والمكر والحسـود .

وظل ميجيل صامتا ساهما بينما كان اخـواه يحدقان النظر الى صدره الذي توهجت عليه سلسلة غليظـة من خالص الذهب.. وقطع الاكبر حبل الصمت العميـق :

ـ اتنـوى الحيـاة معـا هنـا ؟

واجاب ميجيـل :

ـ ذلك اذا شئتم .. سيصل متاعي غـدا .

وتمتم الاخ الاوسط فى لهجة لا تخلو من الحقـد

ـ هذا هو شأن الدنيا ، يبتسم الحظ لقـوم فيمضـون صعدا الى الجاه والثروة ، ويعبس لاخرين فينحدرون الى حضيض الفقر والحاجة ، ولـك فى امرنا عبـرة : تعود انت مثقلا بالذهب ، ونحـن كما ترى لا نملك حتى قليـلا من الحطب نستدفىء به .

و كانت الريح فى الخارج تكاد تقتلع الابـواب والنوافذ ، وصفيرها يدوي فى المدخنة كانه رعـد قطيـع من الذئاب . وكان البرد ينفـذ الى العظـام فتسري اليها رعـدة قاتلـة .

وكان ميجيل يهم بالكـلام حينما قطعت عليـه الحديث طرقات متتابعة على الباب ، ونظر الفتى الـى اخويه كانه يسائلهم عمن يمكن ان يكون فى مثل تلـك الساعة المتاخـرة ، امـا هذان فقـد كانا يتبـادلان النظـر وقد استولى عليهما الذعر والفزع .

وتكررت الطرقات على الباب . فقام ميجيل وفتح

ولم تكن هناك احد .. لم ير الفتى الا فـراغ الليلة المظلم ، وصكت وجهه موجة من الهـواء البـارد القت على وجهه رذاذا متناثرا من الثلج .. لم يـر ميجيل احدا ، ولكن بدا له كان شبحا يختفي بعيـدا فى الظلام تحت ذرات الثلج البيضاء المتساقطة .

وهم ميجيل باغلاق الباب والعودة الـى حيث كان . ولكنه لم يكد يفعل حتى لمحت عيناه فجـأة على عتبة الباب كومة من الحطب بين قدميه ، وفى هـذه اللحظة اشتعلت فى دار البرجونتالث نار متوهجة لـم تشتعل قبل ذلك ابدا فى الموقـد الخامد الجمرات .

ـ 9 ـ

كان ميجيل قد عـاد من بلاد المهجر ذا وفـر وثروة . وان لم تكن بقدر ما صـور لاخويه شرههمـا وشهوتهما الى المال . وعـزم الفتى على ان يستقـر فى تلك القرية حيث رأت عيناه النور لاول مرة . ولكنه كان يعلم ان الارض التي كانت لابيه قد آلت كلهـا الى أخويه . وهكذا عرض على هذين ان يشتري قطعة من ارضهما ناقدا اياهمـا ثمنا لم تكـن تساويـه ، وقبل الاخوان ، وتمت المبايعة ، وبدا ميجيل فى فلاحة الارض التي حلت عليهـا اللعنـة .

على توجيه الاتهام الى ابني الرجل بقتله . فالفلاحون في العادة يخشون بأس القوي ، ولم يحاول أحد ان يتحرى الامر منقبا عن اثر القتيل في جوف البحيرة، وما كان مثل ذلك البحث ليعود بأي طائل ، اذ ان البحيرة السوداء لا تعيد الى سطح الماء ما يبتلع مياهها ، بل أن أحد اولئك الباعة المتجولين الذين يهيمون في تلك الجهات خاض في ذلك الامر وجهر بما كان الناس يتسارون به من قتل الفتيين لابيهما الكهل، فكان نصيب البائع ان زجا به في السجن بعد ان لفقا له تهمة مصطنعة جمعا لها عددا من شهود الزور المأجورين ، وانتهى الامر الى ان حكم عليه بالاعدام ، فشنق في سجن سربة .

ان نزعات الشر في نفوس الناس متاصلة عميقة ، هي أشبه ما تكون بمياه البحيرة السوداء .. ليس لها قاع ..

وماتت ام الفتيان الثلاثة بعد ذلك بشهور ، ويقول الذين راوها مسجاة على سرير الموت انها كانت تغطي وجهها بيديها ، وقد تصلبت أصابعها الباردة كأنها كانت تخشى النظر الى مشهد هائل مفظع .

— 7 —

شمس الربيع الدافئة تشرق على الحقول الخضر ، والطيور تخرج فراخها الصغار من اوكارها في اعالي الشجر تعلمها الطيران في سماء شهر مايو الصافية . والحجل تتوثب مرحة بين سنابل القمح الغضة . وشجر الحور المصطف على جانبي الطريق وعلى ضفاف النهر قد ضرب لونه الى الخضرة ، واشجار البرقوق قد انتشرت فيها الازهار البيضاء.

وارض البرجوناتل كأنها تبتسم لصاحبيها الجديدين اللذين ورثاها عن ابيهما الصريع . فالشجر والنبات يبشر فيها بمحصول وافر وخير كثير .

وأقبل الصيف ، وكان عاما مخصبا فاض خيره على الشقيين . والهتهما النعمة الجديدة عن ذكر جريمتهما . فالخطايا لا تقلق ضمير مرتكبها الا اذا خشي عقاب الله و الناس ، فاذا كان من ذلك بمأمن واذا ابتسم له الحظ فانه يأكل خبزه في رضا كأنما هو خبز اودعه الله كل بركته .

ولكن الشر اذا كان له في العادة مخالب تعرف كيف تسطو وتنهش ، فان يده عاجزة خرقاء لا تعمل . وقد مضى العام الاول بخيره ونعمته ، فتمتع به ابنا البرجوناتل ما وسعهما المتاع ، ولكن الصيف التالي لم يكد يقبل حتى تبدلت الحال ، وبدت الارض كما لو عادت عابسة مقطبة في وجهي صاحبيها . فحقول القمح كان بها من الزنابق البيض والاعشاب أكثر مما كانا يؤملان أن يريا فيها من السنابل الشقر . اما الفاكهة فقد قتلها الصقيع وهي بعد غضة لينة . وعشرات الماشية ورؤوس الغنم كانت تتناثر جثثها الميتة بين يوم واخر دون ان يعرف احد لذلك سببا الا ما كان يتردد على السنة الناس من ان ساحرة نفثت فيها رقية او القت عليها دعوة مستجابة .

ومضى ذلك العام، واتى الذي يليه ، فكان أسوأ وانكد : لقد اصابت اللعنة تلك الحقول . وكلما تضاءلت ثروة ابني البرجوناتل تزايد الشقاق بين امرأتيهما حتى كانتا لا تكفان عن النزاع والخصام . وولدت كل منهما ولدين . ولكن الحياة لم تقدر لهذه الذرية . لقد سممت الكراهية لبن امهيهما . فقضى على الاطفال بالموت ، وهم بعد في سن الرضاع ..

— 8 —

كانت ليلة من ليالي الشتاء الباردة . وابنا البرجوناتل وامرأتاهما ملتفون حول الموقد الذي كانت جمراته الخامدة تلفظ اخر انفاسها . ولم تكن لديهم خطب يشغلونه ولا كان بوسعهم في تلك الساعة ان يخرجوا لانقطاعه . وكانت الريح العاصفة تتسلل من خلال ثقوب الابواب والشرع وتصب سياطها الباردة على جلود الحاضرين . وكانت مسامعهم تتلقى بعصف الريح في داخل المدخنة وبتهاوى الثلج الذي تصادفه اعاصير الجليد في الخارج ، وكانوا ينظرون في انكسار وصمت الى جمرات الموقد المحتضرة .

وبينما هم كذلك اذ تعالت طرقات على باب الدار .. وتصبب الحاضرين ذعر مفاجيء . ويتوجه الاكبر الى اخيه فيقول :

— ترى من الطارق علينا في مثل هذه الساعة ؟ ثم فانظر من ذا يكون ؟

ولكن الجميع يظلون مشدودين الى مقاعدهم دون ان يجرأ أحدهم على فتح باب الدار . وتتردد الطرقات على الباب :

ومن جديد يشعر الاخوان بدم قابيل يسري في عروقهما ، وكانت ذكرى جريمتهما الاولى تحثهما وتدفعهما دفعا الى ارتكاب جريمة ثانية .

واستقر عزمهما فى النهاية على قتل اخيهما ، ولم يترددا فى انفاذ ما عقدا عليه النية ، فاقتحما عليه بابه للماء ذات يوم وخنقاه فيها ، ولم تمض على ذلك ايام حتى بدت جيفته طافية على ظهر الماء .

وبكى الشقيان اخاهما بدموع زائفة حتى يبعدا عنهما شكوك اهل القرية الذين لم يكن احد منهم يكن لهما اي شعور بالود او الصداقة ، ومع ذلك لم يخل الامر من تهامس بعض الناس هناك باتهامهما بتلك الجريمة ، غير انه لم يستطع احد ان يقدم على ذلك الاتهام دليلا او قرينة .

ومرة اخرى عادت ارض البرجونالث الى الاخوين المجرمين .

وفى صيف تلك السنة امتلا بيتهما بالرخاء والنعمة ، فقد حصدا من تلك الارض ما كان اودعها اخوهما ميجيل من الجهد والعمل ، ولكن الارض الملعونة عادت عليهما فى السنة التالية بما عودتهما من الشح والتقتير ، ورجعت الى سنتها من القحط والجفاف .

ها هو ذا الاخ الاكبر منحن على محراثه يشق الارض فى اعياء ونصب ، وهو يتوقف ليسترد انفاسه ويجفف العرق المتصبب من جبينه ، ويرجع النظر فيما شق من الارض ، فيهوله ان يرى الارض تنطبق عليه من جديد ، وتنسد الشقوق كأن لم تكن .

والاخ الاوسط قائم فى الحديقة التي كانت اشجارها مثقلة بالفاكهة والثمر لم يعد فيها الآن الا وحشي الاعشاب ، وهو يعالج اجراء الماء فى جداولها بفاسه ؛ ولكنه يرى والفزع يغشى عينيه ان الارض لا يتفجر منها الماء ، وانما ينبثق منها جدول من الدم ، ويقف الفتى متهالكا على الفاس ويردد بصره فى ذلك المشهد الهائل الفريب ، ويتصبب العرق البارد على جبينه المحموم .

وفى اليوم التالي يجتمع الاخوان كانهما على موعد وينخذان طريقهما فى سمت الى البحيرة السوداء مخترقين مروج الحشائش وخمائل الصنوبر .

ويدنو على صوت مسيرهما ذئبان كانا هناك ، فلا يكادان ينظران اليهما حتى يمتلئا منهما رعبا ، ويوليا فرارا .

ويطلع الفتيان على صفحة البحيرة ، ويعلو صياحهما :

— ابنـــــاه ...

ويتردد الصدى من اغوار الصخور التي تحف البحيرة :

— ابتاه .. ابنـــاه .. ابناه ..

ولا تكاد الصخور تصمت عن ترديد النداء حتى تكون قد التقمهما مياه البحيرة السوداء .. البحيرة التي ليس لها قاع ..

مدريد : دكتور محمود علي مكي
مدير معهد الدراسات الاسلامية بمدريد

واعاد الذهب البهجة والفرح الى قلبي الاخوين بعد ظلام وانقباض ، ولكن عودة المال الى ايديهما صرفتهما عن العناية بالارض ، واخذا ينفقان في سرف على ملاهيهما ولذاتهما ، حتى اضاعا الجانب الاكبر مما غنماه من صفقتهما الرابحة ، ولم يمض العام حتى رأيا الا مفر من ان يعودا الى فلاحة ارضهما والعمل فيها كما يفعل الناس .

اما مجبل فقد كان يشتغل بأرضه من مطلع الشمس حتى مغيبها . كان لا يألوا جهدا في حرث تلك الارض التي طالما اضر بها الاهمال . وكان يجتهد في تنظيفها من وحشي الاعشاب ، وفي ريها بعد ان يبسها الجدب وقلة العناية ، وهكذا عاد الى تلك الارض رواؤها وخصبها . وحفلت مرة اخرى بسنابل القمح الممتلئة الصفراء . بينما ظلت ارض اخويه كما كانت مقفرة قاحلة ، وكان اخواه ينظران الى تلك الحياة الجديدة التي دبت في ارض مجبل وملء قلبيهما الغل والحسد وملء عيونهما الرغبة في المزيد من المال . وعاد مجبل الى شراء ما بقي من ارضهما ونقدهما الثمن مضاعفا كما فعل من قبل .

عادت ارض البرجونال الى ابنه الاصغر مجبل . وعادت معه الى الحقول الملعونة ما كان المزارع العجوز قد افاض عليها من الخير والخصب ، اما الاخوان الكبيران فانهما لم يريا ايديهما مملوءة بالمال حتى عادا الى ما كانا فيه من الانفاق عن يمين وعن شمال . وما زالا حتى ادت بهما الخمر والمقامرة واللذات مرة اخرى الى الفقر والافلاس .

— 10 —

كان أخوا مجبل قد قضيا يومهما في قرية مجاورة كانت تحتفل بموسمها السنوي ، وكانا قد اسرفا في الطعام والشراب ، طيلة ذلك اليوم . فلما اقبل المساء اتخذا طريقهما عائدين الى قريتهما ، وكان الاكبر مقطب الوجه ، وقد تقارب ما بين حاجبيه الغليظين ، وتحت جبينه الضيق تختمر فكرة هائلة رهيبة .

وتوجه بالحديث الى اخيه :

— كيف تفسر اقبال الحظ على مجبل ؟ فها انت ذا ترى الارض تعمره بالخير والثروة بينما تضن علينا نحن بكسرة خبز .

وتمتم الاصغر في صوت لا يكاد يبين :

— ضرب من ضروب السحر ، وفنون من رقى الشياطين .

ومضى الاخوان في طريقهما صامتين حتى اقتربا من حقول اخيهما الاصغر . فخطر لهما ان يطلا عليها من اعلى السور ، وبدا الحقل وقد اكتظت اشجاره بالثمار ، وهناك بين احواض الورد تبينا شخص رجل منحن على الارض منصرف الى معالجتها .. وقال الاكبر :

— انظر اليه . ها هو ذا هناك لا يكف عن العمل في ظلام الليل . ثم اقبلا يصيحان باخيهما :

— مجبل .. مجبل ..

ولكن الرجل الذي كان يباشر عمله في الارض لم يلتفت اليهما وكأنه لم يسمع نداءهما . وبقي منكبا على الارض يشذب هذه الاغصان او يقلع تلك الحشائش . وامعن الاخوان النظر . فهالهما رؤية شيء غريب . هالة من النور تحيط بشخص ذلك الرجل الذي ظل مقبلا على عمله . ولكنهما نسبا ذلك الى اسرافهما في الشراب اذ لم يكن من الغريب ان تضطرب الصور وتختلط في نظر الثمل . ولبث الفتيان يتملان . وما كانت الا لحظة حتى انتصب ذلك الرجل واقفا . واتجهت خطواته الى حيث كانا واقفين دون ان يبدو عليه انه رآهما ، وكأنه كان متجها الى ركن آخر من اركان الحقل ليواصل العمل فيه . ودنا ذلك الشخص منهما . فحدقا بابصارهما اليه . لم يكن مجبل . وانما هما يتبينان فيه صورة ابيهما . البرجونال نفسه يعمل في ارض ابنه مجبل بعد أن ابتلعته مياه البحيرة السوداء .. البحيرة التي ليس لها قاع ..

واستيقظ الاخوان في اليوم التالي ، ولم يذكرا من حديث الامس الا انهما اكثرا من النبيذ . فتراءت لهما ما اعتاد السكارى ان يروه من تهاويل غريبة وصور مزعجة . ولم يلقيا بالا الى ذلك ، واقبلا على شأنهما من الاسراف في المتعة وانفاق المال عن يمين وعن شمال . بينما مضى اخوهما الاصغر في فلاحة ارضه والعناية بها ، والله يزيده من الخير ويضاعف له من الثمرات .

لرسامينا ، ولكنها تتحد جميعا فى ظماها الى الاكتشاف. في انسلاخها الى اكتشاف (الأنا) من خلال كل تلك الترسيمات اللونية على قماش اللوحات ، واذا كانت هذه الاسماء كلها على مثل هذا التضارب فى الاتجاه ، فالى اي حد استطاعت ان تعكس مظاهرنا على اعمالها ؟ اعتقد ان اول ما نواجه به فى هذا الصدد هو تلك الغريبة المتبرئة من كل ما هو منا ، صحيح أن هؤلاء نفرون منا ومنهم ، لانهم يبحثون على الخصوبة . يبحثون عن الشفافية . عن النغم الاخرس الذي يشع من خلال كل لوحة رسمية . ولكن كل هذه الحركات لا يمكن بحال — كما يعتقدون — ان توجد فى بلادنا ، لهذا فهم يجرون خلفها ، فيما وراءنا ، فيما وراء البحار التي تفصلنا عن مواطن الخصوبة والثراء . وحينما اقيم ذلك المعرض الذي يجمع بين الرسامين المعاصرين فى(*) باريس ، وبين الرسامين المغاربة ، يكاد الانسان يجد فيه نفس الاسلوب ونفس الرشاقة فى اختيار اللون ، ونفس البناء فى الخطوات الدراسية للوحة ، ونفس الايقاع والرجة اللذين يحدثهما الظل ، واخيرا نفس النفس الشاعري ، او الثائري او التجريدي عند كل من هؤلاء الرسامين الذين يجمعهم المعرض (*) وان كانت التشكيلية التعبيرية ، والقدرة الخلاقة ، والاستيعاب الرائع لشاعرية الموضوع ، وأخيرا ، غرابة الاسماء ونراء الصور ، تنعكس جميعا على اعمال الآخرين ، فى حين نحس اضطراب الناشيء أمام رسوخ قدم المجرب ظاهرة على اعمال رسامينا .

هذه المقدمة ضرورية من أجل الحديث عن رسام مغربي . هو الآخر يقوم بمحاولات جديرة بأن ندخل فى حيز التاريخ ، تاريخ الرسم المعاصر فى بلدنا ، وضرورتها تأتي من حيث ان بناني مغربي هو الآخر وقع تحت تأثير روافد الغرب ، انه اختار لنفسه طريقا ليس من الطرق التي يجب ان نسير فيها صعدا .

ان هذا الرسام لا زال فى ريعان شبابه فهو في الخامسة والعشرين من عمره ، ولكن الطريف فى حياته انه درس بالقرويين بعد دراسته بكتاب حيه . ويظهر انه بدأ فى هذه المرحلة من حياته فى اكتشاف عالم عبثي لا مفهوم : فعصى الفقيه واللوحة المبيضة بالصلصال ، وترنيمات التلاوة القرآنية اللامنسجمة ، ربما كان من الممكن ان تكون عناصر اولى فى تكييف شخصيته الفنية فيما بعد ؛ فهو قد بدأ يرسم دوائر ومربعات واشكالا غامضة على جدران منزله ، ولكن سنة 1954 — 55 كانت حاسمة فى دفعه بصفة نهائية الى الاختيار ، وفي سني دراسته بالقرويين ، كانت اعماله تتسم بسذاجة الناشيء وتصحيحه ، ولكنها فى نفس الوقت تفصح عن كبير تعلق بتقاليد ثقافة وطنية عتيقة ، ظهر ذلك جليا فى تمسكه بتلك الصوفية الشفافة ، وبعد هذا ، اتى الحريق المهول الغاشم لقيسارية العطارين بفاس ، فتعلم الناس أن يصرخوا صرخات لا تقل عنفا عن امواج البنزين التي ذهبت بالثروات الصغيرة القابعة فى جوف الدكاكين الضيقة فى هذا السوق ، وبالطبع فقد أبو الرسام ثروته الصغيرة ، وكان هذا منفذا جبارا تسلل منه الحزن الى قلب الرسام ، وكان أن عثر هذا الحزن على طاقات تعبيرية خصبة كامنة فى لا شعوره . ولم يكن من الممكن أن يعبر بناني عن هذه الصرخات بغير الريشة ؛ اذ انه كان قد اكتشف الالوان والموهبة واللوحة ومفعولها السحري فى كل اعماقه ، ولعل الرسام كان يتخيل فاسا تحت اللهب الحاقد ، ولكنه حتى فى هذه الرؤيا ، لم يكن حالما ، اذ أن عدساته كانت تمور حياة متعقلنة ، حيث التحمت الوان لم يكن من المنتظر التحامها .

وهكذا فكل لوحة من لوحاته ، هي فكرة ، هي انفعال يبحث عن فكرة يحاول ذهنه ان يبلورها ، لانها دائمة الحضور فيه ، ابدية الانطباع والوعي ، ومن هنا يتاح لها المجال لان تنمو وتنضج بتلقائية ، لتتحول فيما بعد الى لون محسوس مجسم ، ثم ان اللون بالنسبة اليه وعي لشيء ، انه يكتسح بنوع من الجدل ، فيلتقي بصورة حاسمة بفضاء اللوحة .

اننا نشعر من خلال النظر الى اعمال بناني ، بالمغامرة الاسيرة مع العدم واللانهائي فى القماش الابيض ، هذه المغامرة تنعكس على عجلته فى رسم اكثر ما يمكن من الاشياء ... فهي مبدأ لعمل مجنون يدفع بناني محمد الى نضال ضد أناه ، كما لو كان خائفا ان يفقد خيوط الهاماته .

* انظر الكتيبات الثلاثة التي اعدتها البعثة الثقافية الفرنسية عن اليعقوبي ، والغرباوي ، والادريسي ، بقلم : Gaston Diehl. Tanjaoui Mohamed. Pierre Gassi.

* انظر الكتيب الذي صدر بمناسبة هذا المعرض باشراف الحكومتين المغربية والفرنسية تحت عنوان : « Peintres Marocains de l'Ecole de Paris et peintres marocains présentés au Maroc en avril et mai 1962.

الرسّام محمد بناني في معرضه الأخير

للأستاذ : محمد السرغيني

ان الحديث عن اي رسام مغربي ، يدفع حتما الى الحديث عن الرسم فى المغرب ، لان الرسامين مع حركة الرسم فى هذا البلد ، يكونون وحدة متناسقة لانهم ناشئون اولا ، ولان رسمنا وليد ثانيا .

هناك رسم فى المغرب ، ولكنه ضائع يبحث نهائيا عن الانجاه من وراء الالوان التي يريد منها أن نعطيه حياة متحركة . ان تجعله معبرا عن الرعشات الحضارية التي نعيش توانيها . ونعانى مخاض ولادتها ؛ ولكن رسامينا على اختلاف نهجهم ، ليسوا بقادرين على ان يسبروا غور اللون من أجل أن يكون فى مستوى ما نعانيه : ان اللون بكل خففانه لا يصل عندهم الى هذا الحد . انه باستثناء الطراوة التى تبلل غضونه لا يمكن ان يفصح عن حركة مجتمعنا . يضاف الى ذلك تلك الرؤيا الشعرية التى لابد منها لكل رسم ورسام ؛ تلك الرؤيا التي نبحث عنها من وراء الظلال ، ومن وراء الخطوط ، حيث يجد الرسام المجال الاوسع لاثبات شخصيته . اذ من هنا يتنبأ بالحظ فى فيمه التعبيرية، أي انه ابتداء منهما ينبع كل نطور محتمل فى ناريخ حياة كل رسام .

نحن اذن ، بصدد ايجاد بعث فنى يجهد انفسنا فى ان يكون متألقا معبرا ، موسوما بشخصيتنا ولكن اللحظات الحضارية القارة التي نعيشها ، ليست قادرة على ان تزودنا بذلك الزلزال الداخلي الذي يدفعنا الى ابداع من مستوى عالمي . اننا نعيش انماطا من الحياة رتيبة او متغيرة ، ولكنها فى مجموعها نبضات غير حية، لا يمكن بحال ان تترعرع فى ظلال سمو عام لانسانية الانسان هنا ، ومن أجل هذا ، لا نخلق الا معادا ، ولا نبتكر ابداعا ، اذ اننا ننفعل بزيف من خلال تأثراتنا العارمة لما نراه فى مدارس الرسم فى فرنسا على الخصوص . وهكذا ، فنحن نعيش تجربة الآخرين بغير حرارة ولا شوق ، بل نعيشها ابدا بمحاولة تكرار وتلفيق .

وهذا لا ينفي أننا نفتقد العنصر الوجداني ، ذلك العنصر الذي يحاول وبصفة تامة ان ينخرط فى مآسينا ، ويعيش تجربتنا البسيطة بالقدر الذي لا ينزع منها شاعريتها ورواءها ، هذا العنصر الوجداني نجده ظاهرة غريبة عند بعض الذين نفذوا بلبان شعارات تقليدية منذ نعومة اظفارهم من فنانينا . هؤلاء الرسامون هم بحق وارثون للرؤيا الصوفية التي نراها جلية فى مناحى الحضارة بالمغرب : كالمعمار والادب والرسم والنحت .

واذا كنا نستطيع ان نصنف كل رسامينا فى مدارس معروفة فى تاريخ الرسم المعاصر ، لان كل واحد منهم حر فى أن يختار الطريق لنفسه ، ولان كل واحد منهم لا زال يمسك بالتأثر الاول ، فهو أسير تقليد يبعده عن ان يصل يوما الى أسلوب شخصى ، فان هذا التضارب ان كان كفيلا بأن يخصب حقل الرسم فى هذا البلد ويفرقه فى شتى التيارات والاتجاهات ، فهو أيضا كفيل بأن يبعده عندنا عن وحدته الهيولانية ؛ عن طابعه الذي نحب له ان يكون منا ، ساذجا مفتعلا (*) يعبر عن مشاكلنا ويفهمنا فهما جذريا ، ومن ثم ينقلنا عبر خطوطه والوانه وظلاله الى الناس والتاريخ .

وهناك عشرات الاسماء : كالفرباوي ، واليعقوبي والادريسي ، وبناني كريم ، وابن الكاهية ، وابن علال ، الى غير ذلك ، هذه وجوه متعددة ، وربما متناقضة

التلفزيون
كأداة اتصال بالجماهير

ترجمة الأستاذ : محمد العربي المساري

« ان التلفزيون ليس فنا مستقلا بنفسه ، ولكنه مجرد وسيلة لنشر الفنون »
مارسيل بانيول

خلال شهري يناير وفبراير نشرت جريدة « الاكسبرس » نص تقرير هام عن شؤون التلفزيون قدمه اندريه دبلجان ، وهو نائب برلماني فرنسي طالما عني بمشاكل الراديو والتلفزيون . والتقرير مقسم الى خمسة اقسام هي :

- التلفزيون في العالم
- ما ذا يرى الناس في التلفزيون ؟
- التلفزيون الفرنسي
- القناة الثانية والتلفزيون الملون
- التلفزيون وحرية الاخبار

والحقيقة ان اهم جزء في هذا التقرير هو الجزء المتعلق بآراء الكاتب حول الدور السياسي الذي يلعبه التلفزيون في المجتمعات . وقد اورد الكاتب انه يوجد على سطح الارض اكثر من 2 000 محطة ارسال تلفزيونية وحوالي 120 مليون جهاز استقبال ، وهذا العدد يتزايد باستمرار . كما ان معدل ساعات الارسال آخذ في النمو وفي الولايات المتحدة يمضي المتفرج العادي حوالي 5 ساعات في اليوم امام الشاشة الصغيرة . وفي فرنسة يبلغ معدل الساعات التي يقضيها المتفرج العادي امام شاشة التلفزيون حوالى 16 ساعة في الاسبوع ..

« التلفزيون ووسائل الاتصال الاخرى »

وقد اثار ظهور التلفزيون ردود فعل عديدة في مختلف المجالات ، سواء في الحياة العامة او بالنسبة لوسائل الاتصال الاخرى . وفيما يتعلق بالسينما وهي اوثق الوسائل السمعية البصرية علاقة بالتلفزيون ، اثبت احد البحوث التي اجريت بفرنسا في سنة 1959 حول تأثير التلفزيون على السينما والمسرح ، على ان ظهور التلفزيون احدث تغييرا ملموسا ، وقد طرح على الجمهور هذا السؤال :

— منذ امتلاكك لجهاز استقبال تلفزيون هل تذهب الى السينما اكثر مما قبل او أقل .

وكان الجواب :

0 / اكثر 81 / اقل 12 / بمقدار ..
وبالنسبة للمسرح : 2 / اكثر 63 / اقل 35 ٪ بمقدار .

هذا في فرنسة ، اما في الولايات المتحدة فان عدد قاصدي القاعات السينمائية انخفض من 82 مليون (سنة 1940) الى 46 مليون في سنة 1955 بالرغم من تزايد عدد السكان ..

وبالنسبة للصحافة كان تأثير ظهور التلفزيون واضحا جدا ، اذ اخذ كثير من زبناء الصحافة يخصصون جزءا كبيرا من وقتهم لتتبع اشرطة الانباء التي تعرض على الشاشة الصغيرة . ففي انجلترا انخفض عدد النسخ المطبوعة من الصحف ، في عام 1958 فقط ، 800 000 نسخة . وفي الولايات المتحدة أدى الامر الى اختفاء عدد من المجلات .

وبناني ايضا ، يخيل الي انه لن ينهي اية لوحة من لوحاته ، لانه لا يوقعها ، وربما كان يرى أن لوحة واحدة لا يمكن بحال ان تكون لها نهاية ؛ وفى نظره ، أن دور الرسام اذا انتهى ، فيجب عليه أن يعيش حياته كالآخرين ، فهو ليس كعرائس لا ترقص الا بحركة خيط انه يريد أن يلقي الينا بالامه المستمرة عبر أعماله .

هذا هو الرسام فى مسار تطوره ، ولكنه حتى فى تعاقب الاتجاهات الجمالية فى الرسم واختلاط المفاهيم التأثرية فى أعماله ، نحس له شخصية ساذجة احيانا ، وقوية احيانا اخرى ، خفيفة الوقع تارة ، وشديدة الترنيم تارة أخرى ، فهو على الاقل ، مخلص فى أن يرسم بلون وبظل وبخط وبفكرة من خالص وحيه .

واذا كان « كاندينسكي » فى كل من روسيا والمانيا قد لعب فى تجريدياته دور الرسم الطلائعي ، حتى مع قيام الثورة البلشفية فان بناني بتجريدياته أيضا لم يكن ليكون طلائعيا ؛ اذ ان الحركات التقدميه فى نقد الرسم ، قد حكمت ـ وخصوصا فى روسيا وفرنسا مؤخرا ـ على ان التجريد تعبير داخلي عن حالات فردية ، ليس فى استطاعتها أن تعكس الحالات المشاعة بين كل أفراد الشعب الواحد .

ورغم كل ذلك ، فان التعبير الداخلي للرسام لم يكن ليستعين حتى بالاشكال المشعة لتراثنا ، من أجل ان يكون شيئا منا .

اننا نلاحظ فيه شيئا من سوئنه (بول كلي) في المانيا ، وحتى نفس الفهم للتجريد الذى نجد عند (كاندسكي) .

يقول (ميشيل سوفور) فى كتاب : « مغامره الفن التجريدي » لـ (ميشيل راكون) : « ان الفن التجريدى عندي ، هو ما كان خاليا من أى تذكر او حضور ، يمكن ان يشير الى الواقع المحسوس الملاحظ ، وسواء لدى اكان هذا الواقع منطلق الرسام أم لا ؟ » كذلك بناني ، انه أبعد الانسان عن لوحاته ، وأعطى لنفسه كامل الحرية فى أن يبذر فى فضائها الابيض كل خصوباته الفكرية ؛ وهكذا ، فالانسان غائب عن اعماله، لا نحس له وجودا . ولكن الرسام نفسه يحاول أن يبرر هذا الغياب بأنه لا يحمل أي عداء للانسان ، بل هو على العكس تقدسه : ان الانسان يختفي من أعماله كتمثيل تشخيصي ، لا كقيمة انسانية ، من أجل اعطاء (الشيء) انسانيته الكاملة فهو قد عوض عن غيابه بتجزئة الاشكال المرئية واخضاعها لعدسة كشافة تظهر الفكرة اظهارا ما ورائيا . انه يقول فى تحليل لاعماله كتبه عن نفسه : « فالتحفة الفنية الموفقة هي فى الواقع محاولة من اجل الوصول الى التعبير عن كلية الانسان ، ومن تم الى فهم كلي للعالم » . « وارى أن ما ضاع بغياب الانسان من أعمالي ، قد ربحته فى الجانب الآخر بحضور (الشيء) » . (Objet)

والرسام يرى بعد ان اقتنع بالتجريد كمذهب ، انه هو الوحيد الذي يمكنه من فهم مهمته : « اذ مهمة الفنان لن تكون شيئا آخر غير مساعدتنا على الحصول على رؤيا واسعة وعميقة للاشياء ، والشعور بوحدتها ، وهكذا ، فبسبب هذه الرؤيا ، وقف الرسام مبهوتا أمام اللون البني الحائل لروث حمار ، فاكتشف ان الكويرات الروثية الصغيرة ، اخذت تغلفها قشرة رهيفة بخارية شفافة اكسبتها صفاء جعله يخترق كثافتها الهندسية ويتخيل المساحة البنية الندية التي ترتاح عليها القطعه السحرية العجيبة . وكانت هاته الكويرات تتزحلق تحت أرجل السابلة ، فتتفتت ، وهكذا تكتسب ابعادا عديدة ، وحينما تجف نهائيا ، اكتسب شكلا ارضيا جامـــــدا . »

واعتقد ان اقتناع الرسام بالتجريد هو اقتناع داخلي ، أساسه ميراث صوفي انحدر اليه عن طريق سلالي ؛ يؤكد هذا تلك الخطرات الحالمة ، وذلك الارتفاع السامي الذى ينعكس على لوحاته التي عرضها بمعرض باب الرواح ، من فاتح فبراير الى متمه .

اننا نشعر بعروج نحو الاعلى فى أعمال الرسام ، بل بدعوة حارة الى نبذ الارضية ، وهذا ما يجعل هذا الرسام يسير فى اتجاه عدائي للارض لانه لا يراها الا من خلال السماء ، من خلال أشكال ميتافيزيقية ، تكاد ان تنعكس على كل الحزن الذي يطفى عميقا على ملامحه بل على خطوات ريشته .

واخيرا . اننا نتمنى لهذا الرسام ان يستطيع عكس الطراوة التي تبلور الفكرة بشفافيتها ، وتسهل مهمة انسجام الالوان ، لننفذ منها الى تذوق اعماله ، فيبعث طابعه الشخصي امامنا واضحا كما اننا نتمنى له ايضا ألا يوغل فى الماورئيات حيث تتكثف افكاره ، وتتشعب ، فتضيع فى متاهات اللون وابعاده ، ملطخة لا تجري فى عروقها حياة . وهكذا نستطيع ان نحكم على صدق عاطفته ، وعلى مدى عيشه لواقع فنــه .

محمد السرغيني

اصداء الثقافة والفكر

للأستاذ : محمد برادة

نجيب محفوظ يحتفل بعيده الذهبي .. او احتفال الرواية العربية بخروجها من الاطار الاقليمي

في الشهر الماضي ، احتفل الروائي الكبير نجيب محفوظ – ومعه ادباء العربية – بعيده الذهبي .. وقد نشرت معظم المجلات دراسات ومقالات عن فن نجيب محفوظ ، واضافاته للتراث الروائي العربي المعاصر وكان بودي – لو أسعفني الوقت – أن أكتب بحثا عن الخط التطوري الذي سار عليه هذا العملاق المبدع . واكتفي في هذا المجال بايراد بعض النقط التي ترسم اطار الرحلة الابداعية التي قطعها نجيب محفوظ ، معتمدا على قراءتي لرواياته ، وعلى الدراسات والابحاث الآنفة الذكر . (*)

ينتمي نجيب محفوظ الى الجيل الروائي الثاني اذا ما اعتبرنا جيلا اولا كلا من : هيكل ، ويحي حقي ، ومحمود تيمور ، والمازني ، وطاهر لاشين ، والحكيم ، وطه حسين .. ومعنى ذلك ان سبيل الفن الروائي لم يعد بكرا ، وان محاولات لا بأس بها كانت قد مهدت الظروف امام امكانيات التطور والسير نحو الكمال . وقد ساعدته دراسته للفلسفة بجامعة القاهرة ، على اكتساب اطار فكري عميق ، اتاح له فيما بعد ان يرسم ابعادا متينة لرواياته ، ولكن صلته بالفلسفة ما لبثت ان تعرضت لاغراء الادب والخلق ، فغير الاتجاه ، وانكب على مطالعة روائع الادب العالمي شرقا وغربا . وظل فترة طويلة يكتب وهو في منطقة الظل ، الى ان تخلى عن الاتجاه الرومانسي التاريخي ، وبدأ مرحلة الروايات الواقعية : خان الخليلي ، القاهرة الجديدة ، زقاق المدق ..

وفي اعتقادي ان العنصر الاساسي الكامن وراء نجاح نجيب محفوظ هو اصالته ودفعا للالتباس ، يجب الا نفهم الاصالة بانها ابتكار وتجديد مطلقان .. ولكنني اقصد ان نجيب محفوظ لم يضعف أمام بريق المذاهب والاتجاهات الفنية التي كانت أضواؤها تسطع في سماوات أوربا ما بعد الحربين . كان يتتبع تلك المعارك والمخاضات ، ويقرأ لكبار الروائيين في فرنسا وانجلترا وامريكا وروسيا ، ولكنه ظل يبحث عن طريقه مستوحيا امكانياته الخاصة وبيئته وتطوراتها . يوضح لنا هذا الاتجاه موقفه التالي ...

سئل مرة عن أسلوبه في المرحلة الاولى ، فاجاب :

« عند ما بدات الكتابة كنت أعلم انني أكتب بأسلوب أقرأ نعبه بقلم فريجينيا وولف ، ولكن التجربة التي اقدمها كانت في حاجة الى هذا الاسلوب . لقد اخترت الاسلوب الواقعي في هذا الوقت الذي كانت فريجينيا وولف تهاجم فيه الاسلوب الواقعي وتدعو للاسلوب النفسي .. » (*)

---

* انظر المجلة – يناير 1963 – « عالم نجيب محفوظ » بقلم : ادوارد الخراط وكذلك عدد الكاتب يناير 1963 .

* المجلة – يناير 1963 ص 26

وفى فرنسة انخفض شراء الصحف الباريسية بمقدار 100 000 نسخة ، وكما هو الحال فى انجلترا وامريكا كانت الصحف المسائية والمجلات المصورة اول الضحايا . .

« ثقافة الغد »

والسيد دىلجان يستنتج من كل هذا ان ثقافة الغد ستكون اقل اعتمادا على الكتب مما سبق . ويقول: « ان ظهور الطباعة ساعد كثيرا على نشر الادب المكتوب، اما الآن بعد الاهتداء الى التلفزيون ، فان كثيرا من الاساليب التربوية سيدخل عليها تحوير جوهري » ، وماسرو يقول : « نستطيع بواسطة التعليم ان نحترم كورني وفيكتور هيجو ، ولكن هذا ليس كافيا اذ يجب ان نشهد اعمال كورني وهيجو لكي نحبهما . . »

والذي يحدث فى التلفزيون ان تبليغ الافكار لا يكون باستخدام اللغة وحدها بل تمتزج الكلمة والصورة ، والصورة لها نفوذ قوي ، لانها تعني التشخيص ، وهذا بدوره يعني قدرا اكبر من التقرب الى نفسية وحواس « من » يتلقون الافكار بواسطة التلفزيون ، ونظرا لقوة نفوذ التلفزيون من هذا الجانب نجد الحكومات تعنى عناية شديدة بهذه الاداة الخطيرة للاتصال بالجماهير . وقد تعالت الاصوات بالدعوة الى جعل هذه الاداة الخطيرة فى متناول المجتمع كله . للتعبير الحر الصادق الموضوعي عن رغبات كل قطاعات هذا المجتمع . ولهذا قال جوهينو : « ان التلفزيون السيء هو الذي يصنع مواطنين يسهل انقيادهم » ومعنى هذا ان التلفزيون الناجح هو الذي ينمي فى جمهوره الرغبة فى المعرفة والاطلاع ويوقظ قلق وفضول هذا الجمهور .

« من يشرف على التلفزيون »

وهنا يطرح سؤال : كيف يجب ان يوجه التلفزيون ؟

والجواب دائما واحد وهو ان التلفزيون يجب ان يوجه لخدمة جمهوره ، وفى كل بلد من البلدان التي يوجد فيها تلفزيون وطني ، يعطي التوجيه اللائق الذي يناسب طبيعة نظام الحكم القائم . ففي الولايات المتحدة بلد التنافس الحر لا يخضع التلفزيون لاي سلطة او رقابة سوى سلطة ورقابة اصحاب الاعلانات . وتجدر الاشارة الى ان البرامج الاخبارية فى الولايات المتحدة – مع هذا الوضع – من اكمل وادق ما يوجد فى تلفزيونات العالم ، اما فى العالم لاشتراكي وفى الاتحاد السوفياتي على الخصوص فان السلطة التي يخضع لها التلفزيون هي سلطة الحزب ، وفى مقابل الاشهار التجاري – فى امريكا – يلزم التلفزيون السوفياتي بخدمة الاغراض الدعائية .

« رئيس البرامج ليوتنان كولونيل »

وهذا ما يتذرع به القادة الحكوميون فى اكثر دول العالم التي يوجد فيها تلفزيون لكي يجعلوا من التلفزيون « اداة لتربية الجماهير » ففي المانيا الشرقية 63 / من البرامج التي اذيعت فى سنة 1959 كانت تخصص « لمشاكل بناء الاشتراكية فى الجمهورية الديمقراطية الالمانية » وفى التايلاند توجد قناتان تلفزيونيتان ، قناة تسيرها الحكومة ، واخرى يسيرها الجيش ، وهذه الاخيرة يديرها ضابط برتبة كولونيل ، ويرأس قسم البرامج فيها ليوتنان كولونيل ، ومنتجوها برتبة كابتن وليوتنان ، وتقوم بمهمة التذييع فيها مذيعة برتبة سرجان شاف . .

ولعل هذا التقابل بين ما هو موجود فى بلدان التنافس الحر وبلدان التلفزيون الموجه ، هو ما يعنيه ويفيرو بقوله « ان خطر التلفزيون الذي يخضع خضوعا تاما لاستبداد السلطة يكمن فى انه يكون « لتكييف » الرعايا ، وان خطر تلفزيون يخضع للمصالح الخاصة يكمن فى انه يكون آلة لتكييف الزبائن .

وخير تجسيم لهذه الاخطار ما قاله ديجول فى جامعة اكسفورد سنة 1941 : « عند ما يصبح كل الناس يقراون فى وقت واحد شيئا واحدا فى صحيفة واحدة ويشاهدون فى جميع انحاء العالم مرور نفس الافلام امام اعينهم ، ويسمعون جميعا نفس الاخبار والمقترحات ، ونفس الموسيقى المذاعة ، فان الشخصية الخاصة بكل فرد وحرية الاختيار لن يعثر لهما على اثر بعد ذلك . . ويحدث ان تتكون نوع من الميكانيكية العامة لا يستطيع الفرد داخلها ان يحمي نفسه من الايحاء الا بجهد جهيد . . . »

الرباط : العربي المساري

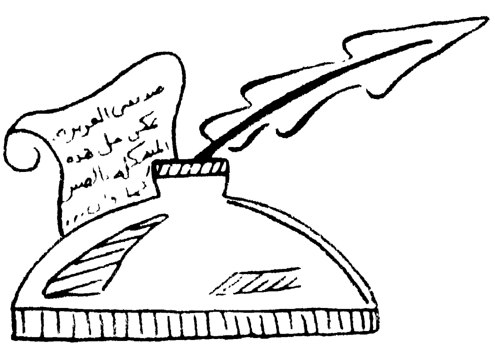
الدعوة ، فلم تسفر المناظرة عما كان ينتظر منها لانها لم تسهم في توضيح الاختلافات داخل اطار فكري ـــق ..

اما المؤتمر الثالث فقد اختير له موضوع « المغرب بين الذاتية والاندماج » ورغم انني لم اطالع نصوص المحاضرات التي القاها الاساتذة المدعوون، فان لي ملاحظة جوهرية على الموضوع المختار . ذلك ان التحدث عن المغرب بين الذاتية والاندماج يقود حتما الى الحديث عن اختيار طريق عقائدي .. ومعنى ذلك ان موضوع هذه السنة هو نفس موضوع السنة الفارطة . لاننا اذا شرحنا المقصود من الذاتية والاندماج وجدنا ان الامر يتعلق بمفاضلة بين الليبرالية والاشتراكية .. بين الفردانية والجماعية .. اذن فالصيغ متباينة والمضمون واحد . وانا اعتبر هذا التشابه في اختيار الموضوعين تكرارا لا طائل من ورائه ، سيما وان الشخصيات المشاركة هذه السنة ، هي تقريبا نفس شخصيات السنة الماضية .

اني لا اقصد التقليل من قيمة المشروع ، ولكنني فقط اريد ان اؤكد ان تنظيم مهرجان ثقافي يتطلب جهدا وامكانيات ضخمة .. ويعلق عليه المثقفون آمالا عريضة . لذلك يجب على منظميه ان يفهموا جيدا المهمة الملقاة على عاتقهم والا يتغافلوا عما يمكن جنيه من مثل هذه المهرجانات .

وكم كان بودي ـ ما دام المشرفون والمنظمون لهذا المهرجان من الطلبة الشبان ان يخالفوا التقليد المتبع ، فيفسحوا المجال أمام الشباب ليسمع صوته لاساتذته وشيوخه .. بدلا من ان يكتفي بالانصات اليهم ومناقشتهم ...

الرباط ـ م . برادة



وهو يشير هنا الى المقال النقدي الرائع الذي كتبته فرجينيا ولف سنة 1919 مهاجمة روايات ولز، وبينيت وجالسورتي ، الذين كانوا يمثلون آنذاك ، المذهب الواقعي . وكانت فرجينيا وولف ، وجويس يتزعمان اتجاها روائيا جديدا يعتمد على«تيار الشعور» والاهتمام بالزوايا النفسية الخبيئة . كتبت فرجينيا وولف تعلق على روايات أصحاب المذهب الواقعي قائلة:

« ... فاذا كنا قد ألصقنا بكل هذه الروايات صفة واحدة هي المادية ، فاننا نعني بذلك ان هؤلاء الادباء قد كتبوا أشياء لا أهمية لها ، وانهم أنفقوا موهبة وجهدا عظيمين لاضفاء مظهر الحقيقة والديمومة على ما هو مبتذل ومرحلي » (*)

اذن ، فقد كانت الحملة على المذهب الواقعي في أوجها ، وكان نفوذها يتقلص بسرعة ليفسح المجال للمذهب الواقعي الانتقادي ، والمذهب النفساني التحليلي ، وغيرهما من الاشكال التعبيرية الجديدة .. ولم تكن هذه العملية قاصرة على انجلترا ، بل شملت أوربا جميعها باستثناء الاتحاد السوفياتي الذي ساده تيار الواقعية الاشتراكية ..

رغم كل ذلك ، فان نجيب محفوظ لم ينسق لهذا الاغراء ، وبدأ رحلته الابداعية من المنطلق الذي يلائم امكانيته ومجتمعه .. وليس معنى ذلك انه تخلف عن الاستفادة من تطورات الرواية العالمية .. لسبب بسيط ، هو انه تجاوب مع هذه الاصداء التطورية الجديدة متدرجا ، واعيا ، لا مقلدا . ويجمع النقاد — ويوافقهم نجيب ايضا — على انه مر بثلاث مراحل :

1) مرحلة الرومانسية التاريخية : وقد استوحى موضوعاته فى هذه المرحلة من التاريخ الفرعونى القديم ، فكتب ثلاث روايات هي : « عبث الاقدار » و « رادوبيس » وكفاح طيبة وكان ينوي ان يكتب 37 رواية تاريخية أخرى .. لولا انه انتقل الى المرحلة الثانية ..

2) مرحلة الواقعية وهي التي كشفت عن موهبته واصالته .. وخلالها قدم روائع هامة : خان الخليلي ، فضيحة فى القاهرة ، زقاق المدق ، بداية ونهاية ، ثلاثية بين القصرين ..

وعندما انهى الثلاثية سنة 1952 ، وتوقف عن الكتابة ، وظل يعيش فترة « التأقلم » مع الشكل الجديد لمجتمعه بعد قيام الثورة . وفى سنة 1957 كتب رواية « أولاد حارتنا » بعد صمت دام خمس سنين .. وهذه الرواية لم تنشر بعد فى كتاب ، لانها أثارت ضجة كبيرة عندما ظهرت متسلسلة فى صحيفة الاهرام .. ويقال بان علماء الازهر حالوا دون نشرها لان نجيب محفوظ لجأ فيها الى الرمز ، ليشخص الانبياء ، ويمزج بين الجوانب الروحية والارضية فى الانسان .

3) مرحلة الواقعية الجديدة : وفيها خرج نجيب عن التصوير الدقيق ، والوصف البطيء المصور المتتبع لجميع التفاصيل .. فى هذه المرحلة جعل يجمع بين الوصف والتحليل النفسي ، والاهتمام بالافكار . وتمثل هذه المرحلة رواياته :

« اولاد حارتنا » و « السمان والخريف » « واللص والكلاب » ان هذا الخط التصاعدي الذى سار فيه نجيب محفوظ يظهر لنا بوضوح مدى اصالته ونضجه . واذا كانت رواياته الواقعية الممتازة قد اعطتنا شرائح وصفية زاخرة بالنماذج والمواقف البشرية ، واعطتنا شهادة حية على فترات خصبة من حياة المجتمع العربي ، فان روايات نجيب محفوظ الاخيرة قد ارتفعت الى أجواء أرحب ، وتخطت النطاق الاقليمي لتخاطب الفكر الانساني فى العالم اجمع . وهو نصر ندين به لنجيب محفوظ الذى لا اظن ان احدا من القراء الواعين يتخلف عن تقدير جهوده ، والتطلع الى مكنونات موهبته المعطاءة ، الحافلة بكل جديد ..

جمعية نبراس الفكر فى مؤتمرها الثالث

عودتنا جمعية نبراس الفكر منذ سنتين ، ان تستدعي الشباب المثقف ورجالات الادب والفكر ببلادنا للاجتماع وتبادل الراي حول موضوع معين ؛ فقد كان موضوع التجمع الاول هو « فلاسفة الغرب الاسلامي » شارك فيه اساتذة مرموقون ، ونشرت ابحاثهم فى كتاب ملأ حيزا من فراغ مكتبتنا ..

والمؤتمر الثاني حاول معالجة أحد موضوعات الساعة وهو « المغرب بين التيارات العقائدية » الا ان الشخصيات السياسية التي استدعيت للمشاركة لم

---

* Virginia Woolf - L'art du roman - Ed. Seuil 1963

بان يعتمد فى كتابة هذا التاريخ على وثائق افريقيــــة وان يمتد الى فترة ما قبل الاستعمار الاوربي .

☼ صدرت عن دار الكشاف ببيروت الطبعـــة الثالثة لكتاب « شلال الاسود » لمحمد الصباغ ، وقـــد صدرت الطبعة الاولى منه بتطوان ، والثانية بتونس.

☼ سيعقد فى الجزائـــر مؤتمر اتحاد الاطبـــاء العرب بتاريخ 3 الى 7 ماي المقبـــل .

☼ صدرت فى الجزائر جريدة يومية اخبارية بعنوان « الجمهورية » .

☼ وافقت السلطات التونسية على تحويـــــل المنزل الذي ولد فيه ابن خلـــدون بحي نهج الباشـــي بتونس الى متحف وتحويل المدرسة التي تلقى فيهـــا علومه الاولية الى قاعة البحث .

☼ عقد فى فاتح ابريل بالعاصمه التونسيــــــة مؤتمرها تحت اشراف هيئة اليونسكو يضم ممثلـــين عن مختلف وكالات الانباء للقاره الافريقيه ، وتتلخص اعمال المؤتمر فى دراسة امكانيه انشاء جمعية لوكالات الانباء الافريقيـــه ، والنظر فى تنمية وتعزيـــز الوكالات الافريقيه من الناحية الفنية والادارية والمهنيه .

☼ سيعقد فى تونس تحت اشـــراف جامعـــــة الدول العربيه الدوره الرابعه لمؤتمر الآثار من الثامن عشر حتى الثاني والعشريـــن من شهـــر مايـــو القادم ويتناول هذه الدوره اطلاع الدول المشتركه علـــى الابحاث الاثرية التي قامت بها الدول العربيـــة ، كمـــا سيبحث القوانين والانظمه الاثريـــه المعمول بها فى مختلف الاقطار العربيـــه .

☼ « اعلام المغرب العربـــي » سلسلة ثقافيـــة يصدرها فى تونس ابو القاسم محمد كرو . اول كتـــاب ظهر فى السلسله عن شاعر الفاطميـــين « ابن هانيء » الذي لقبه النقـــاد بمتنبيء المغـــرب .

☼ بمناسبة الاحتفال بذكرى المؤرخ العربي ابن خلدون ينظم معهد ليبـــي الحربة بالاشـــراك مـــع مجلس الآداب بالقاهرة مسابقـــة لاختيـــار احســـن بحث عن حياة وآثار العلامة العربي المذكور .

☼ صدر فى القاهرة كتابان عن نجيب محفـــوظ الكتاب الاول من تاليف الدكتورة فاطمـــة موســـــى والكتاب الثاني من تاليف غالي شكري .

☼ « منهج الامام محمد عبده فى تفسير القرءان الكريـــم » كتاب صدر على نفقة المجلس الاعلى لرعاية الفنـــون والاداب ضمن مشروع طبع الرسائـــــــــل الجامعيـــة .

☼ انتهت الدكتورة نوال السعداوي من ترجمـــة روايـــة « شجرة تنمو فى بركلين » للكاتبه الامريكيـــة بيتـــي سميث .

☼ جلال العشرى اتم ترجمة كتاب « البير كامي وادب الثورة » للناقد الانجليزي المعاصر جـــــون كروكشانك والكتاب يعتبر من أهم الدراسات التـــي صدرت عن حياه كامي وادبه وموقفه الفلسفي .

☼ مبلغ عدد الكتب التي صدرت فى القاهـــرة عام 1962 : 1707 كتـــاب بيـــن مؤلف ومترجـــم بزيادة قدرها حوالي 500 كتاب عن العام الماضي .

☼ صدر فى القاهره السجل الثقافـــي لعام 1960

☼ صدر فى القاهرة المجلد الثانـــي من كتــــاب « فتوح مصر والمغرب » لابن عبـــد الحكيـــم حققـــه الاستاذ عبد المنعـــم عامـــر .

☼ أصدرت دار المعارف بالقاهرة كتاب « مشكلة الامنه » للدكتور محمود رشدي خاطر .

☼ سيترجم مجلس الفنون والآداب فى القاهـــرة الى الانجليزية كتاب « نزهه المشتاق فى ذكـــر الامصار والاقطار والبلدان والجزر والمدائـــن والآفاق « تاليف الادريسي و « مسالك الاقاليـــم » تاليف الاصطخـــري و « المسالك والممالك » تاليف البكـــرى ، وهده الكتب كلها فى الجغرافيـــة .

☼ الشاعرة ملك عبد العزيـــز أعـــدت للطبـــــع ديوانها الجديد « انشودة النجوم » .

☼ تعيد الدار القديمة للنشر بالقاهرة طبع قصة « قلوب خالية » لعبد الرحمن الشرقاوي .

أنباء ثقافية

* احتفل في مختلف المدن المغربية بالذكرى الاربعينية لوفاة بطل الريف الامير عبد الكريم الخطابي.

* صدر عن اتحاد كتاب المغرب العربي العدد الاول من مجلة « آفاق » سارك في تحريره نخبه ممتاره من رجال الفكر والادب بالمغرب .

* « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

تتوج هده الآية الكريمه اللوحة الفنيه الرائعه التي صنعتها ايادي مغربية وقدمها المغرب هدية للامم المتحدة . وقد نصبت هذه اللوحة في مركز هام في في قاعة الوفود . وقد دشنت رسميا عند زيارة جلالة الملك للامم المتحده .

* عقد مؤخرا الاستاذ محمد الفاسي عميد الجامعة المغربيه ندوة اعلن فيها عن ضرورة القيام بحملة في العالم العربي لتعريب لغة المحادثة وتحرير لغة تخاطبنا مما علق بها من الفاظ دخيلة . وقد اصدرت الشعبة الوطنية التابعة للمكتب الدائم للتعريب دفترا خاصا بالالفاظ التي يجب ان نجاريها في نطقنا في حملة التعريب في اطار العالم العربي .

* اصدرت وزارة الاوقاف المكلفة بالشؤون الاسلامية كتاب « اربعون حديثا في اصطناع المعروف » الذي جمعه ابو محمد عبد القوي المنذري وشرحه ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المتوفى سنه 875 هـ وقام بالتعليق عليه وتقديمه الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، ويقع الكتاب في حوالي 94 صفحة .

* احتفل في ورزازات بعيد الزهور الذي يحتفل به في كل سنة بهذه المدينة ، ومعلوم ان ناحية ورزازات توجد فيها اكبر مزارع للزهور بالمغرب .

* صرح نائب عميد جامعة اكرا الدكتور كرور كوندو ان ست جامعات وافقت على الاشتراك في برامج تبادل الطلبة بين الجامعات الافريقية ومن بينها المغرب .

* وضعت الحكومةالتشيكوسلوفاكيةرهن اشارة المغرب خمسة منح دراسية لمدة خمس سنوات اعتبارا من السنة الدراسية القادمة وذلك لدراسة طبيعة الذرة وتطبيقها وعلم الحياة والكيمياء النووية .

* « سلسلة آفاق » تصدر عنها قريبا مجموعة كتب منها : ديوان المرحوم عبد الكريم بن ثابت وديوان مصطفى المعداوي مع دراسة للاستاذين محمد احمد الحمل واحمد المجاطي وكتاب « ابن الخطيب » للاستاذ احمد مختار العبادي .

* سيصدر بتطوان للسيد احمد المكناسي كتابان الاول بعنوان « اهم مصادر التاريخ والترجمة في المغرب » . والثاني بعنوان « معجم الكلمات الاسبانية المقتبسة من العربية » مشتملا على دراسة علمية لغوية بالعربية والاسبانية والفرنسية كما يوجد للمؤلف تحت الطبع القسم الثاني من السلسلة الاولى « وثائق دراسة تاريخ المغرب الخاص بمراسلات وزراء مولاي الحسن » .

* اوصى المؤتمر الدولي للدراسات الافريقية الذي عقد اخيرا في أكرا باعادة كتابة التاريخ الافريقي من وجهة نظر الافريقيين بعد ان ظل يدرس حتى الآن من وجهة نظر اوروبا ، وتقضي هذه التوصية

* صودر في لبنان كتاب « روسيا وامبركا ، امكانيات وتحذير » تأليف هنري روبرنس وترجمة سكري علاوى .

* في ساحة الملوك كتاب بعده فؤاد افرام البستاني رئيس الجامعة اللبنانية ببيروت بتناول فيه بالنقد والتحليل لبعض الادباء والشعراء المعاصرين.

* مثل لبنان في المهرجان الذي اقيم بحلب تكريما لذكرى نسيب عريضة المفكر اللبناني ميخائيل نعيمة .

* صدر الجزء الاول من القاموس الوسيط الذي وضعه الشيخ عبد الله العلايلي ويقع في 1150 صفحة بدأ بحرف الالف وينتهي بالجيم ويضم 800 صورة ... ، والجزء الثاني سيصدر بعد شهر ويبدأ من الحاء وينتهي بالعين ، ويصدر الجزء الثالث بعد اربعة اشهر ويبدأ بالعين وينتهي بالياء .

* اعد للطبع الشيخ خليل تقي الدين قصة طويلة بعنوان « العنوان » .

* صدر في بيروت العدد الاول من مجلة « السياحة » في لبنان والعالم وهي مجلة اسبوعية تصدر مؤقتا كل شهر . صاحبها ورئيس تحريرها ... مروه . ومديرها احمد عويدات .

* تدرس جامعة آل رسادة موضوع نقل رفات مي زيادة من القاهرة الى لبنان . كما الفت لجنة من اختصاصها للنظر في مؤلفات مي واعادة طبعها باعا خلال ثلاث سنوات .

* قرر مجلس بلدية بيروت تزيين الساحات العامة بتماثيل المشاهير من رجال الادب والفكر اللبنانيين .

* وقع الاختيار على قطعة ارض بالقرب من مطار بيروت الدولي لتؤسس فيها المدينة الجامعية التي ستضم الجامعة اللبنانية بمختلف كلياتها وفروعها .

* صدرت في بيروت طبعة جديدةللكاتبة اللبنانية سلمى صائغ باسم « النسمات » وكان الكتاب قد جمعه وقدمه الفقيد جرجي نقولا باز .

* « التخلف المدرسي » كتاب جديد تقوم بترجمته من الفرنسية الى العربية يمن الاعسر الاستاذة في دار المعلمات بحلب بتكليف من منشورات عويدات .

* صدر عن دار عويدات ببيروت كتاب « الادب الفرنسي الجديد » تأليف غاتبان بيكون وترجمة بيية صقر والاب انطون الشمال .

* اصدر الدكتور باقر سماكة ديوانا بعنوان « اسرار » .

* صدرت في كربلاء مجله بعنوان « الاصيل » وهي ادبية ثقافية .

* صدر في سلسلة الثقافة الشعبية للاستاذ طه باقر مدير الآثار العام بالعراق « ملحمة كلكامش » .

* أعلن الاستاذ محمد علي مصطفى رئيس البعثة الاركيولوجية العراقية في الحضر ان البعثة تمكنت اخيرا من اكتشاف تمثالين احدهما يمثل هرقل والآخر يمثل اللات ، وقال ان البعثة استطاعت ايضا اكتشاف كتابات تشير الى نصوص دينية واسماء اشخاص في الحضر . وأعلن ان البعثة الاثرية الامريكية التي تقوم بالتحريات في مدينة نفر بالقرب من عفك قد اكتشفت عدة الواح سومرية ترجع الى الالف الثالث . ق . م .

* تطبع الآن في احدى مطابع بغداد كتاب جديد للعلامة الشيخ محمد الخال عضو المجمع العلمي العراقي وعنوان الكتاب « معروف النودهي » من علماء وادباء العراق في القرن الثامن عشر .

* تأسس في جامعة بغداد مركز للوثائق الرسمية مقره في المكتبة المركزية العائدة للجامعة .

* وافقت منظمة اليونسكو على اقامة مهرجان للموسيقى العربية في بغداد يستغرق ثلاثة شهور . ويهدف المهرجان الذي سيستدعي اليه اعلام الموسيقى العربية والشرقية للمساهمة فيه الى تسجيل تطور الموسيقى العربية من اقدم العصور حتى اليوم ، والتعرف الى العوامل التي اثرت فيها .

* صدر عن الدار القومية بالقاهرة « دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث » لمؤلفه الكاتب الجزائرى عبد الله الركيبي وتقديم صالح جودت .

* زار القاهره الموسيقي العالمي خاتشادوريان وقدم فى دار الاوبرا سيمفونيته الثالثه .

* انتهى الدكتور ابراهيم رفعت من ترجمة اوبرا عايدة ، وستقدم فى الموسم المقبل للمرة الاولى بالعربية فى القاهرة .

* « شموع فى الظلام » كتاب جديد صدر عن حسن حافظ وتقديم صالح جودت .

* « الطريق » اسم الرواية الجديدة التي يكتبها نجيب محفوظ .

* « العراق كما رايته » كتاب يعده للطبع الاستاذ احمد حسن الزيات .

* أصدر للقاص ثروت اباظه مجموعة قصصية بعنوان « ذكريات بعيدة » .

* صدرت فى القاهرة روايه جديده للدكتور رشاد رشدى عنوانها « رحله خارج السور » .

* اعد للطبع الشاعر احمد حمودي السامرائي كتاب « العقل واسماؤه عند العرب » كما أعد مجموعة شعرية عنوانها « نداء العودة » .

* مجلس جامعة اكسفورد يبحث عن اعادة كرسي اللغة العربية لتدريسها بالجامعة كان هذا النظام معمولا به منذ ثلاثين سنة ، وكان يتولى كرسي الاستاذية هناك المرحوم جاد المولى المفتش بالتربية والتعليم بالقاهرة .

* يواصل انور الجندي تقديم اجزاء موسوعته عن معالم الادب العربي المعاصر فقد صدر كتابه السادس « الشعر العربي المعاصر – تطوره واعلامه من 1850 الى 1940 » .

* صدر فى القاهرة ديوان « اسماعيل صبري » المعروف بأبي اميمة بتحقيق الدكتور معهد القصاص ، وعامر بحبري ، والدكتور احمد كمال زكي .

* صدرت فى القاهرة الطبعة الثانية لكتاب « قصة الادب فى مصر » من تأليف محمد عبد المنعم خفاجي فى جزئين كبيرين .

* قام الاستاذ حسن الصيرفي بتحقيق ديوان «البحتري» وصدر فى هذا الاسبوع فى القاهرة .

* تعيد مؤسسة التأليف والنشر بالقاهرة طبع كتاب « الاغاني » لابي الفرج الاصفهاني نقلا عن طبعه دار الكتب المصرية . وصدر الجزء الاول منه في مطلع هذا الشهر .

* اعد للطبع بالقاهرة الدكتور ابراهيم انيس كتابه الجديد « اصوات اللغة عند ابن سينا – دراسة وتحقيق » .

* فجعت المحافل الادبية العربية بوفاة احد رواد الفكر العربي الدكتور بشر فارس الذي يعد دعامة من دعامات الادب العربي المعاصر . ترك المرحوم وراءه مؤلفات عديدة في مختلف الوان المعرفة وبرز بنوع خاص في الشعر الرمزي

* ستقوم وزارة الثقافه بسوريا بطبع مخطوطة « تاريخ المعره » التى كتبها العقيد سليم الجندي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق .

* وصل المستشرق الامريكي جيمس افرارد الى حلب لانجاز كتابه « حلب خلال اربعين سنه قبل الفتح العثماني .

* محمد سعيد العامودي يعكف منذ ثلاث سنوات على تأليف موسوعة تاريخية تضم تراجم كبار الشخصيات المكية منذ فجر الاسلام حتى اليوم وسيكون هذا الكتاب الاول من نوعه وقد اوشك المؤلف أن ينتهي منه .

* صدر كتاب «نهاية السنة» لابن تيمية بتحقيق د. رشاد سالم .

* يصدر قريبا عن دار منشورات عويدات ببيروت كتاب « دعوة الى السفر » للدكتور عبد السلام العجيلي .

* صدرت مؤخرا فى لندن المجموعة الكاملة لمسرحيات اليوت فى كتاب ، وهذه هي المرة الاولى التي تصدر فيها مسرحيات اليوت كلها فى كتاب واحد مع دراسة عنها ، وتعتبر المرجع فى كل ما كتبه للمسرح وعن المسرح .

* انجز الاستاذ المحامي عباس العزاوي ترجمة كتاب « الفيلسوف العربي الكندي » لمؤلفه التركي اسماعيل حقي الارميري أستاذ الفلسفة والالهيات بجامعة استانبول .

* صدر كتاب اسمه «فينوس الهائمة» الكاتب العالمي لورانس دارل .

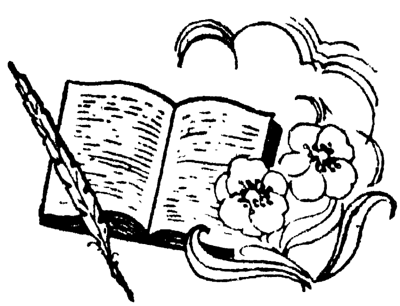
* أحرز الشاعر الامريكي روبرت فروست على جائزة بولنجن للشعر التي تمنحها جامعة يال والتي تمنح لاحسن شاعر فى العالم .

* تضمنت الموسوعة العالمية للفنون الجميلة التي تنشر الآن باللغة الايطالية فى روما بحثا عن علم الجمال فى الثقافة العربية ، تناول هذا البحث آراء الغزالي وابي حيان التوحيدي وابي بكر الرازي ، واما بالنسبة للعصر الحديث استعرض البحث آراء الدكتور بشر فارس فى كتابه « سر الزخرفة العربية » .

* اسفرت الحفائر التي اجريت بالقرب من مدينة كاستيللو فى شمال ايطاليا على العثور على بقايا فيل صغير يرجع الى عصر ما قبل التاريخ ، ويعرف هذا الفيل علميا باسم « ابليفياس مبرديونايس » وهو يشبه عنات عثر عليها وتنتمي الى العصر الجليدي.

* احتفلت ايطاليا بالذكرى المائوية لميلاد الشاعر الايطالي كابرييل دانونزيو تحت اشراف رئيس الجمهورية الايطالية .

* البرلمان الايطالي قرر اقامة نصب تذكاري تكريما للشاعر الايطالي الكبير دانونزيو بمناسبة الاحتفال بالذكرى المائوية لميلاد الشاعر الايطالي ، وسيقام النصب فى مدينة بيكارا مسقط رأسه .



* تقوم في هذه الايام السيدة خيرية محمد محفوظ الموجودة حاليا في سويسرا بتحقيق ديوان الشاعر المشهور « كشاجم » ويتولى الاشراف على عملها المستشرق الفرنسي بلاشير .

* صدر في بغداد كتاب « لمحات عن الانسان العربي عبر التاريخ ورواية « ولادة الشاعره وابن زيدون » وهما من تاليف السيد حسين الكافلي .

* قام الدكتور اكرم فاضل بترجمة كتاب « اللهجة البغدادية » للمستشرق الفرنسي ماسينيون الى اللغة العربية .

* صدر في الموصل كتاب « تاريخ علماء الموصل » وهو من تاليف احمد محمد مختار .

* سيقدم للطبع الاستاذ رشيد الصفار كتاب « نسخة السحر في ذكر من تشيع وشعر » للشريف يوسف بن يحيى اليماني الذي توفي في سنه 1121 هجرية .

* صرح حسين عرب وزير الحج والاوقاف في السعودية بان الوزاره تسعى الآن للبحث عن شخصيات اسلامية على مستوى عال من الثقافه لبعثهم الى الاقطار الاسلامية لارشاد المسلمين ووعظهم ، وسيراعي هذا التعيين موضوع اللغة الاجنبيه وضرورة توفرها لدى المرشحين بالنسبه لكل بلد .

* سيقام في سنغافورة مهرجان للفنون في اول يوليو القادم ستشترك في هذا المهرجان الدول المتحررة حديثا ودول عدم الانحياز .

* صدر كتاب جديد عن الاسلام في موسكو طبعت الترجمة الصينية لديوانه « اباريق مهشمه » في بكين وقد اشرف على ترجمته محمد مكين استاذ العربيه في جامعه بيكين ، وهو من كبار المستعربين في الصين الشعبية وخريج الازهر ودار المعلمين بالقاهرة .

* صدر كتاب جديد عن الاسلام في موسكو طبعت منه اكاديمية العلوم السوفييتية 20 000 نسخه، ومؤلف الكتاب هو البروفسور . ل.ى. كليموفيتش من كبار الخبراء السوفييت في الاسلام .

* مختارات من بحوث المستعرب الروسي كراتشكوفيسكي في الادب العربي ترجمها الى العربية لفيف من المستشرقين الروس ، ويقوم بطبعها معهد الشعوب الاسيوية في روسيا .

* اصدر معهد الشعوب الاسلامية في ليننغراد كتاب « عمر الخيام » وهي رسائل باللغة العربيه والفارسية قام بترجمته والتعليق عليه المستشرق الروسي بوريس روزنفيلد وطبع في موسكو .

* تنظم الجمعية الدولية للاعلام في ستوكهولم في 27 و 29 ماي المقبل مؤتمرا عالميا يشترك فيه 1500 مندوب من مختلف انحاء العالم ، ويعتبر هذا المؤتمر اول مؤتمر من نوعه يعقد في اوروبا .

* سيقام في قرطبة مهرجان أدبي كبير بمناسبه الذكرى الالفية لانشاء قرطبة عاصمة الخلافة الاسلاميه في الاندلس وكذلك الاحتفال بالذكرى الالفية لابن حزم الاندلسي .

* سيقام مهرجان « كان » السينمائي العالمي من يوم 10 الى 23 ماي المقبل .

* توفي في باريس في حادثه اصطدام الكاتب الفرنسي جان بريس .

* كتاب جديد ظهر في لندن عن ألفريد نوبل مخترع الديناميت وصاحب جائزة نوبل الشهيره من تاليف اريك بيرجنجرن . وهذا الكتاب يكشف عن حقائق جديده في حياه نوبل التي اختلطت فيها الحقائق بالاساطير لكثره الذين كتبوا وتحدثوا عنه .

* « لمحات من تاريخ العالم » للكاتب والرئيس جواهر لال نهرو صدر في طبعة جديده في الف صفحه في لندن مع مجموعة من الرسوم للفنان هوارين .

* توفي في لندن العالم الانجليزي تشارلس داروين عن 76 سنة ، وهو حفيد العالم الطبيعي داروين مؤلف كتاب « اصل الانسان » الذي يضم نظريته في النشوء والارتقاء .

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

ها وزارة عموم الأوقاف
باط المغرب الأقصى



العدد السابع السنة السادسة
ذو القعدة 1382 - ابريل 1963
ثمن العدد : 1,50 درهم

فهرس العدد السادس — السنة السادسة

دور الشعارات
في تزييف حقائق الإسلام .

للأستاذ محمد سعيد رمضان البوطي

ليس خافيا ان اسلام المسلمين هو اسد ما يغري المستعمرين بحربهم والائتمار بهم ، ولم يعد خافيا ايضا ان هؤلاء المستعمرين قد انهوا منذ عصر بعيد حرب الحديد والنار ، وبدأوا حرب الفكر والعقيدة والخلق .

ولقد كانت عبر الحروب الصليبية وءانارها اول منبه لهم الى ضرورة تبديل السلاح ، وتغيير الطريق .. ولقد بدا اول مظهر السلاح والطريق الجديدين حينما ظهر اول مستشرق ومبشر . يدلف بخطى ملتحسه الى العالم الاسلامي ، وهو (ريمون لوك)

اجل .. ان هذا ليس بخاف على اي مثقف ناله قسط من الوعي .

ولكن الامر الذي لا يزال خافيا — ويا للاسف — عن فكر كثير من المسلمين ، هو الكشف عن احابيل الغزو الفكري الخطير ، وتعرية المكائد التي يبعث بها ليسعى حول اذهان المسلمين وقد ارتدت رداء العلم والفكر والبحث ..

ولقد كان من نتيجة خفاء هذا على كثير من المسلمين ان تسلل هذا الغزو الى افكارهم ، ثم ولد الشكوك والوساوس في عقولهم ، ثم طبعهم بطابع التبعيه الفكرية لاولئك الغزاة المجرمين .

وانني لن اتحدث هنا عن تفصيل هذه الاحابيل الفكرية ، وكيفية دفعها الى اذهان الغافلين لتبيض فيها وتفرخ ، فلذلك حديث طويل ، ولكني أستطيع ان اتناول منها نموذجا صغيرا يكشف للقاريء عن حقيقة الصور والنماذج الاخرى ، ويزيح اللثام عن جملة الحرب الفكرية الخطيرة التي تقودها ضد الاسلام مجموع دول الاستعمار على اختلافها في العقيدة والسياسة والرأي .

ولنسم هذا النموذج ب (دس الشعارات) .

اي اختلاق شعار ما ، لم يعرفه الاسلام ولا شيئا من مصادره ، ثم الصقه خفية بجملة من حقائق الدين ، ثم تناوله بالتكرار والترداد في المقالات والبحوث ومختلف المناسبات ، حتى اذا صقلته الاذان وغدا وكأنه شعار صادق لبعض حقائق الاسلام جاء به القرءان او نادى به الرسول (تبناه اجماع المسلمين — كر هؤلاء الذين صنعوا هذا الشعار وانطلقوا يحاربون الاسلام من منفذه ، ويتخذون منه دليلا على تهافته او ضعفه او خطئه ، وكأنهم ليسوا هم الذين اقبلوا فشوهوا به وجه الاسلام ليمكنهم ان يقولوا في حقه ما شاؤون ..

وليس ثمة اكثر من الامثلة على هذا النوع من التسميات والشعارات . ولكن فلنتناول منها نموذجا واحدا ايضا : من هذه التسميات والشعارات اطلاق كلمة (التقاليد الاسلامية) على معظم الاحكام الاجتماعية للاسلام ، فلقد سرت هذه التسمية في بحوثنا سريانا شاملا حتى اصبحت تستعمل من قبل كثير من دعاة الاسلام انفسهم ، دون ان يتهيأ لها من يستوقفها في اول الطريق عن التسلل والتوغل حتى يكشف عن هويتها ويستطلع ما وراءها ويعلم القوة الدافعة لها ..

ولكن لا بأس .. فلنحاول ان نكشف عن هويتها وحقيقتها بعد فوات الاوان ، فربما كان في ذلك عبرة

العدد السابع
السنة السادسة
ذو القعدة 1382
أبريل 1963
ثمن العدد : 50 ر د

دعوة الحق

مجلة تصدرها
وزارة
عموم الأوقاف

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف . الرباط - المغرب

صورة الغلاف



منظر عام لمدينة فاس – المغرب

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة « دعوة الحق » – قسم التحرير – وزارة عموم الاوقاف – الرباط – المغرب . الهاتف 10 – 308

الاشتراك العادي عن سنة 15 درهما ، والشرفي 30 درهما فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
مجلة « دعوة الحق » رقم الحساب البريدي 55 – 485 – الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث راسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة « دعوة الحق » – قسم التوزيع – وزارة عموم الاوقاف – الرباط – المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :
« دعوة الحق » – قسم التوزيع – وزارة عموم الاوقاف – الرباط
تليفون 308.10 – 327.03 – الرباط

فى الوقت ذاته الدعوة الى التقاليد ، ولا ليخط صراطه على ركام من الطقوس والعادات التقليدية البائدة .

وليس اسهل على اي مسلم عاقل من أن يدرك الفرق العظيم بين تقاليد الناس فى افراحهم واحزانهم ومبادئهم الفكرية فى قضايا خلقهم ومعاملاتهم ، كل انسان يعلم ان الاولى ان هي الا نسيج من التوارث والاحتكاك التلقائي ، وان الثانية احكام يطلقها العقل والفكر فى جو مشبع بوسائل الدرس والبحث ولا بنفس شيئا من قيمة التعقل والتدبر فيها انها جاءت عن طريق الدين وبأمره فما عرف الاسلام فى احكامه ومبادئه بميزة اعظم ولا ابين من ميزة الاهتداء بنور المنطق والارتباط بميزان العقل السليم .

ان الدين الذي جاء بشريعة الصيانة والستر للمراة لم يأمر بذلك انسياقا وراء اي عادة او تعارف ..ولكنه امر فصل على قالب معين من الهيأة والشكل يأتي مكانه فى بناء الهيكل الاجتماعي للمدنية الاسلامية منسجما كل الانسجام مع مجموعة البناء من جهة ، ومع فطرة البشرية ومقومات السعادة الانسانية من جهة اخرى .

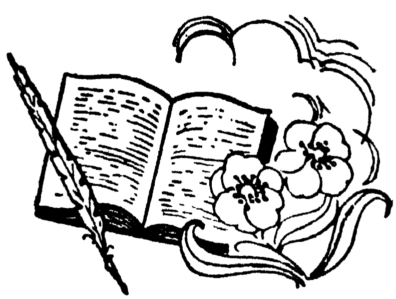
ان السعادة الانسانية – مثلا – تقتضي تنظيم المسؤولية ، وهذا يستوجب تنظيما لعلاقة الرجل بالمرأة ، وتنظيم هذه العلاقة يستلزم أن تكون المرأة من حياتها الاجتماعية فى علو شامخ تظل مطلوبة من قبل الرجل لا طالبة ، وضمان بقائها كذلك يستوجب مزيدا من العفة والصيانة لدى المرأة حتى يغلق امام الرجل كل باب للاستمتاع بها الا باب الزواج ، وتحقيق المزيد من عفتها وصيانتها يقتضي تحديد لباسها والاصرار على ضرورة احتشامها .

فاين مكان هذه الحلقات المترابطة فى انتظام فكري وتناسق منطقي من دعوى (التقاليد) أو العادات او الطقوس ؟ .

*

ان دول الاستعمار فى هذا العصر تسعى الى المكر بالاسلام والمسلمين من مئات السبل والابواب ، وما امر (دس الشعارات) الا سبيلا واحدة من هذه فما الذي يصنعه المسلمون وحكوماتهم يا ترى فى سبيل الكشف عن هذا المكر واغلاق السبل دون ذلك؟؟

دمشق – محمد سعيد رمضان البوطي



لنا وعظة ، وايقاظا لمن يريد ان يتصانع الغطيط في النوم .

ان كلمة (التقاليد) انما تعني في وضع اللغة العربية وما تواضع عليه عرف علماء الاجتماع مجموعة العادات التي يرثها الابناء عن الاباء والاجداد او تسري — بعامل الاحتكاك — في اهل حي من الاحياء او بلدة من البلدان ، بشرط ان يكون دافع التقليد المجرد هو التعصب الرئيسي الذي يمد في تلك العادات من اجل الحياة والبقاء .

فجميع ما اعتاد الناس عليه من انماط الحياة في مجتمعاتهم ، ومن مظاهر اللهو في افراحهم واعراسهم، ومن أشكال الحداد في مآسيهم واحزانهم ، مما حاكته عوامل التوارث القديم او الاقتباس التلقائي عن طريق التأثر والاحتكاك — جميع ذلك يسمى في عرف اللغة والاجتماع : (تقاليد) .

ولا ريب ان امة ما ، كلما كان ارتباطها بعيون هذه التقاليد احكم واوثق ، كانت قدرتها على التحرر والابداع اقل واضعف ، ذلك ان كلا من عاملي التأثر والتأثير متقابلان متعارضان ، فلابد ان تكون قوة احدهما مظهرا للضعف في الثاني ، واذا علمنا ان معظم شعارات العصر الحديث من تحرر ، وتقدمية ، وانطلاق ، انما تعني اول ما تعني الانعتاق عن قيود هذه التقاليد — ادركنا مدى ما تنقذف الى هذه الكلمة من السهام والحراب .

غير ان كل هذه السهام والحراب نضيع في غير جدوى — في حساب اولئك الذين وقفوا عمرهم وافكارهم لحرب الاسلام — ان لم تكن تصيب كبد الاسلام ومبادئه .

ولكن كيف السبيل ؟

السبيل هو ان يؤتى بمعظم مبادىء الاسلام واحكامه ، وتقام من خلف ستار (التقاليد) التي تنفذ في نحوها سهام المدنية الجديدة ، اذ لا شك ان السهام ستخترق الستار لتستقر في كبد ما وراءها ..

*

وهكذا يستفيق المسلمون ليجدوا معظم مبادىء الاسلام واحكامه : كشؤون الزواج والطلاق ، وحجاب المراة وصيانتها ، وعامة قضايا السلوك والاخلاق — قد أسبل من فوقها رداء (التقاليد) واصبح العنوان الدال عليها على صفحات الكتب والجرائد والمجلات وفي ندوات الباحثين والمثقفين ، وفي رأي الكتاب والمفكرين هو : (التقاليد الاسلامية) ..

وربما دخل في غمار هؤلاء كثير ممن لا يريدون بالاسلام سوءا ولا يضمرون له كيدا ، ولكنهم وجدوا تسمية راجت على السنة بعض الباحثين ، ولمعت في صدر بعض الصحف والمجلات ، فانساقوا الى تأييدها ومشايعتها بدافع (التقليد) الحقيقي ، ودون ان يكلفوا انفسهم لذلك اي تفكير او بحث .

غير ان هذا ايضا ليس هو محل الشاهد. فما الذي حدث بعد ذلك ؟

حدث ان اخذ هذا الدس الخطير يثمر حناظله السامة في ميدان التربية والتوجيه الاسلامي ، لقد اصبح الشاب الذي ينشأ في اسرة محافظة او يعهد به الى مربين ومرشدين ، لا يتلقى المبادىء والاخلاق الاسلامية الا على انها قيود مؤسفة ، فهو لا ينفذها الا كما ينفذ المسجون اعماله منتظرا اول فرصة للانفلات والخلاص ، اذ ان كلمة (تقاليد) توحي اليه ان قيمة السلوك والخلق الاسلامي ليست بسبب انه مبدأ الهي يكمن فيه سر سعادة البشر ، وانما بسبب ان كلا من السلوك والخلق الاسلامي ليس الا عادات قديمة موروثة من الاباء والاجداد .. ولا ريب في أن النتيجة القطعية لهذا الايحاء والفهم الخاطئين هي أن يضيق هذا الشاب وامثاله ذرعا بهذا الميراث القديم الذي فرض نفسه على المجتمع في عصر كل ما فيه متطور ومتقدم وجديد .

*

لقد اخذت هذه الكارثة التربوية في صفوف جيل المسلم نعظم وتستفحل منذ ان سمح لمثل هذا الشعار الزائف المدسوس ان يتسلل الى البحوث والاصطلاحات الاسلامية ، دون تعرف على هويته ودون تأمل فيما قد يثمره من مثل هذا الزيف والتضليل .

ومع هذا فليس اسهل على اي مسلم من ان يدرك ان الاسلام الذي جاء يهدم التقاليد ويقضي على كل امتيازاتها من مظاهر القداسة الموهومة لم يكن ليتبنى

قال استاذي العالم الورع عبد الرحمن بن عبد الرحيم المبارك بوري الهندي في كتابه تحفة الاحوذي في شرح الترمذي تحت حديث (لاعدوى ولا طيرة) ج 2/ ص 40 / . قوله ، لاعدوى ، بفتح فسكون ففتح . هي جاوزة العلة من صاحبها الى غيره ، ويقال ، أعدى فلان فلانا . وذلك على ما يذهب اليه المتطببة في علل سبع ، الجذام ، والجرب ، والجدري ، والحصبة ، والبخر ، والرمد ، والامراض الوبائية . وقد اختلف العلماء في التأويل ، فمنهم من يقول ، المراد منه نفي ذلك وابطاله على ما يدل عليه ظاهر الحديث والقرائن المسوقة على العدوى ، وهم الاكثرون . ومنهم من يرى انه لم يرد ابطالها فقد قال صلى الله عليه وسلم ، (فر من المجذوم فرارك من الاسد) وقال ، (لا يوردن ذو عاهة على مصح) وانما اراد بذلك نفي ما كان يعتقده اصحاب الطبيعة ، فانهم كانوا يرون العلل المعدية مؤثرة لا محالة ، فاعلمهم بقوله هذا ، ان ليس الامر على ما يتوهمون ، بل هو متعلق بالمشيئة ، ان شاء كان ، وان لم يشأ لم يكن . ويشير الى هذا المعنى قوله ، فمن اعدى الاول . اى ان كنتم ترون ان السبب في ذلك العدوى لا غير . فمن اعدى الاول . وبين بقوله (فر من المجذوم ، وبقوله (لايوردن ذو عاهة على مصح) ان مداناة ذلك لسبب العلة ، فليتقه اتقاء الجدار المائل والسفينة المعيوبة . ثم قال قال التوربشتي : وارى القول الثاني أولى التأويلين لما فيه من التوفيق بين الاحاديث الواردة فيه . ثم لان القول الاول يفضي الى تعطيل الاصول الطبية ، ولم يرد الشرع تعطيلها ، بل ورد باثباتها والعبرة بها على الوجه الذي ذكرناه . واما استدلالهم بالقرائن المسوقة عليها فانا قد وجدنا الشارع يجمع في النهي بين ما هو حرام وبين ما هو مكروه ، وبين ما ينهى عنه لمعنى ، وبين ما ينهى عنه لمعان كثيرة . ويدل على صحة ما ذكرنا قوله صلى الله عليه وسلم للمجذوم المبايع قد بايعناك فارجع في حديث الشريد بن سويد الثقفي . وقوله صلى الله عليه وسلم للمجذوم الذي اخذ بيده فوضعها معه في القصعة ، كل ثقة بالله وتوكلا عليه . ولا سبيل الى التوفيق بين هذين الحديثين الا من هذا الوجه . بين بالاول التوقي من اسباب التلف ، وبالثاني التوكل على الله جل جلاله ولا اله غيره في متاركة الاسباب . انتهى . قال القاري وهو جمع حسن في غاية التحقيق . انتهى .

قال تقي الدين ، ويرد على من قال بنفي العدوى وتاول قول النبي (ص) (فر من المجذوم فرارك من الاسد) وقوله (لا يورد ذو ابل مريضة ابله على ذي ابل صحيحة ، متأولا ان النهي في الحديثين انما جاء لئلا يصاب من يخالط المجذوم بالجذام ومن اختلطت ابله الصحيحة بابل جرب باصابة ابله بالجرب فيعتقد أن الجذام قد انتقل اليه من المجذوم ، او ان الجرب قد انتقل الى ابله الصحيحة من الابل الجرب ، يرد عليه امتناع النبي (ص) من مبايعة المجذوم وقوله له ارجع فقد بايعناك ولم يصافحه ، بل اكتفى في مبايعته بالكلام ، كما فعل مع النساء تجنبا لملامسة ايديهن ، لانه يسن لغيره ممن يأتي بعده من الخلفاء . ولا يتصور ان يخاف النبي على نفسه من اعتقاد العدوى ، فبطل ذلك التأويل وثبت وقوع العدوى باذن الله .

قال البخاري في كتاب الطب من صحيحه بشرح القسطلاني ، ج 8 / ص 443 ، باب الجذام ، وروى بسنده الى ابي هريرة قال ، سمعت رسول الله (ص) يقول : (لاعدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم كما تفر من الاسد) وقال القسطلاني ، لاعدوى، بالعين المهملة والواو المفتوحتين بينهما دال مهملة ساكنة ، أي لاسراية للمرض عن صاحبه الى غيره نفيا لما كانت الجاهلية تعتقده في بعض الادواء انها تعدي بطبعها ، وهو خبر اريد به النهي (ولا طيرة) بكسر الطاء المهملة وفتح التحتية من التطير ، وهو التشاؤم ، كانوا يتشاءمون بالسوانح والبوارح ، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم ، فنفاه وابطله ونهى عنه واخبر انه ليس له تاثير في جلب نفع او دفع ضر (ولا هامة) بتخفيف الميم على الصحيح ، وحكى ابو زيد تشديدها . كانوا يعتقدون ان عظام الميت تنقلب هامة تطير . وقيل هي البومة كانت اذا سقطت على دار احدهم يرى انها ناعية له نفسه او بعض اهله . وقيل ، ان روح القتيل الذي لايؤخذ بثاره تصير هامة ، فتزقو وتقول ، اسقوني اسقوني ، فاذا ادرك بثأره طار . (ولا صفر) هو تأخير المحرم الى صفر وهو النسيء . وفي سنن ابي داود عن محمد بن راشد ، انهم كانوا يتشاءمون بدخول صفر ، اي لما يتوهمون ان فيه تكثر الدواهي والفتن . وقيل ان في البطن حية تهيج عند الجوع ، وربما قتلت صاحبها ، وكانت العرب تراها أعدى من الجرب فنفى صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله ، ولا صفر . وزاد مسلم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن ابيه عن ابي هريرة (ولا تولة) . وزاد النسائي وابن حبان من

رأي في تحديد النسل والعدوى

للدكتور: تقي الدين الهلالي

- 2 -

قول ابن الخطيب ، كقوله ، لا يورد ممرض على مصح . قال الامام المنذري في اختصاره لسنن ابي داوود ج 5 / ص 376 / عن ابي هريرة ، انه سمع رسول الله (ص) يقول : (لا يوردن ممرض على مصح) . ثم قال المنذري ، قيل لا يورد ممرض على مصح ، منسوخ بقوله صلى الله عليه وسلم ، لا عدوى ، وقيل ليس بينهما تناف ، ولكن نفي العدوى ، وهي اعتقاد كون بعض الامراض يفعل في غيرها (كذا) بطبيعتها . واما ان يكون سببا يخلق الباري سبحانه وتعالى عندها مرض من وردت عليه ، فلم ينفه . ونهى أن يورد الممرض على المصح ، لئلا تمرض الصحاح من قبل الله جلت قدرته عند ورود الممرض ، فيكون المرض لا لسبب فيهـا .

وقيل المراد بهذا ، الاحتياط على اعتقاد الناس لئلا يتشاءموا بالمريضة ، ويعتقدوا انها امرضت ابلهم ، فيأثموا في هذا الاعتقاد .

وقال ابن القيم في تعليقه على مختصر السنن ، ذهب بعضهم الى ان قوله (لا يورد ممرض على مصح ، منسوخ بقوله (لا عدوى)

وهذا غير صحيح ، وهو مما تقدم آنفا ، ان المنهي عنه نوع غير المأذون فيه . فان الذي نفاه النبي (ص) في قوله (لا عدوى ولا صفر) هو ما كان عليه أهل الاشراك من اعتقادهم ثبوت ذلك على قياس شركهم ، وقاعدة كفرهم .

والذي نهى عنه النبي (صلى) فيه تأويلان — من ايراد المرض على المصح — فيه تأويلان .

احدهما ، خشية توريط النفوس في نسبة ما عسى ان يقدره الله تعالى من ذلك الى العدوى ، وفيه التشويش على من يورد عليه ، وتعريضه لاعتقاد العدوى ، فلا تنافي بينها بحال .

والتأويل الثاني ، ان هذا انما يدل على ان ايراد المرض على المصح ، قد يكون سببا يخلق الله تعالى به فيه المرض ، فيكون ايراده سببا ، وقد يصرف الله سبحانه تاثيره باسباب تضاده ، او تمنعه قوة السببية ، وهذا محض التوحيد ، بخلاف ما كان عليه اهل الشرك .

وهذا نظير نفيه سبحانه الشفاعة في يوم القيامة بقوله (2 : 254 ، لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) فانه لاتضاد الاحاديث المتواترة المصرحة باثباتها ، فانه سبحانه انما نفى الشفاعة التي كان اهل الشرك يثبتونها ، وهي شفاعة يتقدم فيها الشافع بين يدي المشفوع عنده ، وان لم ياذن له ، واما التي اثبتها الله ورسوله ، فهي الشفاعة التي تكون من بعد اذنه ، كقوله (2 ، 255 ، من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) وقوله (21 ، 28 ، ولا يشفعون الا لمن ارتضى) وقوله (34 ، 22 ، ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له) انتهى كلام ابن القيم . وهذا الحديث رواه البخاري ومسلم وابو داود

قوله ، وقول الصاحب الخ . روى البخاري في كتاب الطب من صحيحه بسنده الى عبد الله بن عباس، ان عمر بن الخطاب خرج الى الشام حتى اذا كان بسرغ، لقيه امراء الاجناد ، ابو عبيدة بن الجراح واصحابه ، فأخبروه ان الوباء قد وقع بأرض الشام ، قال ابن عباس ، قال عمر . ادع لي المهاجرين الاولين فدعاهم فاستشارهم واخبرهم ان الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ، فقال بعضهم ، قد خرجنا لامر ولا نرى ان نرجع عنه . وقال بعضهم ، معك بقية الناس واصحاب رسول الله (ص) ولا نرى ان تقدمهم على الوباء . فقال ارتفعوا عني ، ثم قال ادع لي الانصار ، فدعوتهم واستشارهم ، فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم . فقال ، ارتفعوا عني . ثم قال ، ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان ، فقالوا نرى ان ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء . فنادى عمر في الناس اني مصبح على ظهر فاصبحوا عليه . قال ابو عبيدة بن الجراح : افرارا من قدر الله . ؟ فقال عمر ، لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله الى قدر الله . ارأيت لو كان لك ابل هبطت واديا له عدوتان ، احداهما خصبة والاخرى جدبة ، اليس ان رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وان رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ . قال ، فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيبا في بعض حاجته ، فقال ان عندي في هذا علما : سمعت رسول الله (ص) يقول : اذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه . قال ، فحمد الله عمر ، ثم انصرف

نستفيد من هذا الحديث فوائد مختلفة ، منها ، ان عمر ، وهو اعظم الخلفاء الراشدين دولة واعزهم سلطانا واكثرهم فتوحا وانتصارات ، لم يكن يستبد برايه في امر من الامور ، بل كان يشاور جميع طبقات اهل الراي من رعيته ، ويأخذ باحسن آرائهم ، اذا لم يجد عند احد منهم خبرا عن النبي (ص) . ومنها ، انه كان اذا وجد حديثا عن النبي (ص) يفرح به ويترك رايه وراي غيره ويتبع الحديث . وفي ذلك رد على المقلدين واصحاب الطرائق الذين يقلدون الفقهاء والاشياخ ، وينشد قائلهم :

وكن عنده كالميت عند مغسل
يقلبه ما شاء وهو مطاوع

ومنها ، ان اهل الشورى كانوا يجادلونه ويردون عليه بغاية الحرية ، التي تسمى في هذا الزمان (ديمقراطية) ونحن نسميها عمرية محمدية . ومنها ، المعجزة العظيمة في سبق النبي (ص) الى نظام الحجر الصحي عند اشتعال نار الوباء بمنع الخارج من الارض الموبوءة حتى لا ينقل الوباء الى ارض اخرى ، بل يبقى محصورا في البقعة التي نشأ فيها ، ومنع الداخل اليها من ارض سالمة منه حتى لا يصاب به . وهذا ما اتفقت عليه اليوم جميع دول العالم بعد مضي زهاء اربعة عشر قرنا . ومن لم ير هذه معجزة فقد اعمى التعصب عين بصيرته . ومنها ، ان التوقي والاخذ بالحزم لا ينافي التوكل على الله ، ولا يسمى فرارا من قدر الله ، لان الفرار من قدر الله غير ممكن .

قوله زعارة وتصاقر على الله . قال في القاموس. الزعارة (يعني بتشديد الراء) وتخفف ، الشراسة . ولم اجد في القاموس تصاقر . واظنه فعلا مأخوذا من لفظ الصقر ، اي تظاهر بالقوة وعدم التأثر والخوف كالصقر الذي تخافه الطير الضعاف ، وهو لا يخاف منها احدا . وليس عندي كتب مطولة فأراجعها . اقول وكذلك من قال بكراهة التداوي فقد تصاقر على الله وخالف امر رسول الله ، بل كذب على شريعته ان زعم انه فهم ذلك منها ، وان أصر على تقليد من قال بذلك من الحنابلة مع وقوفه على الاحاديث فقد خاب وخسر. وقد رأيت رجلا من الحنابلة فيما يدعيه كان يقول بكراهة التداوي ولا يتداوى ابدا ، وكلما اصابه مرض الح عليه اهل بلده أن يأتوه بالطبيب فيأبى . وكان أهل بلده يعظمونه جدا ، لانه كان يتعفف عن أموالهم بعض التعفف بخلاف اكثر الفقهاء . فأصابه مرة مرض شديد فجاءه اعيان البلد واجتهدوا معه أن يقبل الاتيان بالطبيب والتداوي فأبى ومات من ذلك المرض . ونحن لا نعتقد ان الدواء يزيد في العمر . ولكننا نعتقد ان من يتداوى قد اكرمه الله بالعقل وعرفه سننه في خلقه ووفقه لاتباع النبي صلى الله عليه وسلم . روى البخاري والنسائي وابن ماجة بأسانيدهم الى ابي هريرة عن النبي (ص) انه قال : (ماأنزل الله داء الا أنزل له شفاء) قال القسطلاني في شرحه ، قال في الكواكب ، ما اصاب الله احدا بداء الا قدر له دواء . وروى احمد والبخاري في الادب المفرد وصححه الترمذي وابن خزيمة والحاكم من حديث اسامة بن شريك (تداووا ياعباد الله فان الله لم يضع داء الا وضع له شفاء ، الا داء واحدا ،الهرم وفي لفظ الا السام ، يعني الموت . وزاد النسائي من حديث ابن مسعود (فتداووا) ولمسلم من حديث

حديث جابر (ولا غول) فالحاصل ستة . وقد كانت العرب تزعم ان الفيلان فى الفلوات ، وهي جنس من الشياطين تتراءى للناس وتتفول لهم تفولا ، اي تتلون تلونا فتضلهم عن الطريق فتهلكهم ، فنفى النبي (ص) استطاعة الفول أن تضل احدا .

قال تقي الدين ، ونحن نبحث فى كل واحد من هذه الستة على حدة . فأما العدوى ، فقد تقدم الكلام عليها ، وازيد هنا اني لما كنت فى بني عوف من قبيلة حرب فى ناحية الحناكية ، وهي قرية بين المدينة والقصيم ، رايت الاخوان هناك ينكرون على بعض الاعراب الذين لم يتدينوا بعد ، اي لم يتبعوا دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الى توحيد الله وترك امور الجاهلية ، ينكرون عليهم انهم يحبسون الغنم المصاب بمرض فى حظيرة ويدخنون عليها ولا يتركون احدا يدنو منها لا انسانا ولا حيوانا ، فكأنهم يعتقدون ان مرضها من الجن ، وان من دنا منها يصيبه شر ، وكانوا يحبسونها الليل كله حتى الصباح ، لا أدري ليلة واحدة او اكثر . وهذا يفسر لنا ما نهى عنه النبي (ص) . والفالب انهم ورثوا ذلك من اهل الجاهلية فان لم يكونوا قد ورثوه منهم فما جرى على المثل يجري على مماثله . والمنهي عنه هو اعتقاد ان هناك قوة مستقلة تضر بدون مشيئة الله ولا تخضع لارادته. واما الطيرة ، فهي التشاءم بالطير اذا طارت عن اليمين، وهي السوانح او عن اليسار ، وهي البوارح ، او بفيرها من الحيوان ، كالفراب والبومة ، او بانسان يعتقد انه مشؤوم رؤيته تجلب شرا ، او بالايام والشهور ، او بالطوالع من الكواكب ، يعتقد ان بعضها طالع نحس وبعضها طالع ميمون ، كل ذلك شرك ، لا يرضى به المؤمن ولا يخافه ، فاذا وجد فى نفسه شيئا من ذلك فليقل : اللهم لا خير الا خيرك ، ولا طير الا طيرك ، ولا اله غيرك ، ويمضي لحاجته ولا يبالي بذلك . واما الصفر ، فعلى القول انه شهر صفر ، فهو داخل في التشاؤم بالشهور ، والجهال من اهل تطوان يتشاءمون به ، فلا يدخلون بيوتهم مكنسة لئلا تكنس بيتهم بموت أهل البيت وذهاب مالهم . وكل ما تقدم من انواع الطيرة موجود عند كثير ممن يدعون الاسلام وهم يجهلونه . ولولا خوف الاطالة لذكرت من ذلك حكايات كثيرة . وعلى القول بانه حية فى البطن ، فذلك باطل لا وجود له . واما الهامة فعلى القول بانها البومة هي داخلة فى التشاءم بالحيوان . وعلى القول انها طائر هو روح القتيل لا يزال يزقو اي يصيح ، اسقوني ماء أسقوني ماء حتى يؤخذ بثار القتيل . وذلك مشهور عند العرب فى جاهليتهم . قال ذو الاصبع العدواني :

يا عمرو الا تدع شتمي ومنقصتي
اضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقال غيره :

ولو أن ليلى الاخيلية سلمت
علي ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة او زقا
اليها صدى من جانب القبر صائح

وذلك من خيالاتهم واوهامهم ولا وجود له . واما التوله ، فهي من الشرك ، وهي سحر يزعم فاعله انه يؤثر فى قلب البعل فيحب امرأته حبا شديدا ويطيعها طاعة عمياء ، او فى قلب المراة فتحب بعلها كذلك . وهذا كفر ، لان مقلب القلوب واحد ، وهو الله ولا يستطيع غيره ذلك . واما الفول فالنفي فى الحديث موجه لعينها ، اذ لا وجود لها ، وانما هي من صنع الخيال الجاهلي . وكذلك العنقاء يزعمون انه طائر عظيم الجسم ، كالرخ المذكور فى كتاب الف ليلة وليلة الذي تعلق به سندباد البحري فطار به من جزيرة خالية الى بلد آخر . وزاد الادباء على الفول والعنقاء ، الخل الوفي . قال الشاعر :

فعلمت ان المستحيل ثلاثة
الفول والعنقاء والخل الوفي

وقال غيره :

الخل والفول والعنقاء ثالثة
أسماء اشياء لم تخلق ولم تكن

والحق ان الخل الوفي موجود ، الا اذا أريد به الخل الكامل المبرأ من جميع العيوب الذي لا نقص فيه اصلا فهو صحيح . وقال بعض شراح الحديث ان تلك الاشياء الستة موجودة ، وتوجيه النفي لذواتها مجاز ، والمراد نفي ما كانت العرب تعتقده فيها . والصحيح التفصيل على نحو ما ذكرته . والله أعلم .

اخبرني المغاربه الذين كانوا فى برلين فى زمان هتلر ان بعضهم قبل اجراء ذلك العمل الجراحي فأصابه بسبب ذلك مرض لازمه حتى مات منه . واعرف شابا مغربيا من حوز مراكش اسمه عمر كان متزوجا بامرأة المانية فدعته الدائرة المختصة لاجراء تلك الجراحة فابى ، فسجن ، وكانت زوجته الالمانية تعمل وتزوره فى السجن وتحمل اليه ما يتيسر لها من الطعام وتقوم بغسل ثيابه ، فدعاها رئيس الدائرة وقال لها ما تريدين بهذا المغربي المتشرد ؟ فارقيه فنرد عليك جنسيتك الالمانية ونعطيك شغلا فى الحال فامتنعت وقالت لا افارق زوجي ولا اغدر به فى وقت الشده . فلما طال عليه الحبس وكانوا قد عرضوا عليه مرارا ان يتجندفي جيش فرانكو فيطلق سراحه ويرسل الى اسبانيا، فكان يقول لهم انا لا اقبل العمل الجراحي ولا أتجند فى جيش فرانكو ، لانني لست اسبانيا ، انا مغربي فان شئتم ان توصلوني الى بلادي فاني اقبل ذلك شاكرا . اما اسبانيا فلا اذهب اليها . وكان الجنرال فرنكو قد التمس من الالمانيين ان يبعثوا اليه كل من عندهم من المغاربة الذين يقبلون التجنيد . فلما طال الحبس على عمر المسكين قبل ان يتجند ويذهب الى اسبانيا فأرسلوه ومعه زوجنه الالمانية الى فرنكو . ولا ادري ما فعل الله به .

نعود بعد هذه الجولة الى منع الحمل خوفا من قلة الغذاء فنقول ، قال الله تعالى فى سورة هود (6 وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) وقال تعالى فى سورة الذاريات (56 ـ 57 ـ 58 وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) . وقال تعالى مخاطبا رسوله (ص) وامته تبع له فى سورة طه (132 وأمر اهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسأ لك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) فكل من تعبد الله ويحافظ على الصلاة وغيرها من أمور الدين يخرج الله له رزقا ولو من صخرة صماء . وعد الله لا يخلف الله وعده . وقد رايت، فى معرض (دوسلدورف) بالمانيا آلة عظيمه يلقى فيها الخشب فى جانب فيخرج من الجانب الآخر قطنا ابيض محلوجا فى غاية البياض والنظافة . وسمعت من اذاعة لندن فى هذه الايام ان بعض العلماء يجري تجارب لاستخراج الطعام من مواد معدنية . وبقطع النظر عما سيكون ، فان كل مؤمن بالله ، واكثر أهل الارض مؤمنون به ، يعتقد ان الله لا يخلق انسانا ولا حيوانا ، الا وقد اعد له رزقه . ولا يمكن ان يخلق الله خلقا اكثر مما خلق لهم من الاغذية . كما انه خلق من مادة الاكسجين التي يتنفسها الحيوان ، والانسان على قدر المتنفسين . فكل حيوان خلقه الله فقد ضمن له ما تقوم به حياته . لا يتخلف ذلك ابدا ، لانه من السنن الكونية ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا . يقال ، ان فى الهند خمسة ملايين من البشر ، لا مأوى لهم ، وانما يهيمون على وجوههم طول حياتهم . وسمعت ان بعض اهل البيوت الفقيرة في الهند اذا انقضى زادهم اغلقوا بابهم وماتوا جوعا ، فلا يهتم بهم احد . ولا ادري اهذا صحيح أم لا ؟ وعلى فرض صحته فليس ذلك ناشئا عن قلة ما خلق الله من الاغذية فى الهند ، ولكنه ناشيء عن طغيان الطبقة الفنية الشريفة المقدسة واحتقارها لمن دونها . ومن دونها من الطبقات يحتقر من دونه منها حتى يصير الامر الى الطبقة المنبوذة المستنجسة ، اذا وقع ظل الواحد منهم على طعام ينجسه . فلو ان الارزاق قسمت بالعدل وفسح المجال للطبقات المحتقرة ان تكتسب رزقها لكانت الارزاق تزيد عن حاجة الناس . ولنضرب لذلك مثلا فنقول : ان من اغنياء الهند من يملك بضعة وعشرين من الفيلة فقط ، غذاء الواحد منها يكفي خلقا كثيرا من البشر ، وانما يكتسبها للتفاخر والتكاثر . وقال تعالى فى سورة الاسراء (31 ـ ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطئا كبيرا)

قال ابن كثير فى تفسير سورة الانعام ، فى الآية المماثلة لهذه ، وقد تقدمت : ح 4\148\ وقوله تعالى: ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم) لما وصى تعالى بالوالدين والاجداد عطف على ذلك الاحسان الى الابناء والاحفاد ، فقال تعالى ، ولا تقتلوا اولادكم من املاق . وذلك انهم كانوا يقتلون اولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك ، فكانوا يقتلون البنات خشية العار ، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار ، ولهذا ورد فى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود انه سأل رسول الله (ص) أي الذنب اعظم ، قال ، ان تجعل لله ندا وهو خلقك . قلت ، ثم اي ، قال ، ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك ، قلت ثم اي ، قال ، ان تزاني حليلة جارك . ثم تلا رسول الله (ص) الذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون . الآية . وقوله تعالى . من املاق ، قال ابن عباس وقتادة والسدي وغيره (كذا) ، هو الفقر ، اي ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل . وقال في سورة الاسراء : ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق ، اي لا تقتلوهم خوفا من الفقر فى الآجل ، ولهذا قال هناك ،

جابر يرفعه (لكل داء دواء ، فاذا اصيبت دواء الداء برأ باذن الله) انتهى من القسطلاني باختصار .

قوله ، من اهل العدوة ، اي من المغرب .

عود الى الكلام على تحديد النسل

اعود بعد ذلك الاستطراد الطويل الذي ربما يمل بعض القراء ، ولكنه يسر آخرين منهم ، اعود الى الكلام فيما جاء فى العزل فانقل كلام ابن حزم فى المحلي .
قال ابو محمد ابن حزم فى المحلي ، ج 10 / ص 70 / مسألة 1907 / ولا يحل العزل عن حرة ولا عن امة . برهان ذلك ما روينا من طريق مسلم ، وذكر سنده الى عائشة عن جذامة بنت وهب اخت عكاشة قالت : (حضرت رسول الله (ص) فى اناس فسألوه عن العزل؟ فقال رسول الله (ص) : ذلك الواد الخفي ، وقرأ (واذا المؤودة سئلت) .

قال ابو محمد : هذا خبر فى غاية الصحة ، واحتج من اباح العزل بخبر ابي سعيد الذي فيه ، لا عليكم ان لا تفعلوا . قال علي ، هذا خبر الى النهى أقرب ، وكذلك قال ابن سيرين ، واحتجوا بتكذيب النبي (ص) قول يهود ، هو المؤودة الصغرى ، وباخبار اخرى لا تصح .

قال ابو محمد : يعارضها كلها خبر جذامة الذي اوردناه ، وقد علمنا بيقين ان كل شيء فأصله الاباحة لقول الله تعالى (الذي خلق لكم ما فى الارض جميعا وعلى) هذا كان كل شيء حلالا حتى نزل التحريم ، قال تعالى : (وقد فصل لكم ما حرم عليكم) فصح ان خبر جذامة بالتحريم هو الناسخ لجميع الاباحات المتقدمة التي لا شك فى انها قبل البعث وبعد البعث ، وهذا أمر متيقن ، لانه اذا اخبر عليه الصلاة والسلام ، انه الواد الخفي ، والواد محرم ، فقد نسخ الاباحة المتقدمة بيقين ، فمن ادعى ان تلك الاباحة المنسوخة قد عادت ، وان النسخ المتيقن قد بطل فقد ادعى الباطل وقفى ما لا علم له به واتى بما لا دليل له عليه . قال تعالى : (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) وقد جاءت الاباحة للعزل صحيحة عن جابر بن عبد الله ، وابن عباس ، وسعد بن ابي وقاص ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود . وصح المنع منه عن جماعة كما روينا عن حماد بن سلمة عن عبيد الله بن عمر عن نافع ، ان ابن عمر كان لا يعزل ، وقال ، لو علمت أحدا من ولدي يعزل لنكلته.

قال ابو محمد : لا يجوز ان ينكل على شيء مباح عنده . ثم روى بسنده الى علي بن ابي طالب ، انه كان يكره العزل . ثم روى بسنده الى عبد الله بن مسعود انه قال فى العزل ، انه الموءودة الخفية . ثم روى بسنده الى ابي امامة الباهلي انه سئل عن العزل فقال ما كنت ارى مسلما يفعله . وروى بسنده الى ابن عمر قال : ضرب عمر على العزل بعض بنيه . وروى عن سعيد بن المسيب قال ، كان عمر وعثمان بن عفان ينكران العزل . قال ، وصح ايضا عن الاسود بن يزيد وطاووس .

ذكرت فيما تقدم بعض الاسباب التي توجب العزل او تبيحه . وازيد هنا سببا آخر سئلت عنه كثيرا ، وهو ان بعض النساء يحملن بعد الولادة بزمان يسير ، فيجتمع على الوالدة رضيعان او اكثر فى وقت واحد ولا تجد مرضعة أخرى ولا من يعينها على القيام بما تحتاج اليه الصغار من تغذية ونظافة وغير ذلك من شؤونهم يضاف الى ذلك انها قد تكون محتاجة الى ان تشتغل عند الناس لتكسب قوتها ، فيلحق بها فى توالي الحمل والولادات حرج . فمثل هذه المرأة يجوز لها بالاتفاق مع زوجها منع الحمل منعا موقتا ، بحيث يكون بين الولد والولد مدة يتم فيها الرضاع للسابق وتستعيد هي بعض قوتها لتتمكن من حمل آخر وارضاع آخر . فهذا من الاسباب المبيحة للعزل وما يشبهه من اسباب منع الحمل لمدة محدودة . والدليل على ذلك قاعدة رفع الحرج المنصوص عليها فى كتاب الله المجمع عليها بين الائمة .

والآن بعد كل ما تقدم نبحث فى سبب آخر يعتذر به كثير من الناس فى هذا الزمان ، وهو الفقر الخاص كأن يكون الوالدان فقيرين ، او العام ، كأن تكون الاغذية فى بلد من البلدان قليلة يخشى اذا تكاثر السكان ان لاتسد حاجتهم فيفضي ذلك الى سوء التغذية العام ، ثم الى الموت جوعا . فيرى بعض الساسة ان يرغب السكان فى تحديد النسل ، وربما بدا لهم ان يجبروا الناس على ذلك ، كما فعل هتلر وحكومته لفرض آخر غير التغذية ، فان حكومة هتلر كانت تجبر الاجانب المنقطعين الذين لا جنسية لهم ، أي لا دولة تعترف بهم ، كالمغاربة الذين كانوا فى الجيش الفرنسي ، ثم فروا الى المانيا فى الحربين العالميتين ، فكانت حكومة هتلر تفرض على كل متزوج من هؤلاء البؤساء اجراء عمل جراحي يمنع النسل . فان أبى قبضت عليه وحبسته ومنعته من وصال زوجته . وقد

تأملات في التشريع الإسلامي

للفقيه العلامة المرحوم أبو بكر زنيبر

أبو بكر زنيبر من العلماء الذين يقترن اسمهم بتاريخ حافل فى الوطنية والكفاح ، ومن الفقهاء الذين عاشوا مشاكل عصرهم بوعي وادراك كبيرين ، وقد عرف فيه معاصروه مثال النزاهة والاستقامة وهو يتولى القضاء فى عدة مدن ، وعرف فيه الذين حضروا مجالس علمه وتتلمذوا عليه صورة العالم الواسع الاطلاع الملم بمرامي الشريعة والملائم بين مقاصدها ومقتضيات العصر ، ولم يستطع الاستعمار ان يصده عن غايته او ينال من ايمانه رغم عزله احيانا وتعرضه لمحنة السجن والعذاب سنة 1944

كان المرحوم يراسل عددا من المجلات فى الشرق ويجيب على أسئلتها فيما يخص ميدان الشريعة الاسلامية ، وقد كتب عددا من الكتب ما تزال مخطوطة منها : جهود الاسلام فى ترقية الانام ، الحجاب من الوجهة الشرعية ، تفسير القرآن الكريم ، المهر فى الاسلام وقد ترجم هذا الاخير ونشر فى اللغة الفرنسية ، والمقالة التي ندرجها اليوم مقتبسة من مخطوطه فى تفسير القرآن . استاثرت رحمة الله بالفقيد سنة 1956

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز (وان من امة الا خلا فيها نذير) ، بمقتضى هذه الآية الكريمة يكون تقدم فى كل امم الشرق والغرب والشمال والجنوب مثل الصين وجزر اليابان واستراليا والهند وفارس وافريقيا واوربا وامريكا مرسلون لا محالة ، ويقول فى آية اخرى بعد ذكر الرسل عليهم السلام : (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك .

وقد استقرانا من ورد ذكرهم فى القرآن من النبئين والمرسلين واممهم ، فلم نجد دائرتهم تخرج عمن كان منهم فى جزيرة العرب كهود وصالح عليهما السلام ، وما حولها من العراق والشام وفلسطين ومصر كنوح وابراهيم واسحاق ويعقوب ويوسف وشعيب وموسى وهارون وعيسى عليهم وعلى غيرهم من ربهم السلام .

وذكر آدم عليه السلام فى القران ليس من جهة كونه نبيا وسط أمة يبلغها أوامر الله ونواهيه، ويبشرها وينذرها ويوجهها الى ما فيه سعادتها ، وانما ذلك من جهة كونه جدا للبشر اكرمه الله بخلافته عنه فى الارض وباسجاد ملائكته فحسده ابليس على ذلك وتوثقت العداوة بينهما وبين ذريتهما الى انقراض الدنيا وكذلك اشارة القرآن الى قصة قابيل وهابيل انما هي قصة شخصية وقعت لاخوين لا دخل لامر النبوة فيها .

وعليه فما الحكمة فى قصر قصص القرآن على بعض اولئك الرسل مع أممهم ؟ الذي ظهر لنا من ذلك ان احاديث هؤلاء الرسل عليهم السلام مع اممهم التي ذكرت فى القرآن كان العرب وبنوا اسرائيل الذين كان القرآن يجادلهم بالخصوص معروفة لديهم ولو على سبيل الاجمال ، بل احاديث انبياء بني اسرائيل مع

نحن نرزقهم واياكم . فبدأ برزقهم للاهتمام بهم ، اي لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم فهو على الله . واما هنا لما كان الفقر حاصلا ، قال نحن نرزقكم واياهم ، لانه الأهم هاهنا . والله أعلم .

فان قيل ، ان هذه الآية وردت في قتل من تم خلقه وولد وصار حيا يرزق . فكيف يستدل بها على منع الحمل الذي لا يزيد على منع الذرتين المنويتين من الاتحاد او على ابادتهما بالادوية التي تقتل الجراثيم ؟ فالجواب ، ان هناك قدرا يجمع بينهما ، وهو قطع الحياة في كل لغير سبب يبيح ذلك او يوجبه . وهو جريمة . ولا يخفى ان اصل الحياة كلها خلية لا ترى بالبصر ، كما وضح ذلك في كتب علم الحيوان وعلم النبات . فالذرتان المنويتان تتمتعان بالحياة التي يستمتع بها كل حي . والذي يغلظ الجريمة هنا هو الجهل بسنن الله وعدم الثقة بوعده والقصد السيء الدال على ذلك . والعدول عن اتباع سنة النبي (ص) والاهتداء بهديه واتباع السلف الصالح والافتتان بالآراء الاجنبية الصادرة عن القلوب الحجرية المظلمة الكافرة اليائسة من روح الله .

فمن الاوربيين من يعزم على انه لا يلد ولدا حتى يهيىء له من المال ما يكفي لتربيته تربية تشبه تربية أبناء الملوك . فمن ذلك انه يعد له مربية وغرفة مملوءة بانواع اللعب وينفق عليه ما يكفي لأعاشة عشرة اولاد معيشة معتدلة صحية ليس فيها تدليل مفسد . ويؤمل ان يصير ولده هذا المدلل رجلا عظيما من الزعماء فيخيب ظنه وينشأ ولده في نعمة ورفاهية ودلال ضعيف العقل والجسم فاسد الطبع خائر العزم اينما وجهه لا يأتي بخير . وفي مقابل ذلك يوجد في اوربا نفسها فلاحون وعمال لا يحددون نسلهم ، فيلدون اولادا ينشئونهم على خشونة العيش والكدح والعمل ، فلا يبلغ الواحد منهم السابعة من عمره حتى يشرع في مساعدة والديه . وبدل ان يكون لهما ولد واحد مدلل ضعيف يكون لهما ما بين ثلاثة وسبعة اولاد اقوياء البنية مدربين على العمل اينما سقطوا لقطوا وحيثما وجهوا جاءوا بخير . وقد اخبرني ضابط الماني كبير ان الجنود من ابناء الفلاحين اقوى اجساما واحسن اخلاقا واصبر على المشاق واقنع باليسير من الغذاء. قال ، وانا لا أعتمد في المهمات على أبناء المدن ، وانما اعتمد على ابناء الفلاحين . واعرف رجلا في البلاد العربية عاش طول عمره يشتغل بالبناء فقيرا ، فلما بلغ الولد الاول والثاني من اولاده بضع عشرة سنة اتخذا دكيكينا في القرية يبيعان فيه الطحين ، وانما يأخذان من احد التجار الكيس بعد الكيس فيبيعانه بالارطال ، فما زالت تجارتهما في نمو ، وكل من كبر من اخوتهما يلحق بهما ويتعاون معهما . فلما اتسعت تجارتهم بنوا قصورا في قريتهم وصاروا من كبار اغنيائها ، ثم دخلوا المدينة ، فاستولوا على قسط وافر من تجارتها ، وهم الآن من اعظم البيوتات في وطنهم .

وعاش ابوهم بقية عمره مبجلا قرير العين في نعمة ورفاهية . واعرف رجلا آخر لم يعش له من الاولاد الذكور احد الا بعد ما بلغ سن الكهولة ، فولد له ولد فكاد يجن من الفرح وصار الوالدان يدللان ولدهما تدليلا افسد طبعه وخلقه وجسمه ، ثم ولد لهما بعده ولد آخر فلم يهتما به فتربى تربية خشنة . وقد شاهدت الاول ، وعمره خمس سنين من فرط دلاله يأمر الخادمة او امه او اخته ان تحمله على ظهرها وتصعد به الى السطح ثم يأمرها ان تحمله وتنزله . ثم يأمرها ان تصعد به مرة اخرى حتى تتعب وينقطع نفسها . واحيانا ينام في المهد ويأمر احداهن ان تهزه به ـ واحيانا يبكي بلا سبب فيعرض عليه كل ما في الامكان من المشتهيات فلا يرضى بشيء ، ويستمر في البكاء فاذا تعب ينادي اسكتوني اسكتوني . فتجيئه احداهن فتقول انا اسكتك ، فيقول بصوت الباكي ، لا لا لا احبك انت فاغربي ، ثم تأتي الاخرى فيختار من بينهن واحدة يسكت بطلبها . هذا الولد المدلل لم ينجح في المدرسة . ولما كبر لم يجد شغلا . واما اخوه فهو الآن مدير احد المصارف . ومن هذا تعلم ان الاعتذار لتحديد النسل بعدم وجود المال الكافي لتربية الاولاد اعتذار باطل . وان تحديد النسل لا يجوز او يجب الا لضرر يلحق بالوالدين او الاولاد ، لا يمكن احتماله .

وليس الفقر والخوف من قلة الغذاء سببا مبيحا لمنع النسل . واما منع النسل خوفا من تكاثر الجنس المنحط في بلاد الجنس الآري المقدس كما كان هتلر وامامه في ضلالته (روزنبرك) وشيعتهما يعتقدون . ومثال ذلك مذهب حكومة اتحاد جنوب افريقية وما يقع من العدوان من البيض على الزنوج في امريكا ، فكل ذلك من أعظم ما عرفه البشر من الجرائم . ولو زال التعصب الممقوت للاوطان وتعاون الناس كلهم على استخراج خيرات الارض كلها ، وتركوا الاستعداد للحروب والطغيان والاستعباد ، ووزعوا الاغذية فيما بينهم توزيعا يهيمن عليه العدل والاحسان لعاشوا جميعا في خفض ونعمة ورفاهية عيشة راضية ، وان بلغ عددهم عشرات الالوف من الملايين . ولله در ابن زريق اذ يقول في قصيدته العينية المشهورة :

والله قسم بين الناس رزقهم
لم يخلق الله من خلق يضيعه

مكناس : تقي الدين الهلالي

غير ان الاسلام راعى هذه الاضرار كل المراعاة وادخل فى بعضها اصلاحات عديدة حيث لم تكن الامة قابلة اذ ذاك لمحوها وازالتها من الوجود لكونها كانت شائعة متفشية فيها راضيا كل فريق بما امتاز عليه به الفريق الاخر .

الم يكن الرجل قبل الاسلام يجمع بين ما شاء من الازواج فى عصمته ولو بلغن مائة فاكثر ؟ الم يكن الزوج اذ ذاك يطلق زوجه ما شاء من الطلقات ولو مائة ويردها الى عصمته كلما اراد ؟ الم يكن الرق متعارفا معمولا به لدا كافة الامم والدول ؟ الم يكن الرجل يحكم فى بنته بالقتل فما دونه من الاضرار من غير ان يجد معارضا له فى ذلك ؟ فكيف تفلت من يده وقت النكاح وتكون لها الحرية المطلقة فى ذلك تتزوج من شاءت وترد من ارادت وقل قريبا من ذلك فى غير الاب من اولياء النكاح ، الم تكن الانثى محرومة اذ ذاك من الارث بالمرة الا فى احوال استثنائية ، بل الم تكن الانثى فى المجتمع العربي وغير العربي شيئا غير مذكور لا يؤبه به ولا يلتفت اليه ، وانما نلاحظ على انها متاع من امتعة الذكر .

فلما راى الاسلام هذه الاشياء ونمكنها من الامة كل التمكن ، وأن معارضتها ونسخها بالكلية ربما ادخل على الامة وعلى الاسلام اضرارا جمة، عمد الى اصلاحها فقصر الرجل الذي كان له التمتع بمن شاء من الازواج على اربع زوجات فقط ريثما يضعف هذا العدد مع طول الزمان من تلقاء نفسه ، ومن مقتضيات الكلف المدنية وغير المدنية الملقاة على عاتق الذكور سواء من تلقاء كلف الزوجات او من تلقاء كلف الحالات الاجتماعية عموما ، ومن تلقاء كلف ضرائب الدولة ، وهذا الضعف فى تعدد الزوجات هو المساهد فى وقتنا سواء فى الحواضر او البوادي ، فانك لا تجد الواحد فى الالف من اهل المدن له زوجتان ولا تجد الواحد فى الالف من اهل البوادي له أكثر من زوجنين ، وتجد غالب التعدد للزوجات فى البوادي انما يأتي من قبيل كثرة كلف البادية بمثل المسقى والمحتطب وكلف الماشية وغير ذلك من الكلف .

ثم قصر طلاقه الذي كان لا حد له على ثلاث تطليقات اذ ان الطلاق من ضروريات الاجتماع اذ كما تسبب الاجتماع فى ربط الذكر بالانثى بواسطة النكاح ذلك يتسبب فى افتراقهما بواسطة الطلاق لامور تقتضي ذلك .

وحيث قصر الاسلام الطلاق على ثلاث مرات صار الزوج كلما صدر منه طلاق لزوجه احس بضيق خناقه فيها وتوقع رفع يده عليها بالمرة ، وافلاتها منه اذ أوقع عليها الطلقة الثالثة ، فعزت بذلك لدا زوجها ولدا المجتمع فى الجملة وبذلك قل الطلاق فى الامة كثيرا ، حتى انك لو احصيت الطلقات التي تقع شهريا فى المدن التي يبلغ عدد سكانها المليون فأزيد لوجدته شيئا تافها بالنسبة لعدد اولئك السكان ونرى لزيادة تقليل الطلاق ما امكن ، ان تضع حكومات الاسلام عقوبات مختلفة الاقدار على من طلق زوجه لغير سبب معقول ثابت ببينة او باقرار الزوجة او بقرائن الاحوال ، كمن يحلف لا افعل كذا فيفعله حيث اهان زوجه وعرضها للطلاق بامر خارجي ، فالطلقة الاولى عقوبة مالية خفيفة فى الجملة بالنسبة للمطلق ان لم يكن له معها اولاد ، فان كان له معها اولاد فيزاد فيها بالنسبة لعددهم ، حيث عرضهم لمحنة الفرقة الواقعة بين الابوين والعداوة المترتبة بينهما من اجل ذلك زيادة على فرقة هؤلاء الاولاد عن ابيهم او عن امهم ، ثم الطلقة الثانية تكون عقوبة انقل من الاولى ، ثم تكون عقوبة الطلقة الثالثة اشد من الثانية .

وذلك بناء اولا على الاصل فى الطلاق المنع عليهما، وقد قال السيد عبد الرحمان العيساوي فى تاليفه الذي سماه (لماذا انا مسلم) ما نصه : وقد نص ابن عابدين فى حاشيته وهي من اهم مراجع الفتيا والقضاء الشرعي على ان الاصل فى الطلاق انه حرام ، وان الاباحة انما طرات على حكم تحريمه للحاجة الى الخلاص ، فحيث تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعا يبقى على اصله من التحريم ، ثم قال وهذا الحكم ماخوذ من قوله تعالى (فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) .

وثانيا على القول بجوار العقوبة بالمال اذ المسالة فيها خلاف كبير ، انظره فى شراح العمل الفاسي لدا قوله :

ولم تجز عقوبة بالمال * او فيه عن قول من الاقوال

كما اصلح حالة الرق من عدة وجوه فجعله واجب الحل والقضاء عليه بالمرة ، وان يخرج الرق حرا طليقا فى ذاته وسائر احواله ، وذلك فى بعض الاحوال ، ومن جملة هذه الاحوال ان يتملك الانسان اقرب القرابة اليه كأبويه وان علوا واولاده وان سفلوا . واخوته المباشرين لاخوته ، ومن جملتها ايضا تشويه الرجل خلقة مملوكه قصدا ، ومنها ما اوجبه الشرع من النظر فى الاسرى

اممهم كانت معروفة لبني اسرائيل على سبيل التفصيل، فوجب ان يحتج على كلا الفريقين بما يعلمان ويسلمان، اذ الحجة لا تقوم على الخصم الا بما يعلمه ويسلمه ويقره ، او بما شانه ان يعلمه ويقره وان لم يقربه بالفعل استكبارا وعنادا وترفعا عن الحق لاسيما وعقلية هؤلاء الامم المذكورة فى القرآن قريبة من عقلية العرب وبني اسرائيل المحتج عليهم بامواتهم وبما وقعوا فيه من جراء مخالفتهم لانبيائهم ، وذلك من حيث الدم والجوار والمناخ والاحوال الاجتماعية المتوارثة فيما بينهم جيلا بعد جيل ، فذكرهم والاحتجاج بهم فى القرآن بالخصوص مظنة التأثير على عقلية العرب وبني اسرائيل وتفكيرهم ، وليس كذلك امم الصين واليابان واندونيسيا والهند وافريقيا واوربا وامريكا وما سواها من الامم البعيدة ، فاحوال هذه الامم مع رسلهم والاخبار بما فى القرآن على جهة الاحتجاج على العرب وبني اسرائيل بعيد التاثير على كل من العرب وبني اسرائيل حيث كانوا لا يعلمون منها شيئا لا جملة ولا تفصيلا ، وكذلك عقلية هذه الامم بعيدة عن عقلية العرب وبني اسرائيل حيث لا يجمعهم بهم دم ولا نسب ولا جوار ولا غير ذلك مما يقربهم لبعضهم ويجعلهم يتأثرون بما يتأثر به البعض منهم .

ان مدار التشريع غالبا لدا الامم والدول هو الاحوال الاجتماعية والعوائد المالوفة للناس وقت التشريع ، فلهذه الاحوال قوة التاثير على التشريع جملة وتفصيلا اذ لولا مراعاتها لعارضت الامم فيه ، واستحال الامر الى فساد ، وانحلت الرابطة بين الامم وحكوماتها ، ووقعت الفوضى والمضاربة بين فريقي الامة والحكومة ، حيث ان الناس مجبولون على اعتناق عوائدهم ومألوفاتهم ، ولو ادى الامر الى ما ادى ، ومن اقوال الحكماء الجارية مجرى المثل : (العادة طبع خامس)

واغلب ما كان يكون بين الملوك المستبدين واممهم من قيامهم عليهم ومحاربتهم او عزلهم بالكلية ، هو عدم مراعاة احوالهم فى التشريع الذي يشرعونه ، اذ كانوا اكثر ما يكونون مغرقين فى ملذاتهم لا هم لهم الا استحصال هذه اللذات ، ولا ينظرون فى مصالح اممهم ولا فى عوائدهم وما لحفظها عليهم الا تبعا ، فتقع الكارثة ، الى ان تمكنت الامم المتمدنة فى هذه العصور الاخيرة من حصر دائرة نفوذ ملوكهم بجعلهم بمعزل عن دائرة التشريع بالكلية ، وجعل هذا التشريع بين طائفتين من نواب الامة الاولى تسمى (مجلس النواب) وهي التي تتولى التشريع مباشرة ، والثانية تسمى (مجلس الشيوخ) وهذه الطائفة شانها ان تتصفح ما شرعته الطائفة التي قبلها فتنبه على ما فيه من مضار ومنافع وخطا وصواب .

وقد راعى الاسلام فى تشريعه الاحوال الاجتماعية اذ ذاك كل المراعاة ، فنرى القرآن اولا لم يكثر من درس مسائل التشريع وانما ، ذكر منها ما دعت اليه الضرورة وقت التنزيل ، وغالب ما ذكر فى نظرنا منها ما كان متعلقا بالاحوال الاجتماعية كبعض مسائل النكاح والطلاق وما يتبعهما ، وكذلك بعض مسائل الارث ، والنظر فى اموال اليتامى وحفظها لهم ، وترك غالبية مسائل التشريع الى اجتهاده (صلعم) او اجتهاد اولي الامر من بعده وهم العلماء الذين فيهم الكفاية والقدرة على ذلك كما يفيد ذلك قوله تعالى : (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) اذ النوازل الكلية والجزئية لا حصر لها حتى يمكن ان تحصى فى القرآن الكريم ، وحتى يمكنه ان ينص عليها ويبينها تفصيلا .

ونراه ثانيا بحسب ما ظهر لنا انه قسم المسائل التي حكم فيها الى ثلاثة أقسام : الاول ما كان شائعا فى الامة جميعها ولا تمكن معارضته لما فيه من الضرر ونسخه بالكلية ، وذلك كتعدد الزوجات وكتعدد الطلاق ، وكامتلاك الرقيق ، وكجعل الولي على الانثى فى النكاح ، وكجعل نصيب الذكر فى الارث ضعف نصيب الانثى .

فان هذه الامور وان كان فيها الضرر المشاهد على فريق للفريق الاخر، اذ كيف يسيغ عقل الانثى ويرضيه ان تذل وتهان لزوجها باشراكه اياها فى عصمته لزوجة او اكثر الى اربعة ، وما يتبع ذلك من المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمبيت ، وغير ذلك من حقوق الزوجية كالارث بعد الموت ، ثم كيف يسيغ عقلها ويرضى ان تكون دائما معرضة لاذلاله بالطلاق ، وكيف يسيغ عقل البشر ان يملك احد افراده فردا او افرادا اخرين من جنسه وهو مثله فى قوة العقل والادراك والقدرة على الاكتساب والتمتع بسائر ملاذ الحياة وغير ذلك ، وكذلك كيف يسيغ عقل الانثى ان تحجر ويملك عليها امرها وحريتها عند العقد لولي نكاحها كابيها وغيره من الاولياء ، وكيف يسيغ عقلها ايضا ان يكون نصيبها من الارث على النصف من نصيب الذكر .

اما العراق وما ادراك ما العراق ، فان المدنية الفارسية كانت راسخة فيه كل الرسوخ ، وكذلك القوانين الفارسية ومن اجل ذلك كان يصعب فيه تطبيق الاحكام الشرعية على ظواهر نصوصها ، فاحتاج المشرعون فيه الى وجوه من التأويل وغيره لتطبيق بعض نصوص الاحكام الشرعية هناك فخالفوا اهل الحجاز فى تشريعهم وكثر بينهم النزاع والخلاف حتى قال ربيعة وهو من اشياخ مالك لما استقدمه ابو العباس السفاح العباسي الى العراق لاتخاذه مستشارا له هناك ورجع الى المدينة حيث لم يرضه المقام هناك ، قال ربيعة : رايت قوما حلالنا حرامهم وحرامنا حلالهم ، وقال ايضا كأن النبي الذي بعث الينا غير الذي بعث اليهم ، وقال وكيع : والله لكان النبي الذي بعث بالحجاز ليس بالنبي الذي بعث لاهل العراق ، وقال ابن شهاب الزهدي وهو من اشياخ ومجنهدي اهل المدينة * يخرج الحديث من عندنا شبرا ويعود فى العراق ذراعا وقد طلب ابو جعفر المنصور من مالك وضع كتاب تجمع الناس عليه ويلزمهم بما فيه واوصاه ان يجتنب فيه شواذ ابن عباس وشذوذ ابن عمر ورخص ابن مسعود وكان ابن مسعود استوطن من الصحابة العراق وتعاطى الاجتهاد وتطبيق الكتاب والسنة على الاحوال التي هناك .

ثم جاء الامام الاكبر ابو حنيفة بن النعمان واتباعه، وسعوا طريقة العراق فى الاجتهاد والتشريع رعيا لحالة الاجتماع هناك ، ولزمهم فى ذلك تاويل بعض النصوص الشرعية كحكمهم على من لاط بذكر بالزجر فقط وعدم تطبيق احكام الزنى عليه ، او عدم اعتبارهم بعض احاديث الآحاد اذا عارضت القياس الصحيح ، عللوا ذلك بان الشريعة الاسلامية انما اتت لسعادة البشر ورحمتهم قطعا ، وان ما يقضي العقل بانه سعادة بطريقة القياس الصحيح للبشر ورحمة له اولى بالاتباع مما يكون مثار الظن كاحاديث الاحاد التي يظن انها صدرت من النبي عليه السلام ولا يقطع بصدورها منه ، وقد تصدى البخاري الى الرد عليهم تلويحا فى كتاب الحيل من صحيحه كثيرا وفى غيره قليلا وذلك فيما اجازه من الاعمال المخالفة لمقتضى بعض الآيات والاحاديث .

فهذا ما ظهر لنا فى اسباب الخلاف الواقع فى الاجتهاد فى الاحكام بين اهل الحجاز واهل العراق وقد كان الامام مالك رضي الله عنه تفطن قبلنا بازمان متطاولة الى هذه الاسباب ، فانه لما طلب منه هارون الرشيد ان يؤلف كتابا فى الاحكام يعلنه على الكعبة ويلزم الناس بما فيه وتعلل له بان أصحاب رسول الله (ص) تفرقوا فى البلاد وكل منهم بلغ عن النبي عليه السلام ما سمعه منه فعمل به اهل تلك البلاد ، فلذلك لا يقبل منه ان يلزم كل الناس بما رآه هو والف .

وبسبب مرونة الشرع الاسلامي وامكان تطبيقه على اهل كل بلد بحسب عوائدهم واحوالهم الاجتماعية كما رايته بين تشريع اهل الحجاز واهل العراق ، وكما تراه فى اختلاف العلماء فى كل زمان ومكان وترجيحهم من الاقوال بسبب مقتضيات وقتهم وبلادهم ما كان ضعيفا قبل ذلك او تضعيف ما كان راجحا لهذا السبب حتى الف العلماء المتأخرون ما ترجح وجرى به العمل فى بلادهم من الاقوال الضعيفة بسبب ما اقتضى ذلك الترجيح ، ومن هذه المؤلفات العمل المطلق والعمل الفاسي وشروحه ، بسبب هذا كله وبسبب مرونة الشرع الاسلامي وقابلية تطبيقه على الناس فى كل زمان ومكان قرر المؤتمر الدولي للقوانين المنعقد بهولندا فى صيف سنة 1927 ان الشريعة الاسلامية تحمل العناصر الكافية التي تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمان والمدنية ، وقال الدكتور المجري المسلم الاستاذ بجامعة براسة فى كلمة له نقلها عنه مؤلف كتاب (لماذا انا مسلم) بعد ترجمتها باللغة العربية ، ليس فى تعاليم الاسلام شيء لا يمكن تحقيقه عمليا وهي مفخرة عظيمة تميز بها عمن سواه الى غير ذلك من اقوال العلماء المسيحيين الشاهدة بالفضل للاسلام وامكان تطوره على مقتضيات الزمان والمكان .

بسبب مرونة الشرع الاسلامي وامكان تطوره بتطور الزمان والمكان ينبغي لعلماء الاسلام بل يجب عليهم فى هذا العصر وفى العصور المستقبلة ان يتهيئوا للاجتهاد ولاستنباط الاحكام من الكتاب والسنة راسا ومباشرة وتطبيقها على احوالهم السياسية والاجتماعية وغيرها، فقد طال الزمان جدا بيننا وبين الائمة المجتهدين الاربعة واتباعهم واتباع اتباعهم ، وتبدلت احوالهم واوضاعهم واحوالنا واوضاعنا ، وحدث فى زماننا وسيحدث فى الازمان المستقبلة ما لم يكن يخطر ببال اولئك المجتهدين واتباعهم حدوثه ، حتى اضطر القابضون على زمام الدول الاسلامية فى الوقت الحاضر ومنهم دولتنا ان يحدثوا أحكاما سموها (بالقوانين المدنية) لم يستقوها

---

* نذكر القراء بان الكاتب توفى سنة 1956

بالمصلحة العامة ، اما بالمن عليهم بالعتق ، او الفدية ، او الجزية ، او القتل ، او الاسترقاق ، ولا يخفى ان الثلاثة الاقسام الاولى كلها من قبيل العتق واطلاق الحرية التامة للرقيق ، ومنها عتق رقبة مومنة على كل من قتل غيره خطأ ، ومنها نذر العتق والتزامه ، والعتق بالسراية ، كما اذا اعتق بعض مملوكه ، او اعتق حصه من مملوك مشترك له مع الغير كما ذلك مقرر فيها وكفارتا اليمين ، والظهار ، وفي بعض الاحوال ، وكفارة المفطر عمدا في رمضان في بعض الاحوال ،وكايلاده لامته.

وفوق كل هذا دعا الناس ورغبهم في العتق مطلقا بمثل قوله (ص) كما في الصحيحين : (من اعتق رقبة مومنة اعتق الله بكل عضو منها عضوا من اعضائه حتى فرجه بفرجه) وبالخصوص في مثل الكتابة والتدبير وفداء الاسرى من آسرهم ولو من مال الزكاة او مطلق مال بيت المال او اموال الافراد .

قرر الاسلام كل هذا في حق المماليك بعد ما اعترف برقيتهم لمالكيهم ريثما يقل الملك بين الناس او ينقطع بالكلية كما هو المشاهد اليوم في زماننا .

اما اولا فلان الامم الاسلامية لم تبق لها قدرة على الحروب اليوم لضعفها وعجزها وتفرق شملها ، ولا يخفى ان اصل الرق انما هو آت من الحروب واستيلاء المحاربين على رقبات محاربيهم وتوزيعهم فيما بينهم .

واما ثانيا فان الدول العظام في الوقت الحاضر قررت ان اسرى الحروب لا يملكون ، ويوزعون بين المحاربين كما كان الشأن في القديم ، وانما يبقون بيد الدول المحاربة الى ان يتفق في شانهم .

ودول الاسلام اليوم لا قدرة لها على خرق هذا الاتفاق لضعفها كما قدمنا .

نعم الاسلام لم يفعل شيئا آخر فيما قرره من ولاية النكاح لما في ذلك من المصلحة الراجحة اذ لو اعطى للانثى الحرية التامة في اختيار الزوج لربما اختارت زوجا غير كفء لها ، فكان ذلك ضررا على مجتمعها ، وكذلك لم يقرر شيئا آخر في الارث غير ما قرره اولا من جعل نصيب الذكر ضعف نصيب الانثى لما على الزوج من كلف العائلة وغيرها دون الانثى وبالله التوفيق

اما القسم الثاني وهو ما كان شائعا في الامة وهو ضار بالاخلاق والمجتمع ، ولكنه غير شائع شيوع القسم الاول ، وذلك كالخمر والميسر والربا ، فان هذه الامور لم تكن شائعة بين الامة كلها اذ الامة التي كان يصل بها الفقر الى ان تمكث الليالي الطوال ولا تجد ما تقتات به سوى الكلا وما اشبهه لا تطول يدها كل الطول ان تتخذ الخمر ديدنا ، اذ الخمر انما هو من دواعي الرفاهية والغنى ، وقل مثل ذلك في الميسر والربا ، ولذلك قضى عليه الاسلام بالكلية ، وذلك بمثل قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) وبمثل قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مومنين .. الخ) .

اما القسم الثالث وهو ما كان شائعا في الامة شيوعا مطلقا كالقسم الاول او اكثر ولكنه غير ضار بالاخلاق ولا بالمجتمع كالبيع والكراء والتمتع بامراة واحدة والطلاق الذي دعت اليه ضرورة الاجتماع بين الزوجين فقد اباحه الشارع اباحة مطلقة من غير مراعاة زمان ولا مكان ولا احوال اجتماعية خاصة ، ودللت بمثل قوله تعالى (واحل الله البيع وحرم الربا) بناء على احد التفسيرين في الآية ، وبمثل قوله تعالى (الا ان تكون تجارة عن تراض منكم) فهاتان الآيتان يدخل فيهما عقود الكراء وما شابهها من عقود المعاملات ، وبمثل قوله تعالى في الزوجية فان خفتم الا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم) الى غير ذلك من الآيات الكريمة الواردة في مثل هذا الموضوع .

اما ما كان من مراعاة الاجتماع في التشريع لدا عصر الصحابة والتابعين واتباعهم فيظهر ذلك في استنباط الاحكام لديهم من الكتاب والسنة ، وقد ظهر اثر ذلك فيما بين الحجاز وبين العراق ، اما اهل الحجاز فحيث كان عيشهم بسيطا واحوالهم الاجتماعية بسيطة تبعا لعيشهم ، ولم تعقد احوالهم مدنية راسخة ولا قوانين دولية ، ولا اعتاد اهله ما اعترى الامم المتمدنة من الانغماس في انواع الملذات وكثرة الشهوات ، والتطلع بسبب ذلك الى الافلات من مسؤوليات تشريع ما بضروب من وجوه الحيل . كان استنباط الاحكام من الكتاب والسنة لدا اولئك المجتهدين من الصحابة فمن بعدهم وتطبيقها على اهل الحجاز من السهولة بمكان ، وقل مثل ذلك في باقي جزيرة العرب ومصر والشام وافريقيا والاندلس فان احكامها كلها كانت تبعا في التطبيق لاحكام الحجاز والمدينة المنورة .

سلاحنا في المعركة : الافـــــكار

للاستاذ

عبد السلام الهراس

- 2 -

الافكار : تحدثنا فى المقال السابق عن سلاحنا فى المعركة من ناحية الاشخاص فالشخص هــو موضــوع الرسالة ووسيلة نشرهــا ايضــا ، ولكــن مادة بنائــه ووجوده ، هي الافكار ، ولذلك نتناول فى هذا المقــال جانب الفكرة من سلاحنا فى المعركة .

الاسلام دين حضاري تلك قضية مسلمة ولذلك كان أفكاره شاملة للحياة ، ولمشاكل الانسان ، وقد عالج تلك المشاكل بصورة تفصيليــة عنــد مــا كــان التفصيل ضروريا ، وبصورة اجمالية عنــد مــا كــان الاجمال هو مصلحة البشر ، فبعض الافكار اذن مبادىء عامة لا تخوض فى الجزئيــات لان تطــور الانسانيــة لا يستطيع تحمل تفصيلات مرحلة معينة او زمن معين ، فالاسلام مثلا لم يحدد شكل الدولة كأن تكون رئاسية او برلمانية او ينص على عدد النواب او مدة النيابة الى غير ذلك ، وانمــا نــص على وجــوب الشــورى وعلى مسؤوليات رئيس الدولة ومسؤوليــات الافــراد ازاء الدولة ، وللمسلمين وحدهم وضع التفصيلات بمــا يناسب العصر ويحقق رسالة الاســلام فقــد يختــار المسلمون النظام الرئاسي ، او البرلماني او شكلا آخر خيرا منهما واكثر استجابة لتحقيق المبادىء الاسلامية فى الشورى والعدل والحفاظ على كرامــة الانســان ، فالمسألة هنــا اجتهاديــة تتغيــر حســب العصــور والتطورات والظروف . وقــد استجــدت فى الحيــاة مشاكل جديدة ومظاهر اقتصادية واجتماعية وتجارية لم يكن للمسلمين بها عهد وليس فى الاسلام تفصيــلات مبينات تعالج ذلك ولكن فى الاسلام مبادىء عامــــة تسعفنا بحل تلك المشاكل على نحو يحقق الاهــداف السامیـــــة .

ولذلك كانت عبقرية الامة هي ان تكون لها القدرة على استنبــاط التفصيــلات من المبادىء التشريعيــة العامة بحيث تحقق اهداف تلك المبادىء وتستجيب نروحها فى غير ما تعتقد ولا اصطدام مع المبدو نفسه .

والذي وقع بالفعل ان المسلمين اختلفوا فى تلــك التفصيلات اختلافات منها ما كان ثروة وذخيرة للفكر الانساني ومنها ما كان كارثة على الســير الحضــاري للمسلمين ، وقد استفحل الخلاف فى مشاكل جوهرية تمس العقيدة نفسها مما عقد امورهــا وابعدهــا عــن جوهرها الصافي وهكذا وجدت مذاهــب فلسفيــه وكلامية يحاول كل مذهب ان يحل مشكلة العقيدة فلا يزيدها الا تعقيدا . وفى الاسلام : الكتــاب والسنــة ، بيان وبساطة رائعان فيما يتصل بالعقيدة .

كما وجدت مذاهب فقهية داخل اهل السنـــة وداخل الشيعة ، وهكــذا وجــد اســلام بالمذاهــب ، وزيادة على ذلك فقد علق بالاسلام كثيــر من الخرافات ومن الطفيليات السامة والافكار الغريبة والمدسوســة مما شوه ديننا وافسد سلوك كثير منا ، وهكذا امتلأت مصادر الثقافة الاسلامية بالغث والسمين ممــا اورث عقولا مختلفة ومسالك منحرفــة واثــار مشاحنــات ومنازعات اضاعت كثيرا من وقت امتنا عبر تاريخها ، والعجيب ان الجانب الخرافي المدسوس على الاسلام عن قصد او غير قصد قد استطاع ان يحظى بمكانة محترمة من عقول العوام بل وبعض الخواص . . وقــد حــاول بعض علمائنا الاجلاء عبر التطورات الاسلامية تصفيــة

من الكتاب ولا من السنة ولا جعلوا الكتاب والسنة محك درسها واستنباطها وانما قلدوا فى وضعها الدول الغربية ونخشى ان طال الزمان ان تعم هذه القوانين سائر الاحوال بالامم الاسلامية كلها وتبقى الشريعة الاسلامية معطلة لا قدر الله ، فيصدق علينا قوله (ص) ان الله لا ينتزع العلم من صدور الرجال انتزاعا ولكن ينتزعه بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فافتوا بغير علم فضلوا واضلوا ، وقوله (ص) بدا هذا الدين غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء وانه ليشتم من هذين الحديثين رائحة التوعد والتهديد لهذه الامة وعلمائها فى جمودهم وجلوسهم على مقاعد الكسل والتقليد لغيرهم وعدم اجتهادهم واستنباطهم من الاحكام ما يساير عصرهم ويصلح احوالهم .

هذا ولنا شاهد عيان فيما ذكرناه من خشية تعطيل الشريعة الاسلامية وهي دولة تركيا التي صارت (لا دينية) ولا تتقيد بالشريعة الاسلامية فى سائر احوالها واحكامها هذه مدة من نحو ستين سنة .

وما صدر منها هذا الامر الشنيع الا نتيجة لما كانت اتخذته قبل ذلك من تقليد الامم الاوربية .

ولذا ينبغي لعلماء الاسلام حفظهم الله الاجتهاد فى ادراك احكام الشريعة الاسلامية التي تقتضيها ضرورة الوقت اولا بدراسة الكتاب الكريم والسنة النبوية دراسة تفهم وتحليل لالفاظها وجملها وتراكيبها وما تقتضيه ، لا مجرد دراسة تقليدية لمن تقدمهم من الائمة فان الكتاب والسنة كما هما لاولئك الائمة الذين مضوا وكتبوا عنها ، هي كذلك لعلماء الوقت وسواهم ثم بدراسة الخلاف الواقع بين الصحابة والتابعين واتباعهم والائمة المجتهدين الاربعة الذين لا زالت مذاهبهم قبلتنا فى الاحكام رضوان الله عن الجميع ، ثم بالبحث عن سبب هذا الخلاف ومنسبه من الكتاب والسنة ، وكيف طبق صاحب كل قول من هذه الاقوال على احوال امته وبلاده ، ثم ينظر بعد ذلك فى هذه الاقوال وما يناسب تطبيقه منها علينا ، فان لم يوجد منها ما يناسب تطبيقه علينا وذلك يفيد جدا اجتهدنا فى استنباط حكمه من الكتاب والسنة مباشرة ، ونحن معذورون فى ذلك اذ ذاك غاية مقدورنا ونهاية ما فى استطاعتنا ولا يكلف الله نفسا الا وسعها .

نعم لا يمكن تكوين هذا الفريق من الائمة الا بعد الحصول على الشهادة العالمية العليا التي تعطي اليوم فى الجامعات الاسلامية لمن يسمون (العلماء) ، كجوامع الازهر والزيتونة والقرويين .

فمن هذه الشهادة الجامعية العالمية يبتدأ فى تكوين اقسام طبقة المجتهدين ويجب على الدولة القيام بشؤونهم وواجباتهم قياما حسيا ، بالانفاق عليهم فى الجامعة ثم بعد الخروج منها ، اذ هذا القيام هو الذي يمكنهم من استعمال افكارهم كي يكونوا قدوة للناس مسموعي الكلمة من كل من الدولة والامة وحينئذ يكونون مخاطبين بمثل قوله تعالى (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) وبمثل قوله تعالى (فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تومنون بالله واليوم الاخر) وقوله تعالى (فلا وربك لا يومنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) الى غير ذلك من الايات الواردة فى هذا المعنى ، اما علماء الوقت المتخرجون من الجامعات الاسلامية فى الوقت الحاضر فلا يمكن منهم الاجتهاد عادة لانهم مقتصرون على درس فقه مذهبهم ، قانعون بتقليد ما وجدوه فيه من الاقوال والخلاف لا يبحثون عن مصدر هذه الاقوال ومنشئيها ولا كيفية استنباطها من الكتاب والسنه او تخريجه منهما وبالله التوفيق .

با رة الاسلامة الحقة واشاعتها فى العالم الاسلامي و الاسلامي . ويجب ان نقوم بتأسيس مؤسسات مه ة مختلفة لنشر الفكرة الاسلامية كدور النشر و ابع والمسارح ، والستوديوهات السينمائية . و ر الصحافة ، والوسائل الفنية الاخرى من كل ما م شانه ان يسهم فى التكوين النفسي والخلقي والفكري للا سان ، وأول من كان يجب ان يقوم بهذا العمل هو ال ل الاسلامية وان تجعل هذه المهمة مسألة فوق ال اراىء السياسية والحزازات الشخصية ، فل احسنا النية لجعلنا من تلك المؤتمرات الاسلامية التي نعقد لاصدار التوصيات وللتنفيس عن العواطف ـ لجعلنا منها اداة فعالة فى خدمة الفكرة التي نصبو اليها

فاذا استطعنا ان نصفي ثقافتنا ونوحد فكرتنا فقد حصلنا على الاسلام الاول ومن ثم نستطيع ان نحصل على الاسلام الثاني ، وبالفكرة الاسلامية الحقة وبالفرد المؤمن الواعي نكون قد استوفينا سلاحنا في المعركة الايديولوجية التي يخوضها العالم بعد ان فشلت القوة .

اما الاعتماد على العموميات وعلى اثارة العواطف والاهتمام بجزئيات تافهة وشكليات فارغة وبالهجوم على « الملحدين » بالخطب الرنانة وبالتشاؤم من الاجيال الصاعدة فتلك اسلحة تضمن الهزيمة لحاملها .

فعلى المسؤولين من مفكري الاسلام وقادتهم ان يسارعوا الى تدارس امرهم على نحو مجد وفعال والى تنظيم انفسهم تنظيما محكما ولو بالوسائل القليلة التي لديهم لان الامر جد خطير يحتاج الى تقدير مناسب ، أما الذين لا يقدرون خطورته فانهم يعيشون على الاحلام التي تنفشع عند الصدمة الموقظة ، والله الموفق لخير العمل .

تطوان : عبد السلام الهراس



هذه الثقافة مما علق بها فكانت اعمالا عظيمة وجليلة استحقت اعجاب العلم والضمير ورغم ذلك فاننا ما نزال فى أشد الحاجة الى تصفية ثقافتنا من الدخيل عليها ونزع كل غريب عنها لنخرج بثقافة اصيلة تعكس روح القرآن والسنة .

فالفكرة الاسلامية الدارجة لدى الناس غير واضحة المعالم حيث لا تصلح ان تكون اساسا لحضارة فى حين انها فى أصالتها وجوهرها عين الحضارة ، فنحن الآن نعيش بفكرة تعكس حالتنا العقلية والاجتماعية ولكن نحن فى حاجة الى الفكرة التي كان سلفنا الصالح انعكاسا لها عند ما آمن بها .

وعدم وضوح الفكرة الاسلامية ليس مقتصرا على العوام بل نجده على المستوى الخاص ولذلك ، عند ما تحدث اخاك بفكرتك فى اصلاح العالم الاسلامي لا تلبث ان تجد بينك وبينه خلافات جوهرية وفروقا فى القدرة على فهم الاسلام وهذا الاضطراب يتحمل بعض المسؤولية عن كثير مما وقع ويقع من التكتلات الاسلامية التي نشاهدها فى العالم الاسلامي ، والحق ان تاريخنا الحديث شهد محاولة تبلور الفكرة الاسلامية فى بعض تلك التكتلات ، ولكن الاقدار حالت دون اكتمال نموها .

وان اعداء الاسلام ليستغلون ضعف الفكرة الاسلامية فى العقول فيشنونها غارة على الدين الاسلامي فيفترون عليه ويلصقون به اكاذيب ، ويزيفون عليه الافكار وتلك مؤامرات ناجعة فى تفجير الفكرة الاسلامية وتخريبها والحيلولة بينها وبين عقول الناس ، ولذلك كانت البهائية والاحمدية وما على شاكلتهما محاولات من ذلك النوع ، ومرادها الحد من مد الفكرة الاسلامية الحقة ، والمبادرة الى المناطق التي يتشوف بعض افرادها الى الاسلام لتلقينهم « اسلاما مزيفا » حتى ان خرجوا من الفكر وقعوا فى مثله ، وللاستعمار والصهيونية ضلع كبير فى هذه المؤامرة .

ومما يتصل بمشكلة « الفكرة » ان التطورات الجديدة فى العالم الاسلامي تسير على خط مشوش وان كانت السمة البارزة عليه هي « التغريب » مما يجعلنا نأخذ عن الغرب حلوله لمشاكله لنطبقها على مشاكلنا ، كما نأخذ عنه بعض اساليبه فى الحياة ، ومن المؤسف ان عقليتنا لا تفرق بين المناهج العلمية التي يجب ان تؤخذ عن اي امة كانت وبين عادات واخلاق ومشاكل وحلول وظواهر اجتماعية ونفسية التي ينبغي ان نكون حذرين منها ، ولكن الذي يقع هو اننا نأخذ عن الغرب بعض عاداته ومظاهره مما نقلده فى نظمه القانونية وبذلك تنزوي تشريعاتنا ومبادئنا الاسلامية لانها لم توصل باسباب التطور ولم تستمر فيما يجري فى بلاد المسلمين ، فليس هناك علاقة متينة بين الفكرة الاسلامية وتطور المسلمين ، فتطورنا سائر على محور غربي وان كنا لم نعدم من كتابنا من حاول ان يلائم بين الاسلام وهذا التطور ويسارع الى تفصيل الاسلام « على قدره » ، فيصف الاسلام بالاشتراكية مثلا ، وهكذا كلما ظهرت مظاهر جديدة فى الحكم او الاقتصاد عند الغربيين سارع بعضنا الى تشويه الاسلام ومحاولة طبعه بطابع تلك « الموضة » وقد اشتط البعض فى هذا النوع حتى اتى بالعجب العجاب مما يأباه الفكر والذوق معا .

ولذلك ينبغي علينا ان نربط فكرتنا بتطورنا ، بمعنى ان يكون تطورنا منبثقا عن الفكرة الاسلامية ، الطارئة على اساس من الفكرة الخاصة بنا دون اللجوء الى استجداء الاجانب فنحن اصحاب رسالة ، والرسالة لن نكون كذلك الا اذا كانت تحمل عناصر جوهرية للحضارة وهذه العناصر ليست هي مدح الاسلام وانشاد القصائد فيه او العموميات التي نلقيها هنا وهناك ، بل هي الفكرة البسيطة الرائعة المبثوثة في الكتاب والسنة ، ولذلك كان من الواجب ان نسارع الى عقد مؤتمرات اسلامية لتحديد محتوى تلك الرسالة كما هي فى الكتاب والسنة وكما يفهمها عباقرة المسلمين ثم استخراج الحلول للمشاكل التي طرات على المسلمين فى حياتهم الجديدة ثم تصفية الثقافة الاسلامية من الدخيل ثم توحيد المذاهب وبذلك نخرج باسلام بلا مذاهب ، وباسلام مجدد نظيف رائق وبذلك يقدم مفكرو العالم الاسلامي « الفكرة » جاهزة لاجيالهم واضحة لا اضطراب فيها ولا غموض بحيث يمكن تطبيقها فى اى بلد اسلامي ، ولقد قدم لنا بعض هؤلاء المفكرين دراسات ومحاولات رائعة فى هذا المجال مثل مالك بن نبي ، وابي الاعلى المودودي ، والسيد قطب ، والشيخ شلتوت ، وابي زهرة ، والسباعي ، وغيرهم ، ولذلك ينبغي ان نكثر من تلك الدراسات ومن تلك المحاولات ونقيم لذلك اكادمية اسلامية دائمة للاهتمام

الصلاة) ، وبهذا يتمشى الاسلام مع الفطرة السليمة والنفوس المستقيمة يعترف بدوافع النفوس وحاجاتها ويلبيها بطريقة منظمة نظيفة . فلا يترك لها العنان تندفع كالمجنون وكالسيل العارم لتفسد كل شيء . ولكنه يضع العقبات فى طريقها ، لا عقبات تستأصلها من اعماق النفس ولكن موانع وحواجز لتحتفظ بها لوقت الحاجة يقيم هذه الحواجز والموانع لا فى داخل النفس ولكن من خارجها ويبعد عنها أسباب الاثارة والاغراء . وانتفي بذلك الكبت ويبقى القمع والارادة والتحكم المستبد لا فى الدافع الفطري الغريزي ، ولكن فى الدفعة الجامحة والانطلاق الحيواني الشهواني . انه اذن يعترف بالغريزة ويقرها ولكنه يقف دون الطرق الغير المشروعة التي تود ان تسلكها للتنفيذ والاشباع ، وليس هذا القمع والتحويل ادنى درجة فى الخطر على النفس والمجتمع بل هو ضروري لاثبات الوجود الانسانى وبيان تعين بالعقل والبصيرة والتفكير . وارتقاء كريم من عالم الحيوان الاعجم الذي تسيره الغريزة دون بصيرة منه او تفكير .

مثال من غريزة اخرى :

ولناخذ غريزة البحث عن الطعام التى تحبب الاكل الى كل نفس ، فلو قال انسان ان حب الطعام رذيلة وخطيئة ثم هو فى نفس الوقت محتاج ان ياكل ويشرب فهذا هو الكبت الذى يوقع النفس فى صراع عنيف برغبتها الملحة بين اوامر العقل الباطن فى استصدار هذه الدوافع فتنشأ العقد النفسية والاسطرابات العصبية ، ولكن الرغبة فى الطعام اتركها لتنبع نفسها دون رقيب او تنظيم ، اذن لوجدنا الايدي تمتد الى كل فاكهة حلوة فى الطريق وتختطف كل طعام تشتهيه وتلتهم ما قد يسر لها من الطعام التهام الحيوان المفترس الذي لايعقل ولا يفكر . اذن لابد ان نهذب هذه الغريزة وتقوم . فنكون للطعام نظاما لتناوله وآدابه ، والطريق المشروع للحصول عليه . فاذا اعجزه ذلك فليصبر قليلا على الجوع والعطش حتى ينال بذلك حاجته بطريق طيب

ولقد ابيت على الطوى واظله

حتى انال به لذيذ المطعم

ولم يقل انسان بان ذلك التنظيم والقمع لغريزة البحث عن الطعام والحصول عليه يصيب النفس بالعلل والامراض ، فما بالنا نقر هذا التنظيم فى مجال هذه الفريزة ثم اذا طالبنا بالتنظيم فى الغريزة الاخرى قالوا لنا ان هذا يصيب النفس بالصراع والعلل وما هي الا دعوى شيطانية لا تستند الى اسس من علم او عقل او بصيرة . اللهم الا اتباع الهوى والتحايل الخبيث على افساد المجتمع واضلال افراده .... ان ضبط الفريزة الجنسية وقمعها وتنظيم مصارفها لهو واجب على كل شاب حتى تستقيم حياته ، ولن ينتج عنها من اثر فى الجسم او النفس الا تقوية الارادة وتماسك العزيمة . والا يكون الانسان اسير شهوته وعبد رغبته، بل يتعالى عن كل هذه الدعاوي فى نفسه وبذلك يتعود معالي الامور ، ولا تشق عليه تكاليف الحياة ومشاكلها ويجد فى نفسه القوة التي يقابل بها الصعاب والازمات فلا تخور نفسه أمام كل نازله ولا يذهب لبه عند كل مصيبة . ولكن هذا القمع لابد له من اسباب تساعده وتاخذ بيده . ومن الاسباب التي تعين الشاب على العفة فى حياته المقبلة .

1) التربية الدينية : ولا نقصد بها تعليمه الصلاة والصيام وفرائض الاسلام فحسب ولكن نقصد من ذلك تربية وجدانه الديني وتقوية ايمانه بالله ايمانا يجعله يدرك تمام الادراك أن عين الله تلحظه فى كل وقت وان عنايته تحوطه فى كل مكان وان علمه لا يخفى عليه شيء حتى حديث النفس وخواطرها مكشوفة معلومة لله « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد » « ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم اين ما كانوا » « وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه » فيعيش الشاب فى هذا الجو الروحي الكريم يعبد الله كانه يراه (فان لم تكن تراه فانه يراك) ، فاذا همت نفسه بمعصية او حدثته بخطيئة او سولت له شرا عف من اعماقه : الله معي ، الله يراني . الله ينظر الي ، فيستحي أن يراه الله على معصية فيعيش دائما فى قانون من اخلاقه وحصن من فضائله لا يقاوم نوازع الفطرة وانما يحافظ عليها حتى يصرفها فى الطريق المشروع السليم ، وان الفريزة لتعرف كيف تصرف نفسها بنفسها فتخرج الفضلات الزائدة وحدها بغير اثارة ولا تنبيه فى النوم حتى لا يكاد يدرك الانسان ذلك فى الصباح .

2) العلاج الثاني وهو سلبي يتلخص فى منع اسباب الاثارة والاغراء فلا بد من اقامة مجتمع نظيف لاتهاج فيه الشهوات فى كل لحظة ولا تستثار فيه الغريزة بدفعات اللحم والدم فى كل حين فالنظرة الخائنة والحركة المثيرة والزينة المتبرجة والجسم العاري والكلمة المتكسرة كلها تهيج السعار الحيواني المجنون فى النفس وتثير كوامن الغريزة ، فتنطلق باحثة

كيف سما الإسلام بالغريزة الجنسية

للأستاذ فريد العراقي

يتدخل في سلوك الانسان غرائز فطريه جبل عليها، وهي اساسية في انتظام حياته، منها غريزه المقاتلة، وحب الاستطلاع، والبحث عن الطعام، والرغبة في الاستعلاء .... والفريزة الجنسية او غريزة حفظ النوع ــ ومعناها وجود ميل فطري بين الرجل والمرأة، ميل عميق في التكوين الحيوي، يجعل الرجل يطلب المرأة والمرأة تطلب الرجل حتى يتم الابقاء على الجنس البشري، ويتم امتداد هذه الحياة على ظهر الارض، وتتحقق خلافة الانسان . واستعماله لهذه الارض « هو الذي خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » . وتظل هذه الغريزه تلح على التقاء الرجل مع المراة حتى يتم ذلك . ولذلك لابد ان ينظم هذا اللقاء حتى لا ينشا عنه فوضى، تؤدي بحياة الانسان وحضارته وتفسد كل تنظيم يقيمه وتحطم كل تقدم يحرزه ... ولكن كيف يتم هذا التنظيم ؟ ليس له الا طريقة واحدة وهي ان يتم لقاء رجل معين مع امرأة معينة بعقد يشهده الناس ويباركونه وهو الزواج المعروف بشروطه وقوانينه ومقدماته، ويتم ذلك حينما يستطيع الرجل تحمل تبعاته المادية، ويكون مستعدا لذلك جسميا ونفسيا، وعليه في هذه الحالة ان يسارع لتحقيقه ولا يتأخر عنه. فقد قال عليه السلام : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فانه اغض للبصر واحصن للفرج » . (الباءة = المقدرة) وهذا هو التصريف السليم لهذه الغريزة فيشعر الشاب برجولته ويصبح رب اسرة مسؤولا عن بيت تشاركه زوجه في بنائه فيتربى على تحمل التبعات ويشعر بقيمته في المجتمع يساهم في بنائه ويتحمل نصيبه من العمل لخدمة وطنه وسعادة مجتمعه .

عقبات في الطريق :

ولكن المجتمع الذي نعيش فيه، سرت اليه تقاليد وعادات غريبة عنه : فقد بساطته، وتعقدت امامه وسائل الحياة وفقد الزواج معناه الفطري السليم واصبح مجالا للتفاضل بالاثاث والرياش والمباهاة بالمظاهر والحفلات التي لا تغني شيئا بل قد تكون فيما بعد نكبة وسببا من اسباب فشل الحياة الزوجية مع ان الاسلام يقرر ان اكثر الزواج بركة اقله نفقه .

وكان ان تعقدت في هذا المجتمع وسيلة كسب العيش، واصبح الشاب الذي يبلغ الحلم في سن الرابعة او الخامسة عشره او ربما قبل ذلك لا يستطيع ان يجد المجال الطبيعي لاشباع غريزته بالطريق الطيب الحلال اي « الزواج » الا في سن الخامسة والعشرين او اكثر، اذ عليه ان يبقى عشر سنوات في صراع مع دوافع الفريزة في نفسه التي تلح عليها ان يشبعها بأي وسيلة او بين تقاليد المجتمع الموروثة وبقية من خلق وفضيلة لا زال يتظاهر بها هذا المجتمع، يقع الشاب في صراع شاق عنيف ان لم يجد ما يعينه عليه ويشد أزره فيه ويقدم له العون والنصيحة المخلصة فانه قلما يتماسك في هذا المجال . سنوات عجاف على الشاب ان يمضيها قبل ان يعترف له المجتمع بحق اقامة الاسرة . (ويقول علماء النفس في هذا المجال ان كبت الفريزة يصيبه بكثير من العقد والعلل النفسية . وهم بهذا يصرحون من طرف خفي بالتحايل لاشباع هذه الفريزة قبل الطريق السليم المشروع ولكن لنقف وقفة امام الكبت والقمع) .

الفريزة بين الكبت والقمع :

والمقصود بالكبت . كبح دوافع الفريزة في النفس ومقاومة الميل الفطري، والفريزة لا تقاوم، والفطرة لا تقهر . فعندئذ لابد ان تتسرب الفريزة في جنبات النفس كطوفان غامر وجد امامه سدا منيعا . فلابد ان يفيض على الجوانب ويتسرب الى الاعماق، وفي كلتا الحالتين تحدث في النفس البشرية وفي الجسم البشري تلفا وفسادا . والاسلام لا يكبت الفريزة بهذا المعنى بل يعترف بها ويقررها حقيقة واقعة (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث) ، فهذا الميل اذن محبب الى النفس ليس بقذر في ذاته ولا عيب ولا دنس بل ان النبي عليه السلام يقول (حبب الي من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في

موقف ملوك الدولة العلوية وفخرها المولى اسماعيل من مؤسسة الاحباس

للأستاذ محمد الطنجي

لابي النصر المولى اسماعيل بن الشريف العلوي ملك المغرب مواقف عظيمة وفخر تجل مآثرها عن الحصر ، تواكب شخصيته الفذه وعزيمته القوية ، ونوائم همته الملوكية ، واتساع افقه في الميدان السياسي والاداري الذي نتج عنه تاريخ حافل ، ترعرعت في ظله الدولة الفتية واستقر الامن ، وكثر العمران والازدهار وطالت مدة حكمه من سنة 1083 الى سنة 1139 هجرية الى ستة وخمسين سنة ، ومن القضايا التي استرعت اهتمامه ونجلت فيها مساعيه البيضاء قضية الاحباس الاسلامية في هذه المملكة التي كانت موضع اهتمام ملوك الدولة العلوية على العموم وعلى راسها عظيمها المولى اسماعيل ولاشك ان نفسه الكبيرة انطوت على عوامل قوية تدفعه لرعاية الاملاك المحبسة .

اولا تدينه فقد كان يحامي عن الاسلام وارض الاسلام بسيفه وقلمه ، فكان يدعو الرهبان بايالة المغرب المناظرة بحضرته عسى ان يقتنعوا بدين الاسلام المبني على المنطق والحجة ، ولم يكتف بهذا بل كاتب رؤساء دول من اوربا ، يحاجهم في أحقية دين الاسلام ويدعوهم اليه عسى ان يهديهم الله لاجابة دعوته وما عليه الا البلاغ .

ثانيا : رغبته في نشر العلم الديني والدنيوي واستشارته للعلماء في مهمات الدولة ، وهذه المساعي تتطلب العناية بالمؤسسة التي تسند امور الدين ، ... من استمرار الاقبال على تعلمه والقيام على ... باماكن عبادته التي هي مساجد الله ، وتلك ... الاملاك الحبسية .

ولذلك خصصت هذه الكلمة لموقفه من مؤسسة الاحباس لرغبة وزارة الخارجية التي ستقيم مهرجانا لذكرى مرور ثلاثة قرون على اتخاذ هذا الملك العظيم مدينة مكناس الفيحاء عاصمة لملكه العتيد ، فقد كان للمولى اسماعيل ازاء الاحباس موقف عظيم حفظ الكثير من اوقاف المسلمين من الضياع والغصب ، والسرقة والنهب ، وذلك بالعناية بها والمساهمة القيمة في تكثيرها ، وانشاء الدفاتر الرسمية لتسجيل واحصاء املاكها .

والواقع ان العناية بمؤسسة الاحباس ابتداها مولاي الرشيد العلوي ابان استيلائه على فاس ثم وسع دائرة هذه العناية مولاي اسماعيل واستمر على هذه الطريقة عظماء الدولة العلوية الى وقتنا الحاضر .

فقد ذكر ابو القاسم الزياني في شرحه لألفية السلوك عند تعرضه لجلوس مولاي الرشيد على دست الملك بالعاصمة الفاسية ما معناه انه وجه للاستاذ ابي زيد عبد الرحمن بن القاضي الفاسي يستقدمه عليه لدار امارته فاعتذر بعدم القدرة لكبر سنه وملازمته لبيته ، فاتاه السلطان لعرصة قريبة من بيته من ثقب احدث في سورها فقال له السلطان . جئتك لاستنيرك فيمن اوليه بفاس من حاكم وقاض ومحتسب وناظر ، فقال له اما الحاكم فلا اتقلده ، والقاضي حمدون المزوار . والمحتسب عبد القادر المركني الفلالي والناظر العدل مسعود الشامي ، ولما خرج من عنده امر ان يبنى بالمحل الذي دخل منه باب وبقي طريقا فهو درب الدرج لم يكن قبله .

عن ارواء ، فاما ان ينفلت الزمـام وينطلـق الانسان كالبهيمة ، واما ان تزيد حرارة الكفاح ويصرف الانسان كثيرا من طاقته في هذه وتلك فتبدد طاقات يمكـن ان تستفيد منها الامة في نهضتها فـلا بـد اذن ان تغض الابصار عن كل حرام من كلا الجانبين ، « قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهـم ذلك ازكـى لهم .. وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها » والنظـرة اول سهام الشر الى النفس فاذا اتقى الانسان هـذه السهام فقد سلم وسلمت لـه نفسه وان تعرض لها قلما يعود الا بجراح وحسرات ، قال صلى الله عليـه وسلم : « النظرة سهم من سهام ابليس المسمومة من تركها خشية الله اذاقه الله حلاوة الايمان في قلبـه » ولا بد لجسم المرأة أن يستتر حتى لايكون نهبا مباحـا لكل ناظر وسلعة رخيصة مبتذلة في الاسواق ، « يا ايها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك ادنى ان يعرفن فلا يؤذين » وللمرأة ان تلبس ما شاءت بشرط ان لايظهر الا وجهها وكفهـا والا تكون ثيابا ضيقة تصف ما تحتها او رقيقة مشمام وقد امرنا الله سبحانه ان نحافظ على انفسنا واهلنا من النار ، « يا ايها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم نـارا وقودها الناس والحجارة » ، والاسلام يرسم نظامـا كاملا للحياة بجميع صورها وليس لنا ان نخرج عنـه في اي امر صريح من اوامره (لايؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) .

الاختـلاط واثـره في النفـوس :

يقول بعض مدعي العلم ان الاختلاط بين افـراد الجنسين وازالـة الحجـب والموانـع والترخـص في الحديث واللقاء والخلوة والتنزه اطهر للقلوب واعـف للضمائر واعون على تصريف الغريزة المكبوتة ، واشعار للجنسيـن بالادب وترقيـق المشاعـر والسلـوك . وهذا القول لا يستند الى علم ولا الى واقع . اما العلم: فنعلم ان الغريزة دافع فطري لا يفتر عن النداء والمطالبة ولا يكون اباحة الشيء لها وتيسير وسيلة لاشباعها مما يقلل لهفة النفس عليه ورغبتها فيه . ولنأخـذ مثـلا كذلك من غريزة البحث عن الطعام : فالطعام المباح في كل وقت هل ادى ذلك الى ان تعافه النفس ويعرض عنه الطبع . بل ان الفرد اذا ــ تعـددت امامـه اصنـاف الطعام والشراب ازداد نهمه حتى انـه لينسى اتساع بطنه فيأخذ اكثر من حاجته فيضر نفسه ابلغ الضرر .

وقد يصبر الانسان على الجوع مـا دام لا يـرى امامه ما يغريه بالطعام والشراب ــ والزوجة في منـزل زوجها مباحة له فهل كان ذلـك ــ سببـا في هجر ـا والصدود عنها ، لا ، بل انها تلبي نداءه في كل وقت بـ ام يجعل الحياة تسير في مستواها الرفيع واذا سألـ ـت شابا ممن يمارس الاختلاط فعـلا عـن شعـوره عـ ـد الاختلاط وبعده لاجابك بصراحة ان لم يمنعه الخجـ ـل والحياء ان يصرح : انه كشخص جائع يجد امامه الـ ان الطعام الشهية ورغم رغبته فيه يخجل ممـا حولـه من الناس ويتمنى من صميم نفسه لو خلى بينه وبين ـ ـ يشتهي حتى اذا انصرف عن مجتمعه هذا ولم يحقـ ـق رغبته انصرف الى احلام او الى تفكير قذر سقيم او لى فاكهة محرمة رديئة ساقطة يلتقطها من هنا او هنـاك يسد بها جوعته ويطفي بها ظمأه : نحن نلوم الشبـاب ونحن الذين نضعه في اللهب ونطلب منه ان لا يحتـرق والقرآن يقول : (واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن مـن وراء حجاب ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن) ، يقول هـذا عن نساء النبي صلى الله عليه وسلـم أمهـات المؤمنين وعن رجال الصدر الاول وهذا التشريع انما هو عـام لجميع المؤمنين .

المـرأة العاملـة :

ولكن تقاليد المجتمع وتعقد اساليبـه في الحيـاه اضطرت المرأة ان تخرج ــ لتعمـل ولا بأس في ذلـك ولكن في حماية من العفة والخلق وعـدم الاثـارة (ولا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قـولا معروفا) أي لا منكـرا ولا فاحشـة . ثم يقابلهـا مـن الطرف الآخر شباب غضيض الطرف يراقب ربه في سره وعلنه . في هذه الحدود ــ وبهذه الشروط وعلى هـذا الاساس تعمل المرأة وتتعلـم . اما كمـا نـرى الآن في مجتمعنا هذا الاختلاط المثير لغير ما ضرورة ولا مبرر الا بدعوى المدنية والتقليد الغربي فهذا ما حطم فيمنا الخلقية وشوه الشكل الفطري لمجتمعنـا الاسلامـي . فما هي ضرورة الاختلاط في ملاعب الرياضة وساحات السباحة وما هي موجباته في مدارس يمكن ان نوفـر فيها اسباب الاحتشام والفضيلة .

نقطة اخيرة في الموضوع يجب ان نحمي المجتمع من جميع المثيرات كالقصص الداعرة والافـلام التـي لا تهدف الا لاثارة الجنس ، وان يكون هناك رقابـة على الاداب العامة في الطرقات ومجال العمل حتى لا ينطق علينا قوله تعالى : (ان الذين فتنوا المومنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق)

سـلا : فريـد العراقـي

ذلك **بتوقيعه في هذه الحوالة الكبيرة** ، وجرى نظره في ذلك على احسن طريقة واكمل سيرة ، وابقى مدة ف الجميع على غرض المحبسين وعلى ما تدوم به عمارة المساجد على مر السنين ، فكان ذلك كله نظرا وصوابا ، وحسنة (بياض) مولانا أيده الله عند الله صوابا) .

وبعد هذه التفصيلات تذكر مقدمة الحوالة الحبسية استبشار المسلمين وكثرة دعائهم لحامي حمى الدين المولى اسماعيل . ويظهر ان المولى اسماعيل اسند النظر في عموم الاحباس بعد الناظر الفيسي الى السيد بلقاسم المسطاسي الذي كان بمنزلة وزيرها ينظر في جميع مصالحها ، ويولي ويعزل نظار الجهات مباشرة ، فقد وقفت على ظهير تجديد المولى عبد الله بن اسماعيل للناظر العام السيد بلقاسم المسطاسي ما كان عليه من الولاية العامة على امور الاحباس ، نص الظهير المؤرخ بمنتصف جمادى الثانية سنة 1143 هجرية ، بعد الحمد والصلاة على النبي والطابع العلوي الشريف : كتابنا هذا اسماه الله واعز نصره ، وخلد في دفاتر المجد امره وذكره ، بيد خديمنا وحبيب ابوابنا الارضى الاخير الاقرب السيد بلقاسم المسطاسي وبتعرف منه بحول الله وقوته وشامل يمنه العميم ونصرته **اننا جددنا له به ما كان عليه من النظارة في امور الاحباس في جميع الاقطار والمدن والبلدان والقرى والمداشر** ، وبسطنا له اليد الطولى على جميعها بحيث لا يقصر عن البحث والتفتيش في الادنى والاقصى فان جل مهماتنا هذا الامر الاكيد **وجعلناه العوض منا في ذلك** واني بفضل الله تعالى وقوته اقمته هذا المقام على مر الليالي والايام فعليه بتقوى الله ومراقبته في سره وعلانيته ، **وعليه بمحاسبة النظار واهل النظر في هذا الامر حتى يترك من اراد ويولي من اراد** ، ومنا اليه في التقصير ، وعلى الله المعول وهو حسبنا ونعم المولى ونعم النصير) فصيغة الظهير بالتجديد تدل على ان هذا الناظر العام كان متوليا قبل ذلك .

ويستفاد من مؤرخ الدولة العلوية العلامة السيد عبد الرحمن بن زيدان رحمه الله ان السيد الطيب ابن احمد بن غازي المكناسي كانت له رياسة وزارة الاوقاف المغربية في سائر الايالة العلوية والنظر التام والتصرف العام في جميع الاحباس على عهد السلطان مولانا عبد الله بن اسماعيل ، وان ابن زيدان وقف على محاسبة لناظر اوقاف الجامع الاعظم بمكناس سنة 1149 هجرية ولاحظ انه لم يكن يطلق على الناظر العام اسم الوزير .

هذا وان المتتبع للحوالات الحبسية يجدها انشئت في عهود عدة ملوك علويين منها المحمدية ومنها السليمانية ومنها غير ذلك .

وقد بقيت احباس بعض المدن دون تسجيل الى زمان مولاي محمد بن مولاي عبد الرحمن بن هشام ففي مقدمة حوالة مدينة سلا حكاية عن جلالة مولاي محمد بن عبد الرحمن ما نصه : **ورأى ايده الله** وزاده بسطة في ملكه وجمع الخلائق في عقده المتناسق وسلكه **الاوقاف المتوافرة الوافرة المقوية بمستفادها على** زاد العبد للاخرة التي اوقفتها الامة الاسلامية ، واسست بنيانها الدولة **الهاشمية بالثغر الجهادي** الانور ، والركن المشيد الاشهر ، المسمى بمدينة سلا ، صانها الله من كل آفة وبلاء وحرسه بعينه التي لا تنام، بجاه سيدنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام **وبلغه نصره الله وايده ، وادام رشده وسدده ، ان تلك الاحباس والاوقاف لا جامع لها ، ولا ضابط يصونها ،** مع طول الزمان من الاتلاف ، وانما هي بتقاييد ورمامات لا يتوصل الى تحقيق ما بقي منها وما فات الا من دفاتر ولاة امر النظر ، ولا يخفى ما في ذلك من الخطر ، وهذا هو العرف عندهم القديم ، لا يقدرون له على تأخير ولا تقديم ، امر أيده الله وأعزه وادام مجده وعزه قاضي الثغر المذكور حينه ووقته ، الفقيه الدراكة النقاد ، شمس سماء الفضائل وبدرها الوقاد أبا المحاسن أبا بكر بن المرحوم الفقيه العلامة **القاضي سيدي محمد عواد** ان ينظر في تلك الاوقاف السعيدة نظر الرائد ، ويعمل الجهد في استنساخها ووصل الصلة بالعائد ، وتؤلف كلها **بديوان جامع لاشتاتها ، ومحيط باجزائها وكليتها ، على نسق حوالة أهل فاس الغراء** ، لانها عمل من تقادم من جهابذة العلماء والقراء ، ويلتقط ذلك من مظانه الخفية والشهيرة ، ويبحث عما ابهم امره من اجزائه اليسيرة ، فكان من انعام الله على القاضي المذكور وتيسيره ، ان صادف الامر الشريف بذلك اول ولايته القضاء وتصديره ، **ففتتح به عمله** السعيد بادىء بدىء وشرع فيه مستعينا على حمل ذلك العبء وامتثل امره الشريف العالي بالله

ولما بلغ دار الامارة نفذ الامارة لسيدي محمد بن احمد الفاسي والقضاء للمزوار والحسبة والنظارة لمن ذكر ، **فامتنع الشامي من النظارة فسجن سبعة أشهر ، ولما ضاق به الامر اجاب على شرط ان لا يتعرض له قاض ولا وال ، لان الاحباس كلها حازها اللصوص والاشراف ايام الفتنة حتى كادت ان تستأصل كلها واشتغل بالبحث عنها واستظهارها ومن اتهم بربع او ارض او جنان او دكان يحوز ما عنده من الرباع فما ظهر رسمه رده له وما وجد مغصوبا او لا رسم عنده علم أنه مغصوب فيحوزه للحبس حتى رد الاوقاف كلها وزاد عليها ما وجد مغصوبا من الوقف أو غيره .**

ومن تتمة هذه الاستشارة المبنية على الاخلاص من جانب السلطان مولاي رشيد ومن جانب الاستاذ عبد الرحمان بن القاضي ان القاضي المزوار أخذ يحكم بغير المشهور ، فكتب ابن القاضي لمولاي رشيد يقول له (ان من أشرت عليك بولايته له اصهار ، واصحاب تجار ، ومخالط لاعيان فجار ، فاقلني من عهدته اقالك الله من عذاب النار ، فكتب له أن ينظر للقضاء من هو اهل ، غريب الدار ، لا قرابة له ولا أصهار ، خامل الذكر ، فذكر له المجاصي الفيلالي فولاه القضاء بفاس) .

وعلى هذا الاجراء في الاحباس بعاصمة فاس يكون الناظر النزيه الكفء المثالي السيد مسعود الشامي قد ضرب المثل في رعاية قضايا الاحباس ، ويكون المولى رشيد الذي قبل شرطه واسنده وقواه، قد فتح الباب لمن يأتي بعده ، حتى تحفظ هذه المؤسسة الاسلامية وتحاط بسياج من الحصانة والاجراءات الادارية والتشريعية التي تضمن استمرار ادائها لمهمتها الاسلامية السامية ومن الممكن جدا أن يكون التلاعب باملاك الاحباس قد وقع في بلدان اخرى غير فاس فكان ذلك من البواعث التي جعلت المولى اسماعيل يتدارك بحزمه الاملاك الحبسية فيأمر باحصاء عام لجميع املاكها على اختلاف انواعها في جميع انحاء المملكة المغربية ، التي وحدها تحت سلطة العرش العلوي المجيد .

ولقد تصفحت عدة حوالات حبسية عسى أن أجد الامر بانشاء الحوالات الاسماعيلية الى أن وجدت في مقدمة حوالة تازة الجامعة التي كتبت في عهد مولاي اسماعيل بتاريخ 1116 هجرية اسناد نظارة الاوقاف العامة للكاتب السيد محمد الفيسي الفاسي بأمر المولى اسماعيل ، وما قام به هذا الناظر في الايالة المغربية فكان هذا الوجود سندا تاريخيا هاما ، ففي مقدمة الحوالة الحبسية لمدينة تازة بعد ثناء جم على المولى اسماعيل ما صورته :

وكان من جملة ذلك اعتناؤه ايده الله بعمارة المساجد وافتقاد احوالها بكل ما يعرض لها من نائس وزائد ، ولم يقتصر ايده الله ان قدم بنور هدايته لقضاء تلك المآرب ، وتشريف تلك المناصب خديمه الانصح الامين ابا عبد الله السيد محمد بن محمد بن احمد بن عبد الله القيسي الاندلسي الفاسي المشهور بالكاتب لما راى ايده الله فيه من زيادة الاعتناء ، وممارسة لعظائم الامور وتقديرات البناء ، فقلده امورها على الشمول والاستغراق ، واطلق له في محاسبة احباسها على العموم والاطلاق **فقام بحق ذلك بهذه الايالة السعيدة اي قيام ، واشتهر في اتقانه وضبطه اشتهارا لم يسبق به فيما تقدم من الايام** حتى انتهى في انتشار بحرته الى حضرة مدينة تازة ، ودشر الباهية ، وجمع من أحباسها ما كانت واهية متلاشية ، وقام في ضبطها قياما ابدع في طرقه ، واجاد في تهذيبه ونسقه ، وجمع من احوال احباسها ما افترق وتتبع من شواردها ما خرج عن حيزه وانطلق ، وضرب على يد من له فيه يد جائلة ، او عن سبيل البر والتقوى مائلة ، وحسب الجميع حسابا لم يدع فيه شاذة ولا فاذة ، ولا ترك فيه لذوي الشبهات علاقة ولا جادة ، وتقدم بنظره السديد ما تقوم به المساجد والمدارس والعلماء ما يستحقون . بتعمير المساجد وملازمة المجالس حتى انى ذلك بما ترضاه القلوب السليمة وترتاح به النفوس الحليمة ، لجريان ذلك على القوانين الشرعية **وموافقته للاوامر العلوية** ثم افتقد احوال مساجدها الصغار واستدرك من اثقالها ما اغفله غيره من النظار ، فاظهر لكل واحد من الاوقاف ما ينتسب اليه ، وناقش حساب من تصرف فيه او كان مقدما عليه ، حتى اتضح خراج جميعها واشتهر ، بحيث لا يجهل احد عده ، ولا يخفى قدره على محاسب بعده ، ثم كمل كل سحر

شخصيات من بلادي

أديب الفقهاء

للأستاذ
محمد المنتصر الريسوني

ذلك هو شعره ، انسيابات ، دفقات ، همسات تمثل كل نقلة من نقلات الشعور ، وكل وثبة من وثبات الخيال ، وكل طفرة من طفرات الاحساس .. ترفدها موسيقى ليست هي الوزن والقافية التي تكون الوشاح الخارجي للقصيدة بل هي اصداء الانفعال الذي تحسه عندما تقرأ له قصيدة فتتجاوب معها تجاوبا خاصا يطرب احاسيسك وتشعر كما لو كانت روح الشاعر قد تقمصت شخصك فلا تملك الا ان تلهث :

لا فض فوك يا شاعر ...

ان كل شيء فيه يشي بالوقار ... عيناه الخافتتان ... ووجهه المتلالىء المائج بالبشر ، قامته المعتدلة ، مشيته الوئيدة ، التفاتاته الهادئة الحالمة ، ضحكته الصافية الآمنة .

كل شيء فيه ينبي بالوقار ، كل شيء فيه يبعث في نفس رائيه الطمانينة والراحة ، فهو دوما يتحلى بنفس المنظر الجذاب اذا ما اصبح ويمتاز دوما بنفس المظهر الرائع اذا ما امسى حتى ليخيل لبعض أصدقائه انه ليس بشرا بل روحا شربت من خمرة الطهر المعصرة من دنان ماء المزن ، وتذهب بهم الظنون كل مذهب في سر ما هو عليه من هدوء شامل لا يستثيره ما حوله من ضوضاء ، لا تجده الا مبتسما للحياة يتمثلها من وراء منظار أبيض ، يسير في مساربها الى غاية ، يسير ومسعى يسدد خطاه ، وامل يلوح له من بعيد ، ورؤى ترف على حواشي آماله الوليدة تدعوه الى ان يقدم حيث ينتظره مجد سماوي واشراقات غيبية ، وارواح ازكى تباركه وتؤمن له بان مغريات الدنيا لا تلبث ان تنطفىء في لمح البصر ، وان القناعة النفسية والزهد في الاعمال ، كل ذلك يزرع في طريق المرء بساطا من الزهور مختلفة الالوان والاشكال ...

من اجل ذلك انقطع بعض الشيء عن الحياة انقطاعا لم يجعله يطلقها طلاقا بالثلاث وانما كان يحاول ما وسعته المحاولة ان يجانب ضوضاء الناس ومخالطتهم وكثيرا ما كان يتساءل في اعماق نفسه : ما الجدوى في الثرثرة ، ما الجدوى في الكلام المتطرف الذي قد يؤدي الى نهش الاعراض ، كثيرا ما كان يتساءل في اعماق نفسه فيجد الجواب ينساق اليه انسياقا :

لا جدوى ، غير ان الخير كل الخير في المثابرة الروحية التي تنبثق من مكمنها قوى الغلبة الداحرة للرغبات الدنيوية الظماى .

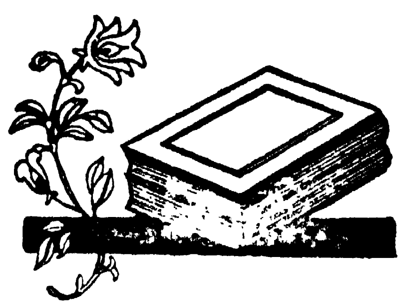
قصد المسجد الذي اعتاد ارتياده وتوجه الى المكان الذي الف الجلوس فيه ثم راح في تفكير عميق يتأمل ويوقظ من حنايا النسيان ذكريات له تحمل بين جوانحها صورا لشبابه الذي دب اليه البلى ، وحاول

وشرع في ذلك كاتبه **بالاذن** الشريف والاستعانة بلا حول ولا قوة الا بالله **حتى كمل الغرض المامور به كما امر ، وتم على احسن** حال مستمر ، وجاءت الحوالة والحمد لله في أحسن تقويم ، جارية على السند المرعي ، والنهج القويم ، سهلة المطالعة ، حاوية لما في غيرها من المقاصد ، جامعة مانعة متصلة الاماكن والاجناس ، منظمة التراجم مبينة ما لجانب الوقف كلا او بعضا من غير احتمال ولا التباس ، معينا منها كل جزء برسم مع تحديده وتعيينه بما له من وصف ووسم مشهودا على عينه بحوزه ، واستمرار التصرف فيه بانواع التصرفات الوقفية ، من غير مدافعة دافع او لمزه ، وبسبب ذلك لم تحصل منسقة لمطالعها حسبما يقف على ذلك ان شاء الله عقبه في اثنائها ، وتاريخ طلوعها طلوع البدر في التمام ، في عاشر شعبان من عام خمسة وثمانين ومائتين والف هـ .

ونريد ان نختم هذه النماذج من الحوالات الحبسية بأمر مولوي صادر عن السلطان مولاي عبد العزيز قدس الله روحه لناظر الدار البيضاء بتاريخ 28 جمادى الاولى عام 1315 هـ يتعلق باحصاء كامل لاملاك الاحباس هناك ونصه : خديمنا الارضى ناظر الاحباس بالدار البيضاء حرسها الله وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد ، فنأمرك ان تجعل تقييدا لجميع رباع الحبس الذي على يدك هنالك ، كل محل على حدته ، وتقييد ما بازائه اسم مكتريه ، وأن كان رعية فنبه عليه ، وان كان حماية فكذلك ، واذكر اسم حاميه ، وان كان اجنبيا فبين اسمه وجنسه ، وقيد امام اسم المكتري الكراء الذي يدفعه في ضلع ، وما يساويه اليوم كراء في ضلع آخر ، ومن كان متقاعدا عن الاداء نبه عليه ، وبين سبب تقاعده ثم قيد عقب ذلك المنفذ منها بدون كراء وبيد من هو وهل يعتمره المنفذ له او يكريه على بده وهكذا الى ان تاتي على جميعها على الوجه المذكور ووجه التقييد بها واصلا لحضرتنا الشريفة والسلام ، انتهى . ويظهر ان القصد من هذا الاحصاء والتقييد الزيادة في الكراء والضرب على ايدي المتلاعبين باملاك الاحباس .

هذه الكلمة الملمة بسيطة بموقف الملوك العلويين من العناية بالاحباس قبل عقد الحماية أما بعد هذا العهد فلها مجال آخر .

الرباط ــ محمد الطنجي



يف ا ما سوف يجده فى طريقه من اشواك وصعاب لان هذه المهمة تكمن فيها مسؤولية اقل ما يقال انها مسؤولية شائكة لمن يتقلدها ويقبلها وهو را. الجاش ، صادق النية ، نقي السريرة بصير بما يرقد فى كينونات المشاكل الحياتية التي تعترض سل الانسان ، وعلى الرغم من ذلك فقد زاول بسير الاسماء وتحمل اعباءه وواجه المعضلات بصدر رحب و لية نفاذة فكان المنطق عماده فى استنتاج النتائج ، وا عالي عن المزالق ركيزته الامر الذي جعله يمارس الوظيفة الشائكة سحابة خمسين سنة بين قضاء الرباط ومكناسة الزيتون .

ولعل هذا لم يتيسر الا لمثل بسير الذي اظهر براعة فائقة كاشد ما تكون البراعة ، ومهارة مدهشة كاحسن ما تكون المهارة ...

تلك حياته ...

فما هي شاعريته ؟ اهي صورة طبق الاصل لشخصيته ؟ ام هي ضعيفة مستضعفة ؟ اهي قدت من حجر اصم ، ام مستمدة من ينابيع الرقة والفتنة ؟ ..

الجواب عن هذه الاسئلة يستقطب فى هذه العبارات :

السحر الحلال ، اتعرفه ؟ السحر الذي لا تنفع فيه التعاويذ والرقى ، اتعرفه ؟ لا شك فى انك تعرفه واذا لم تكن تعرفه فالجواب ياتيك طوعا :

شعره مصاغ من قلب مفعم بانسيابات عاطفية ، ودفقات وجدانية تستحيل كلماته الى وقعات كوقعات الامل الرحيب ، وحركات جائشة وهمسات زاخرة مؤثرة ، ولهثات ملتهبة والتفاتات مرنانة الصدى ذلك هو شعره ، انسيابات دفقات ، همسات تمثل كل نقلة من نقلات الشعور وكل وثبة من وثبات الخيال وكل طفرة من طفرات الاحساس ترفدها موسيقى ليست هي الوزن والقافية التي تكون الوشاح الخارجي للقصيدة بل هي اصداء الانفعال الذي تحسه عندما تقرأ له قصيدة فتتجاوب معها تجاوبا خاصا يطرب احاسيسك وتشعر كما لو كانت روح الشاعر قد تقمصت شخصك فلا تملك الا ان تلهث :

لا فض فوك يا شاعر ..

وان اردت الدليل على ذلك فخذ قصيدة له غزلية تتمشى فى ثناياها حلاوة الرضاب وعذوبة النغم المجنح يخاطب فيها فتاة جميلة سرقت لبه وخلبت عقله اذ انها تتمتع بجمال فائق وفتنة تفوق الوصف الامر الذي جعل الشاعر يتساءل : هل فتاته خلقت من الشمس ام من النور والناس خلقوا من غير طينتها ؟ ومما يؤكد ذلك تاكيد يقطع دابر الشك عندما يقرر ان فتاته ليست من نسل آدم ولكنها سرقت من الملاك ((رضوان)) الغافل ، والشاعر قد كنى بهذا المعنى بان فتاته من حور العين ، وهو فى كل ذلك يقتبس بعض الاقتباس من الشاعر ابن زيدون فى قوله من قصيدته النونية المشهورة :

ربيب ملك كان الله انشأه
مسكا وقدر انشاء الورى طينا
او صاغه ورقا محضا وتوجه
من ناصع التبر ابداعا وتحسينا

فاستمع اذ يحدثنا عن فتاته الانفة الذكر :

يا بديع الجمال مم خلقت
امن الشمس ام النور انت
خلق المرء من حماء وطين
ومن النور والبهاء خلقت
لست انت من نسل آدم لكن
كان رضوان غافلا فسرقت

وان شئت دليلا آخر فاقرأ هذه الابيات :

زمان انارت مشرقات شموسه
بوصل رشا قد اخجل البدرنوره
رشا قدسطت الحافظةبسيوفها
ومزق قلبي واستتم سروره
وجيد جيد الريم يحكي صفاؤه
وحسنه بلورا فقلبي اسيره

ثم اقرا له هذه الابيات التي يشبه فى البيت الاول منها الورد الجني بخدود العذارى وقد زينتها سوالف الشعر :

ولما بدا الورد الجني كانه
خدود عذاري قدحمتها السوالف

ان يبكي لكنه لم يستطع ، لقد تجمدت الدمـــوع فى محاجره وما لبثت ان تسللت الى قلبه قطرات فيـــها دفء وحرارة .

ان الشيء الذي ما يزال يحز فى قلبه ويقلق باله ويجعل جنبه يكفر بالمضاجع تلك الجلسات العلميـــة اللطيفة التي كان يعقدها مع اصدقائه والتي كانـــت تسودها روح الاخوة والمحبة والتيكانوا يطرقون اثناءها احاديث مختلفة تمت الى الادب مرة وتتشعب مرات فتتناول خليطا من الثقافة ، ومما كان يضفي على هذه الجلسات البهجة والروعة تلك الروضة الجميلة التي تحرش عليها الياسمين وزانتها زهرات بيضاء انتثرت فى اشجارها الصغيرة كما تنتثر النجوم فى دجنـــة ، انها كانت آية فى جمال ، فكم اوتهم اياما عديدة رحابها، واستمعت الى احاديثهم المختلفة ارجاؤها ، اين هي تلك الروضة اليوم ، لقد عفت عليها السنون وطوحت بكل جميل فيها .

منذ ايام وقفت عليها استنطق ترابـــها واوراق اشجارها اليابسة التي كانت فيما مضـى تفيـــض بالحياة ، وسألت والحفت فى السؤال بيد ان فى تسآلي رجفة حزن ، ورنة اسى ، فبكيت واستبكيت ففصت لهاتي بمثل آهة مكبوتة وتمثلت بقول النابغة الذبياني :

وقفت فيها سراة اليوم اسألها
عن آل نعم امونا عبر اسفـــار
فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا
والدار لو كلمتنا ذات اخبـــار

الروضة اقفرت من الخلان فاصبحت سجل ماض حلو تعيش ذكرياته حية فى نفسي ...

وهو ان ينس فلن ينسى تلك الليلة الساجية ذات النجوم السواهر اليقظى التي القى فيها قصيدتـــه الغزلية فاهتزت لها النفوس طربا ، وتحركت لـــها القلوب تاثرا :

اتى العاشقين الحسن منك مجددا
فلبى فؤادي فى هواك مجرهـــدا
مضى عمر لم يكلف القلب بالهـوى
فلاحت له انوار حسنك فاهتـدى
وما حسن يخلو الفؤاد من الهـوى
ولا سيما قلـب يحبـك اسعـــدا
لحا الله من احسن يفند مغـــرما
غدا بشراب الحب فيك معربـدا
ابحت افتصاحي فى محبة شـــادن
احل دماء العاشقيـــن تعمـدا
يميل الى هجري ولو انـــه درى
بفرط اشتياقي واكتئابي تـــردا

حقيقة ، كانت الجلسات جلسات لا يجود بـها الدهر واذا جاد بها فسوف يجود بصورة مصغرة منها، تلك ايام غبرت وانطوت بغير رجعة ...

*

استفاق القاضي الاديب الطيب بن ابراهيـم بسير الرباطي الاندلسي من دوامة التفكير التي انداح فيها لحظات من الزمن انسلخ خلالها عن حاضره وغاص فى يم الماضي البعيد ..

ترى من هو الطيب بسير ... ؟

انه اديب الفقهاء ونسيج وحده ، فنان تقـــوده رهافة الاحساس ، ويحدوه صفاء الطبع ونصاعـــه النحيرة ، جاء الى الحياة وفى عينيه اشراقـــات التفاؤل ، ضرب بسهم وافر فى مختلف العلوم فاصاب منها وقتئذ فانفردت وحدها بالصدارة والمكانـــه الباسقة التي لم يتمتع بها الا بسير ، بسير على حده، بسير الذي نشد القمم وغفل السهول شانه فى ذلك شان النسور .

اخذ هذا الاديب عن العلامة الرهوني والشيـخ الفربي والفاضي العروصي وغير العروصي من جهابذة العلماء ، وكانت دراسته على الرهوني اثناء اقامته بوزان عند الشيخ علي بن احمد الوزاني وهو مـن جملة المقرظين لحاشية شيخه .

ولما اتم من التحصيل والطلب تصدر للافتـــاء والتدريس فاستمد من ينبوعه الثر جمهرة من افـذاذ الفقهاء من بينهم العالم المكي بوجندار والطاهر بريطل.

وعندما عرضت عليه خطة القضاء وقف بسير وقفة تامل وتدبر ، واقدام واحجام ، تارة يجمع شتات شجاعته وتارات تخونه عزيمته ، وفى الاخير يتقدم الى الميدان وفى نفسه عزيمة قوية على ان يقوم بعملـه احسن قيام ، وقام للقيام بمهام القضاء وهو يهـم

و ـكنى فؤادي بعض مزعجـــه
وحدثي عن أحبتي وحبيـــنا
ز ـي الخلي حشاه عن سواك ولا
يك (التنائي بديلا من تدانينا)

وهكذا تمضي القصيدة برمتها لا تشوبها احياناغير ـ ـرات فقهية لا تتساوق والاشعاع الشعري كمثـل ـ ـه : لا عيب فى الحب (ان صحت شواهده)

الا ترى معي ان عبارة (ان صحت شواهده) تدخل فى باب العلميات وخصوصا كلمة (شواهد) .

الا ترى معي ايضا ان الشاعر لو غير العبـــارة السابقة بهذه العبارة :

ان زفت بشائره

لناسق المجرى الشعري .

كما نجد بعضا من القوافي تنبو عن مكانها اذ انها لا تؤدى وظيفتها وانما سيقت لتكملة البيت كقوله :

واصلح الاهل والبنين كلهـــم
والمسلميـــن ومـــن يقول امينا

ومن نبوياته ايضا :

على سيدي حداة العيس سيروا
فانه مضعف مضنـــى كسيـــر
ولا تزجـــو مطاياكـــم حثيـــثا
فقلبي معكـــم ابـــدا يسيـــر
والا فاحملوا عنـــــي سلامـــا
الى مغنى بـــه القمـــر المنيـــر
الـــى دار النبـــوة والمعالـــــي
الى بيت به الهادي البشيـــر

ومن تخميساته :

وما اشتدت الازمات اوجا مفزع
او جاء قلبي مكـــرب او موجـــع
الا ونـــادى قلبـــي المتخشـــع
(يا من يرى فى الضمير ويسمع
(انـــت المعـــد لكـــل ما يتوقـــع)

ومن مساجلاته بيتان اجاب بهما بعض ادباء مكناسة الزيتون فى 21 ذي القعدة عام 1242 هـ نصهما :

اذا ما سما يوما اخـــوك لحظـــة
ولاسيما ان كانت الخطة القضـــا
فحسبك منه عشر عشر وداده
ولا ترتجي منه الوداد الذي مضا

*

خلقنـــا للحيـــاة وللممـــات
ومن هذين كـــل الحادثـــات
ومن يولد يعش ويمت كان لـــم
يمـــر خيالـــه بالكائنـــات

وتختار المنية فيما تختار شاعرنا الرقيق وقاضينا النزيه فى غضون سنة 1271 هـ فيغيب فى الاعمـــاق ، ويترامى فى احضان السكينة الخرساء بعد ان كـــان اكليل غار على جبين الشهباء ، وجذوة الامل الخافت ، وهمة فى شرايين الزمن ، وعزما موارا فى اوصال الدهر، فيرقد اخيرا بالزاوية التهامية بمحج سيدي فاتـــح بالرباط ينصت الى اناشيد السكون ، ودبدبـــات الصمت الرهيب .

تطوان محمد المنتصر الريسوني

اني باسما ثغر الافاحي مقارما
فقالت خدود الورد هل لك سالف
فلم يـر الا ان تنتشر عقده
يقبل ساق الورد والعقل تالف

ومن نظائر هذه الابيات قوله :

كانما الزهر اذ بدت محاسنه
لعين ناظرة في ناظر القضب
انامل صاغها الرحمن من درر
تضم كفا على كاس من الذهب

ومن تشبيهاته :

انظر الى البحر في امواجه
تاتي الى الشط احيانا وتنحرف
كانه ملك جاءت عساكره
تقبل الارض طوعا ثم تنصرف

وارهف سمعك الى قصيدة له يحكي لنا فيها كيف خالسه ساحر الطرف فغدا بعد ذلك مسحورا بلحظها مخبولا :

لاحظتني بساحر الطرف منها
فغدوت بلحظها مسحورا
وارتني من القناع منيرا
اخجل الصبح اذ بدا تنويرا
رق معنى جمالها وترقى
فرايت لديها حسنا كبيرا
خطرت تثني اعتدالا وعجبا
مثل ما حرك النسيم نضيرا
واشارت لمعصميها ونادت
من يصيد من الظباء الغريرا

الى ان يقول في الختام :

كذب القائلون اني اسلو
انه كان بالفؤاد بصيرا
ليت شعري وطال منها التجني
هل يعود وصالها لي سميرا

وهو اذ ينتهي من قصيدته الغزلية يشرع في نظم موشح جميل كله رقة تحكي رقة نغمات الارغن ودبدبات الجدول المنساب وحركات الموج الراقص ، تحدث الشاعر في موشحه الاتي عن حسن القدود اللينة والسحر في العيون الفاترة وعن اعذب الوصل عن الصدود ، ورشفة الخمر من الثغور ، في كل ذلك يحلو الغرام جهرا وعاذل الصب ما عدل ، يقول :

ما احسن اللين في القدود
والسحر في العين والفتر
واعذب الوصل عن صدود
ورشفة الخمر في الثغر
في ذلك يحلو الغرام جهرا
وعاذل الصب ما عدل
لو ذقت كاس الرحيق عذرا
مشمولة والدجى انسدل
ابديت للشاربين عذرا
ولمت من مال للعذل

فارتح لراح براح غيد
حور قصرن على القصور
يبسمن عن لؤلؤ نضيد
غنين عن جوهر النحور
ان مسن يوما هززن رمحا
فوقه شمس على كثيب
يسدلن من شعرهن جنحا
يكاد ان يستر الكثيب
وان رنا لحظهن لمحا
اتين بالساحر العجيب
يا طالب العز والسعود
مبتغيا ربة الخدور
اجمع مع الشرب نقر عود
واسدل على سرك الستور

هذه غزلياته ...

اما نبوياته فله نونية طويلة هي عبارة عن توسلات برسول الله (ص) ، ومناجاة دافئة بالتنهدات المعطرة بالاشواق والآهات المؤرجة بالاشواق ، وقد نظمها بمناسبة ذكرى مولده الكريم ومطلعها وهو رائع :

يا نسمة صافحت بالمسك دارينا
هبت لتحي ارواح المحبينا
لا تبرحي عن حما صب يشوقه
نسيم حبك تحريكا وتسكينا

حيـ نا الادبية ، اذ يجمع فى دقة وقوة بين اللونين اللذين ظلا يؤثران فى حياتنا الفكرية ويمزج بينهما وهما الثقافة الد ية (الازهر والزيتونة والقرويين) ، والثقافة الم ية وقد استطاع ان يمزج بين أسلوبي المحافظة والتجديد فى اعتدال وقوة ، وقطع بذلك مرحلة طويلة فى هذا الطريق الذي سار عليه من بعده الموكب كله ، ثم جدد « الاسلوب » حيث تحرر من الزخرف الف م وترجم من الادب الفرنسي وحمل كتاباته من « المعاني » على نحو جعل الاسلوب وسيلة للاعراب عنها ، وبذلك القى الضوء الاول على طريق المرحلة التجديدية .

ومن ثم بدات الهجرة الى اوربا وامريكا من مختلف انحاء العالم العربي حيث شكلت جماعات الادب المهجري وبعثات الجماعات ، وقد اتسم التجديد اول الامر بالعنف ثم رد بعد ذلك الى شيء من الاعتدال وهو انما اندفع الى العنف والتطرف نتيجة لروح الجمود الذي سار عليها الادب العربي فترة طويلة وتحت ضغط ما بهر المهاجرين والمبعوثين من عظمة حضارة الغرب وحريته الفكرية ، ولذلك مضى التيار التجديدي يعمق ويندفع وقد قام فى الاغلب على الثقافة اللاتينية والترجمة العلمية من الانجليزية والترجمة الادبية من الفرنسية ، ويمثل علماء لبنان جدارا ضخما فى حماية اللغة العربية « اليازجين والبستانيين واليسوعيين » وكان كتاب الشام اشد جراة من كتاب مصر ، وقد حمل الشام لواء احياء اللغة وتجديد الادب ودعوة القومية العربية والترجمة ، فلما كانت الهجرة الاضطرارية الى مصر امتزج تيار الشام بتيار مصر الذى كان طابعه علميا فى الاغلب وقد جرى الصراع بين المحافظين والمجددين فى ميدانين : 1) حول الاسلوب التقليدى الذي كان يحمل لواءه توفيق البكري ومحمد سرم وعبد الله نديم ومحمد المويلحي وابراهيم اليازجي والاسلوب الجديد الذي برز فى كتابات فارس الشدياق ويعقوب صروف وجرجي زيدان وفتحي زغلول وقاسم امين ، ثم فى اسلوب فرح انطون وشبلي شميل .

وكان الصراع فى الفكر تقدميا واضح الجراة يقوم على اساس الدعوة الى الحرية ومحاربة الاستبداد والاحتلال ، وتحرير الدين من قيود التقليد ، وتحرير المراة من الحجاب ودفعها الى التعلم والسفور .

قاوم جمال الدين ومحمد عبده وعبد الله نديم و د الرحمن الكواكبي الاستبداد والاستعمار فى قوة و ف ، ودعا فارس الشدياق ورفاع الطهطاوي وقاسم ا ن الى تحرير المراة ، وبدا الطهطاوي وفتحي زغلول وعشرات غيرهم الترجمة من الفرنسية ويعقوب صروف وفارس الشدياق من الانجليزية .

وبرزت الدعوة الى احياء التراث الاسلامي وبعثت اللغة العربية فى كتابات رشيد رضا ورفيق العظم ، وظهرت باحثة البادية واخوات لها فى الشام كزينب فواز يكتبن فى الصحف وينشئن الفصول .

وهكذا تمثلت فى هذه الفترة جميع عناصر الحياة الفكرية وهي تندفع الى الحركة والحياة لتسد الفراغ الذي عاش فيه الادب العربي خلال فترة الجمود والتقليد التي امتدت اكثر من ثلاثة قرون ، وكأنما قد بدات الحياة الفكرية تندفع بقوة وتتمثل فى محاولة مقاومة الاستبداد السياسي والاستعمار والاحتلال الفكري وقد حملت الصحافة لواء المعركة بين المحافظة والتجديد ، كانت مرآة لفكر كله ، على صفحاتها اثيرت كل قضايا السياسة والاجتماع والادب ، صدرت « العروة الوثقى » فى باريس لتقاوم الاستعمار البريطاني وصدر « المقتطف » فى بيروت ثم انتقل الى القاهرة ليترجم العلوم ، وتطورت الحضارة وصدرت صحف تحمل راي الاستعمار ، وصحف تحمل راي الحكام والامراء ، وصحف تحمل لواء الراي العام وظهرت صحف تدعو الى الجامعة الاسلامية ، وصحف تدعو الى القومية العربية ، وصحف تدعو الى القومية الضيقة فى كل وطن عربي .

* * *

فاذا ما بدا القرن العشرون تبلورت هذه الحركات الفكرية وتعمقت هذه النزعات الفكرية ومضت تشق طريقها فى قوة ، أما الاسلوب التقليدي فى الكتابة فقد ظل قائما ، وان كان قد تقلص فى عدد قليل من الكتب ، فنحن لا نلمح الا فى حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحي وليالي سطح لحافظ ابراهيم واسواق الذهب لشوقي ، اما فيما عدا هذا فاننا نجد ان الاسلوب العربي قد قطع طورا جديدا فى طريق التبسيط والوضوح وخاصة على ايدي كتاب الصحف ومحرريها وفى هذه المرحلة تعمق تيار الترجمة فنرى « سليمان البستاني » يترجم الالياذة الى اللغة العربية شعرا وتستغرق ترجمتها منه اكثر من خمسة عشر عاما .

وظهر تيار الكتابة العلمية المتطرفة فى كتابات شبلي شميل وترجماته للنشوء والارتقاء ونظرية داروين كما ظهر الاسلوب الانشائي يحمل الفكرة والقصة والترجمة فى كتابات المنفلوطي والبرقوتي .

وظهرت مجلات ادبية تحمل لواء الترجمة من الغرب مع احياء التراث العربي على اختلاف فى النهج

تطور النثر العربي المعاصر
خلال قرن كامل

للأستاذ أنور الجندي

تكشف دراسة تطور النثر فى الفترة الممتدة منذ اوائل النهضة فى العالم العربي (1840 تقريبا) حتى اوائل الحرب العالمية الثانية (1940) ان هذه الفترة كانت مجال معركة كبرى بين التقليد والتجديد في الاسلوب وبين المحافظة والتجديد فى الفكرة والمضمون.

وقد تطور النثر العربي الحديث فى خلال هذه المائة عام فقط ، اربع مراحل واضحة المعالم خلال تيارين كبيرين هما المحافظة والتجديد ، فقد كانت دعوة المحافظين تحمل لواء المحافظة على اللغة العربية والدفاع عنها ودخول معارك فى سبيل حمايتها ، وابراز أمجاد العرب واحياء تراثهم والدعوة الى وحدتهم وعودتهم الى الكيان الواحد والدفاع عن الاسلام ، ومقاومة كل الاراء الباطلة التي اذاعها كتاب الغرب والدعوة الوطنية فى سبيل الحرية ومقاومة الاستعمار والمطالبة بالجلاء ، ولم يكن المحافظون من خريجي الازهر وحده بل ان عددا كبيرا منهم كان متصلا بالثقافة العربية ، بل ومنهم من تعلم فى أوربا .

وكانت دعوة المجددين تتراوح بين الاعتدال والتطرف وتستهدف الاتجاه الى الثقافة الغربية واستعمال اساليبها وتحرير الاسلوب العربي من قيود الزخرف ، والترجمة من الاداب الغربية ، واعادة كتابة التاريخ الاسلامي والعربي وفق الاسلوب العلمي كما ادى الى ظهور ادب المراة بعد تحررها ، وكانت في تطرفنا تنقل نظريات متعصبي الغرب أمثال رينان وغيره ممن يرددون نظريات فوارق الاجناس بين السامية والآرية واتهام العقل العربي بالقصور وتغليب اللهجات العامية واثارة العصبيات القديمة البائدة كالفرعونية والاشورية والبابلية والبربرية وغيرها ومحاولة النقص من شأن الامجاد العربية والتراث العربي واللغة والدين .

وقد عاش التياران جنبا الى جنب خلال هذه الفترة يتصارعان ويتداخلان فى معارك ضخمة متعددة كانت تشتد حينا وتهدأ حينا ، ثم يتأثر كل تيار منهما بالآخر فيجري المحافظون ثمة الى الامام فيجددون في الاسلوب والمضمون ويذهب المجددون الى التحفظ قليلا فى انكارهم للقديم كله ، فنشأ من ذلك أربعة تيارات متداخلة : التيار المحافظ والمحافظ المعتدل ، والتيار المجدد المتطرف والمجدد المعتدل ، اما التيار المتطرف فهو الذي دعا الى تفريب الفكر العربي تغريبا كاملا والسير سيرة الغرب ونقل حضارته كاملة (ما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب) ، والتيار المجدد المعتدل الذي يدعو الى التطور فى النقل ومراعاة الظروف وحماية الشخصية الذاتية بحيث يزيدها النقل قوة ولا يمسخ معالمها الواضحة .

* * *

وفى خلال هذه الفترة الممتدة من 1830 الى 1940 عاش الادب العربي حياة خصبة ضخمة شديدة الحركه واسعة التطور ، قامت فى أساسها على اليقظة الفكرية التي جاءت بعد فترة طويلة من الجمود والتقليد فى اواخر حكم المماليك كما يبدو فى اساليب كتابنا فى تلك الفترة ، ويعد اسلوب « الجبرتي » عنوانا عليها .

ويمكن القول بان « رفاعة الطهطاوي » هو رائد التيار الجديد حمل لواء الحركة التجديدية في العالم العربي كله فى ميدانيه الكبيرين الاسلوب والمضمون ، وهو تمثيل الصورة التي امتدت طويلا خلال تاريخ

وكان هذا من حمل لواء اصحاب التيار التجديدي بقسميه : المتطرف والمعتدل ، وفى نفس الوقت زادت قوة التيار المحافظ وتطور وكسب كثيرا من المثقفين وخاض المعركة فى قوة وحمل لواء الدفاع عن اللغة العربية ووحدة العالم العربي والاسلامي .

ولم يلبث اصحاب هذا التيار ان عدلوا طريقهم فاقتربوا قليلا من المجددين ، تغير اسلوبهم ، وحمل لواء الدعوة الى « البناء على اساس » وبعث القديم في اساليب حديثة والنقل من الغرب فيما يزيد شخصيتنا قوة ، واضطر كثيرون من معتدلي المجددين الى الانتقال الى صف هذا التيار بعد ان كشفت احداث ما بعد الحرب عن خيبة امل فى الحضارة وحماتها نتيجة لمواقفهم المهينة بالنسبة لحرية الشعوب ولتداعي نظرياتهم وارائهم ، وبعد أن تكشف أن هذه الدعوات انما هي دعوات استعمارية اتخذت العلم ستارا لها ، ولم تكن هي من العلم فى شيء ، وان علماء منصفين من الغرب نفسه قاموا يدحضون هذه النظريات ويقولون بتعصب اصحابها ، واضطر المجددون ان يخففوا من غلوائهم عند ما شاهدوا قادة منصفين من رجال الفكر الغربي ينصفون العرب ويذكرون فضلهم على الحضارة الادبية ويكشفون عن الدور الكبير الذي قاموا به في سبيل الحضارة والثقافة ، بعد ان نقلوا تراث اليونان والرومان العلمي وزادوا فيه واضافوا اليه وبذلك حملوا ميراث الحضارة فى فترة القرون الوسطى التي اظلم فيها الغرب ، ولم يكن هؤلاء الكتاب قلة ، ولم يكونوا من مجهولي الاسم او الاثر بل كانوا اعلاما بارزين ، وهناك تحول بعض كتاب التجديد المتطرفين عن موقفهم ، وبقي آخرون يصرون على الخطأ ، وكانت لهم مواقف ـ بعد توقيع المعاهدات التي عقدت فى بعض البلاد العربية مع اعلان الاستقلال الذاتي فى ظل وجود جيش الاحتلال ونفوذ المعتمد البريطاني والفرنسي ـ فيها امعان فى التعصب للحضارة الغربية وانكار للقومية العربية . ومع اصرار عدد من كتابنا على الوقوف موقف التطرف والانحراف فى الدعوة الى التراث العربي والتهوين من مكانة اللغة العربية ، وقد كان لهؤلاء صلة ببعض دوائر المستشرقين الذين كان الاستعمار يتخذهم اداة له فى تحريف مفاهيم الثقافة العربية ومعالمها .

ومع هذا فان كفة « المدرسة الوسطى » التي حملت لواء الجمع بين الشرق والغرب والقديم والجديد (على هدى وبصيرة) قد رجحت وظهرت صحف في العالم العربي تعد علما على هذه المرحلة ، وقد زاد من قوة هذا الجناح الاوسط ان عددا من كتابنا فى مصر قد طافوا بالعالم العربي وعادوا وقد تحول اتجاههم فانكروا القومية الضيقة وآمنوا بالوحدة الكبرى ومضت اقلامهم تدافع عن القيم العربية .

وكان لدعوة التبشير التي اندلعت فى هذه الفترة اثرها فى نفوس بعض الكتاب ، فقد اندفعوا الى التماس تحرر الفكر العربي بالرجوع الى التراث الاسلامي وامجاد التاريخ العربي .

* * *

وقبيل الحرب العالمية الثانية برز عدد من الكتاب والكاتبات حملة الوية المدارس المختلفة ، المحافظة والمجددة ، واتسمت هذه الفترة ببروز عدد كبير من الكاتبات ، كما تعمقت خلال هذه الفترة المذاهب والابحاث والدراسات حتى ليمكن القول ان كتاب هذه الفترة هم امتداد للفترة السابقة ، وان لم يتألقوا تألق السابقين ولم بهزوا الحياة الفكرية باحداث وثورات ومعارك قوية الدلالة .

وتعطي هذه الصورة التقارب بين المذاهب المختلفة ، والتقاء المحافظة بالتجديد ، فان اغلب كتاب التجديد قد اتجهوا الى احياء التراث واخذوا يبعثون القديم فى صور جديدة ، فى حين جدد الكتاب المحافظون اسلوبهم واندفعوا الى شيء من التطور ، غير ان اوضح سا فى هذه الفترة هو اختفاء الاسلوب التقليدي الذي عرف فى كتابات البكري والمويلحي وشكيب ارسلان وخلفه اسلوب انشائي نقي ، واسلوب اقرب الى العلمية، ومعنى هذا ان الاسلوب العربي قد بلغ فى هذه المرحلة درجة من الجودة والنقاء وحسن الاداء وزادت امكانية كتاب (تأديب التاريخ) والكشف عن معاليم ثقافتنا العربية مع اصطناع الاسلوب العلمي الحديث .

وهكذا بدات تتركز قواعد (المدرسة الوسطى) على نحو غير منحرف ولا منحاز يخرج بين القديم والجديد والشرق والغرب وفى هذه المرحلة ظهرت مجلات متخصصة للشعر والقصة ، واتسعت آفاق الادب فى الصحف اليومية اتساعا واضحا فكانت لكل جريدة صفحة ادبية كاملة يومية ، وكان لوجود الكتاب الذين سبقوا فى الميدان اثر واضح فى ان كتاب هذه الفترة لم يبرزوا الى ميدان الصدارة ، وقد كان بعضهم تبعا لهؤلاء او تلاميذ بحكم سيطرة الاولين على الصحف ومراكز الصدارة فى الحياة الفكرية والهيئات .

وهكذا تصل الى الحرب العالمية الكبرى 1929! حيث بدأ لون جديد من الادب وتيارات اخرى لها طابعها الخاص .

القاهرة : انور الجندي

والوسيلة ، وشاركت القرويين والازهر والزيتونة بتخريج طائفة من العلماء ولم تقف عند الفقه بل اتجهت الى الادب .

وفى هذه الفترة كانت الكتابة الادبية هي أقوى الوان الكتابة ، كان الاستعمار قد سيطر على المنطقة كلها او كاد ، وظهرت الصحف تحمل لواء الدعوة الوطنية المندفعة باسلوب العاطفة والحماسة ثم ظهر تيار يدعو الى التقارب مع الاحتلال ومصالحته وقبول التعامل معه باسم الدعوة الوطنية الضيقة .

وبدا الكتاب المجددون فى العالم العربي احد فريقين : فريق يسير فى ركاب المحتل ويؤمن بحضارته واخطاره ايمانا كاملا وفريق مستنير يأخذ من القديم بطرف ومن الجديد بطرف على هدى وبصيرة فى سبيل الحفاظ على شخصيتنا العربية الاسلامية .

وظهر فى هذه الفترة الدعاة الى حماية اللغة ، يعملون على تقييمها وترقيتها ودفعها الى الامام لمواجهة الحضارة وكلماتها ودفعها لحملات السوء التي بدأ يشنها عليها غربيون ومتغربون ، وظهر فى هذه الفترة عبد القادر المغربي وانستاسن الكرملي واحمد تيمور ومحمد مسعود واحمد زكي باشا والالوسي وطاهر الجزائري .

وبدات كتابة التاريخ القومي على النحو الحديث بكتابات احمد شفيق ، وفى هذه الفترة ظهرت كاتبات عربيات : عملن فى الصحافة وكتبن المقالة ونظمن القصيدة ابرزهن : هند نوفل ولبيبة هاشم .

ولم نطل هذه الفترة حيث وقعت الحرب العالمية سنة 1914 وامتدت الى سنة 1918 ثم اندلعت الثورات فى مصر والعراق والشام وفلسطين والمغرب وبدات بعد الحرب العالمية مرحلة من اضخم مراحل النهضة الفكرية كان قوامها البحث عن اساس لحياة فكرية وادبية واجتماعية جديدة وقد امتد فيها الصراع بين المحافظة والتجديد على نحو اشد قوة وعنفا .

* * *

تتسم الفترة التي تلي الحرب العالمية الاولى بعمقها واتساعها وضخامتها وغزارة محصولها وكتابها لقد كان طبيعيا ان تظهر بعد الحرب العالمية الاولى نتائج واضحة الحركات ودعوات الحرية والاستقلال التي سبقت الحرب ، وزاد من دقة الموقف ان الدول المحاربة اقتسمت العالم العربي فيما بينها واحتلت الاجزاء الباقية منه وخاصة الشام والعراق بعد ان فرقته الى اقطار ، وبعد ان ذاقت الامة العربية خلال الحرب ويلات ضخمة نتيجة لسيطرة الغزاة على ارضها واستغلال خيراتها ، مع الوعود التي اعطيت بالحرية والاستقلال ، ولم تلبث ان تحولت الى احتلال وانتداب ووصاية وكلها لا تعني غير الاستعمار مختفيا وراء اسماء تخفف من وقعه ، وفى خلال فترة ما قبل الحرب كانت ليبيا والمغرب قد وقعت تحت قبضة الاستعمار .

وقد اندلعت على اثر انتهاء الحرب الثورات المتوالية واضطرت الدول المحتلة ان تعطي لهذه الاقطار استقلالا ذاتيا ودستوريا وبرلمانا واحزابا متضاربة . هنالك ، بدات حركة جديدة من حركات التطور الفكري والثقافي ، فان الاقلام التي كانت قبل الحرب العالمية تقاوم الاستعمار وتدعو الى الحرية والاستقلال والجلاء وتهاجم الاستبداد الممثل فى السلطان والخديو والامير قد تحولت الى صراع داخلي بين الاحزاب المختلفة منصبا فى الاغلب على سلطة الحكم ، وقد لون هذا الصراع الحزبي : الادب فى جميع اقطار العالم العربي ، فكانت قضاياه فى الاغلب جزءا من السياسة او مشابهة لها فى اسلوب العرض ووجهات النظر ، وكأنما أحس الاستعمار بان سلطانه القائم على الاحتلال العسكري ، او السيطره على الحكام ليس كافيا فى نظره للبقاء الطويل لذلك اتجه الى السيطرة على الفكر العربى والادب والثقافة واللغة والمقدرات والتراث والدين ، وحاول ان يتسيء صراعا ومغالطة واقليمية فى هذه القوى جميعها ، وذلك حتى يتبلبل الراي الواحد وتتحول الفوارق المصطنعة التي اقامها الى فواصل حقيقية فقام من يدعو الى الثقافات المحلية والى تحويل اللغة العربية الى لغات محلية بتقوية اللهجات والكتابة بها وانذارها على اللغة الفصحى الام متخذا من موت (اللاتينية) وتفرعها الى لغات فرنسية وانجليزية وايطالية وغيرها مثلا يضرب او هدفا يحتذي واتسع نطاق الدعوة الى فرنسة وجلترة اللغة والفكر ، وامتد هذا الاتجاه الى مقاومة القومية العربية بالذات بالدعوة الى احياء التراث الاقدم وقامت اذ ذاك دعوات الفرعونية والفنية والبابلية والاشورية والبربرية . وظهرت ابحاث ودراسات تحاول ان تجعل لهذه الدعوات ادبا وثقافة ، وتجري لربط هذا الماضي البعيد بالحاضر القائم ، ثم ظهرت دعوات الى حضارة البحر الابيض المتوسط والى تغليب اليونانية على العقل العربي والى التحرر من الطربوش والعمامة الى القبعة والى دعوات متعددة فى مجالات الثقافة والفكر والاجتماع كلها تهدف الى غرض واحد ، هو التشكك فى ماضي الامة العربية وتحويل الفوارق المصطنعة الى فوارق طبيعية ، واثارة لنزعات القديمة التي انمحت بعد ان اصبحت الرقعة وطنا عربيا موحدا .

اتصاله بالامويين

في هذه الظروف المتازة المضطربة اتصل الاخطل التغلبي بالامويين وكان العداء قد اشتد بين الانصار والقرشيين . فحدث ان شبب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت برملة بنت معاوية فغضب يزيد اخوها وذهب الى كعب بن جعيل التغلبي ان يهجو الانصار فتنحى واشار عليه بشاعرنا الاخطل . فندبه يزيد . فهجا الاخطل الانصار هجاء مرا كاد يؤدي بحياته لولا تدخل يزيد .. فانقطع الاخطل لمدحه وليا للعهد ثم خليفة واتصل بامراء امية وعمالهم وخلفائهم من بعد بمدحهم وينشر مآثرهم وينظم حججهم شعرا سويا حتى اصبح شاعر امية

تفنيده لحجج الامويين

كان الامويون يستندون في تأييد حقهم بالخلافة الى مقتل عثمان بن عفان الاموي . فقد قتل عثمان مظلوما وهم ورثته وأولياء دمه . فحق لهم — على ما يزعمون — ان يثأروا لدمه المسفوح وقد ادركوا ذلك في صفين حيث ردوا ظلامة عثمان الامام واستعادوا حقهم السليب . وقد استند الاخطل الى هذه الحجة لتثبيت شرعية انتقال الخلافة الى الامويين ويسفه فكرة الاغتصاب فيقول في مدح عبد الله ويزيد بن معاوية (ديوان ص 174) .

ويوم صفين والابصار خاشعة
امدهم اذ دعوا من ربهم مدد
على الالى قتلوا عثمان مظلمة
لم ينههم نشد عنه وقد نشدوا
فثم قرت عيون الثائرين به
وادركوا كل تبل عنده قود

وهذا دليل على ان عليا — الذي يتهمونه بأن له ضلعا في مقتل عثمان أصبح غير صالح للخلافة . فانتقلت اليهم . ولا يخفى ان عقيدة الثأر هذه عقيدة جاهلية نلاحظ انها استمرت الى هذا العهد بالرغم من قضاء القرءان بتحريمها مما يدلنا على ان أوضاع المجتمع الجاهلي ظلت مستمرة في بعض التقاليد . ومن مظاهر طقسياتها النداء الذي عم العثمانية جميعا ووحد كلمتهم وهو « يا لثارات عثمان » والذي ورد معنا في ابيات حسان بن ثابت .

يقول الاب لامنس في مقال له على الثأر (المشرق سنة 1935 ص 571) :

وهناك واجبات شبه طقسية على الموتور ان يحافظ عليها اثناء قيامه بالثأر من ذلك ان يصيح بواتره في هجومه عليه او قبل ان يضربه الضربة القاضية فيذكر سبب عمله ويذكر القاتل باسم القتيل صارخا « يا لثارت فلان » .. وقد تجاوزت هذه العادة في ذكر الثارات العصر الجاهلي الى صدر الاسلام فكانت كلمة التوحيد بين افراد العثمانية ينادون بها في مطالبتهم بثأر الخليفة فيصيحون « يا لثارات عثمان » .

ويكون الامويون — في نظر الاخطل بثأرهم هذا قد ادركوا حقهم وانتقلت الخلافة اليهم انتقالا طبيعيا منطقيا .

قال في الديوان (ص 39 يمدح بني امية ويخص بشر بن مروان) .

كانوا موالي حق يطلبون به
فأدركوه وما ملوا ولا لغبوا
ان يك للحق اسباب يمد بها
ففي اكفهم الارسان والسبب
هم سعوا بابن عفان الامام وهم
بعد الشماس مروها ثمت احتلبوا
حربا اصاب بني العوام جانبها
بعدا لمن اكلته النار والحطب

نظرية الجد :

ولو لم يكن الامويون على حق في مقالتهم وتقلدهم لامور الخلافة ورعاية الاسلام والمسلمين لكانوا باؤوا بالفشل ولكنها ارادته تعالى تمت فيهم . وهذا معنى قول معاوية « هذه الخلافة امر من الله وقضاء من قضاء الله » فالله يتصرف في أمور الناس كما يشاء . وهو — تعالى — قد اختار الامويين وفضلهم . وقد عالج الاخطل هذه الناحية العقائدية معالجة موفقة فقال (ديوان ص 172 يمدح عبد الله ويزيد بن معاوية)

تمت جدودهم والله وفقهم
وجد قوم سواهم خامل نكد

الأخطل التغلبي داعية "الحق الإلهي" في الخلافة الإسلامية

للدكتور فيكتور الكك

ويوم اوحي لمحمد بالاسلام فاشتد ساعده اضطربت قريش اضطرابا عظيما .. وما لبثت ان رجحت كفة بني هاشم قوم النبي على سائر قريش فانتفض بنو امية لما كان بينهم وبين الهاشميين من منافسة قديمة وراوا انفسهم على شفا حفرة من الانخذال بينما كان الهاشميون لمدة لا يفضلونهم فى شيء : فاللواء فيهم والسقاية فى الامويين ..

وسكت الامويون على مضض حتى اذا استخلف عثمان راوا فى حكمه بعثا لسيادتهم الجاهلية . فاستولوا على مرافق الدولة وطمعوا فى أن تبقى الخلافة فيهم يرثها كابر عن كابر .. جاء فى مروج الذهب (ط دار الرجاء ج 2 ص 232) « دخل سفيان بن حرب دار عثمان عقب بيعته ومعه بنو امية فقال ابو سفيان وقد كان عمى أفيكم احد من غيركم ؟ قالوا لا ، قال يا بني امية تلقفوها تلقف الكرة فوالذي يحلف به ابو سفيان ما زلت ارجوها لكم ولتصيرن الى صبيانكم وراثة » .

ولما توفى عثمان فى السابع عشر من حزيران 656م – 35 هـ خشيت امية ان تصير الخلافة الى الهاشمين فحملوا عليا جريرة مصرعه وانكروا بيعته وقام حسان بن ثابت ينبه الاحقاد فى مرثيته ويقول بلسان العثمانية (العقد ج 2 ص 206) :

ضحوا باشمط عنوان السجود به
يقطع الليل تسبيحا وقرآنا
بل ليت شعري وليت الطير يخبرني
ما كان شأن علي وابن عفانا
لتسمعن وشيكا فى دياركم
الله اكبر يا ثارات عثمانا
سدوا السيوف بثنى فى مناطقكم
حتى يحين بها فى الموت من حانا
لعلكم ان تروا يوما بمغبطة
خليفة الله فيكم كالذى كانا

وانبرى معاوية يؤلب العثمانية فى الشام على على .. وكانت واقعة صفين للاخذ بثأر عثمان وتلاها التحكيم (صفر 37 هـ آب 756 م فذرت الفتنة قرنها وانقسم العالم الاسلامي بذلك الى شيعة وخوارج وسنة . وفى اواخر ايار سنة 660م بايع اهل الشام معاوية بالخلافة وما لبث ان قتل على فتنازل الحسن لمعاوية وتم الامر لداهية العرب ، فاسكت بحلمه وبطشه الخوارج والشيعة حتى اذا تمت بيعة يزيد على ما اراد تقلقلت السيوف فى اجفانها من جديد وثار عبد الله بن الزبير فى مكة ينكر على معاوية جعله الخلافة وراثة فى ولده .. فبعد ان كانت الخلافة شورى نقض الامويون العهد وصارت فيهم ملكا استبداديا فلجأوا الى تأييد ملكهم بالحديد والنار والمال والحلم والدهاء كما كان للشعر عميق الاثر فى تلك الحرب لان العقلية الجاهلية انبعثت من جديد فكان لكل حزب او شيعة شعراؤها يهجون الخصوم ويمدحون الموالين .

والمسلمين : ينصره على اعدائه ، وعلى الخارجين عن طاعته ، ولا غرو فذلك بمثابة خروج على سلطة الله . يقول الاخطل في هذا المعنى مادحا عبد الملك .

واستمر به امر الجميع فما
يغتره بعد توكيل له غرر

حتى استقل بانفال العراق وقد
كانت له نقمة فيهم ومدخر

ويستبين لاقوام ضلالتهم
ويستقيم الذي في خده صعر

ثم يستمر الاخطل من ناحية ثانية يبين لنا بطش الامراء بهؤلاء الخارجين على طاعة الخلفاء فنعلم ان الامور لم تستقر لبني امية وان فلول الثائرين ما زالت تناوىء الملك . قال في مدح بشر بن مروان (ديوان ص 63) :

اخو الحرب ما ينفك يدعى لعصبة
حرورية او اعجمي يقاتله

ويقول في مدح الحجاج (ديوان ص 76)

طلب الازارق بالكتائب اذ هوت
بشبيب غائلة الثغور غدور

ثم ان الاخطل لا يفوته ان يتحدث عن جهاد الامويين في سبيل الدين وليس ففط ضد الثائرين ليثبت كفاءاتهم فيقول في مدح ابي العاص (ديوان ص 20)

امام سما بالخيل حتى تقلقلت
قلائد في اعناق معلمة حدب

وفي كل عام منك للروم غزوة
بعيدة ءاثار السنابك والسرب

ضرورة وجود الخلافة

ويرى الاخطل بذلك ردا للضالين الى الحظيرة وبالتالي خدمة لدين الله وانقاذا له لان توليهم لامور الناس ضرورة يقول الاخطل « ص 122 » .

بكم ادرك الله البرية بعدما
سعى لصها فيها وهب غشومها

واذا انقطع سلطانهم ليكون ذلك شؤما على المسلمين ، قال الاخطل يمدح يزيد بن معاوية .

والمسلمون بخير ما بقيت لهم
وليس بعدك خير حين تفتقد

ولا يخفى ما لهذا المدح من تكريس لحق الامويين وقدسية الخلافة باعتبارها ضرورية يذهب الخير عن المسلمين بذهابها لان الخلفاء قوامون على شؤون المؤمنين فبهم ادرك الله البرية كما يقول الاخطل كانهم ظل الله على الارض وبعد ان يفرغ الاخطل من اثبات حق الامويين بالخلافة محتجا بثارهم لعثمان وباختيار الله لهم واصطفائهم لتدبير شؤون عباده يلجأ الى حجج وبراهين اخرى تثبت وضعهم وهذه البراهين هي براهين دنيوية اذا صح التعبير فيحاول فيها ان يعرض كفاءاتهم التليدة والطريفة التي تؤهلهم للملك .

صفات السيادة الاموية

ويحتج الاخطل لذلك بان الامويين هم من اشراف العرب ومن صميم قريش ورثوا السيادة والملك منذ الجاهلية فيقول :

انتم خيار قريش عند نسبتهم
واهل بطحائها الاثرون والفرع
اعطاكم الله ما انتم احق به
اذا الملوك على امثاله اقترعوا

او يقول مفضلا امية على سائر قريش وبالتالي مثبتا حقهم (ديوان ص 34)

رايت قريشا حين ميز بينها
تباحث اضغان وطعن امور

علتها بحور من امية ترتقي
ذرى هضبة ما فرعها بقصير

ثم يبين ان ملكهم ليس طريفا ومجدهم ليس حديثا وانما هو مجد مؤثل فلا عجب ان سادوا المسلمين فقد طال لما ملكوا على العرب من قبل وبذلك يفضلهم على الجميع فاحر بهم ان يسودوا الجميع .

حتى تناهى الى القوم الذين لهم
عز الملوك واعلى سورة الحسب

هــم الذين اجــاب اللــه دعوتهـــم
لما تلاقت نواصي الخيل فاجتلــدوا

وقال التغلبي فى موضع آخر يمدح عبد الملك بن مروان فى رائيته الشهيرة (ديوان ص 103)

أعطاهــم الله جــدا ينصـــرون بـــه
لا جــد الا صغيــر بعــد محتقـــر
لم يأشـــروا فيـــه اذ كانــوا مواليـــه
ولو يكون لقـــوم غيرهـــم اشـــــروا

ولا يخفى ما لهذا القول من تاثير فى الراي العـام اذ ينفي عن الامويـيــن فكرة الاغتصاب التي يروجهــا الشيعة والخوارج والزبيريــون وغيرهــم . فبعــد ان تدخل الله ــ عز وجل ــ فى الامر يكون التذمر او الثورة أعتراضا على ارادته تعالى . ومن شأن هذه الادلــة ان تظهر خلافة الامويين بمظهر شرعي وتطفيء الى حـــد نيران الثورات والانتفاضات على الحكم القائم . ونظرية الجد هذه كانت قد ذرت قرنها فى العصر الاموي وسرت عقيدة من عقائد التفكير الاسلامي الجبرية كانــت تقول بها . فاستغلها الامويون لتدعيم شرعيــة ملكهــم اذ ان خلافتهم تبدو بحسب هذا الــراي مرسومــة مقدمــا ومقدرة من الله . وما يساعد على تصديق هذا الزعم ما جاء فى القرآن الكريم « قل اللهم ما لك الملك تؤتـــي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شـــيء قـديـر (آل عمران 26) .

الحــق الالهــي

ولما كانت ارادة الله هي التي اختـــارت الامويين خلفا فقد اصبح هؤلاء منفذين لارادته تعالى يخلفونه فى الارض فى تنظيم امور عباده . فالخلافة بالتالي حق الهي تناهى اليهم وهذا معنى قول الاخطل « خليفـــة الله يستسقى به المطر » .. وقد ذهب المفســـرون فى شرح هذه العبارة بعد رواجها مذهبــا ءاخـــــر فالتمسوا لها مبررا فى القرءان وجاؤوا بئايات وردت فيها لفظة خليفة من مثل الاية 165 من سورة الانعام « وهو الذي جعلكم خلائف فى الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات » وهذه وامثالها آيات عامة تــدل على الشرف الذي اعطاه الله للآدميين اجمــالا دون اي تخصيص ..

ولكي يتضح لنا امر هذه العبارة ينبغي ان نعـود باذهاننا الى عصر الخلفاء الراشدين . فقد كـــان المؤمنون يطلقون على ابي بكر لقب خليفة رسول الله وقد دعاه احدهم « خليفة الله » فنهاه ابو بكر عن ذلك قائلا « لست خليفة الله ولكن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقد وردت هذه العبارة بعد ذلك على ما نعلم فى شعر حسان بن ثابت الانصاري كما مر معنا فى قوله :

لعلكــم ان تـــروا يومــا بمغبطـــة
خليفـــة الله فيكـــم كالـــذي كانا

وعندي ان هذه العبارة تتضمن مـــن المعاني فى قول الاخطل اكثر مما تضمنته قبل ذلك . وبيان الامر انها كما قلنا ــ تعني استمرار ارادة الله فى خلقه عـن طريق الخليفة المالك .

فهي مبدئيا تنافي مبدا الشورى الذى كان معمولا به ايام الخلفاء الراشدين لان الشـــورى تعني مبايعـة البشر واختيارهم . وخليفة الله ــ وهي تلميح صريح الى الحق الالهي ــ تناقض مبــدا الشورى وتعنـــي اختيار الله لا مبايعة البشر . وبذلك تصبح الخلافـة مقدسة لا اعتراض عليها . وتستمر هذه الفكرة من ثم فنسمع المنصور فى العصر العباسـي يردد « انـــا سلطان الله على الارض » .. وتتجلى تلكم القدسيـة كذلك فى العبارة الثانية من قــول الاخطل وهـــي « يستسقى به المطر » وقد أوردها الاخطل فى مدحه الوليد (ديوان ص 185) .

خليفـــة اللـــه يستسقـي بسنتـه
الغيث من عند مولــى العلم منتخب

فقد اصبح للخليفة بذلك هالة من القداسة . فالله يستجيب دعوته وقــد قرن عمله بعمل الانبيـاء والمرسلين كأنه موسى الكليـــم فى الايـــة القرءانيـــة « واذ استسقــى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصـاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا (سورة البقـرة الاية الستون) .

ولما كان الخليفة ممثلا لارادته تعالى فيستجيب دعاءه للاستسقاء مثلا فانه عز وجل يستجيب دعوته فى سائر الامور باعتباره قواما على شؤون ديــن الله

يعر ..نك راس ابن الحباب وقد
اضحى وللسيف في خيشومه انر

والحارث ابن ابي عوف لعبن به
حتى تعاوره العقبان والسبر

وقيس عيلان حتى اقبلوا رقصا
فبايعوك جهارا بعد ما كفروا

فلا هدى الله قيسا من ضلالتهم
ولا لعى لبني ذكوان اذ عثروا

سعوا من الحرب اذ عضت غواربهم
وقيس عيلان من اخلاقهم الضجر

وينتقل بعد ذلك الى هجاء كليب فيقول , ديوان ص 109)

أما كليب بن يربوع فليس لهم
عند التفارط ايراد ولا صدر

مخلفون ويقضي الناس أمرهم
وهم بغيب وفي عمياء ما شعروا

المجتمع الاموي البدوي :

والناظر الى الابيات التي أوردناها يستنتج منها فوائد تاريخيه واجتماعيه كثيرة . فعند ما يقول الاخطل انه باصل دون الامويين ابناء قوم هم آووا وهم نصروا فانه يعني بذلك خطر المسؤولية اذ ليس من السهل ان يهجو شاعر قوما آووا النبي ، وكانوا سندا لاستمرار رسالته لما كان لهؤلاء من حرمة في نفوس المسلمين حتى ذلك الوقت . كما نتبين كذلك سياسة الحلم التي سلكها الامويون في مسايرة اعدائهم والعنف الذي استخدموه لاقرار ملكهم .. لان الاخطل لا يذكر ان قيس عيلان تلكأت في المبايعة ولما أرغمت بايعوا جهارا بعد ما كفروا . اذن فعدم المبايعة في نظره كفر لانه خروج على طاعة أولي الامر ؟

ثم يأخذ في موضع آخر في تنفير الخليفة من مصالحه قيس لتبقى مكانة قبيلته عالية ويصون مصالح قومه (133) .

والله امير المؤمنين وما بنا
الى صلح قيس يا ابن مروان من فقر

فان تك قيس يا ابن مروان بايعت
فقد وهلت قيس اليك من العذر

على غير اسلام ولا عن بصيرة
ولكنهم سيقوا اليك على صغر

وعندما ينتقل الى ذكر الايام التي دارت رحى الحرب فيها بين تغلب وقيس فيذكر يوم الثرثار ويوم ماكسين ويوم الحشاك فيعير القيسيين بالهزيمة ويفخر ببطش قومه .. وهكذا ترى انه في جميع مدائحه الامويين لا يغيب عنه مصالح قبيلته كأني به يتخذ مدحه للامويين مطية لحفظ كيان عشيرته وهذا غرضه البعيد .. فالشعر السياسي العقائدي كما نفهمه لم يتجل في انتاج الاخطل وانما كان متصلا بسياسة القبيلة فخلط بين السياسة الرسمية والسياسة النفعية . فها شاعر قبلي أكثر منه شاعرا عقائديا . وتك دليل على ذلك في لجوئه الى تهديد الامويين عندما تقربون قيس عيلان . قال عندما تخلى عبد الملك عن حمايته :

فان لا تغيرها قريش بملكها
يكن عن قريش مستماز ومزحل

وهو ـ كما جاء في دائرة المعارف الاسلامية ـ بيت ثوري لا يدانيه الا البيت الذي اعلن فيه الاخطل ان عبد الله بن سعيد بن العاص التغلبي الخامل الذكر اهل للامارة وكان هذ اخا لرجل حاول خلع الخليفة عبد الملك ..

وهذه الظاهرة تنهض دليلا على مكانة الشعر والشعراء في ذلك العصر كما تفيد ان المجتمع الاموي مجتمع جاهلي متطور لا يزال الخليفة فيه قريبا في تفكيره من الذهنية البدوية يخاطبه الشعراء بحرية ويتقبل التهديد احيانا كما مر بنا .. ويدلك على منزلة الشعر في قصور الخلفاء وبين القبائل حادثة الاخطل مع الانصار حين هجاهم بايعاز من يزيد بن معاوية فقاموا وقعدوا .. وكان ما كان من امر النعمان بن بشير في تهديده لمعاوية .. واصطناع الامويين لشعراء يؤيدون سياستهم ويهجون خصومهم بينة على استمرار العقلية الجاهلية المعتدة بالمفاخرات والمنافرات .. « والقول ينفذ ما لا تنفذ الابر » على حد قول الاخطل .

بيض مصاليت لم يعدل بهم احـد
بكل معظمة من سادة العــــرب

(ديوان 188)

وينتهي من ذلك الى تفضيلهم على العرب والعجم قاطبة (ديوان 39)

بيض مصاليت ابنـاء الملـوك فلـن
يدرك ما قدموا عجـم ولا عــرب

ثم ان الامويين يتحلون بكل صفات الملك . فالكرم من شيمهم وبسطة الكف طبع فى طينتهم . وهذا مهـم بالنسبة آنذاك . قال فى الديوان (ص 34)

اخالد اياكم يرى الضيف اهلـه
اذا هرت الضيفان كل ضجــور

يرون قرى سهلا ودارا رحيبـة
ومنطلقا فى وجـه غير بســور

وبمدحهم بالصبر على الملمات والصمود فى وجه الشدائد . ولا عجب فالعربي عصبي المزاج ينتفـض لادنى مس :

حشد على الحـق عيافو الخنا انـف
اذا الم بهـم مكروهـه صبــروا

كانه يردد مدح النابغة الذبياني الغساسنة حيـن يقول :

ولا يحسبون الخير لا شـر بعـده
ولا يحسبـون الشـر ضربـة لازب

وهذا دليل بعد النظر وحسن التدبير للامور ومن ابرز صفات الملك والسيادة .

ويتغنى الاخطل بابرز صفات الملك التي يجلـها العرب والتي طارت للامويين شهرة فيها فى الامصار ، والافاق وهي صفة الحلم مضرب الامثال عند العرب.. وحلم امية مقترن بالحزم لا يصدر عن ضعف وانما عن مقدرة وكرم اخلاق قال التغلبي فى رائيته :

شمس العداوة حتى يستقـاد لهـم
واعظم الناس احلامـا اذا قــدروا

وهناك سبيل آخر لجأ اليه الاخطل كي يساهم فى تقرير سياسة الامويين . وهو سبيل سلبي اذا شئت يقوم على الهجاء والتنقص من الخصم وهو الى ذلك حيلة صحافية كبير الاهمية بعيد الاثر بالنسبة الى زمان الاخطل ومكانه والبيئة التي عاش فيها فقصيدة الهجاء كانت تضع قبيلة شديدة الشكيمة وتحط من شانها ايام الجاهلية . واستمرت هذه السنة فى العصر الاموي لان اوضاع المجتمع الجديد ظلت اجمالا على ما كانت عليه قبل الاسلام . وكان ان اتفقت مصلحـه الامويين لان اعداء هؤلاء كانوا ايضا اعداء التغلبيين . فغالبا ما ضمن الاخطل القصيدة الواحدة مــدحا للامويين ، وفخرا بقومه وهجاء للاعداء المشتركين وفى هجائه هذا يعمد الى رميهم بالمخزيات التي تواضـع عليها ابناء عصره . ويعيرهم خاصة بانهزامهم امـام قوى تغلب فى الايام المشهورة بيــن الفريقبن وبتلكئهـم عن مبايعة الامويين . فيتجلى حينذاك بمظهر مـؤرخ سياسي واجتماعي نستشف من شعره مختلفاوضاع المجتمع الاموي ...

ويتبع الاخطل فى هجائه لاعدائه طريقة خبيثـه تمكنه من التأثير على الامويين اذ يذكرهم بفضل قومه عليهم فى الحروب التي دارت بينهم وبين الثائرين مـن زبيريين وشيعة . فبضع تغلب بجانب الخلفيــه والقيسيين فى معسكر العدو ثم يورد هجاء لهم فينفر الخليفة منهم باعنا فى صدره كوامن الاحقاد . ولا يغفل عن تذكيره بفضل شعره الذي افحم شعراء المعارضة فيقول (ديوان ص 105)

بني امبـة قـد ناضلـت دونكـم
ابناء قوم هم آووا وهـم نصـــروا

افحمت عنكم بني النجار قد علمـت
عليا معد وكانـوا طالمـا هــدروا

حتى استكانوا وهم منى على مضض
والقول ينفذ مـا لا تنفـذ الابـــر

بنـي اميـة انـي ناصـح لكـم
فـلا يبيتن فبكـم آمنـا زفـــر

واتخـذوه عــدوا ان ظـاهـــره
وما تغيـب من اخـلاقـه دعـــر

ان الضغينة تلقاهـا وان قدمــت
كالعر يمكن حينـا ثـم ينتشـــر

وقد نصرت امبـر المؤمنيـن بنـا
لما اتاك ببطن الغوطـة الشجـــر

كان الاخطل على عادة اهل الشام النصارى يظهر بحضرة الخليفة وفى عنقه صليب كبير على مرأى من وجوه الدين الاسلامي . ولو ان شاعرا دخل على الخليفة العباسي على هذه الشاكلة لما سلمت عنقه .

ومن مظاهر الحرية التي كانت للنصارى في العهد الاموي ان يخرج المقاتلون الى الحرب برايات عليها صور وشارات مسيحية دون ان يلقوا عن ذلك منعا او استنكارا .

قال فى الديوان (309) فى حرب قيس وتغلب :

لما رأوا والصليب طالعا
ومار سرجيس وسما نافعا

وابصروا راياتنا لوامعا
كالطير اذ تستورد الشرائعا

ويدهشك هذا التسامح لاول وهلة اذا ما قسته مثلا بالحالة فى العصر العباسي المتمدن والاكثر رقيا من العصر الاموي . ولكن الامر ينجلي لك اذا علمت ان الامويين حكموا بنفسية الاسياد والزعامة الجاهلية . فكانت لهم عصبية عربية تقرب العرب ، وتكرمهم مسلمين كانوا أم نصارى ، بخلاف العباسيين الذين احلوا العصبية الدينية محلا دونه العصبية العربية الحقة.

ثم ان العصبية العربية كانت قوية لاستمرار العقلية العربية الجاهلية والتقاليد القديمة . فالمجتمع الاموي مجتمع بدوي منطور حافظ على خصائص البداوة محافظة كبيرة والشاهد على ذلك دلالة الشعر عامة وشعر الاخطل خاصة كما رأينا . فأبواب الشعر مثلا لم تبدل تبدلا يذكر فى شعر البلاط ، بصرف النظر عن بعض الفنون التي نشأت فى الحجاز وبعيدا عن الحكم الرسمي . فترى الاخطل يمدح الامويين كما كان شعراء الجاهلية يمدحون اسياد القبائل ، فيصفهم بالكرم وسعة الدار قال فى الديوان (34) :

اخالد اياكم يرى الضيف اهله
اذا هرت الضيفان كل ضجور
يرون قرى سهلا ودارا رحيبة
ومنطلقا فى وجه غير بسور

ويمدحهم بكثرة العدد : (ديوان ص 189) :

الاكثرين حصى والاطيبين ثرى
والاحمدين قرى فى شدة اللزب

ويتبع فى هجائه المعاني الجاهلية من تفضيل قبيلة على اخرى تشدهما روابط القرابة والدم . ففي هجائه لجرير وقومه ينفر عليهم ابناء عمهم من دارم ، وامض الهجاء عند العرب ان تفضل قوما على اقاربهم ، قال فى الديوان (109 — 111)

ملطمون باعقار الحياض فما
ينفك من دارمي فيهم اثر
الاكلون خبيث الزاد وحدهم
والسائلون بظهر الغيب ما الخبر

وفى البيت الثاني ينفي عنهم صفة السيادة حيث يصرح بانهم لا يشاركون فى الامور المهمة .

وزبدة القول ان الاخطل دعم سياسة الامويين لانها التقت ومصلحة قبيلته ، فلا يعد من شعراء السياسة العقائديين الذين يناضلون من اجل فكرة او عقيدة ينذرون لها حياتهم .

وحادثة الاخطل مع زفر بن الحارث تمثيل حي لما نقول . جاء في الديوان في الصفحة السبعين والثلاثمائة نقلا عن الاغاني ((لما استنزل عبد الملك زفر بن الحارث من قرقيتسياء اقعده معه على سريره فدخل عليه ابن ذي الكلاع فلما نظر اليه مع عبد الملك على السرير بكى فقال له ما يبكيك ؟ فقال يا امير المومنين ... وكيف لا ابكي وسيف هذا يقطر من دماء قومي في طاعتهم لك وخلافه عليك ؟ ثم هو معك على السرير وانا على الارض . قال اني اجلسه معي ان يكون اكرم علي منك . ولكن لسانه لساني وحديثه يعجبني ... فبلغت الاخطل وهو يشرب فقال اما والله لاقومن في ذلك مقاما لم يقمه ابن ذي الكلاع . ثم خرج ودخل على عبد الملك فلما ملا عينه منه قال :

وكأس مثل عين الديك صرف
تنسي الشاربين لها العقولا
اذا شرب الفتى منها ثلاثا
بغير الماء حاول ان يطولا
مشى قرشية لا شك فيها
وارخى من مآزره الفضولا

فقال له عبد الملك ما اخرج هذا منك يا ابا مالك الاخطة في راسك قال اجل والله يا امير المومنين حين تجلس عدو الله على السرير وهو القائل بالامس :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى
وتبقى حزازات الصدور كما هيا

قال فقبض عبد الملك رجله ثم ضرب بها صدر زفر فقلبه عن السرير وقال اذهب الله حزازات تلك الصدور فقال انشدك الله يا امير المؤمنين ، والعهد الذي أعطيتني . فكان زفر يقول ما ايقنت بالموت قط الا تلك الساعة حين قال الاخطل ما قال))

منزلة الشعر

ومنزلة الشاعر لدى الخليفة الاموي تتجلى في تصرفاته وسلوكه وجراءته في بعض المواقف . فكثيرا ما كان يدخل على الخليفة دون استئذان كاقرب الناس اليه ، ولحيته تنفض خمرا . وغني عن القول ان موقفا كهذا الموقف المشكك هو خروج على تعاليم الاسلام وهيبة الخلافة ، بل هو كفر مبين يستحق الشاعر بسببه معاتبة السيف . لكن الخليفة يصفح عنه لمكانة الشعر من نفسه العربية . وهذا مع ما روينا من تهديد الشاعر قدر كاف للدلالة على تسامح الامويين والطابع العربي الصريح الذي طبع به ملكهم .

وهناك حادثة اخرى من هذا النوع روي ان الاخطل دخل يوما على عبد الملك فاستنشده فقال : قد يبس حلقي فمر من يسقيني . فقال اسقوه ماء ، فقال هو شراب الحمار وهو عندنا كثير ، قال فاسقوه لبنا ، قال : عن اللبن قد فطمت . قال ، فاسقوه عسلا . قال : شراب المريض . قال : فتريد ماذا ؟ قال خمرا يا امير المؤمنين . قال : أعهدتني اسقي الخمر لا ام لك ؟ لولا حرمتك بنا لفعلت ، وفعلت . فخرج فلقى فراشا لعبد الملك ، فقال ويلك ان امير المؤمنين استنشدني وقد صحل صوتي فاسقني شربة خمر ، فسقاه رطلا . فقال اعدله بآخر فسقاه رطلا آخر ، فقال تركتهما يعتركان في بطني فاسقني ثالثا ، فقال تركتني امشي على واحده اعدل ميلي برابع ، فسقاه رابعا ، فدخل على عبد الملك فانشده رائيته المشهوره :

((خف القطين))

فانظر الى التسامح الذي شهر به الامويون ... الخمر التي حرمها الكتاب المنزل يطلبها شاعر نصراني من حامي الكتاب المنزل. ولا يقف الاخطل عند هذا الحد بل يتعداه الى وصف الخمرة والنديم في مدحه للامويين . ولا تتعجبن من هذه الجراة : ان من البيان لسحرا .

وتبلغ به القحة ان يرفض الدخول في الاسلام حين عرض ذلك عليه عبد الملك واغراه بالعطاء الكثير ، ويخاطب عبد الملك قائلا :

ولست بصائم رمضان يوما
ولست بآكل لحم الاضاحي
ولست بزاجر عنسا بكورا
الى بطحاء مكة للنجاح
ولست بقائم كالعير ادعو
قبيل الصبح حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولا
واسجد عند منبلج الصباح

للاسماء العديدة التي تتالق في سماء تاريخ الادب العالمي ، وشعوره بالحاجة الى ادب عالمي آت من انحيازه غريزة الخلق الفني الى جانب رغباته ودوافعه الجمالية ، الا انها غريزة وجدت بالقوة زمنا طويلا ظلت تترقب وجودها بالفعل بظهور عبقرية فذة لها روحها الذاتي ومزاجها المتفرد القادر على انتشال الانسان الروسي من تمركزه الذاتي ووضعه العنكبوتي للخروج من افقه الاقليمي الضيق الى عالم انساني رحيب .

ولعل الذي اخر تفتح تلك الغريزة الى منتصف القرن التاسع عشر هو افتقار الشعب الروسي الى كثير من الخصائص الاساسية كالوحدة القومية وذكريات التاريخ المجيدة التي تخلق شخصيته التاريخية وتفسح له المجال امام معطيات المدنية الحديثة .. وهكذا بقيت روسية – ضمن ظروفها التاريخية – محصورة في مجتمع مغلق ترافب تطور الامم وتجديد الافكار بحذر شديد رغم ما اوجده بطرس الاكبر من علاقات التقارب بين روسية واوربة اذ لم تقدر هذه العلاقات على اكتشاف اصالة الحضارة الروسية وانارة مقوماتها الابداعية ، فوجدت روسية نفسها في مفترق موقفين اثنين :

موقف قومي يتشبث بذاتية الادب الروسي في طابعه الشعبي القديم المحافظ ، البعيد عن كل تأثير اجنبي يفقده اصالته .

وموقف يدعو الى اقتفاء اثار الادباء العالميين والاهتمام بالتيارات الفكرية الحديثة ، وبالتالي تمهيد الطريق امام الادب الروسي للخروج من عزلته واغنائه بالجديد الوافد من العالم الغربي من علم وفلسفة وفن

الا ان الموقف الاول بقي متحكما في فعالية الادب الروسي حتى مطلع القرن التاسع عشر تسنده عوامل ثلاثة هي : المناخ – العرق – التاريخ .

فالوضع الجغرافي حتم على روسية ان تخضع لمناخ بارد جدا جعلها ذات طبيعة جغرافية خاصة في تكوينها القاري ، فلا هي من أوربة ، ولا هي من آسية ، وانما هي من هذه وتلك . في هذا المناخ القاسي عاشت شعوب عديدة مهاجرة ابرزها ثلاث مجموعات كبرى هي :الفنوا – التتار – السلاف ، ومع مرور الايام استطاعت المجموعة الاخيرة امتصاص وجود المجموعتين الباقيتين لتتسنى لها بناء الحضارة الروسية الحديثة ببذل كثير من الجهد الدائب والتضحيات الجسام للانعتاق من الكهف (الافلاطوني) .

اما التاريخ الروسي فتتراءى من خلاله فترات حالكة مليئة بالمآسي والحروب والهزات العنيفة الآتية من غزو التتار ونفوذ الاجانب وسيطرة الاقطاع واستبداد القياصرة وقسر الحياة الاجتماعية ، انعكست تلك الفترات على الحياة اليومية للانسان الروسي وطبعته بطابع الحزن والتعاسة يتجلى هذا الطابع اكثر ما يتجلى في الادب الروسي شعره ونثره حتى لقد عبر عنه الكاتب الروسي هيرزن (1812 / 1870) بقوله : ان الحزن والريبية والسخرية هي روابط الادب الروسي ، وما ضحكنا سوى سخرية مرضية .

هذه هي العوامل الثلاثة (الجغرافي والاتنولوجي والتاريخي) التي اسهمت الى حد بعيد في تجديد اطار الادب الروسي واثرت فيه تأثيرا فاعلا ، ولكنها بدء من القرن الثامن عشر اصطدمت بتحديات معاكسة من كتاب مثل سوماركوف ورادبستشيف وغيرهما ممن اعتقدوا بان العبقرية والذوق الفني موجودان في كل بلد خارج اي اعتبار جغرافي او عرفي او تاريخي ، فكان من الضروري ان ينتقل الادب الروسي من الواقعية الساذجة الى الواقعية الاجتماعية ، ومن الادب الشعبي المطبوع بطابع ديني وخرافي معا الى الادب العالمي الانساني وان بدا في نهاية التحليل ان هذا الانتقال غير نهائي اذ ان الشعب الروسي يميل بطبعه الى البحث عن فرحه العظيم في ادبه الشعبي المليء بذكريات الماضي البطولية واعمال القديسين الروحية واغاني الشعب النابعة من شعوره الوطني .

روافد الادب الروسي الحديث :

ابتداء من القرن التاسع عشر اخذت الحياة الفكرية والادبية في روسيه تشق طريقها للظهور بتأثير عوامل سياسية واجتماعية كما اخذ الادب الروسي يتخلص من سيطرة النخبة المثقفة التي كانت تحتكره وتستغله لتصريف ميولها وعواطفها بعيدا عن الاتصال بالواقع الاجتماعي الروسي ، فمنذ اوائل القرن التاسع عشر حدث انقلاب ادبي بقيادة كارامزين خالق اللغة الادبية الحديثة في روسية ، وكرلوف لافونتين روسية، وبوشكين شاعرها الاكبر وليرمنتوف بيرونها المتمرد وبيلنسكي ناقدها الذي هاجم بعنف واصرار نظرية

مولد الادب الروسي

للاستاذ مصطفى الأزموري العمري

البحث عن ادب :

فى عام 1834 اثار الناقد الروسي الكبير بيلنسكي Belinski قضية الوجود الادبي فى روسية بطرح هذا السؤال الجدي : هل نملك ادبا ؟ وبنفي قاطع اجاب : لا ، ليس لدينا الا تجارة كتب ، والواقع ان نقد بيلنسكي يتضمن حكمين اثنين :

حكم تاريخي يشير ضمنا الى العزلة التي عاشها الشعب الروسي زمنا طويلا مكتفيا بادب هزيل يجتره ويكرر فيه نفسه محجما فى فترات لقائه بالشعوب الاخرى عن التاثر بمعطياتها الحضارية والتاثير فيها للاسهام فى صنع تاريخ الادب العالمي ، لا ينجب دبه افذاذا مثل دانتي وشكسبير وراسين وموليير وسرفانتيس وغيرهم من ذوي الصيت الفني العريض.

وحكم فني يبين ما كان عليه الادب الروسي في مطلع القرن التاسع عشر من الضعف والتفاهة والسلبية التي سدت منابع عبقريته وجففت روافد حيويته وسفلت به الى مستوى الدعاوة والابتذال حتى غدا الكتاب الروسيون – بتعبير بيلنسكي – منتشرين انتشار نبات الفطر .

وبوسعنا ان نبين نمطين التقيا فى الادب الروسي فى اوائل القرن التاسع عشر :

1) نمط يمثل الواقعية البسيطة التي يمتاز بها الشعب الروسي كمقوم من مقومات وجوده المبني على الاحساس بالواقع الحياتي ، بيد ان الادباء الروسيين فى ذلك الوقت لم يستطيعوا تجاوز بساطة تلك الواقعية الى التوغل فى تعقدها ومعاناه اشتدادها ونوترها بالنفاذ الى اعماق الواقع الروسي الحركي المضطرب بشتى المواقف والافعال والحركات ليتعاطفوا معها وينفعلوا بها ، بل افتصروا فقط على التقاط سطح تلك الواقعية الساكن البارد ووصف مظاهره وصفا خارجيا حياديا .

2) ونمط ابداعي متاثر بابداعية غوته وشللر وشاتو بريان ولامارتين وغيرهم ، مستجيب لدعوة (الفن للفن) التي كانت تتزعمها المدرسة الابداعيه الفرنسية ، غير ان الابداعية الروسية كانت تحاول على ما يبدو ان تسمو بالميول الشخصية الى مستوى المشاعر القومية والانسانية ، بينما كانت الابداعيه الفرنسية تريد ان تتمرد على العقل (البارد الجاف) لانقاذ العاطفة (الحارة الجياشة) وتحرير الانسان الطبيعي .. انسان روسو من طغيان الانسانية السورية الفرنسية التي اذابت احلام (المنزه الوحيد) فى مبادئها المشهوره

من هنا نعلم ان نقد بيلنسكي على عنفه يبدو صحيحا الى حد بعيد آنذاك سيما وان الادب الروسي بالمعنى الحديث لم ينهض على اسس نابتة الا فى القرن الثامن عشر اثناء عهد بطرس الاكبر ، ولم يتخذ صفته العالمية الا فى منتصف القرن التاسع عشر حينما اصبح بحق حادثا من أعظم حوادث ذلك القرن .

ومن البين ان الشعب الروسي كان يشعر بحاجة ملحة الى خلق ادب رفيع يزاحم الاداب الاخرى فى رحابة افقها واتساع مدارها وتنوع افكارها وغنى قيمها الفنية ، ويكون لاسماء رواده من ذيوع الصيت

1) تيار لا شعوري (نفساني) يتوغل فى اغوار شعور فى فوضاه السيكولوجية واضطراب رغباته بوتة وهيجان ميوله الغامضة ، نشاهد فعل هذا يار فى قصص وروايات روسية كثيرة مثل (النفوس يتة) لغوغول ، و (رسائل من اعماق الارض) ، و لاخوة كارامازوف) و (الممسوسون) لدستويفسكي. مل هذا الاخير يعتبر سيد القصة السيكولوجية الذي جد فيه كثير من الكتاب المعاصرين امثل جيد وكافكا سارت وبروست وكامو وفولكنر وبرباروس اشكالا دده للقصة الحديثة واسسا للتراجيديا الحديثة كما جد فى حياته وادبه معا فلاسفة مثل رازانوف بردبيايف وكامو (اسطورة سيزيف) عناصر وجودية سادرة عن التجربة التشخصية الحية التي تنم عن لمى ميتافيزيقي ماثل فى الاستفهام عن معنى الحياة والوجود ، واخيرا استفى منه علم النفس المرضي والتحليل النفسي حيثما قدم لهما نماذج نفسية غريبة في مواقفها الحياتية ازاء ذاتها وازاء الآخرين .

2) وتيار شعوري – اخلاقي يهتم بالسلوك الاجتماعي والديني للشعب الروسي ويدعو الى مسيحية سمحة مليئة بالامل العظيم فى مقاومة طغيان المذهب الالحادي الصاعد من فلسفة نيتشه وشترن وفورباخ . ويمثل هذا التيار روايات تولستوي ودستويفسكي كما يهدف روايات غوركي الى التمرد على القيم البورجوازية والفوارق الاجتماعية والدعوة الى الاهتمام الشديد بالواقعية الاشتراكية وبطلها الانسان البروليتاري .

عن طريق هذين التيارين تم الاكتشاف الادب الروسي الحديث ولم يعد لسؤال بيلنسكي : هل نملك ادبا ؟ سوى قيمة تاريخيه ، فابتداء من سنة 1840 خرجت القصة الروسية الحديثة من (معطف غوغول) رائد القصة الروسية الحديثة . وهي ترتدي ثوبا انسانيا عالميا .

هكذا وجد الشعب الروسي ادبه الخاص بعد معاناه وطول انتظار ... ادبا ممتدة جذوره فى اعماق التربة الروسية الاصليه ، باسقة فروعه فى أفق الانسانية الرحيب ، دانية قطوفه للانسان فى كل مكان وزمان ادباله ابعاد ثلاثة : البساطة فى التعبير ، والحزن العميق فى الانفعالات ، والمشاركة الوجدانية الانسانية فى الموضوع ، وهي ابعاد تتميز بها الادب الروسي عن سائر الاداب العالمية اذ تقدم لنا عالما نضج بالعذاب الانساني وشقاء الحياة اليومية سرعان ما نحس انه ليس عالم الانسان الروسي وحسب بل عالم الانسان المشكل التي تتصارع فيه قوى الخير والشر وتتجاذبه المرح الاكثر صفاء والكآبة الاكثر غرابة .

انه ادب الارض القاسية المناخ والشعب المتمرد على الارض والانسان البرمثيوسي المستيقظ .

بالدار البيضاء : مصطفى الازموري



الفن للفن ونادى بالواقعية الاجتماعية والعودة الى الشعب فكان لندائه تأثير على كتاب روسية الكبار امثال غوغول وغرغور فيتش ، وتورغنيف ، ونيكراسوف ، ودوستويفسكي ، وتولستوي وغوركي .

وواضح ان هذه الثورة البناءة فى الادب الروسي سبقتها ارهاصات تاريخية واجتماعية وسياسية فالمجتمع الروسي كان خاضعا لعملية تطور ضخمة للخروج من انعزاله التاريخي نتيجة الحرب الوطنية التي احتدمت بين روسيه وفرنسة عام 1812 ، والتي اثارت فى الشعب الروسي اندفاعا محمسا فجر فيه جميع القوى الحيوية المقومة للامة والخالقة حسا وطنيا للشعب السلافي .. كما ان انتصار روسية على نابليون وامتيازها الدولي بعد مؤتمر فيينا بجانب الدول الكبرى انذاك (انجلترا . فرنسا ، النمسا ، اسبانيا ،) كل هذا ساعد على توكيد مستقبل روسية السياسي والعسكري ، كذلك استطاع الساسة الروسيون ان يكتشفوا فى باريس البنية السياسية والادارية والاجتماعية للدولة الحديثة نظريا وعمليا بفضل معطيات مبادىء الثورة الفرنسية حتى اذا عادوا الى وطنهم شرعوا يفسرون افكار ثوره 1789 وينشرونها فى حذر شديد خشية الرقابة القيصرية التي اخضعت تدريس المسائل الفكرية لتوجيه اللاهوتيين الارثودكس ومع ذلك فقد تكونت حلقات من محبي الفلسفة تناقش فكرة العالمية والسلام الدائم الداعية اليها فلسفة كانت ، وفكرة الوطنية المنبثقة من روح خطابات فيخته وشعر شللر ونظريات الاقتصاد الحر بتعبير أدم سميث والافكار الاشتراكية الصادرة عن سان سيمون وفوري، وفلسفة هيغل التاريخية التي ساعدت الى اقصى حد على دفع الشباب الروسي المتحمس الى البحث عن معنى مطلق للتاريخ الروسي قائم على مفهوم القومية ومصيرها التاريخي حتى لا يبقى هذا التاريخ تاريخيا ميتا تتسرب فى قاعه حوادث مقصوصة وملصقة لا معنى لها ولا هدف .

وسط هذه الكثرة من المبادى والقيم الجديدة الوافدة من اوربة الى روسية بطريقة مباشرة او غير مباشرة انبجست افكار تحررية تريد ان تجد للانسان الروسي مكانا ومعنى الحياة فى مجتمع مغلق ممزق موضوع وضعا سيئا وتنقده بالتالي من عدم رضاه بالواقع الاسود .

بيد ان سؤالا خطيرا برز : هل يجب على روسية ان تقيم وجودها بالاخذ الموصول من معطيات الحضارة الغربية ، ام يجب ان تكتفي بذاتها وتبحث عن مثله الاعلى فى وجود قومي له خصائصه وظروفه وشروط

على هذا السؤال انبثقت اتجاهات عظيمة تشابكت وتعقدت فى الفكر الروسي واهمها :

1) اتجاه غربي يحاول ان يقوي الاتصال بين روسية واوربة ان على الصعيد الديني او على الصعيد الاجتماعي والسياسي . واصحاب هذا الاتجاه يرون ان على الادب الروسي ان ينشر الافكار العظيمة الآتية من الغرب ثم يسقط الضوء النقدي والتحليلي على المساوىء التي تذيع الفوضى والاضطراب فى الواقع الروسي .

2) اتجاه سلافي يدعو الى المحافظة على روح القومية السلافيه بمقاومة كل تأثير دخيل يتسرب الى روسية (المقدسة) ، وإثارة الحس الوطني فى نفوس الشباب المنتشين بانتصارهم على نابليون والباحثين عن مثل اعلى قومي قائم على اتباع التعاليم الارثوذوكسه وتأييد الحكم المطلق القيصري والتشبع بالروح الوطنه الاصيلة .

3) اتجاه شعبي اشتراكي يدعو الى الرجوع الى الشعب والتقرب اليه للقضاء على بؤسه وجهله وتحريره من جبروت الحكم المطلق واستبداد الاقطاع وتحطيم الاوضاع الفاسدة بالقوه .. (بحر من الدم والنار يطغى على موسكو حتى يتألق نجم الثوره الذى يقود الانسانية المتحررة) كما اعلن باكونين وبلخانوف وبعدهما لينين .

4) اتجاه ديني صادر عن حياه الشعب الروسي الدينية المليئة بالمحبة المسيحية والايمان القلبي البسيط الهادىء ، ويمثل هذا الاتجاه فلاد مير سولوفييف الذي كان يرى ان الحقيقة الدينية لا برهان عليها بالدليل العقلي ، وانما تحضر حضورا وجدانيا عن طريق الايمان الحدسي . وقد تأثر بهذا المفكر الديني فيما بعد شيستوف وبرديايف فى المجال الفلسفي ، أما تأثيره على الادب الروسي فيبدو واضحا فى ادب دستويفسكي .

جميع هذه الاتجاهات وفدت على الادب الروسي الحديث فى القرن التاسع عشر وميزت منه تيارين كبيرين اسهما اسهاما فاعلا فى تحديد خصائصه وضمان بقائه بين الاداب العالمية الاخرى :

على صورة الموقف السائد ، واسهمت – مرة اخرى – في بث عوامل الخلاف الاتجاهي والعقائدي بين التقدمية العربية من جهة ، والدولية الشيوعية من جهة اخرى ، وهناك ملحظان هامان يمكن للمراقب ان يكونهما من متابعة التطورات الاخيرة ، وهما (أولا) : ان الجدل العربي الشيوعي الذي استأثر بالاذهان طول شهر فبراير الماضي ، وكان نتيجة لاتجاه العراق الجديد في موضوع نشاط الشيوعية المحلية – هذا الجدل قد انحصر محدودا حول العراق ذاته ومع المسؤولين العراقيين انفسهم ولم تقتحمه بعد اية دولة عربية اخرى ، كالعربية المتحدة بالاخص ، على النقيض مما كان عليه الامر في سنة 1959 حيث كانت القاهرة لا بغداد هي الطرف الاخر في النقاش ، وكانت تتبنى بذلك – بالاضافة الى وجهة نظرها – فكرة القوميين العرب في العراق ، الذين كانوا وقتها خارج الحكم (ثانيا) ان مصدر المهاجمات الشيوعية لا يزال لحد الان يختلف قليلا عما كان عليه الشأن في مرحلة الصراع السابقة (سنة 1959) ، لقد كان المصدر حينذاك هو الاوساط الرسمية السوفياتية نفسها وبالاخص رئيس الحكومة الروسية الذي يمارس سلطات تنفيذية واسعة ، ويمثل بذلك قمة السياسة الروسية واتجاهاتها في مختلف الميادين ، وهذا علاوة على حملات الاحزاب والهيئات الشيوعية العالمية سواء في اوربا او آسيا او غيرهما ، اما في الفترة الراهنة ، فان الجهات التي تولت مواصلة الجدل الشيوعي مع القوميين ، هي اقل رسمية مما تقدم عليه الامر في المرحلة القديمة ، وان كانت هذه الجهات – مع ذلك – ذات اهمية كبيرة جدا ، فقد آثر رئيس الكريملين في هذه المرة ان يضيق من نطاق المبادرات الشخصية التي اتخذها من قبل في هذا الامر ، غير ان المجال قد فتح على امتداد آفاقه ، لكل من اللجنة المركزية الشيوعية ، والمصادر الصحافية الرسمية سواء منها الناطقة او المكتوبة ، وذلك في موضوع التطورات الحاصلة بالعراق، وما توالى في خضم هذه التطورات من بوادر الصراع بين القوميين والعناصر الشيوعية المحلية وقد ذهب كثير من الشيوعيين الاوربيين في هذا الباب – مثل ما ورد في تصريح للحزب الشيوعي الفرنسي نشر في اواسط فبراير الماضي – ذهبوا الى حد التاكيد بان (الاستعمار وحده هو الذي يمكن ان يستفيد مما حدث بالعراق) ، ولم نتردد بعض اجهزة الاعلام السوفياتية الرسمية في التاكيد بان (الراي العام السوفياتي لا يمكنه الا ان يراع امام الوجهة التي اتخذتها الاحداث العراقية ...) هذا الى كثير من المواقف الاخرى المتخذة من هذا القبيل

على ان الذي يلاحظ بوضوح ان المسؤولين الثوريين ببغداد وان كانوا صرحاء جدا في سياستهم المناوئة للشيوعية العربية المحلية ، الا ان ذلك لم يصل بهم الى حد الرغبة في توطيد العلائق بينهم وبين دول الكومينفورم واحتضان الاتجاه الى مواجهة الشيوعية العالمية وتحديدها بصورة عامة ، وعلى اوسع نطاق ممكن ، وقد اجتهد الدعاة الثوريون العراقيون في التسديد على هذه الحقيقة ، ومحاولة اقناع الآخرين بضرورة التمييز بين مناوأة حزب شيوعي معين، وذلك لاسباب داخلية خاصة وهذا ما سلكه العهد العراقي الجديد ، وبين الانطلاق في مناوأة المذهبية الشيوعية العالمية ، والتركيز على جانب هذه المناوأة بكل ما يتوافر من طاقات مادية ومعنوية ، وهذه هي سبيل الدول الاخرى التي ترتكز سياستها العامة على مضادة الشيوعية الدوية، ومناوأتها على خط مستقيم ، ولا يبدو ان ظروف العراق وكثير غيره من الدول العربية الاخرى ، تحمل على انتهاج سلوك سياسي ودولي من هذا القبيل ، فالعالم العربي على العموم هو من اقل المناطق العالمية تأثرا بجاذبية الجدل الماركسي ، واضعف استعدادا للتفتح على ما تحتويه المادية التاريخية من نظريات واراء ، وهو بذلك غير ذي قابلية واسعة ، لتطبيق هذه النظريات والاراء تطبيقا حرفيا على مقتضيات تطوره الفكري والاجتماعي والاقتصادي الراهن ، هذه مسلمة اساسية يمكن للمراقب الاجنبي ان يدركها بمجرد استطلاع بسيط لحقائق الاحوال النفسية والعقلية والتاريخية التي تسود الانسان العربي على وجه العموم ، الا ان تمنع الفكر العربي على محتويات الماركسية ، واستقلاله في كثير من المناهج والمثاليات كل ذلك لا يعني بالضروره استعداد العرب في ظروفهم الراهنه ، للتطوع لمناوأة الشيوعية العالمية ، والاضطلاع في هذا الباب باي دور فعال وذي ابعاد دولية واسعة المدى ، والامر في ذلك ، يعود الى سبب بسيط ، وهو ان طاقة الامة العربية على النضال والمناوأة كانت تستغرقها دائما – وطيلة العقود الخمسة او الستة الماضية – مقتضيات التحرر السياسي والترابي بكل ما يستلزمه ذلك من تصادم مع الدول الغربية بالاخص ، وصراع معها على مختلف الاوجه والصور ، اما الان وقد استنمت الاقطار العربية كثيرا من شروط التحرر السياسي في صوره البدائية ، فان كثيرا من القضايا والمشاكل لابد ان تركز اهتمامات الشعوب العربية حول ذاتيتها الخاصة اي حول وسائل تطورها الانساني والانمائي ، وذلك ما من شانه ان يبعد بها عن مواطن الاحتكاك العالمي الواسع ، وينأى بوجهتها عن الالتقاء مع وجهات

حول تطور العلاقة بين التقدمية العربية والشيوعية الدولية

للاستاذ: المهدي البرجالي

الثورة العراقية وعلاقتها بالخلاف بين التقدمية العربية من جهة والشيوعية الدولية من جهة اخرى ـ احوال الخلاف منذ نشوب ازمة سنة 1959 ـ الحقائق السلبية والايجابية التي ترتبط بذلك ـ الجوانب المبدئية التي يقوم واقع التناقض بين الفكرتين: العربية والشيوعية ـ نتيجة استمرار هذا التناقض ـ علاقته بالصلات الدولية العادية .

كانت الثورة الاخيرة التي عرفها العراق الشقيق ، من ابرز الاحداث التي اجتازها العالم العربي خلال الشهور الاخيرة ، ومن اعمقها دلالة وابعدها أثرا ، وقد بدات العواطف النارية الجياشة التي ترافق ـ كما هو طبيعي ـ اية حالة ثورية من هذا النوع ـ بدات هذه العواطف تستنفذ الكثير من حدتها وعرامتها الاولى ، وذلك بفعل العادة والاستصحاب ، وتحت تأثير العامل الزمني الذي يجرد مختلف الاشياء من ملابساتها السطحية ... هذه الملابسات التي تعلق بها على وجه او آخر ، وتكسبها في البداية صبغة حادة ومثيرة ، غير ان هناك على النقيض من ذلك اثارا اخرى بعيدة المدى والمفعول ، ما تزال حركة العراق تنبثق عنها وتحدث بها كثيرا من التأثير على وجهة الحياة الثورية العربية ، وعلى صعيد الفكرة السياسية والمذهبية العربية ، بكل ما تتسع له من آفاق وميادين ، والصفحة الجديدة التي انفتحت في مجال الصراع بين العقائدية العربيةمن جهة ، والشيوعية الدولية من جهة اخرى هي من بين الاثار العميقة التي افضت اليها تطورات العراق هذه ، ومن اكثرها ايغالا في الاهمية وخطورة الشان ، ولعلنا نذكر ان العراق بالذات كان هو ايضا ـ ومنذ اربع سنوات فقط ـ مثار صدام حاد بين القوميين العرب في المشرق ، وبين مجموعة دول الكومينفورم على وجه العموم ، وفي المقدمة الاتحاد السوفياتي ثم الصين الشيوعية كذلك ، ونذكر ايضا ان ذلك الصدام الذي امتد فترة قصيرة نسبيا . وطيلة الشهور الاولى من سنة 1959 كان قد اكتسى مظهرا حادا جدا ، وكاد يتشعب الى درجة اوشكت ان تنال من بعض الاوضاع الدولية بالشرق الاوسط . وكادت تؤثر على تطور العلاقات العربية الروسية في هذه المنطقة ، وقد وجه رئيس الحكومة السوفياتية ساعتها نقدا مباشرا لموقف القوميين العرب من الاحزاب الشيوعية المحلية ، وابدى تذمرا مريرا من ظاهر التنافر الملحوظ بين الحركة التقدمية العربية وبين الخلايا والمنظمات ذات الاتجاه الشيوعي التي تنشط هنا وهناك في بعض انحاء الشرق العربي ، وتحاول ان تتخذ لنفسها مركزا ما في هذا القطر او ذاك من اقطار المنطقة.

وقد كان من خير العلاقات العربية السوفياتية ، ان الجدول الذي استفاض على اثر هذه التطورات بين الكرملين ، وبعض المسؤولين العرب ، والذي اشتد احيانا الى درجة محرجة جدا ـ اخذت وطاته في النهاية تخف شيئا فشيئا ، الى ان طويت صفحته بصورة تامة واصبح نسيا منسيا ، غير ان الحركة الاخيرة التي عرفها العراق قد كان من نتائجها ان اثرت من جديد

فى اوربا الشرقية ، وكذا منغوليا فى اواسط اسيا — نجاح هذه القيادات جميعها فى اصطناع علاقات اكثر ايجابية وتحررية ، مع مختلف دول العالم الاخرى ، بما فيها دول العالم الثالث وكان الطابع العام الذي يدمغ سلوك الحكومات الشيوعية بهذا الصدد هو طابع التحرر من المبدا القاضي باخضاع الوجهة الدبلوماسية للدولة لمصالح العقيدة التي تدين لها ، ومن غير شك فان هذا النهج الواقعي الذي آثره السوفيات وشركاؤهم فى حلف فارسوفيا — كان ذا تاثير ايجابي على ارتباطات موسكو ومجمل العواصم الشيوعية الاوربية باقطار العالم الخارجي ، وقد اسهم ايما اسهام فى تعديل كثير من الموازين السياسية الدولية ، وما زالت النتائج المترتبة عنه تشكل خطوة مهمة فى سبيل لبرالية الانظمة الشيوعية السائدة ، وتركيز مصالح التفاهم العالمي على اسس امتن بناء واوسع افقا .

وليس من الضروري ان نعزو مثل هذا الاتجاه فى النظر والتقدير والتصرف من جانب الشيوعيين المعتدلين الى مجرد حسن النوايا التي ينطوون عليها ، وعميق الاخلاص الذى تكنه صدورهم نحو الدول الاخرى التى تنتمى لعالم الحياد والتخلف ، ان الامر فى هذا الباب ليس فى الواقع امر نوايا حسنة ، أو مشاعر مخلصة ، بقدر ما هو امر واقعية مستنيرة ومستبصرة اصبحت تساعد كثيرا من الماركسيين المسؤولين على التعرف على منافذ الارتباط بالعالم المحايد ، ومنافسة الجهات الدولية الاخرى ، التى تسعى سعيا لتحقيق نوع من السبق فى هذا المجال ، ومن مجاوزة الحقيقة انكار اهمية النجاحات التى احرز عليها المعسكر الشيوعي بهذا الشأن ، نجاحات لم يكن من نتائجها بالطبع انقضاض حياد الدول الملتزمة لمبدأ الحياد ، وانقيادها الى مجاهل التبعية والمامورية ، ولكن هذه النجاحات تتمثل اكثر من ذلك — فى القدرة على مسابقة دول الحلف الاطلسي ، وتحديد مدى التأثيرات السياسية والاقتصادية التي الفت قديما ان تمارسها على حساب بعض الدول الصغيرة هنا وهناك ونجاحات اخرى تتمثل فى توسيع نطاق التفاهم العالمي الكبير ، وتقريب المجموعات الدولية بعضها من بعض ، وتحقيق انجازات عملية على اساس كل ذلك .. هذه الانجازات التي تبدو بعض مظاهرها بارزة فى عملية السد العالي بمصر مثلا ، كما تبدو لها كذلك مظاهر أخرى لا تقل اهمية سواء بالهند او افغانستان او الجمهورية اليمنية او غير هذه الاقطار كثير .

لكن ما الذي حدث بعد توافر كل هذه الظواهر الايجابية فى افق العلائق بين العالم الشيوعي واقطار العالم الثالث ؟

انه لا سبيل الى الانكار بان الكثير من هذه الظواهر ما يزال لحد الان ماثلا أمام العيان ، دالا فى نفس الوقت على قوة الاستمرار الذي تتميز به السياسة السوفياتية فى كثير من المواطن ، ومدى أهمية الاسس المبدئية والتخطيطية التي تنهض عليها بهذا الشأن ، فقد استطاعت الديبلوماسية الروسية ، ان تضع — فى عديد من الحالات — خطوطا عريضة بين مصالح ارتباطها الدولي باقطار العالم الثالث ، وبين وجود الصلات الروحية والعقائدية بينها وبين الجماعات التي تنتسب للماركسية اللينينية ، والتي تنشط داخل بعض هذه الاقطار ، واذا ما وضعنا فى الاعتبار، واقع العلائق بين الكريملين والقاهرة منذ سنة 1955 سواء فيما يتصل بالجانب الديبلوماسي الدولي ، او فيما يتعلق بالنواحي الاقتصادية والمالية وغيرها ، ثم اذا قارنا كل ذلك بما عليه السياسة المصرية العامة نحو الشيوعيين ، ونظره النظام القائم هناك الى طبيعة التبعية الماركسية وانصارها والدعاة اليها ، اذا وازنا بين كل هذه الحقائق والاخرى نكون قد اشرفنا على مظهر مهم من مظاهر العلاقات السوفياتية الدولية ونكون كذلك قد الممنا بجانب اساسي من جوانب السلوك الواقعي الموضوعي الذى تقوم عليه هذه العلاقات ، وخاصة مع الدول المتخلفة وغير المنحازة ، ومن آخر الظواهر التي يمكن ان تلاحظ فى هذا الشأن موقف الجزائر وتونس من نشاط الخلايا الشيوعية فيهما ، واتخاذهما سلوكا حذرا وصارما فى هذا المجال ثم عدم تاثير العلاقات بينهما، وبين الاتحاد السوفياتي نتيجة لذلك — على الرغم من بعض الهمسات التي وقع ترديدها احيانا على هامش هذا الموضوع ، وهناك امثله اخرى يمكن الاستشهاد بها من هذا القبيل ، على ان كل هذا لا يعني بالطبع ان سياسة الدولة الشيوعية الكبرى وخطة (الكومينفورم) على وجه العموم ، قد اصبحت قليلة الاكتراث بمصير الحركات الشيوعية العالمية ، ضئيلة الحرص على رعاية هذه الحركات ومراقبة تطورها الذاتي ، واشعاعها المذهبي على مختلف الاوجه والمستويات . ان اي انقلاب جذري من هذا النوع لم يحدث حقيقة على صعيد السياسة السوفياتية وسياسة الاقطار الشيوعية الاخرى التي ترتبط بالسوفيات ارتباط العقيدة والاتجاه ، غير ان ذلك لم يحل — كما اوضحنا — بين الكريملين ، وبين

التصادم الدولي العام ، الذي ليس له من حدود ، وعلى الرغم من ان قضايا العرب التطورية تقتضي منهم هكذا كل هذا التشديد على المشاكل الخاصة ، والدوران حول محورها دورانا دقيقا وملتزما ، على الرغم من كل ذلك ، فان هناك مجالات متوافرة تسلكها كثير من البلدان العربية نحو المزيد من التعاطي مع الشعوب الاخرى ، والتصادي معها ، في نطاق الاهتمامات الايجابية المشتركة ، وطبقا لما تدعو اليه هذه الاهتمامات من تعاون شامل او محدود في بعض الميادين ، ومن البديهي ان الفكرة التي تتبناها التقدمية العربية لا تتناقض في جوهرها مع مثل هذا الاتجاه القائم على تركيز التعاون الدولي ، والاستفادة من معطيات هذا التعاون وتزداد اهمية ذلك بالنتيجة لتخلف الاقطار العربية البالغ ، وتعرض الكيان العربي التهديد الاسرائيلي المستمر ، وعلى اساس هذه الاعتبارات الملحة ، كيف يمكن اذن ادراك الاتجاه الذي يحدو البعض الى اقحام البلاد العربية في خضم الصراع العالمي الكبير ، واجترارها بذلك الى نطاق الحرب الباردة سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة ؟

هذه الحقيقة على بساطتها ، كانت ستعمى غالبا على اذهان الكثيرين في الغرب ، وطوال الخمسة عشرة سنة الماضية ، ومن ثم فقد كانت هناك بالفعل كثير من المحاولات التي تكتسي احيانا صبغة التآمر ، تبذل على وجه او آخر ،لاجتذاب بعض الاقطار العربية واستدراجها الى المشاركة في حلبة الصراع العام الذي لا يفتأ اواره مستعرا بين الشرق والغرب ، على امتداد الافاق والابعاد ، غير ان ارتكاز الفكرة العربية بكل ما تحتويه من مفاهيم ومثل ومبادىء ، وبثباتها امام التحديات السياسية والنفسانية والفكرية ، التي ما انفكت توجه اليها من كثير من اقطار الغرب ، كل ذلك قد بدا يساعد في النهاية على اقناع بعض الجهات الغربية بفاعلية الوجود العربي المعاصر ، وضرورة التسليم بكل ما هو ناشىء عن هذه الحقيقة من نتائج دولية محلية وعالمية ، بما في ذلك الاقتناع ضمنا باستقلالية الحركة العربية الحديثة ، وامتناعها على امكانيات التبعية ، والتاثيرية البلهاء على اختلاف ما لها من اشكال وصور ، وقد مرت خلال السنوات السبع الماضية ، تطورات هامة جدا سواء في منطقة الشرق الاوسط العربي ، وفي المغرب العربي ايضا ، وكان يتراآى من خلالها دائما ان جهات دولية اخرى — بما فيها العالم الشيوعي وفي المقدمة الاتحاد السوفياتي — هذه الجهات ما برحت تبدي قدرا كبيرا من الفهم والادراك لحقيقة الحركة العربية الحديثة . وتعبر عن واسع الاقتناع بفاعلية هذه الحركة في صميم المنطقة العربية ، واهمية المحتوى المبدئي والواقعي الذي تعبر عنه باستمرار ، والواقع انه ما كان للشيوعيين وخاصة منهم غير الدوكاتيين ان يتمكنوا من تفهم الحركة التقدمية العربية ، والتسليم بحتمية استقلالها عن المذاهب التوجيهية الاجنبية ، والتعرف على خصائصها التاريخية والنفسانية والاخلاقية والعقلية ، لو لم يصلوا الى (هضم) مبدأ التمييز بين ما هو من قبيل العلاقات الدولية العادية وبين ما هو من صميم القضايا المذهبية والعقائدية الخاصة ، بين ماله صلة بمصالح ارتباطهم الدبلوماسي والتعاوني مع الشعوب الاخرى ، وبين ما يتصل بقضايا المذهب الذي يحتضنونه ومصلحة انتشاره في العالم الخارجي. وامتداده الذي كان يقدر له في البداية ، فكثير من الشيوعيين غير المسؤولين ما يزالون يدينون الى اليوم بهذا المبدأ الذي يوصف عند اخصامهم من الشيوعيين ايضا بانه عبارة عن دوكائية او مذهبية متحجرة ، هذا المبدأ الذي ينص على ضرورة او على الاقل امكانية الخلط بين القضايا الايديولوجية الخاصة . والعلاقات الدولية على صعيدها العام ، وهم يرون انه سيصبح من المحتم على اية دولة شيوعية ا مؤمنة ان تخضع وجهة دبلوماسيتها لمصالح العقيدة الماركسية ، بحيث يصبح من الضروري على هذا الاساس ايجاد نوع من الصلة بين العلاقات السياسية والاقتصادية مع دول العالم الثالث مثلا ، وموقف هذه الدول من الاحزاب الشيوعية الموجودة عندها ، وذلك بكل ما تقتضيه الامر — هكذا — من توسيع نطاق العلاقات السياسية والاقتصادية وغيرها لصالح الاقطار التي تسلك سبيل التغاضي المطلق عن نشاط الشيوعيين المحليين ، وعرقلة هذه العلاقات او تجريدها احيانا من محتواها التعاوني الودي ، وذلك بالنسبة للبلدان الاخرى التي تتبع سياسة مناقضة لذلك ، ومن السمات البارزة في الخلاف الناشىء حاليا بين الدوكاتيين والتعديليين هذه القضية بالذات قضية العلاقات مع دول العالم الثالث التي لا تنتهج سياسة استرضاء الشيوعيين المحليين ، وقد كان من اهم الظواهر الدولية الايجابية التي حصلت خلال سنوات ما بعد الحرب ، نجاح القيادة السوفياتية وغيرها من القيادات الشيوعية الاخرى — نجاح هذه القيادات جميعها — وخاصة بعد وفاة ستالين وابتعاد الستالينيين تدريجيا عن مقاليد الحكم والنفوذ والتوجيه سواء فيروسيا او غيرها من الدول الشيوعية

اسئلة قد يطردها البعض على انفسهم فى العراق ، وقد يضعها آخرون امام انظارهم فى غير العراق من الاقطار العربية او غير العربية ، اما اذا حاولنا تعليل احوال وظواهر من هذا القبيل ، واستخلاص النتائج المترتبة على ذلك ، فاننا سوف لا نجد هذا فى مجرد التعريض بالشيوعيين والتشكيك فى نواياهم نحو الاخرين من رواد الحركات التقدمية غير الشيوعية ، وانما نجده اوسع من ذلك فى التعرف على خصائص المذهبية الماركسية من جهة ، ومميزات الفكرة التقدمية العربية من جهة اخرى ، ولاشك ان التباين الملحوظ بين الفكرتين فى كثير من المعطيات والجوانب والتناقض المبدئي الحاصل بينهما بطبيعة الظروف والاشياء هو ما يمكن ان يفسر ظواهر الانفصام البات بين اتجاهيهما وحده الاصطدام الذي يقع بين هذين الاتجاهين ، على مختلف الابعاد والمستويات ، فالشيوعية الدولية ـ سواء فى سورها التعديلية او الدوكاتية ـ تعد نفسها عقيدة مطلقة لها صفة الكلية والشمول ، وهي لا تنحصر (بسبب ذلك) فى موضوعات التنظيم الاقتصادي والاجتماعي مما يتصل بحياة الافراد والجماعات وما يتناول الاوضاع الطبقية والانتاجية والتوزيعية والاستهلاكية وما هو بسبيل ذلك على وجه أو آخر ، بل انها تتعدى ذلك لتحاول فرض أوجه معينة من النظر فى مختلف المناحي الفكرية والعقائدية والسياسية والاخلاقية والذوقية وغير هذا او ذاك ، مما له ارتباط بالحياة الفردية الخاصة . ومظاهر العلاقات الانسانية بوجه عام ، والصلات التعاونية الدولية بصورة اعم ؟ اما التقدمية العربية فهى فى اساسها ظاهرة عربية ،ذات آفاق متفتحة ، وتمتد ابعادها على مختلف المناحي من حضارية وسياسية واقتصادية واجتماعية وغير ذلك ، وترتبط فى نفس الوقت شديد الارتباط بمعطيات تاريخية واخلاقية وحضارية واسعة ، ولها استمدادها الغني من صميم الواقع العربي الاسلامي ، ومن جملة الصلات التي تشد العرب الى الجماعة الاسلامية العالمية ، والى القيم والمثاليات التي كانت اساسا لوجود هذه الجماعة ونموها ، منذ ان كان لها وجود ، ان التقدمية العربية وان لم تكن لها صفة الكلية والاطلاقية ، فان ارتباطها بالمعطيات الاسلامية المنحدرة من اعماق التاريخ والمتأصلة فى صميم الوجدان العربي المعاصر ـ من شانه ان يضفي عليها صبغة كلية شاملة، ويمنحها اطارها الواسع من حيث الناحية الفكرية والمبدئية ، او باعتبار الجوانب التطبيقية ايضا .

ولا يعني كل هذا ، ان محور التناقض بين الفكرة العربية والمذهبية الشيوعية ، يتركز حول قضايا الروح والعقائديات الروحية ، وما يترتب عليها ، مما هو من هذا القبيل ، انه اذا كان التناقض موجودا بالطبع فى مثل هذه الموضوعات فانه موجود كذلك بصورة اعم فى صفة الكلية والشمول التي تنتحلها الفكرة الشيوعية ، وتنطلق منها الى تفسير جميع الظواهر الانسانية والتاريخية فى العالم على اساس مقاييس ومعطيات معينة ثم تحاول اقحام النتائج المنبثقة عن هذه التفسيرات على مختلف الاوضاع والاحوال الموجودة هنا وهناك فى مختلف القارات والجزر ، وعلى امتداد المسافات والابعاد واختلاف الظروف والوقائع والاعتبارات والحيثيات واذا كانت هناك صور عديدة امكن فيها للقيم والمعطيات الفكرية الشيوعية ، ان تغمر حيوية القيم والمثل التي كانت تسود هنا وهناك ، فى نقط متخلفة من العالم، وتخلفها فى مجال التاثير والوحي والتوجيه وعلى صعيد القيادة والتسيير ايضا ، فقد يكون ذلك راجعا الى ضعف هذه القيم وتفاهة المحتوى المبدئي والعملي الذي تعبر عنه ، وقد يكون ذلك ناشئا فقط عن توارد ظروف وطوارىء معينة ، لم يعد فيها مجال للاختيار الارادي والمبادرة التلقائية الواعية ، وقد يكون غير هذا وذاك ، انما الاساسي فى الامر ان الفكرة العربية بما يتوافر لها من موارد فكرية خصبة ، وما يتهيأ لها من امدادات غنية وافرة ، سواء من حيث ارتباطها بمآتي الماضي ، او اتصالها بمعطيات الحاضر، هذه الفكرة ليست فى الواقع ذات استعداد لان تنغمر ـ بدورها ـ تحت تيارية ايديولوجية اخرى ، ترد عليها من خارج المجتمع العربي الاسلامي وذلك لسبب بسيط وهو انها تشكل هي بذاتها قوة فكرية وعقائدية لها استعدادها الوافر لاستيعاب المشاكل الاجتماعية والحضارية والاتجاهية العربية واصطناع حلول ايجابية عربية تمكن فى الاساس من مواجهة هذه المشاكل ، وتساعد على تجريدها من عناصرها السلبية المضرة ، وليس مفهوم هذا بالطبع ان الحركة العربية ـ كما قدمنا ـ قد تكون على درجة من روح العزلة والانطواء عن العالم ، أو قد تنطوي فى معطياتها المبدئية على نوع من (الشوفينية) والذاتية المغالية ، ان ذلك لا يمكن ان يفهم ـ بحق ـ من خلال اتجاهات الفكرة العربية ، والسبيل الذي ما برحت تقتفيه منذ ان اتخذت صورتها القوية الفعالية طوال السنوات القليلة الماضية، فالفكرة العربية ـ كما نلم به جميعا ـ هي فكرة

اتباع سبل اكثر موضوعية واعتدالا في موضوع علاقاته مع الدول المتخلفة والمحايدة، على الرغم مما تتخذه اكثرية هذه الدول من مواقف غير ملائمة للشيوعية المحلية والمنظمات التابعة لها في مختلف القطاعات والميادين .

على ان الظاهرة المثيرة للاهتمام، والتي تتصل ببعض جوانب السلوك الشيوعي نحو الدول (القومية) وتجاه الاقطار التي تلتزم بفكرة الحياد وعدم الانحياز، هذه الظاهرة هي التي طرأت على جو العلاقات بين روسيا، وبعض الدول العربية في الشرق الاوسط سنة 1959 وذلك بسبب الوضع (الشيوعي) في العراق والتي امتدت لها الان ذيول اشد وطأة وابعد اثرا، اما الذيول هذه فهي التي تتمثل في وجود الازمة الحالية بين بغداد، والعواصم الشيوعية في العالم، واما مظهر الشدة في هذه الذيول، فهو ما يتجلى في حدة اللهجة الانتقادية المتبادلة، ثم ما ظهر في بعض التجمعات الاحتجاجية الشيوعية التي نظمت اخيرا في بعض العواصم، وصاحبتها مظاهر عنف اتخذت احيانا اتجاها مثيرا جدا .

ولا يبدو اكيدا — لحد الان — ان مثل هذه المظاهر النونرية لابد ان تتطور بالعلاقات العراقية السوفياتية، الى درجة اشد خطورة وسوءا، وتؤدي بالتالي الى اصابة هذه العلاقات اصابة بالغة وفي الصميم فقد الف المعتادون على تطورات السياسة الدولية السوفياتية، ان هذه السياسة لا تسير دائما في خط التصلب والصرامة المطلقة، بل انها تتصف عوض ذلك بمرونة ملوحظة تتيح لها قدرا كبيرا من التلاؤم مع الاحوال الطارئة، والسير على خط مطاط، يمكن من اجتناب التصادم الحاسم مع هذه الاحوال، والتباين عنها الى درجة لا تقبل المراجعة والمداورة،لكن هل يجوز — من جانب آخر — ان تطوي الاحزاب الشيوعية الاخرى، وخاصة الاحزاب غير الحاكمة، صفحة العراق هذه وتسلم بنتيجة التصادم الحتمي والدائم بين التقدمية العربية والعناصر الشيوعية المتشيعة، وتهضم بالتالي حقائق هذا التصادم، كما تتجلى الان في الجو اللاشيوعي الذي يسود عراق الثورة اليوم ؟ ليس من اليسير حقا الرد على مثل هذا التساؤل بجواب بات وحاسم، الا ان الذي يمكننا ملاحظته مع ذلك، انه — وان كان جائزا جدا ان يخفف السوفيات من حدة موقفهم من العراق، الا ان الدول الشيوعية الصغيرة والاحزاب الشيوعية غير الحاكمة تستبيح لنفسها عادة — وفي مثل هذه الاحوال — متابعة الجدل القائم ولو بشكل مصغر، وذلك من اجل اعطاء النزاع الواقع صورة مستمرة، وضمان وجوده مطروحا على الصعيد العام ولو من الناحية المبدئية على الاقل كذلك الشأن ايضا في سوريا والعربية المتحدة وفي مختلف البلدان العربية التي تم فيها التصادم العقائدي والاتجاهي بين التقدمية العربية والدولية الشيوعية، وكان ذلك التصادم يقضي بطبيعة الاشياء الى نتيجته الحتمية المعتادة أي الى انغمار المذهبية الدخيلة في خضم التيار التقدمي العربي الاسلامي وانجرافها تحت وطأة هذا التيار، الى نهايات حاسمة وسواء بالنسبة الى هذا القطر او الآخر، فان مصير النزعات الشيوعية — غداة اصطدامها بالحركات التقدمية العربية — لا يزال يشكل في اعتبار البعض من الشيوعيين الاجانب مشكلة قائمة، ولا يزال هؤلاء الشيوعيون يستمدون من هذه المشكلة المفترضة وسيلتهم الى احياء الجدل القديم، ومتابعته على التوالي بين الفينة والاخرى، واعطائه احيانا صبغة حادة وبادية الشدة والعنف، وكما هو ملحوظ دائما في احوال من هذا النوع، فان الذي يتولى مواصلة الجدل في نهاية المطاف وذلك بعد ان يستنفد حدته الاولى واثارته الابتدائية — الذي يتولى ذلك هي الدول الشيوعية الصغيرة والاحزاب الشيوعية غير المسؤولة، سواء في اوربا او امريكا اللاتينية او آسيا او غيرها، وقد تتصدى في بعض الحالات — دول شيوعية كبرى اذا كانت تسودها النزعة المذهبية المتحجرة (الدوكانية) تتصدى لمواضيع الجدل هذه وتحاول احياءها من جديد، بل وتوسع من نطاقها اذا اقتضى الحال ذلك، وخاصة اذا كانت تستهدف من وراء كل هذا، لا مجرد الدفاع عن الاقليات الحزبية الشيوعية في البلدان المتخلفة — كما تلوح به في الظاهر — بل التعريض كذلك باخصامها من الشيوعيين التعديليين، وخوض المعارك الايديولوجية معهم على اوسع نطاق ممكن .

وللمرء ان يتساءل بهذا الصدد : ما علاقة الواقع الثوري العربي بكل هذه الاحوال النزاعة المعقدة التي تسود عالم الشيوعيين ؟ ولماذا تقحم القضايا التقدمية العربية، والاتجاهات التطورية الذاتية بالعالم العربي في خضم هذا الجدل القائم بين الدوكاتيين والتعديليين ولا شيء يقحم في نطاق ذلك ايضا حتى جانب العلاقات مع بعض الدول العربية التي تتخذ الاحوال العقائدية فيها اتجاها غير ملائم لصالح الشيوعيين ؟

العلاقة بين عموم الحركة التقدمية من جهة والدولية الشيوعية من جهة اخرى ، وعن بعض جوانب الاختلاف في هده العلاقة ، وتطوراتها على وجه العموم ، وقد داب بعض ذوي الراي والتوجيه فى العراق ، على تأكيد القول بوجود التمييز الحاصل بالفعل ببن العقائدية الشيوعيه كمجرد اتجاه حزبي معين ، وكاسلوب من اساليب النظر والتقدير ، وبين اشياء خاصة اخرى يتحدث عنها كثيرا ويعبر كداع حقيقي لتطورات الاحوال الراهنة . وليس من شك ان بعض الاصداء الاجنبية التي تتردد حول هده الاحوال ، لابد ان تستنفد حدتها وتصل فيما بعد الى نهايتها العادية ، وعلى كل، فليس المهم فى هذا الشأن هو فقط جانب العلاقات الدولية واستقرارها بمنطقة الشرق الاوسط ، وانما المهم اكثر من ذلك هو قيمة المحتوى التعاوني الذي تشمله هذه العلاقات وضرورة استمراره غنيا ومليئا بالمبادرات الايجابية التي ما فتىء يسجلها تاريخ السنوات السبع الماضية .. تاريخ العلاقات بين دول الكومينفورم وبعض اقطار الشرق العربي بوجه اخص ، ولاشك انه على الرغم مما اخذ يجتاح بعض هذه العلاقات من عوامل سلبية فى خلال الفترة الراهنة ، فانه سيبقى من الطبيعي ان يؤول امر المناوشات الناجمة عن ذلك ، الى ما آل اليه امر خلاف سنة 1959 حيث ما لبث الجدل ــ بعد فترة قصيرة ــ ان انكسرت حدته ، وتضاءلت أثارته وامكن للعلاقات الدولية بسبب ذلك ان تسترد حيويتها وفاعليتها قوية كاملة .

سلا المهدي البرجالي



انسانية متفتحة ، ولهذا فهي تتناقض (والنوفينية والانطوائية على خط مستقيم) ، الا ان هذه الفكرة العربية أيضا ـ وان كانت ذات استعدادات للتعاطي مع شعوب العالم ، والتفاعل مع الاتجاهات الانسانية الخيرة بين ربوعه ـ فهي من جهة اخرى تقوم في جملة ما تقوم به على مثل اساسية لا يمكن التسليم فيها على اية صورة ممكنة ، انها تقوم على اساس الحياد الايجابي وعدم الانحياز ، او قدر لها ـ على الاقل ـ ان ترتبط بهذا المبدأ ارتباطا سلوكيا حتمته عليها ظروف نشوئها وتطورها واتجاهاتها المرحلية والمصيرية ، والحياد الذي تلتزمه الفكرة التقدمية العربية يختلف في مظهره وجوهره عن انواع الحياد المجبر عليه دوليا والمضمون بحسب اتفاقيات واملاءات دولية مفروضة ، كما ان هذا الحياد يتناقض تماما مع مقتضيات الاستعداد لـ (الثورة العالمية) ومتطلبات (الاممية البروليتاربة) التكافلية الدفاعية الاشتراكية وغير هذا وذاك من انواع الشعارات والمبدئيات التي لا تروج كثيرا في آفاق المحيط العربي ، ولا تلاقي هوى كبيرا في واقع الوجدان العربي ، كما هو في ثورته الجذرية الراهنة ، والحياد هذا الذي تشمله الفكرة العربية ، لا ينحصر فقط في نطاق الاعتبارات الدولية والعالمية بل يتصل كذلك بموقف الدولة من مختلف العناصر الانسانية التي تتشكل منها ، فهي لا تتحرب ضد فئة او فئات لصالح الاخرى، وهي لا تنحاز لطبقة معينة على اساس التحديد من الحقوق العادية للطبقات الاخرى ، بل انها تلتزم في مثل هذه المجالات موقفا لا طبقيا ولا تحزبيا ، موقفا لا يقوم على مبدا الصراع الطبقي بل على قاعدة التوازن والتكافل ، وما تستلزمه هذه القاعدة من مراجعات راديكالية لمختلف الاسس والمعطيات التقليدية ، وليس من شك ان حالة التوازن والتكافل هذه ليس من اليسير تحقيقها بمجرد الاعتماد على مبادىء ونظريات مجردة او الاستناد الى جملة من مشروعات التنمية والتطوير على صورة من الصور ، ان مثل هذه المشاريع ، او ما يمكن ان يرتبط بها من نظريات وافكار ، لا تؤدي بالضرورة وبحتمية الاشياء الى احوال التوازن المنشود ، لكن المهم في هذا المجال هو الوسائل الموصلة لذلك ، والتقدمية العربية لا ترى انه من المتحتم اساسا ربط هذه الوسائل بفكرة الصراع الطبقي ، وانتهاؤها بعد ذلك ـ الى اقرار هيمنة طبقية معينة على حساب طبقات اخرى بل ان الذي يبدو مجديا وايجابيا اكثر من ذلك ، هو سبيل العمل على اختزال المسافات الشاسعة بين العناصر الاجتماعية واعتماد ذلك من حيث المبدأ كاداة لاستقرار الاحوال بين هذه العناصر ، على اسس اكثر عقلانية وموضوعية ، وادعى الى تحقيق مقتضيات التوازن والتكافل ضمن مجتمع حي تام ومتطور وتلك مبدئيات ـ ولو انها لا تقترن بفكرة الصراع الاجتماعي والتصادم الطبقي واشياء من هذا القبيل ـ الا انها ترتبط عضويا بالفكرة العربية وتشكل جانبا من محتوياتها الاجتماعية التقدمية التي تستهدف في الاساس تطوير المجتمع العربي والاتجاه به الى اوضاع فردية ومجتمعية افضل.

واذا ما اغضبنا عن جوانب اخرى من التناقض بين المذهبية الشيوعية من جهة ، والفكرة العربية من جهة اخرى وذلك في مواضيع مهمة حساسة كقضية الحرية والديموقراطية وحدودهما ومفاهيم تطبيقهما سواء بالنسبة للفرد او الجماعة ، وكذلك الامر فيما يتصل بالتنظيم السياسي والتوجيه الفكري الداخلي ، هذا الى موضوع العلاقات فيما بين الدول والمجموعات الدولية والمثل التي تتحكم في تحديد كل ذلك على اختلاف الصور والمعطيات وتعدد الحقائق والاعتبارات ـ اننا اذا ما غضضنا النظر عن كل ذلك ، ولم نعرف اهميته في هذا الباب فاننا نجد في غير ذلك مجالات اخرى يستند فيها التناقض بين الفكرتين العربية والشيوعية ويتخذ صورا وحالات لها نصيب بالغ من الاهمية وخطورة الشأن ، ومن ذلك نظرة الشيوعيين بما فيهم الشيوعيون المحليون ، الى قضية اسرائيل ، والوجود الاسرائيلي في فلسطين المحتله وموقفهم من التطورات العربية المختلفة ، التي ما فتئت تتعاقب منذ ان انتصب النظام الصهيوني في الشرق الاوسط ، والتي تعتبر في مجموعها كرد فعل ضد هذا النظام ، وضد عوامل استمراره وبقائه ، وهكذا الى قضايا وشؤون مختلفة من مثل هذه الانواع ، وليس معنى هذا اننا نسوق هذه الامثلة والصور لتبرير عمليات اضطهاد او مطاردة قد تقع ضد العناصر المتشيعة في مكان او اخر وانما هي اعتبارات عامة ، لا ترتبط بزمان او مكان معين ، استعرضناها بايجاز مخل حقا ، وذلك في مجال الحديث فقط عن

وفي غضون ذلك تألفت الرهبنات الوطنية لدى الموارنة والروم الملكيين فساهمت في فتح المدارس وفي ترجمة بعض الكتب الدينية اللاتينية الى العربية، وطبعتها على مطابع ايطاليا التي كانت قد اصدرت منذ اوائل القرن السادس عشر بعض النشرات الدينية العربية والكتب العلمية وأشهرها جغرافيه الادريسي والصالحي وقانون ابن سيناء. ولما لجأ الامير فخر الدين المعني الثاني الى توسكانا بايطاليا، في غرة القرن السابع عشر، شاهد هذه المطبوعات العربية هناك تباع بأثمان معتدلة. على ان اللبنانيين كانوا، قبل ذلك، قد حاولوا الاستغناء عن مطابع أوروبا بانشاء مثلها في وطنهم لاصدار النشرات الدينيه والكتب. وكانت اولى المطابع مطبعة دير قزحيا (1610). وكانت احرفها باللغة الكرسونيه اي كتابة العربيه بالاحرف السريانية. ثم كانت أولى المطابع بالاحرف العربية بلبنان تلك التي صنعها الشماس عبد الله زاخر الحلبي في دير مار يوحنا الطبشيه بقرية الخنشاره وذلك في اواسط القرن الثامن عشر.

فهذه المدارس والمطبوعات، وكذلك الارساليات الاجنبية الدينية، التي سنتكلم عنها، كانت نواة النهضه الحديثة. وهي وان كانت ذات لون ديني الا انها لم تلبث ان تطورت مع الزمن، واصطبغت بالصبغة العلمانيـــة.

وهنا مجال للتنويه بما كان لامراء لبنان الاقطاعيين من أثر في تنشيط النهضة الحديثه. فهم كانوا يحرصون على محاكاة الملوك في تقريب المثقفين ومكافاتهم.

فكانت رعايتهم لهؤلاء في عداد الحوافز للاقبال على العلم والادب، وحسبنا الاشارة الى ما كان بين حاشية الاميرين يوسف الشهابي وبشير الشهابي الكبير من ادباء وشعراء. هذا فضلا عن الموظفين المثقفين كسعد الخوري وجرجس باز وفارس جدعون وجدعون الباحوط وغير هؤلاء من ادباء سوريا.

ما كان للسياسة من اثر في النهضة اللبنانية.

تثبت الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر هزت اوروبا، ثم انتقلت شظاياها الى الشرق الادنى مع نابليون بونابرت حينما احتل القطر المصري وحاول ان يحتل بلاد الشام. وكان نابليون يريد ان يتخذ من البلاد العربية مطية له لادراك الهند بالاتفاق مع امرائها، ولكن انجلترا كانت له بالمرصاد فردته على اعقابه، غير انه لم ينسحب من مصر الا بعد ان القى فيها بذور النهضة، تلك البذور التي نمت وربيت في جيـل لاحـق.

على ان فرنسا لم تتحل، في أعقاب هذا الاندحار عن اهدافها التوسعية البعيده المدى، ولم تتخل ايضا عن فكرة الثار من لندن، فاختارت بيروت وجبل لبنان مركزا استراتيجيا لتحقيق هذه الاماني، وراحت تتقرب من محمد علي عزيز مصر، والامير بشير الشهابي الكبير امير لبنان، وتعمل لتوثيق الصلات بينها وبينهما. وكانت خطوتها الثانية اغراء الخديوي بالحملة على بلاد الشام (1831) للانطلاق منها الى عاصمة آل عثمان. غير ان فرنسا فشلت مرة ثانية حينما ردت تركيا ابراهيم باشا الى مصر (1840) وذلك بمؤازرة انجلترا وحلفائها.

وهذا الصراع بين فرنسا وانجلترا بالشرق الادنى كانت له نتائج اخرى. ذلك بان العالم الغربي لم يلبث ان رأى هذا الشرق مشرع الابواب امامه بعد ان كان موصدا. وما كان ذلك يعود الى احتلال نابليون مصر بالقوة، وخروجه منها بالقوة، وانما يرجع الى ترحيب الشرق الادنى نفسه بصداقة الغرب، في اعقاب ما كانت تركيا تخفض جناح الذل للندن وحلفائها الذين حرروها من الغزو المصري، وتصغي لنصائحهم. وحبال هذه البادرة الجديدة التي عرضت وقربت بين الشرق والغرب تحفز هذا الاخير للعمل. وكان الغرب لا يزال يتحسس كثيرا بالمشاعر الملية فاذا به يجعل مدار عمله ايفاد البعثات الدينية للتبشير. وقد وصل اول مرسل امريكي الى لبنان في 10 شباط 1821 واسمه لاوي بارسنس. ثم لما راى الامريكان ان الظروف اصبحت سانحة في اعقاب اخراج انجلترا الجيش المصري من بلاد الشام، وفي ابان النفوذ الذي اصبحت تتمتع به لندن في الاستانة خفوا لارسال البعثات الى بيروت وجبل لبنان، وقد اختاروا اول الامر الاوساط الدرزية للتبشير، وفتحوا مدرسة لهم في عبيه سنة 1846. فكانت طليعة المدارس الكثيرة التي فتحوها بعدئذ في كل مكان بالشام وسائر الامصار العثمانية.

وقد نشرت احدى صحف الاستانة في عام 1894 خبرا مفاده: « ان عدد مدارس الامريكان في السلطنة بلغ وقتئذ 812 واحدة تضم 43037 تلميذا عشرون الفا منهم من الاناث. »

مقدمات النهضة في لبنان
ونتائجها الاجتماعية

للأستاذ : محمد جميل بيهم

أتيح للبنان فى غضون التمدن الحديث ان يدرك تقدما ، فى الشؤون المالية والاجتماعية والثقافية ، لم يدركه قطر عربي آخر . فما هي الاسباب ؟

هذه دراسة لا يستوعبها مقال فى مجلة ، ولذلك فاني سأقتصر على الناحية الثقافية منها ، والتزم مع الاقتصار الاختصار .

على ان تقدم لبنان فى هذه الناحية لا يعود الى سبب واحد ، بل هو نتيجة لعوامل كثيرة هاكم اهمبتها :

ما كان للعوامل الدينية من أثر فى نهضة لبنان

كان ساحل الشام مجازا لحجاج بيت المقدس . فكان هذا المجاز وسيلة لاختلاط سكانه باهل التمدن الحديث وذلك فى قدومهم وعودتهم ولاقتباسهم افكار هذا التمدن بالاضافة الى تلقف اخلاقه وتقاليده .

وكان الاوربيون ، ولاسيما الفرنسيون ، لا يفتأون يذكرون اخوانا لهم فى الدين بلبنان امتزجوا بهم ابان الحروب الصليبية ، وظلوا بعد ذلك يوالونهم . ويراسلون عواهلهم ، فيدلوهم الود بالود ، وبعث هؤلاء العواهل الوفود اليهم لتفقد أحوالهم .

ولما انتهت المرحلة الاولى من الصراع بين الدول الاوروبية وبين السلطنة العثمانية وذلك بانتصار السلطان سليمان القانوني (1520 — 1566) تسابقت هذه الدول الى عقد المعاهدات معه لتأمين مصالحها السياسية والاقتصادية ، وتقربت اليه فرنسا ونالت منه حق الاعتراف لها بحماية البطريك الماروني ، وسائر نصارى الشرق العثماني .

وكان الموارنة بلبنان قد أعترفوا فى القرن الخامس عشر بسلطة البابا ، فأفضى هذا الاعتراف الى عنايته بهم عناية الراعي برعيته . فاذا بالآباء اليسوعيين يبادرون الى انشاء مدرسة فى روما ، أواخر القرن السادس عشر ، تعني بتعليم اللغتين العربية والعبرانية واذا بالبابا غريغوريوس الثالث يأمر ، بعد ذلك ، بانشاء المدرسة المارونية (1584) ويسلم ادارتها لليسوعيين فكانت هذه المدرسة نواة نهضة لبنان الثقافية الحديثة فعدا اولئك الذين انتشروا فى باريس وفلورنسة وفينا وبادوا وغيرها من خريجيها ، واشهرهم الحقلاني والسمعاني وعربضة ، وعدا الذين شغلوا وظائف في اوروبا كالقس مخائيل الغزيري الترجمان فى بلاط كيرولوس الثالث ملك اسبانيا ، فعدا هؤلاء وهؤلاء فان فريقا منهم عادوا الى لبنان وتولوا فيه ارفع المناصب الكهنونية ، وكان منهم المطارنة ، وكان منهم البطاركة . وكان هذا الفريق المثقف قد تنسق فى أجواء اوروبا روح النهضة الحديثة فبثها فى أوساط ملته بالاضافة الى نشره العلم والمعرفة .

وكانت باكورة أعماله مدرسة حوقه عام 1632 . ثم مدرسة عين ورقة (1789) وسواهما . على ان النهضة المارونية بلبنان كانت حافزة سائر الطوائف لليقظة ولا سيما الكاثوليك اتباع روما ، فأنشأ غريغوريوس الاول راعي الارض الكاثوليك مدرسة بزمار (1788) ، كما وضع مخائيل جروه بطريرك السريان الكاثوليك الاسس لمدرسة الشرفة ، وفتح اغابيوس مطر بطريرك الكاثوليك مدرسة عين تراز (1811) .

عاصمتها ، وكانت تعلق انشاء المطابع على رخصة مسبقة منها ولكن الثورة الفرنسية وما خلفت من احداث،وأهمها فتح باب المسألة الشرقية على مصراعيه وربما كانت حافزا للسلطان سليم (1789 – 1808) على التفكير بالمصير فوطد العزم على اصلاح الجيش ونشر المعارف على غرار أوروبا . ولما كبر هذا العزم على طغمة المحافظين فاثاروا الانكشارية على السلطان وحبسوه وقتلوه بتهمة الكفر ، وكان وراءهم بعض الدول المستعمرة التي ارادت دفن كل اصلاح في تركيا بدفن من يفكر فيه كيلا يؤخر الاصلاح ادراكها نصيبها من تركة الرجل المريض .

ولما استوى محمود الثاني على عرش السلطنة (1808 – 1839) ثار للسلطان سليم بالقضاء على الانكشارية ، وتبنى برنامجه الاصلاحي . وعلاوة على انشائه الجيش الحديث فقد اقام في العاصمة المدارس الابتدائية والمعهد الطبي ، واوفد البعثات الى المعاهد العلمية الاوروبية .

ثم لما امسى الباب العالي بالاستانة واطئا حبال الدوسنح سربت بلندن وسائر الدول التي انقذت السلطان عبد المجيد (1839 – 1861) من الغزو المصري لم يسع هذا السلطان الا الامتثال لنصائح حلفائه فنشر « التنظيمات » وغيرها من اللوائح الاصلاحية . واستهل عمله بانشاء المدارس المعروفة بالرشدية والاعدادية في بعض الولايات . ثم ما أن صار العرش للسلطان عبد العزيز (1861 – 1876) المعاصر الخديو اسماعيل بمصر ، وكان كلاهما متجددا وعمرانيا حتى تبدل الجو ، وأصبحت العناية بنشر العلم وتنشيط الادب هواية لهما . وكم لهما من اياد بيضاء على الادباء والعلماء بما بذلا لهم من المال والتنشيط ؟ وكان بطرس البستاني ، واحمد فارس الشدياق ، ومارون النقاش وسليم الخوري في طليعة الذين ادركوا رعاية هذين العاهلين . على ان السلطان عبد الحميد الثاني (1876 – 1909) ، الذي كان معروفا بالتضييق على الحريات ، لم يسعه مع ذلك الا مجاراة تيار التقدم العالمي . فاستهل حكمه بانشاء المدارس الرشدية والاعدادية والعسكرية في ولاية بيروت وغيرها .

والواقع أن هذه المدارس انما كانت تعني باخراج الموظفين من مدنيين وعسكريين . فلم يقبل عليها الا الراغبون في هذه الوظائف ، وهم قلة في ولاية بيروت ، خلافا للبلاد العربية الاخرى . ومن هنا ظل المجال مفتوحا امام المدارس والمعاهد الاجنبية لتتولى تربية النشيء الجديد على هوى كل منها حتى لم يبق في هذا البلد راي عام ، ولم يبق فيه أثر للوحدة الوطنية .

ما كان للمنافسة الغربية من فضل في بعث النهضة العلمية الوطنية :

دولة أجنبية كانت تحكم بيروت ولبنان في القرن التاسع عشر ، ومدارس أجنبية كانت تستأثر بتربية الناشئة وتعليمها . فكانت العاقبة ان البلدين فقدا القيم الوطنية ، واختلفا عليها ، واعتمدا في تقرير المصير على ما توحيه المشاعر الدينية وروحها ، وبهذه المشاعر ادرك أولو الالباب من البلدين ما سوف تكون العاقبة اذا استمر اولادهم يتربون ويتعلمون في مدارس أجنبية لكل منها طابع مذهبي خاص ، وهدف سياسي . وفي غمرة هذا الاشفاق على المصير فكرت كل طائفة من طوائف لبنان في الاعتماد على نفسها . فاذا بنا نرى هذه الطوائف تبادر الى فتح المدارس ، وكانت كلها ما عدا المدرسة الوطنية التي أنشأها بطرس البستاني (1863) مدارس ذوات صبغة مذهبية وملية : فقد أنشأ الروم الارثوذكس مدرسة الثلاثة اقمار في سوق الغرب (1852) التي انتقلت من بعد الى بيروت ، والدروز المدرسة الداودية في عبيه (1862) ، والكاثوليك المدرسة البطريركية (1866) ، والموارنة مدرسة الحكمة (1875) ، واليهود مدرسة الاتحاد الاسرائيلي (1884) وفي هذا الاسم دلالة على أن أمانيهم المعروفة كانت قديمة وشاملة ، واما المسلمون فقد الفوا جمعية المقاصد الخيرية (1295 هـ=1878) التي تولت مهمة فتح المدارس الابتدائية للذكور والاناث . حتى اذا دخلت سنة 1895 نهض الشيخ أحمد عباس وفتح المدرسة العثمانية التي تحولت بعد سنين قلائل الى كلية نشأ في احضانها رواد الحركة العربية .

والارجح عندي ان الانجليز هم الذين اسروا الامريكان في عزلتهم باسم الدين ، وشطوهم لايفاد هذه البعثات الى الشرق الادنى في غضون الحرب الباردة التي كانت تنشب بينهم وبين الافرنسيين حول هذه البلاد ، وذلك بغية ان تكون تلك البعثات ظهيرة لهم ضد اللاتين .

وكانت تركيا توصف وقتئذ بالرجل المريض حسب تعريف نقولا قيصر روسيا ، وكان المستعمرون يترقبون موتها واقتسام ارثها . وكانت فرنسا ترى أن بلاد الشام ، وفي مقدمتها لبنان ، حق طبيعي لها في هذا الارث ، فتستق عليها نشاط الارساليات الاميركية التي لا تختلف في نظرها عن البعثات الانجليزية ونبت الى العمل ، واستعانت برجال الدين ، رغم انها لم تكن تواليهم ، وعززتهم بالمال فاذا بالآباء العازاريين يفتحون مدرسة لهم في قرية عينطورا بلبنان (1843) واذا باليسوعيين يفتحون مدرسة أخرى في قرية غزير (1844) . وهكذا دواليك حتى امتلأ لبنان بمدارس الرهبان والراهبات من الاجانب .

وكانت الدول الباقية التي تراقب هذا الصراع بين لندن وباريس ، وتمني منهما انفسها بان تنال نصيبا من الارث تعلم ان فتح القلوب من شأنه ان يسهل فتح المعاقل ، وان ليس أفضل لفتح القلوب من امثال هذه المدارس ، فاذا بالروس والالمان والايطاليين فضلا عن الانجليز ، يبادرون الى ايفاد مرسليهم الشرق الادنى في منتصف القرن التاسع عشر ، واذا بهؤلاء ينشئون المدارس في كل مكان ولا سيما بالقدس وبيروت وجبل لبنان . وسرعان ما اشتدت المنافسة بين البعثات الدينية ، ولكن اشدها هو ما كان بين الاميركان والافرنسيين ، فلما نقل المرسلون الاميركيون مطبعتهم من مالطة الى بيروت سنة 1846 سارع اليسوعيون الى انشاء مطبعتهم الكاثوليكية ، ولما نقل الاميركان مدرستهم من عبيه الى بيروت ورفعوها الى كلية (الانجيلية 1896) خف اليسوعيون الى نقل مدرستهم من غزير الى بيروت وجعلوها كلية . ولما فتح الاميركان في هذه المدينة مدرسة للبنات سنة 1841 بادر الافرنسيون الى انشاء اثنتين : مدرسة راهبات القديس يوسف ، فمدرسة اخوية ابنة الاحسان (1843) . وظلت حدة هذا التنافس تتزايد حتى امتلأت البلاد بالمدارس ، وارتفع شأن الكليتين الى ان اصبحتا جامعتين ، او مدينتين عالميتين حافلتين بكل وسائل التربية والتعليم .

وكان لابد لهذه الارساليات من نشرات ومجلات تستعين بها على التبشير فظهرت نشرة مجموع فوائد (1851) ومجلة أعمال الجمعية السورية (1853) ، ومجلة مجموع العلوم (1868) ، واخبار انتشار الانجيل (1863) ، ومجلة النشرة الشهرية (1866) ومجلة اعمال شركة مار منصور دي بول (1868) ، فضلا عن مجلة المشرق وغيرها .

وهكذا اصبحت بيروت وجبل لبنان ميدان معركة ثقافية بين الدول حولتها في النتيجة الى مركز اشعاع بالشرق الادنى ، خصوصا وان المعركة اذكت نشاط الطوائف الوطنية المختلفة ودفعتها لفتح المدارس حفاظا على كيانها ومذاهبها ، أو حفاظا على مبادئها السياسية . .

مساهمة تركيا في نشر المعارف في بيروت وجبل لبنان :

كانت ولاية بيروت وامارة جبل لبنان حافلتين في القرن التاسع عشر ، بالعلماء والادباء . اشتهر بين المسلمين احمد البربير (توفي 1811) واحمد عمر دبوس ، وعمر الأنسي (ت 1818) وابراهيم الحر العاملي ، والامير حيدر احمد الشهابي (ت 1834) والحاج حسين بيهم (ت 1809) والامير محمد ارسلان (ت 1864) ، واحمد فارس الشدياق (ت 1817) وغيرهم . واشتهر بين المسيحيين عدد من آل البارجي وآل البستاني ، وآل النقاش وعلى راسهم الشيخ خليل البازجي ، والمعلم بطرس البستاني ، ومارون النقاش . هذا فضلا عن رشيد الدحداح (ت 1879) وكثيرين غيرهم . واما بين النساء المسيحيات فعددا السيدات السبع اللتي كن باكورات المعلمات في المدارس وهن راحيل زوجة بطرس البستاني ، وسلامة وحنة وخزما ولولو وكفا وسوسان ، فعدا هؤلاء لمع اسم هند نوفل ، ووردة البازجي ومريم نحاس .

غير ان الثقافة كانت على وجه عام محصورة بطبقة خاصة من الناس . واما عامة الشعب ، ولا سيما عند المسلمين فكانت تغلب عليها الامية حتى ان بعض تجار ذلك العصر كانوا يستعينون بكتاب يدورون عليهم باقلامهم ومحابرهم لقراءة الرسائل التي ترد اليهم والاجابة عليها . واما السلطنة العثمانية ، التي كانت في صدر ايامها منصرفة للفتح ، والتي أمست في أواخر عهدها منهمكة بالدفاع عن نفسها ، ومشغولة باخماد الثورات في بلادها فهي لم تعن بنشر المعارف الا في

ب..وت الى أوروبا فاميركا للالتحاق بجامعاتها الكبرى م.. اجل التخصص ، او من اجل استكمال دروسهم ال..لبية .

وقد رافق كل ذلك عامل آخر كان له اثر بالغ في النهضة والتجدد ، وأعني به الاختلاط الشديد بين اللبنانيين عامة . والبيروتيين خاصة ، وبين اصحاب التمدن الحديث . فكما حفلت بيروت بالعلماء والادباء الذين جاءوا اليها للتعليم ولادارة المعاهد العلمية الاجنبية ، فضلا عن الارساليات فقد امتلأت ايضا برجال الاعمال الاقتصادية الاجانب وفي عدادهم اصحاب المهن والفنون .

ومن جهة ثانية فان تجار بيروت ، واصحاب المصانع وطلاب المدارس العلمية وغيرهم كانوا يؤمون بلاد الغرب دون انقطاع فيتأثرون بها سواء أرادوا او لم يريدوا ، ذلك لان في جو كل جماعة من الناس ذرات من ارواحهم تتهادى فوقه فتجعل ذلك الجو منفقا مع مستواهم الاجتماعي . وما اشد ما يتأثر المقيم بين طبقات الناس من روحهم واخلاقهم صالحة كانت ام فاسدة .

فهذا الاختلاط الدائم بين الغرب واللبنانيين كان من حسناته تسرب روح النهضة الحديثة اليهم ، ومدارها الاعتماد على النفس والتوثب للعمل المجدي فكان ذلك مما ادى الى ارتفاع المستوى الاجتماعي في لبنان .

هذه العوامل منفردة ومتحدة هي مصدر النهضة الفكرية والاجتماعية بلبنان ، ثم ما ان ازدادت في عهد الاستقلال بالسياسة الحرة الحكيمة حتى نعم هذا البلد الصغير باسم كبير وحتى اصبحت صحف العالم تتحدث عنه، واذا تحدثت فلا تقتصر على وصف محاسنه الطبيعية فقط وانما تتناول عمرانه وازدهاره ونشاط اهله وثقافتهم . ولا شك ان ذلك سر سائر البلاد الشقيقة لان لبنان بلد عربي ، واذا اثنى عليه احد فانما يعود الثناء الى العالم العربي قاطبة .

بيروت : محمد جميل بيهم



وهنا مجال لان يذكر بالخير محمد عبد الله بيهم الذي كانت له ايادي بيضاء على المؤسسات العلمية والذي كان فى طليعة اعيان بيروت حثا للمسلمين على التزود بالمعرفة . وقد ملأ جدران بيروت وغيرها من المدن بشعارات تدعو الى الاقبال على العلم من امثال : (تعلم يا فتى فالجهل عار) .

فهذه المدارس الوطنية كلها اخرجت شبابا كان لهم فى خدمة هذا البلد ورفع اسمه نصيب كبير ، ولكن العيب فيها انها كانت تخلق نهضة طائفية لا اثر للجامعة الوطنية فيها .

اما وان خريجي هذه المدارس لم يجدوا فى وطنهم الجو الملائم للاعراب عن افكارهم ، او لتأمين معاشهم فقد اضطر كثيرون منهم للهجرة . وكانت مصر ، فى عهد الخديو اسماعيل ، اقرب البلاد اليهم ، وارحبها صدرا لاستقبالهم فأمها فريق منهم ، واقاموا فيها نهضة صحافية جبارة كانت تتمثل بمجلتي المقتطف والهلال ، وبجريدتي الاهرام والمقطم ، ثم هاجر آخرون الى مصر فى مستهل عهد الاحتلال الانجليزي ومنهم من تولوا اكبر الوظائف فيها وبالسودان ، ومنهم من اصبحوا هناك فى عداد اقطاب التجارة . وفضلا عن هؤلاء وهؤلاء فان فئة من المثقفين انتشروا فى اوربا والاميركيتين ، ورفعوا راية لبنان والعروبة عالية حيث حلوا سواء اكان فى الثقافة ام فى التجارة ام السياسة على أن المتخلفين من المثقفين لم يهنوا ولم يستكينوا امام الضغط التركي الحميدي . بل راحوا يستفيدون أيضا من ثقافتهم . وعلاوة على انشائهم المدارس والمطابع فقد اصدر خليل الخوري جريدة الاخبار (1857) وبطرس البستاني نفير سوريا (1860) وبطرس البستاني وولده سليم مجلة الجنان (1870) وجريدة الجنة ، ثم تدفق سيل الصحف تباعا ، ولا سيما عقب اعلان الدستور الثاني سنة 1908 . وما زال يتدفق حتى اصبحت بيروت بالنسبة لعدد السكان اكثر بلاد العالم صحافة .

وفى تلك الحقبة التمعت فى بيروت اسماء كثيرين من الادباء نساء ورجالا نذكر منهم ، بالاضافة الى اصحاب الصحف ، ابراهيم الحوراني والامير شكيب ارسلان ومصباح رمضان ، وابراهيم اليازجي ، وفضل القصار وحسن بيهم ، وزينب فواز ، وهنا كوراني ، واستير مويال .

ما كان اوضع لبنان الاقتصادي من اثر فى النهضة الثقافية .

لما تفاقمت المزاحمة بين الدول الصناعية فى تصريف مصنوعاتها اتخذ كل منها فى سواحل الشرق الادنى مراكز تجارية لتكون نقطة الانطلاق لنشر هذه السلع فى الشرقين الادنى والاوسط . وكان اهمها موانيء ازمير والاسكندرية وبيروت .

وكانت بيروت فى العهد العثماني صلة الوصل بين الغرب من جهة وبين سوريا الكبرى والاناضول والعراق وايران من جهة ثانية ، فازدهرت وتزايد عدد سكانها . ولا سيما بعد ثورة لبنان المعروفة بثورة 1860 وقامت فيها الشركات ذوات الامتياز كشركات الماء والغاز والخطوط الحديدية D. H. P. والمرفأ والبنك العثماني ، وحصر الدخان . وناهيك بالشركات الاخرى والمؤسسات من اجنبية ووطنية .

وهذا الازدهار المطرد فى الناحية الاقتصادية رافقه بصورة طبيعية اقبال الشباب على المدارس والمعاهد العلمية بغية الاستعداد للاستخدام فى هذه الشركات والمؤسسات ، فضلا عن الوظائف الحكومية التي كانت تتعدد ، وتتزايد تبعا لتوسع الجهاز الحكومي والى هذا سنحت وقتئذ فرصة اخرى ملائمة وقتئذ للمثقفين اللبنانيين وذلك فى البلاد العربية التي تطورت ولم تكن عندها من ابنائها ما يملأ الفراغ ابان هذا التطور .

كذلك لما شرع تجار بيروت يبنون اقتصادياتهم على اسس جديدة متوكلين على انفسهم دون الاجانب ازدادت الحاجة الى الشباب المثقف . ثم برزت حاجة ماسة الى الاخصائيين والفنيين عندما اقبل اولئك التجار على انشاء المصانع ، وعند ما اقبلت الحكومة على تعمير المرافق . وتجاوبا مع هذه الحاجات المختلفة خف كثيرون من متخرجي المعاهد العلمية فى

يكون هو خصمها ، ومن الممكن كذلك ان يصوب رجال دي مدافعهم نحو السفن الحربية الالمانية)) . اذن بعد احبطت الولايات المتحدة مشاريع المانيا وقبلها بريطانيا العظمى، واظهرت بكل ما اوتيت من قوة ارادتها في معارضة كل عمل جماعي قد تقوم به دول اوروبية في المنطقة التي تغطي الاماكن المجاورة للقناة الواصلة بين المحيطين .

وفي آسيا الشرقية اي في منشوريا وكوريا نجد ان روسيا اصطدمت بمقاومة اليابان . فاثناء حرب البوكسير (1) استطاعت روسيا سنة 1900 ان تحصل على ضمانات وان توطد دعائم هيمنتها بحيث استمرت في انشاء السكك الحديدية واقامت قاعدة بحرية في بور ارثر . ثم ان جيوشها التي ساهمت بها في الحملة العسكرية الدوليه احتلت ((موقتا)) المقاطعات الثلاث المنشورية . وحاولت حكومة القيصر عبثا ان تحصل من الحكومة الصينية على اتفاق يسبغ على الاحتلال صفة الدوام .

وبعد ان اخفقت روسيا في مسعاها ، ابرمت مع الصين ، ابريل 1902 ، ما يسميه الكونت ويت Witte بمعاهده الجلاء التدريجي. ويرجع هذا التراجع بالاخص الى نشاط رجل اعمال اسمه بيزوبرازوف Bezobrazof كان هذا يملك في الارض الكورية امتياز استغلال الغابة في رقعة شاسعة الاطراف تقع على الضفة اليسرى من نهر يالو Yalou ولما كلفه العاهل الروسى نفسه مهمة القيام بدراسات في الشرق الاقصى ، قام بربط صلات مع قائد القوات الروسية في بور ارثر ، الاميرال الكسانيف Alexeief ، ثم عمل بعد اشهر من الصراع المكشوف على احباط سياسة ويت . Witte

وقد خشيت اليابان من ان تصبح هيمنتها في كوريا مهددة من جراء هذا التوسع الروسي ، وفكرت بكل جد في امكانية التوسع بمنشوريا الجنوبية حيث الاراضي القابلة للزراعة ، الصالحة لايواء مهاجريها ، وحيث المواد الغذائية الكفيلة بتغطية العجز الحاصل في انتاجها الاهلي ، وحيث الحديد والفحم اللازمان لصناعتها ، ولكي ترغم روسيا على تقسيم منشوريا على الجلاء من « راس الجسر » الكوري ، لم تتردد في القيام بالحرب . وكانت ورقتها الرابحة هي ذلك التفوق الذي سيمتاز به الجيش الياباني في مسرح العمليات اذ سيكون قريبا جدا في قواعده ، في حين ان الجيوش الروسية ، اذا ارادت ان تنقل قواتها وعتادها، سوف لا تجد سوى الخط الحديدي العابر لسيبيريا ، وطول هذه الخط 7000 كم ، الا انه مفصول ببحيرة بايكال Baïkal . بيد ان هذا التفوق البري سوف لا يكون ذا فائدة الا اذا كان معززا بالسيطرة البحرية على مضيق كوريا. فهل هذه السيطرة متوفرة ؟ وبالاحرى هل سيكون في استطاعة الاسطول الياباني ان يحافظ عليها اذا ما دخل الحلف الفرنسي الروسي في حيز التطبيق ؟ (1) وتلافيا لهذا الاحتمال طلبت الحكومة اليابانية ان تتحالف مع بريطانيا العظمى وهذا ما حصلت عليه في يناير 1902 : ان الحكومة الانكليزية لم تعط وعدها بتقديم العون المسلح في حالة محاربة روسيا وحدها بل تعهدت امام الملا بالتدخل اذا اتت ((دولة اخرى)) وتعني بذلك فرنسا ، وساندت روسيا .

وبعد ثمانية اشهر من المفاوضات العقيمة مع روسيا بدات اليابان في 8 فبراير 1904 اعمالها العدائية بضربة مفاجئة — هجمت على الاسطول الروسي في ميناء بور ارثر كان من شأنها ان أمنت لها السيطرة على البحر لعدة اشهر .

وبالنسبة للعمليات العسكرية في البر المنشوري حصل الجيش الياباني على نتائج ايجابية في الحين ، لان هذا الجيش كان متفوقا من الناحية العددية طيلة الاشهر الستة الاولى من القتال . ولم تتعادل قوات الطرفين الا في اكتوبر 1904 . ومع ذلك فقد نجح اليابانيون بعد ان حطموا هجوما روسيا مضادا في ابعاد الخصم من المواقع التي كان يحتلها وكانت معركة موكدن Moukden هي الحاسمة (دامت من 23 فبراير الى 11 مارس 1905)،

---

1. اسم شهير لجمعية سرية صينية تأسست سنة 1899 تحت شعار ((معاداة كل من هو اجنبي)) ولما استفحل امرها اخذت الحكومة المركزية الصينية تتعاون معها لصد كل محاولة احتلال اجنبي . ولئن اصبح الاجانب في سنة 1900 سادة الموقف بواسطة ارسال حملة عسكرية دولية الا ان ظهور جمعيات من هذا القبيل كان له اثره في عدول الدول العظمى عن فتح الصين . (المترجم)

1. اي هل تستطيع البوارج اليابانية ان تقف في وجه البواخر الحربية الفرنسية ان وفت فرنسا بتعهداتها ازاء روسيا ؟ (المترجم)

السياسة الدولية بين سنتي 1901 و 1907

ترجمة الأستاذ عبد الحميد خيس

- 2 -

الا ان هذه الهيمنة التي صارت لاوروبا في الحياة العامة للعالم قد اصابها الان ما أصابها من تهديد ناتج عن التطور الطارىء في التوسع الاستعماري لكل من الولايات المتحدة والدولة الناشئة : اليابان .

ففي امريكا الوسطى تطور توسع الولايات المتحدة في هذه الفترة على نسق سريع . اذ كانت حكومة واشنطن تسجع على حساب كولومبيا انفصال سكان الباناما ، وما لبثت ان ابرمت مع هذه في 18 نونبر 1903، معاهدة اصبحت الولايات المتحدة بموجبها تتمتع بامتياز شق قناة تصل بين المحيطين (1) ، في شريط بري عبر المضيق . ((ولتغطية)) الاماكن المجاورة للقناة استولت بواسطة ديبلوماسية الدولار على جزء من جزيرة هايتي وجمهورية الدومنيك حيث بسطت عليهما شبه حماية ، وفي سنة 1906 قامت بتدخل عسكري في كوبا وكان من نتائجه ان جعل هذه الجزيرة داخلة في ((الجهاز السياسي)) للولايات المتحدة . اذن فالطريق الواصلة بين المحيطين وما جاورها اصبح في قبضة الاتحاد الامريكي . الا ان السياسة الامريكية لم تقف عند هذا الحد : اذ في هذا الوقت صرح الرئيس تيودور روزفيلت ان للولايات المتحدة دون سواها الحق في ممارسة ((سلطة الشرطة الدولية)) على الدول الامريكية .

واخيرا فبواسطة المؤتمرات التي كانت تعقدها الدول الامريكية فيما بينها لدراسة القضايا الاقتصادية والمالية كانت ترتسم في الافق معالم سياسة كانت ترمي الى تعويد جميع حكومات القارة على دراسة شؤونها المشتركة تحت رعاية حكومة واشنطن .

وامام هذا التطور الحاصل في التوسع الاستعماري الامريكي لم تستطع بريطانيا العظمى التي تخلت منذ سنة 1901 على مواقفها في امريكا الوسطى ، ولا فرنسا التي لم يعد لها منذ زمن طويل اي عمل سياسي فعال في القارة الامريكية ، لم تستطع هذه ولا تلك ان تحرك ادنى ساكن .

أما المانيا ، فلانها ارادت ان تظهر قوتها في سائر انحاء العالم ، حاولت ان تقوم برد فعل : ماذا فعلت ! استغلت فرصة وقوع حادث بين حكومة فينزويلا وبين اصحاب الدين الاوروبيين ثم قررت بالاتفاق مع بريطانيا العظمى ضرب حصار على السواطىء الفينزويلية . لكن في الوقت الذي ظلت فيه بريطانيا العظمى ملتزمة جانب الحذر قامت باخرة حربية المانية واطلقت النار سنة 1903 على حصن منيع . وقد تبين للرئيس تيودور روزفيلت ان المانيا تنوي احتلال الضفة الجنوبية لبحر الانتيل ، فما كان منه الا ان اعطى الامر للقوات البحرية بان تكون على اهبة الاستعداد ، لحماية فينزويلا من نزول الماني محتمل الوقوع . ولم تثبت المانيا في موقفها

اذ انها قبلت بتحكيم في الموضوع . وقد ابى روزفيلت في حديث له مع السفير الالماني الا ان يبرز اهمية هذا الحادث فقال : « ان من الممكن جدا ان تواجه السفن الحربية الالمانية مع اسطول الاميرال ديوي Dewey

---

(1) المحيط الاطلسي والمحيط الهادي (المترجم)



أرض البطولة

للشاعر: ادريس الجاي

ارض البطولة ، جل الامر والشان ... كذا يذود عن الاوطان شجعان
يا ثورة شنها الاحرار عارمة ... فقوضت ما بنى ظلم وعدوان
ما جلجل الرعد يوما مثلما قصفت ... بنادق الحق ، والنيران نيران
واليأس ليل بهيم الافق محتدم ... بالشر ، اذ انتمو فى الليل شهبان
القمتوا الدهر فى بهتانه حجرا ... اذ قال ذي ارضهم دوما ، فما كانوا
بل جاش فى الصدر ايمان فأججه ... لهيبه ، فهو يوم البعث بركان

*

أرض الجزائر ، أبناء الحرائر ، ما ... من بينهم من رضوا ذلا ، ولا هانوا
ولا استكانوا لجبار ، بل انطلقوا ... كما يزمجر من (أوراس) طوفان
يسير دونهموا كل الذي ملكوا : ... مال ، واهل وارواح ، وابدان
فما افاد العدى أرباع ساعاتهم ... ولا سنين ، ولا بطش وطغيان
ولا ضراوة سفاحين ما خجلوا ... مما اتوه ودمع الوحش هتان
ما بزهم فى المخازي حينما همجوا ... (جنكيز خان) و (كيستابو) و (قمصان)
كأنما انتقموا من بعد ما خذلوا ... منا ، وليث الفدا للكبش قربان
لكم حميناهمو لما تخطفهم ... مثل العصافير فى الهيجاء عقبان
لكنهم ذبحونا حينما انتصروا ... بفضلنا ، والجبان الوغد خوان
كانت أهلتنا تحمي فلولهمو ... لما غزاهم من الجرمان صلبان
لا ضير أن قال محصي الخالدين : هنا . ... مليون قبر ، وما فى الدار عبدان

*

المجد : للشهداء الطاهرين بهم ... نعتز ، ان فاخر الاوطان او طان
وبابن بلة ، والاحرار اخوته ... وفوا بعهدهمو لله ما خانوا

وعبثا حاولت القيادة الروسية راب ما تصدع : اما البارجة التي اتت من اوروبا بعد ان قطعت مسافة طويلة ومملة ، وكلفت بقطع خطوط المواصلات الحربية للجيش الياباني فانها سحقت من قبل الاسطول الياباني في 27 مايو 1905 داخل مضيق كوريا بمكان يدعى تسوشيما .

لا شك ان منشوريا ظلت بعيدة من الغزو الكلي وان الجيش الروسي ظل يمدد مقاومته ، الا ان حكومة القيصر كان مشتبكة في هذه الاونة مع الحركة الثورية التي نشبت في روسيا ، مما جعل الحكومة تنشد السلام في الشرق الاقصى .

وكان عرض الوساطة الذي تقدم به رئيس الولايات المتحدة وقد اوجس خيفةمن الانتصارات اليابانية واراد ان يضع حدا لها ، كان هذا العرض في صالح روسيا . وقد اذعنت الحكومة اليابانية وقبلت الدخول في المفاوضات لانها كانت على بصيرة من الصعوبات الاقتصادية والمالية التي قد تترتب عن الاستمرار في القتال ، واكتفت بجني ثمار جزئية . وهكذا خولت معاهدة بورتسموث Portsmouth (29 غشت 1905) لليابان ميناء بور آرثر مع السكة الحديدية الواقعة في الجنوب المنشوري . يضاف الى ذلك الجزء الجنوبي من جزيرة ساخالين Sakhaline ، تم سمحت لها هذه المعاهدة ببسط حمايتها على كوريا . وهكذا تحمل التوسع الروسي ((ضربة توقف)) حاسمة .

انه اول نصر يحققه الصفر على البيضمنذ التوسع الاوروبي . وهو الانتصار الذي يساعد اليابان على التمركز في القارة الاسيوية ، وهو الذي غير معطيات السياسة الدولية في الشرق الاقصى ، وهو الذي شجع قيام الحركة الوطنية سنة 1905 بالهند ضد السيطرة الانكليزية وفي الهند الصينية سنة 1908 ضد الاستعمار الفرنسي . واخيرا فان الفوضى اصبحت تسود الجيش الروسي اذ اضحى مدة من الزمان غير قادر على ان يلعب دورا بارزا في نزاع اوروبي .

تلكم كانت النتائج المباشرة ، اما النتائج البعيدة فهي التي عبر عنها بول كامبون Paul Cambon بقوله : ((لم يكن اليابانيون يشكون مطلقا في انهم سيحصلون على رقعة في الارض الكورية ، انما كانوا يتأرجحون بين السير وراء روسيا وامريكا ، وبعد خمسين سنة سيصبحون موضع رهان في الصراع العظيم الذي سيدور بين الروسيين والامريكيين في الشرق الاقصى الا ان كل ذلك انما هو من اجل المستقبل)) .

والمهم ان عدة خلافات كان لبعضها شأن عظيم لم تؤد في نهاية المطاف الى نشوب نزاع مسلح بين الدول الاوروبية ، اليس في هذا دليل على ان الحكومات والشعوب المعنية بالامر كانت تتردد في السعي وراء شرور ((استعمال القوة)) ؟

ثانيا : الاتفاقات الجديدة بين الدول الاوروبية .

في الوقت الذي تطورت فيه هذه الخلافات اي في الفترة المتراوحة من 1901 الى 1907 ، في هذا الوقت تميزت التعهدات الديبلوماسية والعسكرية التي ابرمتها الدول الاوروبية فيما بينها بطابع جديد . فايطاليا عندما امضت مع فرنسا اتفاقا سياسيا سريا في العاشر من يوليوز 1902 ، كانت قد تعهدت بان تلتزم جانب الحياد في حالة حدوث حرب فرنسية المانية ، بل وحتى اذا اتخذت فرنسا ((على اثر استفزاز مباشر)) مبادرة اعلان الحرب ، الا ان الحكومة الايطالية هي التي ستظل محتفظة بتأويل ((حالة الاستفزاز المباشر)) . ثم ان الاتفاقات الانكليزية الفرنسية التي ابرمت في الاساس من اجل ((تبادل مصر بالمغرب الاقصى)) (8 ابريل1904) قد ذللت جميع الخلافات الاستعمارية بين البلدين . فقد نصت على ان بريطانيا العظمى ستقدم سندها الى فرنسا في القضية المغربية ولكن بواسطة العمل الديبلوماسي لا غير . واخير فان روسيا في غشت 1907 وفي نفس الوقت الذي عقدت فيه مع بريطانيا العظمى الاتفاق الخاص بفارس . قامت وسوت الخلافات المتعلقة بافغانستان والتيبت . وبينما تضعضع الحلف الثلاثي (1) تقوى جانب الحلف الفرنسي – الروسي الذي تعرض لاهتزازة بسبب الازمة الثورية الروسية التي حدثت سنة 1905 وكذا من جراء الهزيمة في منشوريا . قلت : تقوى جانب الحلف الفرنسي – الروسي ((بالاتفاق الودي)) الفرنسي – الانكليزي ، ثم بالتقارب الانكليزي – الروسي .

تلكم هي الخطوط العريضة لهذه اللوحة المعروفة . والاهم هو دراسة الدوافع التي حملت الحكومات على اتخاذ القرارات .

ترجمة عبد الحق بنيس

(يتبع)

---

1) يضم المانيا والنمسا – هونغاريا وايطاليا . (المترجم)

رحلة في الفضاء

الشاعر: عبد الملك البلغيثي

يا اخي رحلة لهذا الفضاء — هي امنيني واقصى رجائي
ومرادي الطواف من حول ارض — لا اختراق المجرة البيضاء
فيه اطفاء غلتي وشفائي — ومناع ، وعبرة للرائي
في الكتاب العزيز كم آية تدعـ — ـو لعرفان ما يرى في السماء
ليكون الايمان اقوى برب — خالق الكون ، مبدع الاشياء

*

مذ درست النجوم، والنفس تشتا — ق لسر ، لم يبد في الغبراء
اتمنى تفهما واتصالا — بالخفايا لكل تلك المراءي
عن طريق الحياة بالذات ، لا عن — مهيع الموت ، وهو محض فناء
ان شوقي ، والله ، شوق عليم — لشهود الموجود في الاجواء
شوق من ينظر الحياة بمنظا — ر منير حدوس ما في الخفاء

*

يا اخي ، هل يحق لي اتمنى — والاماني مطية العظماء
اتمنى : لو نشا الله في عمـ — ـري ، فامشي في موكب العلماء
امخر الجو املا العين والفكـ — ـر عربق ، فيما ارى من بهاء
تاره انظر العوالم بحرا — من ظلام ، ومرة من ضياء
وقطيع الالوان يزجيه نور — يتبدى في فتنة وصفاء
لا شعاع يعشي العيون ، ولا حـ — ـر ، ولا زمهرير صعب اللقاء

*

كيف بي، ان مشيت في مركب العلـ — ـم ، كعضو بمجمع الادباء
وانا فوق مركبي ارمق الار — ض ، فتبدو كنقطة دكناء
عجبا للبحار كفت عن الهر — ق ، كما كفكفت عن الاهواء

صانوا الامانة، ما استخذوا، ولاهنوا — نعم الوفاء ، ونعم الناس من صانوا :
قد اطردوا دخلاء الشؤم فانتصروا — كذاك من دابه صبر وايمان
فالضاد : ضاد ، بحمد لله — والعلم المجيد يخفق، والقرءان قرءان
تيهوا على هذه الدنيا وما وسعت : — بمثلكم غرة التاريخ تزدان

*

الله اكبر لا تحصى له نعم ... — ولا يحد له في الفضل احسان
جئنا الى الوطن الثاني مع الحسن الثاني، نزوركمو، والروح جذلان
والقلب مبتهج ، والصدر منشرح — والشمل مجتمع ، والله منان
لم تختطفنا شياطين الفضاء، ولا .. — اعتدى علينا من الاعداء قرصان
بل ساقنا الشوق ، والانسام حاملة — جناح طائرنا ، واليمن ربان
وعاهل المغرب الاقصى ، وقاده (أوراس) الاشاوس ، أحباب واخوان
قد عاهدوا الله ان يبنوا (لمغربنا الكبير) صرحا له الامجاد أركان
والشعب من حوله حر يسانده — والعدل للكل : قسطاس وميزان
تبارك الله : هذا موقف جلل — حمدا له انه بالعرب رحمان
وما علينا ، اذا مات العدى كمدا — (من سره زمن ، ساعته أزمان)

*

بني الجزائر : آخانا الجهاد ، وذا — يوم البناء ، فجل الامر والشان
لينصر البعض منا البعض مجدا — ومن نعاضد لا يعروه خذلان
هيا لنجمع شملا طالما عصفت — به النوائب ، والاهوال الوان
هيا لنشحد عزم الخائرين فما — بغير عزم وحزم قام بنيان
كانت حدود من الطغيان عاتية — اقامها في بلاد العرب سجان
واليوم قد حرر العربان ساحتهم — فالكل (مراكش) والكل (سودان)
من الخليج الى اليم المحيط هنا — شعب عظيم امازيغ وعربان
آباؤنا عقبة الفرسان عززه — اعقابه ، نعم من صالوا ومن صانوا
مضوا ، اقول ، وما ماتوا ، ولا اندثروا — لا تنخر الشرف المقبور ديدان

*

الدين وحدنا ، والدم خلدنا — ياليت لو شهد الافراح (حسان)
لئن فرحنا ، فما في الامر من عجب — لكم بكينا ولص الدار فرحان
فليسلم الدهر ما دامت (جزائرنا) — في عزة ، ولها الامجاد تيجان

الرباط : ادريس الجائي

الموكب الدامي

للشاعر محمد الخمار

الى روح المناضل الافريقي الكبير (باتريس لومومبا) والى كل المناضلين من اجل غد افضل ...

كاتما شهقه تشق حنايا صدره ، ضمت قبضتاه جراحه
وهوى يحضن الراب وفى العين جلال وبالشفاه سماحه
غام فى عينيه الغد الرحب واسودت رؤاه فما استبان صباحه
وتلوى نعل بعض تلويه به من حرارة النزع راحه
نائر صجت فى حناياه طلفات اباد اثيمة سفاحة
احمدت شعلة الكفاح ودفقات العلا ملء نفسه الطماحة
بطل انجبته ارض الجباه السمر غذت اباءه وجماحه
عرف البؤس فى صباه فلم يرض لصبيان شعبه اتراحه
هاله ان غدوا بآفاقه اطياف جنس الانسان او اشباحه
وراى الشعب فى المجاهل يسعى ، ففدا فى افاقها ملاحه
وراى دولة الجهالة قد قامت بافق النهى فرام صلاحه
وراى امه من البشر اقتيد الى ظلمة فرام سراحه
امة تعصر الكروم لجلاد بنيها فاترعت اقداحه
ورمت بالفلال فى جوفه النتن فما ارتاح جوفه او اراحه

*

لغد افضل رفجر جديد قد قضى عمره وامضى سلاحه
فقضى فى ربعان ايامه والنفس نشوى قريرة مرتاحة

تارة فوقها اراني ، واخـرى   تحتها ، والضياء غير الضياء
حيث لاتحت – فى الحقيقة – يلفى   لا ، ولا فوق ، فى سواء السواء
وعساني ارى الطبيعـة فى زي   مناف لهـذه الازياء
واذا طفت حولها وهي فوقـي   دائما فى ابتدائنا وانتهاء
فهو من اعجب العجائب للمنـ   ـهوم مثلي ، فى رحلة الاجواء
وهنا تبتـدي تعاليـل علـم   تقتضـي جاذبيـة للهواء
واعتقادي : ان لا يحيطون بالعلـ   ـم ، سوى ما يشاء من اشياء

*

يا اخي ما اريد ان انحـدى   لا اريد الوصول للجـوزاء
ان مرمى مداه جـد سحيـق   ذو ايـر ممـزق الاشـلاء
وسحيق السحيق، قالوا – قديما   : انـه اطلس ومكفـوف مـاء
والنبي زينت بزينـة اقمـا   ر ، بقول الالاه : دنيـا السماء
كل من يعبر الفضاء ولو اسـ   ـر – كالشمس – دائما فى ابتداء
كم يود البلوغ عنـد انتهـاء   وانتهاء المسير نفس الفنـاء
ما بدا من ظواهر الجو للعلـوم ،   كلا شيء فى امتداد الخفـاء
ليس للعلم ان يجـادل فى علـ   ـم عليم ، وخالـق العلمـاء

*

آه ، لو تسعف المقادير يـوما   فازور الفضـاء فى الاحيـاء
واروي غليل شوقي، واشفي النف   س ، اني بذا لفـي برحـاء
واذا ذبت فى الفضـاء فخيـر   لي من موتتي علـى الغبـراء
انهـا لـذة التشـوف للعلـ   ـم ، بها للارواح خير شفـاء
كـل هذا ، يزيـد الله ايما   نا ، ويوحي بالشعر للشعـراء

*

رب ، هل للسماء حد محيـط   كحدود الاطـراف والانـاء
قد عرفنا بان للشيء حـدا   وانتهاء ، فاين حد الفضـاء ؟
قد عرفنا بانك الواحـد القهـ   ـار ، ذو الحول والبقا اللانهائي
اتمنى الطواف من حـول ارض   ورجائي ، ان لا يضيع رجائـي

عبد المالك البلغيثي

قصيدي

للشاعر ابن دفعة محمد

قصيدي .. ما قصيدي سوى دموع
غشت عيني فى لون .. النجيع
قصيدي .. ما قصيدي غير تيه
ضللت به ، على ظما وجوع
قصيدي .. ما قصيدي غير بلوى
اذوب بهما ذوب الشموع
قصيدي .. ما قصيدي غير شكوى
بحدث فى اسى عن اسى فظيع
قصيدي .. قصة عن كل حر ..
يسام الذل من عبد وضيع
قصيدي انة الصدر المعنى
قصيدي خفقة القلب الصديع
قصيدي .. آهة نشكو ليال
سهرت بها وظالمي فى هجوع
قصيدي ، ان نظمته ، لي شقاء
ويشقيني ان كتمته فى ضلوعي
قصيدي دمع محروم وحيد ..
ترى عيناه افراح الجموع ..
يضيع شبابه فى حفظ عهد ..
ويخلص فى هوى الف مضيع
ويصبر فى الجفا .. والقلب منه

غير محتاج ان يضمه قبر كل هذا التراب للشلو ساحه
قد كفاه ان البراعم قبل الفجر عبت دماءه وجراحه
وكفاه ان البذور الحبالي قد تفذت من قبله في سماحه
منتهى البذل ان نعيش طريقا للورى او منارة وضاحة

*

ليس (لومومبا) ءاخر الموكب الدامي وبالافق الليل مد جناحه
لا ولا اول الالى قد قضوا رواد فجر وما استبانوا وشاحه
قتلوا قبله النبيئين .. قد كانوا ينابيع رحمة وسماحة
والالى قدسوا التراب فما باعوه يوما لغاصب فاستباحه
ملئت دنيانا دماء والاما فكل الرحاب للقتل ساحه
ما على الارض تربة لم يخضبها شهيد اسال فيها جراحه
فاحضن الترب قبلنه فكم ثاو به مات لم يعانق صباحه
وشهيد لولا اباؤه لولا انه القم الطغاة كفاحه
كنت انت القتيل او انت من سخر باغ غدوه ورواحه

*

ءاه من عالم دماء النبيئين به والاحرار دوما مباحه
تقتل الانفس البريئة فيه ولجلاديها العلا والصباحه
زمرة من بنيه طاب لها العيش فعبت من الشراب قراحه
والوف العراة ارمها البؤس وارخى على رؤاها جناحه
كم توارى الهم الثقيل وتخفيه ولكن عيونها فضاحه
الف مأساة بعضها او بكيناه افمنا مدى الزمان مناحه
بشر احمق ودنيا تجاريه فتطفي اهواءه ورياحه
قام يغزو الفضاء والغزو اجدى لو اسا قبل داءه وجراحه
غير مجد سلامه وعهود يدعيها وان يزيل سلاحه
قد تزيل القرون عن كل نطاح ولكن تراه ينسى نطاحه

القاهرة ــ محمد الخمار

معرض الكتب

مع الأستاذ المختار السوسي في رحلاته من خلال جزولة

للأستاذ: عبد القادر زمامة

كانت طبيعة البلاد المغربية في التاريخ هي العامل الثاني في تكوين الاتجاهات السياسية والثقافية والاجتماعية عبر القرون الغابرة في هذه البلاد ...

فهذا التنوع في البيئة الجغرافية . من جبال متفاوتة في الارتفاع . متوازية في الاتجاه . من الغرب الى الشرق ومن الشمال الى الجنوب . وهذه السهول والنجود والهضاب المتداخلة ، والصحاري التاسعة الاطراف ، والانهار المنحدرة من قمم الجبال وسفوحها وسائر الاتجاهات ... هي في الحقيقة التفسير العملي لاحداث التاريخ المغربي قبل ان يرتبط بتاريخ الاسلام وبعد ارتباطه ...

لهذا كان تاريخ المغرب مفتقرا اشد الافتقار الى جمع عدة معلومات عن الاقاليم المغربية في الشمال والجنوب وتصنيفها حسب اهميتها ليتأتى للمؤرخ ان يدرسها ثم يفسر الاحداث على ضوئها ...

فكل اقليم في المغرب لا فرق بين قمم الجبال . وسواحل البحار ، ومجاهل الصحراء ، والمدن الكبرى والصغرى . ساهم في التاريخ المغربي القريب والبعيد لهذه البلاد عدة احداث وقضايا سياسية ودينية واجتماعية .. علمنا منها شيئا وغابت عنا عدة اشياء ، بسبب اهمال المؤرخين واستهانتهم بها ، مع انها في الغالب لا تخلو من فوائد ، ان لم تفد المؤرخ السياسي افادت المؤرخ الادبي او الاجتماعي ..

ولا نحتاج الى شرح هذه الحقيقة باكثر من هذا وانما نريد ان نضيء بها الطريق للحديث عن كتاب جديد سار مؤلفه في هذا الاتجاه وآمن اصدق الايمان بهذه الحقيقة فكتب هذا الكتاب القيم المفيد ...

والكتاب يحمل عنوان « من خلال جزولة » جمع فيه المؤلف مشاهداته في رحلاته الاربع التي قام بها لاقليم سوس : جباله وقراه ومدنه ومعالمه التاريخية ومدارسه العلمية .. وقد قسم كتابه الى اربعة اجزاء: جعل كل واحد منها خاصا برحلة لناحية في ظرف خاص

وقد سلك المؤلف في اسلوب الكتاب مسلكه المعهود في جمع المعلومات كما هي . وكيفما اتفق . فنجده في الجزء الاول يستعمل اسلوب اليوميات . طيلة رحلته الاولى . ففي كل يوم يدون ما قام به من زيارات وما شاهده وما سمعه وما لفت نظره في اقتضاب حينا . وتطويل احيانا . وفي الاجزاء الاخرى يستعمل اسلوب الحديث عن المدن والقرى والنواحي والشخصيات فحدثنا عن اكادير وتارودانت واليغ وايجلي وتامدولت وغيرها .

وكان المؤلف ـ حفظه الله ـ انتقم للاهمال الذي كان يسيطر على رجال العلم والادب فدون كل ما وجده من اسماء المخطوطات والمكاتب واعلام القضاة والفقهاء والشعراء والقواد ورجال الحرب والسياسة . يربط ذلك كله بما طرأ على البلاد من احداث تاريخية وسياسية .. في القديم والحديث .

والمؤلف مسجل ومحاضر وشاعر ومؤرخ ينتقل بقرائه من شعر قديم الى شعر حديث ومن شعر الفقهاء ونظم القضاة الى شعر الادباء ونكتهم وطرفهم ... ومن الفوائد الفقهية الى الشوارد اللغوية .. ومن المعالم التاريخية الى نوادر المخطوطات في سائر الموضوعات ..

من الاوجاع ، فى حال النزوع
قصيدي دمع مظلوم يعاني
من الناس كل ايلام شنيع
أبوح بكربتي ، وشكاة نفسي
وظلم أحبتي ، فى اسى مريع
فاعذل فى شكاتي من حياة ..
تحاصرني لحصن جرى منيع
وكيف بطيب لي عيش ؟ وعمن
يفطر فلذتي بجفا فظيع
انا البستاني .. الاشواك حظي
اذا غيري جنى زهر الربيع
ابث قصائدي اشجان نفسي
وارسلها انينا من صريع
فيطرب غيري ، ان يسمعها ، لا من
بديع السحر او سحر البديع
ولكن من همومي ، وذوب قلبي ،
وكربة مهجتي ، واسى دموعي
قصيدي ، ما قصيدي سوى نواح
يعيش مع الدجى ومع السطوع

القنيطرة — ابن دفعة محمد

فاذا تخطينا هذه المعلومات الجغرافية والفوائد التاريخية الى الاسلوب اللغوي وجدنا المؤلف حريصا على ان يتخير الالفاظ والتعابير الفصيحة مع التنبيه على معانيها ان كانت فى حاجة الى تفسير او تعليق ..

والكتاب بعد هذه المظاهر الشكلية مكتوب بروح تنبض غيرة اسلامية ووطنية مغربية .. وقومية عربية تربط الحاضر بالماضي وتتطلع الى آفاق المستقبل المشرق للغة الضاد فى هذه البلاد ..

وليس من الانصاف للحقيقة فى شيء ان نعرض فى دراسة مثل هذا الكتاب بدعوى انه مكتوب بطريقة غير عصرية . . فان الثقافة فى هذا العصر متنوعة ذات اشكال واساليب وذات الوان وافانين .. بل اننا احيانا فى سبيل الوصول الى الحقيقة نطالع عدة فصول فى المراجع لنظفر بما نريده ...

وليس من الانصاف للحقيقة ايضا ان نزعم ان هذا هو الاسلوب المختار فى كتابة التاريخ المغربي بل يجب ان نكون واقعيين فى الاستفادة من كل ما نجده مفيدا فى تاريخ هذه البلاد التي طوى الزمان وما زال يطوى كثيرا من صحائفها المجيدة فى الحضارة والتاريخ.

واذا كان للباحث الفيور ان يتمنى شيئا وهو يقدم اثرا من آثار المؤلفين المغاربة ... فليتمن ان يخرج الناس من صمتهم الى الحديث .. ومن اضرابهم عن التاليف الى الكتابة فى الموضوعات التي لهم فيها باع كما فعل صاحب هذا الكتاب الذي رفع به راس بلاده عاليا ....

فاس — عبد القادر زمامة



وهذا الاسلوب يمثل طريقة خاصة ، التزمهـا المؤلف واقتنع بصلاحيتها للموضوعات التي يعالجها . ولها (اعني الطريقة) من المبررات ما لا يقتنع به الذين يخوضون هذه الغمرات ويجمعون هذه السلسلة من المعلومات الموسوعية ، وهم في الوقت نفسه يحرصون اشد الحرص على تدوينها كيفما امكنهم التدوين ... ولو لجأوا الى غير هذه الطريقة لاحتاجوا الى احقاب من الدهر لا يجود بها الزمان ... ولا يتسع لها عمر الانسـان ..

وقد نفطن المؤلف لما سوف نرمي به هذه الطريقة من سهام للنقد فصارح قراءه بالحقيقة في شجاعة ونواضع ناذرين حيث قال في مقدمة الرحلة الثانية والثالثة والرابعة :

(... وقد حرصت على ان اودعها كل ما يلفت نظر المولعين بمعرفة الكتب . وبتراجم الرجال النابهين علماء كانوا او رؤساء ، مما أجد اسمه حديثا . ومما اقع عليه من الآثار الادبية من نثر ونظم ما دام مقبولا .. وان لم يدرك التأو العالي من البلاغة ... وبوصف المجالس الادبية التي اراها ، فأسوق ما يروف من الفوائد والانتقاءات والانشادات ، ولا قصد عندي الا ان انشر حسب ما في طاقتي من تاريخ هذه الجهة التي اصطلحت بان اطلق عليها « جزولة » ما أؤدي به لعشاق التاريخ المغربي العام والخاص ما تقر به الطرف ويبتهج بمعرفته الفؤاد .

وكل من لم يكن له الولوع المؤسس على كل ما اعنى بذكره . فالاولى له ان لايشغل نفسه بمراجعة هذا الكتاب ...)

هكذا في صراحة وشجاعة وتواضع يتحدث المؤلف عن رحلاته من خلال جزولة . مع اننا اذا تركنا هذا التواضع وقرانا الكتاب نفسه نجد الواقع فوق ذلك وابعد من ذلك ...

فالباحث في تاريخ المغرب السياسي والادبي والعلمي يستفيد من المعلومات التي في الكتاب فائدة عظيمة الاهمية ، فهناك من المعلومات الجغرافية والتاريخية عن اقليم سوس مالا يمكن ان يؤخذ الا من هذا الكتاب .

ولنضرب لذلك امثلة توضح لنا قيمة الكتاب من هذه الناحية التي تهم كثيرا من الباحثين والمثقفين بنوع خاص .

فالمعلومات التاريخية والجغرافية التي يقدمها لنا المؤلف عن :

مدينة تامدولت تلك المدينة التاريخية التي اسسها في سوس عبد الله بن ادريس منذ عهد الادارسة في المغرب .

ومدينة ايجلي مسقط راس محمد بن تومرت المهدي ، مؤسس دولة الموحدين في المغرب .

ومدينة الغ مركز دولة ابي حسون السملالي المعروف في كتب التاريخ المغربي بلقب (بودميعة) والذي لعب ادوارا خطيرة في اواخر الدولة السعدية واوائل الدولة العلوية وامتد نفوذه من سوس الى تفلالت وغيرها .

كل ذلك يعد بحق شيئا عظيم الاهمية للباحثين في تاريخ المغرب الذين يريدون ان يطلعوا على تفسير حوادث التاريخ وبيان غوامضه .

هذا عن المدن اما عن المدارس العلمية في سوس ورسالتها في نشر اللغة العربية والادب العربي والعلوم الاسلامية فالكتاب ريان باغرب الاخبار وادق المعلومات التي جمعها المؤلف من افواه الرجال . ومن نوادر المخطوطات وهو الناقد الخبير وابن سوس البار الذي ابى الا ان يعرفنا بها ويعرف الاجيال المقبلة ...

والى جانب هذا نجد المؤلف يتصدى لنشأة المهدي بن تومرت ويتحفنا بمعلومات مدققة عن هذا النابغة العبقري الذي هدم عرش المرابطين بين عشية وضحاها واقام دولة الموحدين التي كانت ثمرة كفاحه وفلسفته وتربيته وتدبيره ...

وهذه المعلومات هي اوفى واعمق ما كتب عن نابغة سوس .. ولعلها تكون كلمة الفصل التي ترفع كثيرا من الغموض وتقضي على كل الاوهام والشكوك التي كان المؤرخون يرجمون فيها بالغيب من غير تحقيق ولا تمحيص .. المغاربة منهم والمشارقة .. والاوربيون ...

فى تلك اللحظة ، قرع بابنا بشدة غريبة ، واسرعت ... جه اخي ، ثم امي وجدتي بعدها بقليل .. ودقائق ... ترامى الى مسمعي صراخ رهيب .

قفزت من السرير ، وفتحت باب الغرفة لاجد ... رل وقد امتلا برجال الشرطة وبممرضين وبعض ... شخاص الآخرين .

هبطت الدرج مسرعا لاجد النسوة الثلاث قد ... على المقعد الطويل فى صدر الغرفة الوحيدة ... التي تتصدر صحن الدار .

اسرعت ، فاذا بي امام جثة مسجاة .. يا الله .. جثة اخي .

تقدمت كمجنون منها ، ورحت اهزها صارخا : ... اخي .. من فعل ذلك .. قل .. اخي ..

وراحت دموعي تنحدر بحرارة وانا اهز الجسد الصامت واصيح : يا الله .. اخي مقتول .. أخي مقتول .

ورحت اهذي بأشياء لا اذكرها ، لكن تلك الكلمة ما زالت معلقة باحساسي وانا اصرخ والريح من حولي تقول : اخي مقتول .

ابعدوني عن الجثة ، وسرعان ما حضر اقاربي ووالد زوجة اخي وراحوا فى نوبة من التفجع والبكاء .

وفى اليوم التالي ، علمت باسباب الوفاة المفجعة .

.. اصطدم اخي برجل اخر يريد منه مبلغا من المال .. وبعد أن شتم كل منهما الآخر ، اطلق الرجل ... اخي ثلاث رصاصات من مسدس صحم ارداه ... لا .. والقي القبض على القاتل الذي استسلم فورا

لم احتمل ابدا ذلك المنظر المخيف الذي صلب ... ، فكنت اغيب عن الوعي بين الفينة والفينة فلا ... ما كان .

وبعد أيام قليلة ، وجدت نفسي مسؤولا عن ... وانا بعد فى العشرين ، ونسيت كل شيء ، سوى ... اريد ان ارى الرجل الذي قتل اخي ..

اما صورة قاعة المحكمة التي حوكم فيها فما زالت مائلة امام عيني بوضوح .. القاضي ذو الفودين الابيضين ، والمحامون والنائب العام ، والشرطة والشاب القصير المتلىء القامة وهو يصرخ : محكمة . والرجل القاتل فى القفص وهو خائف مضطرب ووجهه الاصفر الباهت يتلفت بذعر يمنة ويسرة ، وما ان تلتقي عيناي بعينيه حتى يبدو وجهه مغرقا فى رعب هائل ، وكنت بالفعل ارمقه بنظرات قاسية كلما التفت نحوي.

وفى الطرف الآخر ، كانت تجلس امراة متشحة بملاءة سوداء وعيناها تسجان بالدموع ، بينما كانت تسند الى كتفها طفلا صغيرا اشقر تقارب سنه سن خالد ابن اخي .

وتبين من خلال المحاكمة : ان اخي قسا على الرجل بشكل مهين ، فقد كان الشهود جميعهم الى جانب الرجل الخائف الذي كان يتمسك بقضبان القفص وعيناه مصلوبتان الى الشهود الذين أكدوا ان اخي كان شرسا وقاسيا .

وبعد ايام صدر الحكم عليه بالسجن مع الاشغال الشاقة عشر سنوات .

وصرخت فى قاعة المحكمة : هذا ليس عدلا .. يجب ان تشنقوا القاتل بالقتل .. انكم لستم عادلين ولكن شرطيا وضع يده على فمي واخرجني من القاعة.

ومنذ ذلك اليوم ، بدا حقدي ينمو فى اعماقي ؛ ورحت احاول اعادة محاكمته لكن المحامين كانوا يقنعونني بانني لن استطيع ذلك .. فالحكم قد صدر بناء على أقوال الشهود الذين اكدوا ان اخي كان مغالبا فى القسوة على الرجل .

كنت اعرف اخي جيدا ، فلم اصدق هذه الاقوال ، لابد ان احدا قد لقن اولئك الشهود لينطقوا

وها هو اليوم قد جاء الآن ، وما زالت صورة اخي تلح على ذاكرتي بعنف وضراوة ، كان يريدني طبيبا او محاميا .. وكانت لي جارتي السمراء سلمى وكنت ساطالبها بعشرة اطفال ، سبعة صبية وثلاث بنات وكانت ستلبي رغبتي فانها تحبني حبا عميقا ، كان بالامكان ان تتحقق كل هذه الاحلام لو لم يصوب ذلك المجرم ثلاث رصاصات الى صدر اخي .

القصة

الثأر

بقلم: الأستاذ ياسين رفاعية

انها الريح (*) ما زالت تعصف تلك الريح ، منذ عشر سنوات ما زالت تعصف .. ما زالت تمزق كبريائي يوما اثر يوم وساعة بعد ساعة ، انها ريح شرسة قاسية تصفع احساسي في الاعماق وانا أدور في دوامة هائلة ، انتظر هذا اليوم الذي اصبح فيه حرا طليقا .

لقد جاء ، جاء هذا اليوم ، وساعات ، ارتاح من صورة اخي التي تلح على ذهني رغم مرور عشرة اعوام .

كنت آنذاك فتى يافعا ، اهيىء نفسي لمستقبل حلو كان يمكن ان يتحقق ، كان اخي الرجل الذي انشأني بعد وفاة ابي الذي لم اتذكر ملامحه قط ، ولقد ارادني ان اكون شيئا هاما في الحياة : طبيبا او محاميا ، فان التجارة التي كان يزاولها عمل صعب يحتاج الى اعصاب متينة .

ولما عرفت « سلمى » السمراء الدافئة ، جئت اخي بخجل وحنين ، وحدثته عن حبي العميق لها ، فربت على كتفي وقال لي بصوته الهادىء : ستكون لك يا اخي .. المهم ان تهيىء لنفسك المستقبل الذي احبه لك .

وفي الحديقة الواقعة في ظاهر المدينة ، ضممت يد سلمى بين يدي بحنان ، كان ثمة اشجار تظللنا وتعاهدنا على أن نكون لبعضنا ، وقالت سلمى سانتظرك يا عزيزي .. وسأشعر بلذة في انتظارك .. سانتظرك .. تأكد من ذلك ..

قبلت باطن كف سلمى بحنان ، وما ان مالت الشمس الى المغيب ، حتى قالت : يجب أن اذهب ، ان اخوتي يقتلونني لو رأوني معك ، فقد تأخر الوقت .

ذهبت سلمى ، وبعد قليل هرولت طربا وانا اصفر لحنا جميلا الى البيت ، كانت صورة سلمى الحزينة السمراء ترسم لي مستقبلا جميلا حلوا فيه بيت واطفال وفيه خصامات صغيرة تنتهي دائما بقبلات ناعمة ، آه كم كان المستقبل الذي كنت احلم به آنذاك جميلا .

وصلت البيت ، وقبل ان ادخل ، لمحت سلمى تقف بالقرب من النافذة وابتسامتها العذبة ترتسم على شفتيها ، كأنها تقول : كل شيء على ما يرام .

استقبلتني زوجة اخي قائلة وعلى يدها خالد ابنها : لقد تأخر اخوك عن ميعاده ؟ قلت : لا تقلقي .. لابد ان يأتي بعد قليل.

ولم اهتم للامر ، ذهبت الى غرفتي ، وجلست افكر في الوجه الاسمر الدافىء الذي فارقته منذ حين، وهتفت : يا لروعة سلمى .. كم سأكون سعيدا معها ، وكم سننجب من الاطفال .. لا بأس ساوصيها على عشرة : سبعة صبية ، وثلاث فتيات .

ذلك اليوم ، مرت ساعات طويلة ، قبل ان تدخل علي زوجة اخي مرة اخرى لتقول : تأخر اخوك دون سبب .. قم .. يجب ان تعرف اين هو ، فقلت دعيني الآن ، واين يجب ان يكون اذا لم يكن في السينما او عند صديق آخر .

* احدى قصص بعنوان (العالم يغرق) مجموعة تصدر قريبا للكاتب .

وهنا اضطرب الرجل ، وبدا الرعب على وجهه . ضيفا عندما لمح يدي ترتفع الى صدره وفيها مسدس . خم ، وصرخ : لا .. لا تقتلني أرجوك .. دعني طفلي ..

وكان الطفل قد لمح خوف ابيه ، فالتصق به وعانق ساقيه وراح يصرخ : بابا .. بابا .. وكان الرجل يهتف في نفس الوقت : لا تفعل .. ارجوك يا سيدي .. لا تفعل .. لم يبق لي سوى خطوات.. لقد كبرت يا سيدي .. لقد كبرت . دعني أعيش لطفلي ، لاجله دعني .. انظر . .انظر اليه انه بريء . انظر يا سيدي . انظر ارجوك . انظر .. الا ترى شعره الاشقر الناعم .

وهبطت عيناي دون ارادتي الى الطفل الصغير وهو منمسك بقدمي ابيه يصرخ : بابا .. بابا ، كانت عيناه ممتلئتين بالدموع ، وكان خائفا ، خائفا .. وفجأة تخيلته (خالد) ، كان يهتف بي : لاجلي لا تفعل يا عمي ، لا تحرمه اباه ، دعه له ، هل تريد ان يتألم كما اتألم انا .. وما ذنبه هو ، دعه يا عمي .. دعه .

وفجأة ، هبطت يدي الى جانبي كانها شلت ، كان الرجل قد انحدرت دموعه ايضا ، بينما التفت الطفل نحوي ورمقني بحنان آسر ، وسرعان ما حملته ومسحت دموعه ، ثم تركته وهرولت خارج الزقاق .

لما ضمني زقاق آخر لوحدي ، لمحت صورة اخي ترافق ظلي ، كانت تربت على ظهري وهي تقول لقد كنت عادلا .. لقد كنت عادلا . .

وغابت عني صورة اخي لتبرز صورة سلمى سمرائي الدافئة ، فهتفت لها وعيناي دامعتان : كم احببتك يا سلمى .. كم احببتك .

دمشق : ياسين رفاعية

من جمعية الادباء



ان صورته وهو مسجى مطبق العينين والشفتين وحوله امي وزوجته قد انكببن عليه ينتحبن بصوت عال .. كانت تلح علي منذ عشرة اعوام .

لم استطع ان افعل شيئا لسلمى ، حتى ان الحقد الذي ترسب في اعماقي انساني ابتسامتها الدافئة وحنو يدها الصغيرة ، وكل ما فعلته سلمى ان تزوجت ضابطا شابا انجبت منه حتى الان ثلاث صبية .

ومنذ اسبوع خرج قاتل اخي من السجن ، ومنذ اسبوع لم يغمض لي جفن ،وراحت صورة اخي تلح علي بشكل عنيف ، وكان خياله يقول لي : انت لم ترض بالحكم يا اخي ، انك انتظرت عشرة اعوام كي تحكم انت في مقتلي ، عشرة اعوام طويلة ، اعددت نفسك لكي تحاكمه من جديد ، عشرة اعوام عشرة اعوام .. عشرة اعوام ..

كنت اقفز من السرير مذعورا ، واشعل الضوء الكهربائي الذي كان يهتز امام عيني صارخا : احكم .. احكم انت ، لقد انتظرت عشرة اعوام لتحكم بالعدل .. عشرة اعوام .

مر هذا الاسبوع وانا على هذه الحال ، لم انم ؛ ولم اهدا ، بل انني نسيت كل شيء الا اخي والرجل الذي قتله ، كان اخي يطالبني في كل لحظة : ماذا انت فاعل ، كيف ستحكم ، لقد انتظرت عشرة اعوام لتحكم .. انأر لاخيك .. انني ما زلت انتظر ان لا يذهب دمي هدرا ، اقتله يا اخي ، اقلته ، اقتله .

و ... قررت ان اقتله ، اجل يا اخي .. سأقتله

اذ ذاك ، بدت صورة اخي تبتسم برضى واطمئنان ، وها انا اليوم قد حصلت على مسدس فيه تسع رصاصات لا ثلاث .. اجل .. سأثقب جسده تسعة ثقوب يا اخي ..

انتظرت الليل ليرخي بساطه ، فقد استدللت على بيت الرجل الذي عاد الى اهله ، الى زوجته وابنه الذي لم يحرم منه .

خالد ، ابن اخي اصبح يتيما ، كم كان الحقد يقتات اعصابي عند ما كنت المح في عينيه ذل اليتم لما كانت امه ترسله ليزورنا بعد ان تزوجت رجلا آخر .

كان يسألني بسذاجة : لم لا تزورنا يا عم ، لماذا انت عمي .. واصدقائي لهم آباء ، احمد ، يأتي ابوه كل يوم ويأخذه من المدرسة .. لماذا ليس لي اب يا عمي لماذا .. ؟

وكنت اقول له : سيأتي يوم وتعرف طفلا آخر لن يجد له ابا ، سيمزقون صدره بالرصاص .. كما مزقوا صدر ابيك يا ابن اخي .

كانت كلمات خالد تجرح كبريائي ، فقد كانت عيناه تبدوان لي وكأنهما عينا اخي اللتان تشيران لي

غدا او بعد غد ، سألمح في عينيه الرضا والاطمئنان : ان طفلا آخر قد اصبح بلا اب .

واخيرا خرجت من المنزل قاصدا بيت الرجل بعد ان اطمأننت الى المسدس بطلقاته التسع ، وكنت كلما اقتربت خطوة يزداد وجيب قلبي .. والريح ما زالت تعصف ، ما تزال منذ عشرة اعوام تعصف .

ولما امتدت يدي اليسرى الى الباب لتدقه كانت يدي اليمنى قابضة على المسدس باصرار وعنف واصبعي على الزناد .

وفتح الباب ، وبدأ لي طفل اصفر على ضوء مصباح الزقاق باهت النظرات يقارب الثانية عشرة من عمره وهو يتثاءب ببراءة وقال : نعم .. قلت له بصوت غليظ النبرة : اين ابوك ؟ قال وقد تبدلت ملامح وجهه : ابي .. انه نائم .. لقد جاء تعبا جدا هذا اليوم .. فنام باكرا .. قلت له : ايقظه .. وقل له انني اريده لامر ضروري .

فهرول الطفل يقرع البلاط بحذائه الخشبي .. كنت ما ازال مضطربا .. عندما عاد الطفل بعد لحظات يتقدم اباه .

وقال لي الرجل بصوت واهن وهو يفرك عينيه : نعم .. ما ذا تريد .. ؟ قلت له : لا شيء .. سوى انني احب ان اذكرك من انا .. فقال بنفس الصوت الضعيف : من تكون ؟ قلت له بصوت قاس وشرس : انني شقيق من ثقبت صدره منذ عشر سنوات .

والوعيد ، ولم يقيموا وزنا لما قالته السلطات العسكرية، بل ظلوا طوال الليل المقمر يرددون باصواتهم القوية . نعم ظلوا طوال الليل يرددون :

قسما بالنازلات الماحقات
والدماء الزكيات الطاهرات

والبنود اللامعات الخافقات
فى الجبال الشامخات الشاهقات

نحن خضناها حياة او ممات
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا ، فاشهدوا ، فاشهدوا

*

حينما عاد مصطفى من الاجتماع وجد زوجته تنظره . وكان الطفل الصغير موضوعا فى احدى زوايا الغرفة ، وكان نشيجه يتعالى بين الحين والاخر لكي يذكر والديه بانه يجب ان يكون موضع عنايتهما. وكان المصباح ينفث فى ارجاء الغرفة دخانه المحمل برائحة الغاز ، وكان ينشر نوره الباهت الذي يسقط على الجدران البيضاء المرشوشة بالكلس ظلالا سوداء غريبة الاشكال . ونام الطفل بعد قليل وانقطع نشيجه، وشمل الغرفة سكون عميق ، ثم قال مصطفى :

— لقد قررت ان اغادر هذه القرية ، قررت يا عزيزتي أن ألتحق باخواني ، فلم اعد اطيق ان ارى كرامة وطني تداس ، ولم اعد اتحمل ان اراهم يفدون بين الحين والاخر الى قريتنا ، ليقوموا فيها بما يشاءون من المناكر والمظالم .

— والى اين تريد ان تذهب ؟

— لا ادري .. الى أي مكان .. المهم ان لا ابقى فى هذه القرية ؛ فى الوقت الذي يستشهد فيه اخواني ..

— وكيف تتركني ، وهذا ولدنا الصغير مشرف على الموت ؟

— ان مئات من الاطفال يموتون يا عزيزتي ولن يكون ولدنا الا واحدا منهم . ومن يدري ، فلعله لن يموت ؛ ولعلي سأجده حينما ارجع قد نما وصح جسمه . الوداع يا عزيزتي ، الوداع .

وقام من مكانه ، واخرج من احد مخابىء الغرفة رشاشا صغيرا ، ثم اتجه الى الباب وهو يلتفت الى الوراء ويقول :

— الوداع يا عزيزتي ، الوداع .

لم اعد احتاج الى طبيب ، ولا يهمني ان يأتي اليوم أو غدا او لا يأتي ابدا . لقد وقع ما كنت اخشاه : فمات الطفل الصغير فى نهاية الليل قبل شروق الشمس . غفا اغفاءة هادئة حتى حسبت انه قد شفي ، وعندما تلمست جسده ، وجدته باردا .

يا ولدي ، كم كنت سعيدة عندما كنت اضمك الى صدرى واشم فى شعرك رائحة الحياة ، واقبل وجنتيك الوردتين . كم كنت سعيدة عندما احس بيدك الناعمة فى يدي ، واسمع صوتك الجميل يناديني .. اما الآن فقد انتهى كل شيء .. فارقتني بعد ابيك .. وتركتني وحيدة فى هذا البيت ..

*

لقد تعودت ان اراهم يفدون الى قريتنا .. انهم يجيئون بين الحين والاخر ليأخذوا عنا صورا ينشرونها فى مجلاتهم كأننا حيوانات متوحشة لا تعيش كما يعيش سائر الناس . وقد تعودنا ان نراهم يحدقون فينا فى شيء من الدهشة والاستغراب ، ولعلهم يتساءلون كيف يعيش هؤلاء فى هذه الاكواخ البائسة ، وكيف لا يقضي عليهم البرد ، وماذا يفعلون عندما تصب الامطار والثلوج ، وتهب رياح الشتاء ؟

لقد سمعت الناس يتحدثون عن بعض المشاريع التي ستحققها السلطات الفرنسية فى قريتنا ..

ومن جملة ما قيل انهم سيبنون لنا مساكن شعبية ومستشفى ومدرسة ..

ولكن ها هم الان يعودون . يعودون لا ليبنوا لنا دورا جديدة ومساكن شعبية ، بل ليدمروا اكواخنا البائسة ، ويشردونا فى الفيافي والقفار .

في أرض العنف

بقلم: الأستاذ بنعيسى حنفي

لا يزال ولدي الصغير مريضا ، ولا يزال العرق يتصبب من جبينه .

لا تخف يا ولدي ، فان امك بجانبك ، تسهر عليك وترعاك . لا تخف يا ولدي ، فانني لن ابرح هذا المكان حتى ترجع اليك الصحة ، وحتى يتورد خداك كما كانا فى السابق ، وحتى اسمع صوتك من جديد يرن فى أرجاء الدار ، يملأها بالفرح والبهجة .

وخارج البيت تتعالى اصوات وترتفع صيحات ، واسمع ضجيجا لا اكاد ابين منه شيئا . لا تخف يا ولدي ، فان الوادي الساحر الجميل الذي ولدت فيه يحيط بك من جميع الجوانب : فالنهر يسير رقراقا صافي الاديم ، والريح تهب لينة رفيقة ، والحيوانات تعود من المرعى الخصيب .

وهي الان تهبط الى الوادي ، تحت الاشجار الوارفة .

يا الهى ، اتضرع اليك ان تعيد الصحة الى طفلي الصغير .

*

كانت واقفة امام بيتها ، وكانت تتقي اشعة الشمس بيدها ، وكانت تحس ان هذه الاشعة الرقيقة تغمرها وتنفذ الى اعماق جسدها .

— يا سيدي الا تعلم اين استطيع ان اجد طبيبا؟

— يا سيدتي ، ان الطبيب يأتي الى القرية مرة كل اسبوع ، لذلك فانا لا اعتقد انه سيحضر قبل مرور اربعة ايام .

كانت تضم الى صدرها طفلها الرضيع الذي لفته فى خرق بالية ، وكان الطفل يمتص الحليب من ثديها الناصع البياض الذي ابرزته من خلال فتحة ثوبها الرمادي . ونظرت الى الطفل نظرة اشفاق ، ثم قالت :

— ولكن اذا لم يحضر الطبيب فى هذا اليوم ، فسيموت طفلي الصغير . انظر الى وجهه الشاحب وعينيه الذابلتين ..

— ما عليك يا سيدتي الا ان تصبري ...

— ولكن الا تستطيع ان تذهب الى عيادته او الى منزله ، وان تطلب منه ان يأتي لوجه الله ، وان تتوسل اليه باسم الانسانية ؟ الا تستطيع يا سيدي أن تجد فى المدينة طبيبا يعطف على هذا الطفل البرىء .

— سأحاول يا سيدتي ، سأحاول ..

— اشكرك يا سيدي ، اشكرك جدا .

*

الليل مقمر ، والريح تحمل نسمات منعشة . وخارج البيت تحت الزيتونة ، اجتمع الرجال ، رجال قريتنا . انهم ينشدون نشيدا تعلمته فى صباي الاول عندما كنت تلميذة فى المدرسة الابتدائية . ولكنه ليس كجميع الاناشيد الاخرى ، فهو مقدس عند شباب القرية .. انهم ينشدونه فى كثير من القوة والعنف ، وكأن كل نغمة من نغماته تعبر عن شبابهم الفائر وثورتهم العارمة . لقد قال لي مصطفى بأن الحاكم الفرنسي هدد بالسجن كل من يتجرأ على انشاده . اما رجال قريتنا ، فلم يكترثوا للتهديد

جذور الفن التجريدي وتطوره

ترجمة وتعليق الأستاذ محمد السرغيني

ان الفن التجريدي عندي ، هو كل ما لا يحتوي على أي تذكر او استحضار للواقع الملاحظ ، وسواء لدى اكان هذا الواقع نقطة انطلاق للرسام ام لم يكن . .

« ميشيل سوفور »

انني احببت الرسم لكي اقنعه بالشيء . فالرسم التشخيصي لابد ان يرتكز على محتوى مادي في قليل او كثير ، لان الشيء الاكثر تواضعا وصمتا فيه ، يتحرك بجانب ما هو رسم محض .

« كاندينسكي »

من الواضح اليوم ، ان الناس كلهم يعرفون ماهية الفن التجريدي ، وعما قليل ، لن يكون هناك انسان يجهله ، ولكننا رغم هذا ،نجد السيد «ليونيلو فانتوري» في سنة 1950 يقول عنه : (✻)

« اننا اليوم حينما نتحدث عن الفن التجريدي ، فاننا لا ننسى الحديث عن التكعيبة وعن منحرفاتها » . ولكنه يعود فيحكم بالاعدام بعد اربعين سنة من اكتشاف الفن اللاتشخيصي Non figuratif على هذه القيمة الجمالية الجديدة في سطرين ، حيث يمزجها باحتقار مع التكعيبة التي تعتبر خصمها الحقيقي .

وانه ليكفي ان نتذكر ان التكعيبيين قد استسلموا الى تجزئة دقيقة وحقيقية (للشيء) ، بينما كان التجريديون يجتازون مرحلة هذا (الشيء) Objet لكي يعرفوا الى أي مدى كان هذا التقارب لا معنى له .

واكثر من هذا ، فان التكعيبية بقيت محدودة الزمن ، في حين ان الفن التجريدي الذي ولد في نفس الوقت الذي ولدت فيه ، لم يفتأ ينمو ويتفير ويخصب، والتكعيبية ايضا) لم تكن غير مدرسة ، بينما كان الفن التجريدي حركة قوبلت بترحاب غير عادي ، يقارن في الماضي ، بتلك الثورة الجمالية التي سميت باسم « عصر النهضة » .

على انه في حظيرة حركة الفن التجريدي (✻) وجد مذهب محدود ، انتهى اليوم ، ولم يعد له ابدا انصار . هذا المذهب ، هو البلاستيكية الجديدة ، التي عرفت

(✻) هذا فصل من كتاب : Michel Ragon - L'aventure de l'art abstrait

(✻) كاندينسكي والفن التجريدي الغنائي ، انبثقا من Van Gogh والوحشيين Fauvistes من جهة، ومن جهة أخرى ، ف Delounay استوحى من الانطباعية الجديدة للرسام Seurat واخيرا فاذا دفع كل من Mondrian والبلاستيكية الجديدة مذهب التكعيبية الى المجالات الاكثر تطرفا فانهما سرعان ما تجاوزاها ليكشفا جمالية كلها جدة (المؤلف) .

لقد غضبوا علينا ، لا ادري لماذا . ولكنني اعلم انهـم جمعوا رجال قريتنا واطفالها ، وساقوهم لا ادري الى ايـــــن ...

يا الهي اتضرع اليك أن ترحم قريتنا وتحفـظ رجالها واطفالهــا من كــل سوء ..

ذاك الصباح ، اقبل الــي اخي ثقيــل الخطو ، كئيب الوجه ، يمسك فى يده جريدة . وادركت للحــال انه يحمل الي انباء مزعجــة وانتابنــي شعور غريب : شعور انسان يعرف تمام المعرفة انه مقبل على كارثــة. وتملكتني رعدة باردة وخيل الي انني سأنهار عمــا قليــل . وساد السكون بعض الوقت ثم سمعته يقول:

ـ هل قرات الخبر فى الجريدة يا زهــرة ؟

ـ لا والله .. ماذا حدث ؟

ونظر الي نظرة ملؤها العطف والحنان ، واطرق براسه لحظة ، ثم رفع وجهه ، فــرايت شفتيـــــه تتحركان ، ولكن لم يستطع ان ينطق ولو حرفا واحــدا

ـ فهمت كل شيء .. قتلوه .. قل لي يـــا اخــي هل قتلـــوه ؟

ـ قتلوه . نعم قتلوه مع جماعة اخرى مـــن «الخارجين عن القانون» كما تسميهـم السلطـــات العسكريـة الفرنسية . ولكن اقسم لـك يا زهرة . يا اختي الصغيرة زهرة ، انني سانتقم له شر انتقام .

وضرب برجله الارض ، وقطب جبينه ، ثـم استدار راكضـا يصيح :

ـ سوف انتقم ، سوف انتقم .

وبلغني صوته الغضوب وهو يتناقص فى البعيد، وتبعته ببصري مدة من الوقت حتـى اختفـى تحت الاشجــار ..

الجزائـر ـ حنفـي بن عيسى

اريخ ، يؤكدون بانه فى نهاية عصر Magdalénien و Azilien, اندثر الرسم الواقعي من الكهوف ، ليحل محله رسم علامات وعروش ومجموعة من النقط ... عثر على احجار متوجة برسوم بالطين الاحمر لا تمثل شيئا ، وعلى الخصوص فى فرنسا ، فى كهوف : Mas-d'A... و Marsoula, وفى اماكن مختلفة من L'Aud ومن Cézanne العليا ، ومن L'Ariège

وهكذا يكون من الاجدى ان نبرهن على ان الفن التجريدي موجود دائما وهو متطور منذ ما قبل التاريخ الى ايامنا هذه مارينا فى بحثنا هذا على الفنون الهندسية الاسلامية والتشعبات الباروكية (*) عند كل من Gaétiques و Vikings وعلى الفنون Précolombiens, Mérovingiens والفنون الزنجية : Les Tapas وعلى الفن الشعبي ولا سيما فى بريطانيا ، السخ .

ولكن مراجع الفنون القديمة ليست مقنعة ابدا ، فلقد رانا مؤخرا بعض التجريديين يضعون الفن الغالي Gaulois فى صف اعمالهم كما لو كان هناك فن (غالي) ؟ او كان المسكوكات القديمة (الصلتية Celte) على جمالها كافية بان تمثل لنا بمفردها ذلك التعبير البلاستيكي لحضارة او لجنس ، وفى آخر الانباء ان السيد André Breton قد اكتشف فنا عربيا فيكينكيا Arabo-Viking ولا شك ايضا انه هو الذي وضع اسس الجمالية السوريالية ولما ذا لا ؟ ان كل هذه الاكتشافات لا يمكن بحال ان تكون حديثة اذ اننا سنرى ان اسماء الفنانين الاكثر دويا في سماء الفن المعاصر تكون دائما محاطة بمزيفين وبمرضى العظمة الذين يكمون فى قليل او كثير ليصموا بالشك بل بالتحطيم جميع المحاولات الطليعية الصريحة .

واذا ظهر ان الفن التجريدي جديد فليس الا لان حركته الجمالية تأخر ظهورها مدى ثلاثين سنة فى فرنسا او بالاحرى ان قبول مدرسة باريس لهذه الحركة او ان ارساء قواعدها قد تأخرت مدة ثلاثين عاما .

وبما ان باريس عادة تعتبر مركزا فنيا للعالم فانها لم تعر غبر اذن ذاهلة لكل تلك الاحداث الفنية فى روسيا والمانيا وهولاندة ، اذ انه فى نفس الوقت الذي كان فيه رسامو مدرسة باريس يبدعون التكعيبية أي حوالي سنة 1910 كان فنانون روسيون قد اكتشفوا الفن التجريدي .

ان قصة كاندينسكي معروفة حيث انه حينما كان داخلا الى مرسمه قبل سنة 1955 بقليل ، اكتشف فيه لوحة فائقة الروعة ذات اشعاع ضوئي داخلي ، اذ لم ير على قماشها غير « اشكال والوان كان محتواها غير مفهوم بالنسبة اليه » وبعد ما انتهت فترة التعجب اعترف بان هذه اللوحة بنت ريشته ، ولكنه اهملها وفى الغد كان ذلك الاشعاع قد خمد ورغم انه وضع اللوحة وضعا مقلوبا الا انه اعترف بهذا الشيء المعروض امامه لكنه امتنع عليه ان يجد نفس المتعة الجمالية التي شعر بها فى المرة السابقة وهكذا وصل اخيرا الى ان (الشيء Objet انعدم من اعماله ، ولكنه لم ينتقل الى اللاشخيصية الا بعد عشرة اعوام من هذا الاكتشاف .

كان « كاندينسكي » فى هذا الوقت فى سن الرابعة والاربعين ، ومن هنا لم تكن رسومه نتيجة باعث شبابي بل كانت خلاصة نهاية ابحاث رسام تأثري وصل الى قمة نضجه ، رسام احترف مهنة علمية جديدة الى ان صار فى سن الثلاثين .

(*) Gaétiques شعب عاش فى شواطيء المتوسط في ايطاليا و Vikings ملاحون سكندنافيون هاجموا اروبا الغربية فى القرن السادس والسابع للميلاد Mérovingiens دولة سادت على بلاد (الغال) و هذه الكلمة تطلق على امريكا Précolombiens فى الفترة السابقة لمجيء « كريستوف كولمب » (المترجم) .

نفتحها مع اعمال Mondrian ويظهر انه استوحى اصوله من التكعيبية ، اي من اكابر الرسامين الهولانديين الخالصين Puristes وفي هذا الاتجاه ، تنبأ Apollinaire بموت التكعيبية ، حينما كتب عنها سنة 1913 قائلا (*) :

« اننا نسير نحو فن كله جديد ، اذ انه سيكون بالنسبة الى الرسم — كما نوقعناه الى الآن — ما هي عليه الموسيقى بالنسبة الى الادب .

سيكون هذا الفن رسما خالصا ، كما هو الشأن في الادب والموسيقى الخالصين ، والرسامون الجدد ، سيبعثون في نفوس المعجبين بهم ابداعات فنية ، يرجع الفضل فيها فقط الى الاضواء الغبر المزدوجة »

واذا كان بعض الرسامين قد انتحل لنفسه اسم « التجريد » ولم يعط للوحاته الا اسم « رسم » فان Apollinaire قد اكد أيضا :

« ان رسم هؤلاء فن بلاستيكي كله جديد ، وليس هو الآن الا في البداية ، اذ انه لا زال لم يصل الى ان يكون تجريدا كما يجب ان يكون »

ويحكي Apollinaire في كتابه عن الرسامين التكعيبيين تاريخ انشاء اللوحات التجريدية ، معيدا كتابة ما وجد قبله عند Pline (*) كان Apelle يجتاز جزيرة « رودس » لكي يطلع على رسم (*) Protogène الذي كان يسكن فيها ، وكان هذا الاخير غائبا عن مرسمه اثناء زيارة الاول له . وكانت هناك عجوز تحرس لوحة توشك على الانتهاء ، وعوضا عن ان يترك Apelle اسمه ، فانه خط على اللوحة سطرا غير واضح ، لدرجة انه لا يمكن معرفة صاحبه .

« وحينما عاد Protogène ولاحظ هذا الخط عرفه فيه Apelle وخط على هذا الخط اخر بلون مغاير ، لكن بدقة كثيرة ، وعلى هذا ، بدا أن هناك خطوطا ثلاثة .

« ورجع Apelle في الغد من غير ان يجد الرسام ، ولكن دقة الخط الذي رسمه في هذا اليوم ، ايأست Protogène وكان ان اثارت هذه اللوحة الاعجاب زمنا طويلا ، اذ ان الناس كانوا ينظرون اليها بلذة زائدة ، لدرجة انهم بدلا من ان يروا فيها خطوطا تكاد تكون لا مرئية ، فانهم راوا انها تشخص الآلهة » .

وعلى هذا ، فالفن التجريدي كما راينا ، ليس فنا جديدا (*) ، اذ ان المؤرخين المختصين في فترة ما قبل

(*) Les peintres cubistes (Genève, 1950) (المؤلف)

(*) Apelle رسام اغريقي ولد في Ephèse وعاش في بلاط الاسكندر الاكبر في القرن الرابع قبل الميلاد ، ولعله اول من عرض رسومه على الجمهور . (المترجم)

(*) رسام اغريقي ، عاش في عصر الاسكندر الاكبر (المترجم) .

(*) فهناك اسطورة صينية نجد فيها ان امبراطورا طلب من أكبر رسامي الامبراطورية السماوية ان يرسم له احسن واعظم « تنين » لم يرسم مثله قط فانكب الرسام على عمله في سرية مطلقة واستمر اعواما ، واخيرا اتى الامبراطور ليظهر اعجابه بعمل الرسام ولكنه بهت عند ما لم يجد غير خطوط زخرفية Arabesque فصاح فيه : « كيف تجعلني انتظر سنين طوالا واخيرا لا تريني غير هذا ؟ فالقى اكبر رسامي الصين في السجن لانه خدع الملك .

لكن الامبراطور بعد تفتيشه لمرسوم الرسام، وجد مئات الرسوم التي تمثل « التنين » من اشكال واقعية له ، الى تصميمات فقط وكان الامبراطور ذكيا (وهذا شيء يحدث) ، فعرف ان ابحاث الرسام انتهت في الاخير الى نوع من التجريد لصورة « التنين » فخرج من السجن ، واغدقت عليه مظاهر الشرف .

ثم ان بعض شخوص القصص يظهر انهم غير واضحين حتى في مخيلة الكتاب الذين جعلوا منهم ابطالا لقصصهم كبطل قصة اميلا زولا : « العمل» اليس هو الرسام الفاشل الذي تخيله الكاتب اذ كان يقصد الرسام Garonne (رسام انطباعي فرنسي 1906 / 1839) حينما تحدث عن « كلود » .

وكذلك Frenhofer بطل « بالزاك » الذي بسبب عبقريته استطاع ان يرسم لوحة لم يستطع بالزاك ان يعطيها اسما حيث اعتقد انها فاشلة غير لوحة Kandinsky ولبست هي حتى قبل تجريدية ، اذ يذكر على لسان « كلود » هذا :

« انني لا ارى في هذه اللوحة ، غير الوان متراكمة بغموض ومضمومة الى آلاف من الخطوط العجيبة التي تكون سياجا من الرسم »(المؤلف).

و ـار كل من «تاتلان» و «ماليفيتش» مغمورين في ر ـسيا حيث لانعرف عنهما اكثر من ان هذا الاخير مـ ـ سنة 1935 واوصى بان يدفن على الارض مباشرة ر ـاه متمددتان على شكل صليب ، اما كاندينسكي و هب الى المانيا .

وباستثناء «فرانزمارك» و «اوغيت ماك» اللذين . . في الحرب فان المانيا صارت بعد روسيا مركزا للابحاث الجمالية التجريدية فبين سنة 1920 و 1930 صار كل من المهندس المعماري Walter Gropius والرسامين Feininger و Klee وكاندينسكي و Moholy-Nagy اساتذة لجيل متحمس من الرسامين والمناظر بين Décorateurs والنحاتين .

والحق ان جميع اقتباسات الفن التجريدي من فنية الحضارة العصرية كانت قد نضجت في مدرسة Bauhaus على يد هؤلاء الاساتذة فقد رسمت بها رسوم زجاجية تجريدية تحت ارادة « كلي » ورسوم تجريدية على الثياب تحت اشراف Much كما استعمل «موهولي ناجي» الشفافية الزجاجية لمنحوتاته بل ان هناك بعض اشرطة تجريدية (*) وبعض رقصات (للباليه) ايضا بل حتى النجوم الصناعية كانت تجريدية مستوحاة من عادات صينية قديمة .

ومع الاسف فالحركة التجريدية التي وجدت نفسها للمرة الثانية في تفتح كامل اعتبرت ايضا حركة خطيرة وهكذا شرد الرسامون الطليعيون في المانيا وعلى الخصوص حين انتصرت النازية فيها فاغلقت ابواب بوهوس وتشردت العناصر العاملة فيه موزعة على بلاد اخرى : اذ ذهب كل من « فبنانجر » و « كروبيوس » و « موهولي ناجي» الى امريكا حيث كان «مكدونال رايت» و « مورغان روسل » اللذان تأثرا في باريس بـ «دولوناي» سنة 1913 فادخلوا اليها الفن التجريدي ثم التجأ « كلي » الى سويسرا وذهب « كاندينسكي » الى باريس في بداية سنة 1933 واستقر وحيدا في شارع Neuilly

وهكذا كان هذا التوزيع اللامنظم لاعلام التجريد في البلدان المختلفة عاملا تسبب مرة اخرى في تاخير انتصار هذه الحركة الجمالية او على الاقل في تأخير انتصارها في باريس لان الفن التجريدي كان قد عرف انتصارين اولهما في روسيا وثانيهما في المانيا ولم يصل الى باريس الا كفن اجنبي مطارد خصوصا وانها استفادت من هذا اللجوء ولولا الاضطهادات النازية لكان من المؤكد تقريبا ان يكون مركز الخلق الفني اليوم في المانيا .

واخيرا ظهرت في باريس مجلة : « دائرة ومربع » سنة 1930 ونظمت معرضا للفن التجريدي تحت نفس الاسم ومن سنة 1931 الى سنة 1937 اسس جميع الرسامين التجريديين جمعية « الابداع التجريدي » حيث نشروا لهم سجلا سنويا يضم اعمالهم ولقد وصل عدد الاعضاء الى اربعمائة كان نصفهم يعيش في باريس وكان كل من « أوميلا » و « هربان » و « شارشون » وغيرهم يعدون من بين الرسامين التجريديين الاكثر دلالة على الجيل الجديد .

ومرة اخرى ايضا توقف نشاط هذه الحركة من سنة 1939 الى سنة 1944 وهكذا شردت للمرة الثانية اضطهادات جديدة هذه المدرسة التي اخذت تنمو في باريس .

فاس : محمد السرغيني

(*) انتج Survage سنة 1913 و 1914 ايقاعات ملونة للسينما ، وانتج Richter اشرطة تجريدية سنة 1920 واستفاد «والت ديزني» من هذه التجارب لاخراج بعض اللقطات من شريط « فانتازيا » وتبعه بعد ذلك كثير من منتجي الاشرطة الدعائية . (المؤلف)

وهكذا فمن العادي جعل كاندينسكي ابا للرسم التجريدي ولكن بعض النقاد اذ يعترفون له بهذه الابوة يذكرون رسامين روسيين آخرين الى جانبه ، غيـر انهما ليسا معروفين فى فرنسا وهما : Tchurlianis و Mansouraf, اللذان كانا قـد رسمـا لوحـات تجريدية قبل كاندينسكي والحقيقة ان هذه الخلافات ليست لها اهمية اذ هي تشيـر فقط الى ان خطـوات كاندينسكي لم تكن خطوات انسان وحيد وتبرهن على ان اكتشافه (او بالاصح اكتشافه المعاد اذا فكرنا في قصة Apelle و Protogène, انما عبر عن رغبـة جماعيـة .

وفى سنـة 1913 رسـم الروسـي Malévitch مربعه الاسود الجميل على سطح ابيض وعرض مواطنه Tatlin اوائل رسومه الناشئة ، وفى نفس السنة صار الرسام الهولندي Piet Mondrian رساما تجريديا وتبعه بعد عامين من هـذا التاريـخ Van Doesburg وفى سنـة 1913 ايضا انتقـل الرسامـان الالمانيـان August Mack, Franz Marc الى حظيرة الفن التجريدي

وفى العام التالـي عـرض (ابولينير) فى باريـس الاعمال التجريديـة لكـل من الرسامين الروسيين . Larionov و Gontcharova, هاتـه الاعمـال التـي رسمت فيما بيـن سنتي 1909 و 1911 تحت اسـم الاشعاعية واعتبر انـه حصـل على اكتشاف جمالـي رائع . وفى سنة 1916 التقت الرسامة Sophie Tourber بالرسـام Arpe في « زريـخ » فى معـرض لهمـا تحت عنـوان (الـداديـة) ، ثـم اعتنقـا مبدأ الجمالية التجريدية بعد ذلك بقليل .

ولقد رسم الفرنسي Delounay ابتداء مـن سنة 1912 ابقاعاته المتحركة الاولى وفى السنة التـي تلت هاتـه وضعت زوجته Lonia رسـوما ذات ايقاع تجريدي لكتـاب : « نثر الترانسيبيريان » (*) ثم دشن (ابولينير) الذي يسعى دائما لوضع البطاقات على كل ما هو جديد ـ اولى البحوث التجريدية التـي قام بها الرسامون الفرنسيون تحت اسم : «الاورفية» (*) ووضع كذلك تحت هذا العنوان رسـوم Kupka التركيبية ، تلك التي استعارت « الاسلوب العصري » الذي يبحث عن انسجام بين الرسم والموسيقى ، بين الاصوات والالوان .

* * *

وعلى كل حال فالفن التجريدي وجد اذن قبـل سنة 1918 اعلامـه وقوانينه الخاصـة ، بـل حتـى استمراريته في بعض الوجوه حيث كان Van Doesburg قد وضح بمهارة كيف وصـل التجريـد الى اشكـال خالصة حين رسم بقرة رسما تجريديا منهاجيا ، ثـم ان (موندريان) بلور فنه فى الصليب كما فعل النحـات Braucusi حيـن بلـور منحوتاتـه فى اشكـال بيضاوية ولقد نشرت مجلة « الاسلـوب » التي كانت تصـدر تحت اشـراف كـل مـن Van Doesburg و «موندريان» كل النظريات الجماليـة لهـذه المدرسة الجديـدة ولم تنقطـع عـن الظهـور الا بعـد مـوت « فان دويسبرغ » سنة 1931 .

اذن فكيف امكن لحركة خصبة مثـل هـذه ان تبقى مجهولة عند اكثر الناس حوالي نصف قـرن ؟ ؟

الحق ان الفن التجريدي كان ناقصا بالنسبة الى الفن التكعيبي الذي عاصره حيث انه كان حركة متفرقة غيـر مجتمعـه .

فبعد الثورة الروسية ابتدع الروس التجريـد كما كان لهم الفضل فى ابتداع جميع الحركات الطلائعية ولهذا اعتبر الغرب ابداعهم فنا بلشفيا ، فلم يقبل عليه وايضا فبما ان تكعيبية «بـراك» (*) وبيكاسـو قـد انتصرت فى باريس فان الفن التجريدي لم يجد فيهـا مكانا فتنحى عنهـا .

ولكـن الاتحاد السوفياتي اطرى بعد هذا بقليل فنـا حكائيـا Anecdotique لسهولة قبوله من لدن الجماهير واصلاحيته للدعاية وهكذا سكت بعـض الرسامين او هاجروا روسيا اما لاريونوف وكوتشاروفا فقد استمرا يرسمان المناظر « لباليه » Diaghilev

---

(*) مذهب فى الرسم والادب يعتبر منبعا للسوريالية نسبة الى مبتدعه Dada فى سويسرا . (المترجم).

(*) تطلق هذه الكلمة على مناطق ما وراء «سيبريا» (المترجم) .

(*) نسبة الـى Orphée وهي اسطورة قديمة ، نسج عليها كثير من الكتاب المعاصرين قصصا معرفة فاورفي (جان كوكتو) . (المترجم)

(*) جورج براك رسام تكعيبي فرنسي ، ولد سنة 1882 (المترجم)

ا.نيسكو . وبدون مغالاة فان ما كتبه عبد الرحمن بدوي مليء بالاخطاء والمغالطات ، وهو ما لم نعهده من جانة قدير مثله .

وموضوع ادب « اللامعقول » او « الرواية الجديدة » ا. « الادب الموضوعي » تيار صاعد في اوروبا ، له نفس الامكانيات والآفاق التي كانت للرومانسية او السريالية او الواقعية من قبل .. ومن ثمة يتحتم على نقادنا الذين يريدون التعريف بهذا المذهب الجديدودراسته ان يفعلوا ذلك في كثير من الدقة واليقظة ، مدركين لمسؤولياتهم في التطعيم والتشذيب والتوجيه .. ومن التعسف مصادرة اتجاه ما بعد تشويهه .. بل يجب ان نكون اولا امناء مخلصين في التعريف به ثم تبقى بعد ذلك حرية المناقشة والرفض او القبول .

ومن الافكار التي جاءت في مقال الدكتور بدوي والتي نريد ان نجعل من مناقشتها مدخلا لتلخيص بعض اسس هذه المدرسة الادبية ، قوله :

« من العجب ان فرنسا ــ بلد العقل المتميز ــ قد صارت الآن موطن اللامعقول » ..

ان اطلاق « صفة غالبة » على امة ما لم يعد أمرا مقبولا يتناسب مع التطورات والمعقدات الحضارية التي ارتادتها جميع الشعوب في القرن العشرين .. وفرنسا بالذات لا يجوز وصفها بالعقل الواضح لانها كانت سباقة في حركات التجديد الفكرى ، تقلبت في اكثر من طقس ، وارتدت أكثر من زي .. وكان الحد الفاصل لها عن اطمئنانها « العقلي الواضح » هو انهيار المذهب « الانساني الغربي » L'humanisme occidental بعد الحرب العالمية الثانية .. ولعل جان بول سارتر كان أول من احسن استغلال نضوج « الاستياء العام » ضد الفكر البورجوازى .. ذلك التمرد الذى مهد له حيل اندريه جيد ، وفاليرى ، وجان غيهنو ، واضرابهم .. فاتى سارتر ليفلسف هذا الرفض ، وليسجل التناقضات التي تعوق عن ادراك حقيقي للعالم استنادا على الوسائل الايديولوجية التقليدية .. واستطاع البير كامو ان يعكس بحساسيته الفنية ، تدنيسه المجتمع ومفارقاته ، وان يمزج التهليلية بالامل ..

من أجل ذلك فان حكم الدكتور بدوي بعيد عن الحقيقة ، واصح منه حكم ناقدين فرنسيين : (*)

« ان رفض الواقع هو ــ فيما يخيل الينا الميزة الاساسية للثقافة الفرنسية المعاصرة ، وطبيعي ان هذا الرفض ملتصق بحركة ايديولوجية عامة تظهر ذات دلالة قوية خصوصا في الرسم والادب ، ثم تغدو آخر الامر طابعة لكل مجالات الثقافة »

ودون اتباع المنهج التاريخي ، فاننا سنكتفي بابراز أهم سمات ادب اللامعقول متغاضين عن تمهيدات كافكا وجويس ، وفرجينيا وولف .. ولكن لابد من الاشارة الى المحاولة الرائدة التي قامت بها نتالي ساروت وبلا نشو وهنري توماس عند ما شعروا باستحالة استخدام « اللغة » للتعبير عن « الحقيقة » .. وبذلك اضافوا البعد الجديد « اللا روائي » Anti-romanesque وتتابعت الروايات المستلهمة من نفس النبع ، فكتب الان روب كريبه Les gommes وكلود سيمون « الغشاش » Le tricheur ثم روايات بيكيت واونيسكو . الا ان هذا الاتجاه الموضوعي او اللا معقولي في الادب . لم يفرض نفسه خلال مدة قصيرة بل استمر من الحرب الثانية الى سنة 1954 قبل أن يلفت اليه الانصار ويفرض نفسه على الجمهور الذي كان متعودا على روايات ومسرحيات « الارضاء » Assouvissement ففي سنة 1954 كتب الناقد رولاند بارت مقالا طويلا بعنوان « ادب موضوعي » ضمنه اسس هذه المدرسة الادبية ، وابان عن آفاقها ومطامحها .. وبعد ذلك تتابعت الدراسات ، واهتمت الاوساط الادبية برواد الرواية الجديدة فخصصت لهم مجلة Esprit عدد يوليو 1958 ، وناقشت معظم المجلات هذا الاتجاه على نطاق واسع ..

واعتمادا على هذه الدراسات سنحاول فيما يلي تلخيص اهم اسس مدرسة « الرواية الجديدة » او اللامعقول ، متوخين الاختصار بقدر ما يسمح المجال :

1) العنصر الاول عند مدرسة الرواية الجديدة هو التمرد على « المواضعات » الشكلية والمضمونية لحصيلة التجربة الروائية والمسرحية .. فالعالم لم يعد كما كان بعد ما لفته موجات التغير والتخلخل في كل المجالات ، ومن ثم فان التكنيك البلزاكي مثلا اصبح عاجزا عن رسم صورة مطابقة للتعقيدات الجانبية الطارئة .. ذلك ان التحليل النفساني البلزاكي يعطي شخصية « ثابتة » بينما لم يعد بالامكان العثور على صورة مزيفة للاشخاص ، لانه يحرص على نسج خيوط

(*) Partisans - Février 1962 - Le nouveau roman et le refus du réel - Claude Burgelin, Georges Pérel

اصداء الثقافة والفكر

للأستاذ : محمد برادة

موجة اللامعقول والآدب الغربي

حتم على الحركة الادبية فى اي قطر من الاقطار ان تتماس بباقي التيارات الادبية والفكرية فى الخارج .. فالكاتب الذي قال منذ امد طويل ان « العالم اصبح ضيقا » محق الى ابعد حد .. ذلك ان توفر الاتصالات الوثيقة بين مختلف الامم قد ضمن « التصادي » بينها سواء فى مجالات السياسة او الاقتصاد او الفن ، ومن ثم اصبحت عملية التأثر والتأثير عنصرا أساسيا في تطوير النتاج الفني ، وبلورة الحضارة الحديثة واذا كانت أروبا من قبل تلعب دائما دور الاستاذ ، وتنشر أفكارها وآدابها موقنة بتقدمها فان التطورات الاخيرة قد عدلت الوضع ، وافسحت المجال أمام جميع الشعوب على قدم المساواه ، كما لاحظ ذلك « جان دوفينيو » اذ قال :

« ان التقاء ثقافتنا بثقافات الشعوب الاجنبية ، والشعوب المسماة « متخلفة » يفرض اختفاء « مراكز الثقافة » فلن تعود اثينا ، وبيزنطة ، وباريس ، هي مراكز تكوين القيم التعبيرية ، بل سيصبح ذلك ممكنا فى جميع نقط التيار العالمي » .

على هذا الاساس يمكن ان نعتبر « موجة ادب اللا معقول » التي هبت على الادب العربي الحديث « معقولة » لها ما يبررها ..

فمنذ بضعة شهور قدم المسرح القومي بالقاهرة مجموعة مسرحيات لكل من اونيسكو وبكيت ، وكتبت عدة مقالات عن مسرح اللا معقول .. ثم اخرج توفيق الحكيم « يا طالع الشجرة » فجاءت نغما متناسقا مع الحان هذه الجوقة .. وفى المقدمة التي صدر بها الحكيم مسرحيته قال : فقد اتجه هذا الفن الحديث الى تعميق منطقة هذا الشيء الخفي ، وكانت وسيلته التجرد اولا من المعنى والمنطق ، فاصبح التصوير مجرد بقع لونية ، والنحت بقع كتلية ، والموسيقى بقع صوتية ، والشعر بقع لفظية .. » (*)

وطبعا فان هذا التصنيف التعميمي بعيدا جدا عن حقيقة نشوء هذه الاتجاهات واصولها . وانا متفق هنا مع الدكتور لويس عوض فى ان المقدمة التي كتبها الحكيم لا تتوفر على قيمة معينة ، لانها تعرضت « فى خفة وربما فى سذاجة لاخطر الاتجاهات » (*) .

وفى رايي ان المقالة التي كتبها الدكتور عبد الرحمن بدوي عن « كارثة اللامعقول » (*) تفتقر أيضا الى العمق وتتصف بالعجلة والتعميم فى الاحكام .. فهو يقول فى مطلع مقاله :

« من العجب أن فرنسا ــ بلد العقل الواضح المتميز ــ قد صارت الآن موطن اللا معقول فى المسرح على اقل تقدير . لكن هذا العجب يزول ، وتظل فرنسا مخلصة حقا لروح فيلسوفها الاكبر ديكارت ، اذا ما عرفنا ان دعاة اللامعقول كلهم من الطارئين على فرنسا وليسوا فرنسيين حقيقيين ... »

ويمضي فى مقاله معتمدا على ما كتبه لوباسكو معتبرا اياه فيلسوف اللامعقول ، وعلى مسرحيات

---

*) Jean Duvignaud - Pour entrer dans le XXe siecle - Grasset

*) يا طالع الشجرة ص 9 .

*) الاهرام ــ عدد الجمعة . د . لويس عوض .

*) المجلة ــ مارس 1963 ــ ص 8 .

أنباء ثقافية

* في منتصف الشهر الماضي اقامت كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط موسما ثقافيا القيت فيه عدة محاضرات في مختلف انواع المعرفة .

* نظم بمدينة تازة موسم ثقافي واجتماعي تحت شعار « النهوض بالثقافة الشعبية » وقد سجل الموسم نجاحا كبيرا .

* سيصدر للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله كتاب يبحث دور المرأة المغربية السياسي والعلمي والادبي في التاريـــخ .

* سننشر للاستاذ محمد السرغيني احد كتاب مجلتنا لطبع اول قصة طويلة له بعنوان « ايها الضياع » ترجو المجلة للاخ كامل التوفيق والنجاح .

* عقد في الجزائر خلال هذا الشهر الدورة الثانية لمؤتمر أطباء العرب .

* سينعقد في الخريف المقبل في الجزائر المؤتمر الثقافي الذي نظمته الجامعة العربية طبقا للمقررات التي اتخذتها اللجنة الثقافية ، ومن بين المسائل المدرجة في جدول أعمال المؤتمر تنظيم برامج الامتحانات المدرسية وبناء مكتبة جامعية جديدة لتعويض المكتبة التي فوضتها منظمة الجيش السري الارهابية في الجزائر وتأسيس خمس مطابع عربية بها لطبع الكتب المدرسية وتكوين عمال المطابع الماهرين .

وقد دعت اللجنة الثقافية سائر البلدان العربية الى فتح الاعتمادات الضرورية لطبع الكتب المدرسية التي توجه الى المدارس الجزائرية التحضيرية والابتدائية خلال السنين الثلاث المقبلة في انتظار اعداد المطابع المذكورة ، وقد تم تشكيل لجنة لهذا الفرض برئاسة السيد عبد الخالق حسونة الامين العام للجامعة العربية ، وكانت اللجنة قد أوصت أيضا بانشاء مدارس ثانوية لترشيح المعلمين في الجزائر .

* عقد في أواخر الشهر الماضي بالجزائر مؤتمر الشبيبة العالمي ضد الاستعمار ، وقد تقرر تنظيم هذا المؤتمر أثناء مؤتمر باندونغ الذي انعقد في سنة 1955 ، ويعتبر هذا المهرجان أول مظاهرة دولية من هذا النوع في الجزائر واشتركت فيه تمانون منظمة مثلها 120 الى 130 مندوبا من خمسين بلدا من بلدان افريقيـــــا .

* تعرض في مسارح باريس مسرحية جديـــدة اسمها « المراة المقدسة » للكاتب الجزائري كاتب ياسين تدور حوادثها عن الثورة الجزائرية .

* توفي في تونس العلامة الشيخ محمد المكي ابن الحسين وهو شقيق الفقيد شيخ جامع الازهر سابقا .

* صدر بتونس عن الشركة القوميـة للنشـر والتوزيع كتاب « التقاليد والعادات الشعبية والفلكلور التونسي » لمؤلفه عثمان الكعاك .

* تعد وداد سكاكيني كتابا جديدا في الدراسات والنقد الادبي ، وتهيء للطبع مجموعة قصصية .

* تطبع دار المعارف بمصر كتاب الدكتور زكي المحاسني « أبو العلا ناقد المجتمع » .

* أصدر الاستاذ سامي الباقي الفلسطيني الاصل كتابا عن الحضارة الانسانية بين الشرق والغرب في عشـرة قـرون .

* وضع مجلس الفنون والآداب بالقاهرة كتابـــا عن الادوار التي قامت بها اشهر نساء مصر في التاريخ ، وهي : هدى شعراوي ، مي زيادة ، باحثة البادية ، ملك حفني ناصف ، المؤرخة زينب فواز ، عائشـــة التيمورية ، شجرة الدر .

* تعكف الدكتورة كوثر عبد السلام ، مترجمة كتاب « الطاعون » لكامو ، على كتابة رواية تاريخيـة وطنيـة عن شهـداء « ديرمواس » في حادث القطار المعروف في ثورة 1919 .

* « شموع وظلال » كتاب لمؤلفه طاهر شريف صدر مؤخرا بالقاهرة .

شخصية « جامدة » متمسكة حتى النهاية بمبادئها الاولية .. واذن فان العالم الروائي المثقل بالاوصاف الجاهزة ، والعبارات التقليدية ، يجب ان ينزع عنه تلك الغشاوات ليتمكن من ادراك الحقائق الجديدة (*)

2) مهمة الروائي الجديد هي « رؤية العالم » دون محاولة جعله ذا معنى .. اي الاقتصار على تشريحه في برودة تامة دون الاضفاء عليه من الخيال افكارا لا ينطق بها . وفي هذا الصدد يقول كلود سيمون : «يخيل الي ان هذا العالم اذا كان يعني شيئا فهو يعني لا شيء » ..

3) تسوية الانسان بالاشياء .. فالحرص على تصوير « الواقع » يفرض ان نضع الكائنات البشرية في مستوى واحد مع الاشياء ، واعتبار الانسان حضورا محضا ، « متشيئا » نستطيع فقط ان نصف مظهره غير المفهوم .. وقد عبرت ناتالي ساروت عن هذه الفكرة في مناقشة ادبية قائلة : « يبدو لي ان في الرواية الجديدة نوعا من التحويل لمركز الثقل فان الاشخاص والحبكة تهمنا اقل من ذي قبل .. » (*)

ووراء كل هذه العناصر ، هناك ارضية اساسية يصدر عنها جميع الروائيين الجدد قوامها رؤية قلقة للعالم .. الكون سديمي جامد ، وشرطنا : العبث الميتافيزيقي « نحن غاطسون في خلود من العدم .. نحن فقاقيع تتلاشى بعضها اثر البعض على سطح مستنقع وحل ، وفي ضجيج رخو ندعوه الوجود .. »

فهل ادب اللا معقول مجرد محاولة « لبعث نظرية الفن للفن التي كان الجيل الماضي من الادباء يظن انه قد دفنها الى الابد » (*) ؟ ام انه اتجاه اصيل نابع من وضع حضاري خاص ، اسهم في ايجاد حل لازمة الرواية التي بدأت ترزح تحت تزييفات « اللفظية والمبالغة ؟

الواقع اننا لا نستطيع الوصول الى جواب حاسم عن هذه الاسئلة .. ولكن ما ذهبت اليه السيدة عايدة مطرجي خال من كل انصاف ودقة .. لان كتاب الرواية الجديدة يؤدون رسالتهم باصرار وادراك تام للشهادة التي يسجلونها عن مجتمعهم .. ورغم ان ادب اللامعقول يتغذى بالعبث ، وينغمس في القلق ، ويضع العالم بين قوسين محاولا اخراجه عن « الزمانية » .. فان اسس « الرفضية » التي قام عليها تبعث على الاعتقاد بان « العبثية » مرحلة اولى ستتلوها مرحلة الايجابية . ويقوي هذا الاعتقاد ان معظم الروائيين الجدد قد شاركوا في توقيع بيان 121 اديبا .. وهو موقف سياسي جريء ينم عن تجاوبهم مع اتجاه التاريخ ..

والادب — قبل كل شيء — حقل للتجارب والابداع شريطة ان يقترن بالصدق وبالاخلاص ...

الرباط : محمد برادة

---

*) لايمكن ان ننسى في هذا المجال رواية « الغثيان » لجان بول سارتر .. فهي تمثل ثورة على التكنيك الروائي المألوف .. وان كانت مدرسة الرواية الجديدة لا تعترف بانتساب سارتر اليها لانه يهتم بالمعنى ، ويحرص دوما على اعطاء العالم معنى .

*) الآداب — مارس 1963 ص 92 .

*) Partisans - Maurice Nadeau, p. 115

*) عايدة مطرجي — الاداب مارس 1963 ص 66 .

* « أصوات وراء الحدود » دراسات أدبية في الشعر والأدب تأليف جورج غانم ، يصدر هذا الكتاب ببيروت .

* « اللقمة الأخيرة » رواية جديدة ليوسف يونس ستظهر قريبا في بيروت .

* صدر في بيروت كتاب « رفة جناح » للفقيد اسكندر حريق ، قامت بجمعه السيدة قرينته بمناسبة الذكرى الأولى لوفاته .

* صدرت أخيرا ببيروت الترجمة العربية الكاملة لرائعة ديكنز الشهيرة « الفرتويست » عن دار العلم للملايين .

* صدر في بيروت كتاب « من أرض الفهد في افريقيا السوداء » لمؤلفها عبد الله حشيمه .

* الكتب الآتية صدرت أخيرا في بيروت :
« فونتمارا » رواية للقاص الايطالي سيلوني ترجمه عيسى الناعوري « صلوات الريح » ديوان لخليل خوري « رجال في الشمس » لغسان كنفاني « حين فقدنا الرضا » لسميرة عزام « شارع السردين المعلب » ترجمة منير البعلبكي « طريق التبغ » ترجمه منير البعلبكي « معذبو الأرض » تأليف فرانز فانون ترجمة الدكتور سامي الدروبي .

* دفع الدكتور علي شلق الى المطبعة كتابه الضخم الذي يشتمل على دراسة شاملة عن أبي نواس بعنوان « أبو نواس بين التخطي والالتزام » ويقع في مجلدين .

* « الجماليات والأنواع الأدبية » اسم كتاب من تأليف ميشال عاصي صدر مؤخرا في بيروت .

* « القلة في الشعر العربي قديما وحديثا » عنوان كتاب صدر في بيروت للدكتور علي شلق وهو حلقة من ثلاث يتبعه « العيون في الشعر العربي » ثم « القوام في الشعر العربي » .

* انتهى الدكتور كمال صليبا استاذ التاريخ في الجامعة الامريكية ببيروت من تأليف كتاب بعنوان « تاريخ لبنان الحديث » .

* « في ركاب السحر » كتاب عن الجمالية النظرية والتطبيقية أعده للطبع جان كميد رئيس تحرير مجلة « الرسالة البيروتية » .

* نعت الجامعة الامريكية في بيروت وجمعية متخرجيها أميل البستاني أحد أمناء الجامعة ، ورئيس جمعية المتخرجين .

* « قصائد مختارة » من شعر يوسف الخال جمعها وقدم لها ادونيس ، صدرت عن دار مجلة « شعر » ببيروت .

* صدر للدكتور منذور الدقاق كتاب « قصة القرصنة » في اخراج أنيق ولوحات ملونة .

* « المقامات » كتاب جديد صدر في دمشق للدكتور عبد السلام العجيلي وهو من أدب السخرية .

* أعلنت جامعة بغداد عن افتتاح معهد الدراسات الاسلامية العليا الذي أسس لاعداد حملة الدبلوم والدكتوراه في الدراسات الاسلامية .

* صدر في السعودية كتاب « تاريخ الحركة الأدبية في الخليج العربي » لمؤلفه محمد سعيد المسلم بمقدمة العلامة الشيخ محمد الجاسر عضو المجمع اللغوي .

* صدرت في الرياض مجموعة قصصية بعنوان « عرق وطين » لمؤلفها عبد الرحمن الشاعر .

* « بنت الجزيرة العربية » قصة من صميم الواقع السعودي صدرت حديثا في الرياض لمؤلفتها الكاتبة سميرة .

* سيفتتح في الكويت في أول السنة الدراسية أول معهد للتمثيل .

* قررت وزارة الحج والأوقاف السعودية افتتاح مكتب للاعلام والنشر يقوم بالترجمة لزائري المملكة من الحجيج وغيرهم .

* أصدر وزير العمل والشؤون الاجتماعية السعودية قرارا بانشاء ادارة عامة للفنون الشعبية تعنى بالتمثيل والموسيقى بأنواعها .

* « حياة جائعة » مجموعة قصص تأليف عبد الله عبد الرحمن خعري ، قدم لها محمد عمر توفيق ، صدرت قريبا عن دار الاصفهاني بجدة .

* تم التوقيع في الرياض على الاتفاقية الثقافية والفنية بين المملكة السعودية وفرنسا .

* ستصدر الرابطة الاسلامية بمكة المكرمة مجلة شهرية تعنى بشؤون المسلمين وقضاياهم .

* أعدت الأديبة السعودية ثريا قابل مجموعة شعرية للطبع ستصدر قريبا .

* اقيم بالقاهرة مهرجان تأبين للمرحوم احمد لطفي السيد تكلم فيه الدكتور طه حسين ، وعباس العقاد ، وكامل حسين ، وابراهيم مدكور ، وعبد الحميد بدوي ، وعلي عبد الرزاق .

* اعد مجلس الفنون بالقاهرة معجم جديد لمصطلحات الفلسفة .

* صدر في القاهرة كتاب « بهجة المجالس » لابن عبد البر القرطبي بتحقيق محمد مرسي الخولي ومراجعة عبد القادر القط .

* الف عبد الحميد جودة السحار رواية «السهول البيض » تدور عن معركة بور سعيد .

* تقوم لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الاعلى للفنون بالقاهرة التي يرأسها المؤرخ عبد الرحمن الرفاعي بوضع مؤلفين اولهما عن تاريخ الاستعمار الاوربي في افريقيا منذ الكشوف البرتغالية حتى الآن والآخر عن تطور القارة الافريقية ونهضتها الحديثة .

* صدر حديثا في السعودية كتاب « امراء المدينة وحكامها من عهد النبوة حتى اليوم » وكتاب « السر الموصول الى آثار الرسول عليه الصلاة والسلام » وهما من تأليف العالم الفقيد احمد ياسين الخياري الذي توفى بالمدينة المنورة منذ عامين وخلف عددا من المخطوطات الادبية والتاريخية القيمة .

* اجتمع اخيرا بالقاهرة وزراء التربية والتعليم للدولة الاتحادية بأقطارها الثلاثة تبحث أسس الوحدة الثقافية وتوحيد برامج التعليم في الجمهورية المتحدة .

* صدرت اخيرا عن دار المعارف بالقاهرة الطبعة الثلاثون لكتاب « الايام » لطه حسين .

* ترجم الدكتور مجدي وهبه الى الانجليزية قصة « ابراهيم المازني » .

* « ابن عبد الحكيم : رائد المؤرخين العرب » كتاب صدر في القاهرة لمؤلفه ابراهيم العدوى .

* اقامت رابطة الادب الحديث بالقاهرة حفلة تأبين للاديب المهجري عبد المسيح حداد ، اشترك فيها: الدكتور محمد مندور ، وروديع فلسطين ، ومصطفى السحرتي ، ومحمد عبد الغني حسن ، ومحمد الشرقاوي وكامل السوافري ، ومحمد عبد المنعم خفاجي ، واسعد حسن .

* تم طبع الجزء الخامس من « تجريد الاغاني » بتحقيق طه حسين وابراهيم الابياري .

* صدر في القاهرة كتاب « مصر وافريقيا - العصر الحديث » لعلي ابراهيم عبده .

* يقوم الاستاذ انور كامل بترجمة مسرحية « الايام السعيدة » لبيكت .

* توفي في لندن العالم القانوني المصري الدكتور انيس صبري بعد عملية جراحية اجريت له ، والفقيد استاذ لاجيال عديدة في مصر والوطن العربي من رجال القانون .

* عقد بالقاهرة في منتصف شهر ماي المؤتمر العربي الخامس للمواصلات اللاسلكية بحضور وفود من مصر وسوريا والعراق ولبنان واليمن والكويت والاردن والعربية السعودية وليبيا والمغرب والجزائر وتونس . وبحث المؤتمر عدة قضايا من بينها تحسين طرق المواصلات بين الدول العربية ومعالجة الاتفاق المبرم سنة 1959 بين الاتحاد العربي للمواصلات السلكية واللاسلكية .

* ستقوم دار المعارف ببيروت بطبع كتاب « اساطير ملهمة » للدكتور زكي المحاسني وهي مقطوعات من شعر المحاسني في الاساطير الاغريقية وفلسفتها والتأمل بها .

* ترجم الكاتب السوري حسيب الكيالي الى العربية كتاب « ارض الرجال » للكاتب الفرنسي انطوان دي سانت اكزوبيري وستصدره منشورات عويدات ببيروت .

* « تحت راية الحق » كتاب ادبي يتناول ادب المهجر عموما . سيصدر قريبا لمؤلفه راجي ظاهر .

* صدر في بيروت كتاب « التنشئة الوطنية الانسانية » الذي تولى اعداده قادة الجيش اللبناني مع لفيف من رجال الفكر والتعليم في لبنان .

* « غابة الزيتون » مجموعة للشاعر فؤاد الخشن صدرت في بيروت .

* اتفق احمد عويدات صاحب منشورات عويدات ببيروت مع فريد داغر وفؤاد ريحان على ترجمة الموسوعة التاريخية الكبرى « التاريخ العام للحضارات » من الفرنسية الى العربية ، ويصدر المجلد الاول بعد اربعة اشهر بعنوان : « المشرق وبلاد الاغريق » .

تصحيح بعض الاخطاء فى مقـال
الحضارة المغربية بين الاصالة والاقتباس

وقعت بعض الاخطاء المطبعية فى هذا المقال الذي نشرناه بالعدد الماضي نرجو الا تفضـب الكاتـب الاخ الاستاذ محمد انحمداوي وتصويبها كما يلي :

فى **الصفحة 46** فى السطر الرابع عشر من **العمود** الثاني كلمة (تاريخنا) وتصويبهـا (**تاريخيا**) وقـد تكررت ايضا فى السطر العشرين ، وفى السطر الثالـث والثلاثين كلمتا (اصل ، فرع) وتصويبهما (**اصـلا** ، **فرعا**) ، وفى السطر الثامن والثلاثين كلمة (البـلاء ، وتصويبها (**البلا**) ، وفى السطر الحادي والاربعين كلمة (اصلية) وتصويبها (**أصيلة**) .

فى **الصفحة 47** فى السطر الخامس عشر (الشمال) من العمود الاول وتصويبها (**فى الشمال**) وفى السطـر السادس عشر كذلك كلمة (هيسيبريا) وتصويبهـا (**هيسبيريا**) ، و فى السطر السابع عشر من **نفس العمود** (احتويت) وتصويبها (**احتوت**) فى السطر الحـادي عشر من العمود الثاني (ولكل) تصويبها (**ولكن**) .

فى **الصفحة 48** فى السطر الخامـس من العمـود الاول (اقتباسا) تصويبها (**او مقتبسـا اقتباسـا**) فى السطر السادس من **العمود** الثانـي (للموضـوع) وتصويبها (**للموضوع الذي**) ، وفى **نفس العمود** السطر الخامس عشر (اشباح) وتصويبها (**امشاج**) وفـي السطر السابع عشر من **نفس العمود** (العلية) وتصويبها (**الغلبة**) وفى السطر الثالث والثلاثون من نفس العمود (الجادون) وتصويبها (**الجاحدون**) .

فى **الصفحة 49** فى السطر الاول من **العمود** الاول (العربي) وتصويبها (**الغربي**) ، فى السطر السابـع عشر من نفس العمود (من المفـروض) وتصويبهـا (**من المرفوض**) ، فى السطر السادس من العمود الثاني (الفوالي) وتصويبها (**الغزالي**) .

فى **الصفحة 50** فى السطر الخامس والثلاثين من العمود الاول (انحلول) وتصويبها (**الحول**)

فى **الصفحة 51** فى السطر النالث عشر (التدخل) وتصويبها (**التداخل**) .

هذا وقد سقطت الفقرة الاخيرة من خاتمة المقال نثبتها فيما يلي :

فاننا فى الوقت نفسه نشمئز كل الاشمئزاز حين نرى فنجان البلور الذي كانت تتناول فيه ام حكيم زوجة الخليفة هشام الاموي جرعة الصباح نقلا عن حضـارة الفرس والرومان الاولين ، اصبحت روحه محضرة في فناجين باريز الكريستالية نقـلا عن حضـارة احفـاد الرومان الآخرين ، وان نرى الكاسيات العاريات يتبرجن تبرج المدنية الحاضرة ويكتسين لبسـة المتفضـل فى حفلات اللهو والترف باسم (الفولكلـور) ذلـك لاننـا حينئذ نضطر ان ننشد مع شاعرنا الآخر قوله :

ليت الذي بجليل الفكر حققهـا   يشاهد الآن فقد العز فى الحضـر

نعتذر مرة أخرى للكاتب والقراء

* صدرت للقاص حامد دمنهوري قصة طويلة بعنوان « ومرت الايام » .

* طلبت دار النشر الاسبانية فى مدريد قائمة بأسماء الكتاب فى المملكة السعودية ممن لهم اطلاع صحيح على الحركة الادبية فى البلاد لمساعدة الدار فى تحرير فصل عن تاريخ الادب السعودي فى دائرة معارف الآداب العالمية الذي تزمع اصدارها .

* نقلت حكومة ايران عظام الشاعر عمر الخيام من مقبرته الى مقبرة جديدة اقامتها له قريته .

* سيصدر للشاعر السوري المعروف عمر ابو ريشة ديوان شعر باللغة الانجليزية بالهند .

* سيعقد فى نيودلهي مؤتمر المستشرقين الدولي ابتداء من 4 الى 10 يناير 1962 .

* سيقام معرض للفن الحديث الفرنسي فى الهند فى اواخر هذا العام .

* اشترك ممثلو 24 دولة فى مؤتمر لجنة برامج الاتحاد الاروبي الذي عقد مؤخرا ببلغراد .

* جاء من موسكو ان الاتحاد السوفييتي وجه الدعوة الى جميع دول العالم للاشتراك فى المهرجان الدولي الثالث للسينما الذي سيقام فى موسكو ما بين 7 و 31 يوليو المقبل .

* منحت الجائزة الكبرى للاكاديمية المناطق الفرنسية الى فليب كوتو .

* يقام حاليا فى متحف الفن الزيتي بباريس معرض مجوهرات براك .

* قدم السيد هنري رولان مذكرة لاكاديمية الآداب بباريس عن الحفريات فى سان بليز ، وقد تبين من دراسة الطبقات الارضية عن عدم صحة الاسطورة القائلة ان الفنيقيين او الذين قدموا من قرطاجة قد اقاموا على الشاطيء الجنوبي قبل تأسيس مدينة مرسيليا ، اما المنشآت التي اقامها هؤلاء فقد تمت فى القرن السابع قبل هذا العهد .

* اكتشفت آثار تعود الى الفي عام فى المدينة المعروفة باسم برادو سبانتيوم بالقرب من بروتوى سورانوا بفرنسا .

* منحت الجائزة العلمية الكبرى لمدينة باريز هذا العام الى السيد الفريد كاستلر .

* ستشارك كوميديا الشرق للمسرح الفرنسي فى مهرجان بعلبك الذي سيقام فى هذه المدينة .

* منحت جمعية الشعراء والفنيين فى فرنسا الجائزة الكبرى الدولية للشعر الى الشاعر ليوبولد وسيدار سنغور مكافأة على مجموعته « ليليات » وقد اشترك فى هذه المسابقة 300 شاعر من مختلف الجنسيات .

* اكتشف احد المنقبين عن الآثار بالقرب من فالون بون دارك بفرنسا داخل مغارة لم يدخلها احد فى القرون الاخيرة ، اسم بقرة ذات قرون طويلة وهي مرسومة بالتراب الحديدي الاحمر ، وقد تبين من ذلك ان هذه الصوره تعود الى نحو عشرين الف سنة .

* انشئت فى بروكسيل « جمعية اندريه جيد » هدفها متابعة تخليد ذكرى هذا الاديب ونشر رسالته ومؤلفاته .

* فى هذا الشهر اقيم فى قرطبة مهرجان ادبي كبير بمناسبة الذكرى الالفية للاديب ابن حزم الاندلسي استدعى اليه طائفة كبيرة من ادباء العرب .

* احتفل فى برشلونة بوضع الحجر الاساسي لبناء الكلية الفرنسية الجديدة .

* افتتحت فى جامعة ليشبونة مؤسسة ثقافية فرنسية .

* البرلمان الايطالي قرر اقامة نصب تذكاري تكريما للشاعر الايطالي الكبير جبريل دانونزيو بمناسبة الاحتفال بالذكرى المائوية لميلاد الشاعر الايطالي ، وسيقام النصب فى مدينة بيكارا مسقط راسه .

* اقيم مهرجان كبير فى مدينة نيويورك بمناسبة مرور ثلاثة قرون على تأسيسها .

* احتفل المركز الاسلامي بواشنطن فى اواخر الشهر الماضي بمرور 25 سنة على وفاة الشاعر الفيلسوف الباكستاني محمد اقبال .

* افتتح فى نيويورك معرض تصوير دولي يضم احدث آلات التصوير والافلام ومجموعة صور ملونة .

* احتفل اخيرا فى بعض بلدان العالم باليوم العالمي للصحافة .

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف
الرباط المغرب الأقصى



العددان الثامن والتاسع السنة السادسة
ذو الحجة - محرم 1383 - ماي يونيه 1963
ثمن العدد 1,50 درهم

فهرس العدد السابع - السنة السادسة

دراسات إسلامية

بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف

من مهام رسول الإسلام

للأستاذ: محمد الطنجي

رسالة الاسلام شفاء لما في الصدور ، وبعث للقيم الانسانية بعد ان اعتراها خمول وذبول .. وتتميم لمكارم الاخلاق ، باعطاء المثال النموذجي الكامل ، والقدوة الحسنة المثلى لبني الانسان ، حتى يكون المثال الحي للاخلاق والعمل الصالح ماثلا للعيان ، بعد ان كانت العقول لا تتخيل ذلك الكمال الا في الاذهان .. لهذا كان له من الاثر في البشر حياة ونور ورحمة وسرور ، اذ اشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب هداية لاولي الالباب ، وذلك من رحمة الله ، ورفقه بالانسانية ان تكشف الظلام بالنور ، وتجلو صدا القلوب الغافلة بالذكر المسطور ، لقوله تعالى : « وانه لذكر لك ولقومك » وكما قال : « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » لا غرابة في احراز المؤمن على اسمى المناقب ، وبلوغه اعلى المراتب اذا اتصل بربه بالسند الروحي بواسطة اعلى الانبياء كعبا ، وابقاهم خلودا وذكرا ، واعظمهم اثرا في تطهير نفوس بني الانسان ، ذلك ان الانسان انما ارتقى عن فصيلة الحيوان بروحه وعقله ، فصار مهذب طباعه ، وبرقيه مداركه منسوبا للعلم والفضل ، ثم صار بتغذية غرائزه السفلى وبانهماكه في شهواته الحيوانية منسوبا للسفه والجهل ... ومن المعلوم ان افراد الانسان متفاوتون في العقول ، مختلفون في النزعات والميول ، والحياة الاجتماعية متاثرة ومسيرة بتفاعل هذه الميول والنزعات والعقول .. كل فرد يؤثر في تلك الحياة حسب طيب عنصره ، وصفاء معدنه وجوهره ، او خبث نفسه ، ونشوز اصله ، وسوء محتده اذ الناس كما قال الرسول العربي : (معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا) .. وعبر عليه السلام عن أثر هذه الخيرية في حياة الناس بقوله : (خيركم من يرجى خيره ، ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره) .

وبناء على هذا التقدير كانت حياة المجتمعات كما يحدثنا التاريخ راقية مهذبة اذا كانت الدعائم التي تنبني عليها قوية سليمة كالعدل والرحمة والتعاون عليهما . وكانت منحطة خشنة متوحشة قاسية اذا غلب عليها الظلم والقسوة والتحزب لهما .

الا ان رحمة الله سبحانه كانت في فترات كثيرة من التاريخ البشري القطيع تتبع فترات جولات الجحود والظلم بصولات الايمان والعدل ، فتمحى ظلمات من الشر بانوار الحق والخير ، تشع في الوجود وتبني فيه معالم للايمان ، ومعاقل للبر والاحسان ، على ايدي طائفة اصطفاهم الله من خيرة خلقه ، وارسلهم لانقاذ الانسانية من الويلات والشرور ، التي غمرتها وملأتها فتنا ومحنا ، واحقادا واطماعا واحنا ، ومن هذه الفترات وهي خاتمتها الفترة التي ارسل الله فيها خاتم انبيائه ورسله الى الانسانية ، سيدنا محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي عليه السلام ...

ويجمل بنا ان نلقي نظرة عابرة على أحوال العالم وقت البعثة المحمدية ، فقد كان العالم وقت مولد هذا الرسول المنقذ العظيم يعبس في ظلم وظلمات ، فاديان الهند طال عليها العهد وتغيرت معالمها وطقوسها في المعبد والبد ، وقسمت الناس الذين هم ابناء آدم الى مراتب وطبقات متفاوتة متباينة ، ينكر الدين الحق تعدادها ، وتسعه العدالة وسائر الاديان الاخرى والعقول اوضاعها ، وامة الفرس وما والاها عششت فيها المجوسية وعبادة النار ، واستغل الاكاسرة

العددان الثامن والتاسع
السنة السادسة
ذو الحجة - محرم 383
ماي يونيه 963
ثمن العدد 1,50 درهم

دعوة الحق

مجلة تصدرها وزارة عموم الأوقاف

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف . الرباط - المغرب

صورة الغلاف



جسر تاريخي قديم تبدو عليه الزخارف والالوان يقع على نهر الجديدة بين فاس ومكناس

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :

مجلة ((دعوة الحق)) - قسم التحرير - وزارة عموم الاوقاف الرباط - المغرب . الهاتف 10 - 308

الاشتراك العادي عن سنة 15 درهما ، والشرفي 30 درهما فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :

مجلة ((دعوة الحق)) رقم الحساب البريدي 55 - 485 - الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :

مجلة ((دعوة الحق)) - قسم التوزيع - وزارة عموم الاوقاف - الرباط - المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .

في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :

((دعوة الحق)) - قسم التوزيع - وزارة عموم الاوقاف - الرباط

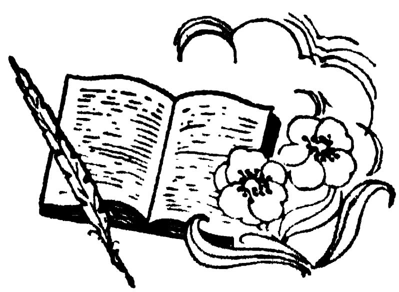
تليفون 308.10 - 327.03 - الرباط

والشبهة الثانية ان اعداء الاسلام يقولون ان محمدا اخذ كثيرا من احكام التوراة ووصايا الانجيل وادرجها فى دينه مع ان هذه الدعوى دليل وحجة على صحة الاسلام ، لا على بطلانه لان الاديان السماوية منزلة من عند الله تخرج من مشكاة واحدة فلا بد ان تكون متفقة فى جميع اصولها وعقائدها ، ولا بضر انها تختلف فى بعض مناهجها ، وقد قال الله فى كتابه : « مصدقا لما بين يدبه من الكتاب ومهيمنا عليه » وقال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدبن ولا تتفرقوا فيه » وهذا كله فى أصول العقائد .

أما فى الفروع فقد قال الله تعالى فى اختلاف بعض احكام الاديان الفرعية : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » ... وبهذا يتبين لكل منصف ان شرائع الله يؤيد بعضها بعضا ، وان الرسل كذلك يؤيد بعضهم بعضا ، ونحن معشر المسلمين نومن بقول الله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل الله من ربه والمومنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين احد من رسله » .

وختاما نقول اننا بهذا الايمان العام الشامل آمنا بكل ما فى الوجود من خير ، وهذا المبدأ هو الذي بوأ الامة الاسلامية والدين الاسلامي مكانة الخلود في الوجود ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، والصلاة والسلام على رسولنا العظيم ، وجميع اخوانه من الانبياء والمرسلين .

الرباط — محمد الطنجي



وعملاؤهم السيطرة للعبث بحقوق الضعفاء من رعاياهم وغيرهم ، فمذهب ماني والمانوية ، ومذهب مزدك الفارسي القائل بشيوع النساء والاموال بين الناس كافة، كل من المذهبين لعب دورا في تحطيم دعائم حياة الفرس الاجتماعية حتى اشرفت على البوار ...

واليهود حرفوا تعاليم التوراة التي فيها هدى ونور . حيث انغمسوا في حماة المادية والشهوات ، وتعدوا في السبت ، واتبعوا الحرفيات والربوبات فاكلوا الربا وقد نهوا عنه ، وصاروا يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا ، حتى تقمصوا روح القردة ، والخنازير وعبدوا الطاغوت ..

اما الكنيسة منذ القرن الثالث من ميلاد المسيح عليه السلام فقد كان رعاتها - كما يقول « جرجيس سال » الانجليزي - مشتغلين بالمطامع الشخصية يتخذون العويص من مسائل الدين ذريعة للمشاجرات والمماحكات ، وقد انقسموا فيها الى فرق لا تعد ، ونفوا عن صدورهم ما ندب اليه الانجيل من الموادعة والمحبة والمواساة ، وعدلوا الى المناواه والضغائن ، وسائر انواع المفاسد) ثم قال هذا المسيحي المتوفي سنة 1736 ميلادية : « ومعظم ما ننكر الآن على بعض الفرق النصرانية من باطل العقائد والفساد ، انما نشأ وتأصل في تلك الاعصر ، فعاد بالنفع على الاسلام ، واعان على انتشاره ، ونخص من تلك العقائد بالذكر عبادة القديسين والصور ، فانها كانت قد بلغت وقتئذ مبلغا يفوق كل ما نراه اليوم عند فرق النصارى ...) ثم ذكر ارتباك الكنيسة الشرقية بعد انفضاض المجمع النيقاوي كما ذكر حال الكنيسة الغربية ونزاع « داما سوس » و « اوسيكينوس » على اسقفية روما، وخص بالذكر من اثر هذا النزاع بلوغ عدد القتلى في كنيسة « سيكينيوس » 137 في يوم واحد .. ثم ذكر حال النصرانية في بلاد العرب ، وانتشار بدعة المريميين بها الذين يقولون بألوهية مريم ، تبعا لبعض اساقفة المجمع (النيقاوي) هـ ..

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : (ومما ينبغي انيعلم ان اعظم ما كان عليه المشركون قبل محمد وفي مبعثه هو دعوى الشريك لله والولد ؛ والقرآن مملوء من تنزيه الله عن هذين ، وتنزيهه عن المثل والولد يجمع كل التنزيه ؛ ثم ساق آيات القرآن الكثيرة مستدلا على قوله هذا ، زيادة على ما كان معروفا بين العرب من عبادة الاصنام وفقدان الامن وشيوع الخمر ، وكثرة الفواحش والقمار وفاحش الربى ، ووأد بعض القبائل لبناتهم ، وكثرة الحروب لأتفه الاسباب ، ومؤاخذة القبائل بجنايات الاشخاص المعينين الى غير ذلك من الامراض الاجتماعية ؛ فعم الظلام ، واشتدت حاجة الانسانية في مجموعها الى نور يضيء بعض جوانبها ، ليعم النور سائر الارجاء بعد اشراقه وانتشاره ... هنالك ارسل الله بشير الانسانية بالفوز والنجاح ، والسعادة والفلاح ، سيدنا محمد بن عبد الله بكتاب عزيز قال في حقه : « يا ايها الناس قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام» ، وقال تعالى في حق رسوله : «هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » وقال الله في حق الامة التي اهتدت بهدى الاسلام « كنتم خير أمة اخرجت للناس ، تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتومنون بالله » فعمت هداية القرآن وظهر دين الاسلام ؛ ولا يزال في انتشار وظهور، وكانت فتوحات الاسلام أعظم بركة على الامم المفتوحة، حيث فتحت منها القلوب ، وزكتها باخلاق الاسلام المتوارثة ، وشريعته الطاهرة من النقائص والظلم والعيوب ، فكان محمد رسول الله اعظم طبيب عرفه الوجود لأمراض الانسانية ، كما يشهد بذلك المنصفون من العلماء الا ان اعداء هذا الدين من المشركين والملحدين يفتنون بعض العوام واشباههم بشبهتين لا تروجان الا على مغفل بليد ... أولاهما قولهم ان محمدا استغل فساد اوضاع الكنيسة ، واختلال أحوال الامم المجاورة له من الفرس والروم ، وكذلك انتشار عقائد باطلة عند النصارى والعرب ، استغل كل هذا لنشر الاسلام وتمكين دعوته ، وكل عاقل يعرف انه لا يقال للطبيب انه استغل خطورة المرض ليظهر براعته بانقاذ المريض من الهلاك ، وكذلك يقال هنا : فالطبيب مشكور والدواء الذي فيه الشفاء هو من عند الله كما قال الله؛ « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمومنين » .

وصفوف او فصول ورسم انظمة لها من حيث المناهج والامتحانات والشهادات وادخال مقدار ضئيل من علوم العصر هو فى منهاج هده المدارس كالرقعة النابية في ثوب تختلف عنه لونا ونسيجا .

ثم تختلف طريق الجيلين في الحياة ومكانة كل منهما ومهمته في المجتمع ، اما الجيل الاول فللوعظ والارشاد والخطابة والافتاء والتدريس الديني وما الى ذلك بحيث يتكون منهم فئة اطلق عليها اسم مبتدع غريب (رجال الدين) . واما الجيل الثاني فيتكون منه موظفو الدولة ورؤساء دوائرها والاختصاصيون في كل فن من فنون الادارة او العمل .

لقد كان لهذه الخطة آثار سيئة جدا في الحياة الاسلامية والمجتمع الاسلامي بسبب هذا الازدواج في الفكر وهذا التعدد في العقلية ، وكان بين الطرفين حذر متبادل وجفاء ان لم يظهر في الظاهر فان آثاره موجودة .

والطريق القويمة في تكوين الحياة الاسلامية والاسلوب الطبيعي السليم هو في التوحيد والانسجام، فالحياة واحدة ولو تعددت جوانبها ، والاسلام نفسه يقوم على فكرة التوحيد في كل شيء . توحيد الله ، وتوحيد الانسانية . وتوحيد الطبقات . واقامة مجتمع موحد منسجم . ولذلك كان من واجب البلاد التي تقيم اليوم اسس نهضتها ان لا تسلك طريق الازدواج . وعلى البلاد التي اجتازت في نهضتها مرحلة كبيرة واقامتها على هذا الازدواج ان تتحرر منه وان تضع اسسا جديدة لنهضتها .

يجب أن يكون في جميع البلاد الاسلامية تعليم ابتدائي موحد يقوم على مفاهيم اسلامية في جميع ودرس الاشياء مبنيا على أساس غرس الايمان بالله الخالق في قلب الطفل وعقله ، كما يكون درس الدين بمواده ودروسه . فيكون تلقين المعلومات الطبيعية وسيلة ايضا لبعث همته في الحياة ويعتني في هذه المرحلة بتعليم القرآن وتعويد التلاميذ على الشعائر والعادات الاسلامية ، ويكون التعليم الثانوي في المرحلة الثانية تعليما متنوعا من تعليم عام ومهني ، تجاري او زراعي او صناعي او نسوي مصطبغا بالصبغة الاسلامية في جميع نواحيه ويكثر فيه مادة الثقافة الاسلامية من عقائد وتوحيد وتفسير وحديث وفقه وسيرة وتاريخ،

وتكون موادها الفكرية كالفلسفة وعلم الاجتماع قائمة على أساس الاسلام ، ونظرته الى الحياة والوجود والانسان والكون والحضارة ، بحيث يخرج الطالب متشربا بروحه في تفكيره وسلوكه . واما التعليم العالي اي الجامعي فينبغي كذلك ان يكون موحدا فلا يكون هنالك معاهد مدنية ، ومعاهد دينية وانما تكون معاهد اسلامية متنوعة الاختصاص من الطب والهندسة الى الفقه والشريعة ، ويكون تدريس الاسلام ونظامه جزءا من كل فرع من هذه الفروع بحيث لا تخلو كلية من الكليات كالطب والهندسة والزراعة من ثقافة اسلامية ودينية . لانها تخرج الطبيب المسلم والمهندس المسلم والاديب المسلم . وليس هذا غريبا في هذا العصر فان البلاد الشيوعية والبلاد الكاثوليكية تسلك هذه الخطة فعلم البلاد الشيوعية في جامعاتها العقيدة والفلسفة الشيوعية في جميع فروعها بطريقة الزامية ، كما تعلم الجامعات الكاثوليكية الدين في جميع كلياتها وفي جميع سنواتها .

هذه هي الطريقة التي تخرج لنا جيلا جديدا قويا مسلحا بالثقافة والعلم والدين والخلق ، جيلا موحدا منسجما يتصرف في الحياة بطريقة واحدة ويفكر تفكيرا واحدا ، ويحل المشكلات التي تصادفها بطريقة واحدة ، يستمد عناصرها من الاسلام ومبادئه ويكون جيل متفقه في دينه فلا يكون هناك رجال دنيا لا يعرفون من امر الدين شيئا ، ورجال دين لا يعرفون من امر الدنيا شيئا . يتكون جيل اسلامي يشترك على تنوع اختصاصه وتعدد خبرته ومهنته في قسط مشترك من فهم الاسلام ، ويشترك في الجهاد في هذه الحياة لتحقيق اهداف الاسلام التي هي اهداف انسانية تحقق سعادة الانسانية بترقيتها ماديا وخلقيا وروحيا يوصلها بالكون وآفاقه من جهة ، وبالله الخالق من جهة أخرى .

وقد تكون هذه العملية صعبة او يكون دون تحقيقها عقبات ولكنها اساسية وضرورية لبعث الاسلام من جديد ووقوفه قويا صامدا امام الانظمة والعقائد الاخرى وفي ذلك رضاء الله سبحانه وخير الانسانية وسلامها .

دمشق : محمد المبارك : عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق .

نحو إنشاء جيل إسلامي جديد

للأستاذ: محمد المبارك

من الامراض التي تفشت في البلاد الاسلاميه واعقبت نتائج سيئة في تطورها ، مرض الازدواج في التفكير والعقلية ونشوء جيلين في آن واحد مختلفين اشد الاختلاف يسير كل منهما في اتجاه ويجران المجتمع الاسلامي في اتجاهين متعارضين فتتعطل القوة وتبطل الحركة .

اما الجيل الاول فهو الذي تثقف بثقافة العصر المنصرم فقرأ متونا في النحو والبلاغة والفقه والتوحيد والاصول وضعت والفت لابناء عصر غير هذا العصر . سواء في أمثلتها وشواهدها . او في تبويبها وترتيبها ، أو في انشاء عباراتها واسلوبها ، ثم اقتصر على ذلك وربما زاد عليها قراءة بعض شروحها وحواشيها ولم يعرف غيرها حتى من المعارف والثقافة التي كان يعرفها المثقفون من ابناء العصور الاسلامية الاولى أيام ازدهار الحضارة الاسلامية يوم كانوا يقراون مع الفقه والتوحيد والتفسير والحديث الحساب والجبر والهندسة والفلك والطب والكيمياء وغيرها من العلوم التي ترى عظمة الله في الكون وفضله على الانسان بنعمة العقل الذي اتاه الله اياه . وما آتاه من السمع والبصر المؤدى الى العلم كما اشار الله تعالى الى ذلك في قوله : « والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » . والغالب في ابناء هذا الجيل في اكثر البلاد الاسلامية الاقتصار على الفقه والتوحيد دون التوسع في دراسة السنة والاطلاع على الحديث ، وما يتبع ذلك من اطلاع على منافع الفقه واصوله ومصادره ، وما تولد من ذلك من آراء فقهية مستقاة من الكتاب والسنة مما يوسع افق التفكير ، ودون الاطلاع كذلك على كتاب الله وامعان النظر في آياته سواء أكانت في الدعوة الى التوحيد والنظر في آيات الله في الكون والخليقة ، أم كانت في الآداب والاخلاق أم كانت في بيان التشريع والاحكام . لقد اقتصرت الدراسة في العصر الماضي في اكثر البلاد الاسلاميه على دراسة فقهية على مذهب واحد . مما ادى الى اعتقاد بعض الناس انحصار الاسلام في هذا المذهب وذلك الرأي .

وأما الجيل الآخر فقد أخذ بثقافة العصر واقتبس عمله من هذه الثقافة المنقولة عن اوربا سواء أكان اخذه لها مباشرة او عن طريق غير مباشرة . ولا شك ان من المفيد بل من الضروري الاطلاع على ثقافة العصر ولا سيما في النواحي العلميه الخالصة التي تكشف اسرار الكون وآيات الله فيه . وتمكن الانسان من تسخيره لمنفعته وتؤدى الى عمارة الارض واستخراج خيراتها والترفيه عن الانسان . ولكن هذا الجيل تغلب عليه ان تجهل الثقافة الاسلاميه الاصيلة وما تتضمنه من قيم خلقية واتجاهات انسانيه وتشريعات راقية . وما ينبت عليه من عقيدة قويمة ومفاهيم صحيحة وشعور بالمسؤولية . ولا تعرف من التاريخ الاسلامي الا قليلا . وقد يعرفه مشوها محرفا وقد تصل اليه عن طريق المستشرقين او المؤلفين المريبين واصحاب الاغراض والاهواء .

لقد سارت البلاد الاسلاميه منذ اكثر من قرن على اساس تكوين هاتين العقليتين وانشاء هذين النوعين او الجيلين وجعلت لكل منهما طريقا لتكوينه . فالجيل الاول يتكون في مدارس قديمة في نمطها واسلوبها . والثاني يتكون في مدارس حديثة انشئت على غرار المدارس الاوروبية واقتبست منها برامجها ومناهجها ، ثم كانت محاولات اصلاحية ولكن على اساس الابقاء على هذا الازدواج وادخال بعض الاصلاحات على النوع الاول ، وهكذا كانت مثلا في مصر المدارس الدينية الازهرية من ابتدائية وثانوية وعالية ، ولم يكن الاصلاح فيها الا بتقسيمها الى سنوات

وانما طالبنا سبحانه بهذه الكثرة من ذكره كي يربطنا به رباطا وثيقا حتى اذا ارتبطنا به هذا الارتباط الوثيق صار سبحانه سمعنا الذي نسمع به ، وبصرنا الذي نبصر به ، ويدنا التي نبطش بها .. الخ كما في الحديث ، أعني صرنا نستحضره سبحانه في سائر اعمالنا واقوالنا ، فاذا استحضرناه خفنا سطوته واستحيينا منه ، لن نخالفه فيما يأمرنا به او ينهانا عنه من تلك الاعمال ، فامتثلنا أمره واجتنبنا نهيه بقدر الطاقة واحترمنا حقوقه وحقوق خلقه وصرنا لا ننتهك حرمة في نفس او مال او عرض ، فاذا انتهينا الى هذه الحاله صلحت احوالنا واستقامت امورنا وصرنا المثل الاعلى والقدوة الحسنة الصالحه لغيرنا .

فبذكر الله عند السلف الصالح رضي الله عنهم على النحو الذي قررناه ، وبخشيته ومراقبته في اعمالهم صلحت احوالهم فامتد سودهم في سائر المعمور واعرهم ثم سودهم والحمد لله . ونرجو ان نعود تلك الايام .

ثم قال جل ذكره : « الحمد لله رب العالمين » الحمد في اللغه ، ان تصف غيرك بوجه جميل على جهة التكريم والتعظيم ، ولايق وصف جميل يناسب ان يوصف به الله جل جلاله في مقام افتتاح القرآن الكريم وصف العظمه التي لا حد لها ، وأل في الحمد للجنس ، او الاستغراق ولام الجر الداخله على لفظة الجلالة للاستحقاق وحينئذ ؛ بمعنى جمله الحمد لله ، جنس العظمه او جميع العظمه المطلقة مستحق لله سبحانه ، وانه وان عظم غيره فمنشأ عظمته ومصدرها منه ، ثم وصف نفسه سبحانه باربعه اوصاف تفيدنا علة استحقاقه لهذه العظمه ، بل الاول والاخير منها يستلزمان العظمه بانفسهما كما ستتضح فيما بعد ، وهذه الاوصاف هي كونه ربا للعالمين اى مربيا لسائر ما سواه ، او مالكا له ، اذ الرب في الاصل مصدر رب بمعنى ربي ثم اطلق اسم الفاعل منه بمعنى المربي او المالك ، وكونه رحمان بخلقه اي واسع الرحمة لهم ، التي تشمل البر والفاجر والمحسن والمسيء والمطيع والعاصي ، وكونه رحيما بخلقه ، اي دائم الرحمة لهم لان الرحيم صفة مشبهة تقتضي الدوام والثبوت ، وكونه ملك يوم الدين اي ملك يوم الجزاء على الاعمال الذى هو يوم القيامة،اي ان هذا اليوم مملوك له خاص به لا يشاركه فيه غيره كائنا من كان،أو هو المنفرد بالملك والسلطان فيه،لامالك ولا سلطان فيه غيره،ولو على سبيل المجاز ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) ، (ان كل من في السموات والارض الا اتي الرحمن عبدا) ومن كان مالكا ليوم الدين او ملكا فيه وحده كان الجزاء على الاعمال فيه مختصا به وحده .

وقد قضى وصفه برب العالمين وبالرحمن الرحيم سائر العقائد الاسلامية الواجبة له سبحانه بالذات ، اذ كونه رب العالمين اي مربيا ومدبرا لامره أو مالكه وقاهره يقتضي ان يكون موجودا حيا قديما باقيا غنيا على الاطلاق مخالفا لخلقه وحيدا في ذاته وصفاته وافعاله ، عالما مريدا قادرا سميعا بصيرا متكلما ، وكونه رحمانا رحيما يقتضي جواز فعل الممكنات وتركها في العدم كخلق الانسان واماتته وبعثه الرسل وايجاد اليوم الآخر ، لان هذه الاشياء الاخيرة في الذكر ليست واجبة في نفسها بالذات ، وانما اقتضاها الكمال الالهي وتعلق العلم والارادة والقدرة به ، فوجبت وكان وجوبها حينئذ عرضا .

ولما دخل يوم القيام في عموم الجائزات كما رايته في مقتضى عموم الرحمه ، وكان لهذا اليوم المقام الاول في المعتقدات بعد معتقد وجود الذات العلية ، اذ على وجوده بني الوعد والوعيد ، والرجاء والخوف في الشريعة الاسلامية غالبا . قال تعالى : « وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) ، لم يكتف القرآن بدخوله في هذا العموم بل افرده بالذكر ايذانا بأهميته واشعارا للقلوب بخشيته لا سيما وقد ذكر مضافا الى مالك الجزاء فيه بالخير والشر ، وهو الله سبحانه .

وقوله سبحانه « اياك نعبد » : العبادة غاية التذلل والخضوع المشعرين بكون العابد تحت قدرة ونفوذ المعبود وحده ايجادا واعداما ونفعا وضرا ، وهو هنا الله سبحانه حيث لا موجد ولا معدم ولا نافع ولا ضار الا هو وحده .

وما كانت العامة وما زالت تعتقده من ان بعض خواص الخلق من النبيين والمرسلين والملائكة المقربين وعباد الله الصالحين فسببه الجهل بقواعد الاسلام ونصوصه القاطعة بكذب ذلك المعتقد ، الم يكن من قواعد التوحيد العامة ان الله واحد لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في افعاله التي من جملتها الايجاد والاعدام للاشياء ، والنفع والضرر والاسعاد والاشقاء ، الم يقل الله مخاطبا نبيه عليه السلام ،

أضواء على آيات قرآنية
سورة الفاتحة

لفضيلة العلامة المرحوم أبو بكر زنيبر

-2-

الاصح انها نزلت بمكة وبالمدينة ، فنزولها في مكة كان حين فرض الصلاة ، ونزولها بالمدينه كان حين حولت القبلة الى الكعبة ولها اسماء كثيرة : ام القرآن ، الوافية ، الكافية ، سورة الكنز ، سورة الشفاء ، سورة المثاني ، الى غير ذلك من الاسماء وهي سبع آيات بسم الله الرحمن الرحيم ، اختلف الرواة في البسملة هاهنا ، وفي ابتداء كل سورة هل هي منها ام لا . فذهب قراء المدينة والشام والبصرة وفقهاؤها ومنهم امام الائمة مالك رحمه الله الى انها ليست آية من السور ، ولذلك كره الامام مالك قراءتها في الفرض ومستند هؤلاء الائمة رضوان الله عنهم العمل الجاري من عهد النبي عليه السلام بالمدينة بحذف قراءتها من الفاتحة عند الصلاه فقد قال انس بن مالك : صليت خلف رسول الله (ص) وابي بكر وعمر فلم يكن احد منهم يقرا باسم الله الرحمن الرحيم ونحوه عن عبد الله بن منفل ، وقال الامام ابن العربي في الاحكام ان مسجد رسول الله (ص) بالمدينة انقرضت عليه العصور ومرت عليه الازمنة من لدن زمان رسول الله (ص) الى زمان مالك ولم يقرا أحد فيه بسم الله الرحمن الرحيم .

وذهب قراء مكة والكوفه الى انها آية من القرآن في كل فاتحة سورة وعليه درج الامام الشافعي ومستندهم في ذلك روايات كثيرة تولى الدارقطني جمعها في جزء لطيف وصححها .

ولا يقال ان قراء مكة والكوفة اثبتوا آيتها في فاتحة كل سورة ، والمثبت مقدم على النافي لانه زاد علما عليه كما هو مقرر فقها واصولا ، وعليه فيقطع بكونها آية لاننا نقول شرط ثبوت آيات القرءان التواتر في نقلها والقطع بسبب ذلك بكونها آية من القرءان لا مطلق الرواية المفيده للظن غالبا ، وروايات اهل المدينه والشام والبصره تنفي هذا التواتر .

وسواء كانت من اول كل سوره او لم تكن فاثباتها ولو بقصد التبرك والفصل بين السور تعلمه منه سبحانه وارشاد لنا كيف نبدا اعمالنا المهمه بذكر اسمه سبحانه ، فانه اذا كان وهو الغني على الاطلاق الذي لا يحتاج في اعماله الى تبرك باسمه الكريم ولا الى قصد الاستعانة به بدا بها كتابه وارشد خلقه الى قراءته بها ، فكيف ونحن الفقراء لا نبدأ بها اعمالنا المهمة قصد الامتثال لذلك الارشاد او التبرك او الاستعانة .

ثم انه لا يخفى ان لنا كل يوم من أيام حياتنا اعمالا مهمة كالاكل والشرب والبيع والشراء والوطء والوضوء والاغتسال والصنائع اليدوية ، فاذا بدانا سائر اعمالنا هذه بذكر اسم الله امتثالا الى هذه الاشارة والى الامر الوارد في مثل آيتي ، « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة واصيلا فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم او اشد ذكرا » ، والى الامر الضمني الوارد في آية ، « والذاكرين الله كثيرا والذاكرات اعد الله لهم مغفرة واجرا عظيما» فنكون قد عمرنا الكثير من اوقاتنا بذكر الله سبحانه واتجرنا مع الله تجارة لن تبور .

ان على التفسير الذي قدمناه المناسب لمقام افتتاح القرآن به الذي هو اجل هداية من الله لخلقه ، العظمة مستحقة لله ومنه رب العالمين ، اذ كونه خالقا للعالم مربيا ومالكا له يوجب تعظيمه واحترامه ، وكونه رحمان لخلقه ورحيما له يقتضي تعظيمه واحترامه ، حيث ان النفوس مجبوله على حب من أحسن اليها ، والمحبة تقتضي التعظيم والاحترام ، وكونه ملك يوم الدين يبعث على تعظيمه واحترامه ، اذ الذي يملك يوم الجزاء « يكون له السلطان المطلق فيه ، يجب تعظيمه واحترامه والا أحل على من خالف ذلك عقابه فيه ، وتخصيصه بالعبادة والاستعانة هو نفس التعظيم والاحترام ، وطلب الهداية الى صراط الذين انعم عليهم ارشاد مفيد لهذا التعظيم والاحترام ، اذ ما طلب الهداية الى الصراط المستقيم الذي هو هذا الدين ارضاء له الا قصد تعظيمه واحترامه .

أما حقوق العباد بعضهم على بعض فربما يؤخذ الاشارة اليها من قوله تعالى « ملك يوم الدين » اي يوم الجزاء على الاعمال ، اذ منها افعال بعضنا ازاء بعض ، ومن قوله : « اهدنا الصراط المستقيم » ، اهدنا الدين القويم الذي يرشدنا بهداه الى الاحتفاظ من الزيغ في الاقوال والافعال التي منها اقوال وافعال بعضنا لبعض ولانطواء الفاتحه لهذين الجنسين المقصودين في الدرجه الاولى من القرآن والمبثوثين في كل محل منه سميت « ام القرآن » كما في حديث (لا صلاة لمن لم يقرا بأم القرآن) .

أما التقسيم الوارد عن ابي هريرة رضي الله عنه في الحديث القدسي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل ، فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدني عبدي . فاذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله : اثنى علي عبدي . فاذا قال: ملك يوم الدين ، قال: مجدني عبدي . وقال مرة فوض الي عبدي . واذا قال : اياك نعبد واياك نستعين ، قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فاذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . قال : هذا لعبدي ، ولعبدي ما سال . أورده في صحيح المصابيح وغيرها ، فهو تقسيم للفاتحة باعتبار آخر ، وهو ان بعضها وهو أولها مختص بالثناء على الله وتعظيمه واواخرها فيه التفات العبد الى نفسه وطلبه من مولاه سعادتها بهدايتها الى الصراط المستقيم ، ووسطها فيه تدلل العبد الى مولاه وخضوعه بين يديه ، ثم استعانة العبد به في أحواله وأموره .

ولمزيد نفهم معنى هذا الحديث القدسي الوارد في معنى الفاتحه وتقسيمها على سبيل الاجمال نقول : ان أولها كله تعظيم لله سبحانه تعظيما يقتضي بحسب عرف التخاطب الذي يقع بين البشر العات المعظم (فتحا) للمعظم (كسرا) وحنوه وعطفه عليه بسبب هذا التعظيم والتمجيد ، حيث قصر العبد التالي لها الحمد كله عليه ووصفه بكثرة الرحمة لخلقه ودوامها عليهم ، وبكونه ملك يوم الدين وحده المطلق التصرف فيه كما يشاء ثم ما كفاه ذلك حتى أبده بقوله اياك نعبد واياك نستعين ، ثم استنزل العبد التالي لها رحمته بقوله واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم .... الخ .

ثم ان هذا الحديث يدل على ما للفاتحة من عظم قدر . ولا اشكال . وهناك حديثا آخر يدل على هذا العظم كذلك وقد رواه البخاري والترمذي والنسائي عن أبي سعيد بن المعلى قال : كنت اصلي فدعاني النبي (ص) فلم اجبه ، قلت يا رسول الله كنت أصلي قال : الم يقل الله استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم ، ثم قال الا اعلمك أعظم سورة في القرآن قبل ان تخرج من المسجد ، فاخذ بيدي فلما اردنا الخروج ، قلت يا رسول الله انك قلت لاعلمنك أعظم سورة في القرآن، قال الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته .

«أفمن حقت عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار» وفي آية أخرى « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء . وهو أعلم بالمهتدين » الى غير ذلك مما يقتضي ان النفع والضر والاسعاد والاشقاء كلها بيد الله وحده لا شريك له فيها .

نعم وردت آيات واحاديث بشفاعة خواص الخلق لمكانتهم عند الله ، ولكن غالب تلك الشفاعات مقيدة باذن الله لهم فيها . حتى لا يعطل الناس العمل اتكالا على الشفاعات مثل قوله تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ، ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له» وفي حديث الشفاعة المشهور . ان النبي عليه السلام لا يشفع يوم القيامة للخلق فيما هم فيه من الحسرة والكرب حتى يستأذن ربه في ذلك فيأذن له ، ثم أن تقديم المعمول في قوله تعالى : « اياك نعبد » يفيد الحصر والاختصاص اي نخصك يا مولانا بعبادتنا ، وهو غاية التذلل والخضوع ، فلا نتذلل ، ولا نخضع لاحد كما نتذلل ونخضع لك حيث انفردت باوصاف الجلال ونعوت الكمال .

رب العالمين الذين أنا منهم ، بيدك تدبير أمورهم ومقاليد شؤونهم ورحمانهم ورحيمهم ومالك يوم دينهم

وقوله عز من قائل : « واياك نستعين » . الاستعانة طلب المعونة من الله . وهو الاقدار على الاشياء التي في طوق البشر كسبها وفعلها . والمراد الاقدار الباطني الخاص بالله بجلب الاسباب وصرف الموانع . فلا ينافي ان بعضنا قد يستعين ببعض على الاشياء الداخلة في طوق البشر المعونة عليها ، وقد أذنت الشريعة صراحة في التماس العون فيها كقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى . » وضمنا كقوله تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » .

وقوله تعالى « اهدنا الصراط المستقيم » : الصراط في الاصل الطريق المسلوك ، والمستقيم الذي لا انحراف فيه اذ الطريق المنحرف ، مظنة الضلال والخروج عن المقصود غير انه استعيرت هنا الصراط الدين . واستعير المستقيم للذي فيه مع الله وهو دين الاسلام الموصل الى رضى الله والسعادة الابدية . ولذلك أبدل منه قوله تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم » برضاك ، ثم ابدل من الذين انعمت عليهم قوله تعالى « غير المغضوب عليهم » ، أي غير صراط وطريق الذين غضبت عليهم بسبب كبرهم وعنادهم الصادر منهم عن مكابرة وجحد للحق فكانوا بذلك بعداء عن هدايتك ورحمتك ، ثم ابدل من الذين انعمت عليهم فريقا آخر ـ وهم الذين كفروا لا عن جحد للحق وعناد له . ولكن عن ضلالهم عن طريق الهدي والتباس الحق عليهم . كما قال النبي عليه السلام في حق ابن صياد . كما في صحيح البخاري لما سأله النبي صلى الله عليه وسلم عما يعتقده في حقه ، واجابه ابن صياد عن هذا السؤال بقوله يأتيني بر وفاجر ، قال النبي عليه السلام خلط عليه الامر ، وذلك قوله تعالى « ولا الضالين » عن طريق الهدي حيث التبست عليهم بغيرها من طرق الضلال اي اهدنا يا مولانا الصراط المستقيم ، ولا تهدنا غيره من الطرق سواء كان بعيدا جدا منه او قريبا في الجملة ، اذ الضلال كما في مفردات الراغب يطلق على العدول عن المحجة الواحدة ، اما عن قصد أو عن غير قصد ، سواء كان هذا الضلال يسيرا او كثيرا غير انه انما عطف الضالين هاهنا على المغضوب عليهم علما بالعطف الذي يقتضي المغايرة ، انهم فريقان وان الاولين هم المنحرفون كبرا عن قصد حتى استحقوا غضب الله . وان الضالين غيرهم ودونهم في هذا الانحراف . حيث لم يوصفوا بغير الضلال وتركوا الى مشيئة الله بعد ذلك .

هذا تفصيل ما أدركناه من معاني الفاتحة ولكنها عبرنا عنه بقدر الطاقة والامكان . ولمزيد البيان نقول : ان القرآن الذي هو عمدة الاسلام والمسلمين جاء لتقرير امرين عظيمين : تقرير ما لله على البشر من حقوق ، وتقرير ما للبشر على بعضهم بعضا كذلك . أما حق الله الواجب له على الاطلاق فقد قرر الاسلام في تعظيمه واحترامه تعظيما واحتراما لا حد لهما ولا غاية . حيث كانت الذات العلية لا حد لها ولا غاية ، فلكن تعظيمها واحترامها لا حد لهما ولا غاية ، ولكن لما كانت الشريعة وردت للعموم ، وكان عوام الناس عاجزين عن اداء هذا التعظيم والاحترام ، بل عجزوا عن تصورهما اكتفت من الناس بالاقرار لله ببعض صفات الكمال المقتضية لهذا التعظيم والاحترام ، وهي الصفات الواردة لله في القرآن وعلى لسان النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم ان هذا التعظيم والاحترام المطلقين مأخوذان من الفاتحة من غير ما موضع منها . منها لفظ الحمد ،

الاسلامي بعجزه عن حماية نفسه من المغيرين الوافدين من الخارج ، فراح المسلمون يبحثون عن قوة عليا يلجأون اليها في محنتهم ويحسون في كنفها بالاطمئنان النفسي ، فلجأوا الى التدين واغرقوا فيه وفي العبادة والزهد ، يلتمسون في هذا كله سكينة الروح وينسون في رحاب الله ما يكتنفهم من عوامل الفزع والقلق والاضطراب ومن هنا نشطت الحركات الصوفية في القرنين السادس والسابع ، وانقسم المتصوفة في هذين القرنين الى قسمين : قسم حيا حياة روحية خالصة وقسم خلط التصوف بالفلسفة والروح بالفكر . وقد شهد المغرب عند نشأة الشاذلي به هذين النوعين من المتصوفة .

ففي مدينة فاس بالمغرب الاقصى كان يقيم في اواخر القرن السادس الصوفي الكبير الشيخ ابو تعزي بن يلنور ، وكان الناس يفدون اليه من جميع انحاء المغرب والاندلس ، يأخذون عنه ويستمعون اليه ويلتمسون منه البركات ، وفي مقدمة من وفد عليه القطب الغوث ابو مدين التلمساني فعاش معه سنين يقتبس من طريقته بالاقبال كل الاقبال على الصوم والزهد والصلاة والتقشف والعبادة . حتى اذا قبس قبسة من روح استاذه رحل الى المشرق ليقتبس قبسات أخريات من شيوخ التصوف هناك ، وعن سيدي عبد القادر الجيلاني قطب العراق بوجه خاص .

وعاد ابو مدين الى المغرب فأقام في بجاية وفاقت شهرته شهرة استاذه ابي يعزى ولقيه القوم هناك بالقبول وتتلمذ عليه العشرات من كبار العلماء وفي مقدمتهم الفيلسوف المتصوف الكبير محي الدين بن عربي والشيخ ابو عبد الله محمد بن حرازم احد شيوخ الشاذلي .

وكانت الدولة القائمة بالحكم في المغرب وقتذاك هي دولة الموحدين . ومن ملوكها من كان راعيا للحياة الفكرية مشجعا للعلماء والمفكرين ، ومنهم من كان متزمتا مضطهدا لرجال الفكر والمشتغلين بالفلسفة . فمن امثلة النوع الاول الخليفة الموحدي ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وكان رجلا واسع الفكر محبا للعلم صديقا للعلماء ، وللفلاسفة منهم بوجه خاص ، فقرب اليه عددا كبيرا منهم ، وفي بلاطه عاش الفيلسوف المغربي ابن طفيل وهو واحد ممن حاولوا المزج بين الفلسفة والتصوف ، وهو مؤلف قصة حي بن يقظان التي حاول فيها ان يثبت ان العقل والشرع يؤديان الى نتائج واحدة .

وابن طفيل هو الذي قدم للخليفة يعقوب صديقه الفيلسوف ابن رشد فرحب به وقربه اليه وولاه قضاء اشبيلية .

ولكن المجتمع الاسلامي في المغرب وقتذاك لم يرض عن سياسة الخليفة الموحدي يعقوب ، فقد كان رد الفعل السني ذا اثر قوي عليه ، لهذا كان المجتمع سنيا متزمتا ينكر الفلسفة والمشتغلين بها ، وقد استجاب الخليفة ابو يوسف يعقوب بن الخليفة السابق لرغبات المجتمع ، فاضطهد العلماء والفلاسفة ورجال الفكر ، واصابتهم في عهده محن شديدة . فاتهم ابن رشد في عهده بالزندقة وحوكم في سنة 591 .

واضطهد الصوفي الكبير ابو مدين وارسل الخليفة يستدعيه من بجاية لمحاكمته ، فأتى به مكبلا بالحديد ، حتى اذا وصل تلمسان مرض ومات سنة 594 .

هذا الجو الذي كان يشيع فيه ضيق الفكر ، ويسود فيه الكبت والاضطهاد والمحاكمة دفع الكثيرين من رجال الفكر والفلسفة والتصوف الى الرحيل عن المغرب الاقصى ، وفي مقدمتهم محي الدين بن عربي ، فقد رحل عن الاندلس والمغرب في سنة 598 بعد ان شهد محنة استاذه ابن رشد واستاذه في التصوف ابي مدين .

لم يكن غريبا ان يشيح الشاذلي بوجهه عن مدن المغرب الاقصى الكبيرة ويرحل الى تونس ليستكمل علومه بها . فانه يبدو ان الجو في تونس كان اصلح منه في المغرب الاقصى وحرية الفكر والدراسة مكفولة هناك الى حد ما ، وفيها على ذلك الوقت كان يقيم عدد كبير من اعلام المتصوفة من امثال الشيخ محمد صالح بن ينصار والشيخ ابي محمد المهدوي والشيخ ابي سعيد الباجي وهم من تلاميذ الغوث ، وقد عاصر الشاذلي اثناء تلقيه العلم في تونس هؤلاء العلماء الاعلام ولا شك انه اتصل بهم وتتلمذ عليهم واخذ عنهم . وكان الجو في تونس كلها يضوع منه شذى تعاليم ابي مدين وروحانيته ، والكل هناك من تلاميذه الذين يسلكون طريقته . وقد تأثر الشاذلي بهذا الجو تأثرا شديدا وعشق التصوف وحياة المتصوفة منذ ذلك الحين وبدأ فتلقى الطريقة على ابي عبد الله بن حرازم احد تلامذة ابي مدين ولبس على يديه خرقة التصوف .

أبو الحسن الشاذلي

للدكتور: جمال الشيال

أبو الحسن الشاذلي عالم من اعلام الصوفيه وقطب من أقطابهم ، ولد فى المغرب الاقصى وعاش معظم سني حياته فى تونس ومصر وأنشأ مدرسة صوفية كبيرة ، لازال اتباعها وتلاميدها ينتشرون فى مختلف انحاء العالم الاسلامي ويكونون فرقا صوفية كثيرة تشعبت كلها عن الفرقة الاصلية التي انشأها ونسبت اليه وهي الفرقة الشاذليه .

ولد ابو الحسن الشاذلي فى اواخر القرن السادس الهجري فى سنة 593 هـ فى قرية غمارة بالقرب من مدينة سبتة بالمغرب الاقصى .

وهو تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الجبار بن يوسف .

وينتمي الى قبيلة عمران احدى قبائل المغرب وهي التي ينتمي اليها ولي الله سيدي عبد الرحيم القنائي .

وهو حسني علوي أي انه ينتهي بنسبه الى الحسن بن علي بن أبي طالب .

نشأ أبو الحسن فى قريته غمارة وفيها تلقى علومه الاولى وحفظ القرآن ، ثم أراد أن يستزيد من العلم فرحل الى تونس . لقد كانت مدن المغرب الاقصى الكبيرة مثل سبتة او مراكش أو فاس اقرب اليه من تونس ، ولكنه أعرض عنها جميعا وابعد فى الرحلة فذهب الى تونس ، ولتفسير هذا لابد من القاء نظرة على الحالتين السياسية والعلمية فى المغرب الاقصى وفى العالم الاسلامي بوجه عام على ذلك الوقت .

كان المذهب الشيعي قد انتصر فى القرن الرابع الهجري ، وبانتصاره قامت دولتان شيعيتان كبيرتان أصبحت لهما السيادة فى طرفي العالم الاسلامي الشرقي والغربي . فالدولة الفاطمية فى المغرب وتضم أنيها بلاد المغرب جميعا ومصر واليمن والحجاز والشام ، والدوله البويهيه فى الشرق ولها السيادة فى العراق قلب الدولة العباسية نفسها .

وفى القرن الخامس والسادس حدث رد فعل قوي ، وبدأ المذهب السني يسود من جديد بعد أن ضعفت الدولتان الفاطمية والبويهية . وقامت دول سنيه كثيره كان هدفها القضاء على الدول والمذاهب الشيعية فى كل مكان فكانت دول السلاجقه والاتابكه فى الشرق ودولتا الايوبيين والمماليك فى مصر والشام ودولة الموحدين فى المغرب والاندلس . وكان بعض حكام هذه الدول السنيه مغالين فى محافظتهم على المذهب السني ويرون فى كل الحركات والآراء الفلسفية جنوحا نحو العوده الى المذهب الشيعي ، فهو مذهب كان يدرس الفلسفة وعلوم الاوائل ويتأثر بها الى حد بعيد .

وهذا العصر بعينه هو العصر الذى شهد انقسام العالم الاسلامي الى دول كثيرة تشغل بعضها عن البعض الآخر ، وهو الذي شهد ضعف هذا العالم الاسلامي وجراءة أوربا المسيحية على اقتحام ربوعه فى الشام على أيدي الصليبيين ، وفى الاندلس على أيدي الراغبين فى اعادتها الى حظيرة المسيحية والقضاء على الدويلات الاسلامية القائمة بها .

فى هذا الجو الغريب قويت الحياة الروحيه ونشط التصوف وكثر المتصوفة ، فقد أحس المجتمع

. ..رله عظيمة عند الرفاعية مما دعاهم الى ارساله الى مصر ليعمل على نشر طريقتهم فيها ، ووصل ابو الفتح الى الاسكندرية فى سنة 630 واقام بها مدة يعظ الناس ويدعوهم الى طريقته ، وكان يلقي دروسه فى مسجد العطارين ، وقد قامت بينه وبين علماء الاسكندرية وفقهائها مساجلات وخصومات علمية كثيرة ، وتوفي بالاسكندرية فى سنة 632 ولا زال ضريحه موجودا بالقرب من ضريح أبى الدرداء .

وقد حزن الرفاعية فى العراق حزنا بالغا لوفاة الشيخ ابى الفتح الواسطي ، واختاروا قطبا آخر كان بينهم فى ذلك الوقت وأرسلوه الى مصر ليتزعم طائفة الرفاعية بها ، وسيكون لهذا القطب شأن كبير فيما بعد وسينشيء له طريقة جديدة ، ذلك هو القطب الكبير سيدي احمد البدوي ، فقد ارسله الرفاعية فى سنة 635 من العراق الى مصر ليشرف على شؤون الاتباع بها .

على هذا الشيخ العالم الكبير ابى الفتح الواسطي أخذ الشاذلي اثناء مقامه فى العراق ، واعترف انه لم يلق هناك من العلماء من هو خير منه قال : « دخلت العراق ولقيت جمله من المشايخ فلم ار احسن من الشيخ ابى الفتح الواسطي » .

وقد كان الشاذلي اثناء تنقله فى بلدان الشرق لا يسعى لطلب العلم وحده ولكنه كان يبحث عن ضالته المنشوده يبحث عن القطب . وللقوم آراء وأقوال كثيره فى القطب . فاول من قال به وتحدث عنه من المتصوفه ذو النون المصري ، ويبدو من أقوال المتصوفة أن الاقطاب فى كل وقت كثيرون وأن الرئاسه دائما على هؤلاء الاقطاب لقطب واحد مفرد هو ما يلقبونه بالقطب الغوث . يبدو هذا واضحا فى حديث الشاذلي نفسه لاحد تلاميذه وهو شمس الدين بن كتيلة .

روى ابن كتيلة انه كان جالسا يوما بين يدي أستاذه الشاذلي فخطر له أن يسأله عن القطب فقال له.

« يا سيدي ما معنى القطب ؟ »

فقال الشاذلي :

« الاقطاب كثيرة فان كل مقدم قوم هو قطبهم . اما القطب الغوث الفرد الجامع فهو واحد » .

وقد عرف صاحب كتاب المفاخر القطب الغوث بأنه رجل عظيم وسيد كريم ، يحتاج اليه الناس عند الاضطرار فى تبيين ما خفي من العلوم المبهمة والاسرار، ويطلب منه الدعاء لانه مستجاب الدعاء ، لو أقسم على الله لابره ، ولا يكون القطب قطبا حتى تجتمع فيه جميع صفات الاقطاب الذين هو رئيسهم .

عن هذا القطب كان يبحث الشاذلي أثناء تجواله فى الشرق ، فلما اطمأنت نفسه الى شيخه ابى الفتح الواسطي فاتحه بدخيلة نفسه وحدثه عن امنيته ، ولكن الشيخ أبا الفتح اخبره ان القطب فى وطنه الاصلي ، فى المغرب ، فان كان يبحث عنه حقيقة فليعد الى المغرب . واستمع أبو الحسن الى نصيحة شيخه وعاد الى المغرب ، وظل يوالي الرحلة والبحث الى أن التقى بالقطب ، الى أن التقى بشيخه واستاذه الاكبر الذي اخذ عنه الطريق ولبس على يديه خرقة التصوف ، والذي ظل ينتسب اليه ، وهو الشيخ عبد السلام بن مشيش .

يستطرد الشاذلي فى وصفه لمقابلته الاولى مع الشيخ ابى الفتح الواسطي فيقول :

« وكنت اطلب القطب فقال لي : اتطلب يا علي القطب بالعراق وهو ببلاد المغرب ؟ ارجع الى المغرب فانك تجد القطب هناك ، فرجعت الى المغرب واجتمعت باستاذي عبد السلام بن مشيش » .

وبعد رحلة طويلة قابل الشاذلي أستاذه القطب سيدي عبد السلام بن مشيش ، وكانت مقابلته الاولى له فى راس جبل حيث يقيم مرابطا ومتفرغا للعبادة .

وقد روى الشاذلي خبر هذه المقابلة فقال :

« لما قدمت عليه وهو ساكن برباطه براس جبل ، اغتسلت وخرجت من علمي وطلعت اليه فقيرا ، واذا به هابط علي ، فلما رآني قال : مرحبا بعلي بن عبد الله بن عبد الجبار ، وذكر نسبي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال يا علي : طلعت الينا فقيرا من علمك وعملك ؟ أخذت منا علمي الدنيا والآخرة ، فأخذني الدهش ، وأقمت عنده اياما الى ان فتح الله على بصيرتي ، ورايت له خوارق عادات وكرامات » .

ورحل أبو الحسن الشاذلي من قريته غمارة الى تونس حوالي سنة 602 وهو بعد حدث صغير السن في نحو العاشرة من عمره ، وبدأ هناك فتلقى على علمائها الفقه على مذهب مالك ، وعلوم اللغة من ادب ونحو وصرف وعلوم الدين من تفسير وحديث وكلام وتوحيد . ولازم حلقات الدرس حتى نبغ في هذه العلوم جميعها ، ثم شاقه التصوف واتصل بشيوخه ولبس الخرقة اول ما لبس على يد ابى عبد الله محمد بن حرازم — كما اسلفنا —

والكتب التي ترجمت لابى الحسن الشاذلي تروي قصة طريفة حدثت له عند دخوله مدينة تونس، والقصة تبدو غريبة بعيدة عن المنطق ولكنها تدخل في نطاق ما يسميه القوم بالكرامات ، واغلب الظن أن مؤرخي ابى الحسن واتباعه يروونها للبرهنة على انه كان منذ شبابه الاول ذا نفس طاهرة نقية صافية ، وانه كان ذا استعداد طيب للولاية منذ هذه السن المبكرة .

روى هذه القصة صاحب كتاب المفاخر العلية في المآثر الشاذلية . قال رواية عن الشيخ جمال الدين القرافي ان الشيخ ابى الحسن الشاذلي قال :

« دخلت مدينة تونس وانا شاب صغير ، فوجدت فيها مجاعة شديدة . ووجدت الناس يموتون جوعا في الاسواق ، فقلت في نفسي : لو كان عندى ما أشتري به خبزا لهؤلاء الجياع لفعلت ، فالقي في سري : خذ ما في جيبك ، فحركت جيبي فاذا فيه نقود ، فاتيت الى خباز بباب المنارة ، فقلت له : عد خبزك ، فعده ، فناولته للناس فتناهبوه ، ثم اخرجت الدراهم فناولتها الخباز ، فقال لي : هذه معارقة وانتم معاشر المغاربة تستعملون الكيمياء ، فأعطيته برنسي وكرزيتي من على رأسي رهنا في ثمن الخبز ، وتوجهت الى جهة الباب فاذا رجل واقف عنده فقال لي : يا علي أين الدراهم ؟ فأعطيتها له فهزها في يده وردها الي ، وقال ادفعها للخباز فانها طيبة ، فرجعت الى الخباز فأعطيتها له فقال : نعم هذه طيبة واعطاني برنسي وكرزيتي ، ثم طلبت الرجل فلم اجده ، فبقيت متحيرا في نفسي الى ان دخلت الجامع يوم الجمعة ، فجلست عند المقصورة عند الركن الشرقي فركعت تحية المسجد وسلمت واذا بالرجل عن يميني فسلمت عليه فتبسم وقال : يا علي انت تقول لو كان عندك ما تطعم به هؤلاء الجياع لفعلت ؟ أتتكرم على الله في خلقه ولو شاء لاطعمهم وهو أعلم بمصالحهم ؟ فقلت يا سيدي من انت ؟ قال أنا احمد الخضر كنت ببلاد الصين فقيل لي أدرك عليا بتونس فأتيت مبادرا اليك ، فلما صليت الجمعة نظرت اليه فلم اجده »

وفي تونس قضى ابو الحسن سنوات الصبا والشباب الاول تتلمذ فيها على كبار علمائها وشيوخها ومتصوفيها ، فبدأ بابى عبد الله بن حرازم الذي لبس خرقة التصوف على يديه لاول مرة ، ثم سمع بالشيخ ابى سعيد الباجي احد تلامذة ابى مدين وممن اخذوا الطريق عنه فسعى اليه وانتفع بعلمه . يصف الشاذلي مقابلته الاولى لابى سعيد يقول :

« لما دخلت تونس في ابتداء امري قصدت بها جملة من المشايخ ، وكان عندي شيء احب أن اطلع عليه ويبين لي منه خبر ، فما فيهم من شرح حالي ، حتى دخلت على الشيخ ابى سعيد الباجي — رحمه الله — فاخبرني بحالي قبل ان ابديه اليه ، وتكلم عن سري . فعلمت انه ولي الله ، فلازمته وانتفعت به كثيرا وسمعت منه » .

في هذا الجو الذي كانت تتجاوب في جنباته آراء الفلاسفة من امثال ابن رشد وابن طفيل وابن عربي وتنتشر في نواحيه روحانيات المتصوفة من امثال القطب الغوث ابى مدين وابى عبد الله بن حرازم وابى سعيد الباجي . في هذا الجو الذي كانت تصطرع فيه قوى العلم والفكر الحر مع قوى الرجعية والترمت السني . في هذا الجو نشأ ابو الحسن الشاذلي نشأته الاولى ، وتلقى علومه الاولى . ولكنه لم يكد يبلغ سن الشباب حتى احس ان غلته لم تشف وان ظمأه للعلم والمعرفة لم يشبع ، فاعتزم الرحلة الى الشرق ، لاداء فريضة الحج وزيارة الارض الطيبة المقدسة والقبر الطاهر اولا ثم لاتمام علومه واستكمال دراسته على ايدي شيوخ الشرق ثانيا .

ولسنا نعرف متى رحل الشاذلي رحلته المشرقة الاولى على وجه التحديد ، ولكننا نحسبه بدأها حوالي سنة 615 هـ وهو في نحو الثانية والعشرين من عمره .

فاننا سنسمع بعد قليل انه قابل شيخه ابا الفتح الواسطي في العراق في سنة 618 هـ .

بدأ الشاذلي رحلته فدخل مدينة الاسكندرية ومر بأرض مصر ثم دخل الحجاز فأدى الفريضة ثم زار فلسطين والشام والعراق وكان في كل بلد يزوره يقصد من بها من العلماء والفقهاء يأخذ عنهم ويستمع اليهم . وكان اكثر اتصاله بالعباد والزهاد والمتصوفة ، وكان اكثر تأثره في رحلته هذه بالشيخ ابى الفتح الواسطي وهو من أكبر تلاميذ سيدي احمد الرفاعي وكانت له

وفى شاذلة تأسى الشاذلي بأستاذه ابن مشيش ، فلم يسكن فى القرية وانما لجأ الى غار فى جبل زغوان المطل على شاذلة ، واتخذ هذا الغار رباطا له يقيم ويتعبد فيه ، وكانت حياة الشاذلي فى هذا الغار كلها تقشف وزهد واغراق فى العبادة ، وكان يشاركه هذه الحياة فى معظم الاوقات تلميذه الجديد الحبيبي .

وقد روى الحبيبي انه اقام مرة مع ابى الحسن فى جبل زغوان اربعين يوما كان يفطر فيها على العتب وورق الدفلى حتى تقرحت اشداقه ، فقال له ابو الحسن : يا عبد الله كانك اشتهيت الطعام ، فقال له: يا سيدي ، نظرك الي يغنيني ، فقال ابو الحسن : غدا ان شاء الله نهبط الى شاذلة وستلقانا فى الطريق كرامة » .

واقام ابو الحسن فى شاذلة وطالت اقامته وذاعت شهرته وعرف الناس له فضله وصلاحه ونفواه وآمنوا بولايته ، وبدأ الجزء الاول من نبوءة استاذه ابن مشيش يتحقق ، فعرف منذ ذلك الحين بالشاذلي وغلبت عليه هذه الشهرة . وقصده الناس من الاماكن والبلدان المجاورة ، وبدأ يخرج عن رباطه بعض الوقت فيقيم باحدى الدور فى مدينة تونس يدرس ويعظ وينشر دعوته وطريقته بين تلاميذه ومحبيه ومريديه .

ولم تكن تونس غريبة على ابى الحسن فقد دخلها من قبل طفلا وأقام بها شابا يافعا . وفيها تلقى دروسه الاولى . وفيها كانت له مناظرات سابقة مع علمائها وفقهائها ، وقد وفد عليها هذه المرة رجلا مكتمل الرجولة عالما وافر العلم ، صوفيا صاحب حالات وكرامات . لهذا لم يكن غريبا ان يقبل عليه الناس من كل حدب وصوب يعرفون من علمه ، ويتأدبون بآدابه ، يستمعون الى دروسه ومواعظه وتعاليمه ، ويلتمسون منه الدعاء والبركة ، فاتسعت حلقات دروسه وكثر اتباعه ومريدوه ، فكان اذا جلس للدرس والوعظ تحلقوا حوله بالعشرات ، واذا سار او انتقل ساروا فى ركابه بالمئات .

قال المناوى فى الكواكب الدرية :

كان الشيخ أبو الحسن اذا ركب تمشي اكابر الفقراء وأكابر الدنيا حوله ، وتنشر الاعلام على راسه ، وتضرب الكاسات بين يديه .

هذا الاقبال اثار حقد العلماء وحسد الفقهاء فى تونس ، وجر على الشاذلي شرا كثيرا ، فتعرض لمحنة كبيرة ، فقد كان قاضي الجماعة وعالمها فى مدينة تونس على ذلك الوقت هو ابو القاسم ابن البراء ، وقد ضاق ابن البراء بأبى الحسن عندما راى الناس ينفضون من حوله ويتحلقون حول الشاذلي فى كل مكان يحل به ، وآلمته هذه المواكب الحافلة تتقدمها الاعلام والكوسات والطبول كلما انتقل الشاذلي من مكان الى مكان ، فبدأ يكيد لابى الحسن وسعى به لدى سلطان تونس ابى زكرياء الحفصي ، واتهمه لديه بأنه يتآمر على سلطانه ، فهو حسني علوي ، ولعله يسعى لاقامة ملك لنفسه كما اقام الفاطميون ملكهم من قبل فى تونس نفسها .

ولم يقنع ابن البراء بهذه التهمة الخطيرة فاتهم أبا الحسن بتهمة اخرى لا تقل عنها خطورة اتهمه بالزندقة والالحاد والخروج على الدين ، ليغري به علماء تونس وفقهائها كما أغرى به السلطان .

قال صاحب درة الاسرار :

« دخل قاضي الجماعة ابن البراء على السلطان أبي زكرياء فقال : ان هاهنا رجلا من اهل شاذلة سراق الحمير يدعى الشرف ، وقد اجتمع عليه خلق كثير ، ويدعى أنه الفاطمي ، ويشوش عليك فى بلادك » .

كان ادعاء ابن البراء ماهرا ماكرا ، وكانت التهمة خطيرة ، ففي تونس اقام عبد الله المهدى من قبل الخلافة الفاطمية ، والشيعة يؤمنون بفكرة المهدى المنتظر ، ومنذ زالت الخلافة الفاطمية وهم يتطلعون الى اعادتها ، وأبو الحسن الشاذلي ينتسب الى الحسن بن علي بن ابي طالب ، والناس يؤمنون بقطبانيته ، وابن البراء لا يرى فى كلمة القطب الا انها ستار تخفى وراءه معنى الامام الفاطمي أو المهدي ، ولكن الحقيقة أن أبا الحسن لم يكن يعنى بالسياسة ولم يكن يفكر فى الملك ، بل انه لم يكن يساير غلاة الشيعة فى معتقداتهم ، فالشيعة لا يؤمنون الا بعلي ، وينكرون خلافة ابى بكر وعمر وعثمان ، أما ابو الحسن فقد كان يعترف بهؤلاء الصحابة الاجلاء وانه يغترف من فضلهم ، فقد كان يجيب من سأله عن شيخه بقوله :

« أما فيما مضى فعبد السلام بن مشيش ، وأما الآن فإنا استقى من عشرة ابحر : خمسة آدمية ، وخمسة سماوية ، فالخمسة الآدمية : ابو بكر وعمر وعثمان وعلي والنبي صلى الله عليه وسلم » .

على كل فان السلطان ابا زكريا لم يأخذ بأقوال ابن البراء ، بل كان حكيما عادلا فأمر بأن يعقد مجلس يحضره ابو الحسن والعلماء والفقهاء ، وان يناقش ابو الحسن فى كل هذه الدعاوي وغيرها ، ويعطى الفرصة للدفاع عن نفسه .

استقرت نفس الشاذلي اذن ، فقد قابل القطب الغوث ، وادلى اليه بآية القطبية منذ اللحظة الاولى فقد ناداه باسمه ونسبه مكتملا ، ووعده بأن يلقنه علمي الدنيا والآخرة ، لهذا لزم الشاذلي استاذه ملازمة تامة منذ هذه اللحظة يأخذ عنه ويتتلمذ عليه ، فماذا اخذ الشاذلي عن ابن مشيش ؟

اخذ عنه حب الله والفناء فى هذا الحب ، فهو القائل : ادمن على الشرب والمحبة وكأسهما مع السكر والصحو ، كلما افقت او تيقظت شربت ، حتى يكون سكرك به وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشرب والشراب والكأس ، بما يبدو لك من نور جماله وقدس كماله وجلاله .

واخذ الشاذلي عن استاذه ابن مشيش الايمان والايمان القوي الكلي بالله حتى يجد الله فى كل شيء فهو القائل :

« انظر ببصر الايمان تجد الله فى كل شيء ، وعند كل شيء ، ومع كل شيء ، وقبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، وفوق كل شيء ، وتحت كل شيء ، وقريبا من كل شيء ، ومحيطا بكل شيء ، بقرب هو وصفه ، وبحيطة هي نعته ، وعد عن الظرفية والحد ، وعن الاماكن ، وعن الصحبة والقرب والمسافات ، وعن الدور بالمخلوقات ، وامح الكل بوصفه الاول والآخر والظاهر والباطن ، وهو هو هو ، كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان » .

واخذ ابن مشيش تلميذه الشاذلي بأن يعرض عن الخلق وأن يلجأ الى الله وحده ، وروى الشاذلي انه كان فى احدى سياحاته فاتى غارا يبيت فيه فسمع رجلا يتحدث ، فعجب من وجود انسان فى هذا المكان المنعزل المهجور ولكنه لم يشأ ان يقلق هذا المتحدث فى الليل ، فبات عند مدخل الغار فلما كان السحر سقط ابو الحسن فسمع الرجل يدعو ربه بقوله :

« اللهم ان اقواما سألوك اقبال الخلق عليهم وتسخيرهم لهم ، اللهم اني اسألك اعراضهم عني واعوجاجهم علي حتى لايكون لي ملجأ الا اليك » .

قال الشاذلي :

« ثم خرج الرجل من الغار فاذا هو استاذي (ابن مشيش) ، فقلت له : يا سيدي اني سمعتك البارحة تقول كذا وكذا ، فقال لي : يا علي ، انما خير لك ان تقول : كن لي بدلا من أن تقول لي سخر لي قلوب خلقك ، فاذا كان لك ، كان لك كل شيء » .

بهذه المبادىء الروحانية العليا التي تنادي العبد بأن يقبل على حب الله وأن يفنى فى هذا الحب تخرج ابو الحسن الشاذلي على استاذه ابن مشيش فقد قال ابو الحسن :

« سألت استاذي — رحمه الله — عن ورد المحققين ، فقال : عليك باسقاط الهوى وصحبة المولى . وآية المحبة الا يشتغل محب بغير محبوبه » .

واقبل الشاذلي — وهو فى صحبة استاذه — على العبادة فطهر نفسه من حب الدنيا ومن الاقبال على الخلق ، واقبل على حب الله وفنى فى حبه ، فلما صفت نفسه واصبح اهلا للولاية ووراثة القطبانية امره استاذه ان يرحل عن فاس الى تونس ، وتنبأ له بما سيحدث له فى مستقبل ايامه ، فقال له :

« ارحل الى افريقية واسكن بها بلدا يسمى شاذلة ، فان الله يسميك الشاذلي ، وبعد ذلك تنتقل الى مدينة تونس ، ويؤتى عليك من قبل السلطنة ، وبعد ذلك تنتقل الى بلاد الشرق وترث القطبانية » .

ترك ابو الحسن مدينة فاس واتجه منفذا لامر استاذه نحو تونس وعند دخوله اليها تقابل مع رجل حطاب فقير هو ابو الحسن علي الابرقي من اهل شاذلة وهى قرية قريبة من مدينة تونس ، فصحبه معه وخرج الرجلان واتجها نحو شاذلة ، وفى الطريق رأى الابرقي شواهد كثيرة من زهد الشاذلي وصلاحه ، فاقبل عليه وقبل يديه وسأله الدعاء ، وتقول الرواية ان بركات الشاذلي حلت برفيقه فاقبلت عليه الدنيا ووسع عليه فى الرزق بعد ذلك .

ونزل ابو الحسن بطرف من اطراف شاذلة وقابل فيها اول من قابل الشيخ الصالح ابا محمد عبد الله بن سلامة الحبيبي ، وقد فرح الحبيبي بلقاء ابى الحسن فقد كان يرقب هذا اللقاء منذ مدة . قال الحبيبي :

« كنت احضر بتونس مجلس سيدنا الشيخ العارف ابى حفص الجاسوس ، فاخذت بيده يوما اطلب منه ان يقبلني تلميذا له وقلت له : يا سيدي اني اتخذتك شيخي ، فقال لي : يا بني ارتقب استاذك حتى يصل من المغرب وهو شريف حسني من كبار الاولياء وهو استاذك واليه تنتسب ، فكنت ارتقب كل من يأتي من الفقراء المغاربة واصحبه ، الى ان من الله علي بلقاء الشيخ ابى الحسن فاتخذته شيخي وصحبته » .

فقد كان رجلا عالما مثقفا واسع الفكر ، فعرف للشيخ ابي الحسن مكانته ، وأدرك أن التهمة مفرضة ، ولم يجد في الشيخ شرا يخافه ، وخاصة انه لم يكن معتزما المقام في مصر ، بل كان متجها في طريقه الى الحج ، فقربه اليه وأكرمه ، يقول الشيخ ابو الحسن :

« واقمنا عنده ـ أي عند الملك الكامل ـ في القلعة اياما ، واهتزت لنا الديار المصرية الى ان طلعنا للحج » .

وبعد اداء فريضة الحج أسرع الشيخ ابو الحسن بالعودة الى تونس .

ترى هل نسي الشيخ ما فعله به ابن البراء وكيف سعى به لدى سلطان تونس ثم لدى سلطان مصر ؟ وابن البراء كان لا يزال حيا يمارس القضاء في تونس .

ان الشيخ أبا الحسن لم ينس هذا كله ، ولكنه عاد وفاء بالوعد الذي وعده للسلطان أن يذهب للحج ثم يعود وعاد لفرض آخر أهم من هذا كله ، عاد ليلتقي بتلميذه وصفيه وخليفته أبي العباس المرسي ، فانه يروى عن أبي الحسن انه قال :

« ما ردني الى تونس الا هذا الشاب »
يقصد أبا العباس المرسي

وكان أبو العباس قد خرج من مدينة سبتة هو وابوه وامه واخوه في سنة 640 يقصدون الحج، وحملتهم سفينة عبر البحر الابيض ، ولكن السفينة غرقت بالقرب من بونة ، وقدر لابي العباس واخيه ان ينجوا من الغرق ، فاتجها الى تونس واقاما بها الى ان عاد اليها ابو الحسن الشاذلي ، فتعرف اليه أبو العباس ، ولازمه منذ ذلك الحين ، ولم يقم الشيخ في تونس طويلا هذه المرة ، بل سرعان ما صحب تلميذه ومريديه ورحل نهائيا الى مدينة الاسكندرية في سنة 642 هـ . ولمقابلة التلميذ بالشيخ قصة يعنينا منها أن نعرف أن أبا الحسن كان يترقب هذه المقابلة وانه كان قد القى اليه خبر ابي العباس واتصاله به منذ امد طويل ، فقد قال لابي العباس في ختام مقابلته الاولى له :

« رفعت الى منذ عشر سنين » .

وبعد ان تحققت النبوءة لم يعد هناك ما يربط الشيخ بتونس ، لهذا لم يمكث بها هذه المرة غير سنتين وعمل في خلالهما على تصفية أموره ، فباع داره بها ثم أعد العدة للرحيل الى الشرق ، وكان في هذا تحقيق للجزء الاخير من نبوءة استاذه ابن مشيش التي كان قد ختمها بقوله « وبعد ذلك تنتقل الى بلاد المشرق وترث القطبانية » .

وفي سنة 542 اذن له النبي صلى الله عليه وسلم بالانتقال الى مصر ، فقد روى عن الشيخ انه قال : رايت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي : يا علي انتقل الى الديار المصرية فانك تربي فيها اربعين صديقا»

وكان الشاذلي قد مر بالديار المصرية مرارا أثناء روحاته السابقة الى الحج وغدواته منه ، وقد أعجب ولاشك اثناء زياراته هذه بمدينة الاسكندرية ، ولهذا آثر أن يحط رحاله بها ، وكان في صحبته عند رحيله عدد كبير من تلاميذه ومريديه الذين آثروا صحبته على البقاء في أوطانهم ، وكان في مقدمتهم تلميذه الاثير ابو العباس المرسي ، وخادمه الامين ابو العزائم ماضي بن سلطان ، والحاج محمد القرطبي ، وابو عبد الله البجائي، وابو الحسن البجائي ، والخراز ، وغيرهم كثيرون . وكان الركب وهو في طريقه الى الاسكندرية يتزايد عدده كلما مر بمدينة من المدن ، فينضم اليه الاتباع والمريدون يؤثرون الرحلة مع الشيخ على البقاء في أوطانهم ، يلتمسون في صحبته البركة ، وكانوا اثناء السير يتسابقون على القرب من دابته ، ويقضون الوقت في السمر والحديث اللطيف ، وعين الشيخ ترقبهم من بعيد واذنه تستمع الى حديثهم فيشاركهم مرة ويعلن اعجابه بما يسمع مرة اخرى .

روى صاحب المفاخر العلية أن رجلين كانا يمشيان قريبا من دابة الشيخ يستظلان برجله ، فقال احدهما للاخر يعاتبه : « يا فلان ، رأيت فلانا يسيء معك العشرة وانت له محسن ؟ فقال صاحبه ان فلانا هذا من بلدي ، وانا اتمثل في معاملتي له بقول مجنون ليلى :

رای المجنون في البيداء كلبا
فجر له من الاحسان ذيلا
فلاموه على ما كان منه
وقالوا كم انلت الكلب نيلا
فقال : دعوا الملامة ان عيني
راته مرة في حي ليلى

وسمع الشيخ ـ رضي الله عنه ـ حديث الرجلين ـ فأعجبه ، واخرج راسه من المحارة وقال للرجل : « اعد يا بني ما قلت » .

فأعاد الرجل مقالته ، فاهتزت نفس الشيخ طربا واخذ يتمايل في مكانه وهو يردد البيت الاخير :

دعوا الملامة ان عيني   راته مرة في حي ليلا

« خذها يا بني والبسها فانت أولى بها مني ، جزاك الله يا بني على حسن عهدك » .

هذه القصة الظريفة تدل على ان الشيخ كان ذا ذوق أدبي رفيع يطرب للقول الجميل وللمعنى السامي ،

وعقد المجلس وحضره السلطان ، وجلس وراء حجاب .

قال صاحب درة الاسرار :

« اجتمع ابن البراء وجماعة من الفقهاء في القضية، وجلس السلطان خلف حجاب ، وحضر الشيخ رضي الله عنه ، وسألوه عن نسبه مرارا ، والشيخ يجيبهم عليه ، والسلطان يسمع ، وتحدثوا معه في العلوم كلها فأفاض عليهم بعلوم أسكتهم بها ، فما استطاعوا أن يجاوبوه عنها من العلوم الموهوبة ، والشيخ يتكلم معهم بالعلوم المكتسبة ويشاركهم فيها » .

وأفحم ابن البراء وصحبه ، وعلت كلمة الشاذلي، واقتنع السلطان ببراءته ، بل وآمن بولايته ، فالتفت الى ابن البراء ومن معه وقال لهم :

« هذا رجل من اكابر الاولياء وما لكم به طاقة » .

واحس ابن البراء بحرج الموقف ، فقد كان اهل تونس جميعا واقفين بالباب منتظرين نتيجة المحاكمة . فاراد أن يعود الى تحريض السلطان على ابي الحسن وان يخيفه من ثورة الناس ان هو أطلق سراحه . فقال له :

« والله لئن خرج في هذه الساعة ليدخلن عليك اهل تونس ويخرجوك من بين اظهرهم ، فانهم مجتمعون على بابك » .

ولكن السلطان لم يعر هذا القول التفاتا ، وأمر الفقهاء ان ينصرفوا ، واستبقى الشيخ ابا الحسن . ولبث معه وقتا يحدثه ويلاطفه . الى أن حضر أخو السلطان ابو عبد الله اللحياني — وكان من المعتقدين في الشيخ — ، فأمره أن يصحب الشيخ الى داره معززا مكرما .

خرج ابو الحسن من هذه المحنة منتصرا ، ولكنه بدا يحس ان المقام لم يطب له في تونس ، فانه توقع أن القاضي ابن البراء لا يمكن أن يخضع للهزيمة التي مني بها ،وانه لابد مدبر مكيدة ، وان الفتنة توشك أن تنشب بين اتباعه وبين الفقهاء من اصحاب البراء ، وهو رجل صوفي ينشد الصفاء والهدوء والحياة الصافية ، لهذا ازمع على مغادرة تونس ، واخذ يدبر الامر للرحلة ، وسمع السلطان بالخبر ، فتألم ، وقال لمن حملوا اليه الخبر :

« أي شيء يسمع به عن اقليمنا ؟ انه اتاه ولي من اولياء الله فضاق عليه حتى خرج فارا بنفسه » .

ثم ارسل الى الشيخ أبي الحسن من يحاول ان يثنيه عن عزمه ، ولكن الشيخ اعتذر اعتذارا لطيفا وقال للرسول :

« انا ما خرجت الا بنية الحج ، واذا قضى الله حاجتي اعود ان شاء الله تعالى »

وعلى اساس هذا الوعد بالعودة الى تونس بعد اداء فريضة الحج سمح السلطان للشيخ ابي الحسن بالسفر .

وقبل ان يغادر الشاذلي تونس أرسل الى ابن البراء رسالة قصيرة بها جملة واحدة يسخر فيها منه ومن اطماعه وحقده ، قال فيها :

« اتراني اوسع لك مدينة تونس » ؟

ولكن ابن البراء كان قلبه لا يزال عامرا بالحقد على الشيخ ابي الحسن منذ مني بالهزيمة في مجلس السلطان فدبر للشيخ مكيدة اخرى ، لقد أعد رسالة الى سلطان مصر ، وقع عليها معه عدد من الشهود وحدثه فيها حديث الشيخ ، واتهمه فيها بانه شريف علوي وانه يسعى الى اعادة ملك الفاطميين ، وقال في ختام الرسالة

ان هذا الواصل اليكم شوش علينا بلادنا وكذلك يفعل ببلادكم .

وأمر حامل الرسالة أن يسرع بها لتصل الى مصر قبل وصول الشيخ اليها .

وكان سلطان مصر في ذلك الوقت هو الملك الكامل محمد الايوبي ، والايوبيون سنيو المذهب وهم الذين قضوا على المذهب الشيعي والدولة الفاطمية في مصر . وكان اخشى ما يخشونه الحركات الشيعية التي تعمل لاعادة الملك للفاطميين ، لهذا وجدت هذه الرسالة عند السلطان اذنا صاغية ، ولم يكد الشيخ يصل الى الاسكندرية حتى قبضت عليه السلطات المصرية . وارسل محروسا الى القاهرة ، وعند وصوله اليها صعد به الى القلعة حيث عقد السلطان مجلسا من القضاة والعلماء والفقهاء ، ووجه السلطان التهمة الى الشيخ ابي الحسن وقال له :

« هذا عقد مشهود فيك ، وجهه ابن البراء من تونس ، وعلامته فيه »

ثم اطلعه على العقد .

وكانت محاكمة ثانية ، وتحدث الشيخ فبهر الجميع بحديثه ، واخذ بالبابهم ، وخاصة الملك الكامل

أبحاث ومقالات

سابق البربري ثانية

للأستاذ: عبد الله كنون

كنت نشرت في العدد الاول من السنة الثانية لمجلة دعوة الحق مقالا عن سابق البربري تعرضت فيه لشيء من التعريف بشخصه وادبه ، وضمنته ما تجمع لدي من شعره النفيس مبادرة بتسجيله في نشرة عمومية خشية ان يتفرق اباديد كما كان قبل ان اوفق الى جمعه ، لاسيما وهو حصيلة سنين من البحث ، وذخيرة عشرات من الكتب التي قد لا يحتوي الواحد منها الا على البيت او البيتين مغمورين في عدة ابيات ومقطعات شتى لشعراء من كل طبقة يأتي اسم سابق بينها نادرا كالكبريت الاحمر .

وعلى كثرة المراجع التي استقيت منها ما اثبته من معلومات قليلة عنه ، وما جمعته من شعره ، فقد بقيت هناك مراجع مهمة لترجمته لم تصل اليها يدي . واهمها تاريخ دمشق لابن عساكر ، كما اني اغفلت بعض المراجع التي لدي ، اثناء كتابة ذلك المقال ، وهي مما كان عندي لهذا البحث ، معلما عليه بعلامته ، ولكني انسيتها ، وسبحان من لا يعتريه سهو ولا ذهول .

والآن وقد وقفت على ترجمته في تاريخ ابن عساكر ، مصور معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية ، في رحلتي الاخيرة للقاهرة ، واستذكرت المراجع الاخرى التي فاتتني في المقال السابق ، اعود اليه ثانية فألقي بعض الضوء على على معالم شخصيته المجهولة ، واضيف الى النبذ الشعرية التي ذكرتها له قدرا آخر من شعره ، يكون مع تلك النبذ مجموعة لا باس بها من ادبه السامي الاغراض النبيل الاهداف، ومن يدري فلعلي اعود اليه مرة ثالثة اذا ظفرت بمعلومات جديدة عنه ، لاسيما وتاريخ الرقة للحراني قد طبع فيما بلغني، وهو مظنة لان يحتوي على شيء من اخباره وآثاره .

ولسهولة الروابط بين هذا المقال وسالفه احصر البحث في عناصره الاولى وهي اسم سابق ونسبه واخباره وشعره .

اسمه ونسبه :

فاما اسمه فقد انفصلت فيه على انه سابق بن عبد الله ، وان كنيته ابو سعيد من غير خلاف . ولكني وجدت في ابن عساكر اثناء بعض اسانيد روايته عنه تسمية والده بسعيد ، وانه يكنى ايضا ابا عبد الله وابا المهاجر وابا امية . ومقتضى ما عند الذهبي في الميزان وتبعه ابن حجر في اللسان ان هذه الكنى لسابق آخر غير صاحبنا ، وهو المعروف بالرقي .

وقد ذكرهما ابن ابي حاتم في الجرح والتعديل (ج ني قسم ل ، طبع الهند) على انهما شخصان مختلفان فقال في الاول : « سابق البربري روى عن مكحول وروى عنه الاوزاعي سمعت ابي يقول ذلك » وقال في الثاني : « سابق الرقي روى عن العلاء بن عبد الرحمن وخطيب وابي خلف ، وروى عنه موسى بن اعين ومعافى بن عمران الموصلي وعثمان بن عبد الرحمن الطرائفي ، سمعت ابي يقول ذلك »

على ان ابن عدي جوز ان يكون هناك ثلاثة اشخاص يعرفون بهذا الاسم ، اعني سابق بن عبد الله ، كما في اللسان (ج 3 طبع الهند) وذلك انه لما وجد حديث اذا مدح الفاسق اهتز له العرش مرويا عن سابق بن عبد الله عن ابي خلف عن انس (ض) وابو خلف هذا لا يعرف ، استبعد ان يكون الراوي عنه هو سابق الرقي ، قال لان احاديثه مستقيمة عن مطرف وابي حنيفة، وان يكونهو سابق البربري الذي انما له كلام في الحكمة والزهد وغيرهما فاحتمل ان يكون راوي هذا الحديث شخصا ثالثا مسمى بهذا الاسم . وليت شعري ما المانع ان يكون سابق البربري صاحب الكلام في الحكمة والزهد راوية للحديث بقطع النظر عن كونه ثقة او ضعيفا في روايته ؟ . .

كما تدل على الاسلوب الذي كان يصطنعه لتأديب مريديه واتباعه فهو لا يترك فرصة – وان كانت عارضة – الا انتهزها للمكافأة على الخلق الكريم ليتسابق الكل في التحلي به والاقتداء بصاحب المكافأة .

وقد وصل الشيخ ابو الحسن وركبه وصحبه الى عمود السواري ودخلوا الاسكندريةمن باب سدرة المقابل لهذا الباب ، واتخذ الشيخ له دارا يقيم فيها بالقرب من كوم الديماس – كوم الدكة الحالي –

وبدا لشيخ يلقي دروسه ويعقد الحلقات يعظ الناس ويدعو الى طريقته ومبادئه ، وجذبت اليه هذه الدروس والمواعيظ الجلة من علماء المدينة وفقهائها وفضلائها فلازموها ملازمة تامة ، وسيكون هؤلاء التلاميذ فيما بعد قادة الحياة الفكرية والروحية في المدينة ، نذكر منهم تلميذه الاثير ابا العباس المرسي ، والشيخ مكية الدين الاسمر ، والشيخ عبد الحكيم بن ابي الحوافر والشيخ ابا القاسم القباري ، والشيخ امين الدين جبريل ، والشيخ ابي المنبر والشيخ شرف الدين البوني وكثيرين غيرهم .

وكان الشيخ يعقد حلقات درسه في مسجد العطارين ، وهو اقرب المساجد الى داره ، وروى صاحب المفاخر العلية ان الشيخ كان يعقد كل ليلة في داره مجلسا يأتي الناس اليه من البلد يسمعون كلامه .

وقد اخذ الشيخ ابو الحسن الشاذلي تلاميذه ومريديه بالمباديء المثلى في التصوف فهو لم يكن يفهم التصوف كما كان يفهمه بعض معاصريه وبعض المتدروشين حتى اليوم على انه بطالة نامة بحجة الزهد والتفرغ للعبادة ، بل كان يفهمه على انه صفاء تام في النفس وتقوى خالصة لله وحب لله تعالى وتعلق به وارتفاع بالروح وبالعمل وبالقول عن الدنايا .

وهذا كله لا يمكن أن يقعد الانسان عن السعي والعمل وطلب الرزق ، وكان يكره من المتصوفة التظاهر بالفقر فهو نوع من الادعاء ، ولكي يضرب لاتباعه المثل والقدوة كان يحيا هو حياة نظيفة منعمة فكان يلبس فاخر الثياب ، ويركب فاره الدواب ، ويتخذ الخيل الجياد ، وكان يكره أن يلبس الصوفية الملابس المرقعة التي اصطلح الفقراء وأهل الطريق على لبسها ، لانه كان يرى ان هذا اللباس ينادي على صاحبه : انا الفقير فأعطوني شيئا ، وينادي على سره بالافشاء ومن لبس الزي واتخذ المرقعة في دابه فقد ادعى . ومن اقواله :

« ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة ، وانما هو بالصبر على الاوامر واليقين في الهداية « وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

ودخل على الشيخ ابي الحسن مرة فقير عليه ملابس شعر ، فلما فرغ الشيخ من كلامه ، دنا منه الفقير وامسك ملابسه وقال :

« يا سيدي ما عبد الله بهذا اللباس الذي عليك »

فامسك الشيخ بملابس الفقير فوجد فيها خشونة فقال له :

« ولا عبد الله بهذا اللباس الذي عليك ، لباسي يقول للناس انا غني عنكم فلا تعطوني ، ولباسك يقول انا فقير اليكم فاعطوني » .

وكان ابو الحسن يدعو أتباعه الى العمل والسعي ويكره المريد المتعطل الذي يركن الى البطالة ويرتزق من سؤال الناس ، فالاسلام دين عزة وكرامة وجد وعمل . وهذه الطرق الصوفية في رايه لا يجب ان تخرج عن التعاليم الاساسية للاسلام ، وان كان لها من هدف بعد هذا فانما هو الدعوة الى صفاء النفس وتقوى الله . بل انه كان يغالي فيرى في العمل نوعا من العبادة بل هو خير عبادة ، انه التسبيح الدائم باسم الله . لهذا كان يقول لمريديه :

« عليكم بالسبب – اي العمل والسعي وراء الرزق – وليجعل احدكم مكوكه سبحته أو تحرك اصابعه في الخياطة او الضفر سبحته » .

وقال ابن عطاء الله السكندري :

كان الشيخ ابو الحسن يكره المريد المتعطل ، ويكره ان يسأل تابعه الناس وقد كان جوادا بما يملك وكريما يكره البخل ويحث على طرق باب الاسباب والعمل »

وكان الشيخ يرى ان عبادة الله لا تستلزم ان تشق على نفسك وتعذبها وتكلفها من أمرها شططا . فانك اذا حمدت الله وانت متألم مما بك من فقر وفاقة أو مما تحس من تقشف وخشونة فان حمدك يكون مشوبا بالمرارة والضيق ، ولكنك لو حمدته ونفسك راضية مرضية بما يحيط بك من نعم الله الوفيرة وروحك هادئة مطمئنة بما هو مبسوط لديك من خيرات الله العميمة ، فان حمدك يكون صادرا من القلب والنفس والروح والجسم جميعا ، بل ان كل عضو من اعضائك يشاركك في هذا الحمد ، وما اجمل قول ابي الحسن في هذا المعنى :

« يا بني : برد الماء ، فانك اذا شربت الماء الساخن فقلت الحمد لله تقولها بكزازة ، واذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله ، استجاب كل عضو فيك بالحمد لله » .

يتبع

الرباط : الدكتور جمال السنال . المستشار الثقافي بسفارة الج . ع . م .

وروى ابن عساكر ايضا عنه هذا الخبر قال : « كتب . حول الى الحسن ونحن بدابق يسأله عن الطالب والمطلوب . فجاءه الكتاب ، ان كنت طالبا فصل بالارض وان ت مطلوبا فصل على الارض وعقب على ذلك بان الصواب . ل على الدابة .

وفي ميزان الاعتدال للذهبي ان محمد بن عبد الله ا .. دوابي روى عن ابيه عن سابق الرقي نحو ثلاثين حديثا .

شعـــره :

روى ابن عساكر بسنده الى احمد بن محمد بن يزيد الانصاري قال كنا عند محمد بن مصعب القرقشاني فقال لنا : ـ من الشعر من اخبرني لمن هو من الشعراء فله ثلاثون حديثا . وكان معنا رجل يعرف الشعر فقال : قولوا نه اي ـ هو ؟ فقال محمد بن مصعب :

والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه
كما يجلي سواد الظلمة القمر

قال فقال الرجل هذا لسابق البربري ، فال صدق !

صدق ' فاي شيء بعده ؟ قال :

والعلم فيه حياة للقلوب كما
نحيي البلاد اذا ما مسها المطر

فال صدق والله ' واي شيء بعد ؟ فال :

ـا أسم جرر للموت ياخذكم
كما البهائم في الدنيا لنا جزر

فال ابو علي الانصاري فحدثنا بالثلاثين حديثا التي وعده . والذي يعرف قيمة الحديث عند رجاله وضنهم به يقدر ما كان لسابق وشعره في نفس هذا الشيخ من منزلة حتى انه جعل من يعرف بيتا واحدا من شعره يستحق ان يحدث ثلاثين حديثا .

وذكر ابن عبد البر هذا الخبر برواية اخرى جاء فيها ان احمد بن يزيد بن مسلم الانصاري المعروف بابن ابي الجناجر قال كنا على باب محمد بن مصعب القرقساني جماعة من اهل الحديث وفينا رجل عراقي يصبر بالشعر ونحن نتمنى ان يخرج الينا فيحدثنا حديثا واحدا او حديثين اذ خرج الينا فقال قد خطر على قلبي بيت من الشعر فمن يخبرني لمن هو حدثه ثلاثة احاديث .. وفي آخر الخبر : فحدثه ستة احاديث سمعناها معه . وهي روايه تبرز الاهمية التي كان هذا الشيخ المحدث يعطيها لشعر سابق كـالفتها وتزيد بالنص عن تشوف من كان بباب الشيخ من اهل الحديث الى السماع منه ولو حديثا واحدا فاذا بهم يحصلون على ستة احاديث بسبب معرفة العراقي بشعر سابق .

وتحدث الجاحظ في البيان والتبيين عن شعر صالح بن عبد القدوس وسابق البربري فأطراهما بما اشتملا عليه من الحكمة والامثال التي لو تفرقت في اشعار غيرهما لا غنتها، وهذا قوله في ذلك : « لو كان شعر صالح بن عبد القدوس وسابق البربري مفرقا في اشعار كثيرة لصارت تلك الاشعار ارفع مما هي عليه بطبقات ، ولصار شعرهما نوادر سائرة في الآفاق . ولكن القصيدة اذا كانت كلها امثالا لم تسر ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شيء الى شيء لم يكن لذلك النظام عنده موقع » .

هذا بعض ما يتعلق بتقدير المتقدمين لادب سابق وشعره ، واذكر فيما يتعلق بذلك من طرف المتأخرين اني تحدثت ذات مرة الى عميد الادب العربي الدكتور طه حسين على انه من الطلائع الاولى للادباء الذين ينتمون الى هذا المغرب الكبير (1) وانشدته بعض اشعاره السائرة وذكرت له ما كان من احتفال الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز به في حين انه كان لا بأس به كثيرا بكبار شعراء العربية من امثال الفرزدق وجرير ، فلم يملك الدكتور نفسه ان قال لي بفرنسيته الحلوة مستحسنا . (o la la)

واستشهاد النحاة بشعره هو مما يدخل في باب تقدير المتقدمين له ، اذ كانوا لا يستشهدون الا بمن سلمت لغته من الشوائب . وقد تقدم الالماع في بحثنا الاول الى ما كان من نسبة بعضهم له ذلك البيت الشهير الذي سنستشهد به على نصب الفعل بان مضمرة بعد الواو ، وهو :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك اذا فعلت عظيم

وان كان الصواب انه لغيره . كذلك استشهدوا في معاني اللام بقوله

وللموت تغذو الوالدات سخالها
كما لخراب الدهر تبنى المساكن

ولعله من قصيدة تقدمت ثلاث مقطوعات منها . وهذا البيت بالخصوص هو مما نسبه له المرزباني كما عند ابن عساكر

الا ربما صار البعيض مصافيا
وحال عن العهد الصديق المثافن

---

(1) لم نحقق بعد ما اذا كان سابق ينتمي الى برابرة مغربنا الصغير ، وما جاء في صدر مقالنا السابق بدعوة الحق من هذه العبارة « دراسات في تاريخ الادب المغربية » لم يكن من وضعنا وانما هو من وضع قلم التحرير في المجلة

ونرجع الى ابن عساكر فنجده يقول : « سابق بن عبد الله ابو سعيد الرقي المعروف بالبربري » فيجمع له بين الوصفين البربري والرقي . ثم يقول : « روى عن ربيعة بن عبد الرحمن وداود بن ابي هند (ومكحول) وشعبة وعبد الله ابن سعيد بن ابي هند (ومطرف بن طريف) والعلاء بن عبد الرحمن) .. روى عنه (الاوزاعي) ومحمد بن يزيد ابن سنان الرهاوي وعبيد بن يزيد القردواني ومحمد بن سليم بن ابي داود وابو بدر شجاع بن الوليد السكوني (وموسى بن اعين) و (وعثمان بن عبد الرحمن الطرائفي) .. الخ » فيثبت ان الرقي الذي ذكر ابن ابي حاتم انه يروي عن العلاء بن عبد الرحمن وذكر ابن عدي انه يروي عن مطرف فضلا عن اشتراكه في بقية من روى عنهم من الشيوخ او رووا عنه بذكر الجميع كمكحول والاوزاعي .

ثم يشير ابن عساكر الى ما جنح اليه ابي حاتم من انهما شخصان اثنان وتجويز ابن عدي ان يكونوا ثلاثة ولكنه ينفصل على انهما اي البربري والرقي شخص واحد ، ويؤكد ذلك بالروايات التي يثبتها بسنده المتصل اليه من طريق ذكرهم من الرواة عنه والذين روى عنهم ، ومن جملتهم خصيب وابو خلف اللذان ذكرهما ابن ابي حاتم في شيوخ الرقي وابو حنيفة المذكور كذلك عند ابن عدي .

فوضح ان كلا من سابق البربري وسابق الرقي انما هما اسم لشخص واحد ، وان تلك الكنى المختلفة هي لهذا الشخص بالذات . وان كان بقي معنا خلاف فانما هو في سابق المطاطي الذي قد يتوهم انه هو صاحبنا ، والامر على ما رجحناه في بحثنا السابق من انه غيره ، وهناك سابق آخر هو ابن ناجية من الرواة ولا يشتبه بمن ذكرنا .

واما نسبه فقد اشتهر انه البربري ، ويضاف اليه بناء على التحقيق المار آنفا انه الرقي لسكناه في الرقة كما يأتينا قريبا في اخباره .

وجاء في اللباب لابن الاثير « الصحيح ان سابقا البربري ليس منسوبا الى البربر وانما هو لقب له » ولابسك ان ابن الاثير يعقب بهذا التصحيح على السمعاني الذي نسب صاحبنا الى البربر . واغرب الحافظ ابن عبد البر في جامع بيان العلم حيث قال فيه سابق البلوي المعروف بالبربري فجعله عربيا ونسبه الى بلي من عرب اليمن بدون سند ، وهو ما لم نعرفه لغيره .

لكنا نجد في ابن عساكر خبرا مرويا عن ابي عبيد الله بن مروان المزرابي يقول : « سابق البربري مولى الوليد يكنى ابا عبد الله ويقال ابو امية ، احد الزهاد المشهورين وله مع عمر بن عبد العزيز اخبار » فهو قد جعله مولى للوليد (بن عبد الملك) مما يقوي انه غير عربي وانه يمكن ان يكون من البربر لمكان فتوح الاموية في بلاد المغرب . وهنا لابد ان نتذكر ابيات سابق المطماطي التي رواها صاحب كتاب الذخيرة السنية في قتال البربر للروم بافريقية ايام سليمان بن عبد الملك ، وقد اوردناها في المقال الاول . وقائلها لابد ان يكون معاصرا لذلك القتال ، وليس عندنا شاعر يسمى بسابق وقته الا صاحبنا ، فان يكن هو قائلها فقد نزيد اطمئنانا الى انه بربري وانه من مطماطة بالذات .

وليس هذا فقط فقد جاء في لسان الميزان تعقيبا على ما سبق عن ابن عدي من ان صاحبنا انما له كلام في الحكمة والزهد ما نصه : « ومقتضاه ان البربري ليست له رواية ، وليس كذلك ، فقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال هذا من اهل بربر سكن الرقة » ففيه التصريح على سبيل الجزم بانه من البربر ، وبذلك لا يبقى لنا شك في نسبة البربري اخذا بقواعدهم من ان من حفظ حجة على من لم يحفظ وان المثبت مقدم على النافي — الى ان يقوم لنا دليل قاطع على خلاف ذلك .

اخبـــاره :

واخبار سابق كثيرة ، روى ابن عساكر عن ابي احمد الحاكم قال . ابو سعيد سابق بن عبد الله البربري امام مسجد الرقة وقاضي اهلها ثم ذكر مشيخته ومن روى عنه وقال بعد في الشاميين . وروى ابن عساكر ايضا عن ابي بكر الخطيب انمن جملة مشيخته الامام اباحنيفة، وروى عن البخاري قال سابق البربري روى عنه الاوزاعي مرسل بعد في الشاميين . ثم عقب على ذلك بقوله كذا قال ويعني انه روى عنه مشافهة لا ارسالا كما في تهذيب تاريخ ابن عساكر . وجاء في احد اسانيد ابن عساكر عنه اخبرنا سابق بن عبد الله وكان من البكائين .

اما الاحاديث التي رويت عنه حسبما ذكر ابن عساكر فهي : 1) حديث اذا مدح الفاسق غضب الله عز وجل ، وفي رواية اذا مدح الفاسق اهتز العرش وغضب له الرب عز وجل وهو الحديث الذي تكلم فيه ابن عدي على ما مر بسبب رواية سابق له عن ابي خلف وهو شخص غير معروف . وفي الرواية الثانية له عرفه الراوي بانه خادم انس بن مالك 2) حديث كان النبي صلى الله عليه وسلم يوتر من اول الليل ووسطه وآخره ثم ثبت له آخر الليل . 3) حديث الحلال بين والحرام بين وبين ذلك مشتبهات . فمن رتع فيهن فمن ان يأثم ومن اجتنبهن فهو ارفق بدينه كالمرتعي الى جنب حمى ، ومن ارتعى الى جنب حمى فيوشك ان يقع فيه ولكل ملك حمى، وحمى الله عز وجل في الارض الحرام .

يزيلني مالـي اذا النـفس حشرجت
واهلي وكدحي لازمـي لا ازايلـه
اذا كل عنـد الجهد يـا نفس منطقي
وعاينت عند الموت مـا لا احاولـه
وسل مـا بالجلد مـن ظاهـر الاذى
ولا يغسـل الـذنب المحالف غاسلـه
ومن تفلت الامـراض يومـا فانـه
سيوشـك يـومـا ان تصـاب مقاتلـه
وقد تفلت الوحـش الحبـال وربمـا
تقبضـت الوحشي يومـا حبـائلـه
اذا العلـم لم تعمـل بـه صـار حجـة
عليك ولم تعـذر بمـا انت جاهلـه
وقد ينعـش الذكـر القلـوب وانمـا
يكون حياة العـود في المـاء وابلـه
ارى الغصن لا ينمـى اذا جف اصلـه
وليس ببـاق مـن ابيحت اوائلـه
فان كنت قـد اتصرت هـذا فانمـا
يصـدق قول المرء مـا هو فاعلـه
ولا يستقيـم الـدهـر سهـم لوجهـه
بـه ميـل حـتى يقوم مائلـه
وملـ الـى الدنيـا اعتـراض وانمـا
بكال لـدى الميزان مـا انـت كائلـه
فلا تسكت بعـد الهدى عـن بصيـرة
كما نكث الحبـل المصاعف فاتلـه
وتطلب فـي الدنيـا المنازل والعلا
وتنسـى نعيمـا دائمـا لا تـزايلـه
كمن غـره لمع السـراب بقيعـة
فقصر عـن ورد تجـس مناهلـه
وقد خانت الدنيـا قرونـا تتابعـوا
كما خان اعلى البيت يومـا اسافلـه
وتصبح فيهـا آمنا ثم لـم تكـن
لتأمن فـي واد بـه الخوف نازلـه
وقد ختلتنـا باللطيف مـن الهـوى
كما يختل الوحشي بالشيء خاتلـه
رضينا بما فيهـا سفاهـا ولـم يكـن
يبيـع سميـن اللحـم بالغث آكلـه
وعافـة اللـذات تخشى وانمـا
يكدر يومـا عاجـل الامـر آجلـه
وان فرحت بالمـرء يومـا حلائـل
فلابـد يومـا ان تسـاء حلائلـه
فكم من فتى قـد كان في شرة الصبـا
فاقصي بعـد العذل عنـه عواذلـه
اذا مـا سمـا حـق اليـك وباطـل
عليك فـلا يذهـب بحقـك باطلـه
وقـد يأمل الراجـي فيكـذب ظنـه
امور ويلقى الشيء مـا كان يأملـه

وله هذه الابيات من الرجز في مدح رجل اسمه عـون ذكرها في تهذيب تاريخ ابن عساكر وقال انها ممـا رواه الحافظ من طريق ابي بكر الجوزقي ولم يذكر قصتها :

بـورك في عـون وفـي اعـوانـه
وفـي جواريـه وفـي غلمـانـه
وبـارك اللـه علـى دعـائـه
أطعمنـا عـون علـى خوانـه
بعطـي ومـا يقلـع عـن حفانـه
وعـن هدايـاه وعـن ايوانـه

ولا توجد هذه الابيات في مصور الاصل الذي اطلعنا عليه .

ومن تفاريق الابيات التي وقفنـا عليها له في جامع بيـان العلم لابن عبد البر مما لم يتقدم قوله :

والعلم ينفي ان اشفى الجهـول بـه
وبالـدواء قديمـا حسم الـداء

قد قيـل قبلـي فـي الزمـان الاقـدم
انـي وجـدت العلـم بالتعلـم

ونحفظه : انا وجدنـا .

وروى فيه ان سفيان الثوري كان ينشد متمثلا ببيتين لـه من لامية الطويلة المارة آنفـا وهمـا :

اذا العلم لـم تعمـل بـه كان حجـة
عليك ولم تعـذر بمـا انت جاهلـه
فـان كنت قـد اوتيت علمـا فانمـا
يصدق قـول المرء مـا هـو فاعلـه

وفيهما مخالفة قليلة لرواية القصيدة .

واخيرا وليس آخرا بحول الله هذه ستة وستون بيتـا من شعر سابق تضاف الى ثمانية وثمانين بيتا تضمنهـا البحث السابق فيكون المجموع سبعة وخمسين ومائة ، وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا ، ان شاء الله .

طنجة : عبد الله كنون

فلا تغترر ما عشت من متجمل
بظاهر ود قد تغطى البطائن

وانشد له الزجاجي في اماليه :

فلا تحفرن بيرا تريد اخا بها
فانك فيها انت من دونه تقع

كذاك الذي يبغي على الناس ظالما
تصبه على رغم عواقب ما صنع

وهو مما يستشهد به ايضا لجزم تصبه بدون جازم . واظنه من قصيدة طويلة سبق لنا رواية مقطوعة منها على نفس الوزن والقافية مما انشده سابق لعمر بن عبد العزيز .

ومما نسبه له المرزباني برواية ابن عساكر :

يخادع ريب الدهر عن نفسه الفتى
سفاها وريب الدهر عنها يخادعه

ويطمع في سوف ويهلك دونها
وكم من حريص اهلكته مطامعه

ونسب اليه ايضا البيت الشهير :
وكائن ترى من صامت لك معجب الخ .. وهو لزهير كما لا يخفى

وروى ابن عساكر ايضا قطعة من رائيته الكبرى جاء فيها هذا البيت ولم يرد في القصيدة بعد قوله : وليس يزجركم ما توعظون به الخ :

ما يشعرون بما في دينهم نقصوا
جهلا وان نقصوا دنياهم شعروا

وروي عن عثمان بن عبد الحميد قال دخل سابق البربري على عمر بن عبد العزيز فقال له عمر عظني يا سابق واوجز قال نعم يا امير المومنين وابلغ ان شاء الله ، فقال له هات . فأنشده :

اذا انت لم ترحل بزاد من التقى
ووافيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على ان لا تكون شريكه
وارصدت قبل الموت ما كان ارصدا

وروي له مما ثبت في وصية الحسن بن سهل لابنه ابراهيم ابن الحسن منسوبا الى سابق هذه الابيات :

العلم والحلم خلتان هما لخلق ربن اذا هما اجتمعا
صنوان لا يستتم حسنهما الا بجمع لذا وذاك معا
كم منوضيعسما به العلموالحلم فنال العلاء وارتفعا

ومن رفيع البنا اضاعهما اخمله ما ضاع فاتضع

وروى مما انشده ابو الفضل الرياشي هذه القصيدة

ان كنت متخذا خليلا فتوق وانتقد الخليلا
من لم يكن لك منصفا في الود فابغ به بديلا
وعليك نفسك فارعها واكسب لها عملا جميلا
ومن استخف بنفسه زرعت له قالا وقيلا
واقل ما تجد اللئيم عليك الا مستطيلا
والمرء ان عرف الجميل وجدته يأتي الجميلا
ولربما سئل البخيل الشيء لا يسوى فتيلا
فيقول لا اجد السبيل اليه ، يكره ان ينيلا
ولذاك لا جعل الاله له الى خير سبيلا
يا مبتني الدار التي هو مسرع عنها الرحيلا
ان لم تنل خبرا اخاك فكن له عبدا ذليلا
وتجنب الشهوات واحذر ان تكون لها قتيلا
فلرب شهوة ساعة قد اورثت حزنا طويلا

وله ايضا هذه القصيدة في الاتعاظ بالموت واحواله رواها ابن عساكر

تأوبني هم كثير بلابله
طروقا فغال النوم عني غوائله

فويحي من الموت الذي هو واقع
وللموت باب انت لابد داخله

أيا من ريب الدهر يا نفس واهن
نجيش له بالمفظعات مراجله

فلم ار في الدنيا وذو الجهل غافل
اسيرا يخاف القتل واللهو شاغله

فما باله يفدي من الموت نفسه
ويأمن سيف الدهر والدهر قاتله

ولا يفتدي من موقف لو رمى الردى
به جبلا اضحت سرابا جنادله

وبعد دخول القبر يا نفس كربه
وهول سبب المرجعس رلازله

اذا الارض جفت بعد نقل جبالها
وخلى سبيل البحر يا نفس ساحله

فلا يرتجي عونا على حمل وزره
مسيء واولى الناس بالوزر حامله

اذا الجسد المعمور زايل روحه
خوى وجمال البيت يا نفس اهله

وقد كان فيه الروح حينا يزينه
وما الغمد لولا نصله وحمائله

كان الخلفاء لا يقدمون على كبيرة اوصغيرة الا بعد استشارتهم، وان جلهم من اهل السنة والجماعة من اتباع مالك . كما ورد ذلك عند عدة مؤلفين من بينهم الجغرافي المقدسي الذي اهتم كثيرا بالفرق الاسلامية والاديان في كتابه « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» قال «واهل الاندلس على مذهب مالك وقراءة نافع وهم يقولون : « لا نعرف الا كتاب الله وموطأ مالك فان ظهروا على حنفي او شافعي نفوه . وان عثروا على معتزلي او شيعي ربما قتلوه .. »

فعلى هذه الحال من ازدهار فكري وادبي ونوع من العهد الذهبي كانت الاندلس على عهد دولة الامويين . وبعد وفاة الناصر سنة 350 تولى ابنه الحكم فصار على سيرة ابيه .

وقد كان كذلك ولوعا بالعلم والادب ويجمل بنا ان نذكر في هذا الصدد ، مبلغ عنايته بالعلم عن ابن حزم نفسه حيث قال : ان عدد الفهارس في خزانة الحكم العلمية ، التي فيها تسمية الكتب اربع واربعون فهرسة في كل فهرسة عشرون ورقة وليس فيها الا ذكر الدواوين فقط » .

وقد توفي سنة 366 بعد حكم طال ست عشرة سنة . وبوفاته ضعفت الدولة الاموية وبدأت تظهر علامات الفتور والاضمحلال على العهد الذهبي للاندلس بقيام الفتن والاضطرابات ومن ثمة لم تقم للامويين قائمة اذ استبد بالامر الوزراء والحجاب فسادت بذلك دولة بني عامر في عهد هشام ابن الحكم الذي كان يبلغ عشرة اعوام فقط، فبانقراض الخلافة الاموية استقل كل وال بولايته ، وبدأ عهد ملوك الطوائف في الاندلس فظهر ابن جهور في قرطبة وابن عباد في اشبيلية والفتن قائمة حتى ملك الاندلس يوسف بن تاشفين من المرابطين .

هذه نظرة خاطفة عن الدولة الاموية وانقراضها الذي صادف العهد المضطرب الذي شهده وعاشه ابن حزم . فكيف تكون نشأته وتربيته وانفعالاته في مثل هذه البيئة ؟

أصلـه ، ونشأتـه ، وشبابـه :

اسمه الكامل : ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم ، وقد اجمع مترجموه على انه ازداد يوم آخر رمضان سنة 384 هـ الموافق 7 نوفمبر 994 بقرطبة . وكان ينتمي الى عائلة اصلها من قاعة « منت ليشم » في اقليم الزاوية على حسب «ارشاد الاريب» ولم يعتنق الاسلام الا جده الاعلى يزيد الذي كان مستعجبا وذا اصل فارسي . وتولى والده الوزارة للحاجب المنصور بن ابي عامر ثم لابنه المظفر واسرته كما قال الفتح بن خاقان . « بنو حزم فتية علم وادب وتنبيه ومجد وحسب » وقد طعن بعض الناس في انتساب ابن حزم الى فارس كما ورد ذلك عند ياقوت . وقد تغير حال الاب والابن بتغير السلطان وابعاد العامريين خصوصا بعد ان تولى الحكم هشام الثاني في ذي الحجة عام 400 الموافق ليوليوز سنة 1010 . فتوفى ابوه بذي القعدة سنة اثنتين واربعمائة بعد ان عاش هذه الانقلابات السياسية والاضطرابات والفتن الناتجة عنها التي غيرت حاله واساءت اليه بعد عز شامخ ورفاهية كبيرة . فغادر ابو محمد علي بن حزم قرطبة في محرم 404 وكانت هذه قد اثرت فيها الفتن . ومن حسن حظنا ان ابن حزم اعطانا صورا ضافية عن طفولته وشبابه في كتابه « طوق الحمامة في الالف والالفه » الذي يمكن ان يعد من عدة وجوه كترجمة ذاتية للكاتب او «اعترافات» له مكتوبة في قالب شعري يسحر من يطلع عليه ويغمره كما يمكننا ان نرى فيه ، كما سيأتي ذلك من بعد لما نتكلم عن ابن حزم كأديب وشاعر ، دقة تصويره وتعبيره لما يروج في النفوس من الخواطر والهواجس وانفعالات الاشخاص خصوصا النساء منهم الشيء الذي يجعله يذكرنا في اولئك الكتاب الفرنسيين الذين ظهروا في القرن السابع عشر كراسين على الخصوص ، ولا غرابة في ذلك اذ المنبع واحد ، وهو الثقافة اليونانية . والذي يهمنا هنا هو اننا نجد معلومات ضافية عن نشأته وشبابه ودراسته ومراهقته وحبه في تأليفه هذا الذي قد يكون من الراجح انه انتهى من كتابته سنة418 وعمره يناهز حينئذ اربعا وثلاثين سنة . وقد اخبرنا ابن حزم انه نشأ نشأة المترفين كما يؤكد ذلك صاعد حين يصفه بانه كان : « يلبس الحرير ولا يرضى بالمكانة الا بالسرير » . وقد وصف ابن حزم قصور آبائه التي كان يسكن فيها وهو منعم غير مكلف بعمل حتى توفي والده .

واما تربية ابن حزم بالعناية الخاصة التي اولاها له ابوه حيث جعل له المربيات اللواتي اعتنين بنشأته وتهذيبه . ومن جملة ما يحكي عن طفولته قوله . «ولقد شاهدت النساء وعلمت من اسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري » لاني ربيت في حجورهن ، ونشأت بين ايديهن ، ولم اعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال الا وانا في الشباب وحين تبقل وجهي . وهن علمنني القرآن وروينني كثيرا من الاشعار ، ودربنني في الخط . ولم يكن وكدي واعمال ذهني منذ اول فهمي وانا في سن الطفولة جدا ، الا تعرف اسبابهن والبحث عن اخبارهن وتحصيل ذلك ، وانا لا انسى شيئا مما اراه منهن » وبدل ان تصرفه هذه العيشة الراضية والتربية الارستقراطية عن الجد والمثابرة في طلب العلم فانها ضاعفت احساساته وشعوره ونمت فيه مدارك الملاحظة واستقراء الامور وتمييزها . ويخبرنا ياقوت ان ابن حزم :« اقام في الوزارة من وقت بلوغه الى انتهاء سنه ست وعشرين سنه » كما وزر للمرتضى صاحب بلنسية وحارب فيجيشه بغرناطة وقد اسر سنة 403. ثم لما تولى الخلافة صديقه عبد الرحمن المستظهر في رمضان سنة 414 اسند له الوزارة التي اقام فيها بضعة اشهر حتى مقتل عبد الرحمن في

بمناسبة المائة التاسعة لذكرى ابن حزم
عصره وإنتاجه

للأستاذ فتحي النجاري

قبل ان نحاول ان نحيط بعض مظاهر ابن حزم ذلك الكاتب العظيم الذي انجبته مدينة قرطبة من بين مفكريها سود ان نلقي نظرة ولو سريعة على عصر ابن حزم وما كانت عليه الاحوال في ذلك الزمن اما له من تداخل بين الوسط والانتاج الفكري ولتأثير البيئة على اصحابها ، مع العلم بان هذا لا يكفي لتفسير ظهور كتاب وشعراء فطاحل من الآونة الاخرى اذ انه بقى مجال للمواهب الخاصة وللعبقرية النتخصبة .

على كل حال فما كانت عليه الاندلس مجملا من الناحية السياسية والفكرية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري آخر القرن العاشر المسيحي الذي انجب ابن حزم الذي يعد بمثابة علم من اعلام الدين، والشعر والادب والسياسه والتاريخ والفلسفة فقد توفي الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر سنة 350 ه بعد عهد مزدهر دام خمسين سنة قضى على الاضطرابات وهيأ للناس رخاء وامنا ساعدا على رفع شان العلم والعرفان . وقد ساهم الخليفة مباشرة في احياء هذه الحركة العلمية بتقريبه له الكتاب والشعراء وفتح خزائنه لهم . كما اعتمد في حكمه على الصقالبة الذين كان يثق بهم اكثر من العرب والبربر ، حتى كان كثير منهم من الارستقراطيين في المال والجاه . وقد وصف احمد امين قرطبة في هذه الفترة في كتابه ظهر الاسلام ج 3 فيقول :

« ومن اجل هدوء البلاد وطمأنينتها وطول عهد عبد الرحمن استطاعت الحضارة الاندلسية ان تزهو وتزدهر ، حتى كانت قرطبة تفوق كثير من مدن اوربا . ازدهرت التجارة والزراعة ، حتى بلغ دخل الدولة السنوي من طريق الضرائب والمكوس في عهد عبد الرحمن الناصر 20 مليون دينار ، ويقول الاستاذ بروفنسال : انها بلغت فيما بعد 40 مليونا وربما كان وصف العمارة التي انشئت في عهد عبد الرحمن من اكبر الدلائل على حضارته ، كالاوصاف البديعة التي وصفوا بها مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن هذا ، وسماها باسم جارية حظية عنده . قالوا انه عمل في بنائها عشرة آلاف عامل في خمس وعشرين سنة . وبنى فيها قصرا للخليفه ومنازل للموظفين ، الى البساتين والقاعات من الذهب والرخام ذي الالوان المتعددة ، وبجانب هذه الحضارة المادية كانت الحضارة الفكرية من شعر وفلسفة وتصوف وحركات دينيه وعلمية .

وهذا ما حدا بابن حزم ان يكتب رسالة في فضل علماء الاندلس ، عاب فيها على اهل بلده تقصيرهم في ذكر علمائهم وآثارهم، فقد بين في رسالته هذه ان الاندلسيين لا يقلون على المشرقيين في سائر العلوم اللهم الا ما كان من علم الكلام والحساب والهندسة وهذا ما يؤكده القلقشندي في رسالة له في فضل الاندلس : « ان الاجماع حصل على فضل الاندلس ، وقد نشأ فيهم من الفضلاء والادباء والشعراء ما اشتهر في الآفاق الى ان ذهبت اخبارهم ودرسوا ودرست آثارهم » وكان من ملوكهم العلماء : المنصور بن ابي عامر ، وبنو عباد ، وبنو صمادح ، وبنو الافطس ، وبنو ذي النون ، وبنو هود . ومن وزرائهم الادباء الذين بالغوا شوطا عظيما في النظم والنثر .

وقد اشهر منهم في الفقه عبد الملك بن حبيب ، وابو الوليد الباجي ، وابو بكر بن العربي، وابو الوليد ابن رشد وفي الحفظ ابن حزم الذي زهد في الوزارة ومال الى رتبة العلم التي اعتبرها فوق كل رتبة . وقد يطول بنا الكلام لو اردنا ذكر مشاهيرهم ولنكتف بالاشارة الى اللغوي الكبير ابن سيده صاحب كتاب المحكم ، والنحوي ابي علي الشلوبيني والفيلسوف ابن باجة ، والمنجم المقتدر ابن هود والطبيب ابن طفيل والاديب ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد . اما مدينة قرطبة نفسها فقد كانت عاصمة ملك ومركز ادب وعلم ، وصفها الثعالبي بهذا التعبير « واما قرطبة فكرسي المملكة في القديم ، ومركز العلم ، ومنار التقى ، ومحل التعظيم والتقدير » . وقد كان للفقهاء سطوة كبيرة حتى

وقد بلغ مناه فعلا بانصرافه الكامل للعلم المنقول والمعقول الشائع في عصره ، فابو مروان بن حيان يقول فيه : « كان ابو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدال ونسب وما يتعلق باذيال الادب مع المشاركة في كثير من انواع التعاليم القديم من المنطق والفلسفة » والذهبي يشهد بدوره ان : « ابن حزم رجل من العلماء الكبار ، فيه ادوات الاجتهاد كاملة » ويعد ان حدته الحادة وصراحته التي لا تعرف حدودا ، ومعارضته لخصمه اشد الاعتراض تلك هي ميزته وظاهرة من مزاجه جعلته يناظر ويجادل بابلغ العبارات واشدها ولا يقبل مهاودة ممن لا يشاطره رأيه كما يتجلى ذلك في كتبه المذهبية والفقهية التي يروي فيها جداله ككتابه « الملل والاهواء والنحل » و« المحلى » .

مصنفاتــه :

ورجل كابن حزم الذي امتاز بفكر عميق ومعرفة واسعة صرف كل همه للعلم ونشره ، لا غرابة ان يصنف الكتب الكثيرة المتعددة المواضع واكثرها في الفلسفة والمنطق والكلام والشريعة والحديث والادب . ومن المؤسف جدا اننا لم نتوصل الا بالقليل من تلك الكتب التي كانت على ما يزعمه معاصرو ابن حزم نحو الاربعمائة . وفقدانها راجع الى امرين صراحة ابن حزم وجداله العنيف ، وعدم تسامح الحكام والعنصرية المذهبية المالكية السائدة حينئذ في الاندلس والتي ادت بالناس عامة تحت ضغط الحساد والفقهاء الى احراق كتب ابن حزم باسبيلية . وقد تعرض ابن حزم لذلك بقوله .

فان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينزل اذ انزل ويدفن في قبري
دعوني من احراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
والا فعودوا في المكاتب بداءة
فكم دون ما تبغون لله من ستر

وسنقتصر على ذكر البعض من كتبه التي وصلت الينا حتى لا نقع ملل من جراء سرد اسمائها كلها فنذكر على الخصوص :

- ابطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد .
- الاحكام في اصول الاحكام .
- الاخلاق والسير .
- اخلاق النفس .
- اسماء الله الحسنى .
- الاصول والفروع .
- اظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والانجيل وبيان تناقض ما بايديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل .
- الامامة والسياسة .
- البيان عن حقيقة الايمان .
- التقريب لحدود المنطق .
- جمهرة الانساب .
- شرح احاديث الموطأ والكلام على مسائله .
- الصادع في الرد على من قال بالتقليد .
- طوق الحمامة .
- الفصل في الملل والاهواء والنحل .
- رسالة في المفاضلة بين الصحابة .
- كشف الالتباس لما بين الظاهرية واصحاب القياس .
- المحلى في شرح المحلى .
- مداواة النفوس وتهذيب الاخلاق والزهد في الرذائل .
- الناسخ والمنسوخ .
- نقط العروس .
- نكت الاسلام .

ومن خلال مصنفاته التي وصلت الينا يتبين ان ابن حزم جمع بين العلم والادب والشعر والاصول والفقه والتاريخ والفلسفة والكلام والجدال لذلك رأينا لزاما ان نشير ولو باختصار الى هذين المظهرين اللذين غلبا عليه فهو شاعر اديب ذو لوعة صادقة وعاطفة ناطقة وشعور رقيق ، وفي نفس الوقت امام كبير ومجادل فقيه يدافع عن آرائه بكل ما اوتي من صراحة وقوة .

ابن حزم شاعر اديب :

وقد كان لمؤلفاته هذه تأثير عميق على الاجيال التي تلته الى درجة ان فريقا يعتبره اديبا كبيرا وفريقا آخر اماما وفقيها عظيما .

ومما يلاحظ ان جانبه الادبي الشاعري طغى على جانبه الآخر الفقهي والفلسفي عند سواد الناس .

فاسم ابن حزم مقرون عند العوام وسواد الناس بكتابه « طوق الحمامة » وذلك لما فيه من عاطفة صادقة ودقة الوصف وسحر البلاغة . ولا غرابة في هذا فان الظاهرة الغير الجدية والكتابة الخفيفة هي التي تطغى على الكتاب الكبار . فالجاحظ مثلا معروف بنكته عند العوام اكثر مما هو معروف بتآليفه الجدية . اضف الى هذا اننا نجد في هذا الكتاب مرآة واضحة عن نفسية ابن حزم ومجتمعه فنشاطره افراحه واحزانه وحبه رغم مر القرون . والذي يزيده تقديرا هو انه لم يكتسب قط بشعره فانه كان يقول الشعر لارضاء نفسه مترجما عن آلامه واحزانه ومسراته وحبه فيضفي فيه شعوره وعواطفه الصادقة

نفس السنة وعاد ابن حزم الى الوزارة من جديد ايام هشام المعتمد فيما بين سنة 418 ــ 422 وتنتهي هنا حياته الوزارية التي سيتركها نهائيا ليصرف كل جهوده في العلم والتصنيف والجدل وبث دعوته في المذهب الظاهري والدفاع عن آرائه.

وقد تسبب لابن حزم من اجل تشيعه للامويين نكبات حيث انقرضت دولتهم وقامت دولة العلويين الطالبيين وابن جهور خصوصا، وامتاز ابن حزم بصراحة متناهية ورباطة جأش جعلتاه لا يتراجع في الحق ولا يقبل مهاودة فيه، ولا يتخذ سبل المصانعة او الرياء او ما نسميه اليوم بالسياسة والمداراة. وقال يصف تلك النكبات التي حلت بقرطبة واعتقاله وتغريبه: « ثم شغلنا بعد قيام امير المومنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء ارباب دولته، وامتحنا بالاعتقال والتغريب والاغرام الفادح والاستتار وارزمت الفتنة والقت باعها، وعمت الناس وخصتنا الى ان توفي ابي، الوزير رحمه الله ونحن في هذه الاحوال، بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام 402 هـ واتصلت بنا تلك الحال بعده.. ثم ضرب الدهر ضرباته، واجلينا عن منازلنا، وتغلب علينا جند البربر فخرجت عن قرطبة اول المحرم سنة 404 هـ ....» وها هو يصف خراب دوره مستعملا سردا بديعا ممتعا « وقد اخبرني بعض الوراد من قرطبة وقد استخبرته عنها: انه رأى دورنا ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها، وقد امحت رسومها، وطمست اعلامها، وخفيت معاهدها، وغيرها البلى، وصارت صحارى مجدبة بعد العمران، وفيافي موحشة، بعد الانس، وخرائب منقطعة بعد الحسن، وشعابا مفزعة بعد الامن..» ثم يزيد قائلا في خاتمة كتابه « طوق الحمامة »ما كان عليه من اضطراب وترحال وتنكر الاحباب: « فانت تعلم ان ذهني متقلب وبالي مهتم بما نحن فيه من نبو الديار، والجلاء عن الاوطان، وتغير الزمان، ونكبات السلطان، وتغير الاخوان وفساد الاحوال، وتبدل الايام، وذهاب الوفر، والخروج عن الطارف والتالد، واقتطاع مكاسب الآباء والاجداد، والغربة في البلاد، وذهاب الجاه والمال، والفكر في صيانة الاهل والولد، واليأس من الرجوع الى موضع الاهل، ومدافعة الدهر وانتظار الاقدار....» فلم يذق ابن حزم الاستقرار الا في اول عهد شبابه ثم لم ينعم بعد بطمأنينة الاستقرار في اي مكان من اجل اغراء حساده به ووشايتهم له لحدة لسانه وافراطه في الصراحة. فهذا ما جعله يطوف بين المرية وشاطبة وبلنسية واشبيلية وجزيرة ميورقة ويرحل الى القيروان فيرجع لوطنه الاندلس.

طلبه وعلمه ومصنفاته :

لقد تقدم لنا انه تعلم مبادىء العلوم والقرآن على يد نساء من قصر ابيه لكن لم يستوعب الامور بل حتى في السادسة والعشرين من عمره وهو يجهل ابسط الامور الفقهية كما يشهد بذلك « ارشاد الاريب » انني بلغت الى هذا الس[ن] وانا لا ادري كيف اجبر صلاة من الصلوات » وقد يخبر[نا] الوزير الامام ابو محمد بن العربي عن الظروف المباشرة [التي] دفعت ابن حزم ليتفقه في علوم الدين وهي جهله بأبسط الا[مور] الفقهية. اما الفتن والمحن فقد ارغمته كذلك ان يترك الوز[ارة] ويتعاطى الدرس والبحث والتأليف، والمقري وابن بشكو[ال] في الصلة، يحددان تاريخ اول سماعه بقولهما: «و[كان] سماعه عن ابن الحسور قبل الاربعمائة ».

شيوخه :

سمع ابن حزم كذلك على عدة شيوخ نحص بالذكر منهم ابا عمر احمد بن الحسين ويحيى بن مسعود ابن وجه الجنة، ويوسف ابن عبد الله القاضي، وابا بكر حمام بن احمد القاضي، ومحمد بن سعيد بن نبات. وقرأ الفقه على ابي عبد الله بن دحون. وقد اخذ بالقول بالظاهر ــ على ما يظهر ــ عن مسعود بن سليمان بن مفلت ابو الخيار. قال الضبي: « مسعود فقيه عالم زاهد يميل الى الاختيار والقول بالظاهر، ذكره ابو محمد بن حزم وكان احد شيوخه » وقد تتلمذ لشيوخ كثيرين وذكر هو نفسه في « طوق الحمامة » أنه طلب الحديث على سائر شيوخ المحدثين بقرطبة.

تلاميذه :

وقرأ عليه بدوره طلاب منهم ابو عبد الله الحميدي وابنه الفضل ابو رافع، والامام الوزير ابو محمد بن العربي. وقد روى عنه الكثير وصاحبه ابن العربي سبعة اعوام وتتلمذ عليه اكثر تصانيفه، كما يشهد بذلك. « صحبت الامام ابا محمد علي بن حزم سبعة اعوام، وسمعت منه جميع مصنفاته » حاشا المجلد الاخير من كتاب «الفصل». ومما يروى عن عزيمته لطلب العلم وحسن تنبيه محادثته مع الباجي الذي قال له: « انا اعظم منك همة في طلب العلم لانك طلبته وانت معان عليه، تسهر بمشكاة الذهب، وطلبته وانا اسهر بقنديل بائت في السوق، فاجابه ابن حزم بهذا الجواب المسكت الذي يظهر دهاء مؤلفنا وذكاءه: وغابت الفصوى من طلب العلم من اجل العلم، هذا الكلام عليك لا لك، لانك طلبت العلم وانت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وانا طلبته في حين ما تعلمته وما ذكرته، فلم ارج به الا علو القدر العلمي في الدنيا والاخرة ». فكانت غايته هي نشر العلم والعرفان وانشد في ذلك:

مناي من الدنيا علوم ابثها
وانشرها في كل باد وحاضر

دعاء الى القرآن والسنن، التي
تأسى رجال ذكرها في المحاضر

وكان يعتبر معاوية كمجتهد مخطئ ، وقد اوضح فكرته هذه في كتابه « المفاضلة بين الصحابة » .

4 ــ الخوارج وما يشغلهم من مسائل كالايمان هل يزيد او ينقص ، وما موقف الاسلام من تارك الصلاة او مرتكب الكبائر وتحديد الامة ، هل يعتبر من دار الكفر او الايمان من لم يتبع الخوارج . ويعتبر ابن حزم اهل السنة اهل حق ، اذ الفرق الاخرى هم اهل البدع ولكن لا يمنعه هذا من الرد على الاشاعرة بالاخص وان انتسبوا الى اهل السنة والجماعة .

وعلى نقيض ما شهدناه في ابن حزم الاديب الشاعر من رقة العواطف وسيل الشعور ورهافة النفس فانه يظهر في مناقشاته العلمية بمظهر المجادل العنيف الذى لا يقبل مهاودة ولا تسامحا في الافكار . فتاليفه مثلا « الملل والاهواء والنحل » مرآة لتلك الحفلات التي كان يناظر فيها بعض الفقهاء المسلمين كأبي الوليد الباجي وحتى بعض احبار اليهود والنصارى . فأسلوبه هنا عنيف جدا غير هادىء . ويظهر من هذا انه كان مع الاسف ضيق النفس وحاد المزاج يناقش خصومه بعبارات ممزوجة بالسب والقذف لا تليق بمقامه وعلمه ، فانه لم يعمل بقوله تعالى : « وجادلهم بالتي هي احسن » وقوله « ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » فلقد كان بوده ان يدافع عن افكاره بطرق التي به ويقنع مخالفيه بدل ان ينفرهم منه ويؤلبهم عليه . فالصراحة لا تتنافى في نظرنا مع اللباقة وفرض الرأي بالعنف والقوة وشدة اللهجة بل السب هو وسيلة الضعفاء الذين لا يستطيعون الادلاء بالحجج القاطعة . وحاشا معهذا ان يكون ابن حزم من اولائك الذين ينقصهم الحجة ولا يعرفون طرق الجدال لكن ذلك راجع الى مزاجه وابتلائه بما اسماه « داء الصراحه » ، والطبيعة تغلب على التطبع . وقد لحق ابن حزم ــ كما اشرنا الى ذلك ــ اضطهادات من قبل المخالفين والحساد عنه طوال حياته وبعد مماته من جراء قساوة لهجته وعنفه . فقد ساهم بنفسه في طرف من من نكباته وليست صفة العبقري التي اتصف بها هذا الكاتب العظيم هي التي جعلته غير مفهوم من عصره . فالكمال لله وكفى المرء نبلا ان تعد معائبه .

وجانب من جوانب انتاج هذا الكاتب العبقري تكفي لمكانته بقية هفواته . ومما يشرفه انه يعتبر اول مؤرخ للافكار الدينية ، في كتابه « الفصل » الذي يمتاز به عن من سبقه بطريقته العلمية في التبويب والاستنباط ، وهي طريقة البحث العلمي المعمول بها في يومنا هذا . وقد شرح ذلك الاستاذ الشهير Asin - Palacios في مقدمة ترجمته « الفصل » واستعرض مناقشة ابن حزم لليهودية وكتبها ونصوصها التوراة والبراهين العقلية التاريخية التي اوردها لينكر صحة هذه ويبين تحريفها .

وابرز ان ابن حزم يناقش كذلك العقائد الانجيلية المسيحية بجميع الحجج والمناقضات التي اوردها فيما بعد بحاث القرن الثامن عشر امثال فولتير . وبدراسته للنصوص دراسة علمية ، نقدية تاريخية فهو معلم « رونان » . ولم يكن تأثيره مقتصرا على دراسات تأريخ الاديان وعلم مقارناتها بل اغرب من هذا ، فلا يبعد ان يكون ابن حزم قد اثر حتى في الديانة المسيحية كديانة بطرق غير مباشرة . فقد يلاحظ الاستاذ اسين بلاسيوس عن حق ان ابن حزم استعمل مذهبه الظاهري كذلك في تفسير الانجيل كما فعل في الاسلام فكان يستنكر تأويل رجال الكنيسة ويخشى ان يكونوا خاطئين في تأويلاتهم هذه . فكانت نتيجة ذلك القول بالرجوع الى النصوص ، وترك التأويلات والعمل بالاجتهاد الشخصي . وهذا ما جاءت به مدرسة الاصلاح المسيحي البرتستانتية .

وشخصية كابن حزم تحمل مثل افكار ابن حزم واثرت حتى في الديانات الاخرى فمن باب اولى واحرى ان تؤثر في دينها كذلك تأثيرا بالغا وبعث فيه تيارات جديدة . فحركة الاصلاح في الاسلام هي مدينة لامور كثيرة لابن حزم ، منها استنكاره للتقليد ، وادخاله الطرق العلمية العقلية في دراسة الاديان . فله فضل كبير على آباء حركة التجديد والاصلاح في الاسلام التي تقول بالرجوع الى النصوص وبالاجتهاد ، خصوصا منهم ابن تيميه الحنبلي ، وعبد الوهاب ومن تلاهم من بعد كالافغاني والشيخ عبده ورشيد رضا .

فقد كان ابن حزم يمثل اهل التوحيد الذين حاربوا التوسل بالاولياء ومذاهب الصوفية لما فيها من انزلاقات وخرافات ، ولذا نعتبر ابن حزم ابا الحركة السلفية .

فكان جمع بين الادب والعلم بما فيه السماعي والعقلي وكان لا بد لهذا الصدى الكبير ، اثر في الاجيال التي تليه ولا زال تأثيره يسري ويعمل ، ولا ادل على ذلك من حركة التجديد والاصلاح الاسلامية التي ظهرت في اول هذا القرن والطرق العلمية لدراسة النصوص الدينية دراسة نقدية ، كان لا بد ان ينصف ويجد من يعترف له باصالة فكره وسعة اطلاعه ويجعله في المقام الذي يليق به رغم ما عرف به من عنف الجدال وضيق الصدر الذي ينفر منه الناس ويؤلبهم عليه . فالمؤرخ الشهير والفقيه الجليل الذهبي يشهد بأن « ابن حزم رجل من العلماء الكبار فيه ادوات الاجتهاد كاملة . » وابن تيميه كثيرا ما يعتمد عليه ويستشهد به ولم يتوقف صيت ابن حزم في القرون الحالية بل استمر مفعوله حتى قرننا هذا حيث اصبح موضع دراسات وابحاث من طرف عظماء المؤرخين والكتاب الشرقيين منهم والغربيين وقد يطول ذكر اسمائهم ان نحن اردنا ان نتعرض اليهم كلهم ، وهذا ما يمنح ابن حزم صفة عالمية فيحتل المكانة اللائقة به بين عباقرة وعظماء الانسانية .

الرباط ــ فتحي النجاري

وقد ترك لنا اكثر من الف بيت في موضوع الحب كما ترك نثرا بديعا في هذا الموضوع ومن جملة ذلك هذه الاعترافات التي تعبر عن عواطف صادقة ومشاعر رقيقة : « ولقد جربت اللذات على تصرفها ، وادركت الحظوظ على اختلافها . فما الدنو من السلطان ، ولا المال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ولا الاوبة بعد طول الغيبة ، ولا الامن بعد الخوف ، ولا التروح على المال .. من الموقع في النفس ما للوصل ، ولا سيما بعد طول الامتناع وحلول الهجرة ..

وقد قال ايضا في هذا الباب . « ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه . ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكم الوزراء ، وانبساط مدبري الدول ، فما رايت اشد تبجحا ولا اعظم سرورا بما هو فيه من محب ايقن ان قلب محبوبه عنده..» وحضرت مقام المعتذرين بين ايدي السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رايت اذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان . » وهذا يدل على رهافة حس الشاعر الاديب الذي احب وعرف الحب وتوصل الى تعرف النفوس وما انطوت عليها . وقد اسفد شعره بانه تغلب عليه من الاونة الى الاخرى الوان اساليب الفقهاء لكن هذا لا ينقص من قيمته كثيرا ففيه كذلك كما رأينا معاني لطيفة وتعبير عن عاطفة صادقة . ومن ذلك قوله :

لئن اصبحت مرتحلا بجسمي
ففلبي عندكم ابدا مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى
له سأل المعاينة الكليم

ابن حزم فقيه مجادل :

وقد يتفادى هذا النقص — ان اعتبرناه نقصا — تراثه الفقهي الذي خلفه فانه يجب ان لا يغيب عن ذهننا ان ابا محمد علي بن حزم كان قبل كل شيء اماما يدعو الى الظاهرية وفقيها جليلا يهتم بمسائل الدين والشريعة ، وقد يمكن ان تدخل هنا ريبة في بعض الاذهان عن صدق هذا الامام وهو صاحب غزل له المام بأحوال النساء ، لكنه ان احب عفف ، ويقول في هذا المضمار : « اني لاعرف هذا وانقه ، ومع هذا يعلم الله — وكفى به عليما — اني بريء الساحة ، سليم الاديم ، صحيح البشرة ، نقي الحجرة . واني اقسم بالله اجل الاقسام اني ما حللت مئزري على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنى منذ عقلت الى يومي هذا . والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى ، والمعتصم فيما بقي . » فلا تناقض في حياة ابن حزم فهو اديب متعفف ، وامام كبير ، قال احمد امين في ظهر الاسلام : « وكان عالم الاندلس الديني غير مدافع ابن حزم ، فقد كان واسع الاطلاع ، قوي النفس في الجدال ، متعدد نواحي النبوغ لسنا يهاجم من خالفه ، حتى يدخله في قمقم . يظن من له علما انه لا يحسن غير هذا العلم لمهارته فيه . فاذا هو كذلك يحسن كل علم تقريبا ، فهو نابغة في الحديث ، وفي علم الكلام ، وفي التاريخ ، وفي اصول الفقه ، وفي الادب ومما امتاز به ابن حزم انه لم يتبع في الفقه المذهب السائد في الاندلس وهو مذهب الامام مالك بن انس . ولكنه اتبع المذهب الشافعي وهذا هو احد اسباب اضطهاده من لدن الامراء والفقهاء لكنه سرعان ما عدل عن مذهب الشافعي واجتهد بناء على «قواعد اهل الظاهر» وذلك يرجع لكراهيته للتقليد ولتأثير استاذه الظاهري ابي الخيار فأخذ بالكتاب والسنة والاجماع واستنكر الرأي والقياس كما فعل من قبل صاحب هذا المذهب داود بن علي الاصفهاني المتوفى سنة 270 هـ وقد اوضح وبسط مذهب الظاهرية في كتابه في اصول الفقه « الاحكام في اصول الاحكام » الذي يضع فيه اسس الظاهرية وهي : نفي القياس ، والتمسك بالعموم اعتني بدلالة القرآن والحديث والقول بالبراءة الاصلية وهي اباحة كل شيء ما لم يمنعه نص صريح وبتأثير ابن تيمية بهذا المبدأ يقول بالتوقيف في العادات والعفو في المعاملات ، ثم التمسك بظاهر اللفظ بدل التأويل . وقد حمل الفقهاء على هذا المذهب واشتدوا عليه كونه يضعف الشريعة والعقيدة بتركه المشكلات التي لم تخطر لنبي محمد (ص) ولا لاصحابه ، ويؤدي هذا كذلك الى التشبيه والتجسيم فيما يخص صفات الله عز وجل ، ولكن ابن حزم قد استطاع ان يجنب التشبيه باتخاذه موقفا وسطا بين اهل السنة والجماعة واصحاب التأويل المعتزلة فيما يتعلق بالصفات .

اما كتابه في الفروع « المحلى » فانه عرض المذهب الظاهري كما يفهمه ابن حزم الذي يظهر فيه بمظهر المجتهد المطلق .

وبالنسبة في اصول الدين المسمى بـ « كتاب الملل والاهواء والنحل » فقد يقارن فيه الاسلام بباقي الديانات التي يدحضها في « كتاب النحل » ثم يدرس الفرق الاسلامية في كتاب الملل فيقسم تلك الفرق الى اربع دون اهل السنة والجماعة

1 — المرجئة التي يتعرض اثناء دراستها الى مسألة الايمان والكفر والوعيد .

2 — المعتزلة فيبحث في نفس الوقت مسألة التوحيد التي له فيها موقف خاص .

3 — الشيعة التي يدرس معها الامامة التي تهتم بها وتجعلها محورها التي تقوم عليه . وموقف ابن حزم من الامامة والخلافة واضح ، فانه كان يميل الى الامويين ،

رعي الجمال خير من رعي الخنازير .. !

وعلى كل فسيظل السؤال مطروحا فى انتظار دررنا بنصوص معاصرة تجعلنا نطمئن كل الاطمئنان..

والمصدر المعاصر الذي بين ايدينا الآن هو مذكرات الامير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة . وقد كتبها فى منفاه باغمات وهي لا تشير الا الى الرسائل والسفارات . ولا تعرج على جواز المعتمد الى المغرب .

قرار يوسف بن تاشفين

كان ابن تاشفين ومساعدوه الاقربون من قواد ووزراء ورجال القضاء والفتوى الشرعية لا تعوزهم المبررات المادية والدينية ، وقد عالجوا القضية الاندلسية طيلة سنوات وخاضوا عدة معارك لصد التيار الصليبي .. كما كان ابن تاشفين لا تعوزه المبررات السياسية لتصفية نظام ملوك الطوائف على اساس يضمن لما بقي فى يد المسلمين من المدن والقرى والحصون حياة الاستقرار والامن والعدل والوحدة ولو الى حين .. ! فاتخذ قراره الخطير ونفذه بنفسه فيما يرجع لبني زيري ملوك غرناطة اذ ذاك . ومالقة..

وارسل كلا من تميم بن بلقين امير مالقة .. واخيه عبد الله امير غرناطة الى المغرب ... اما فيما يرجع لبني عباد فى اشبيلية وقرطبة وبني الافطس وغيرهما فقد عهد به الى قائديه : سير بن ابي بكر . وابن الحاج ..

ولم يقع المعتمد بن عباد فى قبضة القواد المرابطين الا بعد معارك طاحنة سالت فيها الدماء وتراكمت الاشلاء واملى فيها امير اشبيلية وابناؤه المدافعون عن قرطبة وغيرها على خصومهم دروسا من البطولة والفروسية مانزال نجد روعتها . وقد فصلتها عنا احقاب من السنين .

وقد كان من سوء طالع المعتمد ان يقع اسيرا فى قبضة قواد يوسف لا فى قبضة يد يوسف نفسها ...

المعتمد فى طنجة

كانت طنجة هي المرحلة الاولى فى طريق المعتمد الى منفاه السحيق فى اغمات بعد ان تجرع مرارة الثكل في ابنائه الاربعة الذين سقطوا دفاعا عن حوزتهم .. !

وفى طنجة يمكث اياما لا ندري عددها بالضبط ولكنها ايام سمحت له بالاتصال بشعرائها الذين تهافتوا عليه كما كانوا يتهافتون على بلاطه فى اشبيلية ...

ولم نعرف من هؤلاء الشعراء الا ابا الحسن بن عبد الغني الفهري المعروف بالحصري الضرير وكان شاعرا مطبوعا هاجر من وطنه القيروان الى الاندلس واتصل بملوك الطوائف ونال جوائزهم ، وقد دخل على المعتمد بعد موت ابيه المعتضد فانشده ارتجالا :

مات عباد ولكن
بقي الفرع الكريم
فكأن الميت حي
غير ان « الضاد » ميم

ثم استوطن طنجة ومنها كان يبعث باشعاره الى المعتمد .. وقد حدثنا ابن خلكان (*) فى الوفيات انه بعث غلامه الى المعتمد فى اشبيلية . فابطأ عنه وبلغه ان المعتمد لم يحتفل به فقال :

نبه الركب الهجوعا
ولم الدهر الفجوعا ..!!
حمص الجنة قالت
لغلامي لا رجوعا ..!!
رحم الله غلامي
مات فى الجنة جوعا ..!!

وهو صاحب القصيدة الشهيرة التي عارضها كثير من فحول الشعراء فى القديم والحديث :

يا ليل الصب متى غده
أقيام الساعة موعده

وقد كانت للحصري دالة على المعتمد وله فى دولته عدة قصائد ومقطعات وقد الف له كتاب (المستحسن من الاشعار)

ويشاء القدر الا يتمكن الحصري من رفعه المعتمد الا وهو اسير فى طنجة .. فياخذ الكتاب ويثيب صاحبه بصلة هزيلة .. هي كل ما يملك الامير الاسير .. مع قطعة شعرية للاعتذار ..

ولكن الحصري لم يجب المعتمد كما يقتضي الوفاء ، بل وادب اللياقة .. فكتب له المعتمد هذه الابيات يلومه :

(*) ج 3 ص 20

المعتمد بن عبّاد في المغرب

للأستاذ : عبد القادر زمامة

حظى المعتمد بن عباد عند المؤرخين القدامى والمعاصرين بمكانة مرموقة لم يحظ بها غيره من ملوك الطوائف الذين كان لهم نفس الاتجاه فى الحياة . وكان لهم نفس المصير الذي صار اليه المعتمد على يد المرابطين ... واهتزت المشاعر .. وجادت المدامع وتحركت الاقلام .. لوصف مأساة المعتمد كملك جواد شجاع . وكشاعر رقيق مكلوم القلب مرزأ . ابتسمت له الحياة حينا من الدهر فى قصور قرطبة واشبيلية لتتجهم له فى اغمات ..

وقد شقي المرابطون بقضية المعتمد وكيل لهم بالحق والباطل ما نشاهده فى آثار الاقلام الشرقية والغربية .. وفوقت سهام النقد للبطل العظيم يوسف بن تاشفين من اجل المصير الذي اختاره المعتمد ! !

ونحن فى هذا المقام لا نبكي المعتمد ولا نرثي شاعريته . كما اننا لانضع ابن تاشفين فى ميزان النقد التاريخي من جديد ؛ لنتهمه مع المتهمين .. أو نبرئه مع المبرئين .. او لنتلمس له الاعذار مع المتلمسين .. وقد قال التاريخ كلمته فى الموضوع ومن العبث تكرارها ..

والذي يهمنا هنا ان نبحث ادبيا وتاريخيا عن حياة المعتمد فى المغرب كيف بدأت وكيف انتهت . مع الالمام بالاثار الشعرية التي رافقت هذه الحياة وسجلتها .

هل عرف المعتمد المغرب قبل النفي ؟..

ان ابن دحية 633 هـ يشير فى كتابه المطرب من اشعار اهل المغرب (*) يشير الى ان المعتمد بن عباد جاز البحر الى المغرب من اجل الاستنجاد بيوسف بن تاشفين قبل معركة الزلاقة ، وصاحب القرطاس يسجل هذا الجو فى شيء من التفصيل ويعين لنا المكان الذي تلاقى فيه الرجلان لاول مرة (بليطة ؟) على ثلاث مراحل من سبتة . (*)

والمراكشي فى المعجب يقول :

ولما كانت سنة 479 هـ جاز المعتمد على الله البحر قاصدا مدينة مراكش الى يوسف بن تاشفين مستنصرا به على الروم (*) .

وينقل صاحب الاستقصاء عن ابن خلدون ان المعتمد اتصل بابن تاشفين فى مدينة فاس (*) .

والى جانب هذه الروايات التي تثبت جوار المعتمد الى المغرب .. نجد روايات اخرى تقتصر على المراسلات التي تمت بين الرجلين مع الوفد الذي كان يضم نخبة من علماء الاندلس وقضاتها ورجال الرأي فيها لحث ابن تاشفين على القيام بحملة لصد اطماع الصليبيين عن الحواضر الاندلسية ....

وقد نقل أبو العباس المقري فى النفح كثيرا من هذه الروايات عن عدة مصادر وسجل كلمة المعتمد التي اجاب بها من لامه على الاستنجاد بالمرابطين فقال :

---

* انظر ص 25
* ص 51 ج 2
* ص 130 ط القاهرة
* ص 34 ج 2 ط الدار البيضاء

ولم نستطع ان نجد للمعتمد كلمة سجلها في .. مه بمكناسة لامدحا . ولا ذما . ولا شعرا . ولا .. را . بل لم نعثر له على اي اتصال بينه وبين .. ها .. وقد نامت عين التاريخ هذه المرة عن مقام المعتمد في مكناسة . وعن الطريق التي سلكها من الشمال الى الجنوب ولم تستيقظ الا والمعتمد يرسف في قيوده باغمات . (*)

المعتمد في اغمات

بوصول المعتمد الى اغمات تبدأ حياة الاسر الحقيقية . ويلقي التاريخ اضواءه على كثير من الاحداث . ويتهافت المؤرخون على تسجيل كثير منها على اختلاف مشاربهم .. كما تثير توابع الاسر من نفي وسجن وقيد مشاعر المعتمد ومشاعر الشعراء الذين عاشوا حينا من الدهر على نعمته ..

وشعر المعتمد في هذه الحقبة من حياته شعر القلب المكلوم المفجوع . والجد العاثر . والجناح الكسير ... غير ان ذلك لم يكن ليفقده عزة النفس وعلو الهمة ...

فقد ناجى قيده مرة بقوله :

غنتك اغمانية الالحان
ثقلت على الارواح والابدان
قد كان كالثعبان رمحك في الوغى
فغدا عليك القيد كالثعبان
متمددا بحذاك كل تمدد
متعطفا لا رحمة للعاني
قلبي الى الرحمن يشكو بثه
ما خاب من يشكو الى الرحمن

ومرة بقوله :

قيدي اما تعلمني مسلما
ابيت ان تشفق او ترحما
دمي شراب لك واللحم قد
اكلته لا تهشم الاعظما
يبصرني فيك ابو هاشم
فينثني القلب وقد هشما

ويظهر ان السنوات التي قضاها المعتمد في اغمات لم تكن على وتيرة واحدة . فتارة نجده سجينا يرسف في قيده . وتارة نجده طليقا يخالط الناس ويجالس الزائرين . وينظم الشعر ويراسل الاصدقاء .

والفرق واضح بين المعاملة التي عومل بها الامير عبد الله صاحب المذكرات من اللين والتغاضي .. والمعاملة التي عومل بها المعتمد ولعل قيام ابنه عبد الجبار بثورة على المرابطين في الاندلس كان في مقدمة الاسباب التي جعلتهم يشددون الخناق عليه ...

وقد سجل المعتمد هذه الثورة في قصيدته :

كذا يهلك السيف في جفنه
الى هز كفي طويل الحنين

وفيها يتمنى ان لو كان بامكانه ان يخوض المعارك ويباشر نزال خصومه ...

وفي اغمات وصلته قصيدة من بنته بثينة التي فقدت يوم حوصر قصره في اشبيلية .. وكان مصيرها ان بيعت في سوق الرقيق على انها سبية ..! ولكنها امتنعت على مالكها .. وابت ان تمكن نفسها منه الا بزواج شرعي يرتضيه ابوها المعتمد ويوافق عليه ...

فاجابها المعتمد بابيات يوافق على هذا الزواج ويقول :

بثينتي كوني به برة
قد قضى الدهر باسعافه

ولم يودع راجفة بثينة . حتى استقبل رادفة زوجته « اعتماد » الرمكية . وكانت صبابة ما انفت له الايام من المسليات . ودفنت الى جوار محبسه .. فصار يستعجل الايام . ويحث خطاها . لياخذ مضجعه في التراب بازائها وقد اسعفه الدهر . بهذه الامنية فنام قرير العين بها

اولاد المعتمد في الاسر

كان للمعتمد عدد وافر من البنات والبنين . نعرف منهم الامراء الاربعة الذين قتلوا قبل وصوله

---

* قد روى له بعض المؤرخين قوله في جبال درن (الاطلس) :

هذه جبال درن وكم بها من درن
فليتني لم ارها وليتها لم ترني

قـل لمـن قـد جمـع العلـم وما احصـى صوابـه
كـان فـي الصـرة شعـر فـانتظـرنـا جـوابـه
قـد اثبنـاك فهـلا جلـب الشعـر ثـوابـه

ويظهـر ان من يسميهم المراكشـي فى المعجب بزعانفة الشعراء وملحفي اهل الكدية . بلفهم صنيع المعتمد بشاعره القديم ... فتهافتوا على الامير الاسير وتعرضوا له بكل طريـق . طامعين ان ينالهم طل مـن وبله .. أو غيض من فيضه ... ولكن هبهات فالمعتمد سلبته الايام كـل شيء الا اريحيتـه ..!! فلذلك قـال مستسلما متحسـرا :

شعـراء طنجـة كلهـم والمغـرب
ذهبوا مـن الاغـراب ابعد مذهـب
سألـوا العسير مـن الاسير وانـه
بسؤالهـم لأحـق فاعجب واعجـب
لـولا الحيـاء وعـزة لخميـة
طـي الحشـا ساواهـم فى المطلب

وهكذا مكث المعتمد فى طنجـة اياما معـدودات ولكـن عيـن التاريـخ لم تهملهـا فسجلت لنا هـذه الاتصالات . وبالبتها سجلت لنا اشياء اخـرى كنا فى حاجة اليها كاسماء هؤلاء الشعـراء .

وتصدر الاوامر للخروج بالمعتمد من طنجة وإلى ايـن يسيـر ..؟

بظهر انه الى حد صدور هده الاوامر . لم يكـن قد تقرر مصبره النهائي فى اغمات .. بل لم بكن نفـرر مصير الامير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة الـذي سبقه الى الاسر بشهور .. والذي سينقل بعـد ذلك هو ايضا الى اغمـات ...

والذين أرخوا لمأساة المعتمد وتتبعوا اقامتـه فى المغرب منذ حل بطنجة سنة 484 الى ان توفي باغمات سنة 488 يذكرون انه مكث بمكناسة اشهرا قبـل ان يلزم بالاقامة فى اغمات

لكننا عثرنا على معلومـات اخـرى ننقلهـا عـن مصدرها فيما ياتـي :

المعتمد فى قلعة فازار بالاطلس المتوسط

في كتاب الاستبصار هذا النص ننقلـه بتمامه لاهميته الجغرافية والتاريخية (*) ...

« ... ومن الجبال المشهورة ببلاد المغرب فازار وهو جبل كبير تسكنه امم كثيرة من البربر . ويطرد الثلج فينزلون الى ريف البحر الغربي . وهم اهـل كسب من الغنم والبقر والخيل ...

« وفى هذا الجبل قلعة كبيرة تنسب للمهدي بـن توالى الجيفشى ؟ ... وهي فى نهاية المنعة . اقام عليها عسكر اللمتونيين سبع سنوات ! وبناؤها بالالواح .. واليها كان تغريب المعتمد بن عباد .. فقـال متمثلا حزينا : بنقض العهود لبلد اهله يهود ! وبناؤه عود !.. وجبرانه قرود .. ! وكان اليهود فى ذلك التاريخ اكثر سكانه لانهم سوقة فيلتجـؤون للحصـن حيطـة على سلعتهـم » .

ومن هذا النص ندرك ان المعتمد نقل من طنجـة الى قلعة فازار بالاطلس المتوسـط قبـل ان يلتحق بمكنـاس ولعل ابن تاشفين كـان لـه راي فى ذلك ثم عـدل عنـه .

المعتمـد فى مكناسـة

سبق المعتمد الى هذه المدينـة الامبـر عبد الله كاتب المذكرات واخوه تمبم وهناك كان يستطلع اخبار الاندلس وما آل اليه أمر ملوك الطوائف ويكتب معلوماته وخواطره عن هذه الاحداث . وقد ترك لنا معلـومات مدققة لا نستغني عنها فى معرفة هذه الحقبة من تاريخ المرابطين وسياستهـم .

وقد مكث المعتمد فى مكناسة عدة شهور كما يقول المراكشي ، ويظهر ان السبب فى تاخير تقريـر مصير ملوك الطوائف كان يرجع الى عملية التصفية التي يقوم بها القواد المرابطون فى الاندلس .

ويقول صاحب المذكرات عن المعتمد :

« فقدم الينا بمكناسة مع دخلته وبقي فيها الى ان سيق معنا الى اغمات » .

* ص 187

الفكر المغربي في عصر بني مرين

للأستاذ : الحسن السائح

كان امل المرينيين يهدف الى احياء مذهب مالك . لذلك اسسوا لتحقيق هذه الدعوة مدارس داخلية . واشرفوا على سير التعليم بها حسب توجيههم الفقهي، وشجعوا الطلبه على الاقامة بعاصمة فاس ليرتووا من معين المذهبية الموجهة ، وزادوا فى تمكينهم للقرويين فسارعوا الى الاحتفاظ بما تبقى من تراث الاندلس المذهبي وابواء خزائنها ، فنقلوا الكتب من الاندلس الى المغرب ، ويروى ان ثلاثة عشر حملا من نفائس المخطوطات نقلت الى فاس ، وكما آوت الكتب آوت العلماء الواردين على المغرب ، ومنهم : ابن الخطيب . وابن خلدون ، وغيرهما من فطاحل الفكر فى المغرب العربى الذين سعوا الى تحصين الثقافة فى الجناح الغربى للعالم الاسلامى .

وعند ما سقطت عدة مدن فى يد العدو ومنها سبته التي استولى عليها البرتغال سنة 118 هـ 1415 م لاذ علماؤها بالقرويين واصبحت مركز الاشعاع الثقافي فى العالم الاسلامي وتعددت بها كراسي العلوم خصوصا المعتنية بالنصوص الدينية حفظا وفهما مع الاثار للحفظ ، وتعددت المدارس حيث زاد المرينيون على ما بقي منها فى عهد المرابطين والموحدين . وكان لكل مدرسة استاذان يراجعان مع التلاميذ ، كما تعددت الخزائن الكتبية بها ولذلك ازدهرت القرويين فى عصر بني مرين ازدهارا كبيرا ويقول ليفي بروفنصال أنه بفضل ملوك بني مرين لم تكن عاصمة فاس فى القرن الرابع عشر الميلادي لتحسد العواصم الاسلامية الاخرى ، بل ان (باديا ليليبيش) المعروف بابي العباس اعتبر فاسا بمثابة اثينا افريقيا ، وذكر مثل ذلك الدكتور رينو فى كتابه الطب القديم بالمغرب ، واصبحت القرويين ملتقى الاجانب من مختلف الجنسيات والديار كما قال ذلك دوكامبو .. وذكر كابريال شارمس فى كتاب (سفارة الى المغرب) : ان مدارس فاس كانت طوال مدة مديدة اولى مدارس العالم ومنها انبثق ما يسمى بالحضارة الغربية التي شاع نورها فى اسبانيا فاضاء جوانب اوربا وشجعت الحركة التعليمية تشجيعا منقطع النظير ، وكان الاساتذة يتقاضون علاوات من اللحم والحبوب والزيوت وكل ما يحتاجون اليه طوال السنة ، ويتمتعون بحق السكنى مجانا كما ورد ذلك عن الحرشاوي احد علماء الجزائر الذين درسوا بفاس فى القرن التاسع عشر . فقد روي عنه : وكان الاساتذة ملزمين بالمكث فى فاس وقد بنى ابو يوسف المدارس والمعاهد ورتب الاوقاف واجرى المرتبات على العلماء والطلبة فى كل شهر كما بنى الزوايا فى الفلوات النائية واوقف عليها الاوقاف وسار المرينيون على منواله فانشأ ابو الحسن فى كل بلد من بلاد المغرب الاقصى والاوسط (مدرسة) فى فاس وتازا ومكناس وطنجة وسبتة وآنفا وازمور واسفي واغمات ومراكش والقصر الكبير وتلمسان كما جاء فى المسند الصحيح لابن مرزوق (ص 35 من مجلة هسبرس عام 952) ، وقد وقف محمد الابلي العبدري استاذ ابن خلدون ضد بناء المدارس ، ولاحظ ان العلم اذهبه بناء المدارس وايده احمد بابا السوداني الذي ذكر بانه أصبح يتعاطى الاقراء على الكراسي من لا يحسن العلم ، حيث صار ذلك بالتوارث (انظر نيل الابتهاج ص 246) ، وقد حبست اوقاف على تشجيع دراسة بعض العلوم فكان من احباس جامع الاندلس قراءة التفسير بالفخر الرازي وكانت كراسي العلم فى التفسير وقراءة صحيح مسلم وابن الحاجب وصغرى السنوسي والرسالة ونظم ابن زكري لها احباس خاصة .

الى المنفى . كما نعرف منهم عبد الجبار الذي ثار على المرابطين واعتصم بحصن اركش بعد نفي ابيه .. حتى سقط صريع سهم اصماه ...

اما فى اغمات فنجد معه طفله الصغير ابا هاشم الذي رآه فى القيد فارتاع .

يبصـرنـي فيـك ابـو هـاشـم
فينثنـي والقلـب قـد هشمـا

كما نجد المعتمد يصف بناته يوم العيد فى قطعته الشهيـرة :

فيما مضى كنت بالاعيـاد مسـرورا
فسـاءك العيـد فى اغمـات ماسـورا
تـرى بناتـك فى الاطمـار جائعـة
يغـزلـن للناس لا يملكـن قطميـرا

ونجد معه فى اغمات ابنه فخر الدولة الذى تعلم الصياغة ورآه الشاعر ابن اللبانة فقال فى ذلك قصيدة شهيـرة .

ونجد له ابنا آخر اسمه شرف الدولـة ذكـره ابن اللبانـة ايضا ووصفـه بحسـن السمت وكثـرة الصمت ..

واخيرا نجد فى مخطوطة الذيل والتكملة للحافظ ابن عبد الملك ترجمة صغيرة لعبد الوهاب بن المعتمد الذي كان يلقب بعز الدولة .

قال ابن عبد الملك : اخـذ عبد الوهاب عن مالك بن وهيب وغيره ولما خلع ابوه اخذ عن مالك بمراكش. وولي صلاة الفريضة بمراكش واستنيب بالخطبة دهرا طويلا ثم تخلى عن ذلك وانقبض وذهب الى تادلا وبهـا توفى بعد العشرين وخمسمائة .

المعتمـد يستقبل زائريـه فى اغمات

خلد المعتمد عدة قصائد ومقطعات يسجل فيها شعوره بالغربة نقرا منها الشيء الكثير الجيد فى كتب التاريخ والادب وقد بالـغ بعض المسرفيـن فى حب المعتمد الحانقين على المرابطين فقال : « لولا المعتمد ما ذكرت اغمات » .

وقد صارت فى سنوات نفيه كعبة قصدها اهل الوفاء من شعرائه واصدقائه . كما صار قبـره فيما بعد مزار المعجبين بشعره وشخصيته .

ولم تكن اغمات اذ ذاك قرية مهجورة فى سفح الاطلس الكبير كما يحلو لبعضهم ان يقول .. لاننا نعلم انها كانت هـي العاصمة الاولى للمرابطيـن قبـل ان يلتحقوا بمراكش .. وقد كان لها شان كبير فى التجارة والفراسـة والفـلاحـة ويتحـدث عنهـا المؤرخـون والجغرافيون حديثا طويـلا .

وعلى عهد المعتمد كانت حـواء بنت يوسـف بن تاشفيـن تسكـن اغمـات وقد سألها المعتمد خبـاء فاعتذرت ... فقال فى ذلك شعرا .

واستقبل المعتمد فى منفاه شاعره الفحل ابا بكر بن اللبانة الدانى وقد خلد هذا الشاعر قصة المعتمـد شعرا ونثرا والف كتاب « نظم السلوك فى وعظ الملوك » الذي ينقل عنه المقري كثيرا من اخبار المعتمد . كما الف كتاب « سقيط الدرر ولقيط الزهر » فى شعر ابن عباد .. وشعره فى ابن عباد شهير لانطيل بذكره ...

وكذلك زاره الشاعران ابن حمديس الصقلي وابو بحر بن عبد الصمد ولكل منهما قصائد فى الموضوع ...

ثم ودع المعتمـد هذه الحياة بشرهـا وخيرهـا ولسان حالـه يكرر كلمته الشهيـرة : « رعي الجمـال خير من رعي الخنازيـر .. !! » .

فـاس : عبد القادر زمامة

فى خزانة الكتب حيث يطالعون الكتب التي يوزعها عليهم الوكيل ، ويذكر المؤلف ان الخزائن بفاس لدى عهده كانت ثلاثة ، تشتمل على كتب كثيرة لا تكاد تحصى .

اما الحساب والفرائض فكانا يعلمان يوم الخميس والجمعة ، وهكذا يقضي الطلبة ايامهم الدراسية الى ان يحصلوا على العلم الوافر ويصبحوا في عداد الاساتذة ...

ويتكلم الوزاني الفاسي المعروف بليون الافريقي فى كتابه وقف افريقيا عن كيفية التعليم بفاس ذاكرا انه توجد بفاس (فى عصره) مائتا مدرسة لتعليم الاطفال ، وهي عبارة عن قاعات واسعة داخلها محاط بالدكاكين لجلوس التلاميذ ، والمعلم يعلم القراءة والكتابة على الواح واسعة يكتب التلاميذ فيها جزءا من القرآن فى كل يوم ويسيرون على ذلك فيختمون القرآن فى سنتين أو ثلاثة ، ويعيدون ختمه مرات عديده حتى يحفظونه عن ظهر قلب ، واقصى ما يقضون فى ذلك سبع سنين ، ويتعلمون مع ذلك مبادىء الرسم ، وهذا الفن يدرس بسائر المدارس العلمية ويدرس كذلك النحو ، واجرة المعلم طفيفة ، واذا ختم الابن اقام الاب حفلة لابنه حيث يأتي راكبا على جواد رفيع بعيره عامل المدينة بسلاحه الثمين ، (الى آخر ما وصفه من حفلات الكتاب كحفلة عيد المولد مثلا) ، والتعليم الثانوي يكون فى المسجد ، ويمكث الطلبة الآفاقيون فى المدارس ، ولم يبق لهم فى عصره جرايات وانما يتعيشون مما يتصدق عليهم به اهل البلد او اهل نواحيها .

وكانوا من قبل يقيمون سبعة اعوام سكنى وأكلا وكسوة ولكن حروب ابي سعيد عثمان بن ابي العباس آخر ملوك بني مرين قبل ولده عبد الحق اتت على مداخيل المدارس بينما كان الطلبة فى عهد ابي عثمان من اعز الناس واكثرهم عددا ورزقا كما ذكر صاحب نيل الابتهاج .

وينتقد المقري فى ازهار الرياض التآليف المكتوبة بعاصمة المغرب (فاس) بهذا العصر لانها ضئيلة سواء فى التلخيصات او الارتجال ، وانما تآليف فاس فى النسج بالتأليف على ما هو عليه كما فى مدونة ابن الحسن الزروبلي الصغير المتوفى سنة 719 كما فى الديباج ، ثم جاء طلبة الجزولي الذي نسبت اليه تقاييد فى الفقه وان كانت فى الواقع من تقاييد تلامذته ، على ان المقري يتأثر باراء ابن خلدون فى كون صناعة التعليم او ما يسمى اليوم بالبيداجوجية لم تبلغ الى فاس وانما رسخت اقدامها فى تونس ، ويذكر السلسلة العلمية الفقهية المبتدئة من الامام المازري ، اما العلوم النظرية فلا حظ للتونسيين ولا للمغاربة على السواء الى اواخر القرن السابع حيث رحل ابن زيتون وحملها الى تلمسان .

ويروي لسان الدين ان الصبيان كانت تدرب على حمل السلاح وتعلم القرآن ، كما شاعت المحاضرات فى عصر بني مرين فقد سافر عبد القادر بن سوار المحاربي الى غرناطة سنة 757 والقى بها عدة محاضرات .

واشهر المدارس بفاس لهذا العهد هي :

مدرسة الحلفاويين التي بنيت سنة 670 على يد ابي يوسف يعقوب المريني وقد حبس عليها الكتب المهمة الواردة من الاندلس .

ومدرسة العطارين بناها ابو سعيد المريني سنة 723 واوقف عليها عدة املاك وضياع .

ومدرسة البيضاء بناها ابو سعيد المريني سنة 720 .

ومدرسة الصهريج بناها ابو سعيد وبها البيلة المجلوبة من المرية بالاندلس .

ومدرسة الرخام بناها ابو الحسن المريني ونقل اليها بيلة من المرية سنة 725 وتسمى مصباحية لان مصباح الباصلوني المتوفى سنة 750 اول من علم بها .

والمدرسة العنانية بناها ابو عنان المريني وتقابلها ساعة عجيبة مائية من صنع علي بن احمد التلمساني 758 .

ومدرسة جامع الاندلس بناها ابو الحسن المريني سنة 721

ومدرسة الوادي انشأها ابو سعيد المريني عام 723 .

ونشأت مدرسة المهندسين بدار المخزن بفاس الجديد شيدها ابو سعيد فى المدينة البيضاء ، ونقل مؤلف كتاب تاريخ الطب ان هذه المدرسة سميت سنة 1844 مدرسة المهندسين لان السلطان ادرج فى برامجها اذ ذاك دراسة العلوم .

وازدهرت الخزائن فى العهد المريني ازدهارا منقطع النظير ، وكانت خزائن عامة يقصدها الطلاب والعلماء على السواء للاستفادة منها ، وربما كانت خزانة ابي يوسف المريني بالمدرسة اليعقوبية هي اول خزانة

وكان الطلبة يقيمون فى احدى المدارس الاربع عشرة ويتقاضون خبزة فى اليوم وجرت العادة ان يشتري الطالب غرفته بالمدرسة وله ان يبيع المفتاح عند انتهاء مدة الدروس ، ولاحظ ابن مرزوق ان انشاء المدارس كان فى المغرب غير معروف حتى انشئت مدرسة الحلفائيين بفاس هي الصفارين المؤسسة عام 670 ، ثم انشأ ابو سعيد مدرسة العطارين ، والبيضاء والصهريج والوادي والمصباحية ويظهر ان المقصود عند ابن مرزوق هو انتشار المدارس ، والا فقد ذكر عبد السلام القادري فى (الاحوان فى شرفاء وزان) أن يوسف بن تاشفين اسس مدرسة الصابرين بفاس .

التعليم فى العصر المريني :

لقد جمد اسلوب التعليم فى اول العصر المريني واصبح كما عبر عنه ابن خلدون بقوله : « وقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الاحاديث واستدراكها على المتقدمين ، وانما تصرف العناية لهذا العهد الى تصحيح الامهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفيها .

وخمدت الحركة الفكرية الحرة التي بثها الموحدون ولم تبق منها الا بقايا ضئيلة محفوظة عند بعض العلماء المبثوثين فى عدة مدن هم الذين سلسل فيهم النبوغ المغربي ، كالحضرمي ، وابن خلدون ، وابن الخطيب وغيرهم ، على انهم بلغوا القمة فى الشروح والحواشي الفقهية ، وكان من نبغاء علماء الاسلام فى هذا العصر العبدوسي ، وابن الصباغ الذي املى فى الحديث اربعمائة فائدة ، وصرف العلماء همتهم فى هذا العصر الى التلخيصات والاختصار ، وقد وفقوا فى بعضها ولم يوفقوا فى بعضها الآخر ، ولعل من أهم المحاولات ما كتبه ابن آجروم ذلك المختصر الصغير لدراسة النحو العربى الذي كان يعتبر تجربة للتبسيط والاختصار والأخذ بمختلف المذاهب النحوية ، فلم تتقيد بمدرسة البصرة او الكوفة ، فهو يرى الاعراب معنويا على عادة الكوفيين ، وقسمه الى اربعة اقسام ، منها الجزم على طريقة البصريين ولم يذكر فى التوابع عطف البدل .. الخ ملاحظته .

على ان اهم علم نبغ فيه المغاربة هو علم القراآت ، فقد اشتغلوا به واتقنوه ويقول عنه الدكتور عبد العزيز الاهواني فى مجلة (معهد المخطوطات العربية ، المجلة الاولى ، الجزء الاول) بان هذا هو الميدان الوحيد الذي سيطر عليه المغاربة سيطرة تامة .

ولعل عنايتهم بالفقه فاقت العناية باي علم آ . واصبح مختصر خليل هو المدونة الجديدة التي يع ب الكلام فى حل رموزه ، وقد ادخل مختصر خليل ال ى فاس ابن اسحاق المالكي المتوفى سنة 767 . والفقيه محمد بن المفتوح التلمساني المتوفي سنة 8 8 بمكناس ، حيث كتب عليه عشرات الشروح والحوا ي والتعليقات واستنبطت منه الفتاوي والاحكام كما يبدو فى تآليف هذا العصر ، ورغم ان الثقافة المغربية الاسلامية اجتازت عدة قرون فلا نجد محاولات فى تغيير الاساليب والمناهج الا ما يلاحظ من شدة الاقبال على العلم ونشاط بعض فروع المعرفة ، ولدينا وثيقة مهمة جدا عن سير الدراسة وبرامج التعليم ومناهجه فى القرويين على عهد الوطاسيين ، وهي (الرسالة المجازة فى معرفة الاجازة) التي الفها الصوفي المغربي الكبير ابو الحسن علي بن ميمون المولود (سنة 854 . درس بفاس سنة 887) ، ويظهر من هذه الرسالة ان العلوم الشائعة فى هذا العهد هي الفقه المالكي والحديث والتفسير والنحو والفرائض والحساب والتوقيت والتعديل والتوحيد والمنطق والبيان والطب وباقي العلوم العقلية ، وان الدراسة كانت تعتمد على حفظ النصوص ولا يقدرون من الطلبة والاساتذة من لا يحفظ النصوص ، وكان شعارهم (من لم يحفظ النص فهو لص) ، ويروي مؤلف السلوة عن الرسالة التي اقتطف شذرات منها فى السلوة بان مؤلفها ابن ميمون جال فى تلمسان وبجاية والشام وتونس والحجاز ومصر ، فلم ير فى علماء هذه المدن واشباهها من يصل الى درجة علماء (مدينة فاس) ويستفاد من هذه الرسالة بان التلميذ قبل الدخول الى القرويين كان لابد ان يكون حافظا للقرآن والرسم والتجويد وحفظ المصنفات والمنظومات ، وفى ذلك منظومة فى الفرائض والحساب ورسالة ابي زيد القيرواني .

وكان الشروع فى الدراسة يبتديء فى الفجر الى ما بعد العشاء ، ويذكر ابن ميمون انه كان يشرع فى وقت مبكر ولا يستطيع العودة الى المدرسة لتناول الغذاء بل لا يتناول الا وجبة العشاء فقط ، وكان الاسلوب المتبع فى درس الحديث هو النقل الفردي ودراسة الرواة وانسابهم مع ضبط المتن لغويا ونحويا وفقهيا ، واشتهر كتاب الجزولي على الرسالة فى الفقه ، اما المدونة فكانت تدرس بالنقل الكثير من اقوال مشايخ المدونة من أولهم الى آخرهم ، وكان النحو يدرس بالمدخل للامام الجزولي المصمودي ، والفية ابن مالك ، وقبل وقت العصر كان الطلاب ينصرفون عند

وفي كتاب شفاء السائل الماع الى ريخ التصوف فى المغرب والعالم الاسلامي .

ومن اشهر رجال التصوف فى هذا العصر الامام روف الملقب بمحتسب الصوفية ، وقد ترك لنا كتاب مواعد الذي يعتبر وثيقة مهمة عن الحركة الصوفية عصره ، تلك الحركة التي استفحلت وظهر فيها كثير ن المشعوذين فتصدى الامام زروق للكشف عنهم ، قد شرح مذهبه الصوفي فى القاعدة (59) ، فقد قال: كل فريق طريق ، فللعامي تصوف حوته كتب المحاسبي ، وللعابد تصوف دعى اليه الغزالي فى منهاجه، وللمريض تصوف ذكره القشيري فى رسالته ، وللناسك تصوف القوت والاحياء ، وللحكيم تصوف نحا اليه ابن سعبد ، وللطبائعي تصوف جاء به اليوني فى اسراره ، وللاصولي تصوف قام الشاذلى بتحقيقه . ويقول فى القاعدة (26) ايضا : كن فقيها صوفيا ، ولا تكن صوفيا فقيها .

ومنهم ابن القاسم الذي استفضاه ابو عنان على فاس وله قصيده سماها (لمحة العارض لتكملة الفية ابن الفارض) ، ومنهم محمد بن علي الجزولي الاصولي الكبير كان قاضيا بفاس فى عهد ابي سعيد المريني ولبس الخرقة .

ومنهم ابن الدباغ المراكشي صاحب مواسم الطريقة فى علم الحقيقة .

ومنهم المحدث الطيب بن محمد المريفشي

ومنهم عبد الله بن يعقوب السملالي الجزولي وعبد الله بن ابى بكر الجزولي نزيل الاسكندرية .

ومنهم محمد الحلفاوي الذي اعان ابا عنان المريني بالصرب على ابدي المعتدين وكان الامير ابو محمد عبد الحق معظما للصلحاء يتواضع بين ايديهم (كما فى الذخيرة السنية 37) .

واذا كانت تقاليد الدول المغربية من لدى المرابطين الى الموحدين توجب امتحانات لادعياء التصوف ، فقد حدث ذلك فى عهد المرينيين لقوتهم ، ومع ذلك فقد امتحن ابو عبد الله محمد الشيخ المريني الملقب بالبرتقالي المتصوف عبد الله الفزواني بفاس وسجنه .

وهناك كتب كثيرة الفت فى هذا العصر فى هدا الفن ، منها : المترع اللطيف فى ذكر صلحاء الريف . لعبد الحق الباديني (القرن الثامن) .

والسلسل العذب الاصلى فى صلحاء فاس ومكناسة وسلا ، لمحمد الحضرمي الذي صنفه فى القرن الثامن .

والكوكب الوقاد فيمن حل بيته من العلماء والصلحاء والعباد .

واعقب المغرب فى اواخر عصر المرينيين تدهور شامل فى حياته الاجتماعية والفكرية والاقتصادية وذلك نظرا لعدة امور : 1) الانهيار الشامل للحضارة العربية. 2) الاوبئة والامراض التي اجتازت المغرب كمرض الطاعون والكوليرا . (بوكليب) . 3) المجاعات المتتالية. 4) الفزو الاستعماري الذي استفحل على شواطيء الاطلنطيك . . وكان من نتائج هذا ان تدهورت الثقافة الاسلامية فى المغرب ، وحسب اقوال المؤرخين فان دكالة وحاحة والسوس والريف وغيرها كانت بها نهضة ثقافية تلاشت ودرست معالمها ، ولكن بقيت الثقافة الاسلامية معتصمة بالقرويين التي يرجع اليها الفضل فى المحافظة على كيان المغرب الثقافي والروحي .

وذكر (رينو) ان فاسا أفل نجمها ابان السعديين وذلك نظرا للاضطرابات والاوبئة والاعتداءات الاستعمارية على الحدود المغربية ، وعاد المغرب الى نشاطه فى عصر العلويين ، وقد تحدث لفي بروفنصال فى كتابه مؤرخ الشرفاء عن نهضة المغرب من الوجهة الادبية كما تحدث عبد العزيز بنعبد الله عن نهضة الدراسة الطبية فى كتاب الطب والاطباء بالمغرب، غير ان هذه الظاهرة ساعدت على (المركزية العلمية) حين آوت جامعة القرويين علماء المغرب من سائر النواحي والمراكز الثقافية ، من الزاوية الدلائية والناصرية وغيرهما ، وعادت القرويين الى دراسة الطب ، وبشير (دلفان) فى كتابه عن فاس وجامعتها الى اعتناء الطلبة بدراسة كتب الطب كالكامل للرازي ، والقانون لابن سينا ، وزبدة الطب للجرجاني ، والتذكرة للسويدي ، وغير ذلك من الكتب الطبية المشهورة . وبدون شك فان هذه الدراسة لم تزدهر الا بعد ازدهار الثقافة الاسلامية .

اسست للعموم ، واشهر الخزائن المرينية هي خزانة يعقوب المريني وخزانة ابي عنان .

ومن المعلوم فى تاريخ المغرب ان ابا يوسف المريني اشترط على ملك اشبيلية منحه المخطوطات ، وحمل منها الى جامعة القرويين ثلاثة عشر حملا كما فى القرطاس .

بل ان غالب مخطوطات الاسكوريال من المغرب ، فقد كلف زيدان السعدي قنصلا فرنسيا عام 1617 بنقل اربعة آلاف مخطوط عربي الى اكادير فحول شراع مركبه الى فرنسا ولكن الفرصان اسروه وحملوا الكتب الى الاسكوريال .

ولعل اهم خزانة بالمغرب هي التي اسسها ابو عنان المريني سنة 750 التي وصف كنوزها ابن القاضي فى الجذوة ، وقد ضمت خزانة يوسف الموحدي واصبحت من اهم خزائن العالم الاسلامي وضمت اليها كتب السلطان ابي يوسف المريني المجلوبة من الاندلس على يد سانجة وكانت ثلاثة عشر حملا .

الحركة العلمية :

ورغم ما يشاهد من تهلهل فى وسائل التعليم والتدريس فقد تفتقت العبقرية المغربية فى هذا العصر عن انبغ مفكري العرب الذين نذكر منهم اشهرهم على الاطلاق المؤرخ ابن خلدون صاحب المقدمة ، والاديب ابن الخطيب الشاعر المثقف ، والعلامة الحضرمي ، واذا كان الكلام عن هؤلاء باعثا على دراسات وابحاث يطول موضوعها ولا تناسب هذا المختصر ، فان الامانة تقتضي ان نتعرض لترجمة اسلوب تعليم عالمين مشهورين وهما المشدالي والعبدوسي .

اما المشدالي الذي عاش فى القرن الثامن كما فى عنوان الدراية فهو من اعلام الثقافة العامة والبداغوجية فى المغرب ، فقد ذكر الشوكاني فى ترجمته لما رحل الى المشرق انه ماهر فى النحو والصرف والعروض والمنطق والاصول والميقات والحساب والمعاني والبيان والتفسير والحديث والفقه والجبر والمقابلة والهيئة والاوفاق والطب والموسيقى والاسطرلاب ، اما طريقة تعليمه فقد ذكر الشوكاني ان له اسلوبا غريبا بعبارة جزلة فصيحة، وقد تبرم طلبته من غموض افكاره وطالبوه ان يتنزل فى عبارته ليفهموه فقال لهم لا تنزلوني اليكم ودعوني ارقيكم الي بعد مدة معينة حددها لهم ، فكان الامر كما قال ، كما كانت العبدوسية طريقة خاصة فى التعليم

فقد ذكر ان العبدوسي اورد المدونة بطريقة خاصة حيث كان يبتديء بذكر الطبقة الاولى من كبار مالك ، ينزل طبقة طبقة حتى يصل الى علماء الاقطار من المصريين والافارقة والمغاربة والاندلسيين وائمة الاسلام واهل الوثائق والاحكام ، اما فى التفسير فعند ما يقرأ الآية يفتح بما يناسبها من الاحاديث النبوية واخبار السلف من الصحابة والتابعين واتباعهم ، ثم بعد ذلك يرجع الى الآية ، وربما باخذ فى نقل الاحاديث فيقول الحديث الاول كذا والثاني كذا الى المائة ، ثم يبتديء المائة الثانية حتى يختمها ، وكذلك يسلك فى النحو مسلك المدونة يبدا باصحاب سيبويه ثم الصيرافي وشراح الكتاب وطبقات النحاة .

وذكر صاحب نيل الابتهاج نقلا ان هذه الطريقة فى التدريس هي التي يدرس بها ابن اخيه الامام عبد الله العبدوسي بجامع القرويين بفاس المتوفى سنة 884 كما فى جذوة الاقتباس لابن القاضي .

الحركة الصوفية :

وازدهر علم التصوف الذي تزعمه كثير من العلماء واستنبط أسسه ابن خلدون فى مقدمته ، ولقد تاثر ابن خلدون بالنظريات الصوفية فى المغرب وكتب يقول بعد عودته من المغرب الى الاندلس انه وصل وله ورد ووظيف وسبحة وحظ من الخير ، والف ابن الخطيب ، روضة التعريف فى الحب الشريف . التي حوكم من اجل شطحاتها ، وفيها تحليل صوفي لاسرار الحب والنفس ، كما طفح كتابه نفاضة الجراب باخبار صلحاء المغرب ، كما ألف الغيرة على أهل الحيرة ، وسد الذريعة فى تفضيل الشريعة ، والرد على اهل الاباحة وتفريب الشبه .

وجاء فى الدخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ان عبد الحق المريني كانت له بركة ودعاء مستجاب (ص 29) ، واذا سمع بصالح قصده لزيارته (ص30) . وكان ابو سعيد موقرا للصالحين يتوضع امامهم

وجاء فى اللمحة البدرية لابن الخطيب (ص42) ان ابا يوسف المرينى كان اشبه بالشيوخ منه بالملوك . ويوجد فى (انيس الفقير وعز الحقير) لابن قنفد ذكر للمتصوفين المغاربة وبالأخص دراسة لسيدي احمد بن عاشر السلاوي .

أفلوطين ومدرسة الإسكندرية

للدكتور : نجيب بلدي

طلبت المجلة الى الدكتور نجيب بلدي أن ينشر على صفحاتها نص محاضرته القيمة التي القاها على مدرج كلية الاداب ، وقد تفضل فلبى رغبتنا ، والمجلة التي تفخر بصداقته تشكره على هذه العناية وتتمنى أن يكون مقامه بالمغرب سعيدا طيبا وخصبا ، ونقدم للقراء فيما يلي ترجمة موجزة للدكتور الكريم :

حصل على ليسانس الفلسفة ، وليسانس الاداب الانجليزية من جامعة القاهرة، وسافر فى بعثة الجامعة الى باريس حيث نال من السربون ليسانس الدولة فى الاداب، ثم دبلوم الدراسات العليا فى الفلسفة ، ثم دكتواره الدولة فى الاداب بمرتبة الشرف الاولى .

عين مدرسا بجامعة القاهرة فى عام 1938 ثم مدرسا بجامعة الاسكندرية عند افتتاحها فى عام 1942 وبقي بها حتى عين استاذا لكرسي (الفلسفة الحديثة) فى عام 1951 .

سافر الى الولايات المتحدة حيث كان استاذا زائرا بجامعتها أثناء العام الجامعي 1956 — 1957؛ثم عين استاذا للفلسفة وتاريخها بجامعة محمد الخامس فى اكتوبر 1962.

من أهم مؤلفاته باللغة العربية : (باسكال) و (ديكارت) و (مراحل الفكر الاخلاقي) و (تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية) . طبعت بدار المعارف بالقاهرة .

وباللغة الفرنسية : (فلسفة باركلي الدينية) (ثوابت الفكر الفرنسي) (قيمة الماضي) طبعت بباريس .



اعتاد المؤرخون فى دراستهم لافلوطين أن يقفوا عند امرين اثنين : أولهما أصول فلسفته ومذهبه ، والثاني مصادر هذه الفلسفة فى الفلسفة اليونانية القديمه ، وفى محاورات أفلاطون بوجه خاص . وتكاد تنحصر دراسة هذه المصادر عندهم فى بيان مواضع من محاورات أفلاطون أشار اليها أفلوطين ، وارتبطت فى تفكيره بتفكير المعلم القديم ، ارتباطا رقيقا خفيفا او ارتباطا وثيقا . ولم يتساءل المؤرخون بعد ذلك ، عما اذا لم يكن لطول الفترة بين الرجلين اثر ما فى طبيعة الاتصال بينهما : أحدهما عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد ، والآخر في القرن الميلادي الثالث ، بينهما حضارات تتغير ، وعلوم تتجدد ، واخرى تتكشف ، واجواء روحية دينية تتنوع ، وتختلف ، بين أثينا في عهد الاسكندر وأثينا الرواقية ؛ بينهما وبين الاسكندرية البطلمية ، فالرومانية ، فاسكندرية تتفتح الى الروح الدينية النابعة من آسيا ، ثم بين هذه الاسكندريات

وخلف هذا العصر برامج واثباتا تحوي العلـوم المعروفة ورجالها فمنهـا :

برنامج ابن ابي الربيع المتوفى سنة 688 .

برنامج الودياشي المتوفى بسوس 749 .

برنامج ابن الشاط السبتي المتوفى سنة 723 .

عنوان الدراية للغبرني المتوفى سنة 714 .

برنامج ابن القاسم بن يوسف التجيبي البلنسي من اهل سبتة (اول القرن الثامن) .

ثبت احمد بن علي البلـوي الوادي آمـي (اول القرن العاشر) .

فهرست ابن غازي المكناسي .

روضة الاعـلام بمنزلة العربيـة وعلوم الاسـلام لمحمد بن الازرق الفرناطي (في اول القـرن التاسـع)

يتكلم عن العلوم الشائعة في عصره وعلوم العربية بصـ خاصة وكيفية التدريس .

ولهذا المؤلف كتاب في السياسة يرد فيه على ا خلدون في بعض المسائل ، يوجد بالخزانة العامة ج 4 وهو بدائع السلك في طبائع الملك ج 93 .

وفهرست يحيـى السراج المتوفـى سنـة 05 وهناك عين الاصفـر .

وفهرست ابراهيم ابـن السراج السجلماسـ المتوفى سنة 903 .

وفهرست الونشريين المتوفى سنة 914 .

وفهرست ابن غازي المتوفى سنة 919 .

الرباط ـ الحسن السائح



وصل اذن الى روما واستقر فيها وانشأ مدرسته و ستمر في تعليمه حتى نهاية حياته تقريبا ، عند مـا ا تدت عليه امراض معوية لازمته منذ مدة ، فأقعدته ال الفراش دون أن تعوق تفكيره حتى النهاية .

هذه هي الاحداث الرئيسيـة لحيـاة افلوطين ، يمكن تقسيمها الى مراحل ثلاث ، لكل منهـا علاقـة بفلسفته ، سواء أكان ذلك بمحتواها أو بجوها الروحي: مصريه صعيدية ، هي مرحلة نشأة الرجل ، كان لهـا بدون شك أثر عميق في عقليته وشخصيته ، وان كانت معلوماتنا عنها قليلة جدا ، اكتفينا منها باشارة سابقة سنأتي الى معناها في نهاية كلامنا .

ثم مرحلة اسكندرية بدأت بعلاقاته بامونيوس ، وانتهت بتركه المدينة الى الشرق الاسيوي ثـم الـى روما . هذه المرحلة كانت حاسمة في تكوين ثقافتـه ، ونشأة نظرياته الفلسفية ، وخاصة في العالم المعقول .

ثم مرحلة رومانية ارتبطت بتاسيس المدرسـة وتأليف « التساعات » ، وبالصورة النهائيـة التـي اتخذتها فلسفته ، لا سيما نظريته في الاله .

ولا شك في ان انطلاق فلسفته بدأ في المرحلـة الاسكندرانية ، وكان متصلا أشد الاتصـال بتعليـم امونيوس الافلاطوني بالاسكندرية .

من الصعب التكلم عن امونيوس هذا وعن التعليم الذي ناله افلوطين على يده . والاغلب انه كان مصريا مثل افلوطين ، وان دروسه كانت في محاورات افلاطون وطريقة مطالعتها وفهمهـا ، ولعلـه كـان اول من علم طريقة دراسة النص الفلسفي ، اي بمقارنته بنصوص الفيلسوف الاخرى . والامر المؤكد في علاقة افلوطين به هو هذا القسم الذي اخذه هو وزملاؤه على انفسهم، الا يذيعوا شيئا من تعاليم معلمهم .

في هذا القسم اشارة الى نـوع تلك التعـاليـم ودلالة اولى على اتصال افلوطين بمدرسة الاسكندرية : فيه ما يدل على ان تعليم الافلاطونية بالاسكندرية كان يحمل اسرارا لا تكشف الا للخاصة .. فالمدرسـة الافلاطونية كانت بأثينا مفتوحة للجميع ، وتعاليمهـا معروفة علنية ، امـا التعليـم السـري ، فهـو خاص بالاسكندرية ، وخاص بذلك العهد من الاسكندرية . لم يكن تعليما بالمعنى المفهوم ، بل كان ارشادا وتلقينـا Initiation . لذلك وجب اعتبار امونيوس مرشـدا ، ملقنا لتلامذه ، وهؤلاء مريدين له .

اما وان كنا لا نعرف شيئا عن طبيعة الارشـاد الذي تلقاه افلوطين من معلمه ، فاننا نعرف قيام تعليم اسكندراني آخر ، كان هو ايضا ارشادا وتلقينا ، وكان معاصرا لتعليم امونيوس ، وهو التعليم الذي نجد في المجموعة الهرمسية Corpus hermeticum تعبيرا واضحا عنه . وهذا التعليم ، اذ كان اوضح اثـر لمـا يمكن تسميته في عصر افلوطين « مدرسة الاسكندريـة » ، هو المدخل لدراستنا العلاقة بين افلوطين ومدرسـة الاسكندريـــة .

حتى الوقت الذي شرع فيه افلوطيـن تعلـم الفلسفة الافلاطونية على امونيوس السقـاء لـم يكـن هناك وجود فعلي لمدرسة الاسكندرية ، اي لمدرسـة فلسفية تشابه بوجه من الوجوه مدارس اثينا الفلسفية التي كان لكل منها معلم واحد ، وتعاليم واحدة . لهذا السبب ، يجب ان تطلق العبارة « مدرسة الاسكندرية» على نزعة فلسفية ظهرت بوادرها بمدينة الاسكندرية منذ أوائل القرن الثاني قبل الميلاد ، نزعة اتجهت الى تجديد فلسفة افلاطون بوجه عام ، واحياء نظرياته في معرفة الاله ، وتوجيه تلك النظريات توجيها دينيا بوجه خـــاص .

نشأت هذه النزعة ، وتطورت ، وتجسمت ، اذا صح القول ، تحت تأثير عوامل اغلبها غير فلسفـي ، بعضها ديني ، وبعضها الآخر والاهم سياسي .

وكان الاسكندر الفاتح من اهم العوامل المؤثرة : فقد ادت فتوحاته الى انتشار الثقافة اليونانية بيـن الشمال والجنوب ، وبين الغرب والشرق ، والى بداية امتزاج هذه الثقافة بالثقافات الشرقيـة . — ثم ادت أعماله السياسية وتصرفاته الدينية المرتبطة ارتباطـا وثيقا بتلك الاعمال الى تحول الفلسفة بعـد افـلاطون وارسطو الى الرواقية . وكانت الرواقية متهيئة بطبيعة نشأتها هذه الى شيوع ورواج خارج بـلاد اليونـان ، ومتهيئة ايضا لان تحمل الفلسفات اليونانية السابقة ، وتدمجها في فلسفة واحدة . — وكان الاسكندر اخيرا مؤسس مدينة الاسكندرية التي تم بناؤها على يد البطالسة، فهيأ بذلك الى تأسيس متحف الاسكندرية ومكتباتها ،

كلها وروما التي توفي فيها افلوطين ، وكانت الوثنية فيها على وشك الاحتضار ، والمسيحية على وشك الانتصار .

تغافل غريب اغرب ما فيه ، انه لم يمنع المؤرخين من ربط افلوطين بالاسكندرية ، ومن اعتباره فيلسوف المدينة ، وزعيم مدرستها ، بالرغم من أن الرجل قد ترك المدينة ، وهو في مقتبل العمر ، لم ينشيء فيها مدرسة ، ولم ينشر كتابا . تركها الى روما ، حيث استقر حتى وفاته في سن الخامسة والستين ، بعد انشاء مدرسة ، واعطاء تعاليم ، كان من ثمراتها كتاب « التساعات » الذي جمعه فورفيريوس ، مترجم حياته .

تغافل غريب . وتغافل مزدوج . فالمؤرخون بعد ما اهملوا دراسة الزمن والاحداث بين افلوطين المصري والاسكندراني وبين أفلوطين الروماني ، بين تفكير أفلوطين اثناء اقامته في البلاد التي ولد فيها ونشأ وتعلم الفلسفة ، وتفكيره عند ما استقر في المدينة التي اسس فيها مدرسته ، واعطى تعاليمه ، وكتب أو أملى أو الهم « تساعاته » الشهيرة .

وهذا التغافل في دراسة مصادر الفكر الافلوطيني وتاريخ هذا الفكر ، هو الذي دعاني الى البحث في معنى مدرسة الاسكندرية ، ومبلغ دين افلوطين اليها ، ومعنى خروجه منها .

ولد افلوطين في عام 205 م ، بمدينة ليكوبوليس الواقعة بالقرب من مدينة أخميم الحالية بصعيد مصر . واننا لا نعرف الا القليل عن حياته بمصر قبل اقامته بمدينة الاسكندرية . حادث وحيد يقصه علينا فورفيريوس ، مترجم حياته : انه حتى سن الثامنة ، اي حتى الوقت الذي بدأ يذهب فيه الى المدرسة ، كان يكشف عن صدر مرضعته ويرضع من ثديها . وعند ما قيل له ان هذا فعل طفل سيء الخلق ، خجل خجلا شديدا ، ورجع عن الفعل رجوعا نهائيا . والفطام المفاجيء والمتاخر حتى هذا السن قد يؤدي الى نوع من العصاب ، لا يصعب ايجاد القرائن عليه في حياة افلوطين او في « تساعاته » : منها عدم اشارته على الاطلاق الى اهله وذويه ، ومنها تركه المفاجيء لمدينة الاسكندرية ، وقيامه برحلة الى آسيا الصغرى قد كان من الممكن ان يموت اثناءها ، ومنها الحاجة المستمر في ضرورة الهروب من العالم ، ومنها أخيرا اهماله البالغ لعلاج جسمه ، ورفضه اتباع ارشاد الطبيب له في ذلك ، حتى اصبحت رائحته كريهة وتفشت على وجهه وذراعيه علامات مرض جلدي خبيث ، منع أصدقاءه من معانقته عند زيارتهم له ، ثم منعهم من زيارته في نهاية حياته .

ولا نعرف بالضبط في اي وقت اتى الى الاسكندرية . ومن المحتمل جدا انه عاش فيها مدة ما قبل التقائه بمعلمه امونيوس ، عند ما بلغ الثامنة والعشرين ، وتخصصه على هذا المعلم ، تخصصا نهائيا في الفلسفة الافلاطونية . والاغلب انه اختلف قبل ذلك على مدارس بالاسكندرية ، كانت تعلم فيها الفلسفة ، ممتزجة بالبلاغة والخطابة ، وانه لم يرض عن تلك الدراسة . ففاتح في ذلك صديقا له نصحه بتعلم الفلسفة على امونيوس . وعند ما التقى افلوطين بهذا الاخير ، اعترف لصديقه بانه قد وجد الرجل الذي كان يبحث عنه .

ولا نعرف شيئا عن حياته بالاسكندرية سوى اتصالا دام عشر سنوات كاملة بينه وبين معلمه ، وعدا بعض اتصالات اخرى باصدقاء جاءوا فيما بعد لزيارته بروما ، عند ما استقر فيها .

ولما بلغ التاسعة والثلاثين ، فاجأ اصدقاءه بعزمه على ترك الاسكندرية ، واقتفاء آثار الامبراطور جورديان الذي كان قد بدأ يهاجم في ذلك الوقت جيوش فارس في آسيا الصغرى ، بغية استرجاع هذا الجزء من الدولة الرومانية ، ثم القضاء على دولة فارس في فارس والهند .

علل فورفيريوس هذا القرار المفاجيء برغبة الفيلسوف بعلم فلسفات فارس والهند . واننا لا نجد هذا التعليل مقنعا ، لان افلوطين لم يقم بآسيا اكثر من اشهر ثلاثة ، ولم يجاوز في اقامته هذه حدود آسيا الصغرى : ترك بلاد الشرق كلها بعد فشل جورديان في مهمته وقتله بمكيدة رومانية ، واتجه مباشرة الى روما ، ليستقر فيها ، وهذا علامة على ان الدافع لرحلته الى الشرق قد زال بوفاة جورديان . أما قرار اقامته بروما ، فلا يمكن تفسيره بغض النظر عن قراره الاول ترك الاسكندرية واقتفاء آثار جورديان ، فالقراران مرتبطان فيما بينهما ، والدافع اليهما واحد ، وسنأتي اليه عند عرض نشأة فلسفته .

لذلك نبلغ الآن المرحلة الثالثة والاخيرة لتطور النزعة العقلية التي انتهت بنشأة «مدرسة الاسكندرية» وتمثل هذه المرحلة في التعليم الفلسفي والديني الذي نجد صداه العميق فيما عرف بالمجموعة الهرمسية

اول ما يجب قوله عن هذه المجموعة انها لا ترجع الى العصر المصري القديم، وانها ليست من تأليف كهنة مصريين وانها – خارج الاجزاء الخاصة بالتنجيم التي ترجع الى العصر الفارسي في مصر، وخارج الاجزاء الخاصة بالكيمياء التي الفها مصريون اثناء العصر البطلمي – خارج هذا، فالمجموعة كلها ترجع الى النصف الاخير من القرن الميلادي الثاني؛ وان مؤلفيها كانوا اما يونان تمصروا او مصريين تهلنوا، وهو الارجح. وكانت هيلنيتهم اقوى من مصريتهم، فقد كان تأليفهم مرتبطا أشد الارتباط بما كان يكتب او يعلم عن الفلسفة الافلاطونية في ذلك الوقت، وكان يحاكي التأليف الفلسفي المعاصر في تعظيم الشرق وانبيائه وأديانه، وأديان فارس والهند بوجه خاص، وفي محاولة الجمع بين هذه الاديان وهؤلاء الانبياء من ناحية، وبين فلاسفة اليونان – أفلاطون وفيثاغورس خاصة – من ناحية أخرى.

وكان أسلوب التأليف لتلك المجموعة من علامات العصر ايضا. كان أسلوب الاقوال Logoi أي أسلوب التأليف القصير، قد لا يعدو أحيانا بعض جمل، وقد يضم أحيانا اخرى عدة صفحات: اسلوب حكم ومواعظ وارشاد في الحالة الاولى، اسلوب درس في الحالة الثانية، ودرس من نوع خاص: يبدأ بمناقشة قصيرة، بين معلم وتلميذ، وينتهي بدعاء موجه الى الالهة، والى الاله هرمس – طوت، اله الحكمة والتأليف عند قدماء المصريين.

وقد تبين بعض المؤرخين المعاصرين – ومن احسنهم بوسيت Bousset وفستوجيير Festugière في هذا التأليف، وخاصة في المواضع التي يطول فيها علامات على ان التعليم لم يكن في اساسه بين معلم وفصل مدرسي، أو بين معلم ومدرسة، بل كان بين معلم وتلميذ واحد. وان ذكر رفيق لهذا التلميذ فلأن التلميذ الاصلي كان غائبا لسبب من الاسباب.

ثم هناك خاصية اخرى لهذا التعليم، تظهر في المرحلة الاخيرة منه، هي اعتماد المعلم على أسطورة من الاساطير كما لو كانت مصدر تفكيره، او على وحي الهي يبدو انه تلقاه مباشرة او سمعه من الذين تلقوه. هذه الاسطورة مختلفة كل الاختلاف عن الاساطير التي كان يلجأ اليها افلاطون في محاوراته، سواء لشرح فكرة غامضة او للتمثيل عليها. ان اسطورة المعلم الهرمسي كانت موضع اثبات قاطع.

لنحاول الآن أن نبين في اختصار فحوى التعليم الهرمسي في المسألة الرئيسية، اي في مسألة معرفة الاله، تعليما موجها كما ذكرنا في المبدا الى خلاص النفس.

ابتدأ الهرامسة في هذه المسألة باتباع الموقف الذي اتخذه افلاطون في محاوراته: وهو ان الاله يعرف عن طريقين: طريق التأمل في العالم ونظامه، تأملا يؤدي الى اثبات وجود عقل منظم للعالم؛ وطريق التقشف والزهد، وترويض النفس عن البدن حتى تتم لها معرفة ذاتها، والاله الذي تنتمي اليه.

ولكن هناك مرحلة ثالثة، مرحلة اتصال واتحاد، اشار اليها أفلاطون في غموض، ولعله لم يستطع المضي فيها لنقص في ثقافته ورياضته الدينيتين، وضعف في ايمانه بالوحي الالهي: هذه المرحلة لا تتم بمجرد الاعتماد على قوى العقل الطبيعية، ولا يقف الانسان فيها عند معرفة الاله بل يبلغ فيها مرتبة الاتحاد.

وأساس هذه المرحلة ان الاله، كما قال افلاطون في «الجمهوريه» هو الخير، وأن الخير يعرف في تعارضه مع الاجسام. فالخير لا جسمي Asômatos أو هو اللا جسمي To asômaton. والخير خير لان لا شيء يحده كما هو الحال في الاجسام. انه اللاجسمي، واللا محدود

وما اللا جسمي؟ وما اللا محدود؟ ليست معرفة الاله – كما توحي به صيغة السؤال – معرفة سلبيه. ان السؤال السابق معناه: ما الخير الذي كان في جوهره لا جسميا لا محدودا؟ والاجابة هي عندئذ: الخير هو الفكر O nous لا الفكر من حيث هو صفة عارضة لكائن مثل الانسان لا يتعادل كلية وهذه الصفة ذاتها. الخير هو الفكر من حيث هو وجود؛ انه الوجود الفكري.

اي الى تأسيس معاهد العلم والفن التي حملت لـواء الثقافة العلمية قرنين من الزمن على الاقل . وكانت فتوحات الاسكندر وتنقلاته السريعة ومشروعاته في فتح جديد واكتشاف وطواف ، علامات على قلق شديد في نفسه ، لم يتوقف عنده الا بموته ، ولم يتوقف انتشاره في العالم المتمدن الا على نحو مؤقت وتحت تأثير الحروب ، وتحت تأثير التنظيم العلمي والسياسي الذي تم بوجه خاص بمدينة الاسكندرية ، اثناء العصر البطلمي ، وفي تلك المدينة وفي حوض البحر المتوسط بوجه عام اثناء الحكم الروماني . وما ان خمدت روح التنظيم والانشاء هذه الا وعاد القلق الى النفوس ، وعاصر ذلك القلق بداية انتشار الدعوات الدينية الشرقية، قديمة اكانت ام جديدة . وبهذا الانتشار وبفضل المرح الذي مهد اليه الاسكندر بين الفلسفات ، وبين الحضارات ، وبينها وبين الاديان ، بين الروح الفلسفية والروح الدينية ، تكونت عملية جديدة او نزعة جديدة، هي التي نسميها « مدرسة الاسكندرية » . فالاسكندر اذن في اساس نشأة هذه العقلية وهذه النزعة ، وبالتالي في اساس نشأة مدرسة الاسكندرية ذاتها .

وأحب ان اتابع في اختصار وبمدينة الاسكندرية ذاتها ، مظاهر ثلاثة لتطور النزعة العقلية المذكورة ، كانت بمثابة مراحل تكوين « مدرسة الاسكندرية » حتى مجيء افلوطين .

بدات المرحلة الاولى في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ، عند ما قرر بطليوس ترجمة اسفار العهد القديم للكتاب المقدس من العبرية الى اليونانية . فأحضر خصيصا من فلسطين الى مدينة الاسكندرية سبعين حبرا من احبار اليهود ، قاموا بانشاء النص السبعيني للكتاب ، عاونهم في ذلك بعض رجال الاسكندرية من اليهود المثقفين ثقافة يونانية ، وكان ضلع هؤلاء المعاونين كبيرا جدا في اثبات النص في مرحلته النهائية : فهم لم يسهموا في ترجمة « الكتاب » فحسب بل قاموا بتأليف اسفار جديدة باللغة اليونانية . اهمها ما نسب من اسفار « الحكمة » لسليمان النبي . وتضمنت هذه الاسفار معاني جديدة على الكتب العبرية القديمة ، معاني مأخوذة من الفلسفة اليونانية ، من افلاطون والرواقيين ، ومرتبطة بمسألة العقل الالهي وعلاقته بالعالم .

وفي هذا دليل على انتشار الفلسفة اليونانية بمدينة الاسكندرية وعلى تعليم هذه الفلسفة بتلك المدينة . فالمساهمون في انشاء النص السبعيني لم يتعلموا هذه المعاني بمطالعتها في الكتب ، بل تعلموها في المدارس الخاصة التي كانت مجاورة لمجامع اليهود وكنائسهم ؛ هذا لان الفلسفة كان نصيبها في المتحف ضعيفا جدا ، وكانت تدرس فيه مختلطة بالبلاغة والخطابة . اما دراسة الفلسفة كمادة مستقلة عن الخطابة ، فكانت منظمة في مدارس خاصة انشئت خارج المتحف ، وذلك لمختلف جاليات المدينة ، ومن بينها الجالية اليهودية . تدرس لمن يريد من أفرادها الفلسفة مع التوراة والشريعة الاسرائيلية .

ويتضح امر هذه المدارس الفلسفية الخاصة اتضاحا اكبر عند ما نبلغ المرحلتين الثانية والثالثة لتطور مدرسة الاسكندرية .

تبدا المرحلة الثانية في مستهل العصر الميلادي، وتتمثل بنوع خاص في تأليف فيلون اليهودي السكندري الذي توفي حوالي عام 40 م . وتأليف فيلون هذا شاهد في نظري على تطور النزعة العقلية التي اشرنا اليها وعلى بداية تكوين مدرسة الاسكندرية ، وذلك لاسباب رئيسية ثلاثة : الاول ان تأليفه يشهد على علم غزير لتاريخ الفلسفة اليونانية ، علم لابد كان منتشرا في ذلك الوقت بمدينة الاسكندرية ، والغالب ان فيلون حصل عليه في نهاية ثقافته المدرسية بدليل اعترافه بأن الفلسفة كانت الغاية التي من أجلها حرص على تلقي العلوم من صغره . والسبب الثاني ان تأليف فيلون هذا يدل على استخدام الفلسفة اليونانية في شرح العهد القديم للكتاب المقدس واحداثه ، وذلك لغاية فهم الكتاب فهما عميقا يهيىء صاحبه — باعتراف فيلون — الى المرحلة الاخيرة من المعرفة ، وهي مرحلة التصوف أي تأمل الاله والاتحاد به . والسبب الثالث ان في تأليف فيلون شهادة على اتصاله بجماعات من اليهود تألفت بجوار الاسكندرية وعلى ضفة بحيرة مريوط ، مماثلة لتلك الجماعات التي تألفت في فلسطين بجوار البحر الميت . انتظمت هذه الجماعات على هيئة صوامع خصصت لافراد ارادوا التفرغ للتأمل في الاله . ويشعرنا فيلون بأنه لولا انشغاله بأمور الطائفة الاسرائيلية بمدينة الاسكندرية لكان انضم الى تلك الجماعات . وفي رأينا ان جماعات « المتأملين » هذه لم تكن قاصرة على اليهود ، بل كانت شائعة بمدينة الاسكندرية على هيئة مدارس خاصة هي مدارس الارشاد والتلقين التي اشرنا اليها في كلامنا عن امونيوس معلم افلوطين .

تحية على الذكرى

لابراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب

للدكتور: زكي المحاسني

كنت اطرب لابي الطيب المتنبي حين أجده متغزلا، لكنه كان يخرج من الغزل منفضا أثوابه ؛ غاسلا يديه ، واحسبه كان غارقا يومئذ فى الهوى والشباب والامل المنشود ، وقد ضاعت جميعها من يديه ، اذ كان مطلبه فى الحياة فوق هم الفؤاد اللهو والحب . لقد كان متيما بالمثل العليا فى البأس والحرب ، وكان كأنه يسمع أصواتها تدعوه الى لقائها ، فوطد نفسه منذ صباه على الاستجابة لندائها ، ولكن نداءاتها البعيدة الشريدة اضاعته فى خضم الحياة كما ضاع « عوليس» حين استجاب فى مضيعة البحار لنداءات « السيرين » عرائس البحر المسدلات شعور الذهب ذوات الانصاف الدنيا بجلود الحيتان .

وكذلك رحت فى الدهر الحديث أرى صديقي شاعر فلسطين الذي كان اول الثائرين لحرية بلاده وحلوصها من قبل ان يجلو سكانها عنها ، ومن قبل ان تعصف بها عواصف الكوارث .

كان ابراهيم طوقان يرحمه الله ، باديا فى روح شاعر شد نظره الى مدارات النجوم ، وكم كنت احببه لو عاش الى هذه الفترة ان يتمنى الحصول على فقدان الوزن فى عصر الفضاء ، ليخف طيارا مغذا في الاجواء التي لا تنتهي ، تاركا هذه الدنيا بشقاواتها ، منطلقا نحو السماء ، وطالما كان يقول من وراء الغيب قبل ان يغيب :

بلد لي يا عين ان تهدئي
وتشتري الصفو بطيب الكرى
لي رقدة طويلة في غد
لله ما اعمقها في الثرى

ألم تري طير الصبا في يدي
اخشى مع الغفلة ان ينفرا
طال جناحاه وقد يهتدي
الى أعالي دوحه مبكرا

* * *

أرى الثلاثين ستعدو بيه
مغيرة أفراسها باقتراب
وبعد عشر يلتوي عوديه
وينضب الزيت ويخبو الشهاب

ان لحياة ابراهيم طوقان شطرين واحد في الغزل ، والآخر فى الحماسة . لقد كان غزلا مدلها مولعا بالجمال يتبعه ، كصاحبه القديم ابن ابي ربيعة فى العصر الاموي ، فهو منذ وجد عملا تدريسيا فى الجامعة الامريكية فى بيروت علق بفتاة كانت تجيء هنالك مكتبة الجامعة فتغزل بها ، وذهب شعره على الافواه ، فتناقله الفتيان والفتيات : كان يقول فيها :

وغريرة في المكتبه
بجمالها متنقبه
يا ليت حظ كتابها
لضلوعي المتعذبه
حضنته نقرا ما حوى
وحنت عليه وما انتبه
سمحت لأنملها الجميل
بريقها كي تقلبه

واستبد به الهوى الطواف فكان مثل نحل يطوف على الازاهير ، فتعلق بغانية كانت ترعاه فى مرضه ،

وان صح ذلك ، فحركة النفس نحو الاله للاتحاد به ، هي محاولة الانسان ليتحول الى الوجود الالهي ، الى وجود فكري خالص .

ويمتاز هذا الفكر الالهي بانه اسرع الاشياء واقواها « ولو امرت فكرك بالذهاب الى الهند ، لوصل اليها بسرعة تفوق امرك ذاته . ولو امرته بأن يطير الى السماء ، لطار اليها ، ولما عاق طيرانه عائق » .

هذا التحول للفكر الانساني الى الفكر الالهي هو التصوف ذاته . وغاية التصوف ان تحل القوة الالهية محل الفكر الانساني ومحل الوجود الانساني .

يشرح الهرامسة هذا التصوف فى نص غريب :

« اعمل على أن تصبح اكبر فأكبر ، حتى يكون مقدارك لا متناهيا ، وذلك بقفزة تحررك من جميع الحدود المكانية والزمنية ، واعتبر ان لا شيء متعذر عليك . اعتبر نفسك خالدا وقادرا على فهم كل شيء ، كل فن وكل علم ، وخاصة كل كائن حي . ارتفع فوق كل علو ، وانزل تحت كل عمق . اجمع فى نفسك تأثيرات جميع الكائنات : النار والماء ، اليابس والرطب. تصور انك فى كل مكان : على الارض وعلى البحر ، وفى السماء ؛ لم تولد بعد من بطن امك ، شاب ، شيـ ميت ، عائش بعد الموت . ان احتضنت بالفكر جميـ هذه الاشياء معا ، من أزمنة وامكنة ، وجواهـ وكيفيات ، ومقادير ، استطعت فهم الاله ومعرفته .

اينما سرت جاء الاله للقائك ، ومثل امامك حـ فى المكان الذي لا تنتظره فيه ، وحتى فى اللحظة التـ لا تتوقعه عندها ، نائما كنت ام مستيقظا ، مسافـ على البحر أم على البر ، فى الليل أم فى النهار ، متكلما صامتا ، اذ لا يوجد شيء الا كان هو » .

ويلجأ الهرمسي الى تقريب هذا الوجود الفكري من اشبه الاشياء به ؛ من الضوء في مصدره وجوهره الاصيل . وهو مدين فى ذلك الى تشبيه افلاطون للخير بالشمس . ولكن الهرمسي يجاوز التشبيه ويجاوز التقريب ، فيعادل بين الفكر والنور ، واقفا موقف الاديان المعاصرة : فالانسان الذي يتحول الى وجود فكري خالص ، يصبح كائنا نورانيا خالصا .

(يتبع)

الرباط — الدكتور نجيب بلدي



نظرة تاريخية وجغرافية على بوغاز جبل طارق

للأستاذ : عبد اللطيف الخطيب

لبوغاز جبل طارق اهميته الموقعية الكبرى بالنسبة للمواصلات العالمية وخاصة بالقياس الى وطننا . وقد شاء الاستاذ عبد اللطيف الخطيب أن يقدم هذا البحث الى قرائنا مشتملا على كافة المعلومات الجغرافية بالاضافة الى دراسة تاريخية جامعة ننشرها فى هذا العدد شاكرين للاستاذ باسم المجلة وقرائها هذه العناية وهذا الاهتمام

نقول في تحديد موقع بوغاز جبل طارق ان خط العرض السادس والثلاثين يمر بمياهه محاديا لما يسميه الاسبانيون بـ « الرأس المغربي » غرب مدينة طريف . وهو اقرب اراضي الاندلس الى شواطئنا . وهو يقع بين خطي الطول الخامس والسادس المارين غرب « غرينتش » . ويمكن ان نقول ان الدقيقة الثلاثين تتقاطع مع خط العرض المذكور شرق مدينة طريف في مكان يقع الى الجنوب الغربي من مدينة الجزيرة الخضراء تجاه « القصر الصغير » بالضبط .

ونحن اذا نظرنا الى البوغاز فيما بين خط الطول المار بـ « الطرف الاغر » ، غرب طريف وخط الطول المار بـ « رأس اوربا » بجنوب جبل طارق وجدنا ان طوله يبلغ خمسة وخمسين ميلا على السواحل الاسبانية ، اما على شواطئنا فيبلغ طوله اثنين واربعين ميلا فيما بين خط الطول المار برأس «اسفار» بطنجة وخط الطول المار برأس الميناء في سبتة .

اما اتساعه فمتفاوت بحسب الاعوجاج الذي يلاحظ بصورة خاصة على شواطئه بشبه الجزيرة ، وان كانت سواحلنا تمتد امتدادا مستقيما يلاحظ عليها نتوء كلما امتدت الى الشمال . فالمسافة بين « رأس اشقار » و « الطرف الاغر » ، اربعة وعشرون ميلا وخمس الميل ، وهي تعادل اربعة واربعين كيلومترا . اما فيما بين « رأس اوربا » و « رأس الميناء » جهة الشرق فهي لا تعدو اثنى عشر ميلا ونصف الميل ، اي ما يعادل ثلاثة وعشرين كيلومترا بالضبط . وتبلغ المسافة بين « جزيرة الحمام » التي توجد في ممر خط العرض السادس والثلاثين جنوب « الرأس المغربي » عند طريف و « كدية العزبري » شرق القصر الصغير ثمانية اميال وخمس الميل ، اي خمسة عشر كيلومترا . اما اقصر مسافة بين الشواطيء المغربية والاسبانية فهي التي توجد بين « كدية العزبري » و « رأس لاشنشوبس » جنوب مدينة طريف .

وتتفاوت الاعماق في البوغاز كما تتفاوت المسافات بين ضفتيه . فعمقه عند « الطرف الاغر » ثلاثمائة متر . اما اذا سرنا نحو الشرق فهو يقارب سبعمائة متر قرب طريف ليصل الى الف وخمسة وثمانين مترا عند مدخل جون الجزيرة الخضراء بجوار رأس « كارنيرو » ، والى الف وثلاثمائة متر عند مصبه بالشرق . ويتكاثر هذا العمق كلما توغلنا في البحر الابيض المتوسط .

ويقدر بستة وعشرين الفا من الامتار المكعبة حجم الماء الذي يرسله المحيط الاطلسي الى البحر الابيض المتوسط عبر البوغاز في كل ثانية تفاديا لجفافه من جراء التبخر . ويمر الماء في هذا الاتجاه بسرعة عشرة كيلومترات في الساعة . ويمر بالبوغاز ايضا تياران جريان تفوق سرعتهما سرعة التيارات الموجودة بالمحيط والبحر . فأما التيار الاول والكبير فهو تيار سطحي يدخل الى البوغاز قادما من المحيط ليصب في البحر المتوسط ، واما التيار الاخر فعميق بسبب وزن الاملاح الموجودة في الماء بهذا البحر الذي يصب في المحيط ثلاثة آلاف من الامتار المكعبة في الثانية .

وطالما ضعفت اعصاب الرضى تحت أشعة العيــون المواسية المطلة من وجوه متوردة لبست صاحبتهــا الاردية البيض فكن كالملائكة ، يبعثن البرء في القلوب قبل دواء الاطباء ، فتحت هاتيك الهدب السواحر راح صاحبي ابراهيم طوقان يقــول :

بيــض الحمــائــم حسبهنــــه
انـــــي اردد سجعهنـــــــــه
فـــي ـكـل روض فـــــوق دا
نيـــة القطــــوف لهـــن انـــه
الحــانيـــات على المـــريـــض
غـــدون أشبـــاهـــا لهنـــه
مـــا الكهـــربـــــاء وطبهـــا
بـأجـل مـــن نظــراتهنـــــــه
مهـــــلا فعنـــــدي فـــــارق
بيـــن الحمـــــام وبنهنـــــه
فلربمـــــا انقطـــع الحمــا ـ
ئـم في الدجـى عـن شدوهنــه
امــا جميــــل المحسنــــا ـ
ت ففي النهــار وفــي الدجنــة

لقد رايته ببيروت في أواخر عهده بالحياة حوالي سنة ـ 1940 ـ فسألته حاله ، فشكا الي القرحـــة التي خرجت في معدته ، وانها طالما انتكأت عليه ، ولم اعلم ان ذلك اللقاء سيكون الاخير بيننا .

لقد جعلتني بعد غروبه أحاول ان اطلع محياه من عيوبه ، فكتبت عنه كتابا كنت اول من الف في أدبـــه وشعره بعد موته ، وكم كانت أخته الشاعرة الملهمـــة (فدوى) تنتظر انجازي لذلك الكتاب وقد دفعت الي بمخطوط ديوانه قبل ان ينشر ، وقد نشره أخوهـــا الاستاذ « احمد » بعد صدور كتابي حين بررت لهـــا بالوعد ، فتواقعت على صفحاته كاللهيفة العطشى تبل ظمأ احزانها على أخيها بمواده الخضلة الخالدة

كان طوقان شاعر فلسطين المبكر الذي ملأ د العرب لوعة على انطفاء شعلة جسمه ، ستبقى رو لماحة ساطعة في سماء الادب العربي الحديث .

لكأن جلاجل حماسته في شعره تطن في سمع الدهر وهو يتداول اذنه الابدية انملة كما يقول ابـ الطيـــــــب :

وترك فـــي الدنيـــا دويـــا كأنمـــا
تداول سمع المرء انملـه العشـــر

من هذا الشعر المدوي في الحماســـة العربيـــة المعاصرة وقد دعا فيه ابراهيم طوقان الى حمايـــة فلسطين وانبعاث الثورة قوله :

يا جناة على البلاد بدعوى الخير والبر لا نعمتم رقادا
في غد ينشأ الصغار فيبغون تلادا وما تركتم تــلادا
يعتمونه الى العدو فمن أين يلاقــون ملجــا ومهــادا
أنتم اليوم تزرعون فسادا وغدا سوف ينمر استعبادا

كذلك يا شاعري ، انني من ضفاف بردي ارسل اليك هذه التحية فأنشرها كأزاهير ، اجدد بها ذكراك وارد عهدك في الشعر الى الحـــب والحماســـة ، الـى المتنبي الذي جئت مثله بالـــروح الساميـــة والامـــل الكبير ، وطرقت مبكرا ، وقبل الاوان من غروب العمر ذلك الرتاج الاعظم الذي طرقه ودحل منه فبلك بنحـــو من الف عام ، وهو باب الخلود .

طوقان ، يا شاعري ، سلام عليك ، انك دخلـت التـــاريـــخ .

الدكتور زكـي المحاسنـي
دمشق في 22 مارس 1963

لا حراج المعدلين السنويين المذكورين . ومن المعلوم ان ا. متر من الماء يعادل لترا واحدا لكل متر مربع .

وتتبين اهمية التيار السطحي بالبوغاز كما تقدم ذكره اذ علمنا ان ذلك التيار ضروري لبقاء البحر الابيض المتوسط بقدر العلماء ان التبخر الملحوظ بالبحر من شأنه ان يؤدي به الى الجفاف التام في مدة لا تزيد على اربعمائة وعشرين لولا ذلك التيار الذي يأتيه من المحيط بثلاثة وعشرين الامتار المكعبة في الثانية ، ولولا هذا الحجم العظيم من لاصبح البحر الابيض المتوسط عبارة عن هضبة من الملح ارتفاعها سبعين مترا .

ولقد قلنا ان سواحلنا على البوغاز تمتد اثنين واربعين ميلا فيما بين رأس « اشقار » بطنجة ورأس الميناء بسبتة وهو ما يعادل بالضبط ستة وسبعين كيلومترا وثمانمائة من الامتار . ولما كانت شواطئنا تمتد على مسافة الفين وثلاثمائة وعشرة من الكيلومترات فيما بين السعيدية بالبحر الابيض والحدود الجنوبية لعمالة طرفاية مع الساقية الحمراء من اراضينا المحررة على المحيط فان نسبة سواحلنا على البوغاز بالقياس الى هذا الامتداد لا تزيد على ثلاثة وثلث في المائة (×) .

نظرة تاريخية

ومن المحقق ان سكان حوض البحر الابيض المتوسط قد مارسوا الملاحة منذ اقدم العصور فجابوا السواحل قبل ان يتوغلوا في عرض البحر وخاصة في القسم الشرقي منه ، وذلك لكثرة الجزر فيه واعتدال مناخه . ولم تكد تحل الالف الثالثة حتى اصبحت شعوب هذه الجهات تتوفر على قوارب متينة تتحمل العواصف والانواء . وقد قام سكان شواطىء بحر ايجه بتحسين صناعة القوارب المصرية ، الا ان الفضل الاكبر في تقدم الملاحة يرجع الى صور كما هو معلوم .

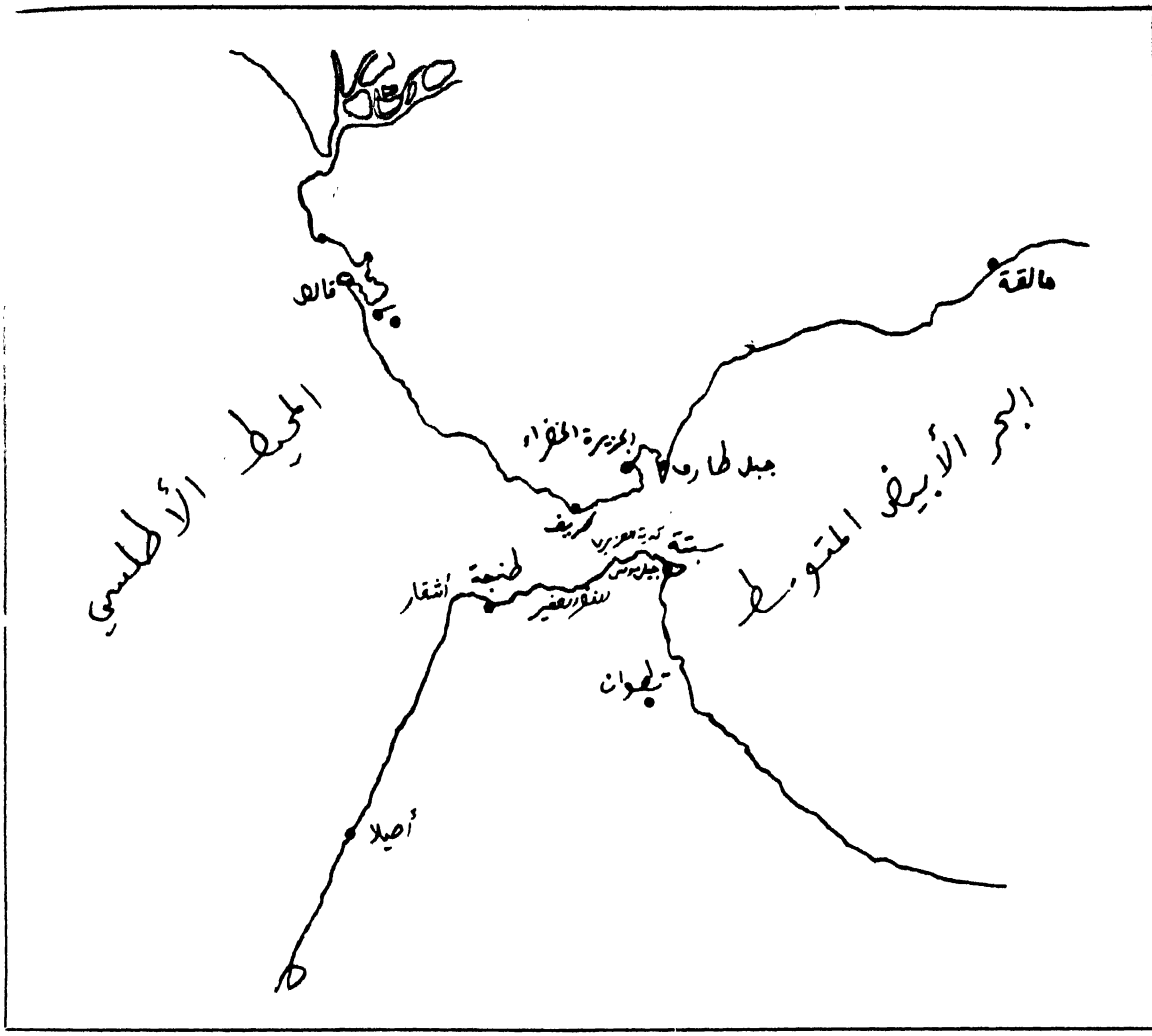
ولما تحسنت وسائل النقل شرع سكان هذه المنطقة يفكرون جديا في فتح القسم الغربي من البحر . الا ان اخبار الارساليات الاولى قد اندثرت ، ورغم ذلك فقد ساد التسليم بالاسبقية للفينيقيين في القيام بالاسفار البعيدة نحو الغرب ، حيث انشأوا مواعد تجارية لهم في شمال افريقيا واسبانيا خلال الالف الاولى . وقد اسست صور سنة ثمانمائة قبل الميلاد مدينة قرطاجة التي نافست مع مرسيلية وروما على السيطرة بغرب البحر الابيض المتوسط خلال قرون عديدة .

وظل القدماء مدة مديدة يعتبرون المضيق نهاية العالم ويتخوفون منه باعتبار ان ما وراءه انما هو بحر الظلمات كما كانوا يعتقدون ان البوغاز لم يوجد الا لينبه البحارة الى عدم اجتيازه والتوغل في ذلك البحر المخيف . وقد تأكد ان عبور البوغاز لاول مرة قد تم خلال الالف الاولى ، ففي 1100 قبل الميلاد قام الفينيقيون بتأسيس « قالص » في جنوب اسبانيا وبعد ذلك مدينة « لبكسوس » التي تبعد بمسافة ثلاثة كيلومترات عن موقع مدينة العرائش نحو الشمال . وقد نشطت الملاحة بهذه الجهات وبلغت شأوها بالاتصال الوثيق بقرطاجة . ثم ان البوغاز قد ربط البحر الابيض المتوسط بشمال القارة الاوربية وخاصة بانجلترا والبلاد الاسكندنافية فأصبح مركزا رئيسيا للملاحة وحرصت قرطاجة التي سيطرت على غرب البحر فيما بين القرنين الثامن والثالث على الاحتفاظ بسلطتها عليه لسيرها في مجال التجارة ، واتخذت لتحقيق غايتها هذه مختلف الوسائل المتراوحة بين اشاعة الخوف والرهبة من بحر الظلمات كما كان الامر فيما قبل ، وبين كل السفن الاجنبية التي تقترب من المضيق .

ويمكن لنا ان نؤكد ان الحروب البونيقية قد قامت لاسباب كان الحرص على تملك البوغاز في طليعتها . وقد اصبح البوغاز رومانيا بعد انتهاء هذه الحروب التي استمرت من سنة 204 الى 140 قبل الميلاد وظل تحت هذه السيطرة الى ان حدث غزو « البرابرة » للامبراطورية كلها خلال القرن الميلادي الخامس . وانتهت فترة النشاط التجاري للبوغاز الذي لم يعد الى مكانته المرموقة الا عند فتح العرب للاندلس . وقد رأينا من الضروري ان نورد هذه المقدمة حول الفترة السابقة للفتح الاسلامي تيسيرا لادراك اهمية البوغاز في مختلف عصور التاريخ .

لقد عبر المغاربة البوغاز في صيف سنة عشرة وسبعمائة لاول مرة عندما قام طريف بن مالك في اربعمائة رجل بالنزول في اقرب مكان من القارة الاوربية الى افريقيا ، وهو المكان الذي اسست فيه مدينة طريف . وهو يبعد عن « كدية العربي » بغرب مدينة سبتة وشرق «القصر الصغير» بمسافة تقل عن اربعة عشر كيلومترا كما تقدم في نظرتنا الجغرافية . وقد عاد القائد المغربي الذي لم يجد مقاومة مسلحة تذكر ببعض اسارى والغنائم الى طنجة التي غادرها في اليوم الحادي عشر من شهر يوليوز للسنة المذكورة

(1) — هذه المعلومات مستقاة من النتائج التي انتهى اليها صاحب هذا البحث سنة 1948 عند ما وضع خريطة لاقاليم الشمال استند فيها على المقاييس التي سجلتها مراكز الرصد الخمسون لدرجات الحرارة ومقادير الامطار خلال آماد متفاوتة باختلاف مراكز التسجيل وكانت محطة طنجة من بين المراكز التي استوفت المدة المطلوبة ابان انعقاد المؤتمر الدولي بعاصمة بولونيا .



ولما كان البوغاز ممرا بين صفين تعلوهما جبال متفاوتة في الارتفاع فان رياح الشرق ورياح الغرب غالبة عليه ، وحتى اذا كانت هناك رياح اخرى فهي تتحول الى احد هذين الاتجاهين بحكم تلك التضاريس . الا ان رياح الشرق تغلب على الجزيرة الخضراء وخاصة في شهور مارس ويوليوز واغسطس وشتنبر ودجنبر ، وتهب رياح الغرب مع رياح الشرق فيما عدا هذه الشهور . غير انه تمر رياح الشرق بهذه المنطقة خلال الشهور كلها . ويمكن القول بصورة عامة ان رياح الشرق غالبة عند مصب البوغاز في البحر الابيض المتوسط بينما تغلب رياح الغرب على مصبه في المحيط .

ولما كانت مدننا الواقعة على البوغاز هي سبتة وطنجة فقد رأينا من المفيد في هذا المجال ان نورد المعدل السنوي للحرارة والامطار المهاطلة عليهما . فاما معدل الحرارة فيهما فهو واحد ، اذ تبلغ ست عشرة درجة مئوية وثمانية اعشار . ويبلغ معدل الامطار في سبتة خمسمائة وواحد وتسعين مليمترا وثمانية اعشار ، بينما يرتفع هذا المعدل في طنجة الى ثمانمائة وثمانية وستين مليمترا وثلاثة اعشار ، وعلينا ان نقول في ابراز اهمية هذه المعلومات واستقرارها انها نتيجة التسجيل المتواصل لثلاث عشرة سنة فيما يرجع الى سبتة ، ولثلاثين عاما كاملة فيما يتعلق بطنجة (1) . وهذه المدة الاخيرة هي التي تم الاتفاق على اعتمادها في المؤتمر المنعقد بمدينة فارسوفيا سنة خمس وثلاثين وتسعمائة والف بحضور الخبراء الدوليين في الاحوال الجوية . وقد كانت سبع واربعين هي آخر السنوات المدرجة في الآماد المعدة

ا سان البريطانيين له . وحاصر جبل طارق بعد ذلك
مس سنوات فرفع الحصار الذي دام سنة كاملة لما توفي الملك
اء الطاعون وعمره لا يبلغ اربعين سنة .

وتثبت عيون التاريخ الاسباني ان سكان جبل طارق
، ضاقوا سنة 1410 ذرعا بالحالة التي كانوا فيها فاستغلوا
ا لافات التي كانت قائمة هناك بين الحكام العرب والبربر
. دوهم من المدينة التي جعلوها فيما بعد تحت حماية
ـ لطان المغرب الذي ارسل للدفاع عنها الفا من الفرسان والفين
من الرماة . الا ان يوسف ملك غرناطة تمكن من استرداد
هذه القلعة في السنة التالية .

وبعد اربع وعشرين سنة حاول « انريكي دي غوتمان »
احدها بالاغارة عليها من البحر فمات غرقا . وقد جاء ولده
« خوان » والي مدينة طريف فأنهى هذا القتال باحتلال القلعة
نهائيا يوم 20 اغسطس للسنة الثانية والستين من القرن الخامس
عشر . واتخذ الاسبانيون استيلاءهم على جبل طارق رمزا
لنهاية حملة « الاسترجاع » ولو ان مملكة غرناطة قد ظلت
قائمة بعد هذا التاريخ بمدة ثلاثين سنة ، وذلك نظرا لانهم
تمكنوا من استرداد الموقع الذي نزل به طارق وانطلقت منه
حملة الفتح الاسلامي المظفرة التي ادخلت شبه الجزيرة خلال
مدة لا تعدى القرنين في عهودها الذهبية كما تقدم .
واستأثرت اسرة الفاتح بالسيطرة على القلعة مدة طويلة ، اذ
لم يتم الحاقها بتاج اسبانيا الا في اواخر السنة الاولى من
القرن السادس عشر عند ما عينت الملكة « ايسابيل » حاكما
لها تقلد امرها باسم زوجها الملك « فرناندو » واوصت خلفاءها
بالتمسك بجبل طارق الذي هو « اجمل حصون شبه الجزيرة ».

ولما انتهت حملة الاسترجاع الاسبانية انقطعت الصلات
بين ضفتي البوغاز فافترن عصر الاحتلال الاسباني بفترة
الانحطاط والدهور التي عظمت بانصراف الاسبانيين عن
الاهتمام بالبحر الابيض المتوسط واقبالهم على العناية بأعمال
الاستكشاف ، وان كان الملك « فيليبي الثاني » على
الخصوص قد واصل مقاتلة المسلمين وخاصة الاتراك باعتباره
« الحامي الاكبر للديانة النصرانية والمدافع عن اقطارها » .

وشرع الانجليز يهتمون بالبحر الابيض المتوسط لما
ظهرت فائدة التجارة مع اقطار الشرق فبسطوا صلاتهم
التجارية والعسكرية على مختلف مواقعه ابتداء من اواخر
القرن السادس عشر . وقد حاول ملك اسبانيا العظيم السالف
الذكر ان يقاوم الوجود الانجليزي بهذا البحر فحرم الموانىء
الاسبانية على السفن البريطانية واستمرت هذه المنافسة الى
ان انتهت بهزيمة الاسطول الاسباني النكراء ــ وهو الاسطول
الذي لا يغلب ــ سنة 1558 ، عندما حاول التصدي للاسطول
البريطاني واغراقه للحيلولة بينه وبين ولوج البحر المتوسط .

لقد كان جبل طارق قد اصبح للمرة الاولى مرفأً كبيرا
على عهد العرب ، الا ان الاحتلال الاسباني له كان بمثابة
فترة احتضار استمرت قرنين ونصف ولم تنته الا باستيلاء
الانجليز عليه يوم رابع ابريل سنة 1704 ابان « حرب الخلافة»
باسبانيا .

ولم تكن « حرب الخلافة » هذه من الحروب الاهلية
المريرة التي يزخر بها تاريخ اسبانيا كما قد يتبادر الى
اذهان بعض القراء ، وانما كانت حربا منارها التنافس في
التوسع بين الدول العظمى . وقد استأثرت امريكا باهتمام
هذه الدول خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر عند ما
اخذ التدهور يسري في الدولة الاسبانية قبل ان يتفشى فيها .
وقد كانت هذه الدول هي فرنسا وهولندة وبريطانيا العظمى.
فلما رأت هذه الدولة الاخيرة ان تاج اسبانيا وما يخضع له
من الاقطار العديدة في العالم الجديد سيؤول الى حفيد
« لويس الرابع عشر » لم تتردد في الدخول في الحرب
لتفادي هذا الخطر وذلك بمقتضى الميثاق المبرم في لاهاي
في السنة الاولى من القرن الثامن عشر . وقد حالفت هولندة
وملوك « هابسبورغ » في هذه الحرب التي احتلت خلالها
جبل طارق لتحول دون اتصال الاسطولين الفرنسيين بالبحر
الابيض المتوسط والمحيط الاطلسي ، وذلك بعد ان فشلت
محاولاتها السابقة لاحتلال « قالص » وبرشلونة . وقد حاول
الفرنسيون والاسبانيون خلال عدة سنوات استرجاع هذه
القلعة التي حاصروها عدة مرات ، الا انهم فشلوا في كل
هذه المحاولات التي تلتها انتصارات انجليزية متعددة في
البحر الابيض بصورة خاصة ، فقد تمكن البريطانيون في
سنة 1705 من احتلال برشلونة ، ثم نزلوا في السنة التالية على
مدينتي « قرطجنة » و « القنت » ، وعلى ميناء « ماهون »
بجزيرة « مينورقة » وعاصمة مقاطعة جزر « الباليار » بعد
سنين .

وقد اردنا ان نعرض لهذه الحرب بعض التفصيل لانها
كانت مرحلة فاصلة بالنسبة للوجود الدولي لاسبانيا . وكان
ابرام معاهدة « اوطريك » Utrecht نهاية هذه الحرب
اذ تنازل « الملك الكاثوليكي فيليبي الخامس لبريطانيا
العظمى باسمه وباسم خلفائه عن مدينة جبل طارق وقلعته
ومينائه ومنشآته العسكرية من غير مقاسم لها » ، وذلك
بمقتضى المادة العاشرة من هذه المعاهدة . اما المادة الحادية
عشرة فقد تنازل بموجبها عن سيادته على جزيرة « مينورقة »
المذكورة .

وقد غادر الاسبانيون جبل طارق واقاموا من حوله
بعد ان قطعوا كل اتصال به كمقدمة لمحاصرته التي تجددت
عدة مرات . ولما فشلت وسائل القوة عمد الاسبانيون الى

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر ابريل لسنة احدى عشرة وسبعمائة غادر اسطول يقوده محمد بن نابسة مرسى سبتة ـ وكان يتألف من اثنى عشر الفا من القاتلين المغاربة وخمسمائة من الفرسان ـ فنزل العرب بالجبل الذي نسب منذ ذلك الحين الى طارق بن زياد حاكم طنجة وخليفة موسى بن نصير الذي نسب اليه الجبل القائم غرب مدينة سبتة. وقد دارت المعركة الفاصلة في شهر يوليور من هذه السنة نفسها عند نهر « باربـاطي » فتم للعرب فتح معظم البلاد في ظرف لا يتعدى حولين كاملين وظلت في قبضتهم الى ان انهارت الخلافة وتفرق عند انتهاء الثلث الاول من القرن الحادي عشر الى ثلاث وعشرين مملكة من ممالك الطوائف ، فاستغل النصارى هذا الضعف واستولوا على شمال البلاد وشرعوا فيما سموه بحملة الاسترجاع التي اعتبرت بمثابة الجناح الايمن للحروب الصليبية عند الفاتيكان .

ولم يكد ينتهي القرن الثالث عشر حتى كان الوجود الاسلامي بالاندلس قد اصبح مقصورا على مملكة غرناطة التي كانت سيطرتها تمتد الى جنوب شبه الجزيرة والتي ظلت قرنين كاملين تقاوم الزحف النصراني المتدفق قبل ان تنهار مقاومتها يوم ثاني يناير من السنة الثانية والتسعين من القرن الخامس عشر ، اي قبل اكتشاف امريكا بتسعة اشهر وعشـ ايام . وقد ظل البوغاز تحت الحكم الاسلامي ثمانية قـ ضعفت خلالها مكانته التجارية قبل ان تنعدم بحدوث القط بين الموانيء الاسلامية والنصرانية . ومن المعلوم ان العرب جعلوا جبل طارق قلعة حصينة لتعزيز وجودهم العسكـ بشبه الجزيرة ، لا لحماية البوغاز وضمان حرية الملاحة ما ضعفت شوكتهم . وقد تعرضت هذه القلعة التي استولى عليها النصارى سنة 1462 م لحصارات متعددة طويلة ، وذلك مـ انصرام العقد الاول من القرن الرابع عشر ، فقد استولـ



الاسبانيون سنة 1309 على جبل طارق في عهد ملك قشتالة « فرناندو الرابع » ، ثم استعاده المسلمون سنة 1333 بعد حصار استمر اربعة اشهر . وفي هذه السنة نفسها حاول « الفونسو الحادي عشر » استرداده من جديد ، الا انه اضطر بعد حصار دام شهرين ونصف الى امضاء الصلح مع ملك غرناطة وملك المغرب معا . واعاد ملك قشتالة المذكور الكرة مرة اخرى بمعونة ملك « اراغون » وملك البرتغال فانتصر على المسلمين انتصارا كبيرا بالقرب من مدينة طريف سنة 1340 . الا انه لم تمض اربعة اعوام حتى فقد الفونسو الحادي عشر مدينة الجزيرة الخضراء رغم معونة عدد كبير من

مبادئ وحقائق
في حياة الجماعة الحيادية الدولية

للأستاذ : المهدي البرجالي

الحياد الايجابي واوضاعه الدولية الحاضرة ـ الفكرة الحيادية الجديدة واحوال نشوئها وتطورها ـ الظروف النفسانية والفكرية التي تحيط بوجود الجماعة الحيادية من جهة ، ومجموعة الكتل والاحلاف من جهة اخرى ، بين التناقضات (الحيادية) والتناقضات الموجودة داخل الاحلاف والمعسكرات ـ نتائج كل ذلك ـ مضمون الالتزام التكتلي ومفهوم الالتزام الحيادي ـ الفروق العامة بين الحالتين .

هل يجب ان نعتبر المحايدين في العالم ككتلة دولية ثالثة ؟ واذا كانت هذه الكتلة قائمة بالفعل فما هي منزلتها بالنسبة للكتل الدولية الاخرى المنافسة هنا وهناك ؟ وما هو قسطها من المسؤولية في هذا المضمار ؟

اسئلة يبدو الجواب عليها من اول وهلة سهلا ميسورا ، وعلى الاخص فيما يتعلق بالسؤال الاول الذي يثيرنا بمقتضاه من احوال المحايدين بالعالم ، وهل يشكلون بمجموعهم حقيقة كتلة عالمية جديدة ، يمكن ان تكون ثالث الكتل الكبرى في المجتمع الدولي المعاصر ، فمن الممكن حقا ان يعتمد المرء في هذا الباب على بعض الظواهر الماثلة ، ومن ثم ينطلق الى الجزم بان المحايدين لا يشكلون بمجموعهم اية كتلة خاصة ، وانه ليس في الامكان مقارنة وضعيتهم باوضاع الكتل الاخرى بالعالم ، وخاصة منها الكتلتان الرئيسيتان الكتلة الشيوعية والكتلة الرأسمالية كما انه من الجائز كذلك ، ان يذهب آخرون ـ في هذا الموضوع ـ مذهبا معاكسا للاول ، فيؤكدون بان الدول المحايدة تعتبر على النقيض مما تقدم ـ ككتلة عالمية ثالثة ، لها صفاتها ومميزاتها الخاصة ، كما ان لها ـ من جهة اخرى ـ عوامل اختلافها بل واصطدامها مع الكتلتين الاخريين ، والكتلات التابعة لهما هنا وهناك ، في مختلف انحاء المعمور .

والواقع ان الظواهر الدولية في دنيانا المعاصرة ، توجد في كثير من الاحيان على درجة عالية من التشعب والتعقيد ومن هذه الظواهر ، ما يتعلق بمفهوم الحياد وعدم الانحياز عند مختلف الدول التي تعتنق هذا المبدأ وتدين له ، ثم علاقة هذه الدول فيما بينها من جهة ، ومع غيرها من دول العالم من جهة اخرى ، ثم جانب الحقائق الدولية التي ينبثق عنها كل ذلك ، فمفهوم الحياد عند كثير من الدول حديثة العهد بالاستقلال ، يختلف في بعض الجوانب عن المفهوم الذي تتبناه في هذا الموضوع دول اخرى عربية وغير عربية سواء في آسيا وافريقيا او غير هاتين القارتين ، وينعكس هذا النوع من الاختلاف في المفهوم الحيادي على تصرفات الدول الحيادية المختلفة ، ومناهجها في النظر والتقدير ، ووجهات سلوكها في دنيا السياسة والعلاقات الدولية وغير ذلك ، ولهذا فانك ترى دولا يضيق مفهوم الحياد عندها ، وتتقلص ابعاده حتى ليكاد يرادف في تطبيقها معنى العزلة والدوران حول الذات ، مع استخفاف شديد بشؤون العالم ، وعدم مبالاة بتجاربه ونتائج تطوراته ، وتجد ـ من جانب آخر ـ مجموعة من الدول الاخرى ، يتسع في عقيدتها او بحسب مصالحها مبدأ الحياد ، واذا به يمطط تمطيطا فضفاضا وبعيد المدى ، وتتسع آفاقه وصلاحياته ، حتى ليكاد يصبح نوعا من انواع التبعية البسيطة تقل مظاهرها ، وتكثر بحسب الظروف

الوسائل الدبلوماسية باستغلال الظروف الدولية وخاصة ما كان يرجع منها الى منافستهم لفرنسا . وقد كان الاسطول البريطاني هو صاحب الفضل الاول في اعانة القلعة المحاصرة على صد الهجمات الاسبانية الفرنسية المتتالية ، واستمر وضع جبل طارق على ما كان عليه الى ان ابرمت معاهدة « فرساي » التي انهت حرب الاستقلال الامريكية وتم الاعتراف فيها لبريطانيا العظمى بملكيتها لجبل طارق الذي احتلته كما سبق ذكره في السنة الرابعة من القرن الثامن عشر ، اي بعد انصرام عشرين عاما على جلائهم عن طنجة ، حرصا منهم على ضمان سيطرتهم على البوغاز . وقد ابرمت معاهدة فرساي سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة والف بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة واسبانيا . واثبت الاسبانيون تنازلهم من جديد عن جبل طارق في هذه المعاهدة ، بعد ان التزمت بريطانيا العظمى بان تعيد اليهم جزيرة «مينورقة» واقليم « فلوريدا » الذي باعته اسبانيا للولايات المتحدة الامريكية في السنة التاسعة عشرة من القرن التاسع عشر .

ولقد كان جبل طارق اول عهده بالاحتلال البريطاني قلعة محصنة اصبحت فيما بعد ميناء هاما ذا شأن عظيم في المواصلات البحرية مع مرافىء البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي والشرق الاقصى جميعا . وقد كان له دور هام للغاية خلال الحربين العالميتين الاخيرتين . وكان عدد سكان القلعة في العقود الاولى التي اعقبت الاحتلال لا يعدو الفا وثمانمائة نسمة ، واربعة مجموعهم بفضل بعض صناعات التحويل التي انشئت بها رغم افتقارها الى الماء فاصبح اليوم يقارب ستة وعشرين الفا ، يضاف اليهم المجموع « الطافي » من العمال ــ وهو يناهز عشرة آلاف ــ الذين يأتون نهارا للعمل ويعودون الى مدينتي « لينيا » والجزيرة الخضراء في المساء . واذا كانت مدينة جبل طارق تقع عند الساحل الغربي من الجبل فانه توجد بالساحل الشرقي بلدة صغيرة هي « كاطلن فيلج » (القرية الكاتالانية) التي يقارب عدد سكانها الالف ويقصدها سكان الساحل الغربي للفسحة .

واذا كان الحاكم هو الرئيس العسكري للقلعة فهناك « مجلس بلدي » يعنى بالشؤون المدنية منذ سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة والف كما هي مهام الوقاية من الحريق والصحة العامة وتعهد الطرق وتوزيع الماء والغاز والكهرباء وتنظيم السير وضمان المصلحة الهاتفية . وقد كان هذا المجلس يتألف من تسعة اعضاء اربعة منهم منتخبون ويشترط في المرشحين ان يجيدوا التحدث باللغة الانجليزية وقراءتها وكتابتها ، بالاضافة الى شروط اخرى كعدم الجمع بين العضوية في المجلس ومزاولة وظيفة من الوظائف وقد اعيد تنظيم هذا المجلس بعد انتهاء الحرب العالمية الاخيرة فاصبح عدد اعضائه ثلاثة عشر عضوا سبعة منهم منتخبون ، واربعة معينون يمثلون المنظمات والمصالح المدنية كمديرية التربية ومديرية الصحة العمومية بينما الاثنان الباقيان ينوبان عن الادارة العسكرية . ومدة عملهم ثلاث سنوات .

والملاحظة الهامة في الحياة العامة بجبل طارق هي ان مستوى الحياة فيه ارقى بكثير من مستوى الحياة في اسبانيا وخاصة في الاقاليم القريبة . وهذه الظاهرة الاقتصادية والاجتماعية الهامة تصرف السكان عن الاهتمام باسبانيا واحتمالات عودة الجبل اليها .

هذه نظرة عاجلة على تاريخ الجبل والبوغاز اللذين لهما صلة وثيقة بتاريخ بلادنا ، وخاصة بعد الفتح . وارجو ان تكون هذه الصفحات قد تضمنت معلومات مفيدة لعظم القراء .

الرباط : عبد اللطيف الخطيب

وتبرز في هذا المجال مجموعة هامة من الحقائق ...طباب لا بد للمراقب ان يتدبر جوانبها المختلفة ، ...تخلص منها ما يمكن استخلاصه وذلك من اجل التمييز بين الظواهر المتداخلة وتصنيفها تصنيفا يمكن ان يكون ...اول اكثر وضوحا وتحديدا ، واولى الحقائق التي ...ا في هذا المضمار ، تتصل بالاحوال التي تم فيها نشوء ...ـ والجماعات الدولية المختلفة ، وطبيعة العوامل التي اثرت هذا النشوء ، وساعدت على تطويره وتكييفه ، ونرى ...ط في هذا المجال ان الظروف التي احاطت بقيام التكتل ...احلاف الدولية الحاضرة تتماس في كثير من الجنبات ...ظروف التي اسهمت في تطور فكرة الحياد ، ونمو نزعتها ...اسه وتبلورها ضمن الاشكال والاطر التي تظهر فيها الآن

الكتلة الشيوعية التي تضم الآن ما يناهز ثلث سكان ...ر ، وتمتد مواقعها على مساحات شاسعة هائلة في اوربا ...ة الاسيوية . هذه الكتلة لم تتلاحم اجزاؤها وتتآلف ...رها من الناحية القيادية على الاقل – الا تحت تأثير ...ر الحاد ، بضرورة التكتل والتراص من اجل مقاومة النفوذ ...سمالي في العالم ، ومقاومة التيارات السياسية والمذهبية ...يؤثر فيه او يتأثر به على مختلف الابعاد والمستويات ، ...الكتلة الغربية الاطلسية التي تضم اهم الدول المتقدمة صناعيا ...ماديا في العالم ، والتي ترتبط بها بعض التكتلات ...ية الاخرى كحلف جنوب شرقي آسيا (عقد في 8 سبتمبر 1954) ...ف المركزي للشرق الاوسط (25 فبراير 1955) وحلف ...ـ وجاسرو بامريكا اللاتينية (سبتمبر 1947) وغير ذلك ... الكتلة الغربية او الاطلسية قد نشأت – هي الاخرى – ...ظروف سياسية ودولية خاصة ، ترتبط بتزايد الارتباط ...ه الامتداد الشيوعي العالمي ، والتحديات التي اصبح ...بها للانظمة الغربية القائمة على قاعدة الديموقراطية ...امية التقليدية ، وما يرتبط بكل ذلك من اوضاع واجهزة ...ات ومصالح في مختلف انحاء العالم . وقد كان لانقضاض ...ـ الروسي برلين ، وسقوط تشيكوسلوفاكيا تحت ...م الشيوعي سنة 1948 بالاضافة الى احداث منطقة البلقان ...ة التهديد الموجه لتركيا حول موضوع المضايق ، ...ب المتبنة على اليونان من قبل الانصار الشيوعيين ، ...الى التطورات التي ادت الى احياء الكومينفورم (المنظمة ...عية الدولية) ، كان لكل ذلك اثر بعيد المدى في خلق ...وف النفسانية والفكرية التي كان من شأنها ان تدعو ...التكتل بين الاقطار الرأسمالية الغربية وتجميع الارادات ...ة لتطوير الموقف سريعا في هذا المضمار . وواضح ...لمؤثرات التي خلقتها تلك الظروف لا تزال – في العالم ...حدتها وفاعليتها ولم يطرأ عليها عموما اي تعديل ...د المتحالفين والمتكتلين على امكانية الاستغناء عن الاحلاف التي تتجمعون تحت الويتها وتلك هي احدى العقد الاساسية في استمرار تحجر الوضع الدولي منذ سنة 1947 بل وازدياد هذا التحجر وارمانه الى حد بعيد . على الرغم مما يبدو من تقلبات داخلية مذهلة سواء في نطاق المعسكر الشيوعي او الرأسمالي وذلك نتيجة لما يعانيه المعسكر الاول من خلافات مذهبية وسياسية بين الدوكمائيين والتعديليين وبسبب ما يعانيه المعسكر الآخر من تصدعات مثيرة بين فرنسا والمملكة المتحدة من جهة ، والولايات المتحدة من جهة اخرى – على الرغم من كل هذه التقلبات ذات الاهمية الواسعة فانه ليس من المنتظر – مع ذلك – امكانية حدوث انقلاب في الاحلاف الدولية الحاضرة ، وبالتالي احتمال وقوع تكتلات دولية جديدة على حساب الاوضاع الراهنة في المعسكرين المتنافسين كل ذلك لسبب اساسي ، وهو ان الاحوال النفسية التي ساعدت على قيام الاحلاف الحاضرة لم تتغير – بالرغم عن المظاهر – اي تغيير حقيقي ، وما زالت تحتفظ بكامل تأثيرها على مختلف الدول المتحالفة سواء داخل هذا المعسكر او الاخر ، لقد كانت مشاعر التشكك والقلق والحذر في صميم العوامل التي مهدت لنشوء هذه الاحلاف ، وتطور التنظيمات المادية والاجرائية التي ترتبط بها في الاساس ، ومن الجلي ان هذه المشاعر بكل ما تنطوي عليه احيانا من عناصر سلبية هدامة – لا تزال تؤثر تأثيرها القوي الفعال في تطور الاجهزة التحالفية القائمة ، وايضا في الوجهة التي توجه نحوها هذه الاجهزة وتستخدم على اساسها بصورة عامة . ولهذا كله فقد كان من المفهوم دائما ان تستمر هذه الاحلاف مرتبطة بالعوامل النفسانية التي تبرر وجودها من اساسه ، وبالنتيجة لذلك فانه لا يزال من الصعب جدا عزلها عن تأثير هذه العوامل والحيلولة بينها وبين النتائج التي تؤدي اليها كل ذلك كالتسابق – مثلا – نحو التسلح والتنافس على مناطق النفوذ والسعي الى ذلك سعيا بارزا يكاد يشمل حتى مجالات اكتشاف الفضاء ايضا ، وكل هذا من اجل ضمان التفوق على الخصم ، اي ضمان التفوق على عوامل الحذر والخوف والريب ، الذي يحدثه كل جانب باستمرار ، ويؤثر به على نفسية الجانب الاخر ، والاهم من هذا كله ان الامر – في هذا الباب – قد اصبح يتعدى الاتصال بالشعارات التي يرددها هؤلاء او اولئك وحتى بالمبادئ والقيم التي يدين بها المتكتلون سواء في هذا المعسكر او الآخر . ان الشعارات التي اصبحت تردد بمناسبة وغير مناسبة داخل الكتل الدولية المتنافسة هي شعارات القوة . القوة الرادعة ، القوة التي توصف احيانا بانها قوة مطلقة ، اي لها من الفاعلية التدميرية من جهة ، والمناعة ضد الوسائل المضادة من جهة اخرى ما يحول دون ابطال عملها الرادع على

والحالات ، وانك لواجد كذلك — من جهة ثالثة — جماعة اخرى من الاقطار المتشبعة بمبدأ الحياد يبدو انها تدرك مفهومه ادراكا اكثر موضوعية ، واصح منطقا ولهذا فانها تحرص على الاستمساك به بقدر ما يعصمها ذلك عن الوقوع في اطار التبعية والاستلحاق المباشر او غير المباشر ، بيد ان استمساكها به هكذا من الناحية السلبية ، لا يحول بينها وبين العمل على عقلنته وتأكيد واقعيته ، واعتماده بذلك في ازدياد التفسح على العالم ، والتعاون مع شعوب الارض ، والاسهام — بنصيب ما — في استدراك ما يمكن استدراكه من فرص السلام والتفاهم والتقدم .

ومن الجدير بالملاحظة ان ابراز هذه الفروق ، والاستنتاجات التي يمكن ان نثيرها لا يقصد منها بتاتا المقارنة بين اتجاه حيادي وآخر ، او المفاضلة بين مجموعة واخرى من الدول المتأثرة بمبدأ الحياد في شكل من اشكاله ، فالمجال — في هذا الباب — ليس مجال مقايسة او مفاضلة ، وانما كل ما يهم في الامر ، هو مجرد ملاحظة الظواهر العديدة ، التي تتراءى في افق الحياد الجديد ، وما يمكن ان يؤثر به ذلك على وضعية الفكرة الحيادية الدولية بصورة عامة ، والكتلة الكبيرة التي تنتسب الى هذه الفكرة ، او تتأثر بها من قريب او بعيد ، وغني عن البيان ان النتيجة البسيطة التي يمكن ان تنبثق عن مثل هذه الملاحظات هي انه ليس من اليسير دائما تكوين مفهوم قار ومحدد الابعاد لفكرة الحياد وعدم الانحياز ثم ادراج كل الاحوال الحيادية في العالم ضمن هذا المفهوم ، وذلك لكل ما يقتضيه من حدود وشروط ، وما تخضع له من مفاهيم وترتيبات فالاوضاع الحيادية ، الدولية ليست سواء من حيث العقائد التي تقوم عليها او من حيث النتائج السياسية والدولية المرتبطة بها ، ان هناك — بحق — الكثير جدا من الدول التي تنتمي الى فكرة الحياد ، غير ان الاوضاع الحيادية عند هذه الدول لا تتشابه دائما فيما بينها — كما قدمنا — ولا تنتهي الى نفس النتائج السياسية والديبلوماسية التي تقوم عليها النظرية الحيادية المجردة ، وواضح اننا لا نقصد بهذا ما يوجد من اختلاف عميق بين حالات الحياد المضمون دوليا كحياد النمسا وسويسرا مثلا وبين حالات الحياد الايجابي الذي ما فتئت الاقطار الافريقية والاسيوية تأخذ به منذ نهاية الحرب ، حقا ان هناك قدرا كبيرا من الاختلاف بين الحياد المفروض او المضمون وبين صور الحياد الايجابي المستقل القائم الآن في قارتي آسيا وافريقيا وغيرهما ، لكن المقارنة بين هاتين الحالتين من الحياد لا تهمنا في هذا المجال بقدر ما يهمنا النظر في موضوع الحياد الايجابي نفسه ، وما يتمثل في افقه الدولي الحالي من اختلافات في الاوضاع والاتجاهات تذهب احيانا — كما قدمنا — الى حد كبير ، لكن هل يجوز التغاضي عن مثل هذه الاختلافات في الاوضاع والاتجاهات

التغاضي عن مثل هذه الاختلافات في التقييم والاستنتـ والاتجاه ، عند مختلف الدول المحايدة ، واعتبار هذه الد — بالرغم عن ذلك — ككتلة قائمة لها نصيب كاف من التماس والتلاحم والانسجام ، ان الروابط العقائدية والاتجاهية الـ تصل بين المحايدين في العالم لا يمكن الاستهانة بمتانتها وحيويتها في حدود اعتبارات معينة ، الا ان هذه الروابـ لا تصل الى حد ان تجعل من مجموع الدول المحايدة او شـ المحايدة سواء في افريقيا او آسيا او اوروبا او امريكا اللاتـ كتلة متراصة ملتحمة كما هو الشأن بالنسبة للكتل الاخـ الموجودة في العالم ، بل ان هناك حالات يلاحظ فيها وجـ عدد من الدول ذات الاتجاه الحيادي او شبه الحيادي يتكتل البعض منها في منظمات دولية خاصة ، بينما يتكتـ الآخرون في منظمات اخرى قد تكون مناقضة للاولى في كثيـ من القضايا ووجهات التقدير والنظر ، وتلعب الاعتبارات الفلسفية السياسية والعوامل الاجتماعية والفكرية دورا هاما في تكييف اتجاهات حيادية متباينة من هذا القبيل ، على ان الدول الاخرى غير المحايدة — وان كانت تتجمع — من جانب وآخر — في معسكرين متواجهين متناقضين ، يسود كلا منهما نوع من التناسق والالتحام بين عناصره فانها مع ذلك تعاني هي الاخرى من مظاهر الاختلاف الداخلي والتناقض الذاتي ما يبدو احيانا على درجة من الاهمية البالغة ، فالخلاف بين العقديين والدوكماتيين داخل الكتلة الشيوعية قد تجاوز خلال السنة الماضية ، واوائل هذه السنة كل الحدود المحتملة اما التناقضات بين وجهات النظر الداعية الى رابطة اوروبية اكثر استقلالا وذاتية ، وبين وجهة النظر الاخرى ، المتبنية لمبدأ التكامل والتلاحم الاطلسي ، هذه التناقضات في وجهة النظر من اكبر المشاكل واضخم العقبات التي تواجه سياسة الدفاع والتضامن الغربي ، وهناك مظاهر اخرى كثيرة من هذا النوع تؤثر تأثيرا متفاوتا في الاهمية على سير التطور الداخلي داخل المعسكرين العالميين المتنافسين وتحدد احيانا وجهة هذا التطور وامتداده سواء بصورة موقتة او ذات صفة جذرية ، لكن هل في امكان المراقب ان يوازن موازنة شاملة بين مجموعة هذه التناقضات التي تسود عالم الدول المتكتلة والمتحالفة والتناقضات المماثلة لها ، التي تسود الجماعة المحايدة في العالم ؟ ، الذي يبدو من اول وهلة ان مقارنة من هذا النوع من شأنها ان تستدعي في بعض الاعتبارات المقارنة ايضا بين الاوضاع العامة التي تشكل وجود المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسمالي من جهة ، والاوضاع العامة التي تقوم عليها وجود الجماعة الحيادية العالمية من جهة ثانية ، وعلى اساس هذه المقارنة في الاوضاع العامة يمكننا ان نخلص في النهاية الى المقارنة بين التناقضات الداخلية التي تسود هذا الجانب او الآخر والنتائج الاجمالية التي تنشأ عن وجود هذه التناقضات وتطورها .

التخلف مظاهره ونتائجه ولعلنا نكون اكثر ادراكا لمعقولية الفكر الحيادي في هذا الشأن ومنطقه الموقف الذي يتبناه حيال مسائل هامة من هذا النوع ، اذا ما وضعنا في الاعتبار ان الحياد لم يقم في اساسه ومنذ بداية نشوئه وتطوره كوسيلة لمقارعة خصوم حقيقيين او موهومين او مناوأة كتل او جهات دولية معينة وعلى الرغم من ان اكثرية الاقطار المحايدة كانت واقعة في الغالب الاعم تحت وطأة النظام الاستعماري التقليدي وتعاني باستمرار من مشاكل التخلف الذي يرجع في بعض اسبابه الى الوجهة التي كان يتخذها هذا النظام في موضوع الفكر والاقتصاد والاجتماع وغيره – على الرغم من كل ذلك فانها قد استطاعت ان تتخلص من كثير من العقد والمركبات نحو الدول الكبرى ، وتتخذ سبيلها الى آفاق التعاون الدولي الايجابي البعيد عن مظان التحرب ضد هذه الدولة او تلك او على حساب هذا الحلف او الآخر وقد كان طبيعيا جدا ان تتخذ هذه الشعوب المحايدة مثل هذا الاتجاه في التفكير والتخطيط والتصرف لانه منبثق – في واقع الامر – عن نظرياتها الخاصة عن موضوع التعايش العالمي ووسائل مناوأة الاستعمار القديم والجديد وطرق العمل على انجاح الثورة الانسانية من اجل التطور والنماء والتحرر .. والنظريات الحيادية في هذا الباب ، وان كانت تلتقي في كثير من المراحل مع النظريات الشيوعية وغيرها – الا انها لا ترتكز بالضرورة على نفس المعطيات والقيم التي انتهت اليها الماركسية واللينينية وما في ضمنها من حركات واتجاهات دولية ومحلية ، ان نظرة الحياديين الى طبيعة الامبريالية ووسائلها ومضاعفاتها لا تقوم اساسا على اراء اقتصادية وتاريخية معينة ، بقدر ما تقوم – اكثر من ذلك – على ملاحظة الواقع الاستعماري في العالم ، وما يوجبه الاحتكاك بهذا الواقع من غبن واستلابات ، واذا كان من الضروري ان تحمل هذه الغبن والاستلابات على مزيد الحذر من الاوساط الامبريالية الدولية ، ومن مناهجها ومخططاتها المتلبسة الدفينة سواء اكانت على الطراز الكلاسيكي المألوف او كانت تكتسي اردية مستحدثة فانه ليس من اللازم – على اي حال – ان تلتقي النقطة الحيادية في هذا الباب مع تكتلات المتكتلين وانصار الاحلاف والمعسكرات ، وروّاد الحرب الباردة ، وليس من اللازم كذلك ان تلتقي الفكر الحيادي في موضوع الحرية والمبادرة الشخصية والاقتصاد الحر مع نظريات الدول الاخرى التي تعتنق المبادئ الليبرالية في الاقتصاد والاجتماع ثم تتخذ من هذه المبادئ سبيلا للتكتل والتحالف من اجل خوض الغمرات الصراعية ضد الآخرين على اننا اذا نظرنا الى هذه الغمرات من وجهة اراء الذين يخوضونها فاننا نجد انها لا تبرر الاستغراب على اي مستوى مبدئي ، فمنطق الاحداث المتسلسلة منذ حقبة بعيدة ، يفرض امكانية الصراع الموجود بشكله الحاضر ، بل ويحتم وقوعه طبقا لمقتضيات التحول التاريخي وما صحب هذا التحول من تفاعلات دولية تمتد على الصعيد العالمي الواسع ، ولاشك ان التكتل ضمن مؤسسات دولية مشتركة يصبح في بعض الاحيان من اقصى الضرورات واشدها الحاحا بالنسبة للمتصارعين داخل هذا التحول سواء كانوا ينتسبون الى هذا المعسكر او الآخر ، اذ ان مثل هذا التكتل – في نظر البعض – يساهم على الاقل في اقامة التوازن بين الطرفين المتشاحنين ويساعدهما – كما يزعمان – على تركيز طاقتهما الصراعية مادية ومعنوية ، لكن الامر بالنسبة للمحايدين يختلف عن ذلك في كثير من الاعتبارات ، فالبواعث الصراعية عندهم لا تتجه نفس الوجهة التي توحي بها دواعي الصراع عند دول التكتل والاحلاف ، اذ انها ترتبط عند هؤلاء بموضوع الخامات والاسواق والمجالات الحيوية والنفوذ العالمي بمختلف انواعه المذهبية والاقتصادية والسياسية وغيرها ، بينما هي ترتبط عند الاولين بموضوع التحرر من بقايا النظام الامبريالي وتحقيق الاكتفاء الذاتي في ميادين الصناعة والتجارة وغيرها وتوفير فرص النمو والتقدم والسلام على كثير من الدول المحايدة بنصب في الدرجة الاولى على مواضيع التحرر السياسي في مختلف انحاء العالم ويتركز كذلك في موضوعات التنمية الاقتصادية ومشاريع التطوير والتنسيق وان كانت هذه المواضيع الاخيرة لم تتخذ على صعيد التعاون بين الحياديين صورة جدية حقيقية ، وهذه خطوط كبرى في مجال العمل الدولي المشترك الذي يجمع بين كثير من الدول المحايدة في العالم ، وتساعدها – بالاخص – على اتخاذ مواقف موحدة على صعيد هيئة الامم المتحدة ، على اننا اذا ما اعتبرنا تفاهم هذه الاقطار فيما بينها حول مواضيع معينة من نوع ما لاحظناه من قبل مع ما يحدثه هذا التفاهم احيانا من مؤتمرات وندوات خاصة ومناقشات مضبوطة في وجهات النظر – اذا اعتبرنا كل ذلك على انه اساس تكتل موجود بالفعل بين مجموعة المحايدين في العالم ، فاننا نكون حينئذ قد اطلقنا اللفظ اطلاقا فيه كثير من التجاوز واردنا به مدلولا عاما غير مقيد بقيود سياسية وقانونية خاصة ، ذلك ان اتفاق الدول المحايدة في عدد من وجهات النظر ومواطن العمل والسلوك لا يعني انها ترتبط فيما بينها بروابط قانونية ملزمة من نوع ما يربط الدول المتكتلة بعضها الى بعض . بل ان الروابط التي تصل فيما بين المحايدين هي روابط مدنية قبل كل شيء ، بحيث لا تتجاوز حدود المبادئ العامة الى التفاصيل ولا تتغلغل حتى تمس طبيعة الاهداف الخاصة لاية دولة محايدة او جانب العلاقات العامة بين هذه الدولة وبين بقية انحاء العالم ، ومن هنا نلاحظ ان الفكرة الحيادية في خطوطها العامة ، او بالاقل من حيث الواقع الدولي الذي يتمثل فيها الآن .. هذه الفكرة

اي شكل من الاشكال ، وما التلويح بالقوة هكذا الا مظهر من مظاهر الحرص الشديد على مداراة القلق والخوف ومحاولة درء ذلك على طريق تخويف الخصم والقاء بذور الذعر في نفسه ، وتلك حالة دور وتسلسل يمكن على اساسها تعليل الكثير من المواقف المرمة في العالم الدولي الحاضر وادراك المشكلات السياسية الاكثر تعقيدا في مجال هذا العالم وآفاقه ، اما اذا وجهنا النظر الى طبيعة موقف الاقطار المحايدة من مثل هذه التطورات وردود الفعل التي كان من اللازم ان تمارسها ازاء كل ذلك فاننا سنلاحظ ان الحقائق في هذا المجال تختلف في كثير من جوانبها عما رأيناه بالنسبة الى المتحالفين والمتكتلين ، لقد تارجحت الفكرة الحيادية عند شعوب هذه الاقطار تارجحا واسعا جدا قبل ان تصل الى درجة من الارتكاز والاستقرار مثل ما هي عليه الان ، ولقد كان مؤتمر « باندونغ » (ابريل 1955) مرحلة مهمة من مراحل التطور الاساسي الذي اجتازته الحيادية الايجابية المعاصرة كما هي اليوم ، ولم يكن المؤتمر ذاك مجرد مظهر من مظاهر هذا التطور بل كان فوق ذلك عاملا من عوامله التي لها اهميتها في هذا المضمار ، على ان السنوات القليلة التي اعقبت تجمع باندونغ كانت ذات اثر حاسم في تطور الاوضاع الحيادية بالعالم وارتكاز التجمع الحيادي الدولي على اسس اكثر ايجابية وحيوية ، وان كان هذا التجمع لم يتخذ شكل حلف او كتلة على النحو التقليدي الذي تعرفه الكتل المتنافسة اليوم ، وقد كان لتحرر اغلبية المناطق في افريقيا خلال هذه الفترة فضلا عن ازدياد التزاحم بين المعسكرين العالميين على اكتساب الشعوب النامية وتطور الاتجاه عند هذه الشعوب الى الاقبال على موارد التنمية والتطور عن طريق التعاون المتكافئ مع كلا المعسكرين — كل ذلك كان من شأنه ان يزود الفكرة الحيادية الايجابية بعناصر جديدة ويجعل كثيرا من الدول المحايدة وان كان البعض منها لا يزال معولا على توفير المزيد من التقارب فيما بينها والبحث عن سبل التلاؤم في مواقفها من بعض القضايا السياسية على الاقل التي تشغل العالم الدولي الحاضر ، وليس من شك في ان المشكلات الاساسية التي تعاني منها اقطار الحياد هي على درجة من التماثل والتشابه ، وتتركز مجموعها في محور اساسي : الجمود الاقتصادي والاجتماعي الذي يتخذ في الغالب مظاهر مأساة مروعة وسود الرأي عند عموم هذه الاقطار ان الحرب ليس من شأنها الا ان تعرقل الخطوط الممكنة لمعالجة مشاكل انسانية معقدة من هذا القبيل وعلى العكس من ذلك فان سبل التعاون الدولي المحرر من قيود التبعية والانحياز تبرز كأساس دائم وواسع الشمول لتحقيق نتائج هامة في هذا المجال ، وفي امكان المرء ان يستنتج من ذلك متانة الروابط الموضوعية التي ما فتئت تصل بين وجود التخلف من جهة ، والاتجاه المشترك الى الحياد من جهة اخرى . وهذا الترابط — وان كان لا يشكل قاعدة صحيحة يسري مفعولها على جميع الحقائق والمستويات — الا انه — مع ذلك — يعتبر ظاهرة ملحوظة ومطردة تتمثل لنا في مختلف الحالات الحيادية الملحوظة سواء في افريقيا او في آسيا او غيرهما ، فمساواة التخلف ليست مهمة بسيطة حقا ، وهي ان كانت تستوجب شيئا فانها تستوجب — قبل كل شيء — بحثا ملحا عن الموارد والتجهيزات وسعيا حثيثا وراء اعمال التنسيق والانجاز والتنويع وهذه امور لا تتوافر مجالاتها بصورة واسعة الا في اجواء دولية سليمة وبعيدا جدا عن غمار الاحلاف والتكتلات المتناحرة ولا ريب ان مثل هذه الحكمة المنطقية من شأنها ان تفرض على الذهن العادي ضرورة انتهاج سبيل الحياد الواعي المتفتح مثل ما تفعله كثير من الدول النامية . وتتبين مقتضاه في موضوع علاقاتها العالمية والدولية .

نستخلص مما تقدم ان الظروف النفسانية والفكرية التي احاطت بنشوء ظاهرة الحياد الحديث وتطوره هي غير الظروف الاخرى التي صاحبت نشوء الاحلاف والكتل المتنافسة في عالم اليوم ، اذ ان الخوف واليأس والحذر كان فعلا في اساس الدوافع التي حدت الى بناء هذه الكتل . بينما كان الامل والرجاء من بين العوامل المهمة في تمييز الاتجاهات المختلفة نحو الحياد ، وتبلورها في واقع الجماعة الحيادية الدولية التي تشكل اليوم تقريبا ما يتواضع على تسميته بالعالم الثالث . ومن الخوف والحذر من جانب ، والامل والرجاء من جانب آخر تتبين الفارق الكبير بين وجهتين اساسيتين كبيرتين يؤثر كل منهما على سير التطور العالمي وتساهمان في تكييف الوقائع والماجريات التي تجري بين ربوعه ، والتناقض بين الوجهتين ، وجهة المحايدين ووجهة المتكتلين والمتحالفين لا تدعو بطبيعة الحال الى حتمية التصادم بينهما كما يمكن ان تقع بالنسبة للدول المتكتلة بعضها ضد بعض ، اذ ان هذا التناقض الحاصل بين الحيادية والانحيازية لا يستمد وجوده — في الواقع — من شعور عدائي او احساس سلبي ، وانما هو راجع الى جوهر الاختلاف بين فلسفة تقوم على مبدأ التوفيق والتلاؤم ، وفلسفة اخرى تنهض على منطق القوة والمغالبة سواء في حالة الدفاع او الهجوم وفي مجال الاستعداد لذلك ماديا ونفسانيا وبطبيعة الحال فان فلسفة التوافق والتلاؤم لا يمكن ان تسير في سبيل التداني مع الفلسفات الاخرى المناقضة لها ، والمتناقضة هي ايضا مع بعضها البعض وذلك لا لكي تنتهي في الاخير الى الاصطدام بهذه الفلسفات اصطداما تناحريا مميتا كما هو طبيعي ان يحصل في كثير من الحالات من هذا القبيل ، وانما لتحاول — عوضا عن ذلك — التأثير على مواطن السلبية الكامنة في الصراع الدولي القائم وتحديد عناصر الحدة والارهاف في

وتعتبر – على اساس ذلك – موقف بعض من الدول التي استطاعت ان تجمع في نفس الوقت بين صفتين انتمائيتين لا يوجد بينهما قدر من التطابق والالتزام . فالبعض مثلا من الدول المنتسبة الى هيئة الكومونولث البريطاني تنتمي في ذات الوقت الى الجماعة الحيادية الدولية ، ولم يقم هناك اي تعارض اساسي بين اتجاهها الحيادي المتين وبين وجودها داخل منظمة تتصل بعض الاتصال بالعالم الغربي الاطلسي ، وان كانت لا ترتبط ببساطة على خط مستقيم ، وهكذا الامر بالنسبة لامثلة اخرى من هذا القبيل . وكل ذلك من شأنه ان يؤكد ان الحياد – وان كان يضم دولا عديدة على صعيد مبدا مشترك ويجمع بينها في شبه تكتل تلقائي – الا ان هذا التكتل لا ينطبق عليه تماما المفهوم الكلاسيكي الذي يوجه لادها نا روح الحذر والخوف من الاعداء والخصوم ، ويثير على وجهها مجموعة من العقد النفسانية التي سببها هؤلاء الخصوم – فرق كبير بين ذلك ، وبين الحالة القائمة في وجه البلدان المحايدة – على الرغم مما يفصلها من اختلافات ومظاهر غموض وغيره – هذه الحالة التي تقوم على التخطيط من حدة الفراغ العالمي الناشيء عن الاحلاف ، والاسهام بذلك في التقليل من وطأة المركبات المزمنة عند المتكتلين ، والتأثير بالتالي على خطوط العالم نحو السلام والاستقرار .

وباعتبار آخر فهناك فرق آخر مهم بين هؤلاء الذين تشدهم الى بعضهم احيانا معاهدات تكتلية شديدة الوطأة والالزام تضيق احيانا حتى لا تترك لهم الكثير من فرص العمل الدولي وحرية الاختيار المدني ، وبين هؤلاء المحايدين الذين لا تحكم في وجههم معاهدة حيادية خاصة ، ولا تقيد اراداتهم مقتضيات تكتلية ضيقة . وانما الذي يحدد علاقتهم مع بعضهم ومع العالم ، هو الرغبة الملحة في التفاهم والتعاون والحرص الشديد على تمديد رقعة التقارب الدولي ، وتكثير فرص السلام والتقدم على الصعيد الانساني العالمي .

وعلى كل ، فان على الجماعة الحيادية الدولية ان تحقق القدر الكافي من التناسق فيما بينها سواء في الافكار او المواقف ، وذلك من اجل مواجهة التحديات العالمية التي تتوالى باستمرار ، ومجابهة الحقائق المذهلة التي ما تبرح التطور العالمي يحدثها بدون توان او انقطاع ، وهذا التناسق – الذي يختلف عن طبيعة التكتل داخل الاحلاف – ليس من شأنه الا ان يساعد على تركيز فاعلية الحياد الايجابي في مجتمعنا العالمي الراهن ، ويضمن للعقيدة الحيادية مجالا اوسع للمساهمة من اجل السلام والتعايش والتقدم .

سلا : المهدي البرجالي



هي ذات اطار فضفاض متمطط يمكن ان يتسع لكثير من الاشياء بما في ذلك مظهر التناقض الذي يبدو احيانا بين مجموعة واخرى من المجموعات الدولية التي ترتبط بمفهوم الحياد وذلك في بعض الاوضاع والقضايا المختلفة التي لا تمس جوهر الحياد من اساسه ، اما من حيث التناقض الذي ينشب بين الدول غير المحايدة اي المرتبطة فيما بينها بروابط الاحلاف والتكتلات فان تأثيره على علاقاتها يكون – ولا شك – اشد خطورة وابعد مفعولا وذلك نتيجة حتمية لطبيعة الصلات التحالفية التي توجد بينها وما تقتضيه هذه الصلات من ضرورة التناسق المطلق في مختلف وجهات النظر ، واساليب العمل ، على اختلاف الدرجات والمستويات ، وكثير من الظواهر التي يلاحظها المرء من خلال التطورات الداخلية سواء داخل هذا المعسكر او ذاك من شأنها ان تدل على كثير من الحقائق التي لها اهميتها في هذا المقام .

+×+×+×+

ان الفكرة الحيادية تعيش تجربة مرحلية هامة ومن ابرز الحقائق التي تكشفت عنها هذه التجربة ان الحياد – اذ يجب ان يكون اساسا لتعاون ايجابي فعال بين الدول التي تعيش خارج الاحلاف والتكتلات – فانه – من جانب آخر – لا يصح ان يكون قاعدة انطلاق لتشكيل كتلة دولية جديدة منغلقة على نفسها وواقعة تحت تأثير الخوف والحذر من الكتل الاخرى المنافسة في العالم ، حقا ان هناك حالات تقارب واسع المدى بين كثير من الدول التي تعتنق مبدأ الحياد على نحو او آخر . وكثيرا ما يشتد هذا التقارب وتقوى عوامله فيتخذ بذلك شكل تجمع حقيقي يتكتل في نطاقه دول حيادية بعضها مع بعض وترتبط فيما بينها بمواثيق او معاهدات ذات صبغة ترابطية ملزمة ، بل ان البعض من هذه المواثيق والمعاهدات بين الدول المحايدة قد اتسع نطاقه كثيرا في بعض الاحيان واصبح يشمل جوانب ذات اهمية واسعة بما فيها الجوانب العسكرية ايضا لكن ذلك – وبالرغم من جميع المظاهر – لا يدل بالضرورة على وجود اية صلة بين التفكير الحيادي وبين مظاهر التكتل العالمي بمفهومه التقليدي الباعث على مناوأة الجهات الدولية الاخرى والاشتراك معها في المنازعات الدائمة والانغمار واياها في متاهات الحرب الباردة على اختلاف ما لها من اوجه وصور ، ان الفكرة الحيادية لا تقوم في قواعدها على مجرد اجتناب التأثر بالحرب بل انها تنزع الى الاسهام عمليا في تنظيم الشؤون العالمية الكبرى والتأثير على طريقة هذا التنظيم وتوجيهها توجيها يستهدف التخفيف من حدة المنازعات القائمة بل وتصفية عناصر العداء والسلبية في هذه المنازعات كلما كان ذلك ممكنا . وليس من تناقض حتمي بين هذا الاتجاه الذي تحتويه الفكرة الحيادية وبين وجود مواثيق عسكرية تصل بين دول حيادية معينة ، اذ العبرة في هذا الباب لا تكمن في مجرد وجود مثل هذه المواثيق ، وانما في طبيعة الروح التي تؤثر فيها وتسيطر بها على سير الاتجاهات والاحوال ولعل من الواضح بالفعل ان الارتباطات العسكرية التي تقوم او يجوز ان تقوم بين اقطار حيادية واخرى لا يمكن ان تتأثر بروح التحيز ضد هذا الجانب او ذاك او عامل المناوأة لهذه الكتلة ، او غيرها او هذا ما يجب ان يكون عليه الامر على الاقل ، ان الاحوال الارتباطية والتعاونية من هذا القبيل لابد ان تكون متأثرة بروح ايجابية صحيحة كالرغبة – مثلا – في زيادة توثيق الصلات العامة ، وتنسيق عدد من المواقف المشتركة ودرء الاخطار الطارئة عند الاقتضاء . ولكن في غير ما حرص على اصطناع المنازعات الدولية المختلفة ، ودونما رغبة في تعقيد المشاكل العالمية ، وتوسيع نطاق العداء والمناوأة الذي توحي به هذه المشاكل وتأثيراته الى حد كبير .

ان النظرية الحيادية الجديدة تنزع في عمومها الى الاندماج الكلي في قضايا العالم واهتماماته وهذا هو السبب في ان هذه النظرية لم تؤد بالفعل الى تكوين حلف دولي ثالث يشمل مختلف الاقطار التي تأخذ بمبدأ الحياد وتتميز – كما هو الامر في الاحلاف العادية الموجودة – بضيق جوانبه وشدة الزاميته وتجمده في نطاق اهداف خاصة غير قابلة في اكثر الحالات للتكيف والتلاؤم . فليس هناك من حالة توجد فيها قطر حيادي مقيدا بقيود تحالفية صارمة تضع عليه واجب الخضوع المطلق للجماعة التي ينتسب اليها والا اعتبر منحرفا متمردا تحت الانفصال منه والمروق من سلوكه كما هو الامر من هذا القبيل ، بالنسبة للتكتل الدولية الاخرى في العالم ، حقا ان اية دولة من الدول المحايدة لابد ان تبقى وفية – في الاساس – للفكرة الحيادية من حيث المبدأ بما تقتضيه ذلك من عدم التزام بالاحلاف وامتناع عن التحزب المنافس للجهات الدولية المتنازعة ، ورفض البوادر السلبية المؤدية بطبيعتها الى تأريث نيران الحرب ومضاعفة بواعث الصراع في العالم . هذه مقتضيات موضوعية تقوم عليها الفكرة الحيادي في شكله البسيط المجرد ، بيد ان الالتزام لهذه المقتضيات الحيادية لا يمكن ان تعد في نفس الوقت التزاما لمعسكر حيادي او منظمة حيادية او صداقة كبرى من الصداقات المحايدات ، انه التزام تلقائي تحدده ارادة كل دولة بصورة خاصة . وليس لاية دولة اخرى او مجموعة من الدول ان تتحكم في تكوين هذا الالتزام او تؤثر على ضمان استمراره وتحقيق فاعليته ومتطلباته ، وعلى ضوء هذا يمكننا ان نعلل هذه المرونة التي يصطبغ بها التفكير الحيادي

جرت في المجلس الوزاري . على ان السبب الرئيسي الذي ادى الى تسوية الخلافات الاستعمارية الفرنسية ـ الانكليزية ، هو الفشل الذي منيت به محاولة ابرام حلف انكليزي ـ الماني . كان جوزيف تشامبرلان من اول المتحمسين لمشروع هذا الحلف . ثم ما لبث بعد ذلك ان اضحى من اول الدعاة الى حل آخر ، وصرح في دجنبر 1902 لقنصل فرنسا بالقاهرة بان انكلترا اصبحت ملزمة بالعدول عن سياسة العزلة ، وانها فكرت في وفاق مع المانيا فاخفقت دون ذلك ، وانها ترغب والحالة هذه في الحصول على صداقة فرنسا . وللدخول في المفاوضات كان ينبغي الابتداء « بتبادل العرابين » لا شك ان تجربة حرب جنوب افريقيا ، تلك التجربة التي دلت على ضعف الوسائل العسكرية البريطانية ، كانت عاملا في هذا التحول . وقد كتب عنها القائم بالاعمال الفرنسي فقال : « بانها بداية التعقل » . ثم ان انشاء الاسطول الحربي الالماني كان يقلق بال الحكومة والامبريالية معا : ولم يتخذ قرار انشاء قاعدة بحرية كبرى على الضفة الشرقية من انكلترا الا في اكتوبر 1902 .

وما من ريب في ان حالة الراي العام الذي اظهر ازاء المانيا حذرا شديدا سهلت هذا التطور الطارىء على السياسة البريطانية . فقد اثارت الصحف الى المنافسة التجارية . وابدت بعض التخوفات ازاء قضية سكة حديد بغداد (*) . بل ذهب الى القول بان السياسة الالمانية ارادت اثناء حوادث فنيزويلا ان تقحم بريطانيا العظمى في طريق خطير ، فحدث بذلك عموما في سماء العلاقات البريطانية ـ الامريكية . ان هذه « القطيعة المعنوية » لمن الاهمية بمكان .

الى جانب هذه التيارات التي ظهرت في الراي العام . وبالاضافة الى السواغل التي برزت عند رجال الحكم هل ينبغي ان ينضاف العامل المادي في تعليل هذا التطور ؟ ان ميزانية بريطانيا العظمى وعملتها قد اجتازتا في اعقاب حرب جنوب افريقية صعوبات جمة ، فاضحت لاول مرة منذ مائة وخمسين عاما مضطرة الى اجراء قروض خارجية ، وكانت في حاجة دخول الى رؤوس الاموال واغلبية هذه الاموال من فرنسا .

ان ايجاد علاقة بين المساعدة المقدمة من لندن السوق المالية الفرنسية لبريطانيا العظمى وبين التفاوض حول ابرام اتفاق سياسي ، لمن الفرضيات الباعثة على الاغراء . الا ان هذا الافتراض لا يقف صامدا امام تحري الوثائق . فالقروض الخارجية التي قدتها الحكومة الانجليزية كانت في معظمها من الولايات المتحدة . ولم يكن التيار القوي لرؤوس الاموال الفرنسية التي توافدت على بريطانيا العظمى بقصد الاستثمار الا شيئا تلقائيا . ولعل الراسماليين الفرنسيين كان يغريهم ما يجدونه في سوق لوندرة من فائدة اكثر من التي تقدمها لهم باريس ، ولعلهم كانوا يعرضون عن فرنسا لما تفرضه هذه من ضرائب فادحة على الارباح . ان هذه العلاقات المالية لم تؤد الى ادنى تفاوض بين الحكومتين . ولم يتم التفاوض حول اتفاق موقت بين **بنك فرنسا وبنك انكلترا** الا بعد مرور سنة كاملة على ابرام اتفاقات 8 ابريل 1904 ؛ ثم ان هذا المشروع نفسه قد أقبر فيما بعد وبقي حبرا على ورق

* * *

ولقد بدأ الاتجاه الجديد للسياسة الخارجية الايطالية يظهر اعتبارا من سنة 1896 اي منذ الهزيمة التي منيت بها ايطاليا في الحبشة وما تبع ذلك من سقوط كريسبي ((Crispi) . ان ايطاليا وقد فشلت في افريقيا الشرقية ، لم تعد تتجه بانظارها الا لطرابلس الغرب . ورات في هذه البلاد ميدانا خصبا للتوسع الاستعماري ؛ ولهذه الغاية كانت ايطاليا في حاجة الى التاكد من حسن نية فرنسا . ولهذا السبب قبلت في شتنبر 1896 بأن تعترف ضمنيا بالحماية الفرنسية على تونس ، شريطة الحصول على ضمان الامتيازات التي كان الباي قد خولها منذ سنة 1868 للايطاليين المقيمين في هذه البلاد . ولهذا السبب كذلك وضعت في نوفمبر 1898 حدا «للحرب الجمركية» التي ظلت قائمة بين البلدين عشر سنوات ، تلك الحرب التي انزلت في الحقيقة بالاقتصاد الايطالي خسارات افدح من التي لحقت بالاقتصاد الفرنسي . وهكذا تلقت ايطاليا في دجنبر 1900 تأكيدا من الحكومة

---

* كانت العراق في هذه الفترة خاضعة للدولة العثمانية ، وبناء على ذلك خول السلطان لالمانيا في سنة 1903 امتياز مد شبكة حديدية في معظم بلاد الاناضول وما بين النهرين ، واهم خطوط هذه الشبكة الخط الحديدي الذي سيربط البوسفور ببغداد ثم الخليج العربي (المترجم)

السياسة الدولية بين سنتي 1901 و 1907

ترجمة الأستاذ عبد الحميد خيس

- 3 -

عند ما استقر الوضع الديبلوماسي الجديد (بين سنتي 1902 و 1904)، وصار الاتفاقان الفرنسي - الايطالي والاتفاق الفرنسي - الانجليزي - وهذا الاخير يختلف في الاهمية عن الاول اختلافا كبيرا - نافذي المفعول، أصبح زمام المبادرة في الحالتين معا رهينا بالسياسة الفرنسية، وبعبارة أخرى بسياسة دلكاسه (Delcassé). وموضع التساؤل هنا هو: هل حدد دلكاسه اهدافه منذ ان تقلد مهام وزارة الخارجية اولا؟ (*). الشيء الثابت ان برنامجه في سنة 1902 كان واضح المعالم ثابت الاركان، اذ كان يهدف من وراء هذه السياسة الى زعزعة الحلف الثلاثي والتخفيف من حدة الخلافات الاستعمارية بين انكلترا وفرنسا حتى يتعزز مركز فرنسا في أوروبا. كان دلكاسه مطلق اليد في توجيه السياسة الخارجية الفرنسية حيث ان الحكومات التي تشاركت فيها كانت تهتم اولا وقبل كل شيء بالقضايا الداخلية، ومن حسن حظه ان سفراء بارزين من امثال باربر (Barrère) في روما، وبول كامبون في لندن كانوا يساعدونه. فلكم اذن حالة نموذجية للدور الذي قد يلعبه الاشخاص في التاريخ، ولما قد يكون لهؤلاء من مميزات، وقدرة على فهم المشاكل الوطنية. ولكن ينبغي الا نغمط الرأي العام حقه - وعلى الاقل بالنسبة للعلاقات مع بريطانيا العظمى - فهذا الراي العام هو الذي ساند سياسة دلكاسه، اولم تعرب جل الصحف في سنة 1901 عن أملها في «تسوية» الصعوبات بين فرنسا وانكلترا؟ ولعلها ارسلت هذه الصيحة بعدما رأت بوادر ابرام حلف بين انكلترا والمانيا، ثم ان اصحاب التصدير في سنة 1902 قد اوجسوا خيفة من نجاح انكلترا في برنامجها الرامي الى حماية مصنوعاتها، فرأوا في التقارب السياسي بين البلدين وسيلة للحصول على تخفيضات في التسعير الجمركي الانكليزي، وهنالك ما هو أهم الا وهو زعماء «الحزب الاستعماري». فهؤلاء كانوا في سنة 1898 من الد اعداء التفاوض مع انكلترا فاضحوا في هذا الوقت من دعاة هذه السياسة.

انها أحوال موابية لنجاح هذه السياسة الجديدة

ولكن لما ذا فكرت كل من بريطانيا العظمى وايطاليا في تقارب من فرنسا؟

اظهرت الحكومة البريطانية كثيرا من البطء في اعارة الاذن الصاغية لعروض دلكاسه: فهذه العروض قدمت في غشت 1902 ولم تفتح المفاوضات حولها في الحقيقة الا بعد مرور سنة كاملة على هذا التاريخ. فقد اظهر اعضاء الحكومة، وبالاحرى بلفور، خلف سالسبوري، وابن اخته، كثيرا من التحفظ. ولا يمكن في الوقت الراهن معرفة تفاصيل المداولات التي

(*) منذ سنة 1879، اي حينما كان محررا في جريدة غامبيتا واسمها «الجمهورية الفرنسية» كان يلح في مقالاته على فكرة «اعادة النظر في خريطة اروبا»، كما كان يدعو الى التعاون مع انكلترا لقهر المانيا. الا ان الملاحظات التاريخية تبين شيئا من التناقض في هذا الاتجاه، لا سيما في سنة 1901 حينما اراد وهو وزير للخارجية، ان يقدم عونا لروسيا ضدا على انكلترا.

(المترجم)

بالسياسة العامة الالمانية . وأولهـا تفكيـك الوفـاق الودي الفرنسي الانجليزي : فلو تدخلت المانيا في القضيه المغربية وفسرت لبريطانيا العظمى تفسيرا حرفيـا المعهدات الديبلوماسية التي ابرمتها في 8 ابريل 1904، لظهر لفرنسا خطأها في الاعتماد على الصداقة الانجليزية وهذا ما سيجعل التقارب بين الدول العظمى الغربية عديم الجدوى . وثانيهما مرتبط بالمجالات التي فتحتها الحرب الروسية اليابانية : فقد ادركت حكومة القيصر بعد الهزائم الاولى التي منيت بها روسيا في منشوريا ، ان التحالف الانجليزي — الياباني هو مصدر كل متاعبها؛ وكانت والحالة هذه غير راضية على فرنسا التي اخذت تتقارب من بريطانيا العظمى وقد اندلعت الحرب بالفعل. وهكذا سيصبح في وسع المانيا ان تستغل هذا التذمر لتعرض سندها على روسيا بمجرد ما تسنح بذلك اول فرصه ، فتعمل بذلك الى زعزعة الحلف الفرنسي — الروسي بل الى تحطيمه ان اقتضى الحال . حقا ان الحكومة الفرنسية لو اضطرت للاختيار بين الصداقة الانجليزية والصداقة الروسية لفضلت بدون شك العدول عن الوفاق الودي لان الاسطول الانجليزي — كما قال غليوم الثاني — « غير قادر على حماية باريس » .

وفي حالة كهذه سيكون في امكان السياسة الالمانية ان تحصل على النتيجة الآنية : احلال « حلف قار » محل التحالف الفرنسي — الانجليزي ، وستضطر فرنسا الى الدخول في هذا الحلف الى جانب روسيا والمانيا دون ان يكون لها مكانة بارزة فيه .

والواقع — وهذا ما تؤيده الوثائق الديبلوماسية — ان هذه الاهداف السياسيه هي التي ظلت ، طيلة الازمة الدوليه ، تتحكم في اتجاه المبادرات الالمانية للوصول الى غايات مسابكه . ففي اكتوبر 1904 كان مشروع التدخل في القضية المغربية قد أعد بالفعل ولكن غليوم الثاني اجل تنفيذه بسبب وقوع حادث انجليزي — روسي في بحر الشمال — قضية دوجير بانك (*) — هذا الحادث الذي حذا به الى ان يعرض على القيصر ابرام حلف دفاعي . ولما فشلت المانيا في مسعاها هذا قررت ان تسير من جديد الجدال حول المغرب لتزعزع بذلك اركان الوفاق الودي ؛ ولكنها بعد سقوط ديلكاسه قررت ان تسلك سبيلا آخر ؛ واعتقد انها ستنجح في هذا السبيل حينما قبل القيصر ، وقد كان حسيرا من جراء الهزيمة العسكرية في منشوريا وبسبب تهديد الثوار ، بتاريخ 24 يوليوز 1905 قبل ان يوقع في بجوركيه (Björkoe) على معاهدة سرية تنص على اقامة تحالف دفاعي بين روسيا والمانيا ، على ان تدعى فرنسا للمشاركة في هذا الحلف وتكون بمثابة شريك ثانوي . وقد تصور بولوف في هذه الآونة ان يترك لفرنسا « حرية العمل في المغرب » مقابل انتسابها الى هذا الحلف القاري . وعند ما جس نبض الحكومة الفرنسية في اكتوبر 1905 اجابت بانها لا تفكر تماما في هذا الاحتمال ، وعندئذ ادرك القيصر مدى ما سيرتكبه من طيش ان هو اقدم على تحطيم الحلف الفرنسي — الروسي — فعدل عن معاهدة ابجوركية ، ولم تلبث السياسة الالمانية ان ولت وجهها من جديد نحو القضية المغربية ، وكانت في هذه المره تعنتا وعنادا .

فهل هذه مناورات ديبلوماسية كانت تبحث — على حد تعبير السفير الالماني « على الثانية عشرة زوالا في الساعة الثانية » ؟

انها كذلك ما في ذلك من شك . ولكنها لبست باحداث بسيطة : فلو لم يكن بولوف مقتنعا بنجاح أساليبه لما أبعد فكرة الحرب الوقائية التي اقترحتها عليه أركان الحرب .

الا ان هذه السياسه الالمانية اخفقت اخفاقا ذريعا ؛ اذ ان الوفاق الودي لم يتزعزع بل تعزز جانبه. ففي يناير 1906 ، ومؤتمر الجزيرة الخضراء على الابواب ، بات حدوث حرب فرنسية المانيه وكانه قريب الوقوع ، في هذا الوقت سمحت الحكومة الانجليزية بدون ان يكون في نيتها ان تلتزم مقدما بتعهد ثابت او تحالف معين ، سمحت لاركان حربها أن تدرس مع أركان الحرب الفرنسية « أسس العمل العسكري الموحد » ؛ اذن فلاول مرة تفكر انجلترا في التدخل في حرب قارية : ان انحسار روسيا هو الذي دفعها الى ان تلقي بنفسها في الميزان لتعادل قوة الدولة الالمانية . وقد تعهدت اسبانيا بواسطة اتفاق 16 مايو 1907 بان لا تتخلى لالمانيا عن جزر الكناريا او الباليار ، ووعدت بأن «توحد خطتها» مع فرنسا وبريطانيا العظمى اذا ما اصبح الوضع الراهن

(*) لما كانت البارجة الروسية سائرة في بحر البلطيق نحو الشرق الاقصى لمحت زورقا انجليزيا وظنت انه يريد بها سوءا فاطلقت النار عليه (المؤلف) .

الفرنسية بان هذه سوف لا تسعى في « بسط نفوذها » على طرابلس ؛ والمقابل هو عدم عرقلة العمل الذي قد تقوم به فرنسا في المغرب الاقصى . وفي الجملة كان يهدف هذا « الانفراج » الفرنسي ـ الايطالي الى وضع حد للتنافس الاستعماري بين البلدين وذلك بتقاسم مناطق النفوذ .

بيد ان الحكومة الايطالية لم تقف عند هذا الحد بل سلكت في سنة 1902 طريقا ادى بها الى ابرام اتفاق سياسي . كان الملك عما نويل الثالث ، وقد اعتلى العرش بعد مقتل هومبيرت (Humbert) ، يأمل في هذا التقارب مع فرنسا ، وهدفه من ذلك الحصول على « استقلال أكثر » ، ازاء كل من المانيا والنمسا ، وكان يشاطره هذا الرأي رئيس الوزراء زانارديلي (Zanardilli) الذي ظل يحتفظ منذ ان كان زعيما لحزب البعث الايطالي بعواطف مناوئة للنمساويين ؛ فقد كان يقول : ان ايطاليا ترغب في القيام بعملية تحويل في الدخل ولا يمكن ان يتأتى لها ذلك الا بالاعتماد على السوق المالية الفرنسية ؛ الا ان الحكومة الفرنسية لم تكن مستعدة لقبول قيمة الاسناد المالية الا اذا قدمت لها ايطاليا تأكيدات سياسية . تلكم ، فيما يؤخذ من البحث التاريخي في حالته الراهنة ، الدوافع الاساسية التي جعلت الحكومة الايطالية (تترجم) ما تعهدت به كتابة في معاهدتها مع المانيا .

عندما اقدمت كل من ايطاليا وبريطانيا العظمى على ابرام هذه الاتفاقات ، لم يكن لهما مع ذلك نية في الاشتراك في « نظام مناوىء لالمانيا » ؛ فلم ترغب الحكومة الايطالية في العدول عن الحلف الثلاثي لانها كانت تخشى الوقوع في « احضان التبعية لفرنسا » ، كما كانت تخاف من اضاعة الفرصة التي قد تكسبها من تحكيم المانيا ، اذا ما حدث نزاع ايطالي نمساوي . ثم انها كانت بحاجة قصوى الى السوق الالمانية التي كانت بمثابة منفذ لمنتجاتها الزراعية .

اما الحكومة الانجليزية فلم تكن تجهل ، أثناء التوقيع على اتفاقات 8 أبريل 1904 ، بان ديلكاسه كان يقصد « ابقاء المانيا بعيدة » عن تسوية القضية المغربية ، ولهذا التزمت جانب الحذر من اجل المستقبل ولم تتعهد لفرنسا في هذه القضية الا **بالسند الديبلوماسي** انها لم تفكر في تحالف فما بالك باتفاق عسكري بري او بحري . ولكن بامكان المرء ان يطرح هذا السؤال : الم يخطر ببال الذين قاموا بالتقارب ، من أمثال بلفورولا نسدوون ، ان هذا العمل في حد ذاته قد يصبح مقدمة لخطوات اخرى من شأنها ان تبعدهم عن الهدف الذي توخي في اول الامر ؟ يظهر من كتابات المؤرخين الانجليز ان رجال الدولة الانجليزية في قضية « تبادل » مصر بالمغرب قد استسلموا للحوادث دون سابق حساب ، ودون امعان عميق . الا ان الشيء الذي لا يقبل الجدل ان فرنسا لم تستطع ان تتأكد من عون مسلح انجليزي ولا حتى من حياد ايطالي ، اذا ما حدث بينها وبين المانيا نزاع : وكل ما كانت تعول عليه هو احتمال حدوث هذه الامور . وهذه النتائج نفسها قد تصطدم بالتطاحن الروسي الانجليزي في مسألة الشرق الاقصى ، هذا التطاحن الذي ازداد حدة اعتبارا من سنة 1902 تاريخ ابرام التحالف الانجليزي ـ الياباني . اذ كيف سيكون في وسع فرنسا ـ اذا حدثت حرب روسية ـ يابانية ـ ان تفي بتعهداتها ازاء حليفتها روسيا وان تحافظ في نفس الوقت على صداقتها مع انجلترا حليفة اليابان ؟ ان ديلكاسه كان مدركا تمام الادراك لهذه الازمة ومنذ خريف 1903 اعرب لبول كامبون عن رغبته في حمل روسيا وانجلترا على تصفية خلافاتهما ؛ الا ان هذه الرغبة ظلت افلاطونية حيث انه سعى عبثا ، في يناير 1904 ، في ان يلعب دور الوسيط بين روسيا واليابان .

اما الحكومة الالمانية فانها ، بمجرد ابرام الوفاق الودي ، لم تخف حسرتها واخذت على ديلكاسه كونه دفع بايطاليا في طريق « الرذيلة » . فما هو رد الفعل الذي قامت به المانيا ؟ ان النزاع الروسي ـ الياباني الذي من شأنه ان يزعزع الحلف الفرنسي ـ الروسي ؛ وان يشل في رمشة عين فعالية العسكرية قد فسح مجالات موانية للمبادرات الالمانية فما ذا ستفعل فرنسا ازاء تهديد ما ؟ لقد قام ديلكاسه ـ وهذه نقطة ضعف في سياسته ـ بعمل منفرد دون ان تكون الوسائل العسكرية والحالة النفسية للبلاد موازية لسياسته هذه.

اذن كانت الحرب اليابانية ـ الروسية امتحانا عظيما للنظام الديبلوماسي الذي شيده ديلكاسه . وفيها ظهرت كذلك نوايا السياسة الالمانية التي قررت ان تستغل هذه الحرب لعرقلة عمل فرنسا في الدولة العلوية . بيد ان الحكومة الالمانية باثارتها هذه المسألة كانت تهدف الى اشياء تتعدى بكثير الافق المغربي ، انها كانت تهدف ولا شك الى خدمة مصالحها الاقتصادية واكثر من ذلك اعتبارات الجاه والنفوذ . ومع ذلك كانت هذه العوامل ثانوية اذ ان المستشار بولوف قال في سنة 1905 : ان المملكة العلوية لا تمثل ، بالنسبة لمصالح المانيا العامة الا « مكانة ضئيلة جدا » . وهكذا فالاهداف مرتبطة

العصر تسعى في اجراء قرض من سوق لوندرا ، وبطبيعة الحال سوف لا توافق السياسة الانجليزية على تقديم هذه المساعدة المالية الا اذا ارادت روسيا ان تسوي الحلافات الآسيوية .

اذن فالشواغل الاوروبية هي التي هيمنت على هذه المفاوضات التي اسفرت عن اتفاق 30 غشت 1907 . . ياتي في المقام الثاني الرغبة في المحافظة على سلامة الهند . ولم تتردد الحكومة البريطانية في اخضاع طرف من مصالحها الاقتصادية في فارس ، لهذه المقاصد السياسية ؛ وعبثا حاول نائب الملك في الهند ان يحصل في هذه البلاد على « رقعة اكبر من اجل التوسع التجاري » وعبثا كذلك لاحظ الوزير الانجليزي في طهران ان منطقة النفوذ المخصصة لبريطانيا « لا تكفيها التوسع الاقتصادي » . وبالرغم من ان الراي العام كان يعرف ان الاتفاق حول فارس — هذا الاتفاق الذي اعتبر وكانه « مساومة مجردة من اية قيمة » — امرا قابلا للاخذ والرد ، الا انه أعرب عن ارتياحه لهذه الخطوة التي قد تكون مقدمة لتفاهم انجليزي روسي على الصعيد السياسي العام .

ما هي أهمية هذه السنوات القليلة والمليئة بالاحداث بالنسبة لتطور العلاقات الدولية ؟

فهل نعتبر « التكتل » الذي أصبح قائما بين الدول العظمى ابرز ظاهرة مميزة لهذه الفترة ؟ كلا ؛ فلهذه الظاهرة قيمتها من حيث دلالتها فقط . لان بريطانيا العظمى كانت تأبى على نفسها أن تلتزم بأي عهد من شأنه ان يحول الوفاق الودي الى تحالف : فقد قال السير ادوارد غري بكل وضوح في يناير 1906 بانه رفض عن وعي وببرودة دم « الالتزام بتعهد ما . . . قبل ان نعرف اسباب النزاع او تكون هذه الاسباب قد بدأت تظهر » . اما ما يخص الانجليز والروس فان الاتفاق المبرم بينهما لم يكن يتضمن ادنى وعد على صعيد السياسة العامة ؛ بل ان هذا الاتفاق ترك الباب مفتوحا على مصراعيه فيما يرجع للقضية الاساسية الا وهي **المضايق العثمانية** : وعبثا حاول ايزفولسكي ان يحصل على وعد بمراجعة الاتفاقية الدولية لسنة 1841 (*) اذن فالوفاق الثلاثي لم يكن الا بمثابة الخطوط الاولى التي ترسم للصورة ، لا الصورة ذاتها . وقد لاحظ السير ادوارد غري ان « تكتل فرنسا — انجلترا — وروسيا ضعيف البنيان » وكان يعتقد ان ليس في الامكان تعزيزه بسرعة .

ان التبدل الطارىء على النفسية الجماعية هو الذي يهم اكثر من غيره . اذ بعد ابرام الاتفاق الانجليزي — الروسي نبهت الصحافة الالمانية الى حالة « التطويق » التي اصابت المانيا . ولم يكن جمهور من الراي العام في بريطانيا العظمى ، بل وفي فرنسا كذلك ، لينسوا ان المانيا اثناء ازمة 1905 — 1906 قد لجأت الى وسائل التهديد وتصرفت وكأنها تريد القيام بالحرب ؛ كانت الرغبة اذن تجنح الى اقامة حاجز دون المطامح الالمانية ، بالرغم من ان بعض المفكرين من امثال هانوتو (*) ، ظلوا يندبون هذه الرغبة . وهذه الحالة النفسية نتجت عن الانتصارات التي حققها ديلكاسه في 1902 و 1904 ، وبوجه خاص نتجت عن الاساليب التي لجأت اليها الحكومة الالمانية في سبيل فصم عرى الوفاق الودي والتحالف الفرنسي — الروسي ، تلك الاساليب التي اعطت نتائج عكسية بمعنى انها عززت جانب هذه الاحلاف بدلا من ان تحطمها .

ولو تمحصنا هذه السلسلة من الاحلاف ، لوجدنا ان اسبابها الاساسية راجعة الى **الاهتمام بأمن** الدولة ، والرغبة في الجاه ، وارادة العظمة .

(*) يمنع أحد بنود هذه الاتفاقية الدولية التي عقدت في لندن على جميع السفن الحربية ان تمر في هذه المضائق . وكان هذا التحريم ماسا بمصالح روسيا في المقام الاول لان السفن الحربية الروسية هي التي تحتاج المرور من البحر الاسود عبر المضائق الى البحر الابيض المتوسط . وبعبارة اخرى جعل هذا البند روسيا « سجينة البحر الاسود» (المترجم)

(*) كان هانوتو الوزير الفرنسي في 1896 من القائلين بالتعاون الصادق مع المانيا ، وكان يؤمن بصلاحية اقامة حلف قاري لمقاومة بريطانيا العظمى في الميدان الاستعماري . (المترجم)

في البحر الابيض المتوسط او في الشواطيء المغربية مهددا بالتفيير . ثم ان التحالف الفرنسي — الروسي الذي تأثر جدا بمعاهدة ابجوركي ، ظل سائر المفعول ؛ حقا ان الفعالية الواقعية للاتفاق العسكري كانت محدودة جدا باعتبار ان الجيش الروسي باعتراف من رئيسه نفسه ، لم يكن قادرا على تعبئة « ما ينويه من الجنود » — لم يكن العدد معروفا بالضبط — الا في امد طويل ، ولكن التضامن الديبلوماسي ظهر جليا في مؤتمر الجزيرة حيث تلقى الوفد الروسي امرا بمساندة وجهة النظر الفرنسية ، مقابل الوعد بتقديم مساعدة مالية . الا ان نقطة الضعف في نظام ديلكاسه الديبلوماسي ؛ ظلت قائمة : وهي ان الخلافات الانجليزية الروسية التي سويت في الشرق الاقصى بما اسفرت عنه حرب منشوريا من نتائج هذه الخلافات لم تستوف آسيا الوسطى والشرق الادنى ؛ ولذلك عمدت بريطانيا العظمى عندما كانت بصدد تجديد معاهدة تحالفها مع اليابان ، في سبتمبر 1905 ، الى ادراج بند يتعلق بحماية الهند .

اما وان الحكومة البريطانية وطدت العزم في الاخير على ان تتقارب مع روسيا . فتلكم كانت المبادرة الاساسية . فلماذا فكرت فيها بريطانيا وكيف نجحت في هذا المسعى ؟

في لوندرة كانت شواغل السياسة العامة هي المحكمة في توجيه هذا القرار . كان الامر يتعلق اولا بتعزيز جانب الوفاق الودي الفرنسي — الانجليزي ، وسيكتب عما قريب السيد ادوارد (Edward Grey) ما نصه : «سوف لا نستطيع ان ننهج في آن واحد سياسة التفاهم مع فرنسا وسياسة التصلب مع روسيا » فكان الوضع يدعو بالاحرى الى جعل حد لمحاولات المانيا في ابرام حلف قاري : نعم علمت وزارة الخارجية البريطانية عن طريق الصدفة تقريبا ، ان غليوم الثاني كان يسعى اعتبارا من غشت 1905 في ان ينشيء في ابجوركي « تكتلا يضم المانيا وفرنسا وروسيا دون بريطانيا العظمى » ؛ وقد نقلت من مصدر فرنسي ما يؤكد هذا الخبر ليس من شك في ان المحاولة باءت بالفشل الا انها قد تستأنف عما قريب بين المانيا وروسيا ، على الاقل . ثم ان الوهن العسكري لروسيا كان لبضع سنين يفسح لالمانيا مجالات مواتية : ولهذا كان«الخطر الالماني » هو الشغل الشاغل ؛ وكانت بريطانيا العظمى اكثر الدول ادراكا لهذا الخطر فاخذت منذ مايو 1906 ترقب التطور الجديد الطارىء على برنامج انشاء السفن الحربية الالمانية . وفي 20 فبراير 1906 لاحظ غري في مذكرة كتبها لنفسه ما يلي : « ان تفاهما بين روسيا وفرنسا وبريطانيا العظمى قد يتيح لنا الاطمئنان المطلق . فاذا كان من اللازم احباط مساعي المانيا فعلينا بهذا التفاهم » .

وفي بطر سبوغ حيث خلف الاسكندر ايزفولسكي (Isvolsky) في مايو 1906 : الكونت لامسدورف (Lamsdorff) في مايو 1906 ، الكونت لامسدورف (البرلمان الروسي) ،اعتقد وزير الخارجية الجديد ان روسيا مدعوة ، بعد ان خابت آمالها في آسيا الشرقية الى ان تسلك من جديد سياسة بلقانية بمجرد ما تصبح قادرة على ذلك . وستجد في البلقان معارضة النمسا — هنغاريا ، فكان عليها والحالة هذه ان تبحث لنفسها عن دعامات ديبلوماسية . كان ايزوفولسكي يشعر بالحاجة الى تقوية الحلف الفرنسي — الروسي ، بيد انه بات يدرك كذلك انه لكي يصل الى هذه الغاية لابد له من السعي في تقارب مع بريطانيا العظمى : والا تعرض الحلف من جديد للخطر آجلا او عاجلا من جراء الخلافات الانجليزية — الروسية ؛ اذ قد تعمد المانيا ، لاستغلال هذه الفرصة ، فتسلك من جديد سياسة ابجوركي . كان هذا ايضا راي السفير الروسي بنكاندورف (Benckendorff) المعتمد في لوندرة اذ قال : « ان التحالف مع فرنسا رهين الى حد كبير بعلاقاتنا مع انجلترا »

الا ان تحقيق هذا التقارب يستدعي — وهذا هو الشرط الاول — تراجع روسيا عن القيام بأية مبادرة في الشرق الادنى او آسيا الوسطى ، لان مبادرة من هذا القبيل معناها تعريض سلامة الهند للخطر . والحقيقة ان هذه التضحية امر لا مفر منه كيفما كانت الظروف طالما ان الجيش الروسي كان وقتئذ غير قادر على المجازفة بنزاع في هذه المناطق مع بريطانيا العظمى . اذن فمن الاولى ان يسلم المرء بهذه الحقيقة الناصعة ثم يحاول ان يتفاوض حول هذا التراجع ليكسب منه اكثر ما يمكن كسبه . واخيرا ياتي عامل قلة الموارد المالية الروسية ويلعب دوره كذلك اذ كانت حكومة

هل يدعو تكاثر السكان إلى تحديد النسل

للأستاذ عبد اللطيف خالص

أصدرت اكاديمية العلوم الوطنيه بالولايات المتحده تقريرا خطيرا حول تكاثر سكان العالم ؛ ويتجلى من هذا التقرير الذي تبلغ صفحاته خمسة وثلاثين ونيف والذي وقعه عدد من كبار الاساتذة والعلماء والمهتمين بهذا الموضوع . ان نسبه الزيادة في سكان العالم تبلغ اثنين في المائة كل سنة واذا ما استمرت هذه النسبة فان عدد سكان العالم سيتضاعف بعد خمس وثلاثين سنة . وبما أن مجموع سكان العالم يبلغ اليوم ثلاثة ملايير نسمة فان عدد سكان المعمور سيصبح في سنة 2000 ستة ملايير وفي سنة 2070 سيكون مجموع سكان العالم حوالي 25 مليارا . . .

وقد أحدث هذا التقرير ضجة عظمى في الراي العام بالولايات المتحدة الامريكية نظرا لمكانة الاكاديمية الوطنية للعلوم وقيمة العلماء الديمغرافيين والاساتذة الذين وقعوا هذا التقرير .

ومن الطبيعي ان يحدث هذا التقرير ضجة في أوساط الشعب الامريكي نظرا لارتفاع عدد سكان الولايات المتحده نفسها من جهة ودور القيادة الذي تلعبه أمريكا في العالم المسمى « بالحر » والمجهودات التي تبذلها حكومة الولايات المتحدة للقضاء على المجاعة المتطالة في عدد من الاقطار المتخلفة خشية من انتشار الشيوعية فيها من جهة أخرى ؛ والواقع ان هذه الحقائق المرة التي أعلنها التقرير لا تخص الولايات المتحدة وحدها ولكنها تهم العالم أجمع لان خطر تكاثر السكان يهدد العالم ويضر بالمجتمع ؛ فزيادة سكان العالم تتطلب زيادة في التغذية كما تدعو الى تعجيز كل نشاط اقتصادي وكل ازدهار صناعي لانها تجعل المسؤولين في حكومات البلاد المتخلفة والدول النامية المتعدده أمام صعوبات لا قبل لهم بها وتبعات لا يستطيعون القيام بها بل وحتى مواجهتها .

وليس غريبا عنا الوقوف على اسباب تزايد السكان في العالم بهذه الصفة المستعجلة خصوصا في الاقطار المتخلفة أو البلدان التي هي في طريق التقدم والتطور كما يعبر عنها .

فأجل هذه الاسباب واعظمها استمرار الولادة التي لم تضعف ولم تنقص في الاقطار المتخلفة بينما توقف الوفيات بفضل التطورات التي عرفها الطب الحديث والمساعده الطبية التي تقدمها الدول الصناعية الى هذه الشعوب فقد كانت الامراض والاوبئة متفشية في هذه الاقطار لما كانت منعزلة عن العالم منكمشة في حدودها بل وفي قاريها ولكن لما بدأ احتكاك هذه الشعوب بالحضارة الجديدة أخذت الدول الصناعية تمد الدول المتخلفة بالادوية وتنظم بها حملات التلقيح وابعاد الامراض فتسبب عن ذلك بطبيعة الحال استمرار الولادة ومحافظتها على نسبتها المرتفعة المهولة بينما تقلص ظل الموت وضعفت اخطاره وابتعدت اضراره ؛ واذا اضفنا الى هذه الحقائق ان المستوى الاقتصادي في هذه البلاد لا زال يسمح للاجيال الجديدة بالاكتفاء بحياة بسيطة لا تكاليف فيها ادركنا سبب اهمالها لتحديد النسل ؛ فما دام الطفل لا يتطلب عناية خاصة ، وما دامت الدول الاجنبية تمد يدها لعلاجه وتعهده فلا داعي للوالدين لتحديد النسل وعدم اكثار الاولاد خصوصا والدول المتخلفة تعتمد على الاطفال في مساعدة الوالدين في عملهما اليومي .

لا شك ان تناقض المصالح المادية كان عاملا مساهما فى تنمية الاحقاد والمشاحنات . ولكن ما هي الاهمية الملموسة التي كانت لهذا التناقض فى المصالح اذا ما نظرنا الى المسألة من زاوية المنازعات الدولية ؟ ففي خارج اوروبا ، فى المناطق التي تصادمت فيها المصالح الاقتصادية ، سويت هذه المنازعات باوساط الحلول . اجل ابدت الحكومة البريطانية استعدادها ، بين سنتي 1905 و 1907 ، – كما لاحظ المؤرخ الانجليزي المحقق أ. تايلور (A. Taylor) – « لمنح امتيازات خارج أوروبا لنمتين التوازن الدولي » : وهكذا ضحت فى قضايا فارس بالسواغل التجارية والمالية فى سبيل الاهداف الدفاعية والسياسية . واذا أدى اصطدام التوسعات الاستعمارية الى حدوث « تكتلات سياسية جديدة » فلا يمكن اعتبار هذا الاصطدام والحالة هذه ، سببا فى هذه التكتلات . اما فى اوروبا ، فلئن لجأت الحكومات الى استخدام « السلاح » الاقتصادي والمالي كما فعلت فرنسا في اتفاقها مع ايطاليا وفى تجديد اتفاقها مع روسيا وكما فعلت بريطانيا العظمى فى تهييء الجو لاتفاق 1907 ، الا ان عامل الاقتصاد والمالية فى احوال كهذه ما كان ابدا محركا للعمل السياسي وانما كان اداة له . **والواقع ان المصالح السياسية هي** التي كانت في سائر الاوقات الحرجة العامل الحاسم سواء تعلق الامر بايطاليا سنة 1902 ، او ببريطانيا العظمى في 1904 و 1907 ، او بالمانيا سنة 1905 .

مكناس : عبد الحق بنيس



لقد ارتأت اكاديمية العلوم الوطنية بالولايات المتحدة الامريكية مجموعة من الحلول تتلخص في اللجوء الى تحديد النسل لانها رات ان احسن حل لحصر هذا التيار العارم رغم ما يتضمنه هذا الحل من صعوبات جمة وما ينطوي عليه من مشاكل عويصة ذلك ان تحديد النسل نفسه مشكل صعب يتطلب تمرينا خاصا وتكوينا صحيحا ويستدعي اللجوء الى وسائل صعبه وطرق متشعبةلذلك سوف لا نستغرب اذا رأينا الاكاديمية الوطنية للعلوم تضع برنامجا مستعجلا يتضمن خمس نقط مهمة هي :

1) — تطور البحث الطبي النباتي حتى يتوصل الى انجع الوسائل الكفيلة بالوصول لهذه الغاية .

2) — القيام باشهار المعلومات المتعلقة بالموضوع بين الشعوب وتوزيع الوسائل الوقائية وسط المجتمعات.

3) — تكوين عدد مهم من الموظفين من رجال العلم والادارة يعهد اليهم بتحقيق هذين الهدفين الاولين حتى يسهل تعميمهما بين مختلف الشعوب والقارات .

4) — انشاء لجنة خاصة داخل أكاديمية العلوم الوطنية لتنسيق هذه الاعمال والدعوة اليها .

5) — القيام بدعاية كبرى لتشيع بين الناس الوسائل التقنية لتحديد النسل .

تلك أهم الوسائل التي أعلنتها الاكاديمية الوطنية للعلوم كمرحلة أولى للفت أنظار العالم الى ما قد يحف به من الاخطار وما قد يتعرض له من الاضرار . وقد أدركت الاكاديمية ان هذه الوسائل ستلاقي في تطبيقها معارضة شديدة ومقاومة قوية من طرف الهيئات الاجتماعية والمنظمات السياسية التي تتمتع بنفوذ كبير وقوة تأثيرشديدة فى كثيرمن الاقطار، فسيرى الكثير من هذه الهيئات ان تحديد النسل لا يجوز من الناحية الاخلاقية ولا يتفق وابسط المعتقدات الدينية لانه وأد تعاقب عليه الاديان السماوية كما ان الاوساط الرجعية ستثور في وجه هذا التقرير مدعية انه لا داعي لتعميم هذا الاجراء في كل مكان وان الافضل حصره في الاجزاء المضطرة اليه من الكرة الارضية ،

ومن الغريب ان لا تسمح مثل هذه المنظمات بالقيام بتنظيم حملات لتحديد النسل والاغرب منه ان تعتمد في ذلك على آراء عقيمة واحكام سقيمة .

وقد اعتبرت الاكاديمية الوطنية للعلوم كل هذا وقررت مواجهة الامر مهما كانت العواقب فنشرت تقريرها واتخذت القرار بتوزيعه والدعاية له حتى يصل الى جميع اركان المعمور متحدية بذلك كل مقاومة مهما كلفها ذلك من ثمن . وقد وجهت هذا التقرير تحت عنوان : (تقرير الى الشعب) لتصفه بصبغة الخطورة كما اشارت الى أن المشاكل التي يحدثها تكاثر الولادة وتزايد البشر في الارض تكتسي صبغة سياسة زيادة على الصبغة الاقتصادية والاجتماعية ، وقد جاء في خاتمة التقرير ما مفاده : « ليست هناك اية مشكلة تتطلب الحل السريع عدا تحقيق سلم دائم في العالم كقضية مراقبة الولادة وتحديد النسل » . أشرنا في مقدمة هذا المقال الى ان تقرير أكاديمية العلوم احدث ضجة مهمة في أوساط الشعب الامريكي حيث اهتم به مختلف العلماء وأولته الاهمية اللائقة به جميع الهيئات الاجتماعية والمنظمات السياسية ، ومما يدل على اهتمام الشعب الامريكي بهذه القضية أن صدور هذا التقرير صادف صدور كتاب مهم في هذا الموضوع لاحد أساتذة جامعة هارفارد تحت عنوان : **«لقد حان الوقت مقترحات طبيب كاثوليكي لانهاء معركة مراقبة الولادة »** ويدل العنوان وحده على ان مؤلف الكتاب وهو الاستاذ جون روك يريد ان يقحم المسيحية الكاثوليكية في هذا الميدان حتى لا تبقى الكاثوليكية شبحا مخيفا يتقيه عامة الناس ويخشاه العلماء بوجه اخص . لقد قبل هذا الاستاذ الكاثوليكي والطبيب المسيحي مبدأ استعمال الوسائل الوقائية من الولادة مخالفا في ذلك جميع أصدقائه وزملائه الذين يحترمون الدين المسيحي الذي لا يسمح باستعمال مثل هذه الوسائل .

واذا كنا أشرنا الى ان أكاديمية العلوم قد اعترفت بمعارضة المنظمات الاجتماعية والهيئات السياسية والطوائف الدينية للمقترحات الخاصة بتحديد النسل فان تخوف الاكاديمية الامريكية كان في محله اذ سرعان ما تعرض التقرير للنقد الذريع والمحاربة القوية وان كان صدور كتاب الطبيب الاستاذ الكاثوليكي جون روك قد حول نسبيا المعركة التي كان من الممكن ان تنشب بين أصحاب التقرير وقادة الهيئات الدينية والاجتماعية والسياسية حيث اصبحت المعركة قائمة بين الكنيسة الكاثوليكية واحد اتباعها .

وقد جاء فى هذا التقرير الخطير كذلك ان هـذه الزيادة فى السكان لا يمكن ان تنسجم ابدا مع السير الحالي للتطور الاقتصادي الحديث ولو كان الشيطان لرجال الاقتصاد ظهيرا لانها تعدو تطور كـل تقـدم اقتصادي وتفوق مجرى اي ازدهار صناعي ويـرى اصحاب التقرير ان زيادة سكان الكرة الارضية بهـذه النسبة يعتبر عبئا ثقيلا يتنافى والمجهودات المبذولـة لتحسين حالة المخلوقات الموجودة حاليا وتطور البشرية جمعـــــاء .

تلك أهم الاستنتاجات التي توصـل اليهـا هؤلاء العلماء الديمغرافيون بالولايات المتحدة الامريكية وهي تعطينا اضواءا واضحة على الاخطار التي تهدد البشرية من جراء تزايد سكان المعمور ؛ ونحن ندرك ما تقوم به عدد من المنظمات الاجتماعية فى مختلف الاقطار فـي سبيل حصر هذا الداء الفتاك كما نقدر الاعمال الجليلة التي تقوم بها مختلف الهيئات الدولية لسد هذا التيار المهول الذي سيؤدي اذا لم يتدارك فى حينه الى عـدم الاستقرار فى العالم من جهـة والى انهيـار كل تطـور وازدهار من جهة ثانية .

وسوف لا يشعر القراء بهذه الآفـة الخطيـرة الشريرة الا اذا علموا ان أزيد من نصف سكان المعمور يموتون اليوم جوعا وان خطر المجاعة لحـق بمليـار وخمسمائة ومليون نسمة وقد قامت منظمة التغذيـة والفلاحة الدولية بتنظيم اسبوع للقضاء على المجاعة فى العالم ومحاربة أخطارها فى مختلف انحاء المعمور وقد نظم المغرب بدوره اسبوعا للقضاء على المجاعة ابتداء فى 21 مارس من السنة الجارية وانتهى فى 28 منـه ، وكان الغرض من تنظيم هذا الاسبـوع الوصـول الى هدفين اثنين :

أولهمـــا :

اشعار البشرية بمشاكـل المجاعـة والتغذيـة السيئة التي تقض مضجع أزيد من نصف سكان المعمور والتي تشكل خطرا دائما على الامن والتطور في العالم بالاضافة الى الآلام التي تحدثهـا للمحتاجيـن وذوي الفـــاقـــة .

ثانيهمـــا :

تهييء جو ملائم ليتدارس الناس الحلول الناجعة التي يمكن ان يتوصل بواسطتها الى محاربة المجاعة فى الميدانين الوطني والدولي .

ومن الطبيعي ان الانسان لا يستطيع اذا كـان جائعا او متناولا لتغذية سيئة ان يباشر أي عمل من الاعمال مهما صغر كما انه لا يستطيع فى هذه الحالـة أن يستفيد من عمله اذا عمل .

وقد استطاع العلم الحديث ان يخترع الـذرة ويصرفها حسب أهوائه ومناه كما توصل الى ارسال انسان الى الفضاء ومكن هذا الفرد من الاتصال بالارض وهو فى الجو كما امكن للعلم الحديث بفضـل تطـوره وتقدمه ان يقضي على الامراض التي كانت الى عهـد قريب معدية فتاكة تقضي على العائلات باسرها بـل وتحطم القرى والمدن باكملها ولكنه ويا للاسف لـم يستطع حتى الآن ان ينجي الانسان من الموت جوعا فما زال نصف العالم يموت جوعا وما زالت البشرية تعيش ويلات المجاعة والسبب يرجـع فى كل هـذا الى ارتفاع سكان العالم والنقص الحاصـل فى الانتاج الزراعـــي .

فما دامت البشرية عاجزة عن تحقيق هذا التوازن المنشود بين زيادة السكان ونقصان الانتاج فان خطر تزايد السكان سيكون عظيما ونتائجه وخيمة وضرره وبيلا . فما هو الحل الممكن لحصـول هـذا التوازن ؟ وهل اكتفى العلماء الديمغرافيون الامريكيون بذكر هذه الاستنتاجات دون تعداد الحلول الكفيلة بوضع حـد لتزايد سكان العالم ؟ وما هي هذه الحلول اذن ؟ قبـل التعرض الى الاجابة على هذه الاسئلة اود ان أؤكد ان من واجب البشرية جمعاء ان تجعل حدا لهذا الضغط البشري وهذا التيار الديمغرافي الذي يعرقل كـل تطور اقتصادي . فالبشرية لا تتوفـر على وسائـل الاستثمار الكافية وطرق الاستغلال الكفيلة باطعـام ضعف سكان العالم بعد ثلاثين سنـة لان وسائلهـا محدودة وطرقها دقيقة ، وليس فى استطاعة الانسانية أن تفر من عواقب هذه الزيادة فى عدد سكان المعمـور التي ستصبح بعد حين عبئا لا يحتمل وتبعة لا يستطيع مواجهتها احد . ومما لا شك فيه أن من دواعي التحسر أن يقف العلم الحديث رغم تطوره وتقدمه العظيميـن مشدوها عاجزا امام هذه الظاهرة الغريبـة فمـا هـو العمــــل ؟

واود قبل ان أختم هذا المقال أن اشير الى أني لا أريد ان اجعل من هذا المقال وسيلة للدعاية لتحديد النسل فان ذلك ليس قصدي من كتابة هـذه السطور بالاضافة الى اني لا احمل اية صفة رسمية تسمح لي باتخاذ موقف محدد من هذا الموضوع ، ولكني اردت ان اطلع القراء على ظاهرة غريبة اخذت تشغل بال عدد من الشعوب وادلي بالارقام التي تعزز تخوفات المسؤولين في بعض الدول .

على اني سوف لا اعدو طور الواجب الوطني والديني ولا أعد مارقا عن الدين اذا اكدت ان الاسلام لا يقف موقف المعارض من اللجوء الى هذه الوسائل الوقائية قبل أن يتكون الجنين وقبل أن تمر أربعين يوما على تكوين العلق كما ذكر ذلك اللخمي وغيره من العلماء المسلمين الذين اعتبروا الحديث الشريف التسهير عن جابر الذي رواه البخاري والذي جاء فيه : « كنا نعزل والقرآن ينزل ولم ينهنا الرسول عن ذلك » ولا احتاج أن اؤكد في الاخير ان الاسلام ينهي عن اللجوء لكل الوسائل التي قد تؤدي الى عقم دائم لان في ذلك القضاء المبرم على البشرية وهو داعي لانقراض الجنس البشري برمتـه .

فعلى الذين يقراون هذا المقال ان يتيقنوا ان القصد منه هو الاخبار ودراسة الوسائل المشروعة في الاسلام فنحن براء من كل ما قد يكون الاسلام منه براء لان الاسلام دين ارتضاه الله لعباده جميعا والله اعلم بمصالح عباده .

الرباط : عبد اللطيف خالص



فقد احتج الكردينال كوتينج أسقف بوسطون ضد مقترحات الاستاذ جون روك احد اتباع هذه الكنيسة وقد شاءت الاقدار الا ان يكون من بين أتباع هذه الكنيسة السيد جون كيندي رئيس الولايات المتحدة الامريكية .... لان وجود رئيس الولايات المتحدة جعل المعركة القائمة تكتسي صبغة سياسية قد تؤدي الى رفع القضية الى الشعب الامريكي ليقول فيها كلمته النهائية .

وقد أصبحت الاداره الامريكية الحاليه فى حالة من الارتباك والحيره لا مثيل لها لانها تعترف ان مسألة مراقبه الولادة تهم مختلف الحكومات ومن بينهما حكومة الولايات المتحدة ذلك أن المبالغ التي يتطلبها مشروع الاكاديمية الوطنية للقيام بحملتها العالمية لا يمكن ان تصدر الا من حكومة الولايات المتحدة الامريكية ، ولكن اعداد مثل هذه المبالغ يتطلب موافقة الكونغريس الامريكي على ميزانية خاصة بذلك قد تدخل فى اطار مساعده الولايات المتحدة للاقطار الاجنبية او المنظمات الدولية كما ان عرض مشروع هذه الميزانية يحتوي ضمنيا على موافقة ادارة الرئيس كيندي على مبدأ استعمال الوسائل الوقائية كما ان موافقة الرئيس كيندي تعني وقوفه ضد الكنيسة التيء الذي لا يرغب فيه كيندي ولا يفكر فيه لان وقوفه ضد الكنيسة سيؤدي الى غضب المصوتين الكاثوليكيين عليه وسيؤدي حتما الى سقوطه فى الانتخابات المقبلة .

وخلافا لما قام به كيندي فقد ارتأى منافسه نيكسون أن يعرض قضية تحديد النسل على انظار الشعب الامريكي ليقول فيها كلمته متحديا بذلك الرئيس كيندي ورجال الكنيسة الكاثوليكية .

وهكذا سيتم التصويت لاول مرة فى احدى الدول العظمى على مسألة اساسية تهم البشرية جمعاء .

وليس الذي يعنينا نحن من هذه القضية قيام معركة بين الحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري فى الولايات المتحدة كما انه ليس يعنينا تحول القضية من الميدان الاجتماعي الى الميدان السياسي ولكن الذي يعنينا هو الجانب الاجتماعي لانه يهم الانسانية بأسرها

لقد اصبح مشكل تكاثر سكان العالم حديث كل ناد وموضوع كلام كل مجمع ومحط انظار كل هيئة اجتماعية دولية أو وطنية فمن الواجب أن نهتم نحن بدورنا بهذه القضية وان نعيرها ما تستحقه من الاهتمام ، وسيكون من خطل الراي أن نعتقد أن تكاثر السكان لا يهمنا نحن فى البلاد الافريقية عموما وشمال افريقيا خصوصا والمغرب بوجه أخص لاننا لا زلنا نتوفر على اراضي شاسعة وبقاع واسعة لا يعمرها احد ان يسكنها قليل من الناس وانما يهم أوروبا لانها لا تتسع لعدد السكان المتزايدين يوما عن يوم والدين أصبحت الارض تضيق بهم .

وقد ذكرت فى أول هذا المقال أن الامر يتعلق بضرورة ايجاد توازن بين كل توسع ديموغرافي وتطور اقتصادي . وسوف لا يتم هذا التوازن فى العالم اذا ظلت البشرية فى تزايد مستمر وظلت نسبة هذا التزايد هي اثنين فى المائة،فمن المتوقع ان يصبح عدد سكان الصين الشعبية فى آخر هذا القرن مليار نسمة كما يتوقع أن يرتفع عدد سكان الهند الى ما يقرب هذا العدد كما ينتظر ان يتضاعف عدد سكان الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. كما سيصبح عدد سكان اليابان 110 ملايين فى سنة 1995 ونحن لا نقدم هذه الارقام جزافا وانما اخذناها من تقارير خاصة وضعها علماء ديمغرافيون باحصاء السكان فى مختلف الاقطار التي تعرضنا لها ويجب أن لا يعزب عن أذهاننا أن جل الاقطار التي ذكرنا ستصبح فى حاجة ماسة الى صادراتها التي كانت تعتبر زائدا على القدر الذي تستهلكه أسواقها الداخلية او ستخص بالباقي من صادراتها بعض الدول التي يمكن أن يتم بينها تبادل تجاري يضمن استفاده الجانبين ، وسيؤدي هذا لا محالة الى فقد الدول النامية لكثير من المساعدات الاجنبية وافتقارها الى المواد الغذائية التي تعد حيوية بالنسبة اليها كالقمح والخضر والسكر وغير ذلك ...

كل هذه العوامل تجعلنا أمام أمرين لا ثالث لهما: اما مواصلة الولادة بالنسبة التي أشرنا اليها والتي ستجعلنا نلد كالارانب كما قال الاستاذ الكبير توينبي فى مؤتمر عقد مؤخرا لدراسة نتائج تزايد سكان الكرة الارضية والتي ستؤدي حتما الى تعجيز كل مجهود يرمي الى ازدهار الاقتصاد وتطور الفلاحة ونمو الانتاج، واما حصر الولادة وهذا يدعو الى استعمال وسائل غير طبيعية واللجوء الى طريق غير مألوفة تنحصر كلها فى عملية واحدة هي تحديد النسل .

معارك ما عرفت مثلها ... قرى الريف فى حقبة ماضيه
بها انتصف الحق من باطل ... وخيب خطته العاديه
ستبقى مدى الدهر انشودة ... تداعب اجيالنا الآتيه

* * *

رعى الله « اجدير » كم وقعة ... به الهبت شعلة خابيه
وابطال « انوال » كم فجروا ... جداول فى ربعهم قانيه
وكم هزموا للعدى قوة ... وافنوا جيوشهم الطاغيه
فآبوا بعار الهزائم لا ... تقيهم من هونها واقيه
وكادت رحى الحرب تطحنهم ... جميعا ففروا من الداهيه
ملاحم كانت لهم سبة ... وكانت لنا مدحة ناميه
اعاد بها الدهر ايامنا ... كما سلفت بالعلى حاليه
فنحن بنو الحرب ان اقبلت ... فتلنا ذوائبها القاريه
فطمنا بساحتها صبية ... فكنا بها امة داريه
وما الحرب فينا سوى فرصة ... نعيد بها آية ماضيه
سلوا الاطلس الحر عن مجدنا ... يحدث باخباره الفاليه
فكم وقعة حوله زلزلت ... شوامخه الصلبة العاتيه
كتبنا بها النصر انشودة ... ترتلها الامم الساميه
فنحن بنو الصيد من (مازغ) ... و (يعرب) أحسابنا وافيه
نعاف الهوان ولا نرتضي ... سوى العز والرتبة الراقيه
نصون الحمى ان دهت محنة ... ولا نركب الخطة النابيه
فاما حياة على عزة ... او الموت في صرعة شافيه
وهذه امجادنا في الورى ... خوالد ، اعلامها راسيه
مواكب تاريخنا اشرقت ... على الارض كالشمس فى عافيه
بدائع فن لها رونق ... وفضل حضارتنا الضافيه

* * *

فيا بطل الريف نم مؤمنا ... بان عزائمنا واريه
وانا سنرعى بلا غفلة ... مباديء اهدافك الواعيه
ستبقى لتاريخنا فكره ... تمده بالقوة الطاميه
ونجعل ذكراك تسبيحة ... نسر بها روحك الصافيه
فيا خالد الذكر فى امة ... عليك جوانحها حانيه
لقد جل فيك المصاب فلم ... نجد في الحشا ذرة ساليه
ولكن ستحييك ارواحنا ... وتبقى لما شدته راعيه
لنا في معان تبنيتها ... عزاء وتذكرة كافيه
فعش في الجنان على غبطة ... وروحك مرضية راضيه

المدني الحمراوي

البطولة

للشاعر: المدني الحمراوي

احقا تموت البطولة ؟ لا — ولا ، نم لا ، انها باقيه
لها فى المعاني خلود وهل — رابت مخلدة فانيه ؟
سمت بالبداء فلا تنتهي — الى الطبن فى بقعة خاليه
ولكن نعود الى اصلها — هنالك و جنة عاليه
الى عالم النور في رفرف — وراء غيوب به نائيه
هنالك نمرح في مسرح — جميع الاماني به دانيه

* * *

فان مات عبد الكريم فلن — تموت مآثره السا به
ولكنها نقله نفست — عن الروح كربته العاتيه
مضى مستريحا الى ربه — وقد خلد الثورة الباقيه
وخلف للعرب احدوثة — مخلدة فى الورى زاهيه
وخلف المدبن اكرومة — تطل مع الشمس من زاويه
وضمخ بالمسك ارجاءنا — واضحك سهلا مع الرابيه
واسهر اعبن اعدائنا — وعمق نحنهم الهاويه
وانطق ناربخنا فانبرى — برتل ملحمة ناريه
من الريف هبت لها نغمة — تؤجج ثورته الحاميه
فرددت الارض اصداءها — وروعت الانجم الساريه
وحيرت الغرب حتى انبرى — يولول في صرخة باكيه
ولم تغن عنه اساطيله — ولا قاذفات الردى العاويه
ولا قادة الجيش اذ عبؤوا — جحافله الجمة الشاكيه
اغاروا كثيرا ولكنهم — يعودون بالنكبة الغاشيه

ثلاث قصائد :
لبول فيرلين
ترجمة : ابراهيم السلمي

1) حلمي المعتاد

كثيرا ما احلم هذا الحلم الغريب النافذ :
امرأة مجهولة تحبني واحبها
ليست موجودة فى كل حين وليست هي تماما
وليست امرأة اخرى
تحبني وتفهمني

* * *

لانها تفهمني
وقلبي الشفاف ـ آه وقد كفت نزواته ـ
لها وحدها
ولها وحدها اخضلال جبيني الشاحب
فهي دون غيرها تعرف تبريده ببكائها

* * *

اهي سمراء ؟ أم شقراء ؟ ام رمادية ؟
ـ لا ادري
واسمها ؟ اذكر انه حلو منغوم
مثل المحبين الذين ابعدتهم الحياة

* * *

نظرتها تشبه نظرة التماثيل
ولصوتها النائي الهاديء الرزين
رنة الاصوات الغالية التي صمتت

الى عابرة سمراء

للشاعر: خليل الخوري

فدا! كل مشقة رمح انيق تفتت مهجه
وكرحي لكل عمود من المسك ينشر وهجه
على العابرين ، فيعشب صيف وتمرع مرجه
غلو هزار ، وبوح كنار ، وبث كمنجه
خطرت ، فافريقيا في الطريق اعتداد وبهجه
فبتنا على موجع الابنوس ، وبات المحجه
مجوسا نصلي لدى مجمر النار نفيم لجه
فطاب لاعيننا ان تفاوي ، فنحن ذهول وضجه
فمن حدق العين ما ترتدين
وفي خفقة القلب ما تعبدين
وفينا تموت الثواني ، ومن مترف الخطو رجه
ونحن على دورة الخصر ما قد تطرز موجه
ايهزج خصر بتيل ولسنا نواكب هزجه ؟
ويفنج طرف مدل ، ولسنا نمجد غنجه ؟

* * *

فيا انت ، يا سروة ، يا نياسين حومي علينا
رددت لنا الزهو حتى شكانا الضياع الينا
مررت فمر الربيع ، وطاف العبير لدينا
فمن بعض اضيافنا الخيزران فانى التقينا
وما اعتل منك ونطعمه من عروق يدينا
وفينا فقولي لاضياف اهدابنا ان وفينا
وغيبي مع العابرين ، صحونا وكنا انتشينا
بدانا فرنق الف نهار فليث انتهينا
على مرفأ او جزيرة نار
وها نحن نبحر دون مدار
لنا بعدك الفصة المستبدة تسأل اينا ؟
ظمئنا انزعم حين مررت بانا ارتوينا ؟
وكيف ؟ ونحن على الضعف المتثنى اكتوينا
امرنا الزمان فسار وئيدا فسيري الهوينا
غصصنا ولولا الذي يقتضي الكبرياء بكينا

دمشق ــ خليل الخوري

على شاطئ الغبث: الشبح

للأستاذ أحمد عبد السلام البقالي

الارض ما نزال ندية من امطار الامس .. وفي ذلك المساء تغير اتجاه الريح .. شعر به « شعيب الورياغلي » وهو داخل نوالته يساعد زوجته وبنته على شق البطاطس لغرسها في مزرعته الصغيرة المشرفة على المقبرة .

ترك ما كان بيده وخرج الى ساحة البيت الواسعة حيث وقفت بقرته الوحيدة ثقيلة البطن تلوك الكلأ وتنظر اليه نصف نائمة .. ونظر الى المقبرة نحنه ، وصاح في زوجه دون ان يلتفت :

« واحدة اخرى هذا المساء .. »

ولم يعر اهتماما لتعليقها من داخل الكوخ المعتم .. كان الصوت يخرج منها عميقا كما يخرج من مطمورة او بئر .. على اية حال كان يعرف تعليقها قبل ان يسمعه .. هو هو دائما ، كلما قال لها عن جنازة اخرى تنهدت وقالت :

« هذا وقتها .. في الخريف دائما تتكاثر الجنائز .. الناس يحبون الموت في الخريف .. الله يلحقنا بهم مسلمين .. »

ثم تنهد وتعود الى عملها دون ان تعطي الموضوع فترة تفكير اخرى .. وظل هو ينظر الى المقبرة المنبسطة تحت مزرعته تتناثر فيها القبور بشواهدها البيضاء تغطي بعضها اسحار العطرشة والورد ، وبعضها يكسوه الاعشاب الطرية الخضراء توحي بالطمانينة والسلام .

وفي احدى الاركان وقفت حلقة من الناس حول قبر محفور بجلابيبهم الصوفية البيضاء والشهباء واقبابها على رؤوسهم تجعل منظرها حزينا وهم يقرأون «يس» باصوات عالية سريعة ، ولهجة جبلية قوية .

وسكتوا فجأة في اجلال ...

وفكر شعيب انه وقت الحشر قد حان .. وقت وضع الميت في قبره .. كان ذلك هو المنظر الوحيد الذي لم يستطع شعيب ان يألفه .. كان دائما يثقل قلبه ويبعث التشعريرة في جلده ..

وبدأ الرجال ينشدون بصوت خفيض ولحن مثقل بأحزان الوداع :

« باسم الله وعلى ملة رسول الله (ص) اللهم ان صاحبنا هذا قد نزل بك وخلف الدنيا وراء ظهره مفتقرا الى ما عندك .. اللهم ثبت عند المسألة منطقه ولا تبتله في قبره بما لا طاقة له به والحقه بنبينا عليه السلام .. »

وتقدم خمسة رجال فأخرجوا الجثة من المحمل مرفوعة على سجادة بيضاء ووضعوها في القبر برفق زائد ، ثم نزل الحفار وبدأ يغطي القبر بألواح الرخام المستطيلة وقد رقدت الجثة مكفنة بالبياض معقودة البنان صامتة تنتظر ان تبتلعها ظلام الغيب وصمته الاخير ...

ثم طلع الحفار فتناول المجرفة وبدأ يهيل التراب على الالواح الرخامية بسرعة حتى تكوم فوق القبر ، وجاء رجل بقربة ماء ذات فم نحاسي فأخذ يرشه بعناية حتى لا تعبث به الرياح ..

ورفع شعيب رأسه الى السماء ينظر الى الغيوم وهي تسابق سريعة نحو الشرق متعددة الالوان في دكنتها ونصوعها .

وفي الغرب كانت المدينة تبدو مزدحمة المباني داخل سورها الاحمر العتيق صوامعها البيضاء تعلو فوق بقية السطوح وهي في مجموعها كسفينة ضخمة نصفها الاول داخل البحر..

كان وجه المحيط يعكس الوان السماء الكالحة والشمس لا يرى الا نصوعها من خلف السحاب وهي تميل نحو الغروب

2) مناجـــــاة

في الحديقة الهرمة المثلجـــة
مـــر منـــذ حيـــن طيفـــان
عيونهما هامدة وشفاههما رخـــوة
وتكـــاد كلماتهمـــا لا تسمع
في الحديقـــة الهرمة المثلجـــة
اثـــار الماضـــي طيفـــان
— اتذكرين جذلنا السـرمـــدي ؟
— ولم تريدني ان اذكـــره ؟
— اما زال قلبك يخفق لاسمي وحده ؟
وروحي ؟ اما زلت ترينها في الحلـــم ؟ — لا
— آه ما اجمل ايام السعادة الفائقة اذ كنا نلتقي
— ذلك محتمـــل
— كانت السماء زرقاء والامل عريض
— لقد فر الامل مندحرا نحـــو السماء السوداء

* * *

هكذا كانا يسيران بين الاعشـــاب النزقـــة
ولم يكن غير الليـــل يسمع كلماتهمـــا

3) انشودة الخريـــف

الشهقـــات المـــديـــدة
التـــي تزجيهـــا اوتـــار الخريـــف
تدمـــي قلبـــي بفتـــور رتيب
الغصـــة تعـــرونـــي
والشحوب يعلوني حين تـــدق الساعـــة
فاذكر الايام الخوالـــي
وابكـــي
ثـــم اتيـــــه
في مهـــب الريـــــح
تحملنـــي هنـــا وهنـــاك
وكأننـــي ورقـــة ميتـــة

القنيطرة — ابراهيم السلمـــي

ومشيا بين الزروب حتى خرجا الى طريق السيـــارات الذي يخترق المدينة وسط السوق ، ونزلا في الشارع الرئيسي المظلم ، الحوانيت كلها مقفلة ، ولم تبق الا انوار قناديـــل بائعي الفحم الذين يسكنون في دكاكينهم وبعض القهـــاوي الحاصة بلاعبي (الكرطون) ـ البنجو ـ مقفلة بلوح النـــور من شقوق ابوابهـــا ..

ووصلا الى مقهى (ابن روحو) فدخــل شعيب ، ووقف الرجل بجلبابه الابيض الطويل على الباب ينظر الى الداخل في حسرة ...

ووقف شعيب على راس المقدم الذي كان يتصدر جماعة وهم يشربون الشاي ويتحدثون :

ـ شعيب ماذا جاء بك في هذا الوقت ؟

فرد شعيب معي رجل يقول انه سمع صوت رجل يستغيث في قبره ..

فعلق المقدم ضاحكا : لعل نكيرا ومنكرا يستجوبانه ..

وضحكت الجماعة ، فدخل الرجل الطويل الى حيث يجلس المقدم ، فنظر في عينيه بعنف ، وقال بصوت خافت :

ـ اسمع يا هذا .. حياة انسان في يدك ، وانت تلهي الكلاب .. انما لم يرد الحفر عليه حتى نحضر السلطات اذا وجدناه ميتا فهو في ذمتك ..

واختفت الابتسامة من وجه المقدم ، فنهض وامســـك عصاه ، وهو يقول :

ـ انا لا اريد ان تبقى روح احد على رقبتي .. ولكن هناك من هو موفي ..

فسأل الرجل من يجب ان نخبر ايضا ؟

ـ الباشا . اجاب المقدم .

فقال شعيب . تعالى نذهب الى بيته .. وشد الرجـــل عصبه بعنف شديد ، وهو يمشي في اعقاب شعيب ، واطراف جلبابه تلامس الارض ، وفي عينيه غيظ شديد ..

ومشى خلف الثلاثة جميع من كان بالمقهى ، كل منهم يعطي رايه في الموضوع دون ان يسمع راي صاحبه . كـــان المقدم يلبس جلبابا صوفيا ثقيلا في لون الارض ، وعلـــى رأسه عمامة صوف سوداء مزخرفة حوطها بخواتم الحرير ، وقد حلق لحيته وترك شاربا احمر كثيفا يتمشى جيدا مـــع سنه الزرقاويـــن .

وعلى باب دار الباشا تنحنح المقدم وضغط على الجرس من بداخل البهو الكبير ، وبعد لحظة خرج رجل يلاســـس النوم يسعل ، فأشعل نور الباب الخارجي ، ثم فتح البـــاب وهو نصف نائم ، فبادره المقدم :

ـ نريد ان نتكلم مع الباشــا ..

ـ انه ليس هنـــا ..

ـ وابن هـــو ؟

ـ في طنجـــة ..

فاختلط الامر على الجماعة فتقدم الرجل الطويل الـــى الخادم وسألــه :

ـ هل ترك رقم تلفونه بطنجة ؟

ـ لا .. اجاب الخادم، انه لا يمكث هناك بمكان معين..

والتفت الرجل الى المقدم : وماذا سنفعل الآن ؟

فحك المقدم رأسه ، وهز كتفيه في حيرة ، فواجهـــه الرجل الطويل ، وهمس بصوت خافت فيه كثير من عـــدم الاحتمال :

ـ اسمع .. الباشا غير موجــود .. وهــذا معنــاه ان المسؤولية بيدك الان ..

وهنا تكلم شعيب وهو ينظر الى وجه الرجل الطويـــل المتوتر والضوء يصب على تقاطيعه : اعتقد انـــه مـــن الواجب ان نذهب الى القاضي .. هـــو الذي ينبغي ان يبث فـــي هذه الامور ..

وصادف هذا الراي قبول الجميـــع .. فتوجهوا نحـــو المدينة داخل السور الاحمر .

وعلى باب بيت القاضي وقفت الجماعة تنتظر ، فأضيء مصباح معلق على الباب واطلت خادمة من نافذة مشرفة علـــى الشارع تنظر الى الوجوه بعينين مقفلتيـــن ، وسأل المقـــدم رافعا عكازه نحوها :

ـ هل الفقيه هنـــا ؟

ـ لماذا ؟ اجابت الخادمة : ماذا تريدون منه في نصف الليل ؟

ـ اذا كان موجودا ، فقل له يخرج عندنا .. نريد ان نسأله في امر مهم ..

وادخلت الخادمة رأسها فاختفت ثم عادت الى الظهور مرة اخـــرى .

يقول لكم سيدي عودوا في الصباح .. انه مريض الآن، ولا يستطيع الخروج من فراشه .. ثم اقفلت باب النافذة واطفأت النور قبل ان تسمع اي تعليق وعاد البيت الى صمته الاول ..

.. والتفت مرة اخرى نحو المقبرة ليجد الجمع قد تفرق ، وذهب الناس في اتجاهات مختلفة ، ثم نقل عينيه الى طريق السيارات خلف المقبرة لينظر الى زجاج العربات الانيقة وهي تتدافع بسرعة نحو الشمال الى طنجة ، كان زجاجها يلمع في عينيه كلما انحرفت عن التل جانب ملعب الكرة ..

وفي تلك اللحظة عاد ابنه محمد من المدرسة فقبل يده ودخلا معا الى الكوخ الذي كان مضاء الآن بمصباح غاز اصفر .. وبعد العشاء جلس شعيب مع عائلته يشرب الشاي ويستمع الى حديث ابنه محمد عن المدرسة والاساتذة . ثم الجدال بينه وبين اخته فاطمة حول كروية الارض ودورانها ، كانت هي ترفض تصديق ما يقوله جملة وتفصيلا : « كيف يمكن ان تدور الارض ولا نسقط من فوقها ؟ لماذا لا يهرق البحر في الفضاء ؟ والبقرة لماذا لا تطير ؟ »

كان شعيب ينظر اليهما يتجادلان ويبتسم في تعب سعيدا بوجوده .. وفي تلك الليلة بينما هو في عمق النوم، اذ سمع طرقا على الباب .. استيقظ بصعوبة كبيرة دون ان يدرك اين هو .. كانت زوجته تحركه بعنف من كتفه ، وتهمس في اذنه : شعيب اسمع ، احد يطرق الباب في هذه الساعة ، قم ، افتح .. وقعد شعيب بدون احساس مدة قبل ان يدرك معنى كلام زوجته ، وحين خرج من الفراش كانت تقول له : « انا خائفة ، الكلب لم ينبح ، ثم انني كنت صاحية فلم اسمع الباب الخارجي ينفتح ، يا ترى من يكون هذا ..؟ شعيب ، خذ الشاقور معك ، من يدري ؟

ولف شعيب عمامته على رأسه في رعشة النوم لفا سريعا غير منظم ، ثم نظر حوله وقصد الباب فاسرعت زوجته الى الشاقور ووقفت خلفه ، وصاح شعيب : من ؟

فاذا صوت ضعيف كأنما تاتي به الريح يجيب . افتح من فضلك .. اريد ان اتكلم معك ..

فقال شعيب : تكلم من هناك .. ماذا تريد ؟

فرد الصوت بنفس العمق: اعتقد انكم دفنتم رجلا حيا..

وفتح شعيب الباب بسرعة وخرج : كيف ؟؟

وتكلم الرجل الطويل الواسع العينين الذي كان واقفا خلف الباب ، وعلى وجهه رعب كبير : « توقفت سيارتي الى جانب المقبرة ، فنزلت لاصلاح عطبها ، فسمعت نداء استغاثة آتيا من المقبرة ، وتسلقت السور ونزلت فلم اجد احدا ، كان الصوت يصدر عن قبر ما يزال نديا ، لعل الذين دفنوا ذلك الميت لم يدركوا انه كان ما يزال حيا .. »

فحك شعيب رأسه في حيرة ، وقال : وماذا نفعل الان ؟

— انني اقترح ان نحفر عليه حالا قبل ان يختنق بقلة الهواء ، او يموت رعبا ، او يفقد عقله اذا لم يمت .

فالتفت شعيب لزوجته : رحيمو .. هات الفأس ..

فخرجت هذه من خلف الباب والشاقور في يدها ونظرت الى الرجل في ريبة ، ثم سألته :

— كيف دخلت الى هنا ولم ينبح الكلب ؟

— اعتقد انه لم يرني ..

فاقتربت منه تنظر الى عينيه الغائرتين بعينيها الجميلتين القاسيتين .. كان طويلا نحيفا في حوالي الاربعين ، حسن التقاطيع ، الا انه شاحب في رعب شديد ، فعادت الى سؤاله

— وكيف دخلت الساحة والباب ما تزال مقفلة .. ؟

— اعتقد انني قفزت على الزرب .. لم اشعر بما كنت افعل .. ان رجلا هناك تحت التراب ، حياته في ايدينا ، وانت تعتقدين انني جئت لاسرق ..

وهنا تدخل شعيب بجد : هاتي الفأس وتعالي نحفر على الرجل .

فوقفت المرأة امامه في صرامة : لن نفعل شيئا من ذلك .. انت تعرف ما حصل لسي العربي حين حاول اخراج ميت ظن انه ما يزال حيا .. قبض عليه ورمي به في الحبس .. سنذهب الى مقدم الحومة ، وذلك حتى تاخذ الاذن من سلطة البلد ..

وتزايد الرعب الذي كان في عيني الرجل النحيف .. ونظر الى شعيب وزوجته ثم تكلم بصوت هامس كأنه لا يستطيع رفعه : تعال اذن نذهب الى المقدم .. لا نضيع الوقت في الجدال .

واخرجت رحيمو جلباب شعيب فلبسه هذا وهو في طريقه خارجا ..

ومشيا معا في ممرات مظلمة بين زروب القصب الكثيفة والكلاب تنبح حتى وصلا بابا في حائط قصب ابيض فطرقها شعيب بقبضته وهو يصيح :

— هل المقدم هنا ؟

فسمع صوت امرأة من الداخل يجيب :

— كلا ..

— واين يمكن ان نجده ؟

— في القهوة ..

— اي قهوة ؟

— قهوة ابن روحو

والتفت شعيب الى الرجل الذي كانت عيناه تزيد كبرا ورعبا :

— تعال ..

— هل القهوة بعيدة ؟

— كلا انها في السوق ..

مناقشات

من ثمن الأخطاء «تعقيب»

للأستاذ عبد السلام الهراس

« أخرج النغمة التي فى قرار فطرتك يا غافلا عن
نفسك اخلها من نغمات غيرك » اقبال

اطلعت على مقال الاخ الاستاذ محمد زنيبر تحت عنوان « ثمن الاخطاء » المنشور فى العدد السادس من مجلة « دعوة الحق » ولاهتمامي بهذا النوع من المقالات اخذت فى قراءته غير أني فوجئت باستشهاد الكاتب على بعض افكاره بمقالتي « قبل فوات الاوان » ، واسترسلت فى القراءة ظنا انني ساجد بيني وبين الكاتب اختلافا فى الراي وعلاقة بين أفكاره ومقالتي مما يبرر له هذا الاستشهاد ، غير أني عند ما انتهيت من تحليله لمقالتي واستنتاجاته منها وافتراضاته ، ثم اجوبته عن تلك الافتراضات الى آخر المقال ، وجدت ان ذلك الاستشهاد فى غير محله ، وغير ذي موضوع وانما أقحم اقحاما ، لكن ، رغم ذلك ، فقد رايت أنه لابد من الادلاء برايي حتى لا يفسر السكوت بالرضى .

لقد صرح الكاتب بان اجدادنا وجدوا أنفسهم مجردين من السلاح الفكري ، وان الانهيار بلغ الى حد لا يتصور ، وان عواقب التخلف ظهر أثرها بصورة افظع فى ميدان الفكر . وامام الفراغ العقلي الذي كان يعانيه المغرب منذ أزمان بعيدة استطاعت الثقافة الاجنبية الدخيلة ان تجد لنفسها مكانا واسعا رحبا ، وسرعان ما اجتذبت اليها المثقفين والشباب » ، ويمضي قائلا : « فاذا نتج بعد ذلك ان هذا الجيل اصبح ذا ثقافة وتكوين اجنبيين قليل المعرفة بثقافته القومية ، فالمسؤولية تعود على الاجيال السابقة التي لم تعتن بهذا الامر ولم تبذل أي مجهود فى خلق المدرسة الوطنية المسايرة لمقتضيات العصر » ويرى ان الاستعمار « عمل فيما بعد على خنق ثقافتنا القومية ونشر ثقافته المجلوبة ولكن هذا تصرف طبيعي ومنتظر من كل دولة اجنبية حاكمة وليس من الحكمة أن ننتظر من الاجانب المحافظة على ثقافتنا القومية » ، ثم يقول :

« فالثورة الفكرية التي رفضنا ان نقوم بها نحن فى الوقت المناسب اصبحت مفروضة عينا فيما بعد ولكن من الخارج وحسب مناهج وطرق لم يكن لنا فيها اختيار . وهذا سبب كثير من المشاكل التي نعانيها اليوم فى تطورنا الثقافي » .

ومعنى كلام الكاتب ان الاستعمار وجد فراغا فكريا فى المغرب فاحتله ، ونتيجة لذلك ، اصبح جيلنا هذا محتل الفكر ، وذا تكوين وثقافة اجنبيين ، وان مدرستنا الوطنية كانت معدومة فى التوجيه او على الاقل ضئيلة التاثير ، وان الثورة الفكرية فرضت علينا فرضا ولكن حسب مناهج وطرق اجنبيتين . وليس من المعقول ان يحافظ الاجانب على ثقافتنا القومية وليس من الحكمة ان ننتظر منهم ذلك واننا نتيجة لهذه الاوضاع الجديدة نعاني مشاكل خطيرة فى تطورنا الثقافي .

وهذه الافكار التي ساقها الكاتب هي نفسها التي سقتها سواء فى مقالتي السابقة او فى مقالتي الاخرى التي نشرت فى دعوة الحق والتي تعتبر مرتبطة بها اشد الارتباط . فانا أرى اننا نعيش فى فراغ فكري ، وان الاستعمار استغل هذا الفراغ ليملأه حسب مناهج وطرق لا اختيار لنا فيها وان مدرستنا الوطنية لم تقم بواجبها لانها لم توجد كما ينبغي .

ولعل الكاتب يتفق معي ان تلك المناهج الاستعمارية لا يقصد بها ــ أساسا ــ خير البلاد بقطع النظر عن مكاسبنا منها ونوع تلك المكاسب . ولعل الكاتب متفق معي ايضا فى انه لابد من علاج لتلك المشاكل التي نتخبط بها والتغلب على العقبات الموضوعة في

كان الرجل الطويل النحيف يرتعش من شدة النرفزة والغضب ، ودار المقدم ليجد نفسه وجها لوجه امامه ، فصاح فيه بصوته الحاد الخافت :

— ماذا تفعل الآن ؟

— لا ادري ..

— الرجل اشرف على الموت او الجنون الآن

فرد المقدم حائرا : ذلك من سوء حظه ..

فاقترح الرجل : الا ينبغي ان تنادي العرائش و نطلب اذن العامل للحفر على الميت ..

ورفع المقدم راسه ينظر الى الرجل : هذه فكره حسنة .. لماذا لم نفعلها من قبل ؟ تعالوا الى البريد .. وتحركت الكتلة مرة اخرى نحو البريد خارج الاسوار في المدينة الجديدة ، وكلما التقوا باحد انضم اليهم ليسمع الخبر العجيب .

وطرقوا باب المكلف بالادارة فخرج اليهم من سريره ، وسمع الخبر بدون ان يعلق عليه او يهتم به ، ولكنه فتح باب الادارة ، ورفع سماعة التلفون يطلب العرائش .

وبعد دقائق كانت اعصاب الرجل النحيف فيها تحترق وهو ينظر الى جهاز التلفون الاسود وينتظر ان يرن ، سمعت دقات الجرس ، ورفع المشرف السماعة الى اذنه ثم دفع بها الى المقدم .

وامسكها هذا بكلتا يديه وبدأ يصيح فيها :

— من ؟ آ .. سعادة العامل — مساء الخير يا سيدي — متأسفين لازعاجكم في هذه الساعة المتأخرة — لا ، لا — انا المقدم — الباشا ما يزال في طنجة — الموضوع اسيدي هو انا نريد اذنكم في الحفر على ميت — لا لا — انه ما يزال حيا — هنا رجل سمع استغاثة من القبر — دفن هذا المساء — بارك الله فيك — الله يهنيك .

ووضع السماعة والتفت للجماعة : لنذهب الان للحفر عليه .. لقد اعطانا العامل الاذن ..

وفيما هم يتحركون نحو الخارج ، اذ سمعت ضجة بالباب وسيارة تقف ، وصاح احد الواصلين الجدد :

— الباشا جاء من طنجة ..

وفي نفس اللحظة دخل رجل في حوالي الخمسين بملابس عسكرية انيقة ، ضخم الجثة احمر الوجه تقدم نحوه الجماعة وراء المقدم . وتكلم هذا :

— جئناك يا سيدي لنأخذ اذنك في الحفر على رجل دفن حيا فلم نجدك ، وقد كلمنا العرائش الآن فأعطانا العامل الاذن ..

ووقف الباشا يحك قفاه وينظر الى الجماعة ، ثم وضع ابهامه في حزامه وسأل :

— هل اذن لكم في الحفر ؟

— نعم يا سيدي ...

— اذن ماذا ننتظر ؟ تعالوا ...

وتحرك الجماعة خارجين فركب الباشا سيارته واشار الى المقدم ان يركب ، وركب شعيب واشار الى الرجل الطويل فصعد الى جانبه ، ونظر اليه الباشا وسأل المقدم :

— وهذا لماذا ؟ ..

— هو الذي سمع الاستغاثة يا سيدي ..

ونظر الباشا الى وجهه ، فأحس بعمق الرعب في عينيه وتقاطيعه .. ومد يده الى مفتاح السيارة فأداره وتحرك بارلا نحو بيت الجنايني الملحق ببيته الكبير ، فنزل احد اعوانه واخرج فاسا وضعه في حقيبة السيارة وعاد فركب وقصف الباب فتحركت السيارة نحو المقبرة .

وعلى بابها فتح الباشا حقيبته الصغيرة فأخرج منها فنارا كهربائيا ، وتحرك الجميع نحو القبر الجديد ، يقودهم الرجل الطويل النحيف بخطوات واسعة .

وحين وقفوا عليه انحنى الباشا فأصاخ سمعه على القبر ، ثم اشار الى الرجل ان يحفر .. وبعد عدة دقائق كان الفاس يضرب على الرخام المستطيل ، فنزل الرجل وبدأ يرفع الالواح واحدة واحدة حتى كشف عن الجثة المكسوة بالبياض ، ونزل شعيب والمقدم فرفعاها من مرقدها ، ووضعاها على حافة القبر .

واقترب الباشا بفناره فانحنى على الجثة ووضع اذنه على صدرها ليستمع الى دقات القلب ، ثم وقف وقال دون ان ينظر لمن حوله :

— هذا الرجل ميت ، ولكنه كان حيا قبل بضع دقائق جسده ما يزال دافئا ...

ثم امر شعيب والمقدم ان يكشفا عن وجهه الغطاء فتقدم الرجلان ، وازاحا الغطاء فكاد الدم يقف في عروقهما ..

كان الرجل ما يزال حيا .. كان ينظر اليهما من وراء حافة الكفن بعينين غائرتين فيهما بأس ، وبقية حسرة وغضب .. كان هو نفسه ذلك الرجل الطويل النحيل الذي طرق الباب في اول الليل على شعيب ليخبره بالاستغاثة .

واغمض عينيه اغماضتهما الاخيرة ، وراح في سباته الابدي .

واشنطون — احمد عبد السلام البقالي

ظام الاقطاع . وكانت توبة الحاكم رجعي كيكي تهييئا حضارة اليابان . يقول كيكي في اعترافه الرائع : « ان معظم اعمال الادارة الحكومية معيبة ، واني لاعترف خجلا بان الامور في وضعها الراهن يرجع نقصها الى ما اتصف به انا من نقص وعجز وها هو ذا اتصالنا بالاجانب يزداد يوما بعد يوم فما لم نتناول ادارة البلاد بسلطة مركزية موحدة ، انهار بناء الدولة انهيارا من اساسه »

وهكذا بدأ العهد الميجي سنة 1868 واسترد الشعب الديانة الشنتوية القديمة وقام قادة البلاد بدعاية قوية في الشعب حتى اقنعوه بان الامبراطور العائد الى عرشه الاهي النسب والحكمة ، ولذلك يجب طاعته ، وطاعة القوانين التي يصدرها . يقول ديورانت هنا : « فلما ان توفرت هذه القوة الجديدة لانصار التغريب تمت على ايديهم معجزة او ما يوشك ان يكون معجزة في تحول البلاد تحولا سريعا » وقد قام الزعيمان العظيمان انو واتوبيي بزيارة لاروبا درسا خلالها انظمتها وصناعتها .

فاذن الاعتمادة على العقيدة شرط أساسي الحضارة واذا كان اليابانيون اعادوا للشعب ثقته في الامبراطور على أساس انه الاهي النسب فاننا ينبغي ان نعيد لانفسنا ثقتنا بالله على انه رب العالمين . وبدون هذه العقيدة فاننا سنظل نعبث . لان العقيدة سر الانطلاقة الكبرى . ولقد راينا الرئيس ايزنهاور يرى ان خطر فراغ النفوس من العقيدة والاخلاق افتك بالامة من القنابل الذرية .

فقول الكاتب بانني ادعو الى غلق الابواب ، بحجة « غربية » والاستنتاج » عجيب لم اقل لا بمقدماتها ولا بسيء يفضي اليهما ، وانما الذي أؤكده دائما هو انه يجب ان نتنبه من التاثيرات الاستعمارية، وان يكون فهمنا للامور مستقلا عن هذه التاثيرات مهما كان نوعها ، وان تكون لنا شخصية متميزة ، فالاستعمار زيف لنا تاريخنا وعقائدنا وحاول ان يقطع حاضرنا عن ماضينا وان يخلق من امة واحدة امما مختلفة ، وان عرقل سيرنا وشجعنا على ما يسمى بالثقافة الرخيصة كما شجعنا على تقاليد بالية وساعدنا على الجمود ووقف دائما في وجه تطورنا ، ولم يقصر في الفتك بنا في ميدان الفكر . ولهذا اعتبر كلامكم من الاستنتاج الاول في آخر المقال بين قوسين ، لا بحق الاجابة عنه لانه ليس في الحقيقة مسايرة لمنطق مقالتي وانما هو مسايرة من الكاتب لنفسه ولكن رغم ذلك احب ان انبه الاخ الى انني لو كنت ادعو الى غلق بابنا لما كنت منطقيا مع نفسي لانني اتابع دراستي العليا في جامعة اروبية وبلغة أروبية .

وكان بالامكان لو سرت على ذلك النحو من الافتراضات والاجوبة عنها ان أملأ مجلدات ولكن المهم هو ان ذلك كله لا علاقة له بالفكرة الموضوعة للمناقشة .

وان الكاتب يقول : « اننا لم نقم بعد بالثورة الفكرية وانما فرضت علينا من غير اختيار وحسب مناهج وطرق اجنبيتين » وفي كلا الحالتين شر ولهذا ينبغي ان نتدارك الامر بثورة ثقافية اصيلة ، اي نقوم ببناء حضارتنا على الساس من عقيدتنا . وما أروع الكلمة التي صدرت بها مقالتي التي فاه بها اقبال رحمه الله « اخرج النغمة التي في قرار فطرتك يا غافلا عن نفسك ، اخلها من نغمات غيرك » .

فالحضارة كما يقول مالك بن نبي ليست سلعة تباع وتشرى كما ان الاستعمار ليس في نيته ان يحضرنا بل عنده لفظتا استعمر وحضر بمثابة مترادفتين وليست الحضارة في نية المستعمر ولو صحت هذه النية بل هي نتيجة الجهد الذي يبذله كل يوم الشعب الذي يريد التحضر ، فهو الذي يذهب الى الحضارة ، الى مصادرها البعيدة ، وقبل كل شيء الى مصدرها الاقرب من اصالته .

فمن من الاخطاء في رايي أن نعتقد ان الحضارة هي ما انعمت به علينا المدرسة الاستعمارية في فترة غياب مدرستنا الوطنية . واذا كان يعاب على أجدادنا في عصور الانحطاط سوء نيتهم في الحضارة الغربية وغرورهم بما لديهم وجمودهم على تقاليدهم ، فانه يعاب على بعض ابنائهم اليوم حسن نيتهم المطلق في الحضارة الغربية وغرورهم بها وجمودهم في فهمها لان الجمود هو الجمود ، رغم اختلاف المظاهر والازمان . فاذا كان هذا الجيل يؤدي ثمن اخطاء الماضي فانه في نفس الوقت يرتكب اخطاء يساهم بدوره في تأدية ثمنها كما يترك رصيدا ضخما من المتاعب لتؤدي الاجيال المقبلة ثمن ذلك ؛ فلكي لا نعيد التجربة السابقة ينبغي ان نكون أكثر تحررا واكثر استقلالا في الفكر .

طريقنا ومواجهة الاحداث التي تطغى علينا . وهنا نصل الى النقطة التي تراءت للكاتب ان يجعلها محل استشهاده فيما اظن ، وهي نقطة العلاج ، ولست أدري أيتفق معي في هذه النقطة حسب ما بينته في المقالة السابقة وما سأؤكده فقط هنا أم لا ؟ على أي فالعلاج في نظري يقتضي تكوين قيادة فكرية منبثقة من صميم الامة مكونة تكوينا قوميا متينا حسب مناهجنا واختيارنا وطرفنا لاننا ان تركنا القيادة في يد من كان ذا ثقافة وتكوين أجنبيين قليل المعرفة بثقافته القومية فاننا نكون قد حاولنا اسباغ صفة الاطباء على نوع من المرضى المراد علاجهم ، وهذا النوع من القيادة . هو الذي وصفته بانه لا يشعر بكرامة أمته وليس عنده ما يحمله على الحنين لامجاد ماضيه ، لان الثقافة والتكوين الاجنبيين وقلة المعرفة بالثقافة القومية من أهم الخصائص للقيادة المزيفة ، لان الثقافة كما قال الكاتب نفسه ، قوة معنوية بها تعيش الشعوب وتعتز ، واليها ترجع لتستنير وسط الخطوب المدلهمة ، وما أظن — ولعل الكاتب معي هنا — أن الاجنبي الحاكم يريد خلق هذا النوع من الثقافة في الامة المغلوب على امرها. ولهذا قلت يجب على القيادة الحقيقية المنقذة ان تتعمق في فهم النفسية للامة فهما مستقلا عن كل تأثير أجنبي أو توجيه استعماري . وبذلك (فقط) تستطيع القيادة ان تقف على حقيقة آمال هذه الامة وأهدافها ومكامن القوة والضعف فيها وطبيعة تكوينها ومزاجها وعلاقاتها التاريخية والعقائدية والفكرية ...

فدعوتي اذن تتلخص في وجوب تكوين القيادة الفكرية السليمة المنبثقة من الامة لتواجه المشاكل بارادة غير مزيفة وفكرة غير دخيلة . فهل في هذا ما يثير الكاتب ويجعله يسارع الى الاستشهاد بمقالتي على تلك الافكار التي ساقها هناك ؟

على كل حال ، سأبسط فكرتي بعض البسط ، لعل الاخ الكاتب يقف على حقيقة الخلاف ان كان هناك خلاف أو على عكسه . ان القيادة التي ندعو اليها هي التي قال عنها الكاتب « يجب ان تهتدي الى التفكير القويم وتقدير الواقع بحصافة وبعد نظر لانها . لو فعلت ذلك لفهمت ان انقاذ المغرب هو في الاستفادة من حضارة اوربا وعلمها وتجاربها لا في الجمود والتعصب ... » أو الاستهتار والتلاعب بالقيم ، ولكن، كيف ينبغي ان نستفيد من أوربا ؟ وما هي وجوه الاستفادة ؟ وماذا ينبغي ان نأخذ ؟ وما ذا ينبغي ان ندع ؟ تلك قضايا مهمة وخطيرة ينبغي على القيادة ان تحدد موقفها منها بكل موضوعية . فالحضارة الاوربية فيها جانبها الخير ، وجانبها الشرير ، وأخوف ما يخاف على امة ضعيفة تحاول قادتها النهوض بها ، أن تضل الطريق فتأتيها الرزايا من وجوه الفوائد . ولذلك . كان لابد من خلف **تلك الثقافة** التي سبق تعريفها حسب رأيكم لتخلق فينا الحاسة المميزة بين ما ينفعنا وما يضرنا . ومن المعلوم ان « لكل حضارة أفكارها القاتلة » (*) لكي تقتلها هي نفسها كما تقتل غيرها وان الامة المصابة بالوهن لا تملك القدرة على الامتصاص الحيوي من اية حضارة وانما تفرض عليها نزعتها الى السهولة الى امتصاص الجانب القاتل كما نلاحظ على كثير ممن يحاولون تحضير انفسهم « بالمقلوب » بالاقبال على « أشياء » الحضارة الغربية في بلادة ونشاط دون التنبه الى ان الحضارة تنبع قبل كل شيء من النفس تعبيرا عن عقيدة متغلغلة حية ، لهذا . ينبغي الا نفتح ابوابنا — ان كانت لنا أبواب — على مصراعيها للغث يغزو بلادنا وانما يجب ان نكون حذرين يقظين محاولين بوعي قيادتنا — التي ينبغي ان تكون منا والينا — ان نفرق بين ما يضر أمتنا وما ينفعها . فالنقل عن الغير يجب ان يخضع لشروط صارمة عمله مثل نقل الدم من جسم لآخر بل واشد صرامة ، لان الخطأ في نقل الدم قد يقتل فردا واحدا ، أما الخطأ في النواحي الاجتماعية والحضارية فانه يقتل أمة باكملها . لهذا يجب ان نبني فكرتنا الخاصة بنا والتي هي انسانية في صميمها . عاملين على اعادتها للنفوس واشاعتها في المجتمع ومساعدتها بتهيىء الجو والتربية الصالحين . حتى لا تمتص الا ما يساعدها على النمو والازدهار : فاليابان مثلا لم تقف أمام الحضارة الغربية موقف الجمود ولكن في نفس الوقت لم تقف موقف الميوعة والتفسخ . ولم تكن تلميذة بليدة لاوربا . بل كانت واعية مفكرة ناقدة ، عالمة ، مدركة لما تأخذ ، مدركة لما تدع . فلم تذهب الى أوربا واسقة منها الكماليات والعادات المخربة والانحرافات ، بل كانت اوعى من ذلك . يقول ويل ديورانت : « لقد درس اليابانيون مدنيتنا دراسة فاحصة لكي يتشربوا معاييرها ، ثم يفوقوها . »

وقبل ان يفكر اليابانيون في الاخذ من أوربا فكروا جديا في العقيدة التي ستجمع الشعب في وحدة متراصة وكان اول عمل قامت به اليابان هو انها قضت على

(*) في مهب المعركة لمالك بن نبي ص 172 — 185 .

اصداء الثقافة والفكر

للأستاذ : محمد برادة

فضيحـــة مصطنعـــة

فى الشهر المنصرم عمد أحد صحفيـي مجلـة
راكب) القاهرية الى كتابة مسرحية بعنوان « الهواء
ود » ، ثم نسبها الى اديب سويسري وقدمها على
من ادب اللامعقول ، وقراتها لجنة مسرح الجيب
مة بنشر الانتاج المسرحي الجديـد ، فقرظتهـا
ادت بها .. وكتب اكثر من ناقد يحللها باعتبارهـا
ذجا من نماذج مسرح اللامعقول كما يتمثل عنـد :
ت ، ويونيسكو ، وتوفيق الحكيم ..

ولكن الصحفي ، مدبر اللعبة ، سرعان ما اعلن
المسرحية المنشورة ليست للاديب السويسـري ،
ما هي من انتاجه ، كتبها فيما لا يزيد عن نصـف
عة متوخيا من ذلك اثبات تمكن عقـدة النقـص من
اد العرب الذين ما يزالون يصفقون لكـل وارد من
ب ، ويحتقرون الانتاج المحلي ..

واغتنم عباس محمود العقاد الفرصة ليسخر من
اد الشباب فكتب يقول :

« هؤلاء النقاد المحترمـون اول مـن ينبغـي ان
اق الى « محكمة التزييف » لحماية الفكر الانساني
هذه الامة من وبال دعواه . واهون مـا يستحقـون
ه الجزاء الرادع انهم استخفوا بدعوى القيادة الفكرية
لا تكلفهم كثيرا ولا قليلا من العلم بأصول شيء من
نباء فى عالم الثقافة »

وانبرى الدكتور مندور يرد :

« ... تناولت كثيـر من الصحـف والمجـلات
ه الحادثة السخيفة وراحت تشهر بالنقاد وتتشفى
م ، بل واختلط هذا الاحتيال السخيف عند أديب
ر كالاستاذ العقاد باتجاه اللامعقول فى ذاته ، فكتب
مقالة ضافية يسفه النقاد ومذهب اللامعقول معـا
كد ان اصحاب اللامعقول والنقاد المعجبين بـه
يستحقون فى رايه الا ما يسميه بالنقد اليدوي ، اي
من وسائل الحاجة بين ادباء ونقاد وكتـاب يحترمون
انفسهم مثل الاستاذ العقاد » .

وقد ذكرتني هذه الحادثة باخرى تقرب منهـا
دبرها صحفي ناشىء سنة 1957 ، اذ جمع مقتطفات
من الكتابات الاولى لروائيين لامعين امثـال توفيـق
الحكيم ويوسف السباعي ومحمد عبد الحليم عبد الله،
ومحمود تيمور .. ثم عرضها عليهم ليبدوا فيها رأيهم
على اساس انها من انتاجه ؛ وكانت آراؤهم كلها تصف
تلك المقتطفات بانها فجة مفتقرة الى النضج .. ومـن
ثم استنتج الصحفي بان الاسم المشهور يغطي فى كثير
من الاحيان على ضعف صاحبه ، لانه يصبح بمثابـة
« الماركة المسجلة » ، يكفيه انه اثبت تفوقـه فى المرة
الاولى ولكن لعبة « الهواء الاسود » اخطـر من الاولـى
لانها تطرح اكثر من سؤال ... وأهم سؤال فى نظري
هو : هل يحق لرئيس تحرير مجلة ان يوافق على نشر
انتاج مزيف دون التاكد من كاتبه او وجود نصوصـه
باللغة المترجم عنها ؟

ان هدف رئيس تحرير مجلة الكواكب ـ خصوصا
وهي مجلة معروفة بابتذالها وحرصهـا على الاثارة ـ
ينحصر فى تحقيق ربح مادي ، لان من شأن « الفضائح»
ان تضاعف البيع ... الا ان عدم التمييز بين فضائح
« النجوم » والادباء يعد استهتارا بقداسة الثقافـة
ومهمة الصحافة ...

اما السؤال المتعلق بمسؤولية النقـاد وضرورة
معرفتهم للآثار التي يقيمونها ، فأعتقد ان من التعسف
مطالبتهم بقراءة كل ما يصدر ، وبأي لغة كان .. مـن
الطبيعي ان يشترط فى الناقد سعة الاطلاع ، والثقافة
الواسعة .. ولكن الاهم من ذلك توفـره على ملكـة
الملاحظة والمقارنة ، وتمثل مايقرأ ، ليستطيع ان يعكس
انطباعاته وآرائه فى صورة متزنة واعية .. وليس من
الضروري ان يقرأ مسرحية صـدرت بالالمانيـة او
الانجليزية ليكتب عنها عند ترجمتها الى العربية ، فهو

ويقول الكاتب ان « فى الاسلام مبادىء ثورية » فلما ذا اذن لم نتخذ تلك المباديء بداية لثورتنا ، فان كانت تلك المبادىء لم تطبق ككل الا فى فترة قصيرة فالعيب ليس عيب الاسلام ، ولكن عيب المسلمين ، الذين لم يستطيعوا المحافظة عليه ، كقوة دافعة ، وكقيم حضارية يعيشون فى اجوائها ويشيعونها فى الناس . ولكن ليس معنى ان ناخذ الاسلام مبدءا وعقيدة ان نغلق الابواب علينا ـ كما اراد الكاتب ان يستنتج ذلك من مقالتي السابقة ـ وانما ان تكون اكثر قدرة على الاستفادة الصحيحة النافعة .

وبعد ؛ فان لنا كل الامل فى ان تناقش مثل هذه الافكار وان يدلي كل واحد بما لديه بكل شجاعة وموضوعية وحسن نية وان نهيء الجو لذلك دون ان نتأسف لنشر بعض الافكار التي لاتعجب البعض منا . فقد تكون على الاقل تحمل بعض الصواب فى حين يحمل غيرها بعض الخطأ . ان هذا التأسف يعتبر وسيلة من وسائل ديكتاتورية الفكر والاستبداد بالراي اللذان ادتا بأروبا الى محاكم التفتيش التي لم تعرف ابدا فى تاريخ الاسلام .

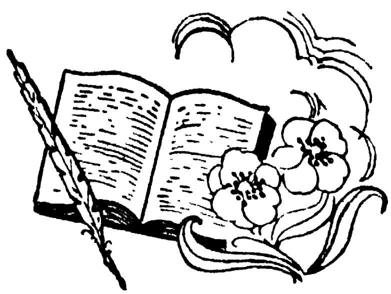
فافساح الصدر للافكار التي لا تعجبنا قد تؤدي بنا الى الوصول الى ما يعجبنا .

ولست فى حاجة الى القول بان كتابة الاخ محمد رنيبر تدور حول موضوعات قيمة يجب على الجميع ان يتضافر على معالجتها بقوة فى العزيمة ، واستقلال فى الفكر ، وعمق فى الفهم ، حتى لا نعود الى عهد يجسم فيه انحطاطنا وتدهورنا ، وحتى نصل الى ما نصبو اليه دون أن يبقى لبنا شاردا ! !

تطوان : عبد السلام الهراس

---

* نفس المصدر السابق ص 162 .



أنباء ثقافية

※ اجتمعت الجمعية العامة للجنة الوطنية لجغرافية المغرب بالرباط مؤخرا تحت رئاسة الاستاذ محمد الفاسي عميد الجامعة المغربية بحضور كثير من رجال الادارة والجامعيين المتخصصين وتباحثوا في بداية الامر في حالة تقدم « أطلس المغرب » واللوحات المعدة لهذا الاطلس في مختبر الجغرافية الفزيائية التابع لمعهد العلماء ، كما تباحثوا في اللوحات الخاصة بخرائط أصول المعادن التي هيأتها مصلحة الجيولوجيا التابعة لادارة المعادن بالرباط ، اضف الى ذلك لوحة خاصة بالطبقات الحيوية المناخية التي انجزها الاستاذ « سوفاج » وستنشر هذه الخرائط مباشرة عقب اصدار البيانات الموضحة لها . كما يوجد تحت الطبع خرائط كثيرة : منها خريطة خاصة بتوزيع السكان حسب الجماعات القروية ، وخريطة خاصة بتوزيعهم حسب النفط ، وخريطة ادارية مع بيانات عن الجماعات القروية ، وخريطة اخرى للدار البيضاء ، وقد شاركت اللجنة في وضع خرائط دراسية حائطية ، وهي في طريق نشر دليل جغرافي خاص بالمغرب لفائدة التعليم الثانوي ، وذلك في اطار تنسيق الدراسات الجغرافية المتعلقة بالمغرب .

※ عين أخيرا الدكتور المهدي المنجرة في منصب مدير ديوان المدير العام لمنظمة اليونسكو التي اعربت عن ابتهاجها بهذا التعيين الذي يعتبر مفخرة واعتزازا للمغرب . كما أشادت بكفاءة ونشاط هذا الشاب المغربي . وقد تم تعيينه في هذه الوظيفة باقتراح قدمه المدير العام لمنظمة اليونيسكو الى اللجنة الاستشارية لهذه المنظمة خلال اجتماعها الاخير ، والدكتور المنجرة أحرز على شهادة العلوم السياسية من جامعة كورنيل بنيويورك ، وحاصل على الدكتوراة في العلاقات الدولية من الجامعة الاقتصادية بلندن ، وقد سبق له ان تقلب في عدة مناصب مهمة في المغرب منها استاذ المؤتمرات بكلية الحقوق في جامعة الرباط ، ثم مندوبا للمغرب في الامم المتحدة برتبة مستشار في وزارة الشؤون الخارجية ، فمديرا عاما للاذاعة المغربية ، كما شغل منصب رئيس قسم افريقيا لدى مكتب العلاقات مع الدول الاعضاء في منظمة اليونيسكو

※ كلف صاحب الجلالة الملك المعظم المؤرخ المغربي السيد عبد الوهاب بن منصور بتنظيم معرض الوثائق الذي سيفتتح في باريس بمناسبة الزيارة الملكية التي سيقوم بها العاهل للعاصمة الفرنسية .

※ يعكف الاستاذ عبد الحق بنيس على نقل سلسلة « تاريخ العلاقات الدولية » للعلامة بيير رونفن الى اللغة العربية ، وسيصدر الجزء السادس منه قريبا ، وقد سبق لهذه المجلة ان اصدرت مقالا مترجما من هذا الجزء بعنوان « السياسة الدولية في سنتين 1901 – 1907 » لنفس المترجم في عددها السادس من هذه السنة .

※ صدر للاستاذ محمد داود الجزء الثالث من « تاريخ تطوان » بعدما صدر الجزآن الاول والثاني راجين ان تصدر الاجزاء الخمسة الباقية من تاريخ هذه المدينة .

※ نظمت سلسلة من المهرجانات الفلكلورية بأطلال قصر البديع في الاسبوع الاول من شهر يونيه الماضي سجلت نجاحا كبيرا .

※ في نطاق عمليات البناء التي تقوم بها وزارة التربية الوطنية بشتى اقاليم المملكة ، وقع الشروع في بناء عدة أقسام جديدة بثانوية مولاي ادريس بفاس لايواء التلاميذ الجدد الذين يقصدون هذه الثانوية كل سنة .

يستطيع بحسه وخبرته ان يدرك اتجاه الكاتب وآفاق تفكيره ، ويستطيع ان يموضعها بالنسبة لباقي الاتجاهات والظروف الصادرة فيها ..

من اجل ذلك فان فضيحة « الهواء الاسود » لا تعدو كونها زوبعة في فنجان ، وجهدا ضائعا لاثارة فضيحة مصطنعة ..

ولا يفهم من كلامي ان النقد العربي بخير ، وانه لا يعاني من الخلط والدخلاء .. بل انني اتمنى مخلصا ان يحتل النقد مكانته المستحقة ، وان يجتمع النقاد العرب في مؤتمر خاص ليتدارسوا المشاكل المطروحة، وليوضحوا المقاييس المبهمة ، متلما يفعله النقاد في معظم الاقطار الاوربية (*)

ناظم حكمت الشاعر الانساني

عند ما نعي ناظم حكمت الشاعر التركي يوم الاحد 2 يونيو ، كتبت عنه معظم الصحف والمجلات على اختلاف نزعاتها ، متفاضية عن كونه منتميا الى الحزب الشيوعي ، ورانية بموته الروح الشاعرية الرحبة التي عزفت الحانا ستخلد في مسمع الدهر .. فما هو سر هذا التقدير ؟

لعل مصدره ذلك الموقف الرائع العميق الذي اتخذه ازاء مشاكل وطنه وازاء مشاكل العالم اجمع.. فرغم انتسابه الى سلالة ناظم باشا ، أحد دعائم الامبراطورية العثمانية ، ورغم الترف والبذخ المميزان لطبقته .. فانه استطاع ان يتنصل من تلك العقبات « القبلية » ليلتحم مع السواد الاعظم من الشعب التركي الذي كان يبحث عن الخلاص من خلال ثورة كمال اتاتورك .. ثم بعد ذلك لتقويم الانحرافات الجديدة ، ورواسب عهد « الرجل المريض » .

ولكن ناظم الذي شهد في طفولته انهيار الامبراطورية العثمانية ، وعاصر في بداية شبابه قيام الثورة ثم مرحلة الخيبة .. سرعان ما اسرت مشاعره أصداء الحدث العظيم . الذي وقع بروسيا قريبا من حدود وطنه .. واذن فليعبر البحر الاسود ليعاين بنفسه ماذا يصنع في موسكو . وهناك توثقت صلته بشاعر الثورة السوفياتية مايكوفسكي ، وبالمذهب « المستقبلي » Futuriste ومعتنقيه .. فلم يعد مفهومه للشعر منحصرا في تنميق القصائد والحكم .. بل أصبح يؤمن — مثل أتباع هذه المدرسة — بان الشعر والحياة كلاهما في حاجة الى ان يصنع من جديد . بروح مغايرة للافكار العتيقة ..

وهكذا انكب ناظم حكمت يدرس الماركسية . ويتعمق في هضم تيارات المسرح الجديد .. فامتلأ ايمانا وحماسا بالرسالة التي تنتظره وهي احداث تغيير جذري في الادب التركي ..

واذن فليعد الى وطنه تركيا ليحمل مشعل التجديد والتغيير .. ليناصر المستضعفين ، ويغني لهم أناشيد الامل .. ولكن الرسالة التي عاد ليبشر بها تتعارض مع سياسة الحكومة ، فالقي عليه القبض ليمضي سبع عشرة سنة في سجن « بروس » الرهيب.

الا ان الشعر المجنح لم تكن جدران السجن السميكة لتحول بينه وبين الافئدة المتعطشة لاغاني الحرية والثورة .. وسرعان ما ذاعت داخل تركيا وخارجها لتبوأه مكانة عالمية بفضل الطابع الانساني الذي يشع من تجاربه وصوره .. تلك المكانة التي حذت بكتاب وأدباء العالم الى تنظيم حملة عالمية تطالب باطلاق سراحه .. وتكللت الحملة بالنجاح وخرج البلبل الفريد من قفصه ليعانق الجماهير التي أحبها من اعماقه .. ولكن الوضع حتم عليه ان يعيش في المنفى ، فرجع الى موسكو حيث حصل على حق المواطنة السوفياتية .. وحيث ظل الى آخر حياته واعيا ، متحررا ، جسورا على الملاحظة والنقد ، عزوفا عن العقائدية الجامدة ...

وقد شارك في جميع المؤتمرات الافريقية الاسيوية التي شارك فيها أثرا طيبا ، وقبسا خالدا من ثوريته..

وكانت كل اشعاره تنضح بحب الانسان اينما وجد ، وبالايمان العميق في غد مشرق قوامه العدالة والمحبة .. وهل هناك أقوى من هذا الايمان الذي يتجلى في الامنية التي تعبر عنها قصيدته :

« وصية » اذ يقول :

« يا أصدقائي اذا لم يقدر لي ان أحيا ذلك اليوم
« واذا ما مت قبل ان يشرق يومنا الآخر
« فاحملوا رفاتي الى « الاناضول »
وادفنوني باحدى مقابر القرية »

الرباط : محمد برادة

(*) سينعقد من 25 الى 27 يوليو بباريس مؤتمر الجمعية العالمية للدراسات الفرنسية ، وسيكون الموضوع الاساسي لهذا المؤتمر هو « النقد واشكاله » ومن بين الاعلام الذين سيشاركون في هذا المؤتمر جان ستاربونسكي ، وجورج بلان ، وجاتيان بيكون ، وكثير من أساتذة السوربون ...

..لك الدكتور بلوملي الاستاذ بجامعة كمبردج والدكتور دلف كلاستر الاستاذ بجامعة ليدن اللذان سافرا الى القاهرة فى رحلة اكتشافية .

* انتهت الكاتبة حنفية فتحي من كتابة قصة طويلة بعنوان « بيت العنكبوت » عالجت فيهـا مشكلـة أولاد البيت عند ما يزحف اليهم العمر بسنواته وعقده .

* اصدر الاستاذ عباس خضر كتابا عنوانـه « صحافيون مصريون » تناول بالدراسة فيـه هـؤلاء الصحافيون : مصطفى امين ، علي امين ، محمد التابعي، محمد زكي عبد القادر ، كامل الشناوي ، فكري اباظة ، احسان عبد القدوس ، يوسف السباعي ، جـلال الحمامصـي .

* دفعت الشاعرات الثلاث المصريات وهن : عزيزة كاتو ، فالوري عبد المالـك ، نسريـن عبـد الحـي ، دواوينهن الاولى الى المطبعة وكلهن من الاسكندرية .

* « مرفأ الذكريات » أول ديوان سيصدر للشاعرة لورا الاسيوطي .

* يقوم الاستاذ فؤاد كامل بترجمة كتاب « المذاهب الوجودية » الى العربية للفيلسوف ريجس جوزيـف عميد كلية الدراسات الدينيـة فى ليـون ، ويتحـدث الكاتب عن اعمدة الفلسفة الوجودية الستة وهم : نيشة، كريكوجورد ، سارتر ، هايدجر ، مارسيل ، ياسبريس.

* اصدرت دار الهلال كتاب « تاريخ الحب ورسائله الخالدة » لابراهيم المصري وهـو من تأليف الكاتبـة الفرنسية مارسيل تينير مشتملا على طائفـة مختارة من اشهر رسائل الحب الخالدة وبعض قصص عالمية تعتبر من اروع قصص الحب فى الادب الغربي .

* يصدر قريبا كتـاب « ثمـرات الاوراق فى الادب والمحاضرات » لابن حجة الحموي تحقيق محمد ابـو الفضل ابراهيم .

* يعكف الاستاذ عبد الرحمان فهمي على كتابـة رواية تاريخية تدور أحداثها خلال حفر قناة السويس

* بدات لجنة الشعر فى الاعداد لمهرجان الشعـر الخامس الذي ينتظر عقده فى الصيف القادم .

* جرى اعداد دائرة معارف افريقيـة تصدرهـا اكاديمية العلوم بجامعة غانا ، وتقع فى 10 ملايين كلمة، وستظهر فى 17 جزءا باللغة الانجليزية والفرنسية ثـم العربية ، وقد اختير عبد المالك عودة ليكون رئيسـا للجنة التي ستحرر المقالات عن مصر والسودان .

* انتهى عبد الله الطوخي من كتابـة مسرحيتـه « طيور الحب » .

* طلبت وزارة الثقافة المصرية رصد مبلغ 50 الف جنيه تخصص لانشاء المبنى الجديد لمسرح الجيـب بدلا من المبنى المحترق .

* يقوم الدكتور عبد الكريم اليافي مع الدكتور عبد المنعم الشافعي بمراجعة ترجمة المعجم الديموغرافـي الذي اصدرته الامم المتحدة بالانجليزية والاسبانيـة ، وتفرر نشره بالعربية .

* فاز محمود دياب بنصف الجائزة الاولى للمسرحية فى المجتمع اللغوي بالقاهرة وعنـوان المسرحيـة هـي « البيت القديم » .

* نشرت جمعية اصدقاء سيد درويش كتابا بعنوان « فنان الشعب » مشتملا على 18 مقالا وقصيدة عـن سيد درويش باقلام عدد كبير من الادباء .

* اصدر الرسام عبد السميع عبد الله مجموعـة قصصية بعنوان « عصافير » .

* صدرت عن دار الطباعة بلبنان مجلة شهرية بعنوان « دراسات عربية » ساهمت بالكتابة فيها مجموعة من الاقلام من مختلف البلاد العربية .

* اصدر الاستاذ غالي شكري كتابه الجديد بعنوان « نجيب محفوظ » والكتاب تقييـم لقصـص نجيـب محفوظ منذ بدأ حياته الادبية فى سنة 1932 الى الآن.

* وصل الى الرباط السيد عصام سليمان مستشار لبنان الثقافي في افريقيا الشمالية حيث نظم بالاتفاق مع السلطات المغربية معرضا للكتاب اللبناني دشن يوم 30 ماي الماضي بقاعة كلية الآداب المغربية ، ودام هذا المعرض مفتوحا الى الثامن من شهر يونيه ، مشتملا على امهات الكتب والمؤلفات المطبوعة في لبنان ويدخل هذا المعرض في نطاق التبادل الثقافي بين المغرب ولبنان .

* افتتحت في الاسبوع الاخير من شهر ماي الماضي الدورة الثانية لمؤتمر المحامين في قصر العدالة بالرباط تحت رئاسة السيد احمد ابا حنيني وزير العدل وحضور عدد كبير من الشخصيات القضائية .

* ساهم المغرب في الحملة العالمية ضد الجوع باصدار سلسلة طوابع بريدية .

* اعلن في باماكو ان جائزه لينين للسلام ، ستمنح في هذه السنة للرئيس مودبيوكيتا رئيس الجمهورية المالية .

* انهى مؤتمر خبراء وكالات الانباء الافريقية الذي انعقد في تونس اعماله بالموافقة بالاجماع على التقرير الذي تضمن توصية الاعضاء بشأن النهوض بوكالات الانباء الافريقية ، وقد اشترك في المؤتمر ممثلو 23 دولة .

* صدر قرار عن الحكومة السورية بانها ستقدم الجزائر 1200 معلم ومعلمة لمساعدة الجزائر في ميدان الثقافة والتعليم .

* بلغت نسبة الاطفال الجزائريين الذين تم التحاقهم بالمدارس الابتدائية الجزائرية حتى الآن 90 في المائة من مجموع الاطفال الذين وصلوا الى سن الالتحاق بهذه المدارس ، وكانت نسبة تلاميذ هذه المرحلة لا تتجاوز 40 في المائة قبل الاستقلال .

* صدر مؤخرا بتونس كتاب عن الفقيد الطاهر الحداد بعنوان « الطاهر الحداد » ، يهتم القسم الاول باطوار حياة الرجل والقسم الثاني بتراثه .

* قررت اللجنة الثقافية القارة للجامعة العربية عقد ندوة صحافية بتونس في شهر غشت القادم للبحث في الارقام العربية واستعمالها وفي توحيد التواريخ الهجرية حتى يكون اليوم الاول من كل شهر قمري نفسه بالنسبة لجميع البلدان العربية .

* عقد في الشهر الماضي بتونس مؤتمر الآثار حضره وفود من جميع البلدان العربية وبعض المستشرقين .

* أصدر الدكتور محمد النبوي المهندس وزير الصحة بالقاهره قرارا بتشكيل لجنة انشاء متحف دائم في القاهرة بتاريخ الطب المصري والعربي .

* ستصدر الجمعية الادبية المصرية في القاهره مجلة أدبية شهرية .

* يصدر قريبا المجلد الاول من ديوان البحتري الذي يقوم بتحقيقه حسن كامل الصيرفي وتنشره دار المعارف بالقاهرة ، والديوان في اربع مجلدات ، وقد تم تحقيقه على 15 مخطوطة .

* صدر في القاهرة كتاب « دراسات في الكتب والمكتبات الاسلامية » للدكتور عبد اللطيف ابراهيم مشتملا على خمسة بحوث من واقع الوثائق العربية في العصرين المملوكين والعثماني في مصر مع مجموعة من اللوحات والمخطوطات والوثائق .

* اكتشفت بعثة مصلحة الآثار التي تعمل في منطقه اسوان 37 مقبرة أثرية بجوار فندق كتراكت وثلاث مقابر بمنطقة جبل « تاقوت » من بينها مقبرة منحوتة في الحجر الرملي ، وبقايا عشرة توابيت على شكل انسان ، وعثرت بعثة المصلحة التي تعمل في منطقة سنحا بمحافظة كفر الشيخ على كثير من التماثيل النيسانى والبرونور يمثل الآلهة المصرية وعددا من الاواني الفخارية التي ترجع الى العهدين اليوناني والروماني .

* « الاتصال بالجماهير » هذا كتاب جديد من تأليف اربك بارنويتناول وسائل الاتصال بالجماهير

* • اكتشفت في منطقة النوبة بوابة رومانية وبعض المباني والادوات المنزلية المصرية القديمة ، وقد صر

* ترجم الاستاذ نبيه صقر الى العربية كتاب « الوضع البشري » لاندريه مالرو .

* صدرت في بيروت حديثا الترجمة العربية لرواية « فونتمارا » للمؤلف الايطالي اينيا تسيو سيلونه التي قام بترجمتها عيسى الناعوري .

* « كان لي قلب » مجموعة شعرية للشاعر راضي صدوق صدرت عن دار الكتاب العربي ببيروت بتقديم فدري قلعجي .

* فرغ نهاد رضا من وضع كتابه الجديد « الادب الملحمي في القرون الوسطى » ويشتغل الآن في وضع كتاب عن « الاب الفرنسي في عصر النهضة » وصدر له من قبل « الادب الثوري في القرن الثامن عشر » .

* صدرت مجموعة شعرية بعنوان « ظلال » للشاعر شمس الدين .

* سيصدر لصاحب « درب القمر » الفقيد فؤاد سليما كتاب جديد بعنوان « القناديل الحمراء » .

* صدرت للروائي امين غراب رواية بعنوان « الابواب المغلقة » .

* افتتحت في أواخر الشهر الماضي ببيروت الدورة الثانية للمؤتمر الاقليمي لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتكنولوجي واشترك في هذا المؤتمر الذي يرعاه منظمة اليونيسكو 12 دولة من بينها المملكة المغربية .

* يصدر الاديب اللبناني نبيل خوري مجلة شهرية بعنوان « قصة » ستكون مخصصة في نشر الانتاج القصصي العربي والاجنبي الى جانب الدراسات النقدية حول القصة .

* يصدر قريبا الاديب المصري المقيم في لبنان كتابا بعنوان « فلسفة لعصرنا الحاضر » وآخر كتاب صدر لرينه حبشي هو « حضارتنا على المفترق » .

* الشاعر المهجري الياس فرحات يصدر له في الايام الاخيرة ثلاثة دواوين هي : « موشحات برازيلية » و طليعة الشتاء » و « فواكه رجعية » .

* يعد الكاتب العراقي ابراهيم السعيد كتابا بعنوان « رجال من الشرق » مشتملا على دراسات عن احمد لطفي السيد ، وعادل زعيتر ، وشكيب أرسلان ، ومصطفى صادق الرافعي ، ومحمد اقبال ، وابراهيم صالح شكر .

* « كلمات » ديوان صدر حديثا للشاعر العراقي رشيد الاعظمي .

* اقيم في المركز الثقافي العربي بحمص مهرجان تخليدا لذكرى الشاعر المهجري نسيب عريضة عضو الرابطة القلمية في نيويورك برعاية وزير الثقافة العراقية

* كتاب « الحضارة الاروبية » لكلود دلماس قامت بترجمته الى العربية كوليت حبيب وقرينة الدكتور فؤاد ايوب .

* اوشكت مطابع دار الاصفهاني بجدة على الانتهاء من طبع كتاب عبد القدوس الانصري تحت عنوان « تاريخ مدينة جدة » .

* من المنتظر انشاء لجنة قومية لهيئة التعليم والثقافة الدولية وسيكون مقر هذه اللجنة في وزارة المعارف بالرياض ، وذلك لتوثيق التعاون بين السعودية وهيئة التعليم .

* صدر عن دار الثقافة الاسلامية بالرياض الجزء الاول من كتاب « احاديث الجمعة) للشيخ عبد الله بن حسن القعود .

* ستصدر مجلة جديدة للابحاث والدراسات عن معهد الادارة العامة بالسعودية .

* صدر في عمان الجزء الثاني من المجموعة الكاملة لمؤلفات الفقيد خليل السكاكيني ، وقد صدر الجزء الاول من هذه المجموعة في السنة الماضية .

* توفي اخيرا الفيلسوف الطبيعي الالماني فريدريش ديساور في فرانكفورت عن 72 سنة .

* ستصدر في فرانكفورت مجموعة أشعار للشاعر السوري نزار قباني باللغة الالمانية .

* ترجم الاستاذ مجاهد عبد المنعم مجاهد الى العربية مجموعة من القصص القصيرة للكاتب التشيكي المعروف فرانز كافكا .

* اصدر الدكتور حسين عمر مؤلفا بعنوان « الانتاج في المجتمع الاشتراكي » .

* انتهى انور كامل من ترجمة كتاب «الايام السعيدة» لصمويل بكيت .

* مجلتان ادبيتان جديدتان تصدران عن وزارة الثقافة المصرية هما : « الثقافة » وبرأس تحريرها عبد المنعم الصاوي و « مجلة المسرح » ويرأس تحريرها الدكتور علي الراعي .

* كرم شلبي ومجدي نجيب انتهيا من تاليف ديوان من الشعر العامي بعنوان « مختارات من الاعمال المصرية » .

* بلغ عدد اللوحات القطبية الاثرية الملونة التي عثرت عليها بعثة الآثار البولندرية في قرية فرس في بلاد النوبة 123 لوحة ، وهذه اللوحات التي عثر عليها تشبه تلك التي عثر عليها مرسومة فوق طبقة جصية اخفت نقوش الفراعنة في معابد ابو عودة ووادي السبوع

* اصدر الاستاذ عبده بدوي كتابا عن « الشعر الحديث في السودان »

* « ايام في الشرق الاقصى » كتاب جديد صدر للاديب السعودي علي حسن فدعق وذلك عن دار منشورات عويدات ببيروت .

* سيعقد في لندن من 19 يوليو الى 2 غشت مؤتمر دولي يتناول شؤون الفنيان الاحداث ، وينتظر ان يفد اليه 500 مندوب ينتمون الى اربعين دولة ، وتنظم هذا المؤتمر « رابطة أصدقاء العالم » .

* « والحب والحياة : غراميات تاريخية » عنوان الكتاب الذي صدر لسمير شيخاني في لبنان .

* صدر عن كلية الآداب في الجامعة الامريكية كتاب باللغة الانجليزية تحت عنوان « خليل جبران : اطاره . شخصيته ــ اعماله بتقديم الدكتور نبيه امين فارس

* اصدر الشاعر اللبناني جورج غريب كتاب « سعيد عقل والغزل الخلاق » .

* يعكف الدكتور أنطون غطاس كرم على كتاب مؤلف عن « الشعر العربي في المائة سنة الاخيرة ، بملحق من نماذج هذا الشعر .

* قدم للطبع الاستاذ غسان كنفاي مجموعة قصصية بعنوان « أرض البرتقال الحزين » مستوحاة من مأساة فلسطين .

* سيصدر في لبنان في الشهر المقبل كتابان للاستاذ نور سليمان ، احدهما رواية ، والآخر مجموعة من الابحاث النقدية في الادب .

* صدرت عن دار الكتاب العربي ببيروت مجموعة قصص « 13 قصة » القاص عاصم الجندي .

* يعد القاص الياس الديري قصة بعنوان «الرجوع» بعد ما صدرت له قصتان اسمهما « الرجل الاخير » و « جدار الصمت » .

* « أبدا في رحلة » ديوان صدر في بيروت لمؤلفه انطوان رعد .

* « أصوات الادب » عنوان كتاب اعده للطبع الاستاذ عبد الله محمود تناول فيه بالدراسة بعض أديبات العالم العربي والاوروبي .

* « الجنة العذراء » رواية من تاليف عبد الحليم عبد الله صدرت في هذا الاسبوع ببيروت

* ظهر في بيروت رواية « ثمن الخطيئة » لمؤلفها نجيب البعيني بعد ما صدر له من قبل كتاب « دموع الوداع » .

* سيقدم للطبع الشاعر اللبناني فؤاد الخشن ملحمة بعنوان « أدونيس وعشتروت » بعد ما صدر له ديوان منذ اربع سنوات بعنوان « سوار الياسمين »

فهرس العدد الثامن والتاسع ـ السنة السادسة

صفحة

* صدرت قصة « العيب » ليوسف ادريس باللغة الروسية في موسكو .

* توفي الشاعر الكبير ناظم حكمت .

* بمناسبة مرور خمس سنوات على تنفيذ اتفاقية التعاون الثقافي في القاهرة وموسكو ، سيقام معرض فني فوتوغرافي في هذا الشهر في كل من القاهرة وموسكو .

* نعت باريس موسيقارها فرانسيس بولينك عن 64 سنة .

* توفي القاص البوليسي جان بروس المشهور بقصصه البوليسية كما توفي في نفس العاصمة الروائي الفرنسي هنري بورد عن 93 سنة وهو عضو الاكاديمية الفرنسية .

* احرز الكاتب الامريكي المشهور السيد ايلي ويزيل على جائزة الطابع العالمي للغة الفرنسية .

* سيعقد في اسبانيا في شهر سبتمبر المقبل مؤتمر للطب تحت اشراف الهيأة الدولية التابعة للامم المتحدة ، وسيحضره الف خبير من جميع دول العالم

* عقد في قرطبة ما بين 12 و 18 من شهر ماي الماضي مهرجان ثقافي اسلامي بمناسبة مرور الف سنة على ميلاد الاديب الاندلسي ابن حزم ، وقد اقيم في المهرجان عرض مسرحيات توفيق الحكيم مع انواع شتى من الرقص العربي والاغاني العربية على يد جمعيات نسوية وادبية من مختلف الاقطار العربية ، كما القيت فيه عدة محاضرات عن كبار العلماء والادباء القرطبيين .

* صدرت في اربعة اجزاء بايطاليا « دائرة معارف حضارات الشرق » وتعتزم اللجنة القومية التابعة لليونيسكو في ايطاليا بنقلها الى اللغات الاخرى .

* ابتكر في بريطانيا جهاز الكتروني شرع الآن باستخدامه في ميدان التعليم في المدارس الابتدائية اخترعه استاذان بالتعاون مع مهندس فني خبير في المعدات الالكترونية ويمتاز هذا الجهاز بالطريقة السهلة التي يقوم عليها في تلقين الدروس وحل العمليات الموجهة اليه بشكل اسئلة تكتب على شريط خاص وهو يعطي الجواب عن كل منها بوضوح ، وعمق مع شرح ضاف وتفصيلي بسرعة البرق الخاطف ، مما يجعل الطلاب يفقهون الدرس بصورة حسية توفر لهم عناء الجهاد والبحث .

* تم اكتشاف جبلين تحت مياه المحيط الهادي اولهما يشبه البركان الشهير الموجود بجزيرة «كوكس» واطلق عليه نفس الاسم ويبلغ ارتفاعه 13 الف قدم وتقع قمته على عمق الفي قدم من سطح الماء ، والثاني اطلق عليه جبل « اونيتك » ويبلغ ارتفاعه سبعة آلاف قدم غربي سومطرة ، والمعتقد أن الجبلين جزء من قاعدة كبيرة اندثرت في اعماق المحيط .

* « الدراسات العربية في المانيا : تطورها التاريخي ووضعها الحالي » ، عنوان كتاب صدر في بيروت لمؤلفه البرت ديتريس أستاذ الدراسات الاسلامية في جامعة غوتنفن .

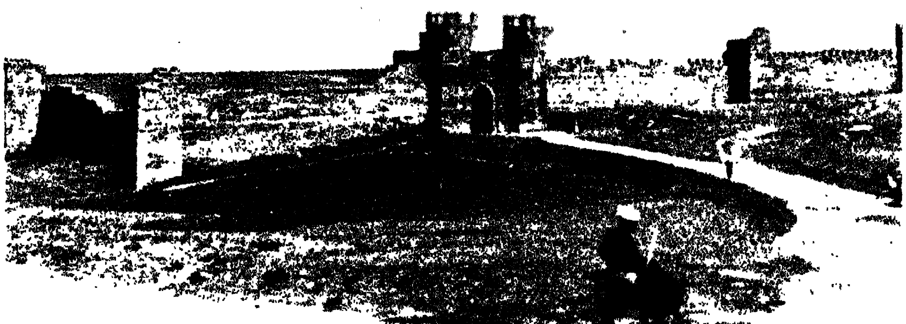
* توفي في الشهر الماضي المؤرخ الامريكي والتر برسكوت ويب عن 75 سنة في حادثة سيارة .

* من المشاريع الجديدة التي ينوي المجلس الاداري للمركز الاسلامي بواشنطن ادخالها اليه هي : دعم برنامج تبادل المحاضرات ، والكتب بين المركز ومختلف الجامعات الامريكية ، كما ينوي المركز أيضا انشاء متحف يبرز خصائص الاسلام وحضاراته وآدابه لزوار المركز الذي يقدر عددهم بمليون شخص في السنة ، كما يعتزم المركز ايضا اصدار مجلة اختصاصية اربع مرات في السنة لنشر أبحاث اسلامية ، وقد ذكر مدير المعهد المذكور في هذا الصدد : ان الغاية من نشاط المعهد هو تعزيز العلاقات الطيبة والتفاهم المتبادل بين الولايات المتحدة والعالم الاسلامي .

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف
الرباط المغرب الأقصى



العدد العاشر - السنة السادسة
صفر 1383 - يوليوز 1963
ثمن العدد 1.50 درهم

المجتمع الإسلامي وأهدافه

للدكتور محمد البهي

المجتمع :

ليس أي مجتمع انساني هو اجتماع عدد من الناس ، مهما كان عددهم ، في رقعة واحدة . وانما يكون المجتمع الانساني حيث يكون هناك هدف للذين يوجدوا في رقعة واحدة من رقع الأرض . ولهذا ليس المدائن مجتمع ، وهم يحسب مجموعة من الناس ، يظلون مجموعة لا يربطهم رابطة ما سوى أن يسعى كل واحد منهم لأن يعيش ، أي أن يأكل ، ويشرب ، ويسكن [illegible] حسبما . حتى اذا اجتمعوا على هدف صاروا مجتمعا من المجتمعات الانسانية .

والهدف في المجتمع الانساني يسمو فوق رغبات الأفراد ونزواتهم . ولذلك يضحون بمصالحهم جميعا في سبيل الهدف الذي هو أساس المجتمع .

قد يكون « السيادة » مثلا هدفا لمجتمع ، وقد يكون « التحرر » من الخضوع لسيادة الغير هدفا لمجتمع آخر . وبما أن الانسان في انسانيته مع فرد آخر يحب دائما أن يسود عليه ، ويحب مناضلة من أجل أن يتخلص من سيادته . وكذلك المجتمعات الانسانية في علاقتها وحاجتها تكشف أو تعني ذاتها : مجتمعات اما من أجل السيادة والغلبة ، أو من أجل التخلص من سيادة الغير وسيطرته . اذ أن الأهداف التي يسعى اليها الفرد في الحياة الخاصة المتصلة مع غيره هي ذات الأهداف التي يسعى اليها المجتمع في حياته العامة كمجتمع . والفرد يكمن فيه قوى عديدة ، أو غرائز كثيرة ، ولكنها ترجع في النهاية الى المحافظة على كيان وجوده ، وذلك اما بعنايته ذا قوة مرهوب الجانب ، أو ذا نضال وكفاح ضد من يستذله ويستضعفه .

المجتمع الاسلامي :

والمجتمع الاسلامي انما وجد لهدف هو أن يحرر المجتمع وأن يسود أو بعبارة أخرى أن يتخلص من ضعف ويكون ذا قوة وشوكة . والمجتمع الاسلامي ليس مجتمعا ذا رقعة معينة ، ولا ذا جنس انساني واحد . هو مجتمع البشرية كلها . ومن ثم قام ووجد لتحرر البشرية من رق الخرافة والكهانة ، ومن الاعتقاد في « الصدفة » و « التخبط » ، والاعتقاد في الأصنام والأوثان ، ومن الشرك في العبادة والايمان . وهو أيضا وجد من جانب آخر ليبقى متحررا من ذلك كله ، وليبقى ذا سيادة وقوة : ذا سيادة على الطغيان والاستعباد ، ذا سيادة على ارتكاب الفواحش والموبقات ، ذا سيادة بأداء الواجب ، وذا قوة في النفس والضمير ، يبعث الخير ويصنع ما يريح ويسعد النفس البشرية كلها .

والمجتمع الاسلامي اذن هو مجتمع تحرري : مجتمع خلقي .

الايمان بوحدانية الله :

ولكي تتحرر الانسانية من صور الضعف والاستذلال في جانب الاعتقاد والتوجيه أوجب الاسلام أن تكون عبادة الانسان في المجتمع الاسلامي — الذي يشكل المجتمع الانساني التحرري — لله وله وحده من غير أن يكون له شريك فيها . والله الذي يجب أن يعبد وحده : هو الكمال المطلق في الوجود : « الله لا اله الا هو له الأسماء الحسنى » . والأسماء الحسنى التي لله سبحانه وتعالى هي صفات الكمال التي يستحق من أجلها أن يكون ربا ومعبودا : « ذلكم الله ربكم . لا اله الا هو . خالق كل شيء ، فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف

العدد العاشر
السنة السادسة
صفر 1383
يوليوز 63
ثمن العدد
1,50 د

دعوة الحق

مجلة تصدرها
وزارة
عموم الأوقاف

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف . الرباط - المغرب

صورة الغلاف



سور شالة ، المدينة التاريخية القديمة التي ترك فيها الرومان العرب آثارا خالدة

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة ((دعوة الحق)) — قسم التحرير — وزارة عموم الأوقاف
الرباط — المغرب . الهاتف 10 — 308

الاشتراك العادي عن سنة 15 درهما . والشرفي 30 درهما فأكثر .

السنة عشرة أعداد . لا يقبل الاشتراك إلا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
مجلة ((**دعوة الحق**)) رقم الحساب البريدي 55 — 485 — الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

أو تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة ((**دعوة الحق**)) — قسم التوزيع — وزارة عموم الأوقاف
الرباط — المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الإعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالإعلان يكتب إلى :
((**دعوة الحق**)) — قسم التوزيع — وزارة عموم الأوقاف — الرباط
تليفون 10·308 — 03·327 — الرباط

لا ! الايمان بالله لا يمنح المجتمع الاسلامي مثل هذه السلطة ؛ بل على النقيض كما ذكرنا يدفع افراده الى التحرر مما يعوق عن العمل والتفكير والسعي والتقويم ، ووجود سلطة لها طابع العصمة فيما ترى وتحكم ، وطابع النيابة عن الله فيما تتصرف وتوجه ، من شأنه ان يعوق عن العمل والتفكير والسعي ، لانه سيصبح عمل الانسان وتفكيره وسعيه مربطا بما ترى هذه السلطة ، وهي سلطة مهما قيل فيها يمارسها فريق من الناس قد تكون لهم حزبية وهوى وغرض . وعندئذ يصبح الانسان وغرضه وحزبيته ـ دون الصالح العام ـ قانونا لا يراجع وأمرا لاتنافس قداسته، وما الشرك بالله الا صورة من صور هذه السلطة . ومكان الشرك في التعاليم الاسلامية تحدده مثل هذه الآية الكريمة : « ان الله لا يغفر أن يشرك به . ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » .

واذن الايمان بالله وحده الذي تدعو اليه الاسلام، وتصر عليه ، تتعارض مع قيام سلطة دينية الهية على هذا النحو . ومن هنا من نتحدث عن دين وحده ودولة وحدها في الاسلام او في المجتمع الاسلامي نتحدث عن شيء غريب عن طبيعة الاسلام . وهو تحديثه هذا حكي تقليدا للكنيسة الرومانية الكاثوليكية في القرون الوسطى عندما كانت تسوس المجتمع المسيحي الاوربي باسم الاله . ومنحت رجالها العصمة في القول والفعل . وفرضت الطاعة المقدسة على من عداهم في هذا المجتمع لهؤلاء النواب عن الاله والمشاركين له في العصمة وهم رجال الكنيسة .

الاسلام يعرف فحسب مجتمعا انسانيا يؤمن بالله وحده . وبالرسالة التي نزلت على صاحب الدعوة الاسلامية محمد بن عبد اللهعليه الصلاة والسلام .

(2) الخلقية الدينية او الضمير الديني

واذا كانت الوحدة في الايمان بالله هي هدف المجتمع الاسلامي وفي الوقت نفسه هي العامل الاساسي في تكوينه ـ فان الخلقية الدينية او الضمير الديني عامل في بقاء هذا المجتمع ، وعامل في تماسكه وتعاونه .

والخلقية الدينية هي استطاعة نفسية تتكون عند المؤمن بالله تصدر عنها تصرفات لها طابع الانسجام مع معالم الرسالة التي جاء بها صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام . وهي اذن كما تقوم على وحدة الايمان بالله تقوم أيضا على الايمان برسالة الرسول وما جاء فيها . وهناك عامل آخر في تكوينها يضاف الى هذين العاملين وهو الايمان بالجزاء في الآخرة . والايمان بالآخرة وما يتم فيها من جزاء يبعث الحيوية واليقظة باستمرار في أن تؤدي الخلقية الدينية وظيفتها من العمل طبق ما آمن به الانسان . وفروع الايمان الثلاثة : الايمان بالله ، والايمان بالرسول وبما انزل عليه من وحي هو مضمون رسالته . والايمان باليوم الآخر وما يقع فيه من جزاء ـ تذكرها فاتحة سورة البقرة في قول الله تعالى : « الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما انزل اليك ، وما أنزل من قبلك . وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » فوصف الذين يؤمنون بهذه الانواع الثلاثة بانهم هم المتقون . وبانهم على هدى من ربهم . وبانهم هم المفلحون الناجحون . فالايمان بالغيب في مقدمته الايمان بالله . لانه لاتدركه الابصار . وهو يدرك الابصار . وهو اللطيف الخبير . والايمان بما انزل هو الايمان بالوحي والرسالة الالهية . والمعرفة اليقينية بالآخرة هي الايمان بها في صورة مؤكدة . وفي سورة النساء يعبر القرآن الكريم عن هذه الفروع الثلاثة من الايمان تعبيرا آخر فيطلب الايمان بها ثم يصف من يكفر بها بانه قد ضل ضلالا بعيدا : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذي نزل على رسوله . والكتاب الذي انزل من قبل . ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » .

وهذه الخلقية الدينية التي تقوم على عناصر الايمان الثلاثة هي التي تدفع الانسان الى حسن السلوك . والى الاستقامة ، والى التعاون والتآخي بين الافراد . ودفعها الى ذلك دفع ذاتي لا يحتاج الى محرك خارجي ولا الى رقابة خارجية . اذ السلطان عنه هو الاعتقاد الذي يحمله المؤمن بين جنبيه . والفرق بين المؤمن الذي يحمل في نفسه القوة الدافعة الى العمل المستقيم والتعاون مع الغير . وبين القانون الذي يضعه المجتمع ويفرضه بقوة الحراسة وهي القوة التنفيذية ـ الفرق هو أن سلطان القانون وما يصحبه من قوة تنفيذية خارج عن الانسان ومفروض عليه . والانسان في المجتمع المدني الحديث ، وهو المجتمع صاحب القانون الوضعي وصاحب السلطة التنفيذية ، يعمل بدفع هذه القوة الخارجة عنه . ولو تهاون هذا المجتمع في تطبيق القانون يوما ما ، او خفت

الخبير » . فهو واحد مطلق في انه خالق كل شيء ، وهو واحد مطلق في انه لايحد بالبصر . هو فوق كل الكائنات المحسة جميعها .

والايمان بالله وحده هنا هو النقطة الفاصلة في حياة الانسانية : بين ضعف في الاعتقاد والتصور يجب ان يمضي الى غير رجعة ، وقوة مترقبة في الانطلاق نحو المثل العليا . وهو القيم الكاملة . والسعي نحو الاقتراب منها يجب ان يتحقق . اذ بالايمان بالله وحده ، اي بالكمال المطلق في الوجود يتخلص الانسان من ان يسخر نفسه في ارتباطه في العبادة بالكائن المحس : يتخلص من الرق لمن هو دونه في الخلق او لمن هو مثله . وكرامة الانسان تقتضي ان يكون في عبادته متوجها الى من هو فوقه . وليس هناك فوق الموجودات جميعها الا الله الذي « ليس كمثله شيء » .

عبد الانسان في القديم الحيوان ، وعبد الصنم من الاحجار ، وعبد الانسان . « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون » .

عبد الانسان من دون الله ما احصيناه وما لم نحصه ، وربط مصيره في الحياة بتلك الكائنات الارضية التي لا تسمع الدعاء وان سمعته فلا تجيبه لعجزعن الفهم او عن التصرف .

جاءت رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام بالدعوة الى الايمان بالله وحده . وقد كانت هي دعوة الرسل السابقين قبل تحريفها من الدعاة اليها : « وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه : انه لا اله الا انا فاعبدون » — جاءت بهذه الدعوة لتعيد الى الانسان قيمته ، لتصحح له وضعه في الحياة والوجود : « وهو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا » « الم تر ان الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » . ووضعه في الحياة هو الوضع الذي هيء لصاحبه ما في الارض جميعا وسخر له ما في السموات وما في الارض من جبال وانهار ومن بر وبحر وجو ، واحيط بما في ذلك كله من نعم وقف عليها او هو في سبيل الوقوف عليها مما لم تنكشف له بعد « ظاهرة وباطنة » .

وكان وضعه في الحياة والوجود هذا الوضع لانه المخلوق الذي اعد بطبيعته للانتفاع بالوجود « الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدا خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة . قليلا ما تشكرون » فبجانب الحياة « ونفخ فيه من روحه » ، وهي الطاقة على الحركة والسعي التي زودت بها طبيعة الانسان كأي كائن حي — كان السمع والبصر وهما اقوى وسائل الحس في الادراك للمشاهد . وكان الفؤاد وهو شعار القلب مركز الايمان والاعتقاد . وشعار العقل مصدر الادراك والتصور لما غاب عن الحس والشاهد . وبالسمع والبصر والفؤاد تميز الانسان ، ومن اجل تميزه كان له هذا الوضع الخاص في حياة الوجود كله الذي أرادت رسالة الاسلام — عن طريق الدعوة الى الايمان بالله وحده — أن تعيد اليه الوعي والشعور به .

فالدعوة الى الايمان بالله وحده اذن تنطوي على تعريف الانسان بمنزلته ووضعه وقيمته في الحياة . ومن الكرامة للانسان . كمخلوق متميز على ما عداه من المخلوقات ، ان يعرف وضعه الصحيح وقيمته الذاتية . ومن المهانة له . والسخرية منه . والاستخفاف به أن يبقى في دائرة ما انحدر اليه في الاعتقاد من عبادة غير الله ممن هو دونه او مثله في الخلق .

وهي اذن دعوة الى التحرير والتحرر : دعوة الى « العزة والكرامة » دعوة الى الانطلاق في الوجود . والكشف عن خفيه قبل واضحه لانه سخر له من خالق الكون كله ، وهو الله . ما في السموات من أجواء وعوالم وما في الارض باطنها وظاهرها .

والمجتمع المؤمن بالله وحده هو المجتمع الانساني المتحرر . هو المجتمع الذي فصل في وعي ويقظة بين الانسان ككائن مخلوق متميز وبين كائنات اخرى بعدها مسخرة له . والمجتمع الاسلامي هو المجتمع المؤمن بالله وحده .

واذن هدف المجتمع الاسلامي — لانه المجتمع الذي آمن بالله وحده — هو التحرر مما يحط بكرامة الانسان ، ومما يقعده عن الانطلاق والسعي في الحياة ، ومما يعوقه عن أن يكون صاحب سيادة في ارض الله وسمائه .

والمجتمع الاسلامي بايمانه بالله هو مجتمع انساني ويظل مجتمعا انسانيا . ليس مجتمعا «دينيا» بمعنى أن القوامة فيه لطبقة تعلو عن الناس الباقين وتقل درجة عن الاله ، وهي الطبقة التي يدعى لها أن الامر قد وكل اليها من الاله ، وانها بناء على ذلك تتصرف بمشيئته وحكمها لذلك حكم له صفة القداسة وطابع الالزام من غير مراجعة . كما كان الشأن في القرون الوسطى أيام حكومة الكنيسة الرومانية في القطاع الاوربي .

يكون في استمتاعه بهذا الجانب ، وفي تحصيله الدنيا ، قاصدا وجه الله . ومعنى وجه الله في ذلك أن لاينحرف بالدنيا الى الفساد والاعوجاج ، أي لايتخذ مما يحصل عليه من جاه الدنيا وما لها وسيله لاثارة العبث والفساد في المجتمع ، وهذا معنى قول الله : « ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين » .

أما في دائرة المجتمع ، أي في دائرة علاقه الفرد بالفرد فان الاسلام وضع نظاما للاسرة ، وهي أقل وحده من وحدات المجتمع ، وضع نظاما للتزاوج والزوجية ، أي لاشراك فردين في حياة واحدة لغاية واحدة ، ونظامه في هذا لا يقضي على فردية الاثنين . ولا يطلب صهر احدهما في الآخر ، لانه يعلم أن الخصائص الفرديه ، وهي ما لكل فرد على حده ، باقيه لا يمكن أن تفنى ولا ان تذوب في خصائص فرد آخر . وكل ما طلبه الاسلام في هذا الشأن هو ان يكون هناك انسجام وتعادل بين الطرفين ، لا يطغى أحدهما على الآخر ، ولا يستهين أحدهما بالآخر ، ولا يذل أحدهما الآخر ، وانما يسيران جنبا الى جنب كما تسير الاجزاء المتناسقه في وحده واحده . ومن هنا جعل لكل من الطرفين في الزوجيه حقوقا وواجبات . « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجه » . فالمماثله في الواجبات والحقوق اذن قائمه بين الاثنين . أما هذه الدرجه التي تذكرها الآية وتجعلها خصيصه أو ميزة في جانب الرجل فليست الا تلك القوامة التي تشير اليها الآيه الاخرى : « الرجال قوامون على النساء » . وهذه القوامه ليست عباره عن سلطه وسياده ، وانما هي قياده وتوجيه . ولم يجعلها الاسلام في جانب الرجل الا لان الرجل بحكم تكوينه في طبيعته ذو مسؤوليه في الحياه الخارجيه لا تستطيع المراه بحكم طبيعتها ان تقوم بها كقاعده وان أمكنها القيام بها على سبيل الاستثناء . اذ طبيعة المرأه بحكم أنها تحمل وتلد هي في رعاية حملها ، وفي جانب ولدها ، وهي من أجل ذلك لاتتفرغ للحياة الخارجية كما تتفرغ لها الرجل بحكم طبيعته . لذلك كان السعي لحفظ حياه الاسره وشئونها امرا يجب أن يتكفل به الرجل ويسأل عنه . واذ كان وضعه على هذا النحو فمن غير ما شك يجب أن تكون له قياده ، وأن تكون له توجيه . والحدود الاخرى التي وضعها الاسلام في معامله الرجل للمرأه تمنعه من ان يستغل هذه القوامة ، أو يسيء الى المرأة: «الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان» . فطلب الاسلام الاحسان في الابقاء على الزوجيه ، كما طلب هذا الاحسان نفسه فيما لو أراد الرجل أن يفارق امرأته . والمؤمن صاحب الخلقية الدينية ــ بحكم انه مؤمن وصاحب خلقية دينية ــ لايكون الا محسنا ، لا يستغل ولا يسيء استخدام ما وكل اليه من قيادة وتوجيه ، واذن قوامة الرجل هي محض توجيه واخلاص فيه لصالحهما معا .

ولم يشأ الاسلام ــ لانه يبقي على فردية الفرد ولا يدع أحد الاثنين ينصهر في الآخر ــ أن يجعل الزوج بحكم هذه القوامة مستغلا لزوجته فيما تعطي او فيما تملك أو فيما تعتقد وترى . شيء واحد يجب أن تحرص عليه المراه وهو ان لا تسيء عن طريق ما تملك او تعتقد الى زوجها ، الا تقصر في أداء ما عليها من واجبات كما انها لا تتوانى في المطالبه بما لها من حقوق .

واذا تجاوزنا دائره الزوجيه الى اسرة القرابه فاننا نجد الاسلام يطلب كذلك أن يكون هناك توازن وتعادل بين اسره الزوجيه . يقول الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذي القربى ... » . « وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا . اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما » . « ووصينا الانسان بوالديه احسانا » . فطلب الاحسان في معاملة ذي القربى ، واكد هنا هذا الطلب في معاملة الوالدين خاصه كما طلب الاحسان في معاملة احد الزوجين للآخر ، وهذا ضرب من الاحسان يمثل ارقى وارفع مستوى انساني في المعاملة ولا شك ان ما يتحمله الآباء في سبيل الابناء يوحي بانه ينبغي أن يكون موقف الابناء منهم على ما يطلبه القرآن الكريم .

أما الآباء في موقفهم من الابناء فلم يوصهم الاسلام هنا على نحو ما أوصى الابناء قبل الآباء لان الاسلام يعتمد على العلاقه الطبيعية بين الجانبين وهي علاقة قوية من جانب الآباء نحو الابناء ، ولا يماثلها في القوة علاقه الابناء بآبائهم . وكل ما أوصى به الاسلام هنا هو الا يفتتن الآباء بالابناء . يقول الله تعالى : « انما اموالكم وأولادكم فتنة والله عنده اجر عظيم . فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا وانفقوا خيرا لانفسكم » .

وهكذا ان تركنا اسرة الزوجية وأسره القرابة الخاصة الى القرابة البعيدة نجد الاسلام ينصح بالتعاطف والتراحم ، كما ينصح بأن يشرك الغني الفقير في ماله . يقول الله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ... الآية »

رقابة السلطه التنفيذية ، فان الفرد بدوره يتهاون فى اداء الواجب ، وهو ما يحتم عليه القانون أداءه وتفرضه عليه السلطة التنفيذية .

واذن فالمجتمع الذى لا يعتمد على قوة دينيه دافعة فى افراده ـ كالخلفية الدينية ـ يتوقف العمل الجماعي فيه على قوة السلطة التنفيذية ، وعلى دقة مراقبتها لتنفيذ القانون الذي وضع لهذا المجتمع . والدولة الحديثة ، تتحمل عبئا ثقيلا فى سبيل الحصول على مثل هذه القوة التنفيذية وعلى مثل هذه الدقة فى مراقبتها .

وفرد المجتمع الحديث يشعر دائما وأبدا بأنه مسوق ومدفوع بقوة القانون . ويشعر كذلك بأن حريته محدودة واختياره محدود ، لانه شبه مجبر على ما يعمل ويؤدي من عمل . بينما الفرد فى المجتمع صاحب الخلفية الدينية ـ كالمجتمع الاسلامي فى نظام تكوينه ـ لا يشعر بمثل هذا الضيق النفسي ، بل يشعر بأنه هو الذي يدفع نفسه وانه لذلك حر فيما يندفع اليه .

والحرية الفردية على هذا النحو فى المجتمع صاحب الخلفية الدينية عامل فى البناء ، وعامل فى اتقان العمل : لان الحرية فى العمل والدفع الذاتي نحو الفعل يصحبهما دائما رغبة وبجانب الرغبة متعة كذلك . ولذلك حاول بعض الاخلاقيين المثاليين فى المجتمع الاوربي فى القرن الثامن عشر أن يضع خلفية دافعة تقوم على فكرة : « أداء الواجب لذات الواجب » . وساعت هذه الخلفية المثالية فى الشعب الالماني على الخصوص . وعرفت هذه الفكرة بفكرة «كانت» او بالواجب الخلقي . ومع انها خلفية دافعة نحو العمل من ذات الانسان دون رقابة القانون الوضعي وما يصحبه من قوة تنفيذية ـ فانها تفترق عن الخلفية الدينيــة التي يريدها الاسلام للمجتمع الاسلامي ، والتي هي اساس لتماسك المجتمع الاسلامي وتعاون افراده . لانه مهما كان الامـر فـلا يغيب عن اذهاننا ان اساس القوة الخلفية الدينية هـو الاعتقاد بالله ، وان اساس الخلفية المثالية هو تصـور عمل الواجب من الانسان للانسانية . وشتان بين قوة تعتمد على الاعتقاد بالله وأخـرى تقـوم على تصـور الانسان للانسانية . فالاعتقاد بالله من شأنه ان يبقى ، او ان يطول اجله على الاقل ، بينما تصورات الانســان مهما كانت تخضع للعوامل التي تتأثـر بهـا الانسان . ويسهل عندئذ أن يتغير تصور الانسان مـن لـون الى لـون آخـر .

هذه الخلفية الدينية التي تقـوم على العناصـر الثلاثة للايمان : الايمان بوحدة الله ، وبرسالة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وباليوم الآخر ، هي اذن قـوة مثمرة فى ان يحسن الانسان سلوكـه وان يحســن تعامله مع غيره . واذا احسن الانسان فى سلوكـه وفى تعامله مع غيره لم يكن التعاون بين الافراد أمرا ممكنـا فحسب وانما نتيجة حتمية بينهم . بل سيؤدي الـى الشعور بالاخوة ، وايجاد الالفة القائمة على المحبـة . وهنا يكون التسانـد والتماسك .

مضمون الرسالة الالهيـة :

وبما ان الايمان بوحدة الله الذي هو عنصـر فى تكوين الخلفية الدينية هو فى واقع الامر ايمان بالتحرر من الخرافة ، والاعتقادات الباطلة ، والذلة ، والمهانة . وايمان بالمستوى الرفيع فى الانسانية ، وهو مستـوى العزة والكرامة ـ فالايمان بالرسـول عليـه الصـلاة والسلام ليس فى واقع الامر ايمانا بشخصه كانسان . وانما هو ايمان به كصاحب رسالة وكحلقة فى تبليـغ وحي الله الى الناس . واذا كان مضمون هذه الرسالة تخطيطـا لسلوك الفرد ، وحدود التعامل بين الفرد والفرد فى المجتمع ، فالايمان بالرسول عندئذ وبرسالته هو اتباع لتنفيذ مضمون هذه الرسالـه ، أي لتنفيذ حدود الاستقامة فى السلوك وخطـوط المعاملـة بين الافــراد .

واذا رجعنا الى مضمون هذه الرسالة وما رسمته من حدود وتخطيطات فسنجد ان ما صنعته فى ذلك يهدف الى التعادل والتوازن بين ثنائيـة الفرد وبين الفرد والفرد فى المجتمع . اذ الفرد ، وان كان فى مظهره وحدة واحدة ، فى واقع امره يتكون من جانبين متقابلين أو متنازعين : يتكون من الحكمة التي توحي بالاعتدال ، ومن الهوى الذي توحي اليه بالتطرف والخروج عن حد الاعتدال . يتكون من عقل وجسم . وكل منهما لـه اتجاهاته وميوله . وهنا نجد رسالة الاسلام فى هـذه الدائرة ، وهي دائرة الفرد ، لم تنكر اتجاها من هذيـن الاتجاهين . وان ما حددته فى ذلك شأنه يكفل التوازن بينهما : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما احسن الله اليك ، ولا تبـغ الفساد فى الارض . ان الله لا يحب المفسدين » . فهذه الآية نرى منها ان الاسلام يقر طبيعة الانسان على أنها طبيعة مادية روحية ، على أنها طبيعة واقعية مثالية . فبينما لا يحول بينه وبين الاستمتاع بالدنيـا ، وهـذا ما يتصل بالجانب المادي . اذ به يطلب من الانسان ان

ونقع ضد هؤلاء أو يبين ان أصحاب السيادة فى المال وأصحاب العالمية الصهيونية اجانب عن الوطن ، أي وطن .

وهنا يكون الايمان برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام — كما ذكرنا — باتباع هذه الخطوط العامة ، باتباع هذه الحدود فى معاملة الانسان لنفسه وفى معاملته لغيره ، والمجتمع ما هو الا انسان وغيره ، فرد وفرد . ومن هنا تتضح قيمة الايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وبرسالته وتتضح أثرها فى تكوين وتوجيه الخلفيه الدنيه .

ان الايمان بالجزاء الاخروي — كما ذكرنا — باعث الحيوية فى هذه الخلفيه . هو العامل فى استمرار حركتها نحو أهدافها ، لان المعتقد بالله وبرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم — اذا اعتقد الى جانب ذلك فى الجزاء الاخروي — يذكر فى كل لحظة ان الجزاء واقع لا محالة، وانه من اجل ذلك لا بد ان يعمل فى كل لحظه ، وفى كل تصرف ، طبقا لما جاءت بـه الرسالـة . ولذلك شدد الاسلام كثيرا فى التكرار على من جحد اليوم الآخر وما يقع فيه من جزاء : « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » . « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر » ؟ « ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها . والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » .

حقيقة الاسلام لم يذكر هذه الخلفية الدينيه بصريح العباره ولم يطلبها بهذا التحديد وهذا النص . وانما طلبها فى صورة العمل الصالح . لان العمل الصالح هو نتيجتها وثمرتها . يقول الله سبحانه وتعالى : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » . « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبه ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون » . « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم » .

واذا تحققت هذه الخلفية الدينية ، وتحققت آثارها طبقا للايمان برسالة الاسلام — كما صورنا — فان المجتمع الاسلامي عندئذ لا يواجه مشاكل يطلب حلها . لان هذه الخلفية نفسها اذا كانت قوية فى الدفع الى العمل الصالح فانها تكون وقاية من وقوع المشاكل. اذ مشاكل اي مجتمع انما تنشأ من النفرة ، انما تنشأ عن عدم الاستقامة فى التصرف وعدم التعاون والتوازن، انما تنشأ عندما تخفت روح التعاطف وتتغلب الانانيه فتفسد بين الناس . عندئذ يواجه المجتمع مشاكل: الفرد يواجه مشاكل مع نفسه ومع غيره ، والاسرة تواجه مشاكل فى علاقة افرادها بعضهم ببعض . والازواج والزوجات يواجهون مشاكل فى علاقاتهم وهكذا وهلم جرا .

ولذلك لم تكن تعاليم الاسلام التي يجب الايمان بها عبارة عن حل او حلول لمشاكل . وانما كانت اولا وقبل كل شيء وقاية من المشاكل . ومن هنا كان شعار المجتمع الاسلامي هو : الوقاية قبل العلاج .

واذ تحدثنا عن الخلفية الدينية او الضمير الديني فى المجتمع الاسلامي ووازنا بينها وبين القانون الوضعي وسلطته التنفيذية فى توجيه المجتمع ودفعه الى الاستقامة فى السلوك وحسن المعاملة — فانا لا نريد ان نحط من القوة التنفيذيه والرقابه العامة فى المجتمع . لا نريد ان نحط من قيمه هذا . ذلك لان المجتمع مهما استقام افراده . سيبقى فيه نزاعون الى الشر والافساد والعبث ، بل ان من افراده من يكون منحدرا للقيم الاخلاقيه الفاضلة ، وللمثل العليا ، وللاستقامة ، ولصالح المجتمع العام ولو قلة . وربما يضعف هذه القوة الخلقية يوما ما فيكثر الفساد والعبث اذا لم يكن هناك سلطة تنفيذية ورقابة عامة على المجتمع . والاسلام من اجل هذا لا ينكر قيام مثل هذه السلطه ولا وجود مثل هذه الرقابة وانما يطلبها وينشدها لان طبيعة الانسان هي طبيعه الانسان : فيها البر والفاجر وفيها المستقيم وغير المستقيم وقد سار المجتمع الاسلامي منذ بداية تكوينه فى المدينة على أن تكون هناك رقابة : وأن تكون هناك سلطة تنفيذية . وقد كانت درة عمر رمزا لهذه السلطة التنفيذية وهذه الرقابة العامة .

وكل ما اردناه من حديثنا عن الخلفية الدينية وتاكيدنا لقيامها وضرورتها اذن هو أن يحرص المجتمع الاسلامي أو اى مجتمع آخر على وجود هذه القوة فيه ، وعلى بقائها ورعايتها لانه من صالح المجتمع — كما ذكرنا — أن يقاد افراده عن طريق الدفع الذاتي بدلا من ان يقاد جميع الافراد عن طريق القانون وسلطته التنفيذية .

وحتى في من يتصل بالاسرة ، سواء كانت اسرة الزواج او اسرة القرابة ، نجد الاسلام يطلب هذه الرعاية حتى لا يكون هناك حقد ولا يكون هناك بغضاء . يقول الرسول عليه الصلاة والسلام في حق الخدم : « اخوانكم خولكم . اطعموهم مما تطعمون ، والبسوهم مما تلبسون ، ولا تعذبوا عباد الله » .

واذا كانت نظرة الاسلام الى الاسرة في صورها المختلفة هي هذه النظرة التي تقوم على طلب التعادل والتوازن بين افرادها — فان المجتمع الكبير ، وهو المجتمع الاسلامي ، مطلوب ايضا من قبل الاسلام بأن يكون فيه التوازن والتعادل والتواد .

ولم يشأ الاسلام أن يكون هذا التعادل أو التوازن منبعثا من دفع خارجي — كما ذكرنا — وانما اراد أن يكون مصدره هو ذات الفرد وذات المجتمع من داخله ومن نفسه . ومن هنا حث الاسلام كثيرا على « الاحسان » . وليس الاحسان هو التفضل واعطاء الفضل من مال أو غيره . وانما الاحسان هو التصرف طبقا لمستوى انساني مهذب . الاحسان مشتق من احسن ضد أساء . أحسن في التصرف ، احسن في العطاء ، احسن في العمل ، احسن في العلاقة ، احسن في رعاية الروابط ، احسن في الاقناع ، احسن في الستر على الاعراض ، احسن في رعاية الحرمات وحفظها . كل ذلك احسان يطلبه الاسلام . وهذا الاحسان لا يتم مطلقا الا عن خلفية دينية ، الا عن ضمير خلقي ، ولا يتم عن دفع القانون الوضعي الانساني ، ولا عن رقابة السلطة التنفيذية التي تصاحبه وتقترن به .

ثم أن الرسالة الالهية التي جاء بها الرسول عليه الصلاة والسلام والتي بعد الايمان بها عنصرا من عناصر الخلفية الدينية أو الضمير الديني — لها مرونة خاصة تتمثل في مبدأ الاجتهاد . ذلك المبدأ الذي تشير اليه الآية الكريمة : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم ، فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير لكم واحسن تأويلا » . فالمراد بأولي الامر هنا هم أولوا الرأي وأصحاب الاجتهاد . ويقصد القرآن برد النزاع الى الله ورسوله رده الى كتاب الله وسنة رسوله وما يفهمه المسلمون منهما .

وهذا المبدأ يعطي الشريعة الاسلامية أو الرسالة الاسلامية فيما عدا أصول الاعتقاد حيوية وامكانيات الملاءمة بين ايمان المؤمنين بهذه الرسالة وظروف الحياة التي يعيشون فيها ومقتضياتها . وبهذا يمكن للمسلمين ان يعيشوا دائما في حياة متطورة وفي ظل الايمان الاسلامي معا . وهذه ميزة يستطيع المجتمع الاسلامي عن طريقها أن يعيش في كل وقت دون أن يتعارض مع مباديء الاسلام العامة أو يصطدم مع طبيعة الحياة التي يعيش فيها .

وبجانب هذا المبدأ الذي ترعاه رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام مبدأ آخر تتطلبه تماسك المجتمع نفسه ، اي مجتمع . وهذا المبدأ هو الغاء اعتبار العنصرية . فلا القبلية ولا اللون بحاجز عن أن يكون المسلم اخا للمسلم ومتعاونا معه « ان هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون » ، « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان اكرمكم عند الله اتقاكم » . فالقرآن الكريم يؤكد ان المسلمين مع اختلافهم في الجنس ، أو في اللون ، أمة واحدة ، كما يؤكد ان الاختلاف في ذلك لا يدعو الى الفرقة او الانفصال ، بل على العكس من ذلك هو سبب للتعارف والتآلف ، وهذا ما يقصده الاسلام من تعاليمه

على انه بجانب هذا وذاك يوجد مبدأ آخر في الرسالة الاسلامية . هو مبدأ يتصل بتماسك المجتمع الاسلامي واستقلاله وعدم ذوبانه وانصهاره في أي مجتمع آخر . هذا المبدأ هو : القومية الاسلامية . وهي ما تمثله مثل هذه الآيات الكريمة : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين » . « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا » ويطبق هذا المبدأ يبدو في عقد الزواج على وجه خاص . فالاسلام يحرم زواج المسلمة من غير المسلم . اذ هذا التحريم سيحفظ المجتمع الاسلامي ويصونه من الذوبان في مجتمع آخر عن طريق زواج المسلمة بغير المسلم وتناسلها منه . وليس هذا امرا عنصريا ، ولا مبدأ للتفريق ، وانما هو امر اراد به الاسلام أن يحمي المجتمع الاسلامي من الانحدار ، وان يصون القيم الاسلامية من الانخفاض والانحطاط عن طريق خضوع المسلمة لغير المسلم في عقد الزواج .

وهنا يصح ان نقول ان المجتمع الاسلامي هو مجتمع انساني بمعنى الكلمة ، وانه مع ذلك يحتفظ بشخصيته واستقلاله . والعالمية الصهيونية التي يتزعمها كثير من المفكرين لاتلقى ترحيبا كبيرا في رأي الاسلام ، اذ اخص اهداف هذه العالمية الصهيونية هو نزع خصائص كل مجتمع والغاؤها حتى تعث الرأسمالية والعالمية الصهيونية فسادا في الانسانية دون ان يكون هناك تذمر ، ودون أن يكون هناك صوت

أبو الحسن الشاذلي

للدكتور: جمال الشيال

- 2 -

لم يقصر ابو الحسن الشاذلي نشاطه العلمي والروحي على مدينة الاسكندرية وحدها ، بل كان دائم الرحلة الى المدن المصرية الكبرى ، فتردد أول ما تردد على مدينة دمنهور اقرب المدن الى الاسكندرية ، وقد زوج ابنته رقية الى رجل فاضل من أهلها هو الشيخ علي الدمنهوري ، ثم زار دمياط والمنصورة ، وزار معظم مدن الوجه القبلي الكبرى في سفراته العديدة للحج ، وتردد كثيرا على العاصمة القاهرة .

وفي كل هذه المدن كان الشيخ يعقد حلقاته المعتادة للدرس والوعظ ليفقه الناس في أمور دينهم ولنشر مبادئه ودعوته . وكانت أهم هذه الحلقات هي الحلقات التي عقدها بمدينة القاهرة ، وتذكر المراجع انه كان يلقي دروسه بها في مسجد المقياس بجزيرة الروضة او في المدرسة الكاملية وهي المدرسة التي بناها السلطان الملك الكامل محمد الايوبي لتدريس علوم الحديث خاصة .

وكانت القاهرة وقتذاك عامرة بنخبة ممتازة من العلماء الكبار من أمثال الشيخ عز الدين بن عبد السلام العالم القوي الجريء ، وتقي الدين بن دقيق العيد احد علماء مصر وقضاتها ، وعبد العظيم المنذري المحدث الكبير وشيخ المدرسة الكاملية ، ومحي الدين بن سراقة — وهو علم آخر من أعلام المدرسة الكاملية ، الشيخ الورع التقي مكين الدين الاسمر شيخ القراء بالاسكندرية ، وأبي عمرو عثمان بن الحاجب من أبرز علماء العصر بالنحو وعلوم العربية . وابن الصلاح مفتي الشام ومحدثها على ذلك الوقت .

وكان هؤلاء وكثيرون غيرهم يجلسون الى الشيخ أبي الحسن يستمعون الى دروسه وشروحه ومواعظه ، وكثيرا ما كانت تدور بينه وبينهم المناقشات العلمية والمساجلات الصوفية الطريفة المفيدة ، وقد اعترفوا له جميعا بالعمل والفضل والتقوى والقرب من الله سبحانه وتعالى ، قال الشيخ مكين الدين الاسمر :

« مكثت اربعين سنة يشكل علي الامر في طريق القوم ، فلا أجد من يتكلم عليه ويزيل عني اشكاله حتى ورد الشيخ ابو الحسن الشاذلي ، فازال عني كل شيء اشكل علي ، ورأيت الناس يدعون الى باب الله ، وأبا الحسن يدخلهم على الله تعالى » .

وقال عنه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد :

« ما رأيت أعرف بالله من الشيخ الشاذلي » .

وقال الشيخ بدر الدين بن جماعة :

« ان بركة الشيخ حلت بالديار المصرية منذ اقام فيها » .

هذه هي حلقات الدروس التي كان يعقدها أبو الحسن الشاذلي في مدن مصر الكبرى وخاصة الاسكندرية والقاهرة . ونستطيع أن نتعرف من أخباره المتناثرة في الكتب التي ترجمت له على الكتب التي كان يقرأ أو يدرسها أو يشرحها في هذه الحلقات ، وهي من أمهات الكتب التي وضعها كبار المتصوفة الذين عاشوا قبله . ومنها على سبيل المثال :

كتاب ختم الاولياء للحكيم محمد بن عبد الله الترمذي من رجال القرن الثالث .

وكتاب قوت القلوب لابي طالب المكي من رجال القرن الرابع .

والرسالة القشيرية لابي القاسم القشيري .

واحياء علوم الدين لحجة الاسلام أبي حامد الغزالي -- وهما من رجال القرن الخامس —

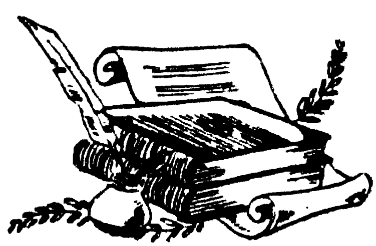
الاحتفاظ بشخصية المجتمع وصيانته من الاعتداء عليه:

هـذان ــ الوحـدة فى الايمـان بالله والخلقـة الدينية ــ عاملان فى تكوين المجتمع الاسلامي وفى بقائـه وتماسكه . وهناك عامـل آخـر للاحتفـاظ بشخصية المجتمع الاسلامي وصيانته من الاعتداء عليه من خارجه . هذا العامل هو الجهاد فى سبيل الله . واعتقد ان كلمه « الجهاديه » مشتقة من هذا الجهاد فى سبيـل الله . كما أعتقد ان الاستعمار هو الذى بغض معناها للنفوس بسبب تلك الاساءات والحماقات التي كان يرتكبهـا فى معاملة المجندين والعسكريين أيام الاستعمار .

مبدأ الجهاد قصد منه الاسلام امريـن : الامـر الاول ان يبقى المجتمـع الاسلامـي على اسلامه وعلى أيدولوجيته ونظامه . الامر الثانى : هو صيانة النظـام الاسلامي وصيانه أيدولوجيته مـن اعتـداء العـدو الخارجى عليه . وهذا العدو الخارجي هو ذلك الـذى يكفر بهذه الايدولوجيه ويمعن فى كفرانه بها ويسخـر منها : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفـار أولياء » . « وإذا ناديتم الى الصلاة اتخـذوها هـزؤا ولعبا » . « وكلما مر عليه مـلأ من قومه سخروا منـه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون » . وهذا العدو اذ ينكر على المجتمع الاسلامى أيدولوجيته ونظامه ينكر فى واقع الامر وجـوده وقيامـه . ويبغى تفتيته وذوبانه فى مجتمعات أخرى . والجهاد . وهـو الدفاع عن هذه القيم وصيانتها من الاعتداء عليها ، قد يكون أدبيا للرد الى ما يوجه الى هذه القيم من انكار أو استهتار « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الديـن كله لله » . وليس المراد هنا القتـال بالسيف وانمـا الغرض هو مقاومة الاستهتـار والاستخفاف بالقيـم الاسلامية حتى لا تكون فتنة بين المسلمين بسبب هـذا الانكار والاستخفاف والاستهتار ، وحتى لا يكون هناك خوف أو اضطراب أو بلبلة بسبب هذا الهجوم الانكارى على القيم الاسلاميه ، قد يكون الجهاد ــ وهو ما عرف بـه ــ ماديا . وهو اللقاء بالسيف والمدفـع وبآلـة الحرب ، ولكن لرد الاعتداء المـادي بشيء من نوعـه . ولو استعرضنا آيات القتال فى القـرآن لوجدنا ان الله سبحانه وتعالى لم يطلب من المجتمع الاسلامي فى وقت من الاوقات أن يبدأ القتال والعدوان ، وانما كل الـذى طلبه هو رد الاعتداء : « وقاتلوا فى سبيل الله الذيـن يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . وكان الاسلام محسنا . وكان انسانيا أيضا فى طلبه رد الاعتداء بالمثل : « فمن اعتـدى عليكم فاعتـدوا عليـه بمثـل ما اعتدى عليكم . واتقـوا الله واعلمـوا ان الله مـع المتقيـن » .

ففي الوقت الذى طلب فيه الاسلام رد الاعتداء بالمثل علل طلبه بأن التزام ذلك هو من ضروب التقوى وذكر أن الله مع المتقين ، أي الملتزمين حدود الله .

القاهـرة : الدكتور محمد البهـي



روى صاحب درة الاسرار على لسان الشيخ
بي الحسن نفسه انه قال :

« كنت بالمنصورة فلما كانت ليلة الثامن من ذي الحجة بت مشغولا بأمر المسلمين ، وبأمر الثغر خصوصا — يعني دمياط — وقد كنت ادعو الله وانضرع اليه في أمر السلطان والمسلمين ، فلما كان آخر الليل رأيت فسطاطا واسع الارجاء عاليا في السماء ، يعلوه نور ، وتزدحم عليه خلق من أهل السماء ، — وأهل الارض عنه مشغولون — فقلت : « لمن هذا الفسطاط ؟ » فقالوا: « لرسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فبادرت اليه بالفرح ولقيت على بابه عصابة من العلماء والصالحين نحوا من السبعين ، أعرف منهم الفقيه عز الدين بن عبد السلام ، والفقيه مجد الدين مدرس قوص زه والفقيه الكمال بن القاضي صدر الدين ، والفقيه المحدث محي الدين بن سرافة والفقيه عبد الحكيم بن أبى الحوافر ، ومعهم رجلان لم أعرف اجمل منهما غير اني وقع لي ظن في حالة الرؤيا انهما الفقيه زكي الدين عبد العظيم المحدث والشيخ مجد الدين الاخميمي ، وأردت أن أتقدم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فألزمت نفسي التواضع والادب مع الفقيه ابن عبد السلام ، وقلت لا يصلح لك التقدم قبل عالم الامة في هذا الزمان ، فلما تقدم وتقدم الجميع ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسير اليهم يمينا وشمالا : أن أجلسوا ، تقدمت وأنا أبكي بالهم وبالفرح ، أما الفرح فمن أجل قربي لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسب ، أما الهم فمن اجل المسلمين والثغر ، وهم طلبي اليه صلى الله عليه وسلم ، فمد يده حتى قبض على يدي وقال :

« لا يهتم كل هذا الهم من أجل الثغر ، وعليك بالنصيحة لراس الامر — يقصد السلطان — فان ولى عليهم ظالم فما عسى ؟ » — وجمع أصابع يده الخمس في يده اليسرى — كانه يقلل المدة ، وان ولى عليهم نفي « فالله ولي المتقين » ، وبسط يده اليمنى واليسرى ، واما المسلمون فحسبك الله ورسوله وهؤلاء المؤمنون ، قال : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون » وأما السلطان فيد الله مبسوطة عليه برحمته ما والى اهل ولايته ، ونصح المؤمنين من عباده فانصحه واكتب اليه ، وقل في الظالم دو الله قولا بليغا ، « واصبر ان وعد الله حق ولا ستخفنك الذين لا يؤمنون » .

فقلت : « نصرنا ورب الكعبة » . وانت

هذه الرؤيا تدل على أن الشيخ ابا الحـ
يقض مضجعه هذا الخطر الجاثم على ثغـ
والزاحف نحو الجنوب ، يدعو الله مخلصا في يقظته وفي منامه ان يكشف الغمة ويغيث الامة ولم تنقض أيام قليلة حتى تحققت بشرى الرسول عليه السلام ، وانتصر المصريون ، وهزم الفرنجة واسر ملكهم لويس التاسع ، ثم جلوا جميعا عن مصر بعد قليل .

كان الشيخ ابو الحسن الشاذلي اشد الناس فرحا بهزيمة الصليبيين ورحيلهم عن مصر ، وقد عاد بعد هذا الى الاسكندرية ، وتابع سيرته الاولى في الحياة يدرس ويعظ ويتعهد أرواح تابعيه ومريديه بالتهذيب .

واصبحت لابي الحسن مكانة مرموقة في المجتمع المصري يقصده الكبار ورجال الدولة والعلماء والعامة في حاجاتهم ، يقصده الكبار والعلماء يستزيدون من علمه وتعاليمه ، ويقصده الصغار والعامة يلتمسون منه البركة ويستشفعون به لدى رجال الدولة لقضاء مطالبهم .

وكان الشيخ لايرد انسانا يقصده بل يسعى لاجابة كل الى مطلبه ، روى ابن عطاء الله أن فقيها من طلاب العلم قصد الشيخ مرة يستشفع به لدى القاضي تاج الدين بن بنت الاعز كي يزيد في راتبه عشرة دراهم ، فذهب الشيخ الى تاج الدين وأكبر تاج الدين مجيئه اليه فاسرع يرحب به وساله فيم مجيئه، فقال الشيخ :

« من أجل فلان الطالب كي نزيده في مرتبه عشرة دراهم »

فحاول القاضي أن يعتذر ، وشرح للشيخ كيف ان لهذا الطالب مرتبات اخرى من جهات متعددة ، فقال له :

« يا سيدي هذا له في المكان الفلاني كذا ، وفي المكان الآخر كذا ، وفي الموضع الفلاني كذا وكذا » .

ولكن الشيخ لم يقتنع بهذا الجواب وقال للقاضي:

« يا تاج : لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزيده اياها ، فان الله تعالى لم يقنع بالجنة للمؤمن جزاءا حتى زاده النظر الى وجهه الكريم » .

وكتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض من رجال القرن السادس .

وقد كف بصر الشيخ أبي الحسن بعيد وصوله الى مصر بقليل ، ونستطيع ان نقول انه اصيب في سنة 646 على وجه التحديد ، اي بعد وصوله الى مصر بأربع سنوات ، فقد روى صاحب كتاب المفاخر العلية انه لما كف بصر الشيخ دخل عليه تلميذه ابو العباس المرسي فقال له الشيخ :

« يا ابا العباس : انعكس بصري في بصيرتي ، فصرت كلي مبصرا ، بالله الذي لا اله الا هو ، ما ادرك في زماني افضل من أصحابي ، وانت والله افضلهم » .

ثم سأله :
« كم سنك يا ابا العباس ؟
قال :
« يوشك ان يكون ثلاثين »
قال الشيخ :

« بقيت عليك عشرة اعوام وترث الصديقية (القطبانية) من بعدي »

فاذا عرفنا ان ابا العباس ولد سنه 616 ، فاننا نستطيع أن نؤرخ لهذا الحدث بسنة 646 هـ فقد قال ابو العباس ان سنه وقتذاك كانت 30 سنة ، ونحن نعرف ايضا أن الشيخ أبا الحسن توفى سنة 656 وقد ورث القطبانية بعده أبو العباس وقد بشره الشيخ أبو الحسن في هذا الحديث انه يرثها بعد عشر سنوات . فاذا طرحنا عشر من سنة 656 وصلنا الى 646 .

والراجح ان الشيخ اصابه مرض مما يصيب العيون افقده بصره ، ويقول الاسناد السندوبي انه اصيب اثناء ايامه بالماء فقضى على بصره ، ولكن القوم يعللون هذه الاصابة تعليلا آخر . روى ابن الصباغ عن الشيخ جمال الدين العراقي احد اصحاب الشيخ ان الشيخ أبا الحسن قال له مرة في شرح السبب الذي من اجله فقد بصره : لقيت بعض الاولياء في احدى سياحاتي ، فعرضت عليه كلاما في التوحيد ، فصاح الرجل وصلت ، فقيل لي :

« يا علي لم فعلت ذلك ؟ لنعاقبن بذهاب بصرك »

وفي سنة 647 المت بمصر ملمة كبرى ، فقد وصلت اليها حملة من الحملات الصليبية الكبرى هي حملة الملك لويس التاسع ، واستطاعت هذه الحملة ان تستولي على دمياط ، واتجه الملك الصالح نجم الدين أيوب جنوبا الى مدينة المنصورة وعسكر بجيوشه شمالها ، غير انه لم يلبث ان اشتد به المرض ومات ، فأخفت زوجه شجر الدر موته ، وارسلت فاستدعت ابنه تورانشاه من حصن كيفا .

وكان المصريون جميعا في ذلك الوقت في هم عظيم يترقبون نتائج الحرب بنفوس ملأها الهلع والخوف ، وكانت الانظار كلها تتجه الى مدينة المنصورة مقر الدفاع .

ووجد علماء البلد ان من واجبهم أن لا يتخلفوا عن موضع الخطر ، فسارعوا جميعا الى مدينة المنصورة يثبتون من جأش الشعب ، ويبعثون الحمية في نفوس الجند المحاربين ، ويثيرون فيهم روح الجهاد للذود عن الوطن وحريته ، وكان في مقدمة هؤلاء الشيخ أبو الحسن الشاذلي .

وتقول الرواية أن الشيخ كان يجتمع أثناء مقامه في المنصورة بغيره من علماء البلد في خيمة يتدارسون ويتناقشون في امور الدين وعلومه ، وكانت الصدارة في هذه المجالس للشيخ أبي الحسن .

روى ابن عطاء الله السكندري في كتابه لطائف المنن عن الشيخ مكين الدين الاسمر انه قال :

« حضرت بالمنصورة في خيمة فيها مفتي الانام عز الدين بن عبد السلام ، والشيخ مجد الدين علي بن وهب القشيري المدرس ، والشيخ محيي الدين بن سراقة . والشيخ مجد الدين الاخميمي والشيخ أبو الحسن الشاذلي ، ورسالة القشيري تقرأ عليهم ، وهم يتكلمون . والشيخ ابو الحسن صامت ، الى أن فرغ كلامهم ، فقالوا : يا سيدي نريد ان نسمع منك مقالا فقال — تواضعا : — انتم سادات الوقت وكبراؤه وقد تكلمتم ، فقالوا : لابد أن نسمع منك ، قال : فسكت الشيخ ساعة ، ثم تكلم بالاسرار العجيبة والعلوم الجليلة ، فقام الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه وقال : اسمعوا هذا الكلام القريب العهد من الله » .

وكان الشيخ يقضي وقته كله في المنصورة — مستيقظا ونائما — ولا يشغل باله وفكره الا هذه الملمة التي توشك أن تنزل بمصر والاسلام ، الا هذه الحرب الطاحنة الدائرة رحاها بين عدو وافد من الخارج وجيش مجاهد باسل يدافع عن الوطن والاسلام ، فكان الشيخ اذا نام تكاثرت عليه الاحلام يرى فيها ما يشغله في اليقظة ، ويلتمس في عالم الرؤى مخرجا من هذه الازمة ، الى ان وافته البشرى اخيرا واتاه الرسول عليه السلام يبشره بالنصر .

وأرحنــا من همــوم الدنيــا وغمومهــا بالروح الريحان الى الجنة ونعيمها .....

اللهم باعد بيننا وبين العناد والاصرار والشبــه ابليس رأس الغــواة .

واجعل سيئاتنا سيئات من احببت .
ولا تجعل حسناتنا حسـنات من ابغضت .
فالاحسان لا ينفع مـع البغــض منك .
والاساءة لا تضر مع الحب منك .
اللهـم رضنــا بقضائك .

وصبرنــا على طاعتــك وعــن معصيتك وعــن لشهوات الموجبات للنقص أو البعد عنك .

وهب لنا حقيقة الايمان بك حتى لانخاف غيرك ولا نرجو غيرك ولا نحب غيرك ولا نعبد شيئا سواك .

وأورعنــا شكــر نعمائــك .
وغطنا برداء عافيتــك .
وانصرنا باليقين والتوكل عليك .
واسفر وجوهنا بنور صفاتك .

واضحكنا وبشرنا يوم القيامة بين أوليائك .

واجعل يدك مبسوطة علينا وعلى أهلينا واولادنا ومن معنــا برحمتك .

ولا تكلنا الى انفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ــ يا نعــم المجيــب » .

وكان الشيخ اثناء مقامه فى مصر يخرج للحج كل سنه . ذكر ابن بطوطة أن الشيخ ياقوت العرشي أنبــاه روايته عن شيخه أبى العباس المرسي أن الشيــخ أبــا الحسن الشاذلي كان يحج فى كل سـنة . ويجعل طريقه على صعيد مصر ، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعــده الى انقضاء الحج ، ثم يزور القبر الشريف ، ويجعــل طريقه على صعيد مصر ويعود على الدرب الكبير الــى الاسكنــدريــة .

وفى سنة 656 هـ بلــغ الكتــاب أجلــه ، وأحس الشيخ بدنو موته ، سنطرد ابن بطوطة حديثه السابق ويقــول :

فلما كان فى بعض السنين وهي آخر سنة خرج فيها ، قال لخديمه : استصحب فاسا وقفة وحنوطــا وما يجهز بــه الميت ، فقال له : ولماذا ياسيدي ؟ فقــال لــه : فى حميترا سوف تــرى » .

وفى شوال من تلك السنة وصــل الشيــخ أبــو الحسن وصحبه حميترا ، وهي موضع فى الصحــراء المؤدية الى عيذاب على البحر الاحمر ، اصابه مــرض شديد فجمع أصحابه وأوصاهم بأشياء كثيرة وخاصة بحزب البحر ، وقال لهم حفظوه أولادكم ، فــان فيــه اسم الله الاعظم ، وخلا بتلميذه الحبيب ابى العبــاس المرسي وأوصاه بأشياء ، يقول صاحب المفاخر :

« واختصه بما خصه الله به من البركات ، وقال لاصحابه : اذا أنا مت فعليكم بأبى العباس المرسي فانه الخليفة من بعدي ، وسيكون له مقام عظيم بينكم وهــو بــاب من ابــواب الله تعالــى » .

وبات الشيخ ولسانه لا يفتر عن ذكر الله ، فلما كان الفجر صعدت روحه الى بارئها ، وصلى عليه القوم يؤمهم الشيخ أبو العباس ، ودفــن أبــو الحسن حيث مــات فى حميتــرا .

قال ابن بطوطة :

وقد زرت قبره وعليه قبرية مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلا بالحسن بن علي رضي الله عنهما » .

واختلف القوم بعد وفاته هل يعودون ام يستأنفون الرحلة للحج ، فقــال أبــو العبــاس :

« الشيخ أمرنى بالحج ووعدنى بكرامات » .

وبعــد ، فهذا هو ولــي الله العارف بــه قطب الاقطاب الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه ، فارق الدنيا بعد أن ملأها علما وروحانيــة ، وبعــد أن خلف بعده عددا من تلاميذه الذين ساروا سيرته بعــد أن قبسوا من علمه وفضله وخلقه وروحه ، وكلهم بعــد هذا من روح الله مقتبس .

الدكتور جمال الدين الشيال المستشار الثقافي
بسفارة ج . ع . م . ــ بالربــاط

وكان الشيخ يحمل نفسه المشاق – على كبر سنه – في سبيل قضاء حاجات اتباعه ومريديه ورعاية شؤونهم ، روى ابن عطاء الله ايضا ان احد اتباع الشيخ في الاسكندرية اصابه رمد في عينه ، فاستدعى له الشيخ طبيبا يهوديا من اطباء السفر لمعالجته ، ولكن الطبيب اعتذر عن مباشرة العلاج وقال للشيخ :

« لقد جاء مرسوم من القاهرة انه لايداوي احد من الاطباء الا باذن من متسارف الطب بالقاهرة » .

فلما خرج الطبيب قال الشيخ لخدامه :

« هيئوا اسباب السفر »

وسافر في الحال الى القاهرة ، وحصل على الاذن للطبيب ، وعاد مسرعا الى الاسكندرية ، ولم يبت خارجها الا ليلة واحده ، واستدعى الطبيب ، واطلعه على الاذن ، فأكثر الطبيب اليهودي التعجب من هذا الخلق الكريم ، ثم اخذ في شانه ومباشرته للعلاج .

وروى ابن عطاء الله أنه سمع الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد يقول :

« جهل ولاه الامور بقدر الشيخ ابي الحسن الشاذلي رضى الله عنه ، لكثره ترداده في السماعات » .

وعلق ابن عطاء الله على هذا الراى بقوله :

« ويجب أن نعلم أن هذا الامر لا يقوى عليه الا عبد متخلق بأخلاق الله ، بذل نفسه وأذلها في مرضاه الله ، وعلم وسبع رحمة الله فعامل عباد الله ممتثلا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » .

ومع ان الشيخ ابا الحسن الشاذلي كان واسع العلم والمعرفة ، سمع اليه كبار علماء عصره فيبهرهم حديثه ، ويقول كبيرهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

« أسمعوا هذا الكلام القريب العهد من الله » .

مع هذا فانه لم نعرف ان ابا الحسن الف كتابا ، وكل ما وصلنا من اثاره العلمية الصوفيه هو ما نقله اصحابه عنه من وصايا واقوال مأثوره وادعية واحزاب واوراد ، وكان الشيخ يرى ان كتبه هي تلاميذه وأنه خير له أن يخرج على يديه تلميذ يفهم علومه وروحانيته من ان يؤلف كتابا قد يقراه البعض أو لا يقراونه ، وقد يفهمه البعض ويعجز عن فهمه البعض الآخر .

روى ابن عطاء الله ان احد الاتباع سأل الشيخ مرة :

« لم يا سيدي لاتضع الكتب في الدلالة على علوم القوم ؟ »

فأجاب الشيخ : « كتبي اصحابي » .

غير ان الاقوال والاحزاب التي وصلتني عن الشيخ تدل على أنه كان قد رق قلبه ورق حتى لم يعد يشغله غير حب الله سبحانه وتعالى ، وأن نفسه صفت وصفت حتى لم نعد نلجأ الا الى الله سبحانه ، وان روحه علت وعلت حتى اصبحت اقرب ما تكون الى الله سبحانه .

وهذه الاحزاب تدل كذلك على ان ابا الحسن كان اديبا ممتازا ذا اسلوب جميل رائع ، فاني لا اكاد اعرف اني قرأت الادب المأثور اجمل مما قال الشيخ ابو الحسن في حزب البر ، استمع معي اليه وهو يقول :

« اللهم انا نسألك لسانا رطبا بذكرك .
وقلبا منعما بشكرك .
وبدنا هينا لينا بطاعتك .

واعطنا مع ذلك مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر – كما اخبر به رسولك صلى الله عليه وسلم – حسب ما علمته بعلمك .

واغننا بلا سبب .
واجعلنا سبب سبب الغنى لاوليائك .
وبرزخا بينهم وبين اعدائك .
انك على كل شيء قدير .
اللهم انا نسألك ايمانا دائما .
ونسألك قلبا خاشعا .
ونسألك علما نافعا .
ونسألك يقينا صادقا .
ونسألك دينا قيما .
ونسألك العافية من كل بلية .
ونسألك تمام العافية .
ونسألك دوام العافية .
ونسألك الشكر على العافية .
ونسألك الغنى عن الناس .
واستمع الى هذه المناجاة الالهية في قوله :

« اللهم وأرأف بنا رأفة الحبيب بحبيبه عند الشدائد ونزولها .

لبه بالتحلل و الاباحية ، وذاك يريد الحفاظ على حرمات
ـين والفضيلة شدة في الدفاع عن معاقله .. وفي
جيج هذا المعترك الفكري وظلمته القاتمة النبس على كثير من
ناس شأن المرأة واختلط عليهم الامر فاخذوا يتساءلون :

هل لها ان تخرج من البيت او ليس لها ذلك ؟

هل هي مخلوقة لها من خصائص العفة ما يجعلها اهلا
ـنفة ؟

هل لها ن تشتغل بالاعمال الحرة والوظائف الحكومية
ـ السياسية وما شابهها ؟

★ ● ★

ومن المؤسف ان الدعاة الى حقوق المرأة يهملون الدعوة الى الفضيلة ، اذ لم يرتفع لهم او لهن صوت واحد في مناسبة من المناسبات باستنكار ما يمد للمرأة من اسباب التحلل والغواية والاستهتار .. وسكتوا على «الكربهات» وكأنهم يراقبون تطورها في غبطة وبهجة وارتياح ، لانها اثاره من التيارات التي يجب استكمالها في مجتمعنا ، لتضاهي بها المجتمع الغربي .. وقد تعدوا هذا السكوت الى الترحيب ـ تلميحا وتصريحا ـ بما تبدي المرأة من ميل الى التحلل والتكشف ، واظهار ما حقه ان يكون مستورا من بدنها وزينتها .. فحفلات الرقص ، والخمر ، واللهو ، والقمار التي تغشاها المرأة عارية الصدر ، والظهر ، والذراعين ، والساقين ، ولا تستر فيها سائر اعضاء البدن الى التنفيف في اللباس ، الذي لا يكاد يحجب شيئا .. وفيها تقوم المرأة ـ وقد لعب الخمر برأسها ـ الى رجل اجنبي عنها ـ راقصه ويحاصره ، في غزل ظاهر ، ووقاحة لاشك فيها .. هذه الحفلات ، لا يسكتون عنها فحسب ، بل يحضرونها ويشجعون على غشيانها ، لان المرأة الاوروبية تفعل ذلك ، ونحن نريد ان نكون مثل اوروبا في كل شيء ..

ولقد اصبحت البلاد الاسلامية مباءة لتلك الحفلات الداعرة ـ رسمية وغير رسمية ـ وكان هؤلاء الدعاة الى « محد المرأة » يشهدون ذلك «التقدم» في رضا وسرور ، وتطفر صدورهم في تلك المباذل غير منكرين منها شيئا ، في حين انك تراهم او تسمعهم يملؤون الجو صياحا كلما فتح احد العلماء فمه بكلمة تقرر فيها ما قرر الله للمرأة والمجتمع من مباذل الخمر والقمار والعري ، او كأن المجتمع قد استقام حاله على تلك المباذل الفاسقة ، ولا خطر يهدده الا ان ينادي فيه بكلمة الله ..

نقول هذا للفتيان والفتيات ولسائر الناس ، حتى لا ـروا بالترتيب الخادع الذي يموه به هؤلاء نياتهم الفاسدة، وـديهم المسموم لدعوة الاصلاح .. ولا ننس ان شابا ارسل ـب معروف يشكو اليه خروج المرأة متبذلة متكشفة ، تضيق من ملابسها لتحدد اعضاء بدنها وتختار منها الرقيق لتظهر للناس ما لا يحل ان يظهر .. وبدلا من ان يشكر الكاتب المعروف الشاب البريء براءته وغيرته ، راح يتهكم به وبعقله ، ويذكر له ان الاصلاح لا يأتي بنهي المراة عن ذلك بل بنشر الفضيلة والمثل العليا .. ولم يذكر الكاتب بعد التقريع والتهكم كلمة واحدة تشعر بالعطف على وجهة نظر الشاب ...

وهذا الذي نقوله لا يجافي سبيل المنطق الذي التزمناه في علاج هذه القضية ، لاننا انما نقرر شيئا واقعا ، يمتاز به بعض الدعاة الى حقوق المرأة .

اما ما يتبادر الى بعض الاذهان من ان الكتاب المعارضين يقصدون ان المرأة في ذاتها مخلوق شيطاني ، يتربص بالشهوة كل فرصة سانحة ، فلا يصلح لها الا سوء الظن بها، وعدم تمكينها من رؤية النور خارج البيت ، ففهم خاطئ ، ليس في كلامهم ما يدل عليه تصريحا ولا تلميحا ، اذ الحقيقة انهم يسلمون بحسن استعداد المرأة عقليا وخلقيا ، ولا يسرهم الا دعوة التحلل والاباحة ، مع ذيوع وسائل الفتنة والاغراء ، واذا قام اولياء الامور لدينا بتطهير البيئة من وسائل الفسق ، وكانت العفة اساسا من اسس الدعوة الى حقوق المرأة ، فان الكثير من مسائل هذه القضية ستهي على احسن وجه .

ونعني بالعفة امرين اساسين

الاول : زهد المرأة في غشيان مجالس الرجال والتهافت على لقائهم ، الا لضرورة او لحاجة معقولة .

الثاني : عنايتها بملبسها بحيث لا يكون شفافا ، ولا مخرقا ولا ضيقا ، وقد نهى القرآن الكريم عن ان يتبرج النساء تبرج الجاهلية الاولى ، وامر ان يدنين عليهن من جلابيبهن ، وان يضربن بخمرهن على جيوبهن ليسترن بذلك اجسامهن ، فان ما عدا الوجه والكفين عورة ..

وكذلك يجب ان يحجب اصباغها وزينتها عن الشارع ومحافل الرجال ، فلا يراها الا زوجها ومن رخص الله لهم في ذلك على ما اوردناه سابقا .

ولسنا نجد في التسليم بذلك غضاضة ، ولا يستطيع اشد المتحمسين لحقوق المرأة ان يدلنا على ان العفة بهذا

المرأة والمجتمع

للأستاذ البهي الخولي

انه لمن مقتضيات الحضارة الحديثة ان صار للمرأة قضية يكثر حولها الجدل والنقاش والاخذ والرد بين الحين والآخر فبعض الذين ينتحلون الغيرة على حقوق المرأة في هـذا العصر يثيرون الضجيج حول الظلم الواقع عليها والاحـد بخناقها حتى ليخيل اليك ان هناك معسكرات اعدت للاعتقال تساق اليها المرأة في القيود والسلاسل من الحديد حيث تسجن هناك وتعذب وتضرب ، وتعامل معاملة العبيد في القرون الخالية !! ثم تلتفت حولك فلا تجد اثرا واحدا ملموسا من مظاهر هذا الظلم ، انما هي بعض الفقاقيع الطافية على سطح هذا المجتمع تذهب ها هنا وها هنا في مظهر خادع وبريق خلاب كاذب ، وليس لها في الواقع من حقيقة الوجود الا قلبها الاجوف وباطنها الفارغ من كل حد ولا مبرر لها الا ان تقلد الغربيين تقليدا اعمى ..

ولقد اشرنا في موضوعات اخرى الى الطلاق باعتباره قضية مزعومة من قضايا المرأة التي تثار دائما ، واشرنا الى تعدد الزوجات ، والى الدرجة التي تجعل القوامة للرجال دون النساء ثم اسموها قضية الحقوق السياسية لهـا ، وانا لنؤمن ايمانا عميقا انه لا سر الضجيج حول هـذه المسائل الا تفاهة في رؤوس بعض الناس ممن اعجزهم ان يكونوا شيئا في المجتمع له قيمة فراحوا يلفتون الانظار الى اشخاصهم بذلك الضجيج المفتعل الذي لا يكلفهم شيئا من جهود اهل العزمة والكفاح في سبيل المبادىء الانسانية الفاضلة .

ونحن في رسالتنا هذه نعالج الموضوع بروح « المنطق الدقيق » الذي يتسامى في علاجه عن الخلافات دائما ويلتزم تقرير الحقائق المجردة في كل اموره دون نظر الى اى اعتبار من الاعتبارات الاخرى .

وحين نقول «المنطق الدقيق» فقد عنينا بذلك الاسلام الصافي النقي الذي هو في حقيقته فطرة الله التي فطر الناس عليهـا .

خطـر التقليـد :

واول ما يجب ان نلفت الانظار اليه (ويروح هذا المنطق طبعا) هو ان بعض المنادين في مجتمعنا بحقوق المرأة متأثرون — الى حد بعيد — بتيار التقليد لكل ما هو غربي دون النظر لما في هذا التقليد من خير او شر .. ونحن لا نشك في ان لدى الغرب حسنات ولكن لا نزاع كذلك في ان لديه سيئات فاذا ما قام التقليد عندنا على تخير المناسب من الحسنات كان تقليدا مأمون العواقب . والحكمة ضالة المؤمن انى وجدهـا فهو احق الناس بهـا .

اما اذا قام التقليد على اساس الانسلاخ من موارثنا الصالحة وتقاليدنا الطيبة باعتبارها فاسدة لا تصلح لهذا العصر ، وان كل ما لدى الغربيين صالح بلا نزاع ، فهو اعدام لكل مقوماتنا المعنوية دون تحقق لما فيها من ذاتية ثابتة نستعصي بها على ما يحاك لها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان ولذلك ينبغي علينا ان نحذر مسايرة هذا التيار الخطر وان نتثبت والتأني في اختيار ما هو صالح عندهم ..

★ ● ★

بيـن الاباحيـة والتصـون :

ولا بد لنا هنا من ملاحظة ظاهرة اخرى ، هي ان قضية المرأة — فيما اعتراها من شد وجذب ونقاش وجدل — دارت بين معسكرين : معسكر يرغب في التحلل والاباحية ومعسكر يرغب في توفير كل ما في الاستطاعة من اسباب العفة والكرامة للمرأة .. اما المعسكر الاول فانه يرى في المعسكر الآخر انه جماعة من الرجعيين المعارضين «لنهضة» المرأة . واما المعسكر الثاني فيزعجه دعوة التحلل ويزعجه ان يرى المرأة مبتذلة في الشوارع والاسواق ، قد هجرت بيتها ونبذت رسالتها ، وفقدت حياءها وهو زينة الانوثة فيهـا فيحشد قوته ويتحصن بكل ما لديه من عزائم ليحفظ عليهـا كرامتها وليبقيها في بيتهـا .. من ذلك نرى ان المعسكرين اخذا يتبادلان الهجوم الصاعق والدفاع الحصين : هذا ينشط

المسارح ودور السينمـا :

ويسأل بعض الناس عن الخروج الى دور التمثيل والسينما.. الحكم في تلك الدور انها ليست محرمة لذاتها ، بل لما الم بها من افعال السوء ، وصنع من لا خلاق لهم ، ولما يعرض في برامجها من مناظر منافية للعفة ، ومعان لا توجه الى الاخلاق النافعة .. فاذا وجدت دور يعرف كيف تختار روادها من البيئات الكريمة ، وتحترم رسالتها ، فلا تعرض الا التسلية البريئة والمناظر العلمية ، والروايات النافعة عقلا وخلقا ، فلا بأس من ارتيادها ، فالثقافة امر مرغوب فيه ، واللهو البريء جاء به الشرع الشريف ، وقد كان الرسول عليه السلام يدعو عائشة لتنظر الى الحبشة وهم يلعبون ويرقصون بحرابهم ..

★ ● ★

المنتزهـات :

ويسألون عن خروج المرأة الى اماكن النزهة ذات المناظر الجميلة ، والهواء .. وما علموا ان احدا حرم ذلك عليها .. ونحن نقرأ من اخبار الفضليات من نساء العصر النبوي انهن كن يخرجن الى ظاهر المدينة ، وها هي اسماء ذات النطاقين بنت ابي بكر ، وزوج الزبير رضي الله عنهم تقول « كنت انقل النوى على رأسي من ارض الزبير وهي من المدينة على ثلثي فرسخ » قال العلماء وهو حجة في سفر المرأة اليسير بغير محرم .. والمرأة الرفيعة في ايامنا هذه تخرج من بيتها الى الحقل ، ولا اثم في خروجها ، ولسنا نرى فرقا بين الريفية والحضرية الا ما قد تتعرض له الحضرية من عدوان اهل الترف والمجون ، فان كان ذلك فلا ، وعلى ولي الامر ان يردعهم ويطهر المدن من اذاهم ، فبهذا جاء امر الله سبحانه « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا » .

★ ● ★

المراكـب العامـة :

والمواصلات في مدننا الكبرى ، في ايامنا هذه من المشكلات التي تضيق بها الرجال فضلا عن النساء .. فاذا استطاعت المرأة ان تمشي على قدميها ، فلتمش ، والا فلتستأجر سيارة ، فاذا كانت لا تطيق المشي ، وكانت حالتها المالية لا تسمح باستئجار السيارة ، فلا بأس ان تركب الترام او الاوتوبيس على ازدحامه مسايرة لحكم الضرورة ، لان اكثر الركاب لا يبغون من الزحام الا ان يصيبوا من امرأة غرضا خبيثا ، وقديما نزل العلماء على حكم الضرورة ، وسكتوا على الازدحام الذي يجمع بين الرجال والنساء في مناسك الحج ، وفي الطواف حول الكعبة ، فانه ازدحام لا يطلع فيه الرجل ولا المرأة الى اصابة غرض من الاغراض الفاسدة ..

★ ● ★

المـرأة والعمـل

ليس في الاسلام ما يمنع المرأة ان تكون تاجرة ، او طبيبة ، او محامية ، او محترفة لاي حرفة تكسب منها الرزق الحلال ما دامت الضرورة تدعو الى ذلك ، وما دامت تختار لنفسها الاوساط الفاضلة ، وتلتزم خصائص العفة التي اسلفنا بعضها .

وعيب هذه القضية هو العيب الذي نلمحه في كل موضوع من مشكلات المرأة ، اذ لا ينظرون في شيء من ذلك الى الاصلاح ، بل يخضعون للهواجس التي لا تفتأ تهمس في ضمائرهم بان المرأة عندنا لا تبلغ ان تكون راقية الا اذا صارت تاجرة ، وطبيبة ، ومحامية ، والا اذا خلعت ثوب الحياء والعفة ، وخرجت الى الشارع كاسية عارية تعرض انوثتها على عبيد الشهوات وذوي النفوس المريضة ..

ان رقي المرأة الحق منوط برقي انسانيتها : ثقافة عقلها ، وسمو خلقها ، وصفاء قلبها ، وطبعها .. ومنوط كذلك برقي ما تزاول من عمل في هذه الحياة .. ورقي العمل ليس مقاسا بما اصطلح الناس عليه انه رقي ، بل مقاس بحقيقة المثل العليا التي تبعث عليه او تبغي من ورائه ..

فاذا رحت تبحث عن حقيقة الرقي الذي تجنيه المرأة في المجتمع من هجر البيت ، الى السوق والعيادة والمكتب الخ.. لا تجد الا الخسارة الظاهرة والصفقة المردودة البائرة ..

لا مانع ان تعمل المرأة .. ولكن الحياة تخصص .. وخير التخصص وانفعه ما جاء من صنع الطبيعة واملائها .. فاذا خالفنا ذلك التوجيه وخرجنا عليه ، فقد غيرنا خلق الله في نفوسنا ، وتمردنا على سننه ، واخطأتنا المنافع واخطأناها ، ومن عرض صفحته للحق هلك .

لقد خرجت المرأة الغربية الى السوق والمصنع والشارع والمرقص ، تبغي في ذلك وغيره لقمة العيش .. فماذا صنعت لنفسها من كرامة ، وماذا صنع لها الغرب ؟؟

لقد ارخصوها وابتذلوا انسانيتها واهدروا كل قيمة ادبية لها .. واصبح القوم لا يستأجرون من الفتاة او المرأة الا انوثتها وخصائص طبيعتها ، لتؤدي في التجارة دورا معيبا ينحرف بها عن الكرامة ولا يمت الى عوامل التجارة

المعنى الذي اوردناه مناهضة للرقي ، ولا ان الفضيلة قيد ظالم لها يجب ان تتحرر منه .

ويجب ان يضاف الى هذا المبدأ ، مبدأ اصيل آخر ، تقرره الفطرة وتوجبه طبائع الاشياء ذلك ان البيت هو الميدان الطبيعي لرسالة المرأة .

وعلى ضوء هذين المبدأين نستطيع ان نتبين حكم الاسلام في اكثر ما يدور حول حقوق المرأة من قضايا ..

★ ● ★

اختلاط الرجـال بالنساء

فاختلاط الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال احـــد الموضوعات التي يثور حولها الجدل ، ويأخـذ من اهتمـــام المتناظرين اكثر مما يستحق .. فاذا تحدثت المرأة بمعانـي العفة ومظاهرها التي ذكرناهـا .. واذا علمنا — الى جانب ذلك — ان الاختلاط ليس له من معنى الا الرؤية ، والمقابلة والمحادثة في ضرورات الامور ، الفينا قضية الاخـــــتلاط مفروغا من امرهـا .

الاختلاط فى البيت :

ا — فالمرأة لا تأذن في بيت زوجهـا وهو شاهـد الا باذنه ، ولا تستقبل فيه احدا من الرجال الاجانب الا من تدعو الحاجة لاستقبالهم ، على ان يكون ذلـك بعلمه او باذنه ، او يكون ممن يجري عادة البيئة بدخوله كمـا يحصل في بيوت اهل الريف .

ب — اقارب الزوج والزوجة يجب ان لا يكثروا مـــن الدخول عليها ، ويطيلوا الجلوس معها بدون موجب ، وقـد نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن ذلك بقولـــه «اياكم والدخول على النساء» قالوا يارسول الله افرأيت الحمو ؟ قال . « الحمو هـو الموت » — والحمو هـو قريب الزوج او الزوجة — . يريد عليه السلام ان دخول الحمو على المرأة بصفة مستمرة يجلب في اعقابه اخطارا كبيرة ، فان من اقارب الزوج او من اقارب الزوجة من يتذرع بالقرابة ، فيطرق البيت بالليل وبالنهار ، وفي اليسر والعسر ضرورة .. وقد يترخص الزوج والعشيرة في قبول تلك الحالة والاغضاء عنها بحكم القرابة .. ولكن قد تقضي ذلك في النهاية الى عواقب وخيمة ، فمنها تقطع اواصر القربى .. او الطلاق .. وقد يكون منها اراقة الدماء والموت .

ج — وخلوة المرأة بالرجل الاجنبي في البيت او في اي مكان آخر محرمة ، الا اذا كان معها زوجها او ذو محـــرم لها . والاجنبي هو كل من عدا زوجها ، وليس بمحرم لها ..

والمحرم هو كل من لا يحل له زواجها على صفة التأبيد كأبيها واخيها وولدهـــا .

وليس ذلك النهي مؤسسا على سوء الظن بخلق المرأة انما هو مؤسس على ما في طبيعة البشر — رجـالا ونساء من احتمال الاستجابة اذا ما طالت فترات الخلوة ، فان تلك الفترات — مع فراغ البال ورخاء الحال — مما يجعل النفس تستشرف لتذوق الممنوع .. وفي تصويـر تلك الحالة يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . « اياكـم والخلوة بالنسـا والذي نفسي بيده ما خلا رجل بامرأة الا ودخل الشيطـــان بينهما » .. ومن هنا حرم الاسلام الخلوة بين الرجل والمرأة الاجنبية الا ان يكون معها زوجها ، او ذو محرم لها ، فعــن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس بينه وبينها محرم » .

وفي تلك الاحاديث ما يفيد ان مقابلة الرجل للمـرأة ومقابلة المرأة للرجل ليست محرمة لذاتها ، بل لما يترتب عليها من عواقب سيئة ، او يسبقها من سوء الظن والريبة وتسـرب الهمس ومقالة السوء .. فاذا لم يكـن هناك خلوة ، او كانت الخلوة ولكن مع ذي محرم فليس هناك من بأس او حرمة ..

★ ● ★

الخــروج مــن البيت :

ولقد قلنا ان البيت هو المكان الطبيعي لرسالة المرأة ، فيجب ان يكون الخروج منه مقيدا او مشروطا بعدم اهمال تلك الرسالة ، او الاخلال بحق من حقوقهـا .. كمـا يجب ان يكون له من الضرورات او الاسباب المشروعة ما يجعله سائغـا مقبولا ..

فلها ان تخرج لزيارة والديها واخوتها واخواتها . ومن تؤمن زيارتها له من اقاربها وصديقاتها .

ولها ان تخرج للصـلاة — واداؤها في البيت افضل — وضرورات العلاج ، وقاعات العلم والمحاضرات ، للتزود بما يثقف عقلها ويهذب نفسها ، ويفقهها في دينها ، ويبصرها بواجبها في الحياة .. على الا يكون في تلك القاعات عرضـة لمجون العابثين وفساد مرضى القلوب ..

ولها ان تخرج الى الحقل او السوق ، او الى اي مكان لا اثم فيه لشراء ما تحتاج اليه بيتها ، وقضاء مصالحها .

وقد كان نساء الصحابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده يفعلن كل ذلك ولا ضير عليهن .

اندهاش الفكر أمام آيات القرآن

للأستاذ: عبدالله الجراري

بعد ظهور الاسلام وبزوغ نوره الوضاء على أرجاء المعمور ـ انتشرت حركة تاريخية جعلت تتسع وتنتظم شيئا فشيئا حتى خلفت لنا ثروة ادبية من أغنى ثروات الادب العربي كانت من اهم العوامل وأبرزها فى هذا البعث .

هي اولا اضطرار المسلمين لتفسير الآيات القرآنية ومعرفة مناسباتها واسباب نزولها والمكان الذي نزلت فيه والحادثة التي تشير اليها وما الى هذا المعنى الكريم الذي يعد من ضروريات الوصول الى الهدف الاسمى الموجود حول النص وثنايا سطوره .

ومن الجلي ان معرفة هذا النوع يحتاج الى بحث تاريخي ـ فى حوادث الاسلام .

كان التفسير لهذا المدلول من العوامل التي دعت الى تدوين التاريخ والعناية بـه .

والقرآن الكريم ذاته قد أكثر من الاشارات الى الامم والقبائل والانبياء فى قصصه عن الغابرين فكان لهذه الغاية الشريفة ظاهرة جلية حفزت علماء الاسلام لفهم مضامين تلك الاشارات وتوضيحها .

وكان الاسلام فى حياته وتعاليمه قد أظل كثيرا من اليهود والنصارى ـ فلجأ اليهم المسلمون ليعرفوهم تلك الاشارات وما تحويه من رموز وغايات ـ وفعلا أخذ هؤلاء يحدثونهم بقصص التوراة والانجيل وشروحهما الشيء الذي دفع المسلمين لربطها بالتفسير والتاريخ .

واشتهرت هذه الاخبار ـ باسم الاسرائيليات ـ التي كانت تضم فى رواياتها واخبارها غثا وسمينا وخرافات ينبو عنها المنطق السليم ، ويتجلى هذا المعنى أجلى مظهر فى كعب الاحبار ، ووهب بن منبه ـ حتى ان آثارهما لا تزال قائمة فى كتب التاريخ التي بين ايدينا ـ بل كان وهب بن منبه التابعي الشهير اول من الف فى قصص الانبياء وسيرهم . وكان كل ما يروى عنه فيه ما فيه من الاساطير التي نشأت عن بني اسرائيل ومن على شاكلتهم ، كما ان السنة والحديث كانا بدورهما من عوامل تدوين التاريخ ـ اذ عنى المسلمون بجمع الاحاديث ليفسروا بها القرآن ويستنبطوا منها احكام الدين ، وهو معنى الآية « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » وكان من هذه الاحاديث جملة وافرة تتعلق بحياة الرسول عليه السلام والصحابة الكرام فجمعت فيما جمع حيث اصبحت بعد أساسا لكتب السيرة والمغازي .

أدرك بعض الخلفاء انهم فى حاجة ملحة الى نبراس يهتدون بهديه فى حياتهم وسلوكهم اذ لم يكن تراث عربي منظم فى فجر الاسلام يقتدون به ، كما انهم رأوا ممالك أجنبية بهرتهم حضارتها فتشوفت نفوسهم التواقة وأحبوا أن يعرفوا كيفية سياستها ونظامها فى ظرف كثرت فيه المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية شأن الدول لاول عهودها كما هو واقعنا اليوم الذي نعيش فى احضانه .

نعم نشأ عن ذلك هدم نظام الخلافة واقامة نظام الملك مكانه . وواجه العقل العربي ـ الذي كان ساذجا بسيطا فى جاهليته مشكلات حقيقية ـ منها ما يمس الدين والحضارة ـ ومنها ما يمس الحياة العادية والاجتماعية ، اشياء عرفته أن لابد من الاستعانة باخبار من سبقه ليستنير بها ، وهذا المؤرخ المسعودي فى كتابه (مروج الذهب) الجزء الثاني ص 52 يقول عن معاوية انه كان بعد ان يفرغ من عمله : (يستمر الى ثلث الليل فى اخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من اخبار الامم السالفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر ، فيها سير الملوك واخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان لـه مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الاخبار

الشريفة بصلة . واصبحوا لا ينظرون اليهـا الا على انهـا اداة ذات انوثة قديرة على الاثارة ومضاعفة الكسب .. فاي ابتذال للمرأة واي سقوط بقدرها الانساني اشنع من هذا السقوط ..؟

انه الرقيق الحر يساق الى اسواق النخاسة تحت سياط الحاجة والفاقة .. يساق للابتذال في المتاجر ، حيث تعرض الفتاة اثمن خصائصها — كانثى — سلعة الى جانب السلع لقاء اللقمة التي تقيم اودهـا ..

الهذا خلق الانسان ؟؟ او هذه قيمة المرأة في حضارة المادة ووثنية المال ؟؟ او هذا ما يراد لنا ان نقلده ؟

ان المرأة انسان كريم ، واسمى ما فيها انسانيتهـا الرفيعة . وقد قضت سنة الله ان تجعل كرامتها منوطة برعاية اماناتها الخاصة .. وان تجعل سعادتها منوطـة باداء وظائف تلك الامانات : اما ، وزوجة ، وربة بيت .. وبهذا تهنأ غريزة المرأة ، وتسعد وجدانها الازلي العميق .. فاذا بنينا مكانها في الحياة على هذا الاساس ، ووفرنا لها حقوقها على هذا النهج ، وصنا كرامتها ، وسعت سعادتهـا وهناءتها .. فان كانت اما ففي طاعتها رضوان اللـه ، وتحت اقدامهـا الجنة .. وان كانت زوجة صالحة فهي افضل ذخر يستفيده المرء من دنياه بعد تقوى الله .. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير ما يكنزه العبد من دنياه بعد تقوى الله الزوجة الصالحـة ..» فماذا وفرت لهـا حضارة الزيف واسواق النخاسة من كل ذلك ؟؟

ان المرأة في البيت تصنع للطفل رجولتـه ، وخلقـه العملي الناجح ، وتنشئه على ما تطلب الحياة الكريمة مـن فضائل .. فمن تمنحه ذلك اذا تركته للخدم او لسواهم ومضت الى عملها في الخارج ؟..

وهي في البيت المصدر الروحي لاشعاع الرحمـة والمودة على زوجها — كما ورد في القرآن الكريم — وهي بهذه المثابة المهاد الذي يلقى فيه الحنان والدعـة ، والعطف ، والسكينة ، فمن له اذا خرجت وعادت آخر النهار — مثله — مهـدودة القوى ، ضيقة النفس بما لقيت من عناء يومها ؟

ان المرأة تستطيع ان تخلق الرجل كل يـوم مـرة او مرات .. وهي بقيامها على المهد ، ورعاية طفولة ولدها ، انما تصنع مستقبل وطنها ، ولسنا ندري عمـلا للمرأة في الحيـاة يفوق في شرفه ، وسمو غايته هذا العمل .. ولكننا اصبنا بتقليد الاجانب فلا نحس اننا امة راقية الا اذا رأينا نساءنا وفتياتنا عاملات كادحات ، وعلى نحو ما هو معهود عند الغربيين .

قال بعضهم : انها تكاليف الحياة الباهظة ، توجب ان تعمل المرأة الى جانب زوجها مساعدة له .. وكأنهم بذلك يحكمون في معايير السعادة ، وحقائـق مثلها العليـا ، ويمسخونها مادية صرفة . تعبد المال والشهوة والترف في محاريبها وكل انحائها .. ومسخ الحياة على هذا الوجـه اخطر ضروب الفساد والشقاء ، لانه ارتداد من فطرة اللـه التي تسد الساقطة والمثل العليا ، الى حياة تنشد التعقيـد والتلفيق وعماده مطالب البدن .

ولقد قامت فـي امريكا خبيـرة اجتماعية هي الدكتورة « ايدا اليس » تحمل علـى اشتغال المرأة بالاعمال الحرة — تاركة بيتها وابناءها — لتساعـد زوجها علـى رفـع مستواهم المعيشي ، فارتفع مستوى المعيشة ، وانحط مستـوى التربية والخلق .. ثم ان الفارق الكبير بين المستوى الخلقي لهذا الجيل ، والمستوى الخلقي للجيل الماضي ، انما مرجعـه الى ان الام هجرت بيتها ، واهملت طفلها وتركته الى من لا يحسن تربيته .. واندرت قومها سوء المصير اذا استمرت الحال على ما هي عليه ، ونادت بضـرورة عودة المرأة الى بيتها لتزاول فيه شعائر الامومة ، واختصاص الزوجة وربة البيت ..

ان الدين لا يحرم على المرأة ان تعمل ، ولكنه يحـرم ان تهجر ميدانها الطبيعي بدون عذر الى ميدان يعمره الرجال بكل كفاءة ومقدرة ، حيث لا حاجة اليهـا .. فاذا غشيت المرأة ميدان العمل العام ، ولكن عند الضرورات التي تجعل جهدهـا فيه اجدى على الامة من بقائها في ميدانها الطبيعي .. امـا التقليد السخيف — دون مراعاة لطبائع الاشياء — فتفاهة ونكسة لا يرضاها للمرأة اي كانت ، مسلمة او غير مسلمـة ..

★ ● ★

الاسلام دين الفطرة ورأيه في مشكلة المرأة .. هو رأي خالق الكون سبحانه وتعالى : « يعلم ما في النفـوس وطبائع الخلق » فرسم لهم بوحيه طريق الحياة .. وهل يعلم قوما جادوا في حل مشكلة من مشاكلهم عن طريق اللـه وافلحـوا ؟

البهـي الخولي

والحقيقة أنه لولا الكتب الدينية ، وما خلفه اولئك الانبياء من تعاليم ومباديء اخذت تنتقل من جيل الى جيل لما علمنا شيئا عنهم ــ وهذا ما سبب الجهل والغموض اللذين اكتنفا زمن ظهور هؤلاء الرجال العظام حتى لا يستطيع احد من المؤرخين أن يحدد متى ظهر موسى او يوسف او ابراهيم صلوات الله عليهم وان حاول شيئا من هذا فانما هو عبارة عن نواريخ تقديرية وهمية لا ترتكز على حقيقة علمية كقولهم عن دعوة ابراهيم من دور الكلدانيين الى ارض كنعان انها كانت سنة 1921 قبل الميلاد ، وانه عمر 175 ، كما ان يوسف قبضه الله اليه سنة 1635 قبل المبلاد وموسى سنة 1451 قبل الميلاد .

وبما ان القرءان الكريم آخر الكتب السماوية نراه قد جمع كل ما فى الكتب السالفة مسهبا حينا ، وموجزا حينا آخر ، ولكنه بحكم نزوله بعد الانجيل قص علينا الحقبة التي بين عيسى ومحمد عليهما السلام بالتفصيل ، فقص علينا قصة أهل الكهف واصحاب الاخدود وغزوة ابرهة لمكة . كما اخبرنا عن عيسى عليه السلام باشياء لم يتناولها الانجيل ، مثال ذلك تكليم عيسى الناس فى المهد ونزول مائدة عليه من السماء وتكوينه من الطين على هيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ــ وقد اعترف الانجيل نفسه انه لم يلم بكل معجزات عيسى بقول يوحنا فى انجيله (واشياء كثيرة صنعها يسوع ان كتبت واحدة واحدة فلست اظن ان العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة)

ونعلم ان القرءان الكريم انزل مجزءا مفرقا حسب ما تتطلبه الحوادث ــ وكان فى هذه الحالة داعيا الى الاخبار باشياء ادى اليها حب استطلاع اصدقائه واعدائه المريدين تحديه باسئلتهم التي ظنوها تحمل الاعجاز فى ثناياها ــ فقص علينا قصة ذى القرنين الذي اختلف المفسرون فيه ــ فالبعض منهم يقول انه ــ الاسكندر المقدوني ، ويقول البعض الآخر انه شخص آخر مختلف عنه كل الاختلاف ، ويظهر أن هؤلاء هم أصحاب الراى الصحيح .

وقد ازال القرءان اللبس المحيط بكثير من المسائل وحددها تحديدا واضحا جليا لا غموض فيه وللقرءان ميزة تاريخية اخرى هي دقته المتناهية بحيث انك اذا اردت ان تعبر عن حادثة تاريخية تعبيرا موجزا وافيا بالغرض واضحا بينا يؤدي كل ما ترمي اليه بحيث يغني قارئه ــ وسامعه عن اي تفسير وايضاح لم تجد ما يعادل تعبير القرءان اذ تجد فيه فوق ما ترنو اليه وتصبو .

انظر اليه وهو يصف ديانة المصريين القدماء على لسان نبيه يوسف الصديق عليه السلام فى سورة يوسف قال : « يا صاحبي السجن آرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه الا اسماء سميتموها انتم وءاباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر الا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

وهل هناك خير من هذا واكثر توضيحا لديانة قدماء المصريين ؟

الم يكونوا يعبدون ءالهة متعددة ، بل كان لكل بلدة الهها الخاص ــ آرباب متفرقون ــ

وكان يحدث بين الحين والآخر ان تنتشر عبادة اله من هذه الالهة عندما يعظم شأن البلدة التي ــ يعبد فيها ــ ، كروع (اله عين الشمس) وءامون (اله طيبة)، و (تحوت) اله العلم والحكمة وغيرها من الاسماء الخيالية التى اخترعتها عقولهم .

ولقد بين القرءان الكريم حقيقة أخرى متعلقة بديانة قدماء المصريين بايجاز وجلاء ، وهذه الحقيقة هي تبيانه ــ ان فرعون يعتبر فى نظر المصريين الههم الرئيسي الذي بيده كل شيء بينها الله تقدست اسماؤه فى سورة النازعات : قال « فحشر فنادى فقال: انا ربكم الاعلى »

وهذا عين ما قاله التاريخ بعد ان ازيح الستار عنه وكشفت غوامضه فى القرنين الاخيرين اذ كان المصريون يقدسون الملك ويعتبرونه اكبر ءالهتهم ، وكانوا يسمونه (بحوربس الحي) ، وقد راعوا فى بناء أهرامهم وقبور ملوكهم ان تكون فوق الروابي لتتمكن الفراعنة (فى نظرهم) من الاشراف على البلاد فى مماتهم ، كما كانوا فى حياتهم ، ولم يقتصر القرءان على موضع واحد فى الاشارة الى هذا الاعتقاد ، بل اشار اليه فى سورة الشعراء فى خطاب فرعون الى موسى : قال : «لئن اتخذت الها غيري لاجعلنك من المسجونين»، وفى سورة القصص فى خطاب فرعون الى شعبه : « وقال فرعون : يا ايها الملأ ما علمت لكم من اله غيري » .

ولكن اعجاز القرءان الكريم لا ينحصر فى دقته واعجازه البلاغي فحسب كما يفعل الزمخشري فى كشافه ، وعبد القاهر الجرجاني فى اسرار بلاغته ودلائل اعجازه ، والاصم يوسف السكاكي فى مفتاحه ــ ولكنه يتعداه الى اعجاز علمي يظهر فى تاريخه المستقبل وحوادثه تاريخا حقا واقعيا لا ياتيه الباطل من بين

والسير والآثار وأنواع السياسات . وهذا ما نحن في اشد الحاجة اليه لا سيما وقد انفتح في وجوهنا باب المعارف على مصراعيه ، ولم يبق بيننا وبين الاشراف على غاياته سوى التوجه عن حماس وصدق ، كان الاجانب الذين أظلهم الاسلام بظله يفخرون على العرب بتاريخهم وحضارتهم ويروون لهم افعالهم المجيدة في ماضيهم ، فاضطر العرب الى ابتكار تاريخ لهم يستطيعون به الوقوف بازاء هذا الفخر الاجنبي ويظهرون لابنائهم وغيرهم من الامم انهم وان كانوا حديثي عهد بالحضارة ليسوا اقل من الامم الاخرى مجدا ومكانة ، وكان هذا من دواعي ظهور الكتابة التاريخية في الامة اليونانية

كان نظام الحكومة الاسلامية وخاصة النظام المالي من العوامل التي أدت الى قيام الحركة التاريخية وانتشارها ، لان الضرائب (الخراج) على البلدان المختلفة تتباين حسب فتحها صلحا أو عنوة أو بعهد .

وكانت المعاملة السياسية والاجتماعية نفسها تختلف في بعض البلدان تبعا لما حدث في أثناء فتحها فدعا كل ذلك والنظام المالي خاصة الى بحث تاريخ الفتوح والاهتمام بهذا الفرع من التاريخ .

ودعا النظام المالي الى نشوء فرع آخر من التاريخ وكان ذلك لان نظام العطاء تغير منذ عهد الخليفة عمر الفاروق — حيث صار بحسب الاسبقية الى الاسلام ، اي ان الذين اسلموا في أول الدعوة يأخذون من العطاء اكثر مما يأخذ من أسلم بعدهم ، ومن اسلم وهاجر يأخذ اكثر من المسلم بعد الهجرة ، ومن أسلم وشهد بدرا اخذ اكثر من لم يشهدها من الذين أسلموا بعدها . وهكذا . فكان هذا النظام سببا في البحث الدقيق في الدعوة الاسلامية وانتشارها ، كما كان العطاء مرتبا ايضا حسب الانساب — أي يبدأ بقرابة النبي صلى الله عليه وسلم الاقرب فالاقرب ، ثم قرابة أبي بكر ثم عمر ، وهكذا فالانصار فجميع المسلمين .

ومن الواضح ان هذا النظام يدعو بطبيعته المنضبطة الى البحث في الانساب ، التي كان من حذاقها وحاملي رايتها العربيان — دغفل بن حنظلة نسابة العرب ، وزيد بن الحارث

احاديث من ابناء عاد وجرهم
ننورها العضدان زيد ودغفل

نعم كان في المقدمة الخليفة الاول ابو بكر الصديق رضي الله عنه ، ومن هذه المعرفة نشأ هذا النوع من التاريخ ، كما ظهرت كتب الطبقات

ثم ابتدات حركة التاليف في العلوم الاخرى المعروفة بين العرب لذلكم العهد الفتي حتى اننا نجد الصحاري العبدي يؤلف كتابا في الامثال ، ثم يتطور الامر بمرور الزمن فتترجم بعض كتب الكيمياء في عهد خالد بن يزيد بن معاوية — وله هو نفسه كتب منها كتاب الحرارات ، وكتاب الصحيفة الكبير ، وكتاب الصحيفة الصغير ، وكتاب وصيته الى ابنه في الصنعه اما الكيمياء التي ترجمت بعض كتبها له فقد كان بعض علماء السلف يحذر منها ويجعل تعاطيها من السحريات التي تفضي بالاشياء الى قلب حقائقها — وليس السحر بشيء ومن ضمن الحركة التاليفية ان عمر بن عبد العزيز امر بجمع الحديث وترجمة كتاب في الطب . كل هذه الحركات تدل على ان العقل العربي كان يعاني تحولا خطيرا ، وانه اخذ في التحضر والتمدن السريعين والمشاركة في التدوين والتاليف ، (وابن جريج أول الذين دونوا الكتب لنا بدوينا)

ولا ينسينا هذا ما كان من عناية في الجاهلية بالانساب والايام بل ازداد قوه في العهد الاسلامي بما كان الشعراء يقومون به في ميدان الفخر والهجاء والنقائض التي شاعت في هذا العصر . وكان لها المقام الاول في شعر الفحول . كما ان هذا النوع من التاريخ اتخذ لونا جديدا ايضا ، هو العناية بغزوات الرسول . فما كان ذلك النوع من التاريخ الا استمرارا لما عهد عند الجاهليين الا ان الاسلاميين دونوا والجاهليين حفظوا ورووا .

واننا لنعلم في نفس الحال — ان هناك كتبا مقدسة — هي التوراة والانجيل والقرآن —

ونعلم كذلك ان معظمها قصصي ديني — وهو يختلف عن القصص السياسي أو التاريخ السياسي في انه يتناول فقط تاريخ الحركات الدينيه . وان تناول الحالة السياسية والشخصية والاجتماعيه فانما يتناولها من ناحية علاقتها بالناحية الدينية فحسب .

وهذه نفس الحال في التاريخ السياسي القديم فهو يتناول الحركات السياسية والاجتماعية والحربية وان تناول الحال الدينية فانما يتناولها من ناحية السياسة .

لهذا نرى التاريخ السياسي لا يشير الى ظهور بعض الانبياء ولا يعرفنا عنهم شيئا مما دعا بعض الناس الى التشكك فيهم واعتبارهم اشخاصا وهميين — يتعرض المؤرخون لابراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام ، كما لم يذكر مؤرخو الرومان شيئا عن عيسى وبدء حركته .

نعم اثناء الحركة ، اندفع احد الفريقين للدعوة الى المباهلة حيث يكون مقر اقامتها الجزائر الشقيقة المجاهدة ، غير ان الموقف الذي تحدثت عنه الآية ، ومثال الدعوة هو ما جرى فى الحركة المغربية اذ تهيب احد الفريقين الدخول فى جو المباهلة خيفة الفضيحة ، ولكن ابى الله تعالى الا تنتصر الحركات الاصلاحية ويضمحل الباطل واهله وليست هذه اول الحركات بل تقدمنها انتفاضات أولية قام بها جماعة من الاخوان الرباطيين رحمة الله عليهم : كالحاج المعطي جوريو والحاج محمد البحراوي والازرق ــ وسواهم من المشاركين فقاموا ضد فرض ضريبة جديدة عن وقاية الدكاكين (كيام) الشيء الذي دفع الفرنسيين الى نفي بعضهم وسجن البعض فكانت تلك الوثبة كأولى وثبات وطنية ظهرت بالمغرب تلتها حركات موفقة كان النصر حليفها .

وهكذا قوة الحق اذ تجلت ارتعد الباطل لها وتقهقر فلم تكن منهم الا أن اذعنوا للرسول صلوات الله عليه وتفادوا المباهلة ، وارتضوا الجزية كما تعاهدوا ان لا ياكلوا الربا او يتعاملوا به ثم رجعوا الى قومهم .

اما النبي صلى الله عليه وسلم فرجع وهو يقول: والذي نفس محمد بيده لو تباهلوا لمسحوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي نارا ولاستأصل الله نجران واهله حتى الطير على الشجر) .

حكمة بالغة وحجة دامغة ــ تحداهم النبي عليه السلام بها ــ ان يقفوا فى صعيد واحد فيدعوا الله ان ينزل لعنته على الكاذبين فما كان منهم الا أن ولوا مدبرين ولو كان الحق بيدهم لما وجلوا ولا خافوا ، ولكن علموا صدق قول الرسول فخشوا العاقبة ، واستنكفوا ان يهجروا دينهم الى الدين الجديد الذي علموا انه الحق بعد ان كانوا يظنون انهم به سيظفرون.

ولكنها هيمنة القرءان التاريخية والعلمية ــ « وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » .

فالقرءان العظيم له طابعه الخاص فى التاريخ حيث يتناول الحوادث تناولا يدل على استقلاله العلمي وله فى وسطها اسلوبه الخاص يدل على هذا الاستقلال اذ ذكر عن عيسى عليه السلام اشياء لم يتناولها الانجيل نفسه كما أشير اليه من قبل ، ولم يقتصر الامر على الانجيل بل ان هيمنته التاريخية تناولت التوراة فى أعظم شخصياتها : موسى ويوسف وابراهيم عليهم السلام عدا كثير غيرهم من الانبياء الكرام .

فالتوراة لم تتناول حياة ابراهيم بين الكلدانيين ومجهوداته لاقناعهم بوجود اله واحد ومحاولته نشر دعوته وتحطيم اصنامهم وقذفهم به فى النار ونجاته منها ، ولم تتناول علاقته بوالده وما دار بينهما كما لم تتكلم عن اعادة بناء اسماعيل وابراهيم للبيت الحرام ، بينما تناول القرءان الكريم هذه الموضوعات بما ليس فيه زيادة لمستزيد وبأسلوبه الشيق الجذاب الذي تحار أمام عظمته الالباب ، اما عن يوسف فان التوراة لم تتعرض لكيفية ظهور براءته مما نسبته اليه امراة العزيز من اتهامه بمحاولة هتك عرضها بينما شرحها القرءان شرحا وافيا .

وشهد شاهد من اهلها ــ هو ابن عم لها وابن خال لها ــ والقى الله الشهادة على لسان من هو من اهلها لتكون أوجب للحجة عليها واوثق لبراءة يوسف .

« ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » كما ان التوراة لم تتكلم عن حادث النسوة اللاتي بهرهن يوسف بجماله فقطعن ايديهن كما لم تبين لنا الموقف العظيم الذي وقفه حينما ابى الخروج من السجن الا بعد أن تعلن براءته على الملا وان تسأل النسوة لتقررن الحقيقة يقول الكتاب : « قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء قالت امراة العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين » .

خرج يوسف ومثل بين يدي فرعون ليكون عنده المتصرف الامين على خزائنه وارضه وافوات رعيته خرج ليأمر فيطاع « تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تاكلون » طريقة طريقة فنية لحفظ القمح من السوس والتلف ــ لقد حار الناس كيف حفظ يوسف القمح سبع سنين اذ لم تفسر التوراة ذلك ، والسوس يتسرب الى المخزون منه بعد اربعة اشهر على الاكثر فكيف تسنى ليوسف انقاذ مصر وانقاذ قوتها .

هنا تظهر عظمة القرءان الكريم اذ ابان لنا تلك الطريقة العجيبة على الرغم من بساطتها .

اتى اخوة يوسف الى مصر للمرة الثانية فاحتجز يوسف شقيقه بنيامين ، ولكن التوراة اغفلت ذكر رجوعهم الى ابيهم واخباره بفقدان اخيهم كما لم تذكر ما ترتب على علم ابيهم بفقد ولديه العزيزين من حزن شديد كان من جرائه ذهاب بصره (وتولى عنهم وقال يا اسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم) اذ تقول التوراة فى سفر التكوين الاصحاح

يديه ولا من خلفه . وتلك بحق ءايته الكبرى ومعجزاته الخالدة التي تتجلى عند المعارضة والتحدي —

وقتما وقف ابناء الاسلام والنصرانيــة وجهــا لوجه ، وظهر فى الافــق دين سماوي جديــد عــز على اليهودية كما عز على النصرانية ان يبــدو من الاعلــى نبراس ءاخــر يجتــذب اليه عيــون الناس وافئدتهم وتخوف كل منهما على مكانته ان تضمحل ، وان يحتل هذا المصباح الوضاء مكانة الصدارة منهما .

اما اليهود فبعد تفكيرهم الطويل لجاوا الى الكيد لهذا الوليد الجديد رجــاء ان يكتموا انفاسه وهــو فى مهده ، فاخذوا يؤلبون العرب عليه ، ويحرضونهم على محاربته وقد نجحوا جملة فى هــذا فتحالفت قبائــل العرب واليهود وحاصروا المدينة فى غــزوة الخنــدق — ومما زاد فى محنة المسلمين — ان حلفاء الرسول عليه السلام وهم يهود بني قريظة نكثوا عهدهم ، وتخلفــوا عن النبي وانضمــوا الى اعدائــه — ، فضاقت الدنيــا بالمسلمين وزلزلوا زلزالا شديدا فقد كانت بلاد الحجاز كلها تطبق عليهم فى المدينة ولكنهم خرجــوا من هــذه المحنة ءاخر الامر سالمين . وتفــرق الحلفاء بعــد ان صمدت لهم المدينة فاستعصت عليهــم وبذلك ارتــد سهم اليهود الى نحرهم وعادوا خائبين خاسرين

(حسبتهم سهاما صائبات فكانوها ولكن فى فؤادي)

وطفق هذا النور الذي حاولوا اطفاءه يزداد تألقا ويسمو حتى عم الجزيرة ، واضاء العــراق وفــارس والهنــد ، ووصل الى الصيــن ، واشرق على الشام ومصر وشمال افريقيا ووسطهــا وشرقهــا واطراف آسيا وقلبها وجنوبها وعبرت مناريه البحــر الابيــض والقلزم حتى جنوبي روسيا ، أما النصرانيــة فنحت حياله منحى ءاخر — فوقفت امامه تحاجــه تريــد أن تلزمه الحجة —

لهذا وفد من نصارى نجران وفــد على الرسول الاكرم محمد عليه السلام — يريد ان يتحدى الاســلام والقرءان عرض عليه النبي الاسلام فقال : (اننا نحــن المسلمين حقا) فما كــان منه صلوات الله عليــه الا ان أفهمهم ان ثلاثــة أشياء ، تمنعهم عــن الاسلام : أكــل الخنزير ، وعبــادة الصليب ، وقولهم ان لله ولــدا . فما كان منهم الا أن سألوه سؤالا ظنوه معجزا وهو : (من ابو عيسى) وهنا تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان مثل عيسى عند الله كمثل ءادم خلقه من تــراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين، فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقــل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة على الله على الكاذبين ان هذا لهو القصص الحق وما مــن اله الا الله » وقــد حسم الله بهذه الآيات هذا الخلاف فأفهمهم ان عيسى ما هو الا عبد من عبيد الله خلقه من غير أب ، وان هناك سابقة لهذا اشد وقعا فى النفس من ميلاد عيسى وهي خلــق الله ءادم من غير اب ولا أم ، وكأن القرءان الكريم يــرد عليهم بسؤال من نوع سؤالهم الا وهو من أبو ءادم . ثم افهمهم ان كثرة المجادلة غير مجدية ، وانهم اذا كانــوا لا يزالون يصرون على قولهم فأحسن طريقة لحسم هذا النزاع هو ان يلتجيء الفريقان الى الله فيدعوانــه ان ينزل لعنته على الفريق الكاذب منهما .

هنــاك ظهــرت قــوة الحــق وبلبلــة الباطــل فعندما دعاهم النبي عليه السلام الى المباهلة أرجــأوه حتى يتشاوروا فلما انعقد جمعهم قــال لهم رئيسهم : (والله لقد عرفتم نبوته ، ولقد جاءكم بالفصل فى أمــر صاحبكم والله ما باهل قوم نبيا الا هلكوا فان أبيتم الا دينكم فوادعوا الرجل) — ولكن محمدا صلــوات الله عليه كان واثقا من نفسه ومن حقه المؤمن بربــه غــدا محتضنا الحسين ءاخذا بيد الحسن وفاطمة تمشــي خلفه وعلي رضي الله عنه وراءهما وهو يقول لهم : اذا دعــوت فأمنــوا .

فى هذا الظرف الحاسم قال الاسقف : (يامعشر النصارى اني لأرى وجوها لو سألوا الله عز وجــل ان يزيل جبلا من مكانه لازاله فلا تباهلوا فتهلكوا) .

واظــن اننــا لانــزال نستحضر أولى حركاتنــا السلفية بالمغرب حركــة الاصلاح المبنيــة على أساس الاتحاد المؤرخة بــ سنة 1345 الموافق 1926 م وقتــا وقف فيه شيوخ الطرق المزورون وادعيــاء الزوايــا واذناب الاستعمار منهم على الاخص حجــر عثــرة فى سبيل حركة الشباب الواعــي والسعــي فى مناقضتها والعمل على اقبارها فى المهــد .

اذ كانت الجزائر ءانذاك تعمل على نشر الاسلام الصميم بين شباب الامة وانقــاذ الشعب من براثــن الاستعمار وسمومه الفتانة الفتاكة — فحمــل رايــة الدعوة المفغور له (عبد الحميد بن باديس) وجماعــة من اخوانه الاباة ، وفتحوا مدرستهم السلفية فى وجــه ابناء الشعب كما بعثوا صوتهم المدوي فى جنبات العالم العربي على صفحات الشهاب والبرق ضد بلاغ المشعوذ ابن عليوة المدفوع هو وجماعته مــن طرف الاستعمار الخبيث .

الاجابة على هذا ترجع لعلم التحقيق الجنائي وهو بالطبع حديث النشأة لم يظهر لعالم الوجود الا في اواخر القرن التاسع عشر ، ويشير الاستاذ (محمد ك شعير) في كتاب له في الموضوع حول ترجمة (بصمات الاصابع والايدي) قائلا : (ليس ما نقرأه من الوقائع المدهشة (لشرلوك هولمز) و (وكارتر) وامثالهما وما يكتبه الروائيون امثال (كونان دويل) و (ليكوك) وسواهما وما نراه يشخص على الشاشات ودور الصور المتحركة من الروايات البوليسية الغريبة التي يتعقب فيها رجال الشرطة السرية الجناة ويتعرفون أشخاصهم مظهرين حقيقة امرهم — من اناء مسوه او وعاء أمسكوه أو كوب شربوا منه أو خزانة فتحوها — ليس كل هذا حديث خرافة — وانما هي ثمرة العلم الحديث ونتيجة مجهودات العلماء الذين اتوا بالمعجزات في فن بصمات الاصابع والايدي — ولم يكن استخدام بصمات الاصابع في الجنايات للتعرف على شخصية تاركها وترتيبها بطريقة ثابتة للاستعانة بها في استخراج السوابق — لم يكن معروفا في اوربا الا حديثا فقبل سنة 1890 م لم يعرف عنها شيء في الحياة العلمية الشيء الذي جعل اختصاص اليدين والرجلين في الآية دون بقية الاعضاء معجزة قرآنية احدث الابحاث العلمية بكشف عنها في القرن العشرين .

ومن العجب ان جميع السورة بما تقدم ذلك يقول الله سبحانه (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم الآية) . كأنه جلت عظمته يقول : اختصاص شهادة الايدي والارجل دون بقية الاعضاء — أمر يشكل عليكم ولكن سأظهر لكم بعض سره في الدنيا ، وقد اظهره تعالى في عصرنا الحالي — فكانت المعجزة لهذا مزدوجة — اولا اختصاص اليدين والرجلين ، ثانيا ظهور ذلك بالفعل لمكان — سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم ، ومن معارف الكتاب والوان انواره الساطعة ما تضمنه من باهر الآيات ، قوله تقدست أسماؤه في سورة الانعام : « ومن يرد الله ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كانما يصعد في السماء » تحمل الآية في مدلولها الكريم : ان من فسدت فطرته بالشرك وتدنست نفسه بالآثام والاوزار — يجد في صدره ضيقا انما ضيق اذا طلب اليه التأمل فيما يدعى له من دلائل التوحيد والنظر في الآفاق والانفس لما استحوذ على قلبه من باطل التقاليد والتعلق بعادات الآباء والاجداد والاستكبار عن مخالفة ما الفه وسار عليه الناس وتضعف ارادته لحد يعجز عن ترك ما هو عليه فتكون اجابته الداعي الى الدين الجديد ثقيلة عليه ويشعر في الوقت نفسه بالعجز عن احتمالها ويكون مثله مثل من يصعد في الطبقات العليا في جو السماء اذ يشعر بضيق شديد في التنفس ، وكلما صعد في الجو اكثر شعر بضيق اشد حتى اذا ما ارتفع الى اعلى من ذلك — شعر بتخلخل الهواء ولم يستطع سبيلا الى البقاء ، فان هو بقي فيها قضى نحبه اختناقا — فهنا نرى كيف ضرب الله مثلا لضيق النفس المعنوي بمن دعي الى الحق وقد ألف الباطل وركن اليه — بضيق النفس الذي يجده من صعد بطائرة الى الطبقات العليا من الجو حتى لقد شعر بأنه اشرف على الهلاك وهو لا محالة هالك ان لم يتدارك نفسه وينزل من هذا الجو المختنق الى طبقات اسفل ، انها لآية خالدة نطق بها الكتاب المقدس من قبل ان يفهم سرها البشر وما ادرك كنهها الا بعد ان مضى على نزولها نحو 14 قرنا .

وتقدم فن الطيران وما اليه من خوارق الاجواء — وبالتجربة — صدق الكتاب ودل بوضوح على صحة ما ثبت في علم الطبيعة من اختلاف الضغط الجوي في مختلف طبقات الهواء فكلما صعد الانسان الى طبقة اعلى شعر بالحاجة الى الهواء وبضيق النفس ذلك لقلة الهواء المليء بمادتي الاكسجين والادرجين الدعامتين الاساسيتين للحياة وذلك ما يحفز رجال الفن اذا ما اضطروا للتوغل في اجواء الفضاء الى استعمال جهاز التنفس ليساعدهم على السير في تلك الطبقات والاحتفاظ بحياتهم الطبيعية .

وهذه الآيات البينات التي المعنا اليها وغيرها كثير لم يستطع علماء التفسير ايضاحها ايضاحا يكشف ما تحمله من اسرار اذ لم يهتدوا للمودع في ثناياها الى ان جاء الكشف الحديث وتقدمت العلوم ، واصبح في متناول البحث العلمي بيان مغزاها وكشف المراد منها حسبما اثبته العلم ، ومن هذا المعنى صح ما قالوا : (الدين والعلم صنوان لا عدوان) وهكذا دواليك كلما تقدم العلم ارشد الى ايضاح قضايا خفي امرها على متقدمي العلماء ومن عني بالتفسير وعلومه على الاخص — ولا بدع ان يدخر لبعض المتأخرين ما عسر فهمه على المتقدمين — يؤتي الحكمة من يشاء .

الرباط : عبد الله الجراري

الرابع والاربعين على لسان اخوة يوسف فى رجاء موجه اليه (هنا نحن عبيد لسيدي ، نحن والذي وجد الكأس فى يده جميعا) فقال : حاشا لي ان افعل هـذا .

الرجل الذي وجد الكأس فى يده هو يكون لي عبدا

(اما انتم فاصعدوا بسلام الى ابيكم) ولم يردف ذلك بقوله هل هم ذهبوا أم لا ؟

وانما اردفه برجاء لكبيرهم يهودا عارضا نفسه بدل اخيه لشيخوخة والده وخوفه من هلاكه لشدة حزنه ، ثم يتلو ذلك الاصحاح الخامس والاربعون حيث يبدأ بتعريف يوسف نفسه لاخوته وهنا يحدثنا القرءان الكريم عن طريقة استرجاع يعقوب لبصره كما حدثنا عن سبب ذهابه فأفهمنا انه شفي بمعجزة تتلخص فى وضع قميص يوسف فى وجهه فارتد بصيرا ، بيد ان التوراة لم تذكر شيئا عن هذا الامر .

هذا عن يوسف عليه السلام

اما عن موسى فان القرءان انفرد دون التوراة بالمعلومات التالية :

1) الشرط الذى اشترطه شعيب على موسى لتزويجه احدى ابنتيه (على ان تاجرني ثماني حجج فان اتممت عشرا فمن عندك) وقضاء موسى ابعد الاجلين

2) ايمان السحرة الذين تحدوا موسى وسجودهم لله وصلب فرعون لهم وتعذيبهم .

3) امرأة فرعون وايمانها خفية وأمر فرعون لهامان ان يبني له صرحا ليطلع على اله موسى .

4) انتشال جثة فرعون بعد غرقه (اليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك ءاية) .

5) مؤمن ءال فرعون الذي اخذ يعظ الشعب ليهديهم سبل الرشاد ـ هذه بعض الامثلة على هيمنة القرءان التاريخية وانها لهيمنة تظهر بوضوح وجلاء كلما امعن الانسان البحث فى ثناياه .

وليست هذه الهيمنة قاصرة على التاريخ فحسب بل ان جلاله وهيبته وقوة عظمته تشمل جميع النواحي فهو يبسط سيطرته الجبارة فى كل ما يتناوله من تشريعات دينية واخلاقية ونواميس تربوية واجتماعية وحقائق علمية وفلكية ومعلومات طبية وأخبار غيبية لها أسرارها الباهرة ومعارفها المشرقة تحدث عنها منذ ما يقرب من 14 عشر قرنا واليوم اصبحنا نرى اقطاب الفكر فى العالم يطلعون علينا بين الفينة والفينة بنتائج ابحاثهم العلمية وعصارات افكارهم المدهشة التي سبقوا اليها بقرون ، قد لانشك انها ستحفزهم يوما للايمان به وبعظمته وبما جاء به من مبادي وءايات اذا ما امعنوا النظر فى ءايه المقدسة وما تحويه فقرها المتناسبة الخالدة من عجائب وقف دونها رجال الفكر ودكاترة المعرفة والفلسفة مشدوهين .

وليسمح لي الاخوان لاعرض امثلة فى الموضوع ـ كدليل ـ نتبين من بين سطورها تلك الاسرار القدسية الكامنة بين دفتيه يقول الله تعالى فى سورة النساء « ان الذين كفروا بئاياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » ـ اعد سبحانه لجاحد ءاياته المنزلة على انبيائه نارا مسعرة تشويهم وتحرق اجسامهم حتى يفقدها الحس والادراك قال جلت قدرته : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » اي كلما فقدت التماسك الحيوي وبعدت عن الحس والحياة بدلها جلودا اخرى حية تشعر بالالم وتحس بالعذاب .

يقول الدكتور عبد العزيز اسماعيل باشا رحمه الله عليه فى كتابه (الاسلام والطب الحديث) الحكمة فى تبديل جلود الكفار ـ ان اعصاب الالم هي فى الطبقة الجلدية واما الانسجة والعضلات والاعضاء الداخلية فالاحساس فيها ضعيف ، ولذلك يعلم الطبيب ان الحرق البسيط الذي لايتجاوز الجلد يحدث الما شديدا بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد الى الانسجة لانه مع شدته وخطره لا يحدث الما كثيرا ـ فهو يقول ان النار كلما اكلت الجلد الذي فيه الاعصاب نجدده كي يستمر الالم بلا انقطاع ويذوقوا العذاب الاليم ـ كذا نرى هذه الجملة الشرطية الواحدة ترسم هذا المشهد المخيف العنيف الذي تتجلى بين احرفه الموبة حكمة الباري سبحانه قبل أن يعرفها الانسان طوال 14 قرنا .

وتلك ءاية ـ يس ـ يقول الله تعالى : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون » فخرس الله اللسان وينطق اليدين والرجلين قابلا شهادتهما وهو سبحانه يقول فى الآية الاخرى : « يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون » سوى سبحانه بين شهادة الثلاثة ، ما السر الذي يظهر فى اختصاص اليدين والرجلين بالشهادة دون باقي أجزاء الجسم مع انها كلها متساوية اذ لا يبدو تغير فى هيئتها الاصلية مدة الحياة ؟

اسرار بين الحكومات وموظفيها ، وقد كان اخبرني هذه مدة من نحو اربعين سنة رجل كان موظفا بقنصلية المانيا في فاس ان القنصل الالماني اذا اتاه تلغراف من حكومته او موظف كبير منها مثل السفير ، اغلق عليه محله واختلى بنفسه لفك رموز ذلك التلغراف .

وبهذا المعنى الذي اوضحناه في هذه الالفاظ الرمزية المفتتح بها بعض السور ، يظهر ان تقسيم الائمة رضي الله عنهم ما نزل على النبي عليه السلام من قبل ربه الى ثلاثة اقسام ، قسم نزل عليه لمصلحة الخلق وارشاده ، فهو مأمور بتبليغه ، وقسم نزل عليه لغير ذلك وامر بكتمه ويكون منه هذه الرموز السرية الواردة في القرآن ، وقسم خير فيه بين التبليغ وعدمه ، ويظهر ان التخيير في هذا القسم انما هو بحسب ما يظهر للنبي عليه السلام من استعداد الامة لقبوله ، وذلك كالصحيفة التي حاول النبي عليه السلام عند موته ان يكتبها فلما نازع الصحابة رضي الله عنهم لديه في كتبها امسك عن ذلك ، وعلم انهم غير مستعدين لها ، وبذلك يعلم ان معنى قوله تعالى فيما بعد وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم .. لخ ليس على عمومه بل انما يشمل القسم الاول والثالث فقط .

وقد اهتديت بفضل الله ، الى انه من اول السورة الى قوله سبحانه « سيقول السفهاء من الناس » هي خطة الكتاب العزيز اذ في هذه القطعة اجمال لما فصل في جميعه شأن غالب المؤلفات التي هي من انشائنا ، فانه يذكر في ديباجتها اجمال ما فصل في جميعها ، فقد قسمت هذه الخطة البشر امام القرآن الى ثلاث فرق مومن بالغيب الذي جاء به الاسلام على لسان النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذا هو روح الاسلام ذاته ومبدأه الوحيد الذي لا يتصور بدونه ، وكافرين مجاهرين بالكفر وضد ما جاء به الاسلام، ومنافقين مذبذبين لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء يظهرون الاسلام ويسرون الكفر .

ثم تبين ان القرآن سلم للفريق الاول مادح له باظهار مزاياه وفضائله على سبيل الانموذج كاقامة الصلاة والانفاق مما رزقهم الله، وحرب للفريق الثاني ذام له باظهار اهم شنائعه على سبيل الانموذج كذلك كالختم على قلبه اي جعله غير قابل للاسلام ولا مهيئا لقبوله مهدد له بالعذاب العظيم ، وحرب للفريق الثالث كذلك .

غير ان الفريقين الاولين لما كانت احوالهما ظاهرة للعيان لا لبس فيها ولا تدليس اوجز القرآن في ذكرهما ووصفهما ايما ايجاز ، وذلك من قوله تعالى « هدى للمتقين » الى قوله « عذاب عظيم » ، ولما كان الفريق الثالث بالتوائه وروغه في اقواله وافعاله قد تخفى احواله وما يضمره على

كثير من الناس اطنب القرآن في وصفه وذمه وتبيين مبادئه ، وضرب الامثال فيه تحقيرا لشأنه واستضعافا لما يتخذه من الحيطة في شأنه ، وذلك من قوله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الاخر وما هم بمومنين » الى قوله سبحانه « يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم » الخ ، ثم خاطبه بقوله تعالى « يا ايها الناس اعبدو ربكم لخ » ثانيا بأنما له ومذكرا بما انعم عليه به من خلقه وجعل الارض فراشا له ، والسماء بناء وانزال الماء له من السماء ، واخراج النبات به ثم حاجه بعد ذلك في كفره بقدرته عليه في ضمن قدرته على خلقه وايجاده من العدم ، ثم اعدامه بعد الوجود ، ثم خلقه بعد ذلك وصيرورته الى رحمته او نقمته ، وبقدرته عليه ايضا في ضمن قدرته على اي خلق ، له ما في الارض جميعا في ضمن جميع البشر ثم استوى الى السماء فسواها سبع سموات ، ثم ذكره بتشريفه اياه وتمييزه بشيئين هما خلافته حسبه في الارض ، وسجود الملائكة لابيهم آدم عليه السلام، وذلك على عادة القرآن من مزج القوة باللين، والوعد بالوعيد ، والانعام بالانعام ، ثم لما كان بنو اسرائيل من الفريق الثاني الذي جاهر ضد الاسلام وكان لهم اذ ذاك في جزيرة العرب مهبط الوحي قدم راسخ وتفوق على غيرهم من العرب المشركين سواء من الناحية الدينية او الاجتماعية او الاقتصادية اذ كانوا لا زال لهم من بقايا دينهم مبادئ يعملون بها ويهتدون بنبراسها بخلاف مشركي العرب، فقد كانوا على الوثنية المحضة ، اذا استثنينا اقرارهم بالالاه وبعض مناسك الحج من بقايا دين ابراهيم عليه السلام ، وكان لبني اسرائيل ايضا مبادئ اجتماعية كقواعد النكاح والطلاق والارث بخلاف مشركي العرب ، فلم يكن لهم مبادئ قط من هذا القبيل ، اما حالتهم الاقتصادية فقد كانوا اصحاب الثروة هناك والزراعة في سبل المدينة المنورة وفدك وخيبر ، وكان كثير من العرب عالة عليهم يعملون في ثروتهم ومكاسبهم ، ولما كان بنو اسرائيل بهذه المثابة كلها التي ربما اثرت على عقول العرب وادخلت لهم الشك في الدين زيادة على ما عرفوا به من الدهاء والامعان في الحيل والمكر لكسب ضمائر الناس وعقولهم تصدى القرآن لخطابهم بالخصوص ، ولاينهم مرة وخاشنهم اخرى ، اظهارا لطويتهم وما في خبايا بواطنهم حتى لا تنطلي اقوالهم وافعالهم وحيلهم على القلوب وذلك من قوله تعالى « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم » الى قوله تعالى «سيقول السفهاء لخ»

وبذلك انتهت الخطة ودخل القرآن في دور العمل والتشريع وتوجيه القلوب الى الاسلام بشتى الوسائل كذكر الوعظ وقصص الانبياء مع اممهم وضرب الامثال لكل من الحسن والقبيح الى غير ذلك من وجوه توجيه القلوب الى الاسلام .

أضواء على آيات قرآنية

للمرحوم : أبو بكر زنيبر

- 3 -

سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه ..الخ» هذه القطعة من القرآن ، من هنا الى قول الله عز وجل « الم الله لا اله الا هو الحي القيوم » تسمى سورة البقرة ، وقد سماها ملك بذلك بنزول على النبي (ص) وبحضرته جبريل كما في صحيح مسلم ، ولعل حكمة تسميتها بذلك التذكير بقصة البقرة المذكورة فيها ، والمعجزة التي وقعت لسيدنا موسى عليه السلام ببعض تلك البقرة كلما سميت هذه السورة سورة البقرة ، وذلك لان هذه القصة غير مذكورة بعينها في التوراة التي بيد بني اسرائيل الآن ، نعم قد ذكر فيها حكم ما اذا جهل القاتل ، وهو ان تذبح بقرة غير ذلول في واد دائم السيلان ، ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من محل المقتول ايديهم على العجلة التي كسر عنقها فوق البقرة في الوادي ، ثم التبكيت على التمويه في انكارهم معجزات النبي عليه السلام الدالة على نبوته ، فكأنه يقال لهم كلما سميت هذه السورة سورة البقرة ، اذا كنتم تنكرون معجزاته عليه السلام فما لكم لا تنكرون معجزة البقرة التي وقعت لموسى عليه الصلاة والسلام بين اظهر سلفكم مع انه ما وقعت له هذه المعجزة في غفلة منهم ، بل في حضورهم وبسببهم في امرها والحاحهم بالسؤال عن هذه البقرة ووصفها حتى كانوا على بينة من امرها .

ثم ان لفظ (الم) هنا ، وفي غيرها من السور ، وكذلك (المص) و(حم) و (حمعسق) و (كهيعص) و (طه) وما شاكلها من الالفاظ المفتتح بها بعض السور هي الفاظ مبهمة المعنى ، لم تتضح دلالتها ولا مناسبتها اتضاحا لغويا سواء من حيث حروفها المقطعة ، او تراكيبها ، او سياقها ، او قرائن الاحوال المتعلقة بها ، وقد كان ظهر لي في لفظ (طه) على الخصوص لاسيما على قراءة من آمال الهاء كاملة كقراءة ورش ، أن طا مهملة مختزلة من لفظ طاطئ بمعنى طأطئ راسه ولفظ هي ضمير مبتدأ خبره محذوف تقديره حضرة القدس ، وبعد الامر الطلبي بالطأطأة على ما فهمناه من لفظ طه ، واشعاره بانه في حضرة القدس وذلك شيء يوجب الدهشة والرعب ، ذكره عليه السلام ما يؤنسه ويذهب عنه روعه ودهشته ، وذلك قوله تعالى « ما انزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى » وبعد هذا التأنيس والتطمين اعيد للنبي عليه السلام ذكر جلال الله مصحوبا بجماله ، وذلك قوله تعالى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلا ، فهذا الجلال والجمال قوله تعالى . « الرحمن على العرش استوى » اي هو رحمان في ملكه ، وان كانت له شارات الملوك العظام وخواصهم المرموز الى جميعها بالعرش ، ثم اعيد ذكر ما يقتضي الجبروت والجلال ، وذلك قوله تعالى « له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى» واتى فيما بعد هذا التفهيم بقصة موسى عليه السلام المذكورة بأثرها ومخاطبة الله له بقوله « اني انا ربك فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى » ومع ذلك فاني لا اجزم بان هذا المعنى هو المراد من لفظ (طه) واقول كما قال الائمة : الله اعلم بمراده من ذلك ، ان العجز عن الادراك ادراك .

ومعلوم ان الله مالك الملوك سبحانه ، والملوك لهم مع خواصهم اسرار لا ينبغي ان يطلع عليها عوام الناس ، فيمكن ان يكون القرآن قد استعمل هذه الالفاظ رموزا للنبي عليه السلام على اسرار بينه وبين ربه ، هذه مدة نحو ثلاثة عشر قرنا وسبعين سنة ، ثم نرى اليوم الدول المتمدنة تنهج هذا المنهج الذي نهجه القرآن مع اخص خواص الله وهو النبي (ص) في مخاطبة خواص الموظفين بالتلفون والتلغراف مخافة ان يطلع بعض الناس على اسرارها . كما نرى الاجانب يصطلحون كل يوم على لفظة يفتتحون بها مخاطبتهم اللاسلكية ويلقونها بين اولئك الموظفين الكبار وقل مثل ذلك في الفاظ الحكومات الرمزية التلغرافية فانه

ومتمسك بها لا يقتضي ان يهتدي به كل الناس لان من الناس من لا استعداد فيهم للهداية به لحيلولة الكفر وطبائعهم دون هدايتهم به ، وحينئذ فعيب عدم اهتدائهم به ليس له بل هو راجع لطبائعهم وتمكن الكفر منهم .

ثم بين هذه الحيلولة الواقعة دونهم ودون الهداية به بقوله تعولى (ختم الله على قلوبهم) اي ان قلوبهم التي هي المحل الطبيعي من الانسان لادراك الاشياء وما فيها من حسن وقبح ، وخير وشر ، وسعادة وشقاء مختوم عليها بخاتم الحرمان ، فلا يمكن للقرآن والحالة هذه دخوله فيها حتى يؤثر عليها تأثيره المعتاد منه ببيان منابع الاسلام ومحاسنه ثم زاد لهذه الحيلولة امرا آخر وهو قوله تعالى (وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة) تغشاهما وتحول دونهما ودون ما في القرآن من حجج ساطعة على احقينه وكونه من عند الله وان المبلغ له رسوله حقيقة .

ذلك ان العقل وحده قد يصل في النظر والاستدلال على الاشياء المطلوبة له او المطلوبة منه ، فيستعين بسمعه وبصره على ادراك حقيقة تلك الاشياء المطلوبة له او المطلوبة منه ، وهما هنا لا يمكنه ان يستعين بهما عليها لانها في عداد قلوبهم اذ عليها غشاوة تحجبها عن رؤية الحق او سمعه وتأديته الى القلب ومن اجل ذلك فلا يدخل منها شيء اليه حتى يرشد ويهتدى به ، وقد سبقه صرف قلوبهم عن التفكير في الاسلام وما فيه من حجج على وجود الله وصفاته وعلى رسالة النبي عليه السلام بالطبع على الشيء الذي يمنع ان يدخله او يخرج منه شيء ، وكذلك شبه صرف سمعهم وبصرهم عن الاستماع الى تلك الحجج او النظر اليها بقصد الذكرى والاعتبار بسدهما والطبع عليهما حتى لا ينفذ منهما شيء الى القلب ينتفع به في ادراك حقيقة الاسلام .

واما قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمومنين) فمعناه ان من الناس من ظهر منه الاسلام على لسانه وماهم بمومنين من قلوبهم وبواطنهم بل هم كافرون حقه وهذا هو الفريق الثالث الذي تقدمت الاشارة اليه فيما قبل وهو فريق المنافقين الذين يوجدون في الامم عادة عند اول نهضانها وقيام ائمتها واولي الامر منها بالدعوة الى الاصلاح ورتق ما انفتق من شئونها .

فان هذا الفريق بما اوتي من حرمان الثبات وضعف البصيرة يقع في حيرة من امره ولا يتبين له الطريق الذي يسلكه ويذهب عليه هل القديم او الحديث وهو لا يدري ما الذي يقع عليه اختيار الامة فيثبت ويدوم ، هل القديم رعيا لقدمه وجريان عمل الناس عليه واستئناسهم به ؟ او الجديد تبعا لدعاته وتجمعهم في سبيله وبذل اموالهم وارواحهم عليه؟

فيتخذ طريقا وسطا بين المذهبين ينظر فيه النجاة لنفسه دنيا واخرى وهو مصانعه كلا من القديم والحديث ، وهذا الفريق ايضا من المستثنى المنقطع من قول الله السابق هدى للمتقين لخ. اي ان القرآن انما هو هدى للمتقين المومنين ايمانا حقيقيا الذين دلت افعالهم على ذلك الايمان من اقامة الصلاةلخ. لا للناس الذين يقولون بألسنتهم آمنا وما هم بمومنين حقيقة وقد دلت اقوالهم وافعالهم على عكس ما يظهرون .

ولقد كشف علماء النفس والسياسة الحديثان ان الدعاية لدى الامم والدول من اكبر العوامل على كسب القلوب والتأثير عليها ايجابا وسلبا ، وانها قد تعمل ما لا تعمله السفارات ولا المؤتمرات ولا اعظم قوى حربية موجودة في العالم ، ولذلك تجد ساسة الدنيا الآن يعتمدون عليها ايما اعتماد في بلوغ مثاربهم وكسب الصديق والعدو والمحالف والمخالف ، بل لقد خصصت لها الدول العظمى الان وزارة من وزاراتها او مصلحة من مصالح وزاراتها ثم اكتفت بذلك فتجد ارباب الصحف ووكالات الاخبار العالمية وهي اكبر عامل لنشر هذه الدعاية يقصدون البيت الابيض مثلا من امريكا ، او مكتب رئيس الوزارة بفرنسا او انجلترا او وزيري خارجيتهما لتلقي هذه الدعاية ونشرها في كافة المعموره ، وكذلك راديو الحكومات دع عنك الحكومات في هذا السبيل ، فانك تجد الجمعيات والافراد شاعرين بما لهذه الدعاية من قوى ونفوذ على العموم ولذلك يقصدون اليها في ترويج اغراضهم وبضائعهم فينشرون رواجه على اعمده الصحف ولسان الراديو وغيرهما .

ولقد سبقهم الاسلام الى تقدير هذه الدعاية قدرها وتقرير فائدتها حتى كان من جملة ما روي عن النبي (ص) في قوله من جمله حديث (ونصرت بالرعب) وفي حديث آخر صحيح كذلك (لا يتحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه) وهذه الايات الكريمة المتلوة ها هنا في حق المنافقين واليهود دعاية عظمى بنشر مثالبها واشهار مخازيها حتى لا يغتر الناس باقوالهما وافعالهما وطعنهما في الاسلام ومن جاء به لاسيما ما صدر من اليهود في حق نبيهم سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم ومواجهتهم له بسوء الادب والكلام القبيح كقولهم لن نومن لك حتى نرى الله جهرة وكقولهم له ايضا اتتخذون هزوءا ، وفي حق غيره من الانبياء كقتلهم بعضهم ، فكأن هذه الايات تقول للناس بعرض احوالهم واقوالهم : لا تستغربوا صدور ما صدر من اليهود في حق محمد عليه السلام فان الخلاف فيهم متأصل وسوء ادبهم مع الانبياء معهود وجرآتهم على الله في خلقه معلومة فانظروا ما صدر منهم مع انبيائهم موسى ومن بعده عليهم السلام الذين هم من دمهم ولحمهم فكيف لا يصدر منهم مثله او اشد مع نبيكم محمد عليه السلام الذي لا تربطه بهم رحم ولا صهر ولا غير ذلك ، ومصاهرته لهم على

ثم انه لما كان العرض الاول الذي يسعى اليه الاسلام، هو تثبيت اقدام الامة ووحدتها وحشرها في مجتمع تتميز به من غيرها من الامم اذ لا يتم لها شيء من التشريع الديني او السياسي او الاجتماعي او الاقتصادي ولا غير ذلك الا بايجاد هذه الوحدة ، وكانت هذه الوحدة لا تتم الا بتوحيد برامجها ونظمها الدينية والسياسية وغيرها ، كان اول ما بدا به القرآن من تلك النظم توحيد نظام القبلة التي يتجه اليها كل مصل خمس مرات على الاقل في كل يوم ، حيث يعتقد انه بين يدي مولاه يناجيه ويبثه شكواه ومطالبه ، الا فليتفطن الذين يتلون كتاب الله الى اسراره وحكمه وما انطوى عليه من المقاصد .

وقوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه) الاشارة بلفظ ذلك الى القرآن المنزل بعضه اذ ذاك على النبي (ص) وشمل الاشارة كله وان كان لا يشار في الغالب الا لموجد تنزيلا لمحقق الوجود منزلة الموجود بالفعل اي ذلك الكتاب الذي يتلى بين اظهركم ويبين لكم الحلال والحرام والواجب والمباح وقصص الامم ويبعث على اعتناق الاخلاق الفاضلة الى غير ذلك مما تضمنه ، لا ريب ولا شك انه وارد من قبلنا على نبينا محمد ثم اورد علة وسبب نزوله وهو هدايته المتقين به فقال (هدى للمتقين) ، فالهدى في الاصل مصدر وسمي به الكتاب العزيز مبالغة في الاهتداء به كأنه نفس الهدى ، والمتقين اسم فاعل من اتقى بمعنى تباعد عن الشر وهو عموم تقوى ما يجلب غضب الله ، وهو المعاصي ومعنى كون هذا الكتاب هاديا للمتقين انه كاف لهم في دلالتهم على ما يحتاجون اليه في سعادتهم لاشتماله على ما فيه خيرهم دنيا واخرى . اذ الذين اتقوا ما يجلب لهم غضب الله غير مستغنين عن الهداية به استقلالا في بعض الكليات والجزئيات لاسيما ولم يخصص القرآن هؤلاء المتقين بكونهم الذين مارسوا الشريعة وعرفوا مقاصدها وما ترمي اليه ، بل ظاهره ان لفظ المتقين يشمل حتى من هو على مبادىء الاسلام الاولية كالعقيدة والصلاة والانفاق لوصفهم بذلك فيما بعد .

وقد كان هذا في اول الاسلام حيث كانت احكام الشريعة لا زالت لم تكمل ، اما مع كمال الدين ونزول جميع الاحكام فلا يوصف بالتقوى على الاطلاق ولا بالهداية الا من كان ممتثلا للاوامر مجتنبا للنواهي كلها على قدر المستطاع ، كما قال الله تعالى : « فاتقوا ما استطعتم » اذ التقوى كما يؤخذ مما تقدم هو التباعد عن الشر ، ولا يكون الانسان متباعدا للشر في الشريعة وهو غير ممتثل لبعض اوامرها ونواهيها ، وكذلك لا يوصف الانسان بكونه متمكنا من الهدى حتى كأنه راكب عليه في قوله تعالى « اولئك على هدى من ربهم » وهو مجتنب لبعضه ، وقوله تعالى (يؤمنون بالغيب) فيه حذف الصفة ، اي يؤمنون بالغيب الوارد من قبلك عن الله وصفاته وكمالاته وعن الملائكة والنبيئين والمرسلين على جميعهم الصلاة والسلام والكتب السماوية واليوم الآخر وما فيه من وعد ووعيد الى غير ذلك من الغيوب الواردة على الامة من قبل النبي صلى الله عليه وسلم .

اذ المقصود من بعث الرسل هو تطهير النفوس من الادران وتهذيب الاخلاق وخلق ملكة الطاعة والانقياد في الامة الى الحق حتى لا يعتدي بعضنا على بعض ، والايمان بالله وما عطف عليه هو اصل هذا التطهير وما عطف عليه . اذ الانسان الذي يعلم ان له الها عالما يراقب عليه اعماله ويحصيها عليه ثم يجازيه عليها في هذه الحياة او في الحياة الاخرى لاشك انه يتخذ الحيطة لنفسه منه فيتقرب اليه بتطهير نفسه وتهذيبها وتهذيب اخلاقها وامتثال اوامره واجتناب نواهيه حتى لا يقع في ورطة عقوبته .

واما قوله تعالى (والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) فيحتمل ان يكون معطوفا على الذين يؤمنون بالغيب في الاية قبلها فيكونوا داخلين في زمرة من وصفهم الله بالتقوى مثل ذلك ، ويكون المعنى هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب الخ. وهدى للمتقين الذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك ، وهم اهل الكتاب الداخلون في الاسلام ، وهذا التفصيل الوارد في هذه الآية الاخيرة انما هو على سبيل الاحتمال في المدح لما ينافي ان بعض الصحابة من غير اهل الكتاب كالخلفاء الراشدين افضل من اهل الكتاب الداخلين في الاسلام ، ثم يكون قوله تعالى « اولائك على هدى من ربهم الخ » جملتين استئنافيتين قصد بكل واحدة منهما مدح فريق من الفريقين وبيان درجته في الاسلام ، فقوله تعالى اولئك على هدى من ربهم الى الفريق الاول ، اي انه لتمكنه من الهدى واستيلائه عليه ولو اجمالا كأنه راكب عليه ، اذ على للفوقية والعلو ، وقوله تعالى (واولئك هم المفلحون) اشارة الى الفريق الثاني المفلح الظافر الفائز ، والاحتمال الثاني ان يكون الذين يؤمنون بما انزل اليك الخ. مبتدأ وخبره اولئك على هدى من ربهم الخ .

واما قوله تعالى (ان الذين كفروا سواء عليهم آنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون) فالمراد بالكفر ها هنا جحد شريعة النبي عليه السلام فيدخل فيهم بنو اسرائيل الذين لا زالوا على ديانتهم ، اي سواء منهم آنذرتهم بالقرآن ام لم تنذرهم فانهم لا يؤمنون لك وهذا الكلام في قوة الاستثناء المنقطع مما قبل ، وبيان لكون هذا القرآن رغما على ما فيه من وضوح الدلالة على الحق وعلى صدق من جاء به حتى كأنه الهدى نفسه او كان من تمسك به متمكن من الهداية وراكب عليها

افلوطين ومدرسة الاسكندرية

للدكتور : نجيب بلدي

- 2 -

عاش افلوطين سنوات نضجه الفكري والفلسفي فى الجو الروحي الذي وصفناه فى نهاية مقالنا السابق، فى جو « مدرسة الاسكندرية » .

وان لم يكن من الثابت ان معلمه أمونيوس كان من أتباع مذهب الهرامسة ، لكن تعاليمه اتخذت مثل تعاليمهم صفة التلقين والارشاد ، وكانت تعاليم مغلقة سرية . ان امونيوس كان يعلم الافلاطونية القديمة ، وكان يعمل فى ذات الوقت على ان تتغلغل معاني تلك الفلسفة فى نفوس تلاميذه ، كما كانت تتغلغل التعاليم الهرمسية فى نفوس « مريديها » .

ولكن افلوطين لم يكتف لا بالتصوف الهرمسي الذي اتخذ كما رأينا صفة السحر الروحاني ، ولا بالتعاليم الافلاطونية التي تلقاها من امونيوس ، بل جمع فى روح جديده هي فلسفته ، او هى بعبارة أدق المدخل الى فلسفته ، بين التصوف الهرمسي وبين الافلاطونية القديمة ، انه وضع التعاليم الافلاطونية فى جو هرمسي اسكندراني ، كما فلسف التصوف الهرمسي بعقل افلاطوني .

وثمرة هذا التفلسف نظرية افلوطين فى العالم المعقول . ولسنا نريد الدخول فى تفاصيل هذه النظرية، كيف اصبح التصور الافلاطوني القديم للمثل تصورا يختفي فيه التمايز المطلق بين العالم المحسوس والعالم المعقول ، فيظهر العالم المحسوس فى صفاته وملامحه وحدها ، وتزول عنه علامات الجمود والمقاومة والانقسام ، كما يظهر العالم المعقول على هيئة كون متصل كل الاتصال ، منير يحسه العقل وينفعل به ، تتعقله الاحساس وتفهمه .

وقد كان من العوامل التي ادت الى نشأة مذهب افلوطين فى العالم المعقول ، هذا التطور للفلسفة الافلاطونية ، الذى تم على يد مؤلفي « المجموعة الهرمسية » . وقد سجلنا (*) هذه الصفحة التي يصور فيها الهرامسة تحول العالم والانسان بدخول العامل الالهى فيهما . ولمثل هذه الصفحة اصداء عميقة فى نفس افلاطون ، نتبينها فى « تساعياته » ، وخاصة المقال الثامن من « التساعية الخامسة » .

ولكن افلوطين لم يقف عند اصداء الهرمسية ، كما لم يقف عند العالم المعقول ، بل جاوز العقل والمعقول الى ما فوقهما ، وجاوز بذلك « مدرسة الاسكندرية » الى مرحلة لم يعرفها تلك المدرسة . ارتقى من العقل والمعقول الى الاله ، والى « الواحد » .

ورأينا ان هذه المرحلة الجديدة ، قد نشأت تحت تأثير عوامل افلاطونية قديمة ، وعوامل غير افلاطونية حديثة ، لابد من الاشارة اليها .

فالهرامسة لم يعرفوا الطريق الى الاله ، والى الخير : فليس الاله او الخير موضوع معرفة او قدر كما تصوروا . انه موضوع اقوى الرغبات ، واعمق العواطف، موضوع الحب والمحبة. ان ما افتقر اليه رجال الاسكندرية فى تصورهم للخير هو حب الخير ذاته .

(*) راجع مقالنا السابق فى (دعوة الحق) ماي يونيه 1963 صفحة 46

صفية عليها السلام لعلها كانت بعد هذه الآيات ، على ان صهر صفية كان بعيد التأثير عليهم لانه لم يكن في خروجها من وسط قومها وانما كان بعد السبي لها وعزلها عنهم بذلك وقطع صلتها بهم ·

ثم انه لشدة ضرر المنافقين على المومنين اكثر من غيرهم من الفرق لانهم يلابسونهم في كثير من الاحوال بصفتهم مسلمين فيطلعون بذلك على ظواهرهم وبواطنهم حيث يكون المومنون (آمنين مطمئنين من جهتهم غير حذرين من مكرهم لاعتقادهم انهم اخوانهم في الاسلام اذ ما كل المومنين كانوا يعلمون هؤلاء ويميزون اشخاصهم لشدة ضرر المنافقين على المومنين ، بما ذكرنا من الاسباب صورهم القرآن في تختلهم وعنتهم وخداعهم لله وللمومنين باربع صور كل واحدة منها تقتضي التنفير منهم واستنكار اقوالهم وافعالهم واستبشاعها، الاولى ما تقدم من قوله تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمومنين » ، الثانية قوله تعالى واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون . الثالثة قوله تعالى : واذا قيل لهم امنوا كما آمن الناس قالوا انومن كما آمن السفهاء ، الرابعة قوله تعالى واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم لخ· ثم ما اكتفى بهذا التصوير حتى ضرب لهم مثلين آخرين لزيادة بيان وايضاح احوالهم اذ التمثيل يصور الاشخاص والاحوال اكثر من غيره حتى كأنك تشاهد المثل بأم العين وتسمعه بالاذن فقال مثلهم كمثل الذي استوقد نارا لخ·

— يتبع —



وانا نستغرب ان يحاول استاذنا المرحوم اميل برهييه في جزء غير صغير من كتابه عن افلوطين ان يشرح نظريات افلوطين في العقل وفي الاله على ضوء التجربة الصوفية الهندية ، وعلى ضوء بعض نصوص البراهمة وتصوفهم بوجه خاص . وتشير تلك النصوص الى وجود حالة ممتازة يرقى فيها المتأمل الى حقيقة تنتفي عندها معالم العالمين المحسوس والمعقول . ويفقد المتأمل عندها صفاته الشخصية . **ولكننا نقول:** انه مهما يكن من تشابه بين هذه الحالة الممتازة وبين التجربة الصوفية الافلوطينية ، فملاحظة هذا التشابه لا تكفي على الاطلاق لتوضيح التجربة المذكورة ، سواء فيما تفترضه من اصول فلسفية ، او فيما تؤدي اليه من نتائج لاهوتية سنشير اليها فورا . والمتفق عليه عند الذين درسوا البراهمة ان متصوفيهم يتنازلون عن العالمين المحسوس والمعقول منذ بداية الرحلة الصوفية ، وان اتمام تلك الرحلة يؤيد نهائيا بقاء هذين العالمين خارج « الحقيقة المطلقة » **والامر على عكس ذلك** عند افلوطين الذي قرر حقيقة العالم المعقول وواقعيته الملموسة . عند ما ارتقى بالعالم المحسوس ذاته الى مرتبة الفهم ، وحاول بالفعل تعرف ملامحه الخاصة ، والذي بقي بعد التجربة الصوفية وبفضل التجربة الصوفية على اثبات حاسم للعالمين المحسوس والمعقول قائم على يقين لا تشوبه شائبة . ولا عجب في ذلك ، فالتجربة الصوفية تفترض ان تكون الاتحاد بين المتأمل والاله الملقاء . والملقاء نتم عن دعوة الاله .

ويبقى بعد ذلك ان تجربة الحب التي مهد الى فهمها افلاطون ما كانت تؤدي نتائج فلسفية ذات أهمية . دون يقين شخصي بهذا الالتقاء بالاله ، وبدون محاولة عقلية لدراسة الاله . محاولة تتأيد بهذا اليقين الشخصي . ولكن ربما دخلت في هذه المحاولة العقلية ، وفي هذه الدراسة للاله . عوامل خارجة عن افلاطون وعن الفلسفة وعن الاسكندرية ، عوامل لابد من الاشارة اليها .

تقوم اللاهوت الافلوطيني في مجموعتين من القضايا : احداهما سالبة والاخرى موجبة ، يمهد لهما التفكير الافلاطوني الفلسفي من ناحية ، والتجربة الصوفية من ناحية اخرى . اما القضايا السالبة ، فهي قائمة على اساس ان كل معرفة عقلية لا تنطبق الا على موضوعات العالم محسوسا اكان هذا العالم ، أم معقولا ، وهذا لا لأن تلك الموضوعات مخلوقة فحسب ، بل لان العقل ذاته حتى في أسمى مراتبه ، هو امر « واقع » فلا بد له من خالق ، او مبدا اسمى يصدر عنه .

ونتيجة ذلك انه لا يمكن ان نطلق على الاله كل مايسمح لنا العقل باطلاقه على العالم ، او على مثل هذا العالم ، او حتى على العقل ذاته . فالمبدأ الاسمى لا يمكن ان يكون له موضوع ، كالعقل الذي يتعقل الموضوع ، فيصبح مضافا الى هذا الموضوع . ولا يمكن ان يكون لهذا المبدا حد أو تعريف أو اسم او ماهية او صفة او تعيين . ولا يمكن ان يقال عنه انه جوهر او شخصية او فكر . بل لا يمكن ان نقول عنه انه موجود ، ما دام كل ما ليس « هو » موجودا ، وما دام كل ما صدر عنه موجودا وما دامت نسبة الوجود اليه تجعله بمعزل عن هذا الوجود ، وتعطينا ثنائية — هو والوجود — بدلا من وحدة مطلقة . بل لا يمكن أن يقال عنه انه واحد ، ىدا لان الوحدة تنسب الى الكائنات ، وان نسبتها اليه لا تقوم على قضية موجبة — صريحة اكانت ام مستترة — بل على قضية سالبة ، فالواحد ليس الكثير ، بدليل اطلاق الفيثاغوريين على الاله اسم «ابولون» **Apollon** أي الذي لم يكن كثيرا .

ولكن ان تمعنا في تلك القضايا السالبة وجدنا ان اساسها بالرغم من كل شيء قضية موجبة ، تثبت وجود مبدا اسمى يفسر العالم المعقول والعقل ذاته .

اما ان نظرنا الى التجربة الصوفية وكيفية افادة افلوطين منها ، وجدنا في بداية الامر انها هي ايضا تؤدي الى مواقف سلب ، ربما كانت ابعد خطرا من المواقف الفلسفية السابقة . فالتجربة الصوفية تفقدنا حتى القدرة ، على التلفظ بأي قضية ، في ساعة وقوعها . ثم هي تؤدي بنا بعد ذلك الى ان نعتبر كل كلمة نطلق على الاله غير مطابقة ، ما عدا الاشارة اليه بالضمير « هو » ، فهذا الضمير يدل في صورته المختصرة على الغائب ، وعلى ان الاله الذي حضر غائب ، ويبقى غائبا .

غير ان الاتحاد امر لاشك فيه عند المتحد ، وهو ذاته يقين اول ، وهذا اليقين الأول يسبغ على مواقفنا كلها بصدد الاله حتى المواقف السالبة المذكورة ، قيمة ايجابية عظمى . فالاساس الذي ذكرناه أي القضية التي تثبت وجود مبدأ اسمى للعالم والعقل ، هذا الاساس يكتسب بفضل التجربة الصوفية قوة عظمى لم تكن له من قبل . ويؤدي بنا التمعن في تلك التجربة الى ان نقرر ان كل يقين ، او كل حقيقة كنا حائزين لها لم تنتسف بتلك التجربة بل تأيدت بها وتوطدت . هذا لانها تعلمنا بان صلة الاله بالمخلوق ليست صلة خارجية ، بل صلة باطنية عميقة ، وبأن الاله يؤثر فينا وفي العالم كله ، ويقيم فكرنا والعالم كله ، « من الباطن وفي الاعماق » كما يقول فلوطين (18 / 8 V) .

وقد طالع افلوطين مع معلمه امونيوس محاورات « فيدون » و « المادبة » و « فايدروس » وتعلم منهما طريقي الاماتة والمحبة اللازمين لبلوغ الخير ، وتعلم هذين الطريقين ايضا بالممارسة والتجربة الشخصية ، وجاوز في تصوره وممارسته هذه الحب الافلاطوني ذاته . صور لنا في عاطفه الحب شعور المحب التدريجي بان المحبوب الغائب يترك في نفس المحب فراغا يحاول ملأه بصور من خياله ، ويربط المحبوب بتلك الصور ، ويغدق عليه ما يحمل خياله الشخصي من كمال ينزع اليه لم يجده في الانموذج الواقعي . هذا الى ان ينتهي بـه الامر الى تعرف ما تحتويه الحب الانساني ، وما يؤدي اليه من خلاء وفراغ في النفس لا يملؤهما كائن من الكائنات مهما تكن مرتبته ، بل لا يملؤهما تصور العالم كله ، وما فيه من بهجة وكمال . والمحب في ذلك يجهد نفسه ما استطاع لتطهيرها ، لا من ادران البدن ولا من الصور المحسوسة فحسب ، بل من الصور المعقولة ايضا ، غير مرتبط لا بكائن ولا بمعقول ، ولا بعلم او حكمة ، حتى اللحظة التي يتعرف فيها ان رغبته وخياله وقدرته لا تصلح الا لتوسيع ما في نفسه من خلاء وفراغ . واغرب الامر ان ذلك الفراغ ، ذلك الشعور بالعدم الذي يورث النفس جزعا يعرفه المحبون وحدهم ، يتسع ويتوطد فيها كلما اشتدت العاطفة تأججا ، وكلما تقدمت النفس في تطهير ذاتها وتصفيتها

وفجأة يحس المحب بحضور غريب لا مثيل له . ينسى عنده نفسه وبدنه وكل شيء في العالم . ما هو ؟ ما نفسه ؟ هذا ما لا يباليه في الوقت الحاضر .

لحظة فرح عظيم لا يضارعه أي فرح ، ولا تريد النفس عنه بديلا . اذا منيت بحيازة العالم كله ، أو بحياة مؤبدة في نعيم الكائنات المعقولة النورانية ، على ان تضحي بلحظة الفرح هذه ، لما ارادت التضحية بتلك اللحظة . نعم انها لحظة تماس ، تمضي كومبض البرق ، وتترك في النفس بعدها فراغا ، أعظم مما كان فيها من قبل ، قد لا تطيق بعده الحياة ، لولا تذكرها تلك اللحظة وتمعنها فيما احتوته وتضمنته من دروس وحقائق تجعلها تفهم كل شيء وتقدر كل شيء . انها تتذكر اتحادها بكائن لا يمكن ان تقول عنه الا انه الخير كله ، وانه هو الذي تاقت اليه في اعماق حبها . ولا يمكن ان تتهم بخداع او توهم فيما رأته واحست به في تلك اللحظة التي عرفت عندها هذا الكائن ، ما دامت هي مستعدة الى انكار كل شيء وذاتها في سبيل اثبات ما رأته ، وما احست به .

نعم لا يمكن ان تتهم بخداع او توهم ، ولا ان يقال ان شدة حبها من ناحية ، وان الجزع من خلاء ذاتها من ناحية اخرى ، قد ولدا فيها شعورا بحضور ، او يقينا باتحاد ، او ثقة بوجود كائن اسمى . انها لم تكن تتوقع شيئا مما رأته ، ولم تكن تتنبأ به ، لكنها عرفت بعد ذلك انها دعيت خفية الى لقاء ، وان الداعي لم يخيب امالها.

هذه خلاصة تجربة افلوطين للحب والاتحاد بالاله. قيل انها تجددت له مرات اربع على الاقل اثناء حياته .

واضح اننا لا نجد شيئا يماثل ذلك لا عند الهرامسة من ناحية ، ولا عند افلاطون نفسه من ناحية اخرى ، وان افلوطين قد تقدم على الفلسفة الافلاطونية القديمة تقدما عظيما ، فافلوطين لم يتخذ تجربة الحب كما فعل افلاطون كمنهج يضاف الى مناهج اخرى ، غاية اتقان العلم ذاته سواء في صوره الرياضية او في صوره الفلسفية . ولم يقف الحب عند الجمال الذي وقف عنده افلاطون . هذا لان الجمال صفة العالم المعقول ، وهو مخلوق مثل هذا العالم . انه جاوز الجمال الى اصل الجمال وخالقه اي الى الخير ، ثم ان افلوطين لم يقف عند رؤية بعيدة للخير ، ثم يكتف بان يلمح الخير . انه بلغ اتحادا يفنى المحب فيه لحظة اتحاده .

وعلاوة على ذلك ، واهم من كل ذلك ، فافلوطين قد اعتمد على تجربة الحب هذه ليصور لنا طبيعة الاله بقدر ما يستطيع الانسان ذلك . فكان التصوف الافلوطيني اساس اللاهوت الافلوطيني .

وسؤالنا الآن هو : اذا كانت مدرسة الاسكندرية قد اعانت على تحويل الفلسفة الافلاطونية الى نظرية جديدة في العالم المعقول والمثل ، فما الذي اعانه على الارتقاء فوق العالم المعقول ومكنه من الوصول الى نظرية جديدة للاله .

قد اشرنا فيما سبق الى انه لا يمكن تفسير رحلته الى الشرق برغبته في تعلم فلسفات فارس والهند ، كما ادعى فورفيريوس ، ولا يمكن ان نفسر تحوله عن الافلاطونية وعن الاسكندرانية بما تعلمه او بما رجا ان يتعلمه من تلك الفلسفات ، هذا لان رحلته كما ذكرنا كانت قصيرة الامد ، ولم تجاوز حدود آسيا الصغرى ، ولانه سافر الى الشرق لا لاجل الشرق بل لاقتفاء اثار الامبراطور في الشرق ، وانه لم ير بعد وفاة الامبراطور داعيا لان يبقى في تلك البلاد ، او الى السفر الى ما بعدها في الشرق او اقصى الشرق .

« النموذج الملكي » ـ وافتراضنا هو ان افلوطين شعر منذ صغره بغياب معين ، كان له اشد التاثير في نفسه وحياته وتفكيره ، نقصد غياب الاب ، أو على الاقل غياب سلطة الاب . واعتقادنا ان حادث المرضعة وكشفه عن ثديها حتى سن الثامنة ، كان من علائم انعدام تلك السلطة وضعفها من حوله . لذلك كان تعلقه شديدا بامونيوس ، عندما التقى به في الاسكندرية ، وهو شاب في الثامنة والعشرين ، ووفاؤه لذلك المعلم وفاء خالصا طويلا ، رغم حنث رفاقه بالوعد الذي قطعوه على انفسهم بان يحتفظوا بتعاليم امونيوس سريا ، وراننا فوق ذلك أن تأخره بالاسكندرية ، وتاخره بالتالي عن انشاء مدرسته الفلسفية ، انما هما من علائم مراهقة طويلة ، وان تركه للاسكندرية ورحلته الى الشرق ثم الى الغرب ، واستقراره بروما ، ان كل ذلك من علامات يقظة نهائية وارادة حاسمة لتحقيق مشروع كامل كان في نفسه ، وعاقبة مختلف الاحداث القديمة والجديدة ، الشخصية والسياسية والتاريخية .

هذا هو افتراضنا ، ويمكننا ان نعرض الى وصف الاله ، كما يتبين من بعض اهم نصوص المقال الثامن التساعيات السادسة .

في عنوان الكتاب « ارادة الواحد وحريته » اشارة واضحة الى صفة القدرة الالهية الكاملة ، تلك الصفة التي تتم بها تعينه ، والتي تعين بمقتضاها مرتبة الكائنات كلها وطبيعتها ووجودها .

ان الاله واحد ، اي لا ينقصه التعين ، لا التعين بالحد أو بالماهية ، بل التعين بالاستقلال والانفراد الكاملين ، انه في انفراد وانعزال كامل عما ليس هو .

انه ملك اذن ، لان القدرة التي تتمثل في هذا الانفراد المطلق هي ما تجعله يظهر أو لا يظهر للكائنات حسب مشيئته ، انه هو الذي يختار وقت ومناسبة ظهوره ، وصفة ذلك الظهور ، كما يقول افلوطين في الفصل التاسع من « المقال المذكور » . هو الملك ، بقولها افلوطين ، اكثر من مرة (12 ، 5 V) 3 ، 5 V) لا ملك صدفة أو اتفاق ، بل ملك ارادته واختياره وما لكهما . فالملك ذاته هو الذي يقرر الظهور ، لا الناس ولا رغبات الشعب . ومن ناحية اخرى يكون ظهوره في موكب ، وحسب نظام وترتيب محكمين ، يتقدم الموكب الحراس فالحاشية فأقرب المقربين الى الملك ، وفجأة يظهر الملك . وعلامة المفاجأة هذه ان كثيرا من المتفرجين على الموكب يرحلون قبل ظهور الملك ذاته ، مكتفين برؤية حاشيته او المقربين اليه ، رمزا لهؤلاء الذين يكتفون في التامل بأبهى الاشياء في العالم المحسوس كالكواكب مثلا ، او رمزا لهؤلاء الذين يكتفون بتامل المثل والمعقولات . وهناك من المتفرجين من يتوقف حتى ظهور الشخص السابق على الملك ،سواء أكان أميرا من الامراء أو ابن الملك ذاته ، رمزا لهؤلاء الذين يتأملون الملك في الجمال الكامل ، أو لهؤلاء الذين يقفون في تفلسفهم عند العقل الالهي ، كالاسكندريين مثلا

وتتضح علامة المفاجأة هذه في تشبيه عظيم يقوم به افلوطين في الفصل الخامس والثلاثين من الكتاب السابع للتساعية السادسة ، حيث يتكلم عن شخص دعي لزيارة منزل انيق ، فأخذه العجب بكل ما فيه من اثاث وزخرف وصور وتماثيل ، بلغت غاية الجمال . ولكن الباب يفتح فجأة على صاحب الدار ، وللتو يترك الزائر كل ما كان ينظر فيه ، ويهرع للقاء صاحب الدار .

يظهر الملك اذن دون سبق اعلان . يتساءل افلوطين: وما الذي يقوله عندئذ ، هذا الذي اسعده الحظ بالانتظار حتى النهاية ؟ ما الذي يقوله ؟ لا شيء . يقف واجما ، لانه لم يعد هناك شيء جدير بالانتظار . وما الذي رآه ؟ اشياء لا توصف بلغة بشرية .

ما الاله ؟ انه ليس شيئا ينظر ، انه يظهر في تلك اللحظة التي تتوقف عندها قدرتنا الشخصية على النظر ، أي على التصويب الدقيق والرؤية المحددة .

فالاله ذاته هو النظرة ، نظرة مستمرة (16 ، 8 VI) لا نظرة كائن منشغل بما يراه ، ولا يقظة كائن منزعج على امور لم تحدث بعد . ان الاله نظرة ويقظة فحسب ، وبمقتضاها تتم التعيينات والاحداث .

ويؤدي بنا التعمق الى ان نقرر ايضا اننا كنا متهيئين لها قادرين عليها ، وان فى طبيعتنا شيئا من الاله الذي قدرنا على هذا اللقاء وذلك الاتحاد ، وان الاله « الغائب » ليس غائبا بالفعل ، بل اننا نحن الذين كنا غائبين عنه ، او نائمين . ان الاله قديم فينا وفى العالم ، وان تفكيرنا الفلسفي يبلغ الوجود والحقيقة المطلقة عن العالمين المعقول والمحسوس ، لانه تفكير فى الاله ، وهو تفكير فى الاله لان الاله ذاته فى اساس هذا التفكير ومصاحب لهذا التفكير .

يبدو اذن ان افلوطين لا يقف عند لاهوت سلبي، وانه يحاول على اساس التجربة الصوفية ان يعطينا لاهوتا ايجابيا . والسؤال الذي يجب وضعه هنا هو : وكيف تكون هناك وصف ايجابي للاله على اساس التجربة الصوفية ، ما دامت تلك التجربة تحرمنا من الكلام عن الاله فى ذاته ؟ تقول افلوطين انه لابد من ان نعتمد فى محاولتنا الايجابيه هذه على استعارات وتشبيهات (13 ، 8 VI) وتستمد تلك الاستعارات والتشبيهات قيمتها من يقين التجربة الصوفية ومن هذا الاساس الايجابي الذي ذكرناه ، اي اثبات وجود مبدأ اسمى يفسر العالم والعقل ، هذا الاساس الذى اكتسب قوة عظمى بفضل التجربة الصوفية .

استخدم اذن افلوطين منهجا سلبيا فى اللاهوت، ثم استخدم منهج المماثلة والتشكيك ، اي اعتمد ، بعد التنزيه ، على التشبيه .

وما مصدر التشبيه ؟ ما هذا الشبه للاله ؟ ما تلك الصورة ؟ ما ذلك الرمز للاله الذي مكنه ، بعد التجربة ، من الكلام عن الاله ووصفه ؟ .

للاجابة على هذا السؤال ، يجب ان نعود مره جديده الى تلك الدوافع التي قادت افلوطين الى اقتفاء آثار الامبراطور الروماني جورديان ، ثم الى الاستقرار فى روما ، وتأسيس مدرسته الفلسفية فيها ، بعد فشل الامبراطور جورديان . والدوافع فى كلتا الحالتين — ترك الاسكندرية الى الشرق ، والاستقرار فى روما — واحدة ، وهي متصلة الى حد ما بشعور افلوطين بالقلق اثناء حياته بالاسكندرية ، وذلك بعد ما لاحظ من تقلقل فى الحالة السياسية وتعرض البلاد الى الغزو . شعور لابد قد منعه من التفكير فى انشاء مدرسة فلسفية لها آثارها فى حياة الافراد والمجتمع . ولا يبعد ان يكون هذا الشعور قد ادى به الى التفكير فى روما لتكون مركز تلك المدرسة . ولكنا نعتقد ان تلك الدوافع متصلة اتصالا اشد بامبراطور روما نفسه . فاننا نرى افلوطين رغم خيبة امله من جورديان فى آسيا ، يذهب مباشرة الى روما دون المرور بالاسكندرية ويفتح فيها مدرسة ويبدأ تعليما . ثم يجيء بعد ذلك ، لاستماع دروسه فى تلك المدرسة ، الامبراطور جاليان نفسه . الذي كان حاكما فى ذلك الوقت . وبدا افلوطين يركن بعد ذلك الى هذا الامبراطور فى شان انشاء « مدينة فاضلة » على غرار « جمهورية افلاطون » يعيش فيها مع تلاميذه ومع سكان المناطق المجاورة .

ولسنا نريد الدخول هنا فى الكلام عن جاليان ، وعن الاعمال والاصلاحات التي قام بها او شرع فيها(*) ولا شك فى ان افلوطين عرف شيئا عن تلك الاصلاحات، مما شجعه على المضي فى تعليمه الفلسفي ، وعلى التفكير فى مشروع مثل مشروع « المدينة الفاضلة » . ولكننا نذهب ابعد من ذلك ، ونفترض انه رأى فى شخص جاليان — بعد خيبة امله فى جورديان — فوه نموذجية كان فى اشد الحاجة اليها ، وكانت غائبة من حوله . وذلك منذ صغره ، بل نفترض فوق ذلك ، ان فكرة « الملك » او الامبراطور هى فكره لانموذج بشرى كما يقول يونج (Yung) او هي فكرة للشبه الذى كان يبحث عنه افلوطين لتوطيد نظريته فى الاله .

ولا بد من ان نتساءل مره اخرى : ولماذا بحث افلوطين عن نموذج بشري للاله ؟ ولماذا اخذ هذا النموذج ، فى خيال افلوطين ، صورة الملك او الامبراطور، ما السبب السيكولوجي الذي جعله يبحث عن هذا النموذج ويرضى بتلك الصورة ؟ .

لا نستطيع هنا الا ان نضع على اساس ما ذكرناه فى البداية (*) ، افتراضا يتأسد نظرنا على الاقل (*) ، يرضى افلوطين عن وصفه للاله ، فى ضوء

---

* راجع فى هذا الموضوع مقالات ليون هومو الشهيرة فى الامبراطور جاليان وازمة الامبراطورية الرومانية . فى « المجلة التاريخية » 1913 .

* راجع (دعوة الحق) ماي يونيو 1963 صفحة 42

* واضح ان منهج علم النفس التحليلي لايمكن ان يكون استنباطا فى تاريخ الفلسفة ما دام (التحقيق) فى هذا المنهج يقوم على ملاحظة فعلية للتطور السيكولوجي للانسان الحي .

ولكنه يبقى بعد ذلك ان افلوطين كان ، بالرغم من كل شيء ، فيلسوفا اسكندرانيا ، لا بالطبع من حيث انه تزعم او اسس مدرسة فلسفية بالاسكندرية ، ولا من حيث انه بقي تلميذا روحيا مخلصا لما سميناه « مدرسة الاسكندرية » واكنه كان فيلسوفا اسكندرانيا، من حيث ان الهامه الاساسي يرجع الى الاسكندر نفسه ، مؤسس مدينة الاسكندرية ، والمسؤول في نهاية الامر عن نشأة فكر اسكندراني ، كما اشرنا الى ذلك في كتاب سابق (*) .

وقد ياخذ منا شرح هذه القضايا ماخذا طويلا ، نتغافل عنه في هذه الدراسة المختصرة . ولكن تكفينا ان نسجل من ناحية ان نموذج (الامبراطور) كما تمثل لافلوطين هو احياء لفكرة الحاكم العالمي التي الهمت الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد ، كما بين ذلك اولريح ويلكن ، من أكبر مؤرخي الاسكندر في العصر الحاضر . وتكفينا ان نسجل من ناحية اخرى ، ان الاسكندر لم يكن حاكما او قائدا ، او محاربا فحسب ، بل كان (مريدا) بمعنى اشرنا اليه في كتابنا السابق هذا : مريدا لاله الشمس والسماء ، هذا الذي كان يستلهمه الاسكندر في بداية مشروعاته وفتوحاته ؛ وان رحلات الاسكندر وتنقلاته المستمرة لم تكن في حقيقة الامر الا مظاهر لشخصيته كمريد ، بل ان هذه التنقلات التي لم تتوقف الا بموت الاسكندر ، هي دلائل على ان الاسكندر كان « مريدا » قلقا ، لم يبلغ مرماه .

وقد كان افلوطين مريدا فلسفيا لأمونيوس بالاسكندرية . اما وقد وجد شيئا من الاستقرار بجوار العاهل الروماني ، فالاغلب ان هذا الاستقرار كان ذاته رمزا الى استقرار اعمق واقوى ، الى استقرار النفس بجوار الاله القدرة والمجد ، هذا الاله الذي صوره افلوطين تصويرا رائعا في « التساعيات السادسة والاخيرة » . وعلى ذلك ، فيصح ان نقول انه بهذا الاستقرار النهائي ، قد ختم مطاف « المريدين » الاسكندرانيين السابقين . وعلى رأسهم امامهم الاسكندر ، مؤسس الاسكندرية والملهم الاول لمدرستها .

الرباط — الدكتور نجيب بلدي

(*) « تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها » دار المعارف بالقاهرة 1962 .



والاله امز (VI 8،20) : لا انــه يامــر الاخرس فيطيعوه ولا يامر نفسه بالقيام بافعال ، انــه مبــرد الامر وبالامر تتم الاشياء .

انه الحرية المطلقة ، انه الفرصة والفارق بين الفرصة والمناسبة ، ان المناسبة تفترض الاتفاقات ، فهي من عــلامات حرية ناقصــة كالحريــة الانسانية ، اما الفرصة ففيها علامات القدرة والحريــة المطلقتيــن (*) .

خـاتمــــة :

نختتم هذه الدراســة المختصــرة بالعــودة الى السؤال الرئيسي الذي وضعناه فى البداية : وما علاقة افلوطين بمدرسة الاسكندرية ؟

فى الاجابــة على هــذا السؤال ، يجب الا ننسى المعنى الذي يجب اعطاؤه للعبارة «مدرسه الاسكندرية»: انها لم تكن مدرسة فلسفية بالمعنى المفهوم ، بل كانت نزعة عقلية شاعت فى مدينة الاسكندرية منــذ بدايــة العهد الميلادي ، وقوام هذه النزعة توجيــه الفلسفــة بوجه عام ، والفلسفة الافلاطونية بوجه خاص ، نحــو خلاص النفس ومعرفة الاله ، والاتحــاد بــه اتحــادا يحقق هذا الخلاص . وقد مثل الهرامسة هذه النزعة تمثيلا واضحا فى نهاية القرن الميلادي الثاني ، وجــاء امونيوس معلم افلوطين فى هذا الوقت تقريبا ليحيــي الفلسفة الافلاطونية القديمة ، فى جو سكندري هرمسي بدليل سرية التعليم . وهذا القسم الذي اشرنا اليــه فيما مضــى .

وقد راينا افلوطين مدينا لهذا التعليم ولهذا الجو الروحي الاسكندري بما عملــه لتحويــل النظريــات الافلاطونية القديمة وخاصة نظرية العالم المعقول . انــه مدين للاسكندرية وللهرامسة بوصفــه للعالــم المعقول. هذا الوصف الذي يظهر فيه العالم المعقــول فى صورة تكاد تجعله محسوسا ملموسا .

هذا هو ميراث الاسكندرية ، اخذه معه افلوطين فى رحلته الى الشرق . ولا نظن هذا المراث قد تغير فى جوهره اثناء تلك الرحلة ، او ان افلوطين قد اضــاف اليه جديدا اكتسبه كما قيل من ديانات الشرق . وقد كيف افلوطين هذا الميراث العقلي باسلوبه الرائــع فى التعبير عن العالم المعقول (راجع بوجه خاص الفصلين الخامس والتاســع مــن المقــال الثامــن للتساعيات الخامسة) .

ونقول انه اذا كان افلوطين قد وقف فى فلسفتــه عند هذا الميراث العقلي مكيفيا بصياغه شخصية رائعة لهذا الميراث ، لاستحق ان يكون فيلسوفا اسكندرانيا ، بل لصح ايضا ان نطلــق عليه لقب زعيــم « مدرســة الاسكندريــة » .

ولكن هذا الافتراض غير صحيح لاننا نعلــم ان افلوطين قد جاوز الاسكندرية ومعالمها . وجــاوز الفلسفة الافلاطونية كما كانت تعلم بالاسكندرية . وقد رأينا معالم فلسفة افلوطين فى موضوع الاله . وكيف كان انشاء هذه الفلسفة واسلوب التعبير عنها مرتبطين بفكرة الامبراطور الروماني . بحيث يمكن القول ان فكرة الامبراطور كانت مناسبة لتطبيق منهج التماثل فى العلم الالهي ، بل ربما امكن ان نقول ان هذه الفكــرة اعطت افلوطين نموذجا واقعيا ، اعانه على وصف الاله ، وعلى التعبير عن التجربة الصوفية . وخاصة عن تلك اللحظة التي لا يمكن التعبير عنها فى حقيقه الامر . وعلى وجه مباشر ، عن لحظة الاتحــاد .

(*) تطلق كلمة « الفرصة » فى الكتاب المقــدس ، على اليوم الذي يختاره الاله للظهور والتجلي
« اما ذلك اليوم وتلك الساعة ، فلا يعلمهما احد ، ولا ملائكه السموات . « متى 24 : 36 »
« اما عن الازمنة والاوقات ، فليست هناك ضرورة ما لان يكتب لكم عنها . « الرسالــة الاولى لاهــل تسالونيكيه 5 : 2 »
« ناموا الآن واستريحوا لقد قضى الامر وانت الساعــة » مرقس : 41 ، 14
وفى هذا المعنى يمكن الرجوع الى الآية الاولى من « سورة القمــر » :
(اقتربت الساعة وانشق القمــر) .

تختلف اسماؤه مع المشابهة فى المعنى ، وما تختلف اسماؤه واوصافه باختلاف احواله ومعرفة الاصول التي تشتق منها الاسماء ، وما نظمت به العجم على وفق لغة العرب وما اضطر العرب الى تعريبه وقدم لكل ما مضى امثلة مقتبسة من كتب اللغة العامة فاعتمد على فقه اللغة الثعالبي وأدب الكاتب لابي جعفر النحاس وكنز الكتاب لكشاجم ، وكفاية المتحفظ لابن الاجذابي والمذهبة والمعقبة لابن اصبغ

كما ذكر ايضا بان الكاتب فى حاجة الى معرفة الفصيح وهو الذي روي عن العرب الذين سلمت افهمم من التأثر بلغة الاعاجم لانهم كانوا بعداء عن الحدود كما يجب عليه ان يطلع على ما تلحن فيه العامة وتخرجه عن موضعه ليجتنبه فى كتابته ، ويجب عليه ايضا أن يلم بالالفاظ الكتابية التي اصطلح الكتاب على استعمالها لخفتها ورشاقتها وسلاستها وسلامتها من التعقيد والغرابة ، وقد وصف الجاحظ هاته الالفاظ فقال : (ما رايت أمثل طريقة من هؤلاء الكتاب فانهم التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا ولا حوشيا ولا ساقطا سوقيا) . ومثل المؤلف لذلك فقال كقولهم فى اصلاح الفاسد : اصلح الفاسد ، ولم الشعث ، ورأب الشعب ، وسم النسر ، ورم الرث ، وجمع الشتات ، وجبر الكسر ، واسا الكلم ، ورفع الخرق ، ورتق الفتق وشعب الصدع ، ثم قال وفى كتاب الالفاظ لعبد الرحمن بن عيسى الكاتب كفاية من ذلك .

النوع الثاني : المعرفة باللغة العجمية ليستطيع ان يترجم لملكه بعض المكاتبات الخاصة التي ترد عليه من ملوك العجم ، وذكر بان الضرورة قد تدعو الكاتب الى ان يتعلم اللغة التي يحسنها ملكه ليلقي الحظوة والجاه عنده ، (فان الشخص يميل الى من يخاطبه بلسانه لا سيما اذا كان من غير جنسه ، كما تقبل نفوس ملوك الديار المصرية وامرائها وجندها لمن يتكلم بالتركية من العلماء والكتاب ومن فى معناهم على ما هو معلوم مشاهد) .

النوع الثالث : المعرفة بالنحو ليتعود على النطق الصحيح ويسلم من اللحن فى كتابته وقوله .

النوع الرابع : التصريف ليعرف اصل الكلمة وزيادتها وحذفها وابدالها فيتصرف فيها بالجمع والتصغير والنسبة اليها وغير ذلك .

النوع الخامس : المعرفة بعلوم المعاني والبيان والبديع لتقوي ملكته ويسلم ذوقه ويحسن تعبيره فان الذي لا يطلع على هاته العلوم لا يميز بين الجميل وغيره ، ولا يستطيع ان يدل على مواطن الاستحسان فى الكلام ولا ان ينشيء ما ترنو اليه الاعين او تشتاقه الاذان .

النوع السادس : حفظ كتاب الله تعالى للاستدلال به كلما احتاج اليه ، وقد اختلف فى جواز الاستشهاد بالقرآن الكريم فى المكاتبات ونحوها ، فذهب اكثر العلماء الى جواز ذلك ما لم يحد عن لفظه ولم تتغير معناه ، وقد ذكر المكاتبات المشتملة على ذلك فكانت نماذج ادبية وتاريخية لا تخلو من فائدة .

النوع السابع : الاستكثار من حفظ الاحاديث النبوية وقد ذكر ابن قتيبة فى ادب الكاتب ان الاحاديث التي ينبغي للكاتب حفظها الاحاديث المتعلقة بالفقه واحكامه كقوله : (ص) (البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه ، والخراج بالضمان وجرح العجماء جبار ، ولا يغلق الرهن ، والمنحه مردودة ، والعارية مؤداة ، والزعيم غارم ، ولا وصية لوارث ، ولا قطع فى تمر ولا كثر ، ولا قود الا بحديدة ، والمراه تعاقل الرجل الى ثلث ديتها ، ولا تعقل العاقلة عمدا ولا عبدا ولا صلحا ولا اعترافا ، ولا طلاق فى اغلاق . . . الخ) .

ولكن القلقشندي ذكر بان الاقتصار على احاديث الاحكام ليس بظاهر بل يجب على الكاتب ان يحفظ احاديث الحكم والامثال والسير ونقل الينا عن ابن الاثير ان اول ما ينبغي حفظه من الاخبار ما تضمنه كتاب الشهاب فى المواعظ والاداب للقضاعي .

النوع الثامن : الاكثار من حفظ كلام البلغاء والتفنن فى اساليب الخطباء ، وذكر نماذج مختلفة تتنوع اساليبها ومواضيعها وصورها منها قول خالد بن عبد الله أمير البصرة : « أيها الناس نافسوا فى المكارم ، وسارعوا الى المغانم ، واشتروا الحمد بالجود ، ولا تكسبوا بالمطل ذما ولا تعتدوا بالمعروف ما لم تعجلوه ، ومهما يكن لاحد منكم عند احد نعمة فلم يبلغ شكرها فالله احسن لها جزاء واجزل عليها عطاء ، واعلموا ان حوائج الناس اليكم نعمة من الله عليكم فلا تملوا النعم فتحولوها نقما ، واعلموا ان افضل المال ما اكسب اجرا ، واورث ذكرا ، ولو رأيتم المعروف رجلا رأيتموه

نظرات حول كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

للأستاذ : محمد بن عبد العزيز الدباغ

-3-

المقالة الاولى (*) في بيان ما يحتاج اليه كاتب الانشاء من المواد

قدم البنا المؤلف فى المقدمة اختصاصات الكاتب وما يتصرف فيه من اعمال واظهر لنا فى هاته المقالة الحصانة التقافية التي يجب ان يرتكز عليها فى القيام بمهمته ، وقد قسمها الى بابين : فخص الباب الاول لما يحتاج اليه الكاتب من الامور العلمية والباب الثاني لما يحتاج اليه من الامور العملية ، وعادة المؤلف في كتابه انه يحدد موضوعه ويحصره فى اجزاء مخصوصة حتى يسهل على القارىء استرجاع ما درسه كلما اراد ذلك وبهاته الطريقة جعل كتابه جامعا بين الموسوعية العلمية وبين المنهاج التعليمي الذي ييسر للقارىء المعرفة عن طرف منظمة يستدرج به من المقدمات الى النتائج .

ووفقا لمنهاجه فقد قسم الباب الاول الى فصول ثلاثة :

الفصل الاول فيما يحتاج اليه الكاتب على سبيل الاجمال .

الفصل الثاني فيما يحتاج اليه من مواد .

الفصل الثالث فيما يحتاج اليه من معرفة الازمنة والاوقات .

أما الفصل الاول : فلم يأخذ من كتابه الا جزءا يسيرا فهو قد تحدث فيه عما يجب على الكاتب ان يعلمه من المواد العلمية العامة ، ونقل البنا نظريتين مختلفتين احداهما ترى بان الكاتب لا يحتاج من المواد الا الخط واللغة والبلاغة والعلم بترتيب اعمال الدواوين وهي التي سار عليها ابو جعفر النحاس فى كتابه (صناعة الكتاب) ، واما الثانية فهي تلزم الكاتب بالاطلاع على مختلف العلوم ولا تفرق بين المواد اللغوية والانشائية وبين المواد العلمية ، وهي نظرية ابن قتيبة فى كتاب (ادب الكتاب)وتبعه عليها ابو هلال العسكري فى كتاب (الصناعتين) .

ولم يكتف القلقشندي بعرض الرأيين دون أن يبدي رأيه الخاص فذكر بان الحاجة الى العلوم تختلف باختلاف الكتابة بحسب نوعها (فكل نوع من انواعها يحتاج الى معرفة فن او فنون تختص به) .

وأما الفصل الثاني : المتعلق بمعرفة مواد الانشاء فقد قسمه الى اطراف ثلاثة (*) فجعل الطرف الاول لما يحتاج اليه الكاتب من الادوات ، والطرف الثاني لما يحتاج الى وصفه من اصناف الكتابة . والطرف الثالث لصنعة الكلام ومعرفة كيفية انشائه ونظمه .

أما ما يحتاج اليه الكاتب من الادوات فذكر سبعة عشر نوعا :

النوع الاول : المعرفة باللغة العربية ليستعين بها على التعبير الصحيح وليجعلها قالبا للمعاني التي تختلج في نفسه ، وذكر بان الكاتب يحتاج من اللغة الى الغريب ليستكشف به المعاني المختلفة من اشعار العرب وخطبهم ويتوصل الى معرفة بعض آي القرءان . ويحتاج ايضا الى معرفة المتباين والمترادف والحقيقة والمجاز والالفاظ المتضادة وتسمية المتضادين باسم واحد والمقصور والممدود والمذكر والمؤنث والمهموز وغيره ، وما ورد من كلام العرب مزدوجا وما ورد من كلامهم مثنى على سبيل التغليب او على سبيل الحقيقة، وما ورد من كلامهم مرتبا وما ورد مورد الدعاء وما

---

* كتب المؤلف هاته المقالة فى اكثر من الف صفحة : ج 1 من ص 140 الى 480 ، و ج 2 كله ، وفيه 488 ص ، و ج 3 من اوله الى ص 227 .

* قال المؤلف فى مقدمة هذا الفصل : (وفيه طرفات) ولكنه عند التحليل ذكر ثلاثة .

ومن الواضح ان هاته النصوص التي ياتي بها المؤلف تدفعنا الى استقصاء ما خلفه العرب والى البحث عن هاته الكتب لنتصل بها مباشرة فيرتفع المستوى العلمي والادبي عند الكتاب وهذا من اعظم مزايا القلقشندي فى كتابه لانه ينير فينا غريزة الاستطلاع ويحبب الينا الصبر فى طلب العلم فاحبب به من عمل.

النوع الثاني عشر . معرفة انساب الامم من العرب والعجم وقد ذكر اهم ما يحتاج اليه الباحث من الانساب واصول الاجناس وخصوصا ما يتعلق بانساب العرب وانظمتهم القبلية وقد جره الحديث الى ذكر اختلاف الاراء فى عروبة البربر فقال : (*) (وبالجملة فاكثر الاقوال جانحة الى انهم من العرب وان لم نتحقق من أى عرب هم) .

النوع الثالث عشر : المعرفة بمفاخرات الامم ومسافراتهم وما جرى فى ذلك من المحاورات والمراجعات والمناقضات وذكر امثلة لكل جانب تحدث عنه من ذلك قوله : (واعلم ان المفاخرة قد تكون بحقيقة الحسب وقد تكون فيها الفصاحة واللسن مقام الحسب كقول ابى تمام الطائى يفتخر :

انا ابن الذين استرضع المجد فيهم
وسمى فيهم وهو كهل ويافع
نموا وكس المكرمات لديهم
لكثرة ما وصوا لهن شرائع
فاى يد فى المجد مدت فلم يكن
لها راحة من مجدهم واصابع
هم استودعوا المعروف محفوظا مالنا
فضاع وما ضاعت لدينا الودائع

مع ان ابا تمام لم يكن من طىء . وانما اندس فيها فقط كما ذكر ذلك كثير من الناس ونص عليه الصفدي فى شرح اللامية .

ثم قال : (وربما كان الافتخار بالتورية والتعريض بالامور المقتضية للشرف بحيث يظن السامع حقيقة الافتخار والشرف بمجرد السماع فاذا عرف المقصد تبين له خلاف ذلك كقول ابي الحسن الجزار :

الا قل للذي يسا
ل عن قومي وعن اهلي
لقد تسأل عن قوم
كرام الفرع والاصل
يريقون دم الانعا
م فى حزن وفى سهل
وما زالوا لما يبدو
ن من باس ومن بذل
يرجيهم بنو كلب
ويخشاهم بنو عجل

وان الامثلة التي اتى بها المؤلف لتشحذ ذكاء الكاتب وتقوي فيه روح الملاحظة فتعينه على الانتاج السليم الرشيق .

النوع الرابع عشر (*) : المعرفة بايام الحروب التي كانت بين العرب ليكون على خبرة بما وقع في هاته الايام فيستغل ذلك فى كتابته ، فقد يقتضي الحال ان يمدح بعض الموالين لملكه فلا يجد سبيلا الى ذلك الا بان يذكرهم بايامهم المجيدة ومواقفهم الخالدة ، وقد يقتضي الامر ان يهجو بعض المخالفين والخارجين عن طاعة رئيسه فيذكرهم بايام الهزيمة والخزي .

وقد يجره الامر عند ذكر الايام الى ذكر بعض الاعلام المشهورة بالشجاعة والقوة فيجعلهم فى مواطن التشبيه اعتمادا على ما اشتهروا به من صفات .

الا انني ارى ان هذا الجانب قد تكلفه الكتاب حتى اخرجوه عن الجمال الادبي واصبح صناعة يحاول الكاتب ان يظهر بواسطتها بعض علومه وذلك كما وقع لمؤلفنا نفسه حين قال فى مدح المقر الزيني ابي يزيد الدوادار (*) : (فلو لقيه فارس عبس لولى عابسا او طرق حمى كليب لبات من حماه يائسا او قارعه ربيعة بن مكدم لعلا بالسيف مفرقه أو نازله بسطام لبدد جمعه وفرقه) وكقول ابي نصر الفتح بن خاقان في خطبة كتابه قلائد العقيان : (لو جاوره كليب ما طرق حماه او استجار به احد من الدهر حماه او كان بوادي الاخرم لطاف به ربيعة واحرم او استنجده الكندي ما كساه الملاءة او كان حاضرا بسطام لما خر على الالاءة)

(*) صبح الاعشي ج 1 ص 361 .

(*) كرر المؤلف او الناسخ العدد الثالث عشر فسمى هذا النوع ايضا به وبنى عليه ما بعده فنحن نرى مثلا الجزء الثاني من صبح الاعشي يتبدأ بقوله: النوع الثامن عشر فى الاحكام السلطانية مع انه النوع التاسع عشر فانتبه .

(*) الدوادار : المكلف بشؤون البريد انظر الجزء الثالث من صبح الاعشي 396 .

حسنا جميلا يسر الناظرين ، ولو رأيتم البخل رجلا رأيتموه مشوها قبيحا تنفر عنه الابصار ، ايها الناس ان اجود الناس من اعطى من لا يرجوه ، واعظم الناس عفوا من عفا عن قدرة ، وأوصل الناس من وصل من قطعه ، ومن لم يطب حرشه لم يزك نبته ، والاصول عن مغارسها تنمو وباصولها تسمو ، اقول قولي هـذا واستغفر الله لي ولكم ... »

النوع التاسع : حفظ جانب جيد من مكاتبات الصدر الاول ومحاوراتهم والنظر في رسائل المتقدمين ليستفيد من كل ذلك بنوع الاساليب فيقلد المستحسن منها ويبتعد عما عجن . وقدم الينا انواعا شتى تدل على حسن ذوقه وكثرة عنايته بهذا الجانب التطبيقي في كتابه ، فهو يعتمد دائما ان يردف النظريات بالامثلة حتى لا يكون كتابه قاصرا او ضعيفا ، ومن الامثلة التي ذكر قوله (*) : « ومن ذلك ما روي ان معاوية حج ، فسأل عن امراة من بني كنانة كانت تنزل الحجون يقال لها الدارمية ، وكانت سوداء كثيرة اللحم فأخبر بسلامتها ، فجيء بها ، فقال : ما حالك يا ابنة حام ؟ قالت لست لحام أدعى ان عبتني انا امراة من بني كنانة ، قال صدقت — لم ارسلت اليك ؟ قالت لا يعلم الغيب الا الله ، قال بعثت اليك لاسألك علام احببت عليا وابغضتيني (*) ووالبنيه وعاديتيني ، قالت : أو تعفيني يا أمير المؤمنين ، قال : لا اعفيك ، قالت : اما اذا ابيت ، فاني احببت عليا على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وابغضتك على قتالك من هو أولى بالامر منك . وطلبك ما ليس لك بحق ، وواليت عليا على ما عقد له من الولاية وعلى حبه المساكين ، واعظامه لاهل الدين . وعاديتك على سفك الدماء ، وجورك في القضاء وحكمك بالهوى ، قال : ولذلك انتفخ بطنك وعظم ثدياك وربت عجيزتك ، قالت : يا هذا بهند كانت تضرب الامثال لابي ، قال : يا هذه اربعي فانا لم نقل الا خيرا ، انه اذا انتفخ بطن المراة تم خلق ولدها ، واذا عظم ثديها تروي رضيعها ، واذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها فرجعت وسكنت — قال لها : فهل رأيت عليا؟ قالت : لقد كنت رايته ، قال : كيف رايته ؟ قالت : رايته لم يفتنه الملك الذي فتنك ، ولم تشغله النعمة التي شغلتك — قال لها : سمعت كلامه ؟ قالت نعم والله كان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت الطست من الصدا ، قال : صدقت فهل لك من حاجة ؟ قالت وتفعل اذا سألتك ؟ قال نعم ، قالت : تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها ، قال . تصنعين بها ما ذا ، قالت : اغذي بالبانها الصغار واستحيي بها الكبار واصلح بها بين العشائر ، قال : فان اعطيتك ذلك فهل احل عندك محل علي ؟ قالت ماء ولا كصداء ، ومرعى ولا كالسعدان وفتى ولا كمالك ، يا **سبحان الله او دونه** (*) فانشأ معاوية يقول :

اذا لم أعد بالحلم مني اليكم
فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم ؟
خذيها هنيئا واذكري فعل ماجد
جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال اما والله لو كان عليا ما اعطاك منها شيئا قالت ولا برة واحدة من مال المسلمين (*) .

وذكر المؤلف كيف يتصرف الكاتب في هاته المحاورات والمراجعات وكيف يقوي بها انتاجه دون ان يأخذها على ظاهرها .

النوع العاشر : الاكثار من حفظ الاشعار الرائقة ليستعين باساليبها على الكتابة وللكاتب في استعمال الشعر في صناعته ثلاث حالات : الاستشهاد والتضمين والحل ، وذكر لكل نوع امثلته الخاصة به

النوع الحادي عشر : الاكثار من حفظ الامثال النثرية والشعرية ، قال (*) : « وقد اكثر الناس في تصنيف كتب الامثال ، فمن ذلك الامثال لابي عبيد وهو مرتب على ترتيب الوقائع التي تقع فيها الامثال ومن ذلك امثال الميداني وهي مرتبة على حروف المعجم وفي آخرها جملة من ايام العرب الى غير ذلك من كتب الامثال المصنفة في هذا الباب كامثال الضبي والقمي وغيرهـا ...

* صبح الاعشي ج 1 ص 259 .
* اشباع تاء المخاطبة بياء بعدها لغة مسموعة ، وقد ورد في حديث نبوي في مخاطبة المراة : لو راجعتيه انظر كتاب (مشكلات اللغة العربية) لمحمود تيمور الطبعة الاولى 1956 صفحة 192 .
* سياق الكلام لا يقتضي ان تكون هاته العبارة ضمن حديث الدارمية .
* اثر الانتحال يتجلى على امثال هاته المحاورات .
* صبح الاعشي ج 1 ص 298 .

خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد وانتهت بتغلب التتر عليهــــا .

خزانة الخلفاء الفاطميين بمصر وانقرضت بانتهاء دولتهم واكثر كتبها اشتراها القاضي الفاضل ووقفها بمدرسته الفاضلية بالقاهرة الى ان تعاقبت عليها الايام

خزانة الخلفاء الامويين بالاندلس وضاعت حين قيام ملوك الطوائف .

ومن احسن ما ذكره المؤلف هنا ملاحظته حول الخزانات في عصره ، فذكر بان الملوك قلت عنايتهم بها استكفاء بالخزانات العامة الموزعة على المدارس المختلفة حيث انها بذلك امس .

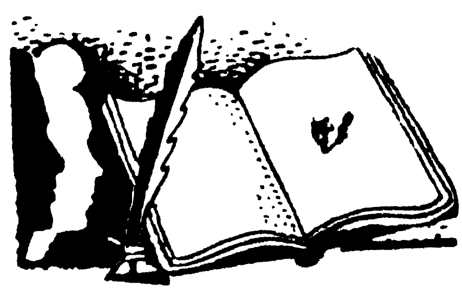
ولا شك ان هاته الخزانات المدرسية كانت سببا في تثقيف عدد كبير من الادباء وانها كانت سببا في هاته الموسوعية العلمية التي اصبحت طابع عصر مؤلفنا وخير دليل على ما نقول ما اعتمده القلقشندي من المصادر فانه يتعذر جمعه على فرد واحد ، فاذا لم تكن هاته الخزانات في متناول العموم ضعف الادب والعلم ، فعلينا ان نستفيد من هاته الملاحظة في عصرنا هذا ونعمل على تكوين خزانات في جميع المدن دون ان نقتصر على بعضها .

النوع التاسع عشر : المعرفة بالاحكام السلطانية (*) لتكون كتابته وفق القوانين التي تسير عليها دولته ولتكون مناسبة لانواع الوظائف التي يتولاها الاشخاص حسب رتبتهم وكفايتهم وكذلك لتناسب اسباب الخلع اذا ما وجه تقليدا بذلك فيرفع بها اللبس ويزيل الابهام قال : « وقد اورد اقضى القضاة ابو الحسن علي بن حبيب الماوردي رحمه الله في « الاحكام السلطانية » ما فيه مقنع من ذلك » .

وبانتهاء تحليل هذا النوع انتقل الى الطرف الثاني الذي سأقدمه للقراء في ظرف آخر .

فاس — محمد بن عبد العزيز الدباغ

(*) بهذا النوع ابتدأ المؤلف الجزء الثاني من صبح الاعشى .



النوع الخامس عشر : المعرفة بأوابد العرب
وهي امور كانت العرب تجري عليها اما على اعتقاد كونها دينا او عادة او خرافة ولا بسفني الذين يدرسون تاريخ المجتمع العربي ايام الجاهلية عن هذا الموضوع لما فيه من التسرح لكثير من هاته الاوابد .

ومن الطريف ان العادة المغربية التي تذكرنا بطفولتنا ايام كنا منفرين فنلقي السن المزالة الصغيرة الى الشمس نرجوها ان تبدلنا خيرا منها لها اتصال بهاته الاوابد الجاهلية فقد ذكر المؤلف رمي سن الصبي المثغر فقال : (يقولون ان الغلام اذا اثغر فرمى سنه في عين الشمس بسبابته وابهامه وقال ابدليني بها احسن منها امن على اسنانه العوج والفلج والنفل قال طرفة :

بدلته الشمس من منبته
بردا أبيض مصقول الاشر (*)

النوع السادس عشر : معرفة عادات العرب
وخص هذا النوع بالحديث عن انواع النيران عند العرب وعما يقيمونه من الاسواق فى شمال الجزيرة وجنوبها .

النوع السابع عشر : النظر فى كتب التاريخ
ليحتج ببعض الوقائع فى كتابته وليستند عليها فى اثارة الهمم وتذكير النفوس بالامجاد كما يستغلها فى ابطال حجج الخصم اذا ما حاول تحوير بعض الاحداث لصالحه الخاصة .

وفى هذا النوع ذكر نبذا تاريخيه لا يسامح الكاتب بجهلها منها معرفة بعض الاوائل كقوله مثلا :

اول من سمي خليفة أبو بكر الصديق .
اول من سمي امير المومنين عمر بن الخطاب .

اول من اعتاد حلق شعره من ملوك الديار المصرية الملك الناصر محمد قلاوون حين حج وتبعه الامراء والجند على ذلك .

اول من صنف في علم الكلام واصل بن عطاء المعتزلي .

اول من خطب جالسا معاوية حين كثر شحمه .
اول من ارخ بالهجرة عمر بن الخطاب .

اول من ضرب الدنانير والدراهم فى الاسلام عبد الملك بن مروان ، ضربها بالشام من فضة خالصة وكان الناس قبل ذلك يتعاملون بدراهم الفرس والروم .

فبالاطلاع على ما ذكره المؤلف نجد بعض النصوص التي تعيننا فى دراستنا الحضارية ، فنحن مثلا نرى هذا النص المتعلق بعبد الملك يبرز شخصيته الجريئة فى محاولة تحقيق التعريب فى اجلى مظاهره فهو الذي كان قد عرب الدواوين ترفع من مستوى اللغة العربية واخرجها من اطارها العلمي الى الاطار الاداري ، ولكنه رأى ان تعريب اللغة ليس كافيا فى فرض شخصية الدوله اذا لم يتجاوزها الى تعريب الفكر والاقتصاد . ولذلك حقق ما عجز عنه غيره من الخلفاء الذين سبقوه وحقق للدولة الاموية ما كانت ترجوه من اثبات شخصيتها الذاتية ، ولهذا فاننا نقول بان عبد الملك كان نقطة تحول فى تاريخ الاسلام على العموم وتاريخ الدولة الاموية على الخصوص . ولهذا مهد المجد لابنه من بعده فكان الوليد من أعظم الملوك .

ومن هاته النبذة التاريخية ذكر بعض الغرائب والمصادفات كقوله (*) : (خليفة جرت أموره كلها على ثمانيه وهو المعتصم فهو الثامن من خلفاء بني العباس ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة ، وعمره ثمان واربعون سنه ، وكان ثامن اولاد الرشيد ، وملك ثمان سنين وثمانية اشهر وثمانية ايام ، وخلف ثمانية بنين وثمان بنات وثمانية الالف دينار وثمانية وعشرين الف درهم وثمانية عشر الف دابة ، وله ثمان فتوحات ، وتوفي لثمان بقين من شهر ربيع الاول ومن ثم سمي المثمن) .

وانا ارى ان فى وجه التسمية بعض المبالغات خصوصا بالنسبة الى مخالفاته .

النوع الثامن عشر : المعرفة بخزائن الكتب
وذكر ان أهم الخزائن التي كانت فى الاسلام ثلاثة :

---

* الفلج : التباعد بين الاسنان — والنفل فساد الجلد — الاشر : اطراف الاسنان
* صبح الاعشي الجزء الاول صفحة 441 .

ويرى قسطاطي الحمصي ان ابراهيم اليازجي هو اول من رسم الخطط الاولى للنقد بمقاله (فى صناعة فن النقد) فى المجلد الثاني من الضياء (1898) .

وفى نقد الشيخ حمزة فتح الله وحسين المرصفي وسيد حسن علي المرصفي التي عرفتها دار العلوم في اوائل هذا القرن كان النقد منصبا على اللغويات ومعاني الكلمـــــــات .

ولم يبدأ التحول الا فى اوائل الثلاثينات حينما أخذ المستشرقون يدرسون اساليب النقد الغربي حيث تأثر بها الادباء من بعـــد .

ومن ثم تحول امثال طه حسين من نقده اللغوي لكتاب النظرات 1912 الى مفاهيم جديدة وانكر نقده القــديـــــــــم .

غير ان هذه المرحلة الجديدة لم تكن قائمة على اساس ثابت ، حقيقة انها اخذت المقومات الحديثة للنقد ولكنها مضت بها ابعد من الشوط . واندفعت بها نحو الغرض الشخصي ، ثم انحرفت بهـا حيـن اتخذتهـا وسيلة للغض من مقومات الفكر العربي كله ومهاجمة اللغة والتاريخ ومختلف القيم الاساسية .

وقد ظل اتجاه فارس الشدياق فى خلط المناظرة العلمية بالمنادعة . والانتقال من البرهـان الـى الطعن والشتم ، يسير فى خط طويل لم يستطع النقد الحديث التحـرر منــه .

بل يمكن القول بان دوافع المعارك الادبيـة — فى الاغلب — لم تكن خالصة لوجه الفكر وانمـا وقعـت تحت سيطرة دافعيـن كبيريـن همـا : الخصـومات السياسية . والخلافات الشخصية

وربما ادى هذا الى تناقض الكتاب بين معركـة ومعركة ، او تحول عن اتجاه الى اتجاه اخرى ، وربما كان الراي معيدا بوجه نظر او ظرف معين ، فاذا اختلف هذا الظرف تغير الراي .

ولعل النقد السياسي قد طغى على النقد الادبي وأثر فيه وابرز طابع السخرية والعنف فى الهجـوم . وربما كان الاختلاف السياسي مصدرا من مصـادر الاختلاف الفكري فقد كانت مدارس سياسية تسير فى الطريق العثمانـي الاسلامـي او الطريق الاقليمـي او الطريق القومي العربي وقد تأثر الفكر والادب والنقـد بهذه الميادين الثلاثة ، هذا بالاضافة الى التأثر بدعوات التغريب حيث بدا هناك تياران واضحان : هما تيار المحافظة وتيـار التجديـد .

وقد ذهب كل من التيارين الى مداه ، فدعـا المحافظون الى حماية اللغة العربية وقاوموا كل محاولة للسخرية من التاريخ العربي وامجاد الامة العربيـة والوحدة العربية ودعوات التغريب الى تصوير العقلية العربية بصورة منتقصة ، وجعل الثقافة العربية متأثرة بالثقافة اليونانية ، وتغليب التقليـد على الاقتبـاس ، او تحريف السيرة باضافة الاساطير ، او الدعوة الـى الكتابة بالحروف اللاتينية .

هذا بينما ذهب المجددون الى آخر المدى فـي الاستهانة باللغة الفصيحة والسخرية بتاريخ الامـة العربية والتشكيك فى مقومات الفكر العربي وتراثـه وقيمه المتمثلة فى الفقه والتشريـع والشعـر والادب وغيرهــــا .

غير ان الامور لم تلبث أن تطـورت على نحـو قارب بين المجددين والمحافظين وبقي عدد قليـل مـن دعاة التغريب يقضون وحدهم ، وقد انكشفت اهدافهم ذلك ان اغلب الكتاب المجددين الذين كانوا فى اول الامر يغالطون الجماهير لكسب الشهرة ، ثـم ارغمتهـم السياسة على مسايرة الجماهير وتملقها كما حدث فى كثير من الكتابات الدينية ، والرضوخ لاراء المستشرقين حين تحول احمد امين للدعوة الى العامية ومهاجمـة الادب العربي القديم ، هؤلاء الكتاب قد تحولوا من بعد، اذ تكشفت لهم حقائق الامور ، حين شاهدوا الفوارق البعيدة بين شعارات الحضارة الغربية وبين واقعهـا وتصرفاتها العقلية فى العالم العربي والاسلامي ، هنالك استفاقت معان جديدة فى نفوس هؤلاء المفكرين جعلتهم يقفون وقفة النظر والتأمل ، غلبت فيها عاطفة الايمان بالوطن والتراث ، وحق امنهم عليهم ، وقد بلغ بهـم الاعتقاد حد الايمان بان هذه المذاهب التغريبية لن تصل بهم الى خلق امة وفكر جديد ، هنالك قاوموا زملاءهم فى ارائهم ووقفوا يعارضونها . فقد عارض (هيكـل) دعوة طه حسين الى كتابة الاساطير على انها جزء من سيرة الرسـول ، وعـارض (توفيـق ديـاب) الادب المكشوف ، وعارض (منصور فهمي) التقليد الخاص، وعارض فيلكس فارس نظريات التغريب فى الثقافـة ، وعارض زكي مبارك النزعة اليونانية ، وعارض المازني الكتابات الاباحية وترجمة القصص الفرنسية المكشوفة

تطور معارك النقد الأدبي المعاصر

للأستاذ : أنور الجندي

نمثل معارك النقد ى أدبنا العربي المعاصر قطاعا حيا من قطاعات حياتنا الفكرية له حطورته واهميته فى مجالات النثر والشعر واللغة العربية ومفاهيم الثقافة وقد دارت هذه المعارك منذ وقت مبكر ، ولعل معركة ابراهيم اليازجي وفارس الشدياق التي نبادلا فيهما النقد عام 1871 حيث نشرت الجنان كتابات ابراهيم . ونشرت الجوائب كتابات فارس هي اشهر المعارك الادبية التي ترسم ابرز ملامح النقد الادبي فى هذه الفترة الباكرة وهي :

- غلبة الطابع اللغوي على النقد .
- اصطناع الهجوم الشخصي فى سبيل الغلبة .
- استعمال الهجاء بدلا من مواجهة النقد بالنقد.

ويمكن القول بان غلبة الطابع اللغوي على النقد ظل الى فترة طويله طابع المعارك الادبية وقد بدا ذلك واضحا فى معارك نقدية مشهوره منها :

- نقد « محمد المويلحي » لديوان شوقي 1898 وقد انصب على اللغة .

- نقد « طه حسين » لكتاب النظرات للمنفلوطي عام 1911 .

ومن ذلك فان النقد الادبي حتى فى هذه الفترة لم يقتصر على الطابع اللغوي وحده بل ظهرت بين حين وحين نقدات تغلب عليها الموضوعية النقدية ، من هذه النماذج :

- ما كتبه ابن هاشم (انيس الجليس ابريل 1903) فى نقد رواية (كله نصيب) لنقولا الحداد ، فقد تناولت موضوعية الرواية .

- ما كتبه عدد من النقاد فى نقد ترجمة حافظ ابراهيم لرواية البؤساء .

- مقالات مفرقة فى المجلات عن نقد بعض الاثار الادبية روعي فيها الاهتمام بالمضمون دون اللفظ .

وفى هذه المرحلة كان ابرز ملامح الطابع اللغوي النقد ظاهرا فى اعمال ثلاثة من كبار كتاب هذه الفترة هم : فارس الشدياق وابراهيم اليازجي وحسين المرصفي . فقد عني الشدياق بنقد المعاجم ، وعني اليازجي بنقد لغة الجرائد والف فى ذلك كتابه (لغة الجرائد) الذي احصى فيه الاخطاء اللغوية المختلفة وكشف عن الوجه الصحيح لها .

اما حسين المرصفي فى كتابه (الوسيلة الادبية فقد عني بان يوجه الاديب الى العناية باللغة وقواعدها وضبط مفرداتها .

ومن ابرز كتب النقد فى هذه الفترة « منهل الوارد فى علم الانتقاد » لقسطاكي الحمصي الذي صدر عام 1907 . ويعد هذا الكتاب فى نظر مؤرخي الادب اول كتاب عربي فى النقد .

وعنده ان ابراهيم اليازجي هو أول من اعطى النقد حقه عند العرب وذلك فى الذيل الذى ذيل به شرح ديوان المتنبي .

وقد رسم خطة النقد فقال : انه لا يمكن الوصول الى سديد النقد الا بارتقاء درجاته الثلاث وهي : الشرح ، والتبويب ، والحكم .

والشرح عنده هو ايضاح وتحديد العلاقة بين الكتاب المنقود وبين تاريخ العلوم الادبية بالعموم ، تحديد علاقة التأليف بما كان من نوعه بالمكان والزمان الذي ظهر فيه تحديد العلاقة الكائنة بين الكاتب وكتابه .

والتبويب عنده هو تعيين باب الكتاب المنقود او مؤلفه ، وتحديد مرتبته بين امثاله بالحجج العادا

ـ الدعوة الى التقليد المطلق للحضارة الغربية « خيرها وشرها ما يحمد فيها وما يعاب » .

ـ تهديم الشخصية العربية الاسلامية بنقل نظريات « رينان » في الاجناس وتخلف العقلية السامية ومؤازرة نظرية النزعة اليونانية ومحاولة اضفاء فضل مشكوك فيه لليونان على العرب .

ـ ترجمة القصص الفرنسية الاباحية .

ـ مهاجمة دعوة الوحدة العربية وتغليب دعوة الفرعونية والقوميات الضيقة .

ـ مهاجمة العرب وتاريخهم وبطولاتهم وثقافتهم والتشكيك فيها .

ومن مجموع هذه الخطط تبتدىء وراء « النقد العربي المعاصر » محاولة سامة مسمومة ، لم تكن تهدف في الحقيقة الى تحرير الفكر العربي وتنقيته وتخصيبه واغنائه بالنظريات الغربية بقدر ما كانت محاولة للقضاء عليه ودفعه الى طريق فقدان ملامح الشخصية الاصلية .

ومن هنا قامت المعارك الادبية من اجل الدفاع عن : اللغة العربية وفضل العرب على الحضارة ومعارضة الادب المكشوف ونقل الحضارة نقلا كاملا وتغليب الجانب الاسطوري على السيرة المحمدية وتصحيح الحقائق فيما تتعلق بالعقلية العربية والنزعة اليونانية .

ومن الظواهر الواضحة ان الذين عارضوا دعوات التغريب هذه المرة ودخلوا المعارك الادبية بعنف وقوة هم كتاب عصريون تعلموا في اوربا ، ولم يكونوا مجرد كتاب محافظين ازهري الثقافة .

فقد حمل ساطع الحصري وزكي مبارك وعبد الرحمن عزام ومحيي الدين الخطيب لواء الدفاع عن العرب ، وعارض توفيق دياب الادب المكشوف ، وعارض منصور فهمي التقليد المطلق ، وعارض فيلكس فارس نظريات تغريب الثقافة ، وعارض زكي مبارك النزعة اليونانيه ، وعارض هيكل دعوة طه حسين الى احياء الاساطير ، وعارض المازني الكتابات الاباحية وترجمة القصص الفرنسية المكشوفة .

ويمكن القول ان اضخم المعارك قد دارت حول كتب : مثل معركة الخلافة واصول الحكم لعلي عبد الرزاق ، والشعر الجاهلي لطه حسين ، ومستقبل الثقافة لطه حسين ، والنثر الفني لزكي مبارك ، ورسالة منصور فهمي الدكتوراه عن « حالة المراة الاسلامية » ، وكتاب « حديث الاربعاء » لطه حسين ، وهناك معارك قامت من جانب واحد منها معركة الشعر الجاهلي فقد صمت طه حسين ازاءها صمتا منكرا ، ومعركة لقمة العيش التي اثارها الدكتور زكي مبارك ، ومعركة جناية احمد امين على الادب العربي التي اثارها الدكتور مبارك .

معركة مفاهيم الادب

معارك مفاهيم الادب بدات حول الاسلوب عام 1923 بين الرافعي وطه حسين ، ثم تناولت غاية الادب واتصلت بالاسلوب والمضمون ، وتوسعت هذه المعارك فشملت الفن للفن ، والفن للمجتمع والتراث العربي القديم ومعارك مفاهيم اللغة .

وقد قامت هذه المعارك على اساس مهاجمة الاسلوب القديم المغرق في السجع والمقدمات والالفاظ القاموسية ، وحول غلبة العناية باللفظ على العناية بالمضمون ، وقد وقف شكيب ارسلان والرافعي في صف الدفاع ، ووقف سلامة موسى وطه حسين في صف الهجوم .

وكانت حجة المدافعين حماية اللغة العربية من اعجمية العامية التي كانت هدف الدعوة التي أثيرت وانتشرت .

وجرت معركة حول اسلوب الكتابة بين شكيب ارسلان وخليل سكاكين حيث هاجم الاخير كتابات امير البيان كما كانوا يطلقون عليه ، وقد جرت هذه المعركة على نحو معركة الرافعي مع طه حسين وسلامة موسى .

وفي عديد من معارك جرى البحث حول الاسلوب والمضمون واتصل هذا بدعوة جبران حين كتب مقالة « لي لغتي ولكم لغتكم » .

معارك الشعر

ودارت المعارك الادبية حول مفهوم الشعر ، حيث بدأ النقد الادبي للشعر يأخذ طابعا جديدا على يدي ثلاثة الديوان « شكري والعقاد والمازني » وهم الذين حملوا لواء الدعوة الى وحدة القصيدة منذ عام 1908 ، وكان

وقد كشفت أكثر من رسالة عن مدى سيطرة المستشرق الغربي على اقدار الشباب العرب الذين يدرسون في الجامعات المختلفة ، هؤلاء الذين ذهبوا الى اوربا دون ان يحصلوا على قدر كاف من الثقافة العربية ، ودون ايمان واضح بامتهم وثقافتهم وشخصيتهم العربية ، فلم يلبثوا ان جروا في تيار الدعوة التغريبية ظهر هذا في رسالة منصور فهمي 1914 عن (حالة المراة في التقاليد الاسلامية وتطوراتها) ، ورسالة طه حسين 1917 عن ابن خلدون حيث هاجم المغاربة واتهمهم بالقصور عن التجاوب مع الحضارة الغربية ، واعتبر كفاحهم في سبيل الحرية ومقاومة الاستعمار الفرنسي عملا منافيا للتحضر والترقي .

وعند ما حاول مثل زكي مبارك ان يواجه المستشرقين بارائه ويعزف عن التبعية الفكرية والعمالة الثقافية حطموه في بلده وابعدوه عن الجامعة وعن وزارة المعارف وهددوه حتى يئس ولم يجد له طريقا الا الخمر ...

وقد تحول منصور فهمي عن التبعية الثقافية ولكنه لم يجرؤ على كتابه كلمة واحدة في الرجوع عن ارائه .

* * *

ولعل أهم مصادر اضطراب النقد هو انه ارتبط بالدعوة التي دعاها لطفي السيد 1907 الى التمصير وهي دعوة سياسية ولكنها استتبعت الدعوة الى تمصير اللغة ، وتمصير الادب ، وبذلك حمل الادب في مصر منذ ذلك الوقت طابعا اقليميا ضيقا ، كان له أثر في جميع معارك النقد بعد ذلك ، ذلك ان دعاة تمصير اللغة انما كانوا يهدفون الى تغليب اللغة العامية وتحويلها الى لغة مصرية خالصة منفصلة عن اللغة العربية الام ، وهي دعوة دارت حولها معارك متعددة : ابرزها معركة لطفي السيد مع مصطفى صادق الرافعي وعبد الرحمن البرقوقي ، وقد تواترت المعارك حول هذه القضية طوال تلك الفترة بعد ما حمل لواء العامية سلامة موسى وحمل لواء الكتابة بالحروف اللاتينية عبد العزيز فهمي ، وشارك محمد فريد ابو حديد واحمد أمين وغيرهما في التخفف من اللغة الفصحى .

وقد كانت ابرز المعارك الادبية قد دارت حول الاسلوب والمضمون والنزعة اليونانية والصراع بين المذهبين الفرنسي والانجليزي في النقد وكتابة السيرة والاساطير ، وحول الترجمة وادب الساندويش والادب المكشوف ومقومات الادب العربي والنقد الذاتي والموضوعي .

تطور مفهوم النقد

ويمكن القول ان مفهوم النقد كان الى ما قبيل الحرب العالمية الاولى في العالم العربي نقدا لغويا يحتفل بالصيغ والالفاظ والنواحي البلاغية ، ثم تحول من بعد الى العناية بالتجربة الشعرية والصياغة الفنية والناحية الموضوعية ، غير ان دعاة الاتجاه الجديد ذهبوا في مجال التحرر من القيم القديمة في النقد الى حد الشك في عديد من القيم الثابتة والتي قامت عليها الحياة الفكرية العربية واستهانوا بمقومات فكرية اصيله ، وابرز من تصدى لهذه الجوانب جماعة المتاثرين بالمستشرقين والمبشرين ودعاة التغريب في العالم العربي وقد دعوا الى :

- حياة القدماء واضفاء ثوب التقديس عن كل ما هو قديم ودراستها كانها حياة الناس فيها الخطا والصواب .
- انكار روايات التوراة والانجيل والقرآن بالنسبة للنبيئين ابراهيم واسماعيل وانكار وجودهما التاريخي واعتبار ان قصتهما نوع من الحيلة الدينية .
- القاء الشك على الجوانب القومية في التاريخ العربي والاستناد في ذلك على حياة شعراء ماجنين وذلك على النحو الذي حدث عندما حاول طه حسين ابهام العصر الاموي في نهايته ، والعصر العباسي في بدايته بانه عصر شك وعبث ومجون معتمدا في ذلك على كتاب الاغاني او بعض الشعراء امثال ابي نواس وغيره ، بينما تجاهل الكاتب عشرات من "اعلام الفكر والفقه والشعر وغيره في نفس المرحلة .
- الاندفاع في محاربة الاسلوب التقليدي في الكتابة الى الحد الذي يصل الى محاربة الفصحى نفسها .
- الانحراف في كتابة السيرة وتغليب الاساطير عليها .
- الدعوة الى الادب المكشوف باعتباره اتجاها طبيعيا الى الكشف عن النفس الانسانية .

القومي ذكره العقاد في كتاب الديوان ، ويمكن ان يضاف الى هذا ان مقابلة تمت بين الكاتبين مع الكاتبة مي ، اغضت فيها الكاتبة قليلا عن الرافعي في اهتمام بالعقاد دفعت الرافعي الى الخصومة معها وقطع صلته بها والحملة على خصمه العقاد .

وكذلك كان الخلاف بين الرافعي وطه حسين – وقد دارت بينهما اعنف المعارك – وكان الرافعي هو اول من حمل لواء معركة (الشعر الجاهلي) بعنف ، ويرجع ذلك الى اسباب سابقة ربما كان اهمها ان الرافعي كان حريصا على ان يكون استاذ الادب العربي في الجامعة وان طه حسين احرز هذا المنصب من دونه .

ومما يذكر ان كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين قد واجه اكثر النقود عنفا فقد الفت اكثر من ثمانية كتب في الرد عليه : للرافعي ، وفريد وجدي ، والخضر حسين ، ولطفي جمعة ، والغمرادي ، وشكيب ارسلان والخضري ، ومحمد عرفة .

ويمكن القول بان النقد تأثر كثيرا بالخصومات والصداقات وان خلافات الكتاب لم تكن تبعا لمذاهب فكرية بقدر ما كانت قائمة على الخصومات الشخصية والخلافات الحزبية .

ومعنى هذا ان النقد الادبي الحديث لم تكن له مناهج تعهد بها النقاد او وقفوا عندها .

ونستطيع ان نقرر بعد دراسة اكثر من ستين معركة كبرى في الفترة من اوائل القرن حتى عام 1940 ان اغلب احكام هذه المعارك تدل على التناقض ، فالراي مقيد بوجهة نظر وظرف معين ، فاذا اختلف هذا الظرف تغير الرأي ، وآية ذلك ان طه حسين بايع العقاد عام 1934 بامارة الشعر ، وكان قبل ذلك قد بايع بها العراق ثم عدل عنها وعاد طه حسين عام 1956 فاعلن ما يلي :

« أحب ان أؤكد اني لم ابايع العقاد بامارة الشعر وما كان لي ان ابايعه لاني لم اكن شاعرا » .

وربما كان في النقد عامل آخر هو ان هناك رأيا مسبقا بالنسبة للكاتب ثم تجرا النقد لمحاولة تبرير الراي وتأكده بالتماسه هنا وهناك من نصوص الاثر المنقود .

ولقد حملت الصحافة لواء النقد وافسحت له المجال واتاحت الفرصة للقراء لمتابعة معاركه وموالاتها .

القاهرة : أنور الجندي



ان قد سبقهما عام 1900 في الدعوة الى تحرير عر التقليدي : اشترك فيها العقاد والمازني من يه ومدرسة المهجر وعلى راسها جبران وميخائيل مه وامين الريحاني ، وكان مضمون مفاهيم الشعر . المدرسة الحديثة هو : ان يكون الشعر متصلا فس وان اي قصيدة اذا غير ترتيب ابياتها اضطرب ناها ، وان يكون له فونه اذا ترجم الى اي لغة اجنبية ن تكون القصيدة وحدة كاملة .

وقد كان للشعر مجال ضخم في معارك الادب نظي احمد شوقي بالجانب الاكبر منه فقد هاجمته مدرسة الحديثة هجوما عنيفا ، وقد بدا العقاد حمله ى شوقي عام 1912 في رسالة لبطرس غالي ووالاه في اب الديوان 1922 ، كما حمل المازني على حافظ م 1912 وكان الرافعي قد رتب الشعراء عام 1905 مقال له بمجلة الثريا طبقات ، ووضع نفسه في لبقة الاولى مع الكاظمي والبارودي وحافظ ووضع بري وشوقي ومطران في الطبقة الثانية

ثم بدات معركة السرقة الشعرية بين شكري لمازني 1918 حيث اتهم شكري المازني بالسرقة في مدمة الجزء الخامس من ديوانه والاغارة على شللر يني وغيرهما ، ورد المازني الضربة لشكري في يوان بمقال مقذع باسم (صنم الالاعيب) .

ودارت معارك اخرى حول « امارة الشعر » د وفاة شوقي وحافظ وكانت اقسى المعارك الشعرية ن الرافعي والعقاد وبعد كتاب (على السفود) اشتد ده الحملة اقذاعا

وقد بلغت معارك النقد في الشعر ابعد مدى من تعنت والتحامل وانبعثت في الاغلب من الخصومة سياسية وقد عرف الرافعي بعنته في نقده للعقاد ، عرف العقاد بتعنته لشوقي . وعرف المازني بتعنته نقده لشكري

ومن امثلة هذا النقد قول العقاد (ايه يا خفافيش ادب ، اغثيتم نفوسنا اغنى الله نفوسكم الضئيلة ، هواده بعد اليوم ، السوط في اليد ، وجلودكم لمثل ذا السوط خلقت ، وستفرغ لكم ايها الثقلان ، اكدوا من مساوئكم فانكم بهذه المساويء تعملون لادب ، والحقيقة اضعاف ما عملت لها صفاتكم ان انت لكم حسنة يحسها الادب والحقيقة) .

ويمكن القول بان القواعد التي وضعتها المدرسة الحديثة في الشعر لم تكن نبراسا لها فيما نظمت من شعر ، بل ان العقاد نفسه تحول عن هدفه حين نظم في المسرح والرثاء وان الدكتور مندور قام بتغيير ترتيب قصيدة له فجاءت بنفس النتيجة التي قام بها العقاد لشعر شوقي وجعلها قاعدة لنقده للشعر التقليدي .

تحول النقاد عن القواعد التي وضعوها

واعجب ما في الامر ان هؤلاء النقاد قد تحولوا عن مناهج النقد التي وضعوها فقد غير طه حسين رأيه في دراسة الادب ، بعد ان دعا في كتابه (ذكرى ابي العلاء) الى دراسة الادب على اساس علمي محصن، عاد بعد ثلاثة عشر عاما في كتاب الشعر الجاهلي فقال ان الادب لا يستطيع ان يعتمد على مناهج البحث العلمي الخالص وحدها ولا بد من اعتماده على الذوق الخاص .

وتحول المازني عن نقده لحافظ وشكري .
وتحول طه حسين عن نقده للمنفلوطي .

وتحول طه حسين عن رأيه في شوقي كما تحول المازني في نقده لشوقي .

وقال المازني عن نقده لحافظ (اما النقد فقد اسقطنا من جملة ما كتبنا غير آسفين على اسقاطه . فقد كان مما اغرت به حماقة الشباب .

ومن هنا يمكن القول بان كتابنا لم يلتزموا قواعد النقد الادبي التي رسموها ، وانهم لم يكونوا جادين في فرضها . وان نقدهم كان في الاغلب مفرضا ذاتيا مرتبطا بالاهواء الخاصة والتقلبات السياسية ، وقد بلغ النقد الادبي حدة من العنف عند احمد فارس الشدياق في فجر الحركة النقدية في الادب العربي وقد اورث هذه الطريقة احمد زكي باشا شيخ العروبة . وسار في هذا الاتجاه الرافعي وطه حسين والعقاد فكانوا اشد نقادنا عنفا وابعدهم عن النزاهه والتجرد .

وكان الخلاف بين الرافعي والعقاد — وقد دارت بينهما اعنف المعارك — انما يرجع الى اسباب خاصة منها ان للعقاد رأيا في اعجاز القرآن غير رأي الرافعي ذكره في حديث له في مجلة المقتطف ، وان العقاد ازعجه تكريم سعد زغلول لكتاب الرافعي هذا واتهامه بانه لم يكتب له شيئا ، وكان هناك خلاف آخر حول النشيد

ومع هذه الطبيعة الوضئة المعطاء لاتريد نفوسنا ان تتفتح على هذا الجمال لسبب واحد هو انه حسن بدائـــي .

والحقيقة ان الناس جميعا فى كل زمان وفى كـل مكان متحضر قد سئموا الجمال « المصنوع » وراحوا يتطلبون هذا الجمال « الطبيعي » الذي تتوفر بلادنـا عليه ، ولكن ما حيلتنا اذا كان الامر فى بلادنا لم يستقر بعـد ولم يتخذ لـه ميزانا يسير عليـه ، اذا لتفتحت نفوسنا على هذا الجمال وجعلنا له فى قلوبنا موضعـا للمحبـة والتقـديس .

على ان المغاربة ـ فيما يرى اناس ـ من أكثـر أهل الارض محبة للحق وتفضيلا له على الباطل ، حتى لقـد شاع على السنتهم ان المغاربـة ناس طيبـون ، متمسكون بالدين ، فيهم غيرة على الحق وحماسة لـه وحمية عليه .. وهذا كله حق وصدق ، غير ان محبتنا للحق هذه اصيبت بشيء من الاختلال وعدم التـوازن لاسباب انسانيه وتاريخية منها الجهل الذي خيم على عقول المغاربة فترة من زمان ولا زالت مخلفاته تتوارث حتى عصرنا هذا ، ومنهـا كذلك الاستعمـار البغيض الذي استغل محبة المغاربة للحق هذه استغلالا غيـر انساني فى ظروف وملابسات يعلمها الجميع .

ان التعلق بالحق أمر مهم ، ولكن الاخلاص لــه ولمفاهيمه اجدى على المغاربة من هذا التعلق العرضـي الذي يزول بزوال عاداته واسبابه ، ذلك ان الاخـلاص للحق تتمثل فيه اوصاف خالدة مجردة كالاستمـرار والتفاني فى سبيل المبدا ، وهذا ما يدفع عن الحق صفة « النفعية » و « الوقتية » ويجعله انسانيا في اطـار وطنـي صميـم .

لذلك فاننا نستطيع ان نصحح تلك الاوضـــاع الفكرية التي هي من مخلفات الاستعمـار والجهـل فى بلادنا بالفهم الصحيح لمعاني الحق ومقوماته : فيصبح الانسان المغربي طيبا بمفهوم الطيبوبة المجرد أي بالمفهوم الايجابي الذي يجعله طيبا فى كل زمان وفى كل مكان مع نفسه ومع الناس اجمعين ، لا ان يطلق عليه هذا اللفظ تسكينا لخاطره وتطييبا لنفسه بل لانه فى الحقيقـة والواقع طيب ولا يقبل الا طيبا ، فتغدو معاني التمسك والغيرة والحماسة والحمية أوصافا خالدة تنكر كـل تخاذل وكـل سلبية فى الاعمال والتصرفات ويسيطر المبدأ الفكري الواحد القائل : « للذين لايؤمنون بالآخرة مثل السوء ، ولله المثل الاعلى » فضعفاء العقيدة ليسوا على شيء ولهم مثلهم السيء يمضون عليه فى الحياة كما ان للمؤمنين بالله اي بالحق مثلهم الاعلـى وطريقتهـم الواضحة ووصفهم الخالد المكيـن .

والمثل الاعلى بعد هذا قدوة حسنة متحركة مبدعة وخلاقة تستمد القوة من العناصر الايجابية فى الماضـي التليد لبلادنا ومـن العناصـر الايجابيـة فى الحاضـر السعيد للبلاد المتقدمة الاخرى ، وبهذا المفهوم يكـون المثل الاعلى للمغربي فى هذا الزمان حركة دائمة لا تخلد للراحة ولا تعرف السكون وابداعا خلاقا لا يجمد على التقاليد الفاسدة فى الماضي وفى الحاضر كذلك ، واتجاها مستقرا هادفا ومندفعا دائمـا نحـو الامـام .

والابداع فى هذا المفهوم ترويض الفكر على الخلق والابتكار ، وتوجيه الامكانيات المادية والطاقات المعنوية للامة الى التجديد والاختراع حتى تصبح مسايـرة للتطور بل ومسهمة فيه بالنصيب الاوفى .

ومن هنا تبدو حركية المثل الاعلى التي تحـارب كل جمود على القوالب المعروفة للحضارة وتندفع الـى الاسهام الفعال فى تطور المجتمع الانساني ، ويغدو المثل الاعلى حركة واندفاعا ونشاطا لا مجرد ايمان ساكـن مقلـــد .

على ان روح التجديد هذه هي اهم شيء فى العمل الابداعي صناعيا كان أم فنيـا .

والصناعات المغربية واعنى بها هنـا التقليديـة شيء جميل ورائع بالنسبة الى فترة معينة من فترات تاريخنا حين كانت تلك الصناعة تمثل آخر حلقـة فى سلسلة التطور ، اذ كانت تمثل الابداع الحق وصانعها يستحق منا التقدير والاعجاب لانه اعمل فيها الفكـر الخلاق واظهر فيها ابداعه ومهارتـه ومساهمته فـي التطور ، ولكن الصانع الذي يجتر تلك الصناعة نفسها لا ينال من تقديرنا ولا من اعجابنا شيئا يذكر اذ انـه اقتصر على « التقليـد » و « المحافظة » على الطابـع القديم ، ولكنه ينال منا شيئا آخـر لا اعـرف كيف اسميه ، شيئا من الرغبة فى الاحتفاظ بـه ليـؤدي هذا الدور .. وهذه الرغبة منا فى الاحتفاظ بهـذا الرجل ليست هي الاعجاب أو التقدير اللذين ينالهما منا ذلك الصانع المبدع القديم ولكنها شيء آخر انها تجريد منا لهذا « الصانـع » من روحانيتـه لانـه تنـازل عنهـا بمحض اختياره حين « جمـد » على قوالب الحضارة المعروفة فأصبحت رغبتنا فى الاحتفاظ به كرغبتنا فـي الاحتفاظ بما تصنع يده من تقليد سواء بسواء ، ومـا رغبتنا هذه فى الاحتفاظ بـه الا رغبـة فى الابقاء علـى

المثل الأعلى للإنسان في المغرب

للأستاذ : عبد الله الكامل الكتاني

يتحدث الناس في كل عصر عن « مثل اعلى » للامة في الحياة ، نؤمن به ، ونسعى لبلوغه ، ونعمل جاهدة على احترامه وتقديسه ، كما يتحدثون ايضا عن « مثل عليا » خاصة او عامة ، بالافراد وبالجماعات.

وكثيرا ما يتأثر المثل الاعلى للامة بهذه المجموعة الخاصة او العامة من المثل العليا للافراد والجماعات .

ولذلك كان مفهوم المثل الاعلى من المفاهيم الواسعة الحدود التي يمكن للمتحدث ان يتحدث عنها بصيغة الافراد كما يمكنه ان يتحدث عنها بصيغة الجمع دون اخلال منه بشيء من معناه .

فالمثل الاعلى اذا هو ذلك الوصف الفاضل الذي يتحراه افراد الامة في أعمالهم وتصرفاتهم حتى تكون مطابقة للخير ، متصفة بالجمال ، هادفة الى الحق .

وهو القدوة الحسنة الموجهة للانسان الى المفتح على الحياة في نشاط مستمر يخلق من سكون الماضي انطلاقة محركة للهمم نحو الابداع والوعي والتقدم في في المستقبل .

وهو الهدف البعيد الاسمى والغاية العزيزة المرجوة من « الكينونة » التي تسعى الى الحكمة والكرامة والخلود .

والانسان المغربي ميال – بطبعه – الى المثل كيفما كان : وصفا فاضلا او قدوة حسنة او هدفا بعيدا ، ولكنه لم يصل بعد الى مرحلة التوازن التي تجعل من هذه المفاهيم الثلاثة للمثل الاعلى مفهوما واحدا مستقرا يشمل الخير والجمال والحق ويقود الى الابداع والوعي والتقدم ويهدف الى الحكمة والكرامة والخلود .

فالخير عند بعض الناس في سعادته وسعادة اسرته ووطنه ما دام هذا كله يمضي في اتفاق وانسجام ونقف امام المشكلة وجها لوجه حينما تتعارض المصلحة الذاتية مع مصالح الاسرة او مصالح الذات والاسرة مع مصالح الوطن ، عندها لا نجد للراي العام المغربي موقفا موحدا يدفع الناس اليه دفعا ويقسرون عليه قسرا .

والخير كذلك عندنا هو الاخلاق والفضيلة والشرف النفسي والسمو الروحي والتحابب الاجتماعي ، وكراهية الانحلال والرذيلة والفاحشة والانحطاط والنفاق الاجتماعي ، غير ان هنالك عقبات وصعوبات كبيرة تبعثنا – في بعض الاحيان – على تفضيل جانب الرذيلة على الفضيلة ، والنفاق الاجتماعي على التحابب الاجتماعي ، لان ذلك قد اصبح من قواعد « المحيط » وعادات « الجو » بحيث أصبحنا أمام « قسر فاسد » يوجهنا الى حيث يريد : مع أن الفضيلة والتناصح والخير كلها أوصاف تهوى البها افئدة الناس في كل مكان في هذا المغرب الحبيب .

والجمال في مفهومه الانساني والمغربي نفور من القبح المعنوي وتعلق بالحس المطلق في كل شيء : في عناق الموجة الغاضبة من موجات الاطلسي للشاطئ الغربي من بلادنا ، في الاشعة الارجوانية الحمراء المنبسطة في الافق عند التقاء البحرين ، في ريفنا الخالد في اطلسنا العالي ذي القمة الدائمة البياض وعند السفوح الزهرية الفواحة ، في غابتنا المعمورة ، في سوسنا الاسمر ، في طبيعتنا الفناء هناك الجمال الانيق والحسن الاخاذ حيث ينثر نور الشمس حبات من ذهب ، وتهمي السماء بقطرات من رحيق زلال ، هنالك تجد حقا جمال بلادك الذي لا يجده آخرون في بلادهم فيرحلون اليه يبحثون عنه في جنيف ولوزان وفيينا وسالزبورغ والبندقية ، وفي غير ما بلاد جميلة من بلدان أوربا وامريكا .

من هنا نلاحظ ان فترة ما بعد الاستقلال المغربي باحداثها وملابساتها لم تسمح لامتنا ان تثبت مواقع اقدامها على الارض اذ ان طاقاتنا البشرية لازالت تعاني من الجهل صروفا والوانا تمنعنا من الانطلاق والتقدم كما ان رواسب أيام الاحتلال لا زالت تقف عقبة فى وجه التطور وجميع امكانياتنا الاخرى المادية منها والحضارية مادة خام وارض بكر لم يتح لها بعد ان تشهد نور التخطيط والتصميم الذي يشيع فينا الخير والرفاء .

لذلك تبقى القدوة الحسنة فى هذا المضمار املا من آمال الامة العزيزة وهدفا من اهدافها البعيدة المرجوة الى جانب الحكمة والكرامة والخلود .

ذلك ان المثل الاعلى الحكمة كامن فى العلم الواسع الغزير والاطلاع الذي لا يعرف الحدود والاختراعات النافعة للامة وللانسانية ، والتنظيمات الجبارة الهادفة الى البناء والتعمير .

والحكمة كذلك « ضالة المؤمن انى وجدها التقطها » فهي عرق وجهد وتعب ونصب وكد مستديم، فما أقل ما نجد رواد الحكمة فى بلادنا لصعوبة الطريق.

فهي اذن هدف عزيز مقرر ، ومبدا لايدور حول ضرورته خلاف ولكن العمل له والسعي اليه من الامور التي نكلف غاليا ونحتاج الى أكثر من جهد لبلوغه .

أما الكرامة فهي ميزة الانسان الآدمي الذي يتصف بالمعرفة والعقل ومحبة الخير .

واذا كان العقل والعاطفة مصدرين لكرامة الانسان فان هذه الكرامة لا تتوفر له الا باستعمال معرفته العقلية وعاطفته الانسانية فيما يعود عليه وعلى الاخرين بالنفع والعزة ، ففي الطبيعة وسائل خير وامن وقوة لا يحركها الا العقل ولا يستفاد منها الا بالعقل ولا يمنعها من التسلط والطغيان والظلم الا القلب الانساني الكريم ذو العاطفة الرحيمة .

ونحن المغاربة كرماء مبدا ، عقلاء أصالة ، رحماء عادة ، ولكن المبدأ والاصالة والعادة كل هذه صفات لم تجد لها مكانتها من نفوسنا وعقولنا واصبحت فى حاجة ماسة الى شيء من الصقل والتهذيب والتوجيه .

والمغرب ـ بعد هذا ـ امة خالدة تاريخيا ، فأين نحن من خلود العصر الحاضر الذي تغيرت فيه مقاييس المجد والبقاء والخلود .

وعندي انه لا خلود فى هذا العصر لامة ليس لها من مشاركة فى التراث الحضاري للانسانية من حيث العلم والفن والصناعة والثقافة ، ولا يحسب لها حسابها من حيث القوة والمنعة والجاه .

الامة الخالدة فى هذا الزمان هي التى تعتصم بمثلها الاعلى الذي لا يعرف التبعية كيفما كانت اشكالها وصورها ، هذا المثل الذي هو حرب على التفسخ والانعزالية والانانية .

ان المؤمن بمثل أعلى صاحب دعوة فى هذه الارض لا تهدا له نفس ، ولا يقر له قرار الا اذا عاشت دعوته عزيزة الجانب موفورة الكرامة سائدة حاكمة .

اننا فى مرحلة انتفاضة لتجديد مثلنا الاعلى وتهذيبه وصقله ، ونحب لمثلنا الاعلى هذا أن يكون مغربيا أولا منبثقا من وعي جماهيرنا وابداع شعبنا ثانيا مؤمنا بالحكمة والكرامة ثالثا .

وكل مثل يؤخذ به عن غير هذه الطريق ، ويراد به غير هذه الاهداف انما هو مثل سوء لا مثل خير . ومثل أدنى لا مثل اعلى .

سلا ـ عبد الله الكامل الكتاني

« القدوة الحسنة » التي هي صلة ما بين تراثنا الماضي وبين ما نسعى اليه من تجديد وتطوير وابتكار وابداع ، فهذه المرحلة ليست هي الابداع نفسه وانما هي مرحلة اعـــداد .

ويختلف الامر بعض الشيء بالنسبة للصناعـــة العصرية او « التصنيع » كما يقال فى هذه الايام ، ذلك ان التصنيع قد توجهت اليه انظار سائر الدول فـــي العالم واصبح ميدانا للتسابق السريـع والمنافســـة المدهشة حتى ليصعب علينا عمليا وماديا مجرد التقليد والنقل ، فالذي يقع ،اننا عندما نحاول ان نقلد نعوزنـا المادة واذا وجدنا المادة افتقرنا الى ما نسميه بالفنيين، ومع ذلك فقد يجيء نقلنا مشوها ونقلبدنا غير مطابـق للاصل ، فهذه المرحلة كما نـرى مرحلـة « بدائيـة » مشوهة لا تصلح بحال من الاحـوال اساسا للتجديـد ولا للابـــداع .

لذلك كان لابد ان نسبق هذه المرحلة الابتدائيـة مرحلة اعداد وتصمم لايجاد الامكانيات المادية والمعنوية من اموال وفنيين للسير ببلادنا قدما نحو التصنع .

فاذا حولنا وجهتنا نحـو الابـداع « العلمـى » و « الفنـي » وجدنا الحالة قريبة بعض الشيء ممـــا تحدثنا عنه فى ميدان الصناعة قبل قليل ، فالعلمــاء والادبـاء واهل الفن فى بلادنا مقتدون . والاقتداء ليس عيبا بالمرء بل هو مرحلة اعداد للابـداع اذا لم يقـف المقتدي عند حد الترجمة والنقـل والاجترار الـذى لا لـذة فيه ولا جديـد .

فاصطلاح « بضاعتنا ردت الينا » الذي رمانا بـه الاديب ابن العميـد ليس الا تصويـرا صادقـا لحالة الاجترار هذه الحالة التي نحن عليها اليوم ، وان كنـا نحب ــ من اعماقنا ــ ان نتعالى على هذا الوصف الذي وصفنا به عبر العصور ، فالعالم منا قد « جمد » ــ هو الآخـر ــ على قـوالب الحضـارة القديمـة وذاب فى النصوص والترم المذهب بل وربما رضي لنفسه برأي رجل واحد من رجال المذهب وجده اقرب منالا فـــي الفهـم والادراك .

ليست هذه هي الاسوة الحسنة وما هي بالقدوة الصالحة ابدا ، وانما المثل الاعلى فى ذلك كله مشاركـة عملية ، ومعالجة للنصوص ، وقدح الفكـر بالفكـر ، والاخذ باسباب الجديد والبديع من كل شيء .

واهل الفن عندنا « محافظـون » ونسخ طبـق الاصـــل « للملحـــون » و « الانـــدلسيـات » و « الموشحات » و « الشرقيات » ، واهل الادب فى نـوم هاديء مستكين ، يعكف الواحد منهم على مقالته شهرا من زمان وعلى بحثه عاما يستكمل فيه سائـر شروط الاجادة الفنية لدرجة اقفر معها الجو من كل اثر ادبـي او فني وخلت دنيا الادب من كل انتاج جميـل ، اللهم الا نثارات هي الى حديث الجريدة والصحافة اقـرب منهـا الى حديث الادب والقصة والشعـر .

ولسنا نجد لمشاكل الابـداع الفنـي والعلمـي والصناعي هذه مثلا الا فى « الوعي » العميق لخطـورة المشكلـــة .

والوعي شعور مستنير بحقيقة الوضع ، واتجاه صارم متحفز الى الامام ، ويلاحظ انـه فى امكان كـل واحـد منـا ان يتصور الوضـع ويشعـر بسلامته او خطورته فيسمى عندئذ واعيا ، ولكن المثل الانسانـي الاعلى للوعي ان يكون هذا الشعور العميـق بالمشكلة ذا اثـر قـوي فى المواطن بحيث يحفـزه على العمـل بمقتضى هـذا الوعـي .

وكلنا فى هذه البلاد واعون لعمق المشكـل الذي نعيشه ولكننا لا نملك من العـزم ومـن التصميم مـا يجعلنا فى مستوى المثل الانساني الاعلى فى هذا المضمار، ولعل الآباء واهل الرأي منا هم الذين ينـاط بهم اداء هذا الدور الاخلاقي والتربوي فى مجتمعنا الحديث .

ان مهمة « التوعية » او نشر الوعي بالمعنى الامثل لا توكل عادة الا لاصحاب الضمائر النقية الذين يمهدون السبل امام الناشئة للعمل والاقتداء والتأسي .

ومتى انتشر الوعي وتوفرت وسائل الابداع امكن للامة ان تنسق طريقها نحو التقدم والازدهار .

والتقدم مسير الى الامام فى مختلف الميادين المادية منها والحضارية ، فلكي تتقـدم الامـة يجب ان تثبت مواقع اقدامها على الارض ، وتتمركز فى المحيط الدولي جاعلة لها فيه موقعا يناسب مكانتها كأمة مكونة من مجموعة من البشر تستند الى ماض قريب او بعيد بمقومانه ومقدساته ، وتعيش على رقعة من الارض فيها خيرات وارزاق واقتصاديات ظاهرة او مخبوءة تحت الارض يقتضيها التقدم ان تستغلها احسن استغـلال وتتصرف فيها بما يلائم موجوداتها من الطاقات البشرية الحية والامكانيات الحضارية التالدة .

ان الانتلجنسيا العربية المتفتحة على معطيات التطور العالمي ، وقضايا التقدم الانساني المعاصر ، يمكنها ان تؤدي ادوارا على درجة من الاهمية فى هذا المضمار وذلك باسهامها فى بث الروح العلمانية داخل المجتمعات العربية ، وتمديد الافق امام الفكر العلماني لكي يحدث تأثيره الحقيقي على العقلية العربية ، وعلى اوسع نطاق ممكن .

والواقع ان مساهمات النخبة العربية فى مجال التطور الفكري والحضاري العربي ، ما فتئت تكتسي اهمية بالغة حقا ، وما زالت تبدو كعامل من اقوى العوامل التي اثرت فى سير هذا التطور ، واكسبته قوته التقدمية المبدعة ، الا ان الذي نستطيع ان نلاحظه على هامش هذه الحقيقة ايضا ان النخبة العربية لم تستطع ابة جماعة منها ان تحدث من التأثير ما يعاكس روح الامة العربية فى الصميم ، وما يتناقض مع شخصيتها ومقوماتها الاساسية او يحولها عن اتجاهها التاريخي الحتمي . لقد بدرت فى افق العالم العربي منذ بداية عصر النهضة الحديثة ، بوادر مختلفة ومتلاحقة . قام بها او دعا اليها هؤلاء او اولئك من بعض رجال الطليعة الفكرية والتوجيهية بالبلاد العربية، وتمثلت هذه البوادر بشكل حركات ثقافية او اجتماعية او سياسية او غير ذلك ، واتخذ بعضها صورة منظمات حقيقية ذات برامج واهداف ووسائل بل ان منها ما وصل فعلا الى اصطناع بعض الاحداث المدوية فى التاريخ العربي الحديث ، وملأ بذلك جزءا من سجل الوقائع والتطورات التي تميز هذا التاريخ وتلون صوره ومظاهره كذلك كان الامر فى مختلف الدعوات القومية الضيقة التي عرفها الشرق العربي خلال العقود الثلاثة الماضية ، هذه الدعوات التي تقوم فى اسسها على مجرد الخيال التاريخي المجنح ، وتتجاهل بجانب ذلك معطيات الواقع الماثل وما يحتويه هذا الواقع من حقائق انسانية وجغرافية وتطورية ؛ وكذلك كان الشأن فى المذاهب والنحل الاخرى ذات الصبغة الفلسفية والاجتماعية من شيوعية ونيهليستية ووجودية وغير هذه المذاهب التي وجد لها فى كثير من الحالات دعاة ومروجون على الصعيد العربي ، والتي تعتمد فى جملتها على قيم ومعطيات تتناقض احيانا وطبيعة التطور التاريخي للامة العربية وتتنافى مع اهداف الرسالة العربية الى العالم ، وسواء فى هذه الحالة او الاخرى — حالة القومية الضيقة او المادية الاممية او غير هذا وذلك فان الطليعة التي تلقفت بعضا من ذلك او كله ، ثم ما فتئت نحاول البحث من خلال هذا عن سبل ومناهج وعوامل ومقاييس يتحدد بها سلوك العرب فى سيرهم الحتمي نحو التطور ، ويتكيف بها المصير العربي على امتداد ابعاده وآفاقه ، ان النخبة العربية التي آثرت هذا الطريق واختارته دون غيره ، لم تستطع مع كل ذلك ، ان تنتهي منه الى احداث التأثير الجذري المنتظر على صعيد الحياة الثورية العربية ولم تتمكن — بالتالي — من الاندماج فى هذه الحياة الثورية بالصورة اللازمة ، والتفاعل معها على المستوى الذي تتطلبه احوال من هذا القبيل ، ومن ثم فقد بقي نشاط هذه النخبة محدودا جدا فى مجالات نظرية معينة ، واستمرت العزلة قائمة بينهما وبين المجتمع العربي المتطور ، ولم يكن لها ان تساهم فى حركته — ان كان هناك من اسهام — الا بدرجة مضائلة جدا بل وتافهة فى بعض الاحيان . ولا يعني كل هذا ان الحركة العربية الحديثة ، توجد مموقعة فى نطاق ضيق جامد ، لا سعداد مطلقا ولا يمكن لها نتيجة لذلك ان تتفاعل مع حقائق العالم ، وعوامل التحول والتجديد التي تجتاح آفاق الحياة فى ربوعه ؛ ان ظاهرة التفتح فى روح الحركة العربية الحديثة هي ظاهرة واضحة ملموسة ، ندرك آثارها جيدا من دراسة اتجاهات هذه الحركة ، وتطورها العام فى مختلف الميادين ، غير ان هذا التفتح الانساني وان كان يدفع الحركة العربية الى مجال التصادي مع جملة الآفاق الماثلة فى العالم المعاصر، الا انه لا يبيح لها ايضا الانسلاخ البسيط المجرد من كل اطاراتها الانسانية والتاريخية والانفلات من مجموعة الحقائق والملابسات التي تلتصق بمحتواها الجوهري على نحو او آخر ؛ فمن الضروري حقا للحركة التطورية العربية أن تسعى الى تحقيق مزيد من مظاهر التلاؤم والتكيف مع الآخرين ، وذلك باعتبار الاطار الحضاري العالمي الذي تعيش فى محيطه العام ، ومن اللازم ان تتفاعل معه على مختلف النسب والمستويات ، لكنه ليس من الضروري — من جهة اخرى — ان يكون هذا التلاؤم ايضا مجرد تهافت ساذج وغير هادف ، وربما لا يكون هناك احيانا ما يبرره او يجيز وقوعه ، ومما يلاحظ بهذا الشأن أن المراحل التي ما فتئت الحركة العربية تقطعها منذ عشرات السنين لم تكن كلها من صنف هذا التهافت الساذج او مما يوازيه ، لقد امتزجت الحركة العربية — طوال فترات تطورها الى عهدنا الحاضر — امتزجت بمعطيات فلسفية وانسانية عديدة كان منها ما هو نابع من صميم هذه الحركة ،

العلمانيّة واللاعلمانيّة

للأستاذ المهدي البرجالي

واقع الفكرة العلمانية فى المجتمعات العربية الحديثة ــ النخبة العربية وصلتها بالتيارات الفكرية والعقائدية المعاصرة ــ النخبة العربية بين العلمانية واللاعلمانية ــ بعض الاعتبارات الاساسية التي يقوم عليها المبدأ العلماني فى مجال النظر والتطبيق ــ العلمانيـة وقضية الديموقراطيـة الاجتماعيـة ــ العلمانية وقضايا التعايش الدولي ــ اللاعلمانية من حيث المبـدأ العقائـدي الاسلامي والامكانيات الايجابية المتوافرة لها بهذا الصدد .

من بين القضايا التي تثير قدرا كبيرا من الاهتمام عند التعرض لموضوع الحركة العربية الحديثة ، قضية الصلة بين هذه الحركة ، وبين مفهوم العلمانية كما يدين به البعض ، واللاعلمانية كما يرى ذلك آخرون والذي يظهر باديء ذي بدء ، ان جانب الفكرة الاولى ــ فكرة العلمانية ــ لا يزال منحصرا في نطاق محدود جدا ، سواء من حيث الاوساط الفكرية التي تدعو لها او من حيث التأثير الذي يمكن ان تكون قد احدثته على بعض قطاعات الرأي العام فى البلاد العربية ، ويعترف كثير من العلمانيين بهذه الحقيقة مستنتجين ذلك من واقع الاحوال العقلية والوجدانية التي تسود مختلف انحاء العالم العربي ، وما تقوم عليه هذه الاحوال من تأثر عميق بالفكرة الدينية الشاملة ونتيجة لذلك فانه من اليسير دائما التأكيد بأن مبدأ العلمانية لم يتخذ بعد أي سبيل للتجذر تجذرا حقيقيا ومؤثرا فى جوهر الحركة العربية المعاصرة ، وكما يلاحظه المراقبون فان مختلف الدساتير التي صدرت خلال السنوات العشر الاخيرة سواء فى مشرق العالم العربي او مغربه ، تتضمن تأكيدا حقيقيا لهذه الظاهرة، واثباتا للرأي القائل بان العقلية العربية لم تتوافر لها الدواعي اللازمة لاحتضان مبدأ العلمانية ، وذلك على مثال الصورة التي يقوم عليها هذا المبدأ فى الغرب ، واهم ما يلاحظ فى هذا الشأن التنصيص الذي تتضمنه هذه الدساتير على ان الاسلام هو دين الدولة ، مع احترام مبدأ الحرية الدينية بالطبع بالنسبة لجميع الاقليات العقائدية الاخرى . ومثل هذا التنصيص يوجد مثبتا سواء فى الدستور المغربي او التونسي او العراقى او غير هذه الدساتير ، ومن أهم الماجريات التي حدثت بهذا الصدد خلال الفترة الاخيرة ، صدور المبادىء العامة التي تقوم عليها الانظمة التوحيدية بالمشرق العربي ، واشتمال هذه المبادىء على مضمون الاعتراف بالدين الاسلامي كحالة عقائدية رسمية ، ومن غير شك ، فان اقرار مبدأ من هذا النوع ليس مما يتفق مع الفكرة العلمانية التي يحتضنها البعض على نحو او آخر ، الا أن العامل الاساسي فى مجموع هذا الامر كله، هو واقع الفكر العربي على وجه العموم ، هذا الفكر الذي لا يبدو مستعدا بدرجة كافية لاستقبال عناصر الفكرة العلمانية ، والاستنتاجات التي تقوم عليها هذه هذه الفكرة سواء بوجه او بآخر .

ولا يتجاهل العلمانيون فى العالم العربي ، اهمية هذه الحقيقة القائمة .. حقيقة الفارق الكبير بين النظرية العلمانية فى خطوطها الكبرى من جهة ، ومؤثرات الفكر الديني فى المجتمع العربي من جهة اخرى الا أنهم ينتهون مع ذلك الى التأكيد بان العلمانية لابد أن تجد سبيلها فى الاخير الى التأثير على وجهة الفكر العربي سواء فى مجالات التنظيم السياسي او الثقافي او فى غير ذلك على صورة من الصور ، وبالنتيجة لذلك فانه من الجائز جدا ان يصبح لها دور مهم وبعيد المدى فى مستقبل الحركات التوحيدية التي تقوم هنا وهناك فى مختلف انحاء العالم العربي ، ويحظى ــ بهذا الصدد

الهدف منصبا على قضايا العلاقة مع العالم الخارجي وذلك عن طريق العمل على تحقيق قدر من الانسجام مع بقية شعوب العالم ، والتعاون معها في خدمة مصالح السلام والتعايش والتقدم والازدهار .

فهل من الجائز ان نطرح قضية العلمانية واللاعلمانية ضمن هذه الاعتبارات ونحاول ان نجد من خلال ذلك اساسا صحيحا للتقدير والتقييم : تقدير الحقائق والملابسات التي ترتبط بهذه القضية على صورة او أخرى . وتقييم جانب الضرورات الممكنة التي يجوز ان يكون لها تأثير في الموضوع . والنتائج الموضوعية التي لابد ان يسفر عنها كل ذلك ؟ وبتعبير مغاير : هل هناك دواع عملية وموضوعية تقتضي من رواد المجتمع العربي الحديث ايثار جانب العلمانية دون غيرها . كعنصر من عناصر النهج التنظيمي الاجتماعي الذي يحتذونه ؟ وهل تبدو العلمانية — بهذا الاساس — مبدأ ايجابيا وحيويا . لامكانية انجاح هذا النهج ، وايصاله الى مداه . او بالاقل اجتناب العراقيل النفسانية والعقائدية التي قد تحول دون نجاحه ؟ من اليسير جدا — عند استعراض اقوال العلمانيين العرب — ان نعثر على كثير من التقارير والتاكيدات المتحمسة على ضرورة النهج العلماني في بناء المجتمع العربي الحديث ، والاهمية القصوى التي تنتظر من اتباع هذا النهج . باعتباره الاداة اللازمة لتعصير الوجود العربي . واصطناع مركز مناسب ومتطور للجماعات العربية في عالم اليوم ، لكن على ما نتبنى تأكيدات مطلقة من هذا القبيل ؟ وهل من الممكن ان نقوم كقاعدة انطلاق الى تنظيم بعض جوانب الحياة العربية ، والاسهام في تطويرها على صورة من الصور ؟ من القضايا التي يدلي بها في معرض الدلالة حول هذا الموضوع : ان العلمانية هي السبيل الطبيعي المعقول لتحقيق المفهوم الديموقراطي للدولة . وان اي بناء ديموقراطي دولي (Etatique) لا يمكن ان يتحقق الا عن طريق العلمانية ، وذلك بالتزام الدولة لموقف الحياد ازاء العقائد الدينية الماثلة ، وامتناعها عن تبني او احتضان اية واحدة من هذه العقائد اطلاقا ، ومما لا ريب فيه . ان من بين مظاهر الديموقراطية العادية ، ان تكون الانظمة والمؤسسات الاجتماعية مستمدة وجودها من روح الجمهرة الغالبة وقائمة على قاعدة الاستجابة لاهداف السواد الاعظم من الناس ، والانسجام مع مصالحهم واتجاهاتهم المشتركة فهل تستجيب العلمانية — في واقع الامر — لجملة الاهداف والمثل التي تحتضنها الكتل الاجتماعية الغالبة في مختلف البيئات العربية الراهنة ؟ ليس من شك في ان الروح السائدة عند هذه الكتل ، تعكس اتجاها عقائديا قويا اذا حللناه الى اصوله الاولى فاننا نجده اقرب ما يكون الى الايحاء باللاعلمانية منه بالعلمانية ، فالولاء الديني في البيئات العربية والاسلامية اقوى منه في اية بيئة اخرى في العالم ، هذا مع غض النظر عن مفهوم الدين وما يحمله من مقتضيات متباينة عند عموم الجماعات العربية الراهنة ، ولم يسبق — من جهة اخرى — ان كان الدين في المجتمع العربي موضوع الجدل والصراع المستمر مثل ما كان عليه الشأن في غربي اوربا ووسطها منذ أوائل عهد النهضة الحديثة واذا كان هناك من صراع عقائدي بين العرب في القديم فانه لم يكن يتناول روح الدين من اساسه ، بقدر ما كان يتناول بعض اوجه الفكر الفلسفي او الصراع السياسي الممتزج احيانا ببعض المفاهيم الدينية العابرة، كالخلاف الذي كان ينشب كثيرا بين الشيعة وغيرهم . طوال عصور متلاحقة من التاريخ الاسلامي ، أما الصورة التي كان يتخذها الصراع الديني في اوربا ، والتطورات التي وقعت في ميدان العلاقات بين البابوية من جهة ، والاباطرة الاوربيين ثم رجال الثورات السياسية والعلمية في ايطاليا وغيرها من جهة اخرى ، فكل ذلك يختلف في كثير — من الصور — عن الاحوال التي تميز بها تاريخ الحياة الدينية وتطورها عند المسلمين في مختلف العصور ، وفي وسع المرء حقا ان يقيم بعض اوجه المقارنة ، بين ما كان يتم في كثير من العهود الاسلامية من استغلال للدين في غير مناحيه الطبيعية واستخدامه احيانا لتركيز اوضاع فكرية وسياسية واجتماعية منحرفة ، واحاطته — من اجل ذلك — بهالة من مظاهر الطقوسية المتجمدة — في وسع المرء ان يعقد اوجها للمقارنة بين ذلك ، وبين بعض الاحوال الدينية التي سادت اوربا فترة من الدهر ، وكانت تتميز بشدة وطأة الكنيسة على حياة الفكر والمجتمع ، وتحالفها كبيرا مع القوى السياسية القائمة ، ومشاركتها في الاستبداد بمقدرات الافراد والجماعات على اختلاف الصور والمستويات ، على انه اذا ما كان هناك سبيل لنوع من المقايسة من هذا القبيل ، فان هذه المقايسة تفقد كل مبرراتها اذا ما سرنا بعيدا في تقدير الحقائق والظروف التي ما فتئت تحيط بتطور النظرة الى المؤسسات الدينية وانعكاسات ذلك على تفكير الناس ومشاعرهم سواء في الشرق الاسلامي من جهة ، او الغرب المسيحي من جهة اخرى ، فعند

وعميق استمداداتها الذاتية والتاريخية ، وكان منها ما هو آت عن طريق التفاعل مع الحركات الاخرى فى العالم ، والافكار والتيارات التي تسود حياة الشعوب الاخرى الا ان الحركة العربية ــ وقد التقت بهذه المعطيات الفلسفية والعقائدية المختلفة ــ فانها لم تتأثر بها فى النهاية الا بصورة نسبية ، ولا يبدو انها تسير فى سبيل الامتزاج بها الا بقدر ما يتفق ذلك مع خصائص الفكر العربي ، وطبيعة الاتجاه القوي الذي يتبناه هذا الفكر فى مجالات الاصلاح الذاتي ، والتعاون الدولي والتضامن الانساني واشياء كثيرة من هذا القبيل ، لقد التقت الحركة العربية من قبل مع بعض الافكار « الشوفينينية » التي سادت اوربا فترة من الدهر وما زالت تؤدي الى ضيق الافق الفكري وازدياد التصلب العنصري والتطرف القومي بكل حيثياته ونتائجه ، لكن كل هذا لم يساهم ــ بصورة عميقة ــ فى تعديل اهداف الفكرة العربية وتجريدها من محتواها الليبرالي الانساني والاتجاه بها الى سبيل آخر غير سبيل الديمقراطية التعاونية المتحررة ، سواء فى المستوى الداخلي او على الصعيد الدولي العالمي ، والتقت الحركة العربية ايضا بالافكار الرائجة حول المادية التاريخية وما يتصل بذلك من نوازع الصراع الطبقي الداخلي والتطاحن العالمي الشامل ، الا ان ذلك كله لم يكن له ليؤدي الى (تشييع) الحركة العربية واخضاعها لحتمية المنطق الذي يتبناه الجدليون الماديون فى اوربا والعالم ، بل كان هناك على العكس من ذلك مجال لبروز حقيقة الحركة التعاونية العربية والحياد الايجابي وما يرتبط بهذه المفاهيم من افكار واختيارات قد تختلف فى كثير من الاحيان مع عدد من النتائج التي ما زال ينتهي اليها الماركسيون واشياعهم فى القديم والحديث ، واتصلت الحركة العربية بجملة افكار وقضايا وعروض من هذا القبيل ، والواقع انها لم تنته بعد الى أساس قار وحاسم حول هذه القضايا بالذات وذلك بما فيها قضية الاشتراكية والحرية والديموقراطية وغير هذه المسائل الضرورية بالنسبة لبناء اي مجتمع سواء كان مركبا او بسيطا ، لكن المهم فى الامر ان مرحلة التقليد والاتباع الساذج الذي كانت تتميز به المراحل الاولى من نشوء الحركة العربية الحديثة ــ المهم ان هذه المرحلة قد وقع اجتيازها الآن على نحو او آخر ، وقد اصبحت النخبة العربية ــ متجاوبة مع مقتضيات البيئة الفكرية والعقائدية الجديدة ــ اصبحت هذه النخبة او كثير من ممثليها على الاقل ــ تبدو شديدة الحرص على ممارسة حقها فى الانتقاء والانتخاب ، واختيار السبل الاكثر تلاؤما مع حقيقة الوجهة الحضارية العربية ، والمقومات التي ترتكز عليها هذه الوجهة ومدى استعدادها للاشعاع على نفسها وعلى العالم ، وهناك ــ ولا شك ــ بعض الاختيارات ذات الاهمية القصوى لا تزال معروضة امام النخبة العربية فى بعض الاقطار العربية ، ومن بين هذه الاختيارات ما يتصل بقضية العلمانية واللاعلمانية والصلات التي بين ذلك ، وبين تصور المفهوم التقدمي المتطور للجماعة العربية الحديثة ، وقد يكون هناك من بين الاوساط الطلائعية العربية ، من يتخذ موضوع العلمانية هذا اساسا حيويا لكل اتجاه يهدف الى تطوير الجماعة العربية المعاصرة ، واكسابها القدرة على مواجهة الحقائق الاجتماعية والسياسية التي يفرضها واقع العالم الحاضر ، الا ان هناك داعيا للتفكير بان هذه الوجهة من النظر ــ وان كانت تشكل اساسا عقائديا حاسما عند البعض ــ فانه ليس من اللازم ــ بالضرورة ــ ان تكون صالحة دون غيرها لاقامة مفهوم صحيح عن طبيعة البناء السياسي والاجتماعي عند العرب المحدثين والصبغة العصرية التي يتعين على هذا البناء ان يكتسبها على وجه او آخر ، ليس من اللازم فعليا الاعتماد ــ بصورة خاصة ــ على جملة تأكيدات من هذا الباب ، وليس من الضروري كذلك اعتماد هذه التأكيدات فى التوصل الى استنتاجات واختيارات حاسمة ، تتعلق باتجاه الحركة العربية الحديثة ، وما يرتبط بهذا الاتجاه من ملابسات فلسفية وعقائدية ووجدانية ، فالاختيارات التي يمكن التوصل اليها فى هذا المجال لا يسوغ أن تعتمد على مجرد التفكير العابر ، القائم على بعض النماذج المترائية هنا وهناك فى مختلف انحاء العالم ، بل انه من اللازم ــ لكي تكون هذه الاختيارات معقولة وصحيحة فى اسسها ونتائجها ــ ان تكون هناك ضرورة من الضرورات الاصلاحية تبيح احتضان هذه الاختيارات وتطبيق مقتضياتها بصورة او اخرى ــ على البيئة أو المجتمع المراد اصلاحه ، يجب ان يكون هناك اذن هدف ايجابي لابد منه لتبرير اي اختيار يمكن اتخاذه، والا كان هذا الاختيار مجرد تهافت واعتباط وربما يكون من قبيل العبث احيانا ، وفى مثل الحالة الماثلة امامنا فان الهدف المتوخي بوجه أو بآخر ، لابد ان يكون اما متركزا حول الاصلاح الداخلي ، وتحقيق اوضاع ذاتية اكثر منطقية ونفعا واستمرارا ، واما ان يكون هذا

الاصلاحيين ويصيبهم بنصيب متفاوت من الضرر والسوء ، هذا الى بعض الحروب الصغيرة ، كالتي حدثت في الحجاز على اثر الدعوة الوهابية ، ولكنها لم تتجاوز نطاقا ضيقا ومحدودا جدا .

2ـ ان الصراع الجزئي المحدود الذي سببته الحركات الاصلاحية الدينية بالعالم العربي ، لم يساعد على النيل من مكانة الدين في اعين الجمهور ، والكثير جدا من اوساط النخبة المفكرة ، مثل ما حدث بالنسبة الى الاوربيين ، وعلاقتهم بالدين المسيحي على وجه العموم ، ولعل من الاسباب الداعية الى ذلك عدم وجود سلطة معينة تنحصر في نطاقها ـ كما هو الشان بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية ـ جميع منافذ الدين ووسائله ونتائجه ، وتتركز بين القوامين عليها مختلف سبل الجزاء والغفران وما هو من قبيل ذلك الامر الذي ساعد ـ بحق ـ على ترك المجال منفتحا بصورة سهلة امام انتشار الدعوات التعديلية والاصلاحية واعان ـ بالتالي ـ على الاعتقاد بانه ليس من اللازم تحقيق الاصلاح عن طريق العلمانية ، وما اليها ، بل ان هذا الاصلاح ممكن جدا ، عن طريق اذابة الجمود الذي ران على الفكرة الدينية ، حقبة طويلة من الدهر ، وتخطي الحواجز التي ما فتئت تحول دون ذلك سواء على نحو او آخر . وهكذا فقد ادت التطورات الفكرية الدينية التي رجت العالم العربي الى غير السبيل الذي ادت اليه في دنيا الغرب اذ ان الامر قد افضى في النهاية ببعض الشعوب الاوربية الى اعتناق العلمانية بما تقتضيه من فصل شامل للدين عن الدولة ، ثم ما ساعد عليه كل ذلك من تعبيد السبيل امام قيام الدول الملحدة التي لا تكتفي بمجرد التزام الحياد امام الدين ، بل تتعدى ذلك الى درجة العمل على مناواة الفكرة الدينية عن طريق الدعاية المنظمة ، والتعليم الموجه ، ولو بصورة غير مباشرة ، واذا كانت الامور قد نمت بهذه الصورة في بعض اقطار الغرب ، فان ما آل اليه الحال في العالم العربي يناقض ذلك مناقضة ملحوظة ، فقد تركزت الدعوات الاصلاحية المتعاقبة في ربوعه حول مبدا الرجوع الى طريق السلف الصالح في فهم الدين وتصوره وتطبيقه ، وتلك فكرة ـ وان كانت تختلف المدارك في استيعابها وتقييمها على صورة من الصور فانها قد ادت الى نوع من التطور والانبعاث الديني ، شمل كثيرا من الآفاق العربية واعان على تلقيح النهضة العربية الحديثة بعناصر قوية وذات فاعلية ، وليس بامكان المرء حقا ان يدعي ان النهضة العربية الحديثة تكتسي صبغة معينة نجعل منها نهضة اسلامية حقيقية لها كامل الاتصال بجميع خيوط الدعوات الاصلاحية الدينية التي عرفها العالم العربي سواء خلال العصر الوسيط او في بداية العهود الحديثة ، كما انه ليس للمرء ان يدعي ايضا ان العلمانية لا توجد مؤثراتها على اية نسبة من النسب في طبيعة الاتجاهات العامة التي تسود كثيرا من البلدان العربية ، سواء على صورة او اخرى ، بيد انه يجب الاعتراف ـ من جهة اخرى ـ ان الفكرة العلمانية بكامل تسلسلها المنطقي ، والاستنتاجات التي تقوم عليها ـ على اعتبار ما لهذه الاستنتاجات من حيثيات فلسفية وايديولوجية وتطبيقية ـ ان الفكرة العلمانية قياسا على هذه الاعتبارات كلها ، لا توجد لها جذور عميقة في مجال الفكر العربي الحديث ، ولا تؤثر على مراجع هذا الفكر والاوساط التي ينتسب اليها ، الا بصورة محدودة جدا وعلى مستوى سطحي في كثير من الاحيان ، اما السواد الغالب من الكتل العربية ، فالملاحظ بكل بساطة انه لا ينفعل مطلقا بمبدا الفكرة هذه ، ولا يبدو انه ذو استعداد حقيقي للتجاوب معها والتاثر بمقتضياتها على اي منحى من المناحي .

ويقر عدد من العلمانيين العرب بوجود هذه الحقيقة الا انهم لايجدون في ذلك ما يدعو الى التخلي عن فكرة العلمانية باعتبارها عاملا مهما له قيمته في تحقيق مبدا الديموقراطية في المجمع العربي الحديث وقد راينا ـ فيما يتصل بقضية الديموقراطية وعلاقتها بمبدا العلمانية ـ ان هذا المبدا ـ كما تعنيه بعض اقطار العرب لا يلتقي مطلقا مع الاتجاه الفكري والوجداني الذي يؤثر في سير المجتمعات العربية بل انه يتناقض احيانا مع بعض ما تحتضنه هذه المجتمعات من قيم معنوية وتقاليد فكرية،وما تعتمده من موضوعات ومقاييس في مجال النظر والتقييم ، واذا كانت هذه القيم والتقاليد والمقاييس لا تستدعي بقوة العقل او بقوة الواقع ايثار العلمانية كاطار من اطر التنظيم الجماعي فانه من الجائز حينئذ التاكيد بان الفكر العربي ـ على وجه العموم ـ لا يستجيب لمبدا حياد الدولة ازاء الدين ، لان هذا الفكر ذاته قد نما اول ما نما ، وترعرع بداية ما ترعرع في ظلال الحقيقة الدينية وضمن الاطار العام للفكرة الحضارية الاسلامية ، وبالتالي ، فانه لم يستمد كثيرا من عناصر نموه واستمراره الا من وجود هذه الحقيقة ، وما تشتمل عليه من مضامين ومحتويات ، ذات الاثر البعيد في

الغربيين مثلا فان النظام الكنائسي المعقد ما زال معتبرا دائما بصفته المنفذ الاساسي لاي تفتح على العالم الديني ، ودنيا اللاهوت بمجموع ما ينطوي عليه ذلك من مضامين ومحتويات ، ولهذا فقد تجذر في عقلية الثائرين على هذا النظام ، ان السبيل الطبيعي للتخلص من مساوئه ، هو السعي الى الانفصال عنه سياسيا واجتماعيا وثقافيا وغير ذلك ، واقامة الحاجز هكذا بين السلطة الزمنية ، متمثلة في الدولة ومؤسساتها من جهة ، والمراجع الدينية متمثلة في النظام الكنائسي وتوابعه من جهة اخرى ، وقبل ان يتم الانفصال بهذه الصورة في بعض دول اوربا وفرنسا بصورة اخص ، وذلك في اعقاب الثورة الفرنسية سنة 1789 ، قبل ان يتم ذلك بذلت محاولات اصلاحية بعيدة المدى لتحقيق مبادىء معينة للاصلاح الديني والكنائسي على نطاق واسع ، فقد قامت البروتستانتية و (الكلفاتية) اوائل القرن السادس عشر كمظهر نزوع الى التجديد في العقلية والطرائق الكنائسية المتبعة ، غير ان هذه المنازع الاصلاحية الثورية لم تؤد – بالفعل – الى تحقيق التطور الذي كان من الجائز ان يتم بصورة عامة شاملة ، وعلى المستوى الذي يشمل الحياة الدينية عند عموم المسيحيين في العالم ، لم يتم هذا الاصلاح الثوري على صعيد المسيحية كلها – كما كان يبدو ذلك ممكنا من حيث المبدأ – الا ان هذا الاصلاح قد مس كثيرا من قطاعات الراي العام المسيحي في العالم ، وادى في النهاية الى تكريس الانفصال المذهبي الذي اصبح يميز باستمرار بين المسيحية الكاثوليكية من جهة ، والمسيحية البروتستانتية من جهة اخرى ، ومن النتائج الحتمية لذلك ، ان بقيت الكنيسة التقليدية تمارس سلطتها بصورة واسعة ، وتستاثر في كثير من المناطق بربط وشائج الصلة بين الناس والعالم العلوي بل انها اضطرت – مرة اخرى – في سبيل الحفاظ على ذلك – الى اللجوء لنظام محاكم التفتيش في مكافحتها للبروتستانتيين وانغمرت – وهي تمثل السلام والاخوة والمحبة – في خضم المطاحنات الدموية التي عرفتها اسبانيا وهولاندا وانجلترا وفرنسا والمانيا طوال القرن السادس عشر ، هذا الى الهوة الاجتماعية التي ما فتئت تفصل بين رجال الدين انفسهم ، اذ كانوا منقسمين الى طبقتين اجتماعيتين متمايزين ، طبقة المستأثرين بالجاه والنفوذ والترف ، وطبقة المحرومين، وليس للمرء ان يدعي بان هذه الاحوال والظواهر كانت فقط الباعث الوحيد للدعوة التي انطلقت فيما بعد – عبر اوربا – مقتضية العمل على الفصل بين الدين والدولة ، واقامة العلمانية كفلسفة ومنهج وعقيدة ، فهناك حقا الكثير من الملابسات التاريخية الاخرى التي لا ترتبط بموضوعنا والتي كان لها دائما – ولا شك – اثر متفاوت في كل هذه الامور ، الا ان الحقيقة التي لا تقبل المراء بهذا الشأن هي ان بروز الكنيسة باعتبارها الباب الوحيد للصلة بين العالم المادي والروحي عند المسيحيين ، ثم ما صاحب تمتعها بهذا الامتيار من مؤاخذات سلوكية واجتماعية واعتقادية وغير ذلك ، ما كان يؤدي اليه اصطدامها مع الآخرين من حروب ومطاحنات رهيبة ، استغرقت التاريخ الاوربي لفترة طويلة من الدهر ، كل ذلك كان لابد ان يكون له تاثيره في المآل الذي بلغته الفكرة الدينية عند كثير من الاوربيين ونشوء النظرية العلمانية عند بعضهم على نحو او آخر ، والحال في البلاد الاسلامية يختلف عن هذا في كثير من الاوجه ، فقد كانت تقوم في كثير من عصور التاريخ العربي الاسلامي اوضاع دينية منحرفة ، كانت تبدو في اغلب الحالات ، مناقضة لروح الدين ومنطوقه ومفهومه ، والوعي الفكري الذي حمل لواءه بعض الثوريين الاصلاحيين ، كابن قيم الجوزية ، وابن تيمية في القديم ، وابن عبد الوهاب ، وجمال الدين الافغاني في العصر الحديث – كان يهدف في جملة ما يهدف اليه تطوير هذه الاوضاع ، واقامة اصلاح ديني حقيقي ، على اوسع نطاق ممكن ، والظاهرة التي يلاحظها المرء بهذا الصدد هي ان حركة الاصلاح الديني التي عرفها العالم العربي خلال القرون المتتابعة، لم تكتنفها – على وجه العموم – نفس الظروف والتطورات التي احاطت بحركة الاصلاح الديني في اوربا اوائل عهود النهضة وفي بداية العصور الحديثة ، ويبدو ذلك في مظاهر عديدة من بينها :

1 – ان حالات الحروب الاهلية والصراع الدموي الرهيب الذي نشأ عن الاصطدام بين الكاثوليكية من جهة ، والبروتيستانتية ومشتقاتها كالكلفانية من جهة ثانية ، مثل هذه الاحوال تختلف كثيرا عن ردود الفعل التي كانت تحدثها الدعوات الاصلاحية الدينية في العالم العربي ، هذه الردود التي كانت اقل عنفا وشدة مما اعتاد الاوربيون ان يمارسوه دهرا طويلا ، واذا كانت هناك من ردود فعل سلبية كانت تقع على صورة او اخرى في العالم العربي فانها لم تكن تعدو نطاق الاضطهاد الذي كان ينصب على بعض

هذه بعض من جملة الملابسات التي تثيرها العلمانية او اللاعلمانية في المجال الدولي الداخلي اي بين العناصر المختلفة والمتساكنة داخل اطار الدولة الواحدة ، أما ما يحدثه ذلك على صعيد العلاقات الخارجية أي بين الدول المتعايشة على سطح الكوكب في مضمار العلاقات بينها من النواحي المختلفة ، فان ما يردده العلمانيون بهذا الصدد هو ان الانتساب الديني لاية دولة ربما يقودها في بعض الحالات الى الحد من طواعيتها في الاتصال بالشعوب الاجنبية ، ويجمد من مرونتها في مجال التفتح على العالم ، والارتباط بقضاياه ومشاكله طبقا لما يقتضيه واقع الاتصالات الانسانية الحاضرة وتتطلبه مقتضيات التفاعل العالمي المعاصر ، وبغض النظر عن الوهن الذي نسم به هذه النظرية من الناحية الفكرية والمبدئية ، فان في وسع المرء ان يلاحظ كيف انه لا يجوز اتخاذ مثل هذا الاعتراض قاعدة ثابتة والاستدلال بها في مختلف مظاهر العلاقات العالمية الواقعة ، لان الجمود الذي تصاب به دولة ما في حياتها العالمية والدولية ، ياتي – في الواقع – كنتيجة طبيعية لجمود عقلية هذه الدولة ، او عدم استعدادها العام للتعاطي مع الآخرين ، والاسهام في حياة العالم اسهاما ذا هدف وفاعلية ، ومن التمحل والانتحال حقا ان ننسب مظاهر جمود من هذا القبيل الى طبيعة الانتماء الديني للدولة ، وارتباطها بعقائدية دينية معينة ، اللهم الا ان تكون هذه العقائدية في جوهرها ذات روح جامدة مجمدة ، وباعثة في ايحاءاتها على العزلة والخمود والتواكل ، وحينئذ تكون من المعقول ان توجه المؤاخذات ضد هذه العقائدية بصورة خاصة ، وليس ضد مبدأ الانتماء الديني بوجه عام .

وبعد ، فان السؤال الذي عرضنا له في غضون هذا الموضوع هو : هل هناك من ضرورات ملحة تقتضي ايثارا مبدأ العلمانية بالنسبة لاية دولة عصرية تقدمية ، وتجعل هذا المبدأ عاملا حتميا من عوامل تحقيق الديموقراطية والحرية والتكافل ؟ .

ولا نستبيح الزعم بان ما بسطناه في معرض الجواب عن هذا السؤال يقوم بالكفاية في القاء الاضواء على هذا الموضوع من اسسه ، واقامة الحجة ، وافرة البنية ، متسعة المدلول ، حول مختلف المشاكل التي تثيرها قضايا كبيرة من هذا القبيل ، فالموضوع – كما يلاحظ ذلك – هو على اقصى ما يكون سعة وتبحرا ، لانه يقتضي – من اجل التوفية له – القيام باستعراض مختلف المسائل والاحكام الناشئة عن حالة الانتماء الديني للدولة ، واستقصاء عناصر التوفيق بين حالة الانتماء هذه ، وبين الجوانب الكثيرة التي تشكل علاقة الدولة بسكانها الاصلاء والطارئين وكل ذلك على ضوء روح الدين من جهة ، والمعطيات السياسية والقانونية والنفسانية والاجتماعية للواقع العالمي القائم من جهة اخرى ، وعلى الرغم من ان المجال الآن لا يفي بايراد مختلف النقط العديدة المتعلقة بهذه القضايا الا ان امامنا – مع ذلك – معطيات اساسية استعرضنا ملامح منها في خلال هذا الموضوع ويمكننا على اساسها ان نقدر قضية العلمانية واللاعلمانية ، لا على انها قضية فلسفية تجريدية ، بل على العكس من ذلك باعتبارها قضية حياتية ، تتصل بواقع اتجاه الدولة ، وجوانب حياة سكانها ، ومن ثم فان السؤال ينصب حول هذه الجوانب الحياتية ، وصلة العلمانية او اللاعلمانية بها وقد رأينا كيف توجه الاعتراضات بهذا الشان ، متركزة حول ما يمكن ان يكون هناك من تناقض بين انتساب الدولة الديني من جهة ، وبين واجباتها من جهة اخرى نحو مختلف الكتل والطوائف المتباينة دينيا ، والمنتمية اليها على حالة او اخرى ولا جرم ان مشاكل الطوائف والاقليات في العالم الحاضر ، تعود باغلبيتها الى اسباب سياسية واقتصادية وعنصرية ودينية ايضا ، ولكننا عند ما نستعرض صور هذه المشاكل على الصعيد العالمي العام ، فاننا قد لا نجد للعلمانية او عدمها تأثير مهم في اثارة مختلف هذه المشاكل وتطويرها ، والوصول بها الى ما هي عليه ، على ان دينية الدولة ، اذا كانت تعني في جوهرها التنكر لحقوق الطوائف والاقليات الاخرى ، فقد يكون هذا هو الشان ، بالنسبة الى عقائديات دينية أخرى غير الدين الاسلامي الذي يعرف عنه الكثير في مضمار التسامح والتساوي وضمان الكرامة الانسانية في اطارها الفردي والجماعي فمن المؤكد ان اللاعلمانية ضمن النطاق العقائدي والسلوكي الاسلامي يمكن ان تشكل في العصر الحاضر اساسا لطريقة ليبرالية صحيحة في مضمار العلاقات الطائفية الدينية والعنصرية داخل المجتمع الواحد ، كما انه من المؤكد ان تساعد هذه العقائدية على ابراز صور ايجابية معبرة عن صور التعايش الانساني الخير ، القائم بين الدول والكتل الدولية ، سواء منها المتجانسة في الانظمة والمناهج ، او المتباينة في ذلك على درجات تختلف من حيث النسبة او النوع ، وهذه الامكانيات الموجودة في نطاق العقائدية الاسلامية من شأنها ان ترفع عن الفكرة العلمانية مختلف الاعتبارات النفسانية والعلمانية التي تجعل منها في نظر البعض

اعماق الزمان والانسان واذا ما توافرت لدينا دواعي التسليم بهذه الظواهر الاساسية فانه سيكون في امكاننا ان نشدد على جانب الحقيقة الآتية : وهي ان اتباع سبيل العلمانية لا يمكن مطلقا ان يتفق مع مقتضيات النهج الديموقراطي في مجال تطور المجتمعات العربية الحديثة ، وذلك لسبب اساسي وبسيط : وهو ان التفكير السائد في هذه المجتمعات لا يستجيب — في اعماقه لمبدا العلمانية الاوربية ، ولا يستقيم مع هذا المبدا الا بصورة لا تكاد تذكر ، اي باستثناء بعض الاوساط المعدودة التي لا يتوافر لها قدر كبير من التجاوب مع أغلبية التيارات الفكرية الكبيرة التي تستاثر بالذهن العربي العام ، وكم يحاج العلمانيون العرب المحدثون — في خلال هذا الموضوع ، بقضية الاقليات والطوائف غير الاسلامية ، التي تشكل اجزاء من الكيان العربي ، وتلتحم بالمجتمعات العربية القائمة سواء على وجه او آخر ، وهم يرون — في معرض حجاجهم هذا — ان الديموقراطية الحق ، لا يمكن ان نجد لها مجالا صحيحا للتطبيق الا بحماية وجود هذه الاقليات من الناحية الفكرية والعقائدية والثقافية ، وضمان مصيرها الاتجاهي الخاص ، وذلك فقط عن طريق العلمانية ، وما تقتضيه من الدولة من التزام الحياد الديني المطلق ، اي تامين قدر متساو من التجاوب والانسجام بين الدولة من جهة والطوائف والجماعات المختلفة التي تنتسب اليها وتقوم على ولائها من جهة اخرى ، لكن السؤال الذي لابد ان يفرض نفسه على هامش هذا الموضوع هو : هل تقوم الانتماء الديني للدولة ، كعائق يحول بينها وبين الاستجابة لرابطة الولاء التي تصلها بجميع الافراد والجماعات المنتسبين اليها ؟ واذا جاز ذلك من حيث الواقع ، اي من خلال ما يبدو احيانا من مظاهر العلاقة السيئة بين بعض الدول والطوائف المتساكنة في حظيرتها ، اذا جاز ذلك من حيث الواقع من هذا النوع فهل يجوز كذلك حتى من الناحية العقلية والمبدئية ؟ ان الانتماء الديني من حيث المبدا لا يقتضي من الدولة تحيزا طائفيا او عنصريا ، هذا مبدأ ثابت وصحيح على مختلف المستويات ، وصحته تستلزم بالطبع صحة الامكانيات المبدئية والعقلية التي تقوم عليها حالة التوفيق بين ديموقراطية الدولة من جهة وانتسابها الديني من جهة اخرى ، اما مظاهر التحيز التي تستبيحها بعض الدول ضد طوائف او جماعات من ابنائها ، فالامر في ذلك يعود الى نوع من الشذوذ يتميز به سلوك هذه الدول لسبب او آخر ، ولا يحصل هذا الشذوذ دائما من جانب الطوائف ذات الاغلبية العنصرية او العقائدية ، بل ان هناك حالات معينة يقع الاستبداد فيها من جانب الاقليات الدينية اذا ما توافرت لها حالة السيطرة على الاكثرية الساحقة من السكان المنتسبين الى ديانة اخرى ، ومن بين الامثلة على ذلك ، ما يقع من حين لآخر بين المسيحيين والبوذيين في بعض اقطار الشرق الاقصى حيث يشتد الصراع بين الاقلية والاكثرية هناك ، وتتشعب جوانبه الى مدى بعيد ، وهذا يدل على ان الامر في انجاح الديموقراطية داخل بلد من البلدان لا يقتضي بالضرورة ان تتحلى الدولة عن انتمائها الديني لفائدة جماعة او اخرى من الجماعات المتساكنة فيها ، اذ ان ذلك — ولو انه يقع على وجه من الوجوه ، فانه لا يساعد دائما على تحقيق الديموقراطية اذا كانت الفكرة الديموقراطية باهتة او منعدمة ، وبواعثها المادية والانسانية تكاد تكون غير متوافرة ، انما العبرة في كل ذلك هو ان يكون الانتماء الديني للدولة وهو منبثق عن واقع تفكير الاغلبية ، ان يكون هذا الانتماء قائما على قاعدة ليبرالية متسامحة ، والا يؤدي في اية حالة الى اضطهاد الاقليات الدينية الاخرى ، وانكار حقوقها القائمة على اي مستوى صحيح ومعقول ، وهذه — كما اسلفنا — النقطة الحساسة والاكثر أهمية في جميع القضايا من هذا القبيل ذلك انه من المتواتر جدا ان نجد دولا غير منتمية من الناحية الدينية ، وتعتبر علمانية نظريا وواقعيا ايضا ، وبالرغم عن ذلك ، فان الاقليات في حظيرتها تتعرض احيانا لحالات التمييز او حتى الاضطهاد القائم على اساس الفروق الدينية او العنصرية او غير ذلك ، كما يمكننا ان نجد دولا اخرى ذات انتساب ديني علني يقره دستورها الخاص ، ومع ذلك فانه تتوافر للاقليات الدينية في حظيرتها ظروف من الاستقرار والمساواة الفعالة ، سواء على الصعيد الاجتماعي او الاقتصادي او السياسي او ما الى ذلك ان ما يمكن استخلاصه من مجموع هذه الملاحظات هو ان قضية الديموقراطية لا يجب أن ترتبط حتما — كما يبدو للبعض — بتوافر الاتجاه العلماني عند هذه الدولة او تلك ، فالصلة بينهما ليست ضرورية وجوهرية في جميع الحالات ، بل ان اشتراط العلمانية من اجل تحقيق بعض مظاهر الديموقراطية — ولو كانت هذه العلمانية لاتتجاوب مع شعور الاغلبية وتفكيرها — ان هذا الاشتراط من شأنه ان يجر الى جملة من التناقضات البارزة تتمثل في نبذ مفهوم الاكثرية والاقلية ، واغفال الاعتبارات المنطقية التي يقوم عليها هذا المفهوم ، سواء من الناحية النظرية او العملية ،

أفغانستان الحديثة

بقلم: جورج لينزوسكي

ترجمة وعرضه: الأستاذ عبدالله السرايري

دراسة مستخلصة من كتاب « الشرق الاوسط فى الشؤون العالميــة » بقلم جورج لينزوسكي

ظهرت افغانستان كدولة مستقلة على يد احمــد شاه سنة 1747 ، وهو ينتمي الى قبيلة « صادوزاي » احدى بطون القبيلة الدورانية الكبرى ، حيث شمــل حكمها بلوخستان وكاشمير والبنجاب ، وكانت عاصمتها كاندهار ، ثم تحولت العاصمة بعد ذلك الى كابــول فى عهد حكام صادوزاي حيــن أخــذت رقعتهــا تتقلص خصوصا فى الهند كنتيجــة للتوســع الاستعمــاري البريطاني ، فشمل هذه الاقاليم الهندية سنــة 1809 بسبب توقيع اتفاقية بين بريطانيا وافغانستان ، وذلك لتفادي احتمال أي هجوم يقع من روسيــا أو ايــران ضــد الهنــد .

تقوم المصالح البريطانية بافغانستان على أساس الاعتبارات الاستراتيجية ، ذلك ان الموقــع الطبيعــي لافغانستان ينحصر فى سلسلة هندوكوش ، وهي تمتد من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي مخترقة طول البلاد ، وسلسلة هندوكوش مورد عظيم لمياه النهرين اندوز واوكسوس « عموداريا » . كما ان الحــدود الطبيعية للهند تقع فى الشمال الغربــي ، ولبريطانيــا مصلحة حيوية تهدف الى منع أي قوة عدوانية تحاول السيطرة على هذا الحاجز العظيم . فمنذ ان حــاول نابليون ان يتوسع بالهند عن طريق روسيا وبريطانيــا لا تغمض لها جفن عن هندوكوش ، فكانت حائرة بيــن امرين ، فاما ان تحتل هندوكوش وتلحــق افغانستان بالهند ، واما أن تسيطر على هذه المنطقة بكيفية غيــر مباشرة ، كأن تكون بها دولة تابعة لنفــوذها . ولمــدة سبعين سنة خلت (1809 — 1879) ظلت السياسة البريطانية تتردد بين الاختيارين . ففي الجبهة المجاورة للحدود الايرانية كانت بريطانيا بافغانستان تقف موقف المهاجم ، فى حين بقيت روسيا تحاول أن تتخذ مــن الايرانيين راسا للرمح . ومثل هذه السياسة التــي نهجتها بريطانيا دفعتها الى شن حربين ضد الافغانيين الاولى فى 1839 — 1842 والثانية فى 1878 — 1879 ويرجع سبب هاتين الحربين الى التقارب الروسى مع الحكــام الافغانييــن الذيــن لم يرغبــوا فى التبعيــة البريطانية . ففى خلال الحرب الاولى احتل البريطانيون كابول ، واسروا الامير الاكبــر محمد مؤسس اسـرة براكزاي وهي « فرع آخر من القبيلة الدورانية » ، ثم ارجعوه الى الحكم ، وضمنوا حياده فى النزاعات التى تقع بين روسيــا وبريطانيــا .

وفى الحرب الثانية احتلت القــوات البريطانيــة جزءا كبيــرا من البــلاد ، فأبعــدت الاميــر شير علي ذا الميول الروسية . وفى سنة 1879 عقدت معاهــدة جانداماك مع خلفه يعقوب حيث تنازل فيها لبريطانيــا عن موقع كبير ببلاده ، وقبــل اشراف بريطانيــا على العلاقات الخارجية مقابل اعانة سنوية تقدمها بريطانيا الى افغانستان تقدر بــ 60.000 جنيه استرليني .

ثم قام نزاع مسلح ضد بريطانيا عقب كل هــذه التغييرات التي توصلت بها بريطانيا ثم اثرها تنــازل يعقوب عن الحكم . ففي 20 يونيو 1880 تــم الوصول الى حل مع خلفه وهو عبد الرحمن (1880 — 1901) فخولت له بريطانيــا الاشراف علــى شــؤون البــلاد الداخلية ، وسحبت فرقهــا ، ولكنهــا أصرت على ان تملك زمام العلاقات الخارجية ، وتعهدت بالدفاع عن البلاد من اي اعتداء خارجي ، وتأكدت هذه الالتزامات أيضــا فى 21 مــارس 1905 مــع الاميــر حبيب الله

حتمية ضرورية واساسيه ، ولا يحدو المرء الى اطلاق هذا التأكيد مجرد تعصب في العقيدة او الرأي ، او اعتداد بالموقف المتخذ ، او مسايرة للافكار الرائجة ، فقد داب منذ بعيد كثير من المفكرين غير الاسلاميين على ترديد نظريات عديدة حول المعطيات الديموقراطية الاسلامية ، وحول سلامة الموقف العقائدي والسلوكي الاسلامي في مجال العلاقات الانسانية على اختلاف المستويات .

ولا يجب في الواقع ان نعتد كثيرا بمثل هذه النظريات والمواقف ، ونتنهزها ذريعة الى مساندة وجهات نظر شخصية وموالبة للعقائدية الاسلامية ، والاستناد الى ذلك بالتالي في تدعيم موقف هذه العقائدية امام المعترضين عليها ، ليس من ضرورة لسلوك سبل انتهازية من هذا القبيل بل ان هناك — عوضا عن ذلك — مجالا متفتحا دائما لمناقشة التفاصيل حول مثل هذه المواضيع ، واعتماد المنطق العلمي ، والعقلانية الدقيقة في مساندة الحقائق التي يمكن استخراجها على هذا الاساس والنفوذ من ذلك الى اتخاذ مواقف في الاخير لها نصيب أوفر من عناصر الموضوعية والوضوح والاستقرار .

سلا — المهدي البرجالي

تصحيح أخطاء مطبعية

وقع في المقال المعنون بـ (سابق البربري ثانية) المنشور بالعدد السابق من هذه المجله بقلم الاستاذ عبد الله كنون بعض اخطاء مطبعية احببنا التنبيه عليها لاهميتها بالنسبة للفائدة المرجوة من المقال .

في العمود الاول :

وهي مما كان عندي لهذا البحث ، **الصواب : كان معدا عندي** ..... ولسهولة الروابط **الصواب : الربط .**

في العمود الثاني :

وخطيب ، **الصواب : وخصيب (بالصاد) .**
منبت ان الرقي ، **الصواب : أنه الرقي .**
جنح اليه ابي حاتم ، **الصواب : ابن ابي حاتم .**
من طريق ذكرهم ، **الصواب : من طريق من ذكرهم** ، المطاطي ، **الصواب : المطماطي**

في العمود السادس :

بالنصر عي تشوف ، **الصواب : بالنص على تشوف** . اني تحدثت ذات مرة ، **الصواب : تحدثت عنه ذات مرة** . ! o La ! La الصواب Oh ! La ! La !

في العمود العاشر :

وبارك الله على دعائه ، **الصواب : دعانه (بالنون).**
اما تشديد ياء ثانية في العنوان فهي من عمل الخطاط .
معذرة للكاتب والقراء .

موسكو ، تلتها بعثة روسية الى كابول . وحيث ان الوطنية الهندية المناوئة لبريطانيا كانت تجد عطفا لدى الافغانيين ، فقد امكن لبعض الزعماء الهنود مثل مهاندرايرتاب ، وبركة الله الذين كانت لهم جمعية تحظى بعطف السوفيات فى طشقند ، هؤلاء الزعماء جعلوا من افغانستان قاعدة لتحدي الاستعمار البريطاني ، خصوصا بعد ان رفض أمان الله طلب البريطانيين فى طردهم من بلاده ، ثم استدعى أمان الله القائد التركي جمال باشا لينظم الجيش الافغاني ؛ وكان قدوم جمال الى كابول مما شجع بريطانيا على عدائها لتركيا ، وذلك حتى لا تخفف من بنود معاهدة سيفرس التي عقدت مع تركيا بعد الحرب العالمية الاولى .

وفى 28 فبراير 1921 عقدت كل من افغانستان وروسيا معاهدة الصداقة ، ونصت على تبادل التمثيل الدبلوماسي بين البلدين ، وفتح القنصليات بكل من حيرات ، وميمينا ومزار الشريف وكاندهار وجانزى، ثم منحة سنوية تقدمها روسيا تقدر بمليون روبل ذهبي ، ونقديم الدخيرة الى افغانستان ، وتأسيس الخط التلغرافي ما بين كوش ، وهيرات ، وكاندهار، وكابول . كانت هذه المعاهدة بمثابة صدمة لبريطانيا ، خصوصا بعد ان اكدت على استقلال افغانستان ، فاضحت البعثات الافغانية ترسل الى العواصم الاوربية لطلب الاعتراف بها ، ثم جلب الفنيين الاجانب وتأسيس علاقات تجارية . وفى أثناء زيارة البعثة الافغانية الى لندن اصرت على ان تفاوض وزارة الشؤون الخارجية البريطانية بدلا من مكتب الهند . ولقي المبعوثون الافغانيون معاملة فظة خصوصا من كاتب الدولة في الشؤون الخارجية البريطانية اللورد كيرزون . لم يلبث امان الله أن اعاد النظر فى علاقته مع روسيا البلشفية ؛ حيث اذعنت بعض الدول فى آسيا الوسطى لزحفها ، اذ ذاك بدا يميل الى بريطانيا ، فاستقبل بعثة بريطانية فى 22 نوفمبر 1921 وعقد معها معاهدة جديدة اكدت فيها بريطانيا للمرة الثانية على استقلال افغانستان التام ، واعترفت بالحدود القائمة ، وتم بينهما التبادل الدبلوماسي والقنصلي ، ثم منحت افغانستان تسهيلات جمركية بالهند ، وتم التعاون بين البلدين لتحقيق السلم فى المناطق القبلية القريبة من الحدود . والحت بريطانيا على أمان الله ، فوافق على عدم السماح للسوفيات بانشاء قنصليات فى كل من جانزي وكاندهار الواقعتين على الحدود الهندية ، وتقرر توقيع المعاهدة باسم الحكومة البريطانية باسم حكومة الهند مع موافقة بريطانيا على أن تتوجه اليه باسم صاحب الجلالة .

العلاقات السوفياتية الافغانية

كان ميل امان الله الى روسيا اكثر من ميله الى بريطانيا ، ففي 22 يونيو 1921 عقد معاهدة الصداقة مع تركيا وايران . اما بالنسبة الى تركيا فقد فتح الباب على مصراعيه للضباط الاتراك والمعلمين والخبراء . ويعاد الى الاذهان بان تركيا فى هذا الوقت كانت تتعاون مع السوفيات ، ولم تكن علاقتها حسنة مع بريطانيا ، وهذا ما جعل امان الله يستانف علاقته مع السوفيات ، فسمح لهم بتأسيس فرع الشركة التجارية التابعة للحكومة (فينيشتورج) ثم منحهم امتيازا لانشاء فرع لمصرف «بنك» الدولة السوفياتي. وقبول خدمات الخبراء فى عدة مشاريع : كتأسيس القوة الجوية الافغانية ، وارسال الملاحين الافغان للتدريب فى طشقند . وفى سنة 1926 عقد ميثاقا مع روسيا للحياد وعدم الاعتداء ، واعقبته فى سنة 1927 اتفاقية جوية تربط بين كابول وطشقند ، ثم افتتحت بعد ذلك مفاوضات للاتفاقيات التجارية .

الواقع أن امان الله لم يقدم جسمه وروحه كلية الى الروس ، ففي بعض المناسبات كانت سياستهما تنحرف بعض الشيء ، فقد اراد ان يجعل من نفسه المدافع عن الاسلام ، وخصوصا عندما وقعت كل من بخارى وكيفا فى قبضة السوفيات . لقد خشي امير بخارى ان يلقى حتفه على يد البولشفيك ، فالتجأ الى افغانستان ، واحسن وفادته امان الله ، بل ذهب أبعد من ذلك فقام بنشاط لصالح الثورة الباسماشية التي زعزعت النفوذ الروسي فى آسيا الوسطى سنة 1922 واراد ان يخلق تحالفا فى وسط آسيا تحت زعامته . وللوصول الى هذه النتيجة ؛ ركز قواته على امتداد الحدود الشمالية ، واسس اتصالات بينه وبين الزعيم الطوراني اينيفير باشا ، وما كان من السوفيات الا ان طالبوه باعلان الحياد ، وسحب الفرق الافغانية من مناطق الحدود ، واستجاب أمان الله لذلك ، وتوفي اخيرا العاهل الافغاني ..

ووضعت وفاة أمان الله حدا لتلك التصميمات فى موضوع وسط آسيا ، وبقيت ثورة الباسماشي مستمرة الى سنة 1931 .

(1901 ـ 1919) فاصبحت المساعدة المادية البريطانية تبلغ فى عهده 160.000 جنيه استرليني .

ظلت بريطانيا منذ (1880 ـ 1920) تتبع سياسة الاشراف غير المباشر على كل شؤون افغانستان ، فتخلصت من الفرق البريطانية ، واضحت تتمتع باستقلالها الداخلي التام ، وكان يحرم على افغانستان اثناء استلامها للمساعدة المادية من (حكومة الهند البريطانية) ان تتعامل مع أية قوة أخرى باستثناء بريطانيا .

النـزاع على الحـدود

بعد ان تعهدت بريطانيا بالدفاع عن افغانستان ضد اي اعداء خارجي يقع عليها ، ينبغي ان نعرف أين تقع اهمية الحدود الافغانية فى هذه الفترة ، ذلك أن التوسع الروسي بلغ حدته خصوصا من 1870 ـ 1880 فى آسيا الوسطى ؛ فقد الحقت روسيا اقليم ميرف فى سنه 1884 بترابها . واضحت روسيا منذ ذلك الحين تشكل خطرا على افغانستان ، وهي لكي تحتل واحة بنجده ، كان لابد ان تخترق الحدود الافغانية ، وكان رد الفعل البريطاني قويا امام التحركات الروسية لدرجة اصبح التلويح بالحرب متبادلا بين الطرفين ، وفى سنة 1885 توصل الطرفان الى حل لمشكلة الحدود الشمالية ، وذلك بابرام اتفاقية بينهما، واضيف اليها تحديد آخر سنة 1895 خصوصا فى منطقة بامير بالطرف الشرقي لافغانستان ، ثم حلت بعد ذلك مشكلة الحدود الايرانية الافغانية ما بين افغانستان وبريطانيا بواسطة اتفاقية تدعى اتفاقية دبوراند .

كان حل مشكلة الحدود عملا ايجابيا ، كما كان سببا للاحتكاك بين الدول المعنية ، سيما وان موقع الحدود كان رديئا وغير عملي . ذلك ان اغلب الطرف الشمالي للحدود يتجه اتجاها لا يحمي نهر اكسوس ، او يتخلل المعبر المسطح ؛ وهو لهذه الحالة لا يمكن اعتباره حدا استراتيجيا ، بل اكثر من هذا ؛ انه قسم منطقة تسكنها قبائل من جنس واحد الى قسمين: القبائل التركمانية والأوزبيك ، ومن ناحية اخرى قبائل التاجيك ، وكانت قبضة افغانستان على هذه القبائل فى وضع دقيق . اما ما يقال عن الحدود الجنوبية انها تشكل حدودا ذات موقع استراتيجي ، فهي تتموج بين قمم الجبال ، ولكنها لسوء الحظ تقسم المنطقة المتجانسة السكان فتترك بالناحية الهندية ملايين قليلة من القبائل الافغانية الخالصة ، وهذه الخاصية الجبلية تجعل الرقابة على هذه القبائل من الصعوبة بمكان .

كانت روسيا تبدي استياءها لاشراف بريطانيا على العلاقات الخارجية لافغانستان ، ولكنها قبلت ذلك فى الاتفاقية الانجليزية الروسية التي عقدت فى 1907 حيث اعلنت بان افغانستان خارجة عن نفوذها . وظلت افغانستان محايدة اثناء الحرب العالمية الاولى وحاول الامير حبيب الله عبثا ان يتغاضى عن اشراف بريطانيا الخارجي ، فيتصل ببعثة المانية تحت رئاسة نيدبرمايروفون هانتيج ، الا أنه لم يجرؤ على عقد اتفاقية مع المانيا نظرا لان بريطانيا كانت له فى الهند بالمرصاد .

التحـرر من الوصايـة البريطانيـة

فى 20 فبراير 1919 اغتيل حبيب الله ، ثم عين أخوه نصر الله خان زعيم الحزب المحافظ والمعادي لبريطانيا ، وكان مؤيدا فى ذلك من طرف رجال الدين والقبائل . عارض هذه التولية ابن حبيب الله الشاب امان الله الذي كان حاكما على كابول ، وبمساعدة الجيش تمكن من خلع نصر الله فى 27 فبراير ، ثم صدر الحكم بالاعدام على نصر الله لانه تعمد قتل أبيه تسببت هذه الحركة فى غضب الطوائف الدينية ، فطائفة تعارض فى صمت . واخرى تعمل بايعاز من بريطانيا . ثم اعلن امان الله الجهاد فى مايو على بريطانيا وذلك بان تكتسح جنوده الهند . وكانت هذه هي الحرب الثالثة كما سميت قد أزعجت بريطانيا . سيما وقد قامت قلاقل بالبنجاب . ومع ذلك تمكن الانجليز من مجابهة أمان الله ، فوجهوا رفهم الى الحدود الشمالية الغربية معززة بسلاح الطيران ، ومنها الى كابول وجلال باد ، وانتهت بارغام الافغان على التراجع الى اراضيهم ، ثم طلب امان الله الاستسلام فاعطي له . لم تكن للانجليز رغبة فى احتلال بلاد الافغانيين من جديد ، وانما فضلوا ـ نظرا لارتباطهم بالهند ـ أن تبقى افغانستان حاجزا فاصلا ما بين الهند وروسيا . وكلفت هذه الحرب حكومة الهند 16.000.000 جنيها استرلينيا . لهذه الاسباب اغتبط الانجليز بعقد معاهدة مع الامير الافغاني فى 8 اغسطس 1919 سميت بمعاهدة راولبندي ، فهي بالرغم من انتصارها على الافغان ، تنازلت عن موقعها الممتاز فى افغانستان ، ثم اعترفت باستقلاله التام فى الداخل والخارج . واعتبر ذلك امان الله انتصارا على بريطانيا . وفى سنة 1919 توجهت بعثة افغانية الى

وخلال سنة 1924 افتتحت مدرسة المانية للمدرسين بكابول . وتم انشاء معامل الورق والنسيج. ثم تولى العقيدة « الكولونيل » الالماني كريستين آمرية الكلية العسكرية الافغانية ، وبصعود هتلر الى الحكم اصبح التوغل الالماني شديدا ليس فى افغانستان فحسب ؛ بل عم منطقة الشرق الاوسط ، وفى سنة 1935 وصلت بعثة علمية لدراسة هندوكوش ، وفي سنة 1936 اسست الشركة الالمانية « لوفتانزا » خطا ما بين كابول وبرلين .

فقد قام المولى لامي بثورة سنة 1924 فى منطقة الكوست ضد القانون المدني حيث اعتبره مخالفا للدين، وبقي يتحدى السلطات لمدة عشرة اشهر ، وكلف الحكومة جهودا واموالا لاعادة الامن الى نصابه .

وفى سنة 1927 قام امان الله برحلة طويلة الى اوروبا زار اثرها كلا من ايطاليا والمانيا ، وفرنسا . وانجلترا ، ووجد استقبالا يناسب مقامه ، كما عقد عدة اتفاقيات كلها فى صالح الاقتصاد الافغاني ، واثناء الرجوع عرج على موسكو . وقدم له الروس اربع عشرة طائرة وكمية هائلة من الذخائر ، ثم ختم زيارته هذه فسافر الى تركيا ومنها الى ايران ، واثناء رجوعه الى بلاده اصدر سلسلة من الاصلاحات فى التعليم شملت المرأة واتسعت الهوة بينه وبين رجال الدين .

المشاكل الداخلية

فى 14 نوفمبر 1928 قامت ثورة قبلية بايعاز من رجال الدين المتزمتين ، وبمرور شهرين على قيامها، اصبحت خطيرة ضد الحكومة حيث قامت قبيلة التاجيك بزعامة باشا سقوه ، وفى 17 يناير 1929 اصبحت تهدد العاصمة ، واضطر امان الله ان يتنازل عن الحكم لاخيه عناية الله ، ثم فر الى كاندهار ، وعبثا حاول ان ينظم المقاومة من هناك ففشل ، ثم اخترق الحدود الهندية قاصدا منفاه بأوروبا ، وخلال هذه الايام السوداء ؛ كان سفير الاتحاد السوفياتي وتركيا يلحان على امان الله فى استمرار المقاومة ضد القبائل الثائرة لتحقيق اصلاحاته ، بل ذهبت روسيا ابعد من ذلك ، حيث كان سفير افغانستان بموسكو غلام نبي ينظم ارسال قوة عسكرية بالاتحاد السوفياتي معظمها من الروس لانقاذ امان الله ، ولكنها وصلت متأخرة . الواقع ان الشعب كان يعادي امان الله فى اقاليم الشمال ؛ فبعد أسابيع قليلة كانت قوات غلام نبي تقفل راجعة الى الاتحاد السوفياتي ، وبقي التوازن في افغانستان لمدة شهور فى تقلقل سيما وأن نظام الحكم اصبح فى خطر بافغانستان وأوشك التدخل الاجنبي على الظهور . ثم اخذ باشا سقوة يوطد نفوذه القائم على الرعب ؛ واثره انسحب كثير من الاجانب المقيمين بافغانستان ، والغيت كل الاصلاحات التي قام بها امان الله ، ولقي ذلك قبولا حسنا من رجال الدين . لكن الحالة لم تستقر بالبلاد مع ذلك ؛ فقد قامت ثورة مضاده بزعامة محمد نادر خان ، وهو ينتمي الى قبيلة براكزاى احدى فروع القبيلة الدورانية ، فقد كان يشغل منصب سفير افغانستان بباريس ، ثم رجع مع ثلاثة من اشقائه فى مارس 1929 واعاد تنظيم القوات فى الجنوب ، ولم ينحصر نشاط الاخوان فى الجنوب بل امتد الى كل البلاد ، وكانت القوات تتكون من قبائل وزيري وماسود بالهند ، فزحف نادر بهذه القوات مع اخوانه على كابول فى 16 اكتوبر 1929 ثم اعلن ملكا على افغانستان .

لقد سبب ارتقاؤه على العرش ضجة كبيرة في الصحف السوفياتية باتهامه بانه من عملاء بريطانيا ، وردت بريطانيا على ذلك بأن لا يد لها فى انقلاب نادر .

نادر شاه

ظهرت شخصية نادر فى الحرب الثالثة الافغانية ضد بريطانيا كقائد للجيش الافغاني ، وبالرغم من أنه هيأ جيشه بالحدود التي تشرف عليها بريطانيا بالهند، فلم يكن ذا ميول بريطانية بل بالعكس ، فقد كان مؤيدا لسياسة هجوم القبائل الافغانية على الحدود الشمالية الغربية الهندية ، ولكنه تراجع عن هذه المغامرة ، فاصبح ينشد حسن الجوار ، وربط علاقات طيبة بينه وبين بريطانيا بالهند ، لاعتقاده بأن أمن القبائل أمر تستلزمه الضرورة فى الحدود بالنسبة للحكومة الافغانية .

كانت اعباء الحكم فى عهده ثقيلة ، خصوصا بعد الحكم الفوضوي الذي ارهق البلاد فى عهد الثوار ، ثم أن البلاد كانت موزعة سياسيا ، فأعاد تنظيمها بعد مدة أربع سنوات . وفى 1932 اعلن دستورا جديدا للبلاد مع انشاء مجلسين . وكان دستور نادر شاه شبيها بدستور امان الله من بعض الوجوه ، ثم اعلنت القوانين الجديدة التي كانت بمثابة تغيير للنظام الاوتوقراطي السياسي ، وازعج ذلك جماعة المحافظين

كان يشغل بال نادر مسألتان : اولاهما الآثار التي نجمت عن ثورة باشا سقوة ، وقد رأينا كيف تغلب عليها . وثانيهما رجوع غلام نبي الى روسيا حيث بدأ

وفي سنة 1925 قام خلاف كبير بين الحكومة السوفياتية وافغانستان حول منطقة تقع على نهر الاوكسوس ، ولم تكن هذه القضية ذات اهمية ؛ فتنازلت الحكومة السوفياتية لافغانستان ساحبة قواتها من هذه المنطقة . اعتبرت حكومة امان الله ذلك انتصارا لها ، والواقع أن الاتحاد السوفياتي حقق بدبلوماسيته التي تبعها مع امان الله تركيزا لنفوذه بافغانستان ؛ وخاصة ضد التوازن البريطاني عن طريق استعمال كثير من المساعدات وانواع التعاون التي ظهرت بين البلدين ، ومن جهة ثانية استغل الواقع الذي كانت عليه الحدود في الشمال سيما وان اقلية لا تتكلم التركية كانت تحت النفوذ السوفياتي على شكل حماية ، ومن ناحية اخرى ، لقيت دعايتهم بعض الصعوبات الى درجة بعيدة في العشرينات الاولى من هذا القرن لدى التجار الافغان والهنود الذين يقدمون على أسواق بخارى وطشقند ، فتعرضوا الى مضايقات البولشفيك ، وتنوقلت اخبار تلك المعاملة ولهذا لم يحقق السوفيات ما ارتجوه من دعايتهم . بل قبلوا في الاخير ان يقدموا تعويضات عما فقده التجار الافغان .

وجدت الدعاية للمباديء الشيوعية بعض الاصداء لدى قبائل التركمان وكذا التاجيك والاوزبك في الحدود الافغانية ، الا أن الروس من جهة اخرى ستطاعوا بانشائهم للسكك الحديدية ومدهم للاسلاك الكهربائية أن يجدوا تأثيرا خاصا لدى الافغان . ولقد قوى التبادل التجاري بين البلدين امتداد السكك الحديدية الى كورش ترميذ في الحدود الافغانية ، وخدم في نفس الوقت الاغراض الاستراتيجية السوفياتية .

كان هدف الدعاية السوفياتية يقوم على تشجيع نمو الحكومات الذاتية او الحركات الانفصالية الممكن استخدامها ضد الحكومة الافغانية عند الاحتياج ، وفي نفس الوقت كان الروس يهدفون من توسعهم الاقتصادي في افغانستان وخصوصا الاقاليم الشمالية ان يجعلوها معتمدة على روسيا باعتبارها مركزا تجاريا ، وهذه الحالة شبيهة بشمال ايران حيث نلاحظ في نفس الحالتين ان سلاسل الجبال تفصل عاصمة البلاد عن مناطقها الشمالية فتصبحان سلاحا في يد الروس .

العلاقات الافغانية البريطانية

لم يكن أمان الله قلقا على موقفه ، ثم انه لم يعتبر ذلك نذيرا كافيا لاتخاذ الاجراءات المضادة أو التحالف مع بريطانيا ، فهو بالعكس اتجه اهتمامه الى الحدود القلقة في الجنوب ، والتي تسكنها قبائل الباتان . ونشير دائما الى أن هذه المنطقة القبلية كانت مقسمة تقسيما اصطناعيا يجتازها خط ديورانت ، حيث يقع بموجبه الفصل بين الحدود الهندية الافغانية . وهناك اشارة مميزة أخرى لمنطقة قبائل الباتان انها لاتخضع لحكومة الهند ، بل يقع الاشراف عليها من بعض المراكز العسكرية البريطانية المتفرقة ، وبواسطة الموظفين السياسيين ، فكانت مهمة دقيقة بالفعل ، ومع ذلك فان الحكام بكابول كانوا يعارضون اي مظهر للاشراف البريطاني على هذه المنطقة . يضاف الى ذلك أن هؤلاء الحكام كانوا يتمسكون باستمرار نفوذهم وسلطتهم على قبائل الباتان ، ولهذه السياسة دواعي دفاعية وهجومية ، ذلك أن الحكام الافغانيين اتخذوا من هذه القبائل سلاحا موجها ضد بريطانيا ان كان ذلك ضروريا ، ومن جهة ثانية فان اختراق رجال هذه القبائل للحدود الافغانية كان مصدر ازعاج الى الحكومة الافغانية نفسها ، وأمام هذه الحالة اعتبر الحكام الافغانيون من الحيوية بمكان أن يدعموا صداقتهم مع زعماء هذه القبائل .

وبما ان امان الله عرف بعدائه لبريطانيا فقد كان يجرب دائما استخدام القبائل المذكورة الامر الذي نتج عنه ان طاقة بريطانيا العسكرية كانت كلها مركزة في هذه المنطقة المضطربة .

اصلاحات واضطرابات

في الوقت الذي حاول أمان الله ايجاد توازن بين النفوذين البريطاني والروسي ؛ فقد كان يكد في اعداد بلاده للتحضر ، وطمح أن يقتفي بمصطفى كمال زعيم تركيا . ففي 9 ابريل 1923 أعلن القانون الاساسي ، واتبعه باصلاحات تهدف الى جعل البلاد عصرية في جميع المرافق ، ثم اتجه بعد ذلك الى الفنيين والمستشارين من جميع الجنسيات للاستعانة بهم ، فاقتدى بالشاه رضا بايران ، فجلب الالمان باعتبارهم يمثلون « القوة الثالثة » ولعبوا دورا بارزا سواء قبل الحرب او بعدها ، من ذلك جلب الاساتذة والمدرسين العسكريين والفنيين وموظفي البنوك والاطباء والعلماء

الحاجيات الاقتصادية

ظل الاقتصاد الافغاني يشكو ضعفا رغما عن التوازن الذي تحقق لدى الحكومة من دولار ايام الحرب . فقد بقي ثلثا الشعب الافغاني يعيش على حياة الرعي ، ومن الواضح ان افغانستان كانت تريد ان تحقق تقدما ماديا ، فهي محتاجة الى مضاعفة صادراتها خصوصا فى الفواكه والجلود (جلود الخرفان) وتحملت بضاعة الجلود خسارة كبيرة بسبب مزاحمة روسيا لها ، يضاف الى ذلك من ناحية اخرى مناقشة جنوب غربي افريقيا .

واثناء هذه الظروف التجأت افغانستان الى الولايات المتحدة ، وخصوصا مع شركة موريسون كنودسون بولاية اداهو لتحقيق بعض المشاريع الفنية مثل انشاء الطرق ، ومد القناطر والسدود ثم تصميمات كهربائية وقنوات للري ، كان الطريق الممتد من كابول الى كاندهار من احدى انجازاتها ، كما أن اهم مشروعات الشركة يقع على نهر هيلماند باقامة سد عليه ، الامر الذي نتج عنه نزاع بين ايران وافغانستان، ذلك لان ايران ترى فى انشاء هذا السد سببا فى نقصان مياه بحيرات سيتان التي ستنفيد منها . وهناك مشروع آخر للتنقيب عن البترول فقد تقدمت الشركة « انلاند » بمفاوضة الحكومة لهذا الفرض ، الا أن النتائج كانت هزيلة . ثم قامت محادثات اخرى بين الشركة الامريكية للطيران « الخطوط الجوية العالمية » فانشأت فرعا لها يربط كابول ببعض دول العالم . وفى سنة 1948 رفع التبادل الدبلوماسي من درجة مفوضية الى سفارة علما بأن التبادل تم بينهما سنة 1943 وفى سنة 1948 قام وزير الاقتصاد الافغاني عبد المجيد خان بزيارة الولايات المتحدة لطلب المساعدة الفنية . فتم له النجاح . ثم تقدم بنك الاستيراد والتصدير سنة 1949 بالولايات المتحدة بقرض الى افغانستان مقداره 21.000.000 دولار لفرض التجهيز ، تلاه طلب آخر من الحكومة الافغانية الى البنك الدولي بأن يقدم لها مساعدة مالية .

بالرغم من أن افغانستان لم تعلن الحرب على دول المحور فقد قبلت بهيئة الامم المتحدة سنة 1946 ولعبت هذه المنظمة دورا هاما فى تجهيز افغانستان ، ففي سنة 1950 وصلت بعثة من الخبراء الاقتصاديين لدراسة حاجيات افغانستان برسم برنامج المساعدة الفنية .

امتازت العلاقات الافغانية السوفياتية بأنها ظلت قبل الحرب وبعدها تتسم بالمسالمة ، فلقد حلت كثير من القضايا المعلقة بين البلدين كمشاكل الحدود ، والاراضي الواقعة على نهر الاوكسوس ، والحقوق فى مياه واحات كوش ، فسويت كلها بواسطة لجنة افغانية سوفياتية . ثم اعيد العمل بالاتفاقية التجارية سنة 1948 بين البلدين ، فاخذت روسيا تصدر السكر والقطن والبضائع بانواعها ثم البترول . كما لم تكن هناك وكالات تجارية منبثة داخل البلدين ، وانما كان تسليم البضائع يقع فى نقط معينة على الحدود تجنبا لكل نفوذ سياسي .

كانت افغانستان تتخوف من التقدم الفني والزراعي الذي احرزت عليه دول آسيا الوسطى ، فبدات تولي ذلك اهتمامها الكبير ، زد على ذلك ان افغانستان كانت تعتبر تركستان الافغانية النقطة التي يمكن أن يمتد منها نفوذ الاتحاد السوفياتي ، فبدات الحكومة الافغانية بالفعل تنقل بعض البدو الافغانيين من الجنوب ، وذلك لزراعة الارض بالشمال ، وافغانستان كبقية البلاد الاسلامية ، لم تكن تشكو فرقا كبيرا فى الثروة فالبلد بصفة عامة كان فقيرا ، ومع ذلك ، فان روسيا لم تبادر بارسال وكلائها الى افغانستان ليتخذوا منها منفذا الى الهند والباكستان كما كان نشاطها من قبل . والدعاية الشيوعية في افغانستان لم يكن لها مظهر بارز ، ولكنه سيكون من غير الحكمة ان نتغاضى عن مفعولها لدى قبائل الاوزبيك والتاجيك والتركمان الذين يعيشون على الحدود موزعين بين افغانستان والاتحاد السوفياتي . فالملاحظ أن هؤلاء المواطنين اصبحوا يعيشون فى نظام اقتصادي اشتراكي بالشمال . فى حين ظل الجنوب متأثرا بالشروط الاولية للمجتمع الشرقي البطيء الحركة .

اما امكانيات الجيش الافغاني فلا تستطيع ان تواجه اية قوة كبيرة باستثناء مجابهة اي نشاط فى الداخل ، ولم تكن منطقة هندوكوش تمثل عقبة كئودا امام جيش منظم عصري اذا حاول اجتيازها ، فالمسألة مسألة ايام فقط اذا ما ارادت القوات السوفياتية اجتياز الحدود الكشميرية والباكستانية .

كانت نهاية الحكم البريطاني للهند سنة 1947 مما عقد مشكلة « حراس منطقة هندوكوش » لقد عوضت بريطانيا بدولتين ضعيفتين : افغانستان وباكستان ، فالاولى مهتمة بأمنها الداخلي واصبحت بكيفية آلية اكثر تعرضا للضغط الروسي ، ثم ان العلاقات الافغانية الباكستانية تعرضت لازمة عنيفة

يعمل في الداخل ضد الملك نادر . وكما هو معلوم فان الحكم في البلاد كانت تتقاسمه قوتان ، الاولى : وهي شخصية الملك . والثانية : رؤساء القبائل وهؤلاء يستشارون في المجلس الكبير « لوى جيركا » .

شغل اخوان الملك نادر مناصب وزارية هامة ، فقد تولى رئاسة الوزراء محمد هاشم خان من 1924 – 1946 ثم عين شاه والي خان وزيرا في باريس، وعهد اليه ان يراقب امان الله بمنفاه في جميع حركاته وسكناته ، كما اسندت الى اخيه محمود شاه خان القيادة العليا للجيش الافغاني ، اما وزارتا الشؤون الخارجية والتعليم فقد اسندت الى اتباع الملك .

قامت سياسة نادر خان على ايجاد التوازن بين الدولتين روسيا وبريطانيا ، وتحقيقا لذلك ، فقد استعان بكثير من الخبراء الاجانب في جميع المسائل الفنية . وفي سنة 1930 قامت حوادث على الحدود هددت العلاقات الافغانية السوفياتية خصوصا بعد ان مرت على حكم نادر نصف سنة . فلم تكن الاقاليم الشمالية قد خضعت بعد لحكمه ، ذلك أن الزعيم بسماشي في فرغانة ، واحد شركاء اينفير ، وهو ابراهيم بك ، اصبحت في يده مقاليد الهيمنة السياسية على هذه الولاية ، فأراد أن يجعل من التركستان الافغانية قاعدة لشن هجومات ضد السلطات السوفياتية ، ولم يجد الروس بدا من تسيير قوات عسكرية اخترقت منطقة الاوكسوس بمسافة اربعين ميلا داخل التراب الافغاني ، وتسبب ذلك عن رد فعل قوي لدى الافغان ، فتحركت قوات افغانية متجهة الى منطقة الاوكسوس ، وبعد معركة صغيرة دفعت ابراهيم بك الى اختراق الحدود الافغانية ، ولتجنب سوء العلاقات في المستقبل مع روسيا ، التجأ نادر الى التخلص من اللاجئين المقيمين في التركستان الافغانية ولا سيما جماعة البخاريين .

ولم يستمر حكم نادر طويلا ، فقد اغتيل في نوفمبر 1933 من طرف احد أعدائه ، فتولى بعده ابنه محمد ظاهر شاه ، ثم تابع سياسة ابيه بتوجيه اعمامه، فكانت سياسة واقعية حذرة . وفي سنة 1937 انضمت افغانستان الى ميثاق سعداباد الذي ضم كلا من العراق وتركيا وايران ، ثم تعرضت العلاقات الافغانية الانجليزية الى بعض التوتر الموقت نتيجة لثورة شامي بير ، فكان مواليا لامان الله ، وأخيرا اخترق الحدود الافغانية من الهند ، وانهزم في معركة مع قوات الحكومة الافغانية .

افغانستان والحرب العالمية الثانية

لزمت افغانستان الحياد خلال الحرب العالمية الثانية ، ففي سنة 1944 عزم البريطانيون والروس على احتلال ايران ، فطلبوا من افغانستان ان تتخلص من مواطني دول المحور المقيمين باراضيها ، واجتمع مجلس رؤساء القبائل « لوى جيركا » للتباحث في الامر ، واخيرا وافق المجلس على رغبة الحكومة القاضي بالتنازل عن طلب الحلفاء .

لقد تضررت افغانستان اقتصاديا بسبب هذه الحرب ، فقد اعتمدت على روسيا خصوصا في تجارتها الصناعية المستوردة من هذه الاخيرة ، فانقطعت عنها ؛ مما جعل افغانستان تستورد من الهند ، وتميل الى السياسة البريطانية . ففي سنة 1944 عرضت بريطانيا على افغانستان عقد اتفاقية لفرض تدريب ضباط الجيش الافغاني بالهند ، وقدم بالفعل مائتا ضابط افغاني للتدرب في المراكز البريطانية . ثم افتتحت مفاوضات اخرى لفرض تسليم الفائض من الاسلحة البريطانية الى افغانستان بعد انتهاء الحرب . وهذا ما جعل رغبة افغانستان تزداد في استخدام الخبراء الانجليز في مثل هذه الميادين العسكرية ، ثم شرع بعد ذلك في انشاء معامل النسيج ، وازداد نشاط القنصل البريطاني في كابول ، هذا بالاضافة الى وفود رجال التعليم البريطانيين التي اخذت تفد على افغانستان ، فتأسست المدرسة الثانوية الرابعة في العاصمة اضافة الى المدارس الثانوية الثلاث لكل من المانيا وفرنسا وأمريكا . ثم ساهم الروس ايضا بدورهم في الميدان الثقافي فنظموا رحلات كثير من رجال الثقافة الافغانيين الى طشقند . وفي هذه الاثناء تنازل رئيس الوزراء هاشم خان وتولى بعده اخوه الشاب محمود خان سنة 1946 .

واول عمل قام به هو اطلاق سراح المعتقلين السياسيين ، وتم تدشين اول جامعة في كابول سنة 1946 ثم تلتها سلسلة من المدارس الثانوية للبنين والبنات بارغم من سخط رجال الدين . عملت الحكومة على مجابهة هذه المعارضة بأن فتحت كليات للدراسات الدينية ، وكانت هذه التفاتة ذكية من الحكومة .

حضرها وزير الخارجية الافغاني السردار نعيم خان بسفارة باكستان بكابول تفضل برفع العلم الباكستاني على بناية السفارة ، كما سمحت الحكومة الباكستانية مقابل ذلك بعودة النشاط التجاري عبر الحدود ، وظهر ان هذا الانقطاع كان له آثار هامة على افغانستان ولا سيما فيما يتعلق باستيراد الاسمنت والكازولين والاقمشة. ومن هنا ظهر الى أي حد يمكن للباكستان ان تؤثر على افغانستان اقتصاديا اذا ما التجأت الى اقفال الحدود كوسيلة للضغط . ومع ذلك ظلت مشكلة باكتونيستان بدون حل ، فافغانستان لم تكن تفوتها فرصة الا واثارت هذه المشكلة . وفى 19 نوفمبر من نفس السنة استنكر رئيس وزراء الباكستان شودرى محمد علي نشاط الدعاية الافغانية بأرض الباتان . وأثناء اعلان استنكاره كان مجلس « لوى جيرجا » ــ وهو مجلس يضم رؤساء القبائل كما راينا ــ يجتمع أعضاؤه لدراسة المشكل القائم بين افغانستان وباكستان ، فلقد تقدم رئيس مجلس الوزراء داود خان فأعلن بأن : « ميزان القوى بين باكستان وافغانستان قد هدمته باكستان بتحالفها العسكري مع الولايات المتحدة » وكان أمام المجلس امران :

أولهما : هل تستمر افغانستان مطالبة بالمنطقة المتنازع عليها وهي منطقة الباتان ؟ .

ثانيهما : هل تتخذ افغانستان خطوات لاعادة ميزان القوى بينها وبين باكستان ؟ .

ففي 20 نوفمبر تقدم خمسمائة عضو فى المجلس المذكور بثلاث قرارات .

أولهما : التأييد التام لسياسة داود فى المطالبة بالمنطقة المتنازع عليها . ثانيهما : تخويل الحكومة السلطة فى اعادة ميزان القوى بين البلدين . ثالثها : رفض الاعتراف بباكتونيستان كجزء من اراضي باكستان . ومن هذه القرارات يظهر بكل وضوح أن افغانستان لن تعاود المطالبة بهذه المنطقة سيما وأن باكستان مرتبطة عسكريا بالايات المتحدة ، وكان امام افغانستان أن تتجه نحو روسيا طلبا للعون والتأييد .

وفى هذه الاثناء اخذت الاحداث تسير بسرعة ، فبعد ارفضاض المجلس المذكور بشهر كامل ، قام بزيارة افغانستان كل من بولجانين وخروتشوف حيث كانا يقومان بزيارة بعض دول آسيا وأعرب الزعيمان عن تأييدهما المطلق لوجهة النظر الافغانستانية فى مشكلة باكتونيستان ، ثم قدما مساعدة فنية واقتصادية الى حكومة كابول مع دفعة من الاسلحة بمختلف انواعها وانتهت هذه الزيارة بتقديم قرض قدره مائة مليون دولار تدفع على أقساط كما اعربت الدولتان عن تمسكهما بالتعايش السلمي ، ثم اعيد النظر فى المعاهدة المعقودة بين البلدين لسنة 1931 والمعروفة بمعاهدة الحياد وعدم الاعتداء وتقرر العمل بمقتضاها .

كان للاتفاقيات التي عقدها الاتحاد السوفياتي مع افغانستان أصداء عظيمة لدبلوماسيته بآسيا، اذ قوى التقارب بين الدولتين وفى 1950 تقدمت روسيا لبناء خزانات البترول وانشاء الطرق بافغانستان ، وفى صيف 1954 قبلت افغانستان قرضا آخر من الاتحاد السوفياتي يقدر بـ 8.000.000 دولار لتحقيق مشاريع عدة منها مستشفى فى جلال باد وخزانات البترول فى كابول وكذا فى حيرات ، ومزار الشريف وكبليف ، ثم مدت انابيب البترول بين مزار الشريف وتيرميذ ، وتقع هذه الاخيرة على حدود الاتحاد السوفياتي . وفى سنة 1955 بعث الاتحاد السوفياتي ثلاثمائة خبير وكذلك من تشيكوسلوفاكيا ، ثم اعقب هذا النشاط الاقتصادي ارسال البعثات من الطلاب الافغان الممنوحين الى الاتحاد السوفياتي وفى سنة 1954 استلمت افغانستان من تشيكوسلوفاكيا خمسة ملايين دولار كقرض لبناء معامل الزجاج والاسمنت والجلود .

وفى نفس الوقت استلمت افغانستان من الولايات المتحدة الامريكية قروضا استعمل معظمها فى مشاريع عدة كالادارة العامة والزراعة والغابات والري والسدود وقدرت بـ 40.000.000 دولار . لقد كان للزيارة التي قام بها الزعيمان السوفياتيان الى افغانستان والقروض التى استلمتها عقب هذه الزيارة آثار خطيرة على حلفاء امريكا فى هذا الجزء من العالم ، فقد وقف داود خان موقفا محايدا من النزاع بين المعسكرين بل اصر على تطبيق سياسة الحياد وعدم الاعتداء ضد روسيا . كما رفض الدخول فى حلف بغداد . ومن جهة ثانية حاولت افغانستان أن تبقى علاقاتها مع الغرب يسودها الود حتى تضمن المساعدات الاقتصادية التي تسلمتها منه .

عبد الله السرايري : نيودلهي ــ الهند

منذ ظهور الباكستان على المسرح الدولي ، وذلك بسبب الاقليم الواقع في الشمال الغربي من الحدود ، والذي توجد به ملايين من قبائل الباتان ، فيجب اذن تحديد مستقبلها وكيفية خضوعها للحكومة الافغانية ، وقد رفض المسؤولون الباكستانيون ذلك . ونتيجة لذلك فقد ورثت الباكستان المنطقة الجنوبية من خط ديورانت ، ومنذ ذلك الحين اخذت افغانستان تعمل على انشاء دولة مستقلة تفصل ما بين باكستان وافغانستان تسمى « باكتونيستان » ثم تطورت العلاقات بينهما الى احداث خطيرة على الحدود بسبب التوتر الذي سيطر على هذه العلاقات خصوصا في الفترة ما بين 1947 — 1949 .

وفي سنة 1950 توصل الطرفان الى حل موقت بعد تدخل الحكومة البريطانية لدى الحكومتين المعنيتين ، فبالرغم من تحرر باكستان ، ظل الضباط البريطانيون يشتغلون في المنطقة الشمالية الغربية ، وكان الوكيل الباكستاني السياسي في منطقة كيتا بريطانيا . ونظرا الى ان باكستان عضوة في الكومنويلث، فقد وجدت التأييد منه . هذا بعد ان ظلت لبريطانيا مصالحها واهدافها السياسية في منطقة هندوكوش . وبالرجوع الى النزاع بين الشرق والغرب يجب ان نوضح بأن روسيا لم ترغب في التدخل في شؤون افغانستان ، بل اعتبرتها طريقا للهجوم على شبه القارة الهندية . ففي سنة 1950 — 1951 ظهرت روسيا وكأنها تريد أن تحتضن الهند شرقا من خلال الصين وبورما ، وهذا ما يوضح لماذا كان هناك هدوء في الجبهة الافغانية .

علاقات افغانستان الخارجية سنة 1950

في بداية شتنبر 1953 تخلى محمود شاه خان عن منصبه كرئيس للوزارة بعد سبع سنوات ، وخلفه الجنرال محمد داود خان الذي كان يشغل منصب وزير الدفاع ، فلم يحدث تغييرا هاما في هيكل الحكومة . وظهر هذا الوزير وكأنه يريد ان يدفع بفكرة دولة باكتونيستان لتخرج الى حيز الوجود . ففي 28 ديسمبر 1953 طالب بريطانيا ان توافق على اعادة النظر في معاهدة كابول سنة 1921 اذ فيها تأكد خط ديورانت كحد فاصل بين افغانستان والهند . وعلى ذلك ، فنعدما اعترفت بريطانيا بسيادة باكستان الكاملة في 15 اغسطس 1947 اصبحت تمثل قوة ذات سيادة في جنوب افغانستان ، وبدات الحكومة الافغانية تواجه هذه الدولة في كل القضايا التي تتعلق بالحدود، كما ظلت مشكلة باكتونيستان التي تتزعمها افغانستان مصدرا عائقا لتحسين العلاقات بين الدولتين . ذلك ان وجهة نظر الحكومة الافغانية تنحصر في ان قبائل الباتان لهم من الحق ما يسمح لهم بقيام دولة تشملهم بحيث تحتل المنطقة الواقعة ما بين جنوب حدود افغانستان ونهر الهندوس . واذا اخذنا هذه المنطقة بكاملها ، فهي تضم جزءا كبيرا من باكستان ، ويمكن أن تمتد الى العاصمة « كراتشي » وكذا بلوخستان ، والاقليم المحادي لحدود ايران ، والمحيط الهندي ، مثل هذا الطلب يحتاج الى ما يسنده من حجج تاريخية وقانونية . لقد قال الافغانيون : ان افغانستان لا نطمع في هذه المنطقة وانما تنحصر رغبتها في قيام دولة مستقلة ، ومن شأن هذا أن يرضى عنه الباتان . ورفضت الباكستان هذه الفكرة ، والتي تقوم على افتئات حقوقها بالحدود . ومنذ مارس 1955 اصبحت الحكومة الباكستانية تهتم بمشكلة باكتونيستان خصوصا عند ما ظهرت الفكرة بمظهر قوي ، فقد اعلنت الحكومة الباكستانية انها قررت الغاء التقسيمات السياسية التقليدية ، وانها تحول كل غربي الباكستان الى اقليم واحد . كان رد فعل محمد داود في خطاب انتقد فيه موقف الحكومة الباكستانية على هذا القرار المعادي لافغانستان ، ثم حذر الحكومة الباكستانية من قيام أحداث خطيرة قد تنجم عنه . وفي اليوم التالي قامت مظاهرات يقودها 15.000 متظاهر فهاجمت السفارة الباكستانية بكابول وتم نهبها مع تخريب امتعتها كما انزلوا العلم الباكستاني . ثم جرت هجومات مماثلة ضد القنصليات الباكستانية في جلال‌بادو وكاندهار، فلم تتدخل الشرطة الافغانية لقمعها ، وهكذا وجدت هذه الحوادث صداها الاستنكاري في باكستان حيث تطورت الى هجوم ضد القنصليات الافغانية في بيشاور . وفي فاتح ابريل طلبت الحكومة الباكستانية من افغانستان أن تقدم اعتذارا رسميا ، وتعويضا مشرفا . ثم استدعت ممثليها الدبلوماسيين والقنصليين ليلتحقوا بالبلاد من افغانستان ، واغلقت بعد ذلك الحدود ، وتوقف كل تعامل تجاري بين البلدين .

بدات العلاقات ترجع بين الدولتين خصوصا بعد ان عرضت كل من مصر والسعودية وساطتهما للحيلولة دون استمرار النزاع ، فقبلتا ذلك ، واخيرا بذلت كل من العراق وتركيا مساعيهما الحميدة بعد أن وقعتا على ميثاق حلف بغداد ، وقبلت باكستان هذه الوساطة شريطة ابعاد كل ما يسمى بباكتونيستان ، ثم بدات العلاقات تتحسن بينهما تدريجيا . واثناء الحفلة التي

كرة الارض حرة فليغادر كرة الارض من يريد اهانه
ساسة السلم فى الورى قد سعيتم لسلام ؟ فهل ملكتم عنانه
انه العدل بين كل فوى وضعيف قد بثكم احزانه
انه نصرة الضعيف اذا ما جاء يشكو اليكم اشجانه
ليس اسطولكم على كل بحر وسلاح شكلتم الوانه
يمنع الحرب ان نتن ولكن يمنع الحرب عدله سبحانه
يمنع الحرب ان تنال حقوق يمنع الحرب ان تداس الخيانة
يمنع الحرب ان يرى مستفلا كل شعب يسعى ليصلح شانه
واذا الحق لم يفز بانتصار اشهروا الحرب اشعلوا نيرانه
هو دين عليكم ان تقولوا قولة تسمع الورى طنانه
لا ضعيف مستعبد لا قوي مستبد لا انرة لا استكانة
حرروا هذه الشعوب وهاكم لانتشار السلام الف ضمانة
نحن قوم نصارع الظلم حتى يسقط الظلم لابسا اكفانه
يبذلون النفوس فى طاعة اللـ ـه احتسابا ويبتغون جنانه
لا نخاف العدو حربا وسلما قد عرفنا فى الحالتين افتنانه
زمن الخوف والتردد ولى كسر العزم عزمنا عيدانه
سجن هذا ونفي ذاك سبيل مخطيء من يريد منه لبانه
سأسن الفدا لشعب ابي ليس يرضى بعد افتقادي اهانه
غايتي فى الحياة شعب كريم مستقل وليس فيه خيانه
انها صرخة العظيم سيلقيـ ـها على الدهر مالئا آذانه
لا تذوب الشعوب ظلما وتبقى للملوك الشعوب فيها مكانه
حسبي الله ان نفيت واهلي لا ابالي ولو نفيت لغانه
أي ملك فى الارض طولا وعرضا اظهر الله فى الورى رجحانه
سل عن الخامس العظيم قرونا سوف يتلو ابناؤها شكرانه

*

وقف اليوم ايها الشعر واذكر وارث السر بيننا والامانه
((حسن الشعب)) من وفى بعهود وغدا يمنح الوفا اوطانه
قد ابان الدستور منه اماما صالحا مصلحا يقيم الديانه
كم اياد له على الشعب قادت خلفه شعبه فاعطى عنانه
منح الشعب حبه وهواه ورضاه وعطفه وحنانه

القيت هذه القصيدة ليلة المولد النبوي الشريف بجامع المولى سليمان أمام مولانا صاحب الجلالة امير المومنين الحسن الثاني أيده الله ونصره

قد وهبت البلاد حكما نقيا

للشاعر: عبد الرحمن الدكالي

كنت يا ليلة الهدى عنوانه ... وبدا فيك نوره سبحانه
وراى الكون كله نور طه ... سيد الخلق من يصون كيانه
راح عهد وجاء عهد وولى ... ملك كسرى وقيصر والخيانة
انه الله قد محى دولة الشـ ... ـك واقصى بعدله طغيانه
ها هو المصطفى الى الله يدعو ... بوضوح الى الهدى وابانه
وجرى ما جرى من الشرك لكن ... ايد الله عبده واعانه
يا ابا القاسم الذي رفع اللـ ... ـه قدره وجاهه ومكانه
قد اتى فى الكتاب مدحك يتلى ... ونولى رب العباد بيانه
انت اعلى فى المدح من كل قول ... يا رسول الهدى وطود الامانة
اننا امة ((الاحمد)) ننمي ... ديننا فى الحياة خير ضمانة
ولدينا والحمد لله فرع ... علوي من دوحة فينانه
هو عرش فى الشرق والغرب عال ... عظم الله فى البرية شانه
ليس ينسى وان تقادم عهد ... بطل الدهر من فدى اوطانه
ليس ينسى ((محمد)) حين نادى ... وتصدى موضحا برهانه
قال : يا شعب قد طلبت حقوقا ... ان للحق وقته وزمانه
انكروه وكيف ينكر حق ... جاء فى الوقت مدركا ابانه
ان عهد استعباد شعب لشعب ... صار يبكي مؤبنا غربانه

وطن كله وفاء وحب   خاب من عق فضله اوخانه
أهلك الله من يبيت سوءا   لبلاد ومن يريد الخيانه
سائل الشعب ان اردت بيانا   وتامل جوابه وبيانه
حقر الشعب امرهم لا يبالي   بفلان من رهطهم او فلانه
قد تعروا فلم تفدهم ثياب   لبسوها من ذلة واستهانه
انما الشعب امة واحده   ايد الله بالهدى سلطانه
فلنا اليوم ان نقول حيينا   وعلى المجد ان ننال قنانه

*

ايها الشعب انت احفظ للعهـ   ـد وقد كنت دائما صوانه
طاعة الله ان نكون جميعا   فى وئام لنسترد المكانه
ولدى الهول والشدائد ارسى   من جبال فى قوة وركانه
كل حر وحرة فى بناء   زانها الحب للبلاد وزانه
لن ينال المراد شعب كسول   لم يجهز ليومه شبانه
انما المجد مجدنا برجال   عرفوه فاصبحوا فتيانه
يا شباب البلاد انتم بنوها   فاعيدوا لشعبكم ريعانه
ابذلوا للبناء كل جهود   ولتكونوا بحزمكم فرسانه
انتم انتم وليس سواكم   من يفدى بروحه اوطانه
ايه مولاي انت عز بلاد   بك والله ادركت ابانه
فتمتع بحب شعبك واسلم   انت للشعب ما حييت ضمانه

الرباط : عبد الرحمان الدكالي
المرشد العام للقوات المسلحة الملكية

فهو صب بشعبه مستهام ... اودع الله قلبه وجدانه
يعشق العلم والنهوض ويرجو ... ان يروي بلاده الظمانه
ويرى الشعب في اعتزاز ومجد ... ويوالي بقلبه جيرانه
ويصون السلام والامن دوما ... ويقوى بجيشه اركانه
هو خير الملوك علما ودينا ... اخذ الملك بالكتاب فصانه
قد حمى الدين من مكايد قوم ... واللسان المبين شر الرطانه
لو قدرنا صغنا له الشمس تاجا ... وجعلنا من نورها صولجانه
وكفاه الاخلاص تاجا رفيعا ... انه كان دائما ميدانه
موقف يبهر الملوك ويسمو ... ان يحط الملوك فيه رهانه
ويقين وهمة ونبات ... وسماح ورقة ورزانه
هكذا فلينل من الملك مجدا ... من يؤيد بملكه اوطانه
هكذا من يريد خلودا ... ويقوي بشعبه سلطانه

*

انت من قلت قبل نعيك ((لا لا)) ... لعدو البلاد او من اعانه
سيد المنتشئين دمت لشعب ... كنت في الرشد والهدى لقمانه
بايع الشعب فيك شهما طموحا ... يخدم الشعب منشدا رضوانه
كل يوم نرى بناء جديدا ... للمعالي لا للهوى والمجانة
وضحت للورى مواقف جلى ... هل يريد العدا عليها استبانه
لا بخامرك في انتصارك شك ... حسبك الله نلت منه امانه
كلما ازددت عزة وانتصارا ... ذهب الذل باكيا اوثانه
كل من كان ضد شعبك هاذا ... اظهر الله للورى بهتانه
قوض الجور ان حكمت بعدل ... ومحا الجهل ان قطعت بنانه
فوق هذا التراب شعب ابي ... كنت في كل حالة عنوانه
لم تزل قلبه الذي بك يحيى ... ويديه وعينه ولسانه
صنتنا ان نهون والشعب يسمو ... بمليك بوليه كل صيانه
لا تقضي عيد ولا عاد الا ... كنت فيه محصنا شطئانه
قوة الله فوق كل قوى ... ويد الله اهلكت خوانه

*

يا ابا الشعب عش لشعبك وحـ ... ـده وشيد رغم العدا بنيانه
قد وهبت البلاد حكما نقيا ... عمريا في شدة وليانه

وقد بذلوا لله مالا ومهجة ... ولم يسلموا المختار في الوقعة الحمرا
فدوك بما لا يفتدى المرء نفسه ... به في سبيل الحق واستسهلوا الوعرا
اولئك اهل الحق من خير امة ... اولئك جند الله اعظم بهم قدرا
اولئك من والوك في وقت شدة ... اولئك من آووك في طيبة الزهرا
وهم صحبك الاخيار والعصبة التي ... اتاحت لدين الله ان يحرز النصرا
فكسرت الاصنام في كل بقعة ... وحطمت الاغلال واجتاحت الكفرا
اذا ما مشوا تحت اللواء تهللت ... وجوههمو البيضاء والتمعت بشرا
سراعا الى الرحمن دون تريث ... قلوبهمو تهوى الشهادة للاخرى
عليهم سلام الله ما دام ذكرهم ... يلقننا صبرا وينفحنا عطرا
فيا لهمو للدين والحق والهدى ... وقد صير التبديل معروفها نكرا
وغير جيش الملحدين منارها ... وبدل يسر الله من شرعه عسرا
وسرهمو ان ينكر الدين أهله ... وان يطرحوا القرآن والسنة الغرا
فيا سيد الارسال هذه حالنا ... تضرم في الاحشاء من وقعها جمرا
فسل خالق الاكوان تفريج كربنا ... وكن شافعا يا خير من يجبر الكسرا
فانت حبيب الله صفوة خلقه ... وانت على الرحمن أكرمهم طرا
تلقيت من رب الجلال بلاغه ... فجئت به تتلوه في خلقه ذكرا
كتاب من الرحمن فصل حكمه ... عهودا من الرحمن لا تقبل البترا
تضمن للانسان خير هداية ... فمن حاد عن هدي الكتاب يجد عسرا
بآياته جاء الامين محمد ... فداوى به الارواح واستنهض الصخرا
فوحد أهواء الجزيرة وانبرى ... يسددها بالوحي حتى استوت قطرا
بنوا دولة القرآن والعرب حرة ... موطدة فوق السماكين والشعرى
اشاعت على الغبراء هدى محمد ... فلا فدفدا ابقت ولا اغفلت بحرا
بها ادرك التمدين شأوكما له ... وانبت سيل العلم في الانفس الزهرا
مآثر من غرس النبي محمد ... ومعجزة عصماء احيى بها الفقرا
فشيد صرحا للعروبة خالدا ... على أسس القرآن يصطحب الدهرا
ولولا رسول الله جاء بحكمة ... من الله للانسان ما احكم الامرا
ولا كان ذاك المجد للعرب بغتة ... ولا اسرعوا في مهيع العزة السيرا
فتلك لعمر الله منة احمد ... ونعمة رب العرش تستوجب الشكرا
واعجوبة القرآن في هدى امة ... توزعها التفريق فانخذلت عصرا
فيا امة الاسلام عودي رشيدة ... الى شرعة القرآن تسترجعي الفخرا

عبرة الذكرى

للشاعر المدني الحمراوي

ألقيت هذه القصيدة بين يدي صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله ليلة عيد المولد النبوي بمسجد مولاي سليمان :

تبارك من أضفى مواهبه الغرا ... على الارض لما ارسل الرحمة الكبرى
فاورق غصن الحق بعد ذبوله ... بمبعث من احيى العدالة والخيرا
بمبعثه الاسمى طوى الله ليلة ... واطلع من اسرار حكمته الفجرا
فكان على الدنيا سلاما ورحمة ... وامنا ونورا جاء في موكب البشرى
وتم به للناس هدى فاسرعوا ... الى قبس التوحيد واستقبحوا الكفرا
فقام بامر الله دين محمد ... يخط لهذا الكون تاريخه الحرا
رسالته الغراء خير تحية ... الى عصبة الاحرار شدت لهم ازرا

*

نبي الهدى مالي بمدحك طاقة ... ولكنني أرجو قبولك والسترا
اذا خلصت من سر قلبي محبة ... فليس على جسمي ان يعبرا البحرا
وما مدحك الممون الا وسيلة ... يصيب بها ذو الحب عاقبة الاخرى
لقد رامت الدنيا مديحك فانثنت ... وقد قطع التقصير في قولها الظهرا
اذا حبر الرحمن مدحك جامعا ... فما لجهود الخلق أن تبلغ القعرا
وعذر بني الانسان حب وانهم ... حسوا من رحيق الحب ما فضح الخمرا
وانك رائد الانام ونورهم ... ونجم الهدى أضاء في افق الفبرا
هتفت بصوت الحق والجور راسخ ... وجئت بشرع الله لا تبتغي الاجرا
فصابرت واستسهلت كل كريهة ... واعلنت ان الحق لا يرهب القهرا
وان بني الانسان في الحق اخوة ... فليس يفوق البيض سودا ولا حمرا
وكل امرىء ياتي الحياة محررا ... وان ضلت الاقوام فاستعبدوا الحرا
وناديت أن الفقر ليس جريمة ... وأن على المثرين ان يصلحوا الفقرا
وليس بغير العقل والعلم عبرة ... وان زور الاقوام من طمع نكرا
مددت الى الاقوام كف مسالم ... ولكن حزب الشرك قد آثروا الشرا
وآمن قوم ان بعثك نعمة ... فقالوا : أطعنا الله وامتثلوا الامرا
وذادوا عن الاسلام كل مراوغ ... فكانوا لجند الحق قدوته الكبرى

سلوا عنه تاريخ البلاد يجبكمو ... بصدق فتاريخ البلاد به ادرى
يجبكم بان العرش للشعب عصمة ... تصون عقرا وتحمي له ظهرا
يجبكم بان العرش فكرة أمة ... بها أثلت مجدا بها شيدت قطرا
بها فتحت آفاق عز وسؤدد ... تسلسل عبر الدهر لا يعرف البترا
بها كان هذا الشعب شعبا موحدا ... رفيع العلى يحى منيع الحمى حرا
يقوده أملاك بعزم وحكمة ... وقدقا سموه الحلو فى العيش والمرا
وهل عرف التاريخ مثل محمد ... وشبله يوم الهول اذ فضلا الفقرا
فلم يتركا للغاصبين وسيلة ... ولا اسلما شعبا ولا حاولا غدرا
ولكنه شعار أملاكنا اذا ... اصيب الحمى هبوا وشدوا له أزرا
فيا لهما من مالكين أراهما ... قد افتديا شعبا من المحنة الكبرى
فكان فداء عز فى الدهر مثله ... وهز شعوب الارض فانتفضت طرا
فديتهما من مالكين تخيرا ... طريق الهدى والحق لم يجنيا وزرا
وقد ربطا بالشعب أمنن عروة ... نقدسها الاجيال ما دامت الغبرا
امولاي عفوا ان فضلك باهظ ... على أمة لا تستطيع له شكرا
ولكنها نحنو عليك ونتحني ... على عرشك المنصور والهة حيرى
سراك فنهتز القلوب محبة ... ونسمع ما تملى فنمتثل الامرا
وندعو لك الرحمن جهرا وخفية ... وتبكى اذا سافرت بل تفقد الصبرا
ونسمع ما تلقاه فى كل دولة ... فتهتف بالاعجاب بسرى لنا بشرى !
ولا غرو ان لاقيت عزا ومظهرا ... بكل مكان لحت فى افقه بدرا
فانت المليك الفذ والنفحة التي ... سرت من ضمير الغيب تنعشنا بترا
ووارث اسرار الجدود ومجدهم ... وملهم هذا الشعب ونبته الكبرى
وباهر من تلقاه علما وحكمة ... وقاهر من أبدى التحايل والمكرا
مآثرك الغراء فاحت على الورى ... فهاموا بها حبا ومادوا بها سكرا
وأعمالك الجلى فرائد لم يطق ... سواك لها شفعا فما فتئت وترا
وسعيك فى الدستور فتح مخلد ... يسجل للاجيال امثولة عذرا
اذا ذكر الدستور كنت قرينه ... فاكرم بها واليه احدوثة زهرا
فللحسن الثاني مدى الدهر رفعة ... يسير بها التاريخ منقبة غرا
فيالك من شهم ذكي موفق ... تعرفت للتاريخ فى لمحة صغرى
شغلت حياة الناس فى كل محفل ... بمبتكرات بيض تستوقف الفكرا
فسر بها الاحرار شرقا ومغربا ... وساءت حسودا لم يجد مثلها ذخرا

وحيدي عن الاهواء فهي ضلالة … وبلبلة توهى العزائم والفكرا
ووحي اله العالمين مؤيد … بعصمته من سار فى ظله فورا
وما لمريد الهدى من غير نوره … نجاح وان غطت جحافله البحرا
فجازى اله العالمين حبيبه … فقد نال أهل الارض من هديه ذخرا
وبلغ دين الله غير مقصر … فمد به ظلا وحط به وزرا
فيا مصطفى الرحمن من خير خلفه … اليك أسوق المدح من مقولي شعرا
تقبل ثنائي وهو نزر مقصر … فكل مديح فيك لا يبلغ القدرا
كفى ان قلبي بالمحبة عامر … وان بحور الشعر لا تطفيء الجمرا
فانعش زهور الشوق منك بنظره … تروح قلبا لم يجد عنكمو صبرا
وتعصمني من كل زيغ ومحنة … وتملا صدري من حقيقتكم خبرا
وتكلاني من كل داء وذلة … وهول عصيب الروع يستوعب الحشرا
وتنهلني كأسا من الحوض حلوة … دهاقا فلا اشكو اواما ولا حرا
وتشفع لي فى موقف الفصل ان دعا … حساب فلا القى نقاشا ولا عسرا
ويا رب بالمختار ثبت عقيدتي … واكرم لقائي ان حللت غدا قبرا
ولا تخزني يا رب فى أي موقف … وجاوز عن المحجوح واقبل له عذرا
ووفق الى الاصلاح أمة أحمد … وصن حومة الاسلام واكتب له النصرا

*

امام الهدى والحق انت خليفة … لجدك لا نعصي لك النهي والامرا
فنحن على الاسلام نتبع نهجه … وقد فرض الاسلام طاعتكم قسرا
وشعبك فى طول البلاد وعرضها … مصر على الاخلاص يمحضك الشكرا
يرى فيك آمالا جساما ويحتمي … بعرشك من ريب الزمان اذا استشرى
وما هو الا الحصن حصن سيادة … ورمز اخاء ظل بجمعنا دهرا
ولولاه كان الخلف فينا ، ولم يكن … كيان ولا كانت حضارتنا الزهرا
ولا كان تاريخ يعطر ارضنا … ويلبسها مجدا ويكسبها فخرا
وما كان هذا العرش الا تخيرا … من الشعب عن طوع وما سادنا قهرا
وما كان هذا العرش الا عقيدة … ودينا وايمانا بأن له سرا
وما كان هذا العرش الا خلافة … حنيفية لا ملك فرعون أو كسرى
وما كان هذا العرش الا قيادة … موفقة قادت مواكبنا الغرا
وما كان هذا العرش يوما بخاذل … عروبتنا الشماء بل زادها نصرا
وما كان هذا العرش عفوا ونهزة … ولكنه مذ كان فكرتنا الحرى
وعرف وتقليد عريق وبيعة … موثقة بالعهد لا تقبل النكرا

ويستلهموا التاريخ هديا وخطة   وان ينبذوا الارجاف ان عزموا سيرا
وان يرتقوا فتقا تضاعف خرقه   وان يقفوا صفا ويلتحموا سطرا

*

ايا طاهر الاعراق يا خير مالك   أعاد بما يبني عهودا لنا غرا
واحيي رسوم الدين والملك بعدما   تمنى لها الباغون أن تسكن القبرا
هنيئا أمير المومنين بوثبة   موفقة بالله قد أثمرت فورا
هنيئا بعيد انمت سر سروره   فلولاك ما كانت مواسمنا بشرا
ولولاك ما ابدى اليقين جبينه   ولا ظهرت للحق الوية خضرا
ولا محيت آي الظلام بآية   اطلت علينا بعد ان حجبت عصرا
كفاك من الاخلاق أنك صابر   فأبشر بأن الله يمنحك النصرا
كفاك من الاخلاق انك منصف   فلولاك ظل الحر يلتهم الجمرا
كفاك من الاوصاف انك عادل   فبشرى بطول العمر فى عزة بشرى !
تقبل لك الاجلال مني قصيدة   بفضل رسول الله قد صغنها درا
وآله أهل الفضل والطهر انني   ولوع بهم حبا وصب بهم مغزى
لهم مهجتي ما عشت اني بسرهم   خبير وقد صدقت فى شأنه الذكرا
فقد قدس القرآن آل محمد   وقد فرض القرآن حبهمو اجرا
وابداءهم يؤذي النبيء وربه   وابذائه يشقي ويستوجب الدحرا
وحقك فى التعظيم والحب بالغ   فانت أمير المومنين كما يدرى
وانت وبيت الملك نعمة خالق   هنيئا لنا بها ، رضينا بها ذخرا

الرباط : المدني الحمراوي

ولكنه التاريخ ليس بمشفق   على احد يحصي جميله والشرا
سيعلم من ابدى عداء واحنة   وزور ان الحق يفضحه جهرا
وان لهذا العرش سرا وحكمة   بها ضمن الرحمن ان يصحب الدهرا
سيبقى مدى الاباد حرا وان ابت   عقول تظن الترب فى رايها تبرا
امامته حق وعهده رحمة   ورتبته فى الدين تقتعد الصدرا
واملاكه فينا هداة ائمة   طووا صفحة التعسير وانتهجوا اليسرا
كفى انهم من نسل اشرف مرسل   وان لهم قدرا وان لهم طهرا
فمن رامهم بالكيد حاق به الردى   وشيكا وكان الخزي فى وجهه يقرا
امولاي عش واسلم لشعبك ماضيا   الى غاية علياء انت بها أحرى
وقد شعبك التواق ان حماسه   يكاد من التصميم ان يفلق الصخرا
يساير ما تختط شبرا وخطوة   ويقطع فى عزم مراحله عبرا
ويقسم ان تبقى تقاليد مجده   وعرشه ، لا يبغي ولا يقبل الاصرا
ويقسم ان يبقى مدى الدهر مسلما   يساير دين الله يجتنب الكفرا
ويقسم ان تبقى امامة دينه   حنيفية بيضاء لا ردة نكرا
غدا سيرى من ضل أن نظامه   خراب وان الحق فى الخطة اليسرى
فيحسدنا حتى يعض بنانه   اذا بقيت اوهام خطته حبرا
فما هو الا الحق والدين من يشا   يجد فيهما نجحا اذا انعم الفكرا
ولكنها الاطماع تعمى مضللا   فتورده هلكا وتلحقه خسرا
فماذا يريد الناس منا وقد رأوا   من البر والتكريم ما جاوز الحصرا
وما بال هذا القطر ان كان محسنا   يكن اجره وزرا ومعروفه نكرا
وما ذنبه والله غير فضائل   على شعبه وقف تحلى بها طهرا
فان يكن الاحسان جرما فاننا   على حقنا والله لا نرهب الزجرا
وليس يضير المرء ان كان صالحا   حسود ولا تثنيه السنة تضرى
لقد طال ليل العرب فى الهم والاسى   ولو تركوا والامر كانوا به أدرى
دهتهم بلايا البغي من كل وجهة   فهدمت البنيان واستأصلت جذرا
و (مكروب) صهيون يشمر ساريا   يدب دبيب النار فى الغابة الشجرا
خطوب واهوال على العرب لم تزل   مكايدها فى جمعهم تترى
بأي خطوب العرب أقرع مسمعا   وليس لها عد نظاما ولا نثرا
ومن أيها أجلو واكشف عبرة   اسوء بها قطرا واهدى بها قطرا
ولكنها والله للعرب واعظ   تعلمهم بالجد أن يلزموا حذرا

الهي انني بك مستجير — فقد اوهى الحمام لي اليراعا
نعى الناعون شيخا من أساه — رباط الفتح ينصدع انصداعا
اصاب الموت اعظم ساكنيه — واوسعهم علوما واطلاعا
وأجملهم صفاء وابتساما — سما فى الناس لينا واتداعا
وأرحمهم فؤادا فى سلوك — وأبرعهم حديثا واجتماعا
وأصدقهم اباء واعتصاما — وعزا فى الحوادث وامتناعا
وأولى الناس ايفاء بوعد — يرى فى الحق صدقا واقتناعا
نعى الناعون احمد فاضطربنا — ذهولا واكتئابا وانسلاعا

* * *

قضى شيخ المعارف والقوافي — فمن يحيي المجالس والرباعا ؟
ونجم العلم والتاريخ فينا — توارى عن معالمنا وضاعا
وضاع الشعب فى قلب كريم — غزا الاخوان منطقه ابتداعا
حدبث صادق ينساب صفوا — ويجري كالمعين طفا وساعا
له فى كل واقعة كلام — يزيد الفكر عمقا واتساعا

* * *

فقيد الحق كنت لنا سراجا — بضيء الكون نورا وانتفاعا
ذهبت نجول فى الاقطار طرا — وتجعل امرنا ذكرا مذاعا
ببشر بانبعاث الروح فينا — وتقبس من مزاياها لفاعا
وننشر فى بقاع الارض ذكرا — يمجدنا سموا وارتفاعا
ولما قام فينا من ينادي — الى التحرير كنت لهم ذراعا
تصدرت الوفود وصرت تبدي — أمام الخصم عزما بل زماعا
نبنيت المطالب يوم هول — وثرت على العدا تحمي الرباعا
وقاومت الدخيل وما رماه — فما نال المراد وما استطاعا
وكيف يصول فى الاوطان باغ — اذا لمس الشجاعة والشجاعا ؟
وكيف يجول فى الاقطار طاغ — !اذا وجد الشيوخ بها سباعا ؟
وفى عنف المواقف كنت طودا — نرى فيه احتماء وادراعا

* * *

كفى بالموت للخلد اتّباعا

للشاعر: عبد اللطيف خالص

كفى بالموت للخلد اتباعا — وللأحزان والغير اختراعا
كفى بالموت داهية الدواهي — تذكر من تنكر أو أطاعا
اذا ازفت نوارى كل شيء — وخر الكل ذلا واختضاعا
قضاء صامت يجري علينا — وحكم لا نطيق له دفاعا
قضاء الله يشملنا جميعا — ويأخذنا غلابا وانصياعا
مآل الكائنات الى زوال — ولو سكنوا بروجا أو قلاعا
وهل يؤذيك في الاحداث أمر — اذا عم البرية والبقاعا ؟
فما لغز الممات لنا بسر — يشاع اذ اردنا أن يشاعا
تعالى الله مقتدرا حكيما — يدبر امرنا صمدا مطاعا

* * *

كفانا لوعة وأسى وجرحا — واتراحا تلاحقنا تباعا
فبالامس القريب قضى اديب — عظيم الشأن دينا واشتراعا

في عشية يوم الجمعة 10 مايو سنة 1963 ابى عدد من أصدقاء شيخ ادباء الرباط الشاعر الاديب احمد الزبيدي الا ان يقيموا له حفلا تأبينيا بمناسبة الذكرى الاربعينية لوفاته ، وهكذا فبعد تلاوة آيات من الذكر الحكيم وترديد بعض الامداح النبوية تعاقب على منصة الخطابة العلماء والشعراء والاساتذة . وقد اجمعوا كلهم على تعداد مناقب الشيخ الزبيدي فقيد العلم والادب وابرزوا جوانب هامة من حياته الحافلة بالنشاط الادبي والاجتماعي ، وقد ألقى أخونا الاديب عبد اللطيف أحمد خالص بالنيابة عن مثقفي الرباط هذه القصيدة .....

حول كتاب أعمال مهرجان ابن خلدون

تعليق:
الأستاذ عبد القادر زمامة

بين يدي الآن هذا السفر من الابحاث والدراسات التي كانت محور اعمال المهرجان الدولي الذي نظمه المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة في الاسبوع الاول من شهر يناير 1962 . حول ابن خلدون مبتكر علم الاجتماع وباعث الفلسفة الاجتماعية في الحضارة والعمران .

وهذه الدراسات المتنوعة حول ابن خلدون كتبها باحثون من الشرق والغرب . وقد تناول الموضوع الواحد كاتب واحد او عدة كتاب . كل بطريقته الخاصة ومنظاره الخاص الذي ينظر به الى القضايا المعروضة على بساط الدرس .

فمن النوع الاول :

1) الدكتور عبد العزيز الاهواني . في بحثه الطريف . عن ابن خلدون وتاريخ فني التوشيح والزجل

2) الدكتور اشيولير . في بحثه عن ابن خلدون المؤرخ .

3) السيدة فتحية سليمان . في بحثها عن الاتجاهات التربوية في مقدمة ابن خلدون .

ومن النوع الثاني :

1) الدكاترة : ابو العلاء عفيفي . وزكي نجيب محمود . وعبد الرحمن بدوي . كل هؤلاء تناولوا ابن خلدون الفيلسوف .

2) اساتذة ودكاترة فيهم : علي وافي وابن عاشور . تناولوا بالبحث ابن خلدون مؤسس الاجتماع .

3) موضوعات الاقتصاد والسياسة والفكر تناولها آخرون بالدراسة والبحث .

سوف لا احدثك عن جميع القضايا التي اثارها هؤلاء الباحثون .. كما انني لن اسمح لنفسي بعرض او بنقد كل ما لفت نظري من آراء ونظريات فيها الصواب والخطأ والطريف والمبتذل ... ولكنني سأحدثك حديثا فيه عرض ونقد وتقريظ لموضوعات اعتبرها من اختصاصي ولي فيها راي اومن به . قد يعتبره الناس خطأ أو صوابا ...

فمن المعروف عند من يدرس مقدمة ابن خلدون ان ثروتها اللغوية تكاد تكون منقطعة النظير . لا من ناحية الكثرة والتعدد والتنوع فقط .. ولكن من ناحية الدلالة والاستعمال في المعاني والاغراض التي يريدها ابن خلدون ويقصد التعبير عنها .. ومن هنا جاءت المشكلة التي اوقعت كثيرا من الباحثين لافرق بين الذين يدرسون المقدمة في نصها العربي . وبين من يدرسها في النصوص المترجمة ..

فكلمة (عرب) في المقدمة لها مدلول خاص اراده لها ابن خلدون واستعملها فيه ولكن الباحثين خفي عليهم حينا من الدهر هذا المدلول فطفقوا يتحدثون عن نظرية ابن خلدون في (العرب) وينسبون اليه بالحق والباطل مالم يخطر له على بال .. !! وقد شقي بهذه الكلمة كما شقيت به .

وكذلك كلمة حضارة . وعمران . واجتماع بشري . وخاصة وعامة وغيرها (وهو شيء كثير) لها مدلول خاص يجب ان نعرفه في لغة ابن خلدون قبل ان ننقد او نقرظ آراءه . .

وبالاضافة الى ذلك نجد لابن خلدون توليدا لغويا غريبا فهو يبتكر المجازات ابتكارا . ويحيي الفاظا كادت تلفظ انفاسها .. ويرتفع باللفظ العامي والاستعمال العامي في الالفاظ المغربية (الاندلسية الى درجة الفصاحة والبيان . مما لم يعرف لغيره من الكتاب المغاربة والاندلسيين والشرقيين على السواء .

ولهذه الملاحظة وزنها وقيمتها عند نقدنا لبعض الآراء التي جاءت في بحث الدكتور عبد العزيز عزت وغيره .

فقيد الخير لم تترك مجالا   الى الاحسان منهارا مضاعا
فكم اسهمت في مشروع بر   اردت به لامتك انتفاعا
« مدارس » كم رأت فيكم معينا   يقاوم من يريد لها ضياعا
تولاها الفقيد بكل حول   فما لان « الزبيدي » أو تداعى
رعاها محسنا يولي جهودا   وابدى في أمانتها اضطلاعا
بها اضحى الرباط منار علم   ينير معالم الدنيا شعاعا
وصار الجهل مخذولا بأرض   بعيدا لا يروم بها اضطجاعا
تدارك خيريات كان فيها   رحيما مسعفا قلبا رواعا
ذوو البأساء كان لهم وقاء   تداركهم عراة أو جياعا
رحمت ذوي النوائب والرزايا   وذدت الظلم عنهم والقراعا
وللشبان كنت رسول خير   يزكي نصحه حكم تراعى
وما عهدناك تترك أو تعادي   فتى ود الكتابة واليراعا
ولكن كنت للتشجيع تدعو   وبالتشجيع ندرك مستطاعا
فقيد الرشد كنت لنا منالا   « ومنهاجا لمن شاء اتباعا »
طواك الموت في وقت عصيب   نرى فيه اختلافا لا اجتماعا
يئن الشعب فيه من انشقاق   ويشكو منه آلاما وجاعا
فمن للشعب بعدك في حياة   يبدد حيرة ، يجلي اقتراعا ؟

* * *

فيا آل « الزبيدي » في حماكم   تراث قيم قد طال باعا
قضى أمر الالاه فلا رثاء   يخفف ما أصاب وما ألاعا
عزاء خالص من عمق قلبي   أقدمه ولاء واندفاعا

الرباط : عبد اللطيف احمد خالص

وفى البحث الذي كتبه الدكتور ابو العلاء عفيفي عن موقف ابن خلدون من الفلسفة والتصوف . نجد التوفيق يحالفه فى عرض آراء ابن خلدون فى الفلسفة عموما والاسلامية خصوصا .. اما فى نقده وعرضه لآرائه فى التصوف فقد ابتعد عن الصواب .

وذلك يرجع الى ان لابن خلدون آراء فى التصوف نجدها مبعثرة فى المقدمة هنا وهناك .. كما ان له آراء مجموعة فى كتابه (شفاء السائل لتهذيب المسائل) الذي طبع بتركيا بعناية وتصحيح وتعليق الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي .

ويظهر ان الاستاذ عفيفي لم يرجع الى (الشفاء) لربط آراء ابن خلدون فى التصوف وتسلسلها واظهار ما طرأ عليها من تغيير بسبب الحالة النفسية التي كانت مسيطرة على المؤلف أثناء كتابة (الشفاء) ثم (المقدمة) فيما بعد ...

وبصفة اجمالية فان ابن خلدون يبدو فى المقدمة وقد عركته التجارب . وصرعته النكبات والاحداث يميل الى نوع من الملاينة للمتصوفة والتماس العذر لبعضهم فى كثير من القضايا التي اثاروها بخلافه فى (الشفاء) فان آراءه كانت قاسية عنيفة لا هوادة فيها ولا ملاينة .. كما ان له فتوى فى الموضوع الحقها الاستاذ ابن تاويت بالكتاب المذكور ...

وقد كان ابن خلدون متصوفا عند ما عرض آراء الصوفية وهاجم بعضها وانتصر للتصوف الشرعي المبني على الاستمداد من الكتاب والسنة .

كما كان فيلسوفا حينما حاول ابطال الفلسفة من اساسها ولا شك انه كان يعني فلسفة ما وراء الطبيعة التي لا تؤدي – فى نظره – الا الى الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا .

وقد رأيناه فى مستهل المقدمة يريد ان يعوز ما كتبه فيها وفى غيرها الى الالهام الذي الهمه الله فقال مفتخرا :

« فى غير تعليم ارسطو ولا افادة موبذان » .

ولننتقل بعد هذا الى البحث الطريف والكشف الجديد الذي اتحفنا به الدكتور عبد العزيز الاهواني فى موضوع :

« ابن خلدون وتاريخ فني التوشيح والزجل » .

والدكتور الاهواني له ابحاث موفقة فى الادب الاندلسي ولا سيما فني التوشيح والزجل وله مؤلف قيم فى الموضوع افادنا كثيرا عن نشأتهما وتطورهما ولغتهما واصحابهما .

وكان الفصل الذي كتبه ابن خلدون فى الموضوع منارا للباحثين لما جمعه من معلومات دقيقة فريدة من نوعها ... ولكن بحث الدكتور الاهواني اداه الى اكتشاف عظيم الاهمية وهو ان الفصل المذكور لم يكن الا جزءا من كتاب لابن سعيد مؤلف المغرب . والفصون اليانعة . والقدح المعلى . وغيرها من الكتب . واسم الكتاب المكتشف هو :

(المقتطف من ازاهر الطرف)

وقد عثر الدكتور الاهواني على مخطوطين للكتاب ووصفهما فى بحثه ثم نشر نصا من كتاب ابن سعيد وقابله بما عند ابن خلدون فى المقدمة بما لا يدع مجالا للشك ان ابن خلدون نقل ما كتبه ابن سعيد بالحرف مع تصرف بسيط يوهم القارىء انه اعتمد عليه فى بعض الاجزاء منه فقط مع ان الواقع خلافه .... وقد قال الدكتور الاهواني فى ختام المقارنة : (فقد أصبح من حقه (ابن سعيد) على من ينقلون هذه الاخبار عن التوشيح والزجل بالاندلس من العلماء المحدثين ان يقولوا : (قال ابن سعيد فى المقتطف) بدلا من قولهم . (قال ابن خلدون فى المقدمة) ....

وبعد فقد كان هذا السفر الضخم تحفة علمية مشرفة لانتاج ابن خلدون الفكري .. اما شخصية ابن خلدون وتاريخ حياته فلم يعن بها الباحثون الا قليلا وقد عهد الى الدكتور عبد الرحمان بدوي بتأليف كتاب خاص عن مؤلفات ابن خلدون واستقصاء الحديث عنها .. ويظهر ان الكتاب الف فعلا لان المقدمة تتحدث عنه وتصفه باعجاب فعسى ان يكون فى طريقه الينا ....

فاس : عبد القادر زمامة

فالدكتور عزت يعرض آراء ابن خلدون فى قيام الحضارة البشرية ويناقشها على ضوء المذاهب التي جاءت فى الموضوع . ولكنه يخلط بين فهم ابن خلدون لمدلول حضارة وبين فهم غيره لها ويقول بالحرف :

(يحدثنا ابن خلدون عن الحضارة ويفهمها بانها التقدم والتفنن فى الرقي والترف وهو فهم غير علمي اليوم) .

ثم يتابع نقده للنتائج التي بناها ابن خلدون على فهمه (الخاص) للحضارة واسباب قيامها ثم اضمحلالها فى المجتمع .

فالدكتور الباحث يريد من ابن خلدون ان يفهم مدلول الكلمات كما يفهمها أهل القرن العشرين ..!! وهذا شيء مخالف للمنطق والواقع .

فهل يفهم رجال العصور الوسطى ومن قبلهم من مدلول كلمة . قلم . وكرسي . ومدرسة . ونظام . وسياسة . وعلم . ما نفهمه نحن فى القرن العشرين..؟

انهم كانوا ولا شك يفهمون منها مدلولا يناسب مشاهداتهم واصطلاحاتهم وواقعهم الفكري والحضاري

واذا كنا نفهم الحضارة اليوم انها (باختصار) ما نعيش به من وسائل مادية فى المأكل والمسكن والحرب والسلم والبناء والتنقل.. ومعنوية فى النظام والحكم.. فانه لا يلزم ان يكون ابن خلدون يفهمها نفس الفهم وينظر اليها نفس النظرة ويحكم عليها نفس الحكم .

والذي يجب هو ان نفهم من مدلول الكلمة ما يفهمه ابن خلدون ونسايره فى اصطلاحه ثم ننظر للنتائج التي توصل اليها اهي صحيحة فى حد ذاتها او منحرفة عن الصواب ؟

ولا يعنينا فى شيء أن يخطيء أو يصيب . ولكن يعنينا أن نكون على صواب فى حكمنا عليه .

ولعل هذه الملاحظة هي التي حدت بالمهرجان الى اقتراح البحث فى لغة ابن خلدون من جديد على اساس علمي مقبول .

كما ان الباحث العربي الاستاذ ساطع الحصري كان موفقا كل التوفيق حين (صحح) المراد من كلمة (عرب) فى مقدمة ابن خلدون .. وقد كنا قرانا له هذا التصحيح فى الدراسة التي كان قد كتبها عن المقدمة منذ سنوات . واعاده فى بحثه الذي قدمه للمهرجان .. وهذا التصحيح يجعل المراد من كلمة (عرب) فى اصطلاح ابن خلدون (البدو) سواء كانوا من الجنس العربي أو من غيره .. فاذا وجدنا فى المقدمة هذا العنوان : ; فصل فى ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب) يجب ان نحمل العرب فى كلام ابن خلدون على البدو .. لانهم كانوا فى تاريخ البشرية الطويل يدكون تحت اقدامهم معالم المدنيات والحضارات فى بابل وآشور وصيدا وصور وقرطاجنة ورومة وبغداد وغيرها ..!!

ولننتقل الى ملاحظة اخرى تلفت النظر فى البحث الذي كتبه الدكتور عمر فروخ عن موقف ابن خلدون من الدين ومن القضايا الدينية .

لقد اعتاد ابن خلدون ان يختم فصوله بهذه الفواصل :

- والله اعلم
- وفوق كل ذي علم عليم
- سبحان الحكيم العليم

وقد اراد الدكتور ان يتخذ من هذه الفواصل دليلا على :

1) مراعاة الفاصلة للبحث الذي جاء فى الفصل قبلها

2) مسايرة ابن خلدون لاهل عصره فى ختمهم لابحاثهم بمثل تلك الفواصل .

وقد انتقد الدكتور راي الحصري فى ان استعمال مثل هذه الفواصل يدل على عمق تدين ابن خلدون وتعلقه بخالقه جلت قدرته فى جميع الاحوال .

والمتتبع لهذه الفواصل فى المقدمة لا يقر الدكتور فروخ على رايه فالفواصل من جهة ليست كلها مناسبة بصيفتها لماتقدمها من فصول وهي من جهة اخرى مظهر من مظاهر تدين ابن خلدون وعمق ايمانه بالله واستمداد عونه وتوفيقه . وليست عبارات محشوة لامدلول لها .. او هي لمجرد محاكاة ما اصطلح عليه اهل العصر .. من علماء وباحثين .

على ان الدكتور فيما عدا هذه الملاحظة اتانا ببحث طريف عن فهم ابن خلدون للدين وموقفه من نشأة الاديان وتاريخها واطلاعه الواسع على الثقافة الدينية عند اليهود والنصارى والمسلمين .

وسدد كارلي النظر اليه فى بلادة ، اكيد ان هذا الابيض لم يستمع الى الخطباء منذ حين ولم ير السيدة البيضاء وهي تمنح نكساي سيجارة ، لو رآها لصبت فى وجهه كلماتها تلك وقال فى نفسه :

الآن من الاحسن ان أتجه الى القطار وأواصل التفكير فى كل هذه الاشياء .

ونظرا الى المحطة نظرة جادة ، فابصر بها كوكبة من الناس بيضا وسودا وسمرا مثله مجتمعين ، لكن كلا منهم كان يشعر بخوف غير طبيعي من الآخر ويحذره ، كل منهم كان سجين عالمه الصغير الضيق الموسوس ، الم يقل الخطيب ان علينا ان نحبط كل هذا النوع من التفكير ، كل حسب وسائله ؟ لكن ما هي هذه الوسائل ؟ وكيف يمكن ان نحبط تلك الافكار ؟ وعمر ذهنه هذا التساؤل الملحاح ، وعلى غرة أصر على التحدي وهو يلمح ضالته : المقعد ، مقعد المحطة وقد صبغت فوقه بالحروف البيضاء جملة (خاص بالاوربيين) ولمدة من الزمن بدا له ان هذا التحدي يجسد مجتمع افريقيا الجنوبية المتمايز باجمعه .

هنا اذن تحدى كارلي ، تحديه الذي يؤكد حقوق الانسان ، انه مجرد مقعد خشبي عادي يشبه مئات المقاعد فى افريقيا الجنوبية ، لكن هذا المقعد يجسم الان جميع شرور نظام لا يعرفه ويحس انه ضحيته ، ان هذا المقعد يحول الآن بينه وبين الانسانية ، فاذا افتقده حقق انسانيته وان لم يفعل فقد وضع نفسه كانسان عن المجتمع الانساني ، وراوده شعور باطني بانه سيقلب كل هذا الوضع القاسي فى افريقيا الجنوبية فقط بجلوسه على هذا المقعد ، ان هذه تجربته الخاصة فليجهر بتحديه .

وكان مظهره هادئا تماما حينما جلس ، لكن قلبه كان يضرب بعنف ، ففي اعماقه كان يتصارع صوتان متناقضان احدهما يقول : (ليس لك الحق فى ان تقتعد هذا المقعد) والآخر يجيب : (ولم لا يكون لك الحق فى الجلوس على هذا المقعد ؟) ، الصوت الاول كان يتحدث عن الماضي وسلوكه العبودي فى الحقل ، سلوكه وسلوك ابيه وجده الذين ولدوا سودا وعاشوا عيشة السود وماتوا كالعجماوات ، والصوت الآخر كان يتحدث عن الآفاق الجديدة : (كارلي انت رجل ، لقد استطعت القيام بشيء لم يستطعه من قبلك جدك ولا ابوك ، وستموت كرجل) .

وتناول كارلي سيجارة وشرع يدخن ، وغاظه قليلا الا يكون احد قد لاحظ جلوسه على المقعد ، لقد كان رجلا كبقية الناس يجلس على مقعد عمومي فى محطة غاصة ويدخن سيجارة ، فهل هذا يعد نصرا ؟ وهل يعد انتصارا ان كان انسانا كالآخرين ؟ ورأى امرأة بيضاء أنيقة تسير على الرصيف فتساءل فى نفسه: ترى هل ستجلس على المقعد ؟ ثم تابع تساؤله : (عليك ان تقف وتترك مقعدك للسيدة البيضاء) ورمشت عيناه بسرعة وشد اكثر على سيجارته ، ومرت المرأة حذاءه دون ان تعيره التفاتة وتابعت مسيرها على طول الرصيف ، فهل خشيت ان تتحداه؟ ان تتحدى حقه فى ان يكون انسانا ؟ واحس انه متعب ، وانبعثت باعماقه فكرة ثالثة جعلت كل شيء فيه محط تساؤل : (انك تقتعد هذا المقعد لانك متعب) فهل تسمر فى موضعه لما به من عياء أم لانه أراد ان يختبر ان كان فى قدرته الجلوس حيث يحلو له ؟ .

بدا الناس ينزلون زرافات من قطار دخل اللحظة المحطة وهم يتدافعون ويتزاحمون دون ان يعبأ احدهم بوجوده ، انه القطار الذي ينتظر ، وان بوسعه ان يركبه ويدخل منزله ، لكن هذا يعني انه سيستسلم ويرضى بالهزيمة ويعدل عن تحديه فيكون بالتبعية قد قبل ان يكون غير انسان ، ومكث جالسا يجذب نفسا من سيجارته ويفكر ناسيا عن التجمع وعن المقعد ، كان يفكر فى بيتجسفلي وفى اوكلاس الذي أصر على ذهاب كارلي الى كاب تو ، اوكلاس الذي كان يداعب غليونه وينظر اليك باستهزاء ، كان حكيما يعرف اشياء كثيرة ويقول انه يجب الذهاب الى كاب تو لمعرفة معنى الحياة ، اوكلاس كان يبصق ويغمز بخبث عند ما يتكلم عن النساء اللائي عرفهن فى شارع هاتوفر ، وكان يقول : ان الله خلق البيض والسود فعلى كل منهم ان يلزم مكانه .

— انهض من هنا .

لم يسمع كارلي الصوت الخشن .. وواصل افكاره : هناك اوكلاس ينتظر الآن فى المراعي ليحمل اليه كأسه الصغير من الخمر المناسب الثمن .

— اقول لك قف من هنا ايها القذر .

واستعاد كارلي على الفور وعيه وكاد ان يثب على قدميه لكنه تذكر من هو ولماذا كان يجلس فى ذلك المكان ، وشعر بغتة انه متعب حقا ثم رفع عينيه ببطء الى الوجه القرمزي الذي يحدق فيه .

— قف ، ان هناك مقاعد لك .

لم ينبس كارلي وظل محتفظا بنظرة باردة صارمة .

قصة العدد

القدر

بقلم: ريشارد ريف
ترجمة: الأستاذ ابراهيم السولامي

توقف (*) الخطيب برهة وشرب جرعة ماء، وكان كارلي قد سمعه باذن مرهفة لانه كان يقول كلمات نبيلة وصادقة، ثم تنسم الهواء لان شمس نوفمبر اللافحة كانت تجثم على الجموع المصفية، ولم تكن الاشجار لتلقي غير بعض الظلال فوق الساحة الكبيرة في جو هانسبرج، بينما كان المنديل الذي جعله كارلي بين عنقه وباقة القميص ينضح بالماء، واجال كارلي عينيه في هذا الخضم من الوجوه التي تحف به كانت وجوها من كل لون: ابنوسا لامعا وسط شحوب وجهين او ثلاثة بيضاء منبثة بين الجموع.

وحدج كارلي الرجلين اللذين يكتبان اثناء القاء الخطب من حين لحين، كان الرجلان يرفعان رأسيهما ليتمحصا الخطيب: (نحن ننكر حق كل جماعة في ان تحكم راضية متعمدة جماعة مستعبدة، وان علينا ان ندافع عن حقوق كل شعب يرى نفسه محكوما عليه بالتفرقة لاسباب عنصرية لونية، وان نرفض وراثة ابنائنا للحقوق التي اريد لها ان تكون لنا، اننا ضحايا التفرقة العنصرية في ميدان التعليم وفي المجال الاجتماعي والمجال الاقتصادي).

وسأل كارلي نفسه: هذا رجل يعرف ما يقوله، انه يقول بانني اساوي قيمة اي انسان آخر وربما كنت اغلى من ابيض، هذا امر يدعو الى التأمل حقا، واني لأتساءل ان كان يقصد ان لي الحق في الذهاب الى اي سينما والاكل في اي مطعم اشاء وارسال ابنائي الى مدرسة البيض؟ ان هذه افكار خطيرة تستحق التأمل ترى ما يكون رأي أوكلاس في كل هذا؟ فاوكلاس يقول بان الله خلق السود من احد جانبيه وخلق البيض من الجانب الآخر، وان البيض سيظلون دائما سادة، والسود سيبقون عبيدا مسخرين، لكن هذا الخطيب الآن يتكلم بشكل آخر وكلماته تدوي صادقة عادلة.

ورمش كارلي مفكرا، وكان على المنصة خطباء كثيرون سودا وبيضا يتصرفون كما لو انه لم يكن بينهم اي تمييز.

كل هذه الاشياء كانت جديدة على فكر كارلي، وكان عليه ان يكون على حذر في تقبلها. ولم لا يتقبلها؟ فهو ليس رجلا ملونا بل انسانا كما قال آخر الخطباء، وانه ما فتيء يذكر انه رأى على الجرائد صورا لاناس تحدوا قوانين التفرقة العنصرية وهم يبتسمون رغم انهم كانوا مسوقين الى السجن، لله ما اعجب الحياة.

ووالى الخطيب كلامه وكارلي يصغي باهتمام وتصميم، كان يتكلم بهدوء يمكن ان يستشف منه انه خطاب هيء على مهل، وفكر كارلي: (هذا رجل عظيم)

وكان آخر الخطباء امرأة بيضاء ترتدي فستانا ازرق، وكانت تدعو المتجمهرين الى ان يشجبوا كل قانون يرمي الى التفرقة، وان يسعى لتحقيق هذه الدعوة كل واحد حسب امكانياته فلما ذا كانت تتكلم هكذا؟ ان في مقدورها ان تذهب الى احسن دور السينما وتسبح في ارقى المسابح.

وانتهى الجمع فشق كارلي لنفسه طريقا وسط الجموع بينما كانت اقوال الخطباء تدور في رأسه، ان هذا الذي سمعه لم يكن ليحدث في Bietjiesvlei فهل هذا صحيح؟ ودوى فرامل سيارة بجانبه فاعاده الى دنيا الناس من جديد، واشرأب وجه ابيض حانق:

— انظر الى حيث تضع قدميك ايها الزنجي القذر

* الكاتب ريشارد ريف قاص من جنوب افريقيا درس في جامعة كاب تون، وهو الآن استاذ للغة الانجليزية واليونانية في مدرسة للملونين ببلاده.

اصداء الثقافة والفكر

للأستاذ : محمد برادة

مثقفوا افريقيا الجنوبية أمام مسؤولياتهم

خلال المؤتمر الثاني للكتاب والفنانين السود الذي انعقد بروما سنة 1959 وقف فرانزان فانون يقول في مطلع بحثه : (*)

« يتحتم على كل جيل ان يكتشف ، رسالته ليضطلع بها او يخونها ... »

ولكن « خيانة المثقفين » كما كان « جوليان بندا » يسميها اخذت تميل الى الاندثار بخاصة فى الاقطار المستعمرة او الرازحة تحت تعسفات الميز العنصري.. نتيجة لانتشار الوعي بين الجماهير ، ونتيجة للانتصارات التي حققتها الانسانية من خلال تطور « التاريخ » . واذا كانت حركات الاستعمار تحرص دائما على تغليف محاولات الابادة والمسخ ، وتعمل على خلق جماعات من المثقفين المزيفين الذين لا ينفكون يلهجون بحضارة الرجل الاوربي ونفوقه ، فان تفتح الوعي ، والتحام الكفاح السياسي بالكفاح الثقافي . خلق تيارا فكريا ثوريا يعكس أوضاع المجتمع ، ويترجم بامانة مطالبه ومطامحه . ومن ثم بدات الاصوات ترتفع لتعبر عن الانغام الجديدة التي تعزف سواء فى آسيا او أفريقيا او امريكا اللاتينية .. ذلك ان طبقة الزنوج السود او الملونة لم ترض بان تظل مبعدة عن صنع مستقبل نير للانسانية .

ولسنا الآن بصدد تتبع الاسهامات الادبية والفنية لشعوب العالم الثالث ... ولكنا نقصد الى ترجيع بعض أصداء مواقف رجالات الفكر والادب في افريقيا الجنوبية تضامنا منهم مع شعوبهم المكافحة من اجل القضاء على الميز العنصري ، واثبات حق الكائنات البشرية فى الحرية والتساوي ...

وهكذا نجد ادباء لامعين امثال نادين كوردمي ، والان باتون صاحب (ابك يابلدي الحبيب) وبيتر ابرهامز ، وغيرهم يقاومون الاضطهاد والتعسف ، ويجهرون بالدفاع عن حقوق الانسان . وردود الفعل الواعية لاتقتصر على السود من ابناء افريقيا الجنوبية، بل اننا نجد كثيرا من العلماء والاساتذة البيض يتضامنون مع الافريقيين ويساندونهم فى مطالبهم المشروعة .. مما اضطرهم الى النزوح بعيدا عن مضايقات الحكومة الافريقية الرجعية . ونذكر من بين هؤلاء العالمة الانربولوجية « مونيكا ولسون » التي ساهمت بأبحاثها وخطبها ، والمربي ريتشارد فاندير روس .. وعدد اساتذة الجامعة يتضاعف يوما بعد يوم . وهذا الشكل الذي اتخذه تضامن المثقفين الاوربيين المقيمين بجنوب افريقيا يدل بوضوح على ان الشهادة التى نقراها مثلا فى رواية « ابك يابلدي الحبيب » ليست مضخمة او مختلقة ، وانما هي مستمدة من جو متقل بالكراهية والتعسف والميز العنصري المقيت ...

وقد استطاع انتاج أدباء جنوب افريقيا الملتزم ، ان يفرض مكانته بسرعة وان يثير اهتمام النقاد بما يشتمل عليه من تصوير صادق لمآسي السود المضطهدين فى أوطانهم .. ورغم انه يصدر عن الاطار الاقليمي ويقتصر على تسجيل المشاكل اليومية ، فان صدقه يضفي عليه بعدا انسانيا يرفعه الى المستوى الانساني .. وبذلك اصبح الادب فى جنوب افريقيا سلاحا قويا لفضح العنصرية وادانتها مما جعل الحكومة الرجعية فى افريقيا الجنوبية تصدر تشريعا جديدا يفرض الرقابة على كل نتاج ادبي . وازاء هذا الاجراء

(*) Les damnés de la terre p. 155. Ed. Maspero.

ـ الا تسمع بانني احادثك أيها الاسود القذر .

وفي هدوء وتعمد جذب كارلي نفسا من سيجارته وتبادلا نظرات التحدي كأنهما ملاكمان يعرفان انهما سيتلاكمان لكن كلا منهما يحتفظ بعدم المبادرة .

ـ هل يجب ان الوث يدي بلمس قذراة مثلك ؟

لم يجب كارلي ان الكلام معناه قطع التوتر السحري للحظة وتحطيم تعاليه الذي يحس انه يزداد.

وبعد صمت محرج قال الرجل :

. سأنادي شرطيا لئلا المس حقيرا مثلك ، اني ارى انك لا تقوى حتى على فتح فمك النجس الاسود حين يكلمك ابيض .

وفهم كارلي ضعف الرجل الابيض الذي لا يقدر على التصرف بمفرده ، لقد ربح كارلي الشوط الاول ، واخذ الناس يتجمهرون ، فصاح احد المدعين :

ـ افريقيا معنا

ان كارلي يجهل هذا ونحلق الناس حوله مشدوهين من رؤية الاسود يجلس على مقعد خاص بالبيض .

وتابع كارلي تدخينه .

ـ انظروا الى هذا الفرد ، ان هذه هي مغبة اطلاقنا العنان لهؤلاء الاوغاد .

ـ لا اعرف معنى لهذا التصرف ، ان لهم مقاعدهم

ـ لا تقم ، ان من حقك ان تجلس حيث انت .

ـ سينهض حتما حين يصل الشرطي .

ـ لكن لم لا يقدرون على الجلوس معنا ؟

ـ لقد كنت اقول هذا دائما ، كانت عندي خادمة زنجية بسماحتها ...

ولبث كارلي جالسا لا يسمع شيئا ، وبعد تردد اتخذ موقفا محددا : لا شيء يرغمه على الوقوف ، فليعملوا ما يطيب لهم .

ـ آه . هو ذا . قف ، الا تعرف القراءة ؟

وغطاه الشرطي بكامل هيأته حتى ان كارلي كان يستطيع رؤية الاشارات الموضوعة على ازرار بدلته الرسمية ، ورؤية تجاعيد عنقه .

ـ اسمك وعنوانك ؟ اسرع .

فواصل كارلي احتفاظه بالصمت العنيد ، واحس الشرطي انه مأخوذ بموقف الرجل : وطفقت الجموع تتكاثر ، وسمعت المراة البيضاء ذات الفستان الازرق نصيح :

ـ ليس لك الحق في ان تكلم الرجل بهذه اللهجة.

ـ تدخلي فيما يعنيك ، سأطلب رايك حين اكون في حاجة اليه ، ان بسبب امثالك اخذ الاوغاد يعتقدون انهم سواسية والبيض . قف .

ـ اني الح على معاملته باحترام ؟

فامتقع لون الشرطي الانجليزي وغمغم دون ان يجد الكلمات المناسبة :

ـ نعم ... نعم ...

وصرح احدهم :

ـ اضرب هذا النذل اذا رفض الوقوف .

وبقسوة وضع رجل ابيض جماع يده على كارلي:

ـ قف يا قذر .

فاستدار كارلي ليقاوم ويتشبث بالمقعد ، بمقعده ، لقد كانوا كثيرين فشرع يضرب بوحشية لكنه احس بضربة مؤلمة ملء وجهه ، وأخذ دمه يتدفق بينما ظلت عيناه شرستين فصمم على مواصلة المقاومة، وعلى الرغم من ان الشرطي اسرع بوضع الاغلال في يدي كارلي وبدا في تفرقة المحتشدين فان كارلي ظل يتروح مقاوما ، بيد انه فجاه تماسك والنتصب على مهل، لقد أحس ان من العبث ان يستمر في المقاومة ، ولما ذا يقاوم ؟ لقد اطلق تحديه وكسب ، والآن آن اوانه ليضحك اذ ما قيمة الباقي ؟

ـ تعالى ايها الحمير .

قالها الشرطي الانجليزي وهو يدفع كارلي بين الجموع .

فاجابه كارلي وهو يفتح فمه للمرة الاولى :

ـ نعم ... نعم ...

ونظر الى الشرطي بكل اباء الرجل الذي استطاع ان يجلس على مقعد (خاص بالاوربيين) .

القنيطرة : ابراهيم السولامي

العناصر العقلانية . فقد ضمن اعلان حقوق الانسان « حرية التفكير لكل فرد كما يشاء حتى في المادة الدينية وان يتمتع بالحصانة في اظهار تفكيره » (*) . ولكن البابا هاجم هذا الحق واخذ يعمل لنسفه . وكان القرن التاسع عشر عصر الصراع الكبير بين الكنيسة والعلمانيين الذين استمروا في الكفاح امدا طويلا قبل ان يتوصلوا الى اقرار قانون 9 كانون الاول سنة 1905 القاضي بفصل الكنائس عن الدولة ، ذلك القانون الذي يؤمن « حرية الضمير » ولا يمنح اية اعانة مالية لاي دين » .

من هذا العرض يتبين لنا ان الكنيسة الكاثوليكية اصطبغت منذ قرون طويلة بصبغة التزمت والشعوذة ، ومقاومة التيارات التجديدية . ويتمثل لنا هذا السلوك في المواقف الرجعية التي اتخذتها البعثات التبشيرية الكنسية المرافقة لحملات الاستعمار في آسيا وافريقيا (*) . وكذلك سكوت الفاتيكان عن فظائع بعض الحكام المنضوين تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية .

الا ان المتتبع للخطة الجديدة التي اخذ الفاتيكان بنهجها في السنوات الاخيرة ، ثم الحركات المسيحية اليسارية . نظهر مدى التحول الطارىء على مفهوم مهمات رجال الدين . فلم يعد مقبولا من حماة « ملكوت الرب » ان يقبعوا داخل صوامعهم ليطلوا على العالم من خلال تأملات باطنية . ولعل ذلك ما حدا بالبابا الجديد بول ، الى القول بان « المخاطرة تكون جزءا من العمل الكنسي » .

وفي كتاب ضخم الفه احد الباحثين الالمانيين عن « الرهبان العمال » (*) نعثر على التطورات التي رافقت تغير عقلية الرهبان وخروجهم من العزلة الى العمل المباشر وسط الناس . ويقول المؤلف في ذلك:

« كل عصر يتطلب نوعا من الرهبان يلائمه ، والقرن العشرون لا يسمح بتاسيس انظمة جديدة للتأمل او الاعتصام في الاديار . بل ان الامر يتطلب البحث عن شكل اكثر مرونة يهيء للذين نذروا حياتهم للاله ، ان يبقوا على اتصال مع اخوانهم العلمانيين داخل بيئاتهم (العمل ، الحي ، الاسرة) ..

وبعد ،

ان مناقشة هذا الموضوع لا يتسع لها هنا المجال .. ولكنني اعتقد ان المشكلات الاساسية المعترضة لتطور حرية الانسان لا تتمثل في الدين ، شرطه ان يكون مفهومه متحررا تقدميا .

الرباط — محمد برادة

* انظر تاريخ الفكر الحر — تأليف البير باييه ، ترجمة بهيج شعبان — منشورات عويدات
* R Delavignette Christianisme et Colonialisme
* Grégor Siefer - La mission des prêtres-ouvriers, les faits et les conséquences

التعسفي عبر جميع ادباء جنوب افريقيا عن احتجاجهم الصارم ، وبعثوا الى وزير الداخلية بيانا نقتطف منه ما يلي (*) :

« ان مسؤوليتنا ازاء مهنتنا وازاء المجتمع ، تحتم علينا ان نكتب بشرف دون التأثر باعتبارات سياسية او اعتبارات تراعي مصالح جهة واحدة . .

انا جد قلقين على مستقبل كل جهد خلاق بافريقيا الجنوبية نظرا لاستحالة اية مناقشة صريحة او تحقيق امين ، ولتعذر اي نمو فكري في جو تخنق فيه كل المطامح منذ البداية . . »

وقد وقع هذا البيان 117 كاتبا من بينهم الان باتون ، ونادين كوردمير ، ولورانس فان دربوست ، و 41 فنانا اخرين . . .

وفي الدانمارك تمكن مخرج سينمائي من انجاز فيلم بعنوان : « Dilemme » صوره في « جوهانسبورغ » تحت سياج من السرية : واقتبس موضوعه من رواية الكاتب الافريقي نادين كوردمير التي عنوانها : « عالم الغرباء » .

كل هذه المظاهر الفعالة لمساهمة الثقافة في مقاومة الميز العنصري تعطينا دليلا قويا على تحمل مثقفي افريقيا الجنوبية لمسؤولياتهم من اجل محو وصمة الحقد العنصري ، ومساندة الانسان الافريقي في معركة التحرر والمساواة ؛ وهي — لعمري — معركة الانسان اينما كان لتخليص القرن العشرين من « اخلاق العصابات » كما يقول البير كامو .

اليسار والالحاد .. في فرنسا

كثير من الموضوعات التي تطرح في امامنا للمناقشة لا نجد جدتها — عند التحليل — تامة ، بل تكون مستمدة من قضايا اساسية في تاريخ البشرية اثارها الانسان منذ بدا يعي ذاته ويدرك المناقضات ومعوقات الحرية . ولكن كل عصر يضفي على الموضوع خصائصه وملابساته ويربطه بتطوراته ومميزاته فيجعل منه موضوعا « بكرا » رغم الزيجات التي عرفها من قبل .

من ذلك ، المناقشة التي اثيرت في صحيفة « فرانس اوبسيرفاتور » خلال شهر يونيو ، عندما كتب السيد جلبير فيريلاك مقالا بعنوان « هل ما يزال من حقنا ان نكون ملحدين ؟ » (*) تحدث فيه عن انتشار حملات الدعاية المسيحية بفرنسا ، وتسخير الصحف والافلام لفرض روح الانقياد ، وضمان سيطرة الكنيسة واستنتج من مناقشته لجوانب المسالة ان الدين يؤخر تفتح الانسان ، ويصرفه عن الادراك الصحيح ، لمشاكله في العصور الحديثة . . ثم يلاحظ ان المواطن لم يعد بامكانه ان يعيش دون ان يرتبط اما بالشيوعية او بالمسيحية ، ويتساءل : الا يمكننا ان نكون يساريين من غير مسيحية ؟

وقد كان لهذا المقال الصريح ردود فعل كثيرة من لدن قراء الصحيفة وبعض المثقفين المسيحيين ، فكتب فيليب هرنانديز ردا بعنوان : « هل للمسيحي حق في ان يكون يساريا ؟ » (*) يبين فيه ان المسيحية كعقيدة لا يمكن ان نحملها الاخطاء التي ارتكبت في سياق بعيد عن تعاليم الكنيسة . وذكر بالطابع الديناميكي الذي اخذ يسلكه رجال الدين ازاء مشاكل مجتمعهم وانتهى الى ان الدين لا يمكن اعتباره عائقا يحول دون تضامن المواطنين المتدينين والملحدين ، ما داموا ملتفين حول اهداف مشتركة ، ومؤمنين بمبادىء العدالة والمساواة . . .

والواقع اننا عندما نستقرىء المراحل التي مرت بها المسيحية نجد فيها مبررات لتفسير الموقفين معا ، اي موقف الملحدين أو اللادينيين ، وموقف المتدينين المتحررين . . فقد احتدم الصراع منذ عهد الامبراطورية الرومانية بين الكنيسة الكاثوليكية ومهاجميها من النبلاء والبورجوازيين ، وكانت الكنيسة دائما تساند الحكومات ، وتدين المتنطعين عن سلطانها ، ولم تسمح قط بوجود عناصر تفكر خارج اطار الاديان . غير ان العناصر المتحررة استطاعت ان تفرض نفسها من خلال صراعات دامية ، فلم تعد تعاليم الكنيسة الكاثوليكية هي المرجع الوحيد ، لان البروتستانت تمكنوا من طرح قضية حق حرية التفكير والعبادة ، واستطاعوا بتاويلاتهم الجديدة المتفتحة لتعاليم المسيح ان يلفتوا الانظار الى خطر سيطرة الكنيسة الكاثوليكية . واذا كان الفكر الحر في فرنسا قد استطاع ان يحقق انتصارا هاما مع اعلان ثورة 1789 ، فان ذلك الانتصار لم يكن نهائيا ، لان المتعصبين للدين « الواحد » ، سرعان ما عادوا الى بسط سيطرتهم ومتابعة اضطهاد

---

* Preuves informations - Juin 1963.

* Gilbert Verilhac - A-t-on encore le droit d'être athée ?

* Philippe Hernandez - Un Chrétien a-t-il le droit d'être de gauche ?

بالتعليق عليه الدكتور احمد مختار العبادي ، والاستاذ محمد ابراهيم الكتاني ، ويقع في 300 صفحة من فهارس عديدة وخرائط وصور .

* اصدر المكتب الدائم للتعريب بالمغرب في نطاق حملة التعريب معجما يضم 365 لقطة طبعت منه عشرات الآلاف ووزعت في بادية المغرب وحاضرته .

* ينكب المكتب الدائم للتعريب على اعداد مشروع مجلة تكون مرآة لمختلف وجوه نشاط العالم العربي في الحقل اللغوي ، وسيوجه المكتب المذكور صورة مفصلة من هذا المشروع لجامعة الدول العربية ، والشعب الوطنية للتعريب ، وللمجامع العلمية واللغوية.

* يصدر الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله معجما للالفاظ الدارجة المغربية واصولها العربية ويبرز هذا المعجم نسبة تأثير الفصحى ، وخاصة منها لغة القرآن في اللسان المغربي الدارج مع نسبة آثار الفارسية واليونانية والتركية واللغات الاوربية في ذلك ، وهو بحث ارتكز فيه المؤلف على دراسة مقارنة نقدية استقراء مباشر للاصول في المعاجم وامهات الكتب .

* يجري المكتب الدائم للتعريب بالرباط اتصالاته بالحكومة الجزائرية من اجل اقامة معرض متنقل للكتاب في المدن الجزائرية .

* اصدرت السلطات الجزائرية طوابع خاصة تخليدا للذكرى الاولى لاستقلال القطر الجزائري .

* اجتمعت اللجنة الدائمة للانباء التابعة للجامعة العربيه في منتصف الشهر الماضي في عاصمة الجزائر ضمت ممثلين عن وزارات الانباء في كل دولة من الدول الاعضاء . وقد عمل هذا الاجتماع على تنسيق جهود الدول الاعضاء وتوجيه اشغال المكتب الدائم لمصلحة الصحافة والانباء في الامانة العامة للدول العربية . كما بحث هذا الاجتماع عدة قضايا لصالح العرب من جملتها قضية فلسطين ، والدعاية الصهيونية في افريقيا ، وانشاء صندوق خاص للدفاع عن قضايا العرب ، واقامة معرض خاص بالحضارة العربية ، واعداد دراسات للدفاع عن القضايا العربية في الخارج .

* اصدرت وزارة الاوقاف الجزائرية مجلة باسم « المعرفة » تعني بالثقافة الاسلامية وروحها الى جانب عنايتها بالادب والثقافة عموما . تهنيئتنا للزميلة راجين لها عمرا مديدا لخدمة رسالتها الاسلامية والثقافة ، وانتشارا واسعا .

* تجري الآن اتصالات بين جامعة الدول العربية، وحكومة الجزائر والامانة العامة للمكتب الدائم للتعريب بالمغرب من اجل الاتفاق على موعد انعقاد الدورة الثانية لمؤتمر التعريب التي كان من المقرر انعقادها بالجزائر .

* اكتشف الفنان محمد ابراهيم استاذ تاريخ الكتابة العربية في كلية الفنون الجميلة بالاسكندرية وشيخ الخطاطين مصحفا صغيرا كتبته فتاة اسمها « فضل» سنة 250 هجرية أي منذ 1132 سنة . ولقد اكتشف هذا المصحف في مكتبة مسجد عقبة بن نافع في القيروان بتونس التي سافر اليها محمد ابراهيم بدعوة من وزارة الثقافة هناك حيث فتحت امامه مكتبات مسجد الزيتونة ، ومتاحف سوسة والمنستير والقيروان

* فاز بجائزة بلدية تونس المعروفة بـ « جائزة علي البهلوان » لهذه السنة الاديبان محمد العروسي المطوي على قصته « حليمة » وفاتح والي على قصته « مولد البطل » .

* اقامت رابطة « القلم الجديد » بدار الثقافة بتونس مهرجانا أدبيا تخليدا لذكرى وفاة المفكر سالم بن حميدة تكلم فيه لفيف من الادباء التونسيين كلهم أشادوا بدور الراحل في مجال الادب والفكر .

* صدرت في تونس مؤخرا مجلة « الثقافة » لصاحبها الاستاذ ابو القاسم محمد كرو ، وهي مجلة شهرية تعنى بالادب والثقافة ، ومختلف انواع الفكر .

* صدر في تونس للاستاذين ابو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط كتاب « عصر القيروان » عن دار الثقافة ، كما صدر كذلك بتونس كتاب « من مذاهب التربية والتعليم » بقلم الدكتور احمد بيكر محمود .

* سلم السيد سكوبيل عضو الاكاديمية الروسية، جائزه لينين للسلام الى السيد موديبو كيتا رئيس جائزة لينين للسلام الى السيد موديبوكيتا رئيس دعا فيها الدول الكبرى الى العمل على تقارب وجهات نظرها ، واعارة الاهتمام الى الدول غير المنحازة التي تشكل ثلث سكان العالم ، ولها رغبة صادقة في السلام .

* احرز الكاتب جان ايكلي ماتوبا الكمروني الاصل على جائزة « افريقيا السوداء» للبلدان الناطقة بالفرنسية مكافأة له على كتابه « هذه افريقيا » .

أنباء ثقافية

* منحت كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية ببوردو درجة الدكتوراه الفخرية لجلالة الحسن الثاني بمناسبة زيارته لفرنسا. وقد اقيمت بهذه المناسبة حفلة كبرى حضرها اساتذة الكلية وعدد من الشخصيات الرسمية، القى فيها عميد الكلية المذكورة الاستاذ جوزيف لاجوجي خطابا رحب فيه بزيارة العاهل الكريم كما اشار الى سنوات الدراسة التي تلقاها جلالته في الكلية حيث حصل على شهادة الدراسات العليا في القانون المدني، كما نوه العميد بالنشاط الذي يمتاز به جلالته والخدمات الجليلة التي قدمها لبلاده مما في ذلك الدستور الذي تسنى للمغرب بواسطته الدخول في عهده الديمقراطي.

* في الزيارة الملكية الى الديار الفرنسية قام جلالة الملك الحسن الثاني بزيارة المعرض الذي اقيم في متحف «كارباتيبي» تحت شعار «الفا سنة من الفن المغربي» وكان لهذا المعرض نجاح كبير، كما توجه جلالته الى زيارة مقر اليونيسكو حيث دشن المعرض المقام هناك تحت شعار «ستة قرون للملاقات الدولية».

* نظمت وزارة السياحة والفنون الجميلة مهرجانا مسرحيا وفلكلوريا في أواخر شهر يوليو شاركت فيه عدة دول، منها: سوريا، والجزائر، وفرنسا، واسبانيا، والبانيا، ويوغوسلافيا.

* بمناسبة الزيارة الملكية لباريز افتتح المهرجان الكبير المنظم من طرف وزارة السياحة والصناعة التقليدية والفنون الجميلة في قصر شايو بباريس، شارك فيه 130 فنانا مغربيا من جميع انحاء المملكة المغربية.

* يزور المغرب الدكتور عبد الله عبد الدائم في مهمة لدراسة الاوضاع التعليمية الزراعية بالمغرب بتكليف من منظمة اليونيسكو الدولية، وستستغرق اقامته بالمغرب ستة اسابيع، ومعلوم ان الدكتور عبد الله عبد الدائم بالاضافة الى سمعته ومركزه في الاوساط التربوية العالمية يعتبر من قادة الفكر والتوجيه في العالم العربي، وقد سبق ان ساهم في تحرير مقالات قيمة لمجلتنا، نتمنى له مقاما طيبا ومزيدا من التوفيق...

* يصدر قريبا للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله كتاب يقع في مجلدين تحت عنوان «تاريخ المغرب المقارن» يعطي فيه المؤلف نظرة وافية عن المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في المغرب في مختلف العصور من خلال المراجع العربية والفرنسية والانجليزية والاسبانية. وقد استقصى المؤلف كلما امكنه الاتصال به من مخطوطات ومصنفات ومستندات بمختلف اللغات

* تفيد آخر الاحصاءات ان عدد سكان المغرب قد بلغ 12.500.000 نسمة

* قام المستشار الفني العام للمكتب الدائم للتعريب بالمغرب الاستاذ احمد الاخضر في دائرة نشاط المكتب بتأليف قاموس في فقه اللغة مثلما فعل السيد عبد العزيز بن عبد الله في تاليفه للمعجم الحضاري، وأصول العامية المغربية، وهذا القاموس خصصه للمترادفات والمعاني بالالفاظ مرتبا ترتيبا ابجديا سكب فيه اهم كتب فقه اللغة الاصلية، كما انه انتهى من تجريد القواميس العربية المشهورة مثل «لسان العرب» «والقاموس المحيط» و«تاج العروس» فانتقى منها مادة معجم كبير للمصطلحات الفنية في جميع فروعها. ومن المتوقع ان تظهر هذه التآليف في أواخر السنة الحالية.

* يوالي قسم النشر والتوزيع بالمكتب الدائم للتعريب بالمغرب مراسلاته مع الهيئات الثقافية ودور النشر العربية في العالم العربي في شأن التبادل الثقافي وتزويد خزانة المكتب بالمراجع والمصادر الضرورية. وقد تلقى أجوبة ايجابية من عدة دور للنشر والتوزيع في العالم العربي حيث تقاطر عليه كثير من المصنفات والمؤلفات في مختلف الوان العلم والمعرفة.

* صدر للشاعر المغربي عبد المجيد بن جلون ديوان بعنوان «براعم».

* سيصدر عن دار الكتاب بالقاهرة الجزء الثالث من كتاب «اعمال الاعمال فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام» لمؤلفه لسان الدين ابن الخطيب. وهذا الجزء خاص بتاريخ المغرب العربي وصقلية، قام

* تصدر الكاتبة جاذبية صدقي كتابها الثالث في ادب الرحلات بعنوان « فيجزيرة الانجليز » والكتابان الاولان اللذان صدرا لها هي « أمريكا وانا » و « في بلاد الدماء الحارة » .

* نعت القاهرة علما من اعلام الفن الموسيقي هو المرحوم محمد حسن الشجاعي .

* قرر المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة انشاء جائزة سنوية تشجيعا للفنانين في ميدان المسرح . والجائزه عبارة عن لقب « فنان الدولة » .

* أسست جماعة من اهل الفكر والادب في لبنان رابطة ادبية اطلقوا عليها « الرابطة اللبنانية للآداب والفنون » من بين اعضائها . ديانا تقي الدين ، وسامية ساندري مخيبر ، واملي نصر الله ، ومنيرا بودبس ، ورئيف ابو اللمع ، وادونيس ، وميشال اسمر ، ويوسف حبشي ، وجورج بار ، وسعيد عقل ، وقد اداعت هذه الرابطة ميثاقا ضمنته اهدافها القائمة على الكشف على النتاج اللبناني العميق الفني والمعبر ، والتعريف به وتشجيعه واشاعته والتعاون مع مؤسسة « الندوه اللبنانية » في كل ما من شانه النهوض بالثقافة اللبنانيه واصاءتها ومد جذورها في الحياة والروح . »

* كتاب « العربية الفصحى » للمستشرق هنري فليس ترجم الى العربية ويطبع في بيروت بالرموز الصوتية ، ويعتبر هذا الكتاب أول تجربة عملية في علم الدراسات اللغوية العربية .

* فتحت بلبنان جائزة سعيد عقل الشهرية عن شهر ابريل للدكتور فرح معلوف .

* « معلقة توفيق صائغ » كتاب شعر جديد صدر لتوفيق الصائغ في منشورات المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر ببيروت .

* « اللصوص » رواية وليام فولكنر قامت بترجمتها الى العربية خالدة سعيد ، وصدرت عن دار مجلة « شعر » بلبنان .

* « انا والله والعالم » مجموعة شعرية لغازي فؤاد براكس صدرت حديثا ببيروت .

* اقامت جمعية متخرجي المقاصد الاسلامية في بيروت ندوة عن « قضية فلسطين » .

* « أقوى من القبر » ديوان شعر جديد صدر لموسى سليمان ببيروت .

* أقامت الجمعية اللبنانيه للعلوم السياسية مؤتمرها الثامن لعلم السياسة وموضوعه « الراي العام والحياة السياسية في لبنان » وذلك في كلية الحقوق والعلوم السياسيه بالجامعة اللبنانية في بيروت .

* المعهد الثقافي الايطالي ببيروت عقد بالتعاون مع منظمة حرية الثقافة والندوة اللبنانية مؤتمر الاستشراق الايطالي والادب العربي .

* اصدرت دار العلم للملايين الترجمة العربية لرواية « الصخب والعنف » لوليام فولكنر وصاحب الترجمه هو الاستاذ ابراهيم جبرا ابراهيم .

* أعيد في لبنان طبع ديوان « الاعاصير » للشاعر رشيد سليم الخوري .

* صدرت لليلى بعلبكي مجموعة قصصية بعنوان « سفينة حنان الى القمر » .

* أقدم مدينة في العالم أمكن العثور على آثارها حتى الآن هي مدينة « اريحا » بفلسطين . ولقد وجد ان اسوارها الشهيرة اقيمت منذ 8000 سنة .

* صدر للروائي السوري فاضل السباعي كتاب بعنوان « ثريا » وهي ثاني رواية تصدر للمؤلف .

* اطلق اسم خليل مردم بك على شارع مهم بدمشق .

* تقرر عقد مؤتمر الادباء العرب الرابع بدمشق خلال شهر سبتمبر المقبل .

* صدرت للاديبة السوريه منور فوال مجموعة قصص بعنوان « دموع الخطيئة »

* سيقام مهرجان الشعر العربي السادس في بغداد في 23 يوليو .

* قررت ادارة المركز الثقافي العربي بحمص اقامة مهرجان للشاعر المرحوم عبد الباسط الصوفي بمناسبة مرور ثلاث سنوات على وفاته غريبا عن وطنه.

* اكتشفت في رأس شمرا بالقرب من اللاذقية في شمال سوريا لوحات بابلية تعود الى 1300 عام قبل المسيح ، وتشتمل على تمائم ضد الشيطان لا ماشتو واحاديث طيبة غريبة .

ولد الفائز يوم 26 ابريل 1936 فى سونغ ندونغ بمنطقة ايديبيا بالكمرون . تابع دراسته فى بلاده ثم في باريس ، وهو فى الوقت الحاضر يشتغل استاذا فى احدى الجامعات بالمانيا .

وكتاب « هذه افريقيا » عبارة عن قصة شاب قروي عاش فى ظلمات الاستعمار الالماني والفرنسي ، ثم شاهد فجر الاستقلال ببلاده .

✻ تجري الآن ترجمة يوميات الاديب الجزائري المرحوم مولود فرعون الذي صرعه الفرنسيون فى الجزائر قبيل وقف النار . وتسجل هذه اليوميات فترة هامة من حياة الشعب الجزائري وخاصة فترة الكفاح الدموي . ويقوم بالترجمة الاديب المصري عبد العاطي جلال .

✻ أغرب معرض شهدته الاسكندرية أخيرا هو معرض الخطوط العربية الذي أقامه فى احدى قاعات كلية الاداب محمد حلمي حسن خبير الخطوط بجامعة الاسكندرية ، ويضم 100 لوحة خطية من تصميمه كلها تحمل آيات قرءانية وقد نجح صاحب المعرض فى كتابة سور قرءانية كاملة فوق حبات الترمس ، وحبات الارز .

✻ طلب الهيئات المشرفة على التفرغ بوزارة الثقافة بالقاهرة رصد مبلغ مائة الف جنيه ، وذلك لتوسيع دائرة الفنانين والكتاب المتفرغين حتى يرتفع عددهم الى مائة متفرغ .

✻ صدر اخيرا كتاب بعنوان « دول اسلامية فى الشمال الافريقي » للكاتب المصري عبده بدوي .

✻ « عثمان بن عفان » آخر ما كتبه المرحوم محمد حسين هيكل ولم ينشر ، ثم جمعه اخيرا ، ويعده الآن للطبع بعض المؤرخين من أساتذة الجامعة فى القاهرة .

✻ « الجنة العذراء » رواية جديدة صدرت للروائي المصري عبد الحليم عبد الله .

✻ « مشكلات الشباب » عنوان الكتاب الذي صدر للدكتور عثمان نجاتي أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة ويعد هذا الكتاب اول بحث حضاري مقارن يعنى باتجاهات الشباب ومشكلاتهم فى مختلف البلدان العربية

✻ ستقوم الشاعرة العراقية نازك الملائكة بالقاء سلسلة من المحاضرات فى معهد الدراسات العربية العليا بجامعة الدول العربية بالقاهرة عن « مشاكل الشعر المعاصر » بين الالتزام بالقافية والتحرر من العمود الشعري » .

✻ يقوم المجمع اللغوي بالقاهرة بطبع أول دائرة معارف عربية عن الاعلام الجغرافية باشراف الدكتور محمود العياد أستاذ الجغرافيا فى جامعة القاهرة .

✻ انتهى الفنان الياباني « هاشيموتو » رسام اليابان الاول من اعداد كتابه « قصة 5 000 سنة » ضمنه 100 لوحة ، يسرد من خلالها تاريخ مصر وحضارتها فى الماضي والحاضر وكان الفنان الياباني قد قضى شهرا بين الآثار المصرية ، رسم خلالها لوحاته التي ضمنها هذا الكتاب .

✻ اعلن المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم بالقاهرة الاجتماعية عن مسابقة لنيل جائزة شوقي لعام 1963 .

✻ عين أخيرا الدكتور طه حسين رئيسا للمجمع اللغوي بالقاهرة .

✻ صدر فى القاهرة العدد الاول من مجلة « المكتبة العربية » وهي مجلة فصلية تبحث فى تطور الدراسات والابحاث فى علوم المكتبات .

✻ « شرح أشعار الهزليين » كتاب صدر فى القاهرة للسكري بتحقيق عبد الستار فراج .

✻ خمسة معاجم ستصدرها وزارة الثقافة بالقاهرة . وهي « الرائد الكبير » و « الرائد الصغير » و « الرائد المصور » و « رائد المعاني » و « رائد المترادفات » .

✻ اعادت مؤسسة التاليف والنشر بالقاهرة طبع كتاب « عيون الاخبار » لابن قتيبة فى اربع مجلدات .

✻ صدرت بالقاهرة رواية « السهول البيض » لعبد الحميد جودت السحار .

✻ ستقوم لجنة الموسيقى فى مجلس الفنون بالقاهرة بتوحيد مصطلحات الموسيقى فى العالم العربي.

✻ قدر عدد الكتب الصادره أخيرا فى الجمهورية العربية المتحدة بمعدل كتاب فى كل 6 ساعات .

✻ صدر أخيرا فى المانيا الغربية كتاب جديد فى سلسلة كتب « مقابلات فكرية » وعنوانه « مصر خلال قصص أشهر ادبائنا المعاصرين » اشتمل على 35 قصة مصرية حديثة لاكبر الادباء المصريين المترجمة الى اللغة الالمانية ، وبعض هذه القصص ترجم مباشرة من العربية الى الالمانية ، وبعضها ترجم من الفرنسية والانجليزية ، وثلاثة منها كتب أصلها باللغة الانجليزية.

* تعرض فى لندن هذه الاسابيع مسرحية الفهـا الكاتب الانجليزي اوبرت موالر بعنوان « المتآمرون فى الليل » وفى هذه المسرحية شخصية « ادولف هتلر » وقد ظهر فجأة بعد ان اختفى عن المسرح السياسـي منذ 18 سنة .

* تحتفل بريطانيا والعالم الادبي معها فى الثالث والعشرين من شهر ابريل من السنة المقبلـة بذكـرى مرور اربعمائة سنة على ولادة الشاعر البريطاني وليام شكسبير الذي كانت ولادته فى 23 ابريل سنة 1564 فى ستراتفورد . وبهذه المناسبة قررت مصلحة البرق والبريد بانجلترا اصدار طوابع تدكارية خاصة بهـذا المهرجان تحمل رسم الملكة اليزابيث الثانية الى جانب مشاهد من مسرحيات المؤلف .

* صدر فى انجلترا مؤخرا كتاب بعنوان « العبقرية والزواج » بقلم جون ستبدارث كوليز ، تناول بالدراسة فيه حياة الكاتب المسرحي المعروف مستـر ندبـرج ، وتولستوي .

* سيقام فى قلب لنـدن مسجـد على الطـراز المصري التقليدي مشتملا على قبة ومئذنة طولهـا 195 قدما ، وسيتسع صحنه الرئيسي الذي تبلـغ مساحته 5130 قدما مربعة لآلاف من المصلين . وشيد المسجد فى ارض المركز الثقافى الاسلامي من الجهـة المطلة على منتزه رئيسي من منتزهات لندن ، وهـو منتزه ريجنت ، وقد قدمت الحكومة البريطانية الارض سنة 1912 للحكومة المصرية مقابل الارض التي تقوم عليها الكاتدرائية الانجليزية فى القاهـرة ، ثـم تولـت الاشراف على الارض لجنة من الامناء مؤلفة من سفراء الدول الاسلامية فى لندن .

* سيصدر الجنرال كلوب باشا القائد البريطاني السابق بجيش الاردن قصة تاريخية عن العالم الاسلامي وقد أصدر حتى الآن خمسـة مؤلفات عن العالم العربي ظهر آخرها فى الشهر الماضي وهو « الفتوح العربيـة الكبرى فى القرن السابع عشر » .

* انتخب الشاعر الفرنسي سـان جـون بيرس الحاصل على جائزة نوبـل للآداب عضـوا فخريـا فى الاكاديمية الامريكية للفنون .

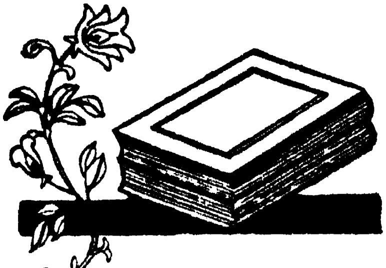
* سيقيم الامريكيون تمثالا لتشرشل فى ميدان ماشا تشوسيتس ، وسيكون حجمه اكبر من الحجـم الطبيعي لتشرشل .

* قرر اتحاد الفنانين الامريكيين الذي يضـم حوالي عشر آلاف من الاعضاء رفض العمل بالمسـارح التي يطبق اصحابها التمييز العنصري . وقد اتخـذ هذا القرار بالاجماع من جانب المندوبين الذين حضروا الاجتمـــاع .

* فنحت جائزة « بولتز » الادبية لسنـة 1963 للكاتب الامريكي وليـام فولكنـر تقديـرا لقصتـه « اللصوص »

ومعروف ان فولكنر الذي توفي فى السنة الماضية كان أحرز على جائزة نوبل سنة 1950 كما احـرز على نفس جائزة « بولتزر » سنة 1954 .

* توفى فى الولايات المتحده الشاعر المهجـري اليناس عقل وقد خلف وراءه مؤلفات عديدة بالعربيـة والانجليزية والبرتغالية .



* اكتشفت بعثة الآثار التابعة لجامعة شيكاغو الامريكية مدينة صغيرة فى جنوب العراق كانت تعرف باسم « كاشن » وتعتبر هذه المدينة بمثابة احدى الحلقات المفقودة فى تاريخ الانسان البدائي الذي عاش فى وادي دجلة والفرات

* سيقدم للطبع الاديب العراقي الدكتور يوسف عز الدين « مخطوطة شعر الاخرس » التي تشتمل على الكثير من شعر الاخرس الذي لم ينشر بعد .

* صدرت عن دار الاصفهان بجدة مجموعة قصص للكاتب السعودي عبد الله خفري تحت عنوان « حياة جائعة » .

* « لمحات عن التطور الفكري » كتاب جديد صدر للاديب السعودي فهد المارك يتحدث عن حياة شعب شبه الجزيرة العربية .

* صدر فى السعودية للشاعر سعد البدراوي ديوان يتضمن قصائد فى الحب والسياسة والفلسفة .

* « رأس الطريف » هو اسم الكتاب الذي صدر حديثا للاستاذ عبد الكريم الجهيمان .

* صدر فى هذا الاسبوع القسم الاول من كتاب « تاريخ جدة » لعبد القدوس الانصاري رئيس تحرير مجلة « المنهل » السعودية .

* سيؤسس فى المملكة السعودية المجلس الاعلى لرعاية العلوم والفنون والاداب ، وسيرأس المجلس وزير المعارف السعودية .

* نعت القدس العلامة اللغوي الاب اغسطين مرمرجي الدومينكي عضو المجامع اللغوية وصاحب المؤلفات العديدة فى اللغة العربية .

* عقد فى منتصف الشهر المنصرم فى امستردام مؤتمر دولي للموسيقى .

* سيعقد فى جنيف مؤتمر التعليم السادس والعشرون للتعليم .

* انعقد مؤخرا بموسكو مؤتمر الكتاب الشبان تحت اشراف منظمة الشباب الشيوعية المعروفة ب « الكمسمول » حضره مائة وسبعون كاتبا شابا جاءوا من مختلف جمهوريات الاتحاد السوفياتي .

* سينعقد فى هانوفور بالمانيا فى الفترة بين 14 غشت و 21 منه مؤتمر للطب يحضره 4000 طبيب من خمسين دولة من دول العالم .

* ينعقد فى روما ما بين 21 غشت و 5 شتنبر القادم أول مؤتمر دولي للسياحة تحت اشراف هيأة الامم المتحدة يشارك فيه حوالي 500 مندوب عن دول العالم .

* ستجري بباريس فى هذه السنة الاحتفال بمرور ثمانية قرون على تأسيس « نوتردام دوباري ». وقد نشرت اللجنة المكلفة بتنظيم الاحتفال برنامج الحفلات الفنية والثقافية التي ستقام الى جانب الاحتفالات الدينية .

* اعلن المكتب الفرنسي للمفردات اللغوية أسماء الفائزين « بكؤوس اميل دوجيراردان » عن عام 1962 وتمنح هذه الجوائز كل عام للصحف التي امتازت خلال « يوم بدون حادث مفردات لغوية » وهو أول يوم في أبريل .

* دشن مؤخرا فى متحف اللوفر معرض عن دولاكروا بمناسبة الذكرى المئوية لوفاته .

* اقيم فى مدينة رين المؤتمر التاسع لمعاهد الحقوق والعلوم الاقتصادية . وكان مخصصا لدرس القضايا الاقتصادية والقضائية الناتجة عن نمو المدن .

* اقيم فى منتصف يونيو الماضي مؤتمر علمي فى اللوفر ، عالج كثيرا من المواضيع المتعلقة بالتاريخ والآثار والفن والحقوق .

* صدر الفهرس الخاص بهيئة اليونيسكو مشتملا على احصاء عن الكتب التي ترجمت خلال عام 1961 :

ترجم الانجيل الى 246 لغة وترجمت مؤلفات لينين الى 148 لغة ، ومؤلفات طاغور الى 241 لغة ، وشكسبير الى 98 لغة ، وبلزاك الى 61 لغة ، وارسطو الى 23 لغة ، وترجمت اعمال سارتر الى 19 لغة .

* منحت اكاديمية الآداب بباريس جائزة كليرمون تخافو الى السيد شارل فيرولبود الذي اكتشف منطقة سامرا عام 1928 .

* لاول مرة يعقد فى فرنسا مؤتمر عمداء جامعات فرنسا وبريطانيا .

* صدر لونستون تشرشل كتاب اسمه « حبيبتي كليمنتين » سجل فيه مذكراته مع زوجته التي شاطرته الحياة .

فهرس العدد العاشر - السنة السادسة